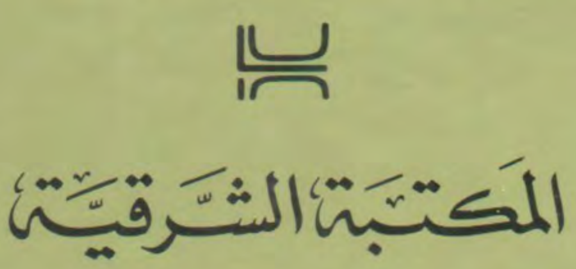
أطلس dtv

عِلْمُ النَّفْس





المكتبة الشرقية

لم النفس هو علم معاناة الإنسان وتصرفه. وهو يتحرى، في شروط محددة، إدراكه وتفكيره وشعوره
تذكره. وبالرغم من أن المفروض هو بحث «اليومي المعتاد»، فإن تشعب علم النفس إلى عدة فروع
مدارس يوحي بما فيه من مصاعب.
يعرض «أطلس علم النفس dtv» نظرة إجمالية منظمة عن تنوع مظاهر هذا العلم وعن طرق بحثه. وقد
ظهرت تجربة «الأطلس»، من خلال الوحدات المكونة من صفحات نصوص مفصّلة، إلى جانب جداول ولوحات
لونة تابعة لها، أظهرت مدى ملاءمتها كوسيلة مساعدة في علم النفس أيضًا ومن أجل تصوير أنواع التصرف
لبشري.
كان «الأطلس» في أصل وضعه يتألف من جزأين منفصلين، وقد آثرنا، لتخفيف حمله على القارئ
ولتسهيل تصفّحه عليه، أن نضم الجزأين في مجلد واحد يشتمل عليهما جميعًا.
يحتوي الكتاب، إلى جانب التمهيد والفهرس والمقدمة العامة، على اثنين وعشرين فصلًا؛ يتضمن الفصل
لأول ثبتًا بمصطلحات علم النفس، ثم يلي ذلك فصول نظرية في تاريخ النظريات ومنهجية البحث والإدراك
الذّاكرة والتعلّم والحفز والمعرفة والاتصال والانفعال، ثم فصول تطبيقية في علم نفس الشخصية وعلم
فس التطور وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس الجماهيري وعلم نفس البيئة وعلم نفس الحيوان
التشخيص النفسي وعلم النفس العيادي وعلم النفس التطبيقي وعلم نفس الثقافة؛ وينتهي بملحق يتوسع
في شرح بعض المفردات الواردة في متن الكتاب. بالإضافة إلى قائمة بالمفردات مرتبة أبجديًا وفهرس بأسماء
علم وكشف بالمراجع.

لمؤلفان هما:
البروفسور هلموت بينيش Prof. Dr. Hellmuth Benesch، المولود ١٩٢٤، هو أستاذ علم النفس العيادي
في جامعة ماينتس. ميادين اختصاصه: علم نفس الأعصاب وأبحاث المعالجة النفسية. تأسيس السيبرناتية
النفسية (١٩٥٧). له كتب متعددة، منها: علم معالجة البشر (١٩٥٨)؛ علم نفس الاقتصاد (١٩٦٢)؛ مصدر
الروح (١٩٨٠)، بين الجسد والنفس، أسس السيبرناتية النفسية (١٩٨٨). كتاب قراءة علم النفس
(١٩٩٠)؛ لماذا النظرة العالمية؟ (١٩٩٠)؛ فقدان العمق (١٩٩١)؛ ألعاب الآليين (١٩٩٢)؛ وضمن إصدارات
دار كريش وكروتشفيلد: أُسُس علم النفس (١٩٩٢)؛ المعجم الموسوعي لعلم النفس العيادي والعلاج
النفسي (١٩٩٥).
البروفسور هرمن بارون زالفيلد Prof. Hermann Frhr. v. Saalfeld، المولود ١٩٢٨، هو أستاذ الرسم
في دائرة اختصاص الفن التشكيلي في جامعة ماينتس. مجالات اختصاصه: تزيين الكتب بالرسوم والصور
المتحركة وأفلام الخدع الرسومية. أنهت ابنته كاتارينا فون زالفيلد (Katharina v. saalfeld) دراسة التربية
الفنية وهي تعمل مستقلة كرسّامة جدرانيات وتصاوير.

صدر من هذه السلسلة بالألمانية

Akupunktur, 3232
Anatomie, 3 Bände, 3017, 3018, 3019
Astronomie, 3006
Atomphysik, 3009
Baukunst, 2 Bände, 3020, 3021
Biologie, 3 Bände, 3221, 3222, 3223
Chemie, 2 Bände, 3217, 3218
Deutsche Literatur, 3219
Deutsche Sprache, 3025
Informatik, 3230
Mathematik, 2 Bände, 3007, 3008
Musik, 2 Bände, 3022, 3023
Ökologie, 3228
Philosophie, 3229
Physik, 2 Bände, 3226, 3227
Physiologie, 3182
Psychologie, 2 Bände, 3224, 3225
Stadt, 3231
Weltgeschichte, 2 Bände, 3001, 3002

ثمة أجزاء أخرى قيد التحضير

هلموت بينيش

أطلس dtv- عِلْم النَّفْس

مع ٢٠٨ لوحات بيانيّة ملوّنة

ئەتلەسی dtv- دەروونزانی لەگەڵ ٢٠٨ تابلۆی
ڕەوانبیانی ڕەنگین

اللوحات الملونة من إعداد

هِرْمَن وكاتارينا فون زالفيلد

ترجمة

أنطوان إ. الهاشم

© **المكتبة الشرقية ش.م.ل.**
الجسر الواطي – سنّ الفيل
ص.ب. ٥٥٢٠٦ – بيروت، لبنان
تلفون: ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
E-mail: libor@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠٣
ISBN: 9953-17-006-1

صدر هذا الكتاب بالألمانية تحت عنوان:
dtv-Atlas Psychologie

الطبعة الأولى: شباط ١٩٨٧
الطبعة السادسة: تشرين الثاني ١٩٩٧

الترجمات

الفرنسية: Le Livre de Poche/Librairie Générale Française, Paris
الإيطالية: Sperling & Kupfer, Mailand
الهولندية: Sesam/Uitgeverij Anthos, Amsterdam
الهنغارية: Springer Hungarica, Budapest
العربية: المكتبة الشرقية، بيروت

This edition has been published
with funding by INTER NATIONES

تمهيد

أصدر البروفسور في علم النفس، دايڤيد كيتس، من جامعة ستوكهولم، «أطلس علم النفس – أوربيس پيكتوس بسيكولوجيكس»، في سويسرا، لأول مرة، سنة ١٩٤٥. لا يمكن للمرء أن يمهد، للأطلس الحاضر، بشكل أفضل من إيراد بعض الجمل من ذاك الكتاب:

«تنتمي الأطالس المزودة بمادّة مصوّرة ومرتبة منهجيًّا، منذ مدة طويلة، إلى المواد التربوية التي يعتبرها المرء، في مجالات كثيرة، من العلم الذي لا يمكن الاستغناء عنه. يصعب، في الواقع، على المرء، أن يتصور كيف يمكنه أن يقوم بتدريس موادّ مثل الجغرافيا وعلمي النبات والحيوان وعلم التشريح وتاريخ الفن بنجاح، دون وسائل إيضاحية. وحين تتم، هنا، لأول مرة، المحاولة بإضافة رسوم خاصة بعلم النفس على صورة أطالس، فهذا أمر مبرّر موضوعيًّا بأن علمًا، في تصرفه مادة إيضاحية غنية، يأبى البقاء متخلّفًا لدى بناء مادته التربوية المساعدة... لا يخدم هذا الكتاب رغبة علمية قصوى في التفوق، فحين أتمنى أن يحفز هنا وهناك، على البحث، فالدوافع التربوية تحدوني، في المقام الأول، إلى نشره. لقد كنت دائمًا حريصًا على أن أرفق الحصص الدراسية والمحاضرات بالوسائل الإيضاحية كلما سمح المحتوى بذلك. وهكذا جمعت، خلال مر العقود، كمية لا يستهان بها من الرسوم التي قدمت لي خدمة جلّى حتى توجب عليّ تقديم محاضرات بلغات أجنبية. كانت وسائلي الإيضاحية مفهومة عالميًّا إذ جعلت الاتصال بالمستمعين أسهل. أضع الآن المادة الرسمية في خلاصة أمام جمهور أوسع. يمكن للأطلس أن يناسب جميع المدارس حيث يُعطى علم النفس كمادة اختصاص، ولكنه يتوجه، أيضًا، إلى جميع الذين يهتمون بعلم النفس وبمجالات حدوده وتطبيقه. إن الإهتمام بعلم النفس عظيم يبعث على الارتياح، حتى ولو لم يكن دائمًا معمّقًا. لا يمكن للمرء أن يتبيّن، عادة، النطاق الكامل الذي يمتلكه علم النفس الحديث مع مختلف فروعه وميادين تطبيقه. يسعى الأطلس إلى تقديم شهادة بارزة على هذا المجال».

هذا ما خطّط له دايڤيد كيتس الذي يدين له مؤلفو هذا الأطلس بكثير من الاقتراحات. لا يمكن إضافة سوى القليل إلى كلماته. وكان، في تصرفنا، على عكس كيتس، أمثال أطالس دي تي فاو المشهود لها؛ وقد ساعدتنا هيئة تحريرها (ڤنغريد غروت وكريستا شتوتسيك وغبريليه ڤورم) بالمشورة والعمل.

لقد اختبر كلا المؤلفين، كاتب النص والرسام، شكل العرض الأمثل في سلسلة حصص دراسية مشتركة لكل مجالات الاختصاص في جامعة ماينتس تحت عنوان «علم النفس في عَرْض مرئي». وهو يتكون من خليط من طراز رسم جدولي وحلقي – عيني وتجريدي، موصول، بتوازن دقيق، بنص مضغوط. ويجب، كما في سائر أطالس دي تي فاو، تخفيف عبء عمل الذاكرة هنا، أيضًا، وعدم القضاء على متعة التعلّم.

في الختام، كلمة أخرى الى القارئ: إن أساس هذا العمل هو «المعالجة المتساوية» لجميع أقسام علم النفس. كان بالتأكيد خطأً كبيرًا التركيز على موضوعات فرعية فقط ثمّ بالأخص على تلك القابلة للرسم بشكل جيّد. يظهر التخصص الضروري، على أية حال، في علم النفس، حتى لدى الطلاب، محقًّا، فقط، لدى

معرفة عامة متزامنة أو سابقة. لقد كان الهدف تقديم مدخل شامل ودقيق إلى المجال العام المسمى علم النفس. ولكن لا يدّعي أي موضوع، في هذا الأطلس، ولا أية صفحة مزدوجة، الكمال بالنسبة إلى الاختصاصيين، بل بالعكس، بالإمكان تحرير كتاب كامل، لا بل أكثر، في موضوع كل صفحة، يستطيع القارئ إذا شاء، متابعة أعمق للموضوع الذي يثير اهتمامه، عبر لائحة مراجع خاصة بكل فصل.

ماينتس، صيف ١٩٨٦

يتيح التناوب الدوري للطبعات الجديدة – كهذه الطبعة – تطويرًا موسَّعًا متواصلًا وإتمامًا للنصوص.

ماينتس، خريف ١٩٩٧.

هلموت بينيش وهرمن زالفليد

الفهرس

مقدّمة عامّة

تبدأ أول دراسة في علم النفس، كتبها أرسطو، بهذه الكلمات: «كل معرفة هي، في نظرنا، شيء جميل ومدهش؛ ومع ذلك فإننا نفضل معرفة على أخرى، إمّا بسبب صحتها وإمّا لأنها تعالج موضوعات ذات قيمة أسمى وأجدر بالإعجاب؛ وإنه لمن المعقول، لهذين السببين، أن توضع دراسة النفس في المرتبة الأولى. ويبدو أن معرفة النفس تسهم إسهاماً واسعًا في دراسة الحقيقة كاملةً وخاصة في دراسة الطبيعة، لأن النفس هي مبدأ كل حياة» (أرسطو، في النفس).

وفي أيامنا هذه، يواجه استاذ في علم النفس، ذائع الصيت، هذه الضرورات الملحة حيال علم النفس بقوله: «تؤكد الألسنة السيئة أن علم النفس هو علم يجيب عن أسئلة لم يطرحها أحد وذلك إما لأن الأجوبة معروفة منذ زمن بعيد وإما لأن السؤال لا يعني أحدًا (د. دورنر، ١٩٨٣).

وعلى علم النفس أن يبحث عن مكانته بين هذين القطبين. وليس من النادر أنه انحاز نحو نشاط عارٍ من أي معنى يمتدح التكرار المنهجي بدلًا من الرغبة في المعرفة. ولكن ما لا شك فيه هو أن تنامي المعارف، في القرن العشرين، لم يجد مثيلًا له إلا في قليل من الفروع العلمية.

ولكن ماذا عن انتشار المعارف في علم النفس بين الجمهور؟ فماذا يقول أرسطو لو وجد، في المناهج المدرسية، علم الأحياء والرياضيات والموسيقى ولكن قلما يجد شيئًا من علم النفس؟ وبالرغم من أن هذا العلم قد انتشر انتشارًا واسعًا إلا أنه يظل نوعًا من العلوم السحرية. ولكن في الواقع، إن كل واحد منا هو، إلى حد ما، عالم نفساني لأنه يهتم، بالضرورة، بمسائل نفسية في علاقاته بنفسه وبالآخرين. ويجب أن تظل هذه التجارب متوازنة مع معارف علمية لكي تصبح مكتسبات حقيقية. ولن يبقى هذا العلم، في عصر تنتشر فيه الأمراض النفسية أكثر من الأمراض الجسدية، سحريًا خفيًا...

يقتضي هذا الإستنتاج متطلبات يجبُرها لعلم النفس المعاصر. يجب، في الدرجة الأولى، جمع شمل فروع علم النفس الكثيرة التشتت؛ وإنه لمن الصعوبة بمكان، اليوم، الإلمام بجميعها إلمامًا كافيًا. غير أن هذا لا يشكل عذرًا للإهمال الظاهر الذي يبديه المتخصِّص تجاه مضامين الفروع القريبة من تخصصه. إن تجزئة التنشئة لا تسهّل مهمة الطالب الذي عليه أن يعلم أن علم النفس هو علم موحَّد حقًّا.

ماذا يريد علم النفس وماذا عليه أن يفعلَ اليوم؟

ثلاثة أهداف تبرز في الواجهة:

١) إن علم النفس هو وسيبقى أحدَ الفروع المركزيّة في مجموعة «علوم الإنسان» وفي أحوالها الوجودية. ولكن بما أنه يمكن مراقبة الإنسان من أوجه مختلفة، فإن الخصائص الموازية، مثل العمر والمهنة أو الجماعات يجب أن تؤدي إلى نماذج نفسانية مختلفة دون التغاضي عن وحدة أساسها.

٢) إن علم النفس هو شكل من أشكال المساعدة الإنسانية الشاملة. فالعلاقات مع الذات والآخرين والتعايش في سياقات إنسانية متزايدة النمو تنمّي، ليس فقط، الأمل بل الطاقة التدميرية عند الإنسان. فليس من علم يستطيع، سوى علم النفس، أن يتصدى بقوة لهذه النزعة الأخيرة.

٣) لقد حاول الإنسان دائمًا، ليس فقط أن يعيش حياته، ولكن أيضًا أن يتوصل إلى رؤية للكون أكثر حدة ونفاذًا، إلى تأويل للإنسانية أكثر إرضاءً وإلى تكييف حياته بإغنائها نفسيًّا. إن علم النفس لم يستنزف بعدُ قواه في هذا المضمار.

وهنا تبرز الميزة المؤقتّة لمعارفنا الحالية بروزًا واضحًا.

وليس من السهولة بمكان التقدم في جميع هذه الميادين: إن ما أوجزه أرسطو في دراسته المذكورة أعلاه لا يزال يحتفظ بصحته في أيامنا هذه:

«إنه لمن رابع المستحيلات الحصولُ على معرفة أكيدة في موضوع النفس».

يشتمل **علم النفس** على فروع عديدة، مجالاتها الأساسية (إستنادًا إلى كريتش وكروتشفيلد، ١٩٨٥) هي التالية:

- العلوم التمهيدية (من بينها: علم الإحصاء، علم الطرائق، مبحث العلوم).
- علم النفس العام (علم النفس العصبي، علم نفس الإدراك والتعلّم والإنفعال والمعرفة...)
- علم النفس التفاضلي (علم نفس الشخصية، علم نفس التطور، علم النفس التشخيصي وعلم النفس الإجتماعي...)
- علم النفس التطبيقي (علم النفس العيادي، علم نفس الفعل، علم نفس المؤسسة، علم نفس التنظيمات، علم النفس الإقتصادي...)

وسنعالج في الفصول التالية هذه الفروع في حلقات مصوّرة.

مصطلحات في علم النفس

تُطَوِّرُ العلومُ، بالضرورة، مصطلحاتٍ خاصة تُستخدم لتسريع الاتصال وتدقيقه. ويكمن الخطرُ في إقصاء الذين لا يُجيدون التحكُّم بهذه المصطلحات. وفيما يلي إشارات موجزة تشرح المفردات الخاصة التي تُتيح التوجّه بسهولة ويسر في نصوص علم النفس.

لم نشرْ إلى المفردات الخاصة الواضحة المعاني. أما المفردات التي أشيرَ إليها بنجمة* فتعالَجُ بطريقة مستفيضة في ثبْتِ المفاهيم.

إبداعية: إمكانية حل مسائل بطريقة غير عادية

أبوليا، العجز الإرادي: العجز عن اتخاذ قرار

إبيستيمولوجيا: مبحث العلوم: مبحث نقدي في مبادئ العلوم وفي أصولها المنطقية

اتزان حيوي: توازن الاندفاق في الأجهزة

***اتصال:** لفظة نوعية تحدد نماذج مختلفة من التبادل الاجتماعي

إثارة، إنذار: تجميع المثيرات تحت عتبية حتى إطلاق العملية العصبية

إثارة: تحريض بواسطة مثير

أثر الأرضية: تأثير ضعيف في المنطقة الدنيا من الرائز

أثر الأغلبية (في الإختيار): تأثير الأكثرية على الناس في الاختيار/أثر الاقتفائية

أثر بارنوم: تعيّن ذاتي تسهِّله أحاديث غامضة

أثر بومرينغ: تأثيرات عكسية مرتدة إلى صاحبها

أثر التقابل، التباين: أثر ناشئ عن التفاعل بين أشياء محسوسة

أثر الخاسر: إظهار الفرح لدى أبسط نجاح

أثر الرأفة: حكم رحوم على أشخاص معروفين

أثر روزنتال: إنجاز يتطابق مع توقعات الآخر

أثر زايغرنيك: حفظ المهمات المتقطعة أفضل من المهمات المنجزة

أثر السحب: حركة سحب ظاهرة

أثر السقف: تأثير ضعيف في المنطقة العليا من الرائز

أثر العنف: خطأ الحكم بسبب تصنيف يجرى على مستوى منخفض جدًّا

أثر كاربنتر: حركة لاواعية تشير إلى الانضمام إلى فكرة

الأثر اللاحق: آثار ملاحظة بعد انقطاع الإثارة

أثر لي: العجز عن الكلام في حال الجواب المؤجل المنقول بواسطة جهاز

أثر مطبوع: التركيز على خصائص المحيط بعد الولادة رأسًا

أثر منحرف: انحراف تحقيق بسبب تأثير يمارسه المراقب

أثر الهالة أو خطأ الهالة: تقرير صفة شخص تأثرًا بصفة أخرى

أثر هوثرن: زيادة المردود بواسطة وعي الإنتماء إلى جماعة

أثر الوضعين البدائي والنهائي: تفضيل معطى لبداية أو لنهاية سلسلة من التمثلات

اثنينية: ثنائية المشاعر، تناوب مشاعر الكراهية والحب نحو إنسان أو شيء ما

اجترار: مضغ ممتع عند الرضع

إجرائي: يمكن تطبيقه في عمليات الدرس

***إجهاد عضلي:** توتر عضلي ونفسي طويل الأمد

إحباط: عائق دون تحقيق رغبة

احتمال: رد محتمل على عمل، تواتر اتصال

احتمال: مستوى التوقع الذاتي، تواتر ظهور موضوعي للأحداث

احتمالية: نظرية الاحتمال، تقول بإمكان التنبؤ على أساس معطيات العقل والتجربة

***إحصاء:** نظرية التكميم

إحيائية، روحية: نسبة روح إلى جميع الأشياء، مذهب مادّي

***اختبار اللدائن:** تقنية إسقاطية تستخدم عند الأطفال

اخفاق في التعويض المادي: ضعف القدرة على المقاومة

اخلاقية: سلوك أخلاقي في الحياة، تماثل مع الأخلاق المتعارف عليها

أداء: حصيلة مَهَمَّة (عمل)

***إدراك:** تسجيل وتأويل مجموعة من الاحاسيس والمثيرات الحسية

إدراك اجتماعي: فهم العمليات في مجموعة من الأحاسيس والميزات الحسية

إدراك، تحت عتبي: ما لا يتجاوز عتبة الشعور

إدراك سمعي مضلل: إشكال السمع

إدراك واعٍ: تفهم العلاقات بين الموضوع والمعارف لدى المرء

ادمان: هوس في تعاطي المخدرات

إذعان: خضوع طوعي

إرادة عاجزة، قاصرة: قصور الطاقة

ارتباط الطبقات: ارتباطات مبنية على معطيات تراتبية

الارتباط كحاصل ضرب الأعزام: تغاير دون ثابتة محدد بين متغيرين كميّين

ارتباط: تبعية إحصائية متبادلة بين عدة متغيرات

ارتداد إحيائي: عملية ارتجاعية لمعلومة

ارتكاس فطري: حركة بدائية موجهة (علم الحيوان)

ازاحة: فصل، نقل الطاقة الاندفاعية من تمثل لاواع إلى آخر

أزمة متوسط العمر: اضطرابات نفسية تعتري الإنسان في منتصف عمره

استبصار، نفاذ البصيرة: إدراك مباشر لمعنى الشيء

استبطان: ملاحظة المرء نفسه، فحص داخلي

استحواذ، وسواس: فكرة تتسلط على الشخص المريض وتقلق شعوره، هجاس

استدخال: اختيار المرء دوافع المجتمع ومعاييره واعتبارها له

استدماج، اجتياف: استدماج الفرد في ذاته شخصا أو موضوعًا

استدماج، استبدان (بالابتلاع): دمج الشيء بابتلاعه أو جعله جزءًا من الذات

استرجالية: تغير في بعض النساء واكتساب خصائص الذكور

استرخاء: حالة متحررة من التوتر والانفعال وهو وسيلة علاجية

استشفاف (مكتسب): حاسة خفية أو حاسة سادسة

استعداد مهني: أهلية مهنية

استغراق وجداني للمعالج مع المريض: تعاون المعالج مع مريضه

استقبال ذاتي: الإحساس بموضع الجسم وحركته وموضع الأطراف وحركاتها

استقراء: برهنة منطقية تعطي أحداثًا فردية شرعية شاملة. تفاعل نفساني لوحدات الإثارة

استقلال شخصي: الإبتعاد عن الدوافع البدائية

استكمال: توسيع العملية النظرية إلى ما وراء مجموعة القيم الحاصلة

استلاب: اغتراب، خلل عقلي، اغتراب عن النفس أو الذات الحقيقية

استمارة: طرق بحث تعبئ عدة نماذج أجوبة، جواب حر، جواب بلا ونعم، جواب ذو خَيارات متعددة

استمارة: أسئلة حول المعيش على أنه تبعة، تكليف

استمرارية: أثر الصلة الاجتماعية

استمناء: جلد عميرة، العادة السريّة

استنباط: خلاصة منطقية تنطلق من العام إلى الخاص (استنتاج)

استنتاج: استدلال إحصائي

إسقاط: توجيه نفسي لعناصر العالم الداخلي نحو الخارج

أسلوب معرفي: أسلوب فردي للتفكير

أسلوب الوصية: خصوصية شخصية لممارسة الوصية

إسناد: تعيين سبب مفترض بوعيٍ أو بلا وعي

إشباع استبدالي: اشباع بواسطة مادة بديلة

***اشتراط:** تعلّم بالارتكاسات المشروطة

اشتراط مضاد: تطور ردات الفعل المتنافرة

***اضطراب سببه العلاج**

اضطراب النطق: صعوبة التلفظ

اضطراب نفسي حدِّي: وسط بين العصاب والذهان

إطار المرجعية: سياق، لاواعٍ غالبًا، لانطباعات من النوع الزماني المكاني والوظيفي

إعادة البناء: تصور جديد في تطور الفكر

إعتام نفسي: تعمية، إبعاد جزء من الواقع

إعتماد: اعتماد الفرد على الفرد أو على المجتمع (تبعية)

أعسر معاكس: أيمن مزيف

إغماء: فقدان مؤقت للشعور

إغناء العمل (الوظيفة): إغناء مواصفات العمل بالمسؤوليات التي تقترن به

إفراط في التثمين: أفكار مهيمنة بطريقة لا عقلانية

اقتصاد رمزي: اقتصاد البدائل، تنشيط بتأثير الإثابة

اقتناع الرقابة: نسبة العِلِّية إلى مصدر داخلي أو خارجي

إقليمية، أرضية: تكوين مساحة جسمية، شخصية

***اكتئابية:** استعداد لأنواع عدة من الاكتئاب

إلتزام: احترام الواجبات الاجتماعية

إلتزام مزدوج: وضع الطفل من قبل أمه أمام خيار أمرين متناقضين

إلتفاف: طريقة عمل لا يؤدي مباشرة إلى الهدف

التِماس: طلب ملحّ

الألفة، (التبعية): العلاقة الحميمة بين المنوَّم والمنوِّم في حال التنويم

إمارة، نذير: العرض الأول من أعراض المرض

إمتثالية (امتثال): تقبل العرف الاجتماعي والانسجام مع الجماعة

الانا: مركز الوعي وقسم منه لاواعٍ

الانا الأعلى: جزء من الأنا الذي تنمو فيه الملاحظة الذاتية والنقد الذاتي

الانبساط: التوجه نحو الخارج

***انتباه موزع:** مقسم على عدة موضوعات، ضدّ مركّز

انتساب، انتماء: حاجة إلى إقامة علاقات طيِّبة بالآخرين

انتقائية: مزيج من أفكار مختارة

انحراف: سلوك يشذ عن القوانين الاجتماعية المتعارف عليها

انحراف جنسي: ممارسة الجنس بين أفراد الجنس الواحد

انحياز، انحراف: نتيجة خاطئة ناتجة عن خطأ في تصميم الاختبار

اندماج الأنا: إلزام الذات، تورّط

إنذار: تجميع المتغيرات تحت عتبية حتى اطلاق العملية العصبية

انطفاء: زوال رد فعل مشروط

انطواء: نفور مريض من المجتمع

انطواء: نزعة نفسانية للاتجاه نحو الداخل

انطواء اجتماعي: لا مبالاة تجاه الواجبات الاجتماعية، بسبب السن

انعصاب، إجهاد: عبء نفسي ناتج عن عوامل ضغط خارجية

انعكاس مورو: حركة طفلية لتشنج دفاعي في حال الخوف، انعكاس طبيعي يحدث ما بين الشهر الثالث والشهر السادس

انفجار داخلي: خوف من الدمار الذي يلحقه الواقع بالفرد

***انفعال:** وجدان حالة استثارة لذيذة أو مضنية

انفعالي: محرك الإنفعال، الرغبة

انقباض نفسي: يحدث في النوبة الهستيرية وترافقه سرعة دقات القلب وفقدان مؤقت للبصر

انقياد: مراعاة القوانين الاجتماعية

انكماش: تقليص المعطيات

أنوية: التركيز حول الذات

أنيما: أنثوية الرجل

أنيموس: ذكورة المرأة

***إيحاء:** نفوذ قسري يمارس باتجاه واحد. قدرة التأثير في الآخرين

إيحائية، استهوائية: استعداد لتقبل الإيحاء والتأثيرات والإقناع

إيعاز متناقض: وصف التناذر، تقنية مدرسة آلتو

إيماء: تعبير بالاشارات

إيمائية: أشكال تمويهية

پارابسيكولوجيا: علم نفس الظواهر الخارقة للطبيعة

پارانويا: ذهان يتميز خاصة بأفكار هذيانية (بارانويا: هذيان)

بت: وحدة إعلام يحددها تواتر نعم - لا (أوكتيت: وحدة قياس إعلامية ٨ بت)

البحث الإجرائي: نمط من البحث النفساني يُعنى باتخاذ القرار وخاصة في المؤسسات الخاصة

البحث عن قاعدة: البحث عن سياقات نموذجية

بداهة: مسلَّمة تفرض نفسها، حَدْس مباشر

بدين وقوي مع ميل إلى الذهان الاهتياجي الخَوَري: أحد الأمزجة الأربعة

پراغماتية: علاقة علامية بين الإشارة ومستخدم الإشارة

برودة: ضعف جنسي لدى المرأة

بروز، انبثاق: ارتفاع نحو صفة سامية

بطارية إختبارات: سلسلة من الاختبارات المتواصلة

بقايا النهار: محتوى حلم ناشئ عن أحداث اليقظة

بَكَمَ: فقدان النطق

بلادة: عدم استجابة مؤقتة للمؤثرات ذات القوة العادية

بلاهة: إعاقة عقلية متوسطة (معدل الذكاء بين ٢٥-٥٠)

بلغمي: أحد الأمزجة الأربعة القديمة

بنية: تركيب، تمفصل داخلي

البوّاب: من يختار المعلومات، في علم نفس الجماهير، قبل إذاعتها

بيان عمودي لتوزيع العلامات: مدرّج تكراري

بيولوجيا اجتماعية: نظرية سلوكية تعتمد على أسس وراثية

***تأثير ضد ايحائي:** تأثير مضاد للتأثير الإيحائي

التاريخ المرضي للحالة: منذ بدء المرض حتى الدخول إلى المستشفى

تاريخ المريض: سوابقه

تأمّل: استبطان ذو سمة حلمية

تأنسن: تطور نحو النوع الإنساني الحالي

تأهيل: إعادة شخص غير سوي إلى وضع طبيعي

تأهيل اجتماعي: إدماج تدريجي في جماعة

تأويل البقع: عملية تسبق رائز رورشاخ

تاي شي شوان: فن ملاكمة صيني وصُوَري

تبادل الأوضاع: عدد من الترتيبات الممكنة بين أعضاء مجموعة

تباين: مربع المحيد المعياري

تباين شبكي: انحراف عرضاني لمحوري العينين بالنسبة إلى نقطة واحدة

تبديد الطاقة: تحويل الطاقة، إشعاعًا، قصورًا حراريًا

تبديل: عملية إحلال شيء محل آخر

تبظير: لعق البظر (العضو الانثوي)

***تبعية:** تبعية اجتماعية

تبئير: تحديد البؤرة

تثاقف: انخراط في ثقافة معينة، تأقلم مع ثقافة أجنبية

تثبيت: تركيز على انطباعات الطفولة الأولى

تثليث: علاقة ثلاثية بين الأشخاص

التجربة والخطأ: مبدأ تعلم يقوم على القضاء على الفشل وترسيخ النجاح

تجريد: تعميم

تجمع صدفوي: تجمع غير مقصود وغير منظم

التجميع: درجات الاختبارات المختلفة واعتبار النتيجة متغيرًا واحدًا (زمرة)

تحسيس: زيادة قابلية الانفعال

تحصين، تمنيع: تقوية المقاومة ضد التأثيرات

***التحفيز السلبي:** رد فعل على كبح حرية العمل

تحقق: تأكيد فرضية بالاختبار

تحليل الأنا: علاج يمارس في علم نفس الأعماق يتركز حول التجربة الذاتية المعيشة

تحليل التبعية: نموذج إحصائي للعلاقات بين المتغيرات

تحليل تعاملي، إتفاقي: طريقة علاج

لتعديل اتخاذ القرارات

تحليل تعليمي تربوي: تنشئة عملية للمحللين النفسانيين

تحليل التغاير المتلازم: طريقة إحصائيّة لتأكيد الفرضيات حول القيم الوسطى

تحليل التغاير: طريقة إحصائيّة للتأكد من فرضيات الفوارق المهمّة في مجموعة المتوسطات

***تحليل عاملي:** طريقة هدفها تحويل المعطيات إلى متغيرات أساسيّة (عوامل)

تحليل العمل: تقييم معطيات العمل

تحليل الفرق بين القيم: تحليل العوامل المميزة

تحليل فوزييه: وصف رياضي لسياق الحركات النوّاسية

تحليل قانوني: طريقة في التحليل العاملي أو التحليل المتعدِّد المتغيِّرات

تحليل القيمة: قياس المواقف الاجتماعية

تحليل اللغة المنطوقة: طريقة تتيح استخراج خلاصات انطلاقًا من نمط حديث ما

تحليل المحتوى: إحصاء منهجي لبعض خصائص المحتوى

تحليل المسلك: طريقة ترابط تبعًا لفرضيات سببيّة

تحليل معلوماتي: طريقة إحصائية في تحليل الجداول

التحليل النفسي: المعالجة النفسية الأولى الناشئة عن علم نفس الأعماق غايتها إزالة الكبت اللاواعي

تحليل ارتدادي: قياس سقوط المتغيرات المستقلة على متغيرات تابعة

تحليل وجودي: علاج مبني على وجود المريض وحياته

تحمية، تسخين: تمارين تدريبية قبل بدء العمل

تحويل Z: تعديل المتغيرات وتحويلها إلى مقياس واحد يقال له Z

تحويل: تكييف القيم بحسب القواعد

تخريف: تزييف أفكار وذكريات

تخزين: إيداع معلومات في الذاكرة

تخشب: توقف الحركة

التخطيط الكهربائي للدماغ: تسجيل موجات الدماغ

تخيل، خيال: ملكة تشكيل صور، أخيلة

تخيّلية: تمثل صور وهمية شديدة الكثافة

تداعي، ترابط: علاقة أو رابطة بين ظاهرتين نفسيتين

تدريب الحساسية: طريقة تستخدم دينامية الجماعة لتنمية الشخصية

تدريب ذاتي: طريقة استرخاء بواسطة الإيحاء

التدريب في الصناعة: التنشئة على وظائف الإدارة

تذكر: استعادة المعلومات المختزنة

تذكر: عودة ذكرى

تذكر خاطئ: تعرّف خاطئ

ترابط متبادل: ارتباط أو تعلق متبادَل

تربيع: قسمة إلى أربعة أقسام

ترسيمة الجسم (مخطط جسماني): تمثيل الجسم الخاص

ترسيمة الطفل: الطفل كنموذج إثارة تطلق شعور حماية

ترقب: توقع بواسطة تمثلات مستقبلية (استباق)

ترقب المستقبل: توقع أحداث مستقبلية بالاستعانة بالذكريات والخبرات الماضية

تركيبية، بنيوية: نظرية مفصلة لعناصر النفسية

ترميز، تشفير: تدوين الرموز والمعلومات

ترميز: نقل الظواهر المجردة إلى صور حسية مُدركة

تزامن: حدوث أشياء في زمن واحد

تزاوج: ترابط، تزامل

تزييف: برهنة بحجج خاطئة

التساعي المعياري: مقياس من تسع درجات

تسام، إعلاء: تحول الطاقة الجنسية إلى إنجازات ثقافية

تسامحي: ردة فعل تجاه الذات والآخرين

تسهيل (انفعال عصبي): أثر متروك في الجهاز العصبي المركزي بواسطة التعليم

تسوية: إيجاد مستوى واحد للرموز في الذاكرة على صعيد الجمهور

تسوية الأمور: سلوك لتحاشي الخصام

تشاكل: تماثل بنائي بين مناطق المخ النشيطة في محتوى الشّعوري. فرضية التطابق التام بين المعطيات النفسية والفيزيولوجية

تشتت: انحراف إحصائي

تشخيص بالحاسوب (مُمَعلم): تقييم أو تفسير يُعدّ بوسائل إلكترونية

***التشخيص النفسي:** تحليل الملامح والأعراض النفسية

تشكيل، تصميم: وضع مخطط مشروع

تشكيل: تكييف تدريجي للسلوك

تشنج الانعكاس: شعور الاجترار العبثي

تشوُّه مهني: تحول الشخصية بسبب المهنة

تشويش: ضجيج (في نقل المعلومات)

التشيُّخ: بلوغ الشّيخوخة

تصميم ارتجاعي: تنظيم انطلاقًا من الهدف المنوي بلوغه

تصميم التجربة: وصف تنظيم وسياق تجربة

تصميم ترادفي: تقوية لا تتدخل إلا بعد الاشتراط الثاني الإيجابي

تصنيف جديد عالمي للاضطرابات العقلية: (DSMIII)

تصنيف عالمي للأمراض العقلية: (CIM)

***تصور العالم:** إيديولوجية، مجمل القناعات

تصور عقلي: تكوين مفاهيم

تضاد: خصام، تعارض

تضاؤل: فقدان الرتبة أو الصفة

تضمّن (تضمين): (إذا... إذن)، تورّط

تطرف (الجناح المتطرف): تعصّب

***تطور النوع:** ارتقاؤه، نشوؤه

تظاهر: ادعاء عوارض غير حقيقية

التظليل: طريقة تستخدم المحاكاة

تعابير الجسم: لغة الجسم

تعادل، تكافؤ: قيمة متساوية

تعاطي المواد السامة: إدمان المخدرات

تعاون: تعاضد للقيام بعمل ما

تعاون طوعي: اذعان اجتماعي

***تعبير (جسدي، انفعالي):** تعديل السلوك أو الوضعية أو الإيمائية القابلة للتفسير

تعدد الخيارات: طريقة رائز يجري الخيار فيها بين عدة أجوبة

تعدية: صلاحية ثابتة في سلسلة من العلاقات بالانتقال مثل: $A=B; A=C \rightarrow B = C$

تعزيز، تقوية: مبدأ تعلم يقوم على توطيد الجواب الشرطيّ بتمثيل متقطع للحافز اللاشرطيّ على أثر حافز شرطي

تعقب: تتبع خط توجيهي في سلسلة من النشاطات

تعليمات: توجيهات قيادية

تعميم: امتداد معطيات المثير إلى مواقف أخرى

تعوّد: تكوين عادة

تعويض: توازن قيمة مختصرة بالنسبة إلى أخرى

تعويض زائد: تفاعل استعاضي مجمّد في حال الشعور بالدونية

تعيير رائز: بناء مقياس قيم ذي طاقة عامة متميزة لرائز ما

تعيين، توضيح: قياس علاجي موصى باستعماله

تفاعل مركّز على موضوع: تقنية جماعية منشأها علم نفس الأعماق مع نقاش حول موضوع

***تفاعل:** تأثير متبادل

تفاعلية: نظرية العلاقة المتبادلة بين الأوضاع وبين الأشخاص

تفردية: ظهور فروق تميّز شخصية من سواها

تفرع ثنائي: انقسام إلى نصفين

تفريش: مداعبة الأعضاء الجنسية بالفم أو عضو الذكورة دون إيلاج

تفريغ، تنفيس، تصريف: انفجار عاطفي

تفسير: تأكيد براهين واضحة

***تفعيل:** الانتقال إلى الفعل، إلى الواقع (ترهين)

تفكر: تكوين الأفكار

تفوق: نجاح خارق

تقارب الرؤوس: للتقبيل من أجل الإثارة الجنسية

تقسيم مئوي: قياس إحصائي قديم

تقنية التصميم الشبكي: تصميم مشروع استنادًا إلى المراحل والتسلسل التاريخي للعمل

تقنية دلفي: تقييم بواسطة فريق من الخبراء
تقنية ك: تحليل عاملي طولاني مع عدة قياسات متتابعة في اختبار على شخص واحد
تقنية الكرسي الكهربائي: عملية إيحائية تمارس في جماعة
تقنين: وضع جداول أقيسة بالاستعانة بعينات تمثيلية
تقويم النطق: معالجة عاهات النطق
تقييم المسافات: تأكيد الدقة في تقييم نُقَطي
تكافل في الحياة: تبعية متبادلة بين الكائنات الحيّة
تكافؤ: قيمة إيجابية أو سلبية، قوة جذب أو دفع تمارسها الأشياء
تكثيف: دمج الأفكار لتكوين صور مركبة
تكون إرتكاسي: محاولة إلغاء بردّ فعل معاكس (مثل حياء بدلًا من التعري)
تكوين تسوية: نتيجة كبت لاواعٍ على شكل محتوى
تكيف: تعديل السلوك، تلاؤم مع البيئة
تلاؤم: قابلية التبادل، استعداد نفسي للتحمل
تلصلص: استراق النظر إلى مناظر خلاعية جنسية
تلقين: تذكير سير الدرس
تلمس: انطباعات تسبق التذكر
تماسك، تلاحم: علاقة تعاون في جماعة
تماسك: توازن اجتماعي
تماه، تقمص وجداني: دمج شيء ما في الذات
تمايز، تفاضل: نظرية جشطلتية تُعنى بتطور الإدراك
تمثل، استيعاب: تمثل الغذاء وامتصاصه في الدم
تمثيلية: مطابقة العينة على طبائع الجمهور
تمدية: اعتبار الأشياء المجردة كما لو كانت أشياء ماديّة
تموج: تقلب دوري للانتباه
تمويه: إخفاء السلوك
تميمة، فتيشة: حِرْز، كتابة سحرية
تناذر: تزامن الأعراض
تنافر معرفي: نظرية حول الجهل أو رفض المعلومة التي لا تنطبق مع الرأي الخاص

*** تنشئة إجتماعية**
تنضيد: مراكمة طبقات
*** تنظيم**
تنفيس: تفريغ الانفعال
***تنويم مغنطيسي (إيحائي):** حالة شبيهة بالنوم تتم بالقابلية الشديدة للإيحاء
تهيّج: حالة من الإثارة المفرطة
توازن: موازنة معرفية للخصائص المتناقضة
***تواضع**
تواطؤ، تآمر: اتفاق سرّي
توافقي: مجموع احتمالات لتنظيم عدد من العناصر
توجيه، إرشاد: مساعدة تُقدَّم للأولاد الذين يعانون مشاكل مختلفة
توزيع: مخطط يظهر تواتر القيم المختلفة لمتغير
توزيع اختباري (عيِّني): توزيع بشكل مروحة
توزيع بشكل T: توزيع طبيعي مع منحنى مسطَح
توزيع پواسون: توزيع صدفوي لا متناسق
توزيع تكافئي تساهمي: توزيع المهمات على الشعب
توزيع طبيعي: توزيع الطباع استنادًا إلى جرس غوس
توزيع F: توزيع نتائج متغير
تيار الوعي: تدفق مستمر لمحتويات الوعي
تيسير (تسهيل اجتماعي): ازدياد الانجازات بسبب حضور المشاهدين
تيلي: أصغر وحدة مرجعية للقياس الاجتماعي
ثابتة: كمية معيارية تمثل الخصائص الأساسية لمجموعة إحصائية
ثأر: العين بالعين والسن بالسن
ثبات الإدراك: ثبات بالرغم من تغير المثيرات
ثغرة: فجوة دماغية
***ثقافة**
ثقة فطرية: طمأنينة طفلية
جاذبية جنسية: حث، إثارة
جانبية: تفضيل استعمال إحدى اليدين
جانبية سيكولوجية: دليل موزع بين الأفراد في بطارية أسئلة

جِبلّة، تكوين: مجموع العوامل الوراثية والمكتسبة التي تحدد الحالة الجسدية

جداء سُلَّمي: نتيجة ضرب عوامل في فضاء مُتجَهي متعدد الأبعاد

***جشطلت:** شكل أو نموذج أو بناء متكامل وليس مجرد مجموع الوحدات أو الأجزاء

جَلْدُ عُمَيْرة: العادة السرّية

جلسة معزِّزة: تقييم نهائي لعلاج سلوكي

جُماع مقاطِع: انسحاب الذكر قبل القذف

جماعة: مجموعة من الأفراد لهم بعض الخصائص النفسية الاجتماعية

جماعة انتساب، مرجعية: جماعة ينتمي إليها الفرد

جماعة أولية: أفرادها على اتصال مباشر

جماعة بالِنْتْ: فريق عمل المعالجين

جماعة تقديرية، لاشكلية: وحدة غير رسمية في مؤسسات العمل

جماعة ضابطة: جماعة بحث غير خاضعة لأثر المتغير المستقل

جماعة مرجعية: تؤخذ منها العينة، الشعب

جماعة وجهٍ لوجه: أعضاؤها متواجهون مباشرة

جمعنة (تأهيل): إدماج تدريجي في جماعة

جمهور حاضر: جمهور شاهد في مكان الحدث

جمهور وسيط: جمهور تفصله عن الحدث وسائل الاتصال

جنسية: مجمل التصرفات الناشئة عن الليبيدو (الطاقة الجنسية)

جنوح: ارتكاب مخالفات بسيطة (جنح)، سلوك معادي للمجتمع

جهاز تحليل الحركة: ستروبوسكوب

***حاجة:** إتجاه السلوك نحو هدف ما

حاصل الذكاء: قياس استعداد الفعالية العقلية (IQ.)

حافز: مجموع الدوافع التي تحث على العمل

حافز داخلي: ميل قوي لأداء عمل ما/وحدة إثارة

الحالة البدائية للمعيش النفسي: الأصل الجيني للعضو

الحالة العقلية لجماعة ما: طريقة تفكيرها

حالة التشبع (في التحليل العاملي): الترابط بين الرائد والعامل

حب الاستعراض: غريزة التعري، هتاك

حبسة: إحتباس الكلام، العجز عن الكلام

حدس: إدراك أو حكم مباشر

حدود الثقة: سقف الثقة

حركة سريعة للعينين أثناء النوم: (REM)

حركة ظاهرية: حركة وهمية لشيء ثابت

حركة فسيفسائية: حركة غير مكتملة

حركة مِكْرَوِيّة: حركة لا تكاد تدرك

حركة ملحقة: تكاد لا تظهر

***حرمان من العلاقات الاجتماعية**

حس متزامن: تداعٍ تلقائي بين إحساسات مختلفة

حسي: نسبة إلى الحواس

حسي، حسّاس: من يشعر بأنه مضطهد، هذيان حِسِّي

حَصَر: خوف دون مبرر، شعور ضاغظ

حصر لَيلي: يكثر لدى الأطفال الصغار ليلا

الحضانة: فترة جمود في التفكير قد يحدث خلالها حل المشكلة

***حفزْ:** إثارة

حكم مسبق: حكم جاهز لا أساس له في الواقع

***حلم:** نشاط ذهني يطرأ ليلًا

حماسة: اندفاع

حماقة: غباء صدفوي، عارض

حماية أمومية مفرطة: مبالغة في اهتمام الأم بأبنائها

***حمل**

***حياة جنسية**

خداع التعرف الإدراكي: كما في النوم، مثلًا

خداع هرينغ: خداع الخطوط المتوازية التي تبدو ملتوية إلى الخارج أو إلى الداخل

خدر، ذهول: فقدان الحس

خدر، نعاس: اضطراب الوعي، المرحلة الأولى من التنويم المغنطيسي

خضوع لسلطة: طاعة وتبعية لمصدر نفوذ

خطوط الرؤية: خطوط أساسية تحدد حقل توجه الإدراك
خلفة: فقدان الشهية للطعام
خَلْفية: أصل
خُنثى: شخص له صفات الجنسين، الذكر والانثى
خُواف، رهاب: الحالة القصوى من الخوف
دالتونية: عمى الألوان وخاصة الأحمر والأخضر
دراسة حالة: دراسة كاملة لشخص من الأشخاص
دراما نفسية: معالجة تطلب من المريض أن يمثل دورًا خاصاً
درجة الحرية: العدد الأعلى للعناصر المستقلة لتحديد حالة عامة، أو نظام
دِسِّيبل: وحدة القياس الصوتي
دفء العش: جو عائلي أو جماعي إيجابي
دفاع: آلية نفسانية لإزالة الحصر، سلوك يحمي الأنا من الذنب والقلق
دفاع إدراكي: فقدان الحس الإدراكي تجاه المثيرات المزعجة
دقة: عتبة إحصائية
***دلالة**
دليل ب: قياس صعوبة حل مسألة تنفيذ مهمّة
دليل مصطلحات علم النفس الاساسية: (PASAR)
دموي: ذو مزاج منفتح مَرِح
دواء وهمي بديل، غير فعال (Placebo)
دوار: شعور بعدم التوازن منشأه الأذن الوسطى (الدهليز)
دوران: تطبيق تحليلي أو بياني لمصفوفة عاملية؛ تبديل الدور
دون عتبة الإدراك: قوة دون العتبة الدنيا للإدراك
***دينامية الجماعة:** أعمال مشتركة تقوم بها جماعة بمختلف هيئاتها
دينامية الجماهير: حركة شعبية ضخمة
***ذات**
ذاتي الإسناد: من يعتمد على نفسه، من يرجع إلى نفسه
***ذاكرة**
ذاكرة أيقونة: احتباس حسي قصير المدى
ذبول، تلاشٍ: موقف يميل إلى طلب المساعدة (علاج سلوكي)
***ذكاء:** مجموع المواهب العقلية الكامنة
ذِكرى حاجبة: تراكم التمثيلات الإيجابية على الذكريات المزعجة
ذكرى سرية (خفية): محتوى الذكريات الهاربة
ذهول، شرود فكر: فقدان الوعي لمدى محدود
رأرأة: اختلاج غير منظور في العينين
رائز الأهلية (الكفاءة): رائز لقياس المستوى النوعي لمردود ما
رائز الثقوب: عملية تقوم على إيجاد الكلمات الناقصة في جملة
رائز الفعالية: رائز المردود الكمّي
رائز كاي المربع: رائز المقارنة بين النسبة المتوقعة والنسبة الحاصلة
رائز(ت) ستودنت: مقارنة بين متوسطَي توزيعين
الرَّجْعي: معاودة ظهور صفة كانت قد اندثرت وتوارت في عدد من الأجيال
رجعي: له أثر ارتجاعي (ذاكرة)
***رد فعل توجيهي:** سلوك فطري لنموذج «ما ذا يجري؟»
رسالة: مضمون اتصال
رسم بياني اجتماعي: تمثيل بياني لخصائص مجموعة
رسم دعائي: لإثارة الانتباه والتشويق (ملصق)
رسوخ البنية، أو قانون الشكل التام: الطريقة التي يفرض بها الشكل نفسه وخاصة الطريقة الإدراكية
رغبة في الانسجام مع الجماعة: اتجاه إلى الانتماء
***الرغبة في التعبير:** توقع تبريرات الوجود
رفاهية: وضع مريح جسديًا وروحيًا
رفض: كبت الذات أو الآخر
رقابة: مراقبة نفسية تمارس على الذات أو تمارس من قبل الآخرين
رمز الواقع الاجتماعي: خصائص تحدِّد الانتماء إلى طبقة اجتماعية

رهاب: أقصى درجات الخوف

رهاب الإحتجاز: خوف المريض من أن يحتجز في مكان مقفل

رهاب الخلاء: الخوف المرضي من الأماكن المفتوحة، كالصحارى

رهافة الإدراك: حدة الإدراك

روبصة، سرنمة: سلوك آلي مكيف أثناء النوم، المرحلة الثالثة من التنويم المغنطيسي

زحمة: شعور بالانزعاج وميل إلى الهرب من الناس

الزنا بالمحرمات (غشيان المحارم): قيام علاقات جنسية مع الأهل

زناد: مثير يطلق سلوكًا فطريًا أو مبكّرًا

سبات، خدر: لامبالاة بالكلام

سببية، عليّة: تعليل الأحداث بأحداث أخرى

ستروبوسكوب: جهاز تحليل الحركة

سحاق: حب الأنثى للأنثى

سر: اتصال خفي

السرنديبية: موهبة اكتشاف أشياء جديدة مصادفةً

سفسطة: قياس، استدلال خاطئ

سَقوبة: شيطانة تجامع الرجال وهم نيام

سلب منهجي للحساسية: علاج سلوكي لتخفيف الاكتئاب مرحليًا

سلس البول: عدم التحكم به

سلطوية: علاقة تسلسلية جائرة

سلم ترتيبي: تنظيم بسيط استنادًا إلى المراتب

سلم القياس: مجموعة قيم المتغير

سلوك الإبعاد: سلوك يميل إلى خلق مسافة

سلوك اجتماعي إيجابي، تدخّل المشاهد

سلوك الإذعان: عدم رد التعدي

***سلوك الألم:** أشكال من ردات الفعل على أوضاع سلبية

سلوك انسحابي: سلوك متقطع متحاشي الصراع

***سلوك حيواني:** تفاعل الحيوانات (وصف ومقارنة بين الأنواع)

سلوك شاذ: اضطراب نفسي

سلوك المترفة: اهتمام براحة الجسد

سلوك والدي: الدفاع عن السلالة

***سلوكية:** مبدأ يدرس الاستجابات الواقعية، التي يمكن ملاحظتها وتجربتها

سمة (خاصية): ميزة ثابتة في الشخصية

سيطرة سياسية: تأثير يمارس بالقوة

السيغماتية: علاقة نظرية بين الدلالات وموضوعاتها

السيكوباتية: الاعتلال النفسي

سيكولوجية الأعصاب: نظرية تقيم علاقة بين العمليات العصبية والبنى النفسية

سيولة: سرعة الفكر الخلاق

شاذ التكوين: نمط طبيعي يشذ عن النماذج الأساسية

شجرة التقرير: مخطط بياني على شكل شجرة يشير إلى عملية اتخاذ القرار

شحنة انفعالية مضادة: جواب دفاعي ضد الإشارات الشخصية

شحنة انفعالية: في الكلمات أو الأشخاص أو الموضوعات

شحنة نفسية: تراكم الطاقة النفسية على فكرة معينة

***شخصية:** مجموعة الخصائص الفردية

شرود: هروب مفاجئ في حالة من الوعي الشفقي

شرود ذهن: تشتت فكر

شعور بالتفوق: تقييم ذاتي مبالغ فيه

الشعور بالمقدس: الميل إلى الإيمان بالعجائب

***شغالة:** قانون العمل

شكل أساسي: تنظيم وظيفي للإدراك

شماتة: فرح بمصائب الآخرين

شنكايشتسو: أقصى حدود الجبن (كلمة يابانية)

صبيانية: تصرف الأطفال

الصحة النفسية: معالجة وقائية للحياة النفسية

صحوة، انتعاش: سيطرة شعور إيجابي

صدمة: سبب اضطراب نفسي

صدمة كهربائية: فقدان الوعي بتأثير تيار كهربائي مصطنع

***صراع:** تعبير عن تناقضات

صراع: وقوع حافزين متضادين معًا

صراع طقوسي: مواقف لعبية بين شركاء
صفات الروائز: الموضوعية، التجانس الأمانة، الحساسية، الصلاحية
صفة أساسية للشخصية: بشاشة، دعابة
صفة البيئة: ميزة دائمة للبيئة
صفة مؤقتة أو زائلة: بعد زمني لبعض الخصائص النفسية
صلابة، ثبات: تركيز مستمر
صلابة، جمود: موقف جامد جسميًا أو ذهنيًا
الصندوق الأسود: رمز العلاقة المجهولة في الحياة النفسية بين السبب والنتيجة
صندوق سكينر: قفص اختباري لتكييف الحيوانات
صور متتالية: بعد إثارة ضوئية، تظهر صور عديدة في تتابع محدد من الأشكال
صورة: إعادة تمثيل شيء
صورة (رمز) الفكرة: صورة تمثيل الفكرة
صورة الذات: تصور الذات، مجموع الافتراضات الخاصة بالذات
صورة لغزية: صورة نحاول أن نجد فيها أشكالًا خفية
ضارب: مكثِّر
ضبط: مراقبة، رقابة
الضمير: الوعي
ضيق، عجز مكتسب: نموذج رد فعل سلبي على أثر اختبار حول عدم جدوى الانفعالات
طاقة القناة: كمية قصوى للمعلومات بواسطة المجال الحسي
طريقة الأمكنة: طريقة تدريب الذاكرة
طريقة التعادل: طريقة تهدف إلى موازنة التعبير في الجماعة
طريقة التعارف: تعرّف إلى أشخاص سبقت معرفتهم ومحادثتهم
طريقة سردية: طريقة تهدف إلى وصف مضموني
طريقة غير ثابتية: طريقة إحصائية تستعمل في غياب التوزيع العادي (عينة صغيرة)
طريقة المربع الأصغر: طريقة تكييف المنحنيات
طريقة مركزية: طريقة استخراج العوامل في التحليل العاملي
طفالة (طفولية): تصرف طفلي
طقوس: أعراف خاضعة للقواعد
طقوسي: سلوك مقولب لدى الحيوان أو الطفل، مرضي أحيانًا
طلب ذاتي: ما يحتمه الإنسان على نفسه
طوبولوجيا: نظرية مكانية للنفس
***ظاهرة:** واقعة أو تجربة يمكن إدراكها بالحواس
ظاهرة پانوم: وهم بصري ناشئ عن بعض آثار يتم الحصول عليها بواسطة منظار مجسم (ستيريوسكوب)
ظاهرة بوركنغ: ظاهرة تغيّر اللون بتغير حدة الضوء
ظاهرة تبدُّل الهدف: ظاهرة ازدياد الحاجة بالاقتراب من الهدف
ظاهرة رانشبورغ: أثر مبطِّئ لسرعة الإدراك بسبب التشابه بين المثيرات
ظاهرة ڤي: ظاهرة إدراكية
ظواهر متغايرة: وهم حركة في الفضاء ناتجة عن حركة موازية
عادة: سلوك رائج، عادات سلوكية
عاصفة مخّية: تدريب على الإبداع الجماعي
العاطفية: النزعة إلى التأثر بالعاطفة دون العقل
عامل: مبدأ فعّال، يقوم بعمل ما
عامل الذكاء: مظهر خاص للفعالية الذهنية
عتبة (أو مستوى) الدلالة: درجة الاحتمال الإحصائي تحددها عتبة الخطأ ألفا: ٥٪ أو ١٪
عتبة الإدراك الحسي: القيمة الدنيا للاثارة انطلاقًا منها يظهر الإحساس، يتبدل أو يزول
عتبة التفاعل: عتبة إدراك متغيرة تبعًا للتوقعات
العتبة الفارقة: زيادة أو نقصان طفيف للمثير
عتبة مطلقة: قيمة حدِّية دنيا للإدراك
عته، خبل: انحلال القوى الفكرية والمجالات الانفعالية والسلوك
عدم التجاوب/المشاركة: عدم تقبل العلاج
***عدوان:** سلوك عدائي
عزل (فصل): عزل الشكل عن الخلفية، إبعاد

عسر القراءة: عجز بسبب عاهة

عشاوة: عمى ليلي

***عصاب:** اضطراب نفساني خطير

عصاب راهن: عصاب مرتبط بأسباب راهنة

عصاب وجودي: اضطراب نفساني ناشئ عن خلل في الدلالات المعيشة

عصاب وسواسي (استحواذي): اضطراب نفساني يتميز بطابع إكراهي للفكرة وللسلوك

عصف دماغي: تدريب على الإبداع الجماعي

عطالة (خمول): مناعة ضد الآراء المخالفة، كسل الرأي

عفوية: موقف مباشر طبيعي دون سبب خارجي

عقبول: أثر باق من الاضطرابات النفسية

عقدة أوديب: تعلق الصبي بأمه في المرحلة القضيبية ومناقشته لأبيه

عقدة جوكاست: حب مفرط من الأم لابنها

عقدة إِلِكْتْرا: علاقة حميمة بين البنت وأبيها

عقدة نفسية: فكرة أو مجموعة من الأفكار مكبوتة كليًا أو جزئيًّا

عقلنة: تبرير العمل بأسباب معقولة

عقلية: حالة ذهنية، طريقة تفكير

العلاج الاحيائي الطاقي، علاج حيوي فعال: علاج جسدي لتنشيط وسائل الطاقة الحيوية

علاج بدائي: طريقة علاجية تستخدم «الصرخة الأولى» المعبّرة

علاج بؤري: علاج قصير المدى يمارَس في علم نفس الأعماق

علاج جشطلتي: طريقة أنَسَية لتقوية الوعي

علاج جماعي: علاج نفسي يعتمد على آثار الارتجاع في وسط الجماعة

***علاج سلوكي:** علاج نفسي انطلق من نظريات الإشتراط

علاج عائلي: علاج هدفه تحسين العلاقات بين أفراد الأسرة

علاج عقلاني انفعالي: علاج سلوكي يعتمد على طرق معرفية

***علاج نفساني:** علاج الاضطرابات النفسية

***علاج نفساني غير توجيهي**

علاج هواة: علاج يقوم به أشخاص غير مجازين

علامة: اتحاد الدال والمدلول

علم الاجتماع البيولوجي: نظرية سلوكية تعتمد على أسس وراثية

علم الإحصاء: نظرية التكميم

علم الجوائح: علم يهتم بدراسة انتشار الأمراض الجسمية والعقلية

علم الخطوط: تأويل الكتابة الخطية

علم الدلالة اللفظية: نظرية عامة للرموز اللفظية وتركيبها ومعناها

علم الشيخوخة: يدرس العمليات المؤدية إلى الشيخوخة

علم الضبط (السيبرناتية): نظرية رياضية حول ضبط/ توجيه الأنظمة

علم الضحايا: دراسة ضحايا الأعمال الإجرامية

علم الطبيعة النفسية: نظرية العلاقات بين المثير والإدراك ورد الفعل

علم الظاهرات (الظواهر): نظرية تعتمد على التجربة المعيشة

علم فراسة الوجه: تحديد سمات الفرد وقدراته من قراءة ملامح وجهه

علم المعاني: علم الدلالات

علم مناهج البحث: دراسة مناهج البحث العلمي

علم النحو: دراسة قواعد تركيب الوحدات الدلالية في الجملة

علم النفس العصبي: نظرية تنظم العلاقات بين العمليات العصبية والبنى النفسية

***علم نفس الأعماق:** نظرية العمليات اللاواعية

***علم نفس البيئة:** علم يهتم بالبيئة

***علم النفس الرياضي:** معالجة تجريدية وصورية مطبقة على المشاكل النفسية

علم نفس الضبط (السيبرناتية): نظرية أصول وأوامر الحياة النفسية

علم نفس الفعل: نظرية السلوك الهادف

***علم النفس الفردي:** مقاربة علاجية متفرعة من علم نفس الأعماق

***علم النفس المعقد:** مدرسة علم نفس الأعماق

***علم النماذج**

عمل مشترك: عمل تقوم به جماعات إنسانية

العمل مع الحالة: درس حالة المريض لمعالجته

عملية إرصان: إعداد تدريجي لإزالة المقاومة تدريجًا خلال معالجة نفسية

عمى نهاري: القدرة على الرؤية في الظلمة

عُنَّة: عجز جنسي عند الرجل

عوامل بيئية: تكوين فئات متجانسة

عينة: مجموعة قليلة منتقاة من مجموعة كبيرة أساسية تمثل مختلف عناصرها

غريزة: دافع حيواني، محرك فطري بيولوجي داخلي

الغريزة الاجتماعية: غريزة العيش معًا لدى بعض المخلوقات

غسل الدماغ: عملية إيحائيّة إكراهية

غضبي: أحد الأمزجة الأربعة

غموض، لبس: عدم وضوح المعنى

غيرية: إيثار الآخر على النفس

فارق الهدف: الفرق بين مستوى الطموح وما تحقق منه

فتور الشعور أو نقص العاطفة: العجز عن إظهار المشاعر

فرادة: صفة خاصة

فرضية: محاولة تفسير

فرضية باطلة: فرضية انعدام الفرق الدلالي بين توزيعين للمتغيرات

فرضية تبادلية: فرضية تقابل الفرضية الباطلة

فرط الانفعالية: فرط الهياج العاطفي

فِرَق طبية: فِرَق معالجة لتطوير الإدراك بالعلاقات الاجتماعية

فريق التدريب، فريق أساسي، فريق تشكيل، تشخيص: فريق نقاش معد للوعي الشخصي

فصال (داء المستشفيات): اضطراب بسبب العزلة في أحد المصحات أو المستشفيات

الفطرة السليمة: مجمل الآراء العامة غير الخاضعة للتأكيد العلمي

فطرية، فطرانية: نظرية جِبِلِيَّة، الخصائص النفسية

***فعل**

فقدان الشخصية: حالة عقلية تتم بفقدان الشعور بالشخصية وبالواقع

فقدان العلاقة بين مزاج المرء والتعبير عنه: كالبكاء في موقف فَرِح

فك النزعات: فك اندماج غريزتي الحب والبغض، الحياة والموت

فكر متباعد: يمتاز بالخيال، بالإبداع، بالطاقة العقلية على التغيير، بالاستقلالية في حل المسائل

فكر متقارب، جامع: يتميز بالتحليل المنطقي للتجربة

قابلية الانجراح: هشاشة الأنظمة الدفاعية

قاعدة: مبدأ موجِّه (معرفة)

قاعدة الإمتناع: رفض المحلل أن يلبي رغبات المريض الجنسية أو العدوانية

قاعدة جاكسون: ضعف ارتدادي للذاكرة في تتبعها لتسلسل الأحداث

قانون الأثر: تقوية الارتباط بالأثر الذي يؤدي إلى الترضية (التعويض)

قانون ثقافي: سلوك جماعي يتغير تبعًا للمناطق الثقافية

قبول: موافقة، ارتضاء

قدرة: أهلية، إمكانية

قدرة الذاكرة: طاقتها على الاستيعاب

***قرار**

قرف: اشمئزاز، تخمة، غثيان

قساوة، حنان: إحدى المتعارضات المحددة في التحليل العاملي

قصد، نية: توجه من الداخل

قصدية: غرضية

قصور عقلي: إعاقة عقلية، نقص في القوى العقلية

قفزة نوعية: انقطاع في عملية النمو

قلب، عكس: قلب الصورة

***قلق**

قهر: عمل يتم مصحوبًا بشعور الإكراه

قهر التكرار: نزعة عصابية لتكرار مواقف مزعجة

قوة الأنا: مفهوم تحليل نفسي لوعي الأنا
قوة حيوية: مستوى الأداء المَرِن
قوة العادات: تعزيزها بواسطة ردود الفعل المتكررة
قياس اجتماعي: وصف كمي للجماعات
قياس منطقي: شكل من التفكير المنطقي
قيمة هدف: هدف نشاط قصدي
قيمة وسطى: مجموع حسابي مقسوم على عدد الحالات
كآبة كامنة: نزوع كامن إلى الخور، إلى الكآبة
كبت: آلية دفاع أساسية في جدول الأعصبة
كبش المحرقة: فرد يُحمّل مسؤولية خطإ في جماعة
كشف الاشارة: تحديد الإشارة الحاملة للمعلومة
كفاح، مقاومة: استراتيجية تقوم على مواجهة الصعوبات
كلية، كليانية: تصور الكل قبل الأجزاء
كُليمة: أصغر وحدة لغوية
كمال أول: تحقيق موجه نحو هدف
كمّ: مثّل بكميّات مقيسة
كمون: مدة الإمهال
كمون الفعل: عملية انتشار الإثارة العصبية
كئيب، سوداوي: أحد الأمزجة الأربعة
لا إجتماعي: غير متكيف مع نظم الحياة الاجتماعية
لا تمييزية: عدم تنظيم العمليات النفسية
لا ثابتي: غير مبني على فرضية التوزيع العادي
لا مبالاة: فتور الشعور، بلادة
اللارجوع: استحالة الرجوع إلى نقطة الانطلاق
لاقحة: بُييضة ملقّحة
***اللاوعي:** كل ما لا يمكن تذكره
لاوعي جماعي: لاوعي مشترك مستقل عن الفرد
لحاء الدماغ: قشرة الدماغ
لعب: نشاط عبثي مجاني لا يهدف إلى غاية مفيدة
لعب الأدوار: علاج يلعب فيه المريض دورًا مرتجلاً
لعق البظر: امتصاص العضو الجنسي الأنثوي
***لغة**
لواط: حب الغلمان
لوم الذات: رد فعل توبيخي ذاتي في حال الإحباط

الليبيدو: الطاقة الجنسية، الحيوية
ما وراء المعرفة: معالجة المعارف وتنظيمها
مأزق اجتماعي (إحراج): علاقة بين فئتين متخاصمتين
مازوشية: انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء بما يتلقى من آلام وتعذيب
ماندالا: شكل رمزي
مباينة: مفارقة، عكس مقارنة، تشبيه
مبحث العلوم: علم يدرس الأمراض الجسدية والعقلية
مبحث الموت: دراسة الحقائق العلمية حول الموت
مبدأ بريماك: تقوية تنتجها قوة احتمال حدوث حادث
مبدأ الركيزة – النموذج – الدلالة: المبدأ الأساسي للاستقلال الجزئي للنفس بالنسبة إلى الركيزة الجسدية
مبدأ النرفانا: نزعة إلى إزالة كل توتر
متغاير: كمية متوازية لا تتغير في اتجاه محدد
متغير: كمية يمكن أن تمثل قيمًا مختلفة
متغير تابع: كيفية الفعالية، أثر عامل سببي
متلصص: من يسترق النظر إلى مناظر جنسية خلاعية (نُظار)
متوسط حسابي: معدل متوقع، متغير التوقع
مثير: مطلق إثارة
مجال خاص محمي: وسط حميم
مجال شخصي: مجال قريب له وظيفة حماية
مجاهدة: محاولة جاهدة
مجموعة عوامل: قسم مشترك من العوامل في التحليل العاملي
محاكاة: تقليد السلوك
محبة جنسية: من يحب اشخاصًا من جنسه
مخطاط متعدد: مخطط يسجل معطيات متعددة
مخطط التدفق: تمثيل تخطيطي لمراحل برنامج
مخطط جسماني: مخطط الجسم الخاص
مخطط حياة ساعٍ إلى وظيفة: (C.V.)
مخلفات النهار في الاحلام: حلم ناشئ عن احداث النهار

مداومة: تكرار اضطراري لجواب واحد أوردَ فعل

مذهب الإرادة: مفهوم فلسفي يركز على دور الإرادة في الحياة العاطفية والعقلية والأخلاقية الارادية

***مراقبة**

مرحلة جنسية: المرحلة الأخيرة من النمو الجنسي لدى الولد

مرحلة شرجية: مرحلة نمو طفل مرتكزة على التبرز وهي المرحلة الثانية من النمو

مرحلة فمية: أولى مراحل النمو مركزة على الفم

مرحلي: ما يحدث على مراحل

مركب جامع: صفة مكونة للشكل (جشطلت)

مرونة: استعداد نفسي للتكيف

مريض خارجي: مريض يتردد على المستشفى من خارجها

مزاج: حساسية فردية مفرطة تجاه بعض المثيرات

مُسارّة: طقوس إدخال شخص في جماعة

***مسألة نفس – جسد**

مستقبِل عن بعد: عضو حسي يستقبل من بعيد (الأذن، العين...)

مستوى التكيف: حالة مؤقتة يتخذها الكائن تسهل نوعًا معيَّنًا من النشاط أو الاستجابة

مستوى الطموح: درجة التطلّب (الإلحاح) من الذات

مسكن: مدى حيوي لإقامة الجماعات البشرية

مُسلَّمة أرخميدس: مبدأ يرى أن كل شيء قابل للقياس

مشكلة نفس – جسد: التساؤل حول علاقة الجسد بالعمليات النفسية

***مشورة نفسانية**

مص القضيب: مص العضو الذكري

مصفوفة: تجمع ثُنائي البعد من القيم

مصفوفة عاملية: تركيب ثنائي البعد من عدة عوامل

مظهر خارجي مستقر: مجمل ميول الفرد النفسية

معالجة الانعصاب: طريقة تستخدم التيار الكهربائي لمكافحة الحساسية تجاه الانعصاب

معامل، ضارب: قيمة دليل على كمية متغيرة بالنسبة إلى معطيات أخرى

معامل الترابط: مؤشر إحصائي يقيم ترابطًا بين عدة مجموعات من الصفوف

معامل التلازم: قياس إحصائي يصف متباينة متغيرين

معايرة: عملية تقوم على تحديد وحدة معيارية أو مقياس مرجعي

معايرة نموذجة: توحيد النمط

معدل الارتباط: معدل وسطي لنواتج متغيرين مركَّزين على المتوقعات الرياضية منهما ويستخدم لتحديد معامل الترابط بينهما

معدل التفشّي: معدل الاضطرابات النفسية في جماعة من الناس

***معرفة**

معرفة رمادية: معلومات كامنة، غير كلامية

معطيات (L): أحداث حياة تستخدم في علم نفس الشخصية

معلومات كامنة: معلومات ليست منطوقة

المعنى: محتوى الدلالة

معيار (مثال): عضو في الجماعة يضرب به المثل/ قيمة مرجعية للشعب

مفعول ارتجاعي: تغذية رجعية

مفهوم الذات: تقييم عام للذات

مفهوم الشيء في ذاته: مفهوم دون موضوع

مقارنة زوجًا زوجًا: حكم صادر على مثيرين يمثلان معًا

مقاومة: منع الدخول إلى اللاوعي الخاص

مقاومة التجديد: منع كل تجديد

مقبولية: رضا، موافقة

مقياس تقويم: سلسلة من الأسئلة تهدف إلى قياس الشخصية

مقياس غوتمن: مقياس تجميعي لقياس المواقف

مكافأة تشجيعية: تعطى مكافأة على إنجاز عمل ما

مكانية: دراسة الاستخدام الاجتماعي للمكان

مكسب ثانوي: ما يكتسبه الإنسان من مرضه

مكشاف: وحدة عصبية تتفاعل مع بعض الإثارات

مكيال/ مقياس: وحدة وظيفية للدماغ
ملاحظة: تفحص منهجي
ملازم البيت: داري (بيتوتي)
ملازم لذاته: محمول لا ينفك عن الموضوع
***ممارسة رياضية**
ممال: قياس متدرج للزيادة أو للنقصان
ممال الاقتراب أو الهدف: ازدياد الجذب بمقدار ما يقترب الهدف
مميز دلالي: طريقة تتيح إقامة سلم نوعي/ توصيفي
مناخ اجتماعي: الأوضاع العقلية لجماعة
منبّه: مثير يطلق سلوكًا فطريًا أو مبكّرًا
منحرف، شاذ: من يخالف القواعد والقوانين
منحنى العمل: قياس متغيرات مردود العمل في وقت ما
منحنى بيضوي: منحنى الأعداد، مثل جرس غوس
منصِّف: قاسم مجموعة من القياس إلى نصفين
منطقة حساسة جنسيًا: موضع إثارة جنسية
منطقة ظلية: مجمل الخصائص المكبوتة في الشخصية
***منهج البحث**
منهجية: دراسة الأساليب والطرق في البحث العلمي
مهارة يدوية: خصائص التصرفات التي تتميز بالدقة وبالسرعة
مواقف المستخدمين: مناخ المؤسسة
موريتا: علاج من وحي بوذي لإعادة تفعيل الذات
***موقف عقلي**
مونوتومتر: جهاز مراقبة سير العمل
***موهبة:** نظام جدارات، كفاءات
ميثاق: منظار الأفق
ميزان: توازن في قلب النظم
ميل: نزوع نحو هدف
ناياخان: تأمل في الماضي (لدى البوذيين)
نبذ: نفي من المجتمع
نجاح: بلوغ الهدف
نحيل وطويل مع ميل إلى الانفصام: أحد الأمزجة الأربعة

نرجسية: حب الذات أو المبالغة في حب الذات
نزّاع: متجه بمثيرات دينامية نحو هدف ما
نزو: سلوك الحيوان في مرحلة التزاوج
نزوح، اغتراب: حركة انتقال بين الفئات أو الأمكنة
نسبة التحصيل: حاصل الانجاز أو معدل الانجاز
نسبة الطروء: عدد الاضطرابات النفسية المستجدة التي تحدث في مرحلة معينة
نسيان: فقد تدريجي للذاكرة
النُشوء الصحيح: اتجاه نحو التطور
نصيحة نفسية: حديث هدفه المشورة والتوجيه
نظار بايِس: تقييم الأحداث استنادًا إلى احتمالية أسبابها
النظام الثاني للتأشير: مفهوم نظري للتعلم (باڤلوف) يهتم بنمو النطق
نظام السيطرة: توزيع الأفراد في التسلسل الاجتماعي
نظام فائق الثبات: يتغير رجعيًا تبعًا لحالة الإدخال
نظام المعتقدات: مجمل المعتقدات وعادات التفكير
نظرية الإعلام: تمثيل رياضي لوحدات المعرفة
نظرية الاكتشاف: نظرية الحافز إلى الرغبة في اكتشاف اختبارات جديدة
نظرية الإنصاف: أو التوقعات في إطار العلاقات المتوازنة
نظرية الأنظمة: دراسة تأثيرات شبكية
***نظرية البيئة:** نظرية تُعنى بتأثير البيئة على الجسم
نظرية تأويل الأحلام: علم الاحلام
نظرية التطور: علم أصول الحياة
نظرية التنافر: نظرية تحاشي الأفكار المتناقضة
***نظرية الجماهير:** قوانين تجريبية حول مسلك الجماعات
نظرية جيمس لانج: نظرية المشاعر كظاهرات جزئية متلازمة في عمليات جسمية (أنا حزين لأني أبكي)
***نظرية الدلالة:** نظرية حول الانتقال من الموضوع إلى الدلالة

***نظرية القياس:** نظرية وضع الملاحظات بشكل سلمّ
نظرية المقايضة: العلاقة بين الثمن والفائدة
نظرية الميزان: نظرية توازن العلاقات
***نظرية النُظم**
نعاس: اضطراب الوعي، المرحلة الأولى من التنويم المغنطيسي
نُعاظ: شبق مفرط عند الرجل
النفسي – الجسدي: نظرية التفاعل بين الآلام النفسية والاضطرابات الجسدية
نفور: رفض، كراهية
نقر: رائز السرعة المحركة الذي يقوم على الضرب بالقلم؛ رائز مكعبات كنوكس: وقوامه ضرب مكعبات في ترتيب معين
نقص: قصور، عاهة
نقص في الذاكرة: قصور في تذكر المعلومات
نقطة انطلاق: نقطة البداية
النقطة المتوسطة: عتبة القيمة المتوسطة
نقل عاطفي: نقل طاقة نزوعية من صورة لاواعية إلى أخرى
نقل النموذج: نقل مناهج أو مفاهيم من مجال علمي إلى آخر من أجل استخدام مماثل
نكوص: ارتداد إلى مرحلة الطفولة
نمط أ: شخص مولع بالانجازات وحسّاس تجاه الانعصاب
نمط أولي: نموذج بدائي جماعي
نمط ب: شخص يرفض العمل في المواقف العدائية
نمط دَوْري: شخص منبسط وجدانيًا
نمط ذكري: متطرف (مستبد بالمرأة)
نمط مثالي: يطابق نمطًا نقيًا (ببنيته)
نمط ميال إلى السلوك الإنفصامي: تمثل مسبق لظواهر، لأشخاص
نمو: تطور مع التقدم في السن
نموذج مشبك: تمثيل العلاقات الاجتماعية على مشبك أو رسم بياني للعلاقات المتداخلة بين أعضاء الجماعة
نومِنْ: تمثيل الإله

هامشي: متخلف
هذاء حساس: من يشعر بأنه مضطهد (عُظام)
هذائي: صاحب آراء أو اعتقادات زائفة
هَزّة الجُماع: ذروة اللذة الجنسية
هستيريا: مجموعة من العصابات تتمثل بعوارض جسمية لا تفسير لها بعبارات فيزيولوجية
هلوسة: وهم حِسّي ذو طبيعة مرضية
هلوسة سمعية: سماع أصوات مشوشة، مضطربة
هلوسة ضوئية: وهم ضوئي
همود تلقائي: زوال الاضطراب دون سبب ظاهر
هندسة اجتماعية: انسنة طرق العمل
هو، ذات: نواة الشخص، مبدأ الوحدة والاستمرارية
الهُوَ: أعماق أغوار الشخصية
هوس ادمان الخمر: ميل مرضي إلى تعاطي الخمرة
هوس السرقة: ميل حاد إلى السرقة
***هوية، ذاتية:** كيان متميز مستمر
واع: عوارض، حلم، هفوة
وثوقية، أمانة: دقة أجهزة القياس التكنيكية
وجدان، انفعال: حالة من الإثارة اللذيذة أو المزعجة
وحدة تحفيز: حافز داخلي
وحدة توت (TOTE): نموذج تنشيط ضبطي (سيبرناتي)
وحدة صوتية: أصغر وحدة دلالية
وحدة معلوماتية: تحدد بتناوب نعم – لا
وحي ذاتي: كشف للذات
***وسائل الإعلام**
وسواس (توهم) المرض: اعتقاد راسخ بوجود مرض جسمي رغم انعدام الدليل
وسواس: صراع داخلي
وسيط: متغير متوسط
وصلة عصبية: ارتباط وظيفي بين خليتين عصبيتين
وصم، اتهام: إلصاق صفات سلبية بالآخرين
وضع سُلّم: وضع تصنيف تراتبي
وضع قواعد: إقامة أنظمة في إطار دينامية

الجماعات والحياة الاجتماعية عامّة

وضوح: صفة كل ما يفهم بسرعة

وضوح حسي: وضوح الإحساس

***وعي**

وفرة: دليل إسراف

ولادة ثانية: طريقة كهربائية هدفها التحسين الشخصي

وهل: فقدان الذاكرة

وَهَل أمامي: نسيان المعلومات الجديدة مع تذكر المعلومات القديمة

وهن: إعاقة ذهنية معتدلة

وهن عقلي أو عصبي أو نفسي

آلية انطلاق فطرية: (MID)

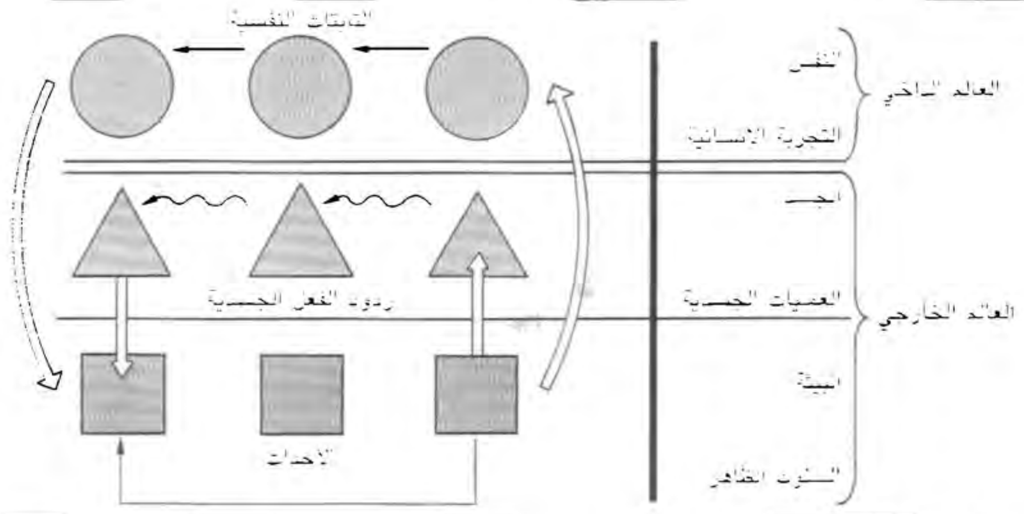
يقظة، حذر: انتباه، استعداد للملاحظة

يقظة: تنشيط دماغي لا نوعي، نشاط الانتباه من النوم، من الغفلة.

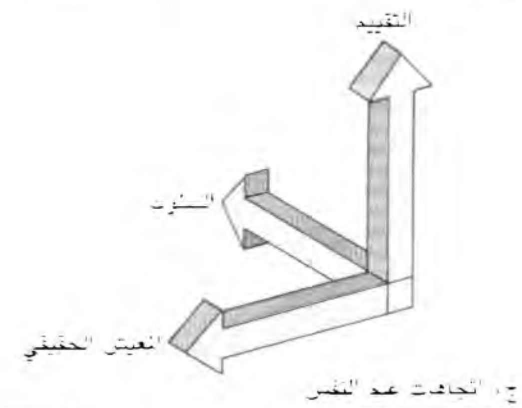


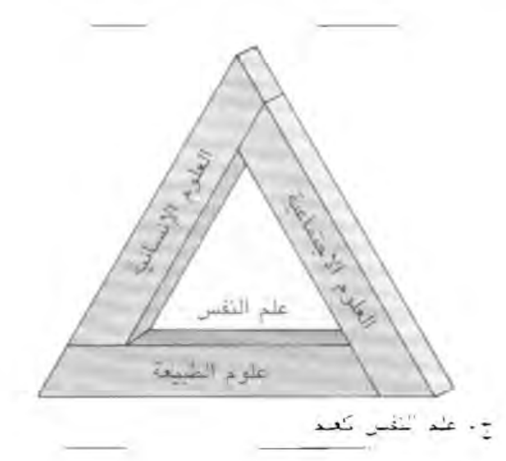


أ. الموضوع والمفهوم



ب. النظرية في علم النفس





ج. اتجاهات علم النفس

ج. علم النفس كعلم

ج. مظاهر علم النفس الثلاثة

أ. الموضوع والمفهوم

إن تمثال «المفكر» (١٨٨٠) **لأوغوست رودان** ولوحة «الصرخة» (١٨٩٣) **لإدفار مونش** هما رمزان لا مثيل لهما لتجربة المعيشة الحقيقية وللسلوك. يملك كل منا تجربته الخاصة عن الحياة النفسانية، ولهذا السبب بالذات يصعب تحديد هذه الكتلة غير الدقيقة.

وقد حدد **أرسطو**، وهو أول من ألف كتابًا في علم النفس، منذ أكثر من ٢٣٥٠ عامًا، النفس بأنها الكمال الأول في جسد كوّنته الطبيعة وزُوِّد بالأعضاء، وعرّف الكمال بأنه إنجاز يصبو إلى هدف. وعلى مدى تاريخ علم النفس، حُدِّد موضوعُ هذا العلم بطرق مختلفة. نحن نشعر غالبًا بأن مفرداتٍ مثل «النفس والعقل» هي مفاهيم تحمل معاني ما ورائية ولهذا نتحاشاها، ونتكلم، عوضًا عنها وبطريقة أكثر حيادًا، عن الجهاز النفسي. وتعني هذه الفكرة باليونانية القديمة «النفَس» أو «التنفّس»، وفي الميثولوجيا مُثِّلت النفس على أنها حبيبة إروس (الشهوة) المعذبة.

تعتمد تحديدات مفهوم علم النفس على التصوّرات المتعددة النفسية. وإذا لم نختصر علم النفس دفعة واحدة، فإنه اليوم علم السلوك والمعيش الحقيقي والتجربة (المتبصرة) لكل منهما.

ب. النظرية في علم النفس

توحي صور الإنسان الذي يفكر أو الذي يصرخ، في التسامي الفني، بحالات نفسية يتعرف كل منا إليها بسهولة. وفي المقابل، في الحياة اليومية، يصعب كشف ما يجول في فكر الآخرين. لا يملك إنسانٌ معيشَ إنسان آخر، بل فقط معيشه الخاص. ومن أجل أن نفهم الآخرين، نحتاج إلى فرضيات وإلى تأويلات. يتخيل كل إنسان تجاه غيره هذا النوع من النظريات التافهة. أما العالِم فيشعر بأن العديد من هذه النظريات هي تأملات سيئة التنظيم. إنه يحتاج إلى معلومات أكيدة.

تعتمد، في العلوم التجريبية، التي يتفرع منها علم النفس، على الملاحظات (بمعناها الواسع، أي على الاختبارات أيضًا): المفاضلة بحسب التأثيرات السابقة (متغيرات مستقلة) والنتائج اللاحقة (متغيرات تابعة). السؤال المطروح هو ما إذا كانت هذه الأخيرة على علاقة «سببية» بالتأثيرات. ولا تكون هذه العلاقة ملموسة سوى في حالات قليلة؛ وتبقى، في معظم الوقت، في الظل (إن نموذج «الصندوق الأسود» (black box) هو صورة لها).

لا تكون النظرية، إطلاقًا، في هذه المرحلة، أكثر من فرضية. ولا تتحول إلى معرفة أكيدة إلا بعد أن تُبَرهَن بطريقة يتعذر دحضها. من جهة أخرى، ليست النظريات مستقلة أبدًا في ذاتها. إنها تَرتكز على نظريات أخرى تؤلِّف تشابكًا من النظريات. عندما نتكلم عن علم النفس كعلم، فإننا نفهم أمرين:

المعرفة الأكيدة ومجموعة النظريات التي تتفاوت صحتها.

بالنسبة إلى علم النفس، يحتوي مفهوم «الصندوق الأسود»، بشكل واسع، الداخلية النفسية. ولهذا يغدو إيجاد الدليل أكثر صعوبة مما هي عليه الحال بالنسبة إلى العلوم الأخرى التي تتناول موضوعات أكثر حسية. ويضع **لاوكن وشيك** (١٩٨٥)، تبعًا لتمييزات **بارتلي** (١٩٧٤)، نموذجًا أساسيًا لموقع عمل العالم النفساني:

التجربة الإنسانية

العملية الجسدية

والسلوك القابل للادراك ويتضمن متغيرات بيئية أخرى.

ج. مظاهر علم النفس الثلاثة

يرسم **كارل بوهلر**، في «أزمة علم النفس» (١٩٢٧)، في ثلاث نقاط، صورة شاملة للنفسية:

> «المعيش الحقيقي، السلوك، إضافة إلى نقطة ثالثة ما تزال تحتاج إلى إسم وسنرمز إليها مؤقتًا بالحرف G».

وكثيرًا ما تغيرت الأسماء، بعد ذلك، لكن المحتوى قلما تغير. ويجد **ماكس ديسوار** في كتابه «تاريخ علم النفس» (١٩١١) أثرًا لهذه المظاهر الثلاثة حتى في العصور القديمة:

> «وهكذا، وتحت تأثير المظاهر الدينية، ومراقبة الطبيعة وتجربة الحياة الماثلة في الفن، تألفت ثلاثة موضوعات ورؤى ما يزال التعرف إليها سهلًا، حتى اليوم، في سيكولوجيتنا المتجانسة ظاهريًا».

ويكتب، بعد ذلك:

> «إن الحالة الحقيقية للأشياء كانت دائمًا تقريبًا حالة نزاع بين الاتجاهات الثلاثة».

وقد دُرِست هذه الإتجاهات الثلاثة بمزيد من الدقة حتى عصرنا الحالي (ج١):

المعيش الحقيقي، بواسطة الظواهرية وعلم النفس الإكلينيكي (العيادي).

السلوك (وهو «التصرف» عند بوهلر، جانيه ولاغاش) بواسطة السلوكية؛

التقييم الرزين (وهو بنية الفكر الموضوعي عند بوهلر ويرمز إليه بالحرف G، ودُرست «النفس الروحانية» في العصور القديمة) من قِبَل علم النفس المعرفي.

إن سبر أعماق التجربة النفسية، في ظل هذه المظاهر الثلاثة ومن دون أحكام مسبقة، ينفر منه العديد من علماء النفس. ويُعتقد أنه لا بد من اختيار مظهر واحد بدلًا منها جميعها. وهكذا يرتبط علم النفس في الجامعات إما بالعلوم الإنسانية، وإما بعلوم الطبيعة، وإما بالعلوم الإجتماعية (أو يشكل فرعًا على حدة). (ج٢)

تشمل النفسية، في الواقع، مجال الكيان الواسع الذي ينطلق من المواد الكيميائية – الكهربائية وصولًا إلى النماذج الدلالية «غير المادية» لعالمنا الروحي.

سنحاول في هذا الكتاب أن نأخذ بعين الاعتبار وبالتساوي المظاهر الثلاثة لعلم النفس.

التاريخ القديم غير الأوروبي

علم النفس في الشرق الأقصى

لاوتسو

كونفوشيوس

أوپانيشاد

التاريخ القديم

علم النفس الأوروبي

أفلاطون

أرسطو

العصر الوسيط

علم النفس العربي

سكولائي

البروتستانية القديمة

تصوّفي

العصر الحديث

عقلانية فرنسية

تحليل ألماني

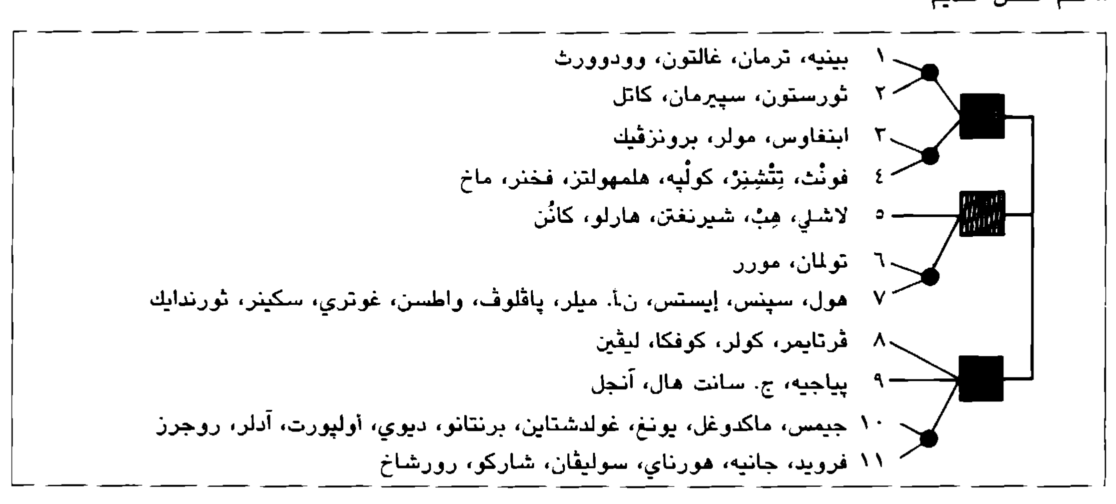
تجريبية انكليزية

ديكارت

لايبنتز

هوبس

أ. علم النفس القديم



ب. علم النفس الحديث

ليس علم النفس علمًا واعيًا لتاريخه. والسبب لا يكمن فقط في حداثة علم النفس العصري الذي عرف انقطاعًا في تراثه في القرن التاسع عشر، بل أيضًا في التطور التقني للممارسات الإختبارية، لدى وصول علماء نفس آتين من علوم الطبيعة (مثلًا **فخنر، ڤونْت**)، وعند تبعثر هذا العلم إلى علوم عديدة معزولة ليست على تكامل كافٍ في مجال واحد، إضافة إلى الاهتمام المتزايد بالبحث «الأكثر حداثة»، ولو على حساب إهمال أقدم المعارف.

أ. علم النفس القديم

كانت الموضوعات الكبرى لعلم النفس، مثل مسألة «طبيعة» الحياة النفسية والمساعدة في حالة حدوث اضطرابات نفسية وتكوين الإدراك، ومعايشة الآخرين ضمن بيئة، قد عولجت سابقًا في العصور القديمة. ولم تكن الأجوبة التي أعطيت في تلك الأزمنة دون الأجوبة المعاصرة عقلانيةً، ولكن كانت تنقصها الأسس التقنية والعلمية.

ولا يزال علم النفس الأوروبي القديم، كنظيره الآسيوي، غير قابل للإنفصال عن الفلسفة والطب وعلم التربية. يرتكز علم النفس الفلسفي الصيني، لدى **لاوتسو**، على الترابط الجدلي بين الإنسان والطبيعة، فيما يرتكز، عند **كونفوشيوس**، على العلاقة بين العائلة والدولة. وتستند «الأوپانيشاد» الهندية والنصوص البراهمانية، بقوة أكبر، إلى جدلية علم النفس الداخلي، ومنها إلى الفكر واللغة.

تطور علم النفس الأوروبي القديم مع **أفلاطون وأرسطو** انطلاقًا من «علم لاهوت النفس» القديم والصوفي. بالنسبة إلى **أفلاطون**، تنتمي النفس إلى عالم المثل وتعاني الاتحاد بالجسد عند «السقوط في الولادة». والنفس، بالنسبة إلى **أرسطو، هي** المبدأ المنسّق (الكمال الأول) للعمليات البيولوجية. إن كلًا من **أفلاطون وأرسطو** يميز ما بين «العقل والنفس»، وهو ما نجده في التمييز المعاصر بين نظامين من النماذج في العمليات العصبية (فصل ٥/١)*.

وخلافًا **لأفلاطون**، اعتقد **أرسطو** باندماج مختلف مستويات النفس، أي النفس الغاذية والحاسة مع النفس العاقلة «كما أن المربع يحتوي المثلث» (عندما نرسم الخط القطري).

يعود علم نفس القرون الوسطى المدرسي (القديس **توما الأكويني**) إلى **أفلاطونَ وأرسطو**. وتصبح النفس عندئذ «شكلًا محضًا» ولكن «ملازم» للجسد (متقمص إياه)، ويغدو الوضع الطبيعي والأخلاقي للإنسان سؤالًا أساسيًا. أما علم النفس العربي (ابن سينا وابن رشد) فيستند أيضًا إلى أرسطو ولكنه يصطبغ بشكل أقوى بالمادية. وبقي كتاب «شرح النفس» (١٥٤٠) **لميلانكتون** معتبرًا، لمدة طويلة، أنه يمثل البروتستانتية الأصلية.

بدأ علم نفس العصور الحديثة تدريجًا بتنظيم نفسه في علوم نفس قوميّة. وتميل عقلانية ديكارت إلى إبراز «علم نفس الوعي» الذي تأسس مع **مالبرانش** أيضًا. واتخذ علم النفس الفرنسي، بالرغم من إصراره على فكرة الروح، موقفًا ماديًا إلى حدٍّ بعيد، إلى درجة أن حددت، ولأول مرة، مع علم فراسة الدماغ **لغال**، قدرات النفس في «فصوص الدماغ». ونزع علم النفس الألماني، بالمقابل وبقوة أكبر، إلى اعتماد موقف تفكيكي تحليلي. ينقسم العالَم، بالنسبة إلى **لايبنتز**، إلى وحدات (مونادات) ذات صلات بالنفس، وتدعى الجواهر الفرد، وترتبط فيما بينها بعلاقات قوة. وبهذه الطريقة رسم بشكل أولي علم نفس الأعماق، وقام **تيتنْس** بتوزيع الحياة النفسية بحسب عملياتها، أما **كانط** فقد فصل علم النفس عن الفلسفة وخصه بوظيفة تحليلية وتوليفية.

وكان على التجريبية الإنكليزية (**هوبس، لوك، هيوم**) تطوير النتائج الأكثر تأثيرًا للنزعات القومية الثلاث. وكان **أرسطو** قد اسس من قبل عقيدة الترابط التي ستؤدي، ابتداءً من ذلك الوقت، بواسطة التجريبية، إلى التأثير على علم النفس السلوكي المعاصر.

ب. علم النفس الحديث

يعيد تأريخ «علم النفس» (**بورنغ**، ١٩٥٠؛ **دورش**، ١٩٦٣؛ **فلوغل**، ١٩٦٣؛ **روباك**، ١٩٦٤؛ **ڤهنر**، ١٩٩٠)، في غالبية الأحيان، بدايات علم النفس المعاصر إلى كتاب **غوستاف تيودور فِخْنِر** (عناصر علم النفس الفيزيائي) (١٨٦٠). ولكن كيف تصنَّف أعمال العقود التالية؟

قام عالم النفس الأميركي **ر.و.كون** (١٩٦٨، ١٩٧٣) بتجربة مثيرة للإهتمام؛ فقد عين ٥٤ عالمًا نفسيًا معروفين بنظرياتهم، ووضعهم على صلة بـ ٣٤ متغيرة، ثم أخضع النتائج لعملية عاملية إضافة إلى تحليل جماعات بحسب معيار تصغير التغاير (فصل ٤، علم الإحصاء). وهكذا فقد حصل على شجرة عناصر (شكل ب) تبدأ من علم النفس البالغ الموضوعية (١) وصولًا إلى علم النفس البالغ الذاتية (١١) وتتقاطع صفات ٦ قطبيات في المنطقة الوسيطة:

موضوعي – ذاتي

كمي – نوعي

رمزي (وصف حالة نوعية) – تشريعي (وضع قوانين)

حركي – ثابت، جزئي – كلي، مصدر داخلي – مصدر خارجي.

يعتمد هذا التصنيف التاريخي، بطبيعة الحال، على أسماء «مقترحة» وعلى معلومات الباحث (الأميركي)، إلا أن هذه الشجرة تستطيع تقديم صورة عن طيف علم النفس المعاصر القائم ما بين بعدٍ «جزئي، كمي، موضوعي» وبعد «داخلي، ديناميكي (متحرك)، ذاتي». يعكس جدول أسلاف علم النفس المعاصر هذا (الناقص طبعًا) «ضخامة» هذا النظام. إذا أردنا أن نمارس علم النفس «المعاصر»، وجب علينا أن نأخذ هذا التوسع بعين الإعتبار.



أ. علم نماذج قديم

رَبْع بدين

أهيف نحيل

رياضي

ب. علم نماذج حديث

ج١ نُظُم

ج٢ أنماط

ج٣ أعراض

ج٤

ج٥

ج. علم نماذج منهجي

ظهر علم نفس الشخصية، لأول مرة، سنة ٣١٤ ق.م. مع **تيوفراست** خليفة **أرسطو** على رأس الليسيه. تحدث علم النفس ذاك عن عدة طبائع نموذجية، من بينها فصل عن «المتبجح» يبدأ هكذا:

«يبدو أن المتبجح يدَّعي مزايا لا يملكها. إليك أي نوع من الرجال هو هذا المتبجح. يقف على سيف البحر ويتباهى أمام الغرباء بأنه يوظف مبالغ ضخمة في الملاحة: يسترسل في موضوع التسليف البحري وفي فوائده، مفصلًا الأرباح والخسائر التي حققها هو شخصيًا؛ وفي خضم هذا الهذر يستعجل خادمه إلى المصرف حيث لا يملك درهمًا واحدًا...»

تبدو هذه الطريقة الوصفية، في نظر العلم، مشكوكًا في أمرها، فثمة خطورة تعميم مسبق. يلخص **و. هلباخ** (١٩٣٨)، في هذا الأسلوب الوصفي، عوامل المخاطرة:

«تنتمي جماعات الكائنات الحية، في تصورنا، إلى نموذج ما بمقدار ما هي بعيدة عنا أو غريبة - ولكن كلما كانت قريبة منا أو أليفة فإنها بمقدار ذلك تتفرق في إدراكنا كالأفراد».

أ. علم نماذج قديم

لقد تحدث **أبقراط**، قبل **تيوفراست** بزمن طويل، عن نظرية الأمزجة: المُرّة الصفراء، المرة السوداء، الدم والبلغم. استنتج من هذه الأمزجة الأساسية الأربعة طبائع أربعًا:

الغضبي (حالات نفسية متقلبة بقوة وبسرعة، متوتر، منفتح)، السوداوي (حالات نفسية متقلبة بقوة ولكن ببطء، متوتر، منطوٍ)، الدموي (حالات نفسية متقلبة بخفة وبسرعة، مسترخ، منفتح)، البلغمي (حالات نفسية متغيرة بضعف وببطء، هادئ، منطوٍ).

ب. علم نماذج حديث

عرف علم الطباع، بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٥٠، انطلاقة ضخمة تجلت في: أنماط المعيشة (**روُرشاخ**: المنطوي، المنفتح، ما بين المنطوي والمنفتح، السريع الإنفتاح مع سطحية، المنشرح)، أنماط التصورات (**جانش**: إجمالية أو تفصيلية) والوظائف الأساسية (**يفاهلر**: وتكون تبعًا للإنتباه، للمثابرة، للتعبيرية الإنفعالية، النشاط، اللذة - اللالذة)، أنماط الإيديولوجيات (**دلتاي**: المادية، المثالية، الحيوية)، الأنماط الوظيفية (**يونغ**: التفكير، الإحساس، الشعور، الحدس)، والأشكال الحياتية (**سپرانغز**: الجمالي، الإقتصادي، الديني، الإجتماعي، النظري والسياسي).

ولم يصمد سوى نمذجة التكونات التشكيلية النفسية **لكريتشمر**. فهي تنطلق من معايير شكلية ملحوظة ومن علاقتها بجدول الأمراض العقلية. نميز النماذج التالية: المزاج المرضي الدائري (نموذج الرَّبع البدين)، المزاج الإنفصامي (نموذج الأهيف النحيل)، المزاج المجامل الودود (النموذج الرياضي) وأيضًا أنواعها المتطرفة: نظير الدوري، نظير الفصامي، نظير الصرعي.

وأهم هذه النماذج هو النموذج المشوّه الذي ليس له، إحصائيًا، مكان في أي مكان. يفسر هذا الغياب العملي للنماذج «البحتة» لماذا لا تمثل النمذجة، في أيامنا هذه، سوى فائدة تاريخية.

ج. علم نماذج منهجي

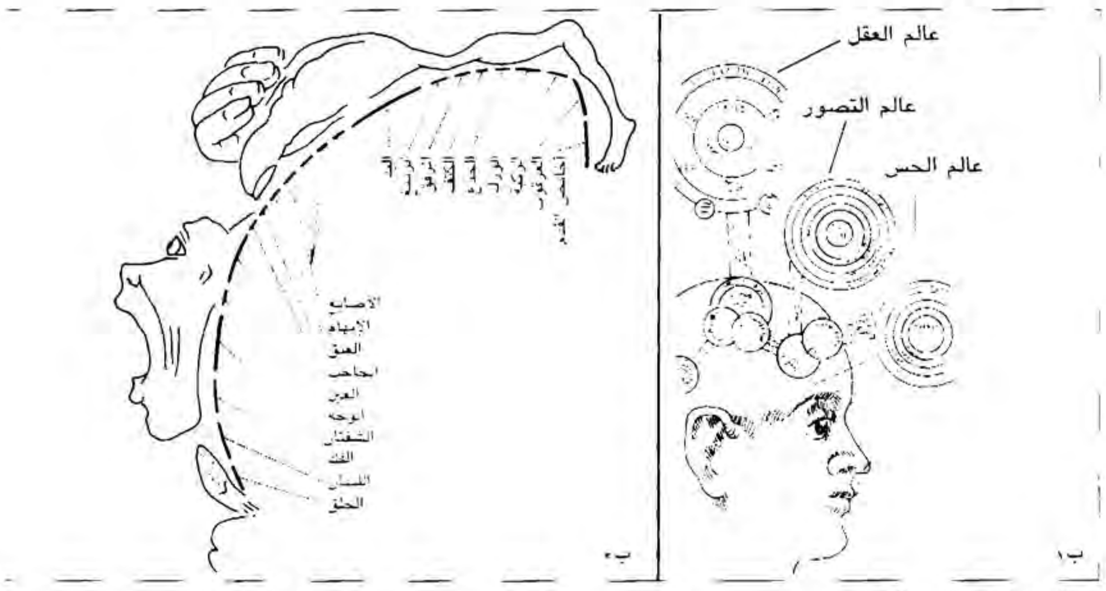
ومنذ خمسينات القرن الماضي (القرن العشرين) تحول هدف النمذجة من دراسة الأشخاص إلى دراسة العمليات النفسية. ومنذ ذلك الحين تجري محاولات لتحديد أهداف البحث المتعددة. على سبيل المثال: الذاكرة، الإبداعية والإضطرابات النفسية تبعًا لخصائصها، من أجل وضعها في تجمعات اعتمادًا على عمليات رياضية وإحصائية. هذه التنظيمات تدعى تصنيفات علائقية. يحدد هذا التصنيف مخططًا فئويًا وتراتبيًا لمصفوفة التشابهات والارتباطات. يتم الحصول على هذه التنظيمات بخفض المعطيات بطريقة صاعدة أحيانًا (تجميعية)، ونادرًا بطريقة هابطة أو تفكيكية انطلاقًا من المستوى الأدنى للوصول إلى مستويات عليا (مع مستويين آخرين غالبًا). يشتمل المستوى الأدنى، مستوى الأدلة (ج٣)، على جميع المعطيات الهامة. يشكل المستوى الأوسط أو مستوى النمذجة (ج٢)، بواسطة خفض المعطيات (بالتحليل العاملي مثلًا، (فصل ٤/٧)، مرحلة الإنصهار التالية. والمستوى الأعلى أو مستوى النظام (ج١) يؤلف جميع نماذج الطبائع الممكنة.

من الأمثلة على علم النفس الإكلينيكي: أدلة المستوى الأدنى (ج٣) وتدعى هنا الأعراض (الخوف من الأمكنة العامة، ازدياد ضربات القلب...). ليست الأعراض متساوية القيمة. إن تناذرات المستوى الأوسط (ج٢) هي «ثابتة» مستقرة، أي أنها أعراض تظهر بانتظام ومجتمعة. وهكذا فهي نماذج متميزة (خواف الخلاء). وفي المستوى الأعلى (ج١) ينتمي خواف الخلاء ومئات من الحالات الأخرى، إلى فئة الخوافات التي تتخذ مكانها أيضًا في منظومة الاضطرابات النفسية.

ولا تزال هناك مسائل عديدة، تخص نظرية المقياس، بلا حل. نعرف مقاييس وحيدة البعد (ج٤)، هي حجر الزاوية في وصف الأعراض. ويوجد في المقابل مقاييس ثنائية البعد وكثيرة البعد (ج٥): مثلًا ثلاث خصائص مميزة، محسوبة الأبعاد في مدى إقليدي تتغير في الزمان وبتأثير تقييم خارجي (بواسطة عامل ثالث). ولا يزال تحليل التباين في حالات كهذه، يثير صعوبات كبيرة.



أ. تمثيلات النفس



ب. فرضيات موضع النفس



ج. فرضيات حول الوظائف

ـــ الإنسان، في جميع الميادين الثقافية وفي جميع العصور، ـ صيغة، النفس: فطرح على نفسه، أول ما طرح، ثلاثة أسئلة: ـــ تعقلت النفس فينا؟ أين موضعها في جسمنا؟ وكيف عمل؟

- تمثيلات النفس

عمد الإنسان، دائمًا، إلى النفس وكأنها سر من الأسرار. أثار ـ الإنسان مسألة طبيعتها: ما هو مصير النفس عندما يموت ـــ؟ فالإجابة الجافّة بأن النفس تموت أيضًا بموت الجسد ـ يبقى الإنسان سوى ذكرى بين الأحياء لم تكن أبدا إجابة ـ ضية.

ـ عن صورًا للنفس. توفِّر الصور الأربع نماذج من سلسلة ـ صور تمثل النفس بعد الموت خالدة تطير نحو عوالم ـــوية. تظهر صورة الموت في مصر القديمة (أ١) صعود ملاك ـ يعثر الرسم اليوناني (أ٢)، الماثل على إناء من الفخار يعود تاريخه إلى ٢٥٠٠ سنة، رجلًا مسلّحًا يهرب من جثة ـــ الميت. وفي رؤيا **ڤولفِنْبوتِلِر** (مطلع القرن الخامس ـ) تنسل النفس من فم الموتى (أ٣). ونرى في منحوتة **پول كي** «موتى في ميادين القتال» (١٩١٧) الجنود القتلى يصعدون ـ ــ السوداء (أ٤).

ـ يصر اليوم، أن نرى صورًا مادّية للنفس تتوارى وراء عصر التصورات الروحانية.

ـ فرضيات موضع النفس

ـ **بيلا ريڤيس** (١٩١٧)، في كتاب (تناساه الناس)، ـــرة الطويلة لـ «تاريخ مفهوم النفس وموضع النفس» منذ ـ ت الميتولوجية قبل **هوميروس** مرورًا بالقرون الوسطى ـ عصر الحديث حتى الحرب العالمية الأولى، فيتحدث عن محاولات مثيرة ولكن حائرة لاكتشاف مركز النفس في الجسد: ـ الأحشاء، في القلب، في الغدد، وكذلك أيضًا، ومنذ البداية، في ـــغ كما قال الفيثاغوريون. كانت محاولات الموضعة هذه ـ شمولية أي أنها تنسب مجمل النفس إلى أعضاء معينة ـ **ر. فلود**، ١٦١٩).

ـ مؤلَّف **پيار فلورنس** تحت عنوان «أبحاث إختبارية حول خصائص الجهاز العصبي ووظائفه عند الحيوانات الفقرية» (١٨٢٣) هو الكلام الفصل.

ـستطاع المؤلف، في كتابه هذا، أن يبرهن أن الجهاز العصبي، عند الحيوان على الأقل، هو مركز النفس، وحتى أيامنا هذه ـ يتغلغل هذا الواقع بعد في التصاوير اليومية.

ولا نزال نعجب كيف أن دماغنا هو الذي يتألم عندما نصاب بجرح وليس إصبعنا المجروحة. ولهذا يبدو مِسْخ **پنفيلد** (ب٢)، الذي يحدد وظائف الجسم في مناطق دماغية، مثارًا للسخرية.

ج. فرضيات حول الوظائف

إن تاريخ الفرضيات حول وظائف النفس هو تاريخ رموز: لقد جرت محاولات لتكوين صورة عن هذه النفس غير مادية في الظاهر بواسطة أدوات تقنية منظورة.

برع القرنان السابع عشر والثامن عشر في صنع نماذج بشرية تتحرك بواسطة نظام شبيه بنظام الساعة وكان باستطاعة هذه النماذج أن تكتب. ومن مهمتها آن تظهر كيفية عمل النفس (وكانت كثيرة التعقيد كما تردد ذلك في مناقشات لاحقة).

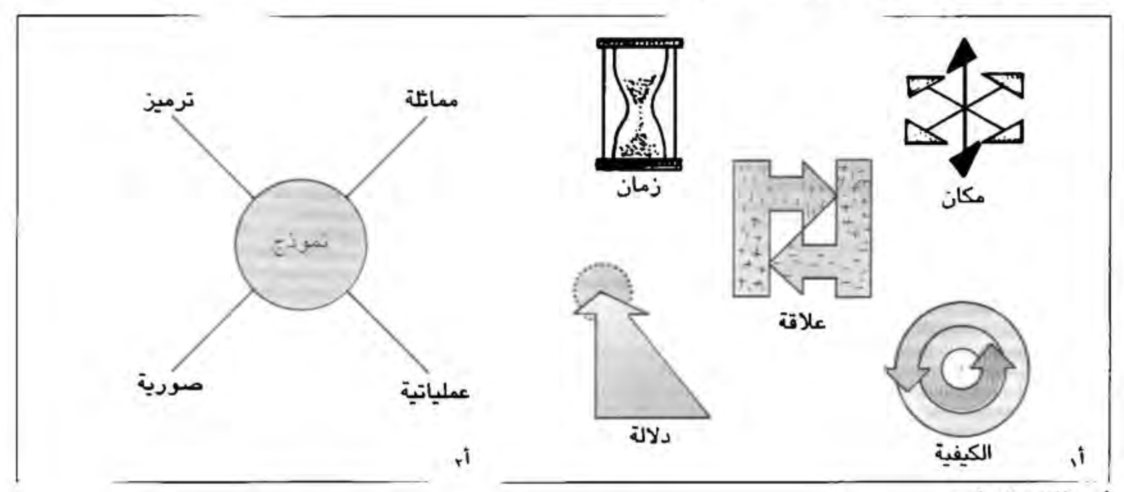
وفي نهاية القرن الثامن عشر، شبهت النفس بالتقنيات المائية الجديدة. يشبه **فريديريك فون شيلر** الجهاز العصبي بخزان ماء ينقل الضغط عبر أقنية عصبية (ولا يزال يقال حتى اليوم «هو تحت الضغط»).

وفي القرن التاسع عشر، كان المثال المفضل للنفس هو المقسم الهاتفي، وإن شرايين الجهاز العصبي متصلة كخطوط المقسم. وتستخدم حاليًا صورة الحاسوب الذي هو، كالجهاز العصبي، مؤلف من وحدات استقبال ومعالجة داخلية وإرسال. فالوصلات العصبية ونقل السائل العصبي وتركيبها تشبه الحواسيب الرقمية والنظيرية والهجينة. ولكنها ليست هذه سوى تشابيه أو مقارنات. فليس هكذا يجاب عن السؤال الأساسي، مسألة «الجسد – النفس» (فصل ١/٥).

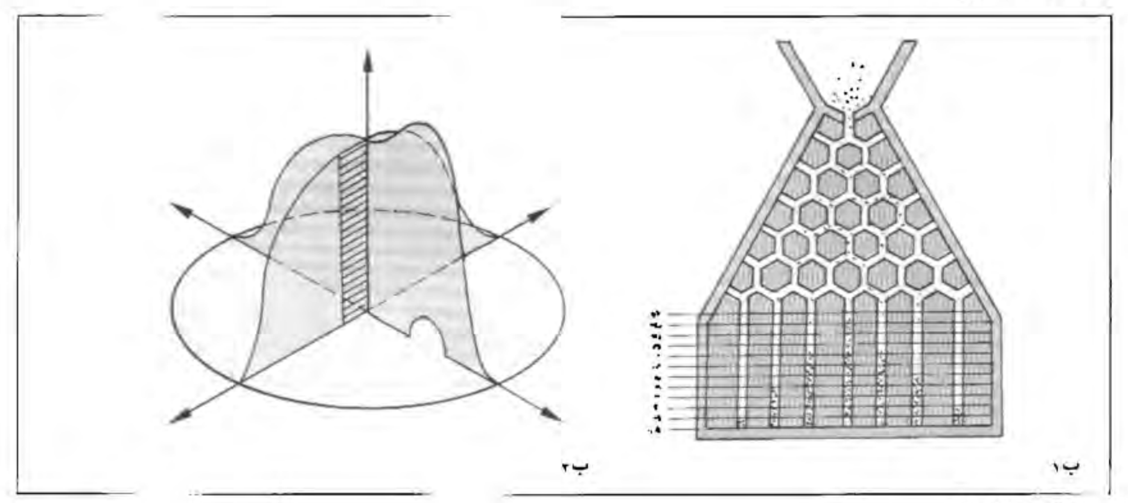
ومهما يكن من أمر فإن علم النفس الفيزيولوجي يسعى إلى إنشاء «علاقة» بين العمليات النفسية والظواهر الفيزيولوجية. وتتكرر هذه الممارسات لأنه يُظن بسذاجة، ولأن الأحداث الفيزيولوجية التي يمكن تسجيلها عند رد فعل نفسي هي معروفة بدقة كافية، يُظن أن اللغز سينحل تلقائيًا. حتى ولو كان ذلك غير صحيح، فإن ما كتبه **هوبرت روهراخر** (١٩٣٩) لا يخلو من قيمة:

«إن مثيرات الخلايا الغددية هي أساس العمليات النفسية. فلا شيء يتغير في هذه الجملة. فإذا كانت صيغ تفكيرنا قادرة على إيصالنا إلى معرفة الحقيقة تكون هذه الجملة صحيحة».

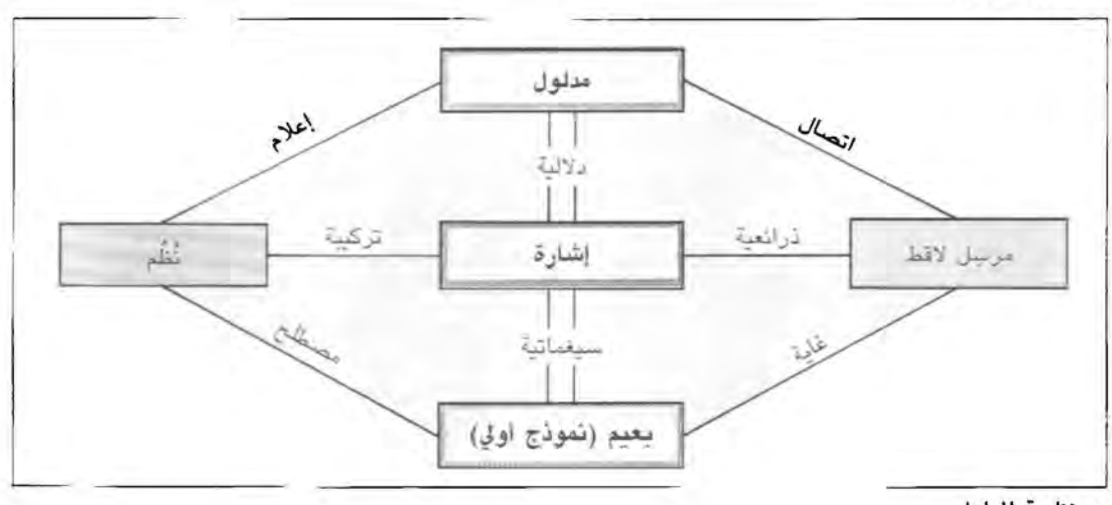
لا ترتكز الإتجاهات الحديثة على الفيزيولوجيا فقط، بل أيضًا على علوم طبيعية أخرى. يحاول علم نفس الضبط (راجع الفصل ٧/٥) أن ينقل بواسطة نماذج رياضية وفيزيائية (تحليل **فورييه**) ترميز النماذج الفيزيولوجية إلى نماذج من النشاط الذهني («توحيد النماذج»).



أ. وظائف النماذج



ب. نظرية الكيفية



ج. نظرية المدلول

عندما يتصدى الإنسان لعلم كمبتدئ، ليس من النادر أن يصاب «بالدهشة» بسبب تنوعه. حتى الباحث العريق لا يستطيع أن يلم إلمامًا كافيًا بأي مجال علمي. وكثيرًا ما يعاني الإختصاصيون نقصًا في المعلومات وذلك من ناحيتين: فهم غالبًا ما يعتبرون، من ناحية، أن النتائج غير مضمونة إلى حد كافٍ، ومن ناحية أخرى، يعبرون عن نوع من «التبصر النظري» (**ديبه** ١٩٧٧). وإذ يتخطوّن هذين الحاجزين يستمدّون قوى نفسية ضرورية لإكمال هذا الجهد الطويل المدى الذي لا حدود له، ألا وهو العمل العلمي.

أ. وظائف النماذج

يبدو أن الكثير من العلماء لا يهتمون إلا بالمظهر العملي بأبحاثهم ولا يبدون أي اهتمام بالنظريات. وهكذا فإنهم يغفلون رؤية نظريتهم «الضمنية» (المفترضة مسبقًا). ولكن الذين يصوغون نظرية واضحة يستطيعون أيضًا إغفال بعض الافتراضات الخفية. وأعم المسلّمات هي مقولات أساسية. تذكر، في نظرية العلم الحديثة، خمس مقولات أساسية (أ١) مع مكملات إيضاحية مختلفة:

المكان (مادة، مقياس، تموضع الخ).

الزمان (سيرورة، تطور، مدة الإستخدام، راهنية، الخ).

العلاقة (تفاعل، سببية، توازن التدفق، جوار، نفوذ، كلية، فعل، اتصال شبكي، الخ).

الكيفية (إمكان، تردد، إحتمال، حد، كمون، صدفة، نقص، قدرة الإستعاضة، الخ).

المدلول هدف، مرمى، قيمة، معنى، تعيين، شهرة، صلة عاطفية، رمزية، فعالية، الخ).

يجب، في هذا السياق، تصنيف النماذج (أ٢) في نظريات هامة:

المماثلة والمشابهة مع النموذج الأصلي أي «الحقيقة» (مثلًا قطار مصغر).

الترميز، النقل إلى بدهيات (مثلًا رسم تخطيطي).

العملياتية، الطريقة التي يعالج بها النموذج الذي يمكن قياسه نظريًا كبنيان (جوهر فرضي).

الصورية، إمكانية تطبيق النموذج (كبرنامج إعلاميائي، مثلًا).

ب. نظرية الكيفية

من النادر أن يكون ظهور بعض الأحداث النفسية أكيدًا ومتوقعًا بالمطلق. وبالرغم من ذلك فإن «تأكيدنا» الذاتي يخدعنا غالبًا بانتقالنا إلى أطراف سلّم احتمالية الظهور (كيفية): باستمرار.. دائمًا.. أبدًا.

غير أننا نعتمد، من أجل الوصول إلى منطوقات أكيدة، على «قانون العدد الكبير»: الكثير من الأحداث والعديد من المسهمين. تنحدر الكل على صفيحة المسامير **لغالتون** (ب١) طبقًا لقانون التوزيع الطبيعي (**منحنى غاوس الجَرَسي**). لكن هذا التوزيع ليس صحيحًا إلا بالنسبة إلى الأعداد الكبيرة وبغياب العوامل التي تشوش على هذا التوزيع. وإلا فإننا نحصل على توزيعات «مائلة» (ب٢) تبرز أنواعًا عدة من التفاوت (الزيحان). ويجب، من أجل تقويم نتيجة في حضورها المنتظر، أن نعرف تركيب المجموع الأساسي: مثال ذلك، وضع منحنى التدرب على المشي لدى جميع الأطفال قبل أن نقرر أن طفلًا تعلّم المشي باكرًا أو في وقت طبيعي أو متأخرًا. وبناء على الأهمية الأساسية لهذا الشرط المسبق تشغل نظرية الإحتمال، منذ زمن ليس بالقصير، حيزًا مرموقًا في منهجية علم النفس.

ج. نظرية المدلول

المدلول هو، بالنسبة إلى علم النفس، مقولة أساسية هامة لأن كل ما هو نفسي يمثل شيئًا يدل على محتوى وعلى حاوٍ، يمارس نفوذًا وله فائدة وأهمية.

تعرض نظرية المدلول نموذجًا أساسيًا لتكوين المدلول – إنها تتعلق بعلم الدلالة لدى **غ. فريغه.** (١٨٩٢) **وب. ف. دوسوسور** (١٩١٦). فإن كل مدلول بالنسبة إليهما يرتكز على نموذج أولي («حالة أصلية»، مثلًا: موضوع، دعامةً، إشارة).

وهكذا فإن الحياة النفسية هي مقولة ذات دلالة قائمة فوق مستوى النماذج وفوق مستوى الدعامة. والحال فإن المدلول غير مقرر بشكل نهائي، ولكنه يرتبط بالعلاقات الماثلة في نظرية المدلول.

بإزاء المحور العمودي دعامة – نموذج – مدلول، نجد المجموعات: مرسل/لاقط (تحويل فردي مدلول بواسطة الأشخاص المعنيين)، نظام النماذج (مستودع إجمالي حيث بالإمكان استخراج نماذج نوعية، مثلًا: اللغة موضوع الكلام).

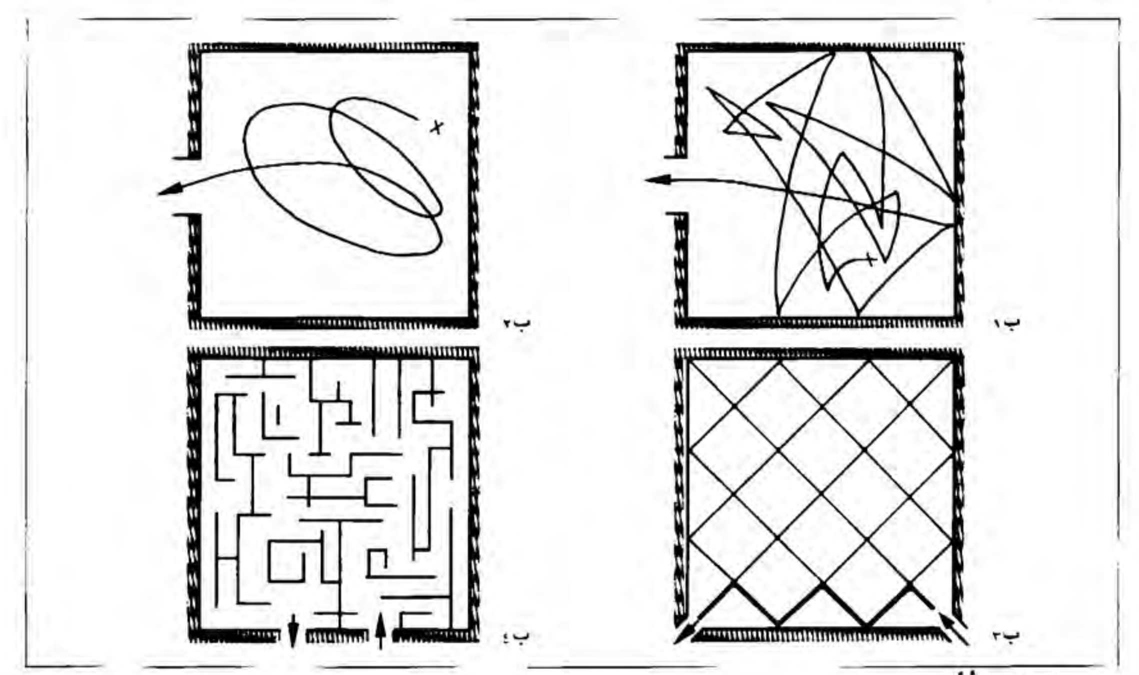
وعدا ذلك فإن النموذج يبرز ٤ قوى موجهة علائقية تعكس التبعيات الداخلية للمدلول (البارز):

الإتصال (نموذج العلاقة بالآخر في تبادل المدلولات)، الإعلام (نقل محتوى موضوعي والمكملات غير الكلامية أيضًا)، الغاية (استخدام عملي للمدلول)، المصطلح (استخدام عملي للمدلولات الخاصة وتبدلها).

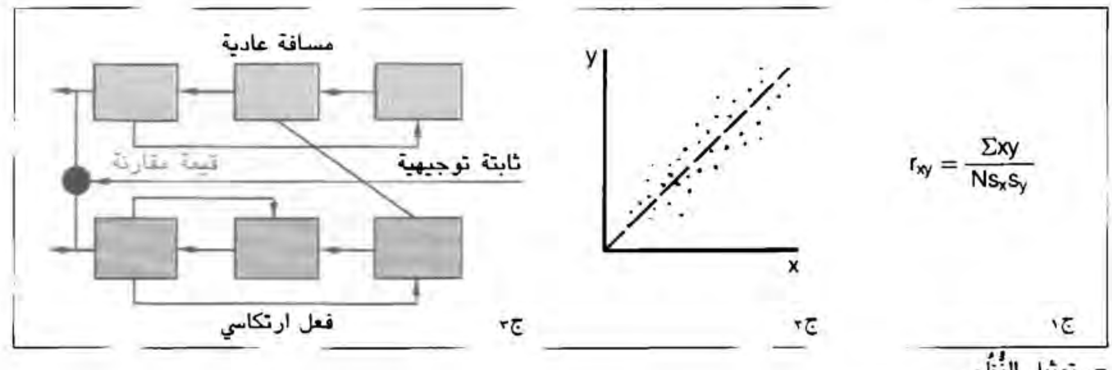
تعود العلاقات الداخلية (الدلالية، السيغماتية، الذرائعية، التركيبية) إلى الموضعة النظرية الدلالية للعلاقات السابقة.

يمتلك علم النفس، إلى جانب نظرية المدلولات، قواعد جديدة لتحليل المحتويات ذات المعنى في الحياة النفسية.


أ. أساس النُّظُم



ب. مواصفات النُّظُم



ج. تمثيل النُّظُم

إن نظرية (مبحث) العلوم النفسية، كونها المَقولة الثالثة الأساسية (بعد «المكان» و«الزمان»، راجع فصل ٩/٦)، تتضمن «العلاقة». والتنسيق هو الميزة الأساسية للنفس (فصل ٥/٢). ظهرت هذه المقولة تكرارًا في تاريخ النظريات النفسية ولقد عولجت بحماسة أثناء مرحلة علم النفس الجشطلتي (فصل ٨/٦)، وهي الآن يُنظر فيها بتعمق استنادًا إلى نظرية النُظُم المطبقة على الحياة النفسية.

أ. أساس النُظُم

ففي حين أن النظرية الجشطلتية تهتم بالإدراك في الدرجة الأولى فإن نظرية النُظُم تذهب أبعد من ذلك. «كل شيء» مربوط، مبدئيًا، في الحياة النفسية، ليس بالمستطاع رسم حدود، لا في الجهاز العصبي ولا، حسيًا، في الحياة النفسية، لكن فقط بصفة مساعد لفكرة التمييز. وإذا طلب من عدة أشخاص وصف هذه الصورة الغامضة (أ) يأتي كل منهم بتصوراته («عدم دقة في التأويل»):

> طبيب وممرضة، أم وطفل، يُحقَن الطفل، تُشْفِق الأم، تُحْقَنُ الأم، وآخرون ينظرون بلا مبالاة، أو يقدمون المساعدة. يجري المشهد في غرفة أو في الهواء الطلق... إن إمكانية التأويل ليست محدودة وإنما متعلقة بعضها ببعض.

وهكذا، فإننا لا نرى فقط أشكالًا (جشطلت) لكننا نجري اختبارًا حيًا للنظم التي تقيم، هي نفسها، في نظم أخرى، وتشكل معًا نُظُمًا فوقية. والسؤال الذي يطرح، بالنسبة إلى نظرية النظم، هو: ما هي النُظُم في مجال علم النفس؟

ب. مواصفات النُظُم

يعرض الرسم أربعة أنماط سلوكية لكائنات حية يحاول كل منها أن يهرب من الصندوق.

(ب١) رد فعل صدفوي: يجد المخرَج عشوائيًا بعد سلسلة من المحاولات العبثية.

(ب٢) صدفة موجَّهَة: حركات اقتصادية حلزونية الشكل (مراقبة أحيانًا) تمكّن من إيجاد الهدف بسهولة أكبر.

(ب٣) سلوك إنتقائي: عند كل نقطة تقاطع يترك القرار حرًا لاختيار الطريق.

(ب٤) وضعية بانورامية: يمكن التفكير بالطريق التي يجب سلوكها مسبقًا ثم اختيارها. هذه الأمثلة هي، لا شك، مراحل متدرجة لسلوك مطور وهي تفترض تحسين نظام القدرات المقابلة، وهو هنا النظام العصبي الأعلى ويجب، من أجل تقييم العملية، خاصة، وصف درجات النظام وحالاتها وطرق عملها وخصائصها. ويمكن ملاحظة خمس درجات:

الكومة وتحتوي تفاصيل عديدة متجاورة ولا صلة بينها.

الركام (كما في بطارية السيارة) مؤلف من عدد مختلف من الخلايا المتصلة توازنيًا ومتجاورة كيفما اتفق. تركيباتها هي اتصالات ذات جانبين أو متعددة الجوانب في وظيفة دائرية ارتدادية (مثلًا: تنظيمات على شكل عصيات أو سطور، راجع ٥/٢١).

الأشكال (الجشطلت) هي «فوق إضافية» أي أن أجزاءها منظمة في كليات (راجع ٨/٦).

تظهر النُظُم الفوقية، أخيرًا، المتداخلة والتي لها ديناميتها الخاصة، صفيقة وصعبة المراس، وهذه الخصائص تجعلها عصية على التحليل، بحيث إنه يفضل، في العلم، الإنطلاق من علاقات أبسط، مثلًا، من نماذج رد الفعل إلى الإثارة (راجع ٥/٢١).

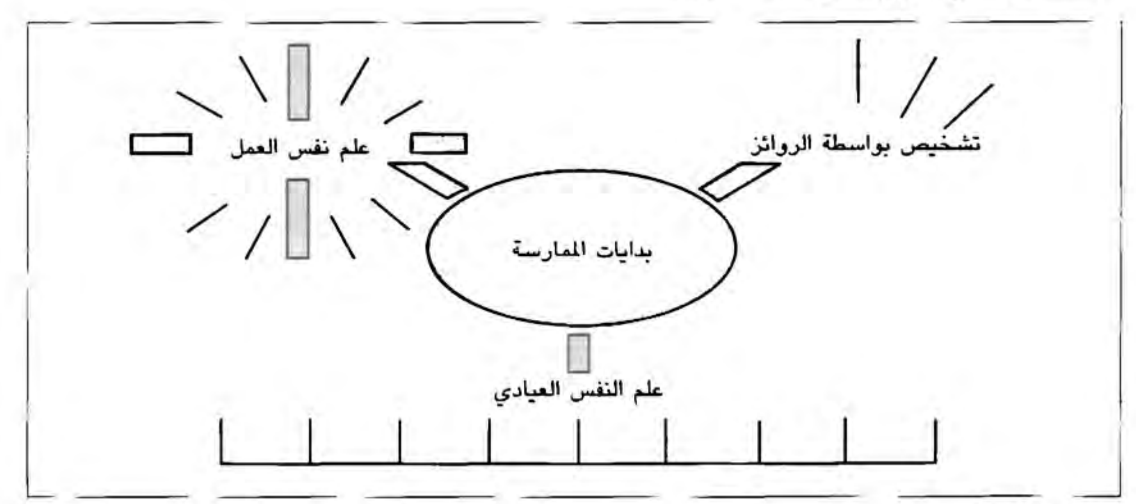
ج. تمثيل النُظُم

إن كلمة مأثورة **لماري فون إبنر إشنباخ** يمكن أن تستخدم هنا كإنذار: «لا يمكن أن تكون الحياة منسوخة، إنها أغنى من ذلك». غير أنه على العالِم الاختصاصي أن يمثل موضوعات مجاله. وكيلا يختصر، يستخدم نظرية النظم. وإذا أراد وصف موضوعات، يمكنه استخدام طرق مختلفة: الوصف الشفهي، الإستعانة بالتصوير (الصورة المثالية)، الإستبصار (رسم بياني)، تكوين الشكل (تجزئة مع إعادة تكوين مماثلة / مجانسة أو مشاكلة / مشابهة) والتخيل (الرمز، مثلًا) أيضًا. إن تكوين الشكل، بالنسبة إلى العالِم الاختصاصي، هو الطريقة الأكثر رواجًا. يعمل بواسطة مرمَّزة رياضية / إحصائية (ج١ معامل الإرتباط، ضرب التغايرات، فصل ٦/٤) كما يعمل بنقلها بيانيًا (ج٢ رسم المتغيرات x وy) أو بواسطة كتلة وصلات الضبط (ج٣ صورة دارة تنظيمية).

تمثل الكتل، هنا، معايير تخزين التجربة أو مراشح قرار أو أنواعًا أخرى من الحالات؛ ترمز خطوط الإتصال هنا إلى أجهزة معيارية إرتكاسية: أجهزة الإدارة، تعديلات ثوابت التوجيه، قياس القيم المقارنة. على لوحات الإتصال، كونها صورة للسياقات الحقيقية، أن تسهِّل النظرة الإجمالية إلى الأحداث المتشابكة. وتميز نظرية العلوم أنماط المسائل والبراهين لكي تحصي علميًا العلاقات القائمة فيما بينها على لوحات الإتصال.

النمطان الأساسيان للمسائل هما نمط «الاكتشاف»: فالوقائع يجب أن تُرسَّخ، ونمط «الإستنتاج»: فالنتائج تنشأ عن «انعطاف» بواسطة النظرية.

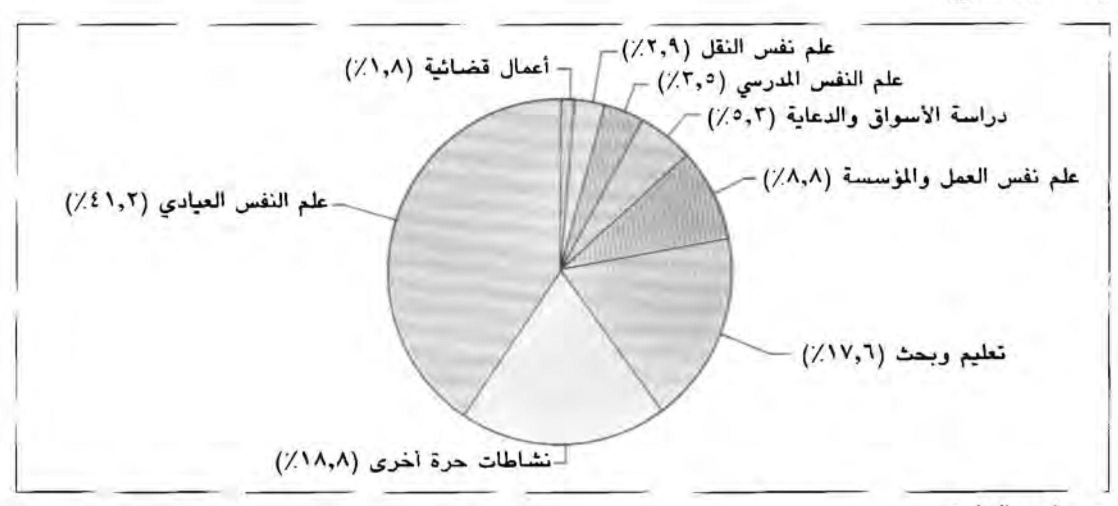
والنمطان الأساسيان للأدلة هما برهان العرض (كيف توجد علاقة بين الأحداث) والنمط الأعلى للتفسير (لماذا العلاقة موجودة).



أ. تطور التطبيقات



ب. أشكال التطبيق



ج. ميادين التطبيق

تركُز العلوم على ممارسات مختلفة. ولم تكن العلاقة بين البحث والممارسة، منذ بدايات علم النفس كعلم اختباري وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خالية من المشاكل. وكان **ويلهم ڤونت**، مؤسس أول مختبر جامعي في علم النفس، يسخر من بعض تلاميذه عندما بدأوا باستخدام الروائز الأولى. ومع ذلك لقد عرف علم النفس **تطورًا** جارفًا. ويشكل علم النفس التطبيقي اليوم (فصل ٢٢) أساس ثقافة المرحلة الثانية الدراسية للحصول على دبلوم في علم النفس.

أ. تطور التطبيقات

ثلاثة أوجه حددت، على مدى هذا التطور، بدايات الممارسة في علم النفس: التشخيص بواسطة الروائز، علم نفس العمل، وعلم النفس العيادي (الإكلينيكي).

ففي سنة ١٨٨٤ أسس **فرنسيس غالتون** الشهير، ابن أخت **شارل داروين**، مختبر القياس الإناسي في معرض لندن للفنون، حيث كان بإمكان كل زائر أن يجري قياسات لنفسه في مجالات التشريح والفيزيولوجيا الحسية لكي يحدد مؤهلاته الشخصية. ودعا **غالتون** هذه الفحوصات روائز وهكذا فإنه لم يبتكر فقط كلمة، بل إنه اكتشف التشخيص بواسطة الروائز الذي انتشر وتطور فيما بعد (فصل ١٩).

وكان إدوار **كلاپاريد**، في بداية القرن العشرين، يدرس، كما كان آخرون يفعلون، ظروف العمل والتوصيف لدى عمال الساعات والشوكولاته في سويسرا. وفي الولايات المتحدة، طور **ج. س. هول وج. ماكين كاتل وهـ.مونستربرغ وو.د.سكوت** علم نفس العمل في عدة اتجاهات حتى إنه انتشر بعد قليل في الصناعة والمهنة والنقل.

وفي بداية القرن العشرين، أسس **إميل كريبلين ولايتنر ويتمر**، تلميذا **ڤونت**، علم النفس العيادي (فصل ٢٠) بفضل أعمالهما. غير أن **ويتمر** حقق نجاحات في فيلادلفيا أكثر مما حقق **كريپلين** في ميونيخ. وأدت هذه البدايات، في الولايات المتحدة أولًا ثم في أوروبا بعد ذلك بخمسين سنة، إلى أوسع ميدان لتطبيق علم النفس في الوقت الحاضر. ومنذئذ توزع هذا الميدان إلى مجموعة من الميادين الفرعية.

ب. أشكال التطبيق

وكما تفرعت المهنة، تعرّض نشاط علم النفس لتحولات. ونذكر هنا أهم المهامّ التي عليه أن ينهض بها:

التشخيص السيكولوجي بواسطة الروائز، تقييم الاستعدادات أو النقائص المتنوعة لدى مختلف الشركاء، أبحاث حول العادات العامة وهيكلية حاجات فئات الشعب، تشخيص وتصميم وتطور النصيحة السيكولوجية والعلاجية النفسية الفردية والجماعية مع أخذ التطور الاجتماعي في الاعتبار؛ دراسة إختبارية لمشاكل التطبيق الاساسية؛ إرصان أو اختبار مشاريع أو إصلاحات.

إن أشكال التطبيق تقتصر، بحسب **دورش** (١٩٦٣)، على مجالين من النشاط حدودهما مترجرجة هما: التفسير والتدخل.

(ب١) يفهم بالتفسير: تحديد الوقائع النفسية وشرحها. ويشمل تفصيلًا: وصف الأنشطة، تحليل الإنجازات، تعيين الأخطار، تمييز المواقف، شرح الآراء، وصف التحولات دوريًا، إجراء تحقيقات اجتماعية، تصوير مسؤوليات.

(ب٢) التدخل يغطي جميع أنواع السلوكات السيكولوجية: المساعدة، النصح، إعادة التوازن، الوصف، الإعلام، التنشيط، الإيحاء، التعديل، المساعدة وكل ذلك يتعلق في الممارسة، خاصة فيما يعني التدخل، بعالِم النفس وبخصوبة أفكاره.

ج. ميادين التطبيق

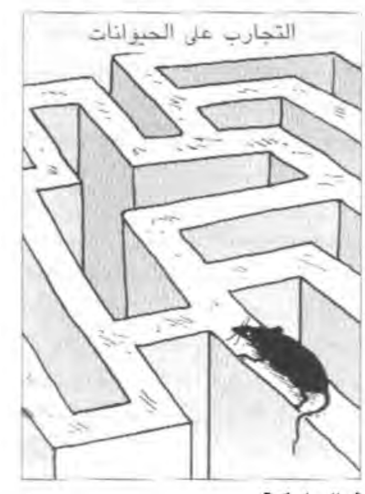
يشمل علم النفس التطبيقي، خاصة، علم النفس العيادي، علم النفس المؤسساتي التطبيقي وعلم النفس الاجتماعي التطبيقي.

يهتم **علم النفس العيادي** بوصف الأمراض (تصنيف الأمراض إلى ذهانات وعصابات)، وبعلم الأعراض (أشكال ظهور الإضطرابات)، بالأسباب (دراسة أسباب الإضطرابات)، بالأوبئة (خصائص انتشار الإضطرابات)، بالإرشادات (احتياطات علاجية معينة)، بأشكال العلاجات (١٤٠ نوعًا من العلاجات حاليًا)، بالوقاية (إجراءات الوقاية)، والأبحاث حول تنشيط العلاج.

يشمل **علم النفس المؤسساتي التطبيقي** علم نفس العمل والمؤسسة والمهنة كما يشمل علم نفس النقل، علم النفس القضائي (علم نفس الجريمة) ومختلف قطاعات علم النفس العسكري.

ويتألف **علم النفس الإجتماعي التطبيقي** من علم النفس الإقتصادي (من ضمنه دراسة نفسية السوق) وعلم النفس الدعائي، علم نفس وسائل الإتصال والبيئة والتسلية والرأي العام (وعلم نفس الشرطة)، علم النفس الثقافي (الإيديولوجيات)، كما يشمل بعض الميادين الضيقة مثل الرياضة (علم نفس التدريب الرياضي).

يمثل الرسم البياني (ج) توزيع مختلف قطاعات النشاطات المهنية في ألمانيا.



أ. السلوكية



ب. الظواهرية

دراسة طولانية

ج. المنظور التطوري

ارتجاع

د. علم النفس الفيزيولوجي



هـ. علم نفس الأعماق

تنظيم خارجي

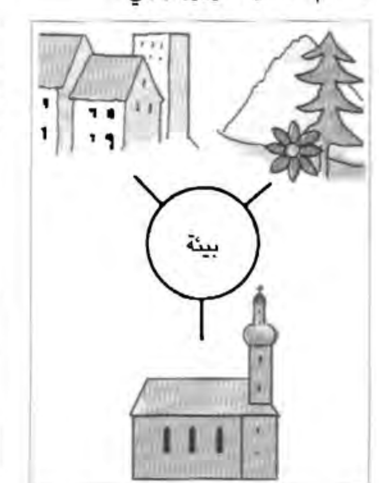
منظِّم

حلقة المراقبة

ماكنة التنظيم الذاتي

مصدر الضجيج

و. علم النفس المعرفي



ز. علم النفس البيئي

نموذج القارورة

$f_n(a_i) = p(X_n = a_i)$

ج. علم النفس الرياضي



ط. علم النفس التطبيقي

الميتودولوجيا (أو المنهجية) من كلمة يونانية (methodos) تعني الطريق، السبيل، المنهج. وهي تستعمل في معناها المجازي لتدل على طريقة بحث علمي. كل علم بحاجة إلى «طرق»، كهذه، عديدة. وفي علم النفس يمكن اختزال المناهج العديدة المألوفة ببعض النماذج (أنماط نماذج) التي يمكن أن نستنبط منها التوجهات النظرية الأساسية لعلم النفس العلمي.

أ. السلوكية

انطلق تيار البحث هذا عبر مقال **لجون برودوس واطسن** بعنوان «علم النفس كما يراه السلوكي» (١٩١٣)، ونال نجاحًا لم ينكره عليه أحد حتى هذه السنوات الأخيرة. ويتوقف علم النفس، استنادًا إلى هذا التوجيه، عند حدود المميزات السلوكية الظاهرة للعيان والخاضعة للقياس (علم نفس دون نفس، **ف. أ. لانج** ١٨٧٥)، لتحاشي العجز الداخلي لعلم النفس السابق. أُعطِي المركز الأول لإجراء التجارب على الحيوانات حيث كان يجب اختبار «الموضوعية» العلمية بالمعنى الذي يعطيه علماء الطبيعة لهذه اللفظة.

وضعت في اختبار المتاهة، مثلًا، أرقام أخطاء دقيقة لظروف مختلفة.

ب. الظواهرية

تعتمد الظواهرية، وهي علم قديم، على اختبار الذات أو الاستبطان (النظر إلى داخل الذات)، وتعني أيضًا كل عالم نفساني والشخص الذي يجري الاختبار عليه. وكانت الظواهرية قد تجددت على يد **إدمون هوسرل** (١٩٠٠) ثم انقسمت إلى عدة فروع منها النموذج المنهجي العام وهو دراسة الظواهر أي الأحداث كما عيشت لتوّها.

ج. المنظور التطوُّري

فرضت هذه الفكرة نفسها، منذ نظرية داروين عن التطور، على علم النفس أيضًا وتحت شكلي تكوين النوع (التكوين النفسي، مثلًا – علم النفس البيولوجي، أو علم الاجتماع البيولوجي) وتكوين الفرد (مثل الدراسة الطولانية لتطور حياة كاملة).

د. علم النفس الفيزيولوجي

تنامت مع تنامي الوسائل التقنية في الأبحاث الطبية، في الوقت نفسه، إمكانية قياس الحالات النفسية المرتبطة بالتغيرات الجسمية وزادت إمكانية التأثير فيها. والبحث في الارتجاع الإحيائي يقوم بالعمليتين (القياس والتأثير):

تلتقط، مثلًا، حالات التوتر الكهربائي في العضلات وتستخدم في الارتجاع (التغذية المرتجعة) كعامل تأثير على الحالة النفسية الجسمية للمريض.

هـ. علم نفس الأعماق

تأسس منهج التحليل النفسي مع «تفسير الأحلام» (١٩٠٠) وإن هذا التفسير هو أسهل طريق لدراسة الحياة النفسية اللاواعية في أكثر المدارس التابعة لعلم نفس الأعماق.

و. علم النفس المعرفي

نشأ علم النفس المعرفي عن دراسات **كولر** (١٩١٧) الخاصة بالقرود الشبيهة بالإنسان وعن ملاحظات **بياجيه** حول نمو ذكاء الطفل (١٩٢٧). ويتميز علم النفس المعرفي الحالي من المنهج الاختباري الخاص بالنظريات السلوكية المثير – الاستجابة (فصل ١/٩) في نطاق عدم توقع سببية خطية، لكنه ينطلق من التنسيق الذاتي للنظم المدروسة. وينتج من ذلك فارق من النماذج المنهجية المرتكزة على علاقات نظامية كثيرة التعقيد.

ز. علم النفس البيئي

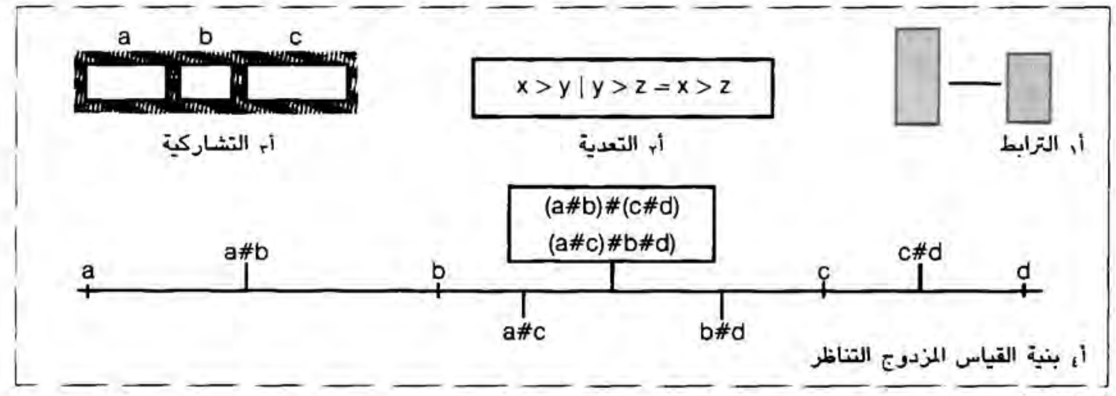
أدخل كتاب **هلباخ** «نفسُ الأرض Géopsyche ١٩١١ الوجه البيئي: «إن مدانا الحيوي الأرضي، الكرة الأرضية، هو وطننا الحقيقي الذي لا نستطيع مغادرته على الإطلاق». ومنذ ستينات القرن العشرين (خاصة **هـ. پروشنسكي**)، سلطت الأضواء على النقاط الثلاث التالية: العلاقات في الطبيعة، في الحضارة والعلاقات الثقافية. وبتعبير أدق الثقافية المتبادلة.

ح. علم النفس الرياضي

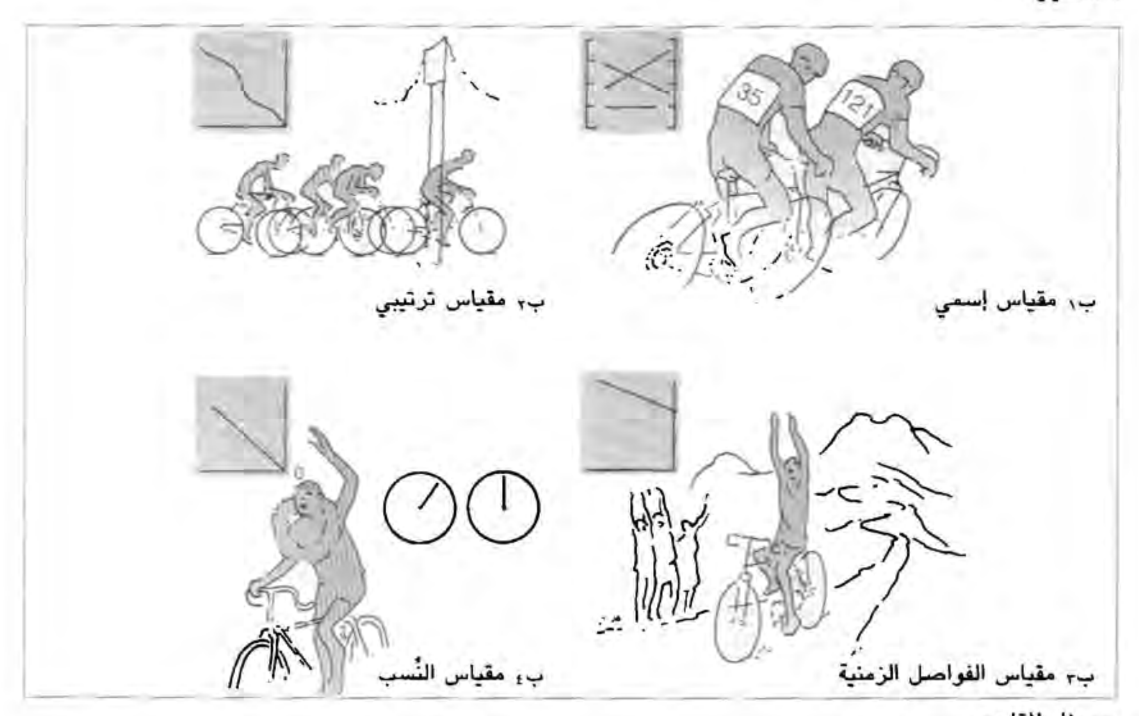
يُعنى علم النفس الرياضي، بنوع خاص، بمسائل نظرية القياس وبناء المقاييس (السلالم) (فصل ٢/٣)، ولكنه يُفهم هنا كمعبِّر منهجي عن مسائل سيكولوجية بلغة دقيقة وبتعبير أدق، رياضية. تؤرخ بداية هذا العلم بدءًا من تكيف نماذج علم الضبط أو التحكّم (cybernétique) ومن نظرية الإعلام (وخاصة **كومبس** ١٩٧٠). نستعيد، في نماذج القارورة، السياقات الصدفوية أو الاتفاقية. تصف الصيغة المذكورة سياقًا صدفويًا مستقلًا مع تعيين جميع توزيعات الإحتمالات. يكمن النموذج المنهجي في اختبار النماذج الصورية، مثلًا، بمقابلتها بعمليات التبادل الحقيقية للنمط خطأ – صحيح في عمليات التعلّم.

ط. علم النفس التطبيقي

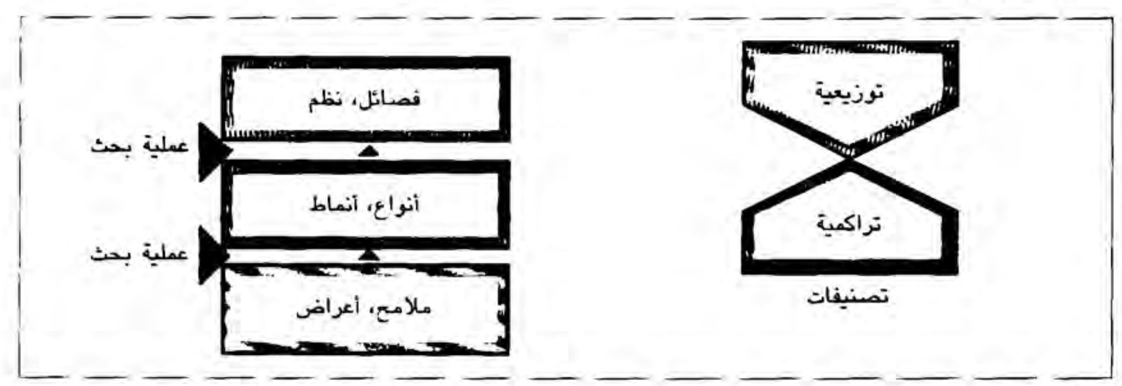
قلما سنحت الفرصة لعلم النفس التطبيقي أن ينكبَّ على التجارب المخبرية، فكان نموذجه المنهجي هو التحقيق في أرض الواقع على عينات مهمة من عامة الشعب. فحتّم هذا العمل تطوير مناهج جديدة تتكيف مع المسألة الخاصة. فكان أهم المسائل التي صودفت في هذا السياق هي صعوبة المعاطاة مباشرة مع العينة المعنية. ولهذا تركزت نماذج هذا التحقيق على المقابلات غير المباشرة. ومن الممكن دمج هذه الفروع التسعة لعلم النفس دمجًا جزئيًا من وجهة النظر المنهجية والمضمونية. يتحصل من ذلك تنوع في وجهات النظر يهدد علم النفس نفسه بالتصدع.



أ. التمثيلية



ب. بناء المقاييس



ج. التصنيف

ـ قوال **غاليليه** (١٥٦٤–١٦٤٢): «قِسْ ما يمكن قياسه أما ـ لا يقاس فاجعله قابلًا للقياس». هذا المبدأ هو شرط مسبق ـضـع القوانين. وإن هذه المهمة هي في غاية الصعوبة في ميدان عـم النفس.

ـ. التمثيلية

ـقرـ في المؤلَّف الهام للعالم **س. س. ستيڤنس** (١٩٥٩)، ما معناه: «القياس هو نسبة أعداد إلى أشياء أو إلى أحداث استنادًا ـ بعض القواعد». وهذه النسبة لا تثير أي مشكلة في العلوم ـفيزيائية، فهي تتم بواسطة «القياس الأساسي» لدرجات ـصـعرة ما بتعابير كالطول والحرارة والزاوية والوزن والحجم ـ ـشحنة الكهربائية. فالحياة النفسية هي، في الواقع، جسدية ـهي، في الوقت نفسه، لامادية (فصل ٥): فمن المستحيل أن ـقوـ إن أحدهم يحب فتاة ما ٣,٥ أمتار ونصف المتر. فالقياس يجب أن يكون حتمًا قياسًا استنتاجيًا وليس قياسًا أساسيًا. ـ هنا أهمية أن نتحقق، بطريقة دقيقة وأمينة وممكنة، من أن ـاحداث النفسية هي لغويًا «قابلة للقياس».

عـما نريد أن ننسب أعدادًا إلى أحداث تجريبية، يجب أن تكون ـ الأحداث خاضعة لشروط معينة.

ـ يشترط الترابط أن تكون الحوادث معطاة، على الأقل، في حـثين قابلتين للنسخ: وخاصة أكبر من أو حتى أصغر من أو ـسـوية.

- وتشترط التعدية أنه، إذا كانت x أكبر من y وy أكبر من z ـ x تكون حينئذٍ أكبر من z.

-. إذا وضعنا ثلاثة قضبان في صف واحد فإن سلسلة a, c وتغيرات أخرى مختلفة (ندعوها تشاركية، رتابة، ـجـبية ومسلمة أرخميدس) لا تلعب أي دور في ما يعني ـطـوـ الإجمالي.

ـكن ليس من السهل التحقق من هذه «البداهات» في كل حالة معينة. وهذا يعود أيضًا إلى أنه يوجد عدد كبير من بُنى القياس ـمكنة من بينها بنية التناظر المزدوج (أ٤). وبما أن القيم ـركزية مثل (a#b, a#c, b#d)... هي عمليات ثنائية في تقييمات مقارنة فليس من الضروري أن تتطابق مع مقاييس موضوعية.

ب. بناء المقاييس

ـيـست القيم المقيسة بمعزولة. فلكي نرتبها نضعها على اتصال فيما بينها وذلك بإنشاء تصنيفات، وهذا يحدث عادة بتجميع ـقيم (مثلًا: المداخيل السنوية بين ٢٠٠٠٠ و٤٠٠٠٠ مارك ـاني). تحدد المقاييس أشكال توصيفات لسلسلة من المعطيات ـعددية. تمثل توصيفاتها الإحصائية فروقًا ضخمة.

(ب١) **المقاييس الإسمية** تتعلق فقط بالإنتماء إلى فئة بكلمتي حضور (١) أو غياب (صفر) سمة مناسبة.

مثال ذلك، أن أرقام العدائين الموجودة على ظهورهم تتيح الحصول على عدد المتبارين (إلا إذا كانت بعض الأرقام غير موجودة عند التفقد). القياس الإسمي هو مجموعة من الفئات غير المرتَّبة.

(ب٢) **المقاييس الترتيبية** أو بحسب المراتب تفرض بيانات نسبية من نوع: أفضل من / أسوأ من، أكبر من / أصغر من..

وعند الوصول لا يؤخذ في الإعتبار سوى رتب العدّائين ١، ٢... تذكر المرتبة دون ذكر الفواصل الزمنية التي تفصل بينها. القياس الترتيبي هو مجموعة من الفئات المرتبة.

(ب٣) **مقاييس الفواصل** تستخدم قياسًا وتعيّن الفروق بين القيم المقيسة. مقياس الفواصل هو مجموعة من الفئات مرتبة مع تقدير المسافات.

وعند المحطات، تحدد قيم النهار، بالنسبة إلى المتبارين، عندما تُعطى، بوحدات الزمن، الفرق الدقيق الذي يفصل بعضها عن بعض.

(ب٤) تبدأ **مقاييس النِّسَب** (المقاييس النسبية مع تغيرات في التحديد)، من الصفر الحقيقي لوحدة القياس المستعمل وتعين القيمة الإجمالية. هذه هي الحالة الوحيدة حيث لا يستحيل إجراء مقارنة نسبية للقيم.

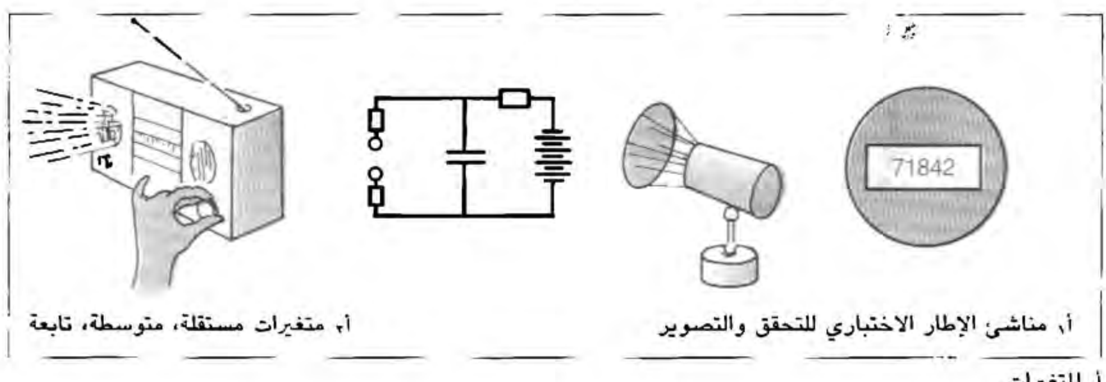
توضح نتيجة سباق دراجات بقائمة إجمالية لمجموع الأوقات من صفر عند الإنطلاق بالنسبة إلى جميع المتبارين حتى القيمة المحددة عند وصول كل واحد في آخر أيام المباراة.

لهذه الأنماط الأربعة من المقاييس أشكال متوسطة: إنها إجمالًا تراتبية، أي نمط ٢ يحتوي نمط ١...

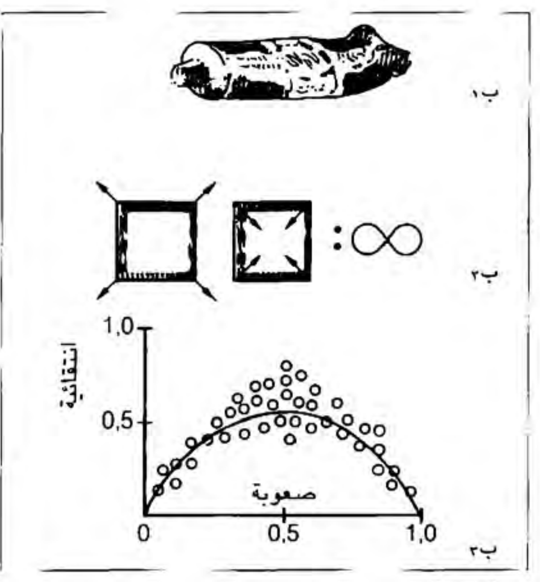
ج. التصنيف

نادرًا ما تكون القياسات والمقاييس المرحلة الأخيرة من الإعداد العلمي. ويبذل جهد كبير لتمييز الخطوط المناسبة ليس فقط «بالمثال» و«بأنماط العلاقة»، ولكن أيضًا «بالفصائل». وتوجد أيضًا مستويات مختلفة للتوزيع إلى فئات. التصنيف الوحيد هو الذي يضعه مؤلف كتاب يرتب فيه الإضطرابات النفسية داخل مخطط إجمالي خاص به. تعتمد التصنيفات الجماعية على اختصاصيين عديدين ويمكن تلخيص نُظُمهم. تحاول التصنيفات الخاصة أن ترتفع فوق المستوى الإسمي الأدنى. يتم التوزيع الأساسي على مستوى القياس الترتيبي. وتكون التصنيفات الخاصة في أكثر الأحيان تراتبية خاصة: تصاعدية (من أسفل إلى أعلى) أو تنازلية (من أعلى إلى أسفل). وتتميز عندئذ بعدد مستوياتها. يكون المستوى الأدنى، بالنسبة إلى التصنيفات التصاعدية هو مستوى الخط الخاص (مثل أعراض اضطراب نفسي). تتطلب الملامح الخاصة المساواة الداخلية (التجانس) وعدم المساواة الخارجية (العزل).

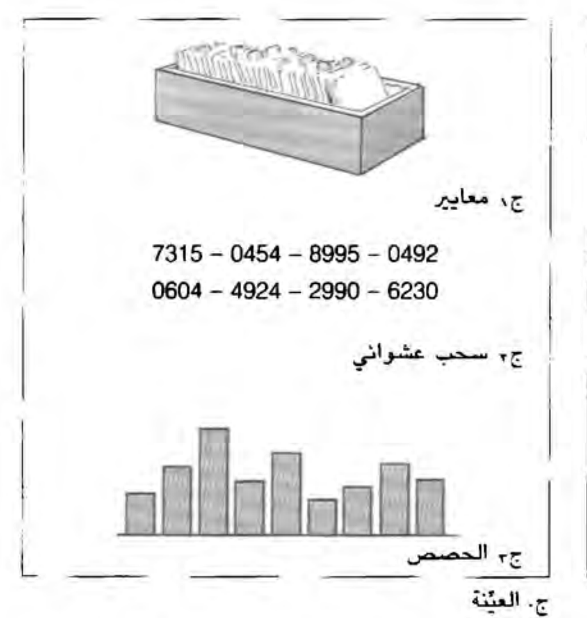
يختزل، بواسطة عمليات بحث مناسبة (تحاليل عواملية)، عدد الظواهر إلى أنواع أو أنماط، فيؤدي هذا، كما في تصنيف **ليتيه**، إلى فصائل أو نظم من الظواهر النفسية.



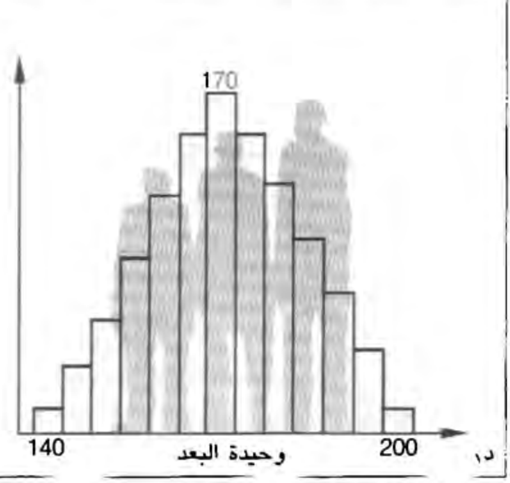
أ. المتغيرات

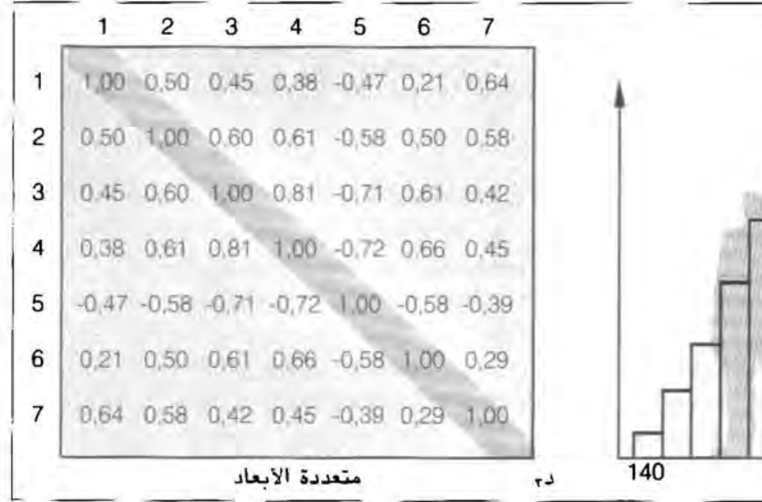


ب. فهرسة



ج. العيّنة





	1	2	3	4	5	6	7
1	1,00	0,50	0,45	0,38	-0,47	0,21	0,64
2	0,50	1,00	0,60	0,61	-0,58	0,50	0,58
3	0,45	0,60	1,00	0,81	-0,71	0,61	0,42
4	0,38	0,61	0,81	1,00	-0,72	0,66	0,45
5	-0,47	-0,58	-0,71	-0,72	1,00	-0,58	-0,39
6	0,21	0,50	0,61	0,66	-0,58	1,00	0,29
7	0,64	0,58	0,42	0,45	-0,39	0,29	1,00

د. مصفوفة المعطيات

قبل انطلاقة علوم الطبيعة، في منتصف القرن التاسع عشر، كانت تجري محاولات لفهم «جوهر» الحياة النفسية على مستوى العقل. ومنذ ذلك الحين استخلصت معطيات محسوسة، أخذ منها، فيما بعد، نتائج تخص «جوهر» الحياة النفسية. ولكن لا يعني هذا أن هذه الطريقة حلت جميع المسائل المتعلقة بالأسس المنهجية.

أ. المتغيّرات

قبل التساؤل عن كيفية الدرس وعما هو المدروس يجب الإجابة عن السؤال: ماذا ندرس؟ الجواب العام هو التالي: المتغيرات، أي الملامح الخاصة لحالة معرضة للتحول. يكمن «التحول»، غالبًا وببساطة كلية، في غياب الصفات المميزة أو في حضورها. إن هذا التغير هو ما يجعل الصفات المميزة مُدْرَكة منهجيًا. وبعد هذا يجب ألا تغفل «الثوابت» أو «اللامتغيرات» أي ما لا يتغير: تحاول جميع العلوم فهمها وتثبيتها في صيغة قوانين.

المتغيّرات هي معايير، صفات مميزة، أعراض، تسميات، تعريفات مفيدة من وجهة نظر العلم وهي إلى حد ما مبنية (راسخة). نميز:

(أ١) مناشئ الإطار الإختباري (كالعدّادات) قابلة للتحديد مباشرة. مناشئ التحقق (كالإنارة) وهي خصائص نغيرها أثناء التجربة، مناشئ الصورية (إعادة تشكيل كهربائي للخلية العصبية)، هي نماذج تتيح دراسة المميزات الطبيعية.

(أ٢) تمييز آخر يعني الوظيفة الإختبارية: المتغيرات المستقلة (...) هي مميزات تتبدل أثناء الإختبار تبعًا لتصميم مُعَدّ سلفًا ويلاحظ أثره على المتغيرات التابعة (aV). المتغيرات المتوسطة (...) هي حلقات افتراضية قائمة بين المتغيرَين ولا يعرف لها أي ميزة سوى التبعية. مثلًا، جهاز راديو: متغير مستقل = إدارة زر الضبط؛ متغيِّر تابع = تبديل حجم الصوت؛ متغيِّر متوسط = تحول في الداخل.

ب. الفهرسة

يجب، في كل موضوع دراسة، وضع مجموعات المميزات المتغيرة مسبقًا.

(ب١) لتحليل موضوع ما، مثلًا، تحدَّدُ آثارُ الإستعمال المتروكة على أنبوب، الخصائصَ التي يجب درسها. الهدف المتوخّى هنا هو الوصف النفسي الشامل.

(ب٢) وبما أن هذا الوصف لا ينتهي عمليًا، نُجري اختبارًا اقتصاديًا في اتجاهين: نحو الداخل على الخصائص التعريفية، ونحو الخارج، على الخصائص المميزة بالنسبة إلى موضوعات أخرى.

(ب٣) الشيء الجوهري هو الإنتقائية (الحساسية) أي إمكانية تحديد الفرق، مثلًا، في رائز، بين النتائج الجيدة والنتائج السيئة. يتم تحليل صعوبة الأسئلة في رائز (فصل ١/١٩) تبعًا لهذه الصيغة:

$$P = \frac{N_R}{N}$$ (N_R = عدد الإجابات الصحيحة)

ج. العيِّنة

إن دراسة المرجع بكامله أو الشعب عامة (سكان بلد ما مثلًا) هي أكثر الأحيان مستحيلة. يجب الإكتفاء بعينة واحدة، ومن الأهمية بمكان، حينذاك، أن يكون التوافق دقيقًا وممكنًا بين العينة والشعب الذي أخذت منه العينة.

(ج١) يجري الإختيار على بطاقات من الشعب بكامله تبعًا لمعايير معينة.

(ج٢) ثم تسحب البطاقات بالقرعة عشوائيًا: وينتج عن هذا المثال خط جدول تيبت (Tippet) الذي يتم اختيار البطاقة التالية استنادًا إليه. وعندما تكون البطاقات قليلة، تكون المئات منها بل العشرات كافية: ١٥ – ٥٤...

(ج٣) تنطبق طريقة الحصص على الخصائص الإحصائية للشعب المذكور (النسبة المئوية لفئات العمر، مثلًا). ويمكن، في هذه الحال، استدلاليًا، تدوير الفئات غير الممثلة بشكل كاف وإجراء تصحيحات إذا تضمنت النتائج أخطاءً محدّدة.

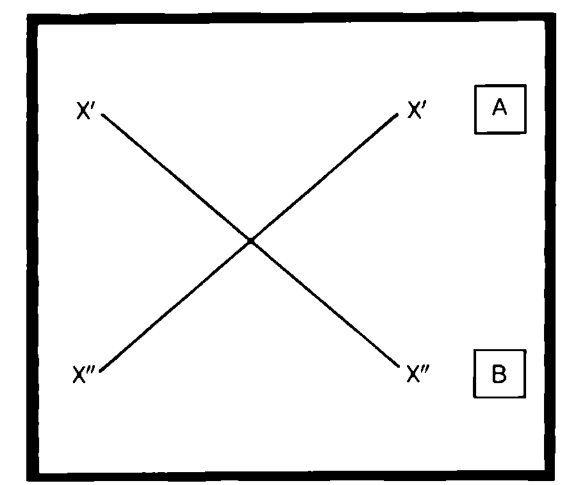
د. مصفوفة المعطيات

يمكن إعداد نتائج استقصاء، أي «المعطيات» للحصول على معلومات إضافية. والأمر معروف جيدًا منذ إجراء النقاش حول المعلوماتية والحريات. والمعالجة الأساسية التي تخضع لها المعطيات هي تصنيفها في مصفوفة أو مخطط للمعلومات.

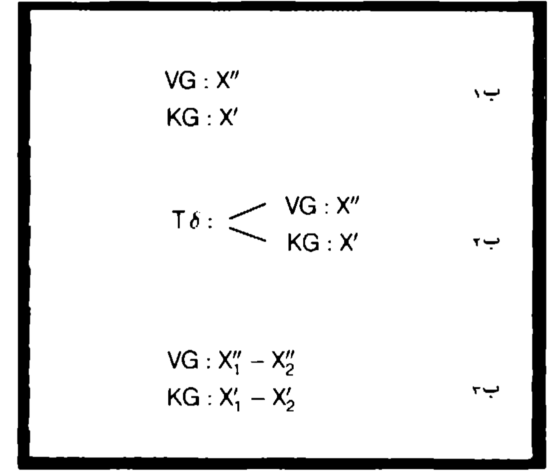
(د١) مثال ذلك: التشكيل الوحيد البعد، وهو هنا الرسم البياني لقامات فئة معينة.

(د٢) نجد هنا رسمًا لمصفوفة متعددة الأبعاد وهي جدول الإرتباطات بين سبع خصائص مختلفة. ليست القيم التسع والأربعون المحتملة، في هذه المصفوفة، جميعًا مفيدة. يُبرز القطاع الأصفر قيمًا متساوية فيما بينها والمثلث البنفسجي اللون هو صورة متطابقة (كصورة المرآة) للمثلث الأزرق العلوي. وينتج عن ذلك أن الأرقام الواحد والعشرين في المثلث البنفسجي هي وحدها مفيدة. والقيم نفسها في هذه الحال هي «خفية» لأنها، بخلاف القيم المتتابعة، مقسومة إلى فسحات محددة عدديًا.

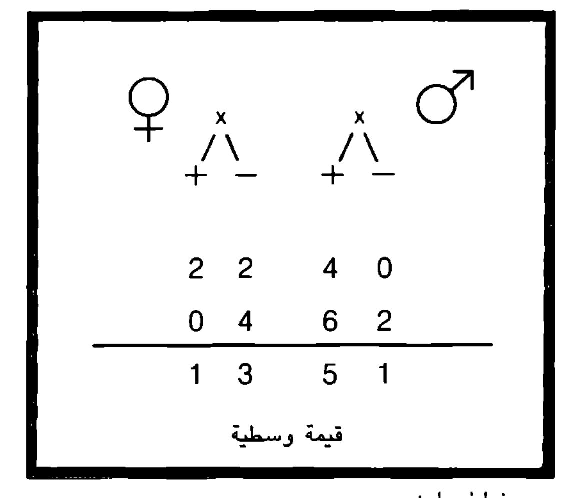
وعلى أية حال، فإن المعطيات تتأثر بالشكل الذي يتم الحصول عليها به، أي إن تحديد الطريقة يحدد ملاءمتها. ومن المهم، بعد ذلك، أن نتساءل عما إذا كانت الطريقة قد طبقت تطبيقًا صحيحًا. وغالبًا ما تتغيّر المواقع العامة في جمع المعطيات. يميز علم نفس الشخصية، استنادًا إلى **كاتل**، معطيات L (مقاييس تقييم الشخصية)، Q (إستمارة معلومات، تقييم ذاتي) وT (نتيجة الروائز).



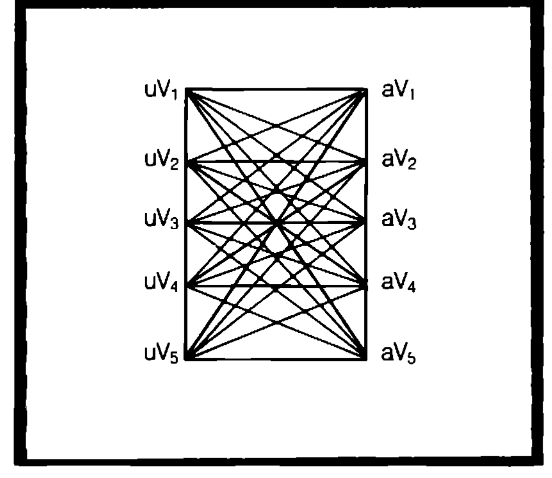
أ. المخطط المتصالب



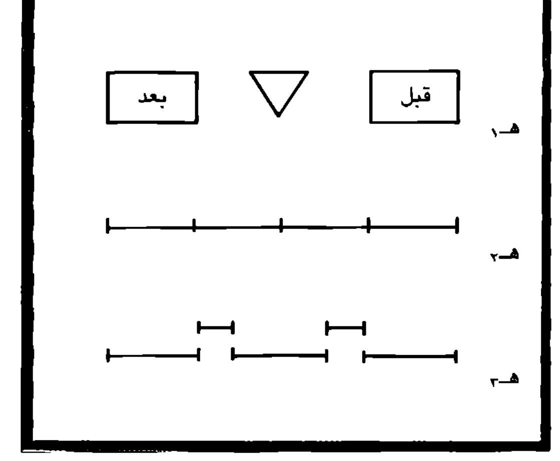
ب. مخطط ذو فريق ضبط



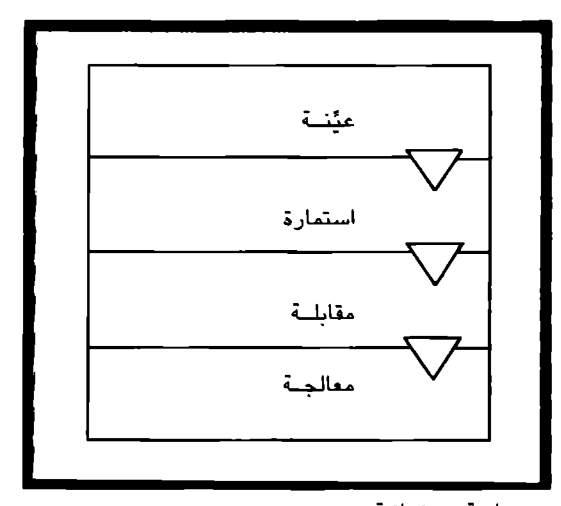
ج. مخطط عاملي



د. مخطط متعدد المتغيرات



هـ. دراسة طولانية



و. دراسة عرضانية

من الطبيعي ألاَّ تكفي، لمراقبة تأثير المعالجة، دراسة حالة المريض بعد العلاج. حتى إن الشكل الموسع نوعًا الذي يقوم أولًا على قياس الحالة عند البدء بالعلاج والحالة التي تليه لاحقًا، يمكن أن يكون مصدر أخطاء وذلك لأن الرائز نفسه يمكن استيعابه أكثر في المرة الثانية أو أن تحسينًا مستقلًا (خمودًا تلقائيًا) قد حدث للإضطراب فيما بين ذلك. وإن ما يسمى تنسيق الاختبار يتضمن استخدامًا مدروسًا لتصاميم الإختبار الملائمة. وإليك، من هذه المخططات الممكنة، ما هو أساسي.

أ. المخطط المتصالب

إن المخطط المتصالب هو نموذج للأجهزة البسيطة ذات الترداد المتوازن. فئة A منتقاة عشوائيًا تقابل فئة B. ونجري أولًا اختبار الفئة A (رائز تركيز، مثلًا) مع المتغير المستقل X' (بدون ضجيج، مثلًا) ثم نطلب عملًا مماثلًا يتلاءم مع المتغير X'' (مع ضجيج). يُعتمد بالنسبة إلى الفريق B الترتيب المعكوس: X'' ثم X'. ونؤكد الفرق بين X' وX'' مع رائز ستودنت (t) (فصل ٤/٤)، ويمكن جعل هذه العملية، مثل جميع العمليات، أكثر تعقيدًا وذلك، مثلًا، بواسطة تنسيق مرآتي (بالنسبة إلى مرآة تراز الفئتان بالترتيبين الماثلين.

ب. مخطط ذو فريق ضبط

لا يصلح المخطط المتصالب عندما يكون للمتغيِّر المستقل (العلاج النفسي، مثلًا) تأثير دائم. ففي هذه الحال يستخدم الباحث، في أكثر الأوقات، مخططات لنمطين من الفئات.

(ب١) يقسم الأشخاص الخاضعون للاختبار، بعد سحب بالقرعة، إلى فئتين متساويتين: فريق اختباري (VG) ونطبق عليه آلية اختبار X'' (علاج محدد مثلًا)، وفريق ضبط (KG) مع آلية X' (بدون هذا العلاج). يمكن تحسين هذا النمط من التخطيط بفصل VG عن KG بواسطة رائز مسبق (ب٢) δ ، أو بطريقة أدق بتحديد الفروق الناتجة عن القياس المزدوج (ب٣). ويمكن بالتالي إكمال العمل بواسطة نماذج دمج تراتبية.

ج. مخطط عاملي

من الواقعي، بالنسبة إلى بعض الأبحاث، أن ننطلق من عدة متغيرات مستقلة. فيُلجأ، في هذه الحال، إلى مخططات عاملية. وأبسط أشكال المخطط العاملي هو صيغة 2X2.

ففي المثال (ج) نواجه مرتين عامل الجنس (امرأة، رجل) بالعامل X (هواية الرياضة، مثلًا) ويحسب المعدل الوسطي. ويمكن البحث، انطلاقًا من هنا، عما إذا كان يوجد ترابط، أو بكلمة أدق، تفاعل، بين الجنس والهواية (X).

د. مخطط متعدد المتغيرات

ينطلق هذا النوع من المخططات من واقع أنه يوجد إلى جانب عدة متغيرات مستقلة (uV)، أكثر من متغير واحد تابع (aV). وبما أن إشكاليات عديدة، في علم النفس، على علاقة بالمتغير التابع (aV) لا يمكن صياغتها إلا بطريقة تعدد المتغيرات، فإن هذا النوع من الأبحاث يوفِّر تنوُّعًا ضخمًا من التقنيات.

تتطلب هذه التقنيات اكثر الأحيان، عمليات حسابية طويلة جدًّا، إلى درجة أنها تستدعي اللجوء إلى الحاسوب فنجهز له برامج لتحليل التغاير المتعدد التغيرات (MANOVA).

هـ. دراسة طولانية

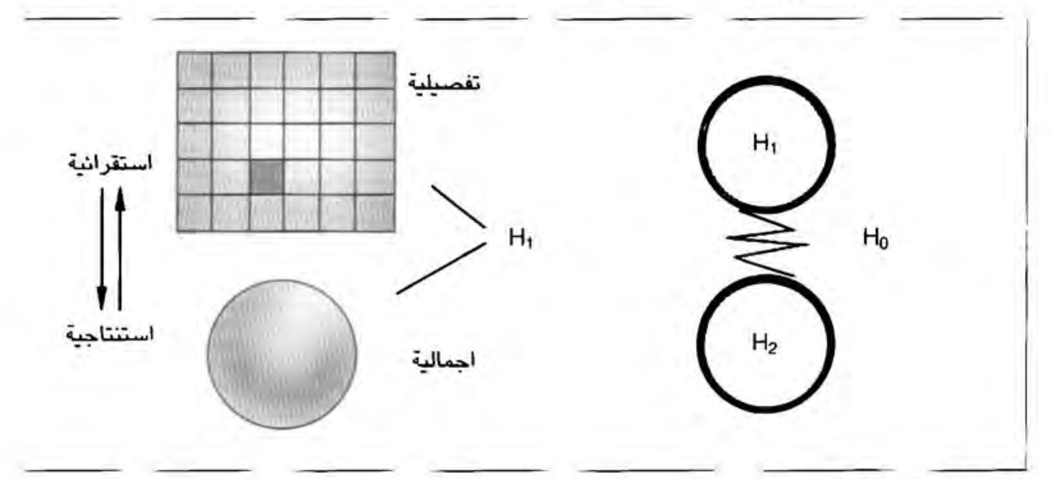
جميع أجهزة البحث المذكورة أعدت لدراسة قصيرة أو نسبيًا محددة في الزمن. فمن المفيد، غالبًا، والحالة هذه، أن ندرس التحول الزمني لبعض الخصائص. وإن المتغير الفردي هو مهم جدًا لهذا النوع من الإشكاليات. لذلك من الأجدر، قبل كل شيء، دراسة حالات فردية حتى ولو كانت غير مقصورة على شخص واحد. ولكي تحتفظ هذه الإجراءات بالوضع العلمي نفسه للإجراءات السابقة، تجري المعالجة الكمية للملاحظات بعرض إحصائي ضخم يقيها، في الوقت نفسه، لعبة الصدف (**هوبير** ١٩٧٣).

وأبسط أشكال الدراسة الطولانية (هـ١) هو دراسة الـ قبل – بعد (قبل الحدث وبعده) ثم إيجاد دراسات طويلة الأمد (هـ٢) (النمو النفسي للأطفال الألمان الذين ولدوا بعد الحرب مثلًا: **تومِه**، الخ. حتى سنة ١٩٥٤) حتى دراسات أبحاث طولانية مدرَّجة (هـ٣) (أوجه الحياة وأوجه البحث يتعاقبان في فسحات ثابتة) وتحاليل المتواليات الزمنية (فصل ٨/٤).

و. دراسة عرضانية

إن الإستفتاء الشعبي (وهو أحد مناهج استطلاع الرأي، **نويل – نيومن** ١٩٦٤) هو ما عرَّف هذا الجمهور العريض بهذا النوع من المخططات. ولكن هذا ليس على قدم المساواة مع التقنية نفسها. وفي الإستطلاعات العرضانية يُستفتى في أغلب الأحيان ٢٠٠٠ شخص يختارون تبعًا لمعايير العينات المذكورة أعلاه. إن إحدى المهمات الأساسية لعلم النفس في هذا النوع من التحقيقات هي صياغة أسئلة ليست إيحائية ولا تتطلب الكثير من التفكير. يقوم بالمقابلة ومعالجة المعطيات، في أكثر الأحيان، أشخاص مثقفون ناضجون.

وإن التحقيقات، على جداول، التي وضعها **لازارسفيلد** سنة ١٩٣٨، تمزج الأبعاد الطولانية بالعرضانية: تقوم هذه الطريقة في تحليل العمليات على مقابلة المواقف في مجموع الشعب خلال مرحلة طويلة نسبيًا وعلى فترات منتظمة وذلك لمعرفة ميول الرأي العام ولتوقّع تطورات محتملة.



أ. فرضيات إحصائية

معيار

معالجة
شعب

أثر

معالجة
شعب

ب١ فرضيات الترابط

ب٢ فرضيات تفاضلية

T_1
T_2
T_3
T_n

y_1
y_2
y_3

ب٣ فرضيات حول التغير

ب٤ فرضيات حول الحالة الفردية

ب. فرضيات البحث

يجب، في البحث العلمي، أن نُخضِعَ للنقد ما ننوي بحثه. هذا ما نسميه صياغة الفرضيات. إليك كيف يحدد **سيلغ وبوير** (١٩٧١) هذه الخطوة الأساسية: «إذا كانت المسألة دون جواب يحقق بالتجربة، تكون الفرضية حينئذ صيغة تعني الجواب التجريبي المؤمّل». غالبًا ما يساء تقدير صياغة الفرضيات من وجهة النظر المنهجية فتعتبر الجزء الأكثر إثارة للإهتمام بالنسبة إلى المرحلة التحضيرية من البحث، لأنه عند هذا المستوى تُبَتُّ مسألة خصوبة الإشكالية.

أ. فرضيات إحصائية

الفرضية هي اتهام. هذا التعبير «السلبي» يكتسب هنا معنى «إيجابيًا»: إفتراضًا محددًا يُقْحَم كمحاولة تفسير وثمة مجال للتحقق من صحته. من أجل هذا، يوضع شرطان أساسيان للنص الإفتراضي:

أ) وضوحه (يجب أن تتحاشى الفرضية التناقض في المفردات واللبس).

ب) جعله إجرائيًا (يجب أن تكون الفرضية قابلة للتحقق بطرق خاصة).

وليس من السهل دائمًا تحقيق هذين المطلبين.

وتبعًا لموضعة الفرضية في برنامج البحث، نميز بين فرضية بدائية (هي إلى حد ما الخطوة الأولى، المحاولة الأولى لوضع نظرية) وفرضية تقريرية (تنهي المناقشة، أو.. أو..). وبين هذين القطبين مجموعة من الفرضيات، هي الخطوات التي تحدد معالم التقدم نحو نظرية إجمالية أو نحو حل المسألة. نميز منطقيًا بين الفرضيات النظرية والفرضيات المحسوسة التي ترتبط بالتوضيح الإرتدادي لبعض الوقائع ويفترض أنها تحمل بعض التفسيرات المتعلقة بها.

(أ١) تمايز جوهري على الصعيد الإحصائي هو تمايز يمت بصلة إلى فرضية الصحة والصلاحية. وما نسميه فرضية باطلة ينص على أن العلاقة المفترضة غير موجودة. بمقابل ذلك، هناك الفرضية المناوِبة (وتسمى أيضًا فرضية العمل) التي تعني العلاقة المفترضة. يرمز إلى الأولى بحرف H_0 وإلى التالية بحرف H_a أو بالأحرى بـ H_1 (لأنه يمكننا أن نتابع ذلك بـ H_2، H_3...). تعطي فرضية H_0 موضوعية لموقف الباحث وتلطف ما في توقعاته من مبالغة.

(أ٢) تقسم فرضية H_1 إلى فرضيات دقيقة منتظمة و(نحصل منها على خلاصة استقرائية تعني الشمولية) وإلى فرضيات إجمالية (معدة لتوضيح إشكالية رحبة، يمكن الحصول منها على خلاصة إستنتاجية). الاستقراء والاستنتاج يكمل أحدهما الآخر.

ب. فرضيات البحث

الفرضيات هي مراحل على درب توصل من فكرة بحث (صيغت على شكل «قضايا») إلى هدف يمثله برهان تناسق. تصاغ الفرضيات عادة على شكل علاقة: «إذا... إذًا...»). يجب تخطيطها كتأكيد للقضايا وتحقيقها اختباريًا وتأويل النتائج وتقويمها. يمكن تصنيفها إلى أربع فئات استنادًا إلى اتجاهاتها الحاسمة (**بورتس** ١٩٨٤).

(ب١) **فرضيات الترابط**. نحاول تحت إسم التحليل الترابطي، في هذه الفئة، توضيح العلاقة السببية. يمكن الإفتراض، مثلًا، أنه يوجد ترابط بين تواتر التدخلات في مناقشة عضو (معيار) جماعة مؤلفة عشوائيًا وبين مستوى الذكاء الذي ينسبه إليه المشتركون الآخرون (متنبئ). يتوقف الأمر حينئذ على التأكد من فرضية الترابط هذه بواسطة نموذج خاص بالبحث.

(ب٢) **فرضيات تفاضلية**. «هل لهذه الطريقة من المعالجة من معنى؟ – هل من فرق بين النساء والرجال من وجهة نظر قيادة السيارات؟». تهدف هذه التحليلات التفاضلية إلى قسمة مئوية لواقعين (معالجة، شعب) منقولين إلى مجال التأثيرات.

(ب٣) **فرضيات حول التغير**. إن لتحليلات التبدل حظًا وافرًا (إنها تستغرق نصف طاقات البحث. **بالتس** ١٩٧٧). لكنها تظل من الإشكاليات لأنها تُبقي من المسائل المعلقة أكثر مما تحل. إليك بعض الفرضيات اليومية النمطية: التلفاز مضر بالأولاد... الشفاء رهن بإرادة الشفاء... المدرسة تطمس عبقرية الأولاد الخلّاقين! إشكاليات هي المتغيرات الأخرى المستقلة (y_3) يظل تأثيرها مجهولًا (فصل ٦/٤).

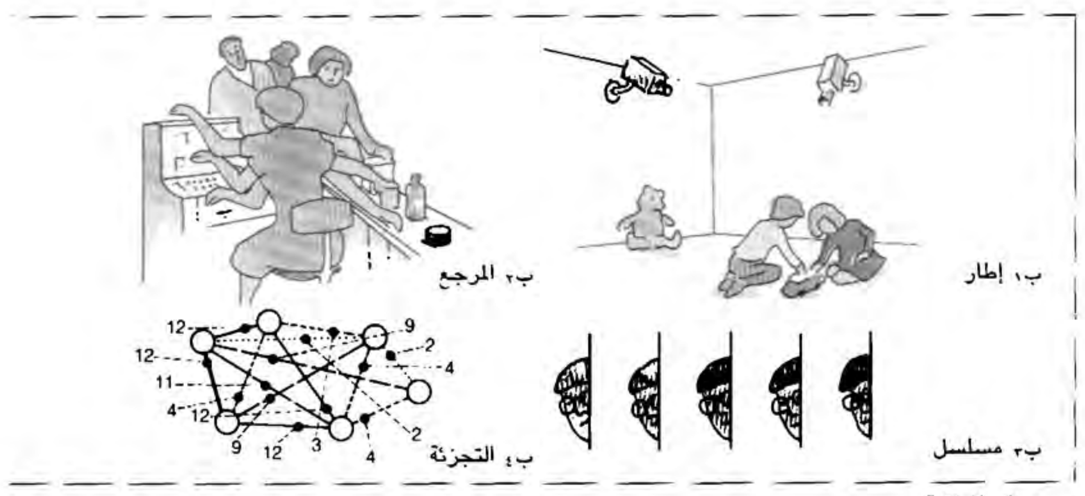
(ب٤) **فرضيات حول الحالة الفردية** كثيرًا ما يهتم علم النفس، إنسجامًا مع رسالته، بالحالات الفردية. عندما يتعلق الأمر بالبحث عما سبب فعلة المتهم، فإن ما يعرف عامة عن ردود الفعل الإنسانية لا توفر فائدة تذكر. تستخدم في مجال علم النفس التشخيصي (فصل ١٩) «مجموعة من الروائز» (أي أنساق من عدة روائز تتراوح بين T_1 و T_n) تتخذ شكل «جانبية روائز» وتوفر للمشخِّص بعض الأدلة، مثلًا، حول درجة الذكاء الفردي. تتميز فرضيات هذا النمط من فرضيات أخرى بكونها موحدة النمط بشكل عام، بمعنى أن المشخِّص يعتمد على التأكيد الإفتراضي لمعايير صحة الرائز المطبق، كما تقوم بذلك نظرية الرائز وبنيته.

ويمكن أن يقال بشكل عام، فيما يخص الفرضيات، إننا لا ننطلق من تأكيد حاسم ولا من رفض بات، ولكننا نتحدث فقط عن تأييد أو رفض فرضية العدم.



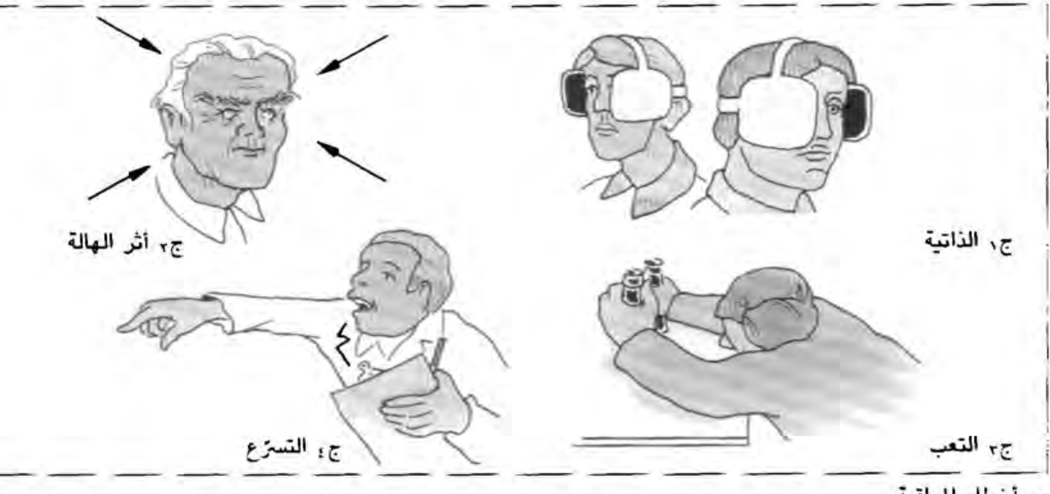
أ١ القياس
أ٢ المراقبة الذاتية
أ٣ مراقبة الآخر
أ٤ المراقبة المشتركة
أ٥ مراقبة الجماعات
أ٦ المراقبة الفوقية

أ. أشكال المراقبة



ب١ إطار
ب٢ المرجع
ب٣ مسلسل
ب٤ التجزئة

ب. مجال المراقبة



ج١ الذاتية
ج٢ أثر الهالة
ج٣ التعب
ج٤ التسرّع

ج. أخطاء المراقبة

بحث علم النفس عددًا كبيرًا من طرق البحث يستحيل الإحاطة بها جميعًا. غير أنها جميعًا مبنية على ثلاثة مبادئ يمكن الدمج بينها: الإدراك المنظم، السؤال المطروح بوعي (فصل ٧/٣) والاختبار الموجَّه (فصل ٨/٣).

أ. أشكال المراقبة

تشتمل الفئة الأولى من الطرق، على غرار الإدراك الحسي المنظم والمراقبة، على سلسلة من أشكال المعاينة.

القياس. قليلًا ما يوجه إلى القياس اللوم الدوري «بعدم علمية» طريقة المراقبة. لكن الأمر يتعلق أيضًا بإدراك حسي (في كثير من الأحيان نظري)، ولكن ليس الحدث وحده ما تجري مراقبته، لأنه يُستخدَم جهاز تقني (مثل الكرونومتر والعقانومتر وجهاز تخطيط متعدد، مثلًا، بالنسبة إلى العمليات الفيزيائية الجسيمة) يركز المراقبة لكي تكون «مقروءة».

- **المراقبة الذاتية**. هي الشكل الذاتي للمراقبة. لقد استطاع **إبنغهاوس**، في بداية القرن (العشرين)، أن يقيم برهانًا على نسبيته العلمية بحفظه غيبًا مقاطع كلامية عارية من أي معنى (مثل نن، مِف)، ثم سجل منحنى النسيان على مدى سنوات. ولا تزال نتائج مراقبته الذاتية تحتفظ بصحتها المبدئية.

- **مراقبة الآخر**. لا شك أن مراقبة الآخر هي في أساس أكثر المعلومات التي توصل إليها علم النفس. وتحاشيًا لإرباك الشخص موضوع التجربة بالتحديق إليه مليًا، الأمر الذي يفسد النتائج، تستخدم، غالبًا، أجهزة وقاية، مرآة صافية، مثلًا، أو آلة تصوير، كي لا يشعر الأشخاص المراقبون، وخاصة الأولاد، بشيء من الإزعاج.

المراقبة المشترِكة. لا يُعرف المراقِب، في هذه الحال، من قبل أعضاء الفريق المراقَب. فبإمكان المراقِب، مثلًا، أن يشارك في لعب الفريق.

مراقبة الجماعات. نهتم، هنا، بعدد أكبر من الملاحظات بسبب ازدياد عدد الأفراد، ولكن تلاحظ أيضًا الأحداث التي تتم بين الأفراد.

المراقبة الفوقية. يراقب نشاط الطالب، أثناء تنشئته، مباشرة أو مداورة (بواسطة وضع علامات على تصرفه أثناء حديثه)، من قبل عالم نفسي مرشد يشرف عليه من علُ. ويجري تقويم سلوك الطالب بالمناقشة بينه وبين مرشده.

ب. مجال المراقبة

تحتاج المراقبة العلمية إلى تنظيم. يمكن التحدث عن أربعة مجالات أساسية.

(ب١) **إطار المراقبة**. يجب تحديد مكان للمراقبة وموضوع المراقبة (أي أنماط التصرف)، وكذلك تحديد أجهزة المراقبة (جهاز فيديو مثلًا).

(ب٢) **مرجع المراقبة**. تتراوح منهجية المراقبة بين المراقبة الصدفوية وتحليل السلوك (مثل تحليل العمل ويتضمن تسجيل حركات اليدين والذراعين أثناء العمل). وبما أن جميع وحدات المراقبة هي على علاقة سياقية بعناصر أخرى سلوكية، يجب، والحالة هذه، تسجيل (ف ٢/١٩) خصائصها التعبيرية (مثل إمارات التعب).

(ب٣) **المراقبة التسلسلية**. المراقبة هي دائمًا حدث يجري في زمن. والعيِّنات تعني، بالتالي، غالبًا، مراحل المراقبة المتكررة في الزمن.

(ب٤) **تجزئة التصرفات المراقَبة**. تنشأ إحدى كبرى الصعوبات التي تعترض المراقب عن سرعة زوال الخصال الخاضعة للمراقبة. فبخصوص الموسيقى والخطوات الإيقاعية يجري توزيع الخصائص المراقبة (مثل عدد النظرات المتبادلة بين أفراد الفريق المراقَب). وعند التوصل إلى حل أفضل للمسألة التقنية الخاصة بالتدوين البصري والسمعي تزداد، بموازاة ذلك، القيمة العلمية للمراقبة.

ج. أخطاء المراقبة

(ج١) **الذاتية**. فيما يخص «كِمامات العين» التي تحدد مجال المراقبة، يمكن أن نذكر خمس طرق أساسية:

الأفق (صفة ناقصة استنادًا إلى مستوى الإعداد المتعلق بالذكاء وبالمعلومات المسبقة وبتوجيه الاهتمام وبمستوى الانتباه).

فقدان الموضوعية (اختيار القيم المركزة على الأنا على حساب الخصائص الموضوعية).

المنظورية (اختيار سيئ، حذف الخصائص أو الإكثار منها).

التلوين الإنفعالي (التشويه بواسطة الشعور).

المحاباة (تأثير مسبق ناتج عن أحكام فردية مسبقة تجاه بعض الأشخاص أو الفئات).

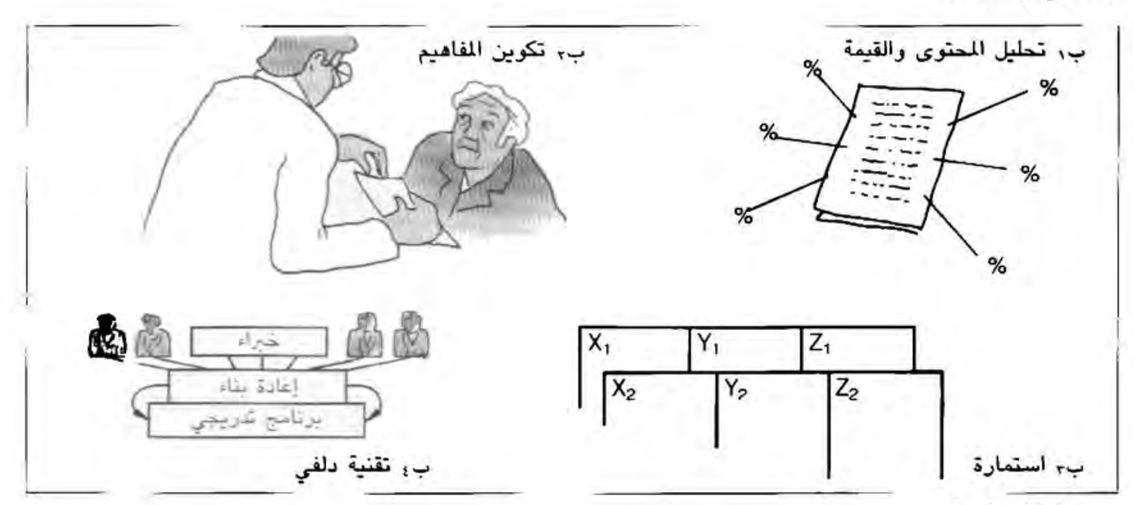
(ج٢) **أثر الهالة**. تمارس بعض الخصائص الظاهرة (الانطباع الأول مثلًا) تأثيرًا على خصائص أخرى وتكسفها. وتضيف إلى عدد أخطاء المراقبة أخطاء مشابهة مثل أثر **برنوم** (ميل متزايد إلى قبول مراقبات غير دقيقة)، أثر النزعة الغريزية (اختيار المراقبات التي تنطلق في الاتجاه المرجو)، النزوع المركزي (إيثار بعض القيم المتوسطة)، أثر التفاقم (تضخيم المراقبات عندما يقتضي الأمر تحديدها)، أثر التسامح (انحياز إيجابي لصالح الأشخاص المعروفين).

(ج٣) **التعب**. يجب على كل مراقِب أن يعتبر أن قوة انتباهه تتضاءل أثناء المراقبة حتى ولو لم يشعر هو نفسه بذلك.

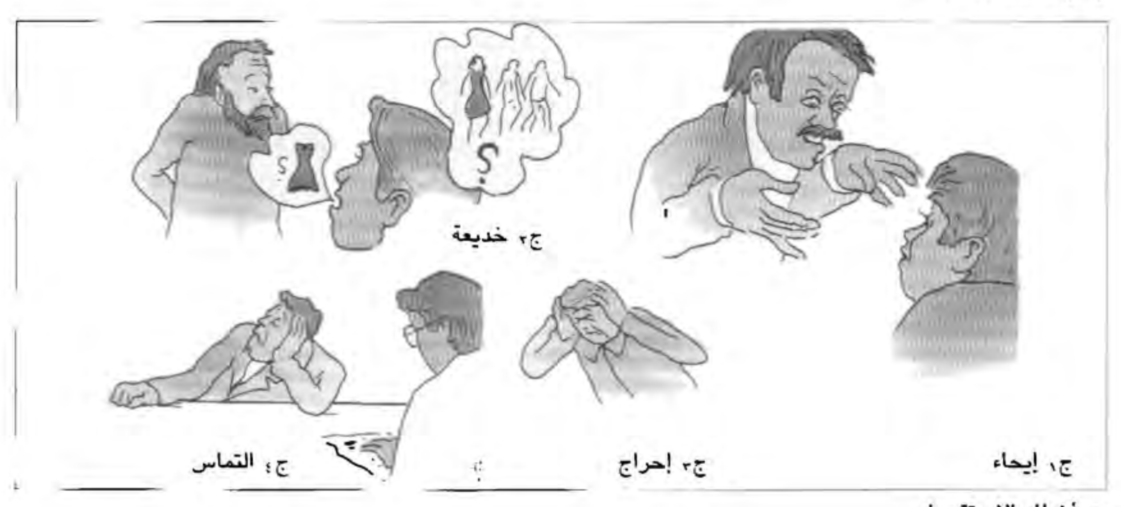
(ج٤) **التسرع**. ويمكن في مرحلة الحكم النهائي، التوصل إلى تقييمات سابقة لأوانها لا تؤكدها الخصائص الملاحظة. ولكن لم يعد ممكنًا أن نأخذها بعين الإعتبار لأن الحكم قد صدر.



أ. أشكال الاستقصاء



ب. بناء الاستقصاء



ج. أخطاء الاستقصاء

جاء في الأمثال: «الحديث الطيب يقصر الطريق». لا شيء، بالنسبة إلى علم النفس، يغني عن استجواب المعنيين بالأمر. الفئة الثانية من طرق البحث هي الإستقصاء الذي يوفر فروقًا نوعية كبيرة.

أ. أشكال الاستقصاء

(أ١) **المقابلة**. منذ انطلاقة علم النفس الإكلينيكي (فصل ٢٠) يعطى سلوك المقابلات اهتمامًا متزايدًا. وفي علم النفس غير الموجه، توضع حرارة العاطفة والاعتبار والصدقية في الصف الأمامي من جانب المعالج، في حين أن المناجاة والنقاش وموقف الممتحن والإسقاط (٢٠/٧، ب) وتحويل الموضوعات الغامضة تعتبر عوامل تشويش.

(أ٢) **الوصف**. ويتراوح بين الوصف الذاتي الذي لا يتعدى السيرة الذاتية و«المميز الدلالي» (**أوسغود**، ١٩٥٣)، وهو شكل من وصف الشخص نفسه اعتمادًا على مفاهيم مقارنة ثنائية القطب، ومثال ذلك، هادئ – مهتاج، صدوق – معادٍ، سطحي – رصين (**شونباخ** ١٩٧٢).

(أ٣) **الاستجواب**. هذا الشكل من الإستقصاء هو الأكثر انتشارًا ويتضمن أشكالًا ثانوية عدة: الاستجواب العلاجي الأول (الذي يعتبره الطبيب النفساني الأميركي **أ. لازاروس** التوجيه الحاسم للعلاج)، استجواب التشخيص، المشورة، الإستقصاء، البحث، تحقيق الجدول والمناقشة الجماعية الموجَّهة (عملية تكوين الرأي. **إ. ديختر** ١٩٦٤).

(أ٤) **الإستمارة**. وهي قائمة ثابتة من الأسئلة لتكوين تشخيص عام واستقصاء الآراء والمواقف.

(أ٥) **الاستفتاء**: إن سبر الرأي العام، منذ وَضَعه **ج. غالوب** (١٩٣٦)، هو مجال قائم يحدد رأي الشعب بكامله بفضل نموذج مصغر من نحو ٢٠٠٠ شخص يجري استفتاؤهم.

(أ٦) **العمل المشترك**. في هذا الشكل من الحوار ينفس الشخص عن أحواله وآرائه، مثلًا، أمام كرسي فارغ يتصور نفسه جالسًا عليه هو أو شخص آخر مرجعي.

ب. بناء الإستقصاء

يتطلب تكوين الإستمارة استعدادات طويلة وكثيرًا من الاختبارات والتحقيقات. يجب الاختيار أولًا بين بناء «قاس» وبناء «لين». فإذا كانت الاستقصاءات مُبَأّرة (مركّزة حول موضوع دقيق)، يكون المجال ضيقًا أمام التعبير الحر، في حين أن الاستقصاءات السردية تتماشى بصورة أفضل مع موضوعات البحث المعقدة والأقل تنظيمًا.

(ب١) **تحليل المحتوى والقيمة**: لكي نستطيع تقييم ما إذا كان بإمكان تصورات وأسئلة أو نصوص استفهامية أن تستدعي إجابات، يجب، في أكثر الأحيان، تحليل انتشار عناصر النص بين الشعب من وجهة نظر تكرار استعمالها وفهمها الخ... فالتحليلات القيمة هي، إلى ذلك، إجراءات كمية تتيح معرفة ترددات المعنى.

(ب٢) **تكوين المفاهيم**: تعني هذه العبارة (**مايشبناوم** ١٩٧٧) التقويم الصحيح للشخص المستجوَب ولصياغة المسألة: يجب أن تصاغ بلغة يفهمها هذا الشخص وتثير اهتمامه.

(ب٣) **الاستمارة**: اقترح **ف. غالتون**، منذ سنة ١٨٨٠، استمارات لاستقصاء الفروق الفردية. الاستمارات الحالية هي في أكثر الأحيان أدوات للقياس النفسي وروائز محللة إلى أسئلة تخضع غالبًا لتحقيقات بواسطة التحليل العاملي وتعطي نتائج ذات «حساسية» عالية لكونها مزوَّدة بمعامِلات الصلاحية وبمقاييس التصحيح أيضًا.

(ب٤) **تقنية دلفي**: هي استشارة خبراء مُحْكَمَة التنظيم تتوصل، تحت شكل بنية جديدة ذات مستويات عديدة ومع معرفة متبادلة لآراء محددة، إلى حل تدريجي للمسائل. يكمل التقنية أنظمة دقيقة صارمة أي برامج معلوماتية مع تصنيف أفضل الإجابات في درجات وحذف أخطاء التطور («استراتيجيات التطور»).

ج. أخطاء الإستقصاء

(ج١) **الإيحاء**: «هل أنت أيضًا من رأي أن ..؟» إنها طريقة سؤال نعرف بوضوح صفتها الإيحائية. «هل تفضل الجعة الصهباء أم جعة المُلّت؟». سؤال يميز الجعة السمراء ويظهرها خلسة وكأنها «مشروب الأولاد» ويعمل كمشوه بالإيحاء. يظهر هذا المثل أن أي سؤال «عادي» تقريبًا لا يمكن أن يستعاد كما هو في استمارة علمية.

(ج٢) **الخديعة**: تعد الأسئلة في بعض الحالات لنصب فخ للشخص الممتحن. إن هذا النوع من «التضليل» المتعمد هو ذو فعالية قوية في إطار الاستنطاق الذي يستخدمه رجال الشرطة: «هل رداء هذه السيدة أحمر؟»، سؤال يطرح للحصول على إقرار للتأكد مما إذا كان في المحلة امرأة. (**باولي**، ١٩٥٧).

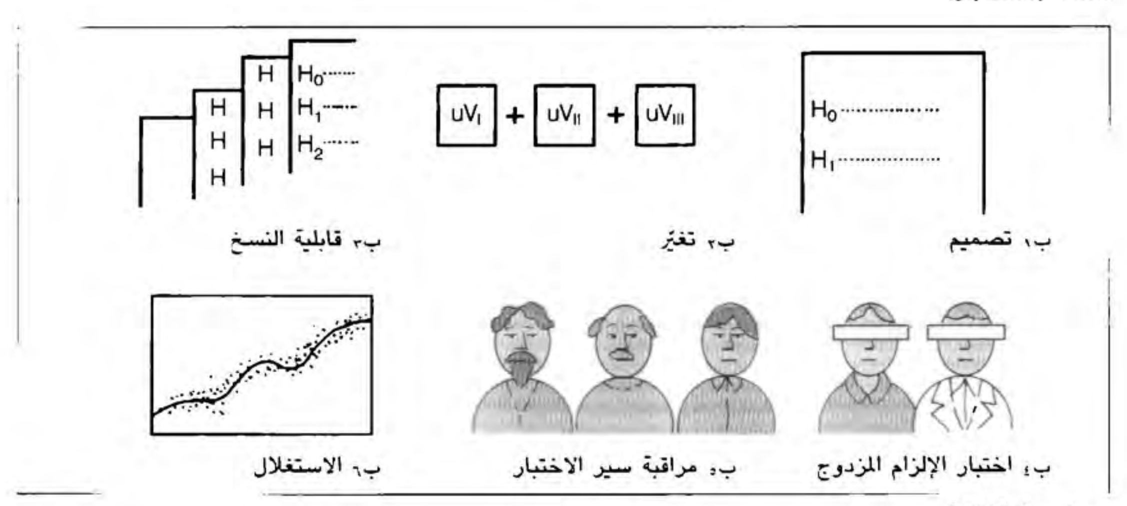
(ج٣) **الإحراج**: يكون الشخص الذي توجه إليه الأسئلة «محرجًا». أبسط الحالات هي حالة الجهل، ولا يغيبنّ عن البال أنه حتى في هذا الموقف يمكن أن يكون هناك إجابات. والأكثر صعوبة هو تقييم الحالات المرتبطة بحافز مضاد كأن لا تكون الإجابات لمصلحة الشخص المستجوب.

(ج٤) **الالتماس**: إنها أخطار التشويه التي كثيرًا ما تكون مجهولة، كأن يجد الشخص المستجوب الأسئلة المطروحة عليه ساذجة فيجيب عنها بأجوبة ساخرة.

يتعرض الاستكشاف للنقد لسهولة المعالجة الإحصائية التي تحقق له النجاح. تعطي الإستمارات صورة مبسطة ومختصرة جدًا عن موضوعات الواقع اليومي.



أ. أشكال الاختبار



ب. شروط الاختبار



ج. أخطاء الاختبار

قبل إدخال الطريقة الإختباريّة في مجال علم النفس، في منتصف القرن التاسع عشر، كان العالم النفساني مضطرًا إلى الاعتماد على خبرته الشخصية في خصائص الأفراد. لقد وسعت هذه الطريقة الاختباريّة الملاحظات «الطبيعيّة» وأكملتها بملاحظات توليفيّة. ومن حسنات هذه الطريقة أنها تخطِّط للنظرات / الآراء وتجعلها مستقلّة عن الذاتية المحضة. وتشتمل الفئة الثالثة من الطرق أيضًا على فروع عديدة.

أ. أشكال الاختبار

(أ١) **البرهان**. لا يهدف تمثيل الخداع البصريّ (**مولر – لاير** فصل ٦/٤) إلى تنمية معلوماتنا ولكن بالأحرى إلى إفهام التلميذ ظاهرة معروفة جيّدًا (الإنطباع عن طول الخط الأسفل) بإظهارها له في شكل اختباري.

(أ٢) **الرائز**. إنه «تجربة مختصرة» تنقصها (٦/١٩، تناسق يدوي) بعض خصائص التجارب المذكورة أدناه.

(أ٣) **اختبار استطلاعي**. هدفه بسط الفرضيّات الأساسيّة أو إغناء التجربة العامة التي يجب أن تُدَعَّم بتجارب جديدة.

(أ٤) **شبه اختبار** (تحليل الترابط). إنه وضع اختباري (مع متغير وحيد هو المتغير المعطى طبيعيًا في البداية» (**سيلغ وبوير**، ١٩٧١). مثال ذلك، عندما يضاف إلى فريق اختباري من ثلاثة أشخاص شخصٌ رابع ولا تكون التغييرات الحادثة في الفريق مؤوّلة بعبارات سببية (مثل شرط التغير).

(أ٥) **اختبار التثبُّت**. إنه الشكل «التقليدي» للإختبار، الشكل الذي يتيح التحقُّق السببي للفرضيّات. مثال ذلك: هل العنف في فيلم ما (متغيِّر مستقل) يُسهِّل العدوانية في اللعب الذي يلي (متغيّر تابع)؟

(أ٦) **اختبار الأرضية**. يجري هذا الاختبار، على خلاف الاختبارات «المخبريّة» السابقة، في بيئة طبيعيّة (محل تجاري ضخم مثلًا)، عيبه أنه يصعب، بنوع خاصّ، إزالة المتغيِّرات الطفيلية تمامًا «كالتشويش» (تأثيرات ثانوية).

ب. شروط الاختبار

(ب١) **التصميم**. يجب، فيما بعد، إعطاء وصف دقيق للشروط التي يتمّ فيها الاختبار، ما يستدعي تخطيطَها مُسْبقًا.

(ب٢) **التغيُّر**. لا يُعطي التكرار المتماثل نتائج ذات شأن. إن تغير الشروط فقط ومقارنة النتائج يحمل المعلومة المبتغاة.

(ب٣) **قابلية النسخ**. يجب تخطيط الاختبار بطريقة يستطيع بواسطتها أيّ كان أن يعيده ويتحقّق منه على أن يتقيّد بالشروط إياها.

(ب٤) **اختبار الإلزام المزدوج (العمى المزدوج)**. إن التشويش «الأخبث» يمثِّله المختبِر. فلكي لا تتكرر افتراضاته بطريقة لا واعية من قبل الشخص المتحَن يُترك هو أيضًا (الممتحِن) في جهله لتوزيع الشروط (توزيع الدواء أو العلاج الوهمي).

(ب٥) **مراقبة سير الاختبار**. يُسْهِم كلّ فرد في الاختبار، بجميع حوافزه، بكونه شخصًا إنسانيًا كاملًا. فيجب مراقبة كلّ تغيّر نفسانيّ يعتري هذا الشخص أثناء الاختبار.

(ب٦) **الاستغلال**. إن النتائج هي معطيات (خام) تجب معالجتها (بوسائل إحصائيّة) ليكون بالإمكان الاستفادة منها. إن حافز الشخص، أو أثرَ حوافزه على نتائج الاختبار، **هو** المشكلة الجزئية التي تبقى عِرضة للأخذ والرد.

ج. أخطاء الاختبار

(ج١) **خطأ المدى**. إن التصميم الاختباري يحوّل إمكانية البحث إلى أجهزة يمكن صنعها. مسائل هامة تنحلّ غالبًا في «سيكولوجية ميتة» ولا مدى لها، لان ذلك يؤدّي إلى برهان منهجيّ أكثر مما يؤدّي إلى اكتشاف المحتوى.

(ج٢) **خطأ التصميم**. لا تستطيع أكثر التخطيطات بُعْدَ نظرٍ أن تحولَ دون جميع أسباب الفشل الممكنة. لذا يُوصى بترك فسحة من التفكير في بداية كلّ اختبار.

(ج٣) **خطأ التعليمات**. إن تعليمات فاسدة من الشخص الممتَحن تكون سببًا متكرِّرًا للأخطاء.

(ج٤) **خطأ العزلة**. إن من شأن صفة مصطنَعة للوضع الإختباري أن تؤدِّي، عند الشخص الخاضع للإختبار، إلى «آثار العزلة» التي تشوِّه النتائج.

(ج٥) **خطأ التعميم**. يحدُث ذلك عند تعميم النتائج إلى ما وراء عتبة الصلاحيّة (وهي أكثر الأحيان محصورة).

(ج٦) **قواعد أخلاقية**. كان أحد الاختبارات الأولى الخاصة بالسلوك (**واطسن**) يقوم على تخويف ولد صغير بإحداث ضجة كلّما رأى جُرَذًا مدجَّنًا. فتولَّد لديه خُواف الجرذان. لا يمكن اختبار أيِّ شيء كان.

تعتبر عمليّة الإختبار طريقة أساسيّة لسيكولوجيّة مبنّية على منهج العلوم الفيزيائية: من تغير المتغيِّر المستقل والتغير المتتالي للمتغير التابع نستنتج ارتجاعيًا تأثيرَ الأول على الثاني. نُقِرّ، كما في الفيزياء، ونسلِّم بعلاقة سببيّة ثابتة بين القيمة المقيسة والظاهرة. وعلى عكس ذلك، يشدِّد بعض النقّاد على أن الظواهر النفسيّة تتميّز، أساسًا، بتعدّد المعاني وبالتباس محتواها، وأن التنظيم الاختباري لا يمكن إلا أن يكون معدومًا. وتفسير ذلك أن الطريقة الإختباريّة في علم النفس تظلّ موضوع نقاشات علوميّة (ابيستيمولوجية).

أ١ كتابة

$$\sum_{i=1}^{3} ax_i$$

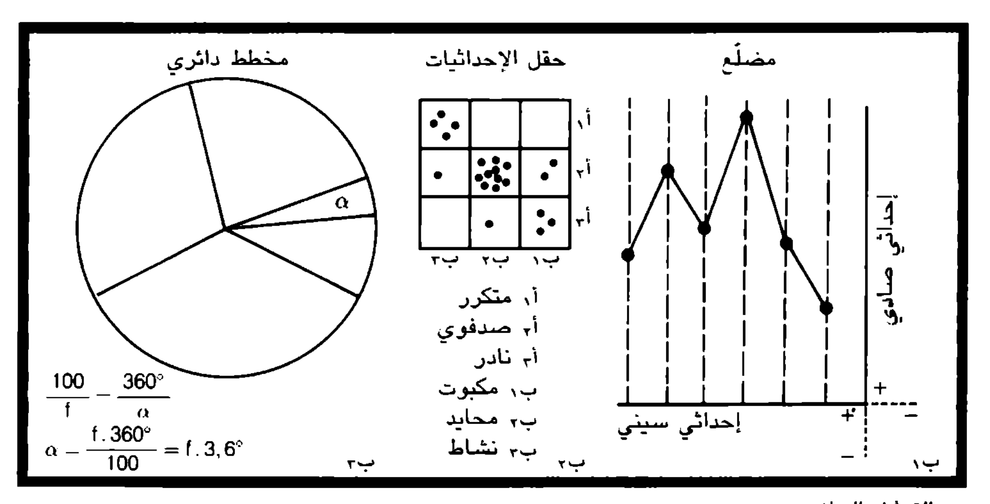
أ٢ مصطلحات الحساب

= يساوي	≈ يساوي تقريبًا	≠ يختلف عن
≙ يوافق	$<$ أصغر	$>$ أكبر
≤ يساوي أو أصغر	≥ يساوي أو أكبر	
4! عاملي (4 . 3 . 2 . 1 –)	# يختلف قليلًا	
d تفاضلي	∫ تكاملي	f(x) متوالية x
∪ أو/أو؛ و/أو	∩ بمقدار، تقاطع	∞ لانهائي

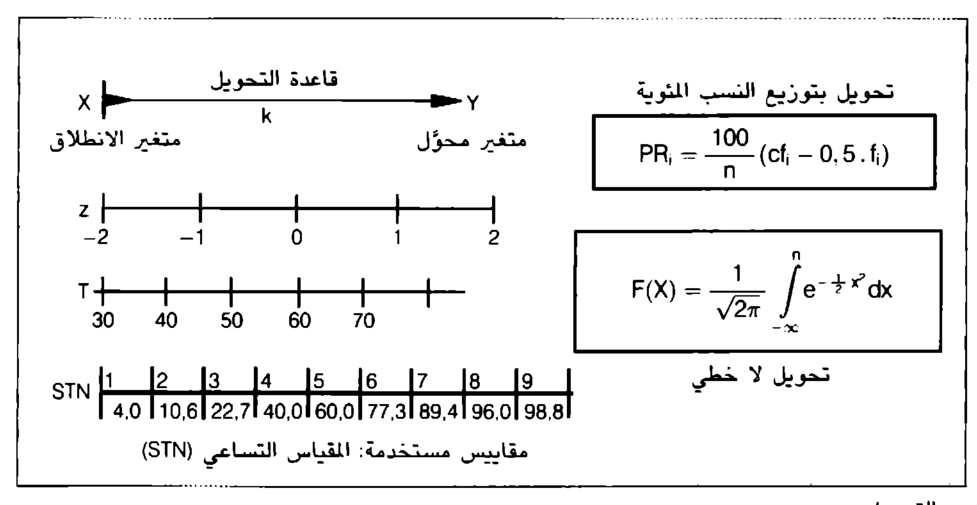
أ٣ الأبجدية اليونانية

A α ألفا	Z ζ تزيتا	Λ λ لامبدا	Π π پي	Φ φ في
B β بيتا	H η ايتا	M μ مو	P ρ رو	X χ شي
Γ γ غاما	Θ θ تيتا	N ν نو	Σ σ سيغما	Ψ ψ بسي
Δ δ دلتا	I ι يوتا	Ξ ξ كسي	T τ تو	Ω ω أوميغا
E ϵ إبسيلن	K κ كابا	O o أميكرون	Y υ أبسيلن	

أ. الرموز



ب. التمثيل البياني



ج. التحويل

يمتلك العلم، مستعينًا بالمنطق، عُدّة عمرها أكثر من ٢٠٠٠ عام لكتابات النصوص الكلامية. ولقد اقترح علماء الرياضيات التطبيقية منذ مئة سنة فقط أداة لتأكيد التعاطي مع الأعداد، ألا وهي («المنطق العددي»). ومنذ إدخال التكميم في علم النفس أصبحت أداة التأكيد الإحصائية ضرورية.

بواسطة علم الإحصاء ترى القيم الكمّية «موضوعيتها» مدعّمة بطرق خمس:

يتيح علم الإحصاء تمثيل الأعداد بيانيًا بطريقة أكثر وضوحًا وملاءمة.

- يعطي أدلّة على درجة صلاحية القيم العددية.
- يفيد عن العلاقة المتبادلة، أو بتعبير أدق، عن ترابط القيم العددية.
- يتيح معرفة أيّة درجة احتمالية يجري فيها هذا الحدث أو ذاك.
- وهو بتحويله الكتل العددية إلى قيم أساسية يحاول ترتيبها ترتيبًا واضحًا تبعًا لأهميتها.

أ. الرموز

الكتابة. إن ما يَروع في علم الإحصاء إنّما هو لغته الصورية، والحال إن هذه الطريقة في التعبير السهلة الفهم هي في خدمة الدقة والاستيعاب. إليك مثلًا كيف يجب أن تقرأ العبارة الماثلة في الصورة أ١:

مجموع (Σ) قيم ax_i (= a مرات x_1 زائد a مرات x_2 زائد a مرات x_3) الخاصة بـ $x_1(i=1)$ على x_3 (3 فوق Σ).

- **مصطلحات الحساب**. تتضمن اللغة الصوريّة علامات وحروفًا.

تعطي الصورة المقابلة عينة من العلامات.

- **الأبجدية اليونانية**. الحروف الكبيرة (متغير اتفاقي: X)، الحروف الصغيرة (قيم مختلفة: x_3؛ والعدد 3 كدليل عن القيمة الثالثة المعطاة لـ $X[x_1, x_2, \ldots x_n]$[*]، أخذت الحروف الأخيرة من الأبجدية اللاتينية.

الحرف الكبير المستعمل أعلاه (Σ)، (سيغما) يدل على حاصل الجمع. الحرف الصغير الذي يعادله σ (سيغما) يستخدم غالبًا للدلالة على التباين.

ب. التمثيل البياني

على الإحصاء التوصيفي أن يحقق تمثيلًا مقروءًا للقيم الحسابية التي كثيرًا ما تكون معقّدة.

(ب١) ففي المضلع التكراري (خط الارتباط) وفي المدرج التكراري المؤلف من أعمدة أو خطوط (الأجزاء الرمادية) توضع على **محور الإحداثيات الأفقية أو السينية** (محور الخصائص) القيم المقيسة على مراحل متقطعة. وعلى **محور الإحداثيات الرأسية أو الصادية** (محور التكرار) نضع التكرارات أو كمية الأحداث (القيم السالبة إلى اليسار).

(ب٢) ففي حقل الإحداثيات يُمثَّل تقويمان (عدد a وقوة b مثلًا) بـ٣ درجات (دليل ١ إلى ٣) على شكل «سحابة نقط».

(ب٣) تحسب الزوايا الداخلية في الشكل البياني الدائري بالنسبة المئوية استنادا إلى صيغة ألفا (α).

ج. التحويل

إن القيم العدديّة لدراسةٍ ما كثيرًا ما تكون مرتفعة جدًّا أو صعبة. وربّما كانت مقارناتها مستحيلة. قد يكون لشخص ما عدة قيم، أو أن الحاجة تدعو إلى توزيع طبيعي أو، بتعبير أدق، إلى تجانس مربّع المحيد النموذجي (التباين): أسباب كثيرة تدعو إلى إعادة تسجيل القيم الخام.

تتم هذه الإجراءات الرياضية بترجمتها إلى أعداد تخضع جميعها لقاعدة التحويل التالية $Y = k(X)$ ونستخلص من متغير الانطلاق X المتغير المتحول Y.

وفي **التحويل إلى توزيع التكرارات** (أو **مراتب النسبة المئوية**) على سبيل المثال، توزّع النتائج العددية إلى مراتب f_i و cf_i هي التكرارات المطلقة – أو بكلمة أدق التكرارات التراكمية المطلقة لـ x_i. وبإنقاص قيمة $0{,}5 f_i$ نحدد نسبة المعطيات المجمعة إلى معدل الفئة ونتحاشى بلوغ أكبر قيمة ممكنة: 100.

إن **المقاييس المستخدمة** هي أمثلة على التحويلات. يستخدم، لضبط المقاييس المختلفة، التحويل الخطي لقيم x إلى قيم z **تبعًا** للمعادلة التالية:

$$z = \frac{x_i - \bar{x}}{s}$$

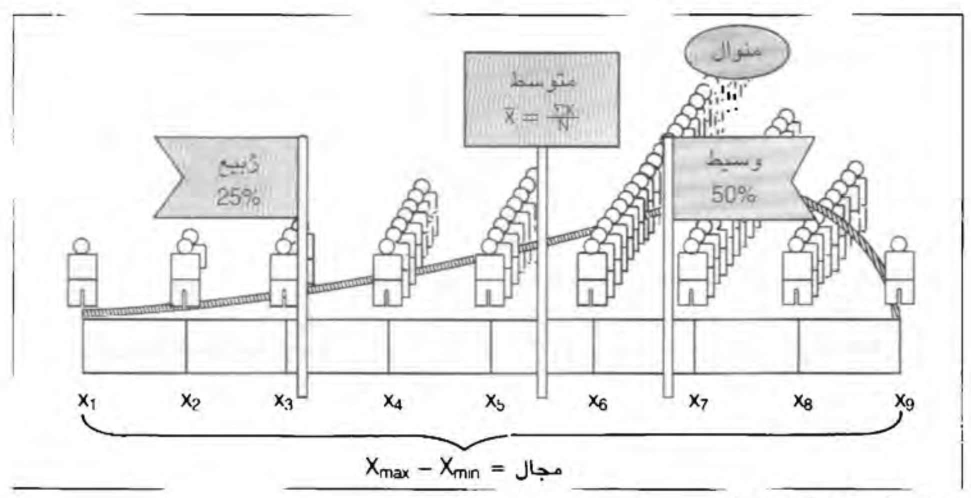
مع قيم دقيقة في انحراف معياري يتراوح بين 2– إلى 2+ (القيمة الوسطية هي 0 صفر، الانحراف المعياري هو 1).

يستعمل في علم النفس المقاييس النفسية خاصة المقياس T استنادًا إلى صيغة $T = 50 + 10z$ (القيمة الوسطى = 50، الانحراف المعياري = 10).

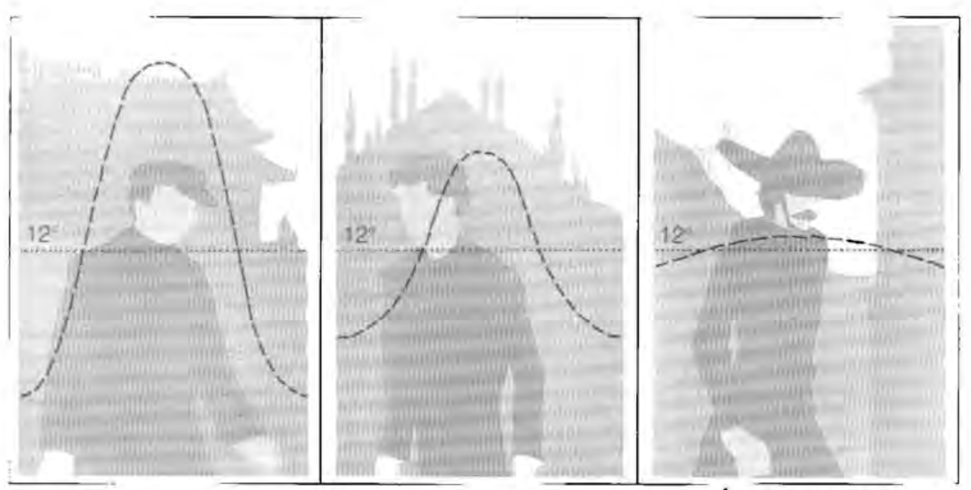
يتألف مقياس ستانين (STN) (التساعي) من تسع درجات أو رتب مع قيمة وسطى 5 وانحراف معياري 2. بعد التحويل أعلاه للقيم العددية إلى مراتب من النسب المئوية يتم الحصول، بالنسبة إلى الدرجات التسع، على قيم النسبة المئوية المدوّنة في الأسفل.

عندما لا تحقّق بعض القيم المقيسة شروطا ضرورية للقيام بإجراءات التحليل الإحصائي (خطية النتائج وقابلية جمعها، تجانس التباين، التوزيع الطبيعي)، يمكن استخدام التحويل اللاخطي وتعديلها بحيث تحقق المعطيات المحوّلة هذه الشروط بطريقة أفضل.

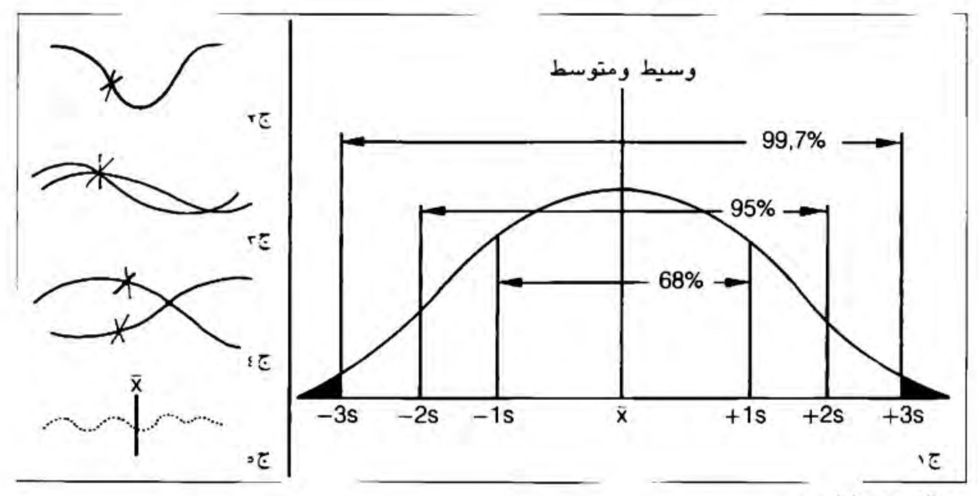
ونحاول، في التحويل السطحي اللاخطّي، المقابل، مع تجربة متتالية للتحويلات المذكورة أعلاه (تحويلات T. ستانين الخ. إلى درجات عادية)، نحاول تقريب التوزيعات غير العادية من التوزيع العادي والحصول على قيم معيارية للروائز وتحويل قيم المرتبة إلى قيم ذات توزيع شبه عادي.



أ. مؤشرات النزعة المركزية



ب. مؤشرات التشتت/التوزُّع



ج. التوزيع الطبيعي

نعرف القول المأثور الذي تفوّه به فيثاغور: «العددُ جوهر الأشياء جميعها». وجوهر العدد بدوره هو أن يُمثِّل كمّية. ويمكن أن تُكْتَسبَ الكمّيات أشكالًا كثيرةَ التنوّع، والمظهر الذي تتخذه يشكل نقطة انطلاق معالجتها الإحصائية اللاحقة. وينتج عن ذلك أن التوزيعات تشكل جزءًا من أسس علم الإحصاء ومن معرفته الأساسية.

أ. مؤشّرات النزعة المركزية

كيف تُرتَّب الكمّيات؟ إن الشكل الأوّل من الأشكال الخمسة الماثلة في الصفحة المقابلة هو حساب العدد المركزي. **ومعدل** العينات (يرمز إليه بحرف $\bar{x}$). يتم الحصول على هذا المتوسّط الحسابي بقسمة مجموع القيم على عددها.

بالنسبة إلى المتوسط الحسابي المرجّح في العيّنات المأخوذة، نحصل على تقييمات مختلفة لكمّيات متنوّعة بواسطة استخدام العوامل. يقسم **الخط الوسيط** سلسلة من المقاييس إلى قسمين متساويين تبعًا لعدد القيم (٥٠٪ - ٥٠٪). وهو لا يتطابق مع المعدّل الوسطي، في حال التوزيعات المنحرفة. **والرُبيعات** تقسم القيم إلى أرباع (٢٥٪ - ٧٥٪).

المنوال هو القيمة الأكثر تكرارًا في التوزيع العددي. وهو يستخدم، قبل كل شيء، لتمييز التوزيعات ذات القمم المتعددة التي تهملها مؤشرات النزعة المركزية الأخرى.

المجال هو الفرق بين القيمة العليا والقيمة الدنيا أي مدى توزيع التكرارات.

ب. مؤشرات التشتت/ التوزُّع

تعيّن القيمُ الوسطى «المعدّلَ الوسطي» ولكنها لا تجيب عن السؤال: «أي شبه قائم بين أفراد المجموعة موضوع الدراسة؟». هذا السؤال يستند إلى الإنحراف أو إلى الفارق.

فالقيمة الوسطى، على سبيل المثال، لدرجات الحرارة المسجلة خلال عام في أمكنة مختلفة، قد تكون في النهاية $12°$ درجة مئوية لكن الدرجات الخاصة المسجّلة في كويتو وميلانو وبكين تشير إلى تقلبات مختلفة جدًّا. ففي بكين حيث الطقس حار جدًا في الصيف وشديد البرودة في الشتاء قد يكون المعدل الوسطي $12°$ هو نفسه في كويتو (الاكوادور) حيث تغيرات الفصول ضعيفة.

يمكن أن تنطوي سلاسل الأعداد على قيم خاصّة غير نمطيّة بعيدة عن منتصف التوزيع. نمثل هذا التشتّت بواسطة التباين $s^2(=\sigma)$ مربّع الإنحراف المعياري للعينة. المعدل الوسطي لجميع الانحرافات المربعة بالنسبة إلى المتوسط الحسابي.

$$s^2 = \frac{\Sigma(X - \bar{x})^2}{N}$$

في هذه المعادلة:

يمثل $\bar{x}$ متوسط النتائج.

$(X - \bar{x})$ الفرق بين القيمة الخاصة والقيمة المتوسطة، أي انحرافها عن المعدل الوسطي.

$(X - \bar{x})^2$ مربع كل انحراف (تكتسب القيم المتطرفة من هذا الواقع وزنًا خاصًّا)،

$\Sigma(X - \bar{x})^2$ مجموع مربّع جميع الانحرافات.

N = عدد النتائج.

وبما أنه تستحيل مقارنة الأعداد المربعة مقارنة مباشرة، نستخرج جذرها التربيعي. وندعو النتيجة عندئذ إيجابية.

الانحراف المعياري s. إن مؤشر التوزيع هذا هو أساسي لتقييم دقة القيم المقدرة:

شرط أن تكون العينات المقارنة مرتبة بطريقة واحدة وتكون كميتها قابلة للمقارنة وقيمها المتوسّطة على مستوى واحد من القَدْر (تجانس التباين: لا تمثل عيّنتان فرقًا بارزًا في التباين).

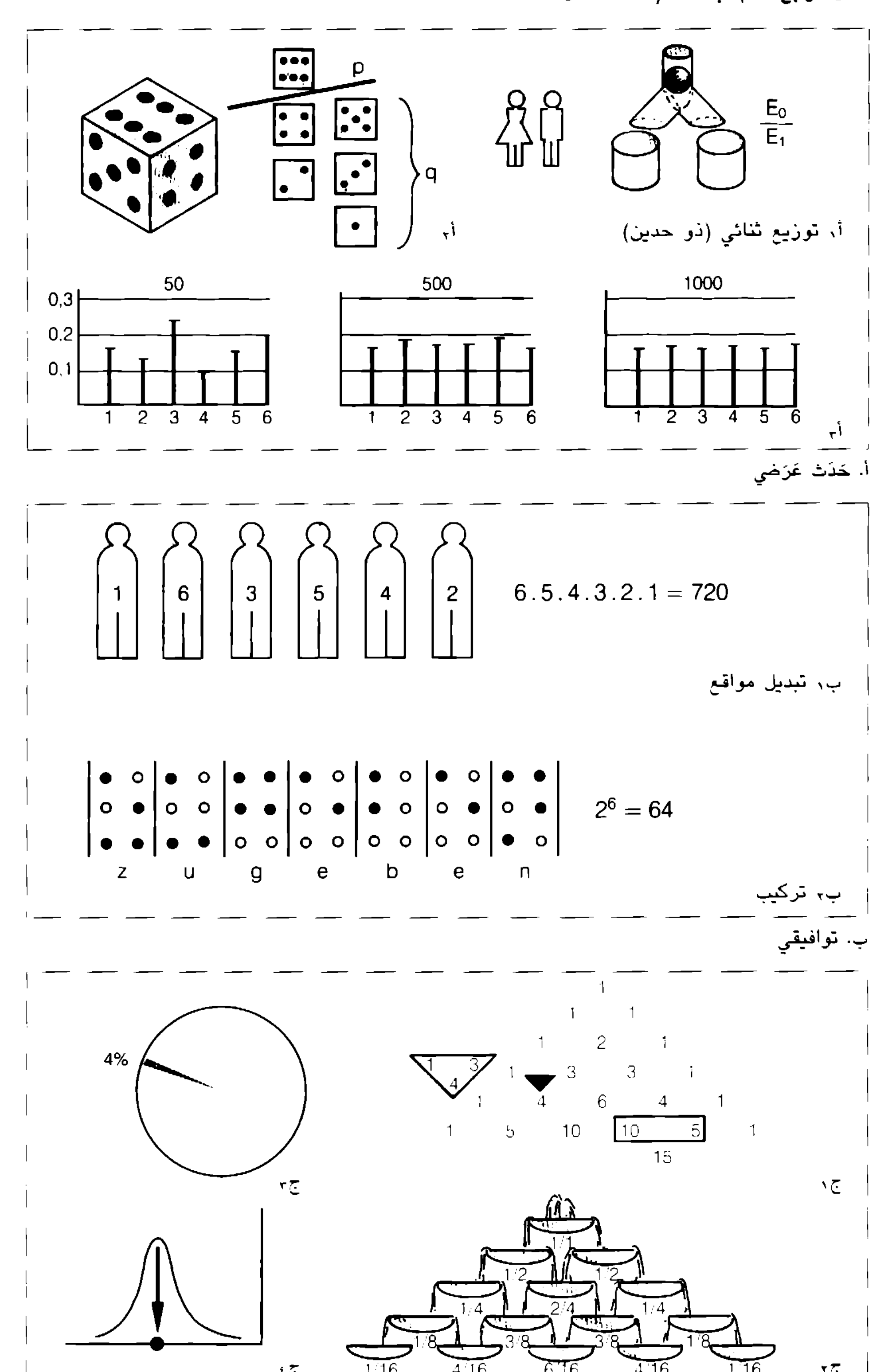
ج. التوزيع الطبيعي

وضع **كارل فريديريك غاوس** (١٧٧٧-١٨٥٥) سنة ١٨٣٢ «منحنى الأخطاء» الذي حمل اسمه وهو يمثل، على شكل جرس، أخطاء ملاحظة المقاييس الفلكية خاصة:

هو منحنى تناظري وحيد القمة، له إحداثية رأسية قصوى مركزة على $\bar{x}$ ويقسم المنحنى إلى قسمين متساويين (تطابق المتوسط والوسيط والمنوال). وكلما كان الانحراف المعياري ضعيفًا، يكون المنحنى ضيقًا وقريبًا من المحور الأفقي. ثمة علاقة ثابتة بين الإنحراف المعياري لعينة ما والنسب المئوية لأقسام المساحة الواقعة تحت المنحنى.

وهناك دائمًا توزيع طبيعي عندما تتولد ميزة خاصة (الذكاء مثلًا) من عمل مشترك لقيم متعددة تؤثر فيها. تكمن الحسنات في إمكانية معالجة إحصائية أفضل لسلاسل من النتائج الموزّعة بطريقة عادية (إلى وحدات الإنحراف المعياري).

لكن التوزيع الطبيعي ليس هو «القانون الالهي الشمولي» كما كان يظن. يقول آينشتاين «إن الله لا يلعب بالنرد». وإلى جانب ذلك، هناك توزيعات على شكل U (ج٢) ول (ج٣) غير متناظرة إلى اليمين أو إلى اليسار (ج٤) وتوزيعات أخرى تدعى توزيعات پواسون (ج٥) حيث القيمة المتوسطة $\bar{x}$ معروفة، في حين أن التوزيع ذا القيم المتعددة يظل مجهولًا (في الأحداث النادرة، مثل حوادث السير). وأخيرًا، ومن أجل الحفاظ، بالرغم من كل شيء، على فوائد التوزيع الطبيعي في مادة الحساب تعدل هذه التوزيعات، مثلًا، بواسطة تحويلات إلى قيمة z أو T (فصل ٤/١).



أ. حَدَث عَرَضي

ب. توافيقي

ج. ثقة (فسحة، عتبة)

نعرف الماضي وليس المستقبل. قبل إدخال علم الاحصاء، كنا نضطر، لتقييم احتمال حصول حدث مستقبلي، إلى أن نلجأ إلى الخرافات، إلى العرافين مثل عراف دلفيس.

يتيح حساب الاحتمالات بيانات نوعية عن «احتمال حصول أحداث طارئة». لكن حساب الاحتمالات هو أيضًا القسم «الانبل» في علم الاحصاء: ويناقش المعطيات العددية التي هي ذات دقة ظاهرية فقط.

أ. الحدث العرضي

(أ١) **توزيع ثنائي (ذو حدين)**. إن التمييز الكمّي لحدث ما هو قسمته إلى حالتين متميزتين:

وجود الحدث (E_1) أو عدم وجوده (E_0)، سقوط الكرة في الإناء الأيمن أو في الإناء الأيسر، المولود صبي أو بنت...

نعرف بفضل التكنولوجيا المعلوماتية أن جميع المعلومات تقريبًا يمكن أن تمثل بحالتين: الحضور (1) والغياب (0).

(أ٢) **توزيع p-q**: توزيعات عديدة تعطي أكثر من حالتين. في لعبة النرد ستة احتمالات.

باستخدام مهارة التوزيع الفرعي: خروج العدد ٦ (P تعني الاحتمال) وكل ما هو غير ٦ (رمز q من ١ إلى ٥)، من الممكن إقامة توزيع ثنائي. والصحيح أيضًا أن «غير ٦» تتضمن عدة احتمالات.

(أ٣) **توزيع فيموس أو جام النرد**. يمكن أيضًا احتساب احتمال الحالات الست. إذا ألقينا زهر النرد خمس مرات، قد نحصل على العدد ٦ ثلاث مرات. لكن الشواذ يزول مع ازدياد المرات التي يلقى فيها زهر النرد.

إليك نتيجة اختبارنا لخمسين رمية زهر:
١=٨ (٠,١٦ على ١)؛ ٢=٧ (٠,١٤)، ٣=١١ (٠,٢٢)، ٤=٥ (٠,١)، ٥=٩ (٠,١٨) و٦=١٠ (٠,٢).

بين ٥٠٠ و١٠٠٠ رمية تتساوى الأعمدة من كل جهة وتقترب من نسبة الحدوث المتوقعة (٠,١٧ ≃) ١/٦

ب. توافيقي

تظهر فائدة المعامل ذي الحدين، أيضًا، عند تحديد التوافيق: في كم ترتيب مختلف يستطيع ستة أشخاص أن يجلسوا (جميعهم في كل مرة) الواحد إلى جانب الآخر؟ يجب في هذه الحال تغيير ترتيبهم في جميع التصورات الممكنة.

وهذا التغير في المواقع يسمى **التبديل** وعدد التبديلات n! أي عاملي (!) لـ n حالات، نحصل عليه، في هذه الحال، بضرب الأعداد الستة (عدد الرجال) بعضها ببعض:

١×٢×٣×٤×٥×٦ = ٧٢٠ تبديلًا.

تكتسب **التوافيق** أهمية عملية، من ذلك تعيين الرموز. تحتاج ألفباء بريل إلى ستة عناصر في كل رمز لتشكيل ٦٤ رمزًا (٢٦ حرفًا و٣٨ رمزًا آخر). في المثل المقابل (ب٢) تشكل الأحرف النافرة (السوداء) كلمة zugeben (يوافق). بالنسبة إلى التوافيق نميز بين ما يحتمل التكرار منها مما لا يحتمل.

ج. الثقة (الفسحة، العتبة)

تكمن القيمة الأساسية للمُعامل ذي الحدين في توقّع القيم العددية.

(ج١) يتيح هذا المثلث الحسابي (المدعو خطأً مثلث پاسكال) تجديد احتمالات الاحداث العارضة على اختلاف انواعها. يتألف المثلث من صفوف صاعدة من الأعداد ويعلوه تاج مؤلف من عدد (١) مكرر.

والأعداد المتوسطة للصف التالي هي مجموع الأعداد الموضوعة على شكل صف قطري على الصف الأعلى (راجع المثلث): وبجمع الأعداد المتتابعة (راجع المستطيل) نحصل على الصفوف التالية.

(ج٢) يمكن ابراز قراءة معاكسة (منحدرة) متمثلة بالينبوع الروماني:

تصب مياه الينبوع من حوض علوي في حوضين دونه وهكذا دواليك حتى إن الأحواض السفلى لا تتلقى سوى جزء ضئيل من الماء.

كيف نستخلص الاحتمالات مما يشبه ألعابًا عددية؟

إذا ألقينا قطعة نقود في الفضاء تقع إما على وجهها (K) وإما على قفاها (W).

احتمال سقوطها على إحدى الوجهين ٠,٥ أي نصف «الحظ».

إذا ألقينا القطعة عدة مرات نحصل على توافيق KWW، KWK، KKK... ٠,٥ × ٠,٥ = ٠,٢٥...

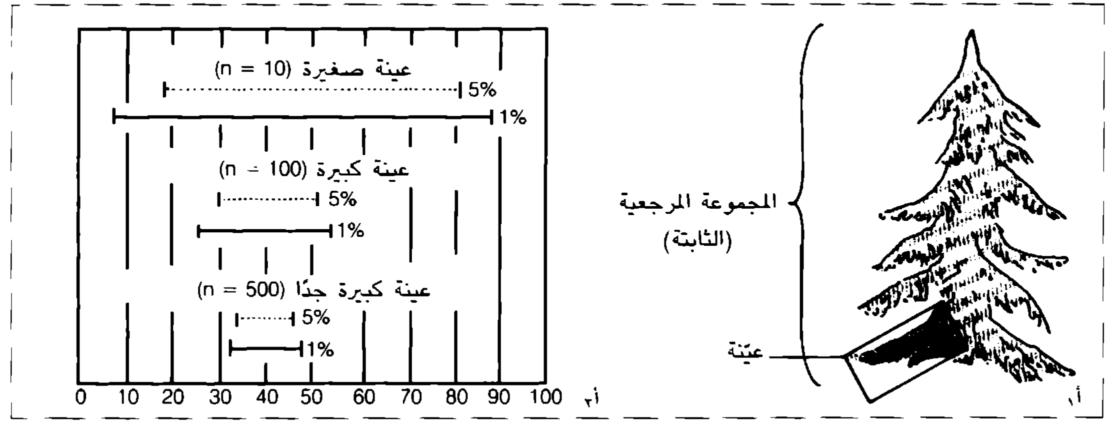
يتيح نموذجا المثلث الحصولَ على احتمالات بالطريقة نفسها.

(ج٣) كلما امتدت العينة (بدءًا من مجموعة متجانسة الإنطلاق)، يكون ضمان صحّتها أكبر (عتبة الثقة). تتضاعف الدقة إذا رُبعنا قيمة العينة. النتيجة هي مجال الثقة (إذ نثق فيه بالأعداد) الذي لا يترك سوى هامش ضيق للخطأ (٤ ٪ مثلًا).

(ج٤) يمكن الحصول على أعلى درجة من الصحة الممكنة مع طريقة الترجح القصوى لواضعها **ر.ف. فيشر**، وهي توفيق عوامل التقييم.

وتجيب هذه الطريقة عن السؤال التالي: ما هي احتمالية الحصول بدقة على النمط المرفق من العينة؟

تكون الاحتمالية عالية بمقدار ما تكون بنية العيّنات ممثّلة لبنية المجموعة المرجعية (مجموعة بشريّة بينها صلات نسب وموزعة توزيعًا طبيعيًا).



أ. تقييم الثابتات

50%

ح ش

ش ح

3,9%

$n = 10 - 1$

$x = 4(-)$

$\frac{x}{n} \approx \frac{n-x}{n}$

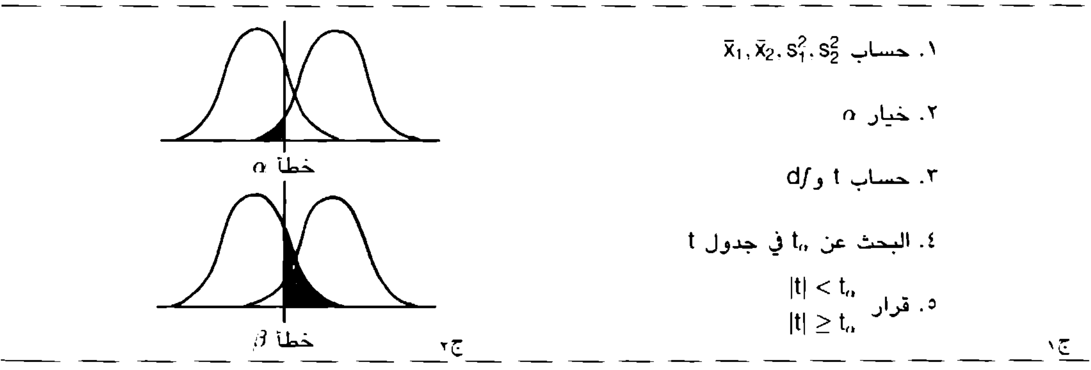
≈ 0.5

$H_0 = ja$

أزواج القيم	أكبر/أصغر	علامات
A-1-B	A > B	+
A-2-B	A < B	–
A-3-B	A > B	+
A-4-B	A = B	0
A-5-B	A < B	–
A-6-B	A > B	+
A-7-B	A < B	
A-8-B	A < B	–
A-9-B	A > B	+
A-10-B	A > B	+

ب١ ب٢

ب. تجربة الفرضية اللاثابتية



ج. تجربة الفرضية الثابتية

ن تجربةً ليس لها قيمة إلا لنفسها ليست إلا لعبة. القاعدة لعامة هي أن هدف الاستقصاءات هو التعميم. ولكي لا يكون لتعميم متسرعًا، تُخطّط الاختبارات استنادًا إلى **ثلاثة** معايير: جمع المعطيات (الحصول على القيم الخام)، إعداد المعطيات وضع خطوط بيانية مقروءة) وتقييم المعطيات (روائز حصائية، مثلًا).

أ. تقييم الثابتات

.لا يوجد إحصاء أفضل من مادته الخام» (**سْڤوبودا** ١٩٧١). وكما سبق أن ذكرنا أعلاه (فصل ٣/٣)، نحتاج أولًا إلى نظرية لطابع المميز قبل جمع المعلومات.

لمعرفة عدد أوراق الصنوبرة ليس من الضروري تعداد جميع الأوراق، فعوضًا عن ذلك نختار عَيّنة. ومن عدد أوراق العينة نتوصل إلى معرفة أوراق «المجموعة المرجعية».

وللوصول إلى نتائج منطقية صحيحة، يوفر الاستدلال لإحصائيّ طرقًا دقيقة. تدعى خصائص المجموعة المحددة (أو لسكان إذا كانت المجموعة أشخاصًا) ثابتات ويشار إليها بأحرف يونانية. وتدعى خصائص العينة الخاضعة للاختبار إحصائيات أو قيمًا مقدرة ويشار إليها بالأحرف اللاتينية.

العينة هي تقدير ثابتات لأنها لا تنتج ١٠٠٪ من المجموعة لمرجعية.

تتعلق الدقة، بشكل عام، بحجم العينة (أ٢): كلما كانت العينة شاملة تكون الدقة أوفر. مع ٥٪ من احتمال الخطأ يكون احتمال الدقة ٩٥٪؛ وفي مستوى أكثر صرامة ١٪ يكون معدل الاحتمالية ٩٩٪.

ولكي نميز المجموعات المرجعيّة من العيّنات، نعطي القيم رموزًا مختلفة: نستعمل حرف μ (مو) لمتوسط المجموعة الأساسية وحرف $\bar{x}$ لمتوسط العينة.

تقسم تقنيات التجربة إلى فئتين أساسيتين: لا تفترض التقنيات اللاثابتية توزيعًا عاديًا للمجموعة المرجعية، في حين أنها مطلوبة للتقنيات الثابتية التي تعني تقييم المعطيات وحساب المتوسط والإنحراف المعياري أي تقييم الثابتات.

ب. تجربة الفرضية اللاثابتية

(ب١) يروي العالِم الإحصائي السير **رونالد فيشر** (١٨٩٠–١٩٦٢) أن امرأة كانت تدَّعي أن بامكانها أن تعرف، بتذوق كوب من الشاي بالحليب، ما إذا كان الحليب (ح) سكب أولًا أم الشاي (ش). كيف التحقق من هذه «الفرضية»، بمناوبة التسلسل ح ش وش ح نحصل على إمكانية ٥٠٪ من إصابة الهدف. وأكثر دقة هو تحديد ٤ أكواب (ش ح) انطلاقًا من ٨ أكواب ح ش وش ح منتقاة عشوائيًا. إن إمكانية الإصابة، في هذه الحال، هي فقط ١،٤٪ (**نيومان**، ١٩٥٠).

(ب٢) وَصَلَنا مثل بسيط عن التقنية اللاثابتية (تدعى أيضًا دون ثابتة، دون توزيع، مستقلة عن التوزيع) عن طريق اختيار الرموز.

على لجنتين A وB أن تمتحنا ١٠ حالات (أداءات رياضية بدنية، مثلًا) تبعًا لست (٦) علامات: تنص فرضية العدم أنه لا يوجد بين اللجنتين أي فرق في مستوى التقييم. بعض نقاط لجنة A هي أعلى (+) وأخرى أقل (–) من علامات لجنة B. استنادًا إلى الصيغة

$$\frac{x}{n} \approx \frac{n-x}{n} \approx \frac{1}{2}$$

حيث x، عدد الرموز النادرة نوعًا ما (–)، يجب أن تكون مساوية لـ n–x، عدد الرموز الأخرى (+)، مع n تساوي ١٠–١=١ (إحدى العلامات هي مساوية ولا تدخل في الاعتبار). يمكن الاحتفاظ بفرضية العدم مع هامش خطأ مقبول قيمته ٥٪. وبعبارات أخرى: يمكن التأكيد أن لدى اللجنتين مستوى متساويأ من الترقيم.

ج. تجربة الفرضية الثابتية

عندما كان رائد الإحصاء و. **س. غوسيت** (١٨٧٦–١٩٣٧) موظفًا في معمل جعة نشر أعماله التجديدية تحت اسم مستعار «ستودنت». أنتج «توزيعه t» منذئذ مجموعة من الروائز t (تدعى روائز ستودنت) تستخدم للتأكد من فرضية الفرق بين متوسطي العينتين. إذا افترضنا التوزيع عاديًا وضعنا فرضية العدم، تشتمل التتمة على خمس مراحل: أ) حساب متوسطي العينتين وتباينيهما، ب) اختيار مستوى الاحتمال (خطر الخطأ أو عتبة الثقة)، ج) حساب المعادلة:

$$t = \frac{\bar{x}_1 - \bar{x}_2}{\sqrt{s_1^2 / N_1 + S_2^2 / N_2}}$$

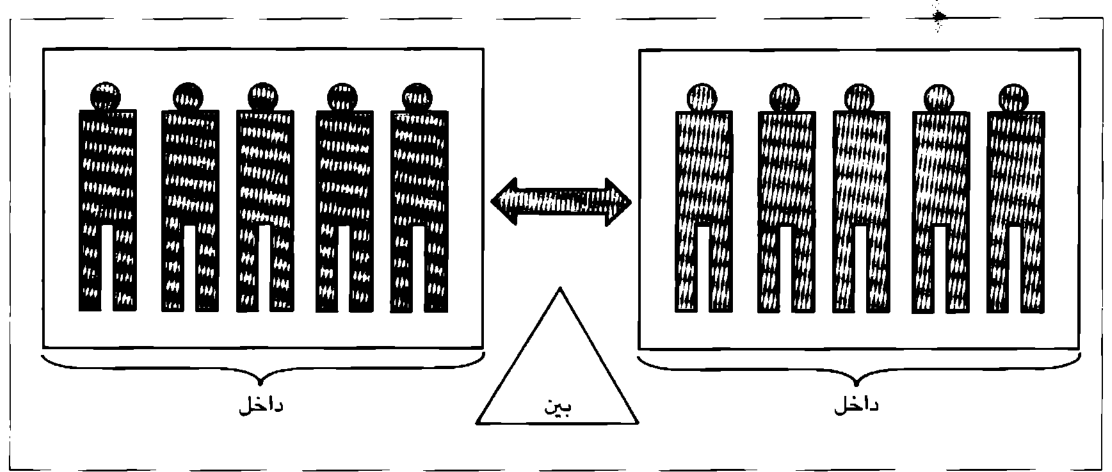
د) إثبات القيمة الحرجة $t\alpha$ على جدول t ستودنت مع $df = n_1 + n_2 - 2$ درجات حرية.

هـ) قرار يعني الفرق «غير الدلالي» ($t < t_\alpha$) أو الدلالي ($t \geq t_\alpha$) بين المتوسطين.

يقوم الخطأ α (خطر من النوع الأول) على رفض فرضية فرق العدم H_0 في حين أنها صحيحة، في منطقة الفرق الدلالي (إلى اليمين). الخطأ B (خطر من النوع الثاني) يقوم على قبول H_0، في حين أنه خطأ، في منطقة الفرق غير الدلالي (إلى اليسار) (راجع ج٢).

ففي الحالة الأولى، نصنِّف مثلًا أحدًا ما غير مجرّب، على أساس عيّنة مؤهلاته، في فئة الأشخاص المجرّبين، وفي الحالة الثانية نصنِّف أحدًا ما مجرّبًا بطريق الخطأ، بين المبتدئين.

تُثبَّت حدود اتخاذ القرار الخاص بالتصنيف – وحدود الأخطاء – من قبل المستقصي. ورائز دلالي آخر، يدعى رائز كاي المربع، يعني الفروق بين تكرارين.



أ. تحليل التشتُّت / التوزُّع

$\bar{x} = 2$ $\bar{x} = 3$ $\bar{x} = 7$ $\bar{x} = 4$

2 3 1 3 1 — a

3 4 3 5 0 — b

6 8 7 4 10 — c

2 3 7 — a b c

ب١

−2 a −1 b 3 c

a : 2 − 4 = −2

b : 3 − 4 = −1

c : 7 − 4 = 3

ب٢

a: 2 − 4	b: 3 − 4	c: 7 − 4	
$5 \cdot (\ )^2 = 20$	$5 \cdot (\ )^2 = 5$	$5 \cdot (\ )^2 = 45$	= 70

ب٣

a 4 + b 14 + c 20 = 38

ب٤

$\frac{70}{2}$ (بين) | $\frac{38}{12}$ (داخل) = $\frac{35}{3,17}$

مستوى ١٪

6,93 < 11,0

ب٥

ب. مراحل العملية

تختصر عبارة تحليل التباين مجموعة من إجراءات التحقق الإحصائي حيث تراقب الفروق بين متوسطات متغير تابع. يُسْتَخْدَم التحليل البسيط في حالة متغير مستقل (متعدِّد الفئات)، والتحليل الثنائي أو المتعدد التغيّر (المركب) لمتغيِّرين مستقلين أو أكثر.

أ. تحليل التشتُّت / التوزُّع

يشير مخطَّط الاختبار الشديد التبسُّط إلى فئتين من الاختبار تتضمن كل منهما خمسة موضوعات خاضعة لطرق معالجة مختلفة. بعد انقضاء مرحلة التدريب، يُتوقع فرق في مستوى الأداء بين الفريقين. يجب التدقيق أيضًا في أن الافراد المختلفة داخل كل فريق لا تستجيب بالطريقة نفسها لكل من هذه الطرق. وإذا أردنا تقييم صلاحية الطريقتين، من المهم، بالتالي، تحليل التغير بين الفئات الذي يسمى «بين» والتغير داخل كل فريق ويُدعى «داخل».

ستنادًا إلى رائز F (رائز فيشر) نتفحص:

$$F = \frac{\text{تغاير «بين»}}{\text{تغاير «داخل»}}$$

ونتتبع سير الحسابات في مثل بسيط.

ب. مراحل العملية

(ب١) المقصود تفحص العينات a, b, c من وجهة نظر التشتُّت. فمن الضروري من أجل ذلك تحديد انحراف كل عيِّنة بالنسبة إلى متوسِّطها الخاص.

في كلِّ عيِّنة خمسةُ أفراد (في خمسة صفوف من الأعمدة). حصل الفرد الأول من العينة على قيمتين، والثاني على ٣ والثالث على قيمة واحدة والرابع على ثلاث قيم والخامس على قيمة واحدة.

ونقرأ بالطريقة نفسها قيم الأفراد الخمسة من العينتين b وc.

وفي المرحلة الثانية نحسب متوسِّط العيِّنة (a): (٢+٣+١+٣+١): ٥ = ٢.

الانحراف بين كل من القيم والمتوسط ٢ تشير إليه المربعات القاتمة اللون. المتوسط الحسابي لمتوسِّطات العيِّنات الثلاث (٢+٣+٧): ٣ = ٤.

(ب٢) نعمد الآن إلى التصحيح الداخلي للعيِّنات، الذي يتمّ (مستقلًا عن العلامات + أو –) بمقارنته بالمتوسط العام ٤.

هذا يعني بالنسبة إلى العيِّنة (a) أن متوسط (a) هو ٢ وأنه يمثِّل انحرافًا من وحدتين بالنسبة إلى المتوسط العام ٤، والانحراف بالنسبة إلى (b) هو وحدة واحدة وبالنسبة إلى (c) هو ٣.

وهكذا تبدأ مقارنة التغيرات «بين» و«داخل».

(ب٣) عند حساب التشتت «بين» العينات، يجب الانتباه، بنوع خاص، إلى مربع كلٍّ من القيم.

فهو بالنسبة إلى a: ٥×٢^{٢}=٢٠؛ وبالنسبة إلى b: ٥×١^{٢}=٥؛ وبالنسبة إلى c: ٥×٣^{٢}=٤٥. فالقيمة الاجمالية للتشتُّت بين العينات هي إذًا: ٢٠+٥+٤٥=٧٠.

(ب٤) ب١ هي التي تتيح قراءة التشتت داخل العينات، دون إغفال إيجاد مربع كلٍّ من القيم هنا أيضًا.

لكن هذا التربيع لا يصبح مثيرًا للانتباه إلا لدى الفردين الرابع والخامس من العينة b: ٢^{٢}=٤ و٣^{٢}=٩. مجموع مربعات الانحرافات داخل العينات الثلاث هو ٣٨.

(ب٥) لكن العملية الحسابية بالمعنى الحقيقي لا تنطلق الا ابتداء من المرحلة الخامسة (و بالنسبة إلى هذا المثل الذي هو في غاية البساطة، لا تدعو الحاجة إلى اللجوء إلى الحاسوب حتى ولا إلى الآلة الحاسبة الصغيرة). ومن الضروري، بالنسبة إلى الحساب، معرفة مفهوم «درجة الحرية».

عندما نريد الحصول على عدد ١٠ انطلاقًا من جمع ثلاثة أعداد، يمكن أن نختار بكل حرية عددين، مثلًا، هما ٤ و٣: لكننا لسنا أحرارًا في اختيار العدد الثالث: يجب أن يكون هذا العدد ٣ إذا أردنا أن يكون المجموع ١٠.

يشتمل المثل ب١ على ٣ عينات: فهذا يوفر ٣–١=٢ درجتي حرية. ولكن لا تتضمن كل واحدة من هذه العينات سوى ٥ قياسات، إذًا ٥–١=٤، ما مجموعه ١٢ درجة حرية.

إن النتيجة بالنسبة إلى التباين «بين» هي ٧٠ مقسومة على ٢، وبالنسبة إلى التباين «داخل» هو ٣٨ مقسومة على ١٢. وذلك يعطي، استنادًا إلى صيغة F المذكورة أعلاه: ٣٥ مقسومة على ٣,١٧=١١,٠ كقيمة لرائز الدلالة.

مع هذه القيمة، يمكننا العودة إلى جداول مُعامِل F لواضعها شنيديكور (و هي مؤلف ضخم) للوصول إلى القرار الاحصائي.

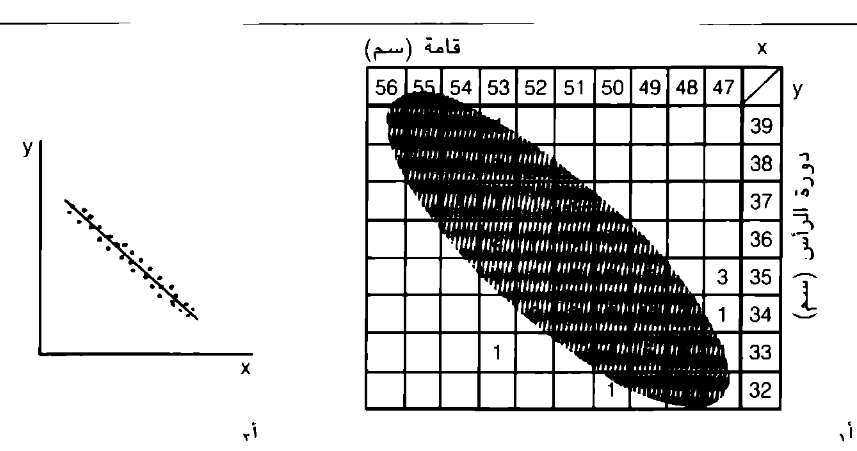
على مستوى ٩٩٪ (١٪ احتمال خطأ) نجد على السطر ١٢ (أي ١٢ درجة من الحرية) بالنسبة إلى التباين الصغير وفي العمود ٢ (درجتين (٢) من الحرية) بالنسبة إلى التباين الكبير، نجد القيمة الحدية ٦,٩٣. فالقيمة الحاصلة ١١,٠ توجد فوق عتبة ١٪ الخاصة بالفروق البارزة الدلالة.

من هنا النتيجة: ثمة احتمال قويّ لكي تأتي العيِّنات من مجموعات مرجعيّة مختلفة.

وهكذا بالإمكان مفاضلة متوسِّطات الإنجازات مع تأكيد وجهة النظر الإحصائية، أي بطريقة «دلالية».

وهكذا يتيح تحليل التغاير تفسير «الظواهر العالية الصدفوية» بالنسبة إلى «الظواهر الصدفوية» في وسط التشتُّت الفردي الطبيعي.

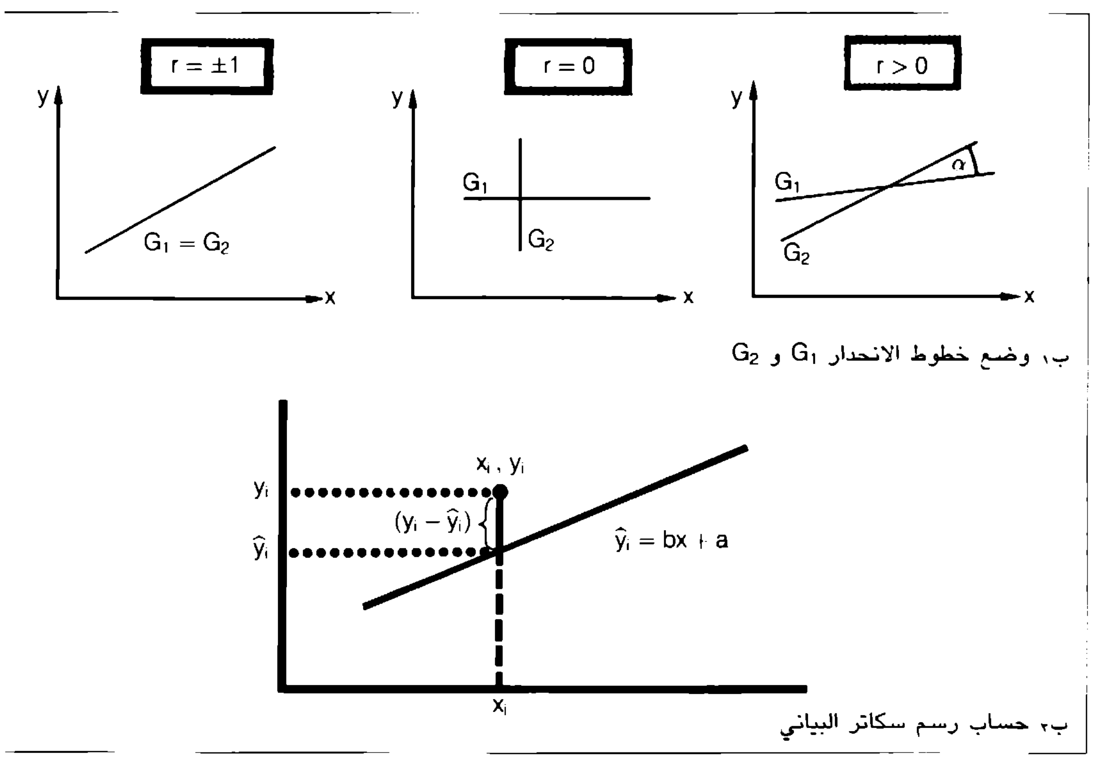
وتحليل معدل الترابط هو توسيع لطريقة التحقُّق هذه، وهو يتيح دراسة «التباينات المقترنة» لتوزيعين إثنين.



xy	y^2	x^2	y	x	رائز y	رائز x	الفرد
−400	400	400	−20	20	10	50	a
−100	100	100	−10	10	20	40	b
0	0	0	0	0	30	30	c
−100	100	100	10	−10	40	20	d
−400	400	400	20	−20	50	10	e
−1000	1000	1000	0	0	150	150	Σ

أ٢

أ. تحليل الارتباط



ب١ وضع خطوط الانحدار G_1 و G_2

ب٢ حساب رسم سكاتر البياني

ب. تحليل الانحدار

إحصاء الارتباطات هو عمل أساسي آخر في علم الاحصاء: هو تحديد العلاقات المتبادلة، وعلاقات التبعية بين القيم العددية. يمكن بخصوص مقاييس المجالات، طرح سؤالين: ١) ما هي درجة الارتباط بين عدة سلاسل عددية ؟ ٢) ما هي طبيعة هذا الارتباط ؟ تنشأ المسألة الأولى من تحليل الارتباط والثانية من تحليل الانحدار.

أ. تحليل الارتباط

ندرس هنا، في بداية التحليل «المتعدد المتغيرات»، «القرابة» بين متغيّرين أو عدة متغيّرات، أي درجة التشابه أو التباين. فالتشابه المطلق (الذي لا يبلغه حتى توأما البيضة الواحدة) هو قيمة +١ والتباين المطلق هو قيمة –١، والقيمة ٠ (صفر) بين الاثنتين لا تعبّر عن أية علاقة معروفة. والقاعدة العامة هي التعامل مع قيم متوسطة مثل القيمة ٠,٨١ (نكتبها عادة ٨١. ونلفظها: نقطة واحد وثمانون) التي تعبر عن ارتباط قوي.

(أ١) يظهر هذا الرسم «القرابة» بين القامة ودورة الرأس عند الولادة (**كرايسغ** ١٩٧٥). ويلاحظ للتوّ أن القيم العددية تشكل إهليلجًا (قطعًا ناقصًا) يصعد محوره الأساسي منحرفًا نحو اليمين. وكلما كان الاهليلج مشدودًا إلى محوره بمقدار ذلك تكون القرابة بين سلسلتي القيم العددية إيجابية (متناظرة) أي بمقدار ذلك تكون مترابطة.

(أ٢) يُظهر هذا الخطّ البياني حالة معاكسة. فالنقط التي تمثل العلاقات xy هي مُنْحَصِرة حول خط مستقيم ينزل منحرفًا من اليسار إلى اليمين. يمثل هذا الخط علاقة شديدة السلبية (متكاملة) بين الارتباطات xy.

(أ٣) من أجل قراءة أفضل للنتائج، اختير كمثل لحساب أ٢ العلاقة السلبية القصوى (البعيدة الاحتمال). لقد أجري لكل من الأفراد الخمسة المتحنَين (a – e) رائزان (X وY) قيمهما الناتجة دقيقة التكامل. نحسب أولًا المتوسط الحسابي للرائزَين:

$$\bar{x}_x = \frac{\Sigma X}{N} = \frac{150}{5} = 30 \quad \text{و}$$

$$\bar{x}_y = \frac{\Sigma Y}{N} = \frac{150}{5} = 30$$

x وy هما انحرافا متوسط جميع قيم X وY: x^2 وy^2 هما تربيعهما وxy هو حاصل ضرب كل من زوجي النتائج. والانحراف المعياري لكلا توزيعي x وy هو نفسه:

$$s = \sqrt{\frac{\Sigma x^2}{N}} \text{ أو } \sqrt{\frac{\Sigma y^2}{N}} = \sqrt{\frac{1000}{5}} = \sqrt{200} = 14.14$$

ويمكن الآن أن تُحوّل هذه القيم إلى صيغة معامل الارتباط r (حاصل ضرب الأعزام – جمع عزم) وهي صيغة **براڤيه – پيرسن**:

$$r = \frac{\Sigma xy}{N s_x s_y} = \frac{-1000}{5 \times 14.14 \times 14.14} = \frac{-1000}{1000} = -1.00$$

هذا مثل عن الارتباط السلبي الأقصى. وإذا كان ترتيب قيم رائز Y عكسيًا، أي إذا كانت قيم X وY متطابقة وذات علامة حسابية واحدة (سالبة أو موجبة) فإن معامل الارتباط يكون +١,٠٠. وهو في المثل أ١ يساوي ٦٧.

ب. تحليل الانحدار

يشكّل تحليل الانحدار خطوة متقدّمة في تحليل الارتباطات. يمكن قسمة انحدار نتيجتين موجّهتين X وY: إلى «متنبئات» (متغير التنبؤ) بالنسبة إلى «المعيار» (متغيرات النتائج الأخرى الموجهة).

(ب١) يُحدَّد موقعُ خَطَّي الانحدار G_1 وG_2 بواسطة معامل الارتباط r: اذا كانت $r > 0$، يشكل G_1 وG_2 زاوية α، حادة بعد نقطة التقاء $\bar{x}$ و$\bar{y}$ وبمقدار ما تكون الزاوية حادة بمقدار ذلك تكون القرابة كبيرة، إذا كانت $r - 0$ لا يكون هناك من نسبة فيشكل المستقيمان زاوية قائمة. وإذا كانت $r = \pm 1$ يتحد الخطان ويكونان على خطّ (في اتجاه واحد أو في اتجاه مختلف) إيجابي أو سلبي.

(ب٢) أما بالنسبة إلى حساب الانحدار (يكون «خطيًا» عندما يكون الانحدار مستقيمًا، و«غير خطي» عندما يكون شكله قطعًا مكافئًا أو أيّ منحنىً آخر)، فنستعمل الصيغة الجبرية لقيمة التقدير $y = bx + a$. إن القيمة b (معامل x) تحدد صعود المستقيم وتلتقي المحور y (قطعة y): في المعادلة $y = 4x + 2$، يحدّد العدد ٤ صعود المستقيمات وعدد ٢ يحدد مقطع y والثابتة a يحددها $\bar{y} - b\bar{x}$. ويتحدّد معامل الانحدار:

$$b = r_{x,y}\,\frac{s_y}{s_x}$$

بواسطة حساب الترابط المذكور أعلاه. ويعيد رسم التشتت البياني الانحراف $y_i - \hat{y}_i$ كخطأ تنبؤ. يجب اتخاذ جانب الحذر في تفسير «علاقات» متبادلة كهذه لأنها قد تؤدي إلى ارتباطات ظاهرية أو عبثية عندما تتدخل عوامل أخرى «ثالثية»، ومنذ عدة عقود وضعت **هيلين م. ووكر**، في كتابها عن الاحصاء، الارتباط المستحيل بين عمر المرأة وسيرها وهي منفرجة القدمين. واننا، والحالة هذه، لا يمكننا ربط عمر المرأة بطريقة المشي ولا هذه بذاك. وهذا أمر يعود إلى «أن النساء المسنّات كبرن في عصر كانت الفتيات يُعلّمن فيه أن يَسِرن وأقدامهن منفرجة، وهذه ليست حال الفتيات الأصغر سنًا».

$$A = \begin{bmatrix} a_{11} & a_{12} & \dots & a_{1k} & \dots & a_{1n} \\ a_{21} & a_{22} & & a_{2k} & \dots & a_{2n} \\ \vdots & \vdots & & \vdots & & \vdots \\ a_{i1} & a_{i2} & \dots & a_{ik} & \dots & a_{in} \\ \vdots & \vdots & & \vdots & & \vdots \\ a_{m1} & a_{m2} & \dots & a_{mk} & \dots & a_{mn} \end{bmatrix} \quad n \rightarrow,\ m \downarrow$$

أ١

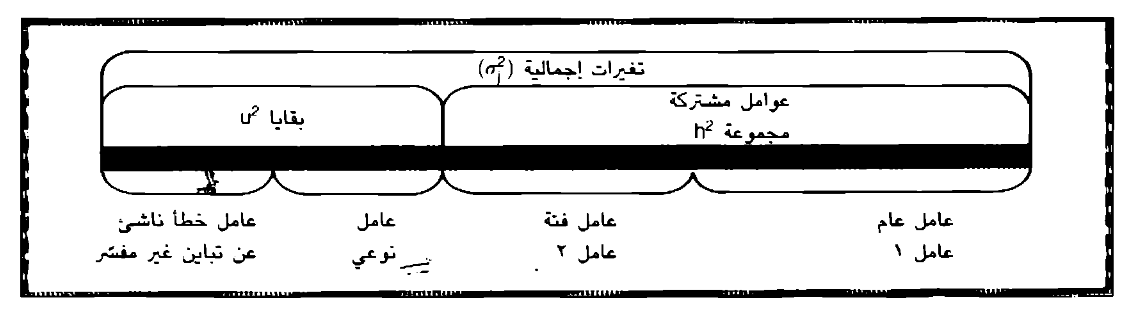
	1	2	3	4	5
1	1	.73	.75	.53	.22
2	.73	1	.45	.35	.25
3	.75	.45	1	.78	.16
4	.53	.35	.78	1	.10
5	.22	.25	.16	.10	1

أ٢

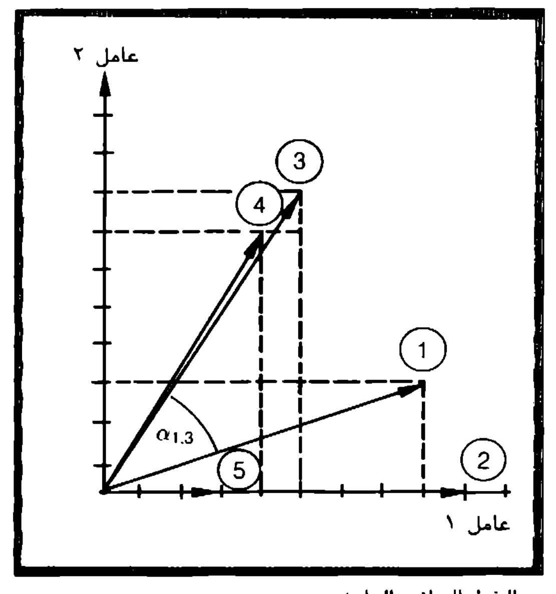
أ. مصفوفة الارتباطات R

	عوامل 1	عوامل 2	u^2
1	.8 (0,64)	.3 (0,09)	(0,27)
2	.9 (0,81)	0 –	(0,19)
3	.5 (0,25)	.8 (0,64)	(0,11)
4	.4 (0,16)	.7 (0,49)	(0,35)
5	.3 (0,09)	0 –	(0,91)

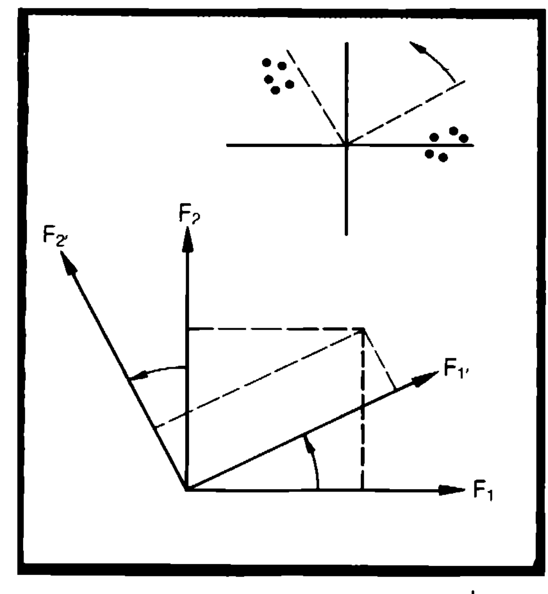
ب. مصفوفة عاملية F



ج. استخراج العوامل



د. الخط البياني العاملي



هـ. دوران

ترتكز دقة علوم الطبيعة أيضًا على إمكانية أن يُستَخْرَج، من عدد لا نهائي من الظواهر، عددٌ قليل من المتغيّرات الأساسية (مثل الكتل، الأوزان، العناصر الكيميائية) يكفي لتحليل جميع الظواهر المركّبة ولتوقُّعها. وهذا ما يُلِحّ عليه **ب. هورست** (١٩٧١) في علم النفس:

«إن ما نحتاج إليه إنما هو الطرق الموضوعية لتحديد المتغيرات الجزئية لعلمنا هذا».

نحاول في التحليل العاملي أن نجمع مختلف متغيرات علم النفس في بعض «المتغيرات الأولية» (أي العوامل).

أ. مصفوفة الارتباطات R

(١أ) إن نقطة انطلاق كل تحليل عاملي هي مصفوفة ارتباطات، توضع بين قوسين لتمييزها (في أكثر الأحيان بحرف A) كقيمة رياضية متجانسة. لهذه المصفوفة أسطر (تعدادها n) وأعمدة (تعدادها m)، وعدد عناصر يساوي حاصل ضرب ($m \times 1$ = متجه عمودي؛ $1 \times n$ = متجه خَطّي). يمكن تحويل متَّجهات عموديّة إلى متجهات خطّية.

(٢أ) يمكن أن تمثل الارتباطات، الارتباطات r مثلًا (حاصل ضرب الأعزام، فصل ٦/٤) على شكل جداول. بعض المتغيرات هي على علاقة أكبر فيما بينها (75.–1/3) ومتغيرات أخرى على علاقة أصغر بكثير (10.=4/5). وإذا تم التوصل إلى تركيز ارتباطات مرتفعة يسمى «عاملًا» المعيار الجديد للتنظيم. ومن الممكن إيجاد عددٍ أفضل من العوامل المشتركة لكل مصفوفة.

ب. مصفوفة عاملية F

إن نقل مصفوفة الارتباطات إلى مصفوفة عاملية هو القرار الأصعب. إذا لم نستخلص عددًا كافيًا من العوامل، يكون الوصف غير دقيق. وإذا كانت العوامل كثيرة، تكون مثقلة بالمعلومات الضافية. ولهذا يوفّر التحليل العاملي «معايير القطع» (أدلة تتيح معرفة متى يتم الحصول على الأفضل من العوامل). هذا يحدث بتعيين النسبة المئوية التي تفسر العواملُ الحاصلة، انطلاقًا منها، «التباينَ الاجمالي».

في المثل المقابل عاملان. توفر الأدلة العددية «حالة تشبع» المتغيرات تبعًا للعاملين (السطر الأعلى). ومربعات التشبع (السطر الأسفل) هي أقسام التباين التي يفسرها كل من العاملين. والبقية بالنسبة إلى ١,٠٠ توجد في عمود u^2.

ج. استخراج العوامل

للعامل (١) أهمية بالنسبة إلى الروائز الخمسة ويسمّى العامل العام.

وليس من حالات تشبع مرتفعة بالنسبة إلى العامل (٢) إلا ما يعود إلى فئة الروائز 3/4 لهذا يسمّى هذا العامل عامل الفئة.

يسمّى القسمُ من التباين الذي يفسّره العاملان المشتركان **مجموعة** h^2.

تتضمن البقايا (u^2) أقسام التباين الخاصة بالروائز كما تتضمن تباين الخطأ، أي كسر التباين الذي لا تفسره الروائز.

د. الخط البياني العاملي

في التمثيل البياني، يتصل طرفا كل من المتجهات بنقطة صفر (0) من نظام الإحداثيات المتعامدة. وبهذه الطريقة تتمثل حالات التشبع في المتغيرات وارتباطاتها (بحاصل ضرب الطولين الإتجاهيين وجيب تمام زاويتهما المشتركة α).

هـ الدوران

وبما أن أشكال التحليل العاملي تفترض نظام إحداثيات متعامدًا (ديكارتي) فقد يحدث أن هذا النظام لا يعيِّن بطريقة فضلى سحابةَ المتغيرات، لذلك يمكن تصحيح هذا الخطأ بدوران محاور الإحداثيات.

توفر الأشكال (أ–هـ) الأوجه الأساسية لهذه العمليات الكثيرة التعقيد. فيجب، لإجراء الحسابات الضرورية، اللجوء، في أكثر الأحيان، إلى حاسوب مجهَّز ببرامج حسابات.

تنتج تعقيدات العمليات المختلفة للتحليل العاملي عن ثلاث مراحل كبرى من هذه العملية:

تقدير المجموعة (جميع أنواع العمليات الاقتصادية)،

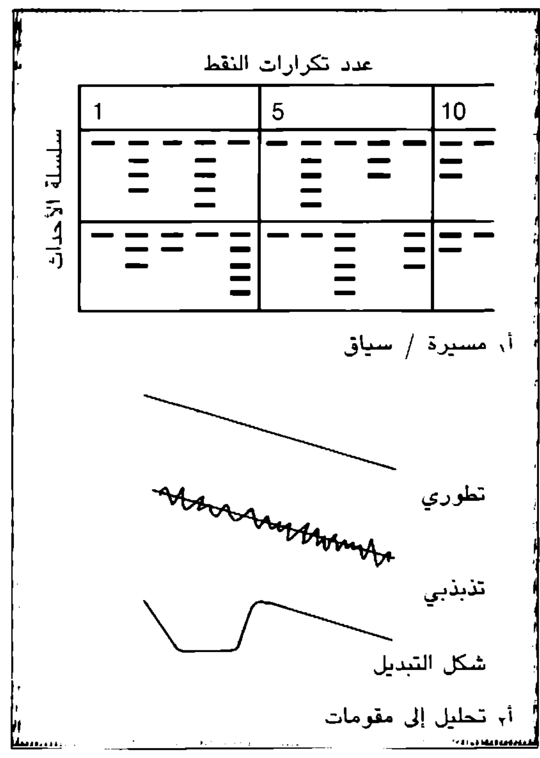
استخراج العوامل (و خاصة تحليل المحاور الأساسية)،

الدوران (إضافة إلى «البنية البسيطة» التي طورها **ثورستون**، رائد التحليل العاملي، وخاصة طريقة **ڤاريمكس**).

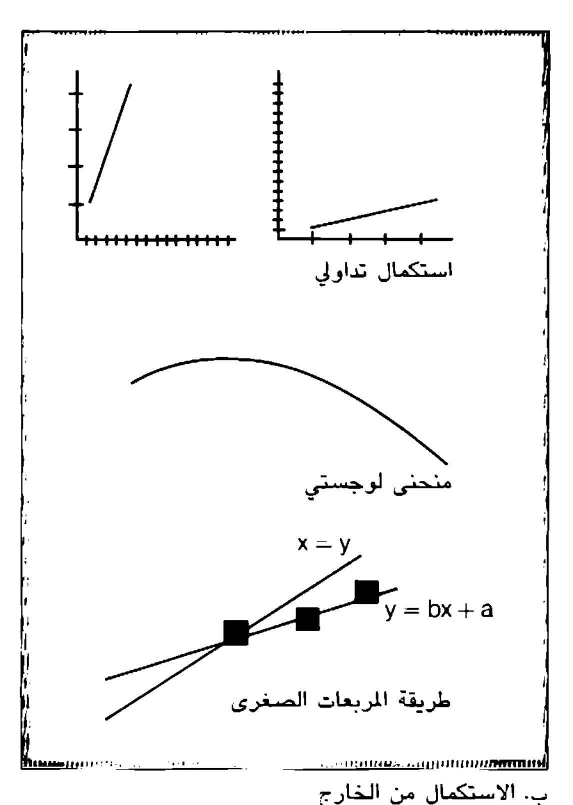
يوجز **ك. أوبرلا** (١٩٥٨) على الشكل التالي:

«تعتبر الارتباطات المعايَنة كتعبير عن كمّية غير معاينة، كمية عامل يمكن، انطلاقًا منه، أن تُحسَبَ الارتباطات بطريقة سهلة. يوجد العامل، دائمًا، وراء قيم ظاهرة ولا يمكن الحصول عليه مباشرة. (...) يحدِّثُ التحليل العاملي هذه العوامل الافتراضية وتكسبه بنية الفرضيات هذه دائمًا صفة مؤقتة. ولكن هذا بالضبط ما يجعله يتجاوز الأساليب الإحصائية المألوفة مَسْتَنْتِجًا من المعطيات هذه الكميات الافتراضّية أو العوامل».

ويوجد أساليب أخرى قريبة وخاصّة تحليل المعامِلات المميزة (حساب معامِلات العزل لبناء الأصناف)، تحليل مجموعات (تفاضلات فئات صغيرة متّصلة فيما بينها أو مجموعات مع مسلّمات إحصائية مختصرة)، تحليل تواتر الشكل (طريقة متعدِّدة المتغير دون توزيع لتمييز أنماط أو تناذرات).



أ. مسيرة زمنية



ب. الاستكمال من الخارج

V E N
B
أحداث منهجية مصطنعة

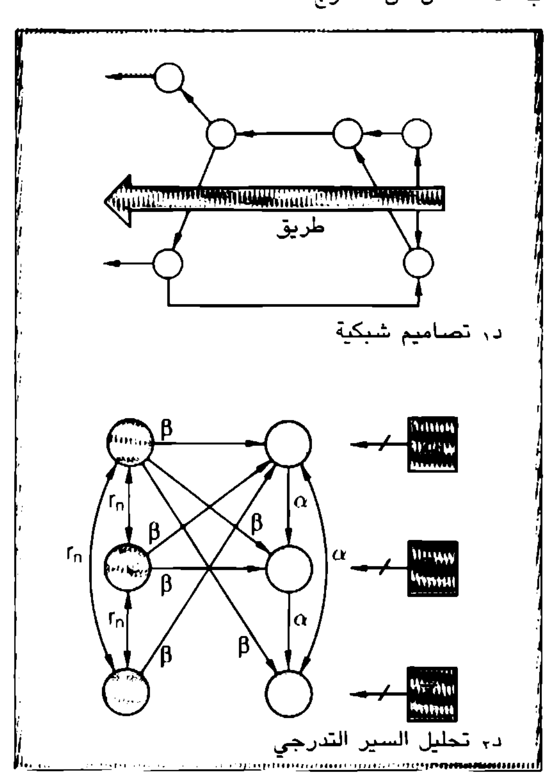
متوسطات متحركة

طريقة ماركوف

جيب التمام
جيب

تحليل طيفي

ج. تحليل النزوع



د. التصاميم التوقعية

يحيلنا المفهوم الاحصائي الجوهري «للمتغير» إلى الخاصة الأساسية التي تتصف بها الحياة النفسية وهي أنها في تغيّر دائم. إن تحليل المتواليات (السلاسل) الزمنية، في علم الإحصاء، هو الذي يحسب أفضل حساب لهذه الدينامية محاولًا وصف التغيّر إياه. وأخيرًا، يؤدي هذا المخطّط إلى التكهن لان هذا التكهن يتساءل كيف يمكن أن يستمر التحول الظاهر. ولكن بما أن هذا المخطط يصطدم هنا ببعض الصعوبات على مستوى مبحث العلوم والبحث الحسّي فإن هذا الحقلَ هو أقلُّ الحقول ارتيادًا.

أ. مسيرة زمنية

(أ١) **ظاهرة المسيرة**. يقول البولوني **ليك** (Lec) مؤلف جوامع الكلم: «إن الزمن هو المادة الأولية الأكثر أهمية». إن التساؤل عن معرفة كيفية احتوائه في مخطّط بحث يطرح أيضًا على العالِم الإحصائي. وبدأ، مع **بروكر – شتاينكول** (١٩٨٠)، تمييز عدد التكرارات المنتظمة (عدد الاختبارات) وسلسلة الأحداث (تكرارات الأحداث المجمّعة E؛ في مجالات زمنية ثابتة: متواليات، أو كيفية: ترددات). وأبسط مخطّط للبحث هو مخطط قبل – بعد مع إجراء مقاييس قبل حدث ما وبعده (إجراءات علاج، مثلًا). ويعرف هذا المخطط امتدادات مع مخطّطات ذات عدة نقاط (مخطط الانسحاب: تناوب مراحل المعالجة والراحة مع مقاييس، مخطط الانعكاس مع أحداث معكوسة).

(أ٢) **تحليل إلى مقوّمات**. «نستخدم الاحتمال لفقدان الدقة». إن ما يهم العالم الإحصائي، استنادًا إلى هذا المبدأ للفيلسوف **ڤتغنشتاين**، هو المراقبة الاستطلاعية للاحتمال. نميز استنادًا إلى **كيليرر** (1960) ثلاثة «مقومات زمنية» نفصل بين تأثيراتها:

١) نزوع «تطوري» (تطور خطي للماضي نحو المستقبل: الاستيفاء أو التعديل الخارجي).

٢) تقلب «مترجرج» (عدم انتظام مؤقت في التطور الخطي).

٣) انتقال النزوع بشكل «تبدّلي» وعارض ظاهريًا (تأثيرات أحداث خارقة: قفزة نوعية).

ب. الاستكمال من الخارج

تعني هذه الكلمة مد الخط في الاتجاه نفسه، أي في الاتجاه الذي قيس به قبل ذلك. قد تكون التقلبات المترجرجة متساوية، بواسطة الاستكمال مثلًا (و خاصة منحنيات «مسطحة» في تكرارات العملية المركّزة). تستخدم هذه الكلمة لغايات التلاعب عندما تكتسب النتيجة نفسها نتوءًا بصريًا عند إزاحة المجالات. ويُتوقع منحنيات لوجستية مع مسطح تشبع (معدّل خارجيًّا). يستخدم غالبًا لحساب النزوع طريقة المربعات الصغرى. (فصل ٦/٤، ب٣): يحتفظ، في الحساب التفاضلي، بمجموع جميع الانحرافات عند أدنى مستوى ممكن (مستقيم يمر في قيم معْلَمية)

ج. تحليل النزوع

لحساب النزوع عِدّة طرق. أجريت استطلاعات كثيرة (S) بعد الحدث (E) بيوم واحد (نشرة تلفزيونية، مثلًا)، في حين أن الحماسة الآنية (+) تراجعت (–) تحت تأثير خيبة الأمل. يمكن تحاشي هذه الأحداث المصطنعة المنهجية بقسمة الاستطلاع إلى ثلاث مراحل: المرحلة السابقة للاستطلاع A (المستقبلية)، مرحلة الاستطلاع بحد ذاته E (الآنية) ومرحلة دَوِيِّه اللاحق R (الارتجاعي).

تستخدم، لمعالجة النتائج إحصائيًا، طريقة المتوسطات المتحركة حيث ننقل الأقيسة المنتظمة التكرار إلى قيم متوسطة. وبالنسبة إلى الأقيسة الآنية، تقارن القيم الحاضرة بالقيم الماضية (مؤشر الارتجاع). وفيما يخص طريقة **ماركوف**، توجد تبعيات داخلية في التواتر المحتمل للأحداث (و خاصة في عمليات سحب الكرات السود أو البيض دون أن تعاد إلى القارورة، ما يبدل نتيجة هذا السحب). تمثل السلاسل الزمنية، في التحليل الطيفي، مجموع مختلف الذبذبات للجيب وجيب التمام.

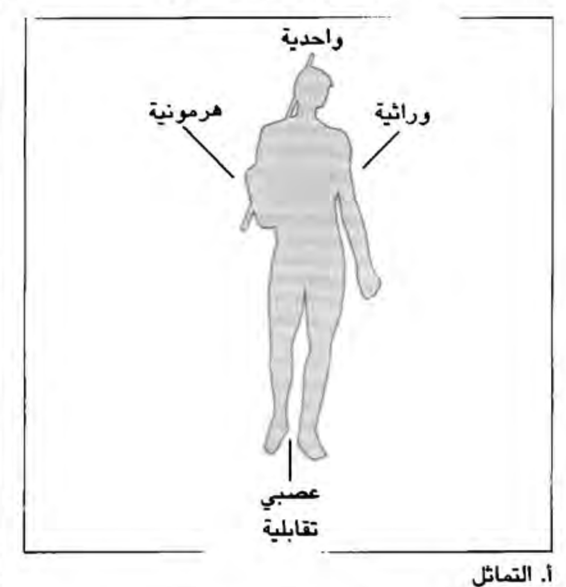
د. التصاميم التوقعية

إنها تراكيب طرق على مستوى تحليل الشبكات وهي تؤلّف، بما هي عليه، أعقد شكل من أشكال التوقع.

(د١) تعيد التصاميم الشبكية (راجع ٢١/٥، ب)، في رسم بياني، تشكيل مسيرة طريق «حرجة» (P) كنموذج للدوام الأقصى لعملية ما. تمثل «العقد» (الدوائر) في التصميم الشبكي مختلف الأحداث التي جرت وتمثل المسافات بينها الوقت الذي استغرقه تحضيرها أو تنفيذها، وكذلك تشكل «حلقات الارتجاع»، خاصة، التصحيحات والتناوبات.

(د٢) تحسب التفاعلات بين «العقد» على الطريقة التوقعية بفضل تحليل السير التدرّجي، وهو أعقد أشكال تحليل الانحدار (فصل ٦/٤). تتيح تقنية التحليل الكمّي هذه حسابًا مسبقًا، بفضل ناظمات آلية (حواسيب)، لعوامل تأثير على مستوى غير عادي تَمتّ بِصِلة إلى انتقالات النزوع بشكل «تبديل» مفاجئ (راجع أعلاه أ٢، ٣). في النموذج المقابل، تمثل X_n المتغيرات السلبية أو ثابتات التأثير وY_n متغيرات الأثر أو ثابتات الهدف، وr_n معاملات الارتباط وZ_n المتغيرات الباقية (أو الاختلافات غير المفسرة) غير النوعية. ننسب إلى كل طريق معالم طريق β، (عملية سبب – أثر) أو α (أثر ثانوي).

وبفضل عمليات خاصّة (ضرب كل معادلة بنيوية مع كل معادلة سببية، حاصل جمع المعادلات على حاصل ضرب القيم وقسمتها على n - 1). تشكل العمليّات البنيوية أنظمة معادلات لمعامِلات طريق لا تزال مجهولة.



أ. التماثل

ثنائية

عنصر روحاني

عنصر جسدي

ب. التفاعل



ج١ ركيزة - نموذج - دلالة

محتوى الدلالة النفسية

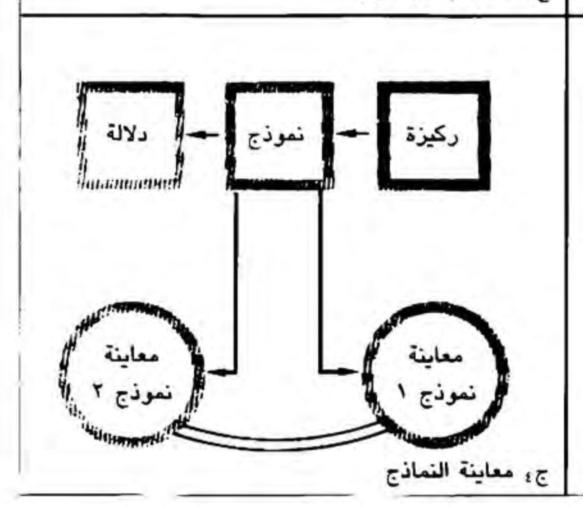
الإيقاع والتشكيل

نقل واتصال بالشبكة

ج٢ علاقة بثلاث درجات



ج٣ درجات الحرية



ج٤ معاينة النماذج

ج. الثلاثية

كيف ولد وَعْيُنا ؟ كيف تُصنع الحياة النفسية بداخلنا ؟ كيف يتوصل دماغنا الى جعلنا نشعر، نفكر، نعاني ؟ ما تزال هذه الألغاز القديمة تثير إجابات متناقضة. لكن تطور علم نفس الضبط (السيبرناتي) أوجد حالة جديدة.

أ. التماثل

لا تملك مشكلة روح - جسد تاريخًا طويلًا جدًا فقط، بل عولجت أيضًا تحت الاسماء الأكثر تنوعًا. في حقيقة الامر، ما تزال المسألة قائمة على «نظرية سيكولوجية»، أي حول معرفة الأسس «الجوهرية» للحياة النفسية. سلم كتَّاب عديدون، منذ العصور القديمة، بتقابلية النفس والجسد أو بتماثلهما.

فإن «النفس» بالنسبة إلى أفلاطون، كائن كان مصدرًا لحركته الخاصّة وهو موجِّه، في عملية التفكير، نحو الافكار وليس نحو الأشياء. وهكذا توجد أيضًا «نفس العالَم» الخالدة.

يميل علم النفس الفيزيولوجي الحالي (بالأحرى) إلى تحليل أرسطو للمركَّب النفسي الفيزيولوجي. ويُميِّز بين العوامل الوراثية والهرمونية والعصبية لفهم الوظائف النفسية. أما بالنسبة إلى معرفة طبيعة العلاقات التي تربط هذه العوامل فيما بينها فيُفَضَّل تجنُّب هذا السؤال على قاعدة المفترض الضمني والمسلَّمة الواحدية الضمنية لهُويّة ما.

ب. التفاعل

ميز **ديكارت** (١٥٩٦-١٦٥٠) منذ فجر العلم الحديث عنصرين أساسيين: العنصر الروحاني (res cogitans) والعنصر الجسدي (res extensa)، وهو تمييز يعادل التسليم بلا مادية النفس. لكن ديكارت، ولتوحيد العلاقة الواضحة بالجسد، سلَّم بوجود تفاعل متشابك بواسطة الغدة الصنوبرية.

ولدت المسلَّمة «الثنائية» الخاصة بالتفاعل مناقِضةً للمسلَّمة الواحدية السابقة للوحدة التي يدافع عنها علم النفس الفيزيولوجي. تتمثل هذه المسلَّمة الثنائية بعلم النفس الجسدي الذي يدافع عنه اليوم عدد كبير من العيادات وبعض الاساتذة.

ج. الثلاثية

منذ منتصف القرن العشرين، أضيفت مجموعة علوم الأعصاب، ومن ضمنها فرع علم النفس العصبي، الى علم النفس الفيزيولوجي والى علم النفس الجسدي كعلم مكمِّل.

(ج١) بدل التسليم بوحدة (واحدية) أو بثنائية الجسد والنفس، يوسِّع المجموع إلى ثلاثية «ركيزة - نموذج - دلالة» (**بينيش**، ١٩٥٤؛ ١٩٨٨). هذا النموذج الثلاثي (T-M-B) أوجدته نظرية علم الإشارات في الاتصال (**ج. فريغه**، ١٨٩٢، **ف. دو سوسور**، ١٩١٦، **س. و. موريس**، ١٩٣٨، **ك. إ. شانون**، ١٩٤٩).

تتيح الإشارات الدخانية في الصين القديمة تصوير هذا المبدأ: يطلق الدخان بشكل مستمر عند الحاجة كقاعدة أساسية (عملية الركيزة)، تقاطع هذه الأخيرة (الدخان) بواسطة غطاء مثلًا، وهي مقاطعة تتبع ايقاعًا معينًا (عمليّة النموذج، pattern process)، تسمح معرفة اصطلاح الإشارات (الدلالة) بتشفير وفك شيفرة الرسالة.

قياسًا على ذلك، لا يصلح المبدأ الثلاثي فقط لتقنية المعلومات، للأنبوب الكاثودي مثلًا، لكن «لتقانة» العمليات العصبية بشكل أساسي أيضًا.

(ج٢) يحتوي هذا النظام الثلاثي على عمليتي ركائز عصبية (النقل المحوري للتحريض العصبي وارتباط نقاط الاشتباك العصبية) تظهران في نوعين من النماذج (الايقاع والتشكيل). يكوِّن شكلا النمذجة هذان قاعدة احتواء الدلالة (العاطفية الإدراكية) النفسية. تفسر هكذا الصلة المتبادلة ما بين النفسية والعملية العصبونية كما يفسِّر اختلافها النوعي مع العمليات الجسدية.

(ج٣) بالرغم من تماثل القاعدة العصبية في عملية الركيزة، فإن مبدأ ركيزة - نموذج - دلالة يحتوي على درجتي حرية:

١) إن النماذج قابلة «للنقل». كما أنه بالأمكان نقل نماذج الالحان من ركيزة (أو آلة) موسيقية إلى أخرى، كذلك تنتقل النماذج (الإيقاعات والتشكيلات) في الجهاز العصبي كما في البيئة المادية بواسطة موجات صوتية أو ضوئية أو ارتجاجية. يمكن للتفاعل إذًا أن يحدث في داخل الإنسان كما في خارجه.

٢) إن المعاني (الدلالات) هي بدورها أكثر «حرية»، لأنها تخضع للغة إصطلاحية وهي إذًا متغيرة بشكل جوهري: إن نموذجًا جسديًا كهز الرأس مثلًا يمكن أن يعني بشكل إصطلاحي «كلا» في كثير من البلدان و«نعم» في بلدان أخرى. هذا ما يسمح بالتأكيد على أن النفسية هي «أكثر» من العنصر الجسدي و«مختلفة» عن هذا الأخير، مع أنها لا يمكن أن توجد إلا على قاعدة عصبونية («إنبثاق» هرمي).

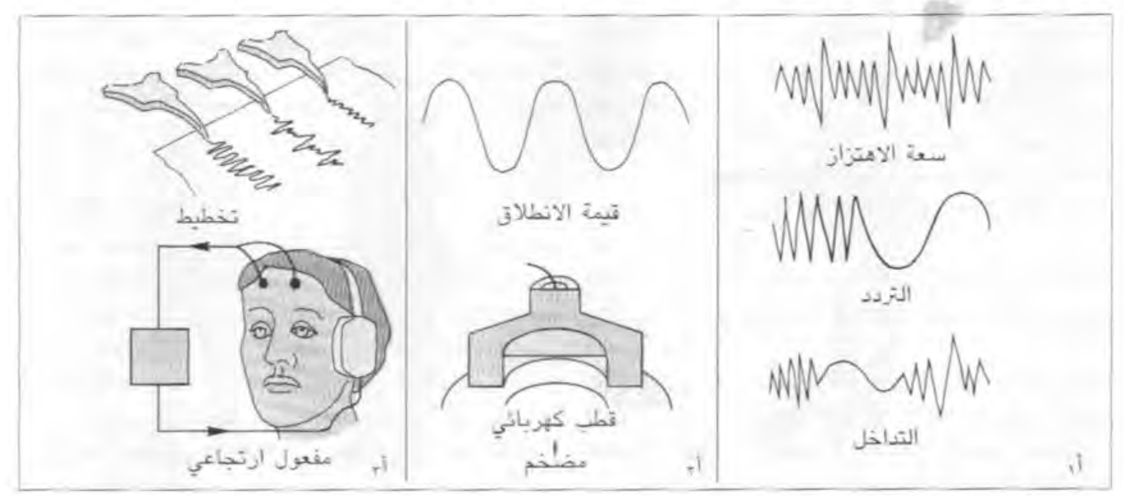
(ج٤) إن هدف بحث علم النفس العصبي هو «تطابق النماذج» (ME)، وهذا في اتجاهين:

ME_1 يختص بالتفسير الفيزيولوجي للنماذج: أية متتاليات إلكتروكيميائية تشكل عمليات الركائز وكيف تتكون نمذجتها،

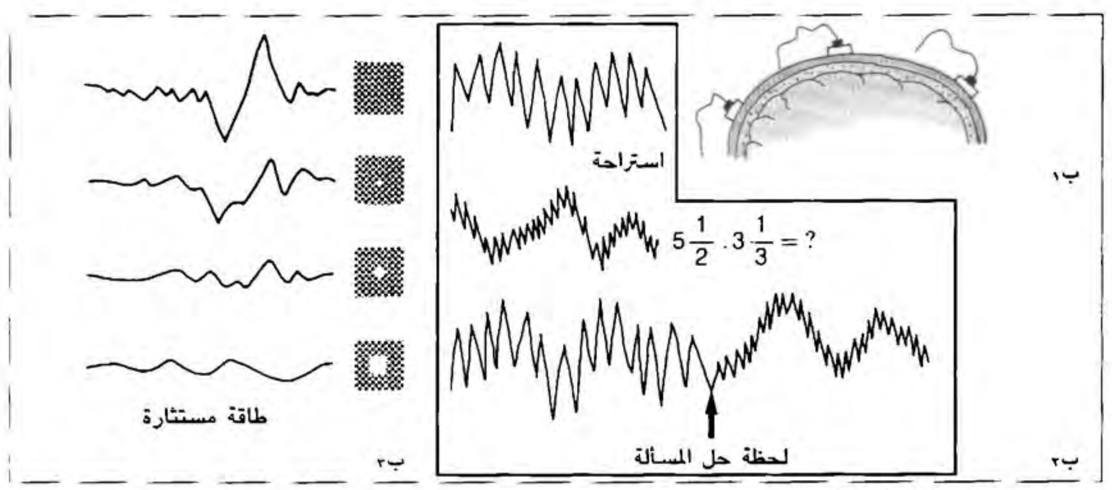
ME_2 يهتم «بقدرة توفير المعنى» الخاصة بالنماذج.

مع إدخال مفهوم النموذج، وجدت حالات الواحدية (المادية) والثنائية (المثالية) القديمة المتخاصمة وقد تجاوزها موقع سيبرناتي موحد للمرجع النفسي الفيزيولوجي

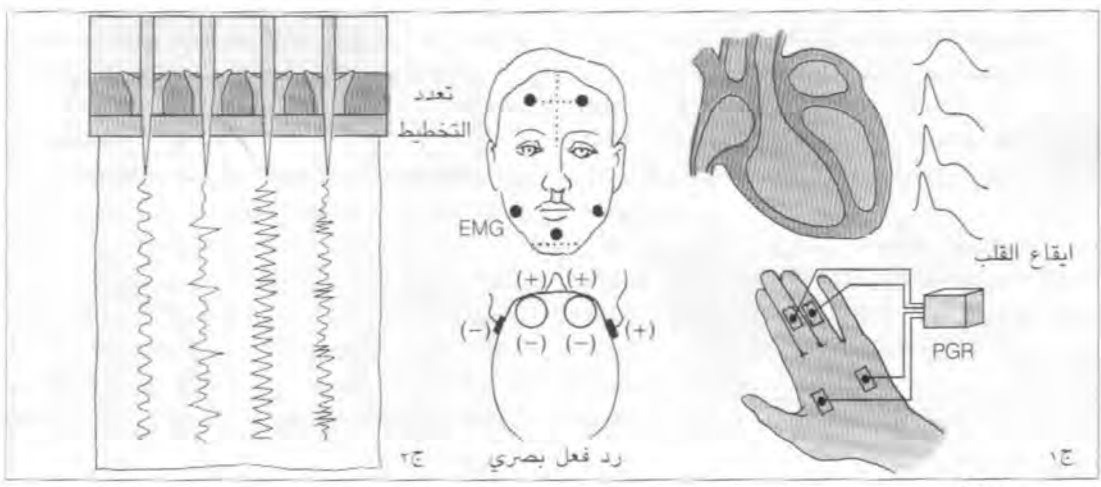
إن تحديد النماذج هو إحدى المهمّات الأساسية «لعلم نفس الضبط (السيبرناتي) العصبي التطوري» (فصل ٥/٧).



أ. التسجيل



ب. التخطيط الكهربائي للدماغ



ج. الرسم المتعدّد

بشكل الجسد، في مجمله، وحدة. تنتمي النفس الى هذه الوحدة. يُعبِّر عن الحدود بين العنصر النفسي والعنصر الجسدي بالطريقة الخاصة التي يعيش بها كل منا.
يمكن لردات الفعل الجسدية أن تعلّمنا، بواسطة هذه العلاقة المتبادلة الوثيقة، أشياء أساسية عن الحياة النفسية. هذا هو عمل علم النفس الفيزيولوجي.

أ. التسجيل

يتم التقاط ردات الفعل الجسدية المرتبطة بحالات نفسية ملازمة بحسب شكل ردة الفعل. عندما يكون شكلها كهربائيًا، يمكن أن تسجل مباشرة على جهاز، لكن عندما يتعلق الأمر بأشكال كيميائية، كإفرازات على سبيل المثال، يجب اللجوء إلى «محولات بيولوجية» لتحويلها إلى تسجيلات كهربائية.
(أ١) تحت هذا الشكل الكهربائي، تظهر ردات الفعل بشكل ملموس بواسطة سعة الإهتزاز (علو الموجة) وترددها (إيقاع الإطلاق) وتداخلها (تراكب أشكال موجات مختلفة).
(أ٢) من المهم هنا معرفة القيمة البدئية (قيمة الانطلاق) (مثلًا، قيمة طاقة الجسد الكامنة أو خط البداية) بهدف التمكن من تقدير التغيرات المتلاحقة بشكل صحيح. يُستعمَل القطب الكهربائي، أي لاقطٌ تقني كجهاز كاشف. يجب استعمال مضخمات كهربائية للتمكن من التقاط إشارات بيولوجية ذات تيار شديد الضعف.
(أ٣) تُلتقط الإشارات القصيرة، في العادة، بواسطة أجهزة تسجيل تسمح باستثمار المعطيات لاحقًا. يقوم أحد أشكال الإستثمار على إعادة المعلومات إلى المرسِل، فتستعمل هذه الإشارات البيولوجية، عند ذلك، بدورها في إطلاق ردات فعل جسدية معدّلة.

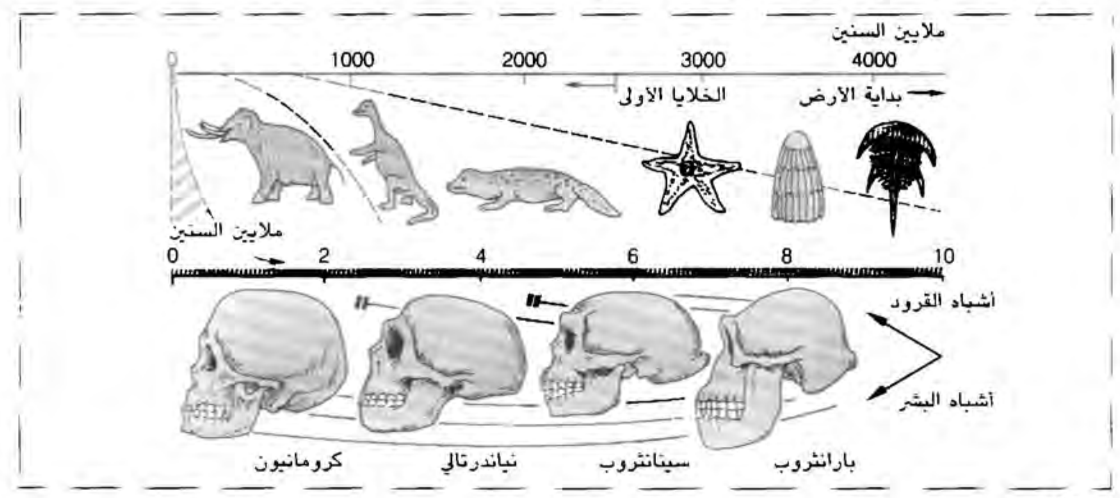
ب. التخطيط الكهربائي للدماغ (EEG)

اكتشف **هانس بيرغر** (١٨٧٣–١٩٤١)، بعد مرور وقت قصير على اختراع المصباح المضخِّم وبفضله، نشاط الدماغ الكهربائي. يشكل اليوم الـ EEG منهج علم النفس الفيزيولوجي الأساسي.
(ب١) تلتقط أمواج الحدث الدماغي، التي لا يمكن تحسسها، بواسطة ٨ إلى ٢٥ قطبًا كهربائيًا مثبتة على جلد الرأس.
(ب٢) طلب **بيرغر** من ابنته في أحد أوائل اختباراته معها أن تحل مسألة حساب ذهني. يمكن رؤية الطاقة الكامنة في حالة الراحة قبل عرض المسألة في أعلى الصورة، وفي الوسط حالتها خلال العمل وفي الأدنى تحول الـ EEG لحظة حل المسألة: يمكن القول، بشكل عام، إن الإيقاعات السائدة هي في وقت الراحة أبسط منها في وقت العمل. تُميَّز اليوم أربع طبقات من الترددات لهذه الإيقاعات، ويسمى الإيقاع الملازم لانتباه مستمر ايقاع بيتا (أو إيقاع **بيرغر**).
(ب٣) أصبحت ظروف الإختبارات، اليوم، أكثر تعقيدًا، تعالج أجهزة الحاسوب أنواع الموجات وأصبحت الأجهزة أكثر دقة.

إضافة إلى ذلك، يستعمل تخطيط الدماغ الكهربائي لغايات تشخيصية أيضًا، لاكتشاف أورام محتملة، مثلًا. إن النتائج الأكثر أهمية التي حصلت عليها الأبحاث بواسطة الـ EEG هي اكتشاف مراكز نشاط (**موروتسي وماغون**، ١٩٤٩) العائدة إلى بعض حالات الوعي (**هايدر**، ١٩٦٩)، وتشمل العلاج بواسطة المفعول الارتجاعي البيولوجي (biofeedback) (الفصل ١٠/٢٠، ج).
إلى جانب هذا الـ EEG العفوي (التسجيل المتغير بحسب الحالة النفسية)، تستعمل أيضًا طاقات كامنة مستثارة، أي مزاوجة مع بعض المثيرات (البصرية مثلًا).
في هذا المثل (الصورة ب٣)، يلاحظ تغيرات للطاقة مستثارة بطريقة بصرية بحسب أربعة نماذج إثارات مختلفة.

ج. الرسم المتعدد

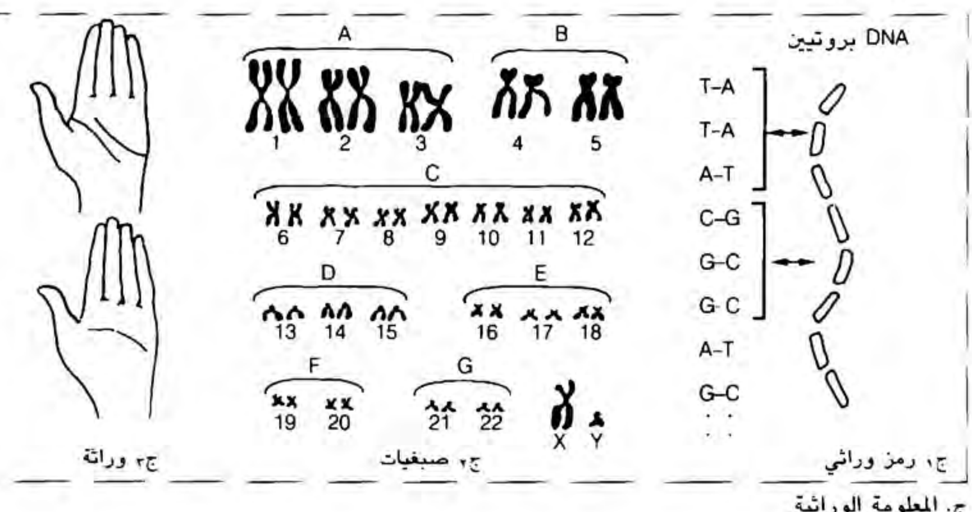
بالنظر إلى تعدد التسجيلات الممكنة لردات الفعل الجسدية المرتبطة بتغيرات الحالة النفسية، نستعمل في أحيان كثيرة عدة أنواع من التسجيلات ونقارن التقاصر (تباطؤ الحركة) واختلاف الحدة التي توجد فيما بينها بغية الحصول على معلومات إضافية.
(ج١) إلى جانب أشكال من التسجيلات نادرة الاستعمال (مثلًا تلوينات الجلْد عندما يعترينا احمرار الخجل)، تستخدم الأنواع الأربعة التالية:
إن أهمية جريان الدم النفسية معروفة منذ الأزمنة القديمة. استخدمت، إضافة الى القياس البسيط للنبض، طرق معقدة مثل تخطيط القلب الكهربائي (EKG) الذي يحتل أيضًا مكانًا في الأبحاث مع أنه يأخذ في هذه الحالة شكلًا مختلفًا جدًا مع تسجيلات لمناطق مختلفة من القلب.
إن التخطيط العضلي الكهربائي (EMG) هو مثل على غنى الأبحاث حول النظام العضلي المحرِّك. تستخدم ذبذبات الأنسجة بواسطة اهتزازات مجهرية بشكل خاص (حركات صغيرة جدًا ترافق، مثلًا، عمل التفكير) كدلائل سقوطية (استعداد للتغيرات النفسية).
إن جهاز كشف الكذب هو الذي سمح بالتعريف عن ردة الفعل النفسية الكهربائة (الغلفانية) (PGR): فهو يقيس تغيرات المقاومة الكهربائية للجلد المصاحبة لمختلف الحالات النفسية.
يمكن حتى تسجيل مختلف ردات الفعل البصرية، مثل حركة اتجاه النظر، اتساع بؤبؤ العين أو تخطيط العين الكهربائي (EOG) بالنسبة إلى الابحاث حول النوم في مرحلة REM (الفصل ١٨/٢٠، أ). تقاس مثلًا تغيرات التوتر بواسطة الأقطاب الكهربائية بين سطح العين وداخلها بعد كل حركة ذهاب وإياب للعين.
لكن تفسير العلاقات النفسية العصبية كما يتبين من «جهاز كشف الكذب» (PGR)، هو في غاية الصعوبة.
(ج٢) بالنسبة إلى التسجيل، تستعمل أجهزة رسم متعدد تسجِّل، في وقت واحد، نقطًا عدة وأنواعًا مختلفة من الإشارات.



أ. التطور



ب. أسس الحياة



ج. المعلومة الوراثية

كما الجسد، لم تظهر الحياة النفسية فجأة. لقد خلقت الأنواع عبر تحولات جينية (وراثية) أخذت وقتًا طويلًا وتكونت النفسية بطريقة موازية. يمكن الإفتراض، منطقيًا، أنه توجد في النفسية رواسخ جينية تنطبق على البقايا الجسدية (آثار من المراحل السابقة).

أ. التطور

عاش **تشارلز داروين** (١٨٠٩-١٨٨٢) حياته وهو يناقض تقديرات عمر الأرض (حوالي ٢٥ مليون سنة) التي رآها قصيرة جدًا. يقدر اليوم هذا العمر بأربعة أو خمسة مليارات سنة. لقد حدث «ظهور الانواع» في هذه الفترة بحسب داروين. بالرغم من ذلك، فقد حدث الاختلاف بين أشباه القرود وأشباه البشر خلال فترة تقل عن عشرة ملايين سنة (الخطوط الحمر). توقّفَ بعد هذا الاختلاف تطوُّرُ سلالات أخرى (مثل سلالة الإنسان النياندرتالي)، أما السلالات التي استطاعت البقاء فأعطت أمزجة مجهولة، حتى إننا لا نميز في الإنسانية الحالية من منظار «الأعراق» سوى أربعة ألوان للجلد. لهذا السبب تعتبر إرادة القيام بتفريقات نفسية، بحسب المميزات العرقية، أمرًا يرقى إليه الكثير من الشك.

ب. أسس الحياة

في بداية تطور الحياة وُجِدت الأحماض الأمينية التي لم يُتَثَبَّت من ظهورها في المختبر سوى في سنة ١٩٥٣ على يد طالب في الكيمياء: قام هذا الطالب بتعريض الحساء البدائي، الذي سخّنه أوّلا (ماء، ثاني أكسيد الكربون، غاز الميثان والأمونياك)، إلى تفريغات كهربائية ذات جهد مرتفع (مواز للعواصف العنيفة التي سادت في الطور الجيولوجي الأول). تلاحقت «سلسلة الحياة» مع تكون الخلايا والأعضاء والأفراد والجماعات حتى الشعوب (الأنواع).

الوظائف الأساسية: تحديد الفرد (خلق الأفراد)، تحول الطاقة (اقتطاع الطاقة التي يوفرها الطعام)، التناسل (إيلاد، ولادة) والإتصال - إحدى الأعمال المركزية في علم النفس.

ج. المعلومة الوراثية

يتعرض قليل من مجالات علم النفس للنقاش كما يتعرض علم النفس الوراثي. هناك إجماع نسبي لعدم التشكك في وجود خصائص نفسية وراثية، لكن يفترض أن تحقيقها يتحدد، في الواقع وبشكل أكثر أهمية، بواسطة التأثيرات التي يتعرض لها الإنسان في حياته. عندما ندرس توأمين أحاديَّي البُيَيْضة، تصيبنا التشابهات المذهلة على الأكيد بصدمة، حتى عندما يكونان قد كبرا منفصلين منذ صغرهما. على الرغم من ذلك فإنه من المستحيل تجاهل الإختلافات التي تعود إلى تأثير البيئة المحيطة.

(ج١) الرمز الوراثي هو مخزن معلومات كيميائية. إن الحَمْض النووي (DNA) هو جوهر المعلومة. وهو يتألف من مكونات كيميائية يمكن تمييز أربع قواعد بينها هي: أدينين = A، تيمين = T، سيتوزين = C، غوانين = G. تحدث التركيبات على أساس أزواج قاعدية، لكن التركيبات AT، TA، CG وGC هي الوحيدة الممكنة. كل ثلاثة أزواج قاعدية ثلاثية يمكن، بعد ذلك، أن تترجم إلى أحماض أمينية. يكفي عدد التركيبات الممكنة لتمييز الاحماض الأمينية العشرين التي نجدها بانتظام كما لإعطاء إشارات معلوماتية عن بدء تسلسل (GTG) أو نهايته (TAA). إن نماذج الجزيئات التي تتكون بهذه الطريقة من مئات الأحماض الأمينية هي البروتينات التي تتحكم بدورها بخصائص الجسد الكيميائية، خصوصًا بشكل أنزيمات.

إلى جانب عدد متصاعد من الجينات المعروفة، تم مؤخرًا اكتشاف جينات تحكُّم (الجينات المتشابهة، الجينات الزمنية، الجينات الجزئية) تؤمن قيادة مكانية ووقتية ووظيفية لتطور الخلية. بدا، مع اكتشاف هذه الخلايا، مبدأ عام للقيادة التوجيهية السيبرناتية يصل حتى أسباب التحكُّم بعلم نفس الإدراك (فصل ١٤/١٣).

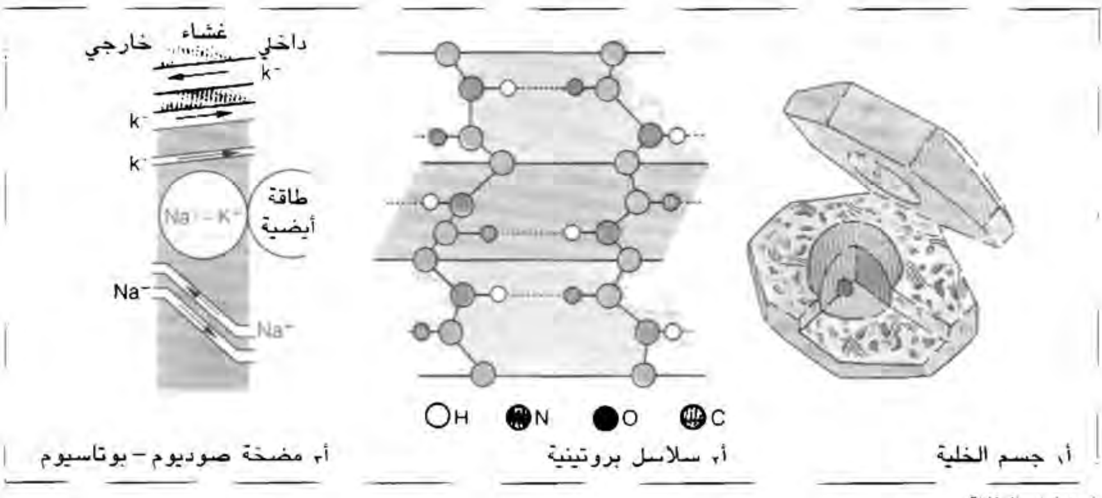
(ج٢) الصبغيات هي ركائز المعلومة الوراثية (الحمض النووي DNA) في نواة كل خلية من الجسم (باستثناء الكريات الحمر). يحتوي المشيج الإنساني على ٢٣ صبغية، وخلايا الجسم على ٤٦. تتميز ٧ مجموعات من ٢٢ زوجًا من الصبغيات الذاتية بحسب حجمها (يحمل الزوج الأصغر حجمًا، على أثر خطأ تاريخي، الرقم ٢١) وزوجًا من الصبغيات الجنسية (XY عند الرجل، XX عند المرأة). تتميّز هذه الصبغيات أيضًا بحسب شكل الصلة ما بين نصفيها وموضع هذه الصلة. إذا ما انطلقنا من نقطة الربط باتجاه الطرف، فإن النصفين مقسّمان إلى مناطق مستطيلة مختلفة تؤلف أنواعًا من الأشرطة.

تُصوَّر الصبغيات عادة بالشكل الذي تكون عليه قبل انقسام الخلايا، لانه من الممكن تمامًا رؤيتها من خلال المجهر وهي بهذه الحالة.

(ج٣) ليست الوراثة واضحة كثيرًا في ما يخص الخصائص النفسية. بحسب علم النفس الإحيائي (**و. و. ولسون**)، فإن التصرف الإجتماعي يعود تفسيره كذلك إلى انتخاب الجينات الطبيعي.

أما في ما يختص بالخصائص الجسدية فنمتلك معلومات أفضل عن التحديد الوراثي. عندما تحتوي الصبغية رقم ٢١ على ٣ كروموزومات بدل ٢، يحدث التشويه التالي: تحتوي راحة اليد على أخدود منثنٍ واحد (في الأدنى: «أخدود الأصابع الأربع») بدل الأخدودين العاديين (في الأعلى).

نسلِّم، بالنسبة إلى وراثة الميزات النفسية، بوجود معادلة بعدة طبقات. في الحالة الاسهل نجد جينةً لكل خاصة، لكن يُحتمل، في غالبية الأحيان، وجود عدة جينات للخاصة النفسية الواحدة (تعدد الجينات) أو جينة واحدة لعدة خصائص (تعدد الخصائص).

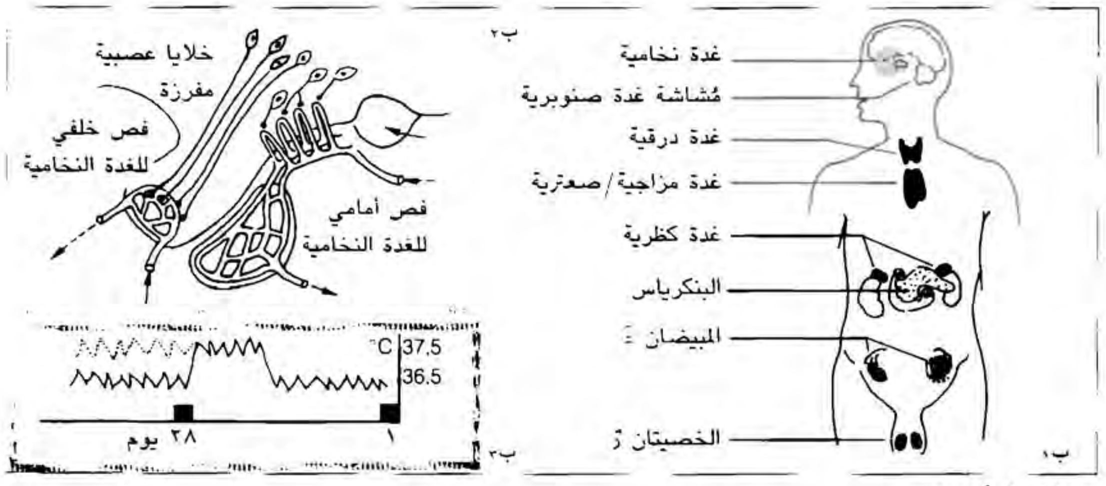


أ١ جسم الخلية

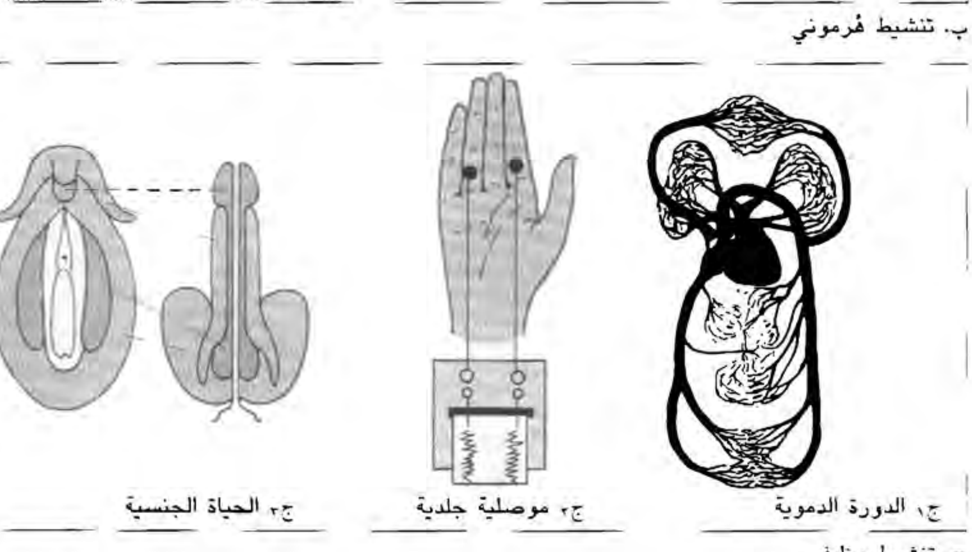
أ٢ سلاسل بروتينية

أ٣ مضخة صوديوم – بوتاسيوم

أ. تبادل الطاقة



ب. تنشيط هُرموني



ج١ الدورة الدموية

ج٢ موصلية جلدية

ج٣ الحياة الجنسية

ج. تنشيط وظيفي

لا تمتلك الحياة النفسية طاقة خاصة، على اعتبار أنها ركن قائم على مستوى النموذج والمعنى، ولكنها تأخذ جِدّتها من العمليات الجسدية الطاقية. تتمثل هذه العمليات، بوصفها نماذج جسدية (التردد، المدى، التداخل)، في قوّتها وتعطي هكذا الإحساس النفسي بالدينامية والحدة.

أ. تبادل الطاقة

غالبًا ما يوجد في المجال التقني مصدر طاقة أساسي (محطة كهربائية مثلًا) توفر الطاقة لعدد كبير من مستهلكي التيار الحدوديّين. لا يحتوي الجسم مثيلا لهذا الدنام المركزي، فإن طاقاته تُنْتَج بشكل غير مركزي في مليارات الأماكن وتُسْتَعْمل بشكل محلي. ميزة هذا الأمر أن الإنقطاعات هي محلية فقط ولا يقطع التغذية بالطاقة نهائيًا إلا الموت. إن انتاج الطاقة هو عملية كيميائية تتواجد على السواء بشكل كيميائي وكهربائي.

(أ١) في أجسام الخلايا، كما في هذا النموذج المفتوح، نرى النواة الخليوية مع الكريّة النووية والسبحيات (يوجد حتى ١٠٠٠ ناقل للغذاء) ومكونات أخرى للخلية (أو كناسج).

(أ٢) تخلق بعض الناقلات التي توجهها المواد الجينية (فصل ٣/٥)، كالببتيدات والبروتينات، بواسطة النقل والنسخ. تثبت السلاسل بواسطة جسور الهيدروجين (الخطوط المتقطعة) وتحصل بهذه الطريقة على بنية محددة (البنى المغضنة مثلًا).

(أ٣) إن «مضخة الصوديوم والبوتاسيوم» هي التي تسبب زيادة إنتاج الكهرباء في الخلايا العصبية. بسبب المحاليل المالحة المائية المختلفة داخل الخلية وخارجها، يوجد جهد كهربائي على غلاف الخلية ينشطه تبادل الصوديوم والبوتاسيوم (طاقة عمل كامنة). ينشط انتشار الجهود خلايا عصبية وجسدية أخرى (مثل الخلايا العضلية) ويتحكم بهذه الطريقة بالجسم.

ب. تنشيط هرموني

يمكن أن يكون للهرمونات، وهي عناصر نشطة خاصة بالجسم، تأثيرات نفسية فيزيولوجية حتى بكمية صغيرة جدًا (يعمل الأدرينالين مثلًا وهو مخفف إلى عيار ١:٤٠٠ جزء من المليون).

(ب١) تسبب غدد الإفرازات الداخلية الثماني المذكورة في الصورة المقابلة ردات فعل متنوعة. وفي ما يلي مثلان على هذا الأمر:

(ب٢) تتحكم الغدة النخامية بسلسلة من العمليات مثل النمو والقوة الجنسية، ولكن أيضًا، في حالة الاشتغال المفرط أو، على العكس من ذلك، الضعيف جدًا، بتأثيرات نفسية مثل المزاج السيئ أو سرعة الغضب، أو يمكنها الإنتقال من اللامبالاة إلى الإهمال الكامل. تخضع الغدة النخامية نفسها بوصفها جزءًا من النظام الهرموني الجزئي، لمراقبة معقدة: تنشط فلقتا الغدة النخامية الأمامية والخلفية بواسطة خلايا عصبية مفرزة توفر عناصر هرمونية للتشعبات الشريانية وتضبط بواسطة تدفق الدم تنشيط أنظمة الغدد أو الأعضاء (و بخاصة الغدد الجنسية).

(ب٣) المثل الثاني عن الغدة الصماء (الباطنية) هو الجسم الأصفر (في المبيض) ويقوم الهرمون الذي يفرزه بتغيير مخاطية الرحم بهدف غرس بيضة ملقحة في الوقت الذي يمنع فيه حدوث تلقيحات أخرى. يُربط نشاطه بتغييرات المزاج الفجائية قبل بداية الحيض، وينتهي هذا النشاط في منتصف فترة الحيض لكنه يستمر في حالة الحمل. يشهد ارتفاع الحرارة من حوالي °36,5 درجة إلى حوالي °37,5 درجة على هذا النشاط الهرموني ويستخدم كأول أشارة إلى الحمل.

ج. تنشيط وظيفي

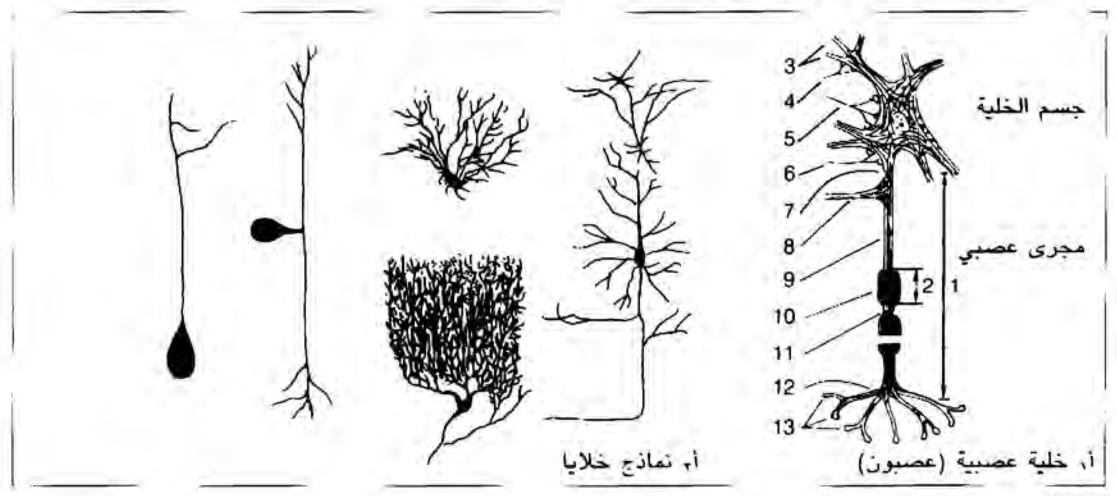
يهتم عالِم النفس بالعمليات الجسدية على الصعيد المزدوج للتأثيرات النفسية التي تنتجها والتي تخضع لها.

(ج١) إن دورة الدم معروفة منذ اكتشفها **و. هارفي** (١٦١٩). ينقل عمل القلب الدم عبر الرئتين في الدورة «الصغرى» وعبر الجسم في الدورة «الكبرى». يتغير الضغط الشرياني بحسب كمية الدم وقدرة القلب ومقاومة الشرايين والموضع الذي يقاس فيه والتعب والعمر، لكن أيضًا بحسب انقباض القلب وانبساطه. يمكن، بانتظام، ملاحظة تغير توزيع الدم الذي يحدث بعد التدريب الحراري للممارسة الذاتية التولد (فصل ١٢/٢٠، ج). على العكس من ذلك، يمكن لزيادة في ضغط الدم الشرياني أن تغير السلوك الإجتماعي والقبول بالمخاطرة.

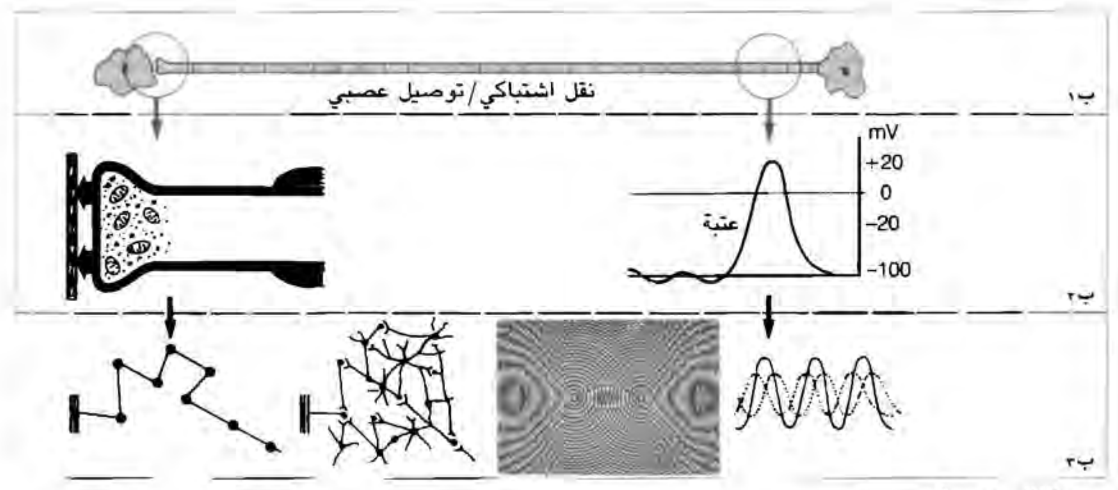
(ج٢) ترتبط الموصلية الجلدية بعمل الغدد العَرقية. وكونها «دليلًا على استعداد بذل الطاقة»، فهي تشير إلى تنشيط أكثر حدة في حالة الخوف، والقلق، الخ. إن استعمالها في جهاز كشف الكذب مشكوك فيه لأن مجرد الخوف من أن المحقق يمكن أن يترقب كذبة يثير ارتفاعًا ملحوظًا في القيم المسجلة.

(ج٣) لم ننتظر فرويد لاعتبار الجنسية وظيفة جسدية رئيسية ذات طبيعة نفسية أيضًا. من هذا المنظار تلعب مسألة الإختلاف بين جنسية الرجل والمرأة غالبا، دورًا. يحتوي تسلسل أحداث الإنتعاظ على اختلافات بارزة.

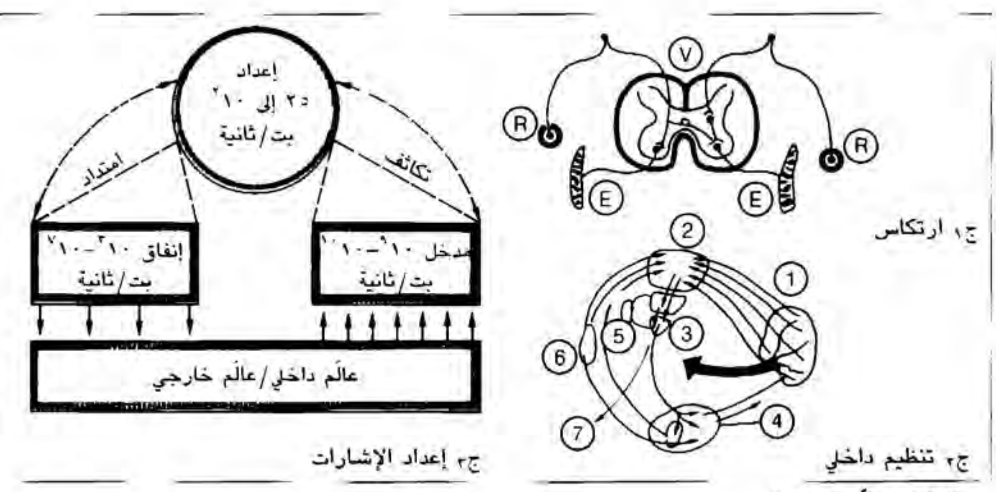
تُبرز في الواجهة منذ بعض الوقت التشابهات بين الجنسين. لدعم وجهة النظر هذه، يمكن مثلًا ذكر التطابقات بين الأعضاء الجنسية الذكورية والأنثوية (أنظر الصورة المقابلة). بالرغم من ذلك لا يمكن إنكار وجود الاختلافات هنا. في مقابل التطابق التشريحي بين عضوي الانتعاظ/الانتصاب (الغدة والبظر) يوجد اختلاف في معدل الإثارة. إن امرأة فقط من كل اثنتين تستجيب لهذا العضو.



أ. خلايا عصبية



ب. وظائف عصبية



ج. أشكال تحكّم أساسية

يتحكم الجهاز العصبي بالجسم الإنساني. إن أصغر وحدة في هذا الجهاز هي العصبون، وهي الخلية العصبية ومكوّناتها. وخاصّيّتها الأساسية هي أن تُعزَل عن الخلايا الأخرى، تحدد بالضبط قدرتها الفريدة على تحقيق اتصالات. إن حل مسألة هذا التناقض الظاهري هو احدى المهمّات الرئيسية لعلم الأعصاب.

أ. خلايا عصبية

إن جزئي العصبون الرئيسيين (أ١) هما جسم الخلية (السوما) مع نواة الخلية والكُريّة النووية ومكوّنات الخلية الأخرى، والمجرى العصبي (ليف عصبون) مع امتداداتها. يمكن أن يكون ليف العصبون (١) محاطًا بأجسام خلايا أخرى (٢) أو، على النقيض من ذلك، يمكن أن يحيط به غمد رفيع جدًا. في هذه الحالة، يكون توصيل «السائل» العصبي بشكل أكثر بطأً. أجزاء أخرى من الخلية العصبية: زوائد مُشجَّرة (٣)، اشتباكات فرعية جانبية للمحور العصبي (٤)، اشتباكات محورية بدنية (٥)، اشتباكات الجزء الأساسي (٦)، العقدة الأساية (٧)، الجانبية (٨)، محور العصب (٩)، غمد النخاعين (١٠)، مُخْتَنَق رانفييه (١١)، التي تزيد استقطاب طاقات العمل وتنتج، كذلك، الاتصال «القفزي» أي أنها تقفز من عقدة إلى عقدة). تشجّرات طرفية (١٢)، براعم طرفية ما قبل نقاط الإشتباك (١٣).

يتحقق هذا المبدأ الأساسي بطريقة مختلفة في عدة نماذج من الخلايا (أ٢) تشكل مع خلايا من النوع نفسه سلاسل عصبية.

ب. وظائف عصبية

تشغل الخلايا العصبية وظيفتين فيزيولوجيتين رئيسيتين:

(ب١) النقل الكهربائي للرسالة العصبية عبر ليف العصبون (المحوار)، ونشاط الاشتباك الكيميائي المثير أو الكابح الذي يسمح بالمرور للوحدة الفيزيولوجية التالية (خلية عصبية أو عضو وظيفي). الاشتباك هو وحدة مؤلفة من عقدة طرفية مما قبل الاشتباك، وفرجة دقيقة (هي حيز بين الاشتباكات)، وصفيحة طرفية بعد اشتباكية تنتمي إلى الوحدة الفيزيولوجية التالية.

(ب٢) تعطي هاتان الوظيفتان شكلين مختلفين من ردات الفعل. إن توصيل الإثارة الكهربائيةينطلق من الخارج، أي خلية أخرى أو عنصر إثارة خارجي. من جراء ذلك، تتحول طاقة الراحة الكامنة إلى طاقة عمل تتألف من تفريغ ومن مرحلة تالية غير حسّاسة لإثارات جديدة (فترة مقاومة العصب). يكون توصيل الإثارة إذًا إيقاعيًا.

إن الشكل الثاني لردّة الفعل مختلف تمامًا. يعتبر النقل الكيميائي للإثارة أقدم في تاريخ الجينات. كان نقل المعلومات إلى مسافة قصيرة كافيًا لدى الأفراد البسيطة. وقد تطلّب الأمر ظهور أفراد بقامات كبيرة حتى يصبح نقل تحريض كهربائي إلى مسافات بعيدة ضروريًا. في المقابل، تتيح القفزات الاشتباكية، التي يديرها ما يصل إلى ١٠٠٠ عقدة طرفية في خلايا عصبية عديدة، مرونة قصوى في مساراتها.

(ب٣) يتأتى عن هذا الأمر نظامان من النماذج. يتألف أحدهما من العديد من التفريغات الكهربائية الإيقاعية لمختلف الخلايا العصبية التي تتطابق وتشكل بهذه الطريقة صورة عن تداخلات كما بالنسبة إلى دوائر اسقطت الواحدة منها على الأخرى. يشكل النظام الآخر شبكة وقتية تحتوي على صورة ما. هذان النموذجان الفيزيائيان هما أساس «الدلالة الوظيفية» للحدث الخلوي. وطبقًا لمبدأ ركيزة – نموذج – دلالة، يمكن اعتبار أنه في سياق المطابقة بواسطة النماذج (فصل ٧/٥)، تكون النمذجة الإيقاعية عنصرًا شعوريًا من الحياة النفسية بينما تكون النمذجة التصويرية عنصرًا إدراكيًا منها. من هنا، يكون التفريق ما بين «العقل» و«النفس»، كما نعرفه منذ العصور القديمة، قد اتخذ معنىً عصبيًا نفسيًا، حتى ولو كانت وظيفتا الخلايا العصبيّة غير منفصلتين.

ج. أشكال تحكّم أساسية

إن الخلايا العصبية هي، بالتأكيد، وحدات النظام العصبي الرئيسية، لكن وبدون التنسيق مع الخلايا الحساسة أو العصبية الأخرى لا يمكن أن تفرّغ. ينتج عن ذلك أنه يجب البحث من جهة الوحدات العليا من الخلايا العصبية لفهم الحدث العصبي في وظيفة التحكم والتنظيم الخاصة به.

(ج١) إن الشكل الأبسط للمهمة الجماعية للخلايا العصبية هو الارتكاس. يتكون الارتكاس، في النموذج المقابل، من خليتين إلى اليمين وثلاث إلى اليسار. يتضمن كل ارتكاس مثيرًا (R) وإرصانًا مركزيًا (V) والأثر (E)، مثل التقلص العضلي.

(ج٢) يتألف التنظيم الداخلي من مزاوجات ارتكاس مع عُقد ارتجاع يحركها مثير يتولد داخليًا. إذا أخذنا مَثَلَ تجمّع نوى القوة المحرِّكة، يمكننا مشاهدة العلاقات المتبادلة بين القشرة المحركة والمهاد (٤) وتحت المهاد (٥) والبقعة السوداء (٦) وامتدادات حتى المناطق الدماغية الأعمق (٧).

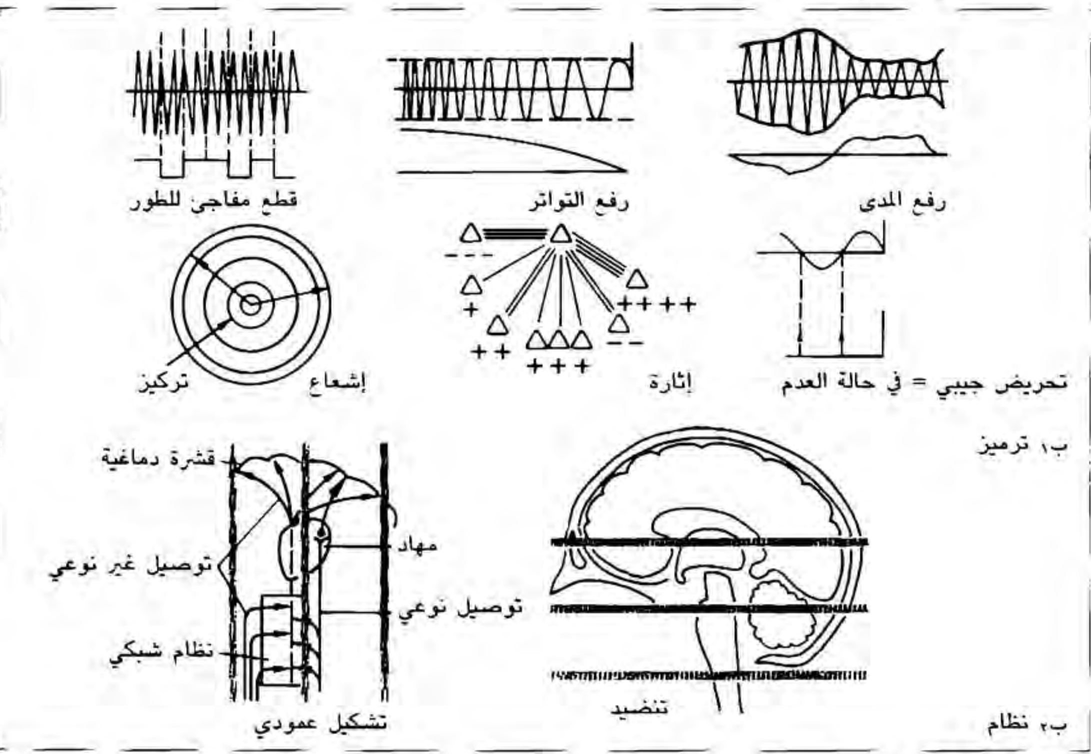
(ج٣) يمكننا، فيما يخص إعداد الإشارات في مجمل النظام العصبي المركزي، صنع صورة مرقّمة باستخدام وحدات قياس الإعداد السيبرناتي (المعبر عنها بالبت/ثانية).

يتلقى الجسم عددًا مذهلًا من المثيرات يمكن حسابه بـ ١٠^{٩} إلى ١٠^{١٠} بت/ثانية. ولكن ٢٥ إلى ١٠^{٢} بت/ثانية، تكفي، بحسب حالة التركيز، للإعداد. وينتج عن ذلك تكاثف مادة المثير أو تصفيتها. وعندما يحدث إنفاق (إخراج) لمصلحة المستجيبات الجسدية خاصة، ينتج عن ذلك امتداد يتراوح ما بين ١٠^{٣} و١٠^{٧} بت/ثانية.

تقيس هذه الأرقامُ المهمَّةَ التي يجب أن ينفِّذها الجهاز العصبي في الثانية.

شق رولاندو
الفص الجبهي
فص جداري
فص قذالي
قطب قذالي
فص صدغي
المخيخ
قطب جبهي
دماغ أوسط
جذع دماغي
أ٢ مناطق دماغية
الدماغ
المخيخ
الجذع الدماغي
النخاع الشوكي
1 2 3 4 5 6
I II III IV V VI
أ٣ قشرة دماغية
أ١ تشريح الجهاز العصبي المركزي

أ. الجهاز العصبي المركزي



ب. الشبكات الوظيفية

إن الجهاز العصبي المركزي، (ZNS) المؤلف من ١٠[١١] خلية عصبية و٣٨٤٠٠٠ كلم من الألياف، هو الحاكم الحقيقي لجسم الانسان. تشمل مهمته جميع ما بإمكان الإنسان أن يفعله. ولا تزال تعترضنا ألغاز وأحاجيّ بالرغم من معلوماتنا الهائلة في هذا الموضوع.

أ. الجهاز العصبي المركزي (ZNS)

(أ١) **تشريح عياني للجهاز العصبي المركزي**. يتفرع من النخاع الشوكي ٣١ زوجًا من الأعصاب الفقارية. مهمته الأساسية هي معالجة الارتكاسات الحسية–الحركية. الجذع الدماغي قسم قديم، من الناحية التطورية، من الجهاز العصبي المركزي، يقسم، هنا، هكذا (من أسفل إلى أعلى) إلى:
مؤخر الدماغ (البصلة)، الدماغ الخلفي (عُجرة حَلَقيّة ومُخيخ)، الدماغ الأوسط، الدماغ المتوسط (تحت المهاد والمهاد) والدماغ النهائي.

(أ٢) تتعلق وظائف الجذع الدماغي (المستويات الثلاثة الأولى) بالأنظمة النباتية (التنفس والدورة الدموية)، وبتبديل الاتصالات بالعالم الخارجي وانتشارها حتى القشرة الدماغية.

والمنطقة الأساسية القائمة في المنطقتين الوسطى والعليا من الجذع الدماغي هي التشكيل الشبكي الذي يحتوي نوعًا من أنماط الخلايا التي لا نجدها في مكان آخر. هذه المنطقة «غير النوعية» تحيط بها مناطق عصبية «نوعية». تنقل هذه المناطق الأخيرة المثيرات الحسية بواسطة عدد قليل من نقط الاشتباك وهي ناشطة باستمرار. وعلى عكس ذلك فإن المنطقة «غير النوعية» لا تعمل إلا بوجود وعي. وتبعث البنية الكثيرة التعقيد رُزمًا من الألياف بواسطة المهاد إلى القشرة الدماغية وتستقبل مثيرات من المناطق القشرية.

وظيفة **المخيخ** هي تنسيق الحركات الإرادية. يتألف **الدماغ** من نصفي كرة متصلين فيما بينهما. ونميز على نصفي الكرة أربعة فصوص دماغية: الجبهي، الجداري، الصدغي، القذالي. يشتمل سطح هذه الفصوص على تلافيف وشقوق منها شق رولاندو.

(أ٣) وتحت سطح التلافيف طبقة «سنجابية اللون» غنية بالخلايا تبلغ سماكتها ٢ إلى ٣ مم: هي **القشرة الدماغية**. هناك تنتهي الأعصاب الحسية وتتصل بالأعصاب الحركية.

يعطي القسم الأيسر من الرسم صورة تخطيطية عن الخلايا القشرية حيث نجد الفرق بين أنواع الخلايا الموردِة (الصاعدة) والخلايا المصدرِة (الهابطة). والقسم الأيمن يعطي صورة من ٦ طبقات نميز بينها (الأرقام الرومانية للخلايا والأرقام العربية للألياف).

ب. الشبكات الوظيفية

كيف تتولد الحياة النفسية من العمليات المرحلية التي تحدث في الجهاز العصبي المركزي. إن تحويل الصفات إلى أشكال ونماذج، كما يحدث ذلك في الأنظمة التقنية، هو حتمًا ضروري، هذه هي العملية التي تسمى **الترميز** (ب١). لذا، يشتمل الجهاز العصبي على سلسلة من أشكال الترميز.

يُنْتِج ارتفاع المدى معلومات بتعديل ارتفاع المنحنى (كما في الموجات الإذاعية المتوسطة). وبمقابل ذلك نجد ارتفاع التردّد الذي يعدّل سرعة الذبذبة (كما في موجة ف. م. الإذاعية).

تعديل الطور ناشئ عن تغيير مفاجئ في الطور وعن تعديل سريع في الإيقاع الناقل بواسطة الإغلاق. وفيما يتعلق بركائز النزوات، يسهم تعديل ترميز النزوة في حال يكون الجَيب = صفرًا، في المعلومة.

مبدأ إثارة العضلات مستمر. تُنقل المعلومات، في الجهاز العصبي المركزي، دائمًا تقريبًا، على عدة مراحل. حتى إن الأعطال هي قليلة التأثير. ولكن ليس هذا الفيض من المعلومات فقط نوعًا من الموازاة، لأن الأمر يعود، أيضًا، في أكثر الحالات، إلى دمج الإثارات المحرضة والصادّة. ويحدث انتشار تحريض عندما يكون مجموع الإثارات التحريضية أكثر من الإثارات الصادّة. والإشعاع هو انتشار للتحريض في مناطق عصبية منبسطة ويشكل مع التركيز (التقلّص) ترميزًا ديناميًا.

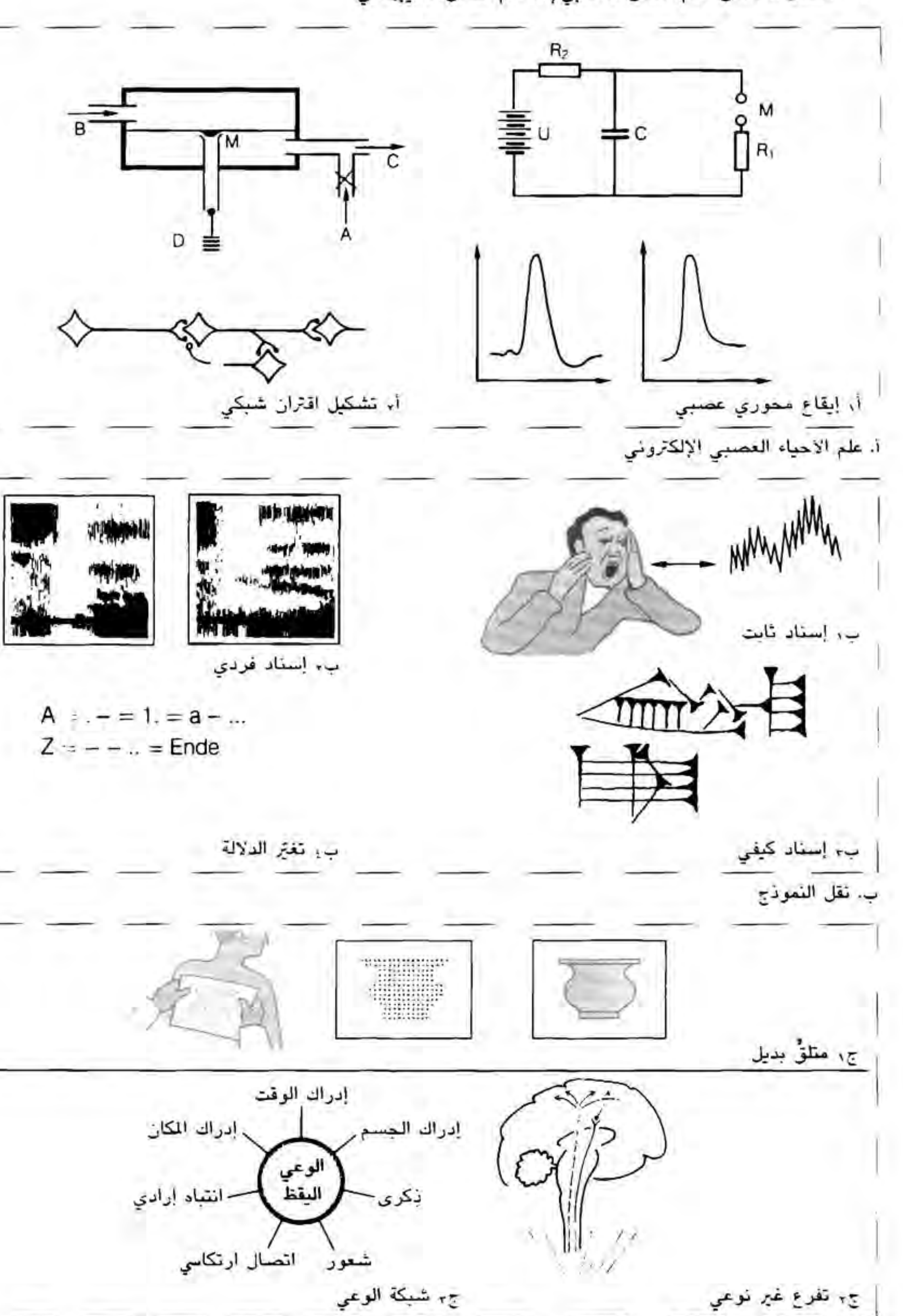
قد تكون هذه الأمثلة على الترميز أكثر امتدادًا. والمهم هو أنها قابلة للتنسيق وأنها بذلك تقوي ترميز النماذج.

(ب٢) يجب أن يُوصلَ بالترميز بنيتان شبكيتان أخريان يمكن رؤيتهما آليًا لكونهما نظامين.

يكون **التنضيد الأفقي**، في طبقات عليا وسفلى في الجهاز العصبي المركزي، عند مستوى الوظائف. المبدأ التالي هو المرجح عادة: إن المناطق العميقة هي الأقدم من الناحية التطورية وهي أبسط أو بالأحرى «إنفعالية» في أداءاتها. وعلى عكس ذلك تعتبر المناطق السطحية مناطق «معرفية» لأن بنية العلاقة هنا تتغلب على بنية الاثارة البسيطة.

يُلاحَظُ الإحكام في **التشكيل العمودي** للعمليات العصبية على المستوى التشريحي المضخم انطلاقًا من قسمة الدماغ إلى نصفي كرة. ونتعرف هناك، أيضًا، إلى تمييز وظيفي، مثل التخزين الفردي لمراكز النطق. وقد عدل هذا الأمر معتقد التموضع الذي كان ينسب مناطق دماغية ثابتة إلى وظائف معينة.

وظهر أيضًا مبدأ هام خاصّ بالتنظيم العمودي عندما اكتُشف أن نظام التنشيط الهابط هو نظام عصبي «غير نوعي». ونرى في هذا المبدأ بوادر تفسير نفسي فيزيولوجي للوعي على شكل اتصال بين الأنظمة العصبية النوعية وغير النوعية.


R2
M
U
C
R1
B
M
C
D
A
أ١ إيقاع محوري عصبي
أ٢ تشكيل اقتران شبكي
أ. علم الأحياء العصبي الإلكتروني
ب١ إسناد ثابت
ب٢ إسناد فردي
A = . – = 1. = a – ...
Z = – – .. = Ende
ب٣ إسناد كيفي
ب٤ تغيّر الدلالة
ب. نقل النموذج
ج١ متلقٍّ بديل
إدراك الوقت
إدراك المكان
إدراك الجسم
الوعي
اليقظ
انتباه إرادي
ذكرى
شعور
اتصال ارتكاسي
ج٢ تفرع غير نوعي
ج٣ شبكة الوعي
ج. تشكيل الوعي

تحت كلمة سيبرنتيك (كلمة يونانية تعني فن قيادة السفن)، أسس **فينر** سنة ١٩٤٨ علمًا يشتمل، فيما يشتمل، على جميع وظائف القيادة والتنظيم. يتضمن «السيبرنتيك» (أو فن القيادة أو علم التحكم أو الضبط) فروعًا عديدة تضع، مثل علم النفس السيبرناتي، نماذج أساسية لموضوع بحثها بإخضاعها لتصميم رياضي تقني.

أ. علم الأحياء العصبي الإلكتروني

المقاربة الأولى لنماذج علم النفس الفيزيولوجي يقدّمها علم الأحياء الإلكتروني وهو نظرية سيبرناتية للوظائف المتوسطة بين علم الاحياء والتقنية. وكون هذه المقاربة تمتّ إلى علم الإحياء الإلكتروني العصبي بصلة فهي تستخدم للنمذجة التقنية للحدث العصبي. ويمكن تحقيق تصور تقريبي لوظيفتين أساسيتين للخلية العصبية بواسطة النماذج التالية:

(أ١) الإيقاع المحوري العصبي تحدثه الدارة الظاهرة في الرسم (U: بطارية، C: مكثف، R: مقاومة، M: جهاز القياس). يقترب مسلك طاقة التفريغ التقني (إلى اليسار) من مسلك طاقة العمل (إلى اليمين) في المسار العصبي.

(أ٢) وعلى عكس ذلك، إن تشكيل الاقتران الشبكي هو عملية تيار كيميائي تُوَلِّده بواسطة تيارات الضغط الجوي. في هذا النموذج ذي الحُجْرتين يفتح الغشاء M صمامًا أو يقفله تبعًا لتعديل الضغط (B: ضغط الإشارة، A: ضغط الانطلاق؛ C: مخرج ضغط الإشارة؛ D: فتحة حرة). اذا وصلنا العديد من هذه الانظمة بعضها وراء بعض، يمكن أن تخزن الاشارات، وهذا ما يجعلها قريبة من الأجهزة المنظّمة (استخدام معايير) للأنظمة الشبكية البسيطة.

ب. نقل النموذج

تصل نماذجُ العمليات العصبونية الركيزةَ الفيزيولوجيةَ بالدلالة النفسية، لأن النماذج الفيزيولوجية تحمل دلالات، وعلى عكس ذلك، تستند جميع الدلالات النفسية إلى نماذج وذلك في ثلاث وظائف حرة مختلفة.

(ب١) إن أبسط إسناد لعمليات الركيزة العصبية ولنموذجها الطبيعي (الفيزيائي) ولدلالتها النفسية ينسخ رسالة ثابتة كما هي الحال هنا مع نماذج كثيرة التكرار لترجمة الإثارة.

(ب٢) يمكن دراسة نماذج فردية بواسطة أجهزة تسجيل الصوت.

(ب٣) النماذج الكيفية هي الأكثر تكرارًا. توفر العملية الفيزيولوجية أساسًا للنماذج ولكن هذه النماذج تظل مفتوحة بالنسبة إلى دلالتها. وتمثل الدلالة الواحدة بالكتابة المسمارية (الصورة) أو بالرموز الصينية أو بالصور الهيروغليفية أو بالأحرف الأبجدية. إن الحياة النفسية تتأثر بالمرتكزات الجسمية ولكنها تتضمن أيضًا «محتوى دلاليًا» كيفيًا ومستقلًا.

(ب٤) والأمر أكثر وضوحًا أيضًا في حال تغيّر الدلالة. فبالإمكان تغيير الدلالات سواء ظل النموذج الطبيعي هو ذاته أو تغير: تتحول الأبجدية إلى رموز مورس. اذا احتفظ الحرف A بنموذجه (شكله) فيمكن أن يعني «الصف الأول» وللحرف a دلالة أخرى (a نافية، سالبة). يعيش الانسان في سلسلة متواصلة من النماذج، وهو يستطيع بالنتيجة أن يكتشف نفسًا، في أي مكان، إذا أراد، أو أن يبقى في أقصى درجات اللامبالاة، إذا لم يحول لذاته هذه النماذج إلى دلالات.

ج. تشكيل الوعي

إن دراسة هذه الصلات بين الركيزة والنموذج والدلالة لا تستخدم فقط لجلاء نظرية العلاقات بين النفس والجسد. يكفي لتوضيحها مثل بسيط عن تطور مستقبلات تقنية خاصة بالعميان، على سبيل المثال.

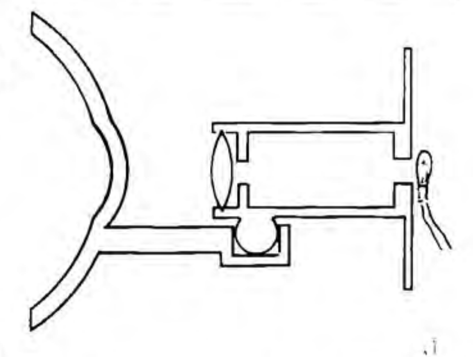
(ج١) يمكن أن تحول صورة واقعية لإناء إلى صورة بسيطة لنموذج نسقطها، فيما بعد، تحت هذا الشكل على ظهر أعمى، فنعطيها، هكذا، شكلها البدائي الذي يكون للأعمى به علاقة شخصية. ومنذ زمن بعيد تجري محاولات لتحسين تقنية هذا النوع من الترميمات الحسية لكي نغرس منها النماذج الطبيعية مباشرة في الجهاز العصبي.

(ج٢) يتولد الوعي، استنادًا إلى علم النفس السيبرناتي (**بينيش**)، من تفرع نظام الذات غير الخاص عن نظام الموضوع الخاص (الوعي «كعلاقة الذات بالموضوع الفعلي» (**هـ تومه**). لا يعمل نظام الذات إلا في حالة **اليقظة**. وبعكس ذلك، لا يتوقف نظام الموضوع أبدًا عن أن يكون فعالًا. وهو يعمل كجهاز حسي دون مستوى حفظ الحياة، وفي حالة فقدان النشاط أثناء النوم والخَدَر. من هنا يمكن أن توقظنا ضجة لم نسمعها بوعي.

(ج٣) يتالف الوعي اليقظ المطابق لنظام (غير نوعي) الفرد من عدة أنظمة جزئية تبدع الأنا. ويمكن أن نُجري اختبارًا «معيشًا» لتفرعها، مثلًا، بعد خَدَر أو نوم عميق ينقطع بعنف: على النائم أن يتذكر أين هو وكم هي الساعة والسبب الذي من أجله هو مشوش إلى هذا الحد.

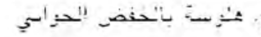
تنمو هذه الانظمة الجزئية («المعايير» **غاتسانيغا** ١٩٨٩) «بمرجعية ذاتية» (**بريبرام**، ١٩٧١) في السنوات الأولى من العمر. يبدأ الطفل باكرًا بتكوين وعي لجسمه وخاصة عندما يبدأ اللعب بأصابعه. ويحدث الشيء ذاته مع الدوائر الوظيفية الأخرى لنموذج الوعي على الصفحة المقابلة. إن الوعي اليقظ هو صلة المعايير السيبرناتية التي تولد «الحالة المعيشة للأنا» بمنظّمات عديدة للذات التي بالإمكان تمييزها وهي تتغير من شخص إلى آخر.





أ. ترسيخ الادراك





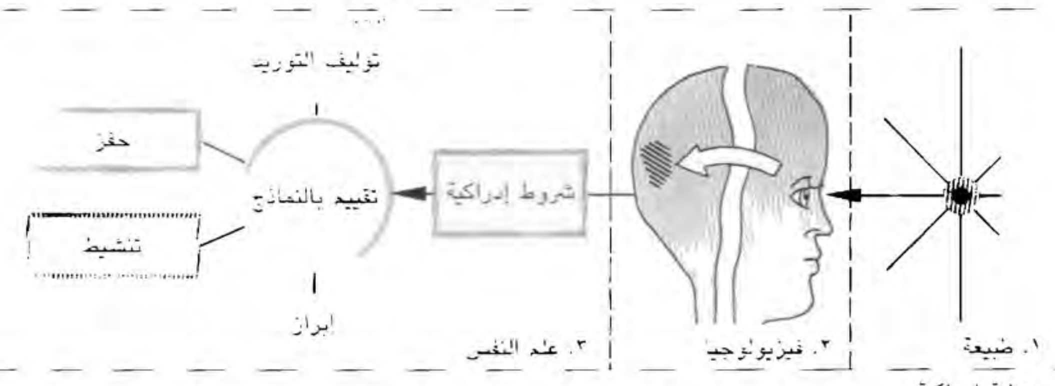






ب. أشكال مبهمة

ج. هلوسة بالخفض الحواسي



د. عملية إدراكية

النظر، السمع، الحسّ... أي شيء طبيعي أكثر بالنسبة إلى الكائن البشري؟ ومن المدهش ايضًا الاستنتاج أن الكثير من مظاهر الإدراك لا يزال دون تفسير. ولن تتعدل هذه الأوضاع على المدى المتوسط. وكلما توغلنا في مسائل الإدراك، نكتشف مظاهر مدهشة لهذا «الوضوح» الذي يبدو لا إشكال فيه.

أ. ترسيخ الإدراك

كنا نعرف ما عُقّال العين: هو أن يحدق الإنسان مليًا بشيء معروض أمام ناظريه، فيرى جوانب الشيء تتلاشى معًا بطريقة غريبة. يتيح الجهاز (أ١) تثبيت الصورة اصطناعيًا (بواسطة عدسات لاصقة وطرف أنبوب يحدد موقع العين). وهذا الإجراء يعطل رأرأة العين كليًا (الرأرأة حركات سريعة غير محوظة تتراوح ما بين ٣٠ و٧٠ مرة في الثانية). وباستعمال جهاز آخر حديث التطوير يمكن تعويض الرأرأة بواسطة مرآة حيث تكون الصورة «مجمّدة».

١- يحدث عندئذ شيء مثير للدهشة. يتلاشى الشيء المنظور تدريجًا ولا يبقى سوى حقل فارغ. لكن الصورة لا تتلاشى بطريقة متجانسة ولكن تمّحي مناطقَ متتالية، تتاليًا يخضع لـ التلاحم والأهمية النسبيين. وإذا كانت الصورة نصوصًا مكتوبة، يحدث ان تظهر مؤقتًا بعض الحروف «الخطأ». وكلما كان الجزء من الصورة مهمًا يثبت مدة أطول. والجزء الذي يركّز عليه انتباهنا أكثر يستمر أطول. إن هذا الوضع الاختباري من شأنه أن يبالغ في تحديد الإدراك اليومي. وكل إدراك حسي هو توليف لمثيرات محدّدة ولظروف ناشئة عن الجهاز الطبيعي للإدراك والتحديدات النفسيّة المتلازمة.

يمكن لهذه التحديدات النفسية أن تعدّل تعديلًا قويًا هذه الصورةَ «الموضوعية» التي دعاها عالم النفس السويدي **كاتس** مدركات «حقيقية» (Wahr-Nehmungen) و«مزيفة» (Falsch-Nehmunger) بلعبه على اللغة الألمانية.

وفي كثير من اللغات الأخرى، تُخلي الكلمات، التي تعني الإدراك، مكانًا للعنصر الفردي الخاص بكل شخص. تستعمل، في الدراسات العلمية كلمة زكانة أو إدراك متميز (apperzeption) من اللاتينية (وتعني التقاط شيء إضافيّ) وذلك عندما يراد لفت الانتباه إلى هذا العنصر الإضافي في كل معرفة توفّرها الحواس.

ب. أشكالٌ مبهمة

إن أحدَ أشهر الأمثلة على التعديل الاستدلالي للشيء المنظور نجده في أعمال **سلفادور دالي** «سوق العبيد». نرى، في الصورة العليا، سادة يعتمرون قلنسوة كما نرى فيها جذع (القسم الأعلى من جسم) فولتير (وتميز الصورتان السفليتان على التوالي كلاً من الرؤيتين اللتين يقترحهما عمل الفنان). عرف هذا النوع من الأشكال بأسماء عدّة منها: أشكال مبهمة، قابلة للانعكاس، مقولبة... يمكن أيضًا التركيز على إحدى الرؤيتين بتوزيع مكافأة أو قصاص (أثر **شيفرومورفي**). إن هذه الأمثلة توضّح العنصر الشخصي في الرؤية.

ج. الهَلْوَسَة بالخفض الحواسي

والإنسان، على عكس ذلك، خاضع وجوديًا للمثيرات الخارجية. في اختبارات فقدان الحواس (فصل ٣/١٥) يُحمى الأشخاص بقدر الإمكان من كل مثير خارجي. فيُلاحَظ حينذاك، بطريقة منتظمة، أن هؤلاء الأشخاص يبدأون بالاسترخاء ويبلغ بهم الأمر حدّ النوم لكي يسقطوا فيما بعد تدريجًا في حالة قصوى من الهياج. وفي نهاية ساعتين أو ثلاث ساعات، كحدّ أقصى، تتراءى أشكال بيضاء، رؤى مخططة تذكر بهلوسة ليلية لشبح «إمرأة بيضاء» تتحول غالبًا إلى إدراكات ملموسة.

وهكذا يتصور الإنسان مدركاتٍ حسيّة حيث لا وجود لها.

وفي كارثة **لنجيد** المنجمية (١٩٦٣) ظل ١١ عاملًا ١٤ يومًا في نفق مظلم ضيق على عمق ٥٥ مترًا تحت الارض. وكان أحد العمال، فيما بعد، يتذكر هلوساته قائلًا:

«كنت أرى بستانًا مزروعًا بشجر التفّاح والنخيل ومراعي خضرًا وأبقارًا ترعى وأناسًا لم أكن أعرفهم... وذلك بشكل طبيعي جدًا، كما لو أن ذلك كان حقيقيًا بالفعل».

د. عملية إدراكية

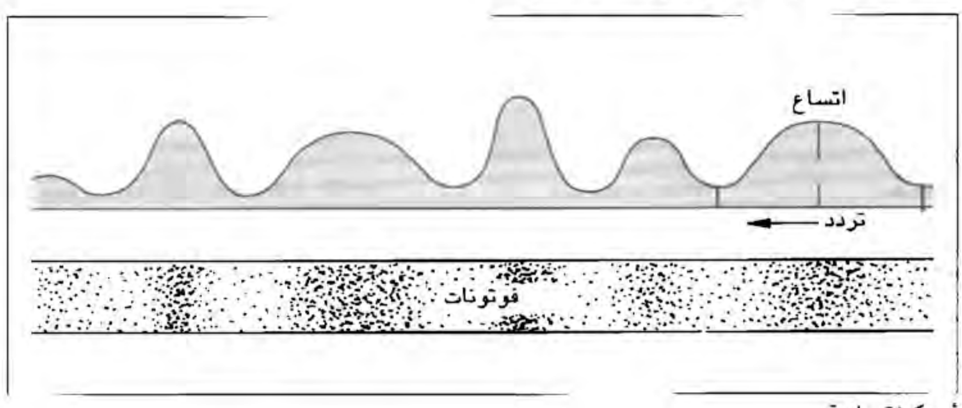
إذا أردنا تحليل الإدراك الحسي، يجب أن نأخذ في الاعتبار ثلاثة مجالات أساسية في «علم الإدراك».

١) تتركز طبيعة الإبصار على وظائف النور. ويمتد مجال بحثها من المثير – المَصْدَر حتى العضو الحاس.

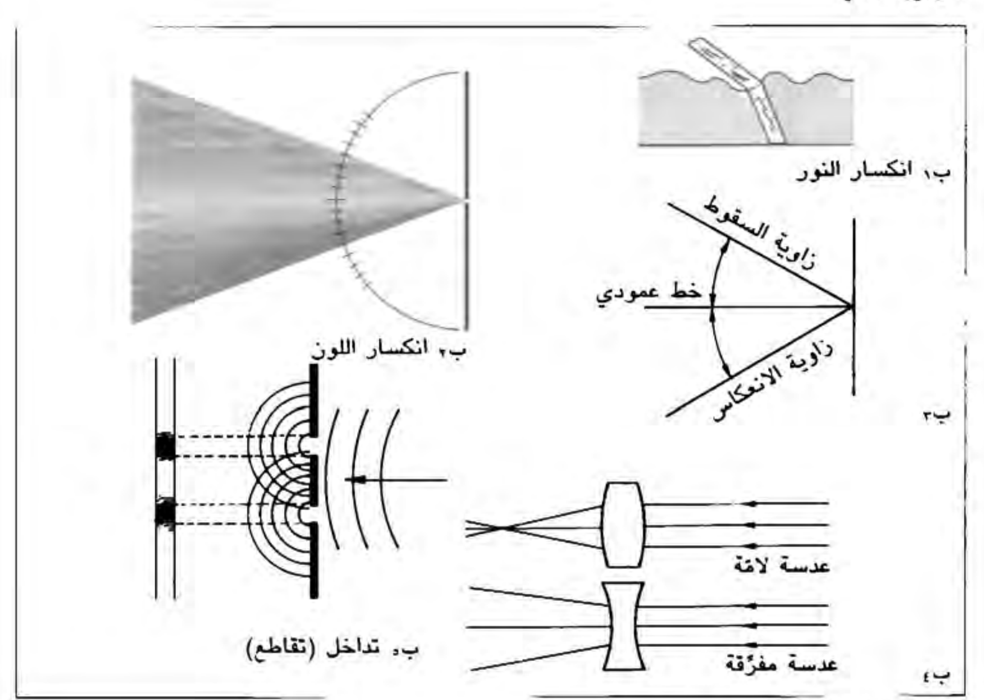
٢) وتدرس فيزيولوجية الإبصار جهاز الإدراك، من العين حتى اللحاء البصري في الدماغ.

٣) ويهتم علم نفس الإبصار بنشوء الإدراك ويدرس اختباريًا شروط تطور الإدراك. ويعتمد في عمله هذا على ٥ وظائف مراقبة (الصورة المقابلة، فصل ٦/٤؛ ٦/١٧).

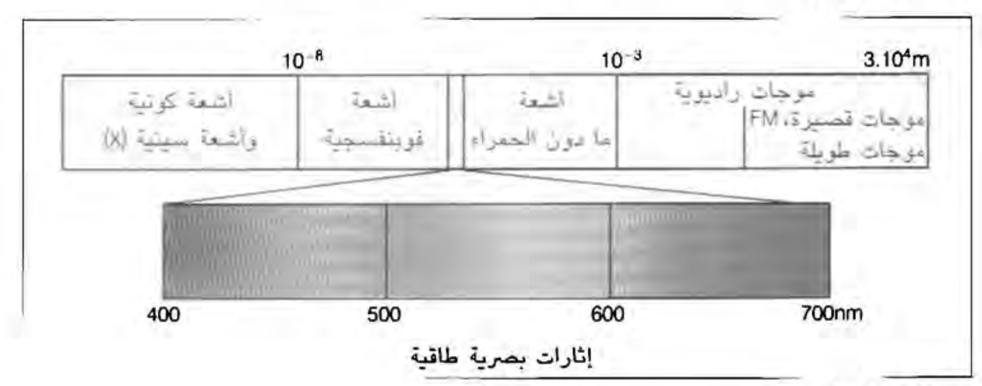
هذه المجالات الثلاثة تشكل الإدراك. ليست الطبيعة أقرب إلى الفيزيائي ولا إلى الفيزيولوجي ولا إلى عالم النفس، إنها على مسافة واحدة من جميع هذه الاختصاصات. لكن المعرفة العلمية الشائعة الانتشار هي على طرفي نقيض مع ذلك والمعارف المكتسبة بواسطة علم النفس الاختباري ليست بعدُ كثيرة الانتشار. ويساء غالبًا إلى أهمية مدى ما يبلغه مجالها من اتساع، فهو يمتد، مثلًا، حتى يشمل علم النفس الاجتماعي. (فصل ١٥)



أ. ركيزة مادية



ب. نماذج فيزيائية



ج. دلالة وظيفية

لولا النور لما حدثت رؤية كاملة. ولكن ما هو النور؟ تضطرنا الإجابة عن هذا السؤال إلى الاستعانة بالثالوث ركيزة - نموذج - دلالة (قاعدة - بنية - وظيفة) (فصل ٥/٧): النور.

- يمكن أن يواجَه (النور) كسلسلة من عمليات مادية بحتة (ركيزة).
- هذه العمليات خاضعة لسلسلة من النماذج الفيزيائية (بنية).
- تكتسب هذه النماذج دلالتها الوظيفية كنور من الشروط البيولوجية للإثارة.

أ. ركيزة ماديّة

يعود التساؤل عن أصل النور إلى العصور القديمة. كان **أفلاطون** يزعم أن العيون هي التي تبعث بأشعة ضوئية على الأشياء. ولكن كانت تبرز منذ ذلك الوقت أيضًا قضية معاكسة. كان **فيثاغور** وتلاميذه يعتقدون بأن الأشياء المنظورة تبث دفعات من الجزيئات المضيئة. ويقول **أرسطو** إن النور ينتشر على شكل موجات. ولم تعالج هذه المسألة اختباريًا إلا في القرن الثامن عشر. فكان **نيوتن** يدافع (مع بعض التحفظ) عن نظرية الجزيئات، في حين أن **كريستيان هويغنز** كان يؤيد نظرية التموّجات. تغلّبت نظرية التموجات أولًا ولكن في القرن العشرين انتصرت نظرية الجزيئات.

ويعتبر اليوم أن النور مزيج من الجزيئات والتموجات. وتمثل الصورة المقابلة، في أعلاها، النظرية التموجية (يسمى ارتفاع الموجة اتساعًا). تنقل هذه الموجات عددًا ضخمًا من الجزيئات (الضوئيات) يتناسب مربع اتساعها، في قطاع محدد، مع عدد الجزيئات الموجودة في هذا القطاع (أسفل شكل أ).

ب. نماذج فيزيائية

معروف، منذ القدم، أن النور ينتشر في خط مستقيم.

(ب١) فُسّر انكسار النور - كما نلاحظ أنه إذا غُطّس قضيب في الماء حتى نصفه يبدو مكسورًا عند سطح الماء - منذ مطلع القرن السابع عشر، استنادًا إلى درجة نفاذية الجسم الذي يخترقه النور، ما يعني أن انتشار النور في الماء أبطأ مما هو في الهواء.

(ب٢) يتأثر الانكسار أيضًا بطول الموجة. عندما يخترق شعاعُ نورٍ أبيضَ موشورًا مشكِّلًا زاوية محددة ينقسم إلى ألوانه المختلفة. وشعاع اللون الأزرق أشد انكسارًا من اللون الأحمر.

(ب٣) وعُرفت للنور خاصّة أخرى أيضًا منذ القدم: ينعكس النور عندما يسقط على سطح عاكس وتساوي زاوية الانعكاس زاوية السقوط (وطابة البليار، كذلك، عندما تصطدم بالحاجز الجانبي تعود مشكلة الزاوية إياها مع الخط العمودي القائم على الحاجز).

(ب٤) وللنور أيضًا خاصّة أساسية هي أنه يمكن تجميعه في نقطة. فالعدسات اللامّة تجمّع أشعة النور التي هي، في الأساس، متوازية، والعدسات المفرِّقة تفرِّقها.

(ب٥) يعود أحد أول البراهين على طبيعة النور التموجية إلى الطبيب والفيزيائي **توماس يونغ** (١٧٧٣-١٨٢٩).

> لقد سلط نورًا على سطح أحدث فيه ثقبين. تراكمت الإشعاعات الضوئية الموزعة بَعضُها فوق بعض مقويّة النور على شاشة عندما تكون الموجات متناغمة (ذروة الموجة زائد ذروة الموجة وجوف الموجة زائد جوف الموجة). ويزول هذا التداخل بين الأمواج عندما نغطي أحد الثقبين فيعود الإسقاط متجانسًا.

وبرهن **فيليب لونار** (١٨٦٢-١٩٤٧) في بداية القرن العشرين النظرية الجزيئية:

> لقد توصل، باستخدامه الأثر الكهرضوئي مع النور البنفسجي، إلى إخراج إلكترونات الزنك ومعادن أخرى بعد ذلك (إشعاع): تحدِّد حدة الشعاع عدد الإلكترونات المبعدة.

ج. الدلالة الوظيفية

لا يشغل النورُ المنظورُ، على مدى سلّم الموجات، سوى جزء دقيق بين أطوال الموجات التي تمتد ما بين ٣٨٠ إلى ٧٨٠ نانومتر (نانومتر = ١٠$^{-٩}$ ميكرون) يمتلك النور، كونه مثيرًا، عدة خصائص فيزيائية مهمة بالنسبة إلى الإدراك البصري...

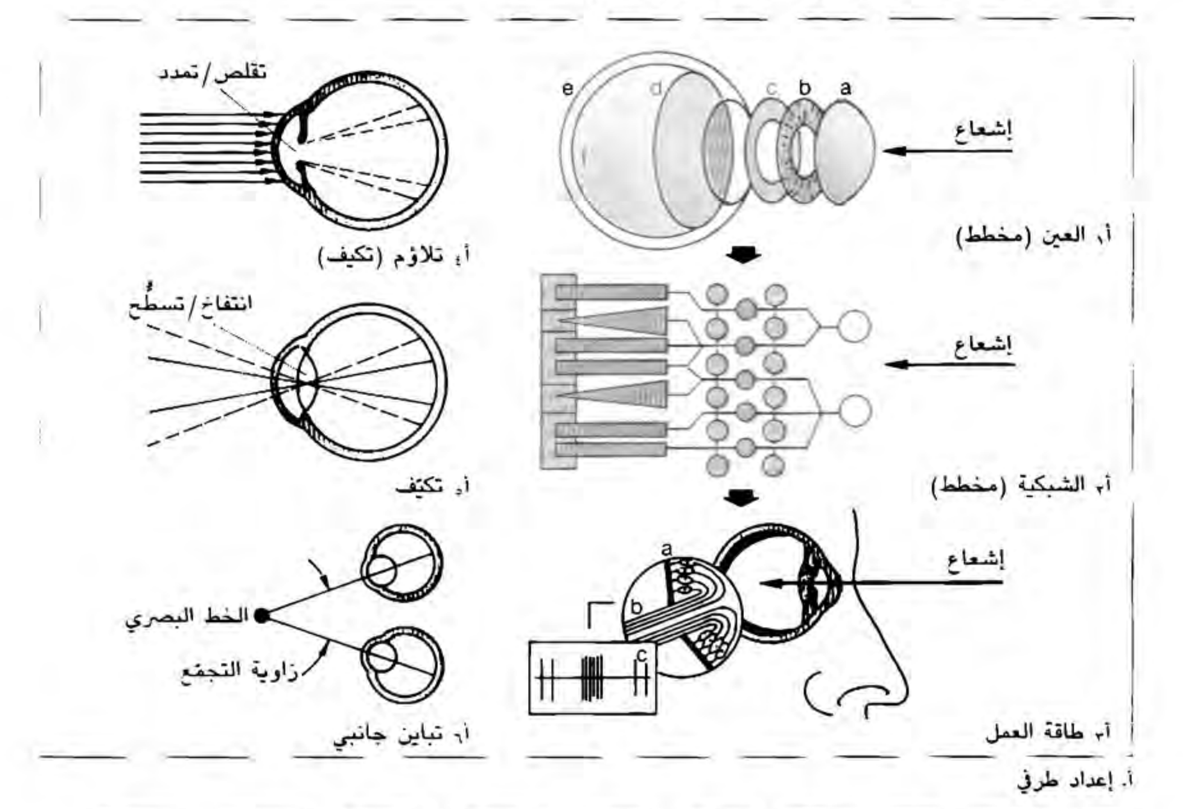
> لا تبدو سرعة النور، للوهلة الأولى، أنها تشكل جزءًا من هذه الخصائص. وهي تعادل ٢٩٩ ٧٩٢,٤٥٨ كلم في الثانية (ما يعني أن نور نجمة أندروميد يصلنا «متأخرًا» عن انطلاقه عدة ملايين من السنين. ولو كانت سرعة النور أقل لبدت لنا صورة البناء الذي نمر بقربه منحنية.

ومن الصفات الفيزيائية الأخرى تحويل الألوان المتكاملة إلى نور أبيض (فصل ١١/٦).

يجب التمييز، أيضًا، بين النور الطبيعي (نور الشمس) والنور الاصطناعي (دون أن ننسى اللايزر، وهو نور يُنْتَج تقنيًا)، وبين نور مباشر وغير مباشر.

> القمر، مثلًا، يعطي نورًا غير مباشر، معكوسًا. ففي هذه الحال يصل عدد قليل من الضوئيات (الفوتونات) إلى نظرنا حتى إننا إذا قرأنا صحيفة ليلًا على ضوء القمر لا نستطيع أن نقرأ سوى العناوين: وما نلاحظه يوميًا يؤكد صحة نظرية الجزيئات.

والنور مفيد أيضًا لإدراك نده: الظل. إن الأشكال المختلفة للظل (الظل المُسقَط، وشبه الظل...) تساعدنا على رؤية الأشياء بحالتها التشكيلية.



أ. إعداد طرفي

شبكية
A17
A18
A19
T
P
F
a b c d e
ب٢
ب٣
فص قذالي
ب١
ب٤

ب. إعداد مركزي

ـ الانتقال من الفيزياء إلى فيزيولوجيا النظر يجعل المراقبة أكثر تعقيدًا... لا تزال معارفنا الخاصة بالناحية الجسدية تعاني الكثير من الثغرات بالرغم من حدوث الكثير من التقدم.

أ. إعداد طرفي

(أ١) يحمي **العين**، كجهاز بصري: a) القرنية الأمامية والخلفية مع الحجرة الداخلية، ويقوّيها من الناحية البصرية انطباق الأجفان الارتكاسي، b) القزحية مع ثقب البؤبؤ الذي ينظم دخول النور بواسطة ألياف عضلية كروية (صارّة) وشعاعية الشكل (موسّعة)، c) العدسة البلورية المتصلة بالأهداب بواسطة الألياف، d) المُقْلة، e) التي يغطيها بياض العين والتي تحتوي على الرطوبة الزجاجية، f) الشبكية التي تمتد بعيدًا أمام الجدار الداخلي للمقلة وفي وسطها توجد النقرة.

(أ٢) **الشبكية**. وهي أهم الأعضاء اللاقطة. تدل بنيتها الشبكية على أن مكوّناتها تشكل عضوًا حسيًا في غاية التعقيد.

نميز بين ثلاث وظائف خليوية، وظائف الاستقبال، والتجميع المعترض والدعم.

- تشتمل خلايا الإحساس الضوئي على نوعين أساسيين من الخلايا البصرية، العُصيّات (لون برتقالي) والمخاريط (لون بنفسجي) ثم الخلايا الثنائية القطب (لون أزرق) والعُقدية (لون أبيض).
- وتشتمل خلايا التجميع المعترضة على الخلايا الأفقية (لون أصفر) والخلايا العديمة الأطراف الطويلة (لون أخضر).
- يشكل الموثّق العصبي والصبغ (الأسود) نسيجَ الدعم.

تشبه الخلايا البصرية رياشَ الرسامين مع قصباتها. العُصيّات أضيق وهي تتأثر بالنور، لكنها لا تحتوي، مثل المخاريط الأسمك، على الأصناف الفرعية الثلاثة الشديدة التأثر باللون.

يتيح دمج العُصيّات بالمخاريط الخاص بالأجهزة العضوية الراقية تمييز الألوان والأشكال. يمتلك الإنسان ٢٥٠ مليونًا من خلايا النظر بنسبة ١٨ عُصية لكل مخروط، وتوزيعها على الشبكية غير منتظم. تكثر المخاريط في النقرة والعصيات في مكان آخر. عندما يحدث إشعاع يتحلل الأرجوان البصري الموجود في الشبكة ويبيضّ.

(أ٣) **تحويل المثير**. إن التفاعلات الكيميائية المعقّدة التي تسبب الإشعاع تولّد في الشبكية (a) إثارات كهربائية، لم يفسر عملها بعد بشكل كامل، فتنتقل عن طريق عصب البصر (b). وفي حال عدم وجود إثارة تكون العصيّات والمخاريط في استراحة كامنة. وعندما تحدث إثارة ترتفع الطاقة الكامنة في الغشاء. بيد أننا نضيف إلى ذلك أننا لا نستطيع ملاحظة أو تسجيل أي كمون عمل (بعد الإشعاع كما في الوسط)، إلا في الخلايا العقدية.

(أ٤-أ٦) **ردود فعل بصرية**.

(أ٤) يتمدد البؤبؤ ويتقلّص، كما في جهاز التصوير الفوتوغرافي، ليتيح المرور لكمية من النور تنقص أو تزيد (التلاؤم). تتعلق التغيرات بالوضع الفيزيولوجي النفسي: مظلم – مشرق ١ث – ٦٠ث؛ مشرق – مظلم ٣٠–٤٥ دقيقة.

(أ٥) يعدِّل انتفاخ العدسة البلورية وتسطحها (تكيفها) انكسار النور ويمكّنان من النظر إلى القريب وإلى البعيد (ما بين ١٠سم و١٠ م).

(أ٦) إن زيحان محورَي النظر (التباين الجانبي) في العينين يحول دون تكوين صورة مزدوجة ويقلل من مساحة التثبيت (الخط البصري).

ب. إعداد مركزي

تنسب إلى **هيرمان فون هلمهولتز**، الفيزيولوجي الشهير في القرن التاسع عشر، الجملة التالية:

«لو كانت العين من صنع صانع نظارات لكان من الواجب حتمًا إرجاعها له».

إذا كان الإحساس البصري يعتبر، بالرغم ممّا يعتري العين من نواقص بصرية، تتويجًا لعلاقاتنا بالعالم الخارجي، فإنه مدين بذلك إلى نجاح تكوينه الداخلي.

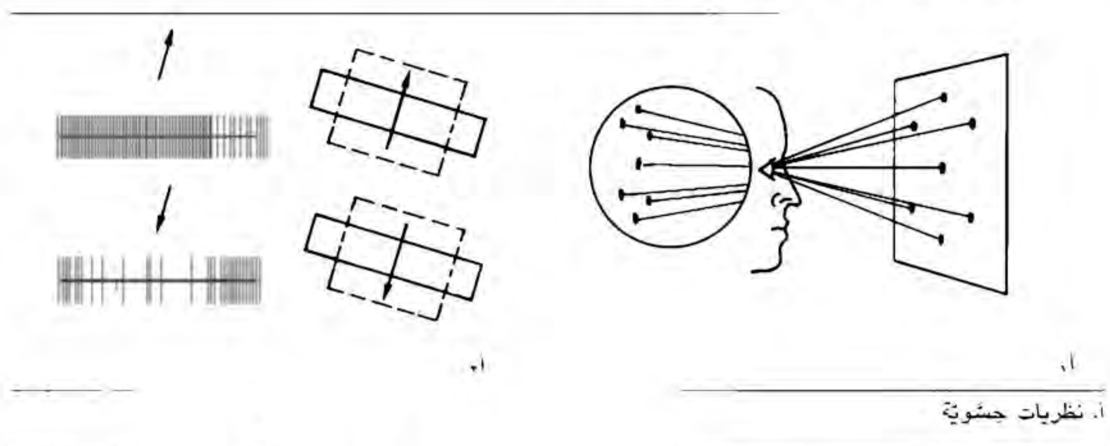
(ب١) **نظام النقل**. تنقل أعصاب البصر منفصلة، إلى نصفي الدماغ، الصورة التي تقدمها العين اليسرى والعين اليمنى فتوصلها أربعة حبال عصبية حتى الفص القذالي. فتتلاقى جزئيًا على مستوى التصالب البصري (a).

والمنطقة الوسطى (b) هي تلك المنطقة التي تحدث فيها، ليس فقط الاتصالات، ولكن أيضًا الإثارات العصبية مقابل ردود الفعل البصرية المذكورة أعلاه.

(ب٢) **أنظمة الاتصال**. تتم اتصالات المنطقة الوسطى، بيانيًا، مرورًا بمنطقة التبادل البصري السمعي الخارجية (a) والنظام الإضافي (b) والسطح البريتكتالي (c) وبالتوائم الأربعة الأمامية (d) والحدب الخلفي للمهاد البصري (e). تسقط هذه الطاقات على المساحات القذالية من ١٧ إلى ١٩ وباتجاه الفصوص الصدغي (T) والجداري (P) والجبهي (F).

(ب٣) **فارق الطاقة الكامنة**. نميز، فيما يخص القوى الكامنة المذكورة أعلاه (٢/٥)، الإشارات النوعية واللانوعية. فهي تنبئ عن قدرتنا على الإدراك إدراكًا واعيًا. يستجيب العصب البصري للإثارة بثلاث نتائج كهربائية: بالاستجابتين البدائية والثانوية وبالطاقة الكامنة التالية أيضًا.

(ب٤) **تفعيل القراءة**. من الممكن، بالطريقة النظرية، تسجيل بعض الفروق في الري الدموي تتيح التوصل إلى تنشيط بعض المساحات. ونبين، هكذا، مشاركة عدة مساحات من القشرة الدماغية في عملية القراءة. وفي حال وجود خلل يمكن أن يستمر انعكاس استقطاب المساحات (عندما يظل ممكنًا) عدة أشهر. هذا هو البرهان على الترابط الدينامي للوظائف في الجهاز العصبي المركزي.



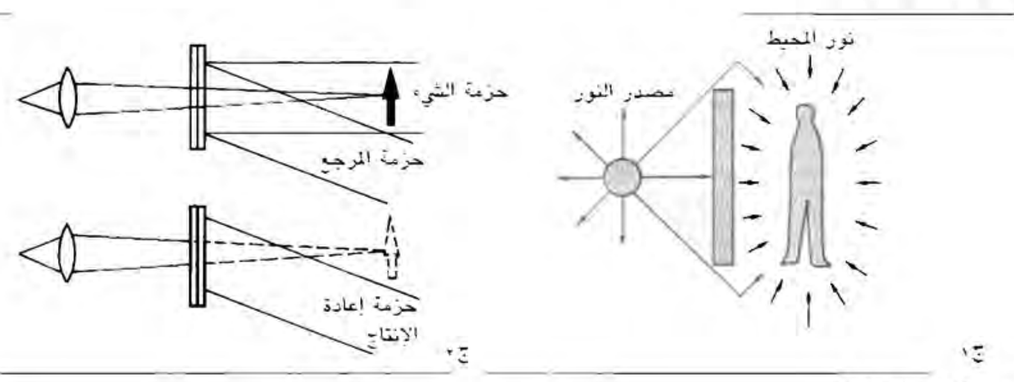
أ. نظريات حِسّويّة

ب١

٣ كلغ

٢٠ كلغ

ب. نظريات كتلوية



ج. نظريات الجدارة

إن العلم هو صراع آراء كثيرًا ما تلعب فيه الانفعالات الانسانية أيضًا دورها. ففي الجدال الدائر حول علم نفس الإدراك يمكن تمييز ثلاثة اتجاهات بارزة منذ منتصف القرن التاسع عشر.

أ. نظريات حِسّوية

كان **ڤونت** و**تيتشنر** مُمثِّلي المذهب الحسي، وهو تعبير يعني جملة من الفرضيات النظرية التي تهتم فقط بالإواليات الحسية. وقد تأثرا تأثرًا عميقًا بالاكتشافات الفيزيولوجية العظيمة في عصرهما. وكانت الفكرة الأساسية هي نقل البنية الفيزيولوجية كما هي إلى الظواهر السيكولوجية. وكان اتجاههما النظري يدعى أيضًا «البنيوية».

تتألف الألياف العصبية ومناطق الدماغ، مثل الأجهزة اللاقطة، من عناصر صغيرة تتجمع بشكل أنظمة. كان يُظن أن بالإمكان وصف الادراك تبعًا لهذا النموذج (آ١). وكتب **تيتشنر**: «إن كلًا من الاربعين ألف ضوء ولون التي يمكن أن نراها وكلًا من الأحد عشر ألف صوت التي نسمعها هو إحساس». إن تقييمات كمية كهذه ليست مقبولة اليوم.

وموضوع جدل أيضًا هو افتراض أن ادراك كرسيّ، مثلًا، مؤلف من تجمع آلاف عديدة من الاحساسات الخاصة. وأعطى بعض المنظِّرين، فيما بعد، هذه التصورات اسم «التصورات الجزئية». إلا أننا نجد عند الحِسّويين عناصر تصور تكاملي يفترض عوامل «دينامية» أو «إرادوية» ترجع إلى «نتائج لا واعية».

هذه الحسّوية التي كان يقال إنها ماتت، عادت إلى الظهور في صيغة جديدة مع انعطاف علم النفس الفيزيولوجي. فلدى إجراء اختبارات على الحيوانات تبين أن بعض الغدد اللمفاوية المركزية تقوم باختيار بعض المثيرات (آ٢). بعض الخلايا العصبية لا تبث أي اندفاع إلا إذا حرك قضيب من أعلى إلى أسفل، في حين أن خلايا أخرى لا تتأثر إلا تلقاء حركة معاكسة. عندما يكون التحريض غير ملائم تكون سلسلة النبضات الكهربائية أضعف بكثير. ويظهر أن الفرضية الحسوية التي تعتبر «الاحساس أضعف وحدة إرادية» لم تكن على شطط جسيم. ويطلق، اليوم، اسم «كشافات بصرية» على الوحدات التي تعطي معلومات جزئية.

ب. نظريات كتلوية

إن أحد أشهر الأوهام الادراكية اكتشفه **فرانز كارل مولر–لاير** (١٨٨٩) وقد أعطاه اسمه (ب١). نلاحظ، أحيانًا، هذه الظاهرة بمراقبة زوايا في الهندسة الفراغية: خط عمودي واحد يبدو أطول عندما تبتعد الخطوط الجانبية (زاوية غائرة إلى اليسار) ويبدو أقصر مع تقلص الخطوط الجانبية الناشئ عن المنظور (زاوية بارزة إلى اليمين). لا يعيد الادراك نسخ العالم بطريقة «موضوعية». درس المنظِّرون المدعوّون جِشْطلتيين، مستخدمين مفهوم الجشطلت (الشكل) الذي صاغه **كريستيان فون إهرنفلز**، درسوا الشروطَ التي يلتقط بها الجسم الظواهر الخارجية.

يُستَخْدَم المفهوم الكتلوي، الذي أشاعه **إ. ك. تولمان** (١٩٣٢)، لكي يلم بمختلف المدارس الشمولية.

يمكن تجميع عدد من البقع (ب٢) لتكوين صورة كتلوية لفارس.

وسع **هاري هيلسون** نظرية الجشطلت لتشمل نظرية مستوى التكيّف: يستخدم الإدراك اختبارات سابقة، إطارًا مرجعيًا معيشًا (مثير الإرساء) والعلاقة التي تربط المثير الحالي بهذين العاملين.

وإن من رفع وزنًا ثقيلًا جدًا يشعر بوزن أخف ولكنه في الحقيقة على شيء من الثقل وكأنه «خفيف» (ب٣).

ج. نظريات الجدارة

ومنذ منتصف القرن (العشرين) استعيض عن النظريات الجشطلتية بنظريات الجدارة (نظريات جديدة للتعلّم). وبالنسبة إلى هذه النظريات لا يتكون انطباع الكلية المتعضية في الرأس ولكنه موجود في المسار الطبيعي (الفيزيائي) للمثير. ويتساءل جيمس **غيبسون** حينئذ «عما يستطيع جسم مزود جدارة حسية أن يقتطع منها لنفسه». ويكون إدراكنا تحت «مظهره البيئي» غرضًا لتدرب دائم. ومن النادر مثلًا أن يصدر النور المدرك مباشرة من مصدر مضيء: بل ينطلق أكثر الأحيان من نور محيط غير مباشر يحيط بالمراقب من جميع جهاته (ج١).

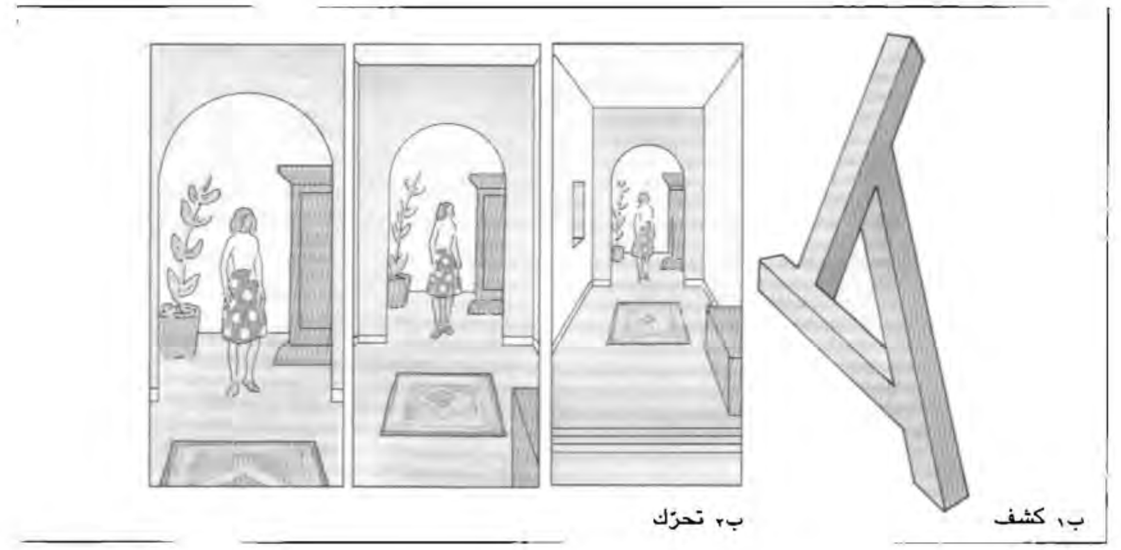
ونعرف، منذ استخدام التصوير الليزري (ج٢) الذي يعطي صورة ثلاثية الأبعاد تنشأ عن تقاطع حزمتين ضوئيتين، بدقة أكثر، أن الادراك خاضع لتدريب وتعلم مستمرين. وتواجه النظريات الجديدة عن الجدارة هذه العلاقات الوظيفية تحت أوجه مختلفة: حالة الجسم (التحول تحت تأثير الجوع)، درجة التدرب، رفض وجهات النظر المنكرة، ضغط المجتمع، التأثيرات المعرفية (الترويض الادراكي، مثلًا).

وأخيرًا تحظى خمس وظائف مراقبة بالتقدير: ١) المحدِّدات الحسِّية (مجالات حسية مشاركة)؛ ٢) توليف التوريدات من الخارج إلى الداخل (عمل فوري للشكل واللون أو خيال الظل)؛ ٣) الحافز (من ذلك حاجات آنية)؛ ٤) التنشيط (اهتمامات خاصة)، ٥) الإبراز (تخصيص انتقائي).

إلى جانب نظريات الموقف الإجمالي هذه يضع بعض المنظرين في المقدمة اختيار المثيرات، التأويل (تراتبية الدلالات)، صياغة الإدراك (تكون فعلي)، التبعية فيما يخص الحقل (درجة تأثير الحقل المحيط)، استغلال النماذج، تطور الإدراك والبحث النَّشِط عن المعلومات.

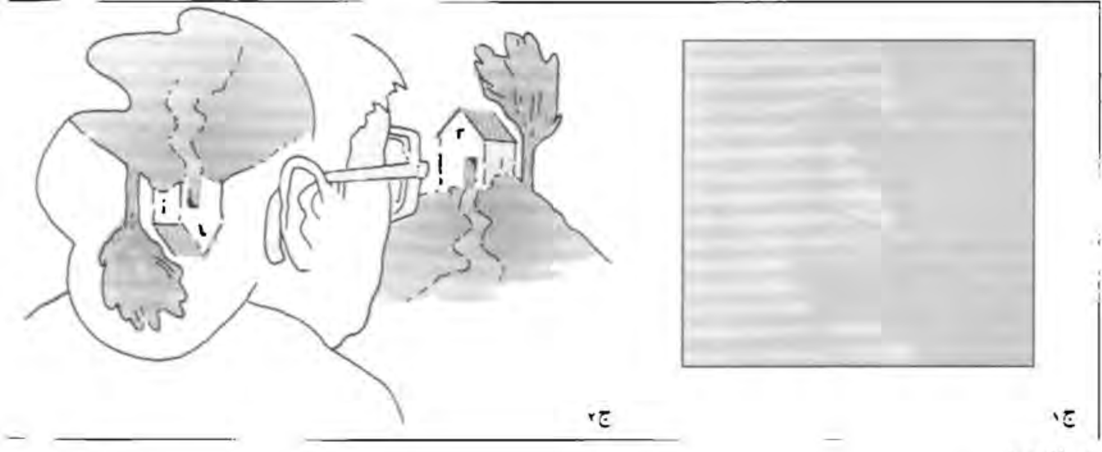
	مثيرات	مستقبِل	أصوات عصبية	الطاقة بالبِتْ	جهاز عصبي مركزي	إعداد واعٍ
العينان	380 – 760 nm	$10^7 - 10^8$	2.10^6	5.10^7		
الأذنان	ذبذبات 18 – 18000 HZ	$1 - 3.10^4$	2.10^4	4.10^4		
ضغط	تشويه	5.10^5	10^4	2.10^5		
ألم		3.10^6			10^{15} خلايا عصبية	16 – 150 بتات/ثانية
بارد	تبدل الحرارة	10^5				
حار		10^4	10^6	2.10^3		
شم	مركزات كيميائية	10^7	2.10^3	10 – 100		
ذوق		10^7	2.10^3	10		
	1	2	3	4	5	6

أ. النوعية



ب١ كشف ب٢ تحرّك

ب. الموضعة



ج١ ج٢

ج. التحويل

ـ **نيقولاوس دو كويس** يقول في نهاية العصر الوسيط: «إذا تصورنا دائرة تتسع إلى ما لا نهاية فإن انحناء الدائرة يتحول شيئًا فشيئًا إلى خط مستقيم». وكان تطابق الأضداد عنده هو ـمات بالنسبة إلى اللانهائي الإلهي كما بالنسبة إلى الدائرة والخط المستقيم. إن التعقيد الأقصى بالنسبة إلى التنظيم الادراكي يحوّل التفكير باستمرار إلى مبدأ تطابق الأضداد.

. النوعيّة

ـب إلى الإنسان، منذ أزمنة سحيقة، حواس خمس. وكان ـ ول معيار بسيط لتنظيم الجهاز الادراكي. ولكن يمكن أن ـعتبر أن عدد الحواس مضاعف ثلاثًا إذا ميزنا مثلًا بين إدراك اللون وإدراك الشكل أو إذا فرّعنا هذا الادراك الأخير إلى كاشفات مختلفة للشكل.

ـميّز عادة، ولو نظريًا، ثمانية لواقط حسية نوعية (اثنان عن بعد وثمانية عن قرب)، ولا يشعر الانسان بأنه يعيش في عدد من العوالم الحسية. وبسبب نقل المثيرات من الخارج إلى ـخر (تداعي المثيرات) فهو يعيش في عالم واحد، هو عالمه ـتي.

ويتج «تطابق» آخر من التنافس بين الحواس (الانطباعات ـصرية تمنع الانطباعات السمعية، مثلًا)، مع العلم أن هناك، ـع ذلك، إمكانيات تعويض، بل حتى تقوية متبادلة.

يتلقى المثيراتِ المختلفة (شكل آ) من العالم المحيط (و من ـسم ذاته) عَددٌ كثير التنوع من المستقبِلات ينقلها عدد قليل ـ الأقنية العصبية. وتقاس طاقة النقل بالبت (Bit). يحتوي ـماغ ما يقرب من $١٠^{١٥}$ خلية عصبية إذا جمعت طاقتها لا تساوي سوى بضع عشرات من البِتات المزودة بالوعي.

ب. الموضعة

ـ نهمة الأساسية للادراك هي تمكين التوجه في المكان. هنا يضًا يمكن أن نلاحظ تطابق الأضداد.

ـ) إن شكلًا كهذا يبدو للوهلة الأولى مدرَكًا تمام الإدراك. ولكن إذا أجلنا فيه النظر (متيحين بذلك لعدة كاشفات زوايا أن توفر معلومات لدى ارتدادها) لن نلبث أن نكتشف أنه ـستحيل».

ـ) يجب ألا يتوقف التوجه عندما يكون الإنسان هو نفسه ـن يتحرّك. عندما يدخل الإنسان في مكان جديد تحدث فورًا عملية تعيين سريعة جدًا لموقع الأشياء في المكان.

ج. التحويل

يضاف إلى مبدأي التنظيم السابقين مبدأ التعيين بواسطة نماذج ـصفها بواسطة المفهوم الاحيائي السيبرناتي «للتحويل». إذا لم ـكن نعرف ما هو الشيء المدرك والموضع نكون عاجزين عن التعرف إليه.

(ج١) يمكن أن ندرك الشكل المجرد باللون الأزرق أو باللون الأصفر ولكن ليس باللونين في وقت واحد. تعبر هذه الملاحظة عن وظيفة أساسية للتحويل. نركز في كل عملية إدراك على تصور لا يمكن أن نغيره إلا بشيء من السهولة. هذا القرار الذاتي اللاواعي في أكثر الاحيان (تحدث **هلمهولتز** عن «استنتاجات لا واعية» في عملية الادراك)، يتيح للتجربة وللحركة وللموقع الشخصي والاجتماعي ممارسة نفوذها على الادراك.

(ج٢) الصورة المنظورة ترتسم معكوسة على شبكية العين والدماغ هو الذي يعيد إليها وضعها الصحيح. يمكننا، بواسطة نظارات موشورية، أن نعكس مسار الشعاع.

يرى الشخص الخاضع للاختبار الآن العالم مقلوبًا. ولكنه في نهاية أسبوع يستخدم خلاله، باستمرار، هذه النظارات الموشورية، يتوصل إلى أن يرى العالم بشكل طبيعي. ويستطيع من جديد أن يمشي ويقود سيارة ويتوجه تقريبًا مثلما كان يفعل قبل ذلك (فصل ٧/٦).

وعندما يخلع النظارات يرى الدنيا فوق رأسه ولكنه يستعيد نظره الطبيعي في وقت قصير نسبيًا.

للمبادئ التنظيمية الثلاثة دور حاسم في بناء التجربة الإدراكية: توفّر لنا **النوعية** عالمًا ذا تنضيد معقد لأنها ترينا إياه انطلاقًا من عدة مراتب إدراكية.

تتيح لنا **الموضعة** ان نمتلك المكان المحيط بنا: نستطيع السيطرة على عالمنا.

والتحويل يحوّل ما نراه فقط إلى موضوع نعرفه أي بإمكاننا أن نشعر بأننا «في بيتنا» في عالمنا.

بهذه المبادئ نستخدم الادراك كمساعد أول في وظيفة التكيّف البيولوجية. ومنذ نشوء سيكولوجية الإدراك لأول مرة (**هربارت، ڤونت، غيزه**) نستخدم ثلاثة مبادئ لتعزيز الادراك:

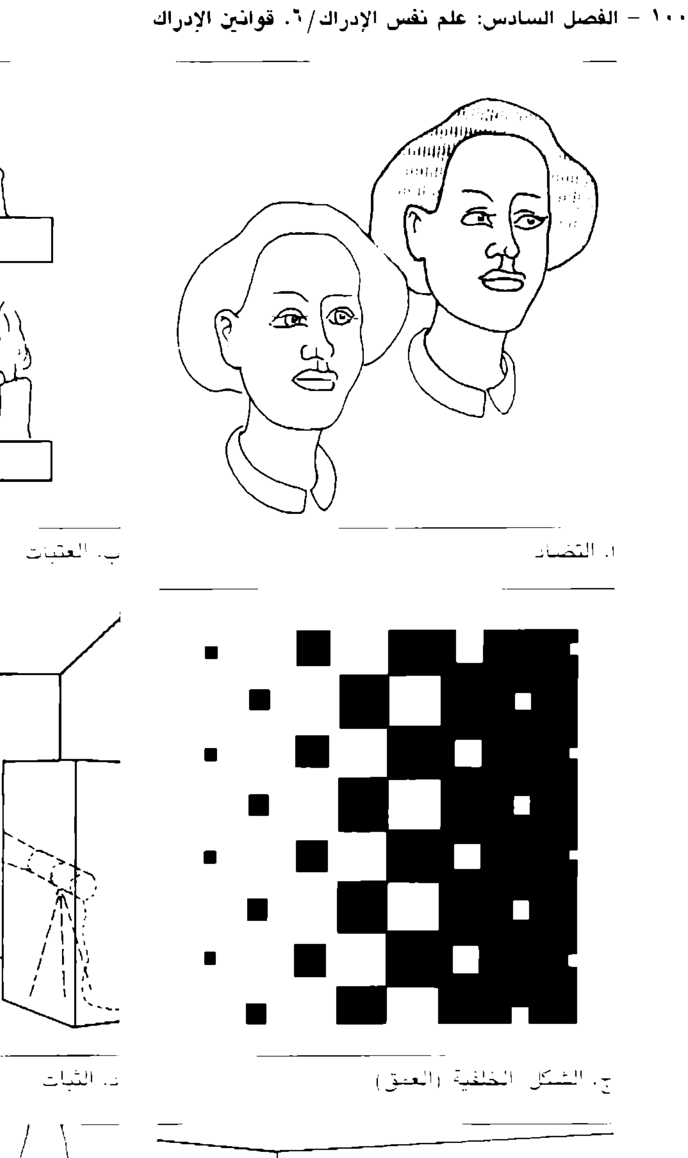
الإدراك («أسمعُ إطلاق نار»)

الإدراك المتميّز («هذا شيء خطر»)

التخوّف («أنا في خطر»)

تجتمع المعلومات الجزئية المعقدة الناشئة عن النوعية والموضعة والتحويل لتوفّر لنا دلالة إجمالية.

لا نعي كل هذا الإعداد الذي يأتي ليضاف إلى الاستقبال البسيط للمثيرات إلا عندما تزعجه اختبارات وهم الادراك. ومن هنا يهتم علم نفس الإدراك بأوهام الإدراك وبالإدراك القاصر (فصل ١٧/٦)، لأن «كشف القناع» عن الوهم يتيح لعلم النفس معرفة أفضل لحقيقة الوظائف الإدراكية.

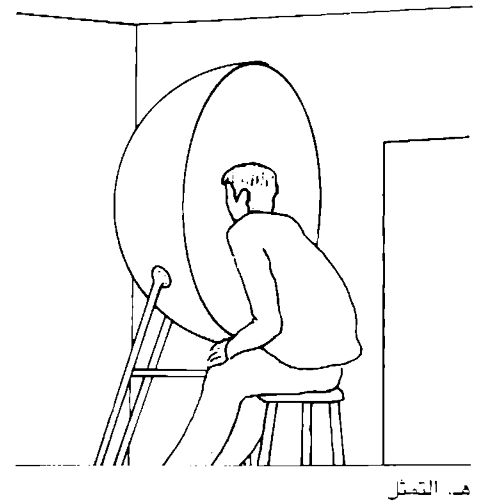


ا. التضاد

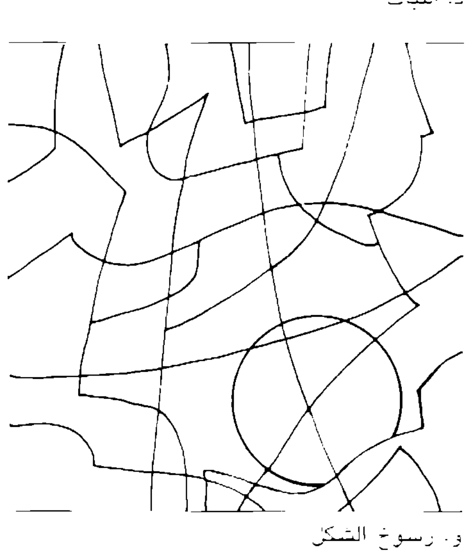
ب. العتبات

ج. الشكل الخلفية (العمق)

د. الثبات



هـ. التمثل



و. رسوخ الشكل

كان اكتشاف القوانين، دائمًا، هدفًا يسعى إليه كل علم. وفي علم النفس كان التوصل إلى «معطيات أكيدة» في غاية الصعوبة بسبب التنوعات الفردية. تصادف الاستثناءات، في هذا المجال، بحسب **ڤونت**، أكثر من القاعدة. ويَعرِف علم نفس الادراك سلسلة من القوانين التقريبية. أهمها هذه القوانين الستة التالية:

أ. التضاد

ليست القيم الضوئية والقيم الملونة مطلقة، إنها تتكيف في الإدراك تبعًا للبواعث الخارجية.

إذا حدقنا، ما لا يزيد عن ثلاثين ثانية، في طرف أنف الفتاة، إلى اليسار، وإذا نظرنا بعد ذلك إلى طرف أنف الفتاة إلى اليمين، نلاحظ ولادة صورة تكميلية مضادة: يبدو الوجه أخضر اللون.

تفسر هذه الظاهرة بتطورات فيزيولوجية في العين والدماغ وهي ذات أهمية عملية عظيمة (فالطبيب الذي يضطر، مثلًا، إلى تصوير الأجزاء القاتمة تصويرًا شعاعيًا، تزعجه المناطق المضيئة القريبة من المناطق القاتمة التي عليه أن يميز بعضها من بعض. وتحسِّن أشكال التضاد المختلفة (الإطار، السطح، التزامن، الضوء، اللون) بشكل إجمالي، دقَّة الصورة التي تبدو مهتزّة على الشبكيّة. ولكن عندما نشاهد التلفاز نحتاج إلى إضاءة إضافية لإضعاف ظاهرة التضاد.

ب. العتبات

من المعروف أن الكلب يسمع أصواتًا أكثر حدة مما يسمع الإنسان: تستغل الحساسية الإدراكية هذه في استعمال الأصوات الفوقية عند الترويض.

ويعرف بإزاء هذه العتبات «المطلقة» (العليا أو الدنيا) العتبات «التفاضلية، الفارقية».

عندما نضيء شمعة ثانية بعد شمعة أولى مضاءة نرى فرقًا في الإضاءة. ولكننا لا نرى هذا الفرق عندما نضيء الشمعة الحادية عشرة قرب عشر شموع مضاءة.

في سنة ١٨٥٠ وضع **ج. ت. فخنر** «القانون» الذي يتحدث عن الظاهرة:

«تزداد الحدة المعيشة بما يتناسب مع لوغاريتمية الإثارة المادية» ما يعني أنه يجب أن نرفع لوغاريتميًا ٢⁰=١؛ ٢¹=٢؛ ٢²=٤؛ ٢³=٨؛ ٢⁴=١٦...، للحصول على ١، ٢، ٣، ٤... درجات خطِّية من الضوء.

تشكل «عتبات رد الفعل» فئة ثالثة. ينطبق على كل موقف طريقة مختلفة من إدراك المثيرات (تكون آلام المعدة أكثر حدة أثناء انتظار عمل مخيف مما هي قبل القيام برحلة قصيرة).

ج. الشكل/الخلفية (العمق)

إن عدد الاثارات الصادرة عن العالم الخارجي لا تعد ولا تحصى. وليس بمستطاع أحد أن يبالي بها جميعًا. ولهذا نفضل بعضًا منها فنختاره بوعي متفاوت ويتوارى ما تبقى منها وراء الخلفية. تُظهِر الصورةُ المقابلة العبورَ التدريجي للشكل إلى الجهة الخلفية. الشكل، في هذه الحال، هو أصغر الصورتين (إلى اليسار، مربعات بيض، إلى اليمين مربعات سود) وأكبرهما الخلفية. لكن يجب أن نضيف أن العلاقات الدالة والتحديدات القوية والأشكال المقفلة والبسيطة تلعب أيضًا دورها.

د. الثبات

تتغير المثيرات باستمرار. تعكس قطعة فحم، في نور الشمس، من النور بمقدار ما تعكس تقريبًا قطعة من الطبشور عند الغسق. فلو كان مستحيلًا علينا أن نميز، في جميع الحالات، الطبشورة البيضاء من الفحمة السوداء لصعب علينا أكثر أن نحدد موضعنا. تحاشيًا لهذا النوع من الصعوبات، تقضي آلية إدراك مركزية على التغير المستمر للأشياء التي تظل في حالة ثبات تقريبًا (ثبات الضوء، الحجم، الموضع في المكان، وثبات الشكل واللون).

يمكن التأكد من مبدأ الثبات، اختباريًا، عن طريق الحيلة (شكل د). في غرفة ينيرها قنديل في سقفها، يرسل شعاع نور، بمعرفة من الشخص موضوع الاختبار، على قرص أسود قائم إلى اليسار فيصبح هذا شبيهًا بقرص أبيض قائم إلى اليمين.

هـ. التمثُّل

كل مصور فوتوغرافي يعرف، بالتجربة، كم يصعب عليه ضبط فروق الإنارة بواسطة جهاز التصوير. يمتلك الادراك البشري آلية تعويض.

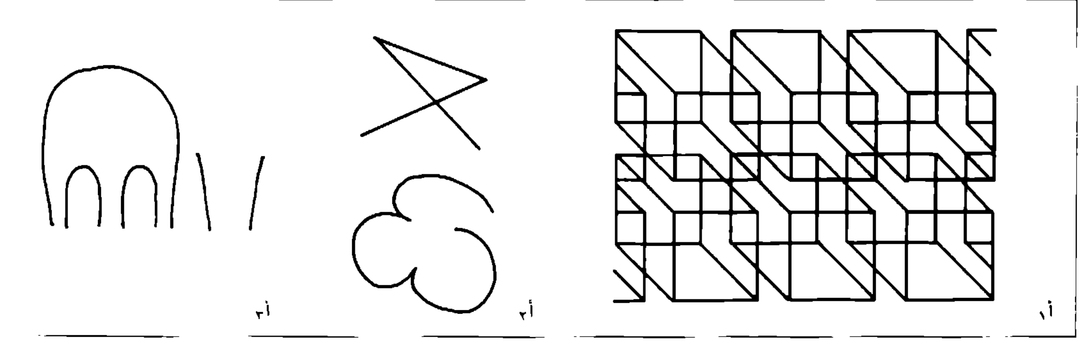
ينظر هذا الشخص إلى داخل نصف كرة جوفاء فلا يرى سوى مساحة متسقة ذات لون أمغر، حتى ولو زيدت الإنارة إلى جانبها. ولكن إذا اسقطنا خيطًا رفيعًا في نصف الدائرة تظهر عندئذ مساحات مختلفة ملونة. التضاد (أ) يفعل فعله هنا.

وعلى هاتين المساحتين الملونتين في هذا الرسم يَعمل التمثل عمله من جديد: حتى ولو غيرنا تلوينهما يبدو التلوين متناسقًا.

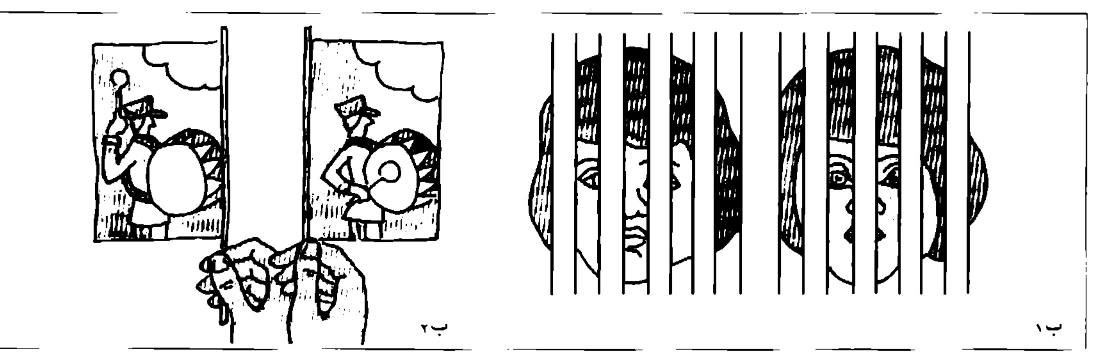
يُبسِّط التمثُّل الصورة في حين أنها مختلفة كثيرًا من وجهة النظر الطبيعية.

و. رسوخ الشكل

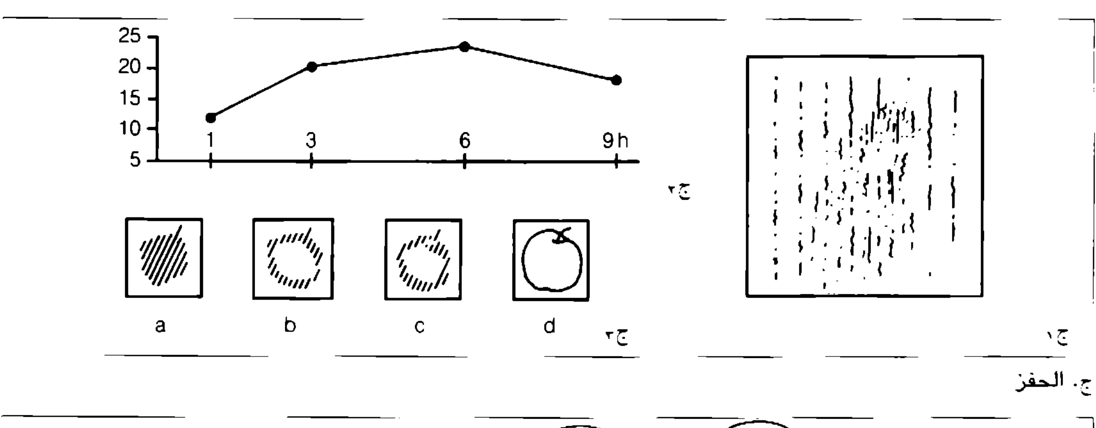
الشكل «اللغز» هو لعبة إدراك شعبية (فصل ١٧/٦). ترسم عدة خطوط متشابكة ويطلب العثور على صورة صياد، أرنب بينها... ففي الحياة اليومية أشياء عديدة تختبئ حولنا في حين تظهر أشياء أخرى من الخفاء وتفرض نفسها علينا بشكل «راسخ». يلعب هذا الواقع دورًا مهما في المصورات الإعلانية. تنفصل الأشكال البسيطة (كالمربع والدائرة) عما يحيط بها. يجب أن نذكر، في هذا السياق، آلية أخرى ندعوها النزوع إلى الرسوخ: فبالرغم من أن الدائرة من الشكل (و) ليست كاملة فإننا نقفلها اضطرارًا. نكمل الأشكال الراسخة دون أن نلاحظ ذلك.



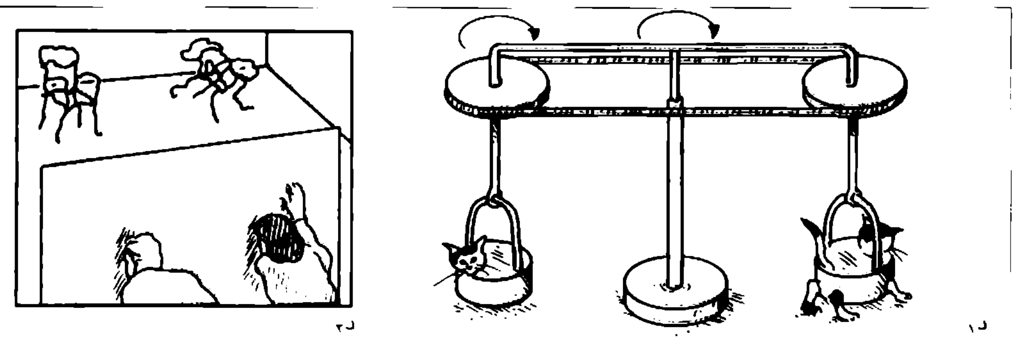
أ. تقييم بواسطة النماذج



ب. توليف الورودات



ج. الحفز



د. التنشيط

يجد الانسانُ العالَمَ الذي يعيش فيه، ولكن يمكن القول إنه أيضًا يستنبطه. بتعبير آخر: ليس الادراك فقط إعادة تكوين معطيات حسية يوفرها العالم الخارجي، بل هو عمل خلاق أيضًا. وبما أن دلالة الإدراك هي رمز للشيء المنظور فهي تسعى إلى اكتشاف كيفية انبناء عمليات الادراك.

أ. تقييم بواسطة النماذج

ترينا هذه الأمثلة الثلاثة كيف تُنْتِج نماذجُ بسيطة أشياءَ ذات معنى:

(أ١) يُنظَر إلى هذه السلسلة من متوازيات السطوح أولًا في اتجاه محدد في العمق. وإذا قلبت الصورة يظل الانطباع هو نفسه حتى ولو كانت الأشكال مقلوبة. ولكننا نستطيع إذا شئنا أن نوجه، فكريًا، هذه المتوازيات في اتجاه معاكس (نحو الأعلى أو نحو الأسفل).

(أ٢) أحد هذه الأشكال يدعى تاكيتيه والآخر مالوما. أيهما هذا وأيهما ذاك؟ أكثر من ٩٠٪ من الناس يسمّون الشكل الأعلى تاكيتيه والأسفل مالوما. والحقيقة أن الأشكال لا تمثل شيئًا والكلمات عبثية، ولكن هذا لا يمنع من أن نعطيها معنى نعتبره رابطًا بين الكلمات والرموز.

(أ٣) لا تعني هذه الرموز الخمسة شيئًا للوهلة الأولى، ولكن عندما نرى فيها «خادمة منزل وسطل إلى جانبها» نرى ذلك ماثلًا في الصورة دون أية مشكلة. إن بهذه الظواهر ما تهتم، بنوع أخص، نظريةُ اكتشاف الرمز (**غرين، سويتس**، ١٩٦٦). تغرق أو تكاد، في ما يسمى «ضجة الأعماق»، بعض الرموز الخفية التي نكتشفها عندما نزيدها حدة، ولكنها تستطيع أن تجتاز عتبة الادراك تبعًا للحقل (تبعية بالنسبة إلى الحقل) ولتوقعات الفرد ولمعرفته أو لجهله بالرموز وبحوافزه الشخصية.

ب. توليف الورودات

يغني الانسانُ ما يراه بإضفائه معانيَ عليه. وتبعًا لأهمية هذه الإضافات يمكن للشيء المنظور أن يثقَّل بدلالة إلى حد يمكن معه التخلّي عن معلومات يقدمها المثير: إنها «ضافية».

(ب١) بإمكاننا أن نكتفي، بالنسبة إلى الأوجه الأليفة لدينا، ببعض القطع. قُطِعَ وجه الفتاة إلى شرائح ويكفي أحد النصفين لتُعْرَف هويته: «نولّف» الصورة الكاملة.

(ب٢) نرسم طبلين على وجه راية وعلى قفاها، ونعرضهما على التوالي بتدوير سارية الراية على محورها وإذا زدنا سرعة الدوران لا نرى سوى شخص واحد يقرع الطبل. هذا الشكل البدائي من الرصد الدوراني (ستروبوسكوبي) هو، إلى حد ما، بداية السينما. يتولد التوليف هنا من دمج صورتين متناوبتين.

ج. الحفز / الدافعية

(ج١) نعرض تحت زجاج كنسي شكلًا نحزره حتمًا. إن صيام الأفراد يؤدي بهم إلى تعديلات بارزة في تأويلهم للأشياء.

(ج٢) بعد ثلاث ساعات، تزداد حصة الطعام ازديادًا ملحوظًا، وتزداد مجددًا بعد مضي ستّ ساعات ثم تنخفض بعد تسع ساعات عندما يذلل الجوع.

(ج٣) في اختبار مماثل لم يعرف الشكل (a) على أنه تفاحة من قبل الصائمين، والشكل (b) يعرف أحيانًا، والشكل (c) عرفه عدد كبير من الأشخاص الشِّباع. لكن الكثيرين احتاجوا إلى الشكل (d) لكي يعرفوا التفاحة.

تدل هذه الاختبارات على أن المحتويات المدرَكة تتعلق بالصفات النفسية التي لا توجد فقط في الإدراك الحسي. هذا التفاعل كان **أرسطو** قد أشار إليه من قبل:

> «كل ظاهرة، أيًا كانت، تبرز هي وحدها عندما يحرّض الموضوعُ الملائم الحواسَّ وأيضًا عندما تدخل الحواس نفسها في حالة من التحريض، بشرط أن يتولد التحريض كما لو كان الموضوع فعلًا موجودًا».

وضع البحث الجديد («الوظيفي») حول الإدراك، في المقدمة، سلسلة من العوامل الصالحة للتدخل في عملية الإدراك: خصائص فردية (إيحائية، ثبات، صلابة، تبعية الحقل، الخ.)، اوضاع (أعمال معلقة، هزائم، اهتمامات الساعة، الخ.) وعوامل اجتماعية (وخاصة أحكام جماعية).

د. التنشيط

(د١) في تجربة أجراها **هيلد وهاين** أُخْضِع هِرّان صغيران، طيلة إجراء التجربة، لمثيرات بصرية متشابهة، لكن أحد الهرين ظل جامدًا في سلته بينما كان الآخر يقوم بحركات منتظمة. وبعد فترة ليست بالقصيرة تبين أن الهر النشط وحده قادر على أن يرى بينما الهر الخامل كان يتصرف كالأعمى بالرغم من أن نظره لم يكن محدودًا.

يشير هذا إلى أهمية الحركة في عملية الإدراك، والشيء نفسه يحدث مع نظارات الانعكاس (فصل ٦/٥) التي تحدث تنقلات ملحوظة أثناء المرحلة الأولى من الاختبار: وعندما يبدأ الشخص هو نفسه بالانتقال أو عندما تحدث له أمور غير مفهومة عقليًا تتحوّل الصورة فجأة إلى الوضع الصحيح.

(د٢) يرى الشخصان، إلى يسارهما، كرسيًا مصنوعًا من قطع الحبال، ولكنهما يريان أيضًا كرسيًا مُحطّمًا إلى اليمين. ويبدو في اختبارات كهذه أو في أخرى من النموذج نفسه مع أفراد لا يعرفون هذه الأشياء مسبقًا (في الدغل الافريقي مثلًا)، أن الوهم لم يكن يفعل فعله.



أ. انطباع الشكل



ب. الترسيمات

ج١ الإطار

ج٢ التماثل

ج٣ التواصل

ج٤ التجميع

ب

ج

ج٥ التلاحم

ج. عوامل الشكل

«الكل هو أكبر من مجموع الأجزاء». لا يزال هذا الشعار يميز، حتى أيامنا هذه، علم نفس الشكل (الجشطلت): «انطباع الشكل» كأداء خاصّ بمن يُدرِك. يشدد علم النفس المعرفي، بعد مختلف المدارس الجشطلتية، على أهمية الاستباقات العقلية قبل كل عملية نفسية.

وكتب **بارتْليت**، أحد مؤسسي علم النفس المعرفي، على مضرب لعبة التنس:

> «عندما أنفذ ضربة لا آتي بشيء جديد تمامًا وأكرر أبدًا شيئًا قديمًا. تأتي الضربة نتيجة «تصورات» آنية وحية للنظر والموقع ولعلاقاتهما المتبادلة».

إن مفهوم «التصور» أو الرسم الخيالي كان قد استخدمه **ف.و. شيلنغ** في فلسفته للطبيعة (١٧٩٩) وهو يقصد به نماذج العالم المحيط في رأس كل كائن إنساني.

أ. انطباع الشكل

يتيح مثل إناء **روبين** (إدغار روبين عالم نفس دانماركي) عرض انعكاس صورة (شكل إناء أو جانبية وجهين ينظر أحدهما إلى الآخر). لا نستطيع أن نرى سوى أحد مظهري الصورة، شكل واحد (جشطلت) وليس الشكلين معًا. الشكل هو وحدة دلالة تشكل وحدة لمن يرى. فهو لا **يُفْهَم** كهيئة للمثير الذي يجب أن يعطي كل مرة الصورة نفسها، وهو ليس أيضًا تأويلًا ناتجًا عن اعتباطية ذاتية. ولكن موضعه بين هذين الموضعين، كتنظيم نوعي لإشارات مميزة يجب أن تتمتع بالصفات الأربع التالية:

– الرسوخ: تفرض الأشكال نفسها على الإنسان الذي يدركها تبعًا لعوامل الشكل (ج) «المتنافسة».

– الإضافية المفرطة، أولية الكل: الشكل الأساسي هو الأكثر دلالة والأكثر رسوخًا في مجموع الأجزاء التي تكوّنه.

– إمكانية النقل: يمكن نقل الشكل (بالرغم من تغير توزيع الآلات)، كالتصور النغمي، دون أن تضيع معالمه.

– الإطار المرجعي: يعمل «مثير الإرساء»، في الشكل، مثل مفتاح يفتح كل مرة تصورًا نوعيًّا.

ب. الترسيمات

يضع فريق آخر من المنظِّرين في المقدّمة وجهًا خاصًا للعملية الإدراكية. إن الترسيمات، بالنسبة إلى **نايسر**، هي

> «جزء من دورة الادراك الشاملة، التي هي داخل كل فرد مدرك، متغيرة تبعًا للاختبار السابق وخاصة بما هو مُدرَك».

وهي (الترسيمات) تسمّى أيضًا «حلقات الاستباق». إن ما يميز لاعب بليار جيّد من لاعب سيّء هو أن الأول يمتلك ترسيمات أفضل، وتصورًا دقيقًا لمسيرة الكرات عندما يضربها بطريقة معينة (خارطة ذهنية).

ج. عوامل الشكل

أيا كان الاتجاه النظري المعيَّن لتفسير الإدراك، فإن جميع الاتجاهات تحدِّد الاستعداد الانساني لصنع «الرموز الأيقونية». يرى البعض فيها إيقاعات موجودة بين الأشياء والبنية الحسية (وَضَعَ التطوّرُ عينينا جنبًا إلى جنب وليس الواحدة فوق الأخرى)، ويفسر آخرون هذه الرموز كمقولَبات مكتسبة، ويعتقد غيرهم أيضًا أنها استعادة نماذج مثالية في تعابير سيكولوجية الأعماق. عرض **هـ هيلسون** المجموعة الأغنى: ١١٧ عامل شكل.

(ج١) الإطار. الأشكال محدودة. فإذا لم تُحِط بها حدودٌ دفعةً واحدة من العالم الخارجي الذي هي فيه، فإن بعض السياقات الدماغية تمهرها بحدود. إن امكانية تحديد هوية شكل ما (هذا الهر مثلًا) تحسنها بعض كاشفات الأطر. إن البحث الخاص بالسلوك كشف، عند الحيوان، بعض أشكال الانطلاق (فصل ١٨/١). وهكذا فإن كشف الأطر الذي دعمته النظرية بعدة طرق يتثبت كعامل من عوامل الشكل.

(ج٢) التماثل. منذ القرن الثامن عشر كانت سيكولوجية الترابط الانكليزية قد عرفت في عامل التماثل مساعدًا للذاكرة. وبالرغم من أن أشكال الرسم هي على مسافة واحدة بعضها من بعض، سواء كان ذلك أفقيًا أو عموديًا (الأمر الذي يعتبر عامل تقارب من قبل بعض المنظِّرين)، فإن التماثل يحوّل الانظار إلى الصفوف الأفقية.

(ج٣) التواصل. ننظر إلى رسم المنحنى نظرة مميزة في حين أن بإمكاننا أن نقرنه بالحواجز ونعتبره كجانبية واوٍ. إن التواصل في بنية الخط المنحني هو الذي يستبعد عمليًا اقتراح هذا التفسير الثاني.

(ج٤) التجميع. تشكل كوكبات النجوم أقدم تفسير مقنع لمجموعة متجانسة. إن نجوم الدب الأكبر هي على غرار الدوائر «مجمعة» بسبب قصر المسافة التي تفصل بعضها عن بعض.

(ج٥) التلاحم. تعين الأمثلة الثلاثة التالية تأثيرات عامل التوليف.

أ: **يُفسَّر** هذا الشكل كتراكب «شائع» لدائرة ومسدس وليس كالشكل «غير العادي» الذي نراه إلى اليمين.

ب: للدراجتين حجم واحد ولكن الدراجة السفلى تبدو أصغر لأن سائقها أكبر.

ج: إذا نظرنا إلى المربع الأحمر «كمرساة» للشكل البيضوي العمودي نراه كمعيّن، ولكن إذا قرنّاه بالشكل البيضوي المنقّط يبدو لنا مربعًا منحرفًا.

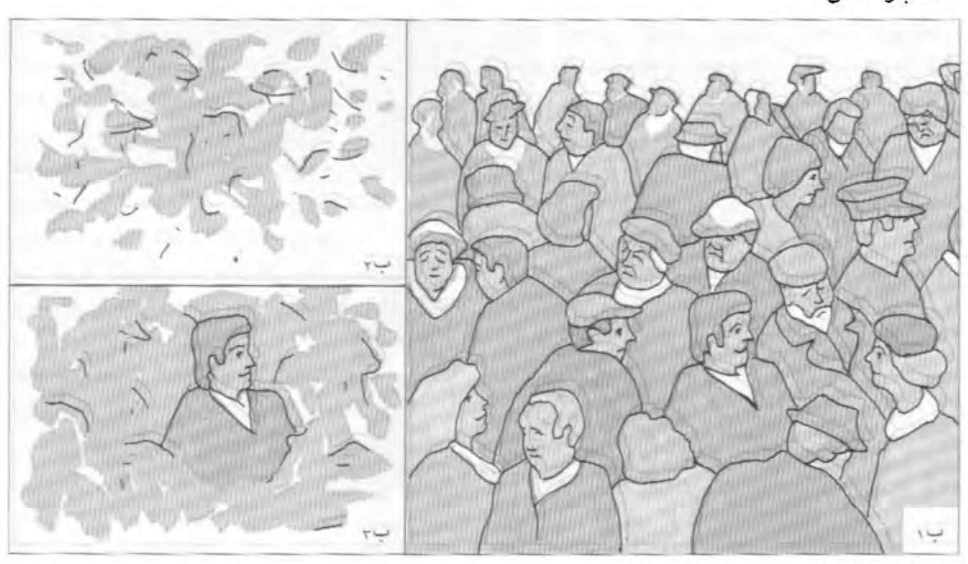
أ١ خداع العمق

أ٢ خداع القامة

أ٣ خداع القمر

أ٤ المنظور الهندسي والمنظور الهوائي

أ. اختبار المكان



ب. اختبار الزمان

إن المكان والزمان هما المقولتان الأكثر شمولًا (فصل ٦/٢). جميع العلوم من الفيزياء إلى الفلسفة ملزمة بمواجهة هاتين المقولتين في إطارهما المرجعي الخاص. أما فيما يخص علم النفس فالأمر يتعلق أولًا بالقول في أية أحوال نختبر شخصيًا المكان والزمان.

أ. اختبار المكان

تولَد الصورة المتلفزَة من إسقاط شعاع مكثّف على القعر المسطح لأنبوب التلفاز. الصورة مسطَحة ويتوهمها المشاهد عميقة، وكأنها بعيدة إلى الوراء وقائمة في الجهاز. نحتاج، لإثارة الإحساس بالعمق، إلى عدد من «دلائل العمق». تتيح ردود الفعل البصرية (كالتكيف والتباين الجانبي فصل ٥/٥) تكوين صورة واضحة نقية لما هو قريب وصورة غير واضحة لما هو بعيد. إن هذه المعلومات، في الواقع، ليست مرضية الا ضمن المساحة الواقعة بين نقطة الكَثَب ونقطة المدى (ما يتراوح ما بين ١٠ سم و١٠ م). أما المكان الملموس فمعطياته أقلّ. تُرتَّب فيه الأشياء بعضُها وراء بعض، إذ يغطّي ما في الصف الأمامي جزئيًا ما يوجد منها في الصف الذي وراءه. ومن ناحية أخرى فإنها تصفَّف بطريقة يتساوى فيها الأمامي والكبير في عيني المراقب. والأفق، أخيرًا، وتوزيع الظل يوفران أيضًا عناصر مقارنة.

توفر خطوط الهروب في المنظور معلومة مكانية هامة. ويسبب الهواء أثرًا منظوريًا بواسطة الأطر والألوان التي تصبح ضبابية في الصف الخلفي. يغير اللون أيضًا في تقييم العمق (فصل ٦/١١). ويزوِّدنا الحقل والمحيط، أخيرًا، بمعلوماتٍ مكانيةٍ إضافية عن قياس الأشياء، مثلًا. ولكن قد تكون جميع هذه المعلومات من الخِدَع البصرية.

(أ١) خداع العمق. من الممكن في بعض التجارب المعقدة (**ج. ج. غيبسون**) أن يزيف تقييم العمق: مثال ذلك أن تقص ثلاثًا من أوراق اللعب بطريقة تغطي فيها الورقة الأبعد والأكبر الورقة التي هي أقرب منها.

(أ٢) خداع القامة. في هذا الاختبار، تشوَّه الحدودُ المكانية كما تظهر ذلك الترسيمة الموجودة في الأسفل. ولكن عندما ننظر من خلال ثقب تبدو أعماق الغرفة طبيعية، على عكس الأشخاص الذين يبدون طوالًا أو قصارًا بحسب موقعهم في الغرفة. ويخضع تقييم المكان والقامة، أيضًا، للمحيط المدرَك.

(أ٣) خداع القمر. يبدو القمر عند الأفق أكبر بالنسبة إلى الأشكال الماثلة حوله، مما هو في سمت سماء ليلية.

(أ٤) المنظور الهندسي والمنظور الهوائي. يعتمد المنظور الهندسي (إلى اليمين) على خطوط الهروب وعلى الأفق البصري الذي يوجد على مستوى أعيننا... والمنظور الهوائي (إلى اليسار) يمد خدعة العمق بواسطة تدرج الألوان (ألوان باهتة، مزرقة) والبعد الضبابي.

ب. اختبار الزمان

يعيش الانسان زمانه كسلسلة من «فترات الحاضر» المتتالية المختلفة الأطوال التي يجعلها تنوع العيش والأهمية، بالنسبة إلى الأحداث، تبدو طويلة أو قصيرة («مفارقة زمانية ذاتية»: يقلص تزاحم الأحداث الإحساس بمرور الزمن، لكن المسافة الزمنية تعاش مديدة بالنظر إلى الماضي). تتضمن سيكولوجية الزمن أربع نقاط أساسية:

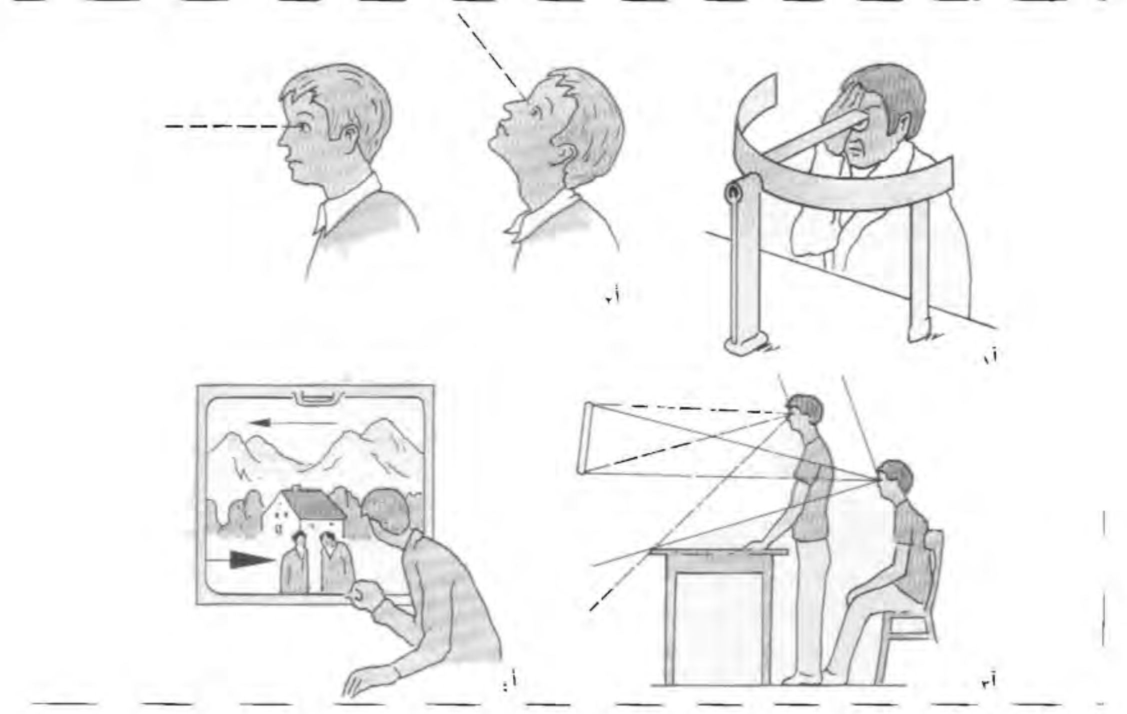
١. تبعية للزمان يشعر بها الانسان خاصة بعد سفر طويل في الطائرة وتترجم بصعوبات التكيف: «الساعة الداخلية» (الاندماج النفسي الفيزيولوجي في الوقت) تبدأ بأن تتعطل.

٢. تُدرَس العتباتُ الزمنية كفروق مطلقة (مهلة الادراك الأقصر بالنسبة إلى النظر: ٠,٠١-٤ ثانية، وأقصر بالنسبة إلى السمع نحو ٠,٠٠٢ ثانية) وكفروق نسبية («الموقع الزمني»): يسمع صوتان يخترقان سماعتي خوذة في مدى متر ثانية، كصوت واحد في الرأس، وإذا ابتعدا ٣ أجزاء من الألف من الثانية يندمج الثاني في الأول. ولكي نستطيع أن نميز بين وصولهما زمنيًا يحتاجان إلى مدى ٣٠ جزءًا من الألف من الثانية. تتعلق عتبات ردود الفعل بما نراه (فصل ٦/٦).

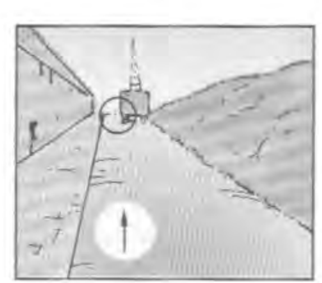
تتطلب صورة مشوّشة (ب١) وقتًا أطول لتوضيحها ويبدو وسطها أكثر وضوحًا وتنظيمًا وقد لوِّنت جزئيًا (ب٢). ولا يتم التعرّف إلى الصورة بكاملها إلا بعد استعراض طويل ويقع الاختيار أكثر فأكثر على جزء منها (ب٣) (صديق، مثلًا، تم التعرف إليه).

٣. التحقيق الزمني يحدده توافق بين الزمن الفردي والزمن الاجتماعي: ينتج عن ذلك شعور بالضجر أو باهتياج محموم. يغير ضغط الوقت عادة مستوى الأداء. إن خفض الوقت الممنوح لاتخاذ قرار قد يولد عوائق. وبالاضافة إلى الفروق الثقافية والاجتماعية والموقعية فإن الاذعان للقوانين الزمنية يؤثر أيضًا على التوجه في الزمن، أي المجال الزمني المحسوس ذاتيًا.

٤. المنظور الزمني يتعلق بالطريقة التي يُعِدُّ الفرد بها زمن الحدث ويقيِّمه: يمكن أن يكون الانسان أشد تأثرًا بالماضي أو بالحاضر أو بالمستقبل، وبما أنه يوجد ما يسمى «روح الزمن» فبإمكان الانسان أن يجاريه أو يرفضه. إن «وعي الزمن» هذا لا يمكن أن يكون بدوره منفصلًا عن التصور الشخصي للعالم الذي يفضل إما الاحتفاظ بحالة الأشياء الموجودة وإما إعادة بناء الحالة الماضية وإما ترجّي مستقبل مختلف.



أ. مجالات بصرية

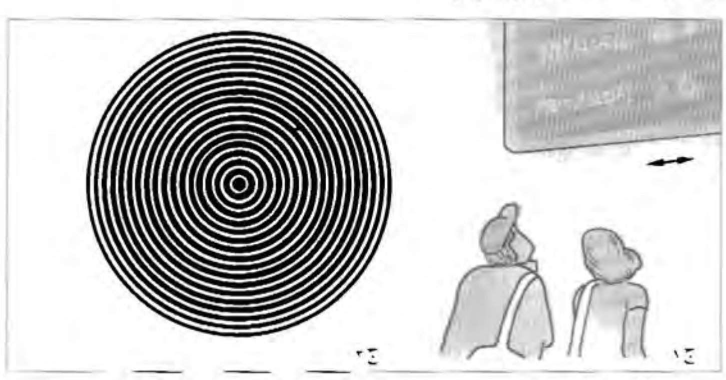






ب. حركات خاصة وموضوعية





ج. الحركة الظاهرة

د. الرصد الدوراني (الستروبوسكوبيا)

الادراك والحركة لا ينفصلان. فحيث لا يوجد حركة، كما في المثل الوارد أعلاه (فصل ٦/١) عن ثبات الصورة البصرية، يتوارى الادراك. وأيضًا يخضع الجسم لحركة صغيرة (ميكروية) تتراوح ذبذباتها بين ٤ و٢٥ ذبذبة في الثانية وإلى سعة من ٠,٥ إلى ٥ ميكرومتر في حالتها الآنية الأساسية التي تتفرع منها الحركات الكبيرة (ماكروية).

أ. مجالات بصرية

١) **قياس المحيط**. للمستقبِلات عن بعد، كالنظر والسمع، شعاع إدراك. شكل شعاع الادراك بالنسبة إلى العين هو نصف دائري تقريبًا. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن إدراك المثير البصري لا يحتاج إلى أية حركة من العين أو من الرأس، وهذا خطأ. فالصورة البصرية تتغير كثيرًا عند اجتياز قوس دائرة مجال النظر، وإذا كانت حرية الحركة متوفرة يميل النظر بثقة نحو الهدف الأساسي. يتيح استخدام المحيط الدائري تحديد صيرورة توجيه النظر.

وبما أن نظر الفرد مستقر على مركز المحيط، تُحرَّك صورةٌ من طرف قوس الدائرة نحو مركزها. ويجد الفرد صعوبة قصوى في معرفة أي شيء من الصورة المعروضة أمامه من على مسافة ١٠° أو ٥° من المركز.

٢) **حركة النظر والرأس**. عندما نقلع عن إعاقة حركة النظر اصطناعيًا، كما فعلنا ذلك مع المحيط، نلاحظ أن الرأس يتبع، بطريقة آلية، كل توجه جديد للنظر. ترتبط هذه الحركة القسرية بما يسمى «ارتكاس التوجيه» (١٣/١٠، أ).

٣) **حركة الجسم**. عندما يقف الشخص الذي يرى أو الأخرى عندما يتحرك يتغير ما يراه تغيرًا ملحوظًا. وبفضل ظاهرة الثبات (فصل ٦/٦) لا تضطر هذه التغيراتُ البصرية الشخصَ إلى أن يغيّر اتجاهه تمامًا كل مرة.

٤) **حركة البيئة**. إن حركة البيئة هي التي تتحرك أكثر الأحيان أيضًا. وهذه ظاهرة واضحة بشكل خاص عندما ننظر إلى الخارج أثناء رحلة في القطار. تمر الأشياء القريبة مسرعة وقد يستحيل أن نتعرف إليها في حين أن الأشياء البعيدة تنتقل ببطء و(ظاهريًا) في اتجاه معاكس لاتجاه القطار.

ب. حركات خاصة وموضوعية

الادراك اليومي هو توليف لتتابع الأمكنة والحركات والتثبيتات التي تحدد المراقبة. أما المتابعة الاختبارية للتغيرات الفائقة السرعة فقد أصبحت ممكنة، منذ وقت قصير، بفضل تثبيت آلة تصوير في خوذة متصلة بالنظارات. ويمكن أن نرى بالتالي على فيلم حركات الرأس وتغير مواقع تثبيت النظر تبعًا للمكان والمدّة في المجال البصري. تتيح هذه الطريقة، مثلًا، اختبار سائق في مختلف الأوضاع التي يصادفها في الطريق (صورة ب: رد فعل أمام عائق يعترض سيره).

إن الحركات الخاصة ليست فقط موردِة (مستقبلة) بل مصدرة وذلك أن الجهاز العصبي المركزي يعيد معلومة عن حالة الجسم بواسطة مستقبلات مختلفة:

خلايا غولْجي، الرزم العضلية، مستقبلات مفصلية وارتجاجية...

ج. الحركة الظاهرة

كان الفيزيائي **فاراداي** قد أجرى اختبارات على الحركة الظاهرة (١٨٣١). وفي سنة ١٩١٢ أطلق **فرتايمر** على هذه الاختبارات اسم ظواهر «فِي» (phi) الفريدة من نوعها ولا يمكن أن تحلل مسبقًا. غير أنه كان ممكنًا، فيما بعد، تفكيكها إلى ظواهر خاصة متنوعة (من حركة «ألفا» حتى حركة إبْسِلُن: من الألف إلى الياء).

إنها انطباعات ظاهرة تنبع من بنية جهازنا الإدراكي.

(ج١) بإمكاننا أن نشاهد، على اللوحات المضيئة في المطارات، أبسط أنواع الحركات الظاهرة:

وبسبب قصور إدراكنا البصري، تضيء المصابيح الصغيرة مداورة على اللوحة محدثة حركات ذهاب وإياب ضوئية مستمرة ليست موجودة في الواقع.

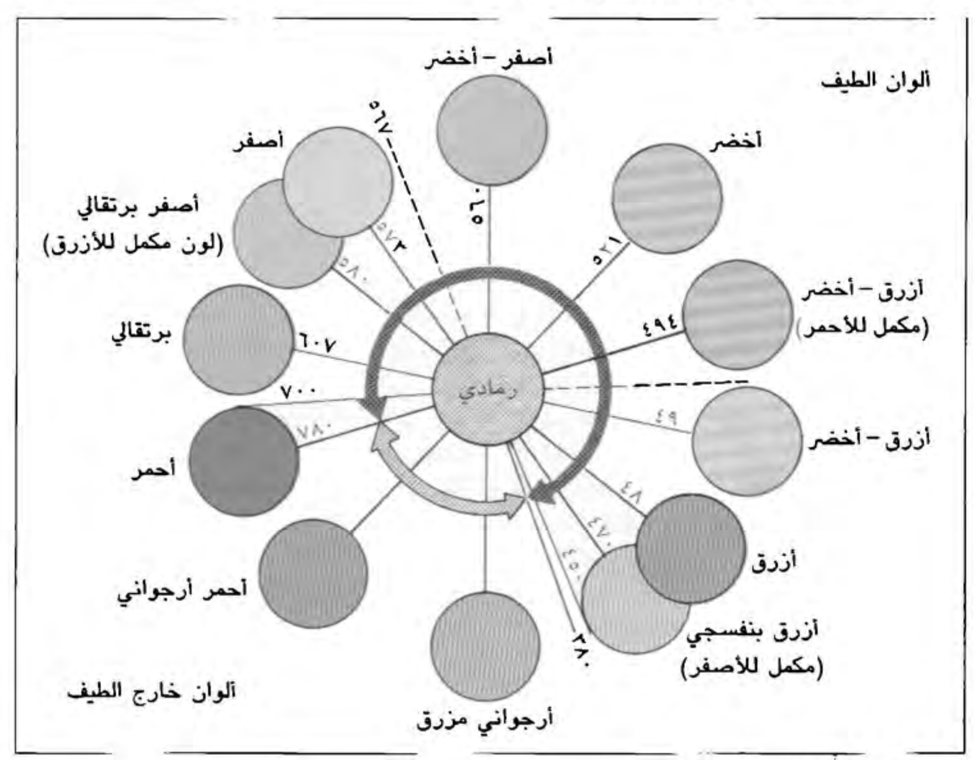
(ج٢) لا تشاهد الدوائر المتجاورة منفصلة، ولكنها تموه بعضها بعضًا متبدلة المنظر: تنشأ حركة الدوران الظاهرة في الدوائر عن تكوين الشبكية. وفي حال لولب **إكْسْنِر** نتوهم حركة مركزية طاردة.

د. الرصد الدوراني (الستروبوسكوبيا)

بدأ انتاج الصور المتحركة منذ القرن التاسع عشر بواسطة الستروبوسكوب (شكل د). ثم جاءت بعد ذلك السينما ثم التلفاز. تستغل كل من هذه الطرق «قصور» حواسنا المدركة لترينا الأشياء بحركة ظاهرة.

تتميز رؤية الصور التلفازية من الرؤية العادية بأوجه عدة: من حسناتها تحديد إطار النظر وشبه الظل الذي يغوص فيه المحيط، التضاد بين تزاحم الأحداث وجمود المجال المحيط، المظهر الكهفي للصورة المقتطعة وأثر الجذب الناتج عنها. وتنشأ الأخطاء من لدونة الصورة، مثل رداءة الاحساس بالعمق بسبب فقدان دلائل العمق، تمايز بسيط، نوعًا، في الشكل وفي العمق، التنافس الأشدّ بالنسبة إلى الادراك العادي، بين الادراك البصري والادراك السمعي.

تعدِّل هذه الاختبارات، تدريجًا، التوقعاتِ الموضوعة في العروض الإدراكية.



أ. طوبولوجيا الألوان



ب. آثار اللون

لأكثر الكائنات الحية رؤية متخصصة، إما في الأشكال وإما في الألوان. يمتلك الإنسان نظام شكل – لون متوازنًا نسبيًا وله قدرة بارزة على تمييز الألوان.

أ. طوبولوجيا الألوان

كانت رؤية الألوان إحدى أكثر القضايا مثارًا للجدل. **غوته** أفحم **نيوتن**؛ وعارض **هلمهولتز**، في القرن التاسع عشر، **هيرنغ**.

وفي أيامنا هذه لا تزال هناك مواقف مختلفة. بيد أنه من المعترف به أن أفضلية هذا المنظور الفيزيائي أو الفيزيولوجي أو السيكولوجي أو ذاك هي التي تلعب دورها في هذه التناقضات أكثر من الحقيقة الواقعية للظواهر الملونة.

إن الألوان (شكل أ) بالنسبة إلى الفيزياء هي موجات مختلفة الطول تنشأ عن طيف الضوء المنظور (من ٣٨٠ إلى ٧٨٠ نانومتر). لقد جرت محاولات لإدخال فسحات في هذا المجال.

هذا التقسيم إلى درجات متساوية هي أساس نظام الألوان الخاص **بأوستوالد** (أطلس **مونسل** في الولايات المتحدة الأميركية). وطوبولوجيا الألوان هذه هي مهمة أيضًا بالنسبة إلى علم النفس. وبفضل التشابه بين بداية الاختلاف ونهايته، تجتمع الألوان لتشكل الدائرة اللونية.

أما من وجهة النظر الفيزيولوجية فإن مخاريط الشبكية مزودة بإدراك الألوان. هذه النماذج الثلاثة من المخاريط ليست موزعة بالتساوي على الطيف. في الموجات الطويلة تهيمن مستقبلات الأخضر – الأصفر والأحمر – الأصفر، وفي الموجات القصيرة تهيمن مستقبلات الأزرق. وبفضل الخلايا العصبية المتفرعة من الشبكية يخلي نظام الأقنية الثلاث مكانه لنظام القناتين (من حسنات ذلك: زيادة سرعة المعالجة).

تجعل هاتان القناتان من الممكن، سيبرناتيًا، وجود أربعة ألوان:

الأحمر والأخضر في قناة، الأصفر والأزرق في قناة أخرى (هذا منشأ ظاهرة الألوان الملحقة). تعمل القناتان معًا. تبلغ قناة الأحمر – الأخضر ذروتها مع نحو ٦٥٥ نانومتر وقناة الأصفر – الأخضر مع نحو ٥٧٥ نانومتر.

ولكن بالرغم من مساوئ طفيفة فإن الحسنة الكبرى هي أنه بإمكاننا أن نؤلف مزيجًا ضوئيًا من عدد لا متناه من درجات الألوان. بعض الاختبارات أتاحت تمييز ١٢٨ درجة من الألوان. وهكذا وجد اللون الأرجواني غير الموجود في الطيف.

ب. آثار اللون

تقدم الفيزياء والفيزيولوجيا أسس سيكولوجيا إدراك الألوان التي تتضمن سبعة مجالات أساسية:

تعتمد تجربة اللون المعيشة على الألوان الأولية (**هيرنغ**) وهي: الأزرق – الأخضر – الأصفر – الأحمر. لكن الألوان الثلاثة الأساسية (الأحمر – الأخضر – الأزرق)، كما نلاحظ على شاشة التلفاز الملون، هي كافية تقنيًا (بسبب بنية شبكية العين) لتغطي المجال اللوني بكامله. ولكل لون قسم كبير من الطيف (وأحيانًا النصف) مع لون مهيمن أو أكثر. إن الطريقة التي نرى بها اللون تعود أيضًا إلى تجارب سابقة.

وما يدعى «لون الذاكرة»، هو أن يظل المرء، مثلًا، يشاهد لون سيارته الزرقاء في حالات من الألوان كثيرة التنوع مع تموجات كبيرة في اللون.

لدى القليل من الناس شذوذ في رؤيتهم للألوان (ما يسمى الدلتونية):

٠,٠٢٪ لا يرون أي لون، ١,٧٨٪ من الرجال لا يرون اللون الأخضر، ١,٠٨٪ لا يرون اللون الأحمر، أما عدم رؤية اللون الأزرق فنادرة جدًا. والدلتونية قليلة الانتشار بين النساء.

الألوان الملحقة هي أزواج من الألوان إذا دمجت بعضها ببعض تعطي اللون الأبيض. للألوان المتشابهة عنصر مشترك.

تشبّع اللون تحدده نسبة وجود هذا اللون. إذا كان اللون قليل التشبع، كالوردي مثلًا، فمعنى ذلك أنه يحتوي الكثير من الأبيض (أي من جميع الألوان) فيعطي انطباعًا عندئذ بأنه لون ناصل.

زهو اللون أو إشراقه هو أن يبدو اللون وكأنه يبعث نورًا. يبدو اللون الأصفر «مشرقًا» أكثر من اللون الأزرق الداكن.

بالنسبة إلى عوامل الحقل نميز آثارًا مختلفة ناتجة عن تلون الأمكنة والسطوح والمساحات، عن الانعكاسات، عن اللمعان، عن الشفافية...

(ب١) تتأثر رؤية العمق (فصل ٩/٦) أيضًا بالألوان. فالبيت الأحمر يعطي انطباعًا بأنه يسير إلى الأمام...

(ب٢) فالأثر المدعو أثر **بيزولد** يبرز تغيرات التلوين الناشئة عن التضاد بينه وبين خطوط الإطار.

تتغير الألوان، في ظاهرة **پوركنْج**، تبعًا للمعان البيئة: يتميز الأخضر والأزرق في رابعة النهار.

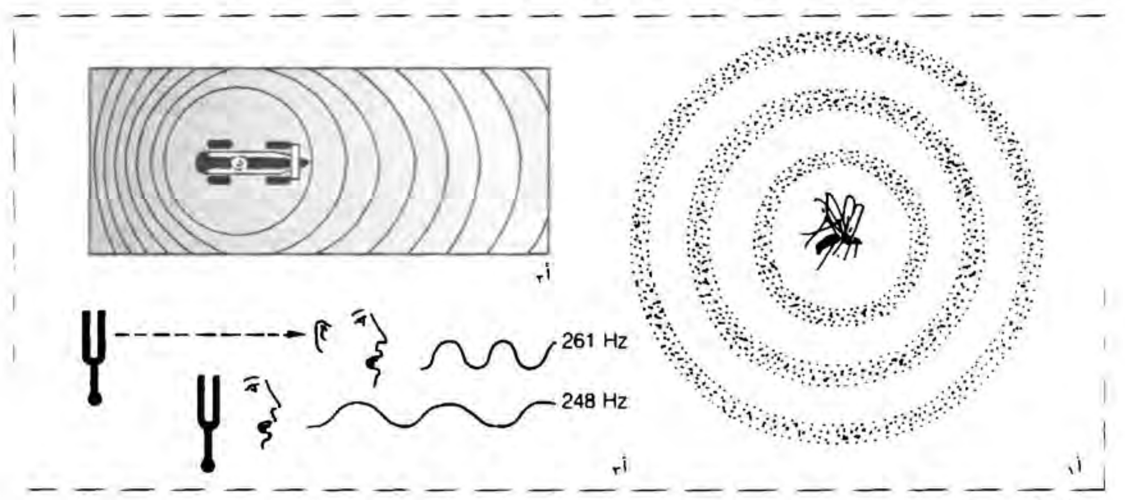
يخضع المناخ لحرارة الألوان وبرودتها المتزامنتين.

تعود الرمزية في الألوان إلى الخلفيات الثقافية. اللون الأبيض، في الشرق، هو لون الحداد. ويُظهر أثر شتروب إلى أي مدى تؤثر الألوان على تفكيرنا.

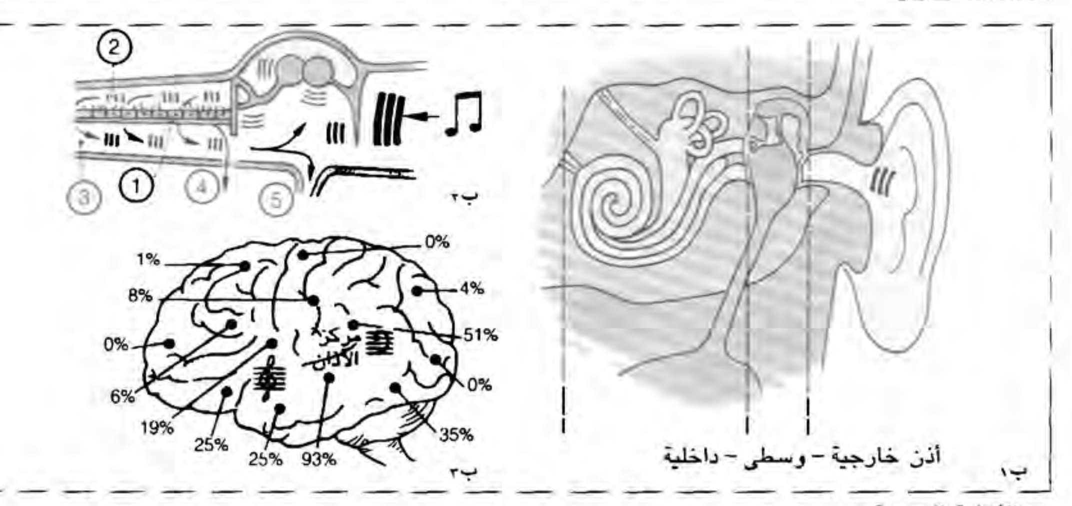
(ب٣) عندما نرسم أسماء الألوان بلون مختلف أو عندما نحيطها بألوان مختلفة يصبح من الصعب استعادة أسمائها الحقيقية.

لا يجعل إدراكُ الألوانِ العالَم فقط أكثرَ جاذبية:

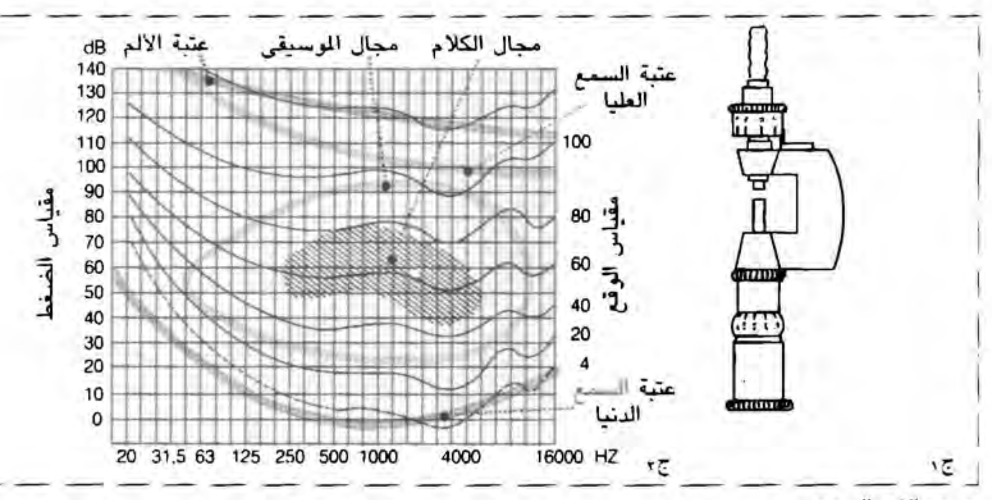
توفِّرُ الألوانُ معلوماتٍ مكمِّلةً لتمثيل العالم تمثيلًا صريحًا جازمًا... فهي تميز، أكثر من الشكل، بنية المواد؛ يمكن أن تسهم في تمويه الأشياء أو في تسهيل اكتشافها؛ تعطي المزيد من الزخم للعلاقات العاطفية بالأشياء.



أ. ظاهرات صوتية



ب. الأنظمة السمعية



ج. مجالات السمع

تعتبر الأذن العضوَ الأكثر تعقيدًا بين أعضاء الحس، إنها أكثر تمايزًا من العين. يعود تعقيدها إلى إوالية ضغط الصوت: تتحول الموجات الصوتية، بواسطة أغشية وعُظيمات وعضلات وأقنية ذات شكل خاص ومليئة بسائل، إلى ارتجاجات ضاغطة تنتهي بثني أهداب صغيرة تنقل الذبذبات الكهربائية إلى القشرة الصدغية.

أ. ظاهرات صوتية

الهواء هو المطية الطبيعية للتموجات الصوتية. لقد استطاع الفيزيائي **روبرت بويله** أن يعطي عنها برهانًا منذ القرن السابع عشر.

علّق جرسًا في وعاء زجاجي فارغ من الهواء ولاحظ أنه عند قرع الجرس لم يستطع سماع صوته. ثم راح يدخل الهواء شيئًا فشيئًا فكان صوت الجرس يزداد دويًا بمقدار ازدياد الهواء في الوعاء.

تتعلق سرعة الصوت بحرارة المادة الناقلة للصوت: إذا كانت درجة الحرارة ٢٠ درجة مئوية تكون سرعة الصوت ٣٤٣ متر/ثانية، وعند درجة صفر تكون السرعة ٣١١ متر/ثانية.

أما في الماء فتبلغ سرعة الصوت ١٤٨٠ متر/ثانية.

(أ١) يكفي ضغط صوتي ضعيف لإحداث إدراك سمعي. طنين ذبابة مثلًا يمكن أن نسمعه من وراء زجاج النافذة بضغط يساوي جزءًا من ألف بليون واط.

(أ٢) يحيلنا أثر **دوپلر** (للفيزيائي **كريستيان دوپلر**) إلى تعديل الذبذبة بواسطة ظاهرة تموجية بالنسبة إلى مراقب ثابت: يبدو ضجيج سيارة سباق حادًا عندما تقترب وخفيفًا عندما تبتعد.

(أ٣) والمسافة التي تفصل مصدر الصوت عن الأذن تلعب هي أيضًا دورها:

عندما نحاول أن نحدث، صوتيًا، نغمة الشوكة الرنانة على مستوى نوتة «**دو**» بقوة ٢٦١ هرتز من على مسافة ثلاثة أمتار تقريبًا نصل إلى صوت أحادي. وإذا كانت الشوكة الرنانة قريبة من الأذن يكون الصوت المغنى أكثر الأحيان بقوة ٢٤٨ هرتز.

ب. الأنظمة السمعية

(ب١) تقسم الأذن إلى ثلاثة أقسام أساسية:

الأذن الخارجية (الصيوان ومجرى السمع)، الأذن المتوسطة (الطبلة والعظيمات والمطرقة والسندان والركاب)، الأذن الداخلية (القوقعة، الحلزون) مع نافذة بيضوية ونافذة مستديرة وعصب السمع).

عضو التوازن (فصل ٦/١٦، أ).

تصل الإثارة السمعية (إذا ضربنا صفحًا عن الجهاز العظمي الذي يلعب دورًا أقل أهمية) إلى الطبلة عبر القناة السمعية. تنقل العظيمات الذبذبات الصوتية حتى النافذة البيضوية في القوقعة).

(ب٢) إذا تمثلنا القوقعة منبسطة يكون طولها ٣,٥ سم تقريبًا بعرض ١ سم وهي مسطحة عند طرفها. ويقسمها الغشاء الأساسي (١) إلى تجويفين (أعلى وأسفل) تحدث داخلهما حركة سائلة: الغشاء الأساسي مجهز بأهداب كثيرة ما يقرب من ٢٣٥٠٠ (٢). عندما تنحني بعض الأهداب بتأثير من الموجة السمعية (٣)، تحول الأعصاب المثير الصوتي إلى دفقات كهربائية تنقلها فيما بعد الألياف العصبية (٤) المقابلة. يقوم بوق أوتاخيوس بدور الصمام لضمان توازن الضغط.

(ب٣) تجتمع الألياف العصبية، وعددها نحو ٣٠٠٠٠، في العصب السمعي الذي يوصل، بواسطة تناوبات وتصالبات، إلى الدماغ مارًا بالجذع الدماغي (النوعي واللانوعي). وهناك ينتشر البث الصوتي في مناطق ممتدة نوعًا ما، مع ظاهرات تركيز وخاصة في الفص الصدغي. وتشير النسب المئوية إلى ذبذبة ردود الفعل الكهربائية.

ويجب أن نلحظ أيضًا أن ارتفاع الصوت يلعب دوره في هذا الانتشار وهذا ما تشير إليه رموز مفتاح صول (sol) للأصوات الحادة ومفتاح فا (fa) للأصوات الخفيضة.

ج. مجالات السمع

للأصوات ميزتان أساسيتان: الارتفاع النغمي والوقع (فصل ٦/١٣).

يمكننا بصفارة غالتون (ج١) أن نصعد صفيرًا متواصلًا حتى اجتياز عتبة السمع العليا ونستنتج هكذا فروقًا فردية هامة.

بعض الحيوانات كالكلب تسمع أصواتًا حادة أكثر من الانسان، ما يتيح استخدام صفارات فوصوتية في تدريبه.

(ج٢) يستجيب الجهاز السمعي لدى الانسان لذبذبات تتراوح بين ١٨ هرتز (العتبة السمعية الدنيا) و١٨٠٠٠ هرتز (العتبة السمعية العليا). يتغير ارتفاع الصوت مع الذبذبة ولكن ليس بالمطلق. تشير الخطوط العرضية إلى ارتفاع الصوت تبعًا لضغط النغم ووقعه، ويؤثر امتداد الصوت أيضًا على علوه المتساوي الذبذبة.

تُمتَصّ الذبذبات العالية أكثر عند انتشار الصوت: لذلك يقرقع صوت الرعد على سلم الذبذبات بكامله في حين أنه لا يسمع من بعيد إلا كزمجرة خفيضة.

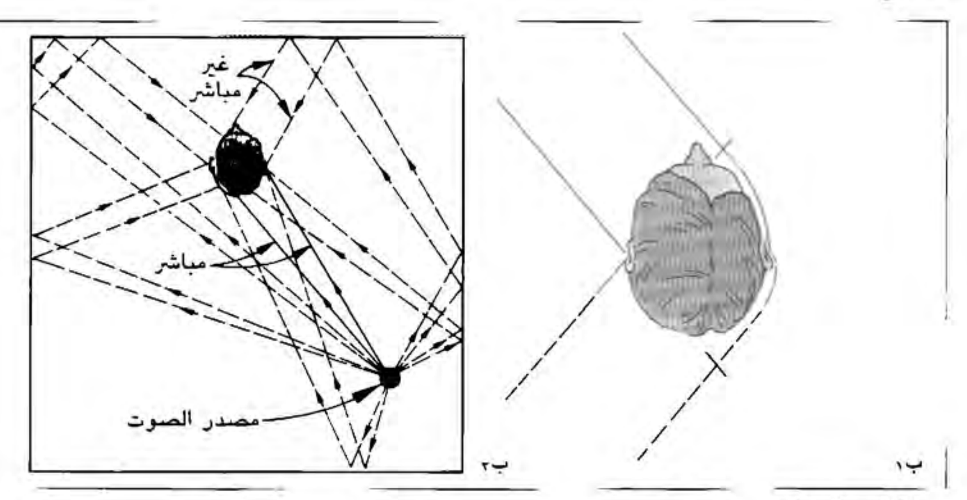
تستعمل بعض أجزاء سُلَّم الذبذبات وحدها في مجال الكلام (المنطقة المظللة) وفي الموسيقى (المنطقة المطوقة بالازرق). الأصوات المعزولة هي عادة أصوات مختلطة، يكمل تمايزها أصوات أكثر حدة وضجيج إضافي.

تبدو لنا الأصوات المرتفعة أكثر نفاذًا وأكثر قساوة وأكثر زعيقًا وأكثر برودة في حين أن الأصوات الغليظة تعطي انطباعًا بأنها أثقل وأضخم وأكثر امتلاءً ودفئًا وعذوبة وتراخيًا.

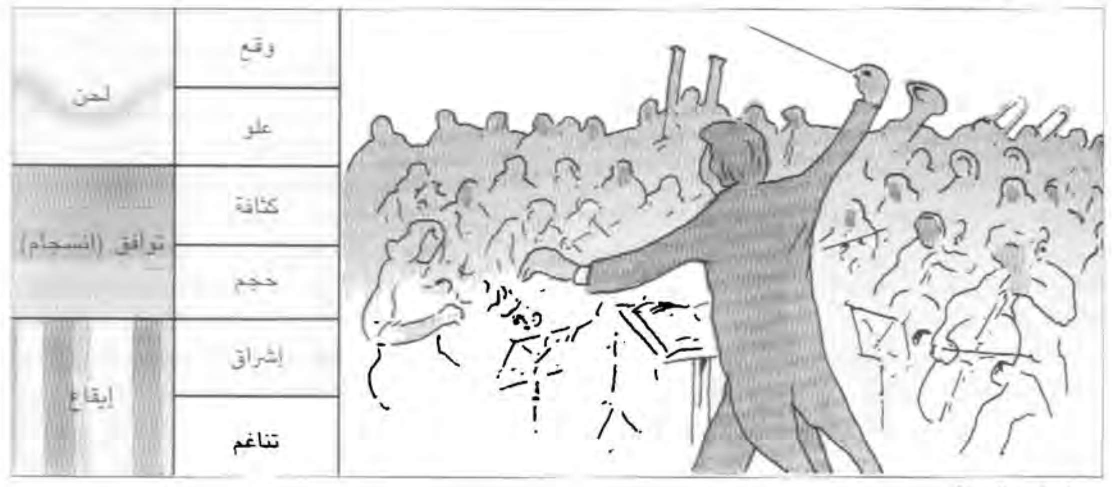
يتيح لنا التنوع وعدد هذه الميزات الخاصة أن نتعرف إلى مئات الأشخاص بواسطة نغمة صوتهم فقط.



أ. الوقع أو الشدة



ب. المكان والسماع



ج. أساس الدلالة

أ. الوقع أو الشدة

الوقع الرنان (الحدة الصوتية) هو نتيجة فروق الاتساع في نقل الأصوات (يقاس بالصوتة). عندما يبلغ الصوت عتبة الألم يكون أقوى بما يقرب من ألف مليار مرة من أضعف صوت مسموع (بحسب **لندساي**). تبدأ الضجة بالازعاج عندما تبلغ قوتها ٣٥ دسيبل، ويبدأ اضطراب الفهم عند ٤٥ دسيبل ويحدث تناقص في القدرة على السمع ما بين ٧٠ و٨٠ دسيبل ويمكن أن يصل إلى حد تحطيم حاسة السمع.

بيد أنه يجب التأكيد على أن اضطرابات السمع هي أيضًا على صلة بالتكوين النفسي.

ب. المكان والسماع

طُلِب سنة ١٨٩٥ من الفيزيائي **ف. سابين** دراسة سوء السماع في أكبر قاعة تدريس في جامعة هارڤرد، واستطاع مستعينًا بالكرونومتر أن يستنتج أن صدى الكلمة يدوم ٥,٥ ثوان. عندما يتفوه خطيب بجملة من ١٥ كلمة يظل في آذان المستمعين حتى آخر الجملة صدى الكلمة الأولى.

بدأ عمله بأن رصف في القاعة ١٥٠٠ مسند من مقاعد قاعة المسرح المجاورة، ما أتاح له تخفيض مدة الصدى ١,١٤ ثانية. ثم استخدم موادَّ تمتص الصوت وجعل المكان مرضيًا للجمهور. وكان ذلك بداية علم النفس السمعي.

للوصول إلى سماع «صحيح» يجب المفاضلة بين الأصوات واختيار موضعها المناسب. والصدى الأنسب (لا القوي جدًا ولا الضعيف جدًا) هو مهم كثيرا لهذه المفاضلة. ويجب التفتيش عن شروط الصدى أولًا في فم المتكلم أو المغني وفي حنجرتهما وأنفهما.

والعامل المهم الآخر هو الخلفية الرنانة.

يكون في السهرة غالبًا كثير من الضجيج. وتصبح متابعة الحديث مع زميل أصعب مع التقدم في السن (صمم السهرة).

وبالرغم من هذا الخلل وبعضٍ غيرِه يحجب السمعُ سائرَ أعضاء الحس فيما يخص طاقة التمييز.

لا تجد الأذن أية صعوبة في التمييز بين أوتار الكمان المزدوجة في حين أن العين، في مجال النظر، لا ترى إلا الأخضر عند تنضيد الأصفر والأزرق.

تتم موضعة مصدر الصوت بواسطة ضغط الرنين (البعد) وفرق الوقت (الاتجاه) الفردي للصوت لكي يبلغ كلتا الأذنين (ب١).

إن فرقًا بسيطًا من ٠,٠٠٣ متر/ثانية له أهميته في تحديد الاتجاه. وعند فرق ٠,٦ متر/ثانية نسمع الصدى إلى جانبنا على زاوية قائمة (٩٠°). وندرك فروقًا من ٣° إلى ٥° كتغيير الاتجاه.

وفي الأمكنة ذات المساحات المحدودة (ب٢) تسيطر صورة صوتية معقدة مؤلفة من صوت (مباشر) ومن صدى مدوّ (غير مباشر)، وهذه الصورة تستخدم لتحديد مركز الصوت. وما يجب أن نؤكده أن الصدى المدوّي لا يعمل إلا في ذبذبات عالية.

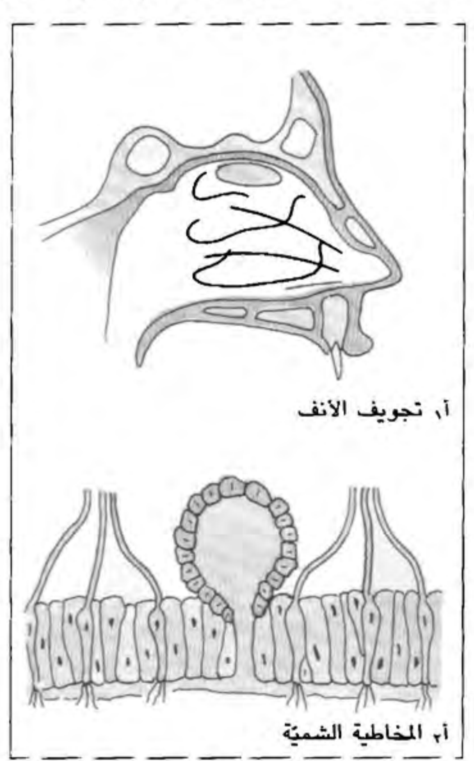
ومن المهم أيضًا، بالنسبة إلى تجسيم الصوت، أن تحسب بدقة أماكن مكبرات الصوت المختلفة.

ج. أساس الدلالة

لا يستخدم السمع فقط للتوجيه ولكنه الوسيلة الأولى التي يستخدمها الناس للتواصل فيما بينهم تواصلًا كلاميًا، بدءًا بالصراخ والهتاف (تقليد الأصوات الطبيعية) وصولًا إلى الشعر المنظوم، وتواصلًا غير كلامي يتراوح بين الضجيج الذي يستخدم كإشارات (صدى الجرس) والموسيقى. يتمتع التواصل الصوتي بهذا الاتساع العجيب بفضل المرونة القصوى لمرتكزاته. وبدمجنا التكرار والسعة والحقبة الزمنية نحصل على مرتكزات مادية صالحة لتشكيل نماذج تستخدم أساسًا للدلالة. وطبقًا لهذا المثلث ركيزة - نموذج - دلالة، تتمتع النماذج والدلالات بحرية عظيمة بالنسبة إلى الركائز المادية (الصوت، الضغط في الأذن الداخلية، النموذج الإيقاعي والشكلي في العملية العصبية).

الانفعال الموسيقي مؤسس على تفهم الموسيقى الذي يستخدم مثالًا لأساس دلالة الظاهرة السمعية. يمثل الصوت المعزول فروقًا في الايقاع والارتفاع. تعدل كل آلة موسيقية مواصفات الصوت بفضل التوافقيات والإبداءات (كان موزار يسمي «كمانًا مسمّنًا» الآلة الموسيقية المفضلة بسبب لون نغمتها).

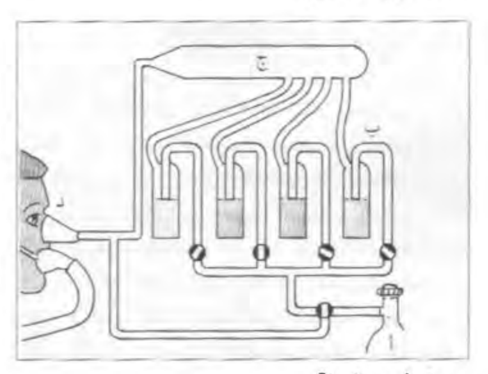
تعبر الكثافة الصوتية عن الانطباع الناشئ عن الضغط أو عن تشتت الصوت؛ يعبر التألق عن صيحة الصوت أو عدم رنينه. ويجب أخيرًا توضيح التناغم على أنه مزيج مرتبط بكون خصائص لون النغمة المنوه بها هنا هي ممزوجة بدرجات متفاوتة. لكن تكامل هذه الخصائص المختلفة ليس سوى الشرط المسبق لفهم الموسيقى. يتولّد الانفعال الموسيقي الحقيقي من تحوّل النماذج إلى انفعال مرتبط بالدلالة. ويرتبط بالدلالة، كما تشير حركات قائد الأوركسترا، تمثيلٌ مكاني متزامن حسيًا وخيالي. يتيح هذا التمثيل إعطاء صورة حسية عن البنية العاطفية والإدراكية التي يتجاوز غناها، كونه تعبيرًا غير كلامي، إلى مدى بعيد، إمكانيات التمثيل الكلامي للمعطيات النفسية. ويستخدم لهذه الغاية اللحن والتوافق، دون أن ننسى الإيقاع (وخاصة التمثيل النوعي للطاقة النفسية).



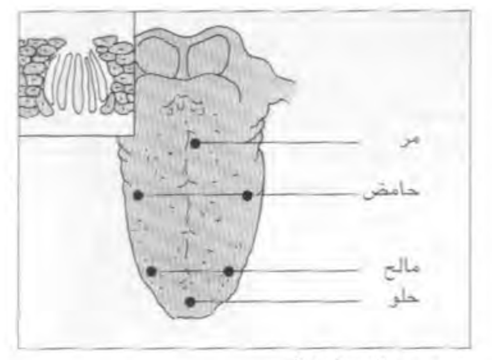
أ١ تجويف الأنف

أ٢ المخاطية الشميّة

أ. مستقبلات شميّة



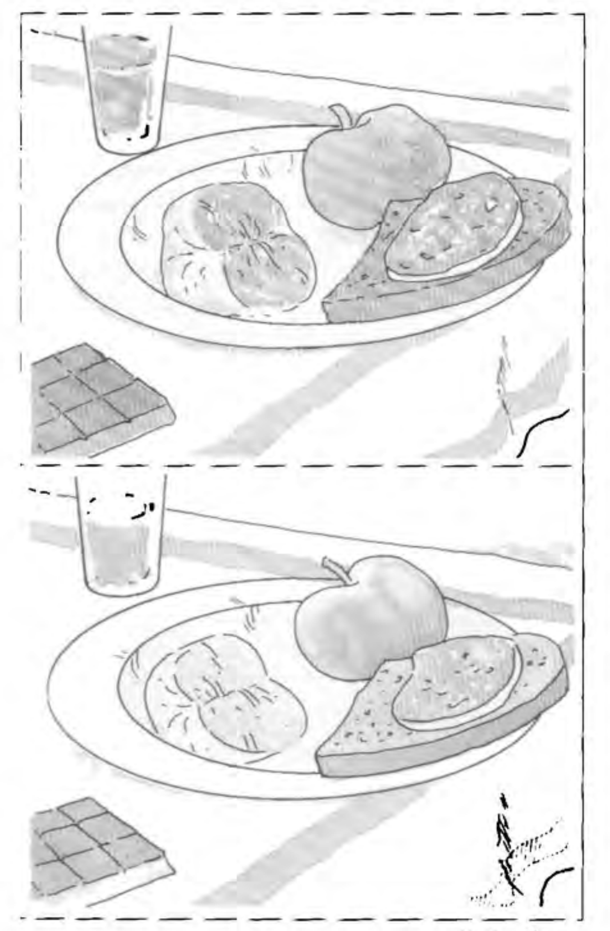
ب. تجارب شميّة



د. مستقبلات ذوقية

نوع	مادة أولية	تعبير
شرقي	عنبر، صندل	حار، شهواني
آسيوي	بتشولي	قوي النكهة جاف
أزهار	ورد، ليلك، ياقوتية	أنيق، أنثوي
خنشار	سرخسيات، خزامي	حيوي، رياضي
توابل	سوسن، ياسمين، توابل	دخيل، باهظ الثمن
شجري	أرز، خشب صندل	نشيط، رجولي
حمضيات	حمضيات، برغموت	بارد، أنيق
ماء	حامض، حزاز	نضر، مثير

ج. أصل العطور



هـ. تأثير الغذاء

كانت الدراسات العلمية حول حاستي الشم والذوق أقل منها حول حاسة السمع. وبخلاف حاسة السمع التي تجد أصولها في حساسية آلية فإن طبيعة الشم والذوق وطاقتهما المثيرة هي حساسية كيميائية.

أ. المستقبلات الشميّة

(أ١) يشكل التجويف الأنفي طُنُفًا شبه منحرف يقسمه الحاجز الأنفي إلى منخرين مقسّمين بدورهما إلى أربع قنوات بواسطة ثلاثة قرينات. هذه المجازات الضيقة تسخن الهواء.

في عملية التنفس البسيطة تمتاز القناة السفلى، فعندما نتنشق الهواء تتولد فيها دوامات هوائية تحمل ذرّاتُ الرائحة، إلى مناطق عالية، النسيجَ الشمي. وحالما يخف تدفق الهواء، وخاصة في المناطق العليا، يجف الإحساس الشمي.

(أ٢) يتألف الغشاء المخاطي من خلايا شمية وخلايا أساسيةٍ على شكل عُصَيّات تشكل من الجهة الخارجية شبكة طرفيةً تنطلق منها نتوءات شميّةٌ كثيرة الأهداب.

ب. تجارب شَميّة

يستخدم، لاختبار الانطباعات الشمية، مقياس شمي خلّاط.

بفضل ضغط وسيط محايد (بخار) منطلق من قنينة «أ»، تمر المواد العطرية المعينة في خلّاطة «ب» قبل أن تصل إلى جهاز مزج «ج» ثم إلى منشَق «د» حيث يتنشقه الشخص الخاضع للاختبار، يُفرَغ الهواءُ المزفور جانبًا.

واللافت في هذه التجربة الفرق في الوقت الذي تستغرقه المادة المعطرة لتصل إلى النسيج الشمي ولتثير إحساسًا شميًا. لا تحتفظ الروائح بحدتها مدة طويلة (الجبن ٥–٨ دقائق)، وبسبب ذلك يمتد التعود جزئيًا إلى روائح أخرى مشابهة. ومن ناحية أخرى يمكن الاحتفاظ بالروائح طويلًا «في الأنف». ولا تعرف جيدًا حتى الآن الخصائص الفيزيائية أو الكيميائية التي تحدد رائحة المواد. حجم الذرّة، أو شكلها، ذوبانها في الماء، إشعاع ما دون الأحمر أو خصائص كهربائية (مغنطية حديدية)، تلك هي بعض العوامل التي يدور النقاش حولها حاليًا.

تأتي دلائل الحدة والنوعية، بالنسبة إلى علم النفس، في الدرجة الأولى. مسائل الحِدّة: أين تبدأ الروائح وأين تنتهي (العتبات المطلقة)، كيف نميزها (العتبات التمييزية)، كيف تتغير الروائح عندما نشمها باستمرار (انتقال تكيفي للعتبات)، وفي أية ظروف، مثلًا، وعلى من نشعر بها (عتبات انعكاسية)؟

ج. أصل العطور

تستخدم حاسّة الشم أولًا للتحذير وللإغراء ولكنها لا تتيح سوى موضعة تقريبيّة لمصادر الإثارة الحسيّة. تتمثل وظيفتا التحذير والإغراء «بالنتانة» و«بالعطور».

وقد طالما استعمل، لتوصيف الروائح، الموشور الشمي (**هنينغ**) ذو القِيَم العطرية الست (النضر، النتن، القوي النكهة، المفوّه، الشائط، الصمغي) التي أضيف إليها فيما بعد أنواع أساسية.

واستخدم العطارون طرقا أخرى في مجال علم نفس العطور. وبعد أن وضعوا جانبًا وظيفة التحذير درسوا مختلف وظائف الإغراء وتوصلوا إلى إيجاد «سلالة للعطور» تستخدم مرجعًا لصناعة العطور الفرنسية (جدول ج)

ترتكز هذه السلسلة على «تعبير» العطور الذي يأتلف تزامنيًا مع الألوان التي تعطى لها.

د. مستقبلات ذوقيّة

الرائحة والذوق لا ينفصلان. نشم الروائح عندما نأكل، وبالمقابل تتصاعد مثيرات ذوقية أيضًا من الحنجرة. تتركز أعضاء التذوق الأساسية في مناطق الحُليمات المجهزة بما بين ٣ و١٥٠ حُلَيمة ذوقية (شكل د في الأعلى وإلى اليسار). يمكن أن نميز على اللسان بعض المناطق المخصصة بالطعوم: مر، حامض، مالح وحلو.

يتناسب هذا التقسيم مع تآلف حاستي الذوق والشم والاحساسات اللمسية (أملس، خشن، قاطع، حارق،..) ومع درجة اللعاب الذي يذيب الأطعمة ومع الحالة العضوية للحظة القائمة (جوع، عطش...) وأخيرًا مع منظر الطعام: العين «تلتهم» أيضًا. والذوق هو أيضًا قضية ذاتية.

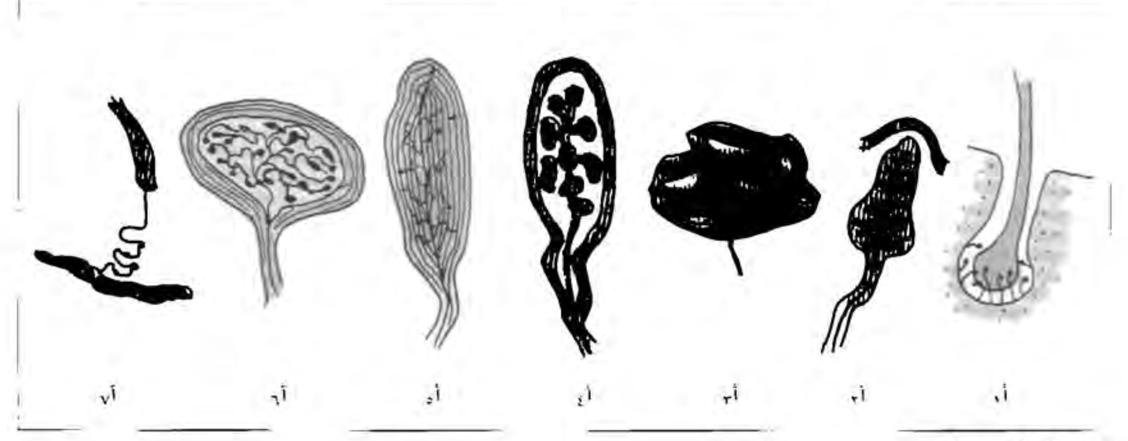
هـ. تأثير الغذاء

إن تنسيق الشروط الأساسية لابتلاع الطعام يشكل تمييز الطعوم.

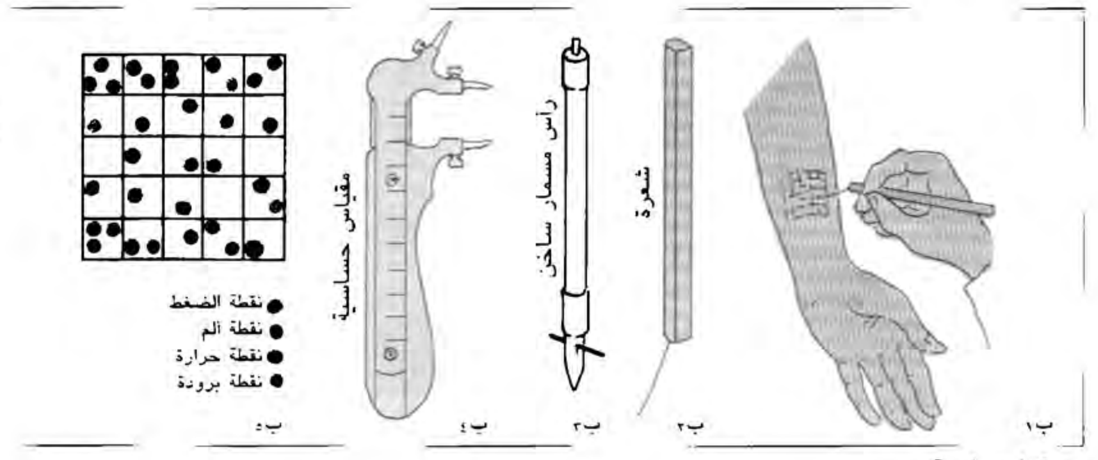
لقد برهنت التجارب الأولى، التي قام بها **بافلوف** حول التدرّب، على القِسْم المكتسب:

يسيل لعاب الحيوان قبل أن يصل الطعام إلى حليمات الذوق، وبعد عدة تجارب يبدأ لعابه بالسيلان حال ظهور سائسه (الارتكاس الشرطي).

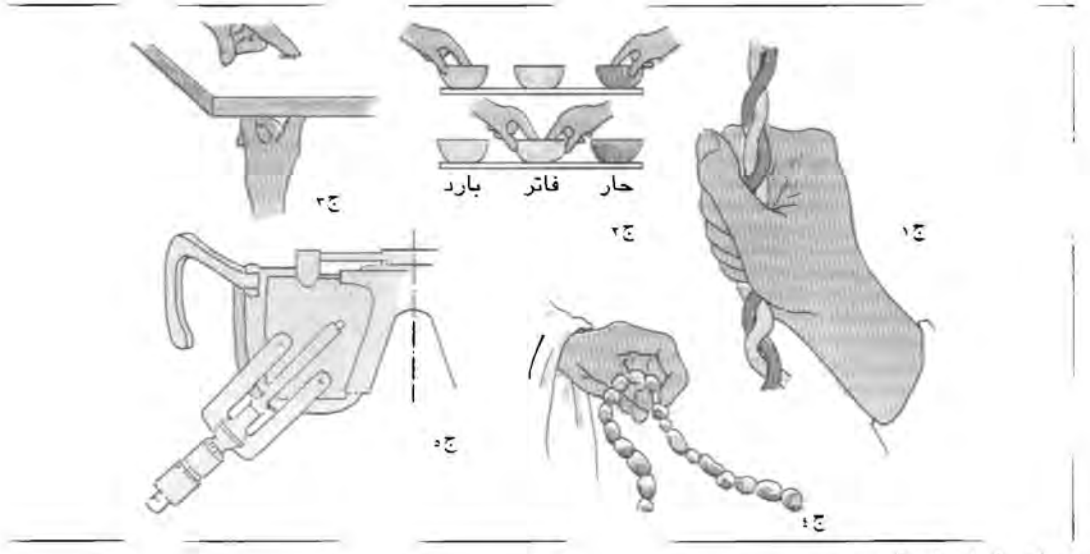
إن ما نسميه نكهة الطعام مشروط بحال معقدة للطعام مؤلفة من مقومات فطرية ومكتسبة بالتدرب وإدراكية. إن اختبارنا لهذا النوع أو ذاك من الطعوم يرتبط بمواقف ذاتية أكثر منه بالإحساسات الواقعية. إن النفور العام من الأطعمة الزرقاء هو دليل على ذلك (شكل هـ).



أ. مستقبلات لمسية



ب. تجارب لمسية



ج. إحساسات لمسية

لدراسة الادراك اللمسي تاريخ طويل. وقد أشار **أرسطو** إلى أنه ليس للحاسة «الخامسة» عضو وحيد. لقد اكتشف وهم اللمس الذي خلع عليه اسمه: إذا صلبنا الإصبعين الوسطى والسبابة ووضعنا بينهما كلة نشعر (شرط ألا ننظر) بأننا نمسك بكلتين. كانت تبذل جهود متواصلة حتى القرن التاسع عشر للتمييز بين العمليات اللمسية: فَصَل **بل** (١٨٣٠) بين إحساس الحرارة وإحساس البرودة و**بليكس** (١٨٨٣) بين الضغط والألم.

أ. مستَقْبِلات لمسية

الجلد يحذِّر الجسم. وهو مجهّز، لهذه الغاية (خارج المستقبلات العضلية)، بسبع خلايا حِسِّية خاصّة نسبيًا:

(أ١) جُريب شَعَري (لمس وضغط/سحب)
(أ٢) جُسيمات **ميسنر** (لمس، جسيمات **مركل ودوجيل**)
(أ٣) أطراف عصبية طليقة (ألم)
(أ٤) جُسيمات **كولجي - ماتسوني** (ضغط)
(أ٥) جُسيمات **ڤاتِرْ - پاسيني** (ضغط العمق)
(أ٦) جُسيمات **كروز** المستديرة (برودة)
(أ٧) أعضاء **روفيني** الطرفية (حرارة)

ليست أعضاء اللمس متفاوتة التوزيع فقط على سطح الجلد (أنظر لاحقًا) ولكنها تنفعل أيضًا بشكل مختلف. للحصول على إحساس لمسي (العتبة المطلقة) يلزم ضغط غرامين بالسنتيمتر المربع على الأنف، و١٢ غرام/سم٢ على قفا اليدو ٣٣ غرام/سم٢ على الساعد.

ب. تجارب لمسية

إذا ضغطنا قلمين الواحد بالآخر ووضعناهما (دون أن ننظر) على أنملة إصبع نحس بنقطتي ضغط في حين أننا لا نشعر إلا بنقطة واحدة على ظهر اليد. إن الطاقة التمييزية (العتبة التمييزية) تتأثر بعدد المستقبلات الجلدية.

لإجراء تجربة على اللمس نضع دمغة برسمنا مشبكًا دقيقًا على قسم من الجلد (ب١). ونمارس على هذا المشبك عددًا معينًا من روائز الإثارة بواسطة المثيرات الأساسية: شعرة (ب٢)، رأس مسمار ساخن (ب٣) ومقياس حساسية (ب٤).

مقياس الحساسية هو نوع من مزلاج (يستخدم الرأس الثالث من وقت إلى آخر ليسبب إثارة متوسطة برأس واحد لإزالة كل خطأ في التأويل). لتمييز نقطتي إثارة، يجب احترام المجالات الدنيا التالية: ٢,٣ مم للطرف الداخلي من الأصبع، ١١,٣ مم لراحة اليد، ١٦ مم لباطن القدم، ٥٤ مم للقذال (قفا الرقبة)، ٦٧,١ مم للظهر.

٢٥٠٠٠٠ نقطة حرارة و٣٠٠٠٠ نقطة برودة موزعة بالتساوي على صفحة الجلد. ولكن يوجد أجزاء من الجسم (مثل بعض الأماكن عند مدخل الأنف) ليس فيها أية نقطة برودة، وأجزاء أخرى (مثل مواضع من الركبة) فيها فقط نقاط برودة.

تتوزع المستقبلات اللمسية، كما يشير إلى ذلك المشبك (ب٥)، بالتساوي على الساعد.

ج. إحساسات لمسية

إذا صببنا ماءً باردًا وماءً ساخنًا في أنبوبين مضفورين تشعر اليد التي تقبض عليهما بالحرارة (ج١). وفي هذه الحال لم يحدث تمييز أو مفاضلة. تعطي إحساسات قصوى بالحرارة والبرودة انطباعات «حارقة» مركبة. والانتقال من الاحساس بالبرودة إلى الاحساس بالحرارة، وبالعكس، يرتبط بالحرارة الخاصة بمحيط المستقبلات. إذا كانت هذه الحرارة ٣٣° مئوية تستقر عتبة الحرارة بين ٣٤,٥° و٣٦° وعتبة البرودة بين ٣٢° و٣٠,٥°.

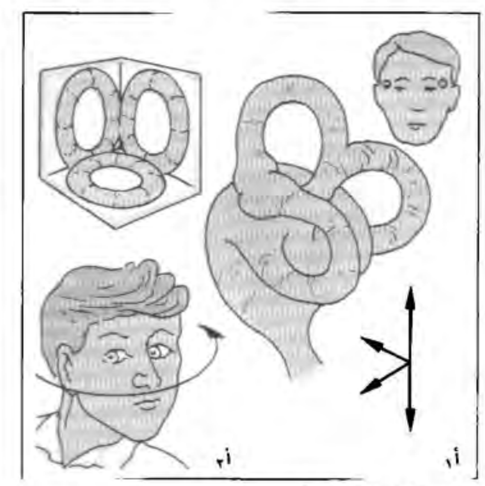
تتيح تجربة القِصاع (ج٢) الاحساس بتغيير درجة الحرارة. إذا تركنا إحدى يدينا لمدة ٢٠ ثانية في ماء بارد واليد الأخرى في ماء حار، ثم غطسنا يدينا الاثنتين في ماء فاتر (نحو ٣٠° مئوية) نشعر بالحرارة باليد الأولى وبالبرودة باليد الثانية.

ونصادف ظواهر مماثلة مع مثيرات ضاغطة. نُحْدِث، بأجهزة ذات رافعات تطلق هذه المثيرات، ضغوطًا تتراوح بين اللامحسوس وعتبة الألم. وتبرهن تجربة على أن مثيرًا آخر يمكنه أن يعدل في نوعية المثير الأول: إذا عزل هذا (الأول) يحدث انطباع وضوح ومضاء، ولكن إذا دمج بالثاني يبدو أصمّ غامضًا.

تكون هذه الظواهر أقوى عندما تكون المثيرات أشد تعقيدًا ولها إحساس حسي أكثر امتدادًا وتعطي إحساسًا بأنها هشة أو صلبة، خشنة أو ملساء، قاسية أو رخوة. يمكن أن تبدل تقلبات الحرارة هذه الصفات فتبدو مساحات ملساء وكأنها أكثر خشونة عند ارتفاع الحرارة.

إن الادراك البصري مهم بالنسبة إلى الاحساسات اللمسية لأن حقلي الادراك هذين لا يعملان منفصلين. تستخدم في تجارب لمسية على أماكن متقابلة، نظارات قاتمة ذات فتحة تتسع تدريجًا (ج٥) لاختبار الملامسة في الظلمة حتى النور: وهكذا تتحقق شيئًا فشيئًا إحساسات لمسية مهتزة.

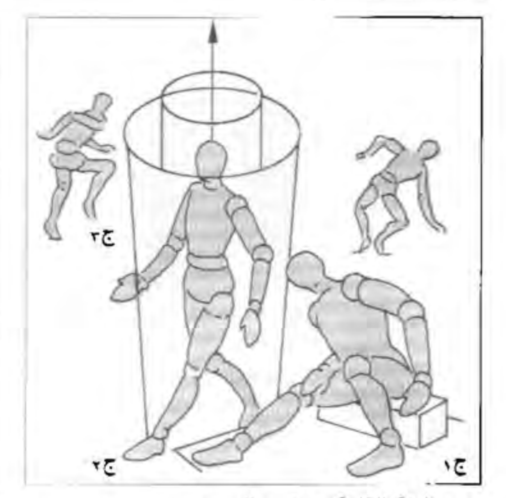
وبمقابل عدم الدقة النسبية للاحساسات اللمسية تبدو وظيفتها الانفعالية أساسية. فالملاطفات تعبير عن اتصال اجتماعي وهي في خدمة الإثارة الجسدية. ويمكن أن تكون ظاهرة نرجسية، وهذا ما تظهره السبحات العديدة، المؤلفة أحيانًا من حجارة كريمة (ج٤) والتي تستخدم في الشرق تسلية للأنامل.



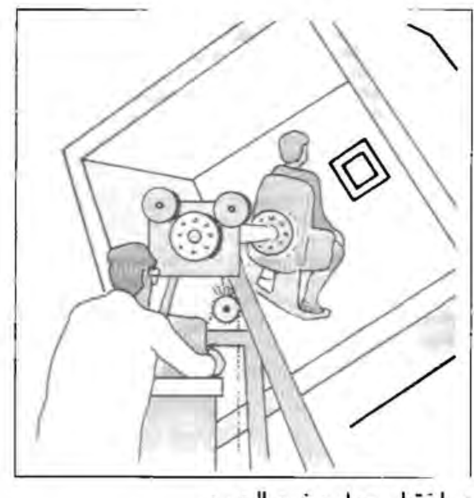
أ. مستقبل الوضعية

ب١
ب٢

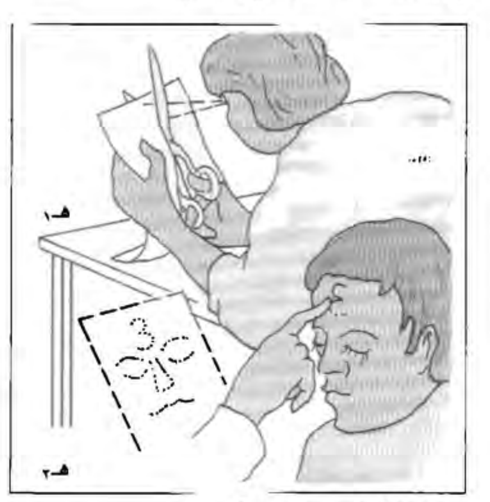
ب. مستقبلات عضلية



ج. وظيفة القامة ووضع الجسم



د. اختبار حول وضع الجسم



هـ تجربة الجسم المعيشة



و. اختبارات التوجّه

نفهم بالادراك، عادةً، اتصالَ الحواسّ بالخارج. لكن للجسم إمكانات إدراك حالته الخاصة.

أ. مستقبل الوضعية

إن مستقبل الوضعية الأهم هو عضو التوازن (جهاز دهليزي) في الاذن الوسطى. أجزاؤه الأساسية (أ١) هي:

ثلاث أقنية نصف دائرية، وصلاتها الأساسية (أنابيب) وكيس مزدوج مستطيل الشكل (قُربيّة، كُييس). وهي تحتوي على سائل مائي: الليمفاتية.

تحتوي هذه الوحدات الخمس نوعين من الأهداب تنقل، كما في الاذن الداخلية، الحركات الآلية إلى الألياف العصبية.

تمر الدفقات الكهربائية لهذه الألياف عبر جذع الدماغ لتصل إلى مناطق مختلفة من المخ والمخيخ.

يحاول عضو التوازن أن يعادل بين آثار الحركات العنيفة.

عند حركة سريعة من الرأس تتجّه العينان إلى الجهة المقابلة (أ٢).

تسبب لعبة الخيل الخشبية وركوب بحر مضطرب صُداعًا وتقيّؤًا.

وفي حالة انعدام الجاذبية (رواد الفضاء)، يضطرب التوازن ويجب أن يعوض.

ب. مستقبلات عضلية

تقيس المستقبلاتُ العضلية والمفصلية درجةَ امتداد العضلات المخططة والمفاصلَ وانثناءاتها.

في غلاف المغازل العضلية أليافٌ عضلية دقيقة متصلة بقطبي المغزل (ب١). تحدد حالةَ تقلصها أليافٌ دقيقة لأعصاب الحركة.

وحول الألياف العضلية تلتفّ أليافٌ عصبية حلزونية الشكل. تنقل النبضات العصبية إلى المخيخ والمناطق القشرية الحسّاسة. وهكذا نستطيع في الظلمة أو عند إغماض العينين أن نتعرف إلى اتجاه حركة الأعضاء (ب٢).

نملك أيضًا، إلى جانب هذه الاحساسات المسمّاة إحساسات التقبل الذاتي، إحساسات بدنية تستجيب للعوامل الخارجية (تنقل الاحساسات الجلدية الخارجية) وإحساسات تستجيب للعوامل الداخلية (تقدم معلومات صادرة عن داخل الجسم).

ج. وظيفة القامة ووضع الجسم

يفرض الجمودُ والسيرُ مهمّةً محسوسة معقدة، كل وضعية ضرورية ترسل معلومة لتعديل سلسلة الحركات في حال الضرورة. نميز بين ردات الفعل المحلية (وضع العينين) والجزئية (وضع العينين والعنق) والعامة (مثل: معلومات مرتجعة أثناء القفز).

يمكن أن نكوّن فكرةً بسيطة عن تنوع العمليات التي يجب على الجسم أن ينفذّها لينهض أو ليتحرك، مثلًا، كتعديل أوضاع المثال الذي يستخدمه الرسامون.

يقوم الجنين بهذه الحركات في أحشاء أمه. وعند الولادة يكون قد اكتسب حيوية تتكيف فيما بعد بالتدريب وردات الفعل على الحوادث... وأيضًا بانتكاسات ناشئة عن العمر. يمكن لوضعيات الجسم الحالية أن تستخدم كتشخيص تعبيري.

د. اختبار حول أوضاع الجسم

إلى اليسار وإلى اليمين، أمام ووراء، فوق وتحت، تشكل هذه الإحداثيات مادة امتحان مستمر من قبل أعضاء التوازن. ماذا يحدث عندما تكون معلومة أو أكثر عن وضعية الجسم غير «صحيحة»؟

نستطيع بواسطة جهاز تصحيح الوضعية (شكل د)، ١) احناء المدى المحيط، ٢) إمالة الشخص مع مقعده، ٣) تنفيذ عمليتي انقلاب معًا.

إذا أَمَلْنا الغرفة ينتج عن ذلك فرق بين الانطباع البصري للغرفة وتوجه المستقبلات طبقًا للجاذبية: فيجد الشخص نفسه مبلبلًا فاقد التوازن.

وإذا لم نعدل سوى المقعد، نتوصل إلى وضع عادي تدمجه مستقبلات الوضع في حساباتها.

تشير هذه الاختبارات إلى فائدة توافق المعلومات المختلفة التي تعني إحساس وضع الجسم.

وفي حالة السُكْر: يتوقف جهاز التوازن الداخلي عن العمل فيبدو المكان وكأنه يتحرك.

هـ. تجربة الجسم المعيشة.

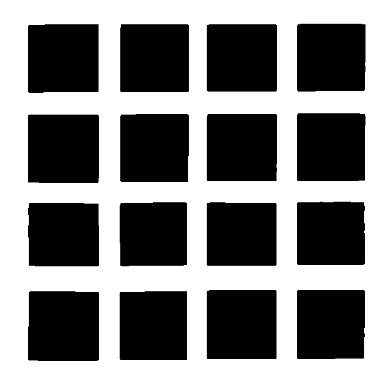
لا تتوقف العلاقات العضوية بالجسم (إلى جانب تماثلها مع الجسم نفسه (١٣/١٣ب) عند حدود الجلد. لا أحد ينتبه إلى نشاط أصابعه عندما يكتب، ومن يقصّ ينتبه إلى حيث يقطع المقص الورقة (هـ١). يتمتع جسمنا «بنطاق جسماني»:

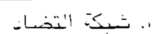
عندما نستخدم عصا لنختبر صلابة تربة موحلة «نحس» الوحل كأنما نستعمل أصابعنا لذلك.

إذا رسمنا حرفا (ε) على جبهة شخص مغمض العينين، يحدد أكثر الناس نوعية هذا الحرف انطلاقًا من «رؤية داخلية». وعند تعداد الألفباء اليونانية يعرف هذا الحرف على أنه إبسلون (هـ٢).

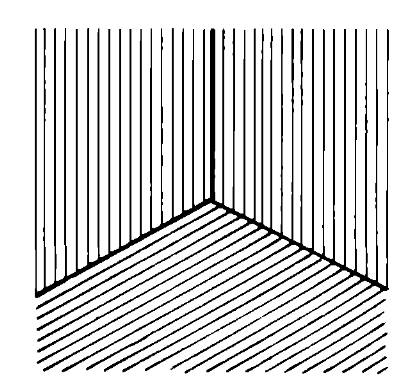
و. اختبارات التوجه

إن إحدى أصعب مهمّات الإدراك الجسماني تقوم على تحديد تغير الاتجاه دون مراقبة البصر. كل شخص يتيه في غابة يميل إلى التوجه نحو اليسار.

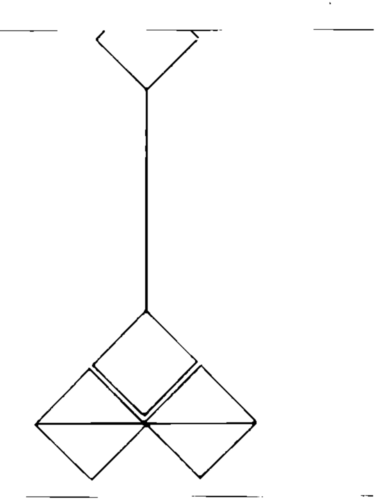




أ. شبكة التضاد

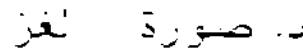


ب. زوايا المكعبات

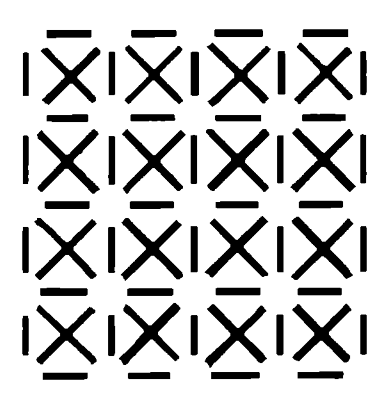


ج. خداع الارتفاع

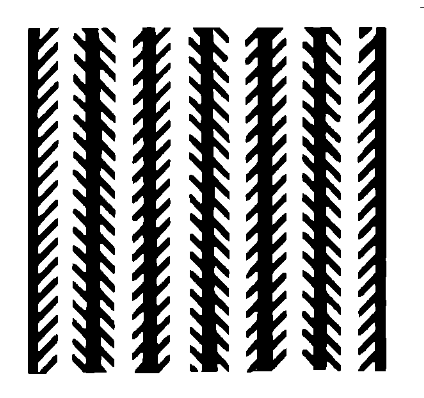




د. صورة اللغز



هـ. آثار **إهرنشتاين**



و. خداع **زولنر**

يؤكد **أفلاطون**، في أسطورة الكهف الشهيرة، أننا نرى العالم وكأننا مقيدون في كهف تنعكس على جداره ظلال الملأ الأعلى فقط، وأننا إذا رأينا الأشياء على حقيقتها ننبهر ونفقد النظر ولا نصدّق شيئًا.

من الواضح أن حواسّنا لا تعكس العالم بأمانة كلية. عتبات الادراك تعيقنا، والعتبات التمييزية لا توجهنا التوجيه الكافي وتخدعنا سلسلة من أوهام الحس. لكننا نرى في التطور مبدأ ثابتًا يرينا العالم كما نحن بحاجة إليه لكي نتكيّف معه ونسيطر عليه: ألا وهو مبدأ الإسهاب.

يطبق هذا المبدأ على الادراك فيعني أن الظاهرة نفسها تنقل إلينا عدة مرات، منها في المجال الحسي ذاته، إلى درجة أن هذا «الاعلام الوفير» (الجزئي) يتيح لنا أن نجري مقارنات.

أ. شبكة التضاد

إن التضاد (فصل ٦/٦) هو شكل غني بالتصحيح الادراكي. فهو يتيح، بشكل خاص، رسم المساحات التخميّة، ويمكن أن يخدعنا كذلك بأن يجعلنا نرى أشياء غير موجودة.

تحدث شبكة التضاد خداع تضاد ثانوي.

إذا نظرنا إلى الفسحة المتوسطة نرى بقعًا قاتمة على نقاط التصالب البيض باستثناء الفسحة التي نحدق فيها (**إ. هيرنغ**).

ويمكن أن نتأكد من الظاهرة بنقل نظرنا إلى نقطة أخرى. ونصادف ظواهر تضاد مشابهة على فسحة رمادية: إذ تظهر مزرقّة قليلًا على أرضية حمراء وقليلة الاحمرار على أرضية خضراء.

ب. زوايا المكعبات

إذا نظرنا فقط إلى مخطط مكعب أو كما نرى هنا إحدى زواياه: فلا تكفي المعلومات البصرية لنعرف ما إذا كنا نراه من أسفل (حين ذاك نرى ضلعه الأسفل) أو نراه من أعلى (فنرى عند ذلك داخل المكعب). بقليل من التدرب يمكن أن ننتقل، إذا شئنا، من قراءة إلى أخرى أو بالعكس. وهذا دليل على «أن الجوانب التصورية تنزلق دائمًا في الادراك (**ل. أ. س. نيكر**).

ج. خداع الارتفاع

يبدو الخط الأفقي أقصر من الخط العمودي: وإذا قسناهما نجد انهما متساويان طولًا. يراعى خداع الارتفاع (**بيينيش**) بنوع خاص عند تقييم ارتفاع الأبنية والأبراج. ينشأ هذا الخطأ عن أوهام المنظور وعن الوضع المستعرض لعينينا: لسنا في أوضاع منظورية واحدة بالنسبة إلى الأبعاد الجانبية والعمودية.

د. صورة - لغز

من السهل، نوعًا ما، في هذه الصورة اللغز (شكل د)، أن نرى صورة الدب بين الأشجار. ترسم هذه الصور عمدًا انطلاقًا من الشكل الذي يراد تمويهه (و هو عادة صعب الاكتشاف).

وينعكس السياق عند تخيل أشكال في تشكلات ضبابية أو في عقد جذور الأشجار. يستخدم التشخيص النفسي (٥/١٩) حرية الاختيار هذه لصنع روائز إسقاطية.

هـ. آثار إهرنشتاين

تبدو التصالبات الناقصة وسط الخطوط الشعاعية كدوائر لاصقة بالرسم. نجد عدة متغيّرات في خداع التضاد السطحي: مع الخطوط المنحرفة أو كخداع إحساسي شبه منحرفي. (**و. إهرنشتاين**).

و. خداع زولنر

تعدِّل الدرجاتُ الجانبية الصغرى انحناءَ المتوازيات. وإذا نظرنا إلى هذه المتوازيات من زاوية حادّة يتعاظم الانحناء. وإذا نظرنا من أسفل وبانحراف تستقيم الموازاة. يُظهِر هذا الخداعُ، بوضوح، التفاعليةَ الاحساسية للأجزاء المعزولة من الصورة، تفاعلية نراها أيضًا بالنسبة إلى الألوان.

يوجد، إلى جانب مظاهر الخداع هذه، «دفاع إدراكي» (**برونر، بوستمان**)، ترافقه معيقات التصور:

عندما تصادف موضوعات الإدراك رفضًا أو عدم اكتراث من الشخص المدرك، يلزم الكثير من الوقت لتصور الموضوع ويكون معدل أخطاء تحديد الموضوع أعلى بكثير.

وكما هي الحال بالنسبة إلى نظرية كشف الرموز يفسر فساد الادراك بواسطة شروط ملحقة.

أدخل علم نفس الإدراك الجديد تقسيمًا فرعيًا مميزًا بين العوامل الحسية وعوامل التأثير. فهو، من جهة، يهتم خاصة بتحويل المثيرات (الطبيعية) إلى إثارات (فيزيولوجية) ويردها إلى تجارب (نفسية) العالَمَين الخارجي والداخلي التي يعيشها الشخص. ومن جهة أخرى يهتم بعوامل التأثير (٦/١، د٣) الموزعة إلى خمس فئات:

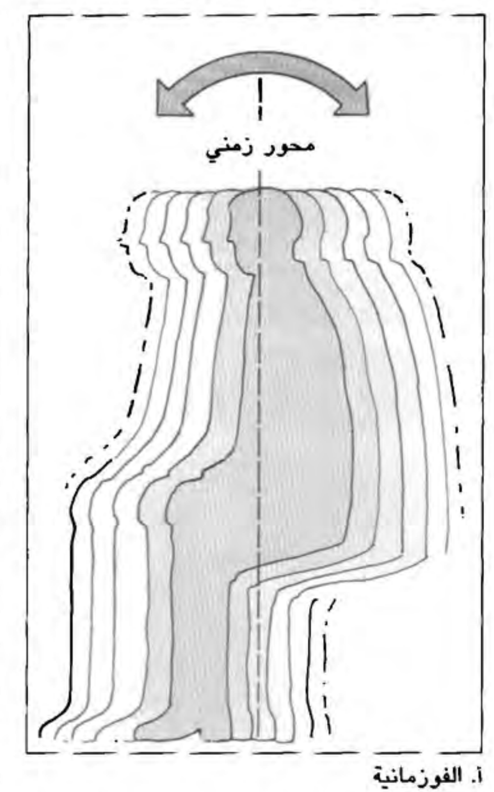
توليف الانفعالات الواردة (التكامل المتبادل بين النظر واللمس، مثلًا)،

الدافع (يرى الجائع غالبًا أشياء تؤكل)،

التنشيط (الهدف الملحوظ للنشاط يفرض نفسه تلقائيًا)،

الإظهار (تجاه أشكال لا يمكن تأويلها بطرق مختلفة، يمكن أن نفضل اعتباطيًا هذه القراءة أو تلك)،

التقييم بواسطة النماذج (الفصول التالية).



أ. الفوزمانية

ب. ترسيخ (ترميز)



ج. الحفظ (الانحباس)



د. التذكّر (الاستدعاء)

تحمل كلمة «ذاكرة» على الظن أن دماغنا يحتوي خزانة خاصّة تحفظ فيها المعطيات الهامة. يرتكب علماء النفس هذا الخطأ باستعارتهم من تكنولوجيا الحاسوب مفهوم التخزين. والحال أن ذاكرتنا ليست عنصرًا سلبيًا مطواعًا في جهاز يظل ساكنًا حتى يعطى إشارة الانطلاق.

فالذاكرة هي بالأحرى تسمية شاملة للوظائف التي تعود بمجملها إلى الحياة النفسية وأهم هذه الوظائف أربع هي:
الفَوْزَمانية، ترسيخ المعلومات، حفظها واستعادتها أو تذكرها.

أ. الفَوْزَمانية (تعدّي الزمان)

تنتمي الحياة النفسية إلى الزمانية. فالدودة المسطحة لا تستجيب فقط للاثارة المباشرة ولكنها تفيد من استثارات سابقة. والكلب يتذكر العظمة التي دفنها في التراب، والقرود تتعرف إلى الأشياء.

يحفظ دماغ الانسان ويعالج باستمرار مجموعة من المعارف والأحداث. فلولا هذه الملكة لاستحال علينا أن نقرأ جملة، أن نستخدم المطرقة، أن نركض، أن نمتطي دراجة أو أن نتحدث مع آخرين. إن تجربة الأحداث الماضية وتجارب الأجيال السابقة كلها تدخل في سياقات الحياة النفسية جميعها.

إن عبارات مثل ذكَرَ، تذكّر، استَذْكَر، استحضر، تمثّل، استظهر، استعاد ذكرى أو خطر في البال، تشير إلى مسافة زمنية بالنسبة إلى الحاضر المحدد زمنيًا.

هذا التحرر من القيد الزمني ينطبق أيضًا على المستقبل. فعندما نريد أن نقص ورقة مثلًا، أفلا نستخدم كل التجربة المكتسبة حتى الآن في قص الورق لتصميمِ ما سنقوم به في المستقبل القريب.

تَبْسُط الفوزمانية (شكل أ) الحياة النفسية على المحورين الزمانيين الماضي والحاضر. وكلما كانت الذاكرة قوية يكون التصميم للمستقبل أفضل. ولهذه الأسباب يشكل البحث عن طاقة الذاكرة إحدى المهامّ الأساسية لعلم النفس.

تكمن الصعوبة، أولًا، في التفرعات المتشابكة لهذه الذاكرات المتعدِّدة. للانسان الذكي ذاكرة قوية. بيد أن عددًا لا يستهان به من الناس الأذكياء يشكون نقصًا جزئيًا في ذاكرتهم، كنسيان الأسماء أو الأرقام أو الوجوه. وأكثر من ذلك، فإن أحدًا لا يتمتع بذاكرة مستقرة ثابتة. لقد عرف كل منا تلكؤًا في ذاكرته في حالات الإرهاق والنعاس وتحت تأثير الحُمّى. فدواء اليوروميسين puromycine المضاد الحيوي يقلل طاقة الذاكرة على ترسيخ الأشياء. وعلى عكس ذلك فإن التنويم المغنطيسي ينشطها.

تخضع ذاكرتنا للأوضاع، للمحتويات المميزة، للتنشيط، للجو المحيط، للتدريب، للسياق الحسّي. ولذلك وبالرغم من الأبحاث المكثفة فإن علم نفس الذاكرة هو مجال دراسة لم يبلغ بعد درجة الكمال.

توزع وظائف الذاكرة الثلاث الأساسية تبعًا لتسلسل وظيفي:
الترسيخ، الحفظ، التذكُّر:
أو تبعًا لضدها، لظهور الاضطرابات:
الذهول (تحديد خاطئ مثلًا)،
فقدان الذاكرة (لدى الشيوخ بالنسبة إلى الأحداث القريبة)،
اضطرابات التذكر (صعوبة التذكر).

ب. الترسيخ (الترميز)

تستجيب وظيفة الترسيخ لمتطلبات مرتبطة بعصرنا.
فيما مضى، عندما كان قلة من الأفراد يجيدون القراءة والكتابة، كان الرواة ينشرون عُدّة المعارف الأساسية (الشكل ب).
تُكتَسب جملة التجارب الضرورية للحياة عن طريق المحاكاة.
إن معلومات الذاكرة التي تطلب من الأكثرية من بيننا والمواد المتعلَّمة تبدو في غاية الأهمية. وطريقة التسجيل الخاصّة تستغرق بعض الوقت لتتطور. وتكيّف الثورة الإلكترونية وسائلَ الترميز بطريقة متنامية. وسهولة الاستيعاب تنمّي مخزون الذاكرة.

ج. الحفظ (الانحباس)

إننا ندين **لهولدرلين** بهذا التأكيد الجريء: «إن ما يبقى إنما هو عمل الشعراء». بيد أن عملية خلق ما تبقى تقع على عاتق كل منا. لطالما قورنت ذاكرتنا بمكتبة داخلية (شكل ج). والحال أن هذه المقارنة غير ملائمة لأن مكتبتنا الدماغية تعمل غالبًا بشكل أفضل. فهي تحتوي على معرفة قابلة للتعديل.

د. التذكّر (الاستدعاء)

عند الامتحان لا تكون أسئلة الفاحص دائمًا لبقة، ما يضطر الطالب إلى أن يجد هو بنفسه الاستذكار الصحيح. قد يحدث في بعض الاحتفالات الصاخبة أن يصعب علينا فهم جارنا، ولكن إذا ذكر أحد من بعيد اسمنا فإننا نستجيب بسرعة.
كل ذاكرة قوية تمتلك نظام تنقيب يعمل جيدًا ويصل إلى الهدف مباشرة بعد أن يكون قد فتش في رفوف المكتبة الذهنية بفعالية وسرعة. فإذا فتشنا فيها مثلًا:

«عن كتاب ضخم أزرق وأبيض يحتوي في القسم الأخير وفي أعلى الصفحة إلى اليمين معلومة مهمة».

فأي مكتبي أو أي حاسوب يمكنه أن يجد الكتاب انطلاقًا من هذه المواصفات؟



أ. نظريات المصفاة



ب. نظريات التداعي

ج. نظريات الأطوار الثلاثة

إن معلوماتنا الفيزيولوجية عن أكثر العمليات النفسية واسعة جدًا. وتلك ليست حال الذاكرة. يُستخدَم الدماغ، على أساس الخلايا العصبية كمرتكز للذاكرة إلى حد ما. هذا يعني أن الذاكرة لا يمكن أن تكون على نسق واحد. فيجب أن نحسب حسابًا لمتغيراتها الكثيرة (**بينيش، بروكهاوس** ٢٠٠٠).

يفسّر تشابكُ هذا الوضع تكاثرَ النظريات حول الذاكرة لفهم التفرّعات المتنوعة لعملياتها الفعلية. لبسط التنوع الكبير لهذه النظريات وزّعناها على ثلاث مجموعات.

أ. نظريات المصفاة أو المنخل

عندما نسكب موادّ في منخل (شكل أ)، يسقط بعضها من خلال ثقوبه ويبقى البعض الآخر فيه.

أرسل **د. إ. برودبنت** بواسطة سماعتين، أعدادًا إلى شخص يقوم باختباره، عدد ٩٤٥ في السماعة اليسرى وعدد ٧٢٣ في السماعة اليمنى. وعند استعادة الأعداد حصل إما على ٩٤٥، ٧٢٣، أو ٧٢٣، ٩٤٥. وبالمقابل لم يلاحظ مطلقًا ٩٧٤، ٢٣٥ أو غيرها.

واُستُنتِج انطلاقًا من عدة اختبارات أن الذاكرة تتمتع بتنظيم دقيق. والفكرة الأساسية لهذه الفئة من الباحثين هـي:

لا يمكن السيطرة على تدفق المعطيات إلا اختيارًا.

يُعتقد في نظرية الزُّمَر (**تايلر**)، أنه من أجل تعيين كلمة، تثير بداية الكلمة زمرة من الكلمات لها بدايات متشابهة حتى تبقى الكلمة المطلوبة وحدها.

ب. نظريات التداعي

ترجع هذه الفئة من النظريات إلى عدة قرون ولكنّ لها حديثًا عددًا متزايدًا من الممثلين. ففي هذه النظرية تجمع الوقائع الحسية المنقولة، استنادًا إلى بعض المعايير، كما في بؤرة مرآة مقعرة مُحرِقة (شكل ب):

التشابه، التضاد، التجاور في الزمان والمكان، الترابط، كلها تزيد من فعالية الحفظ.

استنادًا إلى وجهات نظر حالية ينشِّط شكل بُنية (جشطلت) أو تعيين نموذج أو تكوين مخطط أو البنى المعرفية، عملَ الذاكرة.

لقد لوحظ أن كلمة زبدة تحدد بسرعة أكثر، إذا وردت بعد كلمة خبز مما إذا جاءت بعد كلمة حجر التي تضاهيها عدد أحرف.

دُسّ أثناءَ تجربة أسٌّ بستوني أحمر وتسعة كبا سوداء في لعبة ورق. فبحث عنهما المشاركون بلونهما الطبيعي.

يعتمد المشعوذون على التجربة المعيشة الراسخة في الذاكرة وعلى التوقعات المخططة.

ج. نظريات الأطوار الثلاثة

وصلت الأبحاث حول الذاكرة في الخمسينات من القرن الماضي (العشرين) إلى نتيجة معترف بها عالميًا وهي أن الذاكرة لا تعتبر شكلًا من وحدة مجزأة. وجرى تحول إلى التصورات المدعوة «متعددة المعايير»: تمر جميع المعلومات الواردة على التوالي أو آنيًا في «نقاط مراقبة» حيث تجري معالجات مختلفة تجعلها أهلًا لتُخزَّنَ في الذاكرة.

يُدقِّق في هذا التصور العام من ثلاثة أوجه متميزة:

- الوجه البنائي وعليه أن يوضح التنظيم الداخلي لتفصلات الذاكرة.
- الوجه الطاقي يتفحص الكميات المختلفة لكل تخزين في الذاكرة.
- الوجه الوظيفي ويدقق في استخدام المعايير.

يتضمن المبدأ العام للتنظيم ثلاثة مستودعات (ذاكرات) وثلاثة مراكز لمراقبة النقل وتمفصلات أخرى. تتشعب التعريفات ولا يشمل بعضها بعضًا تمامًا.

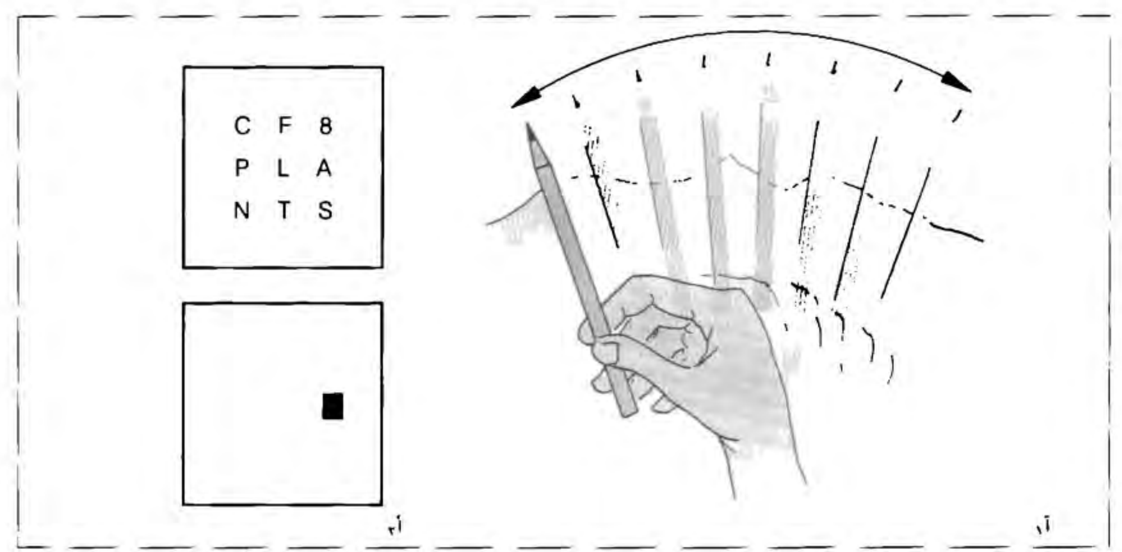
- المعيار الأول يسجل كثيرًا ولكن لا يحتفظ إلا بالقليل. الأسماء: سِطام حسي، ذاكرة قصيرة المدى، مخزون أيقوني وحدوي، سجل حسي (واقية الإثارة، **فرويد**).
- المعيار الثاني يحفظ لمدة أطول قليلًا، لكن طاقته ضعيفة. الأسماء: ذاكرة أولية، ذاكرة قصيرة المدى، حفظ مباشر.
- المعيار الثالث يحتفظ عمليًا إلى وقت غير محدود، وهو مليء بالمحتويات المنوعة وهي أصعب منالًا. الأسماء: ذاكرة ثانوية، ذاكرة طويلة المدى، مخزون دائم (وبطريقة معزولة: «ذاكرة ثالثية»).

تشير الأسهم إلى وجهة الدخول. يمكن للمعلومات أن تستعير الطريق المباشرة نحو مختلف المخزونات (ذاكرات)، أو الطريق غير المباشرة فتمر بمخزونات وسطى. تعمل نقاط المراقبة المتوسطة (المصفاة، عدسة جامعة) مع معايير نظريات المصفاة والتداعي.

يمثل الجهاز العاكس وظيفة «ما وراء الذاكرة» أو تقييمًا فرديًا لذاكرته الخاصة (٤/٧، و).

وفي أحسن الحالات تتسلسل جميع العناصر، أي أننا نملك ذاكرة تعمل على مراحل.

وذلك لا يناقض وجود مشاكل خاصة بالذاكرة، بالنسبة، مثلًا، إلى اللغة والشعور والفكر. يتمتع البعض بذاكرة بصرية أفضل بالنسبة إلى اللوحات الفنية مما هي بالنسبة إلى المخططات. تحاول نظرية تصوير النتوءات توضيح هذه الفروق. وبالمقارنة مع تصوير النتوءات في فيزياء النور (فصل ٦/٤) تقارن تقاطعات وظيفية زمانية مكانية، بعمليات الدماغ النفسية الفيزيولوجية.



أ. ذاكرة قصيرة المدى جدًا

ب١
ب٢
ب٣
ب٤

ب. ذاكرة قصيرة المدى

لا تنفصل الذاكرة عن سائر الحالات النفسية كما لا تنفصل المياه عن الموجة. لكن كيف نفرق بين مختلف أنواع الموج، من المويجة حتى الموجة الصاخبة؟ يمكننا أن نميز، فيما يخص استمرارية الذاكرة، بين ثلاث مراحل استنادًا إلى بعض الخصائص الأساسية، بالرغم من أنها جميعًا تتمثل بنقاط مشتركة.

أ. ذاكرة قصيرة المدى جدًا

(أ١) عندما ننظر إلى الفضاء ونحرك قلمًا بسرعة في اتجاهين متعاكسين أمام عينينا (والأفضل أمام عين واحدة) يذهب القلم ويجيء خاطًا ما يشبه الظل.

ولكي يظهر هذا الظل يجب أن يمر القلم أمام العين عشرين مرة على الأقل في خمس ثوان. وإذا تباطأت الحركة يتوارى الظل.

مدة الحركة المتتابعة هي في حدود ربع ثانية.

وتلاحظ مظاهر مماثلة في كثير من الحالات، مثلًا:

يمكن أن نعد دقات مجموعة من الأجراس بعد توقفها، بيد أن التجربة تبدو صعبة وملتبسة إذا قرعت اثنتي عشرة مرة.

وتعطي الظاهرة المسماة «ألوان الذاكرة» مثلًا مشابهًا.

إذا حركنا، أثناء تجربة، بواسطة مئفاق (فصل ١٠/٦) قلمًا أحمر تحريكًا بطيئًا على حافة الجهاز، يظل اللون الأحمر مرئيًا في حقل الرؤية الجانبي حيث لم تعد رؤية اللون ممكنة.

وإذا أبدلنا، وراء ورق كتيم، قلمًا أزرق بالقلم الأحمر وحركناه تدريجًا نحو وسط حقل الرؤية، يبقى أحمر، حتى في منطقة رؤية اللون.

وبعد مضي بعض الوقت يَمّحي الانطباع الأحمر فجأة ويظهر الأزرق.

(أ٢) إذا عرضنا اللوحة العليا أثناء جزء من خمسمئة جزء من الثانية نتوصل كحد أقصى، إلى إظهار ثلاث إشارات موزعة عشوائيًا على المشبك.

ولكن إذا أسقطنا، بعد اللوحة الأولى بقليل من الوقت، اللوحة السفلى وعليها علامة بدل أحد الأحرف السابقة نستطيع دائمًا تقريبًا استعادة هذا الحرف.

نحصل على هذه النتيجة المدعمة نفسها، بسؤالنا: «أي عدد كان بين الأحرف؟».

تلعب الذاكرة القصيرة المدى جدًّا أيضًا دورًا في هذه القراءة. لا «تنزلق» العين على الكتابة ولكنها، عند القارئ المدرب، تتجاوز عدة كلمات تعالج عند التوقف.

ب. ذاكرة قصيرة المدى

(ب١) لكي نركب رقم هاتف لا نعرفه غيبًا (وغير مسجل في الذاكرة الطويلة المدى) يجب أن نعمل بسرعة ودون اضطراب وإلا نسينا الرقم للحال، يحفظ الرقم هنا حتى ١٥ ثانية بخلاف الذاكرة المباشرة التي لا تحفظ أكثر من ثانية.

إن أكبر عيوب الذاكرة القصيرة المدى هو طاقتها المحدودة. والقاعدة، بشكل عام، هي التالية:

٧±٢ ، أي ما بين ٥ تفاصيل و٩ (ونسمي ذلك حزمة) يمكن أن تسجل من دون جهد.

ولكن إذا كررنا الرقم دون انقطاع وبشكل خفي، قد ينتقل الرقم إلى الذاكرة الطويلة المدى.

(ب٢) ثمة حالات نادرة من الأشخاص يتمتعون بذاكرة صورية. إذا عرضنا لمدة قصيرة مشهدًا معقدًا كمشهد (ب٢) على أولاد خاصة أو على متخلفين عقليًا، نستطيع أن نسألهم، بنجاح، حول تفاصيل صغيرة.

تستطيع الذاكرة الصورية أن تحدد، دفعة واحدة، مكان الكرة على الصورة الثابتة.

(ب٣) يمكن أن تلعب عوامل محددة دورًا في الانتقال من الذاكرة القصيرة المدى إلى الذاكرة الطويلة المدى. يشكل التكرار المنهجي والتدرب (فصل ٨) المرحلة الأصعب. تتيح بعض وسائل تقوية الذاكرة انتقالًا أسهل، غير ملحوظ تقريبًا (فصل ٥/٧).

إن الاستعراض العياني يحسِّن الأداء:

عقدة في صنبور كصورة عن قسطل ماء مسدود بترسبات كلسية.

(ب٤) كان الانسان فيما مضى يعقد طرف منديله كي يتذكر شيئًا. عفى الزمن اليوم على طريقة التذكير هذه (ولأن المناديل الورقية تلقى بعد الاستعمال في سلة المهملات). إننا نفتقد اليوم، بسبب إرهاق الحياة اليومية، زمن الكمون لإنضاج الصور لكي تنمو من «تلقاء ذاتها» كما كان يحدث في الماضي.

ومن الضروري، لتربية الذاكرة، أن نتوسل عمليات الذاكرة القصيرة المدى.

إن من حاول أن يرسِّخ انطباعًا بواسطة مخطط أو رسم بالقلم الرصاص يتعرف إليه أفضل وفجأة (تربية التجربة البصرية من بين تجارب أخرى).

إن في هذه المنطقة من الذاكرة خاصة ما نختبر الطاقة على الحفظ التي، في ظروف استثنائية، كالارتعاد مثلًا، تمثل معدلات أعلى. ونعترض هنا أنه ليس من تأثيرات لاقنية حسية أخرى تشوش على الذاكرة القصيرة المدى وأن طريق المرور تفتح إلى الذاكرة الطويلة المدى. تتيح هذه النظرية إلقاء الضوء على نماذج الذاكرة الشاذة كما في الألعاب العامة المسماة «خالص أو مضاعف».



أ. جدول المحفوظات

بعد ٢٠ د

بعد ساعة ١

بعد ٩ ساعات

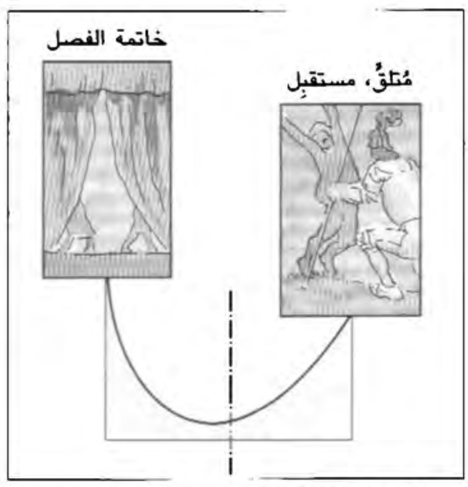
ب. منحنى النسيان



ج. الاستعادة



د. التعرّف



هـ. الوضعان البدئي والنهائي



و. ما وراء الذاكرة

تعتبر الذاكرة الطويلة المدى، كما في الماضي، الذاكرة «الحقيقية». وهي تدعى عرضيًا «ذاكرة المعرفة»، ما يفسر التوقعات المقترنة بها.

أ. جدول المحفوظات

لا أحد يلم باتساع ذاكرتنا الطويلة المدى. تحتوي الذاكرة النشطة مجموعة من آلاف الكلمات (المستعملة فعليًا)، يضاف إليها فهرس آخر من الكلمات الكامنة (المحفوظة وغير المستعملة)، وهي أكثر عددًا. وإذا أضفنا إلى ذلك ذاكرتنا العينية للأرقام والأحداث التي لا تنسى ومعرفتنا الخاصة... نحصل على كتلة ضخمة من المحفوظات.

يفترض **سينز** (١٩٧٧) أن «للذاكرة البروتوكولية»، وهي شكل يسبق الذاكرة الطويلة المدى، طاقة على الاستيعاب تقدر بما بين $١٠^{٨}$ و$١٠^{١٦}$ بت (bits) القسم الأكبر منها ليس جاهزًا باستمرار، بل يجب استدعاؤه عند الحاجة.

ومن ناحية أخرى لقد بيّنت التجارب وجود ذاكرة يستحيل تنبيهها إلا في حالات استثنائية، في حالات الإجهاد مثلًا. وتلحظ مدارس علم نفس الأعماق (فصل ٢١) وعيًا ذا ثلاثة مستويات (شخصي وعائلي وجماعي) لا يمكن فصله عن الذاكرة الطويلة المدى إلا بجهد كبير.

إن قائمة محفوظات ذاكرتنا تشبه قائمة محفوظات الممثل (شكل آ). إننا مثله، نحتاج غالبًا إلى ملقن ينشط ذاكرتنا بتلقيننا الجواب.

ب. منحنى النسيان

كان **هيرمان إبنغهاوس**، أحد أوائل علماء نفس الذاكرة، يجري اختبارات على أداء ذاكرته الخاصة. كان يحفظ مقاطع كلامية لا معنى لها يتلوها دون خطأ. ولكي يتأكد من فعالية التمرين، مع الوقت، بصورة أفضل، أوجد «منهج الاقتصاد».

وكان، إذا أراد، فيما بعد، أن يستعيد المقاطع نفسها التي لا شك في أنه قد نسيها بسرعة، كان يحتاج إلى محاولات أقل (= إقتصاد المحاولات) لكي يحفظها من جديد.

وقد توصل بهذا المنهج وبمناهج أخرى، إلى وضع منحنى النسيان، الذي استطاع أن يتابعه إلى ما بعد ٢٢ سنة من التجربة الأولى. يمثل المنحنى (شكل ب) تناقصًا بارزًا في الحفظ بعد المحاولات الأولى مباشرة، ثم يتناقص ببطء أكثر.

نميز نوعين مهمين في محتويات الذاكرة: المحتويات الحقيقية (الاستعادة) والمُتصوَّرة (تعرّف).

ج. الاستعادة

تتعلق الاستعادة بصحة «إعادة ترميم» ما كان قد حفظ.

إذا أردنا أن نتجول في مدينة علينا أن نحدد بعض الأماكن البارزة. ونصل إليها في الأحياء المتجانسة بصعوبة أكثر مما لو سرنا في أماكن يسهل التعرف إلى منازلها. وكلما كانت المنازل متشابهة كانت الصعوبة أكبر (شكل ج).

د. التعرّف

نحفظ في عملية التعرف خصائص التصنيف العامة التي هي ضرورية للتوجه ذهنيًا في هذا العالم.

لسنا بحاجة إلى تفكير طويل لنعرف ما إذا كان قلم الرصاص طويلًا أم قصيرًا. ففي ذاكرة كل منا مخطط تقييم مطابق (شكل د).

إن عدد هذه المحفوظات التي يمكن التعرف إليها مرتفع جدًا وهي تبدو مفيدة بل ضرورية، بيد أنها يمكن أن تكون أساسًا لأحكام ثابتة.

هـ. الوضعان البدئي والنهائي

عندما نحضر محاضرة أو نقرأ كتابًا أو نشهد عرضًا مصورًا، ننسى القسم الأكبر مما سمعنا أو شاهدنا. إن ما يبقى إنما هو خيارات فردية وخاصة الأحداث المثيرة. لكن ظاهرة أساسية تتغلغل في مخزونات الذاكرة الطويلة المدى:

إن الأثر البدئي والنهائي (وبعبارات أخرى مشابهة: أثر الطرفين، مبدأ **جوست**) يعني أن أفضل ما يحفظ هو بداية المعلومة ونهايتها.

النقطة الأدنى هي إلى يمين الوسط غير أن الطول الإجمالي وخصائص الشكل والاهتمام يمكن أن تزحزح مكانها.

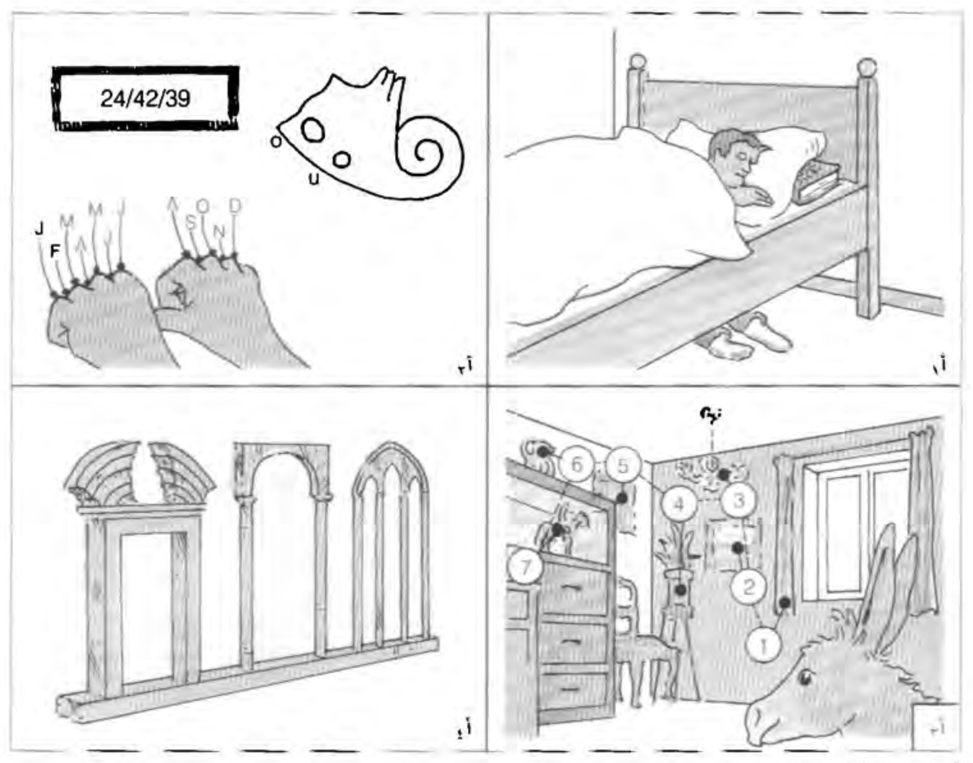
إن الدعاية التي تتوجه مبدئيًا إلى جمهور لا مبال، تعطي أهمية للصورة الجذابة، أي إلى الاحتكاك الأول الذي يثير الاهتمام مباشرة.

لا يحتاج الفن المسرحي إلى كثير من الصور المثيرة لأن الجمهور في القاعة على أهبة الانتباه. وبمقابل ذلك، على الكاتب المسرحي أن يعطي أهمية عظمى لنهاية كل فصل ولخلاصة المسرحية لأن للانطباع الذي تتركه تأثيرًا أكثر بروزًا بعد العرض.

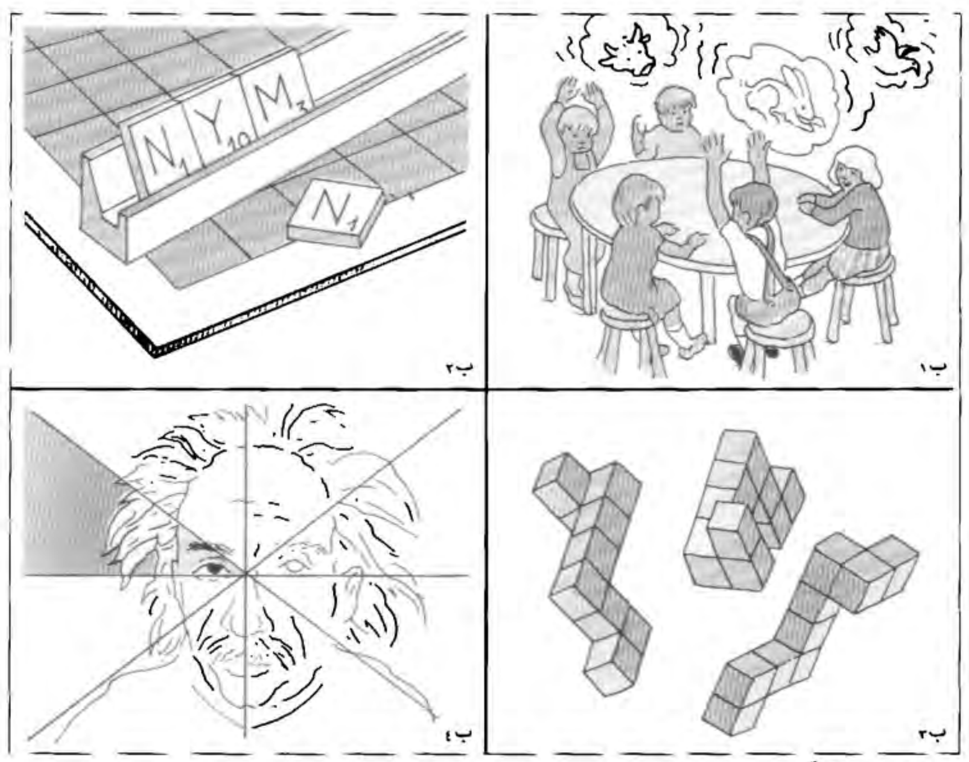
و. ما وراء الذاكرة

ليس للانسان سوى ذاكرة واحدة، ويود أن يعرف ما إذا كان يتمتع بذاكرة قوية أو ضعيفة. هذه الأحكام كثيرة التنوع وهي غالبًا خاطئة. فكلمة ما وراء الذاكرة تشمل التأملات حول ذاكرتنا الخاصة. وكان يتم، قديمًا، تمييز مشابه بين الذاكرة المصورة واستذكار الماضي.

لهذا الحكم مغزاه البليغ كونه ردّ فعل على إضعاف الذاكرة أو تحسينها، فيجب إعطاؤه اهتمامًا خاصًا عند معالجة اضطرابات الذاكرة.



أ. تحسين الترسيخ



ب. تحسين التذكّر

لا أحد يتذمر من نقص في ذكائه، في حين أن الكثيرين يشكون ضعفًا في الذاكرة. ومع ذلك، فلا يمكن الفصل بين الذاكرة والذكاء: تحتوي روائز الذكاء عناصر روائز الذاكرة. غير أن عزاءنا:

أن الذاكرة قابلة للتكيف، ويمكن تقويتها.

والأهم هو زيادة الاهتمام.

وعلاوة على ذلك يمكن تربية أبرز مظهرين للذاكرة الطويلة المدى هما: الترسيخ والتذكر.

أ. تحسين الترسيخ

(أ١) الأثر النائم. ينتمي كتاب الوسادة إلى مجال الإيحاء الذاتي أكثر مما ينتمي إلى مجال سيكولوجية التعلّم. أما «الأثر النائم» فشأن آخر، هو الأثر المؤجل والتدريجي للمعلومات.

يجب ترك الشيء المحفوظ في الذاكرة يعمل لبعض الوقت حتى يتصفى.

فكل من درس حتى اللحظة الأخيرة قبل الامتحان جلب لنفسه المضرة.

(أ٢) وسائل تقوية الذاكرة.

مهارات عديدة تتيح تسهيل الحفظ، منها التجزئة: تقسم المادة المعدّة للحفظ إلى وحدات سهلة المعالجة، أرقام الهاتف مثلًا؛

استخدام التشبيه: نلاحظ أن الثقب «الأعلى» في تجويف الأذن هو بيضوي الشكل مثل حرف «O»، لكن الثقب الأسفل هو مستدير القاعدة مثل حرف «U»؛

التصوير: تستخدم مفاصل الأصابع لمعرفة أطوال الشهور (التجاويف للشهور القصيرة و«الحدبات» للشهور الطويلة).

(أ٣) الترميز المُعدّ. «علم الحمير» موجود منذ القدم. إحدى أقدم الطرق هي «طريقة الموضعة». نأخذ مكانًا نعرفه جيدًا، غرفة نومنا مثلًا، ثم نقرن ذهنيًا وبالتتابع إشارات مجردة بإغراض الغرفة.

إذا كان علينا أن نشير إلى ١٥ نموذج من الإكتئاب، نتوصل إلى ذلك بطريقة أسهل بذكر ١٥ متاعًا في الغرفة.

(أ٤) الترميز الاختزالي. كانت عملية التذكر السابقة مدغمة بشيء إضافي (أغراض الغرفة)، يؤدي الترميز الاختزالي إلى النتيجة نفسها عن طريق الحذف.

إذا قارنا أساليب البناء القوطي والنهضوي والباروكي نرى أن خصائص عديدة تفرق فيما بينها. ولكن بإمكاننا أيضًا اختزالها إلى «إشارات» نموذجية: شكل النوافذ، مثلًا، أقواس بيضوية، عقد كامل، جبهية حادة.

والشاذ المستهجن يجلب الانتباه أكثر من المألوف.

وهكذا فإن بعض طرق التعلّم تحاول جعل بعض المحتويات «شاذًا غريبًا». وهذا يعني أيضًا أنه من الأفضل عدم تكرار فكرة جديدة: تبتذل بسرعة وتصبح مملة.

ب. تحسين التذكّر

يفهم بالتذكر استعادة المعلومات المسجلة في الذاكرة. إن حيازة خزان من المعلومات والاغتراف منه عند الحاجة هما أمران مختلفان جدًا. فكثيرًا ما يحدث أننا نعرف الشيء ولا نتذكره في الوقت المناسب. ثمة أربعة نماذج من التذكّر بإمكاننا أن نمارسها كلا على حدة.

(ب١) تذكر الوقائع. يتدرب الأولاد في لعبة «طر يا حمام» على سرعة التذكر. لدى كل إيعاز صحيح، على اللاعبين أن يرفعوا يدهم. إن من يرفع يده، مثلا، عند كلمة «أرنب» أو ينزلها عند كلمة «دوري» يكون خاسرًا.

تعتبر سرعة التذكّر كدليل على المعرفة الأكيدة الواثقة. حتى ولو كان ذلك أحيانًا غير صحيح فيجب التدرب على سرعة التذكّر.

(ب٢) التذكّر بواسطة البحث. تتطلب لعبة السكرابل نوعًا آخر من التذكّر. نبحث في خزان ذاكرتنا عن أطول كلمة ممكنة نركبها من الأحرف التي في حوزتنا ونضعها في الخانات الأعلى قيمة. بيد أنه بإمكاننا أن نبحث طويلًا لأننا نريد كلمة أطول أو نكتفي بكلمة قصيرة نضعها على عجل. يتطلب هذا التذكّر البحاثة تقييم مستودع ذاكرتنا الخاصة.

(ب٣) التذكّر البطيء. ليس محتوى الذاكرة ثابتًا جامدًا في مكانه كما على شريط ممغنط، يمكن أن نعدله أثناء التذكّر.

إن النموذج المصنوع من المكعبات (ب٣) يظل معروفًا حتى لو تبدل وضعه ويمكن تمييزه من نماذج أخرى لا تشبهه.

ويُنصح في حالات الامتحانات الصعبة بالتدرب على التذكّر البطيء لزيادة معدل التذكّر.

(ب٤) التذكّر المنتج. ما يثير دهشتنا دائمًا أن معلومات قليلة جزئية توصلنا إلى معرفة إجمالية.

تكفي نسبة ١٢٪ من وجه آينشتاين لنعرف وجهه بكامله.

وكذلك تطلق كلمات مَعْلَمية قليلة تذكّرًا ثريًّا، ولهذا تكون الأحاديث الحيوية خصبة وغنية بالموضوعات.

يشعر الطالب في امتحانات موفّقة أنه أكثر علمًا من المعتاد، لأن إنتاج ذاكرته قد احتدم وتكثّف.

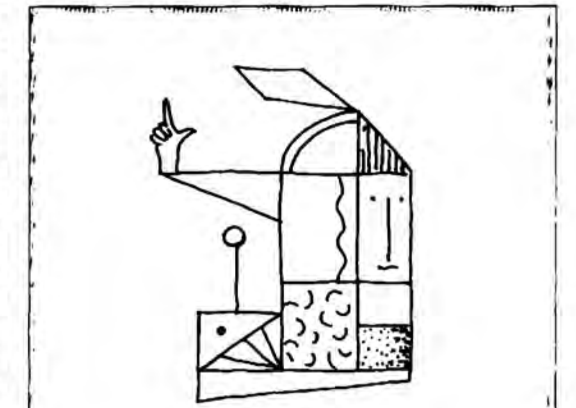
إن عمل الذاكرة المتنامي يصل ما بين محتوياتها، يضمها بعضها إلى بعض ليجعل منها كيانًا فوقيًا لم يكن سياقه ليخطر ببالنا قبل ذلك. هنا تتمثل الذاكرة كمستوى معالجة فوقي، وليس فقط كمكتسب مكنون لتمارين سابقة كما يُتوهَّم غالبًا.



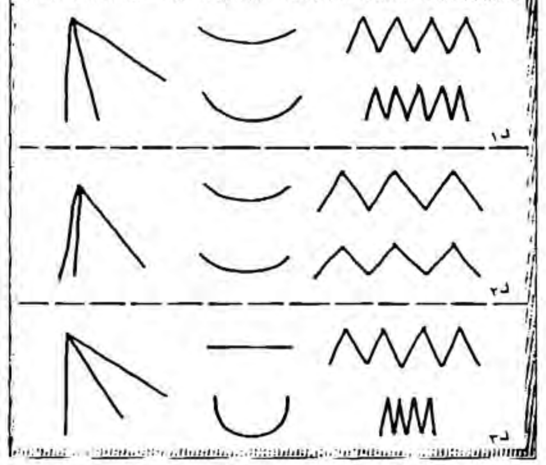
أ. آلية أم خلّاقة



ب. سمعية، بصرية أو حركية

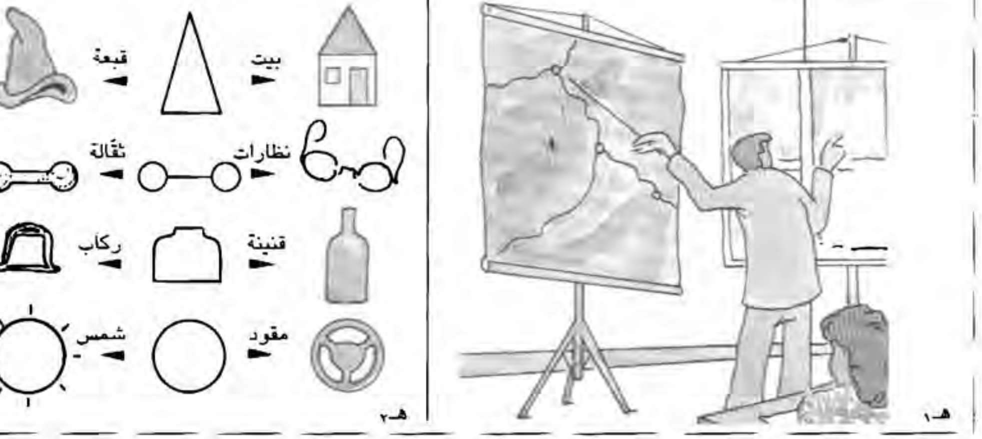


ج. تحسين عمليّة التذكّر



د. ممهدة أو حادّة





هـ استطرادية أو دلالية

إن مجمل عمليات الذاكرة تفرض على الاختصاصيين أن يقوموا بمحاولات تصنيف مختلفة. لقد وضعوا اقترانات تبرز بعض خصائص الذاكرة وتهمل أخرى. ولا نجد بين معايير التمييز هذه سوى توزيع وظيفي للذاكرة وأدلة على الميول الشخصية أو الخصائص الفردية لهذه الوظيفة.

أ. آليّة أم خلّاقة

يتنهد الأب وهو يفكر بولديه: أحدهما لا يفهم شيئًا لكنه يجيد صنع كل شيء. والآخر يجيد فهم كل شيء ولا يحسن عمل شيء. ذاك فرق اكتشفه **ألفريد بينيه** أحد أوائل الذين أجروا أبحاثًا حول الذكاء:

> الفهم العميق هو بلا جدوى بالنسبة إلى الذاكرة الآلية. وهو بمقابل ذلك ضروري للذاكرة الخلّاقة التي يدعوها «تفكيرية».

يكفي، بالنسبة إلى الذاكرة الآلية، أن يُكرَّر، كما في بعض المدارس القديمة (أ١)، ما يجب أن يُتعلَّم لكي يُحفظ غيبًا، حتى أسماء الأنبياء.

وعلى عكس ذلك، لقد برهن **ف. س. بارتليت**، كيف تعمل الذاكرة المنتجة.

> عرض على أحدهم، لفترة قصيرة، صورة بومة (أ٢) وكان على هذا الأخير أن يرسمها غيبًا. وعرض رسم هذا الأخير على شخص آخر ليعيد رسمه غيبًا... وهكذا دواليك حتى الشخص العاشر فكان الرسم الأخير يمثل هرًا.

واستنتج بارتليت أن الذاكرة تعمل أيضًا بطريقة منتجة.

وشكل آخر خاص مرتبط بالذاكرة هو الذاكرة الممكنة التي تنتج معالم بواسطة جهد ذهني. فللمقارنات، هنا، وللتداخلات مع محتويات الذاكرة وكذلك لمثيرات الذاكرة أثر إيجابي.

ب. سمعية، بصرية أو حركية

لقد أثبتت بعض التجارب أن الأعصاب البصرية والأعصاب السمعية تتنافس عندما تصل المعطيات معًا.

غير أن هذا يعود أيضًا إلى ظروف المثيرات (حدة الصوت والضوء مثلًا)، وإلى طبيعة المثيرات (وكميتها) وإلى طريقة عرضها ووضعها، ثم بعد ذلك فقط، إلى التفضيل الفردي للقناة الحسية التي تحتفظ بالأولية.

> يفضل البعض أن يسمع نصًا أو أن يقرأه بصوت عال (ب١) والبعض الآخر أن يقرأه بعينيه أو أن ينسخه (ب٢).

تحيلنا النقطة الأخيرة إلى الأشخاص الحسيين – الحركيين الذين يفضلون إعادة تكوين الشيء بواسطة الحركة، بالطريقة الحركية.

ج. تحسين عملية التذكّر

تحت مصطلح تحسين عملية التذكّر (**بريفنتانو وشاختر** ١٩٩١) استعيد اكتشاف أرسطو القديم الذي يقول بتأثر محتويات الذاكرة بعضها ببعض.

> «على المرء ألا يبحث بعيدًا عن الدافع الذي يجعله يتذكر، بل في العلاقة بشيء مماثل أو مخالف أو موجود في مكان قريب» (**أرسطو**).

في تفعيل دفين لنظام كُلّي من التشاركات (**هورمان ١٩٧٧**)، والتي تدعى التحزيم (الربط)، تكمن الفائدة الأساسية للذاكرة مقابل التخزين التقني، لأنها بذلك تستطيع أيضًا أن تكتسب إلمامًا تحكّميًا طوال العمر.

مع إعادة رسم شكل **راي – أوستريت** (ج – شكل محوّر بغية حماية الاختبار)، على هيكلية الذاكرة الفردية أن تخضع للتحقيق لكشف اختلالات محتملة. يطور الشخص الخاضع للاختبار الشكل الذي تذكره من بنى ميكروية مستذكَرة (مثلًا من صور الوجه) أو من بنى ماكروية (كبرى) (كمثل المستطيل القائم مع سقف)، وتحدث عالم النفس الأميركي **وولتر كينتش** (١٩٨٠) عن طرق الذاكرة المميِّزة أو المتمّمة.

ومن سمات التفاوت الأخرى: الزائد – المجزأ (مالئًا أو منقِّصًا النموذج)

المتماثل – اللامتماثل (تفضيل أوزان الصورة)

المصوّر – المجرّد (مثلًا رمز الأصابع مقابل رمز الخطوط).

د. ممهِّدة أو حادّة

أوضح **ف. ڤولف** منذ ١٩٢٢ كيف يمكن أن يتغير المعطى في الذاكرة.

> بالنسبة إلى هذه النماذج الثلاثة (د١)، فقد درست، لدى إعادة تكوينها من جديد (بعد نصف ساعة أو يوم كامل)، أنماط تعديلاتها. فالبعض (د٢) يمهد النماذج، يصقلها. والبعض الآخر (د٣) يشحذها غير أن هذين الاتجاهين يمكن أن يتناوبا تبعا لمهمات الشخص الواحد.

هـ استطرادية أو دلالية

يعالج تمييز حديث لأنماط الذاكرة (**إ. تولڤنغ**) الفرق الذي أغفل حتى الآن في أنماط التمارين.

(هـ١) إذا عيَّن استاذ بعض المدن عند مجرى نهر وعدَّد أسماءها وطلب تكرارها، ترسخ حتمًا هذه المراحل «الإجرائية» من التدريب في وقت واحد، وتصبح التجربة التدريبية نفسها جزءًا مما استوعبته الذاكرة.

(هـ٢) ولدى إعادة إخراج أشياء عرضت مرة واحدة ويجب التعرف إليها نرى تعريفات مذهلة. (**ل. سكواير**)

إذا عرضنا رسومًا «محايدة» مع شرح ماثل إلى اليسار أو إلى اليمين، فعند محاولة إعادة رسمها نحصل على تبدلات مميزة تبعًا للكلمة الملحقة بكل نموذج.

ومن المؤكد أنه في حالتي (هـ١، هـ٢) تؤثر شروط التدرب في الحفظ.

> وفي إحدى التجارب (١٩٦٧) عرض **دوكر وتاوش**، أثناء قراءة نص في التاريخ الطبيعي حول خنزير هندي (كوباي) صورة للحيوان ثم حيوانًا حيًا، فازداد معدل حفظ النص بشكل واضح.



أ. عجز تلقائي

ب. تذكّر خاطئ

ج. النسيان بسبب التداخل

د. نسيان الارتباك

هـ. نسيان مبرّر

و. نسيان صَدْمي

عكس الحفظ هو النسيان. نأسف عادة لنسيان شيء ما. لكن الحقود، الذي لا ينسى، ليس إنسانًا ودودًا. النسيان ظاهرة صحية. وللحاسوب سمة «لا إنسانية» هو أنه لا ينسى، يجب تلقينه «برنامج نسيان». ليس من نسيان متجانس، فهو على ستة أشكال.

أ. عجز تلقائي

تمتاز الذاكرة عن الادراك بكونها لا تتقيد بحضور الأشياء. فالتمثلات الضرورية لها هي أكثر تبسيطًا.

صورة القلم هي «خيالية أكثر» من القلم المحسوس.

إذا لم نستخدم بعض الصور لوقت طويل تضمر كالعضو الخامل. تتضاءل الذكريات التي لا نحتاجها حتى تضمحل نهائيًا.

وتحاشيًا لهذا الأمر يجب إنعاش الذكريات، وإلا امَّحَتْ شيئًا فشيئًا وتلاشت تفاصيلها وابتعدت. جميع التجارب المعيشة خاضعة لهذا التدمير العفوي (فقدان الذاكرة). وعدم نسيانها جميعًا يتعلق بعوائق كثيرة تحول دون التدمير الآني وهي على صلة بالشيء والوضع والشخصية.

ب. تذكّر خاطئ

الذكرى الخطأ هي نوع آخر من أنواع النسيان. فعوضًا عن ذكرى حقيقية تلاشت، تعرض فجأة ذكرى تشبه التي استذكرت في الأصل. عسر القراءة والكتابة هو أحد الشواهد على ذلك. وقلب بعض الأحرف وإبدال بعضها من بعض ونسيان جزء من الكلمة هي أخطاء شائعة.

ج. النسيان بسبب التداخل

قد يزعج التزامن، ننسى شيئًا لأننا مهتمون كثيرًا بشيء آخر. ندعو ذلك مسار المنع الفعال (في الأشكال الزمنية المترابطة: المنع الارتجاعي والسبقي والنقل السلبي).

أثناء تعلّم مهمة معينة يتلقى الشخص الخاضع للتجربة صدمة: إطلاق رصاصة من مسدس، تحطّم قائمة الكرسي أو انطفاء النور. وهذا العذاب ينسيه كل ما تعلّمه. وفي الحالات القصوى (حادث خطير) يمكن ظهور فقدان ذاكرة رجعي لأيام وأسابيع سابقة. تفسر آلية النسيان بأنها تبدّد أو تشتّت بفعل مثيرات أقوى (ذكرى محجوبة).

د. نسيان الارتباك

كلما ركزنا تفكيرنا أكثر على شيء تصبح الأشياء الأخرى نافلة وتستحق النسيان. بسببها يبدو الشخص الغارق في تفكيره وكأنه مضطرب.

وقديمًا كان «الاستاذ الشارد الذهن» الذي لا يجد نظاراته التي رفعها على رأسه فيحتضن بيضة مسلوقة ويضرب بها رأس زوجته بملعقته الصغيرة، كان هذا الاستاذ موضوع تندر تقليدي.

هذا النمط من النسيان يوضحه هذا الاضطراب في القرائن اليومية.

هـ. نسيان مبرر

عن **فريدريك نيتشه**:

«فعلتها، قالت ذاكرتي. لا يمكن أن أكون قد فعلتها، أجاب كبريائي. وظل مصرًا. وأخيرًا - استسلمت ذاكرتي».

نقفل في ذاكرتنا بإحكام على إذلالنا أمام الجمهور وعلى فشلنا وبشكل خاص على تصرفاتنا الخجول كعدم مساعدتنا الآخرين (شكل هـ) كما لو أننا ضللنا المدخل إلى ذلك. كل منا يمتلك ذاكرة محجوبة.

يشمل مفهوم الكبت (٢٠/٣٠ أ) في التحليل الفرويدي سلسلة كاملة من إواليات الدفاع التي ترتد على ادعاءاتنا الغريزية المكتومة. النقطة المشتركة بين هذه الأشكال من النسيان المبرر هي أننا نحاول قمع الذاكرة (المعيش السلبي يُنسى غالبًا).

و. نسيان صدمي

إن الملاكمين الذين يتلقون ضربات عنيفة على رؤوسهم قد يصابون بارتجاج دماغي يتلف أدمغتهم. يظهر فقدان الذاكرة أولًا بطريقة خفية، ويعجزون عن تذكر بعض الحوادث المعزولة، تتقلص قائمة المفردات المتعلقة بالذاكرة، تبقى التعابير الرائجة وتتوارى التعابير المعقدة.

ولدى الأشخاص المصابين باضطرابات دماغية عضوية (مثل مرض ألزهايمر) يعتري النسيان أحداث المرحلة الحديثة بينما الأحداث البارزة وخاصة السعيدة «للشيخوخة الصالحة» تظل راسخة (قانون **ريبو** أو قاعدة **جاكسون**).

تستند برهنة النسيان النفسية الفيزيولوجية، بشكل عام، إلى نقص الارتكاسات الشرطية. وبسبب نقص في الإثبات (**پاڤلوف**) أو بالتدعيم (**سكينر**) ينتج بالضرورة زوال التداعيات الزمنية (فصل ٨).

ويحدث هذا، استنادًا إلى **پاڤلوف وهول** بسبب تفوق كوامن الكبت العصبي، واستنادًا إلى **غوثري**، بسبب الكبت الناتج عن مثيرات أكثر فعالية واستنادًا إلى **لورنس وفستنغر**، بسبب ردات فعل التحاشي الناشطة.



أ. عودة الذاكرة

ب. ذاكرة الاحلام

ج. ظاهرة «على طرف اللسان»



د. حَصَر الذاكرة



هـ الشهادة



و. تخريف مرضي

نستشف من المعلومات السابقة كم هي هشة أداءات الذاكرة. وتصور لنا بعض الأمثلة المعبرة الظروف التي تتفاعل فيها الذاكرة بطريقة غير عادية.

أ. عودة الذاكرة (بداية أولى)

حالة غريبة ومعروفة جيدًا تعترينا عند اليقظة (أو بعد تنويم مغنطيسي أو تخدير) وهي: أننا نضطر إلى التفكير مليًا قبل أن نعرف أين نحن. وكقاعدة عامة، ففي أثناء هذه الحالة العابرة بين الوعي واللاوعي (المدعوة البداية الأولى) نتذكر السهل أولًا (أي أين نحن) ثم الصعب المعقد (الأحداث التي جرت قبل الخدر): يوضح الطور الأول عدد العناصر الضرورية للوعي ولفعالية إجمالية للذاكرة.

ب. ذاكرة الأحلام

ليست الذاكرة مرتبطة بحالة الوعي، إنها أيضًا تلعب دورًا في الحلم. فالحلم هو، من جهة، ما نسميه «بقايا نهارية» **(فرويد)** لأحداث عشناها ولم تتَّحِ تمامًا قبل فقدان الوعي. وهو، من جهة أخرى، تأثير امتداد صور قديمة، هي أدلة مرمَّزة لمشاكل غير محلولة.

يعتبر الحلم، في التحليل النفسي، خاصة، كاشف النقاب عن الانفعالات المكبوتة. وتؤوله مدارس أخرى، في علم نفس الأعماق، بأنه ذاكرة قديمة لأجيال عديدة.

ومن المعترف به، عامة، أن هناك فرقًا بين ذاكرة الحلم وبين ذاكرة اليقظة. ففي ذاكرة الحلم (و خاصة في مراحل عدم تحرك العين السريع (فصل ١٨/٢٠)، فلا نتذكر إلا «أجزاء الفكرة». تعمل الذاكرة بواسطة صور متنكرة يبدو من المستحيل أن نعثر وراءها على معان مفهومة. والأمر يختلف بالنسبة إلى الأحلام النموذجية **(فرويد)** التي تتضمن موضوعات تكرارية غالبًا، وهي على صلة وثيقة بإشكالية الحياة وتلتحم بالذاكرة أفضل من الأحلام الطارئة التي لا ترد إلا صدفة.

ج. ظاهرة «على طرف لساني»

نشعر غالبًا بأن الكلمة على طرف لساننا وبأنها ستأتي للتوّ، ولكن عبثًا: «إنها تبدأ بـ «كا» أو بشيء من هذا النوع...».

فلكي نتخطى هذا الوسواس، نترك الأمر على سجيته حتى يتراخى هذا البحث المتشنج وتظهر الكلمة من تلقاء نفسها. أو أننا نتصدى لهذه الحال ببحث منهجي (غير متشنج) عن التداعيات الممكنة مثل كا - كو - كي - كاب...

وعندما يتم العثور على هذه الكلمة (التي لم تكبت بطريقة مبررة) لن تنسى حالًا لسهولة ملاحقتها.

في مقالة عنوانها فن الـ.. الـ... حسنًا، أجل... فن الـ... التذكّر، يكتب **ج. ف. بوير**:

> «يجب أن نُعلِّم تقنيَاتُ الذاكرة في مدارسنا كما تعلّم تقنيات القراءة والكتابة».

د. حَصَر الذاكرة

حالات حَصَر الذاكرة هي فجوات قصيرة تصيب بالدرجة الأولى الذاكرة القصيرة المدى. وليست هذه الحالات متجانسة، إنها تختلف باختلاف السبب. الحصر الأشهَر هو الذي يسببه الكحول. الثَّمِل «ينسى نفسه ولا يعرف من هو» ثم ينسى كل شيء عن حالته (نسيان رجعي).

وقد يظهر عند المسنِّين (لأسباب هرمونية) حصر ذاكرة من ساعة واحدة إلى ٦ ساعات يتميز بارتباك مقلق. تصادف حالات حصر وظيفية في أشكال عديدة من الاضطرابات النفسية. وثمة حالات حصر تظهر في بعض المواقف. تظهر أثناء الامتحانات مثلًا كنسيان مؤقت، مشروط بحالة إثارة مرتفعة تشبه النسيان بالتداخل (فصل ٧/٧).

هـ. الشهادة

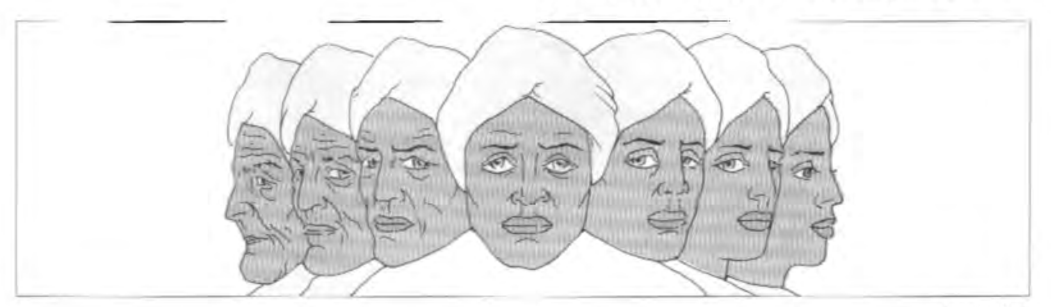
ما خلا تشويه الحقيقة المتعمد، يتعرض الشاهد السليم النية إلى بعض الأخطاء:

١. إدراك الوقائع هو انتقائي (و خاصة في حالة إثارة قوية)،
٢. تنتحي التعديلات ناحية توقع ما،
٣. تتعزز نتائج التوقعات بعدد التكرارات،
٤. وتزداد، مع الوقت العابر، المخاوف أو التمنيات التي تمسّ الذكرى الحقيقية.

و. تخريف مرضي

تصل مجموعة من اضطرابات الذاكرة إلى ما وراء التشويهات البسيطة: يتذكّر المريض ما كان من أثر المخيلة كما يتذكّر أمرًا واقعًا. إن تجربة ما «سبقت رؤيته» هي هينة نسبيًا. إن التجربة المقلقة التي تتصور أن حدثًا بعينه قد عيش في فترة سابقة توصل إلى نظرات عقائدية (حتى افتراض التقمص).

تتخذ هذه «الهذيانات»، عند الأشخاص المولعين بالمباهاة، شكل تبجحات. وتصادف هذه التخريفات الأكثر مأساوية عند الفصاميين الذين يبنون عالم ذكريات تنسجم مع إحساساتهم المشوهة، وهذا ما تشهد عليه أوهامهم الكاذبة (كسماع أصوات حقيقية).



أ. التواصل

ب١ ب٢ ب٣

ب٤ ب٥ ب٦

ب٧ ب٨ ب٩

ب. العرض

يتخذ علم نفس الذاكرة عدة اتجاهات. أهمها التحليل الأكثر دقة ممكنة لعمل الذاكرة. ويكمله وجهه الآخر: البحث عن اضطرابات الذاكرة. ويهدف الاتجاه الثالث إلى دراسة الذاكرة في إسهامها في تطور الإنسان وثقافته.

أ. التواصل

لا يمكن تصور حياة الانسان دون ذاكرة. وهذه في أبسط وظائفها تُستَخْدم للتعرف (التذكر). تنتهي أسمى وظائفها إلى تكوين الشخصية وإنضاجها.

> في إحدى التجارب البسيطة (**رايخر، ليغون وكونراد**) مزجت بعض الكلمات المقفاة فيما بينها بكلمات اختيرت صدفة. وكان تذكر المجموعة المقفاة أفضل بكثير.

نستنتج انطلاقاً من تجارب عديدة متشابهة أن ذاكرتنا تخضع لقواعد يمكن تجريدها. لا نتذكر كل شيء بطريقة واحدة، سواء كانت صالحة أو سيئة، لكننا نحفظ بعض الخصائص بطريقة أفضل ومن بينها ترابط المعاني الذي يأتي بالدرجة الأولى.

ومن هنا، فإن ذاكرتنا أوسع من مجرد مستودع معلومات. إنها تصل ما بين أجزاء الحياة اليومية لتجعل منها الحياة بكليتها.

> جاء في أسطورة هندية قديمة أن برهميا كان يعود إلى قريته مرة كلما غاب عنها ثلاثين سنة. وكان جيرانه عندما يتعرفون إليه يصيحون قائلين: «ماذا، هل الرجل الذي غادرنا لا يزال على قيد الحياة؟» وكان البرهمي يجيبهم: «إني أشبهه ولم أعد ذاتي!» (شكل أ).

وبالرغم من أن الحياة لا تتحلل إلى عناصر، فإننا نتذكر الأمس وما قبل الأمس والشهر الماضي والسنة المنصرمة بالرغم من جميع التحولات: ندخل الماضي في الحاضر لنصنع منهما وحدة شخصية. يكوّن عمل الذاكرة استمرارية سيرة حياتنا.

إن التواصل أو الاستمرارية، هذه الوظيفة الأهم للذاكرة، تصلح لجميع الانسانية: ينبع تاريخها من العناصر المحفوظة في الذاكرة.

ب. العرض

إن عرض (استرجاع) الأحداث لا يزال أكثر دلالة. إننا لا نعيش الأحداث اليومية كأحداث على مستوى واحد من الأهمية: منها ما لا ينسى ومنها الزهيد ومنها النافل. إن يسر الحياة وعسرها ضروريان للحياة. والرتابة التامة في الحقيقة المعيشة (كما هي الحال في الإدراكات الثابتة فصل ١/٦) تميتنا من الداخل. ولكي تصبح التجارب المعيشة معبرة، فإن أهميتها الحالية غير كافية، بل يجب أن تمثل في فيلم الذاكرة على مستوى الذكرى، وبتعبير آخر، يجب أن نشعر، أثناء اللحظة المعيشة الحقيقية، بأن هذه اللحظة لن يلفّها النسيان. هذه الصفة المميزة للذاكرة تدعى العرض (و هي لفظة مستعارة من فن التصوير الفوتوغرافي).

ما هي الأحداث المعيشة التي تتمتع بصفة «عدم النسيان»؟ الأمثلة متوفرة. ومنذ عشرينات القرن العشرين سلطت أبحاث (**ساندر** ١٩٢٧، **بينيش** ١٩٧٣، **موندن - إنغلهارت** ١٩٨٦) الأضواء على «أحداث الحياة غير المنسية» الخاصة بكل مرحلة من مراحل العمر:

(ب١) تتركز أقسى الانطباعات في حوادث الوفيات، التي تحدث أكثر الأحيان في العائلة، وكذلك الحوادث المميتة التي شاهدها الإنسان.

(ب٢) تظهر بلاغة التأثير العائلي على الذاكرة الطويلة المدى في المناسبات العائلية مثل الأعياد (عيد الميلاد) وحفلات الزفاف والولادات.

(ب٣) حدوث تجارب مشتركة: لقاءات، مشاجرات، مصالحات، إنفصالات.

(ب٤) حالات جزع وضيق، مواقف ضاغطة، تجارب خطرة، عجز مؤلم.

(ب٥) التأثر بمشاهد طبيعية خلابة.

(ب٦) الحياة المهنية، بدء عمل جديد، التسريح من عمل، الخلاف مع الرؤساء التسلسليين ومع الزملاء.

(ب٧) الأسفار، العطل.

(ب٨) نجاحات وإخفاقات بارزة وهي غير منفصلة بعضها عن بعض، وقد يعكر فشلٌ بسيط زهوَ نجاح باهر.

(ب٩) الذكريات المدرسية تشكل رأسَ مالٍ ضخمًا: الامتحانات، المسرحيات التي تقام في المدرسة.

إن رصيد ذاكرة الأجيال الأربعة التي درست تتشابه تشابهًا عظيمًا حتى ولو كانت على شيء من الخلاف.

تشكل الحوادث المؤلمة عند الناس ثلثي حوادث الحياة والأحداث السعيدة ثلثها الأخير وجميعها تؤلف حياة متكاملة.

علاجات كثيرة أفادت من الدلالة الوجودية للذاكرة تحت شكل «السيادة على الماضي». يقوم الهدف (حيث تدعو الضرورة)، بشكل عام، على النظر إلى الماضي نظرة أخرى. منشأ العصاب، في التحليل الفرويدي، خلافات مع الأهل تعود إلى أيام الطفولة. ففي علاج الناياخان، الياباني، على المريض أن يتوصل إلى التفهم التنفيسي للطريقة التي يجب أن يحرر بها ذاكرته من أخطاء الماضي.

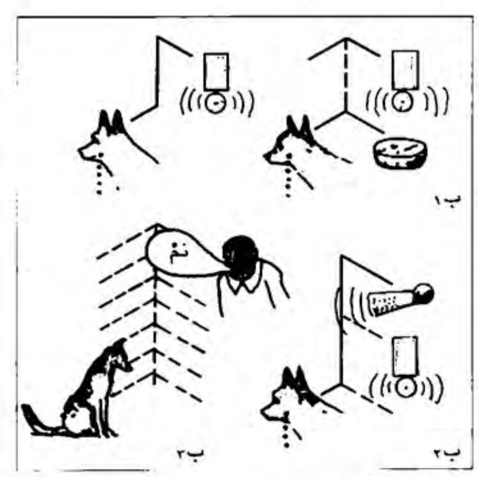
أساليب عديدة تعمل بواسطة الأسئلة: ماذا تعني بالنسبة إليّ بعض أحداث حياتي؟ كيف تمثّلتُ نفسيًا الأحداث البارزة؟ ماذا فاتني في الماضي؟

ليست الذاكرة فقط سياقًا نفسيًا أو «نعمة» نمتلكها ولكنها مهمة يجب القيام بها. وكونها هكذا، فهي تساعد على نضوج الشخصية، وقد عبر **كانط** عن ذلك بقوله:

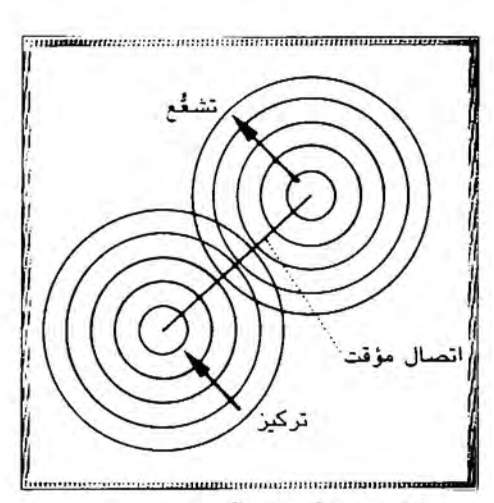
«الذاكرة: مخيلة واعية».

أ، قفص پاڤلوف

أ. انعكاسات مشروطة



ب. نظرية الاشتراط



ج. عمليات عصبية مشروطة

تطورت سيكولوجية التعلّم، خلال القرن العشرين، لكي تصبح أحد أهم فروع علم النفس. إن اكتشاف قواعد التعلّم بواسطة علوم الطبيعة قد وفر إمكانات لا عديد لها تطبق في المدرسة، في العلاجات السلوكية، في الرياضة، في دروس اللغة وفي ترويض الحيوانات. لقد مثل التعلّم، في إحدى المراحل، مركز اهتمام في البحث حتى ظُنَّ أن بإمكانه تفسيرَ النفسية انطلاقًا من قوانينه. ولا يزال هذا الموضوع يشكل اليوم، كما في الماضي، المجال الأساسي لعلم النفس المطبق على التربية أو على علم النفس التربوي.

أ. انعكاسات مشروطة

في سنة ١٩٠٤ نال عالم الفيزيولوجيا الروسي **إيڤان بيتروڤيتش پاڤلوڤ** (١٨٤٩-١٩٣٦) جائزة نوبل على أبحاثه حول ارتكاس سيلان اللعاب.

(أ١) أحدث في بعض الكلاب ناسورًا لعابيًا لكي يستطيع تحديد زمن سيلان اللعاب وكميته.

(أ٢) لاحظ أن هذا الارتكاس ليس مرتبطًا فقط بالمثير الأساسي، أي الغذاء. فالارتكاس لا يحدث عادة إلا عندما يلامس الطعام حليمات الذوق. وعندما يعتاد الكلب ذلك، يصبح الارتكاس مألوفًا كلّما رأى الكلب من يحمل له الطعام.

(أ٣) هذا السيلان اللعابي المبكر هو ارتكاس مُكْتَسَب. عندئذ ميز **پاڤلوڤ** بين الارتكاس الطبيعي «غير المشروط» الفطري والارتكاس المكتسب «المشروط» الذي لا ينتج إلا عن شروط التعلّم.

(أ٤) ولكي يدرس الشروط الدقيقة والضرورية «للارتكاس الشرطي» بنى جهازًا اختباريًا. ربط الكلب إلى إطار (١). وربط جهازًا (٢) يسجّل تدفّق اللعاب بالأنبوب النازل من الناسور. يدق جرس (٣) بانتظام قبل تقديم الطعام (٤). وبعد إجراء عدة محاولات مرتبة كما يلي: إشارة صوتية ثم طعام (و ليس العكس) يسيل اللعاب لدى أقل رنة من الجرس ودون أي طعام. استطاع العلماء، بفضل هذا الجهاز الأساسي، على مدى عشرات السنين التالية، أن يتوصّلوا، في العالم قاطبة، إلى نتائج تعلّم تتعدّل ظروفها باستمرار.

ب. نظريّة الاشتراط

يعتمد أساس النظرية على مفهوم «الارتكاس» الذي وضعه **ديكارت** (١٥٩٦-١٦٥٠). يتضمن الارتكاس مجرّى مُورِدًا (استقبال صاعد للمثير) ومعالجة في الجهاز العصبي المركزي والمجرى المُصْدِر (إثارة هابطة تصل إلى العضو المقصود، الغدة اللعابية مثلًا). تشترط نظرية **پاڤلوڤ**:

(ب١) عندما نطلق إشارة صوتية في الوقت الذي نقدم فيه الطعام يحدث انفعال عصبي يدعى «اتصالًا مؤقتًا».

تشير الصورة اليمنى إلى مسلك جديد: الجرس يثير اللعاب.

(ب٢) يمكن أن يكون لهذا «الارتكاس الشرطي» البسيط امتداد. وإذا دوّى صوت منبه، مرات عديدة، قبل صوت الجرس، تثير هذه الإشارة الصوتية سيلان اللعاب دون أن يتزامن معه ظهور الطعام. دعا **پاڤلوڤ** هذا الارتكاس «بالارتكاس الشرطي من الدرجة الثانية». وقد سجلت في اختبارات مماثلة ارتكاسات شرطية من الدرجة السابعة عند الانسان.

(ب٣) وإذا استعملنا الكلام بدلًا من الإشارة العادية نحصل بهذا «النظام الثاني من التشوير» على مثيرات مختلفة تمامًا وخاصة عند الكلب. فعندما نقول له «أرقد» أو «تعال، إلى هنا» أو غيرها، فلن يكون رد فعله واحدًا، ولكن مجموعة من ردات الفعل الخاصة التي تشكل نمطًا ديناميًا مكررًا، أو تشابكًا من ردود الفعل في الجهاز العصبي المركزي.

ج. عمليات عصبيّة مشروطة

كيف تظهر هذه «الاتصالات المؤقتة»؟ اهتم پاڤلوڤ اهتمامًا كبيرًا بهذه المسألة الأساسية في نظرية التعلّم الفيزيولوجية. فالمعالجة المركزية، في تصوره، مؤلفة من بؤر إثارة تتسع على شكل دوائر شبيهة بدوائر تحدثها حصاة ألقيت في الماء. وإذا تداخلت دائرتان يحدث «اتصال مؤقت» يتلاشى إذا لم تستمر الدائرتان معًا وقتًا طويلًا. وقد أثبت پاڤلوڤ وسواه بواسطة اختبارات مهمة أن البؤر المركزية تتسع فعلًا ولكنها تتقلص أيضًا. فسمّى هاتين الظاهرتين «التشعُّع والتركيز». وبموازاة ذلك، تحدُث مثيرات مشابهة (جرس صغير، مثلًا) ردود فعل مماثلة ولكنها أضعف (إفراز كمية قليلة من اللعاب): هذا هو التعميم. ويمكن، خلافًا لذلك، أن نستبعد إثارات مماثلة إذا أدت إلى نتائج سلبية (تفريغ كهربائي عند صوت الجرس). عندئذ لا يحدث الارتكاس الشرطي: وهذا هو «التمييز».

وحُدِّدت إلى جانب بؤر التحريض هذه بؤر إعاقة. ويمكن أن يلف طوق تحريضي بؤرة إعاقة (حث إيجابي) وطوق إعاقة يلف بؤرة تحريض (حث سلبي). دعي هذا الوضع التنافسي «التعارض الدينامي» (تفكك الروابط بين الوظائفية الحشوية والحركية).

تحيلنا هذه التسمية إلى إواليات وظيفية من المستوى الفيزيولوجي: إن التعلّم، من وجهة نظر فيزيولوجية، هو نظام كثير التعقيد من الاتصالات المؤقتة التي تنشأ بحضور مثير متكرر ومتزامن. وهكذا يتسنّى زيادة القائمة الهزيلة السلوكية الفطرية المنقولة وراثيًا لسجل جديد ومكتسب.

أ١ احتمالية الظهور

أ٢ مكافأة

أ٣ صندوق سكينر

جهاز اختباري

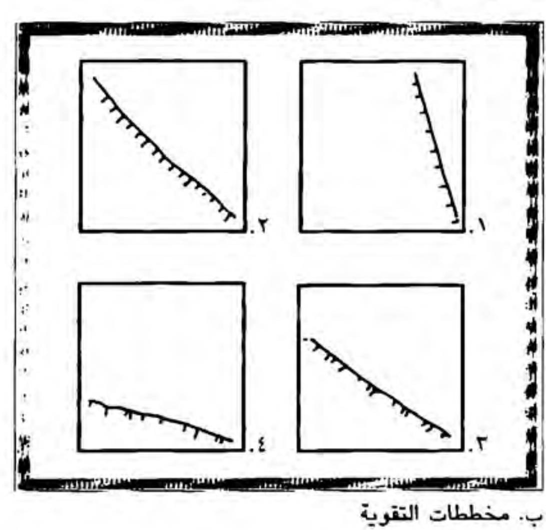
(٤)

(٣)

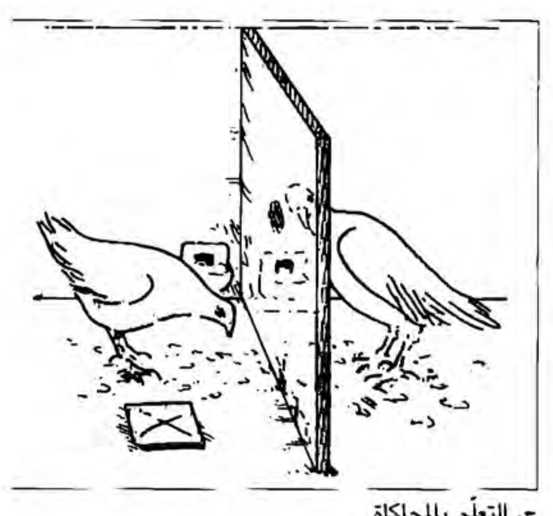
(٢)

(١)

أ. سلوك مقوًّ



ب. مخططات التقوية



ج. التعلّم بالمحاكاة

أعطى **ب. ف. سكينر**، سنة ١٩٣٨، اتجاهًا جديدًا لنظرية الإشتراط. فهو يقول إن المثير المطلق لا يُعرف مباشرة وبوضوح. ونتيجة لذلك ركز اهتمامه على قسم من الاختبار الذي كان **پاڤلوڤ** يسميه «التثبيت» (وهو دعم الارتكاس غير المشروط والفطري الذي يلي مباشرة). درس **سكينر** وآخرون، مستخدمين مفهوم «التعزيز»، تحسين نتائج التعلّم بواسطة مكافآت مختلفة (تعزيز الاتصال). يدعى هذا الإشتراط «فاعلًا» لأن على الحيوان أن ينفذ بعض العمليات (مثل نقر لوحة) قبل أن يحصل على تقوية بواسطة الغذاء.

أ. سلوك مُقَوٌ

فبدلًا من رد فعل كمّي (**پاڤلوڤ**)، واجه **سكينر** «احتمالية ظهور» رد فعل ذي طبيعة نوعية.

(أ١) كان **إدوارد لي ثورندايك**، قبل **سكينر**، يحبس هررة في أقفاص بإمكانها فتح مزاليجها بعد عدة محاولات. وكانت تتوصل إلى ذلك غالبًا عند وضع قطعة طعام أمام القفص (قانون الأثر، فصل ٨/٥). بيد أن احتمالية الظهور هذه (تكرار السلوك) لا يمكن تقييمها إلا بمقارنتها بردود فعل غير معززة (أي دون طعام أو مكافأة أخرى).

(أ٢) إن الطعام، في التجارب على الحيوانات، هو الذي يسبب أكبر احتمالية ظهور. أما عند الانسان فيحدث ذلك عند مخابرة هاتفية من صديق كل ليلة. واستنادًا إلى **پريماك** فإن السلوك يدعم عندما يليه سلوك آخر حالًا مع احتمالية ظهور أكبر (مبدأ **پريماك**). يُسبّب هذا التعزيز، عند ترويض الحيوان، بإعطائه حلوى بانتظام كل مرة يقوم بعمل رائع.

(أ٣) لدراسة التعزيز أو التقوية، يُستخدَم عادة صندوق سكينر الشهير. يوضع الحيوان (أكثر الأحيان حمامة) في قفص أمام قصعة ترتفع آليًا (١) وصندوق مجهز بإشارة (٢)، آلة تصوير فيديو (٣) تسجل تصرف الحمامة بواسطة مرآة (٤). إذا ظهرت اللوحة المناسبة في صندوق الإشارات ولامستها الحمامة بنقرها الزجاج يرتفع المعلف قليلًا وتتمكن الحمامة من نيل مكافأتها. وإذا كانت اللوحة الخطأ فلا تتلقى الحمامة شيئًا. تتعلّم الحمامة على المدى الطويل ألا تتفاعل إلا في حال التقوية بواسطة الطعام. ولكن في غياب المكافأة أو إذا تلقت قصاصًا (كصدمة كهربائية) تتحاشى ردة الفعل على اللوحة الخطأ. غير أن للقصاص عاقبة غير مرغوب فيها: بإمكان ردة فعل خائفة أن تقضي على ما تعلّمته الحمامة سابقًا.

ب. مخططات التقوية

نميز أثناء الاختبارات بين التعزيزات الدائمة أو المنهجية والتعزيزات الصدفوية أو الجزئية التي يمكن، استنادًا إلى مخططات الفسحات المختلفة، أن تتضمن إيقاعًا ثابتًا أو تعزيزات عرضية أو نادرة.

منحنيات الإعداد النموذجية الأربعة:

١. يشير التعزيز بعد كمية ثابتة يشير إلى نجاح باهر؛ ٢ و٣: مع فسحات ثابتة أو متغيرة يتم تحقيق نجاح أقل. ٤: التعزيزات النادرة تسبب النجاح الأقل.

ولكن ينتج أيضًا من هذه التجارب أن التعزيزات الأكثر تكرارًا لا تؤدي دائمًا إلى أعظم النجاحات.

ويتمثل **سكينر** أيضًا بالتعزيزات الذاتية عند الإنسان: «إن المقامر الذي يصيب حظًا خاصًا، يومًا، فيما هو يلبس ربطة عنق معينة، سيلبس هذه الربطة عندما يقامر، «كفأل حسن».

ج. التعلّم بالمحاكاة

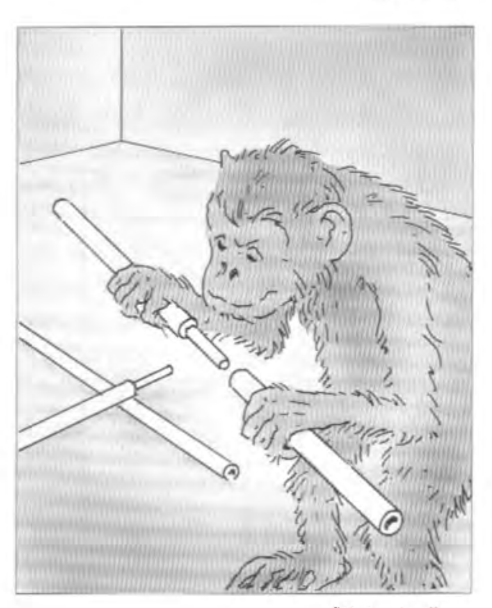
وضع **ألبير بندورا** تكملة أساسية هي: «التعلّم بالمحاكاة». فاستنتج: (١) أن الحيوان وخاصة الإنسان يقلدان نماذج يستعيدان تصرفاتهما على شكل «مثيرات معقدة» (**پاڤلوڤ**)، (٢) يتمثلان أحيانًا هذه التصرفات المعقدة فيعملان بوحيها (تعلّم القواعد)، (٣) يعدلان تصرفاتهما مستنبطين بانفسهما المثيرات المحيطة بهما (التعلّم الإجتماعي) التي تولد تعزيزات (تعزيزات ذاتية). يظهر تعزيز متبادل أثناء عملية التعلّم عند هذا الاختبار: «النموذج» (إلى اليمين) و«المقلد» (إلى اليسار) يرى أحدهما الآخر عبر لوح زجاج. إذا نقر النموذج نقطة معينة من لوح الزجاج يسقط الطعام في معلف المقلد (في العمق). وإذا وقف المقلد، في اللحظة ذاتها، على صفيحة الإشعال (X) تحصل الحمامتان على الطعام. وتتطور عملية تفاعلية على امتداد التمارين. وبعد إصرار على الوطء يجعل النموذج المقلّد يقف على الصفيحة لينقر هو نفسه النقطة ذاتها من الزجاج.

يتيح هذا النوع من التعلّم عند الانسان اكتساب مخططات مسلكية جديدة، فإن له آثرًا كابتًا أو غير كابت تبعًا لنتائج السلوك وهو يتيح أيضًا لأشكال السلوك المكتسبة مسبقًا أن تظهر بشكل أسهل.

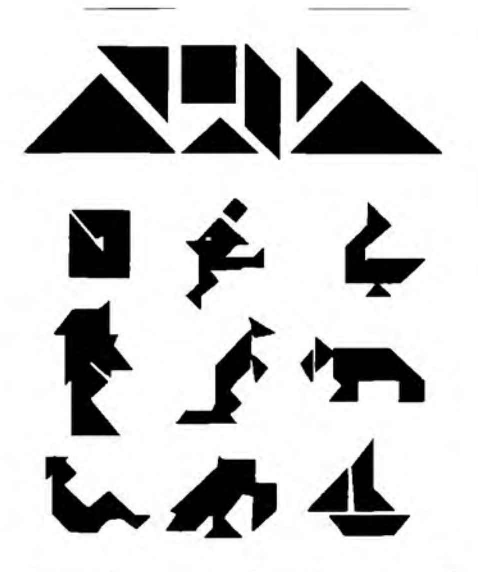
وفي العلاج الفاعل يُلجأ أيضًا إلى التقليد، وذلك عندما يتخذ ولد جبان نماذج له أولادًا لا يعرفون الخوف فيتبنى هو نفسه سلوكهم. وفي لعبة الأدوار يتدرب اللاعب على اتباع سلوك من يمثله. وفي الحياة يتصرف الأولاد بالطريقة نفسها، فيمثلون دور الأب والأم والطبيب والشرطي... يجب ألا تتكون العادات فُرادى، يمكن أن تستعاد في حالة ما قبل الاكتمال.

أ١ أ٢ أ٣

أ. إعادة البناء



ب. العمل بفطنة



ج. ضرائف

لا يكفي، لإيجاد إشتراط، الاعتماد على التعزيزات المذكورة سابقًا. إن الشروط التي تحدث فيها بعض ردود الفعل يمكن أن تكون أيضًا مفتوحة، وذلك بإيجاد وضع إشكالي وبالوثوق بكفاءة الحيوان والشخص موضوع التجربة للتحكّم بها.

أ. إعادة البناء

في بداية الحرب العالمية الأولى اعْتُقِل العالِم النفساني الألماني **ڤولفغانغ كولر** لمدّةِ أربع سنوات، في جزيرة تاناناريف (الكاناري): وسُمح له أثناء استجوابه بأن ينشئ مركز أبحاث خاص بالقرود الشبيهة بالإنسان. وفي كتاب له شهير بعنوان «ذكاء القرود المتفوّقة» (١٩٢١) وصف وصفًا دقيقًا كيف تتغلب القرود على المواقف الصعبة المريبة.

(أ١) علق موزة في قفص على ارتفاع لا يستطيع القرد بلوغه

(أ٢) ثم وضع تحت تصرف الحيوان بعض الأدوات التي تتيح له حل مشكلته، من ذلك بعض العُصيّ والصناديق التي يمكن إدخال بعضها ببعض.

(أ٣) يحاول القرد عشوائيًا ويلعب بالعصي والصناديق. وفجأة يبرز مخطط حل. وتجري الأمور بسرعة. يضع القرد الصناديق بعضًا فوق بعض ويصل العصوين إحداهما بالأخرى ويوقع الموزة أرضًا.

وتفسيرًا لما جرى، دعا علماءُ النفس الجشطلتيون المحيطون **بكولر** هذا الإنجاز «بإعادة البناء». يدعو الناس هذه العملية غير الواعية «التعلّم الضمني» (ستراوب، ١٩٩٧).

ب. العمل بفطنة

إن أشكال الاشتراط الثلاثة (الكلاسيكي، والفاعلي والمعرفي) لا ينفي بعضها بعضًا ولكنها تحيلنا إلى أوجه التعلّم الأساسية المختلفة. واللحظة المحددة للوعي (الحدس) التي يسميها **كارل بوهلر** «آه، إنها هي» (Aha-Erlebnis) لا يمكن تفسيرها بواسطة النظريات السابقة.

ويظهر رأس حاد على منحنيات التعلّم: يدل أثناء اتخاذ القرار على فجائية الحل المعيش. هنا تتدخل نظرية الاشتراط المعرفي. إن هذا النوع من التعلّم يستند إلى النظريات المذكورة آنفًا: مثال ذلك، يحاول الحيوان، في غياب التقوية، طويلًا وعشوائيًا (هذا ما يفسره الإشتراط الكلاسيكي كرد فعل غير مشروط). وإذا تفحصنا وسائل اتخاذ القرار، نكتشف دائمًا توجهات نموذجية. وهذا يحمل على الافتراض أنه، انطلاقًا من لحظة ما أثناء المحاولات، تضاف معرفة كامنة تتيح الاقتراب من الحل. تقودنا هذه الخلاصة إلى نقطة تمفصل التطورات النفسية. لأن هذه النماذج من التعلّم هي أكثر من محاولات بسيطة وردود فعل على تقوية. لقد أصبحت القرود الشبيهة بالإنسان تمتلك أشكال تعلّم لا تنشأ فقط من تنامي المعارف أو الكفاءات لكنها تدل على تفهم لمبدأ الحل. كان الفيلسوف **هيجل** يفسرها كالآتي:

> «لا يعني التعلّم فقط حفظ الكلمات غيبًا في الذاكرة. فأفكار الآخرين لا تفهم إلا بواسطة الفكر، وهذا التفكير هو أيضًا تعلّم».

وبهذا الشكل من التعلّم نصل إلى عتبة الفكر- إذا لم نكن قد اجتزناها.

ج. طرائف

توفر لعبة **تانغرام** الصينية خير مثال على دلالة نظريات الإشتراط الثلاث. كانت هذه اللعبة تسمّى في الصين القديمة «اللوحة ذات الحِيَل السبع». باستخدام القطع السبع (فوق) يمكن تركيب الأشكال الظاهرة (في الأسفل). إن إعادة تركيب هذه الأشكال (وآلاف سواها) هي عملية صعبة. وثمة شك في إمكانية تركيب بعضها. ويأتي الحل صدفة بالنسبة إلى تركيب بعضها الآخر. وأحيانًا تركب استنادًا إلى قاعدة.

يوجد طرق مختلفة لتعلّم هذه اللعبة. وإذا تكلمنا هنا عن «فطنة»، عن حدس، نفكر بتعلّم قاعدة. وبفضل هذا النوع من القواعد نستشف المبدأ وليس الحل. غير أننا على الطريق الصحيح، وليس اكتشاف الحل سوى عملية وقت. إن المسافة بين «آه، إنها هي» وبين الحل الكامل للمسألة يمكن أن تحدد كالتعلّم بفطنة أو بحدس.

ويحدث ذلك، تفصيلًا، بفضل تطور معالجة المعلومة. بين الحالة البدائية والحالة النهائية لموقف إشكالي، ندخل «مؤثرات» (لحظات الحل الجزئي المهمة التي سبقت معرفتها). وكل ذلك يعتمد هنا على «أهمية شهرة هذه الوسائل» (**دورنر**). وكلما كان الشخص الخاضع للتجربة مدربًا، أي صاحب مبادرات في مهنة يدوية، بمقدار ذلك تكون إمكانيات التركيب لديه عديدة وتكون الحلول جديدة. يمكن التمرس بهذا النوع من المحاولات. نتعلّم إعادة التركيب بطريقة أسرع وتوسيع مجال الحلول لنمط من المسائل. تضاف معرفة جديدة إلى معرفة شبيهة بها جرى تخزينها ما يضع فجأة مخططًا جديدًا للحل.

أشار **بياجيه**، الذي أكب على هذا الموضوع، إلى الأهمية التي تقوم على إمكانية إدخال أكثر المجالات غربة عن فرع من العلوم.

Peter could see everything in the room

Peter could see everything in the room

حركات العين

منحنى التعلّم

w = t

45°

w

t

أ١ نظرية تجريبية

1

28

7

45

أ٢ استراتيجية التحوّل

مصباح

b_1

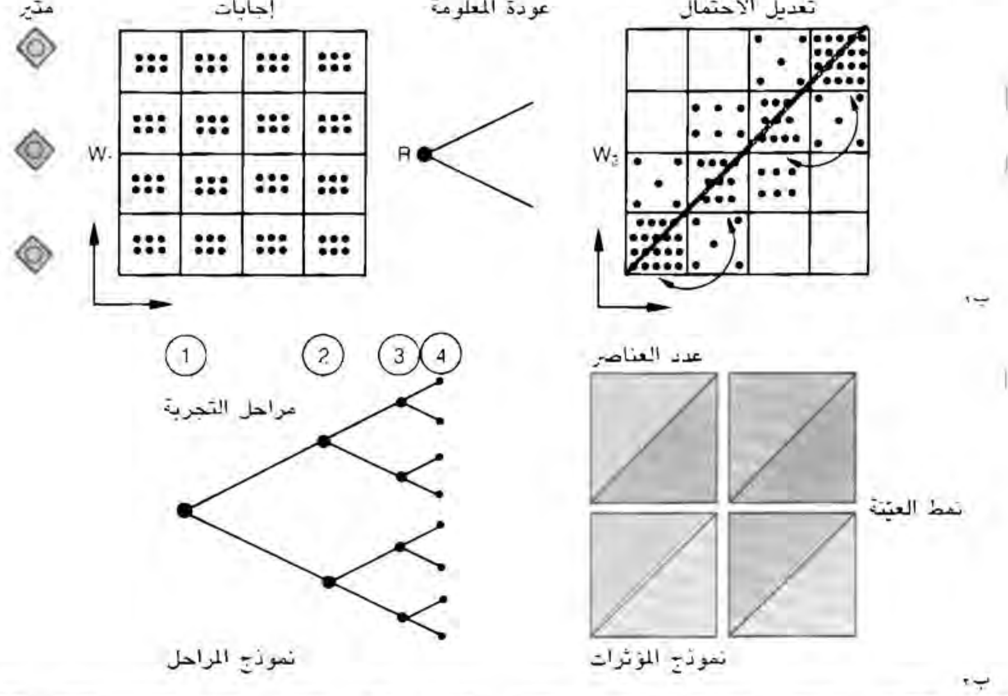
u_1

x

u_2

b_2

أ. نظريات معيارية



ب. نظريات رياضية

إن التعلّم هو، بشكل عام، تكييف المعرفة أو السلوك بواسطة الاختبار. وإذا حاولنا توسيع هذا التحديد وتقعيده نصل إلى وضع مخطط لفئتين من النظريات الشكلية: النظرية المعيارية والنظرية الرياضية. فمن الواضح أن تعميمات متطرفة إلى هذا الحدّ تتأكد بصعوبة، ولكن بالرغم من ضعف هذه النظريات فإن بإمكانها أن توفر قاعدة انطلاق إلى المستقبل وأن تفتح آفاقًا جديدة للتعلّم بواسطة المعلوماتية.

أ. نظريات معيارية

إن التعلّم، شأنه شأن كل سلوك، يخضع لقوانين يرجى لها أن تعطى على شكل نظريات. ويمكن الاكتفاء بتثبيتها فيما بعد (نتيجة الاختبارات) على منحنى التعلّم.

ولكن لكي نستطيع توقع نتائج التعلّم، نحتاج إلى نظريات يمكن مقارنة قيمها الحقيقية بعد التعلّم. وكلما كانت النظرية صحيحة، يكون المنحنى المتوقّع ومنحنى النتائج متطابقين.

(آ١) تقوم المهمة الأولى على تقعيد نتائج التعلّم. ليست «القراءة بشكل أفضل» طريقة قطعية. ونستطيع، بالمقابل، أن نكمم الاستعداد للقراءة بعدد حركات العين (ليست القراءة سيالة ولا سريعة ولكنها تتم على مراحل، على دفعات).

يحتاج القارئ القليل التمرس، استنادًا إلى مثل **ج. ت. بوشويل**، إلى ثماني مراحل، والقارئ المتمرس إلى أربع مراحل.

إن منحنى التعلّم (إلى اليسار) هو تمثيل بياني لدالة التمرين (w = عدد الإجابات الخاطئة، t = عدد ترسيمات التعلّم). يستلزم اختبار تتم فيه نسبة دلالات محددة إلى ترسيمات غامضة الدلالة، من ٤٠ إلى ٦٠ خطًا بيانيًا تقريبًا من أجل الوصول إلى نسبة نهائية حاسمة.

يشير المنحنى إلى درجة التعلّم بين «كل شيء خطأ» (w=t) و«كل شيء صح» (مواز للمحور t). يقارن، في النظرية التجريبية، المنحنى النظري (الأسود)، عندئذ، بالمنحنى المحسوس (الأحمر).

(آ٢) نفهم، في نطاق مفهوم استراتيجية التحول، محاكيات (تقنية عرضيًا) للتحول (بالمعنى البيولوجي)، «فالتبدلات»، هنا، هي تعديل الظروف التقنية.

تشير الصورة إلى التطور «النامي» لإحدى المواسير: ١ = الشكل الأساسي، ٧ = المرحلة السابعة، الخ... وفي المرحلة ٤٥ حصلنا على الماسورة المثالية.

إن معطيات تقنية كهذه يمكن نقلها إلى مسائل نفسية.

يشير المثل لجهة اليسار إلى الحل الكهربائي لدارة تحكي حدثًا من نوع «الارتكاس الشرطي».

تقارن الدارة العليا (الحمراء) «بارتكاس غير شرطي» ولا تعمل الدارة «الخضراء» (الارتكاس الشرطي) إلا إذا كان المبدلان b وx مقفلين. تستبدل الدارة السفلى بالمبدل x. ويمكن، بواسطة الدارة السفلى، إحداث «وصلات مؤقتة» أي ارتكاسات شرطية (يعمل المبدلان u_2 وb_2 «كتأكيدين» بواسطة الأسلاك والمكثفات).

ب. نظريات رياضية

انطلاقًا من عدد قليل من الفرضيات حول سياق التعلّم، تنتج النظريات الرياضية مبادئ صورية تتيح توقعات التعلّم في صيغة رياضية. نلحظ نموذجين أساسيين: نماذج المؤثرات ونماذج المراحل (**كومبس** ومعاونوه ١٩٧٥). ويجب، في كلتا الحالتين، أولًا، تقعيد عملية التعلّم.

(ب١) الشكل الأبسط يتضمن أربع مراحل:

- عدد من المثيرات (يمكن وصفها دون العودة إلى السلوك).
- إجابة في حدود الاحتمالية (إحتمالية صدفوية w_1 هي على سبيل المثال محددة بـ $r = 0$ أي أن جميع الاحتمالات متساوية الحظ).
- عودة المعلومة (المحصلة، نتيجة إجابة كل محاولة يعرفها الشخص موضوع التجربة).
- تعديل الاحتمالية w_2 (في هذا المثل يضيق هامش السلوك على طول الخط الأحمر: $r = 90$).

(ب٢) تتخذ نماذج المؤثرات أسماءها من قواعد الانتقال بين w_1 وw_2.

أربع مراحل متوقعة للتجارب في المثل إلى الجهة اليمنى.

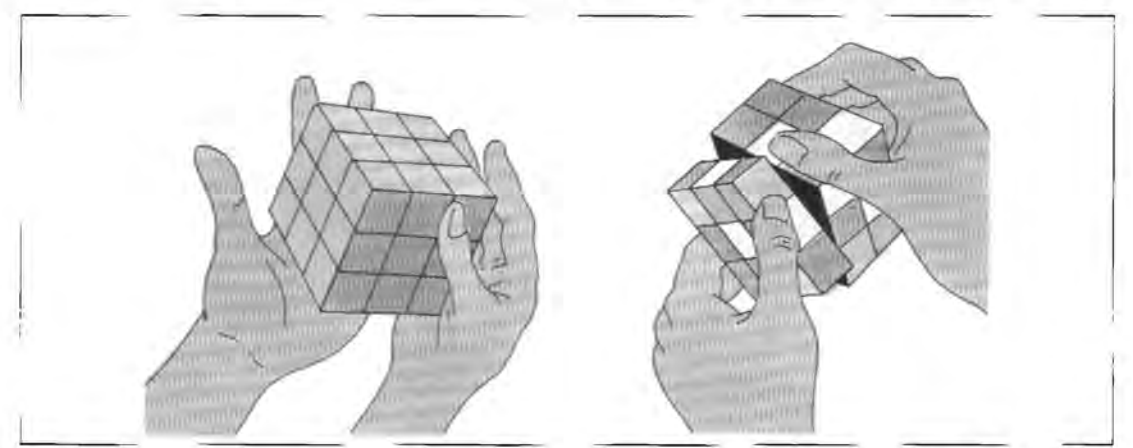
قد تكون أبسط الاحتمالات إتاحة توجهين للإجابة. فينتج عن ذلك عملية تفكيك مع سلسلة متناظرة من توزيعات عودة المعلومة.

من تجربة إلى تجربة، تناط هذه السلسلة من التوزيعات بالقوانين النظرية للاحتمال التي تشكل المحتوى النظري لنماذج المؤثرات.

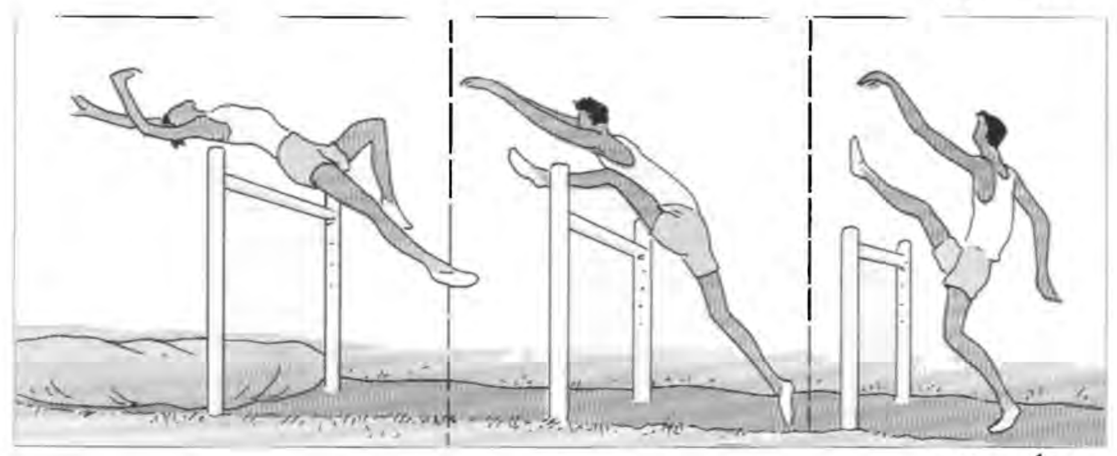
تتميز نماذج هذه المراحل من سابقاتها باعتبار عدد الحالات المفترضة محدودًا (و تسمّى أيضًا «نماذج حالات محدودة»). تتخذ هذه النماذج مظهرين:

عدد العناصر (مقوّمات المثير: عناصر قليلة - أو عدد غير محدد منها) واختيار نمط العيّنة (قَطْع محدود - أو غير محدود): عنصر أو عنصران (بلون أزرق)، عناصر عديدة (N) (لون أخضر)، قطع محدود (أحمر)، قطع غير محدود (أصفر).

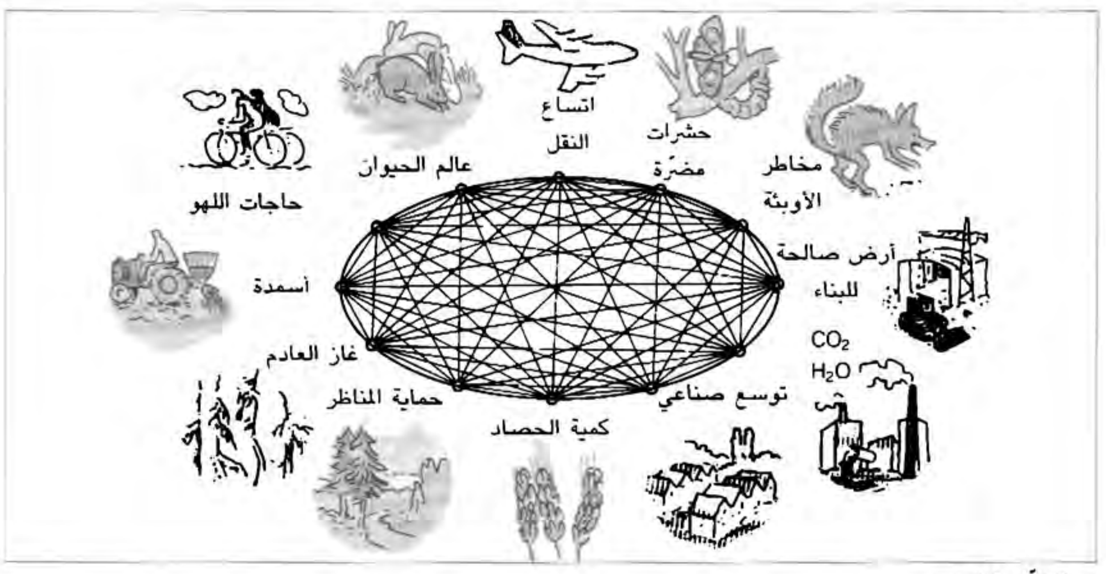
للفئتين هدف واحد مشترك: هو القدرة على وضع صيغة رياضية صحيحة لتقدّم التعلّم. يمكننا، انطلاقًا منها، استنتاج توقع كمّي صحيح للمقادير الملحوظة في عمليات التعلّم.



أ. التعلّم الصدفوي



ب. التعلّم بالتراكم



ج. التعلّم بالمفهوم

ليس التعلّم عملية متناسقة متجانسة. فعلاوة على تنوع المحتوى (فصل ٦/٨)، ثمة صيغ مختلفة للتعلّم تؤدي إلى ازدياد المهارات والمعارف. يمكن توزيع هذه الفروع على مستويات ثلاثة. حتى لو أننا، في منظور تحسين استراتيجيات التعلّم، يمكن أن نفكر بتقدم ما، فإننا لا نستطيع أن ندمج هذه المراحل بمستويات بسيطة من النمو لأنها تتفاعل وتتكامل.

أ. التعلّم الصدفوي

لهذا النوع من التعلّم عدة تسميات: بحث عشوائي، سعي مبني على الاختبار، التجربة والخطأ، وهذه العبارة الأخيرة استعملها **ثورندايك** وهي تطرح مبدأ أساسيًا. تؤدي بعض التجارب العشوائية في كثير من الأحيان إلى نتائج غير مرضية أو خاطئة فترفض. ومن بين هذه التجارب العديدة يبرز حل صحيح في لحظة من اللحظات. فيتوَّج بنجاح ملحوظ. ويصوغ **ثورندايك** «قانون الأثر» هذا هكذا:

يتكرر العمل حتى تكون نتيجته أكثر إقناعًا - أو بتعبير آخر حتى يتكرَّر النجاح تلقائيًا.

ويحدد قانون ثانٍ توقّعات «التجربة والخطأ»: يتوقف نجاح المسعى الاختباري على عدد الاحتمالات والحلول الصحيحة. فإذا لم يكن سوى حل واحد صحيح ولكن فرضيات كثيرة معتبرة خاطئة، تكون الطريقة غير ناجحة.

فلن ننجح، بتجربة عشوائية، في أن نعيد المكعب السّحْري إلى شكله الأساسي بعد أن حُرِّك في جميع الاتجاهات.

ب. التعلّم بالتراكم

للتعلّم شأن، أكثر الأحيان، مع ازدياد الأداءات والتجارب وتناميها وكثرتها. وتخضع نقطة البداية إلى تعديلات في اتجاه امتداد مكاني وزماني وكيفي وكمّي.

يُقيِّم التعلّم بالتراكم (التعلّم التدريجي، التناموي، الإضافي والمستهدَف) مع الأخذ بعين الاعتبار أوجهًا ثلاثة: المعطيات المسبقة (١)، السيرورة (٢)، الطريقة (٣).

(١) يشير الميل المسبق إلى اتجاه التعلّم وبالتالي إلى القيم الأهداف.

فبالنسبة إلى الأداءات كالقفز العالي، مثلًا، يتوافق الميل إلى التعلّم مع زيادة وسطية لارتفاع الحاجز.

وفيما يخص نقل المعارف، علاوة على التكاثر الحدثي، فإن بعض الخصائص النوعية مثل الدقة والنقل (صحة توسع تطبيق الوقائع وإمكانية ذلك) تلعب دورًا حاسمًا.

(٢) إن تقدم الأداءات نادرًا ما يكون ثابتًا

ففي القفز العالي يتوصل الرياضي إلى مستويات مختلفة تبعًا لمستوى تدريبه ولياقته البدنية.

يشير تنامي التعلّم، صدفويًا، إلى مستوى معدلات النمو.

(٣) لاجتياز هذه المستويات تُغيِّر غالبًا طريقة التعلّم.

في القفز العالي يتحول قفز المبتدئ فشخًا سقوطًا على طريقة **فوسْبوري** (أي على الظهر).

ج. التعلّم بالمفهوم

في علم النفس الحديث الخاص بالتعلّم تسمى المرحلة الثالثة التعلّم بواسطة المفهوم («التعلّم بواسطة تصنيف الخصائص»). وليس المقصود، هنا، التجميع كما في التعلّم بالتراكم لكن الوصول إلى طرق رؤية أو عمل متشابكة التشعبات.

يتصور عالما النفس الأميركيان، **جيروم برونر وداڤيد أوزوبل**، المتعلّم، على أنه مكتشف يضم مادة جديدة إلى أجهزته الفكرية الخاصة.

انطلاقًا من شجرة الكستنا وشجرة التنّوب يستطيع الولد أن يكوِّن «مفهوم الشجرة».

يستطيع الانسان، في التعلّم البسيط بالتراكم، أن يكتسب معرفة تتسع شيئًا فشيئًا. والحال أن الانسان اليوم غارق في الوقائع التي تجعل النظرة الإجمالية صعبة أو مستحيلة. فعليه، في الحقيقة، أن يقيِّم بدقة جميع المعطيات في تبادليتها (يتكلم **برونر** عن تأكيد فوري أي تقييم متلازم مع النشاط).

إذا كنا لا نريد، في التوازن الاجتماعي - البيئي، أن نعتبر إلا بعض العوامل الفاعلة وإلا علاقتها المتبادلة، في آن واحد، فإننا قد نبلغ بسرعة حد المعقولية.

والأمر نفسه ينطبق على الرياضي الذي يبلغ حد مؤهلاته الادائية. ولكن هل يوجد حد مطلق، في القفز العالي مثلًا؟، عندما تحطم الأرقام القياسية العالمية، فذلك بفضل طرق تدريب جديدة. وفي ميادين العلوم تحدث هذه القفزات إلى الأمام بفضل نظريات جديدة وتقنيات جديدة.

وبعد اكتشاف المضخِّم، لم يمض وقت طويل حتى استخدمه **بيرغر** لتضخيم الإشارة الضعيفة جدًا في الدماغ.

تسبب النظريات الجديدة «ثورات علمية» (**ث. كوهن**) لانها تتجاوز صعوبات كانت لا تزال، إلى حينه، تعتبر غير قابلة للحل وذلك بإيجاد حلول جديدة أو «نُظُم تصوّر».

يكتسب التعلّم بالمفهوم منهجًا خاصًا. وبما أن موضوعاته مرتبطة بأنظمة أو بأنظمة عليا (نُظُمُ النُّظُم)، فإن من الحصافة، لهذا التعلّم «النظامي»، أن يلجأ إلى الحاسوب، وهكذا يندمج الإنسان والحاسوب ليشكلا وحدة تعلّم (فصل ١٤/١٠).



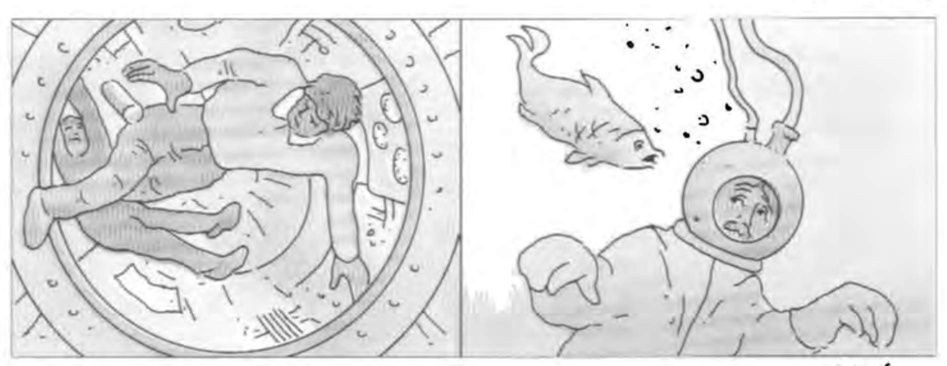
أ. تعلّم المهارات



ب. تعلّم المعارف



ج. تعلّم السلوك



د. تعلّم التكيّف

في القرن السادس عشر وفي بوهيميا، روى اللاهوتي والمربّي **جوهان آموس كومينيوس** (١٥٩٢-١٦٧٠) أن صبيًا بعمر سبع سنوات نشأ في الغابة بين الحيوانات البرية. وذُكرت حالات مشابهة هنا وهناك. ففي الهند ومنذ عشرات السنين، عاش أخ وأخت طفولتهما الأولى بين الذئاب. وجاء في التقارير أنه يستحيل تطوير هذين الولدين ليصبحا إنسانين عاديين. فالسنوات الأولى حاسمة بالنسبة إلى الحياة المستقبلية.

ولكن يتوجب علينا، حتى في المراحل التالية من حياتنا، أن نظل نتعلّم حتى لا نتحجر ولا نعاني مشاكل نفسية. غير أن التعلّم الذي يواكب الحياة لا يسير على وتيرة واحدة. فهو خاضع للتغيرات المستمرة سواء من حيث المحتويات أو من حيث الأساليب.

أ. تعلّم المهارات

إن الميدان الأول للتعلّم هو تعلّم المهارات التي نحتاج إليها في قطاعات النشاط الهامة من حياتنا المهنية، وفي التسلية والمهمات اليومية. تتطلب هذه المهارات وظائف حسية حركية كثيرة التنوع، مثل قيادة السيارات.

ويحتاج المهني أو الهاوي، لضفر سلة أو لصنع إناء خزفي، إلى معارف ومهارة ومواد صالحة وإلى مثابرة...

وإذا لخصنا هذه الشروط (كما فعل **غيلفورد** في تحاليله العواملية للأداءات التقنية) نصطدم بأربع مهمات أولية للتعلّم:

(١) إن التصرف بشروط تقنية يمكن أن يصدر عن الذات أو عن الآخرين، بيد أن استخدامها الشخصي يوفر بعض الفوائد.

(٢) الشروط الشخصية حاسمة، تبعًا للمهمة، وبالرغم من الفروق الضخمة: القوة الجسدية، الحالة الصحية، المؤهلات الحسية، سرعة التجاوب والطاقة على التوليف.

(٣) المفعول الارتجاعي للأداء، أي معرفة النتائج الحاصلة، هو ذو أهمية خاصة لتطور التنفيذ. وهو يتضمن أيضًا الحافز الذي يحمل إلى أبعد من ذلك.

(٤) لا يظهر التناسق الشامل إلا في نهاية أداء حسي حركي مكتمل وموجه، سواء في تناغم التحقيقات الجزئية أو في التوجيه الدينامي.

ب. تعلّم المعارف

إذا كان من يكتسب مهارة يعود دائمًا بالفكر والقول إلى ما تعلّمه، فالأمر أقل انطباقًا على من يكتسب معرفة. فعند هذا الأخير تَمْثُل المعرفة في حد ذاتها في الصف الأمامي وتشغل أفكاره. وتعلّم المعارف، أيضًا، قلما يواجَه في أساليبه.

وفي العقود الأخيرة من السنين فقط درست مختلف أشكال اكتساب المعرفة، أي في معرض البحث حول الإبداع.

إن المقصود، أساسًا، هو تمييز التعلّم المجمَّع من المفرَّق (كذلك بالنسبة إلى الفكرة).

ففي الحالة الأولى، شكلٌ موضوعي واحد يجب أن يُعد، وفي الحالة الثانية ليس من شكل أو بالأحرى أشكال عديدة ممكنة من الأهداف يمكن النزوع إليها.

ليست هذه الفروق بارزة دائمًا مسبقًا. أحيانًا يحدِّدها الإنسان لنفسه بنفسه.

إن طالبًا منكبًا على دراسة الفن المعماري لعصر النهضة يتعلّم كل عنصر «صحيح» في البناء. أما الاختصاصي فيستخدم معرفته:

يكتشف التعديلات التي طرأت على هذا الفن بالنسبة إلى النماذج القديمة ويلاحظ تبدلاته الإقليمية. إن تعلّمه أكثر طواعية من التعلّم المتحجر للطالب المبتدئ.

ج. تعلّم السلوك

في هذا الميدان الثالث نتعلّم التصرفات المنظمة، أكثر الأحيان بطريقة عفوية وبواسطة الاقتداء.

فعندما نحاول، مثلًا، أن نعلم ولدًا كيف يقطع الطريق، فلا فائدة من الارشادات إذا كان أحد المشاة في الوقت نفسه يعبر الطريق فيما الإشارة الحمراء مضاءة ويبقى بلا عقاب.

إن للمثل (الإيجابي أو السلبي) أثرًا أكثر فعالية كعامل يدفع إلى التعلّم. ففي الأبحاث حول أثر المثل بعض المميزات لها أهمية خاصة. تمارس النماذج تأثيرًا قويًا عندما تكون غالبًا ماثلة أمامنا ونتقيد بها (كما في لعبة الأدوار).

وهذا ينطبق، بشكل عام، وبإلحاح، على الوالدين وعلى غيرهم من الناس. للمثل تأثير فعال إذا كان مشهورًا مثيرًا للاهتمام جديرًا بالاحترام ويساعد بشكل أسهل على بلوغ أهداف محددة.

د. تعلّم التكيُّف

هذا الميدان من التعلّم هو الأوسع. يجب عدم تعلّم تصرفات التكيف بشكل إفرادي.

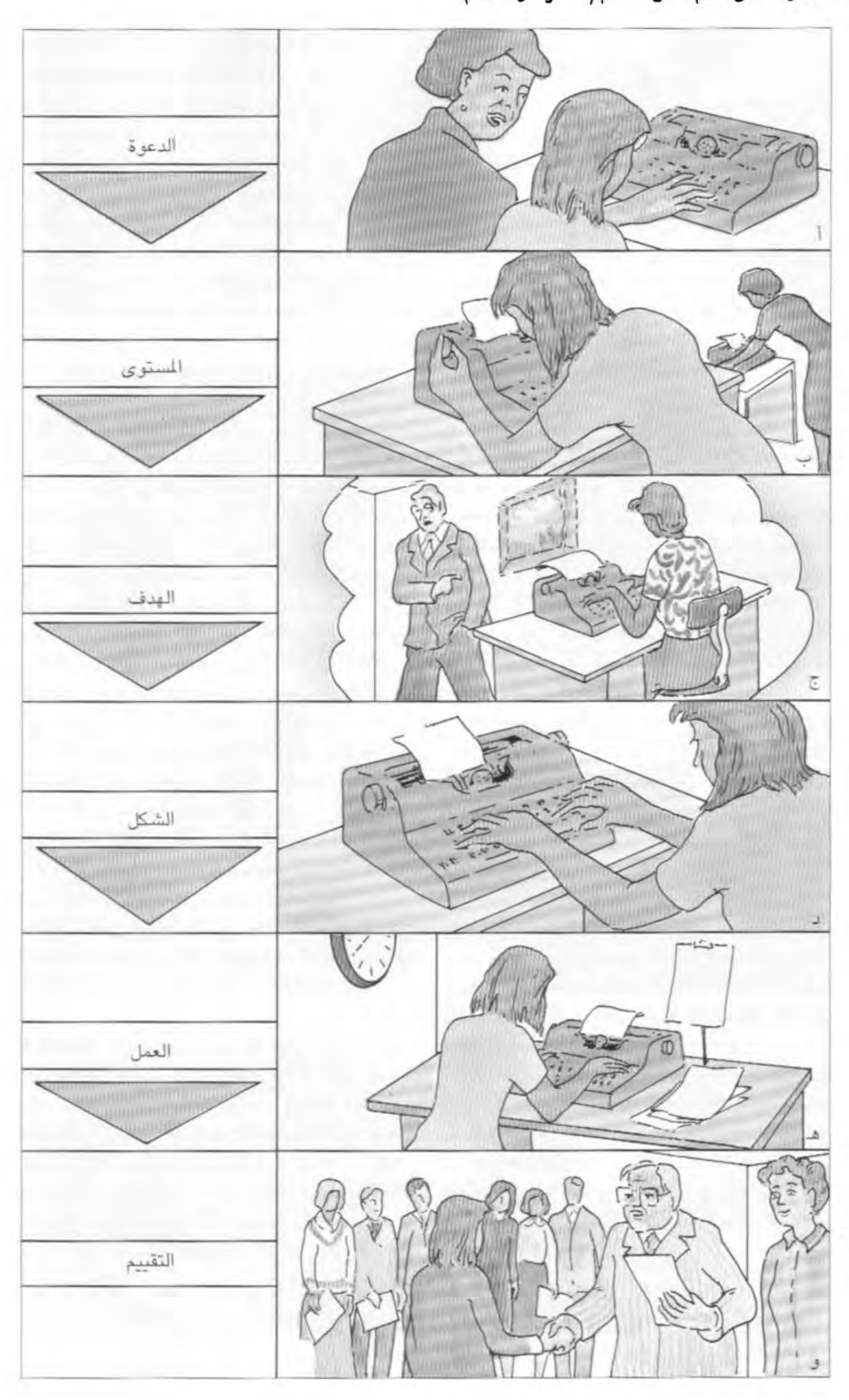
إن نوعًا من العصافير، مثلًا، يعيش أزواجًا في الأدغال وأسرابًا في السهوب حيث القوت أكثر وفرًا وأسهل تناولًا.

ولدى الإنسان أيضًا كثير من أشكال التكيف الفطري، غير أن تكيفات جديدة يمكن أن تنجح.

وعلى سبيل المثال، برامج تدريب الغطّاسين ورواد الفضاء.

ففي هذا التعلّم يجب إعطاء الوقت الكافي للجسم وتدريبه لكي يستطيع التكيف مع الظروف الجديدة.

إن العناصر المتاحة لكل فرد ودرجات هذه الميادين الأربعة للتعلّم وأشكالها الخاصة تختلف من فرد إلى آخر. وكقاعدة عامة، ليست جميع الإمكانات مستنفدة بشكل كامل.


الدعوة
أ
المستوى
ب
الهدف
ج
الشكل
د
العمل
هـ
التقييم
و

ليس التعلّم أمرًا سهلًا إلّا في قسم ضئيل منه. إنه أكثر الأحيان شاقّ، مضنٍ يتطلب وقتًا ويحمل على خيبة الأمل. على المعلم (ولو صعب عليه ذلك) أن يضع نفسه موضع المتعلّم. يوضح هذا الوضع توالي مراحل التعلّم جميعها.

أ. الدعوة

تنافس موضوعات التعلّم بعضها بعضًا. لا أحد يستطيع أن يتعلّم كل شيء. لهذا يجب أن تواجَه مادة التعلّم في دلالتها.

مثال ذلك: الضرب على الآلة الكاتبة. يمكننا أن نختار شيئًا آخر لنتعلّمه: فلماذا الضرب على الآلة الكاتبة بشكل خاص؟

تهدف الإجابات إلى خلق دوافع إلى مادة هذا التعلّم.

ب. المستوى

لدى طلاب مادة الضرب على الآلة الكاتبة، حتى ولو لم يكونوا قد استعملوا الآلة على الإطلاق، معلومات مختلفة مسبقة، مثل استخدام العدة التقنية وعادة حضور الدروس.

فلكي لا تثبط همتهم دفعة واحدة، عليهم، في أكثر الأحيان، أن يلقوا نظرة شاملة، ويتعرفوا إلى الآلة عن كثب ويعتادوا جو الدروس.

يعتمد كل تعلّم على الاتصال الأول كثيرًا (كأول انطباع يعطيه الإنسان).

ج. الهدف

لا يفهم غالبًا بالدافع سوى الدافع المسبق. إن الدافع المستهدف، بالنسبة إلى التعلّم هو الدافع الأهم: ماذا أستطيع أن أفعل فيما بعد بالشيء أو بالاختصاص الذي أتعلّمه؟

إن التلميذة التي تتصور نفسها وقد نجحت كسكرتيرة إدارية ممتازة، أي أنها تستطيع أن تتمثل «جزاء» اجتهادها، هي التي تتحمل الصمود حتى نهاية دروسها.

ومن الناحية النظرية لا ينتظر الإنسان، كالحمامة المدجنة، حبوب الغذاء، فانتظار المكافأة هو من الدوافع. والدلالة العرضية «لمعنى» جميع هذه الجهود ليست خاطئة في شيء.

د. الشكل

في نظام تعلّم الضرب على الآلة الكاتبة بالأصابع العشر تتخذ الأصابع وضعًا «صوريًا» محددًا لكي تستطيع تشغيل الملامس الخاصة بها «دون أن تراها».

وكذلك إن في رأس حارس المرمى أبعاد المرامي. وأفضل شكل للتعلّم هو ذلك الشكل الذي يتغلغل في كيان الطالب وقلبه.

والوسيلة للوصول إلى ذلك هو موضوع الصفحات التالية. ولن نتعامل، هنا، إلا باختصار مع الطلاب المبتدئين الذين قلما تهتم بهم الأبحاث التي تُجرى حول التعلّم.

والوجه الاجتماعي للتعلّم ليس أقل أهمية من الوجه التعليمي. والتعليم يبرع فيه أناس أكثر من أناس. فكيف يعالجون ذلك؟

إن قليلًا من نكران الذات هو ضروري:

يجب الذهاب لملاقاة المتعلّم والتعرف مسبقًا إلى ما يعترضه من صعوبات وعدم الانزعاج من مقاومته وعدم الشعور بالإهانة في حال نكران الجميل.

هـ. العمل

إن الجزء الحاسم والأطول من التعلّم هو وضعه في موضعه. فلا المعلم ولا المتعلّم يظلان متماثلين مع مرور الزمن. ففيما أن أحدهما يتجه «صعودًا»، يتجه الآخر ربما «نزولًا». إن المراحل الصغيرة والتكرارات هي مهمة جدًا لضمان فرص الانسجام.

من المفيد، أحيانًا، ترك مجاز قصير خلاءً في التعلّم الشفهي (و ليس في التعلّم الكتابي لأن القارئ يتعهد ذلك بنفسه).

تقترب الحركة المترجحة من الحياة النفسية أكثر من الخط المستقيم. عندما نشعر بأن معنىً كليًا قد فقد (و هذا ما يحدث حتمًا) فعلى المتعلّم والمعلم أن يتذكرا القواعد الأربع التي تحكم جهود اللحظة.

١) هذا لخدمتي
٢) هذا مهم
٣) هذا غير ضار
٤) هذا ممتع أيضًا

ز. التقييم

يجب أن يعرف المتعلّم دائمًا أين هو من عملية التعلّم.

وعلى المعلم أن يعطي الطالب إجابة عن المستوى الذي بلغه، أن يقول له ماذا تعلّم وماذا ينتظره دون أن ينفّره.

وكذلك فالكثير والباكر جدًا أفضل غالبًا من القليل جدًا والمتأخر جدًا. عندما نمدح طباخة على طعامها يستحسن ألا نفعل ذلك بعد تناول الحلوى.

وفي تعليم الضرب على الآلة الكاتبة تترك الدروس خلالها مجالًا للاختبارات. ومن المهم أيضًا أن البعض يتحمل المزيد من المعلومات والإجابات أكثر من سواه، والأكثرية تتحمل إجابات سلبية أقل من إيجابية. التجربة وحدها تعلّم المعدل الصحيح.

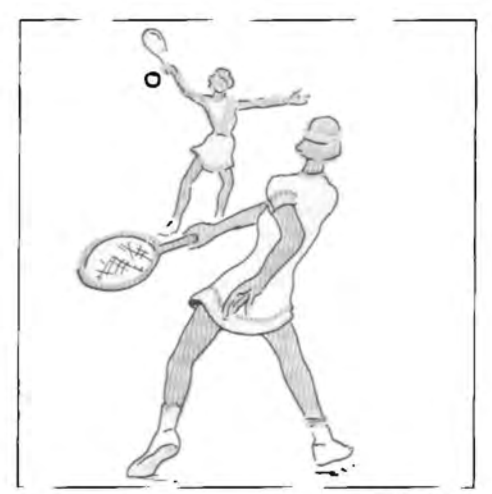
تعتمد طريقة التعليم الفضلى على إثارة الحماسة. وذلك لا يحدث إلا بنزع العوائق من أمام الحماسة، تلك العوائق التي تبرز في كل مكان سواء بسبب الظروف الخارجية أو فقدان الطاقة الداخلية.



أ. وحدات التعلّم



ب. سياق التعلّم



ج. أثر التدرّب

د. الحافز/الدافعية



هـ مقدار الدلالة



و. مقدار المعنى

يعالج هذا العنوان الهدر العظيم في الوقت. من الصعب حساب ساعات العمل الضائعة كل يوم بسبب التدريس السيء والتكاليف العبثية التي تسببها الكتب المدرسية السيئة.

أ. وحدات التعلّم

تحتوي كل مادة مجموعة من المعطيات نستطيع تنظيمها بطرق مختلفة. إذا كان المطلوب، مثلًا، الحصول على معلومات عن قارة أوستراليا (كمعلم/مؤلف أو تلميذ/مطالع)، فالأمر يتعلق، أولًا، باختيار الوقائع.

وبما أنه لا يمكن بلوغ الشمولية، فيجب بالتالي تقرير ما يجب استثناؤه: فاستثناء المعلومات أصعب من جمعها.

ما استُبْقي يجب أن يوزع أقسامًا. ويندر أن يكتفى بمستوى واحد منَ الأقسام. ثم يجب التفكير، تاليًا، بوضع دليل تراتبي للمحتويات (مرتب حسب الأهمية).

وفي تدرج متناقص نصل إلى فصول فرعية، إلى مراحل معزولة حتى الوصول إلى وحدات صغيرة من المعلومات لا تتضمن سوى جانب واحد أو جمل معدودة. تُدْعى هذه الوحدات الأخيرة، في الروائز، أسئلة (مهمات معزولة). وهي إذ تتصف بكونها وحدات تَعلُم فإنها تسهل (إعادة) المعرفة. وأهم معيارين هما:

الموضوعية (هل هذا شيء موثوق به، صحيح، يتمتع بصلاحية عامة أم هو افتراضي؟)

مستوى الصعوبة (كمية المعلومات السابقة، معلومات جديدة، بذل الوقت، الفائدة العامة).

من المفيد، فيما يخص مستوى الصعوبة، إدخال منهجية الجهد الجسماني أو العقلي (من الأسهل إلى الأصعب إذا أمكن).

ب. سياق التعلّم

إن كل من يكتسب معارف عن أوستراليا ليس من أجل الامتحان، بل ليسافر إليها، فإنه يجمع للحال، معلوماته في إطار منظم (في سياق). تشكل المعرفة شمولية لا تستقل عنها أدنى وحدة من وحدات التعلّم. وإذا جعلنا من هذه المعرفة حلقة من حلقات التقدم تكتسب عملية التعلّم بكاملها ميزة رفيعة: يسهل علينا الحفظ إذا عرفنا بالضبط لماذا نتعلّم.

ج. أثر التدرب

يجب أن تثبَّت وحدات التعلّم وتحضَّر في منظور العمل اللاحق. فليس من وصفة صالحة لذلك على المستوى الشمولي.

«فالضربة المقلوبة» (بقفا المضرب) في لعبة كرة المضرب هي وحدة تعلّم. يمكن حذف بعض الوظائف الفرعية بواسطة التدريب، مثل عضلات الساعد، ثم ترك المدرب يستهل ضرب الكرة دائمًا من الجهة اليسرى (بالنسبة إلى اليميني) حتى ترسخ هذه الوحدة.

كل ذلك يتعلق فيما بعد «بالنقل». ويفهم بذلك التمارين المتعلقة بوحدات تعلّم أخرى. المقصود، هنا، التبادل السريع بين الضربات السوية والضربات المقلوبة.

د. الحافز / الدافعية

الكأس، في مَثل كرة المضرب، هي أحد أفضل المحفزات في معنى نظرية التعلّم **لسكينر** (فصل ٢/٨). فإذا لم يكن من كأس تحرز يجب أن يخلق الإنسان حافزه بنفسه. نتوصل إلى ذلك بطريقة أفضل بالتحدث عن تقدم (تبادل بين المدرب واللاعب) إلى حد أن تحسُّن آداءات اللاعب يُلهب حماسته.

هـ. مقدار الدلالة

حدد بعض الباحثين (**نوبْل** وأعوانه سنة ١٩٥٢)، اعتمادًا على مفهوم «مقدار الدلالة»، ميزةً هامة لآثار التعلّم.

إذا طلبنا التصورات التي تثيرها سلسلة من الكلمات، فإن بعض الكلمات تثير الكثير من الأفكار وبعضها الآخر القليل.

تشكل كمية التصورات المعطاة دلالة قوية على أهلية الكلمة لكي تُحفَظ وعلى أثرها الإيحائي. وبمقدار ما تثير من تصورات بمقدار ذلك يصعب نسيانها وتآسرنا.

ولكن ليس دائمًا بالاتجاه الإيجابي؛ فالآثار السلبية هي غالبًا أقوى. فكلمات مثل «شجرة» أو «غابة» الأكثر تزودًا بالطاقة المعنوية، يمكن بسهولة ان نصوغ منها «شعارات» (سلام الغابات، موت الأشجار) تنتشر بسرعة وليس نادرًا أن تستخدم كأسلحة.

و. مقدار المعنى

في اختبار أجراه **ليونز** (١٩٧٤)، تبين أن الأفراد الخاضعين للاختبار بحاجة كمعدل وسطي:

إلى ٩٣ دقيقة لحفظ ٢٠٠ كلمة عارية من المعنى وإلى ٢٤ دقيقة لحفظ قطعة نثرية من ٢٠٠ كلمة و١٠ دقائق لحفظ ٢٠٠ كلمة مقفاة.

إن حفظ الشعر أسهل. ينطبع إيقاعه فينا ويأسرنا. وتزداد طاقة التعلّم أيضًا إذا كانت وحدات التعلّم على علاقة مباشرة بمشاغلنا وبأهدافنا الشخصية.

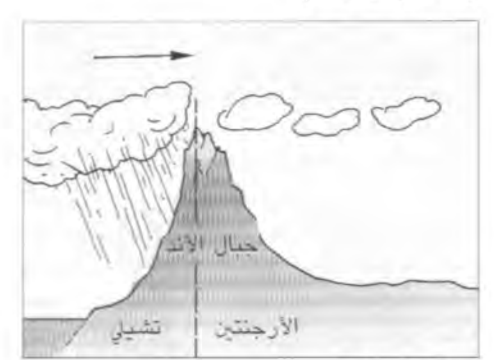
تمثل كل مادة تعلّم عدة مستويات معنوية، غايتها بالنسبة إلى الفرد (فائدة، علاقة بالتجربة الخاصة)، قيمتها (أثر إيجابي على الحياة الشخصية)، أهميتها العامة (التي يعترف بها الآخرون)، طابعها الممتع (مصدر سرور).

فكل من يتعلّم، مثلًا، التاي شي شوان ودلالاتها الخلفية، يتمنى أن يتحكم بقوانينها المعقدة.



أ. تنظيم التعلّم





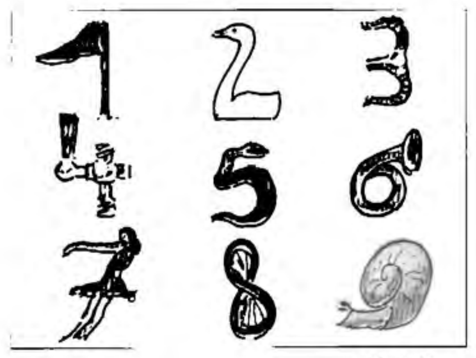
ب. مساعِدات التعَلم



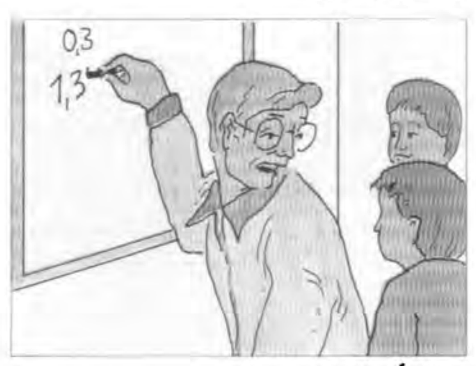
ج. إسهام خاص



د. تكثيف المادة



هـ إغناء المعنى



و. تخفيض القلق



ز. مراقبة التعلّم

ح. التعلّم بالتعليم

التدريب على التعلّم هو تصميم واعٍ وإعداد لأفضل شروط للتعلّم. تتمفصل مبادئه في ثمانية ميادين.

أ. تنظيم التعلّم

التنظيم هو القانون الأساسي للتعلّم. إن ضبط البيئة وربط مراحل التعلّم وتوزيع وحدات المعرفة هي ذات أهمية حاسمة.

(١) البيئة: تكون، إذا أمكن، خالية من التشويش وملائمة للتعلّم. وفوق ذلك، يجب أن تكون الوسائل المساعدة الضرورية في متناول اليد (مثل القواميس).

(٢) ترابط التعلّم: مراحل تعلّم ثابتة ولكنها قابلة للتعديل مع مرونة. إن التناوب المنهجي بين العمل الفردي والعلم الجماعي هو ملائم بالنسبة إلى الأعمال الأكثر أهمية للتحقق من المعارف. لدى الجماعات (من ٤ إلى ٥ أشخاص متساوي الكفاءات) توزيع واضح للمهمات يفرض إعدادًا فرديًا.

(٣) وحدات التعلّم: من الأفضل التجزئة إلى أقسام صغيرة. بالإمكان زيادة حجم وعدد الوحدات تدريجيًا. تستخدم الوقفات القصيرة بينها (حتى حدود الدقيقة) للاسترخاء

(٤) فترات التعلّم: من الأفضل، بشكل عام، أن تكون ثلاث مراحل من ٢٠ دقيقة من أن تكون مرحلة من ٦٠ دقيقة دفعة واحدة. يتناوب، هنا، الشفهي والكتابي والحركة.

ب. مساعِدات التعلّم

المساعدات على التعلّم هي كأيدٍ ممدودة (تَذْكِرات). ومع مَعْلَمَة التعلّم تصبح أشكال جديدة أكثر فأكثر وضوحًا، لكن الأشكال القديمة ما تزال تحتفظ، مع ذلك، بصلاحيتها.

كان **غوته** قد علق لوحات عديدة على جدران مكتبه. تبرز الصورة «تذكرة». فالكلمة الإنكليزية (Duck) التي تعني بطة يمكن أن تقرن، بالفكر، بالكلمة (Dock) (مرفأ) حيث يسبح البط.

ج. إسهام خاص

لا تزال مادة التعلّم غريبة. يتوجب امتلاكها.

قال **شوبنهاور** عن الحقيقة التي يمكن ترددادها بسهولة إنها كالضرس المستعار، عنصر اصطناعي في جسدنا. وحدها الحقيقة التي نكتسبها بأنفسنا «هي التي تخصنا فعلًا».

على الإنسان أن يقرر بنفسه الطريقة التي بها يمتلك معرفته.

يمكن، مثلًا، أن يستمع إلى محاضرة إضافية مصحوبة بعرض صور شفافة. مخطط بسيط بقلم الرصاص، ولو غير كامل، يتيح ترطيب الذاكرة سريعًا.

د. تكثيف المادة

يتم الفهم بالتكثيف، بالتوليف، عندما تكون المادة مبسطة («في جملة»). الصورة هي إحدى الوسائل لتحقيق هذه الكثافة «الساطعة كنور النهار».

السبب الذي يجعل الأرجنتين أكثر جفافًا وأقل خصوبة من التشيلي تجعله الصورة معقولًا (شكل د).

يقول **هيردِر**: «لكي تُفهِم، تحدَّثْ إلى العين».

هـ. إغناء المعنى

بين تعلّم مقاطع مجردة من المعنى ونص حصيف فروق تدريجية. جميع المقاطع المجردة من المعنى تقريبًا (مثل أسماء الماركات الجديدة) لا تلبث أن تكتسي معنى ما نصنعه نحن بأنفسنا.

إن من لا يميل إلى نسبة المعنى هذه يعترض تعلّمَه عائق ضخم. بيد أنه بالإمكان تسهيل إغناء المعنى بطريقة واعية (شكل هـ).

إن من ينجح في خلق علاقة شخصية مع الأرقام ينجح أيضًا، في حالات أخرى، في تكوين صورة حسيّة وحيّة، إنه لمكسب لعمق الإعداد.

و. تخفيض القلق

الخوف من الامتحان شيء طبيعي: يجب عدم تأزيمه بل إلغاؤه:

التمدد قبل الامتحان،

كبت الأفكار السلبية،

التحدث مع أشخاص نجحوا في هذا الامتحان،

ممارسة لعبة تبادل الأدوار بإبدال الموقع بموقع الفاحص،

التمرس بأوضاع لا يعرف فيها الطالب شيئًا ثم يحاول أن يتخطاها بصورة طبيعية،

تعزيز الثقة بالنفس، مثلًا، جماعة التدرب على الإحصاء حيث يُدعى الإنسان بأسماء «ذات مغزى» (**م. غاوس، م. لايبنتز**)

ز. مراقبة التعلّم

«عمر اللماذا» هو فترة من الطفولة الأولى تفقد الكثير من ملامحها فيما بعد. إن تفسيرات اللماذا تشبه، في الواقع، تقاطع شوارع. فكلما كانت التفرعات كثيرة تكون دلالة نقطة التلاقي أعظم.

هناك أفكار متداعية تكميلية تستخدمها عمليات المراقبة. تبدو المراقبة الذاتية فعالة بتدوين الأعمال الكتابية على بطاقات. تتم المراقبة من قبل الآخرين بواسطة الاستماع.

ح. التعلّم بالتعليم

كان **سينيك** يقول: «يتعلّم الإنسان فيما هو يعلِّم».

عندما نعلِّم نعتبر جميع الحقائق السابقة كبديهيات (أثر معلِّم-معلَّم)، ولكن تُنقل المادةُ في صورة تتكيف معك.



أ. اضطرابات ناشئة عن الظروف



ب. اضطرابات التنفيذ

ليست اضطرابات التعلّم (مثل عدم التقدم) عوائق بالضرورة، يمكن أن تنشأ عن بعض الاستعدادات في مجالات التعلّم المنافسة. توزع الاضطرابات إلى اضطرابات ناشئة عن ظروف سابقة للتعلّم وأخرى ناجمة أثناء التعلّم وذلك بحسب أسبابها ونتائجها.

أ. اضطرابات ناشئة عن الظروف

(أ١) من يستطيع أن يحفظ درسه في حين تجري حفلة زفاف في الطابق فوقه؟ وليس من معيار واحد للتشويشات المنبعثة من الخارج. إن ما يزعج البعض ليس بالضرورة مزعجًا للآخرين.

لا نستطيع أن نتفادى مصادر التشويش بسد أذنينا. وليس بالمستطاع إخماد التشويش أو التعويض عنه عندما يبلغ عتبة الإيلام.

يكون التشويش مؤذيًا عندما يحدث بصورة غير منتظمة وخاصة عندما يكون غير معتاد.

(أ٢) ليست مصادر التشويش الداخلي بارزة... فهي تتراوح بين فجوات في المعرفة وعائق في وجه التطور حتى إنهاك خطير يجعل التعلّم مستحيلًا. وإلى جانب هذه العوائق العابرة ثمة عوائق دائمة: وتيرة تعلّم مشوهة، مادة مختصرة جدًا، بطء ناجم عن العمر، مؤهلات تجريد سيئة، مزاج جبان.

جميع أنواع التشويش هذه يمكن أن تحدث منفصلة أو متصلة بعضها ببعض.

ب. اضطرابات التنفيذ

لكي نستطيع استيعاب أمر ما بنجاح نحتاج إلى الكثير من الجهوزية في اللحظة الحاضرة.

هذا الولد يحفظ بصعوبة لأنه لا يتخلى عن لعبته المفضلة، أو لأن أحلامه تحوم حوله كالفراشات، أو لأن رفاقه يلعبون بالكرة خارجًا. وعند ذاك تكون فرص نجاحه التعليمي هزيلة جدًا.

إن للحؤول دون الخروج من المنزل ولتدابير قمعية أخرى آثارًا سلبية على النجاح في التعلّم.

لكن التوقعات المبالغ فيها أو دون الحد المطلوب تشكل أعلى نسبة من اضطرابات التعلّم. لكلتا الحالتين مضاعفات مباشرة على الإنجازات الحقيقية. وهكذا يسبب الانسان لنفسه، دون أن يعلم، مضارًّ كان يجدر به أن يتحاشاها.

وثمة سبب نفساني آخر لاضطرابات التعلّم ألا وهو أن الإنسان، منذ العاشرة من العمر تقريبًا، ينميّ مصالح خاصة. وفي وسط يوفر القليل من الإغراءات، وفي محيط غير متفهم وخاصة إذا كان المربون لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة، من الصعب أن يحتفظ الطالب بهذا الميل الداخلي إلى تنمية اهتماماته. إن أفضل الاقتراحات لا تجدي نفعًا إذا كان الإنسان لا «يشتهي» شيئًا. وإن من يريد أن يبذل جهدًا هو وحده يجد الاستعداد والفضول والحماسة (على ازدياد خطي).

ونوع آخر من اضطرابات التعلّم ينشأ عن مصادر تشويش أخرى.

وفي حال العدوانية وحب الظهور والعوائق، يكون التأثير الممارس على المصالح محدودًا خلال المراحل الحرجة من السلوك.

يعيق هذا العامل تطور الجو الملائم للتعلّم.

زد على ذلك أن فقدان التركيز هو أحد أسباب اضطرابات التعلّم. ومن افتقد التركيز يعجز عن تخزين طاقة ينظم بها انتباهه. هذه الأسباب هي من جملة أسباب أخرى:

الإجهاد الجسدي، الفيض المفرط في المثيرات، التركيز على موضوعات أخرى، فقدان التدريب، التعب، الذهول، الإرهاق.

ومؤخرًا تركّز البحث، بنوع خاص، على العامل الاجتماعي في منشأ اضطرابات التعلّم. والقاعدة العامة هي أن التعلّم عملية اجتماعية. فحتى لو كنا نتعلّم وحدنا مع الكتاب، فهناك شريك لنا أمامنا. وهذا ينطبق أيضًا، وبصورة أقوى، على علاقات ثلاث في غاية الأهمية:

علاقة المعلم بالتلميذ،

علاقة تلميذ بتلميذ،

علاقة التلميذ بالبيئة العائلية (الوالدان، الأخوة، الاخوات).

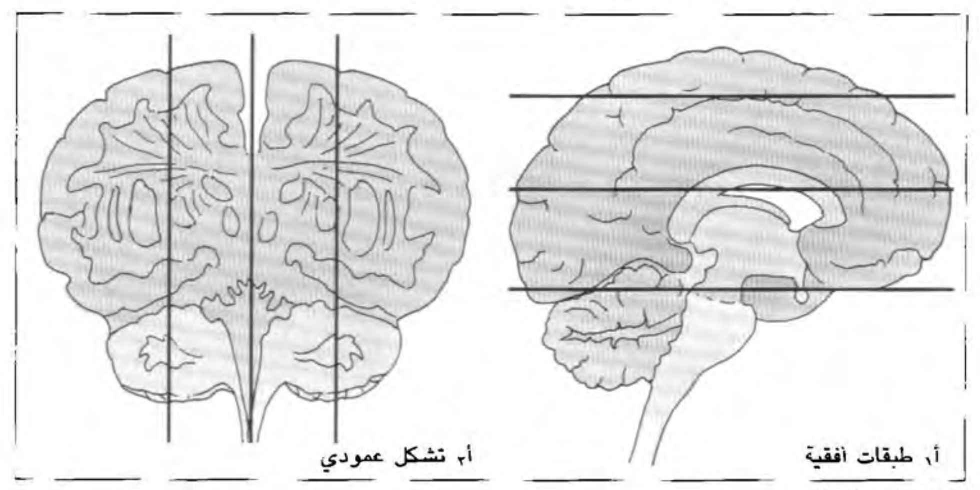
تتدخل هنا، كما في سائر عمليات دينامية الجماعة (٩/١٥)، مسائل التراتبية والأدوار والعلاقات والضوابط الاجتماعية.

ومن الأمثلة على ذلك: أستاذ غليظ، تلميذ مهمَل، زملاء دراسة مرهوبون. هذه الأمور جميعها تسبب اضطرابات عن طريق التأثير المتبادل.

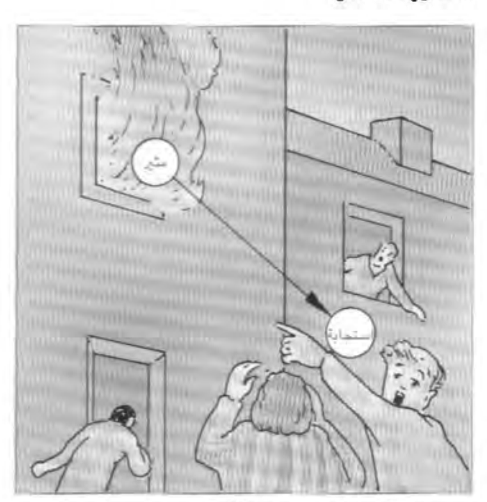
تشكِّل التأويلات الخاطئة – عندما نرتكب خطأ اعتبار التلميذ القلق، الذي يلجأ إلى العزلة، عنيدًا أو عندما ننتظر من أستاذ أن يعطي من المعلومات أكثر مما يستطيع – تشكل مصادر لاضطرابات التنفيذ أو الأداء.

وفي إحدى التجارب (**براندنر** ١٩٥٩) كان طلاب يحفظون غيبًا قطعة شعرية. وعند الامتحان ارتكبوا ١٥ غلطة لدى تلاوتها دون أن يلاحظ المستمعون ذلك. لم يلاحظ المستمعون سوى ٩ أغلاط عند أفضل التلاميذ، ولكن ١٤ غلطة عند أعطلهم.

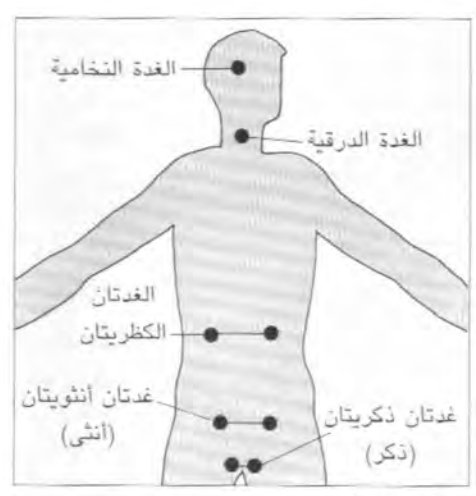
يتوقع غالبًا من التلاميذ الأقل بروزًا إنجازات أقل يُلْفَت إليها الانتباه. وبالمقابل يدَّعي الطلّاب البارزون إنجازات أكثر. هكذا تحدَّد مهن التعلّم. لأنه في نوع من التحقيق الذاتي للنبوءة ينزع المتعلّم إلى تحقيق توقعات بيئته.



أ. نظريات طاقية



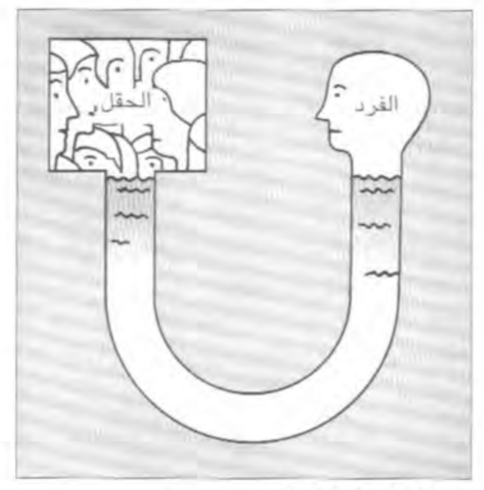
ب. نظريات مثير - استجابة



ج. نظريات الغريزة



د. نظريات معرفية



هـ. نظريات اجتماعية

تعني عبارة علم نفس الفعل علمًا عامًا وحديثًا يشتمل على موضوعات كثيرة وقديمة (كالإرادة والانتباه) وعلى موضوعات حديثة (كالفعل في الأنظمة) تمتّ بصلة إلى الوظائف الحركية. لتجمُّعِ المعلوماتِ هذا فضلُ إرساء إشكاليات، كانت لا تزال مبعثرة، على أساس نفسي فيزيولوجي مشترك. لأنه ليس المقصود، في هذا المجال، وصف العمليات النفسية، لكن شرح كيفية عمل النفسية.

لم يكن يبدو من المفيد، حتى هذه السنوات الأخيرة، تفسير هذه النقطة. بل كان من المسلَّم به أن هذا الاندفاع أو ذاك هو مصدر واضح للحياة النفسية. أما اليوم فخمسة أوضاع على الأقل تصف انطلاق الوظائف النفسية.

أ. نظريات طاقيّة

وصف روبرت **ماير** ١٨٤٥ مبدأ حفظ الطاقة. واعتبارًا من سنة ١٨٦٠، راح **غوستاف تيودور فخنر** يطبق هذه القضية الأولى للديناميكا الحرارية «المستقبلية» على الوظائف النفسية. واستنادًا إلى هذا العالِم، يمتلك الجهاز العصبي قوة منظَّمة، و«طاقة عصبية» تتيح له أن يتحكم بمسيرة الحياة وأن يوظفها في حال «الفائض من القوة» (**سبنسر**) في لعبة الحياة.

ومع تطور المعلومات حول فيزيولوجية الدماغ، برز وجهان إضافيان:

(أ١) يتألف الجهاز العصبي المركزي من عدة طبقات أفقية (النخاع الشوكي، الجذع الدماغي، المخيخ، الدماغ الأوسط، الدماغ المتوسط، الدماغ الطرفي)، مع تفريغات طاقية مناسبة. وإلى جانب هذه النظرية، برزت نظريات أخرى مرتبطة بها وهي تتعلق بالطبقات الطاقية النفسية (**فرويد، لورش، روشاكر**).

(أ٢) وعلاوة على ذلك، لقد اكتشف منذ عدة سنوات تشكل عمودي (جهاز عصبي شبكي غير نوعي ونوعي مبسط مع مختلف وظائف نِصفَي الكرة الدماغية).

ثمة مخطط دمج نظري بين هذين التخطيطين. إن ما هو مشترك بين جميع هذه النظريات الطاقية هو أنها تعتبر أن التيار النفسي يجد تفسيرًا له في النشاط العصبي.

ب. نظريات المثير - الاستجابة

تشكل نظريات المثير - الاستجابة فئة ثانية. واستنادًا إلى هذه النظريات تنشط الحياة النفسية عندما تقترن المثيرات بردود الفعل (الاستجابات) في نظام الإثارة - الاستجابة، وهذا يحدث دائمًا عندما تتجاوز المثيرات العتبة النفسية.

يفسَّر هذا التجاوز بطرق مختلفة: تحدِّده فقط حدة الإثارة (**هولت**): لا يحدث إلا بسبب نماذج إثارة فطرية (**تايلور**)، والإثارات التي ليس لها ردود فعل تكون محجوزة في مصفاة (**برودبنت**)؛ يوجد اتجاه داخلي أو ميل لرد الفعل (**تولمان، ترايسمان**).

إن الحدود متقلبة بين هذه النظريات الأخيرة والنظريات المعرفية. لان بعض المنظِّرين يعتبرون أن قضية متوسطة تدخل بين الإثارة والاستجابة تحت شكل مثيرات خفية صادرة عن وسط داخلي، (يتحدث تولمان عن علاقة استجابة - استجابة). وهكذا فإن مفهوم الفكرة الذي يرفضه السلوكيون (فصل ١/٣) يبدو متجاوَزًا.

ج. نظريات الغريزة

إن نظريات المثير تستدعي، أساسًا، أسبابًا خارجية ونظريات الغريزة أسبابًا داخلية. كتب **و. ماكدوغل**:

> «تنتج كل قوة غريزية، إذا حرضت وحررت وأوقظت، ميلًا إلى العمل».

وهو يسمي نظريته «السيكولوجية الدافعة».

إلى جانب الجهاز العصبي جهاز هرموني (مرتبط به ارتباطًا وثيقًا) يهيمن على السلوك. ومنذ العصور اليونانية القديمة تعتبر «أمزجة الجسم» مسؤولة عن التفاعلات النفسية وعن اضطراباتها.

تحدِّد الغدد خاصة (الجنسية، الكظرية، الدرقية) سلوك الإنسان وخاصة بواسطة الهرمونات الجنسية. ويعزى إلى النزعة العدائية أيضًا اصل هرموني (**كيرامي**).

إن بعض النظريات تنشأ عن أكثر من ١٠٠ غريزة نوعيّة.

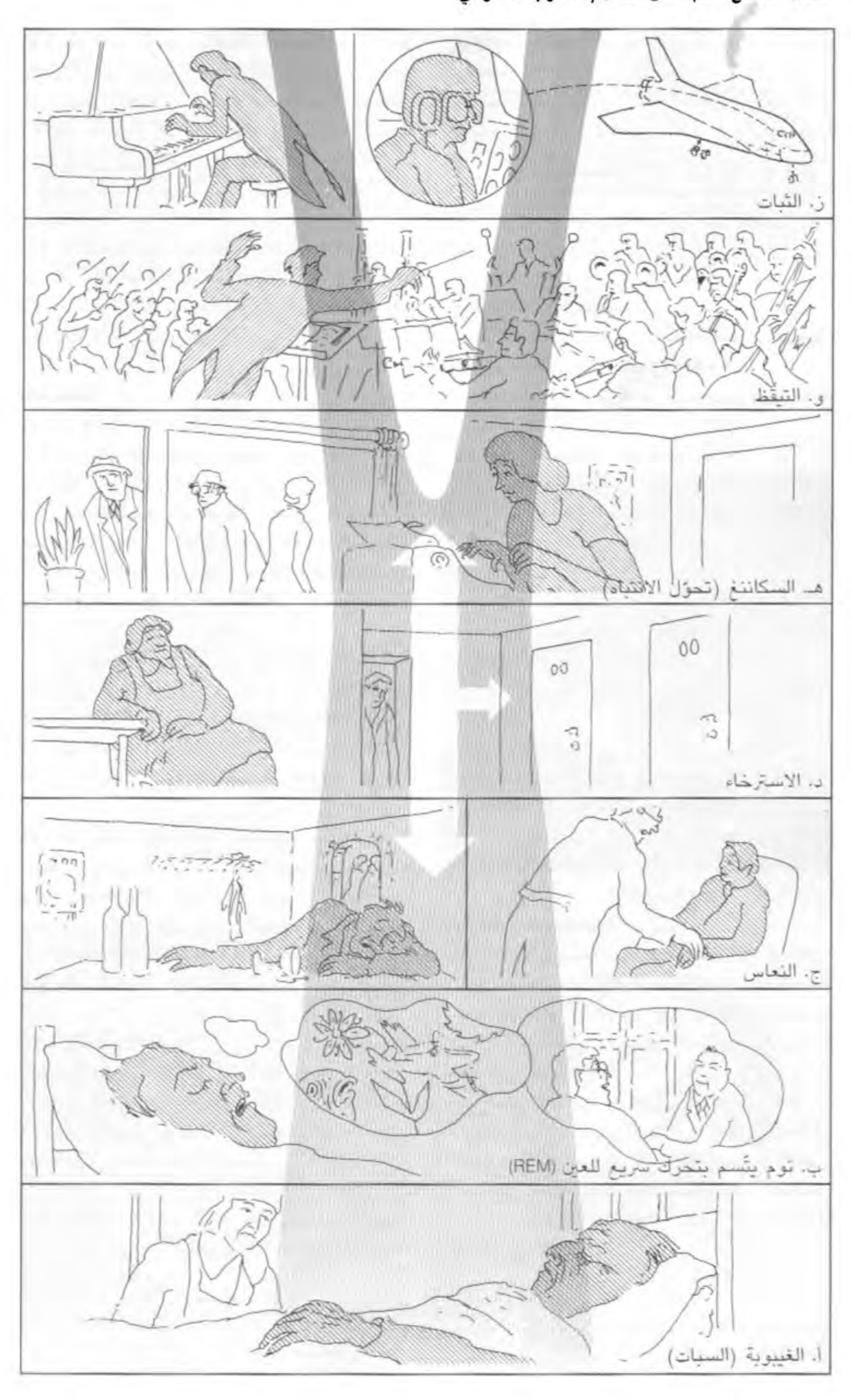
د. نظريات معرفية

تشدد النظريات المعرفية (٢/١٠) على ميل الأفراد إلى السعي وراء هدف دافع إلى العمل. والمعلومات التي تتدفّق تتأكد فيما بعد نوعيتها (تأويل) وتكون الإجابة تبعًا للحالة الذهنية القائمة (التزام).

هـ. نظريات اجتماعية

يقف الانسان، استنادًا إلى هذه النظريات، في حقل اجتماعي يوازن ضغطه كما لو كان في نظام الأواني المستطرقة (١/١٥). يحاول «علم النفس الطوبولوجي» (**ليفين**) أن يحدد موقع هذا الحقل الاجتماعي ولحظاته الدينامية (أشياء، أشخاص، جماعات).

تشرح نظريات اجتماعية أخرى الانتقال إلى الفعل مستندة إلى علم الاجتماع البيولوجي (ميول وراثية إلى الإرضاء) وإلى أوجه اقتصادية (تبادل عروض متعادلة) أو تتذرع بأسباب التحريك الاجتماعي (لبلوغ هدف ما، تقتضي الحاجة تحالفات في حزب سياسي) وبمعايير التقويم (الابتعاد عن الجماعة ليشعر الإنسان بأنه هو ذاته).


ز. الثبات
و. التيقظ
هـ. السكاننغ (تحوّل الانتباه)
د. الاسترخاء
ج. النعاس
ب. نوم يتّسم بتحرك سريع للعين (REM)
أ. الغيبوبة (السبات)

لم يكن الباحثون في علم النفس، في نهاية القرن التاسع عشر، يهتمون إلا بالعمليات النفسية التي أصبحت واعية. وعادوا، بتأثير من **فرويد**، إلى أفكار قديمة حول اللاوعي (**لايبنتز، كناب، هارتمن**). وافترضوا، نتيجة لذلك، ظاهرتين منفصلتين، الوعي واللاوعي اللذين يتأثر كلاهما بالآخر. وجعلوا من «الوعي» شيئًا معزولًا يمكن أن يمتلكه الانسان أو لا يمتلكه. ويؤكد البعض وجود وعي «مزيف».

إلا أن هذا التصور قد اعتبر خاطئًا. فليس ثمة نوع واحد من الحياة النفسية حتى ولو ظهرت عدة فروق نوعية. ويتمثل نوع هام خاص بالمستوى النوعي للوعي (الضمير).

تتراوح الحياة النفسية في مستوياتها المختلفة من الغيبوبة، من اللاوعي العميق (حيث تنشأ مع ذلك عمليات نفسية نباتية) حتى أرفع مراقي الوعي، مراقي التركيز (راجع الصورة وما يلي من هذا الفصل).

باستيقاظنا نتحقق مما يتبدل عندما نعي شيئًا ما. هذا التغير في حالتنا النفسية تسببه إثارة جهازنا العصبي غير النوعي (٦/٥) المجمد إلى حد بعيد حتى يصبح جهازًا عصبيًا نوعيًا دائم اليقظة. يمثل الجهاز غير النوعي جهازنا الخاص (اختبار جسدي، إدراك مكاني، شعور بالالفة...) الذي يحدث مع الجهاز النوعي (اختبار حسي بالمعنى الحصري)، وحدة فوقية هي وحدة الوعي اليقظ التي مرجعها الحقيقة مع الشعور بالهوية الشخصية.

يلي هذا الترابط أولًا حالة أوسع مدى ذات مظاهر استطرادية، وعندما يتوحد هذا التيار ويتوثق موضوعيًا نبلغ درجة عليا من الوعي حيث يتركز تفكيرنا متدرجًا من حقول ملحقة مجردة من الوعي إلى حقل أساسي. وينتج عن ذلك معياران نوعيان أساسيان:

بموازاة «انقباض» الوعي يتولّد «تكثف» وتزداد كمية الإعدادات النفسية.

إذا قسنا كمية الأداء النفسي بوحدات إلكترونية أساسية، نجد أن أكبر عدد من البتات (bits) في الثانية سجل لدى رواد الفضاء أثناء عمليات الهبوط. يتطلب هذا الأداء أقصى درجات التركيز مقرونًا بتبادلية عدة نقاط تركيز أو بتزامنها.

يمكن أن نختار عدة مراكز وعي (راجع تدفق الوعي، باللون الأحمر، في الصورة). وتبقى المساحات المتوسطة لا واعية كليًا أو نصفيًا كما في درجات الوعي الأكثر عمقًا: «نُخْمِدها» أثناء التركيز.

يمثّل الرسم نفسية لا واعية، لكنه يعطي صورة هزيلة جدًا عن نسبتها الكمّية.

لا تشكل النفسية الواعية سوى جزء من اللاواعية. إن هذا الجزء هو، بالنسبة إلى بعض علماء النفس، لا أهمية له في تصوّرهم للنفسية. وبمقابل ذلك، يجب التركيز على أن عددًا كبيرًا من الانجازات النفسية، حتى في عملية التفكير، لا تتجاوز عتبة الوعي. عندما ترد إلى خاطرنا فكرة، إنما تأتي من اللاوعي. ليس الوعي واللاوعي منضدين عموديًا فقط ولكنهما متجاوران أيضًا كعمودين.

يمكن التحدث عن حالات مختلفة للوعي:

أ. الغيبوبة (السبات)

حالة قصوى لا تمثل سوى ردود فعل نفسية نباتية نادرة، لا تظهر على المصاب أي ردود فعل. هو في حالة موت دماغي أو حالة صدمة صرعية أو إصابة بداء السكري.

ب. نوم يتّسم بتحرك سريع للعين (REM)

درجات مختلفة من المعيش العميق أثناء الحلم تتوالى من تصورات بصرية متهافتة إلى أنساق منظمة من الحلم.

ج. النعاس

أخف مراحل النوم حيث يكون الإنسان مهوّمًا ولكنه قادر على تذكر جزء من الأحداث بعد اليقظة.

د. الاسترخاء

يكون الانسان يقظًا لكنه ينعس دون أن ينتبه إلى ذلك وخاصة في حالات الانتظار.

هـ. السكاننغ (أو تحول الانتباه)

مفهوم جديد للانتباه حيث لا يلحظ الإنسان الشيء مباشرة، ولكن يتلمس سريعًا ودون نهاية، بحثًا عن شيء مهم.

و. التيقظ

انتباه دائم: يعطي القائد والفرقة الموسيقية برهانًا على تركيز مستمر يزداد في اللحظات الصعبة (الثبات).

ز. الثبات

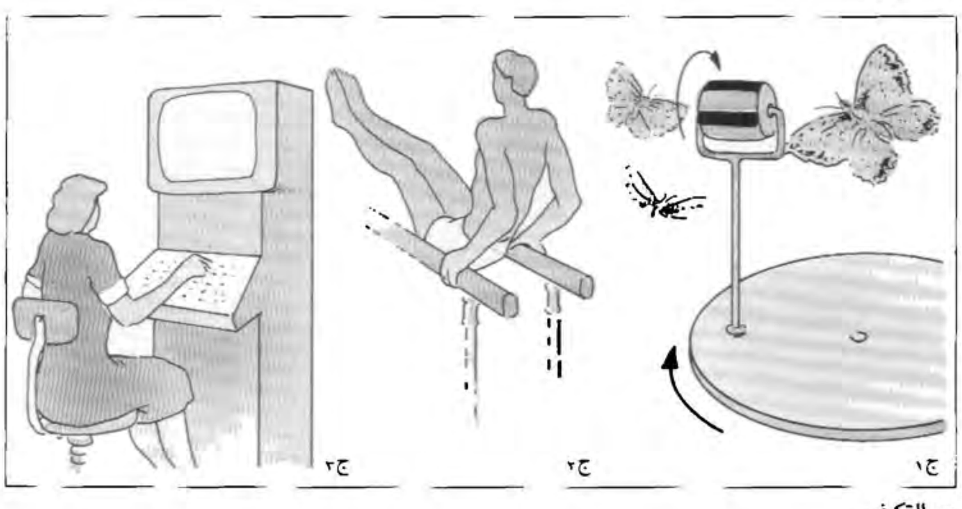
انتباه مشدود إلى أقصى حد وقوة إعداد، مثلًا: ١٥٠ بت لدى رواد الفضاء أثناء الهبوط. ٩٠ بت لدى عازف البيانو أثناء الحفلة. يحاذَر تشتت الفكر محاذرة تامة، يجب أن تكون نقاط التركيز غير المهمة «لا واعية» وذلك لبلوغ أكبر عدد من البتات (ج. بت) المطلوبة للقيام بمهمة محدودة بدقة.



آ. الانتباه



ب. التوتر



ج. التكيف

يقول **شكسبير** على لسان هملت:

«إذا لم يحدث شيء الآن، فإنه سيحدث **مستقبلًا**. المهم أن نكون مستعدين».

الجهوزية أو الاستعداد هو شرط مسبق للفعل ولانطلاقته إلى حد ما. يجب، قبل البدء بالفعل، أن تنفَّذ شروط خاصة بالانتباه والانشداد والتكيّف.

أ. الانتباه

يقرأ شخص رواية مشوِّقة تأخذ بمجامع قلبه فهو لا يعي ذاته ولا يشعر بوجوده. ولا يعود إلى ذاته (غاضبًا) إلا إذا رن جرس الهاتف.

وخلافًا لذلك، مشهد لا يثير سوى انتباه عادي وفجأة يظهر طائر غير متوقع فيزداد الانتباه.

يمكن أن نميز الخصائص الست التالية:

(١) يحدِّد اتجاهُ الانتباه الهدفَ (المحلي). وفي حال تحويل الانتباه يمكن استبعاد إدراك الذات.

(٢) مساحة الانتباه، كمية الأشياء التي يمكن أن تلحظ دفعة واحدة (نحو ٧ عناصر).

(٣) حدة الانتباه أو جهد الانتباه.

(٤) مدة الانتباه، مساحته (محدودة) بالزمن.

(٥) قدرة الانتباه على التمييز، يميز الانتباه الأشياء والأحداث بعضها من بعض.

(٦) مضمونية الانتباه. المحتويات المهمة (محدودة).

يوضح تمثالان من القرون الوسطى في ستراسبورغ (**ن. غيرهارت**) نموذجين خاصين من الانتباه:

الانتباه المبأر (المركَّز) **والانتباه المشتت** (الموزَّع).

إن طاقة الانتباه تمنعنا من الغوص في خواء التدفق المستمر للمثيرات (كان **ش. شري** يدعوها «مشكلة الكوكتيل»). وعندما يكون مستوى الحث متغيرًا، يكون الانتباه متجهًا نحو الخارج (بواسطة مثيرات حادّة) كما يمكن أن يتوجه نحو الداخل (ملاحظة مثارة). يحد الانتباه المتنامي تقلّب الملاحظة، ويحول دون الشرود الذي يسبِّبه ضجيج ملحق. هذه الملكة تنقص مع التقدم في السن («صمم السهرات»).

ب. التوتر

الاستعداد للفعل هو حالة تتراوح بين الميل إلى الرفاهية وروح المبادرة. يمكن أن يستسلم الإنسان للرفاهية، للدعة أو أن يقوم بجهد واعٍ. وهذا يتوقّف أيضًا على المحرِّضات الخارجية.

الوضعانِ المتطرفان لِطَيف التوتر هما غياب التوتر وقت الانتظار والتوتر المفرط الذي يسببه قلق الموت.

بالنسبة إلى الوضع الأول، وجد الطبيب النفساني **ج. هـ شولتز** في العشرينات من القرن العشرين، خير مثال له عند الحوذيين (الكثيرين في ذاك العصر). كان هؤلاء مرغمين أحيانًا على الانتظار ساعات، فكانوا يتخذون وضعًا لأجسامهم في أقصى درجة من الاسترخاء: ظهور منحنية قليلًا، رأس مطاطأ، ساقان متباعدان شيئًا ما والذراعان يرتاحان على الفخذين.

وبمقابل ذلك، تنم وضعية الجسم الخاصة بقلق الموت عن أقصى درجات التوتر. تفحَّص **هـ سيلي**، فيما بعد، ردود فعل الجسد في المواقف الخطيرة مثل المرض والكآبة والأعمال الحربية. فلاحظ إفرازًا متزايدًا للهرمون الكظري الذي إذا تكرر يسبب تضخمًا في القشرة الكظرية. تدل كلمة «إجهاد» على حالات التوتر القصوى الداخلية واستنادًا إلى الآلية: «الإجهاد يسبب التوتر». (**سپيلبرغر**)

يُقيَّم التوتر بطرق مختلفة استنادًا إلى مدلوله. كان فرويد يعتقد أن الانسان يهدف إلى تخفيف التوتر (داعيًا هذا الميل مبدأ النرفانا). وعلى نقيض ذلك كان الفيلسوف **سورين كير كيغارد** يشدد على خطر الضجر كحالة عارية من التوترات. يفترض **هـ هكهاوزن** «دائرة» ترتكز على حركة صاعدة أو هابطة يضبطها التوتر. وكان **سيلي** يميز بين إجهاد الفأل وإجهاد الشؤم. واستنادًا إلى «قانون **يركس - دوبسن**» يعتبر مستوًى متوسطٌ من الإثارة خيِّرًا.

ج. التكيُّف

الانتباه والتكيّف هما شرطان مسبقان للفعل. لكي يتم الفعل تنامت عدة جداول للتكيف مع البيئة على مدى تاريخ التطور.

(ج١) إن أقدم بيان للأفعال هو بيان ردود الفعل الفطرية. يكفي ذَكَرَ الفراشة المذنَّبة مثيراتٌ خفيفة ليسعى إلى أنثى وهمية: وهي عبارة عن لفافة دوارة مخططة بالأسود والأصفر (بألوان الفراشة).

(ج٢) إن الجزء الأكبر من أنواع الحيوانات يمتلك جدول فعل آخر في ما يخص استعدادها للتدرب. يستطيع الإنسان مثلًا أن يتدرب على تمارين رياضية.

(ج٣) وجدول ثالث يتضمن توصيات الفعل اللاواعية. وفي المواقف المعقدة توضع تصاميم لاستراتيجيات الفعل.

إن الاتجاه التطوّري لهذه الأشكال الثلاثة من الفعل واضح: يقابل المواقف التي تزداد تعقيدًا ردود فعل تزداد هي بدورها تعقيدًا. يغطّي الإنسان، بواسطة الجدول المعرفي الثالث الخاص بفعله، الجدولين السابقين دون أن يستطيع نفيهما نفيًا تامًا.



أ. رد فعل الحالة



ب. ردود فعل على الأوضاع



ج. رد فعل بالاختبار

إن الإجابات عن متى وكيف ينفعل الإنسان هي كثيرة. غير أن من واجب علم النفس أن يجعل تحليل ردود الفعل ممكنًا، أي «الأفعال الجوابية» وأهم خصائصها. يتعلق القسم الأبرز- إذا لم نستطع فصلها بوضوح بسبب تداخلها- بالتوزيع الثلاثي التطوري (٣/٩) للسلوك:

ترتبط نظم ردود الفعل الثابتة بجسمنا في أكثر الأحيان؛ إنها ردود فعل الحالة؛

وتستجيب نظم ردود الفعل لمواقف خارجية وتتعلق نظم ردود الفعل المفتوحة بتجارب الحياة وتدمجها بالسلوك.

أ. رد فعل الحالة

كل شيء في لعبة البوكر يعود إلى عدم التمكن من قراءة ملامح وجه اللاعب. يجب ألا يلاحظ أحد حظ اللاعب. فاللاعبون المحترفون يبرعون في ذلك - إلا فيما كان من رد فعل حدقات عيونهم: تتمدد الحدقات تلقائيًا. يستطيع «عالم نفس بارع في البوكر» أن يرى في ذلك ما ينفعه.

تنزع الحالات الداخلية نحو بعض ردود الفعل. الشخص التعيس ينطوي على ذاته والغاضب يخرج من جلده. والسلوك تكيفه الثقافة: في بعض البلدان الشرقية يولول الناس من الألم.

تشير هذه الأمثلة إلى كثرة الظروف المرتبطة بردود فعل الحالة. نحن جميعًا محكومون بأساليب مختلفة يفرضها علينا الجنس والعمر والمنزلة الاجتماعية والقومية والشكل... التي تحدد جدول سلوكنا. وهكذا تصبح السمة النظرية اللامحدودة لإمكانيات سلوكنا محدودة بذلك.

يعود الخفض القوي جدًا، في كمية ردود الفعل النموذجية، إلى انخراطنا التدريجي في المجتمع.

ففي حال تشعب الآراء، من الناس من يعتذر مغتمًا ومنهم من يلجأ إلى الشتيمة وآخرون يجعلون من ذلك تفكهة وتندرًا... يملك كل من الناس، إلى جانب سلوك قابل التعديل، أشكالًا ثابتة من ردود الفعل.

ب. ردود الفعل على الأوضاع

يصب السائق جام غضبه على المشاة:

فهم يتعمدون اجتياز الشارع على مهل ليعاكسوا السائقين. ثم لم يلبث هو نفسه أن يصبح أحد المشاة فينفعل غاضبًا لأن السائقين يروّعون المشاة دون رادع من ضمير.

لا ننفعل فقط تبعًا لحالات داخلية ولكن بطريقة متغيرة بحسب الأنماط المختلفة للأوضاع الخارجية التي بإمكانها أن تكيف سلوك كل كائن بشري. وأهم هذه الأوضاع هي:

أوضاع الأداء، الاستراحة، الاتصال والأوضاع «اللوجستية» (مثل التنقل بين محل السكن ومحل العمل أو التبضّع).

جميع هذه الأنواع يمكن أن تتوزع: الاستراحة، مثلًا، بين أوقات النوم والتسلية والعُطَل والعزلة...

نزعتان، هنا، ضروريتان لتفسير ردود الفعل على الأوضاع:

فمن جهة، يتعرض سلوكنا لتأثير يختلف باختلاف نوع الأوضاع: يختلف تصرف بعض الأشخاص في حياتهم المهنية عما هو في الحياة الخاصة.

والنزعة الآخرى هي أكثر تواترًا. يغطي أحد القطاعات مجمل أوضاع حياتنا العادية.

مثال ذلك، يحددنا الوضع المهني بالقوة التي يحدد بها القطاعات الأخرى: حتى في أيام العطل يظل البعض السيّدَ رئيسَ المصلحة.

ج. ردود الفعل بالاختبار

حتى في حال التصرف الطائش لا يعود رد الفعل فقط إلى الحالات والأوضاع ولكنه يعتمد، أيضًا، رجعيًا، على التجارب التي عاشها الإنسان.

إذا سارت سيارة في مستنقع تثير رشاش ماء.

ليس أحد بحاجة إلى إقامة علاقات كهذه بين السبب والنتيجة. فمن كان يحمل مظلة يستخدمها بمنهجية ليحمي نفسه.

لدى جميع الناس مجموعة من ردود الفعل البسيطة الناشئة عن التجربة.

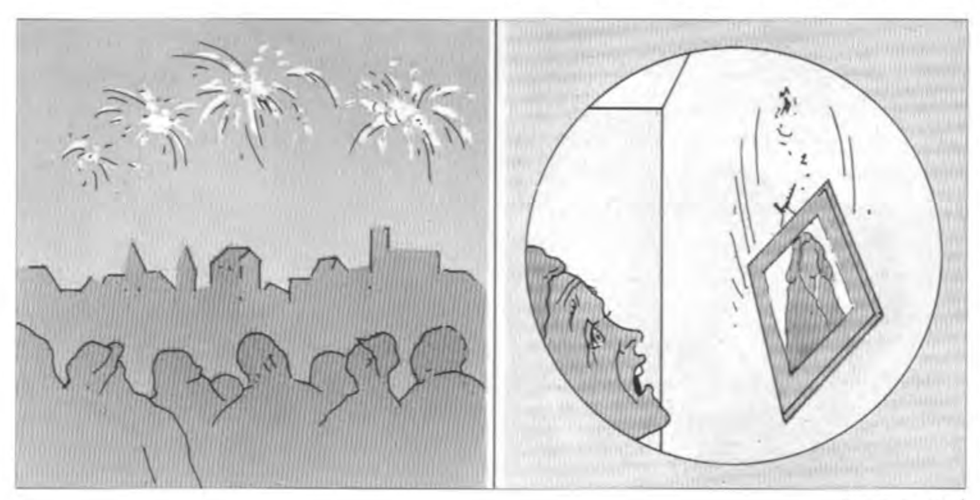
يعتمد توسيع تجربتنا بشكل أساسي على الاستفادة من تجارب مرجعياتنا وجماعاتنا.

ففي المجتمعات التوتاليتارية، مثلًا، يختبر الولد، في عمر مبكر، الحيطة والحذر اللذين يُلزِم نفسه بهما عندما يتحدّث أمام الجمهور، وخاصة إذا كان أحد ممثلي السلطة قريبًا منه.

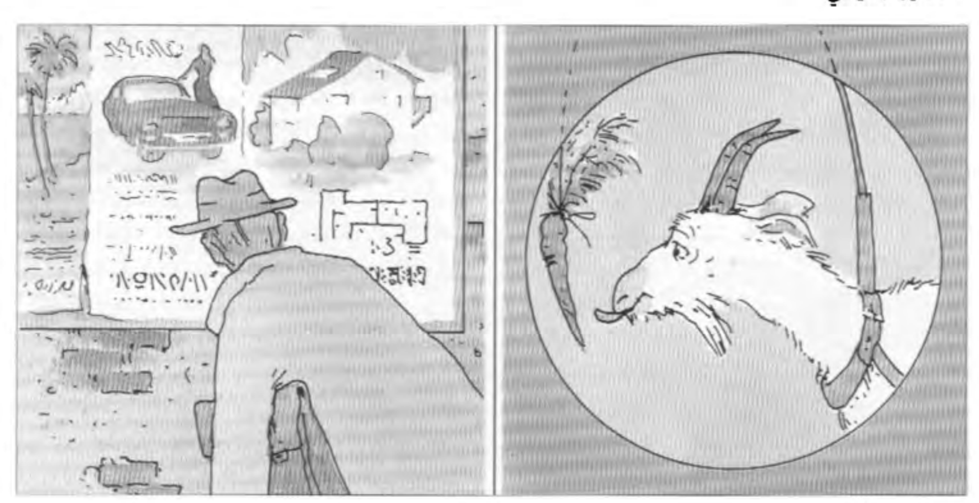
في المفعول الارتجاعي لهذه الاختبارات، يتمرس الانسان بموقف إجمالي «بطبيعة ثانية» تشمل العادة أو ردَّ فعل مكتسب بالاعتياد. ينتج عن التشابه بين هذه الجوامع السلوكية جوامع ردود فعل خاصة بعائلات، بطبقات اجتماعية وبقوميات معينة.

وخلال الانخراط في المجتمع، يتمرس الإنسان باكرًا بترسيمات انفعالية. يبدو، باتخاذنا داء المصحات مثلًا، أن لافتقار البيئة في مادة المثيرات في الطفولة آثارًا مضرة فيما بعد.

لا يعتاد الولد تلقي الإيحاءات. إنه يستمر، بالتالي، بالإقفال على نفسه دون جميع المثيرات التي تساعد على تطوره.



أ. تفعيل إحيائي



ب. تفعيل غائي



ج. تفعيل منظّم (ضابط)

لا يقاسي الانسان فقط وجوده. إنه «يوجه» أيضًا حياته. يعتمدُ التصوُّر الذي يكوّنه عن الحياة ويمكن ان يعود إلى ثلاثة مواقف حاسمة.

أ. تفعيل إحيائي

يقول الفيلسوف **لودفيك ڤتغنشتاين**: «إن تحديد العالَم يجب أن يقع خارج نطاق العالَم».

يعبر بهذا الكلام عن فرضية تصلح لكثير من الناس وتطبع نشاطهم القصدي. فيشعرون بأن العالم محدد من الخارج كشيء سري تحرّكه قوى خفية. وبما أنهم لا يفهمون ذلك فيعتبرون الأمر «تنبؤات» أو آيات خفية الدلالة.

تقع لوحة معلقة في الحائط دون سبب ظاهر، يتحطم قدح في صوان السفرة، وإذا توافق الحدث مع موت أحد الأقرباء يكتسب سمة المؤشِّر.

يفسر التطابق كقرينة ويستخدم بعد الآن كتفسير سببي. إن «هذه الحتمية الخارجية» في كثير من الأساطير توحى إلى الإنسان بوسائل مختلفة. يشير الإيمان بالأبراج، الذي لا يزال كثير الانتشار اليوم، إلى تفعيل إحيائي. ولا يكتفي الناس بتمني الكشف عن أسرار هذه القوى بل إنهم أيضًا يتوسلونها. يستشهد علماء السلالات، انطلاقًا من اطلاعهم على عدد كبير من طقوس الشعوب البدائية (مثل رش الماء والإيمان بالمحرمات/التابو)، بالتوسل إلى الشياطين. ويريد كلٌ لذاته أن يكتسب القدرة على هذه القوى الخفية.

ونجد مخلفات هذا النوع من التنشيط في المجتمعات الحديثة، مثل الاسهم التي تطلق بمناسبة عيد القديس يوحنا.

ب. تفعيل غائي

يجعل البعضُ الإنسانَ مسؤولًا عن ملامح وجهه، منذ سنواته الأولى. وثمة رأي مغالٍ يزعم أن كل إنسان يستطيع، إلى حد ما، أن يحقق كل شيء، أن يكون الصانع الوحيد لسعادته، أن يحدد مساره بنفسه، قبل أي شيء آخر، بطريقة قصدية.

في مجتمعات الرفاه الحديثة، يضع الإنسان نصب عينيه أهدافًا لا حصر لها:

إنه يريد دائمًا المزيد، ودائمًا يسعى إلى هدف أمامه يتراءى له «ضروريًا»، إنه كالعنزة المربوطة أمام جزرة.

يهيمن الاقتصاد على هذا الإيحاء الذاتي بعرضه خيرات مادية على ازدياد دائم: أملاك، ضمان، رفاهية، إمكانيات التجارب، النفوذ الاجتماعي...

بهذا الموقف الفكري المتَّسِم بالمتعة ينخرط الناس في نظام اجتماعي ويميز بعضهم بعضًا في مراتب مثل امتلاك الخيرات. كلٌ يتحدث عما يبغي الوصول إليه (تفعيل غائي).

تزداد الأهداف قوة ليس فقط عندما لا تحدد الحياة بطريقة آلية (دون ملاحظة ذلك) ولكن عندما تتقرر لحظة تنفيذها (مرحلة النجاح في امتحان، موعد الزفاف).

ج. تفعيل منظِّم (ضابط)

لا يخضع الناس فقط لسببية خارجية أو لسببية تقرِّر المصير ذاتيًا، سببية العمل القصدي. ويتصور البعض نفسه أنه منبثق من نظام كوني علوي لا يحتاج حتمًا، لمتابعة تطوره، إلى أسباب خارجية ولكن يتقرر مصيره معه. هذا النظام يحافظ على نفسه بالارتجاع. إن نموذج نظرية التفعيل هذه أوجده **ميلر وغالانتر وپريبرام** مع الوحدة التي دعوها (تحويل - مقارنة - ارتجاع).

على كل من يغرز مسمارًا بواسطة مطرقة أن يتأكد، بعد أن يضرب (يعمل، يشتغل)، من أن المسمار قد انغرز إلى حد ما (أن يقوم بتحقق بسيط، معلومة مرتجعة)، ثم يكرر العملية حتى يبلغ الحالة النهائية المبتغاة.

يعود أقدم مفعول ارتجاعي في المجال التقني إلى ٥٠٠ سنة عندما وصف **ليوناردو داڤنشي** مصباحًا زيتيًا ترتفع فتيلته تلقائيًا:

«كلما نقص الزيت يغوص الدولاب فيدفع بأسنانه الفتيلة صعدًا قليلًا فقليلًا».

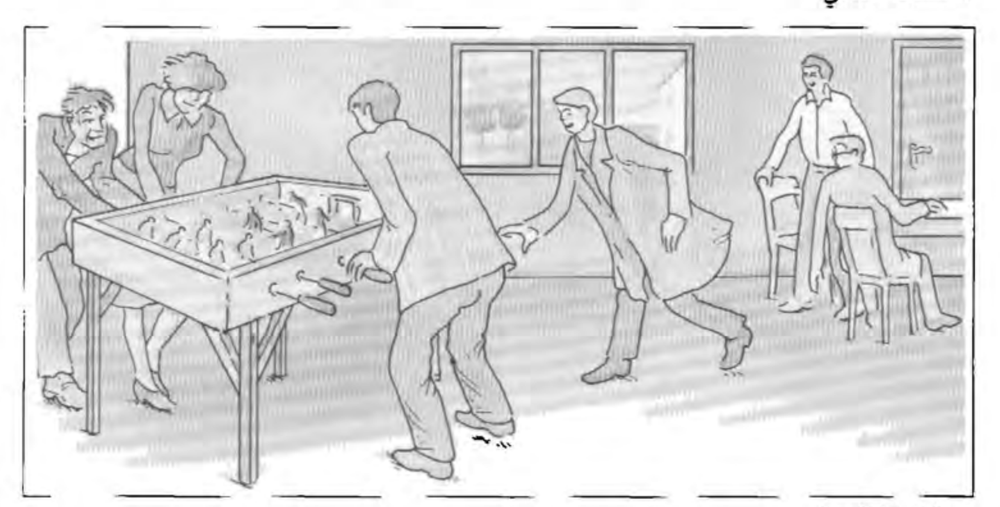
وفي منحنى الكلب (أثناء النزهة، يحسب الكلب، في عودته، الطريق التي اجتازها صاحبه خلال ذلك)، برهن **ليوناردو داڤنشي** هذا المبدأ عند الحيوان (الجارّ). في النظريات الحديثة الخاصة بالفعل، يتصف هذا التفعيل المنظم بأنه تكيّف مَقيس: موجَّه وموجِّه ذاته.

كان الأقدمون يدعون التفعيل المنظم اتزانًا، ودعي في العصر الوسيط اعتدالًا: وهو «توازن الدفق» في اللغة السائرة الحالية (**فون برتالنفي**) حيث ينشأ توازن اجتماعي أو انهيار المشاريع.

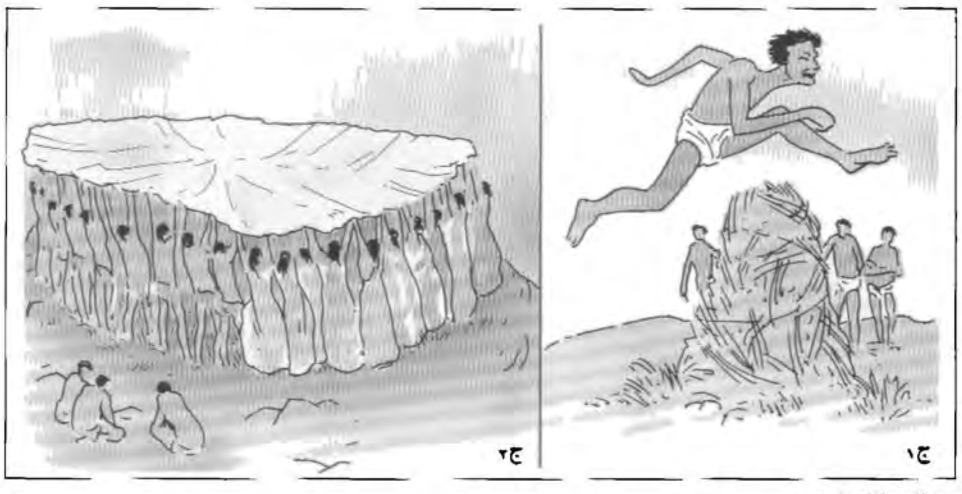
إن هذه الأشكال الثلاثة للتفعيل القصدي - التقرير الخارجي، التقرير الذاتي والتقرير المصاحب - تنفي بعضها بعضًا. لكن الناس، كقاعدة عامة، يمزجون بعضها ببعض مع ميلهم إلى هذا الشكل أو ذاك تبعًا لسنهم وظروفهم ومواقفهم.



أ. النشاط الثنائي



ب. النشاط الجماعي



ج. النشاط المجتمعي

يتابع هنا التنشيطُ المنظِّم (٩/٥،ج) المذكور آنفًا بصورة ضبط اجتماعي أو تصالحي. يقوم التنظيم **هنا** على تخطي الأهداف الأحادية الجانب. عندما لا نسعى إلى هدف واحد أو إلى بعض الأهداف فقط، تصبح توجهات الحياة الأخرى مضطربة حتمًا:

إن الشخص الذي تكون دراجته النارية شغله الشاغل لا يستطيع أن يهتم بأشياء أخرى أو بأشخاص آخرين.
يجب أن تُحكَم هذه الاضطرابات بالنشاط الاجتماعي.

أ. النشاط الثنائي

كان **ماركس** يدعو التنشيط عن طريق الجماعة «بإثارة العقول الحية». هذا يعني صياغة تفسير للوسيلة التي يستطيع بها النشاط أن يغير النفسية بسهولة. نحن خاضعون لضغط الجماعة الذي يستطيع أن يحرِّكنا أو أن يجمِّدنا.

بناءً على المبدأ التطوري في التناسل الجنسي لدى المخلوقات العليا، أصبحت علاقة الزوجين دعامة التكوين الاجتماعي. لا تستطيع النظريات الغريزية وحدها أن تشرح الضرورة الملحة لهذا الدافع الجماعي المشترك: تتراوح حججها بين العوامل الهرمونية والعوامل الحياتية لتفسير «العلاقة الحميمة» بين الرجل والمرأة. ومن الممكن، في هذا الشكل من العلاقة، أن يكون أحد الأسباب، إذا لم يكن السبب الوحيد الحاسم، نابعًا من الاثارة النفسية.

لكن يجب ألا تكون الفرضيات السلبية أكثر استبعادًا من جميع الفرضيات الإيجابية.

يعاش تواجد اثنين، في الحب، وكأنه ذات عليا (أ١) وتوضع اهتمامات الشريك على مستوى واحد مع الاهتمامات الخاصة.

وفي غياب الشرط المنظِّم لتوازن الاهتمامات، تنشأ خلافات طبقية ترافقها حركات دفاعية متبادلة، مثل تكتيف اليدين (أ٢).

يكتسي هذا المستوى الأدنى لتشكيل جماعة ما، بالنسبة إلى المجتمعات (مثل الأمم)، أهمية قصوى حتى ولو لم تكن هذه الجماعة معتبرة غالبًا كضمانة بيولوجية لدعم جماعة كبرى. إن علاقة الزوجين هي في الواقع أيضًا نموذج أساسي لجميع التشكيلات الجماعية الكبرى: إذا كان هذا المستوى الأدنى لا يمثل، في الوسط الشعبي، أي استقرار، يصعب تصور كيفية الحصول على جماعات كبرى.

يشكل هذا التفكير أساس تعاليم **كونفوشيوس**. ويكتب **شو هسي**، أحد أوائل أتباع **كونفوشيوس**، ما يلي:

«إذا أصلح الإنسان حسه يعظم شخصه. وإذا عظم شخصه تنتظم العائلة. وإذا انتظمت العائلة يصلح حكم البلدان. وإذا صَلُح حكم البلدان يعمّ السلام في العالم».

ب. النشاط الجماعي

إن أحد أهم النشاطات في الوجود هو تشكيل الجماعات: كل فرد هو عضو في جماعة من الجماعات: العائلة، شلة أصدقاء، فريق العمل، تجعله قادرًا على تعزيز حياته: ونعطي لذلك أسبابًا ثلاثة:

(١) تتيح الجماعة نموًا في زخم العيش بسبب كثرة الإيحاءات والشعور بالانتماء وتحسين الأداءات بفضل عدد المسهمين ونتيجة الود القائم في جو الجماعة العاطفي. وإن الميل إلى ركوب المخاطر أي زيادة الاستعداد للمجازفة هو صفة مميزة للجماعات العاملة.

(٢) توفر الجماعات تسهيلات خاصة للتنشيط بواسطة العمل الجماعي، فلولا الجماعة لا وجود للمراتب (مراكز القيادة) ولا للأدوار (عروض المساعدة). ففي أكثر الأحيان تعاش النجاحات الجماعية بحيوية أكثر مما تعاش النجاحات الفردية.

(٣) وبعكس ذلك، تبعث المقاومات الضرورية في الجماعة حياة: بفضلها تُفرض القرارات ويُدعَم تلاحم الجماعة. وهذا لا ينطبق فقط على الجماعة الدائمة، فجماعات اللاعبين (بكرة القدم مثلًا) تنمّي هذا النشاط الحيّ.

ج. النشاط المجتمعي

جميع المجتمعات الكبيرة مثل القبائل، الأمم، الكنائس، الأحزاب، وضعت قوانين مسلكية من شأنها تنشيط الحياة الاجتماعية. نلاحظ هنا قاعدتين أساسيتين:

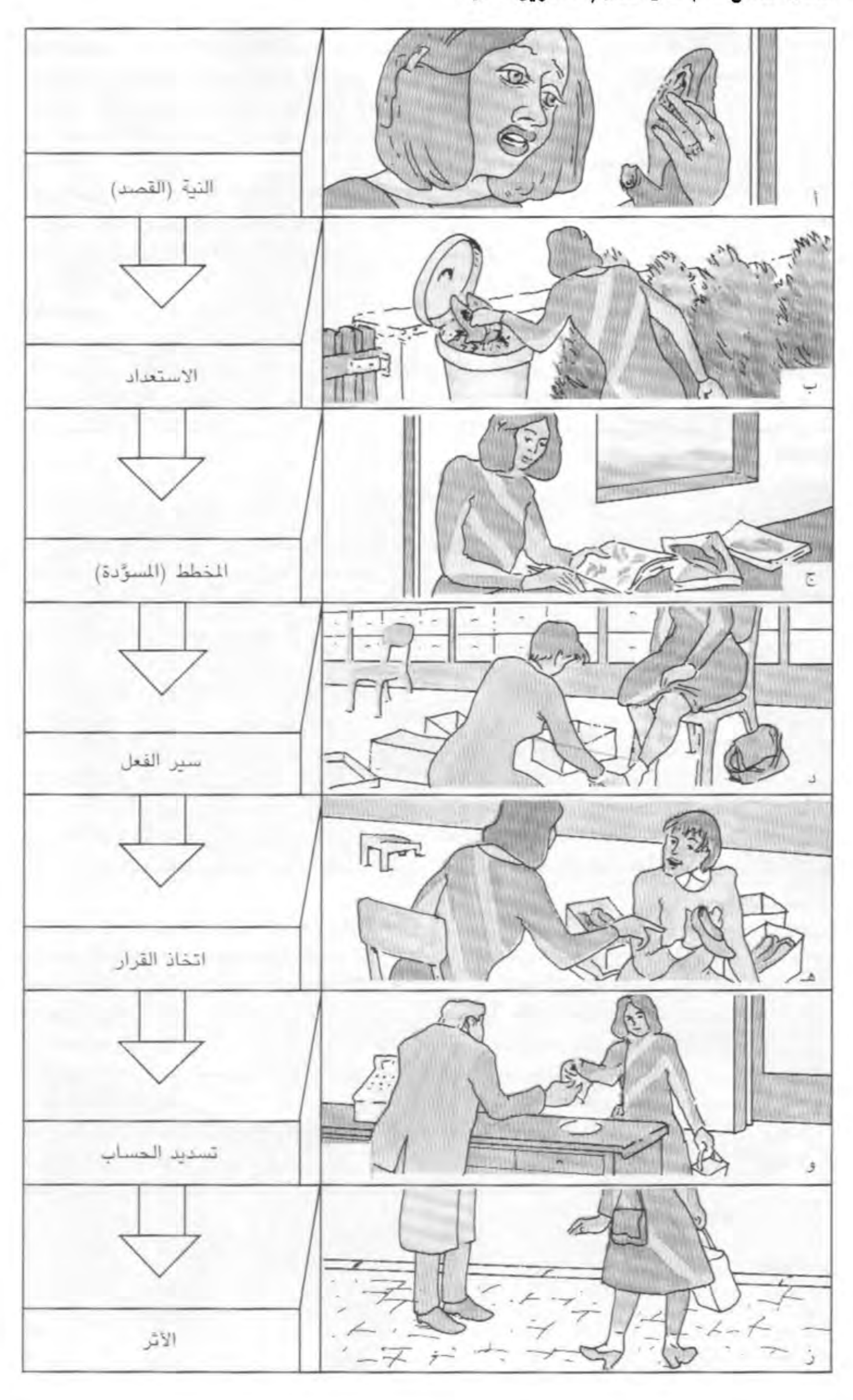
(ج١) توضع عراقيل دون الانتساب إلى مجتمع ما لجعل الانتماء إليه جذابًا. فالانتماء إلى حزب (و عمليات التطهير) ومراحل الانضمام إلى وظيفة (لمتمرن أو لزميل) خير شاهد على هذا المبدأ.

ففي بعض القبائل الإندونيسية يتدرب الفتيان على القفز العالي من فوق حجر مغطى بالقش لإثبات رجولتهم.

(ج٢) ينشط الشعور المجتمعي بواسطة أشكال من الحركات التكتلية مثل الأعياد والطقوس الشعبية في أوقات موسمية (مسيرات، مباريات)...

وفي سريلانكا يصعد الأهالي إلى قمم الجبال المقدسة ويرفعون ملاءة كبيرة فوق رؤوسهم كرمز إلى انتمائهم.

وفي حال النشاط المجتمعي المغالي يمكن الوصول إلى تفعيل معاكس (آثار التحفيز السلبي): ويسعى الناس إلى الهرب من الضغوط باتجاه الامتثال.


النية (القصد)
أ
الاستعداد
ب
المخطط (المسوَّدة)
ج
سير الفعل
د
اتخاذ القرار
هـ
تسديد الحساب
و
الأثر
ز

يجري التنشيط النفسي لدى الكائن البشري بحسب الأهداف التي حدّدها آنيًا أو على مدى طويل. يحاول **شوتز**، في كتابه «نظرية العالم الحي» (١٩٨٢) أن يلقي الضوء على هذه المجالات. هذه النظرة المضمونية الملقاة على التنشيط تركز على العمليات الحسية للفعل. إن مراحل الفعل المسلم بها هي فروق نظرية تتنوع، في حالتها المادية، تنوعًا عظيمًا.

إن عملية الشراء هي مثل نموذجي يتضمن سلسلة من الأفعال.

أ. النية (القصد)

نريد أن نشتري زوجي أحذية. وعندما نتساءل متى وكيف خطر ببالنا ذلك للمرة الأولى، تعرض لنا احتمالات كثيرة:

> ربما وجدنا ثقبًا لا يُرَمّم في حذائنا المهترئ - أو نحن بحاجة إلى زوج آخر لمناسبة خاصة - أو أن شخصًا من جيراننا يريد أن يشتري حذاءً فنحذو حذوه.

تأتي النية في رأس «التنظيم التراتبي للفعل» (**ميلر، غالانتر، بريبرام**). نشعر وكأن نداء، أي حاجة، رغبة، يستيقظ فينا. غير أننا يمكننا أن نحتفظ بالأحذية القديمة بطريقة لا معقولة ولو لن نستخدمها أبدًا.

ب. الاستعداد

تنتظم دوافعنا وتجاربنا عند النداء (الدعوة إلى الفعل). والمقصود هنا تمثلات رغبة محددة جدًا، قبل الأناقة، الفتنة، أو تجسيد «معرفتنا اليومية» (**ماتس**)، أي تجسيد خبراتنا وتأملاتنا البليغة.

> يجب أن تكون الأحذية المطلوبة مختلفة، أكثر ملاءمة للغاية التي تُشترى من أجلها وأكثر انسجامًا مع ذوق العصر (الموضة)، أغلى، أو تحقق متطلبات الحماية، أي أن تكون من جلد خام أو سميكة النعل.

ج. المخطَّط (المسوَّدة)

«المجرى الحقيقي للفعل» (**أتكنسون، بيرش**) تدعمه ميول متنافسة تؤدي إلى «تألق الفعل» (**كول**) أي تناوب متبدل بين عدة نزعات. والطريقة التي يتم بها الفعل فيما بعد تخضع أساسًا للتفكير الذي يسبق الشراء، أو للخصوصيات الشخصية (الاستعداد لاتخاذ قرار، الميل إلى المخاطرة) ولنوع الشراء (عادي أو عَرَضي بمناسبة الأوكازيون).

مخططات الأفعال تدعمها الإعلانات أو النصائح الشخصية. وهي تبدأ «بصور البحث» (**لورش**)، مرورًا «بالترميز» (**ميد**)، وصولًا إلى «التصاميم» (**ميلر** وأعوانه)، التي تتضمن استباقًا ذهنيًا و«استراتيجية» ومتى وأين ومع من يتم الشراء.

د. سير الفعل

تجري «عملية التدقيق» الحقيقية (**روتر**) في المحل التجاري. تتوزع الأدوار بين البائع والشاري ولكنها ليست ثابتة. ينتظر الزبون المتردد بائعًا آخر غير الزبون الحازم. هنا يمكن الوصول إلى صراعات. ولا تلبث قوة مخططات الفعل أو ضعفها أن تظهر.

> يحيّر عدد الخيارات المتاحة (نماذج الأحذية المعروضة) الزبون المتردد، ولا يرضي الزبون المتذمر.

هذه الأسباب وغيرها يمكن أن تؤدي إلى إلغاء عملية الشراء.

هـ. اتخاذ القرار

يشكل التصميم المرحلة الحرجة من مراحل الشراء. ففي الصراع بين المعروضات السابقة والحقيقة الحالية تتغلب واحدة من النزعات. تستتر بعض المساوئ وتبرز المحاسن. لقد شغلت حتمية الخيار العديد من منظري الفعل (**سيمون** ١٩٥٧، **أتكنسون وكول**، ١٩٧٦). يشبه السياق سياق تركيز درجات الوعي (٩/٢).

كثيرًا ما تلاحَظ، قبل القرار الحاسم، فترة استراحة (مرحلة تريّث قبل اتخاذ القرار) تليها «انتفاضة الإرادة» (**شتيرن**) أو «فرضية احتمال النجاح» (**غيَزم**) التي تختصر «مسافة الهدف» (**راينر**). ولاحظ **سيمون** ميلًا إلى تبني الحل الأول أو الأول الصالح.

و. تسديد الحساب

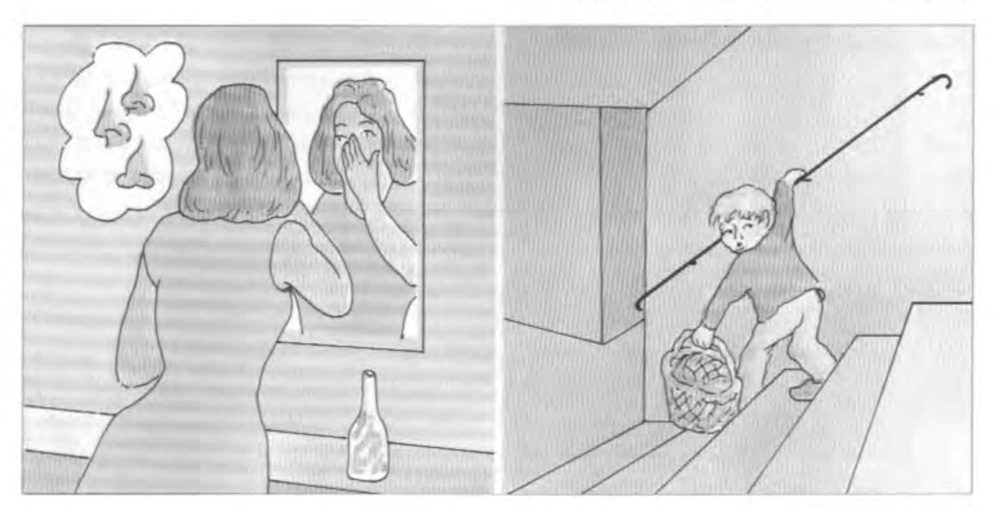
عند الذهاب إلى الصندوق والدفع يستعيد الزبون مراحل الفعل والدوافع. تنتابه أحيانًا شكوك يكبتها باستعراض حجج البائع. ويتحقق الدافع، إما أن ينقص وإما أن يتخذ طابعًا آخر (مثل الاعتزاز «بالغنيمة»).

ز. الأثر

إن نجاح الشراء أو الفشل ليسا مجرد معطيات موضوعية مثل شراء لم يتمّ مثلًا.

يقاس النجاح دائمًا بالنسبة إلى مستوى المطمح السابق (**ليفين**) كما بالنسبة إلى توقعات المحيط / البيئة.

والشاري مضطرّ الآن إلى أن يدافع عن شرائه تجاه نفسه وتجاه الآخرين، وتُبنى تجربة مشتريات المستقبل انطلاقًا من هذه المواجهة.



أ. اضطرابات ذاتية



ب. اضطرابات اجتماعية دينامية



ج. اضطرابات معادية للمجتمع

إن تفعيل الحياة النفسية هو في غاية التعقيد ويمكن أن يُربَك بطرق متنوعة. ولكي نُلقي نظرة إجمالية على هذا التنوع نميز بين هذه الطرق استنادًا إلى المسافة التي تفصلها عن الفرد (أنا، جماعة، عامة الشعب). ونرى وسط هذه المجالات الثلاثة من الاضطراب «الكثير الزائد» (الفائض) و«القليل جدًا» (الناقص) و«المعيب» (المشوب).

أ. اضطرابات ذاتية أو ارتباكات

نُرسِل ولدًا ليجلُب شيئًا ما من القبو. ماذا يفعل؟

قد يتجمد مكانه ويركن إلى الفرار، أو يصفر صفيرًا قويًا ويصيح بأعلى صوته أو يذهب مضطربًا ويوقع بعض الأقداح في طريقه دون أن يتعمد ذلك: أمثلة كثيرة ناقصة أو زائدة أو مشوّهة، لكلٍ نصيبُه منها.

من الأمثلة على الاضطراب الذاتي (بالنسبة إلى الأنا) «اضطرابات شكل الجسم» (**بيك**)، تشوهات «التوجه بالنسبة إلى الجسم الخاص». يعطي بريد القراء في المجلات أمثلة متكررة عن ذلك:

> يجد الإنسان نفسه قصيرًا جدًا أو طويلًا جدًا أو ذا أنف بشع جدًا، والبعض يجد نفسه مفرط الوسامة...

ومن ذلك أيضًا الاضطرابات الوظيفية (اضطرابات الأيض النفسانية المنشأ) واضطرابات السلوك (الخوف من المدرسة)، الإرهاق أو ضعف التركيز.

ومن أنواع عجز التنشيط الكثيرة الانتشار فقدان الثقة بالنفس الذي يتجلى بأشكال عديدة: فقدان الاستقلال الذاتي، الشعور بالدونية، عدم الميل إلى المخاطرة، المبالغة في تقييم المآزم، الارتباك، الجبن، الخوف من اتخاذ قرارات، الخوف من المستقبل.

الاضطرابات الهستيرية وإيذاء النفس الذي يبلغ حد الانتحار تنتمي جميعًا إلى الاضطرابات المبالغ فيها.

ومن الاضطرابات الأخرى الخاصة بالفرد العُصاب الاستحواذي وحالات الكآبة وحالات الخبل والارتهان (٨/١٢).

ب. اضطرابات اجتماعية دينامية

الهامشية هي النموذج الأساسي للاضطرابات الاجتماعية الدينامية القصورية: يعزل الهامشي نفسه، يبني القليل من العلاقات، يتأخر في الإجابة ويقلل كثيرًا من نشاطه الاجتماعي.

وبمقابل ذلك، فإن العدوانية هي أنموذج الاضطرابات الاجتماعية الدينامية المفرطة، وإن سلوك الضرر الاجتماعي الخاص بالعدواني ينزع إلى احتكاكات «استثارية» (**شولتز - هنكِه**) أو تملكية، فهو يعطل علاقات التعاطف ويعتمد على الابتزاز والتهويل، ويضخم النفور الاجتماعي.

ويمكن إبراز أشكال أخرى مهمة من اضطرابات النشاط الاجتماعي.

(١) اضطرابات التواصل. يمنع الحرمان (**غيويِرتس**)، على المستوى الأعمق، تكوين النشاط. فحيث لا يوجد أية تجربة حقيقية وبالتالي أية اتصالات خيّرة ناشئة عن التكيف الاجتماعي، يجد الطفل الناشئ نفسه في موقع الحرمان (فقد الأم، داء المصحات، نتائج البطالة). وتظهر أشكال هيّنة من الحرمان عندما تكون كمية المعلومات المتبادلة (كما بين الرجل والمرأة في الحياة اليومية) قليلة أو كثيرة.

(٢) اضطرابات المعاشرة. عدم تحقيق الرغبات الخاصة بالمستوى الاجتماعي (عدم الشعور بالشهرة)، يُمكن للخلافات التي لا تسوّى وتستمر في التضخم دون أن تُلاحَظ، أن تتخذ شكل «حالة غيظ».

(٣) اضطرابات خاصة بالمعايير. تنتج عن مخالفة قواعد اللعبة الجماعية: عضو ما يرفض بعض المعايير أو أنه يتجاهل باستمرار أنه يُنتظر منه أن يكون مستعدًا للانخراط في الجماعة.

(٤) اضطرابات الموقع. يكون موقع شخص ما أو ظروفه الآنية ضاغطة بقوة حتى إنه يسعى جاهدًا إلى البحث عن وسيلة للتملص منها، إلا إذا أذعن لتحمل نتائجها النفسية.

> نغتبط لفكرة العطلة، ولكن على أرض الواقع كل شيء مختلف عما كنا نتوقعه ربما بطريقة لاعقلانية.

إضطرابات فعل كثيرة تنتج عن مواقف غير خاضعة لأية سيطرة: ضغوط فعلية مرتبطة بالتنظيمات، فقدان الضمانة في بلدان أجنبية، مشاكل الانفصال، مراحل الوداع عند اقتراب الموت (**كوبلر-روس**).

ج. اضطرابات معادية للمجتمع

> سنة ٣٣٦ ق. م. أحرق **هيروسترات**، الفتى الأفسسي، هيكل أرتميس طلبًا للشهرة (فنجح في ذلك).

الهيروستراتية أو عمل الغرور الإجرامي، هي مثل على اضطراب النشاط الموجّه ضد عامة الشعب.

وفيما عدا الجنوح كشكل من النشاط غير الشرعي («طاقة إجرامية») كثيرة هي الأعمال المضرة بالمجتمع التي يصعب على القانون أن يلقي القبض عليها، مثل: تحطيم البيئة، تأليف عصابات ذات طابع خطر. أكثر من هيروسترات معاصر يحُوِّل عُصابه الخاص انتقامًا من المجتمع، وعلى عكس ذلك يستخدم المجتمع العنونة (لصق البطاقات)، تحديد ما هو «موبوء»، لردع الفرد.

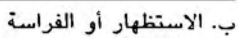
يلخص **سيغموند فرويد** المصادر الأساسية لاضطرابات العمل كالتالي:

> «قوة الطبيعة الساحقة، هشاشة أجسامنا، عجز المؤسسات التي تنظم علاقات الناس فيما بينهم في العائلة والدولة والمجتمع».

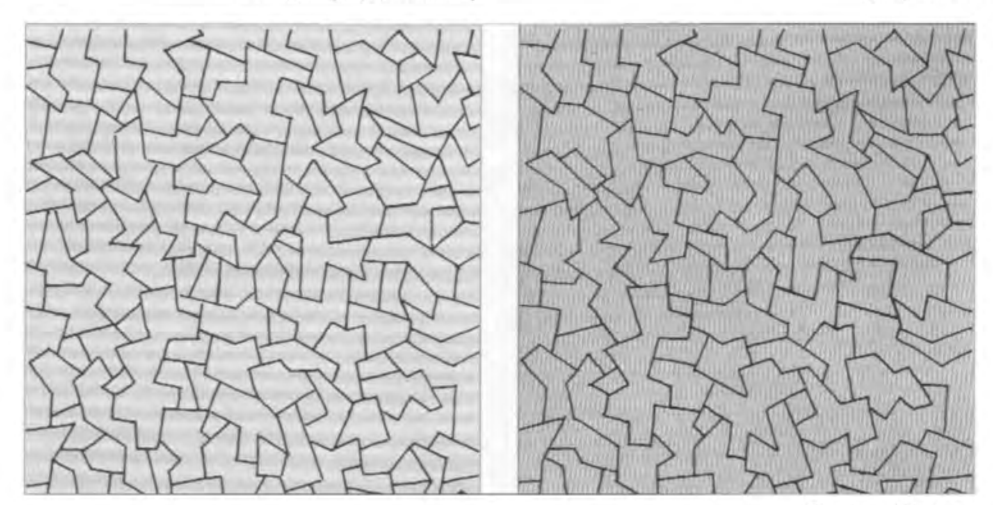


أ. الاستبطان

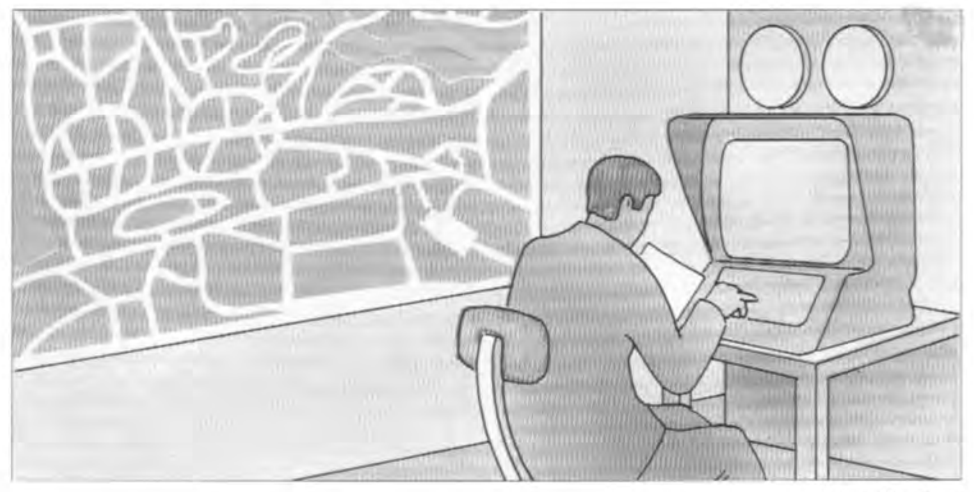




ب. الاستظهار أو الفراسة



ج. تحققات خاصة



د. طريقة حية

كان مفهوم المعرفة، في علم النفس المعرفي للستينات من القرن الماضي، يستخدم كعبارة نوعية لأكثر العمليات النفسية (منها: فكرة، إدراك، فعل، إرادة، ذاكرة وتعلّم). وبولغ في توسيع هذا التيار في بدايته كما حدث لعلم نفس التعلّم في الثلاثينات من القرن المذكور.

لكن البحث في المعرفة لا يحل محل سائر الفروع. يوفر هذا الفرع الجديد من علم النفس أفضل تفسير لوظائف الإنسان العقلية.

إذا كان المفهوم القديم للفكر يفرض «طبقة مرتفعة»، ما عدا في الحياة النفسية، فإن مفهوم المعرفة يستدعي الآن هيمنة تصاعدية وثابتة للوجود من المستوى الإنساني الخاص.

المعرفة هي جهد قصدي لإيجاد الأشياء، للإمساك بها، للتعرف إليها، لفهمها، لتمييزها، لتصنيفها، لتقييمها ولمعالجتها كموضوعات، أي تعديلها بطرق عقلية مختلفة (تجسيدًا وتجريدًا).

وبفضل هذا التحديد الموسع، بالنسبة إلى مفهوم الفكرة، يمكننا أيضًا أن ننسب مكانًا، في الحياة العقلية، إلى مجموعات من التمثلات الشديدة الغموض (التي يسميها **فرويد** «الوعي اللاواعي»).

أ. الاستبطان

وبما أن «المعرفة» (أي التفكير، وبالمعنى الأرحب، الإرهاص الذي يتم في الذهن) لا تُعرف، من الخارج، لدى الآخرين إلا بالأعمال المرتبطة بها، فقد كان **ف. ڤونت**، في القرن التاسع عشر – أي في بداية علم النفس الاختباري – يزعم أنه لا يمكن دراستها بالاختبار. وفي بداية القرن العشرين، كانت «مدرسة ڤورزبورغ» في «علم نفس الفكر»، تحاول أن تتفحص أفكار الأشخاص الخاضعين للاختبار عن طريق الاستجواب. كان **إدوار كلاپاريد** يحاول (مع آخرين) أن يجعل من الاستبطان شيئًا موضوعيًا بجعله الشخصَ موضوعَ الاختبار «يفكر بصوت عال». ويدعى، اليوم، هذا الأسلوب المحدَث: «استراتيجية البحث المحكيّ» (**ب. رايزر**)

ب. الاستظهار أو الفراسة

تراقب، في الاستظهار، تغيرات الجسم التي تحدث أثناء عملية التفكير. ويحدد لذلك سبعة قطاعات منهجوية: تموجات الدماغ (EEG)، كمون الجلد (PGR)، العمل العضلي (EMG)، نشاط القلب (ضغط الشرايين، EKG)، نشاط العين (EOG)، نشاط التنفس (التردد والحجم) وقياسات أخرى للحالة العامة (حرارة الجسم، إفرازات، انتصاب). يفضّل، في الأبحاث حول التفكير، قياسات كهربائية لمقاومة الجلد (تتخذ على الأصابع وتسمى خطأ «كشاف الكذب») والتخطيط الكهربائي للدماغ (شكل ب).

ج. تحققات خاصة

تغطي فعالية نشاط التفكير قطاعًا منهجويًا خاصًا غنيًا.

تعطينا الصورة (ج) مثلًا على ذلك.

ما المراد بذلك؟ مربَّعان بلونين مختلفين مع عدة خطوط متصلة فيما بينها.

بعض الأشخاص الخاضعين للاختبار يتوقفون هنا. لكن الفضوليين يذهبون أبعد من ذلك («إلى مستوى أعلى من الاستكشاف» خاص بكثير من الأذكياء)، فيبحثون عن الفروق.

المربعان متشابهان تقريبًا. لكن أحدهما يحتوي على عدد أكبر من الخطوط.

ومن جديد يتوقف الخاضعون للاختبار هنا.

فلكي يذهبوا أبعد من ذلك، أي لكي يعرفوا عدد الخطوط الزائدة يحتاجون إلى «استراتيجية»، إلى مخطط عمل (إلى مسطرة، مثلًا، تنزل شيئًا فشيئًا). وهكذا نحصل، بطريقة مستقلة، على النتيجة النهائية.

ثلاثون خطًا أكثر في المربع الأيسر.

يعتبر هذا المثل المنهجي في تقنيّة الحل امتحانًا. فعلى الشخص الخاضع للامتحان أن يجد الخطوط الناقصة. إن هذا الاختبار هو، قطعًا، رائز فعال للقدرة على التركيز، مَثل لدراسة النشاطات الخاصة بعملية التفكير.

د. طريقة حية

تصور العالم النفساني **ديتريش دورنر** مدينة خيالية «لوهاوسن» استنادًا إلى نموذج غرونستات، ثم أدخل في الحاسوب خصائصها المكانية، ومؤسساتها ووسائل النقل وتقنيات التموين («اللوجستية») وخصائصها الصناعية والمالية... أي ما مجموعه ٢٠٠ عامل. كل واحد من الأشخاص المتحنين الثمانية والأربعين عُين «عمدة» مع سلطات غير محدودة. وأحصى الحاسوب نتائج قراراتهم.

عمل البعض على ازدهار المدينة والبعض على تدميرها. ما هي ميزات العمدة الصالح،

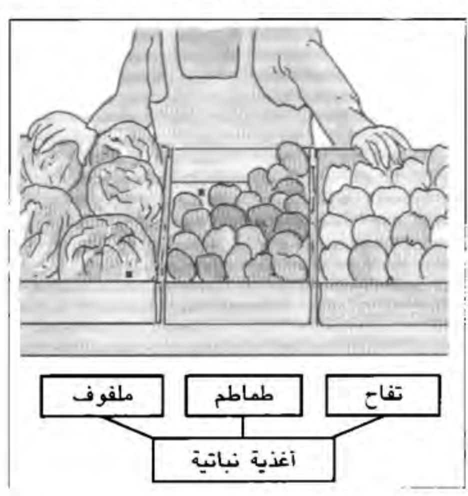
إنه متعطش إلى المعرفة، لا يخاف التغيير، ويدرج في مخطط متسلسل الحلول على مراحل صغيرة.

وفي حال الإفراط في الحماسة، يخشى فقدان النظرة الإجمالية، بسبب التشتت في مسائل جزئية، إلى درجة أنه، على أثر ذعر أعمى، يحدث ما يجب ألا يحدث.

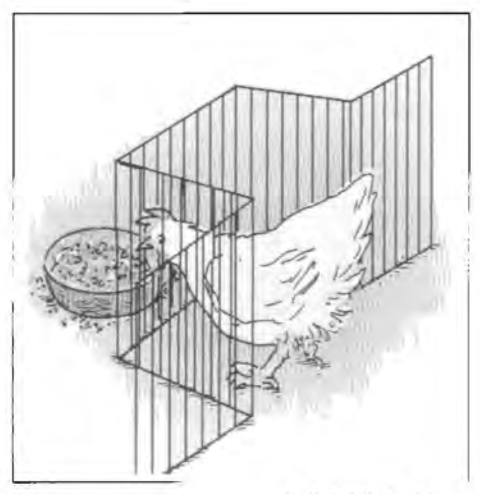
لا يعتمد التصرف المناسب لا على الإرادة الطيبة ولا على الذكاء الاستثنائي ولا على الإبداع، بل على إمكانية إلقاء نظرة شاملة بفضلها يمكن معالجة نموذج مبسط بمرونة.

لقد تخلينا، هنا، عن مجموعة من الطرق ستعرض لاحقًا وهي: الدراسات عن تطوير العمليات المنطقية (٤/١٤).

أعد **جان پياجيه** نماذج تحدد انطلاقًا من أية مرحلة نموٍّ يتمكن الأولاد من تكوين بعض الحلول المعرفية.



أ. نظريات التوسط



ب. نظرية إعادة البناء



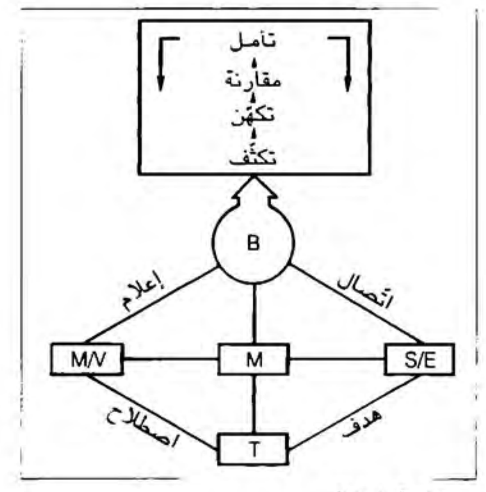
ج. نظرية الاستكشاف



د. نظرية العوامل



هـ نظرية المراحل



و. نظرية الدلالة

كيف يفكر الإنسان؟ ماذا يحدث «عقليًا» في رأسه عندما يفكر في الحياة اليومية: ماذا سأفعل اليوم، كيف أوضِّح هذا الأمر، كيف يجب أن أفهم ذاك، أين الفرق وما هي النتائج المترتبة على ذلك؟

أ. نظرية التوسط

يقول **أرسطو** إنه عندما تؤدي قضيتان أكيدتان إلى قضية ثالثة يكون هناك فكرٌ منطقي:

«جميع الناس يموتون -
سقراط هو إنسان
إذًا سقراط يموت».

أعد التجريبيون الإنكليز، في القرن الثامن عشر، قوانين التداعي (٢/٧) ليشرحوا هذه «النتيجة» (علاقة منطقية). وفي القرن التاسع عشر، عرَض **إدوارد برادفورد تيتشنر** الفكرة كحركة داخلية للتداعيات. ويُنظر اليوم إلى الفكرة من قبل هذه المجموعة من النظريات كرابط (لغوي أساسًا) بواسطة وسطاء (مفاصل متصلة، **أوسغود**):

التفاح، الطماطم، الملفوف:
(النتيجة) أغذية نباتية.

ب. نظرية إعادة البنية

الدجاجة التي لا تستطيع الوصول إلى الطعام، بسبب المشبّك عليها أن تقوم بانعطافة وراء الحاجز (الحيوانات المتطورة وحدها تستطيع ذلك).

ضروب سحرية عديدة تفعل فعل الحاجز بالنسبة إلى الدجاجة. يجب اجتياز فكرة سعيًا إلى معرفة ما وراءها. إن العنصر المركزي للفكرة هو، استنادًا إلى هذه النظرية، تحوّل أو إعادة بناء.

كان **غوتّه** يسمي الفكر «انتظار المثال الصالح».

ج. نظرية الاستكشاف

يفترض، منذ بدايات نظرية التعلّم (**پاڤلوڤ**)، «ارتكاس توجيهي فطري: نوجه انتباهًا نشيطًا إلى محيطنا «اهتمامًا منا بالمستجِدات» (**ج. پياجيه**) أو لنشاط فضولي متزايد («سلوك استكشافي» **د. إ. برلين**).

الولد الذي يريد أن يعرف كيف تعمل السيارة يفكّكها.

وهكذا فالفكرة هي توجيه فوقي: والإنسان المفكر هو «باحث».

د. نظرية العوامل

يستعرض الأستاذ بطاقات العلامات المدرسية: هذا طالب بارع في الرياضيات وفي الفيزياء وذاك في الإنكليزية والفرنسية.

يجري الحديث عن ترابطات عليا أي عن توافق أكبر وسط مجموعة واحدة من الفروع أكثر مما يحدث بين مجموعة وأخرى.

حُسبت، بواسطة التحليل العواملي (٧/٤)، حُزَم تمثل صورة فعالية الفكرة مع عدة مراكز ثقل.

هـ. نظرية المراحل

السؤال هو «على أي مخطط ينطبق قليلًا أو كثيرًا حل مسألة ما» (**غيلفورد** ١٩٦٤). في بداية القرن العشرين، حلل **والاس** وآخرون الفكرة إلى مراحل:

الإعداد (جمع المعلومات)، الاختمار (تطور العمل الفكري اللاواعي)، الإشراق (ظهور حل)، التحقق (اختبار الحل وصياغته).

فيما ضاعف الكثير من الباحثين عدد المراحل، تعتمد عادة مرحلتان أساسيتان، على سبيل المثال، **پياجيه** (التمثل المعمم، التطابق المفاضل)، **روملهارت ولندساي** (أساس المعطيات والتأويل)، **ماكارتي وهايس** (البنى العلومية والكشفية). (**جاغر** ١٩٩٧. المضمون والعملية).

ففي عملية تدعيم المعارف، لا نجمع فقط معلومات ولكن نسعى إلى تحسينها بإزالة النواقص والغموض والأخطاء والتنافر في البناء المعرفي.

لكن الفكرة هي إعداد (تأويل، تعديل، حل مسائل، إبداعية). تكمن الفائدة الأساسية من هذا النزوع في مختلف «تحاليل أهداف-وسائل» (**نيويل وسيمون**) تبعًا، مثلًا، لمعايير قائمة (جيد-عاطل، صحيح - خطأ...) أو لمراحل تخطيط (تأكيدات مسبقة أو استعدادية).

و. نظرية الدلالة

تحاول هذه النظرية دراسة الأداءات المعرفية العليا: بأي وسيلة يمكن النفاذ إلى العالم بالتجريد؟

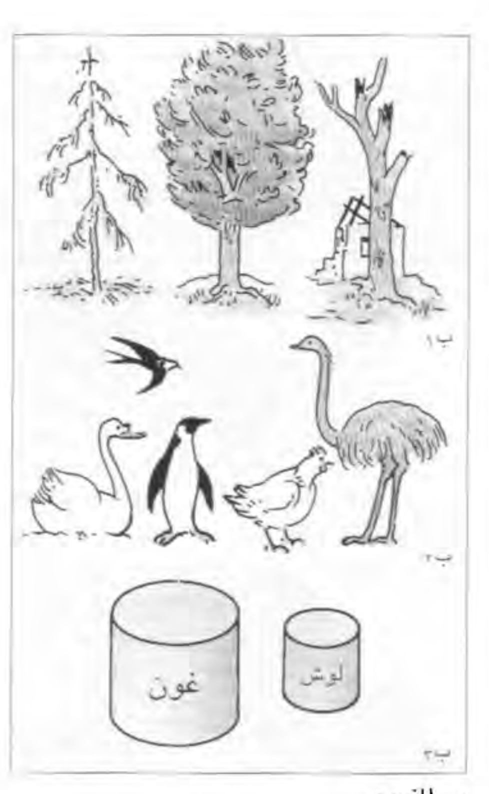
استنادًا إلى نظرية الدلالة (٢/٥،ج و٤/١٣،ب)، ثمة علامة بيانية، نظريًا، بين الأشياء ودلالتها. (مبدأ ركيزة - نموذج - دلالة: ١/٥،ج). تظهر الدلالة مع محتواها التجريدي على شكل درجات. لم يجد داروين (١٨٧٢) لدى الشعوب البدائية سوى محتوى بسيط من التجريد اللغوي (مثل الأرقام حتى ٤).

تبدأ مراحل التجريد من التكثف (مستوى حسي: كمية كافية من المواد الحسية) إلى الإسناد (مستوى المحمول: تجريد حدسي، مستوى الأمثلة الشفهية وغير الشفهية)، فإلى المقارنة (تكوين علاقات مقارنة لاستخلاص خصائص مشتركة) حتى الارتكاس (تعميم ذو صلاحية شمولية). الارتكاس يحقق العودة إلى التكثف ليصل الشمولي بالخاص.

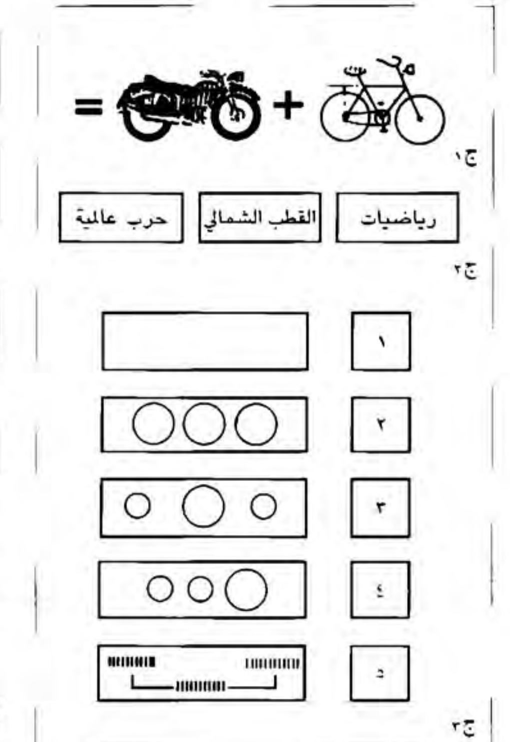
عملية التجريد يسهلها أو يعيقها الإعلام (مثل الإسهاب)، والاتصال (المستوى الفكري للمشاركين) والهدف (مثل غاية الفكرة) والمصطلحات (مثل مستوى التجريد المنتظر في طبقة اجتماعية).



أ. التمثّل (التصور)



ب. المفهوم



ج. التوافق



د. العملية

حاولت تعريفات كثيرة تحديد عملية التفكير. وبشكل عام:

التفكير هو تأمل (ذهني أو بصوت عال) في إمكانيات: وضع محتويات متصوَّرَة في مكانها.

هذا التعريف هو بذاته نتاج نموذجي للفكر: نتبين في المناقشة الداخلية الارتجاعية والثابتة إحدى أهم مميزات الفكر.

نحفظ، فيما يخص الفكرة، المعايير الأساسية الضرورية التالية:

أ. التمثل (التصور)

التفكير دون محتوى هو مستبعد. وتحديد أي نوع هي هذه المحتويات يقود دومًا إلى منازعات.

كانت المناقشات، أيام الأوبانيشاد (٢/٢) تركز دائمًا على أسبقية الفكرة أو اللغة.

رفع ستالين، الدكتاتور السوفياتي، تطابق الفكرة واللغة إلى مستوى العقيدة.

لكن كل واحد من الناس يعرف استقلاليتهما:

من يعود اليوم عندما يسمع عبارة «شروق الشمس» (آ١) بتفكيره إلى الصورة اليومية القديمة عن «الخلق البدئي» للشمس؟

ويعرف الباحث أنه لا يمتلك، للوهلة الأولى، لا كلمات ولا إشارات لاكتشافات جديدة (معرفة «رمادية»، لم تصبح بعد كلامية) حتى تَرِدَهُ أخيرًا صيغٌ كلامية أو رياضية من تمثّل غامض.

تحدِّد كلمة «تمثل» مجالًا فسيحًا يبدأ من مخططات ذهنية «شاحبة» وينتهي بعطاءات مخيلة غنية بالمحتويات و«بتمثل أيقوني» دقيق (**برونر**).

يحدد **برلين** ثلاثة أشكال:

نماذج المثيرات (تمثلات صور مكانية)

نماذج ردود فعل (تمثلات إشارية)

الرموز (دلالات محوَّلة)

تشكل التمثلات الذهنية واللغة وحدة حتمًا.

إذا كنا نميز، كما في اللغة اللاتينية (و اللغة العربية أيضًا) بين عم وخال (آ٢)، فإننا نفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى محتوى التمثلات.

أكثر الكلمات تثير تمثلات بصرية مثلما تمثل كلمة «مقايضة» (آ٣) قبضة اليد.

ب. المفهوم

يمكن أن ننظر إلى النعامة والدجاجة والسنونوة والبطريق والإوزة على أنها طيور مختلفة أو أنّها يوحِّدها مفهوم الطير.

تتولد المفاهيم من التمثلات بتداعي مضامين مختلفة، بالتجريد عند توجيه الانتباه نحو خصائص تتكرر، بسلسلة أصناف مفهومية إذا كانت المفاهيم محدّدة بدقة وأكثر مادية (مثل مفهوم «مبدأ المساواة»)، أو أكثر اتساعًا وشمولًا (المفهوم القريب من «العدالة»). لا تكف التمثلات المفهومية عن التطور أو هي تتبدل بوعي (بذاتها أو بغيرها)، مثل خصائص تَذَكُّر مفهوم الشجرة (ب١).

لدى السؤال «بم تذكِّر الشجرة؟»، كان أول ما يرد إلى الذهن، بعد الحرب العالمية الثانية، صورة الشجرة المدمرة، وبعد مضي ١٠ إلى ٢٠ عامًا، طغت صورة الأشجار الجميلة الخضراء، واليوم فكرة الأشجار اليابسة تفرض نفسها غالبًا.

إن أحد الاتجاهات العامة لتشكيل المفاهيم هو زيادة مستمرة ثابتة لعناصر صور جديدة مع، بمقابل ذلك، إفراغ خصائص الصور التي تمّحي ونقلها أو ميلانها عندما تتخذ الكلمات دلالة معدّلة. وتحدد كتل **ڤيغوتسكي** (ب٢) السرعة التي يحدث بها هذا:

إذا ألصقنا مقاطع عارية من المعنى مثل «لوش» و«غون» على اسطوانتين مختلفتي الحجم لن نلبث أن ندرك الفرق في حجم هذه المقاطع.

ج. التوافق

إن «التعرف بواسطة المفاهيم» (**كانط**) هو أحدى المراحل الدنيا من الفكرة. وإن تكوين سلسلة من المفاهيم ومما وراء المفاهيم (ج١) يشكِّل جزءًا من الفكرة الحقيقية: دراجة هوائية + دراجة نارية = دولابان.

في طريقة الكلمات الثلاث (**ماسْلون** ١٩٠٣)، تسمى ثلاثة مفاهيم (ج٢) على أن تتصل ضمن جملة واحدة. ثم يُذكر بتفصيل ما ينتج عن ذلك من شعور (ج٣).

(١) تغير مفاجئ بالتوتر (الانتقال إلى فراغ ظاهر)

(٢) شعور تصوّري (الإحساس بالبرد فيما يخصّ القطب الشمالي)

(٣) كلمة مركزية (إحداها هي الأهم)

(٤) تكوين علاقات (الكلمة الأساسية توضع في البداية أو في النهاية)

(٥) الصياغة (الجملة مركّبة)

بيد أن السياق الحقيقي هو، في أكثر الأحيان، أكثر تعقيدًا بكثير.

د. العملية

أحيانًا، تمنع الفكرة الفعل أو تجعله نافلًا، ولكنها بشكل عام تكون مؤاتية وتعمل على تحقيقه. حتى الأفعال التي لا نلاحظها تسببها الفكرة (أثر **كارپنتر**).

تقودنا الفكرة، فيما يسمّى «حركات متصلة بالفكرة»، دون أن نريد ذلك.

إذا علقنا حلقة بخيط وحاولنا تجميد ذراعنا، بعد مضي بعض الوقت تبدأ الحلقة بالتأرجح في الاتجاه الذي كنا نفكر فيه سابقًا.

لا تنفصل الحركية الكامنة عن الفكرة (مثل لغة الجسد فصل ١٧/١٣).



أ. الأسلوب الروتيني

ب. الأسلوب الكشفي

«التفكير هو تأويل استنادًا إلى ترسيمة لا نستطيع التخلص منها» (**نيتشه**).
هذه الترسيمات تجمّد الفكرة، ولكن يمكن معالجتها بمرونة. لم يعالج علم النفس، بعد، الدلالة الحياتية لأساليب الفكرة بطريقة شاملة: لأي سبب نستخدم الفكرة، أسهل شيء هو تحديد المواقع القصوى.

أ. الأسلوب الروتيني

الرتابة هي غالبًا محتقرة كتنفيذ دون مشاركة داخلية. ولكنه واضح أنه، إذا راقبنا نشاطات الفكر اليومية: كما في الحياة المهنية، نجد من المستحيل، دائمًا، أن نُكِبّ على مهمات كما لو كانت جديدة، متورطين داخليًا ومتأملين تأملًا كثيفًا. وهذا سيكون غير اقتصادي. لسنا بحاجة فقط إلى أفعال مؤلِّلة، ولكن أيضًا إلى أفكار مخططة تتحكم بمجموعة المتطلبات الفكرية.

(أ١) لا يشعر كل من واجهته عمليات تبضُّع يومية بأن بديلًا لها مثل «اشترى» أو «اقتصد» هو مسألة قرار، فهو يعرف، بالخبرة، منذ زمن طويل، ما يجب عليه أن يفعل.

(أ٢) والأمر يختلف بالنسبة إلى الهموم الطارئة. ماذا يقول الزبون إذا أتاه النادل بطبق طعام فاسد، هنا أيضًا تصرف ذهني نموذجي: البعض يحتج ويعيد الطبق، وآخر يقول لا بأس، وأجوبة أخرى كثيرة ممكنة.

(أ٣) يشير مثل **لوتشنس** إلى السرعة التي يقع بها الإنسان في الروتين الذهني. يجب أن نقيس كمية من الماء بأبسط طريقة ممكنة بواسطة ثلاثة أباريق نعرف حجمها.

> للحصول على ١٠٠ ليتر بأباريق سعة ٢١ ل و١٢٧ ل و٣ ل، نأخذ إبريق الوسط ونسكب منه مرة واحدة ٢١ ل ومرتين ٣ ل.

وفي تجارب تالية تصادفنا بعض المسائل التي تخضع للمبدإ نفسه من الحل. (إنطلاقًا من ابريق الوسط).

> ثلاثة أرباع الأشخاص الخاضعين للامتحان يقعون في الروتين إلى درجة أنهم يقومون بالمهمة مبتدئين من أسفل (مع ثلاثة أباريق من ٢٣ ل، ٤٩ ل، ٣ ل، مع نتيجة نهائية ٢٠ ل) انطلاقًا من ابريق الوسط (٤٩ ل) بالرغم من أنه كان من الأسهل سكب ٣ ل من الإناء الأيسر في الإناء الأيمن للحصول على ٢٠ ل.

(أ٤) «فيل بحر مع قبعة رسمية وسيكار». جميع الناس تقريبًا يرون القبعة على رأس الفيل والسيكار في فمه، ولكن يمكن أيضًا تصورها بعضها إلى جانب بعض.

نميل، بشكل عام، إلى ضغط تمثلاتنا الذهنية.

تدل هذه الأمثلة على ميلنا إلى اقتصاد الفكرة. تؤدي الاختبارات المنقولة أو المكتسبة إلى الروتين.

يمثل هذا النوع من الاقتصاد بعض المساوئ إذا حال دون الابتكار (مقاومة الابتكار) أو أثار أفكارًا مسبقة أو أحكامًا سلبية.

ب. الأسلوب الكشفي

«أوريكا» (وجدتُها) صاح **أرخميدس** عندما وجد حلًا لمسألته. أسلوب التفكير الكشفي هو وسيلة لإيجاد حلول من نمط جديد عندما لا يجدي الروتين نفعًا.

(ب١) كانت أحياء مدينة كونغسبرغ تفصلها، في أيام **كانط**، سواعد نهر **بريغل** العديدة وكانت متصلة فيما بينها بسبعة جسور. فطرح العالم الرياضي **أولر** المسألة التالية:

> هل يمكن بخط واحد اجتياز جميع الجسور على ألا نمر على الجسر إلا مرة واحدة؟ (مستحيل).

(ب٢) يمثّلُ في الصف الأعلى عدة أشكال من «البَريشاك». وأشكال الصف الأدنى ليست كذلك. سؤال:

> ما هو البَريشاك؟
>
> (هو جسم فيه فرضة واحدة لا اثنتان وليس بدون فرضة).

السؤالان متشابهان لأن الهدف المقصود محدد: الوسائل وحدها تتغير. في المثل الأول نحاول عشوائيًا وفي الثاني أقل بكثير. نحتاج، من أجل ذلك، كالباحث، إلى فرضية تتأكد بالاختبار أو ترفض.

يمكن لهذا «التحليل - الوسائل - الأهداف» أن يعمّق حتى ولو كانت الأهداف المقصودة حرة.

(ب٣) أحيانًا كثيرة، لا يكون الرسام قد حدد هدفه عندما يبدأ بمعالجة قماشته.

(ب٤) توفر الحياة اليومية مواقف قرار دون **هدف** متواطئ:

> أن يدع تلميذ رفيقه ينقل عنه أو لا فهذا يحدِّد أيضًا أهدافه: إذا كان يريد أن يثبت تفوقه على منافس يرفض ذلك، وإذا كان، على عكس ذلك، يحبذ التعاون والمشاركة فإنه يقاسمه، بطيبة خاطر، معرفته (وبالتالي النجاح).

إن أسلوبي التفكير هذين لا يشملان جميع طرق التفكير، لكنهما يحددان الطريقة التي يجب أن نواجه بها المسائل. يجب على الفكرة، بشكل عام، أن توحّد الكثرة وتوضح ما هو موحّد بتمييزه.

دُرست، في الاختبارات التي أجريت على التفكير، وسائل التحسين أو العرقلة: تبعية الحقل (توريط موضعي أو شمولي للمحيط)، توجيه الفكرة (عادات التفكير الواقعية أو غير المعقولة)، الخرائط المعرفية (مماثلة مكانية في الحقل الفكري)، التعقيد المعرفي (درجة تفاضل النُّظُم المفهومية)، العفوية (أسلوب باعث أو منعكس)، البصمة (تمهيد أو إبراز ٦/٧).



أ. الفكر القديم

ب. الفكر القياسي



ج. الفكر السببي – الخطي



د. الفكر الشبكي

يختلف الفكر من شخص إلى آخر. بيد أننا جميعًا خاضعون لسلسة متناهية من أشكال الفكر المتشابهة. يلخص هذا المفهوم، منذ أيام **لايزغانغ** (١٩٢٨)، مسيرة البرهنة.

إن كل من يفكر يورد تمثلاته القصورية أو قضايا تمثلاته العقلانية أو القضايا الأساسية إلى حد أنه يتوصل، بواسطة سلسلة استنتاجية، إلى «مسلّمات» أو إلى «مبادئ أساسية» تُفْتَرض صحيحة (وغالبًا خاضعة لإيديولوجية) فيعتبرها صحيحة أم لا.

ثمة أربعة أشكال للتبرير على أساس مسلّمات.

أ. الفكر القديم

يحاول الفكر أن يمسك بالحقيقة. لكن ماهية «الحقيقة» تتعلق دائمًا بتفسيرها. كان الفكر في بدايات الخليقة بدائيًا «قديمًا»، وأعيد تشكيل هذا الشكل من الفكر انطلاقًا من عُدَدٍ متنوعة، وأشياء خاصة بالعبادة. إن ميزته الأساسية هي نسبة «الحقيقة» إلى أسباب شيطانية، إحيائيّة، أو سحرية.

تُعزى جميع الأحداث العصيّة على التفسير مثل القَدَر والموت والحظ وأصل الكون وغيرها إلى قوى فائقة الطبيعة أو إلى تدخلها المباشر.

كان أتباع عَبَدة الشمس في مصر القديمة، يبتهلون الى الإله آمون الذي يمثل الشمس كسبب لكل ما يحدث. كانت الخنفساء (أ١) مقدسة لأنها تعتبر تحت حماية الشمس. إنها الوحيدة التي تطير في حر الظهيرة اللاهب وتضع بيوضها في كتل من روث الحيوان وتتركها تفقس في الشمس.

وكان هؤلاء المتعبِّدون، للحصول على نعم الشمس، يسحقون الخنافس في هاون ثم يأكلونها. ويعتقدون أنهم، بتقمصهم أجزاء من الشمس، يحصلون على رضاها.

(أ٢) يتقدّم الفكر منذ أقدم العصور كما يبدو في تطور الأدوات الظرانية. كان النياندرتاليون يجعلون ثقوب الخياطة واسعة نسبيًا، أما إنسان أورينياك فكان يجعلها أرفع بكثير.

ب. الفكر القياسي/التماثلي

إذا ألقينا قطعة نقود في الفضاء فإنها تقع، تبعًا لقانون الاحتمالية، على وجهها كما تقع على قفاها سواء بسواء. ولكن إذا ظهر الوجه عدة مرات، تتكون لدى من يلقيها قناعة ذاتية بأن الرمية التالية ستكون على الوجه.

ويطبق اختبار القياس، نتيجة لذلك، على توقع المستقبل. أمثلة أخرى:

«هذا ساعدني، إذًا سيساعدني أيضًا».

«لقد فزنا في الانتخابات الأخيرة، سنفوز، إذًا أيضًا، في الانتخابات القادمة».

«إذا كذب الإنسان مرة واحدة، فلن يصدقه أحد حتى ولو قال الحقيقة».

ج. الفكر السببي - الخَطّي

تدخل الأم إلى الغرفة فتجد الإناء مكسورًا:

من فعل ذلك؟ الأقرب من حطام الإناء.

واستنادًا إلى قانون التداعي بالتجاور (٢/٧) نصل إلى نتيجة خطية من سبب إلى نتيجة.

وُصلت، في الاختبار، عدة مولدات كهربائية تعمل استنادًا إلى مبدأ الصدفة لتضيء مجموعة من المصابيح. فكانت المصابيح تضاء بالصدفة. ثم أضيف إلى ذلك مبدِّل يحدد الإضاءة دون اختيار المصباح. ثم لا يلبث الأفراد المتحَنون أن يضعوا لذلك شروطًا سببية، مثلًا:

«إذا ضغطتُ بقوة أكبر يضاء قنديل فوق».

ويميلون إلى وضع علاقات سببية وإلى إدخالها بطريقة خطية حتى حيث لا وجود لها.

د. الفكر الشبكي

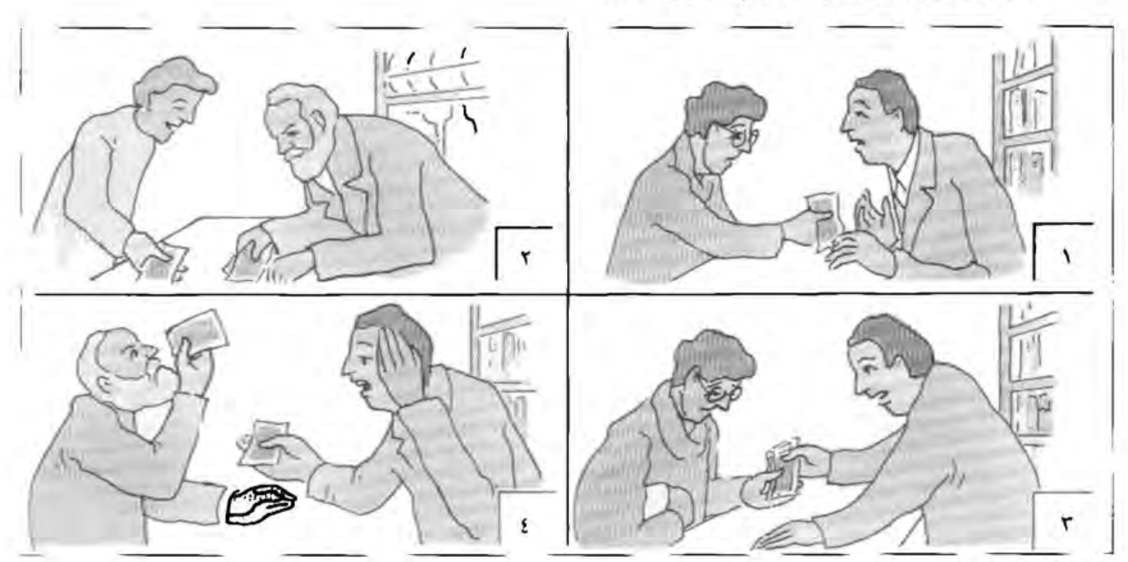
عُكِس التسلسل التاريخي لهذه الصور الأربع. يجب أن يعاد وضعها استنادًا إلى عنوان «الانقلاب». لهذا يجب تفسير عدة وجوه (ماذا تمثل كل صورة، ما دور التمثال النصفي في خلفية اللوحة؟) في تشابك علاقاتها حتى نصل إلى تسلسل منطقي (٣، ٤، ٢، ١).

هذا التنسيق الشبكي البسيط يبرز الفكرة في سياق نظامي. تتضمن النُظُم الكبيرة عدة عناصر جميعها متفاعلة إلى حد أنه لا يمكننا تمييز «السبب» من «النتيجة» لأنه، في نظام كبير، الكل على علاقة مع الكل.

وهكذا فإن أعداد الأرانب والثعالب تتغير (نظريًا) استنادًا إلى المعدل الديمغرافي لكل من هذين النوعين من الحيوانات. ومع ذلك فالعدد يتبدل بسبب الصيد والأوبئة.

يحاول الفكر «الشبكي» ألا يأخذ الأشياء بأبسط مما هي.

يجب أن نضيف، ذهنيًا، إلى أشكال الفكر الأربعة المهيمنة هذه خصوصيات عديدة للتفكير، مثل اساليب التفكير (٤/١٠) ودمجها وتصدعات التفكير وعمليات العقلنة (كالفكرة التي تسمى فكرة التمني (الاختيارية) التي هي شكل خاص من الفكر القياسي. وهكذا يصعب الإحاطة بالفكرة في سياقاتها كمتابعتنا لسياق نقاش، مثلًا. من هنا، فإن القواعد الأربع للفكر المنطقي (موضوع الفكرة لا يكون غامضًا - يجب إزالة التناقضات - لا تعبير ثالث بين الصحيح والخاطئ - كل قضية يجب أن تبرر تبريرًا كافيًا) يجب ألا تفرض نفسها في الحياة اليومية.



أ. أسباب الحكم

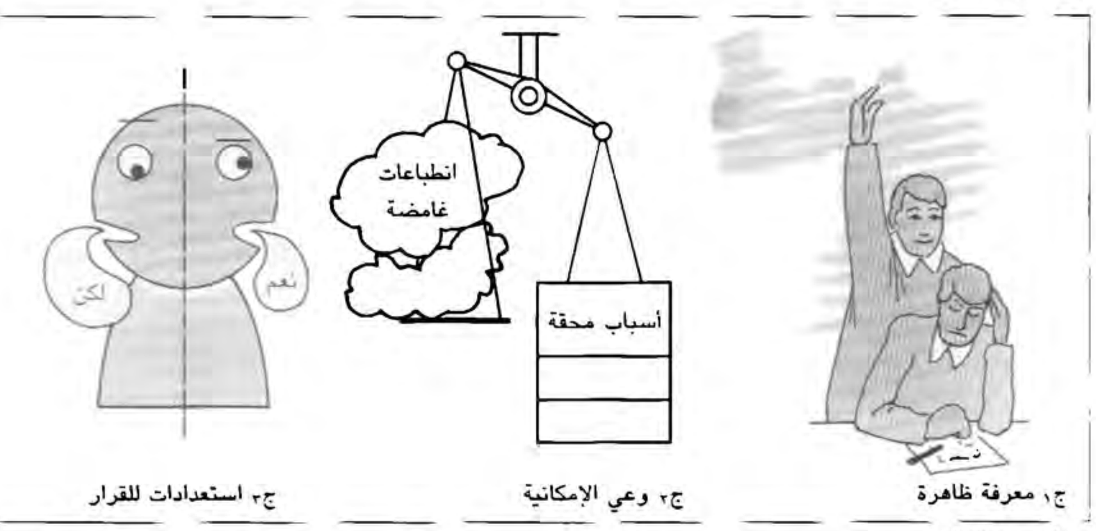
كلما كان اللغز صعبًا

- أ) أحبه أكثر
- ب) يكون الحل غير ممكن أكثر
- ج) نكون بحاجة إلى كلمات أكثر لوصفه
- د) يكون لنا الحق بأن نكون أكثر فخرًا
- هـ) نكون بحاجة إلى مراحل فكرية أكثر لبلوغ الحل
- و) تكون الحلول أكثر ندرة
- ز) نكون أكثر اندهاشًا بالحل

حكم قيمي

حكم

ب. معايير الحكم



ج١ معرفة ظاهرة — ج٢ وعي الإمكانية — ج٣ استعدادات للقرار

ج. أوضاع الحكم

عندما نقول عن إنسان إنه «صائب» الحكم، نفكر بصحة أقواله ومقاصده. يبحث علم المنطق عن قواعد لذلك، أما علم النفس فيهتم بالشروط الفردية للأحكام الصحيحة.

أ. أسباب الحكم

إن أحد أقدم تطبيقات الحكم يؤدي تكرارًا إلى أخطاء:

(١) يدخل زبون إلى مكتبة ليشتري كتابًا ثمنه ٦٠ ماركًا فيدفع ١٠٠ مارك.

(٢) وبما أن صاحب المكتبة لا يستطيع أن يرد المال الزائد، يرسل موظفًا، مع المئة مارك، إلى محل مجاور للحصول على قطع نقود صغيرة.

(٣) عندئذ يستطيع صاحب المكتبة أن يعطي الكتاب للزبون مع ٤٠ ماركًا.

(٤) وبعد قليل يصل الجار مع ورقة المئة مارك ويُري صاحب المكتبة بأنها مزورة. فيضطر هذا إلى إعطائه ورقة صحيحة.

ما هي خسارة صاحب المكتبة، يجيب الكثيرون بأنها ١٠٠ مارك.

ليس الأمر بهذه البساطة. يجب حسم حد الربح ٣٠٪ مثلًا. فتكون الخسارة عندئذ ٤٢ ماركًا زائد ٤٠ ماركًا أي ما يساوي ٨٢ ماركًا.

نميز فئتين من الأحكام الخاطئة: استنتاجات خاطئة ونتائج خاطئة. والتعميمات الخاطئة تنتمي إلى الفئة الأولى:

«إنك تمتلك ما لا تنساه، لم تنس اللغة العربية، إذًا أنت تملك اللغة العربية».

(تصاغ المقدمات بكثير من التوسّع).

الالتباس هو شكل آخر:

«الكوكو يضع بيوضًا. رقاص الساعة هو كوكو، إذًا رقاص الساعة يضع بيوضًا».

بالرغم من أن هذا المثل هو عبثي، إلا أن هذه الحالات كثيرًا ما ترد دون أن تلفت الانتباه. مثلًا، عندما يتصارع خصمان على «الحرية» فإنما يضمران شيئًا غير هذه اللفظة.

ليست الاستنتاجات الضالة بنادرة. مثلًا:

«النهار يعقب الليل، إذًا فالليل هو علة النهار».

كثيرًا ما نصادف هذه «الانزلاقات» في الاستنتاج في المناقشات السياسية، مثل:

«لقد تكلمنا دائمًا على السلام، نحن إذًا أكثر الناس مسالمة».

ب. معايير الحكم

عندما نقيس طول شيء، نستعمل المتر بكل تأكيد. ونتغاضى بسهولة عن أن «المقاييس المترية» هي مهمة أيضًا بالنسبة إلى الحكم. القاعدة الحاسمة هي أن نميز ما إذا كان الشيء مؤكدًا موضوعيًا أم لا.

يؤكّد موضوعيًا الحكم الواقعي التالي: «باريس قائمة على ضفاف السين». «باريس جميلة» هو حكم قيمي لا يتمتع سوى بصحة ذاتية. لكن الفصل بين الإثنين صعب. للأسف، نميز في الأمثلة (شكل ب) بسهولة بين الأحكام القيميّة (أ) والأحكام الموضوعية (هـ). يمكننا إيجاد غموض مصطنع في الأحكام: مثل تحوير معنى الكلمات (سعر «جديد» بدلًا من سعر أغلى)، باستعمال مزيف للفظة («الديمقراطية الشعبية»)، بالتركيب الباخس للقيمة («طاعة جيفية»)، بالاعتراض المفرط، بتفخيم الكلام على حساب المنطق. جاء في الإنجيل (أعمال الرسل، ١٩، ٣٢):

وكان بعض ينادون بشيء وبعضهم بشيء آخر لهياج الجماعة...».

ج. أوضاع الحكم

يقع كل حكم في سياق متعدد المكونات، فردية، مكانية، زمانية تؤثر على صياغة الحكم.

(ج١) معرفة ظاهرة. سأل **و. بوبلرويتر** الأشخاص الذين يمتحنهم عن أمكنة جبال وأنهر ومدن ودول معروفة في أميركا الجنوبية. وكان باستطاعة هؤلاء الأشخاص أن يجيبوا «بنعم» أو «لا» أو «تقريبًا». ثم عرض أمامهم حدود أميركا الجنوبية وطلب إليهم أن يعينوا أماكنها فيما هم يرسمونها. وتبرهن النتيجة، كقاعدة عامة، أن الأشخاص كانوا يبالغون في تقييم أنفسهم.

(ج٢) وعيُ الإمكانيات. لخص **برونزفيك**، في نطاق هذا المفهوم، واقع أن الشروط المسبقة (المبكرة) ليست، غالبًا، كافية بالنسبة إلى الحكم. وإلى جانب الأسباب المحقة يوجد انطباعات غامضة من شأنها، بالرغم من اختلافاتها النوعية، أن تصب في الحكم ويكون لها بالتالي قيمة «البراهين».

أكثر تشوّهات الحكم تكرُّرًا هي:

النزوع نحو المركز (نقل الحكم إلى وسط غامض)،

أثر الهالة (التعريض المفرط بواسطة أحكام أخرى)،

التضاد – التشابه (آثار متتالية لأحكام سابقة)،

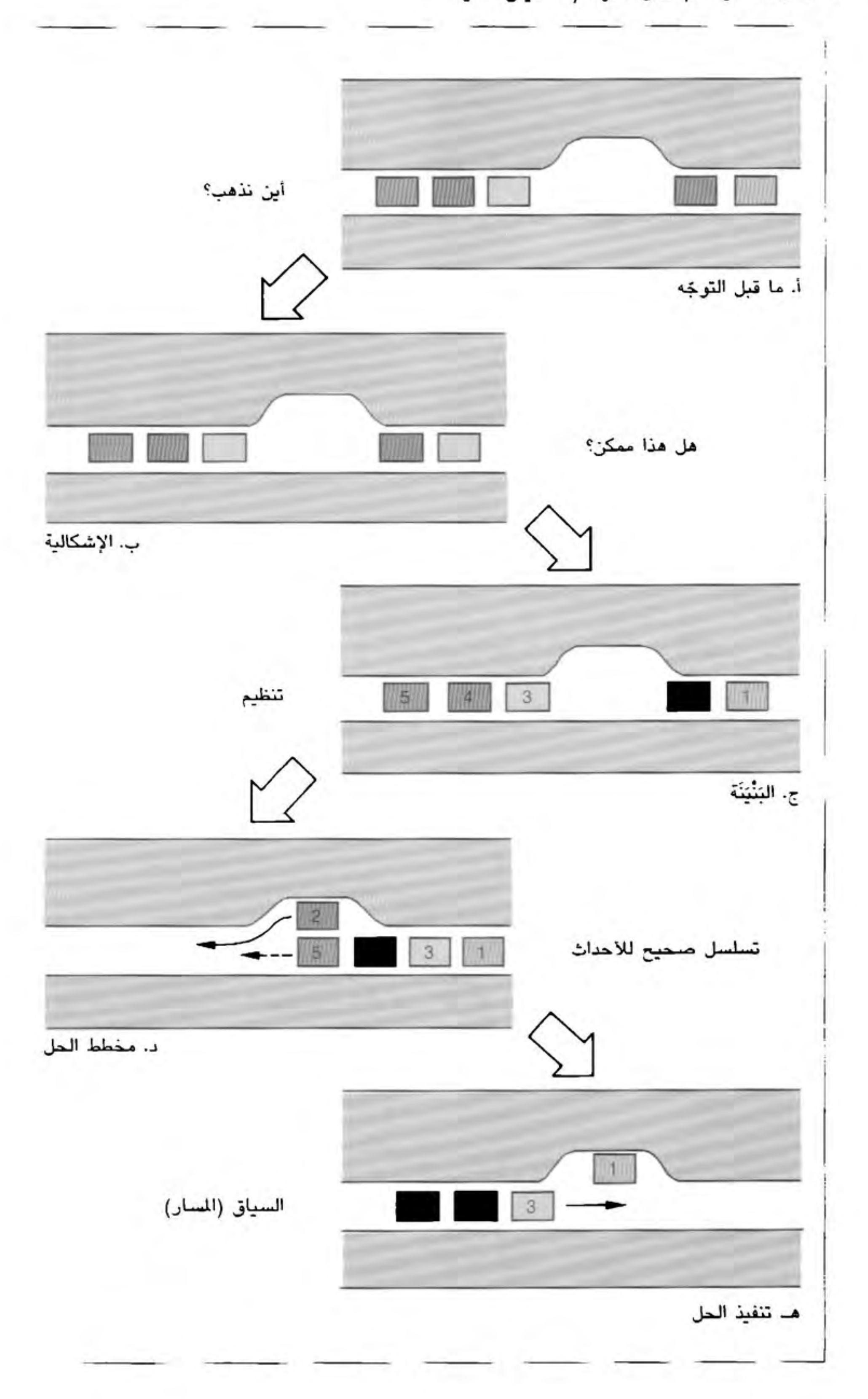
تفسير القيمة (نصف الزجاجة فارغ أو نصفها ملآن)،

أثر الرغبة (بصمة الحكم على اتجاه التوقع).

(ج٣) قرار موجّه. يمكن أن نلحظ تبعية الحكم في صيغ من نوع «نعم، ولكن»: بسبب قناعات متبنّاة منذ زمن بعيد، يحكم الإنسان مسبقًا في اتجاه مصالحه (حكم مسبق)، أو أنه لا يستطيع، بالرغم من أسباب مناقضة بارزة، بلوغ نتيجة صحيحة (مقاومة التغيير):

يوافق على ضرورة شق طريق إذا كان ضجيج حركة المرور لا يزعجه.

هذه التبعية فيما يخص النتائج تدعمها تبعيات أخرى: ثقافية، اجتماعية، زمنية، وسلسلة من «آثار العياء» عن الحكم، مثل فقدان الرغبة في الإذعان لجهد الحكم، إلى درجة أنه يفضل الاكتفاء «بحكم من وراء الستارة» (كلام غامض).


أين نذهب؟
أ. ما قبل التوجّه
هل هذا ممكن؟
ب. الإشكالية
5
4
3
1
تنظيم
ج. البَنْيَنَة
2
5
3
1
تسلسل صحيح للأحداث
د. مخطط الحل
1
3
السياق (المسار)
هـ تنفيذ الحل

التفكير هو عملية «متدرّجة»، أي أننا عندما نفكر ننتج شيئًا يشرح الحالة الأساسية المتباينة لمسألة ما ويؤدي إلى حالة نهائية أكثر أو أقل دقة نعتبرها تحقيقًا معرفيًا، حلًا لمسألة، رؤية للجوهر أو بكل بساطة، نتيجة للفكرة.

هذه العملية متعددة الاشكال بحيث إنها تعاش كتدرج «عضوي»، وغالبًا كزَيغان مشوش، ولكن أيضًا كتجريد صوري، أو كبداهة مادية.

من العبث أن نستنتج، من هذا التشتت، نماذج تفكير.

لقد وضحنا بالمثل سياق مراحل الحل المعرفي وتقييمها. وإلى جانب ذلك، فإن معاينة الخصائص السيكولوجية (مدة الحل، معالجة الخلافات، ردود الفعل الظرفية) هي مهمة جدًا.

أ. ما قبل التوجه

راقبَ عالم النفس الروسي، **تيكوميروف**، أثناء مباريات الشطرنج، حركات سريعة في العينين تشبه مرحلة نشاط الحلم عند النائم (REM) (١٨/٢٠). سميت هذه العملية في الاختبارات الأميركية (**داونزوستيا**) «الخريطة المعرفية». يتوجه الإنسان على «أرضية» مسألته الفكرية وهو يراقب ما حوله.

ماذا يحدث؟

رتلان من السيارات تتقدم على طريق ذات خط واحد وإلى جانبها فسحة.

ب. الإشكالية

لو كانت السيارات متواجهة لشعرنا حالًا بصعوبة الموقف. وفي مسائل أخرى، يجب أولًا اتخاذ «موقف بحثي». يمكن تفادي حدوث إشكال: يمكن لسائق ما أن يحاول إزاحة آخر بضربات قليلة من المنبه. يرى الصراع وكأنه يعنيه وحده ويحاول حله فارضًا نفسه من دون رادع. فلو كان الرائز رائز ورقة وقلم لأمْكَنَ أيضًا التهرب:

«آسف! لا أحب المُلَح والنكات». يجب أولًا قبول المسألة كتطفل أو كواجب.

يمكن أن نحدّد هذه المسألة بشكل خاطئ. يجب وضعها في صيغة بحث شخصي، مثل ردم الفجوات البارزة في صياغتها.

إحدى القضايا المسبقة هي توضيح الهدف:

تريد السيارات أن تتقاطع.

ثم: «هل هذا ممكن؟»

طبعًا، لان السيارات يمكنها أن تتقدم أو تتأخر ويمكن لإحدى السيارات أن تأخذ مكانًا في الفسحة.

ج. البَنْيَنَة

تعتبر هذه المرحلة الأكثر أهمية: إنها الأكثر إشكالية وهي بالتالي مبأرة (موجَّهة) بشكل خاص بواسطة النظرية (٢/١٠). ويمكن ملاحظة هذا الأمر تحت تسميات عديدة: نجد، إلى جانب البنينة، التصنيف، صياغة الفرضيات، العنونة، البناء، التصميم. وجميعها تؤدي إلى جعل المسألة المعروفة «قابلة للمعالجة».

وتتم المعالجة بترتيب السيارات: ترقم السيارات للتمكن من وصف تحركاتها واستثناء السيارات التي لا دور لها (**دونكر**: «تحديد المجال»).

ويمكننا على طريقة أشجار الحلول (١٤/١٠) مواجهة الحلول على مراحل مع نماذج صغيرة. لكن **تيكوميروف** برهن أن تصميم حل مباراة بين لعبة شطرنج إلكترونية ولاعب ماهر يحتمل فروقًا: للإنسان

١) «حاجة إلى البحث» أخرى، لأنه يستطيع أن يغير الأهداف ويأسف لنقلة خاطئة ويفكر فيما سيكون أفضل.

٢) موقف آخر بالنسبة إلى الهدف، يمكنه أن يجازف ويواجه استراتيجيات بعيدة المدى أو يصوِّب إلى الهدف القريب، ويفكِّر بأهداف غريبة.

٣) يستطيع التصرّف، عكس الحاسوب، «بمجموعات من المضامين الهامة» ويوظف حاجات إلى الأهداف تحدد، في مفهوم لعبة الشطرنج، موقفه آنيًا بالنسبة إلى الهدف.

د. مخطَّط الحل

يجد الإنسان المفكر نفسه في هذه المتاهة؛ لقد اكتشف، عن طريق الحدس، قاعدة عامة أو أنه أعدهابطريقة منهجية. يكتشف الإنسان على مدى حياته مداخل حلول ويزداد خبرة.

إن القاعدة العامة في الحالة السابقة هي:

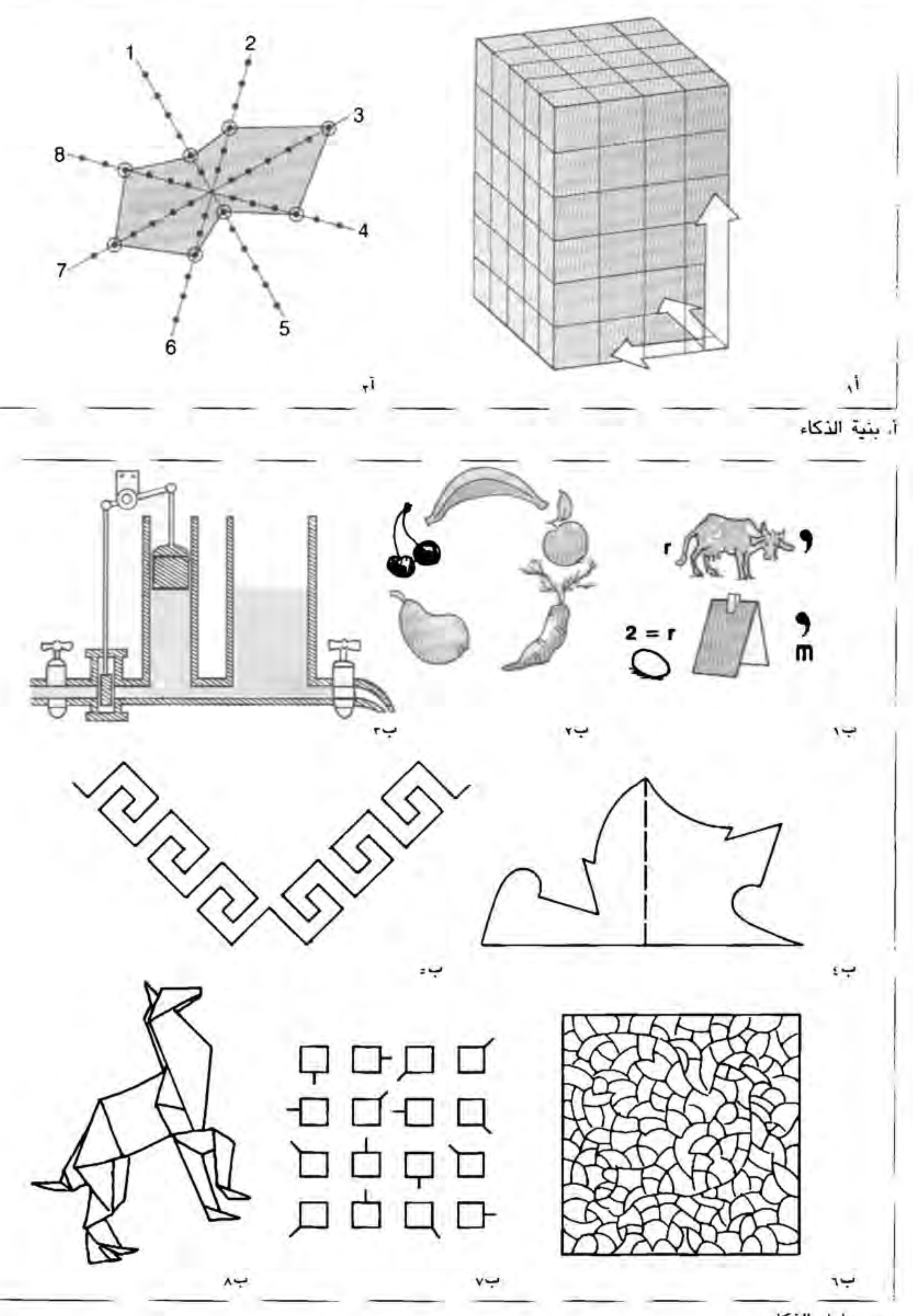
نسق التعاقب «الصحيح».

هـ. تنفيذ الحلّ

المرحلة التالية سهلة، يكفي أن تنفذ. إلا أنه بالإمكان إعداد الحل بطريقة منتجة أو غير منتجة وترتيب مفاتيح الحل في عدة حقائب وإيجاد مفاتيح جديدة دونما حاجة ملحوظة.

حاول **ماربِ**، في «قانون التكرار» الخاص به، أن يفهم وظيفة الفكر هذه. نشكل، تبعًا لهذا القانون، مخططات للفكر فوقية. والمقصود بذلك فكر مقعَّد يؤدي، استنادًا إلى مبادئ محددة، إلى نماذج استخدام يومية للفكر (قوالب للفكر).

الأشكال النمطية هي، بحسب تكرارها: التضاد (أبيض - أسود)، التشابه (رديء - شرير)، السببية (البيضة - الطائر)، ومجموعات الدلالات المتعلِّقة (زهرة - نبتة). وتعد هذه الأشكال ردود الفعل في سلسلة مسار الفكر. وبفضلها نتمكن من التفكير سريعًا وبتفوق. ولكننا نسقط أيضًا وبسهولة أكبر في مسالك تفكير مؤللة.



أ. بنية الذكاء

ب. عوامل الذكاء

يُفهم بالذكاء، عامة، على أنه «موهبة» بفضلها يكون إنسان متفوقًا عقليًا على آخر. والذكاء، في نظر علم النفس، هو مجموعة من المؤهلات بواسطتها نهيمن بشكل أفضل على مهماتنا في المدرسة وفي حياتنا المهنية وفي حياتنا بشكل عام. وهو ينتج دلالات بطريقتين: بالفهم («الإدراك») وامتداده («الإنتاج»). إن تحديدًا كهذا يكشف فورًا عن مراحل المفهوم المتعدِّدة.

أ. بنية الذكاء

ثلاثة أسئلة تطرح بخصوص الذكاء «كقدرة على اكتساب المؤهلات»:

ما هي هذه المؤهلات؟
ما هي علاقتها فيما بينها؟
بأي معيار يجب أن تقاس؟

جرت في التحقيقات الأولى حول الذكاء (**غالتون**)، أبحاث لقياس «العبقرية الوراثية» في سلالات بعض العائلات الشهيرة. وتم الحصول فيما بعد على سُلَّم مقاييس أكثر تواضعًا: كلفت الحكومة الفرنسية **بينيه وسيمون** (١٩٠٥) إعداد روائز لامتحان الأولاد غير الأذكياء («المتخلفين عقليًا») لإيداعهم في مدارس متخصصة.

طور **تيرمان** (١٩١٢، ١٩١٦) رائز بينيه وحسّنه ليجعل منه سلم ستانفورد، أعيد النظر فيه وقسم تبعًا لشرائح العمر. وبفضل تقنين أجري على ١٠٠٠ طالب من كاليفورنيا تم التوصل إلى حساب العمر العقلي الوسطي (IA) ما أدى إلى إيجاد أسس حاصل الذكاء (IQ): وطبق حاصل الذكاء على مجموع السكان وقد حدد الذكاء الوسطي النظري بـ ١٠٠ نقطة تقريبًا (معدل العبقرية أعلى من ١٤٠ نقطة والغباوة أقل من ٧٠ نقطة). غير أن بينيه سلم بأن شروطًا خارجة عن نطاق الفكر تؤثر في الروائز وأن هذه المقاييس كانت إجمالية ولا تأخذ في الحسبان الكفاءات الفردية (راجع روائز الذكاء، ٧/١٩).

في التحليل العواملي للذكاء من قبل **سبيرمان** (١٩٠٤، ١٩٢٧) كان عامل (g) الأعلى (عامل عام للطاقة الفكرية) يقابل بعوامل عديدة (s) (عوامل نوعية).

(أ١) يتضمن نموذج البنية الأكثر انتشارًا اليوم ١٢٠ نوعًا من الأداءات العقلية وهو يعود إلى **غيلفورد** (١٩٥٦)، ويحتوي ثلاثة أبعاد:

العمق = عمليات فكرية (تعيين، ذاكرة، نتاج متقارب ومتباعد، تقييم)،
الارتفاع = نتاجات الفكر (وحدات، أصناف، علاقات، نظم، تحولات، تضمينات)،
العَرْض = محتويات الفكر (محتويات إيقونية، رمزية، دلالية وسلوكية)،

(أ٢) اتَّبع **مايْلي** (١٩٥٥) طريقًا آخرى أتاحت دمج بعض الكفاءات الأولية في جانبية ذهنية فردية، رُمِّزت بعد ذلك في عدة نظم من الروائز (مثل **هاويك**، نظام ٨ – أبعادي).

ب. عوامل الذكاء

ثمانية عوامل أولية تشرح المفهوم بأمثلة بسيطة

(ب١) تعبير شفهي. هذا اللغز لاختبار سرعة إيجاد الكلمات: القدرة على التعبير.

(ب٢) منطق تصوري. أحد الأشياء (جزرة) لا ينتمي إلى فئة (ثمرة): الطاقة على التفكير الاستنتاجي.

(ب٣) موهبة عملية – تقنية. ماذا يحدث إذا فتحنا الصنبور الأيمن؟ (يفتح الأنبوب المقفل إلى اليسار). جانب عملي للذكاء: معرفة العلاقات السببية.

(ب٤) تصور مكاني. أشكال **ريباكوف** مقصوصة ومنفصلة بطريقة إذا جمعت فيها أنصافها نحصل على مربع. نقل مكاني: الطاقة على خلق تراكيب ذهنية.

(ب٥) ذاكرة. ثم يجب أن يحدد هذا الشكل من بين أشكال أخرى أو يعاد تركيبه غيبًا: خزن مادة إعلامية وتحضيرها.

(ب٦) وعي الوسط. صورة يجب أن تعرف في هذا الخليط من الحراشف (طير): الطاقة على رؤية شيء حيث لا يرى الآخرون شيئًا.

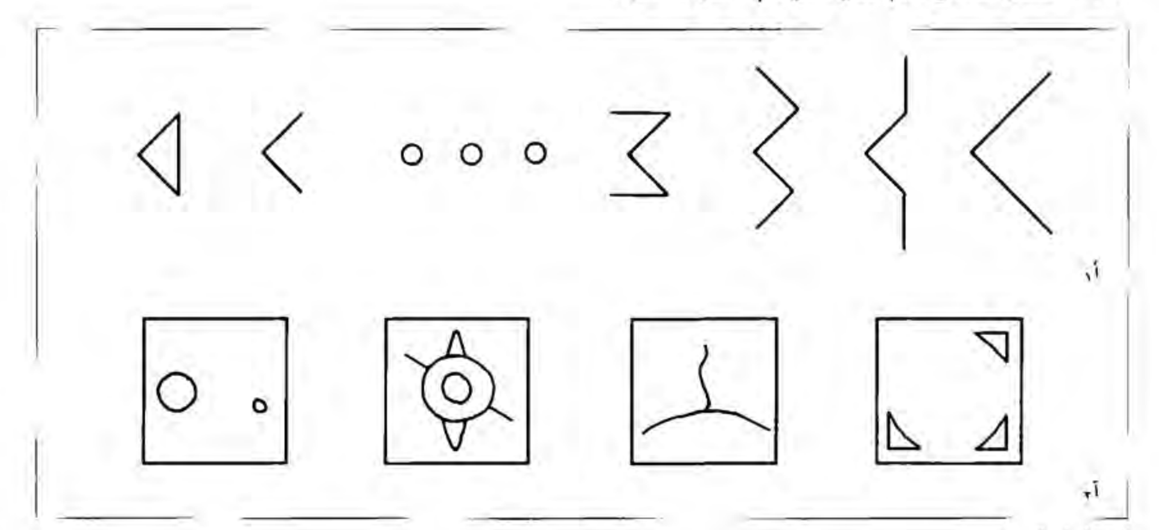
(ب٧) المثابرة. في هذه الجداول الطويلة المؤلفة من هذا النوع من الأشكال يطلب الإشارة إلى المربعات المحددة بخط نحو الأسفل (تحديد العلاقة بين الوقت وعدد الأخطاء). يبرهن الذكي عن ثبات مركَّز.

(ب٨) المهارة. يجب تنفيذ حل معطى (طريقة طيّ) استنادًا إلى تقنية الورق المطوي: القدرة على نقل سريع وبمهارة (استنادًا إلى نموذج) لشيء جاهز.

لقد شدد نقد مقياس الذكاء وبحق (**والتر**) على أن الذكاء يستند إلى صورة الإنسان التي نود الحصول عليها. وزيادة على ذلك فإن مفهوم الذكاء هو غالبًا في ذروة التجريد.

إن «خليطًا تعاونيًا صحيحًا» (**بينيديكت**) هو أهم من هذه العوامل الأولية وسواها: فهو يحدِّد الإنسان الذكي بشكل ملموس.

تحاول أحدث الأبحاث في موضوع الذكاء استخلاص النزعات العامّة من المعالجة الذكيّة للمعلومة، من ذلك، الفرق بين الذكاء المتباعد (انتقال سريع إلى موضوعات جديدة، طاقة عظيمة على التنسيق) والذكاء المتقارب (كفاءة عالية للتمييز، جدارة في الحكم). الأول هو سمة الفتيان والثاني سمة المسنين. وكلاهما يُكْتَسَب بالتدرب.



أ. سلوك البحث

ب١

ب٢

ب٣

ب٤

ب. استراتيجيات الحل

المسائل هي تحديات فكرية لمن يدركها. وعندما تحل تبدو وكأنها معرفة صحيحة. وبسبب هذه الخاصية يرجع إليها علماء نفس عديدون لتوضيح العمليات المعرفية.

حتى ولو كان من المبالغ فيه حقًا دمج فكرة حل المسائل، فإن «حل الرموز» يجب أن يكون مع ذلك إحدى الوظائف الأساسية للمعرفة. تميز أولًا الفروق النوعية التي تفرض نفسها تبعًا لدرجة الصعوبة (مسائل بسيطة، مجالات المسألة المعقدة؛ ستراوب ١٩٩٧). ولكن يمكن أيضًا توزيع الوقائع تبعًا لفروق نوعية أخرى أقل بروزًا تلامس حل المسائل.

أ. سلوك البحث

إن جهدًا في البحث كبيرًا أو صغيرًا يشكل جزءًا من المعرفة. والفرق النوعي ضروري: يمكن أن يحدد الهدف مسبقًا أو يظل حرًا.

(أ١) البحث عن قاعدة. إن المهمة لسهلة ولكن يعترضها الكثير من الفخاخ. تُقترح الإشارات الأربع إلى جهة اليمين. إنها تشكل سلسلة. نبلغ المرحلة الأولى من الحل عندما نكتشف قاعدة التعديل («مفصلتان» تتحرك ذراعاهما ثُمن دورة). إن نسبة قاعدة إلى الإشارات الخمس التالية (إلى اليسار) هو أمر سهل نسبيًا.

(أ٢) البحث عن موضوع حل. مربعات سحرية مقترحة ليس لها حل شامل مقبول («وضع أساسي» غامض). من الممتع أن نجد لها دائمًا موضوعات جديدة للحل.

مثلًا: مكسيكي مع قبعته الشهيرة في زورق (الصورة الثالثة).

ب. استراتيجيات الحل

يأتي مفهوم الاستراتيجية من المجال العسكري. ولهذا السبب أسهم القاموس العسكري في أكثر هذه التعريفات. والاستراتيجية هي، كما عرَّفها **غنايزينو** «...علم استخدام الزمان والمكان»، وهي بالنسبة إلى **كلاوزفيتس** «...اقتصاد القوى»، وعند **مولتكه** هي «...نظام الحيل». والظاهر أن الاستراتيجية متعددة الجوانب.

(ب١) استراتيجيات نمطية للحل المعرفي للمسائل:

استراتيجية المتاهة، بواسطتها نعرف الطريق الصحيحة بعد سلسلة من التجارب والمحاولات والاختبارات.

واستراتجية البرج تحلّ حالَة، كمحقق الشرطة القضائية، استنادًا إلى أدلة يكتشفها من نقطة عالية (ذهنيًا).

واستراتيجية الطبقات تُستخرج، كما في علم الآثار، طبقة طبقة وتبني طبقة طبقة لتضع المخطط والمبدأ...

وتلخص استراتيجية النماذج أو توسع الهدف (كما في نموذج الذرَّة) لكي تتمكن من دراسة الوظائف بمساعدة هذا النموذج.

(ب٢) محاولة: مستطيل مع ثقب طويل (إلى اليمين) يقطع من وسطه بحيث نجعل منه مربعًا كاملًا (إلى اليسار). يمكن إيجاد هذا الحل بسهولة باستخدام نماذج ورقية.

(ب٣) التعرف إلى مبدأ عام للحل. قام **دونكر** بهذه المهمة وهو من أوائل الباحثين الذين آكبوا على حل المسائل: حبلان معلقان في سقف على بعض المسافة، يمكن القبض عليهما معًا، وذلك، مثلًا، بتعليق فردة حذاء بأحدهما ودفعه بحركة نواسية.

(ب٤) الحلول المعرفية بالمعنى الحقيقي للكلمة هي حلول توقعية، حدسية، دون تجارب أو نماذج اختبارات تطبق بالتالي كمبادئ عمل عند التنفيذ. في أحد أمثلة **دافيس** سؤال مؤداه كيف يستطيع ولد صغير أن يحمل أشياء دفعة واحدة (رزمة كبيرة، زهرية، جرة). تستخدم الرزمة كصينية. بهذه الاستباقات الفكرية تفهم المعرفة، كبرنامج تطوري ثالث.

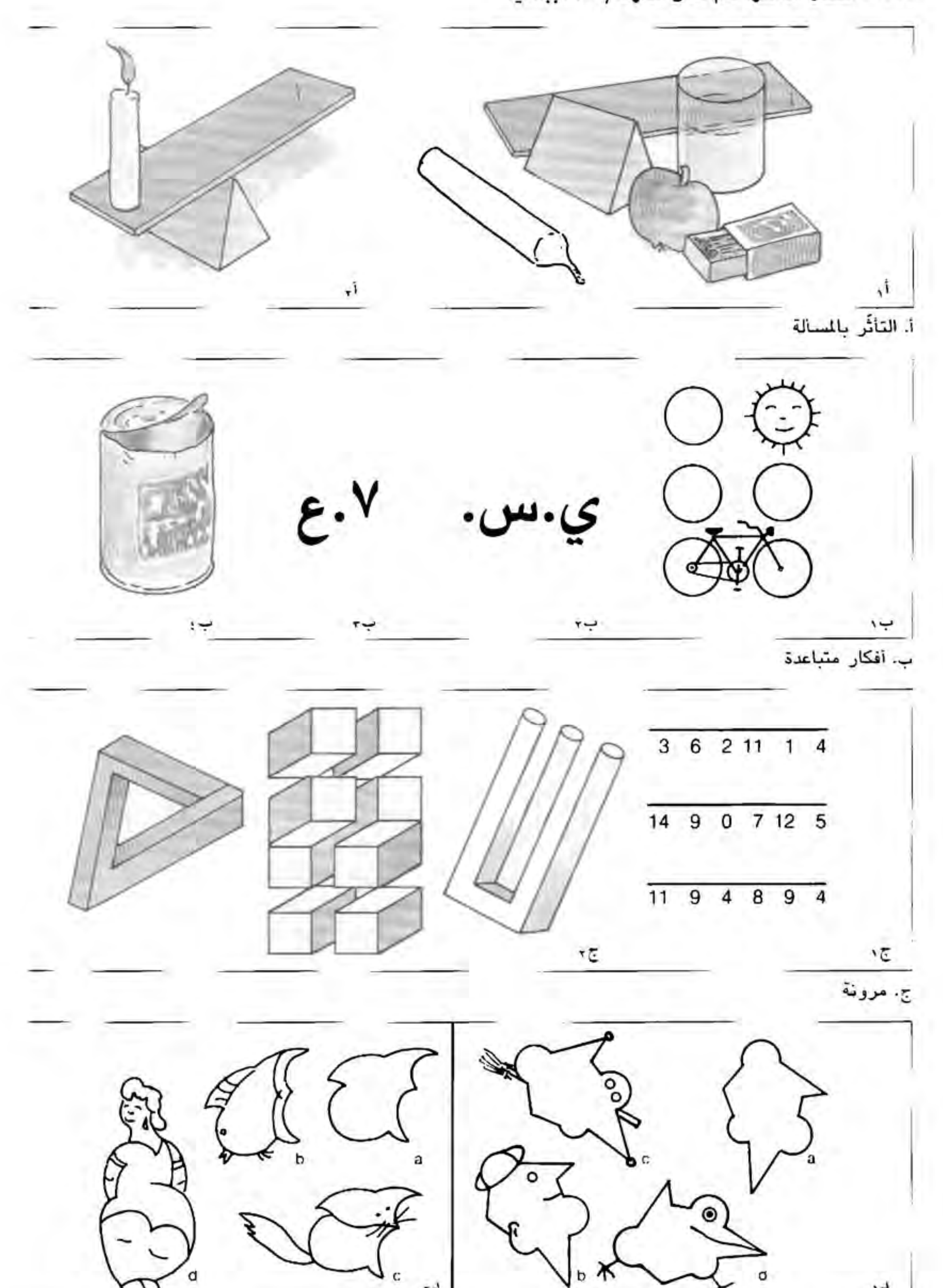
اكتشف **داروين** أول برنامج تطوري، برنامج تكيف مع تبدلات البيئة، الانتقاء. تبدلات طارئة (تعديلات قابلة للنقل) وركيزة كفاءات جديدة تبدو أكثر ملاءمة في مواجهة التكرارات الوراثية.

البرنامج الثاني للتطور درسه الفيزيولوجي الروسي **پاڤلوف**. قد تَحْدُث في مطلع حياة الفرد تكيفات سلوكية عن طريق الاختبار إذا تشكَّلت ارتباطات وقتية في الجهاز العصبي.

وأخيرًا، يوسّع البرنامجُ التطوّري الثالث التكيفَ بطريقة حاسمة. ويمكن، بواسطة تشكل نماذج عصبونية، إيجاد مدلولات غير مادّية تُصمَّم، تحقَّق، تناقَش وأخيرًا تنفَّذ كحلول معرفية للمسائل.

يواجه الانسان أحيانًا مسائل لا يستطيع السيطرة عليها انطلاقًا من معارفه السابقة ولا تبدو قابلةً للحل بواسطة تجارب عشوائية. حالات كهذه تؤكد قيمة برنامج التطور الثالث. بالتفكير، وللخروج من الطريق المسدودة الفعلية (استراتيجة مفتوحة) أو للاقتراب من هدف مسبق (استراتيجية مقيّدة)، يبحث الفرد، لحل مسألة ما، عن الوسائل والطرق (المنهج) التي تتيح له تجاوز خبرته الحاضرة.

يُبرز هذا التوسع في برامج التكيف ضرر إمكانية الوصول إلى مناوَرات في مواقف لا منفذ لها بسبب تصميم خاطئ.



أ. التأثر بالمسألة

ب. أفكار متباعدة

ج. مرونة

د. ابتكار

سنة ١٩٥٠ وأثناء انعقاد أحد المؤتمرات، انتقد **ج.ب. غيلفورد**، رئيس الجمعية الأميركية لعلم النفس، موقف الأبحاث الخاصة بالإبداعية: «يُهمَل هذا الموضوع إهمالًا مخيفًا». وبعد «صدمة سبوتنيك» الشهيرة، وهي أول طيران فضائي سوفياتي، ارتفعت وتيرة هذا النقد، ووضعت حول المسألة دراسات مستفيضة.

«لماذا يكون أحد الناس غنيًا بالأفكار وآخر فقيرًا وكثيرون آخرون معدمين؟» (**ف. ميتزغر**)

كثيرًا ما تُعزى المسؤولية إلى نظام التعليم المدرسي الذي يحبذ الأداءات غير الخلاقة ويميل إلى اعتبار الطلاب الخلاقين فوضويين.

كانت قضية العلاقة بين الذكاء والإبداعية تشكل إحدى النقاط المركزية للبحث. وتظهر النتائج أنهما مستقلان أحدهما عن الآخر، حتى ولو كان من الضروري التسليم بوجود مستوى وسطي من الذكاء كشرط يسبق الإبداع. تمارِس المضمونية تأثيرًا قويًا على السلوك الخلّاق كما تمارس النتائجُ المتوقَّعة (مثل التعرف) وموقف المحيط تجاه الأفكار الفورية.

أهم اتجاهات البحث الثلاثة هي:

يشرح فريق البحث **الكلي (م. ڤرتايمر، ك. دونكر، م.ن. موناي)** السلوك الخلاق بواسطة العلاقات بين التجارب المعيشة والأحداث وإنتاجية عامة: يقولون إنه يجب أن توجد أنماط مختلفة من الإبداعية.

وينطلق فريق أنصار **الاشتراط (أ. ف. أوسبورن، س. إ. مدنيك) هو** أيضًا من نماذج الفكر المبنيّة على النظرية الترابطية. واستنادًا إلى هذا الفريق، فإن الفرد الخلاق يفرغ جعبته من التداعيات بأبطأ مما يفعل غير الخلاق، ما يستدعي إنتاجات أكثر اتساعًا وطرافة.

وظهر أن فريق البحث **البنيوي (ج. ب. غيلفورد، إ. ب. تورانس) هو** الأكثر إنتاجًا. وأبرز ٤ خصائص أساسية للسلوك الخلاق (فقرة أ - د). وانطلاقًا من هنا يحدد **تورانس** ١٦ وسيلة لإذكاء تطوُّرها، من هذه الوسائل تعلّم الإصغاء والملاحظة والفعل في العمق.

أ. التأثر بالمسالة

يجب أن تُكتشف المسائل وتُقبل في «قيمتها كسؤال».

(أ١) كان **زيكلي** يطلب: «حاول، دون أن تستعمل إلا هذه الأشياء، أن توازن اللوحة على الدعامة بطريق تجعل الطرف (أ) يميل من تلقاء ذاته نحو الأسفل بعد مضي عدة دقائق».

(أ٢) «ماذا يحدث عندما نشعل الشمعة؟»

حل واحد متوقع كجواب عن السؤال (أ٢). وخلافًا لذلك، فإن المهمة (أ١) هي أقرب إلى الأداء الخلاق لأنه من الضروري أن تتأثر بالمسألة وتنفعل بها قبل أن تُحل.

ب. أفكار متباعدة

يجب أن تكون مادة الافكار (كلمات، تمثلات، صلات بين الأفكار)، هنا، مراقبة في كامل سيولتها.

(ب١) تعطى في أحد روائز السيولة ٣٠ دائرة يجب أن تكمل بسرعة للحصول على أي شيء (دون استخدام أكثر من دائرتين: شمس، دراجة

(ب٢) ي. س. (ياسين)

(ب٣) ٧. ع. (سبع أعين) تساعد (ب٢) و(ب٣) على تحقيق فهم سريع للتراكيب غير العادية

(ب٤) نموذج طريقة يستكشف فيها أو يشجع إنتاج الأفكار: «تصور كل ما يمكن أن نصنعه من علبة محفوظات فارغة».

ج. مرونة

القضية هنا هي تأكيد الأهلية الخلّاقة الخاصة بتحويل الواقع الجاهز.

(ج١) تمثّل الأعداد أسماء مدن: مدريد، برلين، موسكو، يجب إيجاد الترتيب الصحيح.

(ج٢) الأشكال التي تدعى «مستحيلة» هي تلك البنى التي لا توجد إلا في الرسم وليس في الواقع. يقوم العمل على بذل جهد تخيلي لإيجاد بنى مشابهة، مثل «شوكة الشيطان» (إلى اليمين).

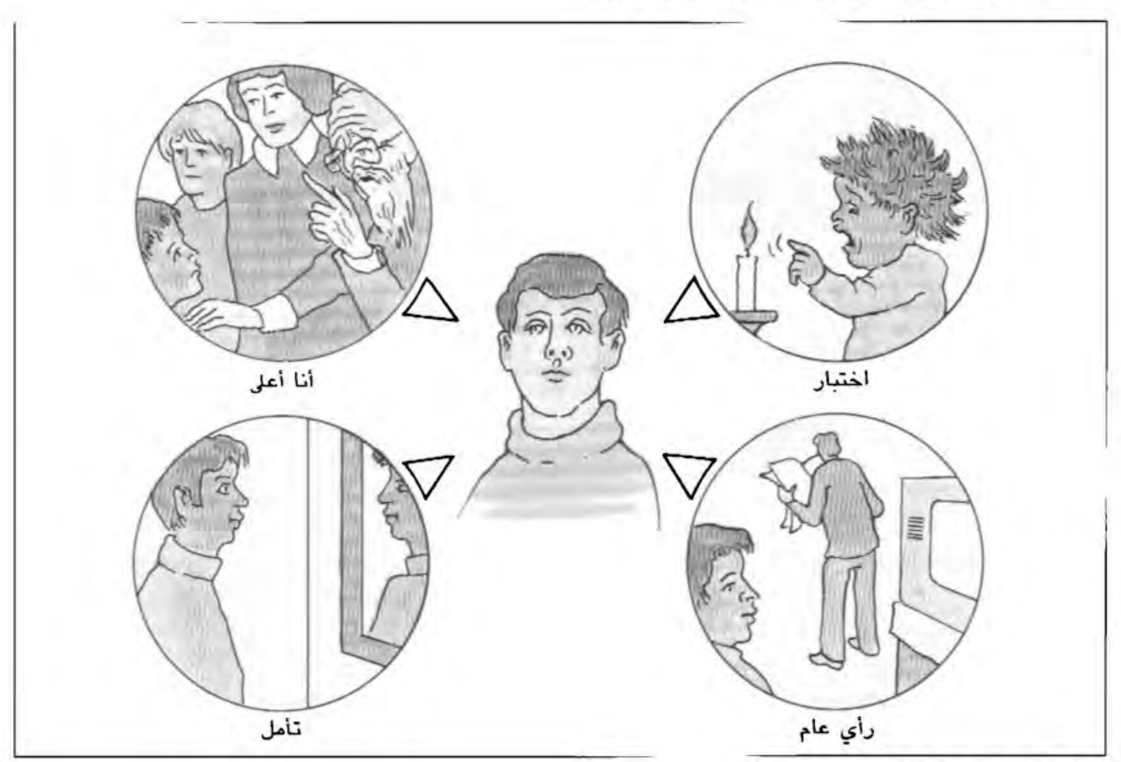
د. إبتكار

أصعب معيار لتأكيد الإبداعية: نتأكد هنا، ليس فقط، من عدد الافكار وتعديلها، ولكن من نوعيتها أيضًا مع اعتبار ندرتها معيارًا. يطبق بشكل عام معيار طرافة رائز **رورشاخ** (١٩/٥،ب٢).

يكون الحل طريفًا إذا كانت نتيجته لا تظهر إلا مرة واحدة على كل ١٠٠ إجابة في الرائز.

طبقت هذه الترددات على رائز المخيّلة لصاحبه **ساندر** (د١، د٢)، يجب أن تتعرض الأطر الماثلة في الصورة (a) للدوران لكي يبدو حلّ رسمي (نسبة إلى رسم)، أي أطرف حل ممكن، معقولًا. ليست المسألة مسألة «جمال» الرسم، ولكن فقط فكرة الرسم (b = غير مبتكرة، c وd مبتكرتان).

لقد جرت عدة محاولات، في إطار حل رموز السلوك الإبداعي، لتطوير برامج التدريب السابقة. يتجه أحد الفرقاء (كما في الأمثلة أعلاه) نحو مجالات الخلق المعزولة، والآخر نحو مهمات الإبداع الإجمالي. ومن مهمات فريق العمل في منهج تنشيط الإبداع مثلًا: جعل المستغرَب مألوفًا والمألوف مستغرَبًا.



أ. معرفة ما بعد معرفية

ب١ ب٢ ب٣

ب٤ ب٥ ب٦

ب. التزام ما بعد معرفي

يقول الفيلسوف **سبينوزا** (١٦٣٢–١٦٧٧) إن الإنسان «يعرف أنه يعرف ما يعرف». وسبق **لأرسطو** أن جعل من هذه الفكرة حلقة من الميزة الفائقة السمو للنشاط البشري.

«إنما العقل يدرك نفسه عندما يدرك المدركات... والإدراك هو إدراك الإدراك».

لا تقوم المعرفة فقط على تكديس المعارف وحلول المسائل والتحويلات الخلّاقة ولكن على التأمل بالمعرفة.

أ. معرفة ما بعد معرفية

يروي **ل. أوستڤال** الحياة في غينيا الجديدة:

«الساعة تشير إلى الخامسة بعد الظهر، وفجأة راح كاتوار، الفتى البابوازي، يركض في شوارع القرية مذعورًا صارخًا: بُويز، بُويز! وللحال تحول الجو الهادئ الوادع إلى رعب وحشي. تخلت النساء عن تحضير الطعام وأمسكن بأولادهن وضممنهم، مذعورات، إلى صدورهن. واهتاج الرجال وتقاطروا إلى ساحة القرية وتدافعوا حول كاتوار لمعرفة ماذا حدث بالضبط. لكن كاتوار ظل مبهوتًا فاقد الرشد، لا يستطيع الكلام. وكان الرعب يتعاظم. انفجر الأولاد بالبكاء وامتشق الرجال قسيَّهم ونبالهم استعدادًا لصنع أي شيء. لكنهم في الوقت نفسه يشعرون بعجزهم. لا شيء يعملونه ضد بويز. أخيرًا غمغم كاتوار هذه الكلمات: «وصلت عند الشجرة التي خشبها من حديد. عند البوابة جلست لكي أستريح. وفجأة رأيت أوراق تبغ على الأرض... لا تلمس هذه الأوراق إنها تؤذيك. ركضت للتو إلى البيت لأنذركم. هذا هو بويز».

تعني كلمة بويز، في لغة البابو، كل ما يثير الأسى والشرور والكوارث. نقرأ في هذا المثل الغريب كل ما يحدد، في كل مكان، معرفة ما بعد المعرفة. تفسِّر وقائع الحياة الصعبة الفهم، المعقدة، وتحدِّد لكي يمكن الرد عليها بمجموعة من التصرفات المألوفة. دُرست هذه التأويلات في أبحاث (**ج. هـ فْلاڤِل**) عما بعد المعرفة، استنادًا إلى مفاهيم مختلفة مثل النسبة السببية والتقييم والتصنيف والعنونة.

الإنسان مجبر على أن يفسر العالم لأنه لا يملك عنه أية معرفة مباشرة. مثلًا، لماذا يعيش، ما جدوى حياته، لماذا يجب أن يموت؟ يفسر مسائل وجودية عديدة في إطار تأويلي (مخططات) يختزنها، مرحلة مرحلة أثناء تطوره الشخصي، ليصوغ منها مواقفه وأحكامه وآراءه وفلسفته في الحياة وتصوره الخاص للكون. يجيب عنها بالتزام يتفاوتُ بروزًا.

درس علم النفس الاكلينكي أهمية هذه التأويلات للحياة، في حال فقدانها. وهكذا فالمريض المصاب بالاكتئاب لا يتألم من مخططاته السلبية أقل مما يتألم من ذاته ومن مستقبله، وبكل بساطة، من العالم.. وحقيقة أن جميع هذه التأويلات تحدِّد حياتنا أمرٌ لا يقبل النقاش. ومن الأفضل أن نتفحصّ كيف تتراءى.

أهم ميادين التأثير الاربعة هي (شكل أ):

اختبار خاص (ولد صغير يحرق أصبعه)،

تأثيرات عديدة أخلاقية تنتقل من الأهل والمربِّين والدِّين (وفي التحليل النفسي هي الأنا–الأعلى)،

تأثيرات الرأي العام (وسائل الإعلام، الرأي العام دفع نحو الامتثال الفكري)؛

تأملات شخصية، انعكاس قراراتنا: لماذا فعلت ذلك؟

ب. التزام ما بعد معرفي

نادرًا ما تكون المواقف في مواجهة الحياة ساكنة. ويؤكِّد أن البشرية لا تتعلّم من أخطائها، ولكن بالنسبة إلى الأفراد، على الأقل، يجب أن يتوازن الطيش والفطنة. أما عن سؤال «معنى الحياة» فنبحث فيه دون انقطاع عن إجابات جديدة: من رغبة بسيطة في البقاء حتى تقييمات عالية تستند إلى عالم تحكمه الغاية.

تُطرح هذه الأسئلة على كل إنسان، ضمنيًا على الأقل. يجب على الإنسان أن يرتضي الحياة، والطريقة التي يفعل بها ذلك تميز التزامه الما بعد معرفي.

الإمكانات لا حدود لها، مع مزيج، أكثر الأحيان، بين عدة دلالات حياتية عقدية.

(ب١) «تحقيق الذات»، إبراز الصورة الخاصة.

(ب٢) «جماعة» (صداقة، عائلة، أمّة).

(ب٣) ما وراء الطبيعة (دين)، إحترام قوة مطلقة منقذة.

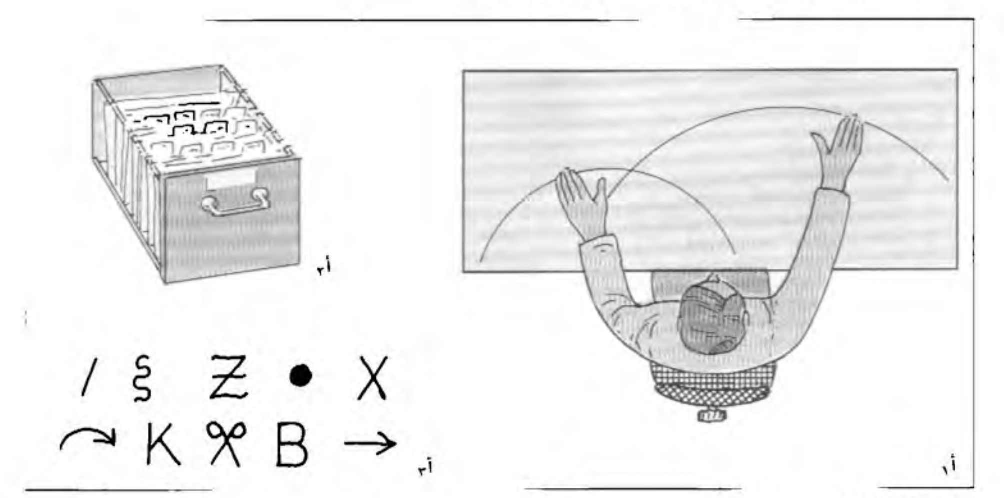
(ب٤) إلتزام سياسي، من السياسة اليومية حتى التخطيط إلى المدى البعيد.

(ب٥) التزام اجتماعي، إزالة الكبت الاجتماعي.

(ب٦) إلتزام حماية البيئة.

تصبح جميع أشكال الالتزام هذه وأخرى من أمثالها (مثل السلام) متماسكة (ثابتة) ويُدافع عنها وقتيًا وبتعصُّب أو بطريقة انتقائية ومرنة. وهي تشكل، على أية حال، حالة تناغم ذهني مع الذات ومع العالم.

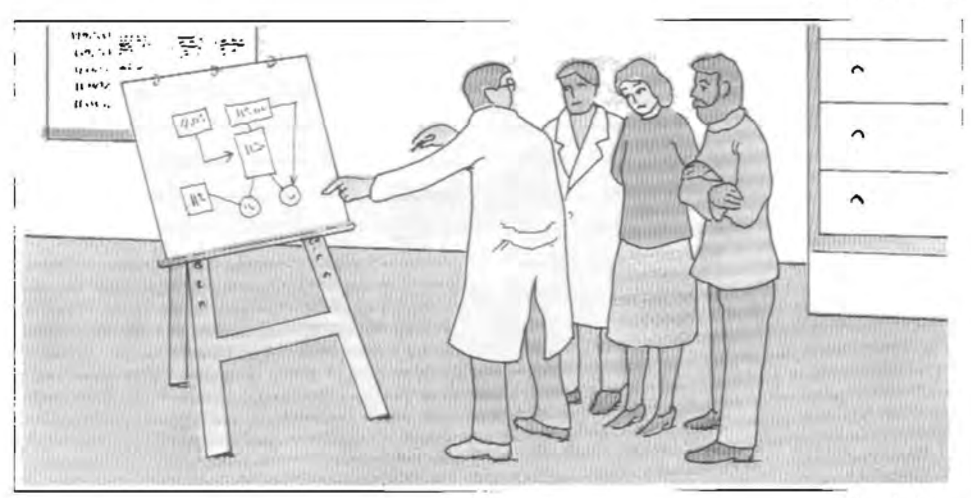
وتظهر في بعض العصور «هامشيات» إزاء العادات العقلية والإيديولوجيات المقبولة حتى حينه. هذه القوى الإيديولوجية الضاغطة تسجل، كالمرجاف (آلة تسجيل الزلازل) الارتجاجات التحتأرضية التي تزعزع أسس الوجود.



آ. تقنيات العمل



ب. تقنيات المعالجة



ج. تقنيات النقل

«أكثر الناس لا يُقَدِّرون ما يفهمون، ولكنهم يحترمون ما لا يستطيعون فهمه».

إن هذا الرأي الذي أطلقه **غراسيان إي مورالس** منذ أكثر من ٣٠٠ سنة لا يزال اليوم يحظى بالقبول. والسواد الأعظم من الناس يفضلون الإعلام الذي يخفي الالتباس الكلامي وذلك لأسباب سياسية وتكتيكية واقتصادية أو عقائدية أو علمية كي لا يجبروا على التخلي عن مواقعهم. يجب، للتصدي لهذا العائق المتكرر أمام النشاط العقلي، النزوع إلى وضوح الفكرة وحيويتها والتمييز بين الكلام تمييزًا دقيقًا والعمل على إيصال الفكرة وإيقاظ الثقة.

أ. تقنيات العمل

التفكير هو، في جزء منه، «مهنة». ويمكن جعل هذه المهنة سهلة أو صعبة للذات أو للآخر. وللأسف كثيرًا ما يُترك الطالب المبتدئ وحده فيما يخصّ القسم التقني من عمله العقلي.

(أ١) ماذا يجب أن يكون عليه شكل مكان العمل؟ إن الشغالة (فن تنظيم العمل) (٢/٢٠) لا تدرُس تقريبًا سوى مراكز العمل الصناعي. إن معرفة شعاع عمل الذراع، مثلًا، في المكتب، يمكن أن تكون نافعة في أشياء أخرى.

(أ٢) كيف يجب أن تخزن المعلومات؟ تتراوح الاحتمالات ما بين البطاقات والسجلات حتى المعلوماتية. يوفر أرشيف الصحف أفضل الأمثلة.

(أ٣) كيف يجب تَقْنية تدفق المعلومات؟ على كل إنسان أن يخترع لنفسه نظام مصطلحات لمعالجات خاصة (مثل هذه العلامات السبع في الرسم: هام، مشكوك فيه، خلاصة، يختبر، ينقل، ينحت، يبحث).

ب. تقنيات المعالجة

قال **سقراط**: «لو لم يجتز الطالب نصف الطريق على الأقل وحده لما حفظ شيئًا».

تنطبق هذه القضية الأساسية على مجمل المعرفة. إن تخزين المعلومات دون أوجه خاصة هو شيء يجيد صنعه الحاسوب بشكل أفضل. فيجب أن يصبح الإنسان «سيد» الإعلام. وقد اخترع مفكرون وسائل بارعة لهذه الغاية.

تحدث **غوته** عن طريقته في العمل. كان يحب أماكن العمل البسيطة، القليلة التنظيم إلى حد ما، حيث كان يعلق إعلانات على الجدران («غرفة اللوحات»). وكان يملي على **جون**، كاتبه، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. وكان لا يكره اللجوء إلى الحيل:

«لقد طلبت اليوم تجليد مخطوطة القسم الثاني من فاوست لكي أراه تحت ناظري كتلة محسوسة. ملأت مكان الفصل الرابع بالورق الأبيض، فالمؤلَّف الكامل يغري ويحث على إكمال ما يجب أن يُعمَل بعد. وهذا يكمن في أشياء محسوسة أكثر مما نظن. ويجب أن نهبّ لمساعدة العقل بجميع أنواع الحِيَل البارعة».

ج. تقنيات النقل

لخص **بستالوتشي**، أبو التربية، عندما تقدمت به السن، ما حققه في حياته:

«عندما أنظر الآن إلى الوراء وأسأل نفسي: «ماذا فعلتُ حقًا لصالح جوهر تربية الناس؟» أجدُ أني وضعت المبدأ الأسمى والأهم في التعليم وهو استكشاف الآراء كأساس مطلق لكل معرفة».

قد يتبادر إلى الذهن أنه بقوله هذا قد طرد الفكر خارج قاعات الدرس. فلا ننخدعن بذلك أبدًا. كلما قوي تمرس الفكر تعلق بموضوعه بدقة أعظم. حتى الصيغة الرياضية الأكثر تجريدًا ليست غريبة عن الموضوعات المادية.

المرحلة الأولى هي التنظيم.

باسكال:

«المَلَكة الأهم هي التي تنظِّم سائر الملكات».

فرنسيس بايكون، أحد أوائل العلماء بالمعنى الحديث للكلمة:

«إن التنظيم والتوزيع والتمييز بين مختلف الطبقات هي، بنوع خاص، أساس الإنجاز السريع».

إذا كانت العدة الملائمة منظَّمة يمكن الأخذ بيد الطالب وتوجيهه نحو مادة جيدة التنظيم.

سواء كنا نحضر حديثًا أو عملًا مكتوبًا، يجب، قبل كل شيء، تطبيق القواعد الأساسية:

وضع مخطط جيد (جدول المواد)، اختصار على مراحل (حتى للكاتب نفسه)، الاجتهاد في جعل المادة مفهومة، محاولة إيجاد إعلانات جذابة، إثارة الشعور (أمل، توتر، فضول، حسن التفات) وتحديد الآثار الإيجابية (فائدة محققة ناتجة عما نُقل).

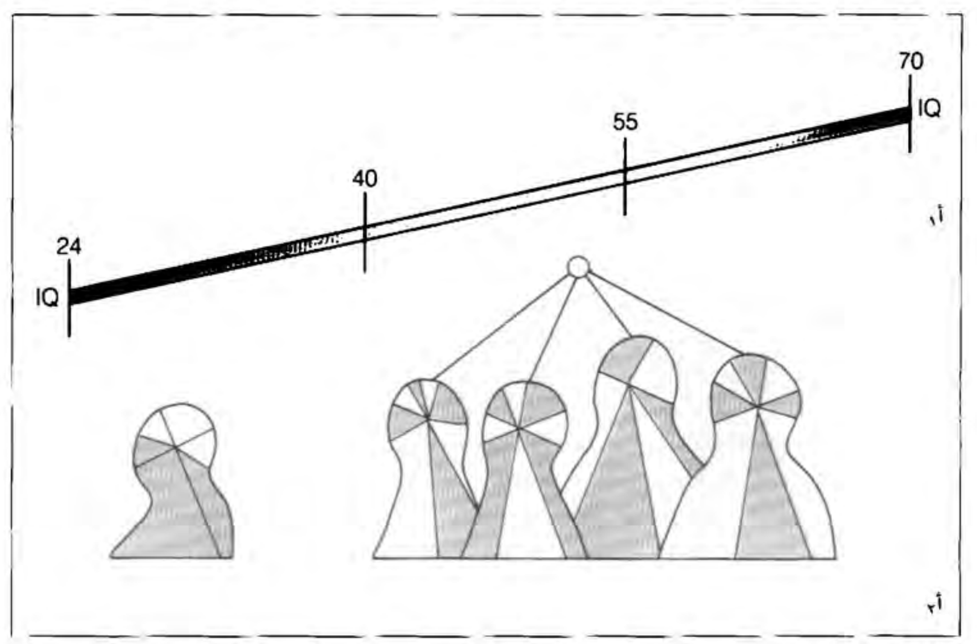
قال **شيلر**، الذي كان أستاذ جامعة، معتبرًا:

«يجب أن يتوجّه التعليم، بالمعنى الدقيق، بحسب الحاجة: فهو ينطلق من طليعة العجز...» ويضيف: «تكون طريقة التعليم حسنة عندما تعتمد السؤال وتفجر الحقائق نفسها من رأس من يستمع ومن قلبه».

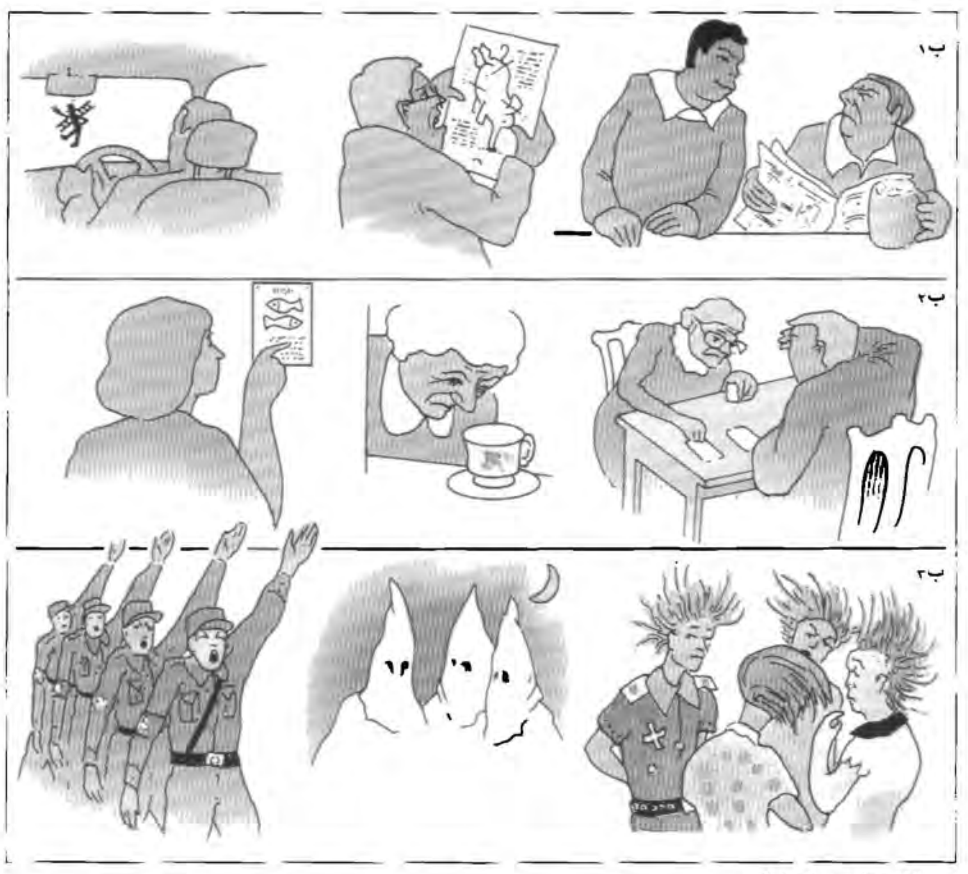
عندما نثير الاهتمام، يمكن أن نحمل إلى التلميذ ما ينتمي إلى أسمى الإنجازات العقلية: الانطباع المعيش الحاد لحكم ما.

يقول **غوته**:

«القراء ثلاثة أنواع، الواحد مبتهج دون أن يحكم، والآخر يحكم دون متعة، وبينهما من يحكم مبتهجًا ويبتهج بالحكم؛ يعيد هؤلاء إنتاج العمل الفني في عمل جديد. ليس أعضاء هذه الفئة عديدين».



أ. التخلف العقلي



ب. الانحرافات العقلية

تنعكس تفريعات المعرفة المتعددة في تعدد تشوهاتها الممكنة. ويمكن حصرها في فئتين: إعاقة الإنجازات العقلية (تخلف عقلي) والانحرافات العقلية.

أ. التخلف العقلي

ليس من النادر أن يزداد وضع المتخلف العقلي صعوبة بسبب المجتمع. إن مؤهلات المتخلفين لا تقل في بعض المجالات عن مؤهلات الناس «العاديين». ولكن بما أن المعرفة تتطلب معيارًا عامًا على مستوى عال، فإن هذه المؤهلات لا تقاس إلا بهذا المعيار فتسقط قبل أن تعبر عن ذاتها في قطاعات الحياة الأخرى. إن التركيز على الذكاء يُرى في التصنيفات المألوفة.

(أ١) ينطلق التصنيف الأميركي الرسمي وتصنيفات أخرى من حاصل الذكاء (IQ، ٨/١٠) ويحدد «المغفلين» بين ٧٠ و٥٥ نقطة كأغبياء أو متخلفين قليلًا. وما بين ٥٤ و٤٠ نقطة معتوهين أو ذوي تخلف وسط وبين ٣٩ و٢٤ نقطة وما دون بلهاء أو متخلفين كثيرًا. ويتوزع هؤلاء الآخرون بين مهتاجين وخادرين. والذين يمكن معالجتهم فعليًا اليوم هم أكثر عددًا مما كانوا في الماضي، لكن ارتفاع الكلفة وأخيرًا الوضع التنافسي مع غير المعاقين يعترضان ذلك، ما يؤدي إلى وضع عزلة للمتخلف.

(أ٢) يَجْمَع المجتمع أو يفصُل الأفراد بحسب إنجازاتهم العقلية. يعزل المتخلفين لأن «عالم المتخلفين عقليًا، استنادًا إلى المظهر، هو عالمه، ويجب أن يبقى كذلك، عالم لا نستطيع أن نتأكد من شيء بخصوصه» (**سبيك وتالهمر**، ١٩٧٤). من هنا كان دمج المتخلف عقليًا بالمجتمع أمر صعب ويتطلب غياب الأحكام المسبقة إزاء عالمه الآخر الذي يعيش فيه.

ب. الانحرافات العقلية

(ب١) أبسط أشكال الانحراف العقلي هو الحكم المسبق. إنه نموذج من التفسير المقولب الجاهز الموجود سلفًا تحت شكل ما ويبرز عندما يحدث موقف يشبه آخر أو يقارن به دون أن يحدد السبب.

والمثال على ذلك، ينشأ، عن الاختلاف في الجهاز العَرَقي، الحكمُ المسبق: «تنبعث من السود رائحة كريهة».

ونوع آخر من الانحراف العقلي هو سرعة التصديق.

تُمَثِّل الأشكال المختلفة من الإيمان بالخرافات مجالًا واسعًا. سحر التمائم غير مؤذ (مثل تعليق جرز في السيارة). «الطبابات السحرية» (**بروكوب**) خطرة وخاصة عندما يؤمل الشفاء بوسائل غير مناسبة بل مضرة، في حين تهمل العلاجات الفعالة.

(ب٢) إن إحدى آلحُ الحاجات المعرفية هي فك رموز المستقبل. فإلى جانب التحليلات التي نحصل عليها بواسطة الحاسوب لا يزال يوجد اليوم عدد كبير من أشكال التنبؤات. وأهم فنون العرافة هي:

التنبؤ بواسطة ورق اللعب، قراءة خطوط اليد، الضرب بالرمل، العصا السحرية لكشف المياه، التنبؤ بفنجان القهوة، تفسير الأحلام، التحكيم الإلهي، التنجيم.

ينظر إلى بعض «الأدلة» كعلامات قوى مجهولة تستند إلى مستقبل حدَّدته سلفًا.

(ب٣) أخطر ميادين الإنحراف العقلي يكمن في تشكيل فريق غير عقلاني. ففي هذا أخطار تختلف جسامة.

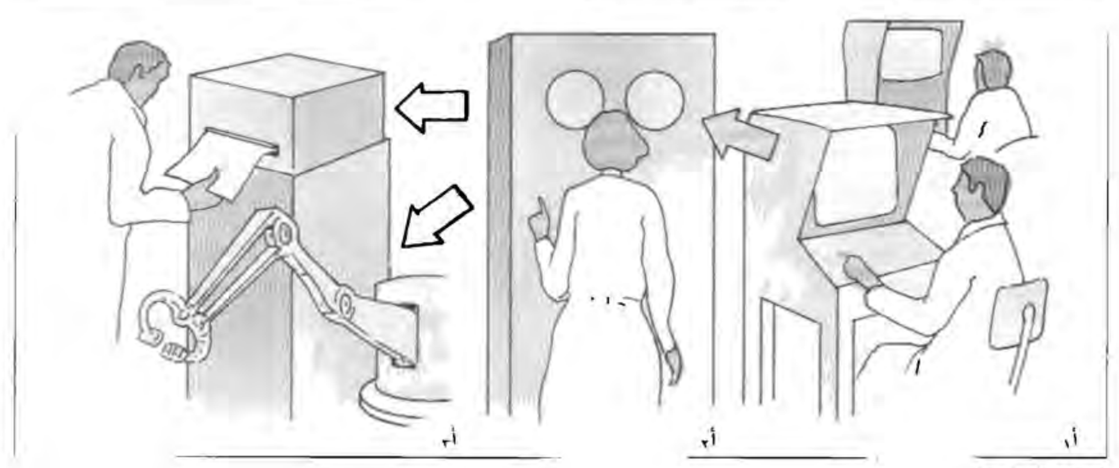
تتشكل زمر متشابهة الأفراد (بشكلهم الخارجي ونفورهم من سائر أفراد المجتمع) فتثير تهديدات تتعاظم بتعاظم أعدادها، وهذا ما لا يستطيعه فرد واحد.

تزيد تحرّكاتُ الكثرة من هذه الطاقة الكامنة ويحدّد ديناميتَها التعصُّبُ. وظهر في القرن العشرين «حركات» من هذا النوع عزمت على إفناء بعض فئات الشعب. وجماعة الكوكْلوكْسْ كْلانْ هو مثل سابق للضلال الفاشستي الذي بلغ ذروته فيما بعد في القومية الاشتراكية الألمانية.

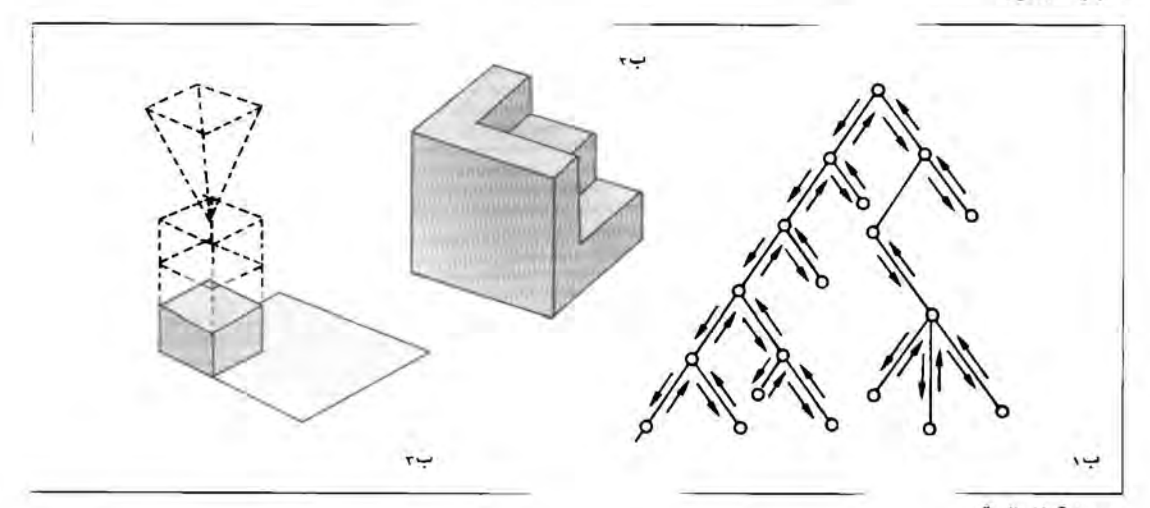
كيف يصبح الفرد عنصرًا من هذه الجماعات؟ ذُكر في إحدى دراسات علم الاجتماع (بحث في تشكيل جماعات هامشية) بعض المراحل الأساسية: إبعاد وعزلة عن الارتباطات السابقة، العائلية والثقافية وغيرها، نقل للحاجات مبني على الإيديولوجية الجديدة، ادعاء عصمة التعاليم المستخدمة، تشكيل لغة خاصة (تعابير لغوية في خدمة اللاتفكير)، طقوس الانتقاء، طاعة مطلقة تجاه الرئيس الساطع النفوذ، فيض من المعلومات المنتقاة ودعاية مروعة ضد الخصم، تعديل جذري في القيم الأخلاقية.

أكثر مسالمة وليست أقل ضررًا هي الأشكال الأوسع انتشارًا التي «تعيق الاندفاع العقلي» (نظام التوثيق AMP) مثل:

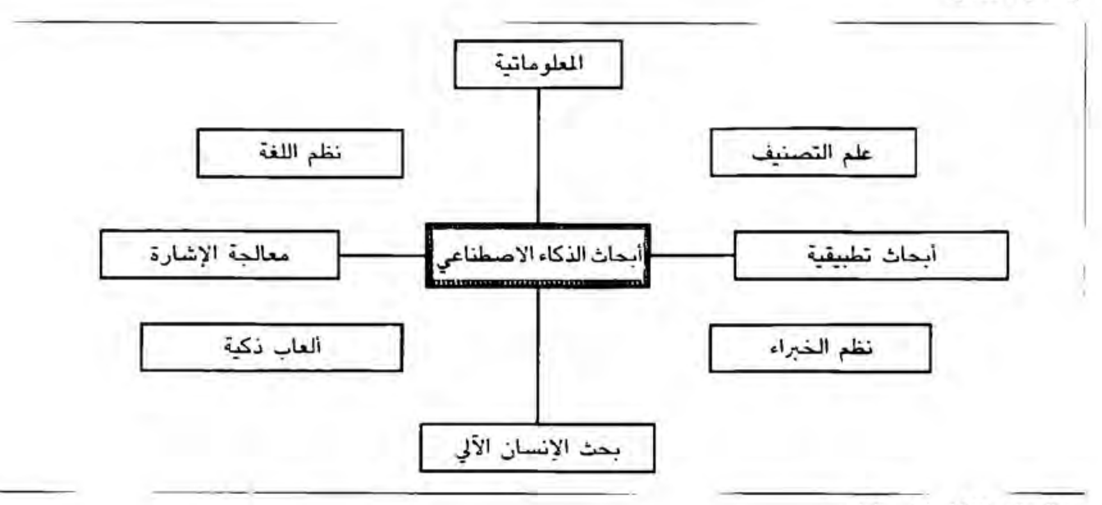
منع اتخاذ قرار، فكر مهووس (هرب الأفكار)، هوس المزاح، فراغ الفكر، انعدام الحس (العجز عن معرفة ما إذا كان الشيء نافعًا أو صالحًا أو يستحق بذل الجهد أو إذا كان ممتعًا طريفًا).



أ. بنية الركيزة



ب. بنية المعالجة



ج. أبحاث الذكاء الاصطناعي

يستطيع الانسان، مع الحاسوب، منافسه في مجال المعرفة، أن يتحكم بكثير من الوظائف. بيد أننا نرتكب أخطاء في التقدير إذا قيمنا الحاسوب أكثر أو أقل مما يستحق كجهاز للذكاء الاصطناعي.

يرتكز التقييم المجحف على موقف دفاعي أو على شعور بالغرابة. يثير، فيما يثير، الشك في أن يكون الحاسوب «خلاقًا». وينشأ التقييم المفرط، أكثر الأحيان، من خطأ تكون المعرفة بموجبه ما نعرفه عنها. حينئذ يتبرأ الحاسوب من ذلك. ولقد جنى علم نفس المعرفة فائدة منه بالرغم من كل شيء. فلولا تكنولوجيا المعلوماتية لما استطاع علم النفس هذا، على الإطلاق، أن يمارَس بهذا الزخم في هذه الأيام الأخيرة.

أ. بنية الركيزة

إن الحاسوب آلة ولكنه آلة مطواعة إلى أقصى حد. بفضله نستطيع القيام بمهمات لا تعد ولا تحصى. وهو، على خلاف غالبية الأجهزة الأخرى، نظام آلي يحتوى ثلاث وحدات كبيرة.

(أ١) **وحدات دخول المعطيات**: لوحة مفاتيح (نوع من آلة كاتبة)، أجهزة قياس واتصالات بحواسيب أخرى...

(أ٢) **وحدات معالجة أو وحدات مركزية**: أنظمة توجيه (لسير البرامج)، أنظمة حسابية (لإجراء عمليات مقارنة) وذاكرات أساسية ووصلات مكالمة.

(أ٣) **وحدات خروج المعطيات**، منها الشاشة، الطابعة، أجهزة التشغيل اليدوي أو تشغيل الآلات (تشغيل الإنسان الآلي). وهذه جميعها تشكل ما يسمى «المعدات» أي الجزء المادي من الحاسوب.

نميز، استنادًا إلى نوع المعالجة، الحواسيب النظيرية (تعمل مثل «مسطرة حاسبة» والحواسيب الرقمية (تشبه اللوحة الحسابية، أو العدّادة، بوحدات كاملة)، والحواسيب الهجينة (مؤلفة من النوعين السابقين).

تستند طرق العمل، في الحواسيب الرقمية المستخدمة عمليًا، إلى مبدأ الاتصال والانفصال. إحدى الحالتين هي (١) والثانية (٠) (أو «نعم» و«لا»). تقنيًا، الحالة بت (١) هي الممغنطة والحالة بت (٠) هي إزالة المغنطة من نواة الحديديت (أكسيد الحديد) في ذاكرة ممغنطة. إن معدل ذاكرة من ٨ مواضع - بتات (أوكتيت) هو ٢٥٦ إمكانية مختلفة من التعبير. وهكذا نستطيع بواسطة هاتين الحالتين تكوين جميع الأعداد (في نظام من الأعداد الثنائية) وبالتالي الألفباء بكاملها كما يمكننا تخزين كميات هائلة من الرموز وبتات المراقبة).

ب. بنية المعالجة

وخلافًا للعتاد «هاردوير» نجد «السوفتوير» أي قسم (يسلم مع الجهاز) برامج المعالجة الجاهزة. تجد هذه البرامج الطريق من بداية المسألة إلى نهايتها أو حلها مرورًا بسلسلة كاملة من الإجراءات التفصيلية.

(ب١) الشكل الأهم لسياق العمل هو شجرة الحل، وتُمثَّل هنا مقلوبة: تبدأ العملية من الجذر (من أعلى) مرورًا بجميع الخيارات المتاحة (باستثناء السلبية) حتى التوصل إلى عدة حلول تتفاوت أصالة وابتكارًا.

(ب٢) وشكل آخر من حلول مسألة ما هو طريقة التلمس (أو التحسس). ومن تحديد بسيط للنماذج، يتلمس هوائي خيالي الأشياء ويرسم إطارها المحتمل على الشاشة. يمكن تقليب هذه الأشياء شيئًا فشيئًا وإعادة إخراجها من زوايا مختلفة. ويمكننا، تحت عنوان امتداد هذه البرامج، صنع أشكال «إبداعية».

(ب٣) ويستطيع حاسوب يعمل، مثلًا، أن ينضد أشياء في «عالم من المكعبات الصغيرة» (**ڤينوغراد**) ويقيّم إلى أي مدى يمكن أن تنجز إحدى المهمات أو أن تفشل، كما في حالة هرم قائم على رأسه.

ج. أبحاث الذكاء الاصطناعي

لقد اتسمت أبحاث الذكاء الاصطناعي منذ الخمسينات من القرن الماضي بتطور جامح. والمضر في ذلك أنه غالبًا ما كانت أجزاء منه فقط تخصص لكامل أبحاث الذكاء الاصطناعي. ويجب أخذ قطاعات على الأقل بعين الاعتبار:

المعلوماتية وهي الفرع الأساسي لكل علوم الحاسوب. مع **كلود شانون** (١٩٤٩) تمت محاولة جعل محتوى المعلومات قابلًا للحساب وإعداده لمعالجة **الإشارات المدغمة بالحاسوب**. يُظهر هذا القطاع من الأبحاث العلاقة بين المعلوماتية وأبحاث فيزيولوجية الأعصاب للشبكات العصبية (**لوكه** ١٩٩٠).

بدلَ استعمال المصطلح القديم «الإنسان الآلي» (أبحاث البشر الآليين (Robot) على ما اشتقه **كاريل كابك** سنة ١٩٢١ من كلمة Robota (العمل). يتحدث المرء اليوم عن «الآلات الذاتية» (Auotomates) أو «المعالجات اليدوية»، أي عن آلات قابلة للتعلّم، تتولى القيام بالعمل الخاص بالانسان. وفي السياق تقوم مع ذلك **أبحاث تطبيقية**، وهي التي تفتح الباب، باعتبارها أبحاث البرامج، لمجالات تطبيقية جديدة كبرامج التصوير العديدة على سبيل المثال.

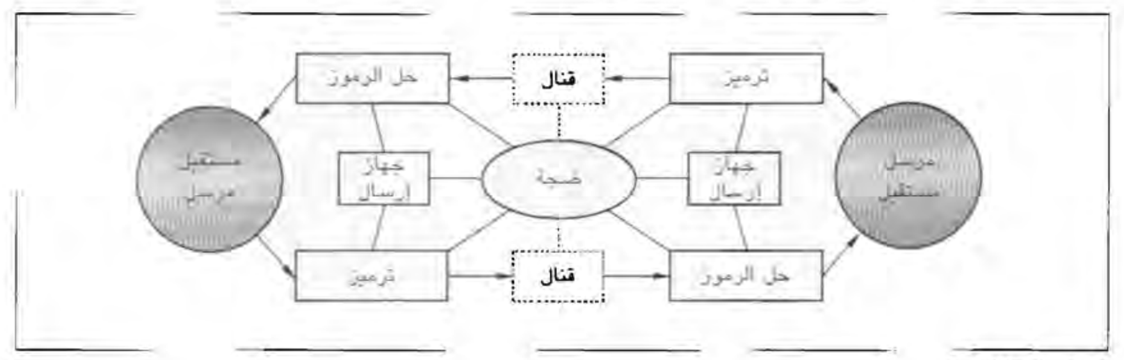
إن **علم التصنيف** يستخدم كحقل أبحاث لقطاعات الترتيب والتشخيص والتدخل المختلفة وخاصة في التطبيق العيادي.

إن الهدف هو توثيق مدعَّم بالحاسوب وقابل للاستعمال، وقابل للفهم إجمالًا.

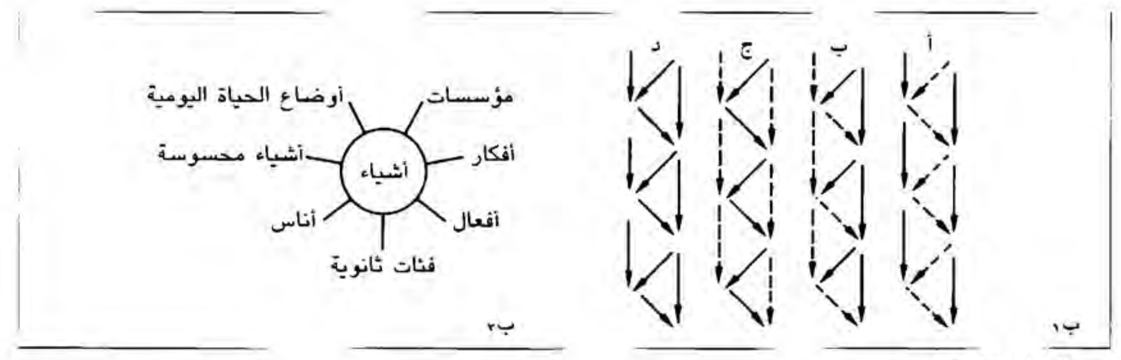
تحاول **نُظُم اللغة** منذ زمن طويل أن تدفع قُدُمًا تطور التحويل الخاص في برامج الترجمة والمحادثة.

تغيِّر **الألعاب الذكية**، منذ بضعة سنوات، سلوك الاطفال والبالغين، حتى الآن في أوقات الفراغ. وأحدث النتائج هي الآلات الذاتية في المجال السيبرناتي.

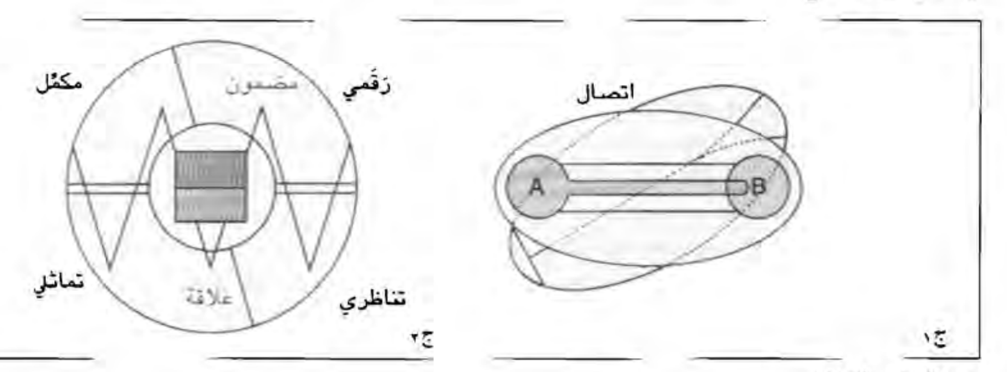
تخزن **نُظُم الخبراء** علومهم التي من الممكن تثبيتها في عملية القرار التابعة للعمليات الصناعية أو العلمية أو السياسية أو الاقتصادية.



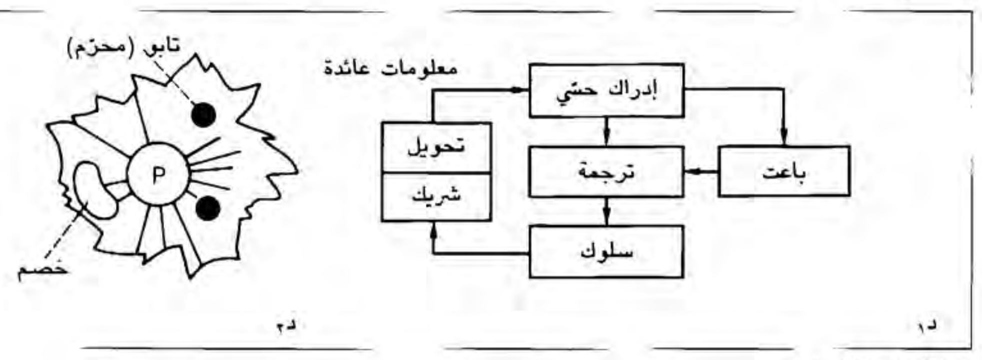
أ. نظريات المعلومة



ب. نظريات الانتفاع



ج. نظريات التوازن



د. نظريات التقييم

كتب **البارون فون كْنيغِه** منذ قرنين في كتابه «معاشرة الناس» ما يلي: «اهتمَّ بالآخرين إذا أردتَ أن **يهتمَّ الآخرون** بك».

إذا كان «الأنا» معروفًا وكذلك «الأنت» فإن مجالًا آخر يبقى لغزًا هومجال التوسط أوالفصل بين «الأنا» و«الأنت».

ما هو الاتصال؟ يظن البعض أن لا شيء يجري بين الذين يشاركون في الاتصال – وأن كل ما هنالك فعل ورد فعل من هذا الجانب ومن ذاك – ويعتبر آخرون أنه يمكن التحدث عن «حس مشترك» يشمل أكثر من فعل ورد فعل هكذا بكل بساطة. لكن أكثر المنظِّرين يتركون هذه المسألة مفتوحة على النقاش.

أ. نظريات المعلومة

بفضل انطلاقة وسائل الإعلام (الهاتف، الصحافة، التلفاز...) أصبحت نظريات المعلومة، التي تحدَّد، تبعًا لنظريات الاتصال، نموذجًا لأكثر نظريات الاتصال (**ش. شري**).

المشاركان في الإتصال (المرسِل / المستقبِل) هما عنصران متشابهان في علاقة تناوبية. أقنية تؤمن نقل محتويات الرسالة التي تكون مرمّزة ومحلولة الرموز (أي مفسرة أومعروفة استنادًا إلى الدلالة المُتَعلَّمة).

تَستخدِم التقنية وسائلَ نقل (أجهزة إرسال).

إن المفهوم المركزي لمصدر التشويش (الضجة) لا يعني فقط خللًا تقنيًا، عرضيًّا (تشويه الكلام، «الصرير»...) بل سوء تفاهم شخصي أثناء الاتصال.

ب. نظريات الانتفاع

تثير هذه النظريات الانتباه، بنوع خاص، إلى الاستخدام المتعمَّد لوسائل الاتصال.

(ب١) يعبر **فون ريبِه** عن التفاعل الثنائي (**تيبووكِلي**) بعبارات اقتصادية حاسمة:

«يتوق الأفراد إلى رفع أجورهم الصافية إلى أعلى حد (الأجر الأساسي ناقص النفقات)»:

تمثل هموم الحياة والوقت المهدور النفقات وغيرها بينما الآراء المجمّعة والحرارة الإنسانية والإعلام وتقييم الذات والخدمات والضمان تحدِّد المنفعة. نجني «فائدة» من العلاقات الإيجابية ونتعرض «للخسارة» بفعل العلاقات السلبية.

رسم **جونز وجيرار** نموذج الاتصال التالي: أ) يتصل أحد الشريكين بالآخر، د) هذا نوع من التبادل المثالي، العلاقات المتوسطة هي أكثر احتمالًا، ب) لا متماثلة، ج) متماثلة. وبمقابل ذلك، واستنادًا إلى نظرية العدالة، (**هومَنْز، آدمس**)، لا يتوق الإنسان إلى الانتفاع ولكن إلى تشابه التقدِمات الثنائية الجانب، ولا يهدف إلا إلى توازن العلاقات. فالظلم يعادل «الدفع المفرط» الأحادي الجانب.

(ب٢) وتحيلنا التفاعلية الرمزية إلى **ج. هـ. ميد**:

«لا يُفهم سلوك فرد ما إلا بارتباطه بسلوك الفئة الاجتماعية التي هو عضو فيها».

وهكذا يُعزى إلى جميع ما تتضمنّه البيئة المحيطة من أشخاص ومؤسسات، وغيرها، دلالةٌ رمزية تلتصق بها الفئة الاجتماعية قليلًا أو كثيرًا. في هذا «الحديث الإشاري»، يكون الفرد (بحسب **ك. و. موريس**) أهلًا لأن

«يطلق في ذاته رد الفعل الذي تثيره إشارته (بادرته) لدى الآخرين، ويستخدم رد الفعل هذا ليضبط، فيما بعد، سلوكه الخاص».

ج. نظريات التوازن

تعتمد هذه الفئة من النظريات أكثر على «الحقل الاجتماعي» بين الشركاء.

(ج١) يحدِّد المجالَ الحيوي، في نظرية الحقل لواضعها **ك. ليڤين**، «قوى» إجتماعيةٌ؛ سلوكُ (V) الشريكين (A وB) هوعامل (f) لوضع الشخص (p) ولمحيطه (U).

$$V = f(P.U)$$

(ج٢) تنطلق نظرية الاتصال (**پ. ڤاتزلاڤيك** وجماعته) من «سببيات دورية» حيث «يكيف سلوك الأشخاص المعزولين سلوك أي شخص آخر».

وهكذا إذًا لا يمكن «إلا الاتصال»، لأنه حتى الصمت يعتبر «إجابة».

يميز منظِّرو الاتصال هؤلاء مستوى المضمون من المستوى العلائقي والأنظمة المتناظرة (صور متشابهة) أو متكاملة (يكمل بعضها بعضًا) (٢٠/٨، ١).

د. نظريات التقييم

الاتصال هو أيضًا تقييم الحاجة الى الاتصال أو إرضاؤها.

(د١) ينطلق نموذج الكفاءات (**م. أرجيل**) من مبدأ وجوب تعلّم الاتصال (مثل العزف على البيانو أو السباحة). إن إقامة علاقات اجتماعية يعتمد خاصة على إجابات يتم الحصول عليها، في كل مرحلة، من الخبرة الاجتماعية.

(د٢) وفي نظرية التحفيز السلبي (**ج. و. بريم**)، يحتم التأثير الاجتماعي الاستسلام أو المقاومة. تقيِّد حريةَ الاتصال، مثلًا، سِمةُ «نفي الاتصال» لرسالة مموّهة كما تقيّدها المحرمات والأخصام الماديون. وخوفًا على النزاهة النفسية الشخصية يرفض «التحفيزُ السلبي الكامن» محاولاتِ التأثير المفترضة.



أ. وسائل الاتّصال

ب. طرق الاتّصال

ج. آثار الاتّصال

يُبْنى كل شيء، عامة، انطلاقًا من مثلث الاتصال: عند زاويتي القاعدة نجد المتصل (الذي يسمّى أيضًا المرسِل، المنتِج، المؤلِّف، الباثّ، المذيع، الموحي...) والمتَّصَل به (المدعو أيضًا المستقبِل، المرسَل إليه، المستهلِك والشخص الهدف)، وعند القمة، الرسالة (الكلام، الخبر، القصد، المحتوى، النص، الدلالة، الطلب، السلوك غير الكلامي...). ينشأ الاتصال من «العمل المتسلسل» للرسالة كالخبر الذي ينقله المتصل بالمتصَل به. والاتصال، في واقعه، ليس «مستقرًا راسخًا» كثيرًا لكنه، بالأحرى، تناوب كثير التنوع وسريع لا يمكن استيعابه بكامله في اللحظة.

أ. وسائل الاتصال

تمر اللغة، كأسمى وأكمل صيغة للاتصال، بحاستَي النظر والسمع. فماذا يحدث لولا امتلاك الانسان لهاتين الحاستين؟

ففي تلك الحالة الشهيرة **لهيلانة كيلر** نجح أستاذ هذه الفتاة الصماء العمياء، بواسطة اللمس، أن يأخذها بعيدًا في تعلّمها حتى أنهت دروسها الجامعية بشهادة دكتوراه.

ثمة، إذًا، وسائل مختلفة للاتصال، هذه أهمها:

(أ١) **اللغة**. وهي تتفوق على سائر أشكال الاتصال لأن بإمكانها إيصال ملايين المعلومات.

(أ٢) **الكتابة**. وتأتي بعد اللغة المحكية (وهي لا تستطيع أن تمثل نغم الكلام). تُظهر الصورة كلمة «عصفور» باللغة المسمارية وبالرموز الصينية.

(أ٣) **الرسم**: هنا صورة رقصة (قفزة قوزاقية) في توليفة توقيعية.

(أ٤) **الصورة**. يمكن أن تكون الصورة الفوتوغرافية رسالة.

(أ٥) **التعبير**. للضحك أيضًا قيمة «بيان سردي».

(أ٦) **الفعل**. الصفعة هي «إعلام» وإن كان غير مستحب.

ب. طرق الاتصال

تحدِّد هذه الطرق المراحلَ الأولية والنهائية الممثلة بأعضاء الإدراك (ب١) التي هي العين والأذن والأنف واللمس...

يوجد عدة «أقنية» بين مرحلة إدخال المعلومات ومرحلة إخراجها (ب٢). إن أبسط هذه الأقنية هو الاتصال المباشر بين الشركاء بالصوت والضوء أو الموجات التي تعبر الفضاء الوسيط. هذه القناة البسيطة تكملها التكنولوجيا: بواسطة الهاتف والمجلات، والسينما والتلفاز وأيضًا بواسطة الألعاب الإلكترونية. وتطورت وسائل الاتصال، في العقود الأخيرة، من الاتصال المباشر إلى الاتصال عن بعد. ويبدو أن هذا الاتجاه العام سيستمر في المستقبل.

تكمن النتيجة النفسانية لهذا التطور في التغيير النوعي لتوقعات الاتصال، وخاصة بالنسبة الى المضامين الجذابة.

ج. آثار الاتصال

تتراوح الآثار بين عدم الانتباه والمعالجة اليدوية. قد لا يسمع الخبر إما لأن ليس له من أثر سمعي وإما لأنه لم يُدرك إدراكًا واعيًا.

وفضلًا عن ذلك، فإن وسائل الإيحاء يمكن، بمحاولات المعالجة الذهنية، أن تُكرِه شخصًا ما، دون أن يعلم، على أفعال لا يقوم بها بملء اختياره (١٢/٢٠).

تقع أكثر الآثار بين هذين الحدّين، المعلومات والإيحاءات تشكل مزيجًا.

إن البحث في الآثار هو مجال دقيق لأنه يستحيل الاعتماد على أثر ثابت. يوجد فرق شاسع بين آثار آنية وآثار سابقة. وغالبًا ما تتضارب.

مثال ذلك، أثر آني حاد في مشهد تلفازي يمكن أن يتلاشى حالًا بعد نهاية البث.

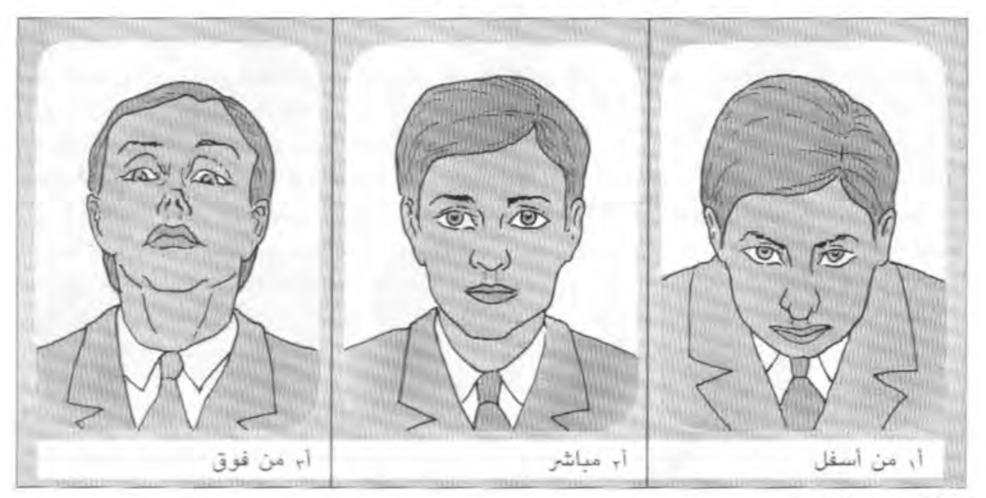
وفي حالات أخرى، يمكن لأثر آني ضعيف أن يُحدِث تأثيرًا دائمًا على تفكير المُشاهِد وعلى تصرفاته. يمكن لعروض تلفازية عديدة تتضمن مشاهد عنف ووحشية، أن تقوّي، استنادًا الى اتجاه معمَّم، انطباعًا لا واعيًا بأن العنف هو شيء طبيعي وبالتالي مقبول.

إنه لمن الصعوبة الإجابة عن سؤال حول توجيه الأثر من وجهة نظر المضمون. النتيجة العادية هي، بكل بساطة، تجديد رأي لا يلبث أن يحل محله رأي ثانٍ. ليس القسم الأعظم من الآثار سوى نِسَخ صَدَويّة قصيرة المدى.

والأمر يختلف بالنسبة الى المحاكاة في العمق. هنا، يستعاد الحقل المحيط (السياق). نحصل على الأثر الأقصى على مستوى المحتوى بالتأثير على التوجيهات الذهنية إذا توصّلنا الى صياغة إيديولوجية شخص ما، فمن المحتمل أن ينتج عن ذلك آثار دائمة لا يُعترف بأصولها فيما بعد ذلك.

من الضروري، لتقييم أثر الاتصال (مثل بث تلفزيوني)، أن نحدد كلًّا من حقول العمل هذه على انفراد.

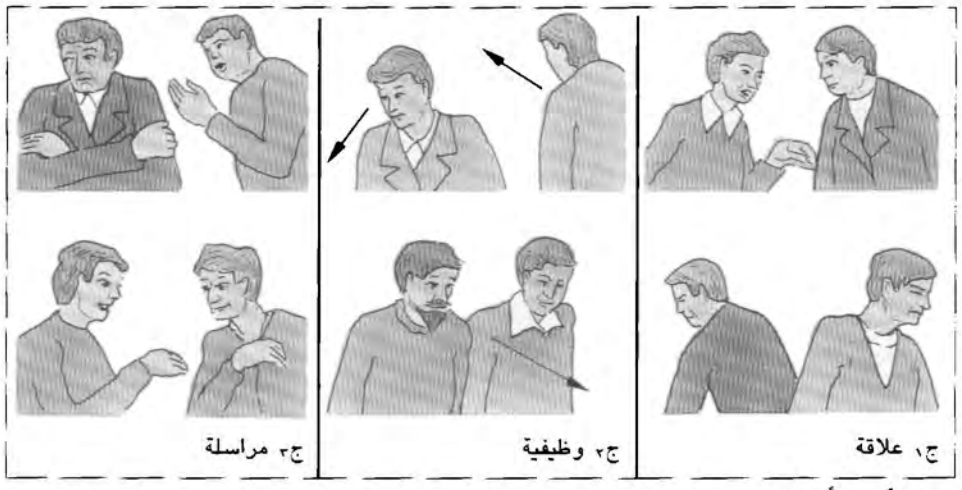
ولكن من أجل إقامة هذا التفاعل فيما بينها بعد ذلك، يجب استخدام برامج قادرة على حساب العلاقة المتبادلة بين هذه المجموعة من الآثار. لان للاتصال دائمًا أثرًا هو التفاعل، أي نظام آثار في شبكات متعاونة صعبٍ إدراكُها.



أ. المتصل أو المذيع



ب. محتوى الاتّصال



ج. المتلقّي (المتّصل)

جاء في أحد الأمثال: «الصدى العائد هو صدى الصراخ الذي أطلق في الغابة». هذا الارتداد هو أساس قوانين اتصال عديدة.

أ. المتصل أو المذيع

اثبتت الاختبارات أن الناس يشعرون بحس مرهف بالطريقة التي بها ينظر إليهم الآخرون. إن مسلك ثلاثة مذيعي تلفاز يوفر لنا المثل:

(أ١) ينظر من الأسفل؛ وعندما يرفع عينيه نشعر وكأنه يتطلع من أسفل. يشير هذا الوضع الى الخضوع إزاء الجمهور. إن هذا قلما يفرض نفسه، ولكن الجمهور، بشكل عام، يحتقر المتوسّلين.

(أ٢) يقوم باتصال بصري مباشر، وهو إن أعطى انطباعًا بأنه لا مبال وودود فإنه يضع جمهوره على مستواه (باستثناء نظر جامد مسمر وراء الكاميرا بالكتابة التي تمر أمامه).

(أ٣) يرفع رأسه أكثر من الآخرين، يعطي انطباع «الغطرسة». لا يخفي هذا الوضع وراءه سوى الاضطراب بالرغم من أنه يفسر أحيانًا كرفض للجمهور.

ب. محتوى الاتصال

استنتج **شارل أوسغود**، انطلاقًا من تحاليل المضمون، ثلاثة معايير:

(ب١) **النشاط**: مثل السمات فعال - منفعل، تابع - مستقل عن الهدف، موجِّه - موجَّه.

جاء في أسطورة قديمة أنه كان على سيزيف أن ينفذ عقوبة إلهية: وهي أن يرفع الحجر الى أعلى الجبل، ثم ينحدر متدحرجًا. فجعل **ألبير كامو** من هذه الأسطورة رمزًا لطامح الإنسان: حتى ولو كان النشاط عبثيًا فإنه ضروري للإنسان.

وكذلك فإن الاتصال، علاوة على الإعلام، يجدد معنى الحياة.

(ب٢) **القوة**: قوي - ضعيف، قاسٍ - رخص. نجد في الأعياد الشعبية «ألعابًا» تختبر القوة البدنية.

ولكن إذا كان قياسها صعبًا، يمكن تمييز علاقات «قوية» أو «سطحية وضعيفة» في الاتصال.

(ب٣) **التقييم**: جيد - وسط - عاطل، لذيذ - كريه، إيجابي - سلبي. يحتوي التقييم، كما في بعض الأنواع الرياضية حيث تضع اللجنة العلامة، مرجعًا قيّمًا: تستوجب المشاجرة مراجعَ سلبية، تناغم المراجع الإيجابية. تشتمل الإمتحانات على تقييم مباشر للمضامين.

ج. المتلقّي (المتصِل)

يتناوب وضع المتلقي أو المستمع والمحاور، غالبًا، مع موقف المذيع. ثلاثة معايير أساسية تتناول الوضع أثناء الاتصال:

(ج١) **العلاقة**: القاعدة الأساسية في كل اتصال هي الاستعداد للذهاب باتجاه الآخر (الارتباط). الانجذاب أو الابتعاد هما المقوِّمان الأساسيان. كل من يرفض اتصالًا يعيق الخصائص العلائقية المستقبلية.

(ج٢) **الوظيفية**: يمكن أن تتشعب التطلعات بطريقة «مخلة بالوظيفة»: فلا يحدث تفاهم متبادل أو يشعر المرء بأن آخر يعامله بطريقة غير لائقة. من ناحية أخرى يمكن أن يبلغ الانسجام درجات متنوعة: من تشابه الآراء حتى المثل القائل: «اتفاق العقول والقلوب».

(ج٣) **المراسلة**: يوجد سياقات علائقية من جانب واحد، مثل خطاب، برقية. وبمقابل ذلك، فإن أكثرها متبادل ولكنها ليست بالضرورة متوازنة.

لهذه الأوضاع المختلفة فعل منسق. يعزز التكاملُ عمليةَ الاتصال الذي يمكن أن يتبدل فيه تأثير الأوضاع الثلاثة: تارة يكون المضمون هو الأهم وطورًا الشخص من جديد.

يمكن محاولة تحليل السمة المتذبذبة للاتصال الفعلي بطريقتين:

(١) بتفحص بنية الاتصال من زاوية نظرية النُّظُم وتبعًا لست مجموعات من الخصائص:

(أ) ظروف المشاركة: معايير خارجية مثل عدد المشاركين، مدة الاتصالات المعزولة، وتوزيعها الزمني.

(ب) خصائص المجموعة: التجانس، إمكانية النفاذ إليها، التلاحم، انتظام المقابلات وحضور المشاركين (النضوج).

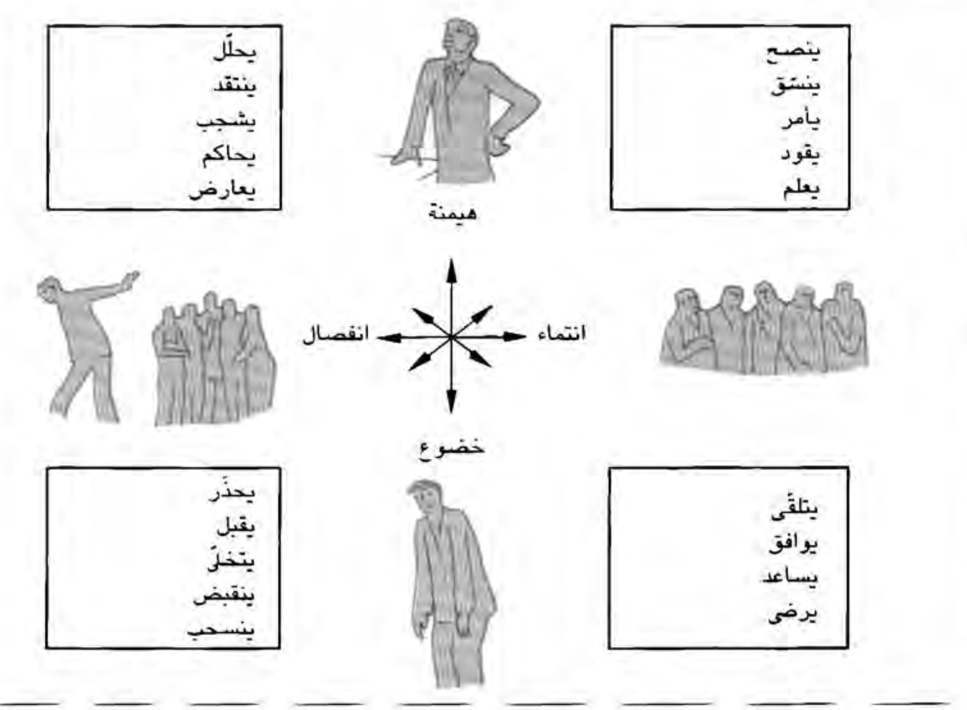
(ج) سمات النشاط: مستوى النشاط في الاتصال (المشاركة). مستوى التوجه نحو أهداف مشتركة (استقطاب)، التقارب الإنساني (المودة)، الاستقلال الفردي (استقلال ذاتي)، مدى الملاحظة المتبادلة (المراقبة).

(د) انحدار العلاقة: سيطرة أو إذعان (الطبقات)، مهمات خاصة (أدوار).

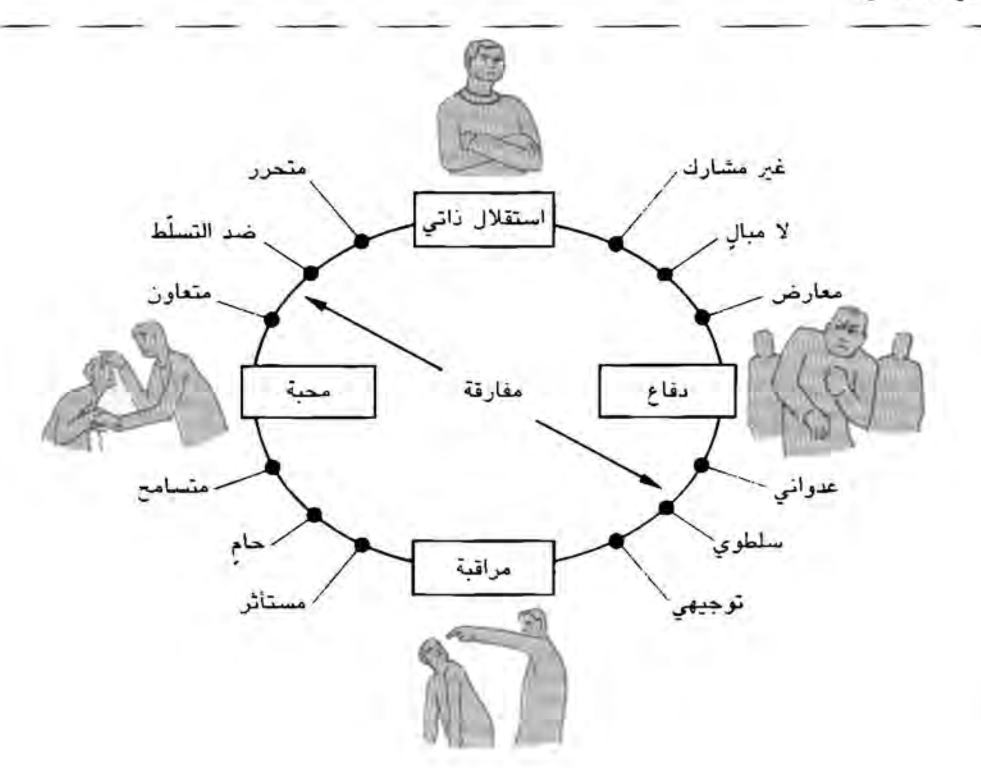
(هـ) تراتبية الاتصالات: توقعات التلقائية والوضوح والصفاء والمواطأة...

(و) مراعاة القوانين: قواعد سلوكية مثل نطاق التوجهات والاختيارات.

(٢) تستخدم طريقة تحليل أخرى لوصف سير الاتصال وصفًا شموليًا. وضع **ر. ف. بالس** (١٩٥١) جدولًا من ١٢ صنفًا تتضمن، فيما تتضمن، الخصائص التالية: وظائف الدعم والتفسير والاسترخاء ومناقشة الآراء وتنشيط الفكر. واستنادًا الى ما يقوله هذا العالم، فإن الاتصال المُرضي يتطور في حال التعاون (عون متبادل) والجو المريح مع قبول متبادل (١٥/٢؛ ١٩/٢). ويلعب المرجع الأخلاقي أيضًا دورًا مهمًا. عندما نعتبر شخصًا ذا قيمة أخلاقية عالية، نفضل التشبث بمضمون هذه القيمة.



أ. مرجعية الاتّصال



يسأل **وليم بوش** في إحدى قصائده الساخرة: «ما الجدوى من كل هذا. لماذا هذه التخاريم الطويلة المدلاة من ثياب السهرة؟» كثيرة هي العناصر التي فقدت معناها الأصيل في حياتنا اليومية. نجرجر معنا دلالات وأحيانًا صراعات ليس لها أي معنى فعلي. وهذا ينطبق على قانون معقد للاتصال:

يعتمد كل سلوك اتصالي على عوامل لا عديد لها، لا طاقة لنا على التحكم بها.

أ. مرجعية الاتصال

تشير هذه المدلولات التي نحملها معنا أيضًا إلى أن مرجعيات الاتصال تتكون شيئًا فشيئًا. وفي الواقع، إننا لا نتأثر فقط بعائلاتنا بل أيضًا بالطبقة الاجتماعية وبالقومية وبتوقعاتنا المرتبطة بالسن وبالجنس ... نتعلّم العلاقات فيما بيننا كأناس استنادًا إلى هذه المرجعيات.

نبني شيئًا فشيئًا سلوكًا مميزًا نسبيًا: هو أسلوبنا في الاتصال. وعندما يحكم علينا الآخرون فإنهم يستندون كليًا إلى هذا الأسلوب.

ونسعى، بفضل تحليلات عاملية مختلفة، إلى تحويل خصائصنا الفردية، في تفاعلاتنا، إلى بعض الخصائص الأساسية **(بركوفيتس)**. بُعدان ظهرا واضحين بنوع خاص ليمثّلا تشكيل أساليب الاتصال. يرسم البعد الأول النزعة إلى الاتصال بواسطة مفهومَين.

الانتماء ويُفهم به الرجوع إلى أشخاص آخرين دون هدف مباشر (الدافع الاجتماعي، الاستيعاب).

المفهوم المقابل هو **الانفصال** ويعني الابتعاد اجتماعيا، اتخاذ مسافة طوعية تجاه الآخر.

يعود البعد الثاني إلى مفهومين على صلة بالعلاقة التراتبية.

ويفهم **بالهيمنة** تأكيد الفرد لمراكز السلطة. ويذكر **ر. ب. كاتل** هنا الخصائص التالية: ساعٍ إلى السلطة، إداري، مؤكد، قاسٍ، محدّد، دأبه إعطاء الأوامر.

يعني المفهوم المقابل أي الطواعية **(س. ميلغرام)** الخضوع (اللاإرادي) لأوامر وتوجيهات سلوكية دون إبداء مقاومة ملحوظة: «لفت الأنظار».

الامتثالية هي شكل خاص من التكيّف الانتهازي مع قوانين جماعة وأهدافها، ولكن يمكن أن يخبئ بعض العداوة الكامنة.

إذا قاطعنا بين الوجهين نحصل على:

(إلى أعلى اليمين) الانتماء المهيمن
(إلى أعلى اليسار) الانفصال المهيمن
(في الأسفل إلى اليمين) الانتماء الطوعي
(في الأسفل إلى اليسار) الانفصال الطوعي

وخصائصها المتطابقة. يمكن تصور صلات أخرى بين هذين البعدين ليس فقط مركبة ولكن أيضًا متناوبة تبعًا للرجوع إلى الأشخاص والأوضاع الزمانية والمواقف.

ب. علاقات الاتصال

حدّد **لوفت وإنغهام**، في بحث لهما، أربع حالات شهيرة في العلاقة التفاعلية (٢/١٩، ب).

المجال الذي أعرفه وحدي (شخص خاص، جوحميم)
والذي يعرفه الآخرون أيضًا (شخص عام)
ما يعرفه الآخرون وأجهله أنا نفسي (منطقة ظلية)
وما هو مجهول عمومًا (مجال مقفل)

هذه «المنطقة الظلية» للخصوصيات التي تحدد طريقة الاتصال بالآخرين، هي، لا شك، واسعة جدًا، لهذا يمدنا تحليل علاقاتنا الاتصالية بمساعدة قيّمة.

تشدد دائرة الوظائف على أربعة أوضاع أساسية:

الاستقلال الذاتي: الاستقلال المعروف هنا كغياب التبعية بالنسبة إلى الآخرين.

المحبة: الحب النبيل مثل حب القريب.

المراقبة: ويشمل الالتزامات تجاه الآخر.

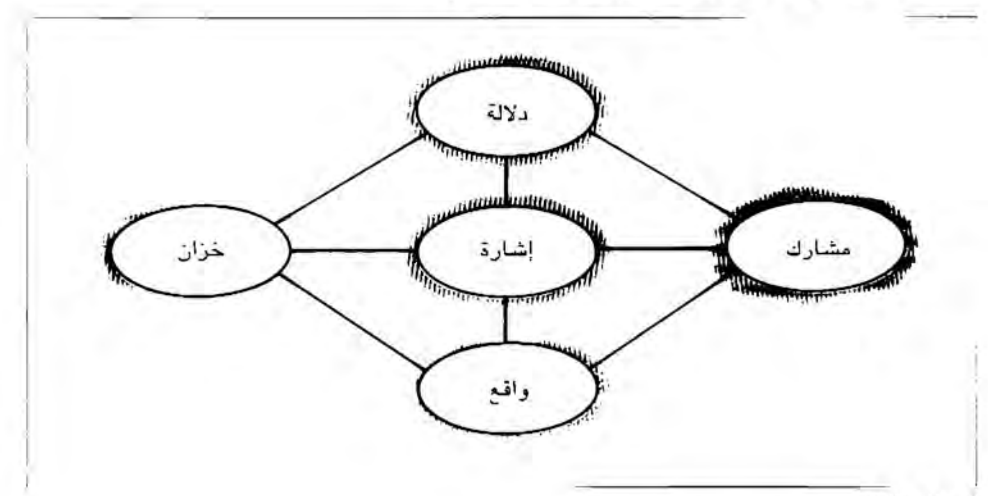
الدفاع: يميز الموقف الدفاعي لمن يتوقع باستمرار هجمات الآخرين الكامنة.

وزعت، على شكل دائرة، الأنماط المميزة للعلاقات القائمة مع الآخرين.

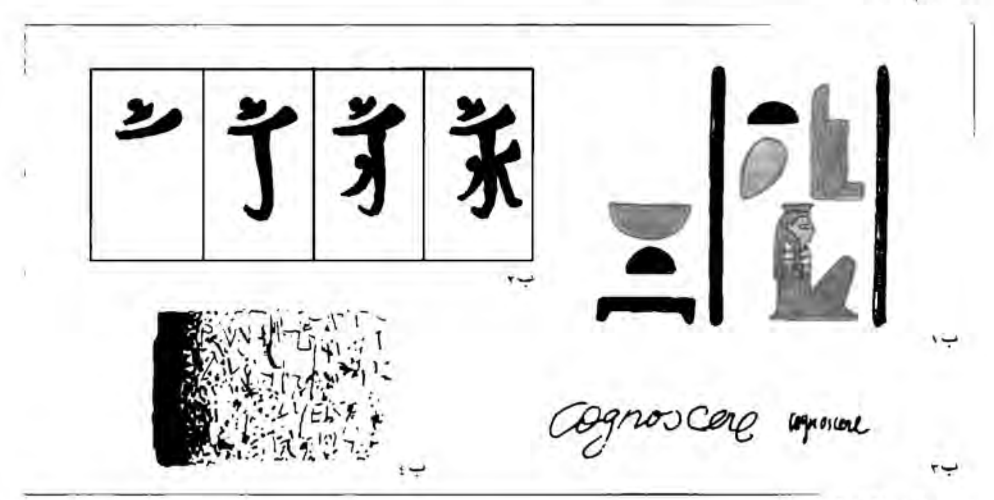
يمثل هذا النموذج فائدة مزدوجة بتوفيره نظرة إجمالية سريعة وبتحديده الأضداد. وتحدث التعديلات بشكل أسهل عندما يتسنى لنا تحديد الوضع المقابل. ربما كانت إحدى الوظائف الأساسية لعلم نفس الاتصال هي تحسين العلاقات بين الناس سواء على مستوى الأزواج أو وسط الجماعات الكبرى.

يمكن أن تنشأ العلاقات المستحبة بالشركاء بطريقة مناسبة (مساواة المواقع أو تشابهها)، متناظرة أو تكميلية (يكمل بعضها بعضًا).

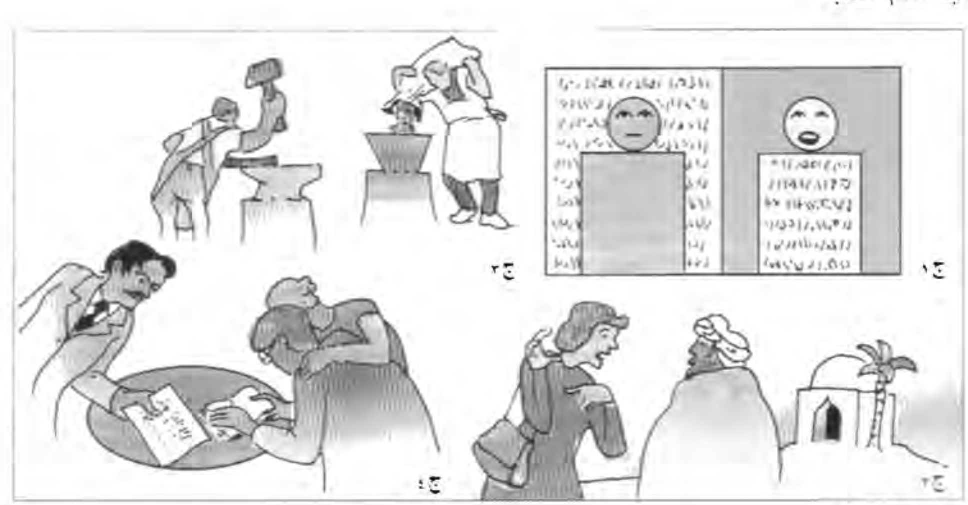
وتكون علاقة الاتصال المفارق عند استخدام العدوانية (عض، ضرب) بالمعنى التعاوني لإثارة الملامسة في لعبة الغرام. وهذا يشير بوضوح إلى أي حد تكون أساليب الاتصال قابلة للتنسيق.



أ. نظام اللغة



ب. نظام الكتابة



ج. وظيفة اللغة

ينشأ هذا المركز الخاص الذي تتخذه اللغة، هذا «النظام الإعلامي المنسق» في عملية الاتصال، من الدقة المتناهية في رسالتها **(ج. ل. أوستن، ج. ر. سيرل)**.

ونجهد في اللغة العلمية، أكثر ما نجهد، في نقل المضامين المعقدة بوضوح فنتوصل إلى ذلك بلغة «صحيحة». لكننا نهمل اللغة في الحياة اليومية. كلما كان المتكلم والسامع متعارفين تكون اللغة مهملة مختصرة لا تحترم القواعد كثيرًا.

أ. نظام اللغة

ليست اللغة رتيبة. نستطيع بفضلها أن نقيم علاقات مع الآخر كما نستطيع الابتعاد عنه باستعمال لغة غير مفهومة: فهي تتيح صياغة التقارب والتباعد سواء بسواء، يمكن أن تستخدم كصمام، أن تمتلك المعرفة، أن تحسّن الفكرة وتبدي نشاطًا فنيًا وتبحث عن معنى وتؤثر في الآخرين...

إن الهيمنة على جميع هذه الأوجه هي أيضًا مهمة علم النفس الألسني الذي تطور انطلاقًا من علم نفس اللغة القديم. المفهوم المركزي لعلم النفس الألسني هوالإشارة (شكل أ).

إن نموذجًا أوّليًا مجردًا من المعنى (يستخدم اعتباطيًا) هوالذي يربط واقعًا أوحالة شيء أومرجعًا (شخصًا أو شيئًا) بدلالة.

إن وظيفة الإشارة (مثل الوقائع والدلالات) هي متغيرة. والإشارة اللغوية أوالرمز (طاولة) تصل الشيء بمعنى وضعته لغتنا..

أدخلت هذه الاصطلاحات في الاستعمال في أكثر الحالات، منذ قرون، وأما كلمات أخرى فلم تستخدم إلا منذ فترة قصيرة. تتخذ الكلمات الشائعة، شيئًا فشيئًا، معنى «مائعًا» أكثر شمولية وأقل دقة.

توسّع الجمل قاعدة الدلالات. تُزْهَق الدلالة باستخدام اللغة لها (حشو).

إذا أهملت، مثلًا، في أكثر الجمل، جميع الأحرف الصوتية، تظل الجملة مفهومة.

إن مخزون الإشارة التي في حوزة المشاركين في الحديث هو عمليًا غير محدود. فاللغة قادرة على توسيع تخليقها بطريقة غير متوقعة.

ب. نظام الكتابة

ففي حين يسود الاعتقاد بأن اللغة ترقى إلى مئة ألف سنة فإن تاريخ الكتابة يبدأ منذ بضعة آلاف من السنين فقط.

(ب١) كانت الكتابة الصينية كالكتابة الهيروغليفية المصرية (الصورة: إيزيس الاهة السماء) كتابة تصويرية.

(ب٢) ومع مرور آلوف السنين راحت الكتابة الصينية تتخذ شكلًا أكثر فأكثر تجريدًا بالنسبة إلى حروفها الأساسية: واليوم يحفظ كل مفهوم على انفراد ويرسم في مستطيل وهمي.

(ب٣) تحتوي الكتابات المخطوطة خصائص فردية تميل إلى التلاشي مع تطور تقنية المبادلات المكتوبة. وحاولت دراسة الخطوط أن تحل رموز «طباع» الانسان انطلاقًا من هذه الخصائص.

(ب٤) والفنيقيون هم الذين أنجزوا هذه الثورة باختراعهم الأبجدية: وفي الصورة أقدم نماذج هذه الكتابة.

ج. وظيفة اللغة

أسهم التفاهم المتبادل، بواسطة اللغة، في تفوق الانسان. كان الاتصال في أول أمره شفهيًا، ومع ذلك فاللغة بإمكانها أن تعيق الاتصال.

(ج١) تختلف المفردات اختلافًا شاسعًا بين إنسان وآخر. يجب التمييز بين المفردات الفاعلة (المستعملة) والمفردات المنفعلة (المفهومة فقط)

(ج٢) لقد رفعت حواجز لغوية وأزيلت حواجز على امتداد تاريخ اللغة. وما تزال أهمية اللغات المحكية آخذة في التراجع، وهي عملية تعيقها فقط مراحل إعادة التقييم. وإن أبهظ الحواجزِ نتائجَ برز مع المصطلحات العلمية.

واللغة هي أيضًا ملك شخصي، وسلاسة الكلام تميز الشخص عن سواه. وهذا يطبق بنوع خاص على تعدد اللغات الكثير الانتشار في أيامنا هذه بسبب الأسفار إلى الخارج. فإذا كان تعدد اللغات معتبرًا قديمًا (كما في التوراة) لعنة إلهية، لقد أصبح الآن معيارًا ثقافيًا.

وعلاوة على ذلك، لقد سهّل تنوع اللغات الخاصة نشوء الأمم والانتماء إليها.

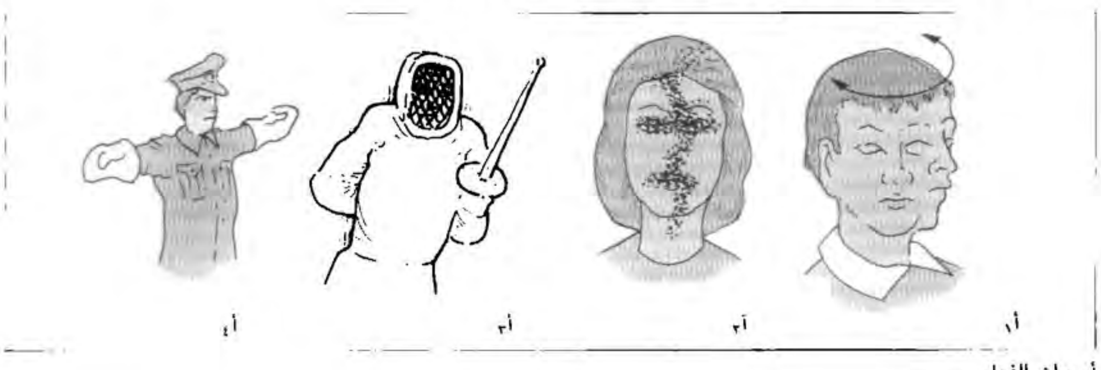
(ج٣) يمكننا أن نتتبع تطور وظائف اللغة انطلاقًا من ظهور أسماء العائلات وتطورها.

ففي حدود السنة ١٢٠٠ م كان عدد سكان كولونيا ٣٠٠٠٠ ولم تكن أسماؤهم كافية لتمييزهم، فأضيف إلى أسماء الأشخاص اسم المهنة أو اسم المسكن. وسنة ١١٥٠ تقريبًا كانت نسبة الأشخاص الذين يملكون اسم عائلة ١٨٪ وأصبحوا سنة ١٢٥٠ نحو ٨٠٪.

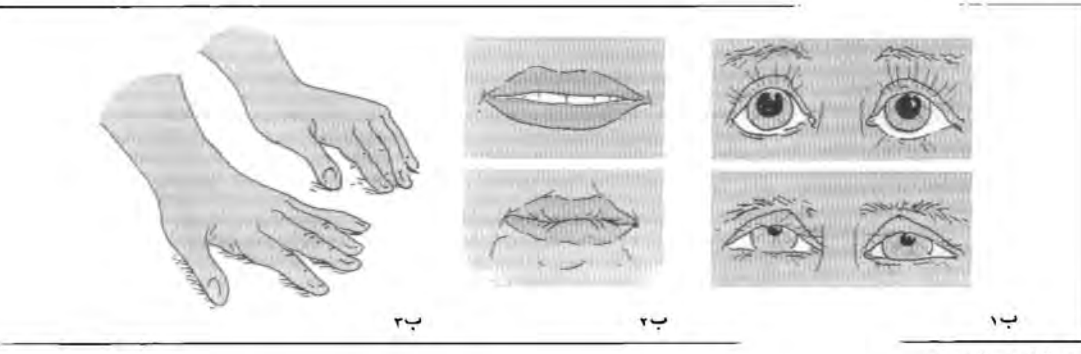
وفي سنة ١٢٨٠ لم يكن يوجد في فيينا شخص واحد يحمل إسمًا واحدًا. وبمقابل ذلك لم يفرض الإسم الكامل نفسه، في المناطق الريفية، إلا في القرن التاسع عشر.

عرف التاريخ عدة مراحل تحوّل في الأسماء (أسماء لاتينية في بداية العصور الحديثة ثم تكيف مع اللغات المحلية بحدوث موجات النزوح).

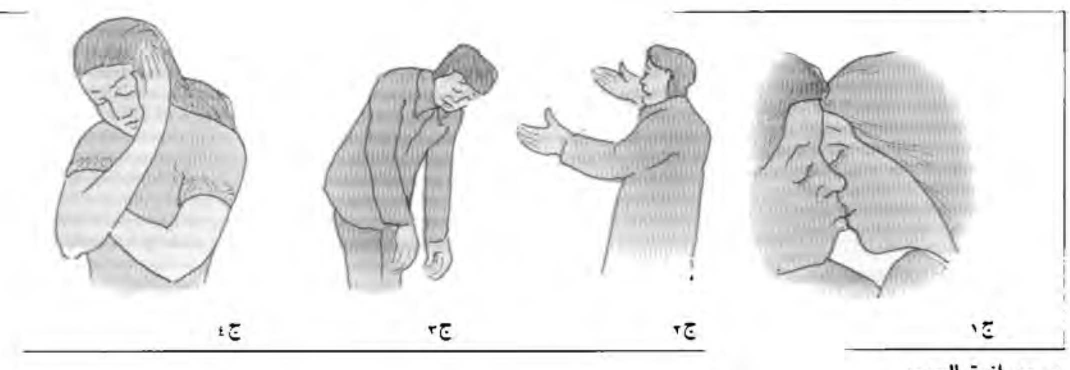
(ج٤) إن مصطلحات وحدة ألسنية تخضع باستمرار لتغير في الاستعمال والدلالة. وهذا ناشئ عن أسباب خارجية (مثل التغيرات الاجتماعية) وأسباب ملازمة للغة (اقتباس مصطلحات متخصصة من معاجم عامة تتمتع بالتفوق).



أ. بيان الفعل



ب. التعبير الجسدي



ج. مساندة الجسد



د. التشكيل الواعي

إنه لمن المهم، بل من الحيوي جدًا، عندما يلتقي كلب كلبًا آخر، أن يستكشفا النوايا المتبادلة قبل الاحتكاك المباشر.

فالخصائص السلوكية هي، إذًا، معلومات مسبقة. لكن الكثير من هذه المعلومات، كبصبصة الكلب بذنبه، مرتبط بالنوع وتنتقل وراثيًا دون أن تعبر دائمًا عن «القصد» الآني.

وهذا التصرف عند الإنسان هو «تبيان» (أي تمثيل مقصود لرسالة) كما هو «وضع حالة آنية» (أي شعور داخلي آني أو دائم يظهر بشكل لا إرادي أحيانًا).

أ. بيان الفعل

إن التعبير «غير الكلامي» لا يعني سوى إلغاء الكلام. فالاتصال غير الكلامي هو، غالبًا، واعٍ ولا يتدخل إلا عندما يكون النطق صعبًا، رزينًا أو مملًا.

كان **لاروشفوكو** يقول بصدد هذه الوظيفة القريبة من النطق:

«أعمالنا هي قوافٍ يستطيع كل إنسان أن ينظم عليها شعرًا».

يمكن لبيان الفعل:

(أ١) أن يحل محل النطق: إن تحريك الرأس، في أكثر البلدان، يعني النفي ولكنه أقل وضوحًا من «لا» الحرفية. ليس ثمة، إذًا، تطابق تام ولكن إمكانية إضافية للإتصال بالآخر من الدرجة الثانية.

(أ٢) أن يكون مرتبطًا بالكلام: إنه لمن قلة الأدب ألا تنظر إلى محدثك أثناء الحديث كما أنه ليس من المستحب أبدًا أن تحدق فيه مليًا. على النظر أن يُحدِث بعض الاختلاجات.

وقد أثبتت بعض الاختبارات أن أكثر الناس يتصرفون هكذا. تشير النقاط إلى أماكن في وجه المحدث هي أكثر استهدافًا للأنظار.

(أ٣) أن يكون فعلًا مستقلًا (في الرياضة مثلًا): لا نتظاهر فقط بمهاجمة الخصم بل ننفذ الهجوم.

(أ٤) أن يكون إشارة معيارية: فالشرطي الذي يوقف السير وجهًا لوجه لا يستطيع ذلك بقوته البدنية. فإن إشارته تحل محل سلطة يمارسها. فإذا كان عليه دائمًا أن يوقف السير بالكلام، يكون ذلك أقل اقتصادًا من الرسالة «غير الكلامية»، بعض هذه المجموعات من الكلام أصبحت مؤللة: والمضمون الحقيقي للرسالة نُسي بعظمه.

ب. التعبير الجسدي

يشمل التعبير الجسدي جداول مختلفة تمثل الحالات النفسية بشكل لاواعٍ أكثر الأحيان.

(ب١) تسهم منطقة العينين، بشكل بارز، في التعبير الجسدي. ففي الانفعال والتأثر تتمدد حدقة العين وينفرج الحاجبان مثل حالة المفاجأة والخوف.

(ب٢) يشير الفم المسترخي أو المنقبض إلى درجة التوتر الداخلي.

(ب٣) ففي أحد الاختبارات، كان على الأفراد أن يضعوا أيديهم، دون أن يُعطَوا أية تعليمات دقيقة عن ذلك، على متكأ. وكان، بين الذين وضعوا يدًا مسطحة مباعدين بين الأصابع، أفراد واثقون بأنفسهم أكثر مما بين الذين كانت يدهم مقوّسة.

ج. مساندة الجسد

إن المقصود هنا، بخلاف ما ذكر أعلاه، استخدام أكثر وعيًا للوسائل الجسدية.

(ج١) الملامسة الجسدية: فالقبلة هي وسيلة تعبير عن الحب أقوى من أي تصريح كلامي مهما كان بليغًا.

(ج٢) ولا يعني الذراعان المفتوحان فقط الرغبة في المعانقة ولكنهما «يتكلمان» عن العاطفة والحماية اللتين نريد توفيرهما.

(ج٣) والانحناء، تعبيرًا عن الاحترام، كان يعني قديمًا الملاطفة والتملق فبات يعتبر اليوم علامة خضوع مبالغ فيه. يدل هذا المثل على أن مساندة الجسد يمكن أن تتغير تبعًا للعصور.

(ج٤) ملامسة الذات في كل أشكالها التعبيرية مثل الاحتضان والملاطفة وتمرير اليد في الشعر... تعبر، في أكثر الأحيان، عن الحاجة إلى الحنان أو عن موقف «نرجسي».

د. التشكيل الواعي

إذا كانت أشكال الاتصال غير الكلامي المذكورة آنفًا لا واعية إلى حدّ ما فإن ثمة مجالًا تتكون فيه إمكانات تعبير عديدة عن وعي.

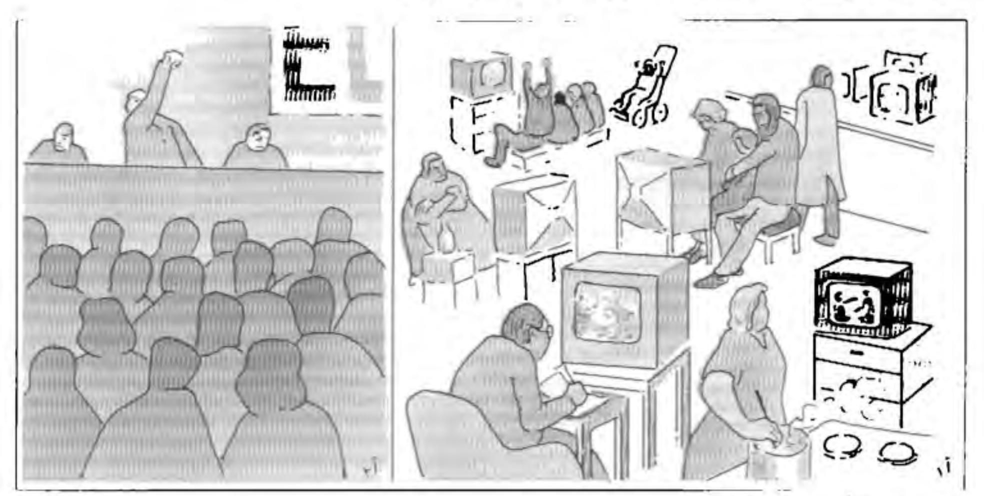
(د١) تؤسلِب رموزُ عظمةِ الملوكِ والطغاة أشخاصَهم تبعًا لأبعاد منيعة يتعذر بلوغها وذلك للتركيز على المسافة التي تفصلهم عن أتباعهم. وهذه الرموز ليست غريبة عن القادة الديمقراطيين لكنهم يستخدمونها بتباهٍ أقل.

(د٢) كانت الثياب، في كل العصور، وسيلة تعبير غير كلامي. وكانت في العصر الوسيط منظمة تنظيمًا دقيقًا في إطار شعارات الطبقات.

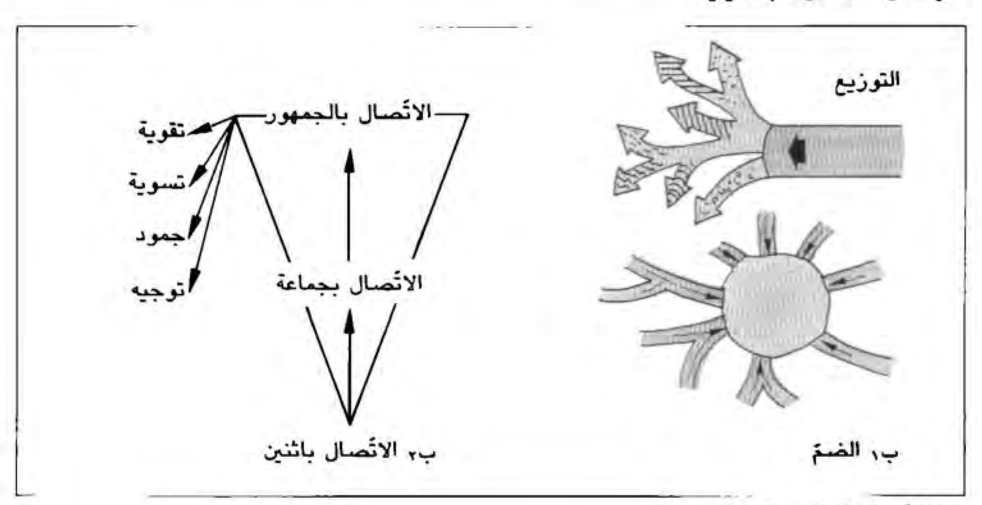
(د٣) والحُليُّ هي عنصر فريد تضاف إلى الثياب لميزتها التعبيرية.

(د٤) إن الشكل الأبرز للتعبير غير الكلامي هو الخلق الفني.

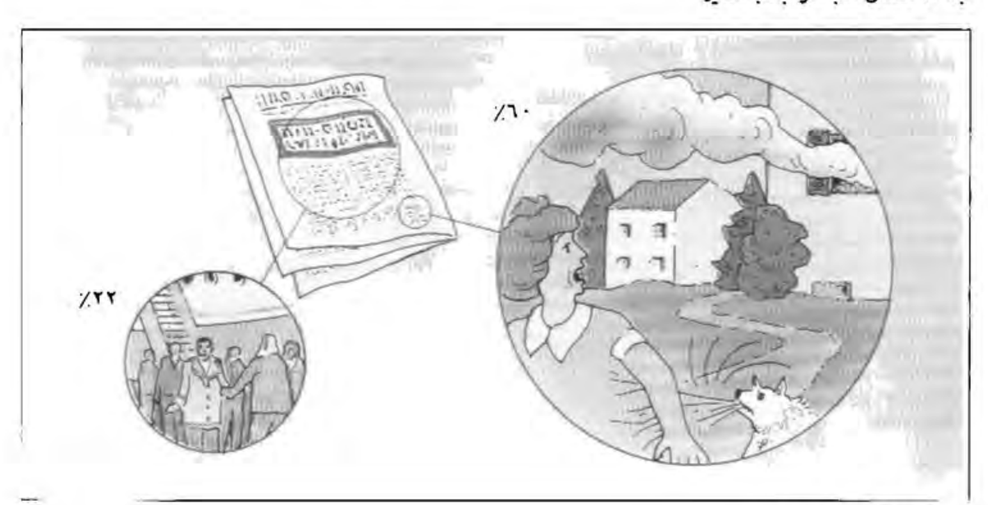
ننطلق، في نماذج أحدث وسائل الاتصال المتعددة غير الكلامية، من فهم النماذج البيئوية. وندخل أيضًا التعبير غير الكلامي للبيئة في المدن (أساليب العمارة) وفي المناظر الطبيعية (الطبيعة)، الأمر الذي يَسِمُ، دون شك، موقفنا إزاء الحياة.



أ. وسائل الاتّصال الجماهيرية



ب. الاتّصال المباشر بالجماهير



ج. الهيمنة على الجماهير

تعتبر معرفة الاتصال بالجماهير امتلاكًا «لعلم السلطة». إن من يعرف كيف يقود الجماهير ويؤثر فيها - على افتراض أنه يستغل وسائل الإعلام المناسبة - يمارس سلطة قوية، وذلك دونما حاجة إلى سلطة حكومية. ومن المهم أكثر لصاحب السلطة أن يلم بمعلومات دقيقة عن هذا الميدان.

أ. وسائل الاتصال الجماهيرية

ليس لمفهوم وسائل الاتصال الجماهيرية مدلول واحد. وكلمة جماهير يمكن أن تفهم بطريقتين.

(أ١) يتألف الجمهور، في المجال التلفازي، من مجموعة المشاهدين أو من فئات معزولة من المشاهدين (جمهور وسيط).

(أ٢) وبمقابل ذلك، في اجتماع انتخابي، يكون الجمهور على اتصال مباشر (جمهور حاضر).

تكون وسائل الإعلام، أحيانًا، كجسر يصل بين مكان الحدث والجماهير وتكون متشابهة بالنسبة إلى هذين النوعين من الجماهير (الوسيطة والحاضرة).

في حفلات الروك كما في التجمعات الحاشدة يُلجأ إلى النقل بواسطة التكنولوجيا. وفي آسيا الشرقية، وجهت لأول مرة تحركات شعبية من مسافة بعيدة بواسطة الموجات الراديوية، وزعت آلاف محطات الراديو في الجماهير المحتشدة.

لكي يستفيد المستهلك من وسائل الإعلام (الصحف، المجلات، الإذاعة، وركائز صوتية) عليه أن يدفع أولًا. والاتصال الجماهيري هو تجارة أيضًا.

وينتج عن ذلك سعي جاهد (لبعض) مالكي وسائل الاتصال لتحقيق أهدافهم التجارية. عندما يريد الناس أن يشتروا يصبح عدد المستهلكين هوالمنظم لعملية البيع والشراء. والمناسبات هي التي تنظم العرض الذي تحدده الآراء التي تبثها وسائل الاتصال المتنافسة ومراقبة الجمهور الملحة والقيود الشرعية.

وإن عرض وسائل الاتصال خاضع بالنتيجة لضغوط متغيرة.

وتأتي المظاهرات النشطة، أي «حرية صحافة المواطن» لتعادل إمبراطورية وسائل الاتصالات.

ب. الاتصال المباشر بالجماهير

ماذا «يريد» القراء والمشاهدون؟ هذا السؤال لغز دائم للصحافي (١٦، علم نفس الجماهير).

(ب١) يكمن السبب الأساسي في تغيير رغبات الجمهور في قانون كيفية الأثر: تأثير واحد يقتضي آثارًا مختلفة (توزيع). وقد يستوجب أثرٌ واحد مجموعَ عدة تأثيرات (ضم) والأثر هو دائمًا نتيجة آثار ملحقة متزامنة.

يوجد دائمًا شروط مسبقة كامنة تسهم في التفسير.

(ب٢) لا مناص من أن بعض الآثار تدهش: لقد لوحظ بعض أشكال الانحراف في طريقة عمل الاتصال أثناء الاتصالات المباشرة سواء كان ذلك بشخصين أو بجماعة أو بجمهور.

الأثر الأبرز هو تقوية تجارب الحياة الحقيقية والآراء والتطلعات.

لنأخذ، مثلًا، انتشار إشاعة: لنفترض أنه خلال ربع ساعة ينقل أحد الأشخاص خبرًا لشخصين ثم إن كلًا من هذين الشخصين ينقل الخبر إلى اثنين آخرين في مدى ربع ساعة وهكذا دواليك. ويكفي، من الناحية النظرية، ثماني ساعات لكي ينتشر الخبر في شعب بكامله **(ج. نيبز)**

ينطبق **مستوى** رسائل الجماهير على نقص الفروق الدقيقة التي تظهر. إنه لأسهل، مثلًا، نقل حدث واقعي من وضع تقرير مجرّد.

يتعلق **خمول** الجماهير بالجهود المتفاوتة لتحريكها أولضبطها.

يقوم **التوجيه** على تحديد بعض ملامح الشخصية: صفات التعاطف والتنافر، القدرة على الإيحاء بالثقة... عوامل يمكن التحكم بها بسهولة بواسطة تضييق قنوات التوجيه عند الاحتكاك بالجمهور.

ج. الهيمنة على الجمهور.

كان **ماكيافيل** (١٤٦٩-١٥٢٧) يعتقد أنه لا شيء ينال من الأمير إذا كانت الجماهير إلى جانبه. لهذا يجب أخذ بعض القوانين في الحسبان.

في أحد الاختبارات قارن (**ج. د. فيبه** ١٩٥٦) حدثًا سياسيًا هامًا، يحتل الصفحة الأولى من الصحف، بخبر لا قيمة له عن «تريكسي»، الكلب الصغير الذي أنقذ، بنباحه، فتى من الموت اختناقًا. فضّل ٦٠٪ من القراء هذا الخبر مقابل ٣٢٪ أيدوا الخبر الأساسي.

لكي يستطيع الإنسان أسر انتباه الجماهير فعليه أن يحقق عدة شروط:

إثارة المشاعر الأساسية (مباشرة العمل، الشفقة، نهاية سعيدة...)

التوجه إلى الآخر (الإيحاء بالثقة).

اختيار المُحاوِر (الأفضلية للرأي السائد).

الإفادة من علاوة أخلاقية (انطباع القيمة الأخلاقية العليا).

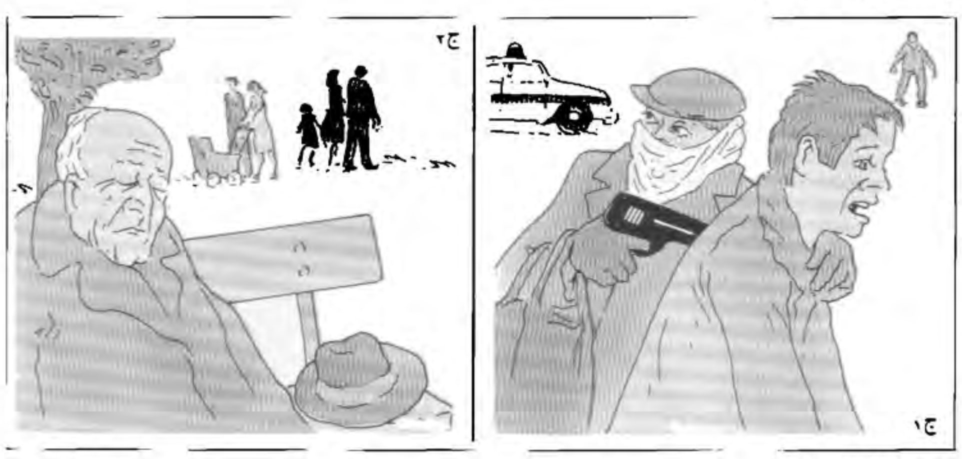
غير أن التقيد بهذه القواعد يعرّض مستوى ثقافة الشعب للخطر. يجب في كل مناسبة اختيار أحد أمرين إما «قول كلام متوقع» وإما «التكلم فوق مستوى الشعب».



أ. الاتّصال الجسدي



ب. اضطرابات علائقية



ج. اضطرابات العزلة

إن احتمالات الاضطراب، نظرًا إلى اتساع عملية الاتصال، هي متعددة: إضطراب الذات، تصرف غير ملائم، في بعض المواقف، صعوبة التكيف مع الظروف الخارجية، إضطرابات التفاعل أو العلاقة مع الشريك الأهم، أزمات عائلية، اضطرابات العزلة، خلافات في الحياة المهنية أو اليومية، اضطرابات اجتماعية تصل حتى حدود الإجرام.
سنأخذ هنا المثل عن الاطار الضيق للشخصية.

أ. الاتصال الجسدي

إن علاقة الإنسان بجسده الخاص ليست خالية من المشاكل: فهو «يتماهى» معه بشكل خاص ولكن أكثر الناس يحاولون تجاهله أو الاهتمام به اهتمامًا متزايدًا مصحوبًا بالانزعاج (وسواس). إن الاحتقار التقليدي للجسد «الكريه» يلعب دورًا لا بأس به.

(أ١) إن المنظر الخارجي، عند الشباب بشكل خاص، هو أمر حاسم بالنسبة إلى الجاذبية الشخصية التي تمارس في العلاقات الاجتماعية. ويصعب، في هذا العمر، أن يستعاض عن المظهر الخارجي بالجاذبية أكثر مما يحدث في عمر متقدم. والنساء يخضعن لضغوط اجتماعية (أقيسة القامة): وقد تبين أنهن يهتممن أكثر بمظهرهن الخارجي.

(أ٢) يقول **أ. پيك** إن الرجل يكوّن لنفسه «تصميم جسد لمدى الحياة» أي أنه يتعهد صورة لجسده الخاص لم تعد واقعية (كثيرون هم الذين يتمتعون بوزن شبه مثالي في حين أنهم يعتبرون أن لديهم مشاكل مع الوزن).

(أ٣) ثمة قطاع أوسع إلى مدى بعيد يتصل بالعلاقة الجنسية. يُذكر، بالإضافة إلى الإضطرابات الوظيفية (العجز، البرودة)، عوامل أخرى من بينها فقدان المعلومات، موانع التقارب، التوقعات الجنسية المختلفة. يتركز سوء التفاهم الجنسي بين الشريكين غالبًا، على جهل مختلف عمليات الإثارة كما على تنوع الحاجات إلى الحنان بعد الاتصال الجنسي (الجماع).

(أ٤) وفي الحياة المهنية يتناقص الاعتماد على الجسد كمرتكز للإنجازات، وتنموالحاجة إلى النشاط في التسلية بالمعدل نفسه. تبدأ الاضطرابات عند المبالغة في تقييم الطاقات الجسدية. وتلعب التحولات الناشئة عن التقدم في السن، هنا أيضًا، دورًا عظيمًا وتطرح الشيخوخة، بشكل عام، مشكلة متكررة في الاتصال الجسدي.

ب. اضطرابات علائقية

(ب١) يلفت أحد الزوجين (الجالس إلى جانب السائق) انتباه الآخر إلى خطر، فيجيب الآخر منفعلًا غاضبًا، هذا دليل على اضطراب العلاقة. وبالرغم من أنه ليس لدى السائق ما يعترض عليه بخصوص هذا التحذير فإنه يعتبره كإشارة خفية إلى عجزه أوغطرسة من الشريك. يعتمد كل ثنائي (من شريكين) على البنية التراتبية التي كثيرًا ما تتبدل. وإذا لم يتوصل الشريكان إلى التعبير عن هذه المتغيرات فإن اضطرابات علائقية تظهر حتمًا **(ب. ڤاتزلاڤيك)**.

(ب٢) يحاول **إريك بيرن**، في تحليله التصالحي، أن يحلل العادات السلوكية المكتسبة («سيناريوهات لا واعية») تبعًا لمراحل ظهورها: أنا - الطفل، أنا - الأهل، أنا - البالغ.

> إذا قال أحد الشريكين: «ألا تظن أنك تأكل كثيرًا هذه الأيام؟»
> يجيب الأنا - البالغ للآخر: «معك حق»، أو أيضًا (في الاتصال المتقاطع) الأنا - الطفل: «يجب أن تلقي عليّ دائمًا دروسًا».

(ب٣) تحيل هذه الخلافات على نظرية الصلة المزدوجة **لغريغوري بيتسون** الذي يرى هنا «سلاسل غير قابلة للحل» (نصائح تنكر هدفها):

> تقدم قميصان لأحدهما فيرتدي واحدًا، ثم يأتيه السؤال: «ألا يعجبك الآخر؟»

ج. اضطرابات العزلة

تقلق العزلة عن الآخرين التوازن النفسي أكثر من الأوامر المتناقضة وأكثر من غياب العلاقة الناشئة عن أوضاع الصلة المزدوجة.

(ج١) يمكن أن نلاحظ آثار الحرمان من الاتصال في الحالة القصوى التي هي خطف رهينة وعزلها. ففي المرحلة الأولى، مرحلة الصدمة يشعر الرهائن بأنهم تائهون ضائعون بالنسبة إلى علاقاتهم السابقة. وتلي مرحلة الصدمة، في أكثر الأحيان، محاولة مقاومة ليست موجهة دائمًا ضد الخاطف لكنها تتخذ غالبًا شكل لوم الذات أوشكل عدوانية تجاه الذات. وبعد مضي بعض الوقت ومع الشعور بلا جدوى المقاومة تأتي مرحلة الإذعان والإنهاك اللذان يعنفان على شكل أزمات تعود دفعات دفعات بعد التحرير.

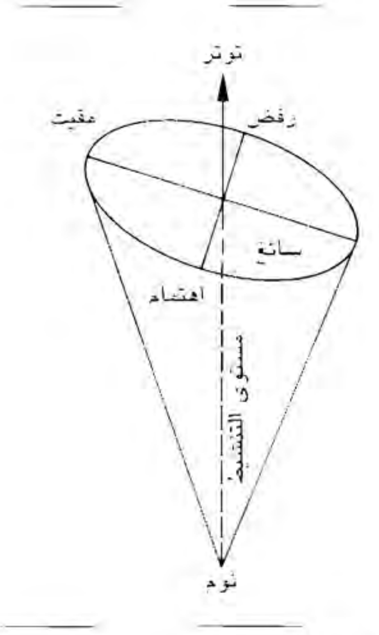
(ج٢) إن العزلة الخاصة بالشيخوخة هي أقل إثارة ودراماتيكية ولكنها ليست أقل مأساوية من عزلة الرهائن التي تتلاشى شيئًا فشيئًا.

وتشير هذه الحالات السلبية إلى كم هي العلاقة الإنسانية ضرورية لحياة نفسانية سليمة.

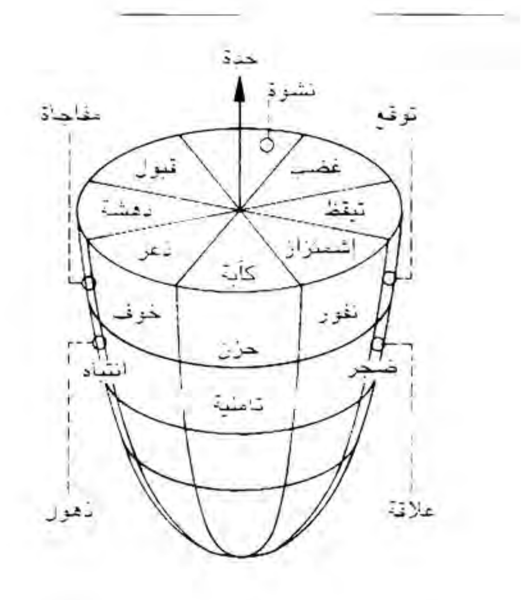
لكن اضطرابات تصرفات الاتصال تتوقف عند علاقات دقيقة بين الأفراد. ثمة أيضًا اضطرابات اتصال ضمن الوحدات الاجتماعية الأوسع: التنظيمات (اضطرابات التكيف)، السياقات (تسلية الجمهور)، الحياة العامة (كراهية الأقليات)، البيئة (جرائم ضد البيئة)، النظام القضائي (الجنوح)، المجتمع (الإرهاب).



أ. نظرية المكونات



ب. محاور بعدية



ج. تنسيق الأبعاد





د. انفعالية متوسطة

ظل الانفعال خارج مجال الأبحاث النفسية في بعض العصور. وهو اليوم في صميمها ولكن، بالرغم من هذا «المنعطف الانفعالي» **(أولر وماندل)**، لا تزال الدراسة العلمية للانفعال في بداياتها. وبرز حاليًا اتجاه عام نحو تمييز متزايد: فالانفعالات أبعد من أن تكون ظواهر متجانسة، إنها مؤلّفة من مكوّنات عدّة متغيّرة في ذاتها وفي علاقاتها.

١) من وجهة نظر الجهاز العصبي، توفّر إحدى الوظائف الأساسية للخلايا العصبية، السلسلة المتوازنة في نقل المعلومات، توفّر أساس الإثارة المناسبة الخاصة بالانفعال.

٢) تنظم مختلف المراكز العصبية، المتجاوبة مع مختلف الانفعالات، نقلًا انفعاليًا للمضامين.

٣) إن آثار هذه البنى الانفعاليةِ هي على اتصال بمناطق إعداد عليا بحيث إن الدلالاتِ المعرفية تشكّل والانفعالاتِ وحدة غير منفصمة.

أ. نظرية المكوّنات

حاول **ڤ. ڤونت**، منذ بداية الأبحاث الاختبارية، أن يعيد دفق الانفعالات إلى نظام بسيط. فاستخدم لذلك ثلاث ثنائيات متضادّة: اللذة - الامتعاض، الإثارة - السكون؛ التوتر - الحزم. لم يكن هذا الاختصار في بعض الأبعاد البسيطة (المبني على الألم واللذة) معدًّا فقط ليغطي مدى الانفعالات جميعًا. كان عليه، أيضًا، أن يوجِد ارتباطات في الدلائل الفيزيولوجية على مستوى النبض والتنفس. واستمرّ هذا التوجّه العام القائم على حصر الانفعالات في نظام أساسي حتى أيامنا هذه ولكنه لا يصمد أمام التحقق المخبري. يستحيل، فيما يخصّ الانفعالات المحسوسة، أن نميّز مثلًا بين السكون والحزم، وعلى صعيد آخر فإن انفعالات مختلفة كثيرًا بعضها عن بعض لها خصائص متشابهة، إلى حدٍّ ما، إذا أعدناها إلى الثنائيات المتضادة.

ب. محاور بعدية

حاول **ك. بورت**، منذ ١٩١٥، أن يحلّل الأحكام الانفعالية باستخدامه النظرية العاملية. لقد ميّز، علاوة على العامل العام (الانفعالية العامة)، عاملين ثنائيي القطب: المشبوب الانفعال والبليد الانفعال. والمغتبط والمكتئب (الشبيه باللذة والامتعاض عند **ڤونت**).

وقام **شلوسبيرغ** (١٩٥٢)، هذه المرة، بمحاولة جديدة لم تصل إلى أبعد ما وصل إليه **ڤونت**. ارتكزت هذه المحاولة على أرضية اختبارية جديدة تمامًا. لقد صوّر **شلوسبيرغ** نماذج تعبيرية نفّذها أحد الممثلين وحاول أن ينسّقها تبعًا لبعض الأبعاد، واضعًا هكذا نظام محاور لا يزال مستخدمًا بتكرار. وتحت صيغة (سائغ - مقيت) نجد هنا أيضًا الثنائية لذة - امتعاض. يضاف إلى ذلك مكوّن اجتماعي بصيغة تضاد (اهتمام - رفض). وبعد ثالث، هو بعد «مستوى التنشيط» يلتقي تضادّ ڤونت بين الإثارة والسكون، لكن شلوسبيرغ بدأه على مستوى أدنى: النوم.

ج. تنسيق الأبعاد

إن أشهر وصف للانفعالات حاليًا هو وصف **ر. پلوتشيك** (١٩٦٠/ ٨٠). يشكّل تصميم المقطع، في نصف كرة (مستطيلة)، «دولاب الانفعال» وهو مقسوم إلى أربعة أزواج من الانفعالات «الأولية»: الحبور - الكآبة، الالتحام - النفور؛ اليقظة - الدهشة، الغضب - الرعب.

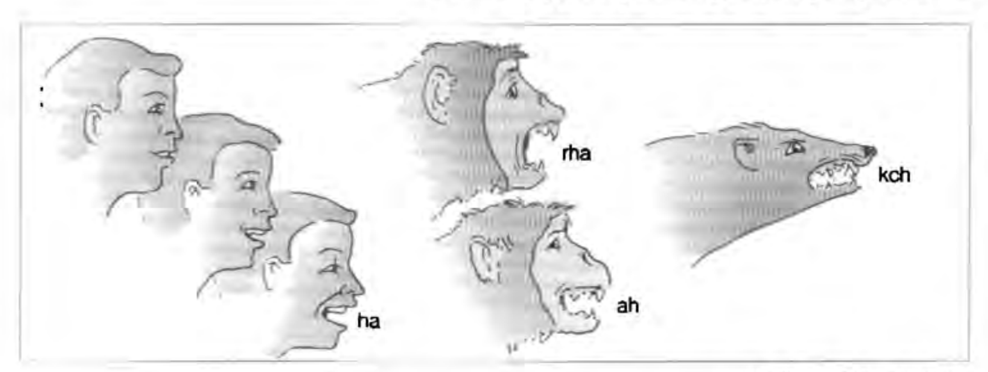
د. إنفعالية متوسطة

هل الانفعالات عابرة أم دائمة؟ إنها الأمران معًا كأكثر العمليات النفسية الأخرى، تحدّد اللحظة انفعالات تضعف بعد قليل وتتلاشى. وخلافًا لذلك، تُذْكر أيضًا، تحديدات أساسية تسم الشخصية بشكل دائم. ويوجد صلة بين هذين الشكلين: إنها الميول الانفعالية الوسطى التي تتيح القول إن شخصًا ما هو حزين أو فرح.

تمثّل كل من الصورتين ٥٠ امرأة (إلى اليسار) و٥٠ رجلًا (إلى اليمين) تمّ الحصول على هاتين الصورتين بوضع صور بعضها فوق بعض. وبالرغم من تمهيد المستوى الناشئ عن العينة ينتج عن ذلك فرق في التعبير الانفعالي. وانطلاقًا من أعمال **كاتل وشاير** (١٩٦١) **وسپيلبرغر** (١٩٦٦) **وإيزار** (١٩٧٧) أصبح بالإمكان تمييز شكلين من الظواهر الانفعالية:

الانفعالات - الحالات مثل ثورة الغضب التي لا تدوم أحيانًا سوى بعض الثواني. وانفعالات أخرى مثل الحزن يمكن أن تستمرّ أسابيع كاملة **(إيوارت** ١٩٨٣). وعندما يحدث إزمان انفعالي مرضي قوي يمكن أن نتحدّث عن اضطرابات نفسية.

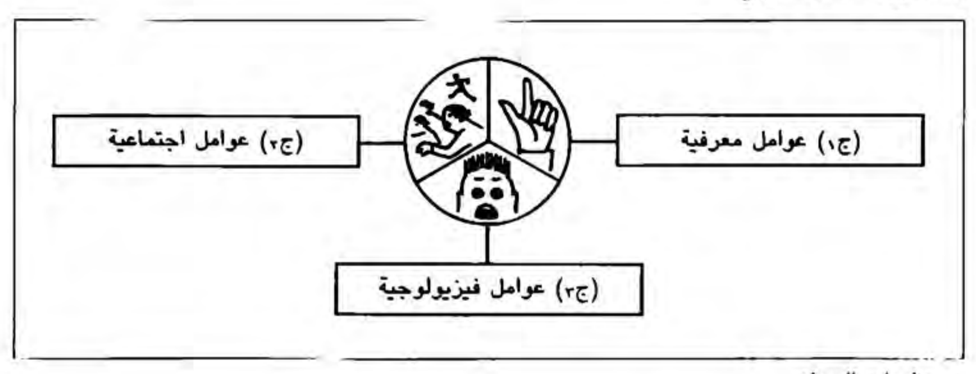
الانفعالات - السمات هي، بعكس ذلك، استعدادات انفعالية نزوعية، ما يعني أن الأشخاص المعنيين يملكون حدًّا أو عتبة أدنى بالنسبة إلى بعض الانفعالات أو أنهم يوجدون بشكل شمولي في وضع بحيث يستسلمون، أكثر الأحيان، إلى انفعالات من نمط معيّن. وتعبّر هذه النزعات فقط عن استعدادات فطرية ولكن بالأحرى عن آثار ثقافية واجتماعية. إن عددًا كبيرًا من النزعات الانفعالية هو نتيجة تدرّب اجتماعي أي أنها تصلنا من جوٍّ انفعالي مثل جو العائلة فتتحوّل لدينا نزعة انفعالية عادية. يغيّر الإنسان غالبًا بيئته الحياتية، المهنية مثلًا، مع انفعال مهيمن كل مرّة، ويتكيّف معه ببعض السهولة دون أن يدرك ذلك دائمًا.



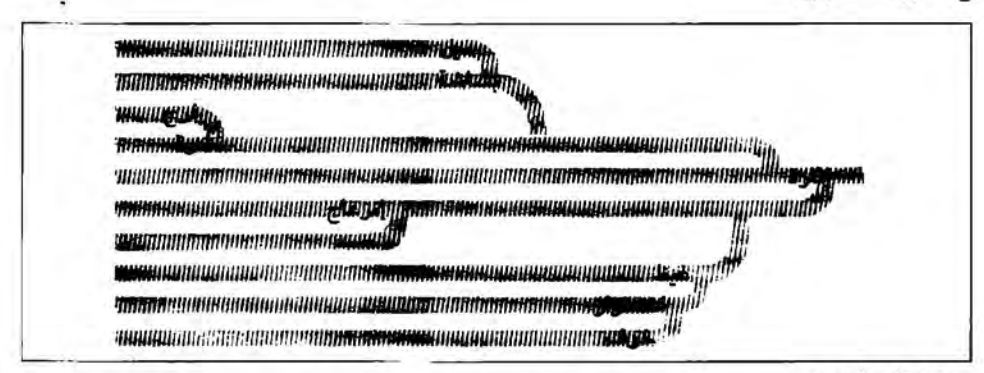
أ. نظريات النشوء والتطور



ب. نظريات الأثر الثانوي



ج. نظريات السياق



د. نظريات التمييز

كتب عالم النفس الأميركي **م.ف. ماير**، في بداية ثلاثينات القرن الماضي، مقالًا بعنوان «الحوت بين الأسماك - نظرية الانفعالات». أن موضوع الانفعال، في خمسينات القرن المذكور، سيصبح موضع سخرية كما لو كان أمرًا غريبًا من عصر ما قبل التاريخ. لم تتحقّق هذه النبوءة حتى الآن. يركّز عدد كبير من المنظّرين على الميزة الأساسية للحياة الانفعالية بالنسبة إلى جميع العمليات النفسية. وهنا يعني بوضوح أيضًا أنه يجب أن نسيطر على هذه العمليات أفضل سيطرة. هذا هو الهدف الذي تسعى نظريات الانفعالات إلى القيام به. يعدِّد **روبرت بلوتشيك** (1980) ثمانية وعشرين منها. وما يذكر منها فيما يلي يمثّل أهم النزعات.

أ. نظريات النشوء والتطوّر

يشدّد **شارل داروين** في كتابه «أصل الإنسان» (١٨٧٢) على استمرارية التعبير الانفعالي من الثدييات حتى الإنسان. واستعادت بعض الدراسات الحديثة (**فان هوف** ١٩٧٢) هذه الفكرة. ويُشتبه بوجود قرابة «بيولوجية تطورية» بين الطريقة التي تكشف بها الثدييات الدنيا عن أسنانها، الطريقة المتميّزة التي يبرز بها القرد أسنانه، والأشكال المتنوّعة التي يتّخذها التهانف والضحك والابتسام عند الإنسان (شكل أ).

والضحك عمل معدٍ على نطاق شامل وقد أصبح، من وجهة نظر النشوء والتطوّر، إعلامًا غير كلامي في غاية الدقّة. ويرى فيه **داروين** «إمكانية تعاون أكثر دقّة بين أعضاء المجتمع»، وإن صيغ التعبير الانفعالية لدى الأنواع المتطوّرة هي، بالنسبة إلى هذه النظريات، أدوات معدّة لتتصدّى لصلابة الصلة بين المثيرات ورد الفعل.

ب. نظريات الأثر الثانوي

وضع عالم النفس الأميركي **وليم جيمس** والفيزيولوجي الدانمركي **كارل لانج**، كلّ على حدة، في نهاية القرن التاسع عشر، نظرية تحمل اسميهما. ففي المثل الشهير عن الدب (شكل ب) الذي لا يزال يُستَشْهَد به في نظريات أخرى، كتب جيمس:

> «يقول الحس المشترك... صادفنا دبًّا، خفنا فنجونا... نظريتي... هي أن التحوّلات البدنية تتبع مباشرة إدراكَ واقعٍ ما»

ويستنتج من ذلك الخلاصة التالية:

> «لئن شعرنا بالحزن فذلك لأننا نبكي؛ ونغضب لأننا نَضْرِب؛ ونبدو قلقين لأننا نرتجف».

تعتبر الانفعالات هنا نتيجة عمليات فيزيولوجية. تُنتقد هذه النظرية بحجّة أن التحوّلات الفيزيولوجية أبطأ من أن نستطيع اعتبارها سببًا للانفعالات. وعوضًا عن ذلك اعتبرت (من قبل **كانن**) ظواهر ناشئة عن أسباب أخرى. كنتائج ثانوية لمواقف، وليست هذه المواقف بالضرورة مواقف اجتماعية (كالصراعات)، لكنها قد تنشأ أيضًا، كما ذكرنا أعلاه، عن إدراك تغيّرات **فيزيولوجية** في جسم الشخص بالذات.

ج. نظريات السياق

دلّل اختبار أجراه **شاختر وسنغر** (١٩٦٢) على أن عوامل فيزيولوجية واجتماعية (كما ثبت من مجموعات النظريات السابقة) وأن عوامل معرفية (شكل ج) تلعب دورًا في ظهور الانفعالات. وقد حَقَنا، على غرار باحثين قبلهما (مثل **مارانون**) أشخاصًا بمثير (أدرينالين) أو بدواء بديل (وهمي). وفضلًا عن ذلك لقد أعلما (ج١) قسمًا من أولئك الأشخاص بالنتائج الفيزيولوجية للمستحضر الذي حُقنوا به وعَرَضا بالتالي مجموعة الفئة (ج٢) لمختلف مواقف مثيرة. أدّت ردود الفعل الفيزيولوجية (ج٣) إلى انفعالات ما في حين أن الانفعالات الخاصة مثل الغضب والفرح نتجت عن عوامل أخرى (ج١، ج٢، ج٣). وهذا ما أتاح للباحث **ر.س. لازاروس** (١٩٦٨) إبراز الأحكام المعرفية. («الدب هو حيوان خطر بشكل خاص»).

د. نظريات التمييز

ترتكز هذه الفئة من النظريات على واقع أن الانفعال عند الولد يتطوّر وينضج. وقد طوّر **ك. بريدج** (١٩٣٢) نظرية التمييز التدريجي للانفعالات منذ الولادة (شكل د). واستنادًا إلى نظريته ليس عند الطفل سوى إثارة واحدة غير نوعية للنشوة كما للانزعاج اللذين يتميّزان فيما بعد. الشحنة الانفعالية البدائية الضخمة تتناقص مع الزمن. ويلاحظ عند الولد الأكبر سنًّا «تصلّب انفعاليّ تكيّفه البيئة» لا يمكن فصله عن توغّل متزايد لعناصر معرفية داخل الانفعال. ويحصل كل واحد، تبعًا لهذا النموذج من التطوّر، على كمية من الغنى الانفعالي متاحة له يمكن أن يفقدها ثانية.

حاول **بارتليت وإيزار** (١٩٧٢) أن ينظّما الانفعالات المتنوّعة بحسب قوتها ونوعها بواسطة «سلّم تميّز الانفعالات»: اهتمام، فرح، مفاجأة، غم، غضب، اشمئزاز، ازدراء، خوف، خجل، جبن، شعور بالذنب. يستحيل عمليًا تحليل هذه الغزارة من الانفعالات مع فرضيات التصنيف هذه. ويتمّ التوافق على القول إن الانفعالات هي حالات إثارة ذاتية متنوّعة المضمون متدرّجة في الزمن، سهلة الانتشار (إشعاع) متغيّرة الحِدّة. تستطيع أسباب مماثلة، تبعًا للموقف، أن تثير انفعالات متنوّعة. يتّخذ **شولر** الحدّة كمعيار مميّز فيتحدّث عن برودة الانفعال وفي الطرف المقابل عن العاصفة الانفعالية.



أ. النزوات

ب. العمق الانفعالي

ج. الخوف

د. القلق

لا شكّ أن العنصر البدني مرتبط ارتباطًا **وثيقًا** بالانفعالات. وقد كتب **أرسطو** في مقالته «عن النفس»:

«من الواضح أنه في أكثر الحالات لا تتأثّر النفس ولا تعمل إلّا إذا شاركها الجسد في ذلك: ويكون هذا أيضًا عندما تغضب وتجازف وتشتهي».

هذا أصحّ، بالنسبة إلى مجموعة الانفعالات البدنية، مما هو بالنسبة إلى الانفعالات المعرفية (٦/١٢).

أ. النزوات

وهذا ما كتبه **أرسطو**، بعد عدّة صفحات بخصوص «النفس النباتية»

«من وظائفها التكاثر والاغتذاء. إن أكثر الوظائف تجذّرًا في الطبيعة، لدى الكائن البشري، بمقدار ما هو سوي التكوين وغير مشوّه وغير متوالد ذاتيًا، هي أن يلد كائنًا يشبهه».

يمكن أن نقرأ ما يشبه ذلك في مؤلّفات **سيغموند فرويد**. بيد أن هذا الرأي لا يحظى بالإجماع، فمن جهة تتركّز الخلافات حول معرفة ما هي النزوات الأساسية: دلّت أبحاث أجريت في حالات قصوى (مثل الحجز في مخيمات الاعتقال) أنه، في حال كبت النزوات، لا يبقى سوى الجوع والعطش (أ٣) والنوم (آ٢) كحاجات أساسية (ما يعني أن النزوة الجنسية (أ١) تميل إلى التلاشي).

ومن جهة أخرى، لا نعرف، دائمًا، بالضبط، كيف تنشأ النزوات الأساسية. كان يظن، مثلًا، أن تشنّجات المعدة هي التي تطلق الإحساس بالجوع. وقد أتاحت تجارب فصل التشنّجات رفض هذه الفرضية. ويُقبل الآن (كما في نظرية **شاختر وسنغر** ١٢/٢؛ ١٣/٩، أ) الأثر الآني لإثارة فيزيولوجية (لا تنشأ دائمًا من العضو الأساس) ولوضع مثير معروف. وهذا التوافق يدعوه **بِندرا** (١٩٦٩) «الحالة المركزية للتحفيز».

ب. العمق الانفعالي

أتاحت دروس مختلفة (قام بها **سيكلاند** ١٩٦٩) قياس كمية اللبن التي رضعها الطفل تبعًا للسرعة، للغزارة (ب١). وقد أمكن، تبعًا للمثيرات المقترحة، التمييز بين فترات الجذل وفترات الملل.

جميع الكائنات البشرية عرضة لمزاج مستمرّ يتراوح بين الغبطة وما يدعى «الإرهاق الانفعالي» (**شيفر** ١٩٥٩). هناك تحوّلات لا تحصى داخل هذا الخط المتّصل. يتميّز «الشبع النفسي» (**ليڤين**) مما يدعى مثلًا «آفة الملل» (**كيركيغارد**) بردّ فعل الدفاع ضد موقف حياتي رتيب.

تعرف هاتان الحالتان وفق (عتبة الدخول في التشبّع المفرط أو في الملل) كحالة يصعب تحمّلها من الفراغ الداخلي المصحوب بالإثارة الانفعالية الآنية.

يدعو **لورش** (١٩٥٦) هذا العمق الانفعالي أو المزاج الأساسي «بالطابع النوعي للشعور بالحياة». العمق الجسدي وأوصاف المزاج هي في دائرة واحدة من النفوذ. فمن ناحية تشكّل الحالات الانفعالية الأساسية مجرى متّصلًا للمزاج الذي يصف الإنسان بأنه مرح أو كئيب. ومن ناحية أخرى فإن المواقف المتبدّلة والمواقع تبدّل بلا انقطاع هذا العمق الانفعالي، ولنا مثل على ذلك في الناس الفكِري المزاج الذين يستيقظون منزعجين (شكل ب٢). إن الكآبة كأساس «قصور في التنظيم الانفعالي» (**شميتكه** ١٩٦٥) قد شغلت اهتمام الباحثين بسبب أهميتها بالنسبة إلى جميع أنواع الاضطرابات النفسية (وخاصة معيقات العمل).

ج. الخوف

يحيلنا ارتكاس **مورو**، عند الحيوانات العليا وعند الرضع، إلى الطبع الأساسي لانفعالات الخوف: إن حركة التمسك في حالة الخطر هي عفوية (ج١، ج٢) يشعر كل إنسان، وإن بالغًا، بهذا الانقباض الداخلي كردّ فعل على الخوف. إذ يتوقّف النبض والتنفّس وحتى الوعي للحظة من اللحظات، وحالة الصدمة هي المظهر الأقصى للانفعالات العاطفية.

د. القَلَق

وللقلق أيضًا أثر يشلّ الحركة. ويظهر على الصعيد البدني في سرعة النبض وتمدّد الحدقتين، وفي تلوّي اليدين، كل ذلك يتماشى نفسيًا مع الرعب والشعور بالوقوع في مأزق لا مناص منه. يشعر الإنسان بأنه مضغوط بالقلق تحت أشكال خاصة لا عديد لها، لكن الغياب التام للقلق يصبح أيضًا خطيرًا.

بالرغم من أن القلق هو حالة سلبية، فإن الإنسان يبحث في بعض الحالات، طوعًا، عن القلق؛ يجلب بعضهم القلق لأنفسهم في أماكن التسلية كمصدر للمتعة (د٢). ويحدث أيضًا أن يتمتّع بعض الأولاد بقلقهم (د١).

إن الحالات التي يظهر فيها القلق هي على شيء من الغموض. والأسباب التي تتحكّم بحالة القلق قد تعود إلى الهموم أو إلى شعور حادّ بالتهديد. والقلق هو شعور ثانوي يصحب ردّ الفعل على الهرب كما هو أيضًا التعرّف إلى فقدان الأمل. يكون القلق نتيجة كما يكون سببًا (**شولتز – هنكِه**) وقد يؤدّي، في الحالتين، إلى أضرار دائمة («رعب مزمن») وإلى «موقف تشاؤمي» يزداد تأزّمًا مدى الحياة (**أتكنسون**). ومن أجل ذلك غدا القلق أحد الموضوعات الأكثر أهمية ومعالجة في علم نفس الانفعال.



أ. الفرح



ب. الغضب



ج. الهمّ



د. المفاجأة

تستطيع بعض المواقع أن تبدِّل ردود الفعل الانفعالية تبديلًا كاملًا.

عندما يعرج إنسان بسبب جرح في ساقه لا يثير ضحك أحد. ولكن إذا مشى شخصان جنبًا إلى جنب يعرجان بطريقة واحدة يكون ذلك مصدر سخرية. إذ يتبادر إلى الذهن أن أحدهما يقلِّد الآخر.

ثمّة أوضاع لا عديد لها تسهم في تحديد الانفعالات.

أ. الفرح

كان **فريدريك شيلر** يقول: «إن الفرح هو «شرارة إلهية»». يهبنا الشعور بالفرح حرية داخلية، يجعلنا أعظم وأكثر تألّقًا، إنه يمنحنا الدفء».

يقسَم الفرح كحدث ذاتي تبعًا لاتجاهاته المختلفة ودرجات حدّته، وهو مرتبط، كونه شعورًا بالسعادة، بالنجاحات التي أسهمنا فيها.

أكثر مطواعية وشمولية تكون حالات الابتهاج والرضى التي تسيطر علينا، عندما تجود الطبيعة علينا بلذّة عارمة. نعيش حالات متشابهة بطريقة أوفر نشاطًا إذا استسلمنا لنشاط يسلينا (مرح صاخب).

واتجاه ثالث يمكن أن يُقسَم بدوره إلى عدّة فروع. الموقف الساخر (كمثل الأعرجين) يثير الضحك. أما المُلَح والنكات فتحتاج أيضًا إلى تناقض (طباق). والدعابة هي، على نقيض ذلك، موقف أساسي متباعد ومتراخ يحتوي نفسه، إنه: «الألم الذي يسبّبه العالم ويمكن تخطّيه» **(جان بول)**.

إن المُلْحة أو بالأحرى الظَّفر يمكن أن يقتربا من الوجد، يمكن أيضًا أن يمنحا شعورًا بالفرح الخبيث الذي يلتذّ بتعاسة الآخرين. ولكن إذا استثنينا هذه التملّصات لن نعود نبالي أبدًا مبالاة كافية بالأهمية الشخصية والاجتماعية لانفعالات الفرح. يسهم الفرح بتخفيف أعباء الحياة.

ب. الغضب

الغضب نوبة جنون قصيرة **(هوراس)**. يجيِّش قوى تتيح الصمود للعوائق **(كانط)**. ولكن عندما نحصي الأضرار التي سبّبها الغضب في العلاقات الإنسانية وفي التاريخ حين يتّخذ شكل الاهتياج والعداوة نتأكّد من أنه خطر. ففي حال الغضب، عند الاصطدام، مثلًا، تغلي الدماء، يتضرّم الوجه وتتقلّص العضلات. وإذا دامت هذه الحال تصبح مصدر إجهاد يسبّب قروحًا في المعدة وارتفاعًا في ضغط الدم ومشاكل جسمية أخرى.

تختلف دوافع الغضب كثيرًا من إنسان إلى آخر. وهذا ينطبق أيضًا على عتبة سورة الغضب كما ينطبق على الذرائع. ويكون ذلك عادة نتيجة إحباط (٢/٢٠) مثل استحالة بلوغ هدف ما، وصدمات نفسية والتهديد بفقدان الشريك (الحسد)، الإهانات، المحاباة والمضايقات.

والغضب يمتّ بصلة وثيقة إلى مشكلة السلطة. وعندما تنتقص قدرتنا على الهيمنة نتعرّض لفقدان حرية نتمنى أن نزيله بطريقة تتفاوت جِدّة (تحفيز سلبي). تزال عقدة السخط تبعًا لدرجة حدّته.

ولكن بما أن رد الفعل هذا يمكن أن يسبّب ضررًا لصاحبه، يحاول علم النفس الالكلينيكي (٢٠) أن يعدّ علامات لضبط الغضب: استرخاء، برهنة عكسية معرفية عند نوبة الغضب، إعداد تأمّلات إيجابية للتصدّي لأسباب الغضب والحضّ على مراقبة الأوضاع التي تثير غضبنا بسهولة.

ج. الهم

توصي منظّمة الصحة العالمية بتوفير «راحة جسدية ونفسية واجتماعية كاملة» للإنسان. فهذا الهدف النبيل لا يمكن تحقيقه. يعتري الموقفَ الحياتي للإنسان آلامٌ وصعوبات لا مناص منها، وأوجاع وهموم وأسى. لا يستطيع أي إنسان أن يسلم منها.

أية علاقة لنا بهذه الهموم؟ يعدّ كل إنسان منا، على مدى حياته، استراتيجته الخاصة. أحدنا ييأس بسهولة، وثانٍ يقلّل من أهميتها، ويجد ثالث ما يستعيض به عنها. وآخرون يحوّلون الآلام النفسية إلى أمراض جسدية ويحاول الأكثرون أن يحقّقوا ما دعاه **فرويد** «عمل الحداد»: وهو عمل إعدادٍ نفسي للتغلّب على الآلام.

ولكن الإنسان لا يتألّم من أجل نفسه فقط بل من أجل الآخرين أيضًا. فصاحب الكلب الذي يرى كلبه يتألّم، يتألّم هو أيضًا معه.

نتألّم عندما تظهر آثار الألم. ويعترينا الهمّ حين نفكّر بآلام محتملة قادمة.

تكشف هذه الهموم عتبات الالم الفردية ودرجة الضغط التي يمارسها الالم ووضع الألم الاجتماعي (أي الطريقة التي يتفاعل بها محيطنا مع آلامنا) وما نسعى لعمله بخصوص آلامنا.

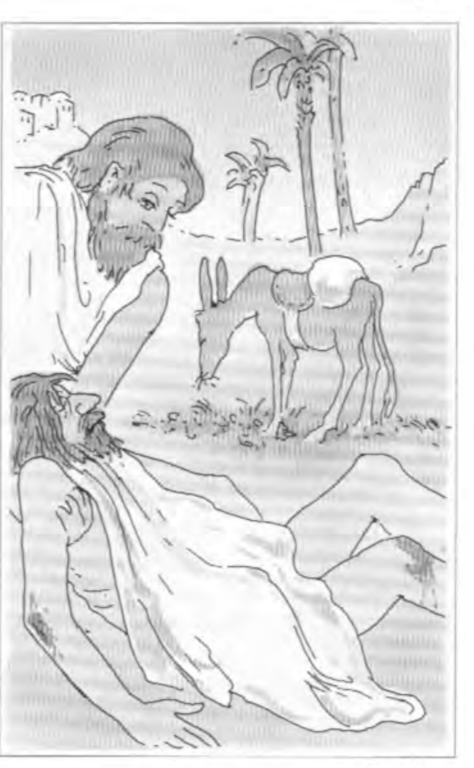
د. المفاجأة

تعني كل مفاجأة أننا نملك صورة ما عن المستقبل. يدفع هذا «التوقّع الخاص بالمستقبل» أجزاء عديدة من نسيجنا العاطفي. **(برجيوس** ١٩٥٧).

وقد تصدر المفاجأة عن أشياء مختلفة تمامًا. إن خبرًا غير متوقّع تحمله إلينا رسالة يمكن أن يسبّب لنفوسنا الغبطة أو الذهول.

يصنع الإنسان لنفسه قوقعة يحتمي فيها من المفاجآت الصاخبة ويستبق بفكره جميع الاحتمالات التي يمكن تصوّرها. تعبِّر المفاجآت عن عجز في قدرتها على التوقّع ولكنها مِلْح الحياة لأننا بدونها نعاني السأم.

أ. الحب



ب. الغيرية



ج. النفور



د. العدوان

بنت جميع الكائنات الحية العليا علاقات اجتماعية متشابكة. وتنامت مع هذه العلاقات مشاعر اجتماعية متميّزة يمكن حلّ طلاسمها بملاحظة التصرّفات الاجتماعية المعقّدة.

أ. الحب

إن الحب هو، بالنسبة إلى الكثيرين، الشعور الأساسي، لكن هذا التقييم «ينطوي على كثير من المعنى، لأن هذا الشعور هو أحد المشاعر الأكثر تمايزًا. هناك الحب الجنسي وحب القريب وحب الطبيعة وحب الأم وحب الإنسانية دون أن نتحدّث عمّا يحبه الإنسان كهاوٍ لهذا الشيء أو ذاك. لجميع أنواع الحب بعض السمات المشتركة.

الحب بمعناه العام هو شعور ترابطي يحوي مقوّمات نفسية مختلفة، بعضها ضروري والآخر كمالي حتى ولو كان مهيمنًا غالبًا (مثل الحاجات الجنسية).

ولما كان الحب شعورًا ترابطيًا فهو يعتمد على المعاملة بالمثل، ما يفترض الحنان والطيبة والإرادة الخيّرة. الانفصال إلى وحدات مختلفة يلي تكاثرًا بسيطًا بواسطة انقسام الخلية أثناء التطوّر تعوضه صلة بين الوحدات، يصبح المحبوب الآخر جزءًا لا يمكن التنازل عنه؛ إن ما يصيبه يعنينا بالقدر نفسه وأكثر.

الأساس النفسي للحب هو الثقة المتبادلة التي تنطوي على «التفاهم» ونكران الذات المتبادل. يرتكز على التجاذب. أي جذب أحد الحبيبين للآخر، ما يؤدّي إلى معرفته معرفة حقيقية ومسامحته والتغاضي عن جميع التفاصيل القبيحة.

وبما أن الحب شعور فعلي فهو قريب من الخوارق. لكن هذا الارتياح ليس سوى وقتي. يعتمد استقرار علاقة الحب على قدرة التحوّل إلى الشعور بالارتباط.

وبما أن الحب حالة زائلة، تنتقل الأولوية إلى مجموعة المصالح (**كامبوس وشْتِنْبُرغ** ١٩٨١)، إلى الأهداف المشتركة، إلى التلاقي الفكري. من هنا كان الحب، أيضًا مهمّة. وإذا أراد أحد الشريكين أن يتجاهل تلك العلاقة المشتركة يستحيل اكتمالها.

ب. الغيرية

وصف **أرسطو** هذا الموقف كشعور تجاه الآخر يسعى إلى خير هذا الآخر تحت عنوان الخير لذاته. تتيح هذه الصيغة معرفة الفرق بينها وبين التبادل البسيط للمصالح. فهي لا تتوقّع أي تعويض.

يبشر الإنجيل، في مثل السامري الصالح، بالنزاهة تجاه جميع الناس.

لكن خيبات أمل من جميع الأنواع تقصر هذا الموقف على عدد يقل أو يكثر من الناس.

ففي الصداقة تجد الغيرية تعبيرها الأكثر تردّدًا. الصداقة انسجام عاطفي ولكن هذا الانسجام لا يقوم بدوره، بالضرورة، على جميع مستويات العلاقة. إنما ما يلزمه حميمية أقل من الحب، ولكنه يتطلّب مثله من التلاحم الشخصي والتعارف والاحترام والثقة المتبادلة لبناء علاقة «طيّبة». تتجاهل الصداقة جزئيًا المصالح الخاصة لصالح خير الآخر، دون أن يجعله، من أجل ذلك، تابعًا له. إن هذه الازدواجية هي التي تؤلّف إشكالية الصداقة.

الغيرية كحسن التفات يحتّمها **ك. روجرز**، كموقف أساسي، لخبراء التداوي غير التوجيهيين (٧/٢٠): التوافق مع الآخر، التقدير، الصدق.

ج. النفور

النفور يشمل جميع الانفعالات السلبية، دون عدوانية مفتوحة (مثل الحسد وسوء النية). إنه موقف يمكن تبنّيه تجاه الأشياء والحيوان والأشخاص أو الأفكار. ويتراوح النفور، تبعًا لدرجة حدّته، ما بين الاستخفاف المبطّن والاحتقار العام.

في العلاقات بين الأشخاص، أدلّة كثيرة على «الجرح الرمزي» (**موريس** ١٩٨٢) مثل:

الأنف الشامخ (شكل ج)، اليدان المكتوفتان علامة الرفض، التثاؤب كتعبير عن الضجر بحضور الآخر، تكشيرات القرف التي تغضّن الوجه.

د. العدوان

يشكّل العدوان جزءًا من الانفعالات التي تحظى، أكثر الأحيان، بدراسات علم النفس. يوجد على الأقل ٣٧ فئة من النظريات (**بينيش** ١٩٨١) حول العدوان: ابتداءً من النظريات المقتبسة من علم نفس الحيوان حتى نظريات علم الضبط (السيبرناتية). تبرز العدوانية على عدّة مستويات (الفكر، اللغة، السلوك). وتظهر في تعابير كثيرة: لذّة خبيثة تسبّبها تعاسة الآخرين. صراخ غير لائق، شتائم ولعنات، جراحات وتدميرات مقصودة. إنتقام بارد في لحظة غير متوقّعة. نوبات غضب أعمى يسبّب تحطيم كل شيء. هذه الأضرار التي تسبّب للذات وللآخرين ليست فقط ذات طبيعة فردية: يمكن أن يؤدّي التحريض على الحقد الذي يعني جماعة كبيرة وشعوبًا، إلى حروب وإلى إبادة الجنس البشري.

من هنا يجهد علم النفس لوضع إجراءات تخفيف العدوانية، على الأقل، على الصعيد الفردي. نميّز عادةً المجالات التالية:

تحليل أوضاع العدوان النموذجية (شكل د)، ملاحظات تعنى بالسلوك الذي يلطف العدوان (وضع المصالح الخاصة جانبًا)، التنفيس. إعداد تقنيات تتيح حل المسائل (٩/١٠) البحث عن إمكانيات التمرّس بسلوك لمصلحة المجتمع.

أ. المصلحة



ب. الرجاء



ج. الاحاسيس الجمالية



د. المشاعر الدينية

تشير المشاعر المعرفية إلى أي حدّ تختلط الانفعالات بالعمليات النفسية. تؤوّل المكونات الداخلية وتدمج بالارتباطات الفكرية والإيديولوجية من أعلى مستوى. أو كما يقول **جورج برنارد شو**:

«إن الشعور هو الذي يحث الإنسان على التفكير وليست الفكرة هي التي تدفع إلى الشعور».

أ. المصلحة

لمفهوم المصلحة أو الفائدة أو الاهتمام (Interesse) تاريخ طريف فهي عبارة لاتينية «بمعنى الوجود في أو بين» إلى مفهوم الأهمية بالنسبة إلى إنسان ما مرورًا بالمعنى القديم للخطأ، فمعنى الضرر فالتعويض المعطى إصلاحًا للضرر.

ويُدخِل أدب علم النفس الحالي مفهومًا نفسيًّا فيزيولوجيًّا في مفهوم المصلحة، وأوضح **پافلوف**، مع مفهوم «ارتكاس التوجّه»، الأساس الفطري للمصلحة. يتيح هذا التاريخ المعقّد تفسير لماذا يستخدم هذا المفهوم دون تجانس كبير رغم أهميته الأساسية. وقد استخدمه **هــب. وأ.ك. إنغلش**، مثلًا، بمعنى «إحساس بالدلالة: إحساس لذيذ يصحب نشاطًا يبلغ هدفه دون عائق».

نميّز في الاستعمال الحالي ثلاثة أنواع من التأويلات:

محسوسة: طاقة على الانتباه المركّز، اكتشاف الانجذاب، الفضول، الرغبة في المعرفة.

تأويلية: التكيّف مع الحقيقة النوعية لمجالات محدّدة (في مادة المصادر الثقافية)، قيم غيرية، افضليات، هوايات

إرادية: التزام، طموح، غيرة، ولع بنشاط ما، رغبة في الكسب.

إن أهمية هذا المفهوم، حاليًّا، بالنسبة إلى نمو الشخصية، تأتي في المكان الأول. عندما يكون الولد فضوليًّا، يصار إلى تشجيع «سلوكه الاستكشافي» (**برلين**، ١٩٧٤).

ب. الرجاء

قال **أرسطو**: «الحاضر هو موضوع الإدراك والمستقبل هو موضوع الرجاء».

لما كان الإنسان على علاقة حتمية بالمستقبل يعتبر الرجاء انفعالًا أساسيًّا. يمثّل الرجاء الضمانة والثقة بالنفس والقدرة على تحديد الأهداف والنزوع التفاؤلي والتشوّق إلى المستقبل وهو، بالنسبة إلى الفيلسوف **إرنست بلوخ**، مؤلّف «مبدأ الرجاء»، «اليوطوبيا بما هي عملية محسوسة».

ولكن الرجاء، أيضًا، يمكن أن يلقيك في الأوهام. فتُخلي التوقّعاتُ الحقيقية مكانَها لأرض النعيم الوهمية. ولكن في الأوضاع التي يصعب تحمّلها (كالسجن مثلًا) يحتاج الإنسان إلى أمل وعليه أن يتحمّل العيش مع مشاعر الرجاء.

ج. الأحاسيس الجمالية

ينطلق انطباع الرضى، الذي تثيره الأشياء وعلاقات العظمة والمكان والأشكال وعلاقات الالوان... من التمتّع المباشر «بالتفهم» العقلي الذي يتّفق مع الشعور بأهمية العمل الفني (هنا، أمام تمثال نفرتيتي). تتعلّق الأحكام الجمالية، إلى أقصى حدّ، بذوق العصر وتتبدّل كثير التبدّل مع الزمن. إن ما كان يعتبر قبيحًا منذ ٨٠ سنة ربما أصبح اليوم جميلًا.

يجب ألا ننسى أن الأحكام، في المجال الجمالي أكثر من أي مجال آخر، تخضع تكرارًا للأعراف المقرّرة السائدة. والكثير من هذه الأحكام تنشأ من إنكار الانطباعات الجمالية الفعلية. تلعب العادة، في هذا السياق، دورًا مهمًا.

عندما نصغي، تكرارًا، إلى معزوفة موسيقية غير عادية، نتعرّف إلى بنيتها، ونفهمها أكثر فأكثر ونندمج فيها وينتهي بنا الأمر إلى ارتضائها.

د. المشاعر الدينية

يقول **غوته** على لسان **فاوست**: «أُدعُ هذا كما تشاء، أدعُه سعادة! قلبًا! حبًّا! إلهًا! ليس عندي كلمة تقول هذا! فالشعور هو كل شيء؛ وليس الإسم سوى ضجيج ودخان...»

إن المشاعر الدينية هي تجارب روحانية (معرفية بالتالي) تتغيّر خصائصها بحسب الموضوع المركزي للدين والمرجعية الشخصية. وإن الصلاة، بالنسبة إلى الكثيرين من الذين يؤمنون بإله شخصي، هي علاقة عاطفية، شعور بالارتباط، يتراوح بين استسلام الأطفال والاتصال المباشر بالمطلق. فالديانات التي لا تصوِّر الاله مثل الهينايانا البوذية لم تستطع الصمود، في هذا الشكل الباطني، تجاه جماهير المؤمنين، وحلّ محلّها، في الماهايانا البوذية، صفات تنسب إلى الجلالة القدسية.

يرى **سپينوزا** أن مشاعر الحب والفرح هي في صميم الإقرار بالإيمان:

«إن الحب الذي نمحضه لشيء خالد لا نهائي يغذّي النفس بهذا الفرح الحقيقي الوحيد وهو خال من أي نوع من الأحزان».

تعزِّز الديانات العديدة القائمة، ذات المضامين الكثيرة التنوّع ومن بينها ما كان من الحياة الأخلاقية، تعزِّز تجارب الاتصال بالمطلق:

بتمثيلها الفرح السماوي والخوف من عذابات جهنم، والتحدّث عن مصير الإنسان والأمل في الخلاص في الحياة الثانية والتخلّص من مآسي هذا العالم ووضع حدّ للخوف من الموت والأمل في عدالة لا توجد، كما يبدو، على هذه الأرض. أفادت هذه النماذج في كثير من التصوّرات الأخرى لهذا العالم العارية من المرجعيات المفارقة.



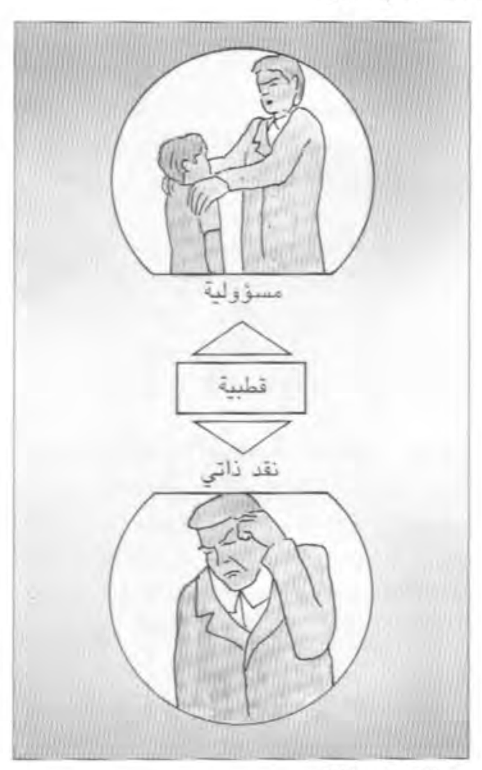
أ. الحياء/الخجل

تحديد خاص

احترام الذات

تقييم الآخر

ب. احترام الذات



ج. الشعور بالذنب



د. المشاعر الأخلاقية

هذا الجزء من جدول الانفعالات هو تأمّلي. لا يعيش الإنسان فقط مشاعره لكنه يحاول باستمرار أن يعيد النظر فيها، أن يعدّلها: أن يعطي زخمًا أكبر لما كان منها ضعيفًا ويلطف ما تجاوز الحدّ ويستبدل «أحلامًا جميلة» بما ثقل عليه منها. إن هذه المواجهة هي بحدّ ذاتها ذات طبيعة انفعالية. ولكنها انفعالية تأمّلية أي ترتكز أوّلًا على اختبار الذات بالغوص في صميم التجربة المعيشة. تنطلق الانفعالات التأمّلية، تبعًا لحدّة العمل الذي تنجزه، من التوقّع البسيط لرؤية ما إذا كان الشعور يضعف، حتى «الانخطاف الداخلي» (**و. ماسًا**) أي الانخطاف المتّجه نحو الداخل. تسهم الانفعالية التأمّلية، أكثر من الانفعالات الحالية بإغناء الانفعال، أو كما يعبّر **ك.ف. فون فايتساكر** بالنسبة إلى جميع الانفعالات، تسهم في إيجاد «تحوّل لطبيعة الوعي».

أ. الحياء/ الخجل

الحياء هو الانفعال النموذجي الذي يلامس الكمال الأخلاقي، وعندما نقول عن أحد إنه عديم الحياء، نقصد بذلك أنه لا يبدر منه أيّ تحفّظ سواء من الناحية المادية أو الروحية أو الأخلاقية. يتبدّى الحياء ماديًا بموقف متّجه نحو الداخل: طأطأة الرأس، غض النظر، حركات تسترية. يقول **إيزار** (١٩٨١) عن الخجل إنه «حارس حرمة الذات». عندما يعبّر أحد عن حياء فذلك يعني أنه يشعر «بعري» مادي أو روحاني كلطخة على الصورة التي يكوّنها عن ذاته، كتهديد بالنجاسة ويحدث في مواقف مرتبكة، أو حتى في تذكّر مثل هذه المواقف، أن يُبدي الحيي تكشيرة دفاعية. فليست مشاعر الخجل، إذًا، حالية فقط، فمنها المكبوت ومنها المكتسب بالتدرّب. وثمّة علاقة سرية بين الشعور بالحياء واحمرار الوجنتين. وكان **داروين** قد لاحظ لدى الأشخاص الذين اعتادوا الظهور عاري الجذوع أن ليس الوجه وحده يحمرّ بل كل الجزء الظاهر للعيان من الجسم. والمديح أيضًا، إلى جانب المواقف المحرجة، يسبّب الاحمرار. ويجب البحث عن سبب ذلك، في الخوف من الإفراط في التقدير، أي في الخجل. وقد استنتج **زيمباردو وبيكونيس ونوروود** أن ٨٢٪ من الأشخاص الذين استجوبوهم قالوا إنهم كانوا يشعرون بالخجل في لحظة من اللحظات. الخجل المفرط معتبر كدليل على انهيارية مقنّعة.

ويعتبر، عادة، أن عمل مشاعر الخجل هو حماية الذات، بل حتى التعويض عن استعرائية خفية، وحفظ طاقة الإغراء الجنسي والتنظيم الاجتماعي كونه احترامًا لكمال الآخرين.

ب. احترام الذات

تلعب مشاعر احترام الذات دورًا أساسيًا تنظيميًا في سلوك الناس، ما يجعل منها عنصرًا هامًا في جو العلاقات الإنسانية. يتجاوب الناس مع مجال نوعي أي في مجالات حياتية كثيرة، مثل الرياضة، حيث تكون رتبتهم أقلّ أهمية في نظرهم من أي شيء آخر مثل المجال المهني (النفوذ، تقدير المجتمع).

إن مشاعر احترام الذات هي عادة نتيجة ثلاث عمليات تقييم:

> يمثل التحديد الخاص كل ما نشعر بأننا مرتبطون به أخلاقيًا ويشكّل، إلى حدّ ما، الخط الأساسي لمشاعر احترام الذات. ونحن، في تقدير الذات (**ديتس** ١٩٥٩)، انتقاد لذواتنا الخاصة على أساس معايير نصفها نحن بأنفسنا، وينبئنا تقييم الآخر لنا عمّا نخلّفه لدى هذا الآخر.

ويلاحظ هذا التقييم الأخير في أدقّ تفاصيله ويبالغ كثيرًا في تقديره. ويحدث غالبًا أننا نعيد تأويل أو نتحاشى الأنباء المهدّدة. لا شكّ أن هذا العمل التقييمي المستمرّ ناشئ عن أن حركة مجتمعنا تخلق غموضًا تراتبيًا يجب توضيحه. إن تغيير الموقع التراتبي بين فئات الناس (كما بين النساء) يحرّك مشاعر تقييم الذات التي تعتبر منبئة أساسية بقابلية تأثّر الأفراد (**نيسبت وغوردن** ١٩٦٧).

ج. الشعور بالذنب

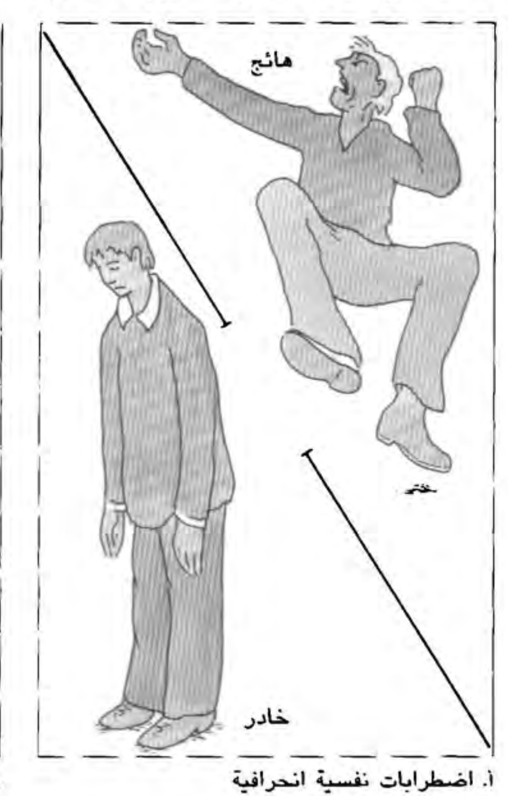
يلي الشعورُ بالذنب ردَّ فعل سيئ أو التخلّي عن الواجب أو عملًا قبيحًا. لكي يتمّ الشعور بالذنب يجب، من جهة، أن يوجد شعور بالمسؤولية الثابتة، ومن جهة أخرى تستوجب هذه القطبية نقدًا ذاتيًا يبرز تحت شكل تأنيب الضمير وضرورة التكفير.

ويُعتبر أن عوامل الإطلاق يمكن أن تكون أيضًا دوافع فطرية مكتسبة أو معرفية يوجّهها الضمير.

ويشير **رولو ماي** (١٩٦٠)، من جهة المحتوى، إلى الدوافع التالية: رفض الممكنات، استحالة التماهي، كليًا، مع الآخر والتفاوت بين الحياة الطبيعية والحياة المدنية.

د. المشاعر الأخلاقية

تتطلّب المشاعر الأخلاقية انفعالات تأمّلية ذات أسس عقائدية. يتعلّق الشعور بالخطأ، لدى الطفل، إلى حد كبير، بكمية الشعور بالألم. والأخلاق، تحتاج إلى قانون. تضخّم المسيحية التبعية للخطأ متأثّرة بفكرة الخطيئة الأصلية، إلى درجة أنه، حتى في غياب الخطيئة الفعلية، تكون التبعية الأخلاقية مفقودة. إن بناء «ضمير» (أخلاقي) هو، حتى، بالنسبة إلى تصوّرات أخرى للعالم، افتراض ضروري للسلوك الأخلاقي (**هوغن** ١٩٧٣). وإن الضمير (الأخلاقي) هو، من وجهة نظر علم النفس، مقاومة باطنية للتجارب الإغوائية (**ماهر**، ١٩٦٦).



أ. اضطرابات نفسية انحرافية

رهاب

عصاب قسري

هستيريا

ذهان هذياني (عُظام)

ب. اضطرابات عصابية



ج. اضطرابات مرضية اجتماعية



د. الاكتئابية

إن الإنسان المفعم بالأحاسيس يعيش في العالم بزخم أكبر. والوجه الآخر لهذه الحسنة هو حساسية حادّة. **تؤدّي** هذه الحساسية إلى اضطراب نفسي كما قد تؤدّي إلى خلاف ذلك، إلى اللامبالاة العاطفية والكبت العاطفي. توضح الأنماط الأربعة التالية وأمثلتها مدى اتّساع علم الأمراض هذا.

أ. اضطرابات نفسية انحرافية

في حالة المشاعر المنحرفة (الباراتيميا)، تتّجه الخاصّة الشاذة للانفعال في اتجاهين: الهائج والخادر.

تميل المشاعر كونها «تجربة معيشة من النوبات وتحول المزاج»، عادة، إلى أن تستحيل تفجّرات عاطفية. ولكن عندما تظهر بشكل تراكمي اهتياجي أكثر ديمومة يمكن التحدّث عندئذٍ عن اضطرابات المشاعر. تشاهد في ذهانات المساجين ثورات غضب اهتياجية تصل حتى القتل.

نفهم بالسلوك الاهتياجي الطبع المقاتل الصاخب الشتّام العنيف. ويلاحظ، في الجهة المقابلة، الطبع الخادر النازع إلى حالات القلق والاكتئاب المفرط الحساسية، فهو بكلمة واحدة يمثّل تجسيدًا لاضطراب الفكر. والسوداوي الطبع هو الذي يتميّز بحساسية مفرطة وينفعل بقلق عارم.

ومن أشكال الاضطرابات العاطفية المتطرّفة، الاستجابة الانفعالية المنخفضة وتسمّى أيضًا الخدر الانفعالي ومنها الانفعالية المفرطة (العاصفة الانفعالية كالتشنّج العاطفي لدى مدمني الكحول). ويتمّ الانتقال من حالة الاهتياج إلى حالة الخدر في السلوك الدوراني الذي يتميّز بالتناوب بين هذين القطبين خاصة في التناذر الهوسي – الاكتئابي الثنائي القطب.

ب. اضطرابات عصابية

الرهاب هو ردّ فعل قلق غير عقلاني يتميّز ببعض العوارض مثل حالات الذعر وتصبّب العرق الغزير والضيق والإحساس بالخوَر. ويرى الشخص المصاب بالرهاب غالبًا أن هذه المخاوف غير مبرّرة ولا أساس لها. لكنه عاجز عن التخلّص منها.

وتناذر العصاب القسري أو العصاب الاستحواذي الذي يتميّز بأن المريض لا يتوصّل إلى التخلّص من بعض الأفكار أو ردّات الفعل التي تؤذيه: فالمدقّق في التفاصيل، مثلًا، يئن من استحواذ النظام، والمدغور مصاب بهوس السرقة والمهووس بإشعال النار.

وكانت الهستيريا معتبرة، منذ العصور القديمة، اضطرابًا عاطفيًا، لكن التاريخ الطويل لهذه الكلمة لم يسهم كثيرًا في إيضاحها. فثمّة مجال، من وجهة النظر العاطفية، أن نشير إلى بعض الخصائص التالية: عدم الاستقرار، اهتياج المشاعر، النزوع إلى المغامرة، تحوّل الألم النفساني إلى علّة بدنية.

تعتبر البارانويا أو العُظام مفهومًا عامًّا يشمل ردود فعل جنونية كأن يتخيّل المصاب أنه مضطهد وأنه مظلوم ومخدوع، دائمًا.

ج. اضطرابات مرضية اجتماعية

حُدّدت اضطرابات الأمراض الاجتماعية في بيان التصنيف العالمي للأمراض الذي وضعته منظّمة الصحة العالمية كما يلي:

> «اضطرابات في الشخصية مصحوبة بعدم احترام الالتزامات الاجتماعية وبعدم الشعور مع الآخرين وبعدوانية لا حدود لها وبلا مبالاة مشحونة بالقساوة».

تُصنّف هذه الاضطرابات في ثلاث فئات:

تجاه الشركاء المنعزلين وتجاه الجماعات وتجاه الجماهير. وهي تشمل، بصفتها اضطرابات تفاعلية أو علائقية، الأشكال المغالية من الاضطرابات التي تمسّ الطبقة الاجتماعية والدور الاجتماعي (صراعات الهيمنة)؛ كما تشمل اضطرابات الاحتكاك (البحث الواعي عن الصراع أو التحاشي المنهجي للصراعات). وتتركّز الاضطرابات المتّصلة بالجماعات وبالجماهير أي بالمجتمع حول عدم احترام القوانين الاجتماعية: استغلال الجماعات وتحطيمها، جنوحية وإجرام.

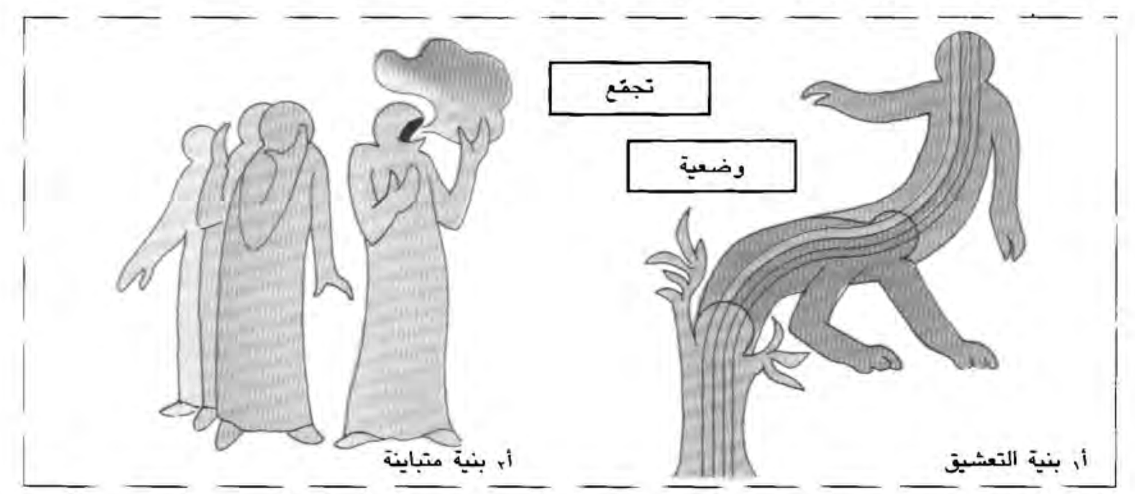
د. الاكتئابية

يشمل المفهوم العام للاكتئابية تنوّعًا لا حدود له من أشكال الاكتئاب بدءًا بالاكتئاب الداخلي أو السويداء وصولًا إلى الحالات التفاعلية مثل فقدان زوج أو عزيز. وصف **دورنر** وپلوغ (١٩٧٨) موقف المكتئب أو المحبط «كما نجد ذلك في الكتب»: سجنة صارمة، فراغ وقلق داخليان معًا، وانهيار جسدي.

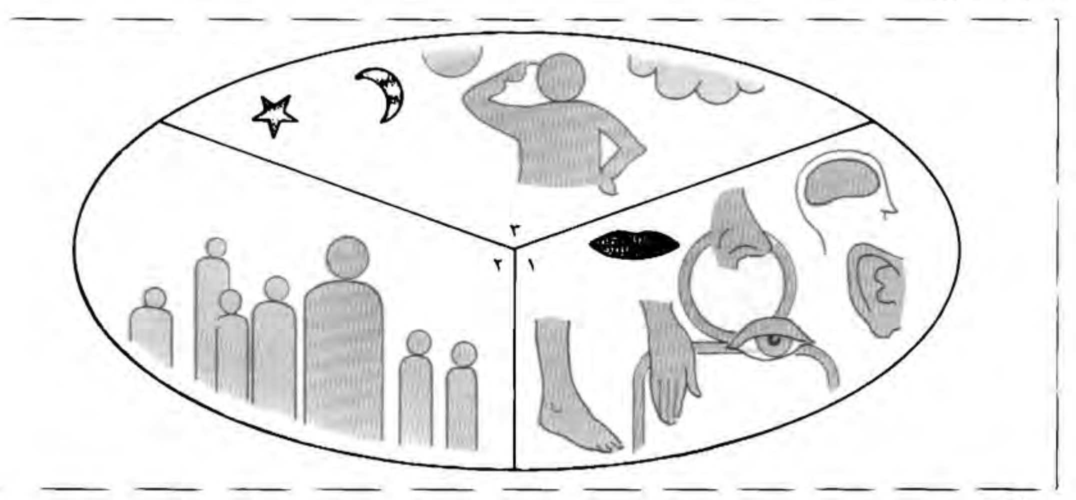
يقول **وودراف وغودوين وغوتسه** (١٩٧٤) إن ٥٪ من الرجال و١٠٪ من النساء عرفوا حالة اكتئابية مرة واحدة على الأقل في حياتهم. ويقول **أ.ت. بك** (١٩٨١) إن المكتئب يبدي ثلاث طرق سلبية من الرؤية: رؤية نفسه ورؤية محيطه ورؤية المستقبل ويعبّر هذا الموقف، بحسب **م.إ. سليغمان** (١٩٧٩)، أول ما يعبّر، عن «ضيق مكتسب» يكون كل ردّ فعل ناشئ عنه، عبثيًا.

> يروي الكثيرون من الاكتئابيين أنهم يشعرون بعدم جدواهم وأنهم متحجّرون: لا يستطيعون حتى أن يكونوا حزانى؛ ويدور فكرهم ويدور ويضيع في الماحكات؛ وإن الاهتمام الذي يبديه الأهل يذهب هدرًا؛ وإنهم يشعرون بأنهم في منتهى الإرهاق والمرض.

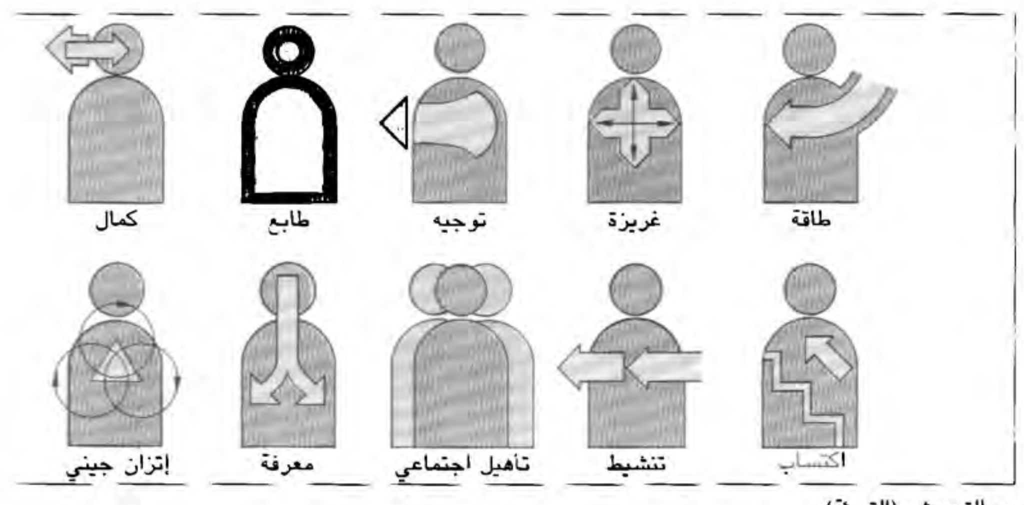
يعبّر الاضطراب العاطفي المأساوي والتفكير الذي يفرضه عن أهمية الانفعالات في المجال النفسي عامة. وإذا أهمل الإنسان مشاعره يجد نفسه عاجزًا عن الغوص في خضم الحياة.



أ. البنية الفردية



ب. التفرّد



ج. التجييش (التعبئة)

جاء في دراسة أميركية قديمة في موضوع علم النفس (**كلوكهوهن، موراي** ١٩٤٨) ما معناه:

يشبه كل إنسان من جهة ما جميع الناس وهو جزئيًا مثل البعض منهم ولكنه أيضًا ليس مثل أي إنسان آخر.

عولجت أكثر فصول علم النفس، هنا، من منظور عام، بيد أن **علم نفس الشخصية**، يتركز على خصائص الأفراد.

ما الذي يحدّد هذه الخصائص؟

تستحيل الإجابة، بصورة شاملة، عن هذا السؤال الذي هو، بالرغم من كل شيء، في غاية البساطة. للإنسان تاريخ فردي يرتكز على أساس بيولوجي من ٦٠ بليون خلية وعلى بيئة مؤثّراتها لا نهاية لها، وهو مؤلّف من كمية من التحوّلات لا تعدّ ولا تحصى.

على البحث أن يصفّي هذه الكتلة من التغيّرات التي يستحيل تحديدها. يُستكشف الفرد تبعًا لوجهات نظر محدّدة. تستشفّ تعقيداته، تقترح نظريات وتبرهن. فينتج عن ذلك تنوّع من الاحتمالات، يوقع في حيرة. غير أن جميع هذه **التصوّرات التي تكوّنت عن الشخصية** على مدى تاريخ علم النفس لا تستطيع إلّا أن تجيب، ولو جزئيًا، عن الأسئلة الثلاثة الأساسية التالية.

أ. البنية الفردية

بالرغم من أن الإنسان هو «فرد» (أي كائن لا يتجزّأ) فلا يشكّ أحد، منذ أقدم العصور، في أنه يتكوّن من عناصر نفسية مختلفة. ونحن، في ذلك، أمام اتجاهين أساسيين.

(أ١) يحاول البعض إقامة **بنية تعشيق**. ويميّزون، على طريقة **أرسطو**، عدّة «درجات نفسية»:

النفس النباتية (النبات)

النفس الحاسّة (الحيوان)

النفس العاقلة: تعيش الروح أو النفس، عند **هوميروس**، بعد الموت، في ذاكرة الأحياء على صورة نفس كوكبية.

(أ٢) وينطلق البعض الآخر من الوحدة الفردية، لكن يقابلونها، على شكل **بنية متباينة** (في كوكبات)، «بأنماط» مختلفة لأفراد آخرين. وهكذا، لقد ذكر **تيوفراست** خليفة **أرسطو** في الليسية، ثلاثين نمطًا مثل وصفه الشهير للمتبجح (فصل ٣/٢). واليوم، استنادًا إلى **هرمان** (١٩٨٥) توجد هاتان الفئتان عند منظّري الخصائص وعند منظّري المواقف.

ب. التفرد

السؤال التاريخي الثاني هو التالي:

بمَ ترتبط الحياة النفسية؟

وهذا التساؤل حول الشروط الأساسية للفرد تشغل الإنسان منذ زمن طويل. كان علم النفس القديم يعتبر الكائن البشري هدفًا للقدر، صورة لله، أحد مقوّمات الطبيعة... تفكّكت صور الإنسان هذه، منذ مطلع العصور الحديثة، إلى سلسلة من «الطبائع». وكان علم الطبائع، في بداياته، يحاول أن يحدّد طبيعة الإنسان. ويعتقد، حاليًا، أن هذا الهدف لا يمكن بلوغه. وتُبحث الشبكة العلائقية للفرد كنظام جسم - بيئة (مستقرّ - متقلّب). من هنا يخضع الإنسان لثلاث تبعيات أساسية.

(١) تبعيته العضوية تجعل منه ممثّلًا لجسميّتة الفردية

(٢) تبعيته الاجتماعية تُخضِعه لتأثير مستمرّ من بيئته القريبة والبعيدة

(٣) تفسّر تبعيته بالنسبة إلى المبدأ الموجّه بطرق مختلفة: كتبعية بالنسبة إلى الأنا أو إلى القوى المتعالية أو إلى تطوّر الذات وإلى الطريقة التي يهيمن بها على الحياة وعلى الصراعات.

وينتج عن ذلك، فيما يخصّ البحث حول الشخصية، ثلاثة مستويات نوعية للفرد (فصل ١٣/٦، ٧).

فرادته (وحدانيته النفسية)

المطابقة (الثبات في التغيّر)

الكرامة (عنصر قيمي)

على هذه الصفات الثلاث أن تعكس تنوع الطبقات كما تعكس وحدة الإنسان.

ج. التجييش (التعبئة)

يمتّ السؤال الثالث، بشكل عام بصلة إلى «تحريك» **القوى** الإنسانية. عبثًا نحاول ردّ الإنسان إلى مبدأ التجييش. هذه المفاهيم التالية تتكامل فيما هي تتنافس إلى حدٍّ ما.

(١) الطاقة (قوة نفسية أساسية، «قوة الأنا»)

(٢) الغريزة (تجييشات وراثية، منها «دوافع» لا واعية)

(٣) التوجيه (انتباه ارتكاسي تجاه البيئة)

(٤) الطابع (استعداد وراثي لردّات فعل خلال بعض المراحل «الحساسة».

(٥) الكمال (في القديم: اتجاه نحو غاية؛ اليوم: تحقيق الذات).

(٦) الاكتساب (التعلّم مدى الحياة)

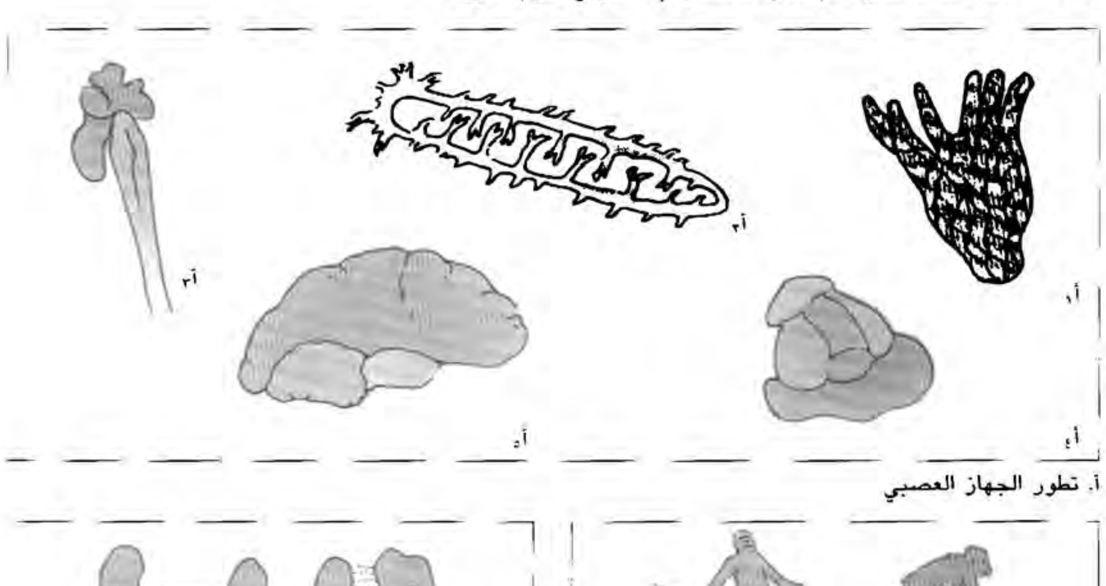
(٧) التنشيط (أكثر النظريات تنوّعًا)

(٨) التأهيل الاجتماعي (تعوّد غير مُدْرَك في نسيج الاتصالات الاجتماعية)

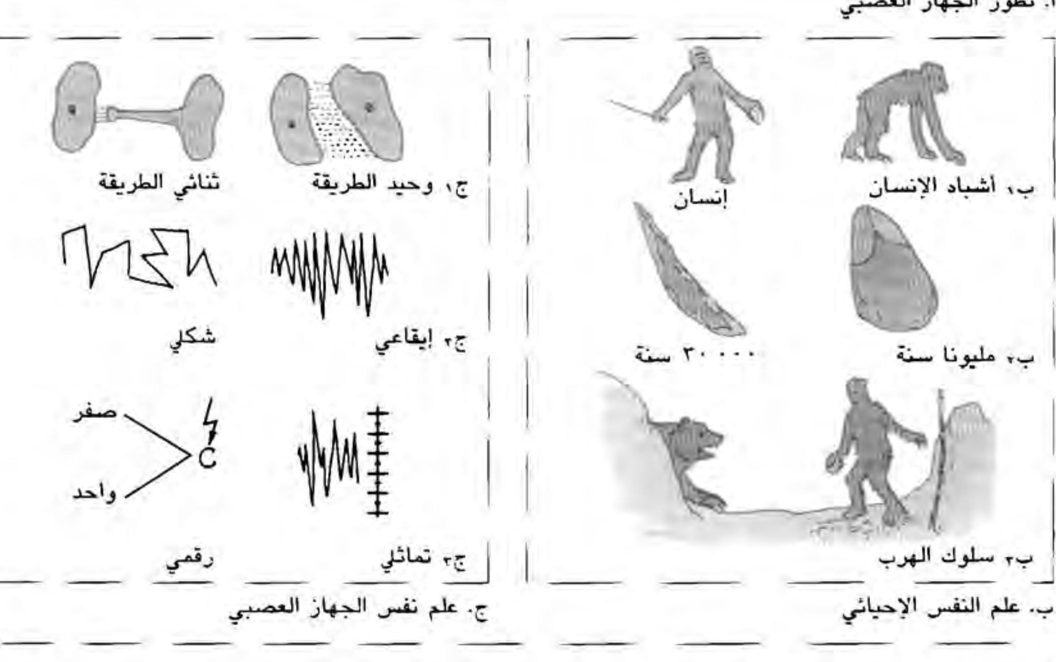
(٩) المعرفة (استبطان ذهني، خلق خطوط توجيه الحياة)

(١٠) الاتزان الجيني (دفق من التوازن النفسي الفيزيولوجي)

وإذ نفكّر بعدد التنسيقات الممكنة لهذه التعريفات العشرة، نفهم، بشكل أفضل، أن لتقييم الإنسان حدودًا.

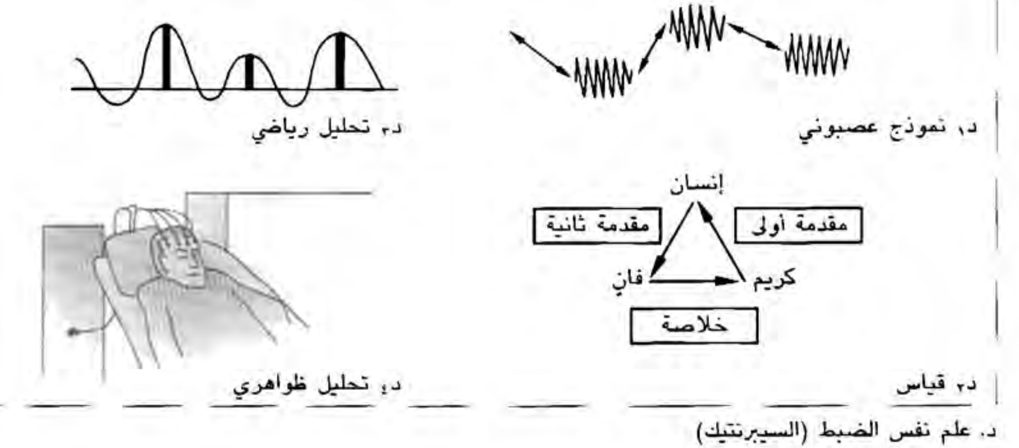


أ. تطور الجهاز العصبي



ب. علم النفس الإحيائي

ج. علم نفس الجهاز العصبي



د. علم نفس الضبط (السيبرنتيك)

إن تعدّد النظريات حول الشخصية هو واقع لا يمكن الالتفاف عليه. ولا يمكن لنظرية واحدة أن تستوعب غنى متغيّرات الشخصية. وتركّز النظريات التي تستوحي علوم الطبيعة، دون سائر النظريات، على الأسس الجسمية للشخصية.

أ. تطوّر الجهاز العصبي

(أ١) في تاريخ التطوّر (فصل ٣/٥)، يتطوّر الجهاز العصبي منذ نحو ٥٠٠٠٠٠ سنة. تشكّلت الخلايا العصبية الأولى، كما عند الجنين، اليوم، انطلاقًا من خلايا خارجية (الجلد). وأبسط الأنظمة هي الشبكات العصبية (كما عند مديخ المياه العذبة). وتقتصر وظيفتها على بعض التشنّجات العضلية.

(أ٢) ويمثّل الجهاز السلّمي الشكل مرحلة التطوّر التالية (كما عند بعض الديدان المسطّحة). نلاحظ هنا تشكيلًا نظاميًّا مزدوجًا يتركّز في قطاع الرأس ليشكّل سلاسلَ وحلقاتٍ من العقد.

(أ٣) تكشف مرحلة البصلات الثلاث (عند الأسماك مثلًا) عن تطوّر متقدّم نحو الدماغ الأمامي والدماغ الوسيط والدماغ الخلفي.

(أ٤) لقد تكون الدماغ عند الفقريات العليا

(أ٥) وغدا اللحاء (المادة السنجابية)، بملياراته الخمسة عشر من الخلايا العصبية التي تشكل المناطق المتخصصة واللحاء (المادة الرمادية)، دون مزاحم؛ تؤمّن الكثافة المرتفعة في شبكة الألياف العصبية (نحو ٥٠٠٠٠٠ كلم) (المادة البيضاء) تناوبًا ديناميًّا في الوظائف.

ب. علم النفس الأحيائي

(ب١) بدأ الانفصال التدريجي بين أشباه الإنسان (بعض أنواع القرود) والإنسان منذ ما يقرب من تسعة ملايين سنة وتوالى حتى الإنسان الحالي. وجرت محاولات مستمرّة لتحديد «الأنسنة» انطلاقًا من طبائع خاصة (حجم الدماغ، المشي على قائمتين، استخدام اليد، التكيّف مع البيئة، نقل الخبرة عبر الاجيال...). ويستحسن عند تحديد الإنسان، إبراز دور لعبة التزاوج بين هذه العوامل وعوامل أخرى أيضًا.

(ب٢) تُقرأ هذه الاستمرارية عبر دراسة العدّة الحجرية. لم يكن الحجر، منذ نحو مليونين من السنين، مُعَدًّا كعُدّة إلّا في جزئه الأعلى. في حين أصبح الظران، عند إنسان كرومانيون، منذ ٣٠٠٠٠ سنة، أداة متخصّصة تخصّصًا راقيًا.

(ب٣) إن أشكال السلوك المتراكمة بسبب تقدّم الخبرات الجماعية تغطّي، عند الإنسان، البرنامج البدئي الكامن في التصرّفات الغريزية: مثل سلوك الهرب أمام الحيوانات الخطرة، هذا الهرب الذي انتقل مركز ثقله في مجتمعنا إلى القلق الخاص بالأمن.

ج. علم نفس الجهاز العصبي

كان المستقرّ الطبيعي للحياة النفسية يدمج، في مطلع القرن التاسع عشر، بالنشاط الدماغي. ولكن لما كانت الأدمغة متشابهة في جوهرها تبدو الخصائص الفردية مستحيلة التفسير. ونعرف اليوم أن طرق الاتصال بين الخلايا العصبية لا تبلغ مرحلة النضوج إلّا متأخّرة وأنها تتطوّر مدى الحياة، وهكذا يؤمن الجانب الفيزيولوجي هامش اللعبة الفردي (فصل ١/٥).

(ج١) كانت النظم العصبية البدئية من النمط الذي يعمل بطريقة واحدة، أي يعتمد الوسائل الكيميائية. وبفضل استطالة ألياف الاتصال (يبلغ طول بعض المحوارات العصبية أحيانًا مترًا واحدًا ولبعضها ١٠٠٠ طرف)، يؤلّف مجموع النظام العصبي جهازًا متنوّع الأوامر، يعمل بطريقتين كهربائية وكيميائية.

(ج٢) يتمّ نقل النماذج بواسطة نمطين من النماذج: الإيقاعي (التوصيل الكهربائي) والشكلي (أشكال كيميائية متنوّعة).

(ج٣) وبفضل مصطلح الدلالات تُترَجمُ النماذج بطريقة تماثلية إلى تحريضات إيقاعية وبطريقة رقمية إلى معلومات شكلية.

د. علم نفس الضبط (السيبرنتيك)

(د١) يتيح أحد نمطي النماذج، الرقمي - الشكلي (علاوة على النموذج التماثلي - الإيقاعي)، مقارنة صورية بالنماذج المنطقية.

(د٢) نستنتج، في القياس المنطقي، خلاصة صورية:

مقدمة أولى (كريم هو إنسان). مقدّمة ثانية (جميع الناس فانون) الخلاصة (كريم فانٍ).

تدل هذه البنية الصورية على أن الحياة النفسية يمكن أيضًا أن تؤوَّل استنادًا إلى نماذج صورية: يدمج الوجه العقلاني (كما هي الحال هنا) بالنماذج الشكلية.

ومنذ ما أصبحت لغات المعلوماتية تحلّ رموز المعلومات على الطريقة الرقمية، نعلم أن هذه الطريقة قابلة للتطبيق في كل مكان. أما الناحية الانفعالية فتحلّ رموزها استنادًا إلى نماذج التحريض الإيقاعي (كما في الحاسوب التماثلي).

(د٣) لما كانت القاعدة المشتركة للنماذج العصبية والنفسية (نقل النماذج) معتبرة كنقطة انطلاق للبحث، فإن التحليل الرياضي (تحليل **فورييه**) قادر على أن يحصي الترددات والأمداء (ج. مدى) بواسطة الأنظمة العددية لتطابق النماذج.

(د٤) وخلافًا لذلك يتيح التحليل الظواهري تسجيل الجانب المعيشي (النفسي) ويقيم، بواسطة التماهي الصوري للنماذج، علاقة مع النماذج العصبونية.

إن المقاربة النظرية لحل مسألة النفس - الجسد ضمن إطار علوم الطبيعة (فصل ١/٥) هي انطلاقة تحليل علمي دقيق لتفسير الشخصية.



أ١ اتصال حميم

أ٢ اتّصال عن بعيد

أ. الصلة



ب. البيئة (الوسط)



ج١ العلاقة

ج٢ نظام تراتبي

ج. التجمّع البشري



د١ اتّفاق على القواعد

د٢ اتّفاق على إلغاء القواعد

د. صياغة القوانين

إن ما يمثّله الإنسان كفرد يصوغه، على نطاق واسع، سياق علاقاته الماضية والحاضرة مع غيره من الناس (أي شبكة الظروف المتلازمة) والوضع الذي يعيش فيه. يرسم هذا الكلام جوهر النظريات التي تستوحي **العلوم الاجتماعية**، وهي مجموعة أخرى ضخمة من النظريات (وعلى الأخصّ قضية التفاعل؛ **ميشيل** ١٩٧٣) تحاول أن تحدّد الخصوصيات الفردية.

أ. الصلة

إن التجربة المعيشة الصاخبة، الناتجة عن اتّصال الولد بأمه أو بأي شخص مهمّ بالنسبة إليه، هي حاسمة فيما يخصّ نموّه المستقبلي. إنه يعيش أولًا في انتظام رتيب ذات - موضوع لا ينفصم. يتحدّث **رينيه سبيتز** عن «مرحلة لا غيرية» عند الطفل الحديث الولادة، الذي يتوصّل إلى انفعال الذات - الموضوع مرورًا «بمراحل غيرية» (أو مراحل ذات - موضوع). ويمكن أن نفهم أن هذه الأطوار من الطفولة الأولى تحدّد تحديدًا راسخًا توازنه النفسي الأساسي. وفي هذه الحالة الانطوائية، يستفيد أو يحرم من هذه الثقة البدائية التي تشكّل أساس ثقته بنفسه وبالآخرين. يجب أن يكون الشخص المرجعي قادرًا على خلق تواصل حميم يعطي الولد انطباعًا عن الدفء المنزلي، «دفء العش».

ومن المهم أيضًا لنموّه أن يتراخى هذا الاتّصال تدريجًا وأن يشعر الولد - بالرغم من الابتعاد - بدعم صادق.

تشبه الصلة الاجتماعية غالبًا زمامًا طويلًا (اتصال عن بعد) يصلنا بالأشخاص الآخرين. يجب أن تُعنَى هذه الصلة، منذ الطفولة، وتدريجًا بالوحدات الاجتماعية الكبرى. نشعر بأننا على صلة، مثلًا، برفاق الدراسة، بمسقط رأسنا، بتصوّرات مثالية... تشكلّ جزءًا مِنّا.

ب. البيئة (الوسط)

تشكّل بيئة الطفولة الأولى، كونها اختبارًا شموليًا للمحيط الطبيعي والاجتماعي، قاعدة انطلاق تستخدم قياسًا للصعود أو للهبوط مستقبلًا. وهي تَسِم، في الوقت نفسه، بطابعها الخاص، التوقّعات الاجتماعية ومستلزمات التنظيم (كما في إعداد المسكن).

هذه التمثّلات المستبطنة هي، بالنسبة إلى كل إنسان، آمال أو مخاوف غير مدركة عامة أو مفترضة، فيما يخصّ الاحتفاظ بمستوى خاص بالحياة.

ج. التجمّع البشري

اعتبر التجمّع البشري، منذ القدم، الأساس الذي يستوعب الفرد: «إن الثمار الأولى للدراسات الفلسفية هي حسّ التجمّع، اللياقة والشعور بالانتماء» (**سينيك**).

تمارس كثرة التجمّعات تنوُّعًا عظيمًا من التأثيرات على تكوين الفرد. تختلف التوجيهات الأساسية لتأثيرات الجماعات باختلاف نوعها (عائلة، قبيلة، فريق عمل، مسكن مشترك، أمة...).

وعلاوة على ذلك يمكن أن نميّز بين تأثيرات إيجابية وتأثيرات سلبية.

تأثيرات إيجابية:

تساعد الجماعة الفرد على القيام ببعض الأدوار (كدور القائد). توفّر له مجموعة من الفرص لتنمية تجربته الحياتية كما في فرق اللعب. وتجعله أقوى على تحقيق ما لا يستطيع تحقيقه منفردًا. يحثّه التجمّع بواسطة المقارنة الاجتماعية.

ونجد بمقابل ذلك تأثيرات سلبية:

تكبح الجماعة نموّه الفردي. سوء استخدام سلطة القائد يجعل الفرد في أوضاع لا تطاق. والامتيازات تقف حاجزًا دون العدالة الاجتماعية. ويزيد تشكّل بعض جماعات الانتماء من فرص الصراع بين الناس. وتخلق التجمّعات الكبيرة تعارض مصالح يهدِّد البشرية بأجمعها.

يؤثّر التجمّع على تاريخ الفرد في اتجاهين أساسيين

(ج١) نميّز، بالاستناد إلى الطريقة التي تواجه بها العلاقات بالجماعة، بين علاقات المساعدة التي تسهم في دعم متبادل وبين علاقات المواجهة التي تثير الصراعات.

(ج٢) الاتجاه الثاني يختصّ بالنظام التراتبي في الجماعة الذي قد يكون مستوعِبًا (معادلًا: متّجهًا نحو تناسق السلوك). ومفرِّدًا (منتخِبًا: مهتمًّا بتمايز واضح).

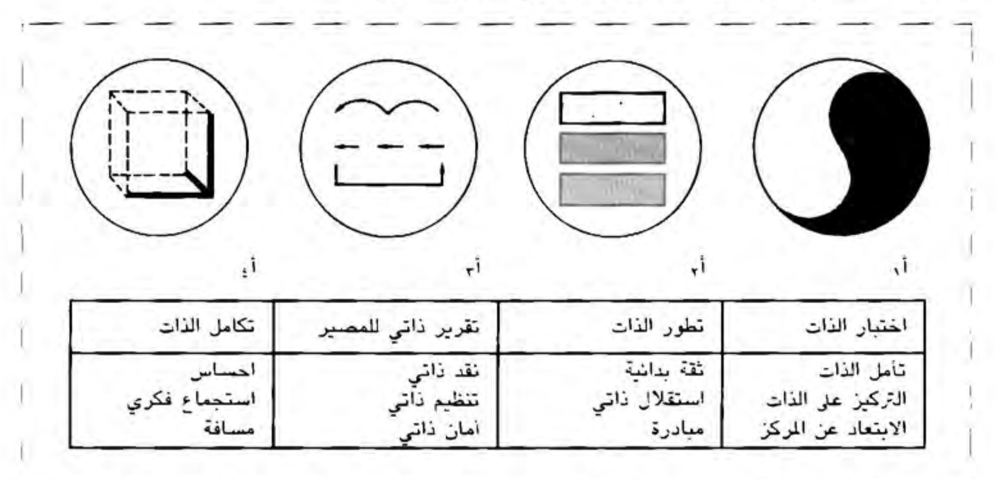
د. صياغة القوانين

يمكن أن نستنتج من النقاط الثلاث السابقة أن الجماعة تسم الفرد بميسمها. وأن صياغة القوانين الجماعية تقوي هذا الإجراء تحت عنوان قوانين عديدة غير مكتوبة (أعراف).

يمكن أن نذكر اتجاهات التمثّل التالية:

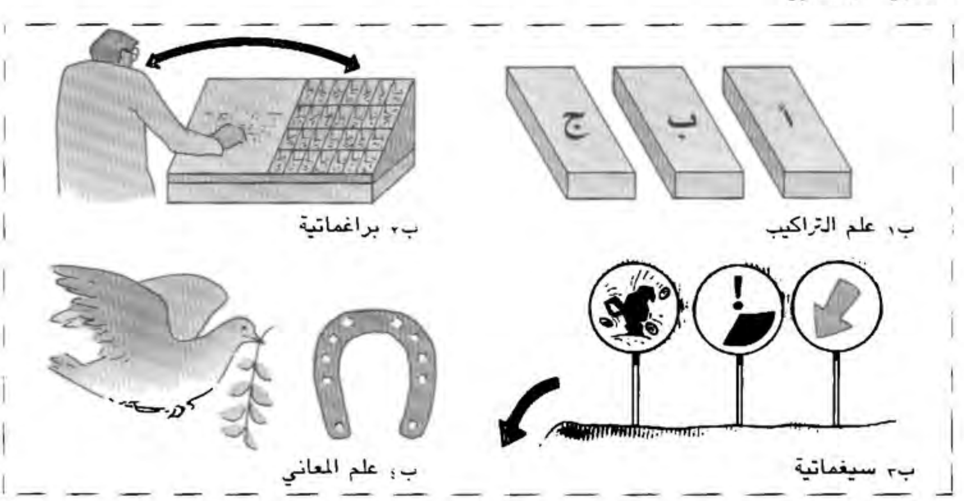
وضع القوانين استنادًا إلى المراتب (هيمنة، خضوع)، الأدوار (سلوك مكيّف)، الأوضاع (ظروف آنيّة)، العصور (أساليب رائجة)، الأمكنة (منها قواعد إقليمية)، محتويات الإعلام (محرمات كلامية)، الأخلاق (قواعد اللياقة).

إن أعضاء التجمّعات، بسبب هذه المجاميع من القوانين، يتشابهون أكثر فأكثر حتى يصبح «اتفاق الآراء والمشاعر» (التشابه) معيارًا للجاذبية الاجتماعية ويصبح التعارض من السيّئات (إجماع على القواعد). حتى إن الإصرار على «إلغاء القواعد» يرتفع إلى مستوى القاعدة (الإجماع على إلغاء القواعد).



اختبار الذات	تطور الذات	تقرير ذاتي للمصير	تكامل الذات
تأمل الذات التركيز على الذات الابتعاد عن المركز	ثقة بدائية استقلال ذاتي مبادرة	نقد ذاتي تنظيم ذاتي أمان ذاتي	احساس استجماع فكري مسافة

أ. نظريات إنسانوية



ب. تأويل دلالي



ج. توجيه عقائدي

كتب **ج.ت.ف. بوغنتال**، سنة ١٩٦٧، في مقال له:

«نحن، الانسانيين والعلماء النفسانيين، يؤلمنا أن نكون علماء نفس لو كان علم النفس يقوم على دراسة الإنسان كجرذ ضخم أبيض أو كحاسوب بطيء».

ومنذ «المنعطف المعرفي» لعلم النفس الذي انطلق في تلك المرحلة، تعرضنا لدراسة الشخصية ضمن إطار النظريات المبنية على نموذج العلوم العقلية ونحن أكثر إلحاحًا على ناحية التنظيمات الذهنية.

أ. نظريات إنسانويّة

ينتمي **أ. ماسلو، ش. بوهلر، ڤ.إ. فرانكل، ك. روجرز، إ.هـ. إريكسون، ر. ماي، إ. إليس، أ. كوستلر، ف. بيرلز، إ. غوفمن، إ. فروم، أ. لازاروس، إ. بيرن، ج. كِلي، ج. روتر،** جميعًا إلى فريق علماء النفس الانسانويين المتعدّد الوجوه، يركّز موضوعهم الأساسي على العلاقات الصعبة بين الإنسان ونفسه.

(أ١) إن **اختبار الذات** يطوّر السؤال:

«من أنا؟»

يحاول الناس حتى فترة متأخرة من شبابهم أن يكوّنوا فكرة واضحة عن خصوصياتهم الوظيفية والفردية تحت عنوان تأمّلات في الذات، (رعاية الذات، تمثيل الذات، تعيين الذات، مراقبة الذات). إن التركيز على الذات والابتعاد عن الذات يتناوبان بطريقة متكاملة (التوجّه نحو الذات أو الابتعاد عنها) كما في الرمز الطاوي للين وليانغ (إن ممثّلي هذا التيّار يدافعون غالبًا عن الأفكار الواردة من الشرق الأقصى).

(أ٢) يستند البعض إلى «مبدأ ملازم للشخص» **(ش. بوهلر)** في عبارات **تطوّر الذات**. إن الاستقلال الذاتي والمبادرة غير الامتثالية يتبعان توطيد ثقة بدائية. **(إريكسون)**

(أ٣) يميّز **التقرير الذاتي** للمصير (الانعتاق الشخصي) «سن الرشد» أي اكتشاف الذات كمعرفة الذات والتثقيف الذاتي.

يعتمد أول المستويات الثلاثة من دائرة (أ٣) على النقد الذاتي الذي يجب، استنادًا إلى **و. جيمس**، أن يخلق توازنًا بين الفاعل (ت المتكلّم) والمفعول (ياء المتكلّم) (أو بين الذات والموضوع اللذين يمثّلان شخصًا واحدًا)، وتوازنًا أيضًا بين الصور المثالية والواقعية للذات **(ك. روجرز)**. ينقل التنظيم الذاتي (التخطيط الفردي، التثقيف الذاتي) «بناء نظرة مستقبلية إلى الحياة» **(أ. ماسلو)** ينقل هذا المظهر الأول من أهداف الحياة. يتّصف الأمان الذاتي بهشاشة نفسية أقلّ في لحظات الخطر الداخلي والخارجي.

(أ٤) يوسّع **تكامل الذات** «تحويل الذات إلى المفهوم» **(ڤ.ج. رامي)** استنادًا إلى أبعاد ثلاثة في منظور النضوج الفردي:

الإحساس (قابلية انفعال مفتوحة، جهوزية تجاه الأشياء الجديدة)، الاستجماع الفكري (ترجمة واضحة في التجربة الشخصية)، المسافة (اكتفاء ذاتي). إن هذه المقاربات الأربع، من وجهة نظر إجمالية لعلم النفس الانساني، هي غير قابلة للتفكّك.

ب. تأويل دلالي

إن نظرية الرموز والدلالات التي أسّسها **ج. فريغه** عام ١٨٩٢ هي على الأرجح أخصب نظرية في العلوم العقلية في القرن العشرين. إنها تشتمل على أربعة اختصاصات فرعية، منها نظرية الدلالة (فصل ٢/٤) التي تجد لها أيضًا تطبيقات في تحديد الشخصية.

(ب١) يصف علم التراكيب كمية الرموز (الأحرف) وبنيتها العقلانية. وتحدّد، بهذه الوسيلة، إمكانية ترميز الخصائص الفردية من أجل دراسة الشخصية.

(ب٢) وتحيلنا البراغماتية إلى العلاقة بين الرمز ومن يستخدمه (بين الحرف والطبّاع) وهي التأويل الرمزي للتوجّه والقصدية الشخصيين (الوجهة).

(ب٣) تصف السيغماتية (أو السينية) خصائص العلامات الدالّة، وتطبّق على القدرة الإيجابية للتعبير الشخصي.

(ب٤) يتعلّق علم المعاني بالدلالة المحدّدة للرمز: حدوة جواد كرمز للسعادة، وحمامة نوح كرمز للسلام. تشكّل التحديدات الذهنية والمثل التي تميّز الفردية جزءًا من السياق الشخصي.

يُرمَز إلى نظام التأويل الدلالي بجداول توصيات سيبرناتية (فصل ٦/٢) تحدّدها مصطلحات تقنية.

ج. توجيه عقائدي

يجمع مفهوم «ما وراء المعرفة» **(فلاڤل** ١٩٧٩) القناعات العقائدية التي تميّز الفرد من الآخرين استنادًا إلى اتجاهين.

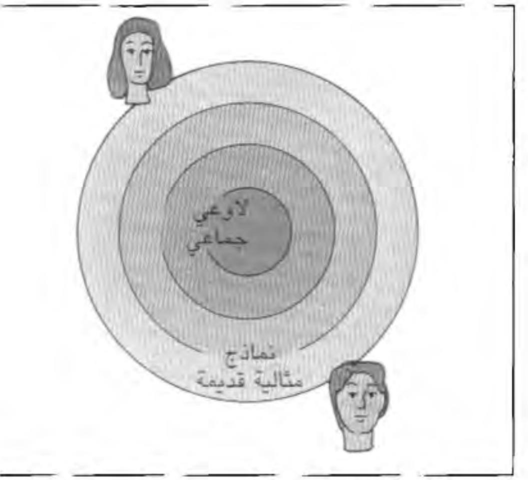
(ج١) إن الحاجة إلى التفسير تتنوّع من شخص إلى آخر. أحداث عديدة (مثل مصائب القدر أو ظواهر فلكية غير عادية) تثير تخمينات «استعلائية» تحت عنوان براهين مقتبسة من معتقدات قديمة أو آراء خاصة تضع الحدث بصورة، إلى حدّ ما، مقنعة في الأفق الشخصي.

(ج٢) التفسير البسيط لا يكفي في أكثر الأحيان. ويشعر الإنسان أنه مدعو إلى التزام يتيح له إيجاد طريق في اتجاه الحياة.

يبحث الفتيان، بنوع خاص، وتكرارًا، اتّجاهًا حياتيًا «أعلى مستوى» (أعلى أو أكثر قساوة) بين أترابهم أو في أوضاع استثنائية.

وتلخّص، تحت عنوان مفهوم التزام حاسم، جميع المبادرات والمقاصد الأخلاقية الممكنة التي تتطلّب المزيد من جانب الفرد، ولكنها في الوقت نفسه تقيّم شخصه. ويثير فقدان الاتجاه قلاقل واضطرابات حيث تكون التوجيهات الإيديولوجية في غياب تام.

أ. نموذج الأركان



ب. وحدة دينامية



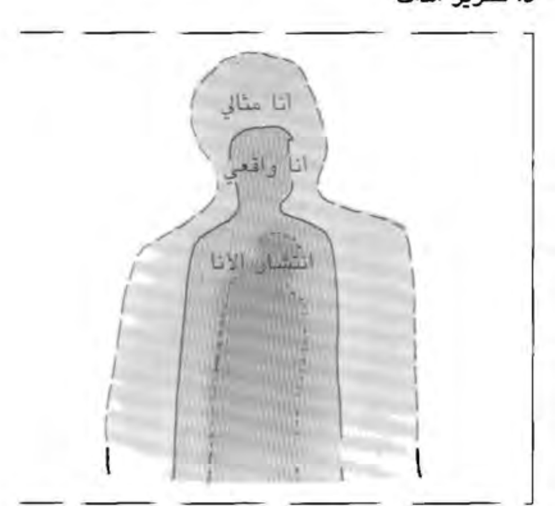
ج. مخطط الحياة



د. تحرير الذات



هـ. تحليل وجودي



و. تحليل الأنا

تنطلق المجموعة الرابعة من النظريات، في تحديدها للشخصية، من حوافزها اللاواعية. كم يكون من السهل وصف هذه النظريات لو كان يوجد فقط تصوّر واحد «للاوعي».

ولكن، على عكس ذلك، يمكن النظر إلى اللاوعي كركن نفسي مستقل عن الوعي كما يمكن النظر إليه كعنصر غير مستقر، بل مندمج بالوعي.

نميّز بين ٥ فئات من وظائف اللاوعي:

تحت الوعي (ما دون عتبة الإدراك)، غير المدرَك (محسوس ولكن مرفوض وغير ملاحظ)، الغريزي (غير أهل للوعي)، ما قبل الوعي (غير معروف قبل النضوج أو بسبب عائق)، المكتسب الآلي (سلوك مُتَعَلَّم دون إيعاز معرفي).

وبالرغم من التباين في الآراء، فإن فكرة تشمل النظريات التي تستوحي علم نفس الأعماق، هي أن الإنسان موجّه، قبل كل شيء، من الداخل بواسطة عقله الباطني (باللاوعي).

أ. نموذج الأركان

طوّر **سيغموند فرويد**، في تحليله النفسي نموذجًا لما يفترضه يشكّل أركان الشخصية. وهذه الأركان الثلاثة هي (فصل ٢٠/٢، أ):

الـ«هو» الذي يمثّل الجانب الغريزي من الشخصية. الـ«أنا»، الركن الذي يدير مصالح الشخصية بكاملها وهو مزوّد «بليبيدونرجسي». وأخيرًا «الأنا الأعلى» وهو الركن النقدي والقضائي المتولّد من وصايا الأقرباء ونواهيهم.

إن دور الوعي الإدراكي الضعيف نسبيًّا يعيدنا إلى رأي **فرويد** الذي مضمونه أن اللاوعي يشغل مساحة أوسع مما يشغل الوعي.

ب. وحدة دينامية

وضع **كارل غوستاف يونغ** (١٩٣٦) نموذجًا يمثّل تصوّره المنضّد للاوعي. لقد افترض، بمقابل «الشخص» الخارجي، وحدة دينامية ذات أربع وظائف أساسية (التفكير، الإحساس، الحدس، الشعور) يؤدّي استبطانها إلى طبقات من اللاوعي تزداد غموضًا (لاوعي شخصي ثم جماعي ولا يرقى جزء منه أبدًا إلى المستوى الواعي». إن صورًا تمثيلية عامة مثل «الأنماط البدائية» «للأنيموس» (التصوّر الذكري) عند المرأة و«للأنيما» (التصوّر الأنثوي) عند الرجل، إن هذه الصور تنتمي إلى اللاوعي الجماعي فوق الفردي.

ج. مخطّط الحياة

يشغل مفهوم التعويض مكانًا مركزيًّا في علم النفس الفردي عند **ألفريد أدلر**. يأتي الفرد إلى العالم حيث الجميع أقوى منه. وهو مضطرّ، بسبب ضعفه (تبعية اجتماعية، دونية أعضائه...) إلى أن يجاهد للحصول، بشقّ النفس وللتعويض، على جزء من السلطة الاجتماعية. ويركّز **أدْلِرْ** باستمرار على أن معرفة شخص ما تعني التعرّف إلى وجهة أهدافه («مخطّطه الحياتي»). وبما أن هذه التوجّهات الحيوية تنطبع منذ الطفولة فإن أكثر الناس لا يعونها. ويفترض **أدلر** أن السعي الجاهد إلى السلطة هو هدف شمولي عند الإنسان.

د. تحرير الذات

ومهما تكن التوجّهات التحليلية الجديدة لعلم نفس الأعماق متباينة، فهي تشير، دائمًا، تقريبًا، على عكس ما يقوله **فرويد**، إلى أنه يجب الأخذ بالحسبان وظائف الأنا. وقد أكملت إبنته **آنا فرويد** عدد إواليات الدفاع الممكنة عن ركن الأنا (فصل ٢٠/٣، أ). وانطلاقًا من هنا، أبرز مؤلّفون آخرون مثل **ڤ.إ. فرانكل؛ كارين هورناي، ڤ. رايخ، إ. فروم، هـ. كوهوت**، الدور الفعلي «للذات» تجاه الأخطار الكثيرة.

يثير **فرانكل** «بحث الحس»

وهورناي «تحليل الذات»

ويطلب **رايخ** «إزالة الدرع المزاجية»

ويدعو **فروم** إلى تجاوز «الخوف من الحرية»

ويطالب **كوهوت** بالتركيز على «استقلالية ثانوية» (نمو الذات).

يجب أن توفّر هذه المفاهيم تحرير الذات من سلطة التبعيات الخفية.

هـ. تحليل وجودي

في علم نفس الأعماق، تأثر الكثير من مدارس التحليل الوجودي (**ل. بنزڤانغر، ف. فون ڤايتساكر، م. بوس**)، بالفلسفة الوجودية. تسلّم هذه الفلسفة بأن الوجود الإنساني يسبق «الوجود هكذا» (طبيعة الإنسان كما هي) فيكون الإنسان بالنتيجة «مَرميًّا» في العلاقة بالطبيعة.

بالنسبة إلى التحليل الوجودي. تتسلسل عوائق نموذجية في مراحل الحياة المتتابعة:

فقدان الاستقلال الذاتي عند الولد.

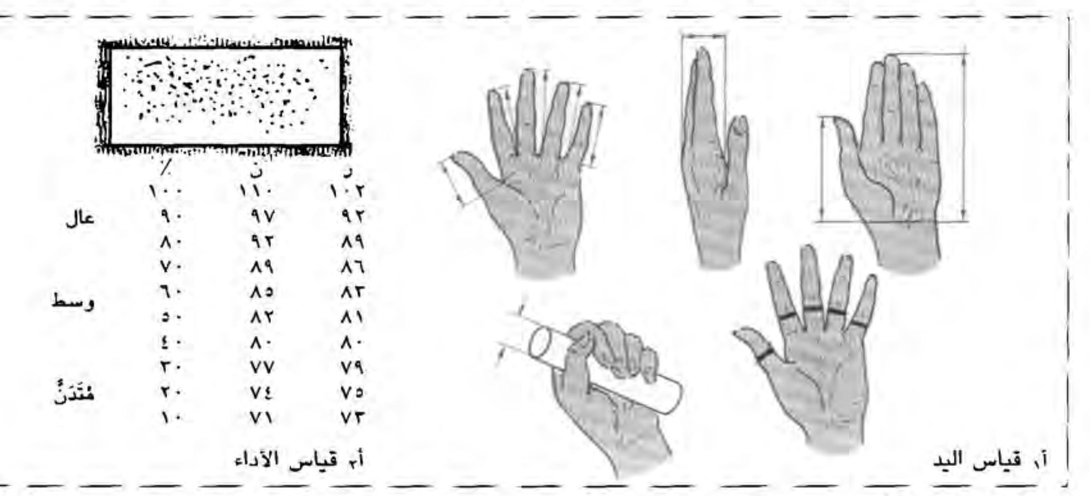
ضغط الأداءات الذي ينوء بكلكله على الطالب. عبء العمل والحياة عند البالغ.

وطأة المرض عند العجوز.

و. تحليل الأنا

تنطلق أحدث المدارس في علم نفس الأعماق (**غرينكر، غيدو، توليان، إريكسون**...) من التمايز العام بين الأنا المثالي والأنا الواقعي. ليست تمثّلات الذات قيمًا موضوعية: إن العلاقة بالذات، انسجامًا مع هذا الأمر، معرّضة للخطر من ناحيتين:

فمن ناحية، يزايد الأنا المثالي على الأنا الواقعي (حب الذات النرجسي)؛ ومن ناحية أخرى، فإن انتشار الأنا يجعل الأنا الواقعي ضائع المعالم ويتلاشى مفهوم الذات.

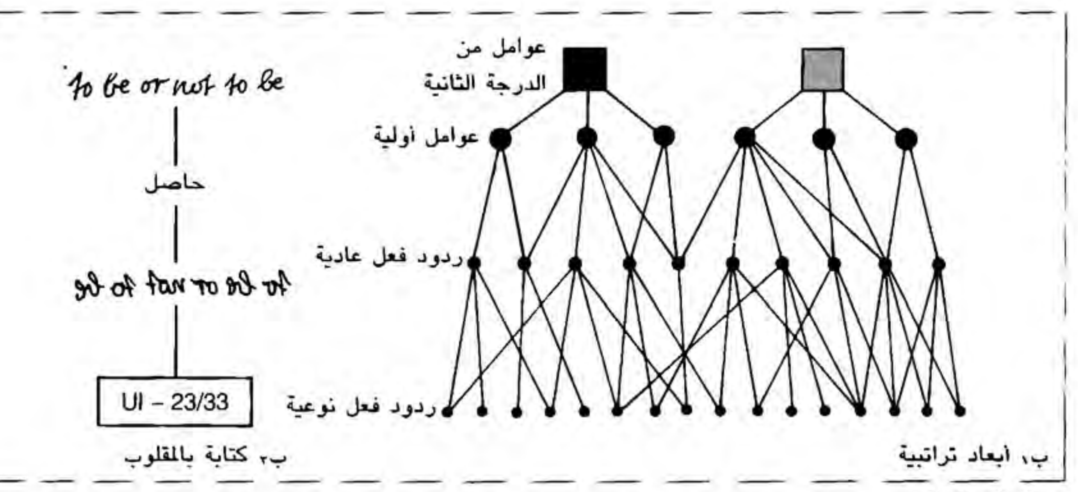


ر	ن	٪	
١٠٢	١١٠	١٠٠	
٩٢	٩٧	٩٠	عال
٨٩	٩٢	٨٠	
٨٦	٨٩	٧٠	
٨٣	٨٥	٦٠	وسط
٨١	٨٢	٥٠	
٨٠	٨٠	٤٠	
٧٩	٧٧	٣٠	
٧٥	٧٤	٢٠	مُتَدَنٍّ
٧٣	٧١	١٠	

أ١ قياس اليد

أ٢ قياس الأداء

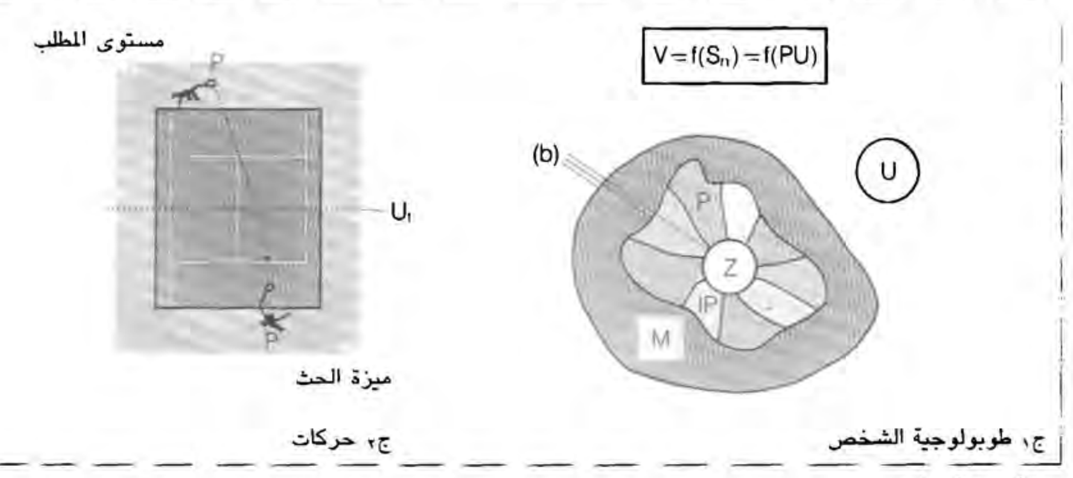
أ. قياسات موضوعية



ب١ أبعاد تراتبية

ب٢ كتابة بالمقلوب

ب. أبعاد عاملية



ج١ طوبولوجية الشخص

ج٢ حركات

ج. تكميم طوبولوجي

كيف يمكن استكشاف الشخصية؟ وتتضارب الآراء في هذا الموضوع. لا يتسنى لنا رؤية «الشخصية» (لكن فقط السيدة فلانة أو السيد فلان يتصرّفان أو يعبّران بهذه الطريقة أو بتلك). إننا «نكتشفها» أي نعدّ بنية أو منشأ، أو نكوّن فكرة عن هذا الشخص أو ذاك، أو بالأحرى عن جميع الناس. ونحتاج لذلك إلى فرضيات مسبقة (غالبًا حدسية، «ضمنية»). إن أهمّ ثلاث بواكير للشخصية مرتّبة على الشكل التالي:

الفرادة (كل شخص هو فريد إلى حد ما)

التطابق (بالرغم من أن الإنسان لا يملك الجسم نفسه دائمًا، إلّا أنه يتصرّف باستمرار بطريقة متناسقة نسبيًا؛ وهو بالرغم من التغيّرات يظلّ معروفًا بفضل ردود فعل نمطية.

الكرامة (كل إنسان مجهّز ببعض القيم واللاقيم، أي أنه، كشخص، يعتبر «مرتكزًا للقيم»)

والقاعدة العامة هي أن هذا المزيج من الحقيقة المحسوسة والتأويل الذهني لا يعتبر متوازنًا. يتّجه بعض علماء النفس أكثر إلى استكشاف الوقائع الملموسة - ويقومون ببحث من النوع الكمي في أساسه. ويميل آخرون إلى البحث عن الوقائع المفهومة - ويعملون استنادًا إلى نموذج نوعي بحت.

أ. قياسات موضوعية

لا تطرح القياسات الموضوعية، من الناحية الجسدية، أي مشكلة. تُجرى، في الشغالة (فصل ٢/٢١) مقاييس بداثية لنوفّق، قدر المستطاع، بين الإنسان والآلة.

(أ١) ففي قياس اليد تحدّد بعض القيم الجوهرية بهدف تكييف الحركات.

(أ٢) يوجد، في قياسات الاداءات، مجموعة من القيم القابلة للقياس موضوعيًا، يختبر النقر (رائز مكعّبات نوكس) ما يسمّى بالإيقاع الشخصي.

يُطلب أن نسجّل، بواسطة قلم رصاص، وبخلال ست ثوان، أكبر عدد ممكن من النقاط الواحدة إلى جنب الأخرى باليد اليمنى ثم باليد اليسرى، تشير قائمة الأعداد (استنادًا إلى ما يلي ١٩٦٣) إلى الاداءات المتوسطة للرجال (ر) وللنساء (ن) من عامة الشعب

ب. أبعاد عاملية

لكن قياسات الأداء لا تمثّل سوى بداية البحث الكمي. إن كل شيء، بالنسبة إلى دراسة الشخصية، يتعلّق بالبواكير المذكورة أعلاه وخاصة الثانية:

أي شيء ثابت في ردود الفعل؟

(ب١) عند المستوى الأدنى من النموذج التراتبي لم تستقر ردود الفعل النوعية بعد؛ مثال ذلك، إن اختبار النقر (أ٢) يتأثّر بالتعب، بالرغبة، بالتوقّع وبشروط أخرى. وكل شيء يتغيّر بالنسبة إلى ردود الفعل المكتسبة بواسطة العادة. إنها تمثّل استقرارًا أعلى وتميّز شخصًا بطريقة أكثر استقرارًا.

(ب٢) يستخدم البحث الكمي، ليحدّد التمييز الفردي، التحليل العاملي (فصل ٧/٤). وحينئذٍ يبحث في النتائج عن «المجموعات» التي عليها أن توصل، على مستويين، العوامل الأولية إلى عوامل من الدرجة الثانية.

طوّر **ر.ب. كاتل** (منذ ١٩٤٦)، في أعمال عديدة، نموذج شخصية ممثّلًا بـ ٢١ عاملًا - دليلًا شاملًا (عوامل أولية). وأصبح من الممكن بعد ذلك وضع صورة فردية للشخصية بواسطة عدّة روائز موضوعية.

ويكتب المفحوص إملاءً، في الاتجاه الصحيح ثم في الاتجاه المقلوب. ونستطيع، بوضع حواصل الوقت في التمرينين، وانطلاقًا من حاصل مرتفع (فرق)، أن نستنتج العوامل - الأدلّة الشمولية ٢٢ و٢٣: نزوعًا ارتداديًا قويًا (فصل ٣/٢٠) وتوازنًا ضعيفًا.

ج. تكميم طوبولوجي

خطا علم النفس الطوبولوجي أو الاتجاهي، مع **كورت ليڤين** (١٩٣٥؛ ١٩٦٩)، خطوة إضافية. لكي يحصل علم النفس، استنادًا إلى **ليڤين**، على تكميم حقيقي، «يتحتّم عليه، أن يطبّق، ليس فقط، مفهوم الزمان بل أيضًا مفهوم المكان».

(ج١) ولتحديد مكان الإنسان، تُتّخذ معادلة السلوك قاعدة لذلك:

السلوك (V) هو عامل (f) الموقف (S) أو أيضًا عامل ضرب الشخص (P) بالبيئة (U).

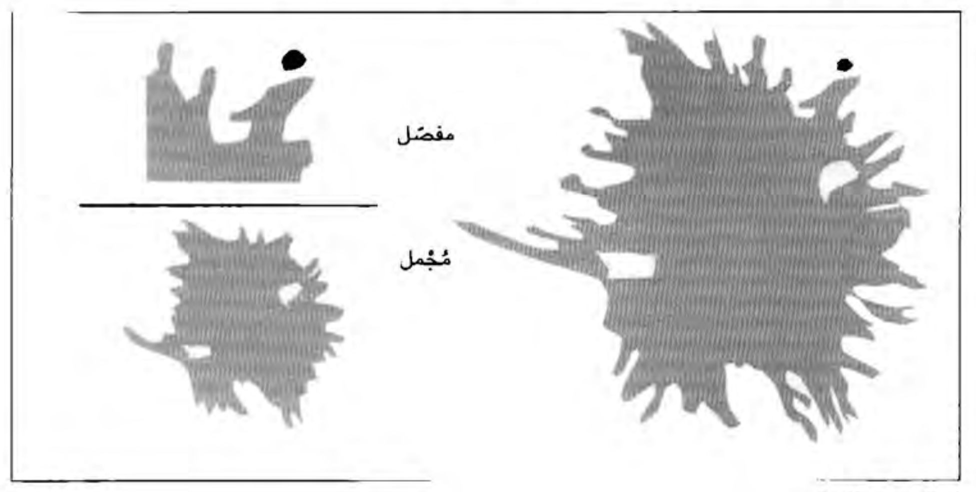
وكمثال على ذلك، كتب **ليڤين**:

«يوجد الشخص في وضع خالٍ من أي ضغط: فتكون الأقسام الحدودية للمنطقة الشخصية الداخلية (IP) سهلة الولوج من قبل البيئة (U)؛ تؤثّر المنطقة الشخصية الداخلية IP بسهولة نسبية، في المنطقة المحرّكة M».

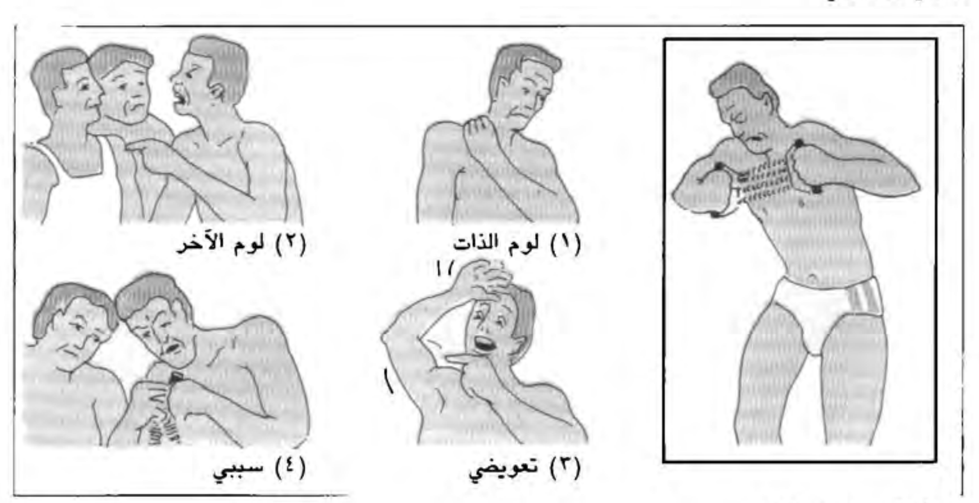
تتعدّل الحدود (الحواجز: b) بين هذه المجالات في الأوضاع الضاغطة، وتحدّد تحرّكات قوى الحقل النفسي، فيما تحدّد به، بمستوى المطلب (من جهة P) أو بميزة الحث (بين U وP). وحينئذٍ، تشتمل الأشخاص (P) كالبيئة (U) على تكافؤات أي مرتكزات قيم.

يفرض هذا النموذج الطوبولوجي الذي يشتمل على البواكير الثلاث للشخصية، واستنادًا إلى **ليڤين**، تحديدًا كميًا في عبارات رياضية تتناول علاقات مكانية «شبه طبيعية» (تحرّكات).

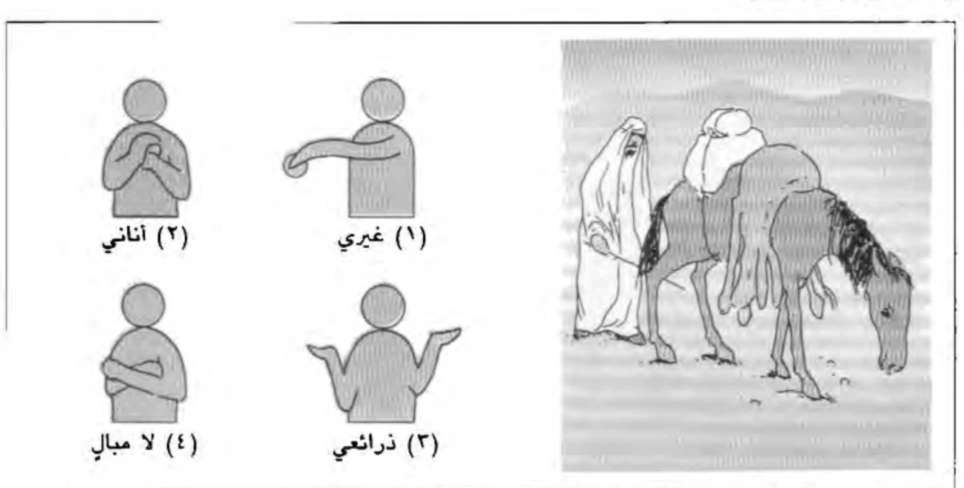
(ج٢) نستطيع، باتخاذنا لعبة كرة المضرب، كمثل، أن نحدّد، كميًّا، قوى الحقل النفسي (ويكون أكثر تقلّصًا عند ضربة الاستهلال مما هو عند تبادل الكرات) في حدود المكان المتغيّرة في الزمن U_1.



أ. تفرعات ثنائية



ب. أساليب ردود الفعل



ج. نُظُم الآراء

غَلّب البحث الكمي، في وصف بواكير الشخصية الثلاث (الفرادة، التطابق، الكرامة)، إمكانية وضع مقاييس عددية (فصل ٦/١٣). وقد تحقّق ذلك بشكل أفضل بالنسبة إلى الباكورتين الأوليين. أما البحث النوعي فيجهد، على عكس ذلك، لإيجاد أوصاف غير محدّدة لعوامل التقييم الفردية (ثلاث بواكير) على قاعدة النماذج العامة. ويكفي، لتمييز هذه الأوصاف، اختيار قيم معزولة، أو عديدة، أو أن ننظر منها إلى عدد أكبر، فبدلًا من أن نذكر هنا جميع الاحتمالات، نلاحظ أولًا التشابك المتزايد في النماذج المستخدمة انطلاقًا من أمثلة: بتمييز فئات من الخصوصيات المحدودة (تفرع ثنائي) ثم أساليب السلوك (النوعي مثل أساليب ردّ الفعل) وأنظمة الآراء.

أ. تفرعات ثنائية

كانت كثيرة جدًّا، في تاريخ علم النفس، محاولات تقسيم الكائنات البشرية إلى فئتين انطلاقًا من معيار وحيد اعتبر أساسيًا. حاول ذلك **فريدريك شيلر** (الذي قدم سنة ١٧٧٩ أطروحة دكتوراه في الموضوع لأحد أساتذة علم النفس) بواسطة التفرّع الثنائي ساذج – عاطفي (طريقة ردّ فعل مباشر مقابل متبصّر). وثمّة تفرّعات ثنائية أخرى وضعها **ك.غ. يونغ** (١٩٣١): «انطوائي – انبساطي» (متّجه نحو الداخل أو الخارج) و**هـ أ. ويتكين** (١٩٦٢): «تبعية للحقل – استقلالية عنه» (تأثير قوي أو ضعيف للبيئة) أو أيضًا (عقلاني – حواسي) (**منكوفسكي**).

تظهر الصورة تفرعًا ثنائيًا أقلّ شهرة. ميّز **أ. بينيه** (١٩٠٣) ثم **أ.ر. جانش** (١٩٢٩) «إدراكين: مجملًا ومفصّلًا»، نظرًا إلى أن الناس يميلون إلى الاهتمام إما بنظرات إجمالية أو بتفاصيل دقيقة. يمكن للصورة الغامضة، أي الكثيرة الدلالات (المستوحاة من رائز تخيّل ساندر) أن تفسّر بطريقة إجمالية أو تفصيلية: مجموعة أشكال (مفصّلة) أو جمجمة حيوان (إجمالية).

ب. أساليب ردود الفعل

تنجح التفرّعات الثنائية بإبراز فصل تدرُّجي أكثر مما هو دقيق بين الأفراد. لذا تقوم محاولات مستمرّة لإنشاء فئات وصفية أكثر اتّساعًا، فيجري الحديث أولًا عن نماذج سلوكية، مثل نماذج تربوية (توجيه أساسي للسلوك التربوي الوالدي). أساليب ردود الفعل (سلوك وسط في بعض المواقف) هي فئة فرعية من أساليب السلوك. إذا طلبنا مثلًا من رياضيين فتيان مدّ موتّرات محضرة بطريقة تؤثّر على النجاح أو الفشل، نستطيع أن نراقب ونقابل بين ردود الفعل على الفشل وعلى النجاح. نميّز في هذا الاختبار أربعة أنماط من ردود الفعل على الفشل تتميّز بعضها عن بعض بوضوح:

(١) نسبة الخطأ إلى الذات (لوم الذات)

(٢) نسبة الخطأ إلى الآخرين (لوم الآخر)

(٣) تحبط، غالبًا، مسبقًا، احتمالات الفشل «بالتهريج» (تعويضي)

(٤) البحث عن أسباب موضوعية لا تمسّ الذات (سببي)

يتمتّع الأسلوبان الأولان من ردود الفعل، الخاصة بحل خلاف، بشهرة مميَّزة. إن شخصًا ما يتسبّب بحادث خطير يكون تأثير ذلك عليه عدم العودة إلى قيادة السيارة – أو الاستخفاف بالحادث وإلقاء قسم من اللوم على الضحية؛ وتحدث ردود فعل تعويضية أو سببية عند استخلاص بعض النتائج.

إن مفاهيم الإسناد تمتّ بصلة إلى أساليب ردود الفعل هذه (فصل ١٣/ ١٤، ب)

ج. نُظُم الآراء

إن منظّرين عديدين لا يعتقدون بأن تطوّرات الحياة تتكوّن شيئًا فشيئًا انطلاقًا من اختبارات فردية ولكنهم يظنّون، على عكس ذلك، أن الإنسان يتبنّى أولًا مواقف عامة قبل أن يدقّق أكثر فأكثر في أوضاع معزولة. إن المطلوب إذًا، فيما يخصّ منظور البحث، إحصاء أنظمة الآراء الراسخة عميقًا دون أن ندركها.

نورد على ذلك مثلًا:

في أحد أمثال **لافونتين** وضع بدويٌّ الحمل بكامله على الحمار ولم يحمّل الحصان شيئًا. وما لبث الحمار أن انهار فوضع الحمل والحمار معًا على الحصان.

وإذا استثنينا في بحثنا، المغزى الذي أراد **لافونتين** أن يستنتجه من المثل، يمكننا إيجاد عدّة توجّهات في تطوّر الوجود انطلاقًا من هذه القصة الغامضة.

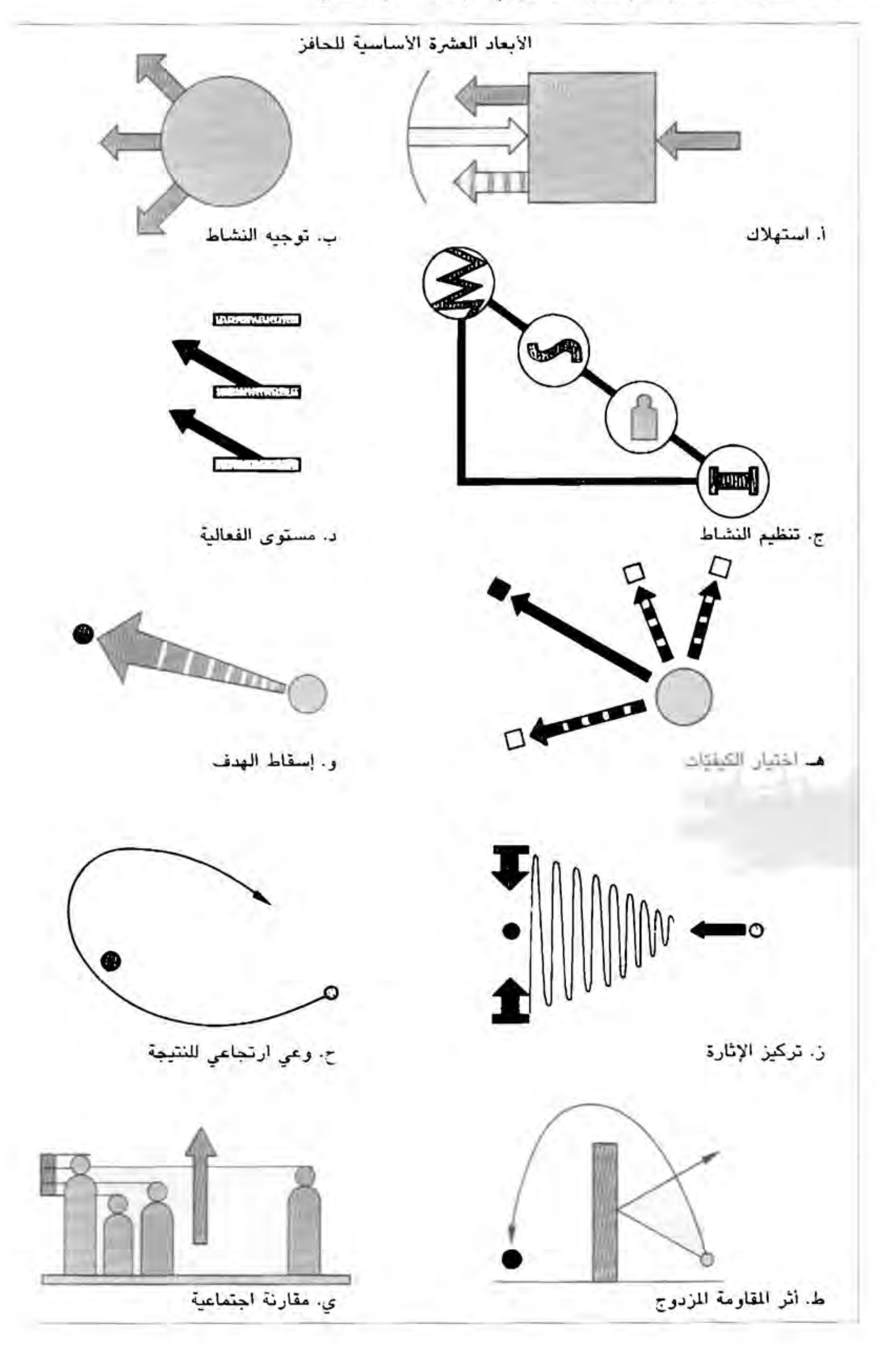
(١) يتعرف الغيري حالًا إلى النداء الأخلاقي: «الخدومية التي لا تطرح أسئلة هي صفة نبيلة وعادلة».

(٢) يكتشف الأناني وضعية الحسنات – السيئات: «حقّق النفع الذي تحصل عليه من هذا الامر كي لا يصيبك أي أذى».

(٣) يقيِّم الذرائعي ويقرّر تبعًا للوضع سواء كان ذلك نابعًا من الأخلاق أولًا: «اقتسم الحمل تتخلّص من ورطة»

(٤) ولا يتعرّف اللامبالي إطلاقًا إلى الدعوة الأخلاقية في المثل: «تعلّمني هذه القصة أنّ عليّ، في الصحراء، أن أحتمي من الشمس».

تدلّ هذه التأويلات المختلفة على أن في خلفية التفكير أنظمة معرفية للآراء وتوجهات مسلكية أكثر تعقيدًا.


الأبعاد العشرة الأساسية للحافز
ب. توجيه النشاط
أ. استهلاك
د. مستوى الفعالية
ج. تنظيم النشاط
و. إسقاط الهدف
هـ. اختيار الكيفيات
ح. وعي ارتجاعي للنتيجة
ز. تركيز الإثارة
ي. مقارنة اجتماعية
ط. أثر المقاومة المزدوج

كتبت **شارلوت بوهلر** (١٩٧٢)

«لا شكّ أن مفهوم الحفز هو المفهوم المركزي لعلم النفس الحالي»

يشرح هذا المفهوم ثلاثة أوجه عامة:

(١) إثارة عملية نفسية («واقع» انطلاقها)

(٢) الاشتقاق الوظيفي («من أين» تأتي الإثارة و«إلى أين» تؤدّي)

(٣) تغيّرية السلوك («لماذا» يتصرّف الواحد بخلاف الآخر)

قلّما تعتبر البواعث، اليوم، «أسبابًا» لأن الدافع والأثر يكادان لا ينفصلان في تداخل العملية السلوكية. وكثيرًا ما كان هذا المفهوم، منذ أثاره **جورج كلي** (١٩٥٨) موضوع تساؤل.

في الواقع، لا يمكن أن يكون الإنسان «جامدًا» - ثم يتحرّك وهو دائمًا منشّط وموجّه أولًا من الداخل وتكميليًّا من الخارج.

الحوافز هي تعديلات وقتية لنشاطات مستمرّة (فصل ٩).

أ. استهلاك

تستوجب الإثارات، التي تطلق سلوكًا ما، أسبابًا موجبة كيفية ما يعني أنه قلّما يمكن إقامة علاقة مباشرة بين السبب والنتيجة («حرّية» أو احتمال أساسي للحافز). لأن كل شيء، في الواقع، يتعلّق بالطريقة التي نتصدّى بها للدوافع، كيف «نستهلكها»: إذا كنّا نقوّيها أو نضعفها أو نعدّلها، إذا كنّا نستخدمها لغاية (حافز محدد الغاية) أو إذا كنا نسعى فقط إلى أن نستخلص منها تسلية وعزاء (حافز واضح)؛ أو إذا كنّا ننفعل بطريقة متغيّرة (تبدلية، مزاج) أو تبعًا لموقف ثابت («حالة تركيزية على الدافع» (فصل ١٢/٣، أ).

ب. توجيه النشاط

الدوافع هي توجيهات تعطى للنشاط يمكن أن يتميّز أصلها وغايتها، بالمعنى المكاني - الزماني، بمستويات تنشيط مختلفة:

من أصل داخلي أو خارجي؛

طَموح (مبادرة) أو بارد الطبع (رفاهية)؛ دوافع قصيرة المدى (سرور مباشر) أو إلى مدى طويل (عنصر أخلاقي) مرتبط بالبيئة (تمثل) أو نازع نحو الاستقلال (تحفيز سلبي)؛ مندفع (تحدّده اللحظة) أو رزين (معتمد على التفكير).

ج. تنظيم النشاط

تنظّم الدوافع مبدئيًّا، بطريقة حرّة، أي أنها يمكن أن تبرز في تنظيم ثابت (= باعث وردّ فعل يتطابقان دائمًا)، أو تكون فردية ومستمرّة (= علاقتها تَسِمُ الشخص المعني بها)، أو اعتباطية (= يتّصل الدافع والفكرة والعمل بطريقة متبدلة)؛ أو اتفاقية (= العلاقة بين المناسبة والدافع وردّ الفعل تبدو طارئة).

د. مستوى الفعالية

يتغيّر كل حافز تبعًا لمستوى الوضع الأساسي:

تختلف الشهية للطعام عند الشخص الشبعان عنها عند الشخص الجائع.

وعلى امتداد الحافز أيضًا تكون التحوّلات ضرورية (تغيّر الدافع).

هـ. اختيار الكيفيّات

لدى كل إنسان سلسلة من التخمينات، لاواعية في أكثرها، حول إمكانية الخيار المتاحة له. فيسلّم بالبدائل التي تظهر في كل حالة محسوسة. فيكوّن من هذه البدائل نِسخًا لمخطّط حياته (بالقسمة = استنتاج انطلاقًا من آراء عامة؛ بالتجميع = تجتمع دوافع مختلفة لتشكّل قناعة).

و. إسقاط الهدف

إذا كان الهدف مضمونًا فيتدعّم من الداخل (ازدياد التوقّع) بقوة تجعله يقترب وتجعل الموقف التنافسي يتحرّك بوضوح. ويحدث، في الوقت نفسه، بشكل عام، تركيز حول الهدف مصحوب بانتباه انتقائي (إجراء اختيار) يطغى على سائر الأهداف وتتكاثف الجهود (أثر الرغبة؛ ازدياد الجذب عند اقتراب الهدف).

ز. تركيز الإثارة

لا ينفصل الجانب الانفعالي عن الدوافع التي تنعكس قوتها على تزايد الإثارة. ويمكن هنا للمشاعر السلبية (مثل الخوف من الأحداث المفزعة) والإيجابية (الأمل في ما يرضي وما يكمل)، أن تتمايز أو أن تتلاءم بطريقة مزدوجة.

ح. وعي ارتجاعي للنتيجة

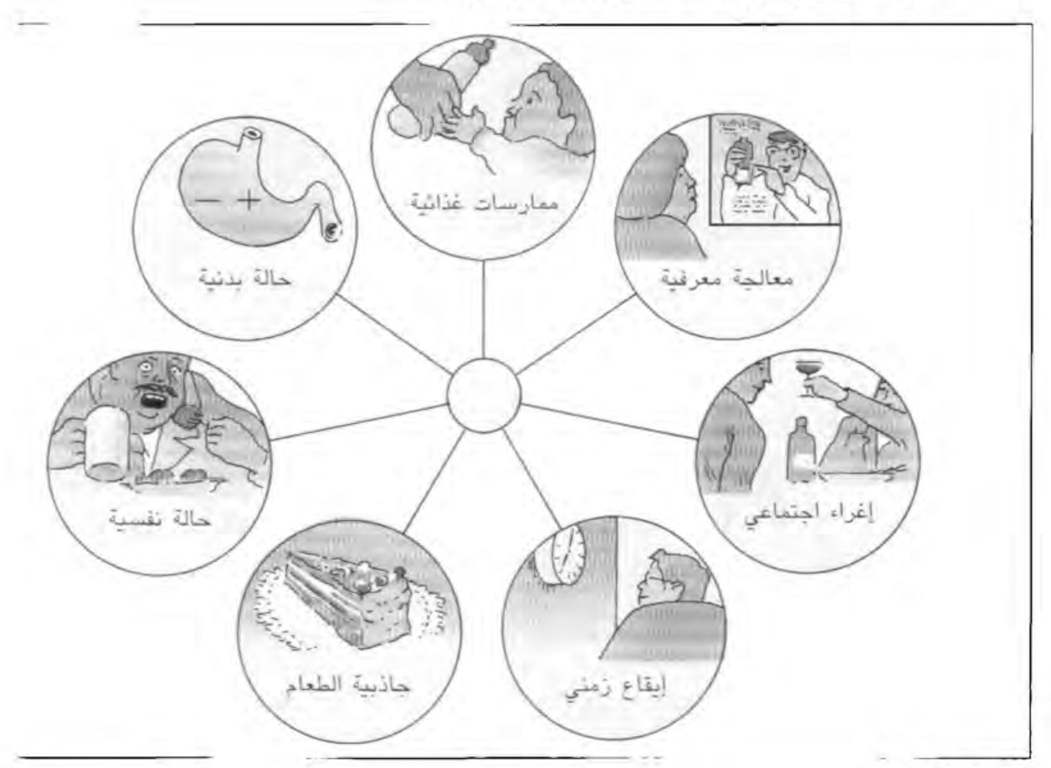
لا «يتلقّى» الناس الحوافز فقط، لكنهم بالمقابل يكوّنون لأنفسهم، انطلاقًا من خبرتهم، معلومات عن آثار الدوافع. وهكذا نشأ تدريجًا كنز من المعلومات حول الحافز (وعي وظيفي للدوافع).

ط. أثر المقاومة المزدوج

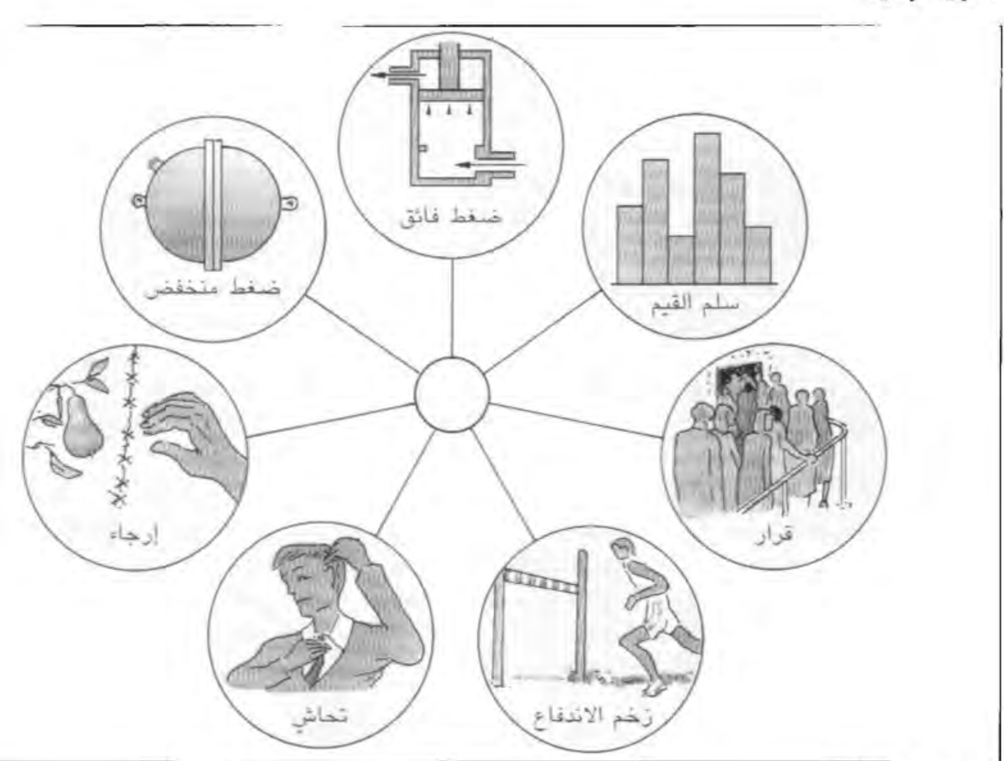
إن أكثر الدوافع لا تنجز سريعًا إذ تنتصب حواجز بين التمني وتحقيقه. فهذه الحواجز لا تعيق فقط لكنها أيضًا تزيد الإثارة.

ي. مقارنة إجتماعية

ليست الدوافع فقط قضية شخصية، يشترك فيها المحيط والجماعات بطرق مختلفة، يوفّر المحيط دوافع لكي يُقتدى بها ويضع لها قواعد (حدودًا). تمارس المنافسات الخارجية تأثيرًا على الدوافع وقد ينتقص المجتمع من قيمتها كونها كثيرة «الرواج» (مثل رواج الأجهزة الصافية الصوت (هاي فاي).



أ. دورة الإثارات



ب. تعديل النزوة

تعتبر النزواتُ البيولوجية البواعثَ الأكثر أهمية وإلزامية، فهي تؤمن الوظائف الحيوية الأساسية، التنفّس وحركة الجسم والنوم والأيض والولادة. ولكن من الخطأ ألا نرى فيها سوى ناحية الوظائف البيولوجية. يوظّف الإنسان حوافزه «بطريقة كيفيّة» (وأحيانًا حرّة)، ما يعني أنه يستطيع، بفضلها، علاوة على الغايات البيولوجية، أن يتتبّع أهدافًا إضافية؛ وليس من النادر أن يحوّلها حتى بطريقة غير معقولة تلحق به ضررًا.

أ. دورة الإثارات

نعالج هنا، كمثل على النزوات الأخرى (المدعوّة «بواعث أولية») «الدافع الغذائي».

ما هي الدوافع الغذائية؟

إنها تشكّل دورة من الحفز المقفل مع سلسلة من فئات الدوافع يمكن أن تحثّ أو تعيق بعضها بعضًا (اضطرابات التغذية، من ذلك، التشحُّم، السمنة).

نميّز سبعة مجالات من الحفز الغذائي تشكّل، مجموعةً، «توازنًا أساسيًّا» فرديًّا ويمكنها أن تتنافر جزئيًّا وتخلخل التوازن.

ممارسات التغذية يتعلّمها الطفل باكرًا ثم تكتمل، فيما بعد، بالاختبار. إن عملية تغذية الطفل بانتظام أو تبعًا لإمارات الجوع، أية كمية، في أية ظروف عاطفية، تشكّل تجربة مكتسبة تسم «حياته الغذائية» التالية «بوعي غذائي» فردي (توجيه مكافأة أو عقاب)

تثير الحالة البدنية أدلّة على الجوع. ومن أمثال ذلك يظهر في الدماغ أثر معدّل السكر في الدم. ولكن عندما تمتلئ المعدة؛ تتولّد أدلّة على الشبع بعد ذلك بكثير لتمارس رقابة فعّالة.

تتدخّل الحالات النفسية بطريقة ارتجاعية وتعويضية: فتعدّل السلوك الغذائي (الضجر، مثلًا)؛ كما أن النقص بالڤيتامين، مثلًا، يؤثّر في الحالة العامة.

لجاذبية الطعام دورها أيضًا: يأكل الإنسان بعينيه.

والإيقاع الزمني يؤثّر بشكل أقوى أيضًا على الشهية: عندما يقدّم الغداء عند الساعة الواحدة بانتظام، تدقّ الساعة البيولوجية في تلك الساعة دائمًا.

ويتدخّل الإغراء الاجتماعي أيضًا في عملية الحفز هذه. إن تناول الطعام بشكل جماعي يعدّل السلوك الغذائي الفردي.

ويمكن للمعالجة المعرفية، وبالتالي للموقف تجاه الغذاء (مثل موقف النباتيين) أو للتصوّرات الإيديولوجية (الإيديولوجية الغذائية الجماعية)، يمكن أن تؤثّر بقوة على الحفز الغذائي. وللصيام، مثلًا، في عديد من الأديان، دور التقرّب من الله.

ب. تعديل النزوة

إن عملية النزوة هي، تقريبًا دائمًا، عمل اتّزان داخلي، أي عملية توازن ارتجاعي؛ وبمقابل ذلك فإن التواليات الجامدة التحريض - ردّ الفعل تشكّل حالة استثنائية. وتعطي أيضًا أهمية متزايدة لأسباب تغيّر ردود الفعل على الاندفاع. تميّز ٧ انماط من التعديلات التي تظهر في نزعتين متكاملين:

تعديل الانفعالية (الضغط) وتعديل الموقف تجاه التحريض (اختيار وجهة النظر أو تعديلها)

يخضع تعبير الضغط (أو الحافز) المفرط لنموذج الاندفاع الذي تراكم، استنادًا إليه، الحاجة البيولوجية حتى يتجاوز الضغط الداخلي عتبة إطلاق الصمام. وهكذا يمكن تفسير القوة الخاصة لردود الفعل الاندفاعية بعد تراكم الطاقة.

وبمقابل ذلك يفسّر نموذج الضغط المنخفض (الممثّل بنصفي كرة فارغتين) النزعات الهزيلة ونعني بذلك انحطاط الاندفاع بعد غياب طويل للاستخدام: تُكبَحُ طاقةُ الانطلاق.

ويشرح نموذج إرجاء ردود الفعل الداخلية نتائج العوائق الداخلية (القلق، مثلًا) أو الخارجية (مثل النواهي) من أجل إرضاء الغرائز. ويمكن أن يكون لإرجاء ردّ الفعل أثر تحريضي على تكوين الرغبة.

ويلاحظ نموذج المحاشاة في عالم الحيوان تحت شكل «نشاط لا ينسجم مع الواقع»

عندما تنكت دجاجة من الرتبة الدنيا الأرض (مضطربة) بدلًا من أن تدافع عن نفسها. وعندما يحكّ الرجل رأسه أو يعدّل ربطة عنقه أو يداعب مفاتيحه.

يفسّر السلوك اللعبي و«السلوك الترفيهي» (التنظيف، الاسترخاء) بالطريقة نفسها.

ويمتّ زَخَم الاندفاع بصلة إلى ظروف انطلاقته. فإذا كان تحقيق الرغبة صعبًا أو مستحيلًا فإنه يؤدّي إلى إنقاص النشاط أو المبالغة فيه (إذعان أو سلوك تعويضي)؛ ويعدل «جديد» الإثارات أيضًا عملية النزوة.

أما القرار بالنسبة إلى النزوات فيتعلّق بالتنشئة الثقافية. لكلّ جماعة كثيرة العدد، في الواقع، مصلحة، غالبًا في تحجيم النزوات أو في كبحها. تخضع النزوات لأحكام قيمية أخلاقية تُفْضي إلى مقاييس قيمية. وقد فشلت جميع المحاولات التي جرت لصياغتها في تعابير ذات صلاحية شمولية.

ويمكن، من وجهة نظر فردية، أن يتغيّر النظام التراتبي تحت تأثير هوَس ما، مثلًا. ومن وجهة نظر عامة، تستطيع التغيّرات المرتبطة بالعصر (كما لدى موجة التحرّر الجنسي) أن تعكس هذه التراتبيات. وتسهم مؤسّسات مختلفة (كالكنائس والأحزاب) إسهامًا قويًّا في تحديد القيمة الأخلاقية للنزوات.

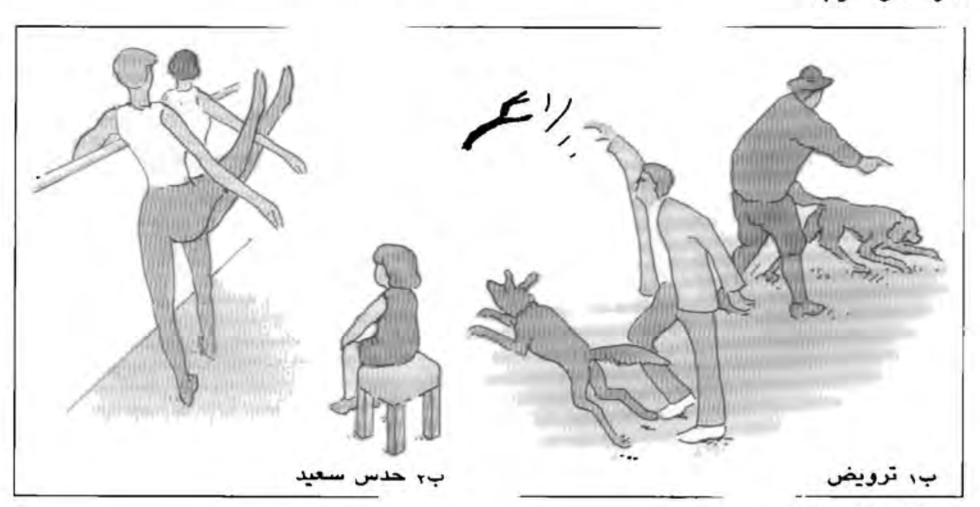


أ١ أمن



أ٢ جلوس

أ. رد فعل التوجُّه



ب١ ترويض

ب٢ حدس سعيد

ب. تكوّن الاهتمامات



ج١ بحث عن الإثارة

ج٢ الحاجة إلى التفسير

ج. الاستكشاف

عندما شرح **پاڤلوف** (فصل ١/٨) هذا السؤال «ما هو الارتكاس» كان يلفت الانتباه إلى بواعث الإثارة (الهيجان) بالإضافة إلى بواعث النزوة (فصل ٩/١٣).

النزوات هي من مصدر داخلي والإثارات من مصدر خارجي. وقد تحدّث (**هوفلر، ميتزغر**) عن «ضغط» و«توتر» في عملية الحفز.

إن هذين العاملين غير مستبعدين لكنهما يختلفان فيما يخصّ مركز ثقل سببهما: نشعر بأن أحدهما يدفعنا إلى أن نتصرّف والآخر يشدّنا إلى أن نفعل شيئًا ما.

أ. ردّ فعل التوجُّه

(أ١) الأمن: يقع التوجّه النشط في أسفل السلّم. عندما يرعى قطيع من الحيوانات يقف أحدها رقيبًا خوف المفاجأة.

(أ٢) الجلوس: عندما يقعد الزبون في مطعم يختار عفويًّا الأماكن التي تحمي ظهره. تقتضي آداب السلوك الصارمة، في الثقافات القديمة، كما في الصين، أن يجلس الضيف ووجهه نحو الباب أما المضيف فيدير للباب ظهره.

درس **سوكولوف** (١٩٦٣) ارتكاسات التوجّه وحدّد ظهورها عندما تدخل حوافز جديدة أو معقّدة.

عندما تشير الأوضاع إلى غموض أو خطر (كما في حال المثيرات المتناقضة)

عندما تبرز حوافز مرتبطة بالشخص (اسمه مثلًا)

وتحت تأثير هذه الحوافز يغيّر الجسم وضع جهوزيته:

ازدياد الانتباه (أو التحسّس)، تنامي التوتر العضلي، تسارع الطاقات الدماغية، تكاثر الارتكاسات النباتية.

ب. تكوّن الاهتمامات

أصبح تعبير الاهتمام في القرون الوسطى تعبيرًا حقوقيًا يقتضي دفع مقابل لعمل خاطئ. تحوّل في العصور الحديثة إلى «نسبة دين». يستخدم هذا المفهوم حاليًا بالمعنى النفسي كنزعة علائقية دينامية

يتطلّب تحديد مفهوم الاهتمام أو المصلحة بعض التوضيحات الإضافية:

(١) في أساس الاهتمام توترات موجّهة نحو الخارج ومحتواها غير أكيد: نتمنّى عمل شيء هام.

(٢) انطلاقًا من احتمالات لا عديد لها تشدّنا يبرز التوق والرغبة مع شيء من المفاجأة «تكشف الاهتمامات (المصالح) عن ذاتها ولكن لا يمكن تعلّمها» (**تايلر** ١٩٥٦).

(٣) تبدو الأشياء المنتقاة لذيذة إلى درجة تثير الحماسة وغالبًا ما تولّد انطباعًا سرّيًّا.

(٤) تشمل أكثرية الاهتمامات الوظيفة ووسائل التسلية (الهوايات) التي تؤثّر في الشخص بطريقة فعّالة وكثيرًا ما يزيدها المجتمع فعالية.

(ب١) الترويض: تستطيع الحيوانات، بشكل عام، أن تتعلّم ما يتوافق مع مؤهّلاتها. فبعض أجناس الحيوانات تتعلّم بسرعة أن تجلب حاجة لمدرِّبها، إلّا أنه من السهل تدريب حيوانات أخرى على أن تقتفي أثرًا.

(ب٢) تتطوّر الاهتمامات عند الإنسان بطرق عِدّة.

تعي الفتاة الصغيرة، مثلًا، اهتمامها بالرقص بمراقبتها تمرينًا رياضيًّا إيقاعيًّا.

يجب ألا ننسى أن بعض الاهتمامات تبدو «فطرية» (مثل الرسم كموهبة ودون نموذج)، لكن بعضها الآخر يتولّد عن حدْس سعيد. وهنا يلعب رفض توجّهات أخرى دورًا عظيمًا إلى درجة يضيق معها هامش الاختيار. وأن للشعور بالرضى والارتياح أهميته. تمتلك الاهتمامات صفة نوعية مقترنة بالدور (الخاضع للطبقة الاجتماعية وللوضع الجنسي).

ج. الاستكشاف

منذ المنعطف المعرفي لعلم النفس توسّعت الأبحاث لتشمل ردود فعل التوجه حتى ردود فعل الاستكشاف. دعا **و. شتيرن** (١٩١١) الإثارات «الناشئة عن الأعماق السحيقة» الظواهر المحرِّكة.

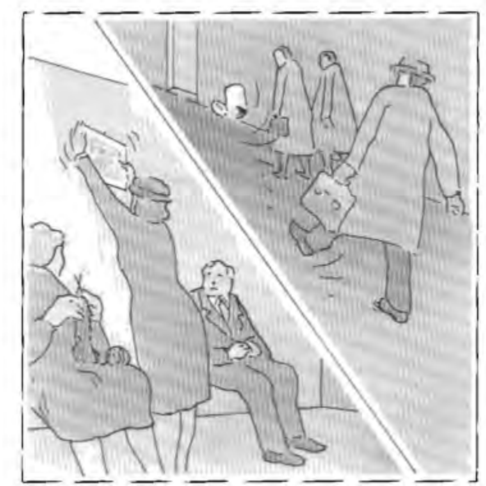
(ج١) لقد تأكّد، على أثر اختبارات على الجرذان، أن هذه الحيوانات مؤهّلة لتحمُّل أذى جسيم (مثل صدمات كهربائية) لتحصل على مستوى أعلى من التحريض في بحثها عن الإثارة أو لتكتشف مصادر جديدة للمثيرات.

(ج٢) يُلاحظ عند الإنسان «الباحث» أكثر ما يلاحظ ردّ فعل الاستكشاف. تبدو حاجته إلى التفسير العلمي غير محدودة: في الفناء الخارجي (الكون)، في داخل الإنسان وفي العوالم المجهرية، لكن الميزة الاستكشافية تصطنع الحواجز لنفسها. وعلاوة على ذلك فإن السلوك الاستكشافي قد يسيء إلى كثير من قطاعات الحياة وإلى بعض المؤثّرات القوية:

«السلوك المقاتل» في المجال الاجتماعي (تسلّم السلطة في مقابل الإذعان)،

الميل إلى تخطّي الحدود، كالتجسّس على حياة الآخرين الخاصة،

وفيما يخصّ استكشاف الذات، الاهتمام، المبالغ فيه، بردود الفعل الجسدية لدى المصاب بالوسواس.



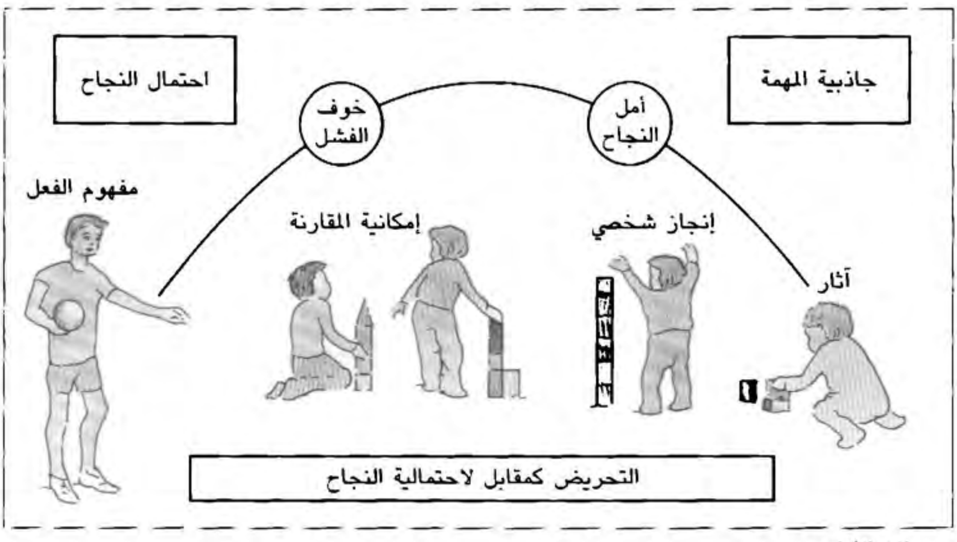
أ. فعل دافع



ب. فعل غير هادف



ج. فعل هادف



د. حافز الأداء

الأفعال هي وحدات نشاط بسيطة أو معقّدة تُبرز بعض البنى التنظيمية. وبتعابير سريعة، يتضمّن كل فعل:

الانطلاق (تجربة النداء المعيشة)

عمليات متنوّعة (استعداد فطري أو عادة مكتسبة) والأهداف أو «معناها» كدلالة ذاتية.

يمكن أن يتمّ الفعل بطريقة مدروسة (عقلانية) أو لاقصدية (لاواعية)

أ. فعل دافع

يشعر البعض بأنه مدفوع إلى أن يرفس علبة محفوظات ملقاة في الشارع. لوحة معلّقة بطريقة منحرفة، تهانف «وقح» لشخص زقاقي أو، من ناحية مختلفة، وجه طفل يتألّق فرحًا («ترسيمة ولد صغير»). كل ذلك له صفة الدعوة إلى الفعل (**ليفْين**)

يستخدم علم نفس البيع صفة الدعوة هذه لتحقيق عمليات شراء إغرائية: أمام الصندوق سلال من البضائع الجذّابة يشتريها الزبون دون إرادته. كثيرة هي الأمثلة على انطلاقة لاإرادية لفعل لا يتجاوز الحافز عليه مستوى الفكرة المفاجئة والآنية.

ب. فعل غير هادف

في وضعية الانتظار، كما عند الحلّاق، مثلًا، يجب على الزبون تخطّي مرحلة اللانشاط. والمحالّ التجارية المشهورة تكون مجهّزة، في أكثر الأحيان، لهذه الغاية. فإن محتواها الإعلامي هو على صلة بتلك الأوضاع، فالمحتوى بحدّ ذاته لا أهمية له لأن الحاجة تدعو إلى تسلية «لا هدف لها».

إن الأهداف، في هذه الأفعال غير الهادفة، ليست غائبة تمامًا لكنها موزّعة بحيث لا تدخل ضمن حقل الرؤية؛ بل على العكس من ذلك: فإننا نعرف بالضبط ما لا نريد (مثل، معلومات أساسية، مفصّلة وخاصة)، يبدو، مع هذه الفئة من الأفعال، أن عناصر الفعل الثلاثة المذكورة آنفًا (الإنطلاقة، الإجراء، الهدف) تشغل أوضاعًا مختلفة.

ج. فعل هادف

نعطي مثلًا على ذلك ممارسة ركوب الدراجة. ماذا يحدث من وجهة نظر علم النفس؟

– معرفة الممارسة أولًا
– معرفة لماذا نريد ذلك
– الإطلاع على حالة الطرقات
– إثبات الجدارة على بذل الجهد
– وعي الفائدة التي يمكن الحصول عليها من ذلك
– الشعور بأن الممارسة هي ممتعة وخيّرة بحدّ ذاتها

تمثّل كل واحدة من هذه النقاط الست عدّة أوجه:

الاكتمالية (موزّعة تبعًا للاستعدادات والكفاءات)

معرفة الهدف (فهم المهمّة، معرفة البدائل، استباق الهدف، تحديد الفائدة من الهدف)

الأوضاع الراهنة (التكيّف مع الظروف الحقيقية)

مستوى الالتزام (الشعور بالواجب، تحمّل المسؤولية، الاستعداد لبذل الجهد)

التقييم المعرفي (توقّع المنفعة، تقدير احتمالات النجاح...)

معلومة مرتجعة (نتائج مستخلصة من سير العمل)

د. حافز الأداء

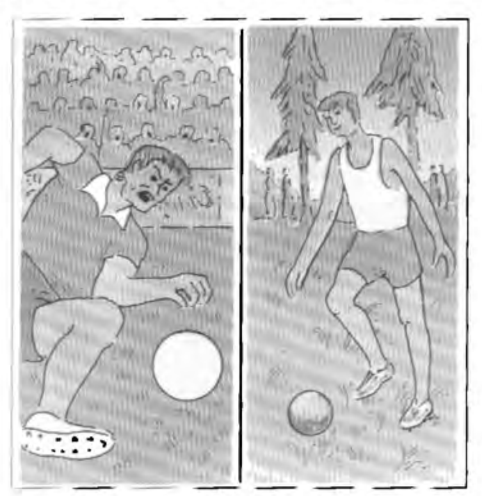
الأداءات هي حالات نوعية لأفعال موجّهة نحو هدف، وهي تنطوي على الوجه الخاص للأوضاع التنافسية («إنجاز ما يستلزم الآداء»)

لا يعرف الطفل إلا آثار اللعب. فهو بعد الثالثة من العمر لا يبقى غير مبالٍ بما إذا كان هو الذي يبني البرج أو سواه: فهو يعي بعد الآن إنجازه الشخصي. وتضاف، بعد ذلك، معايير أخرى، مثل إمكانية المقارنة، ويدرك النجاح والفشل بمقارنة عمله بعمل سواه. وأخيرًا يُعدّ الإنسان مفاهيم فعل متنوّعة لكل من شرائح العمر المختلفة (المهنة، الرياضة).

درس **ماكليلاند** اختباريًّا حاجة الأداء كجواب عن فعل ما.

وقد تمّ تمييز نوعين من الأشخاص استنادًا إلى نزعاتهم السلوكية المهيمنة: منهم من يدفعهم إلى النجاح (أمل النجاح) ومنهم من يتحاشون الفشل (خوف الفشل)؛ يفضّل أولئك الأفعال المتوسطة الصعوبة، ويتأرجح هؤلاء بين الأعمال الصعبة جدًّا والسهلة جدًّا. ففي المنحنى (أمل النجاح) و(خوف الفشل) يلعب تصوّر «جاذبية المهمة» وتوقّع «احتمال النجاح» دورًا محدّدًا بالنسبة إلى التحريض (منحنى صاعد أو هابط) الذي يمارسه العمل كمقابل لاحتمالية النجاح («توقع × تقدير القيمة»: مستوى التحريض التام على الأداء = فرق أمل النجاح – توقّع الفشل، أي «أمل واضح بالنجاح»).

وفي اختبارات حديثة، تأكّدت النظرية التي بموجبها يزيد الأمل بالنجاح، بخلاف الخوف من الفشل، إمكانية الآداء، تأكّدت بالنسبة إلى الإنجازات ذات المدى المحدود زمنيًّا؛ وبمقابل ذلك، تعدّل بواعث الرقابة الانجازات البعيدة المدى أو المؤجّلة النجاح (فصل ١٣/١٤).



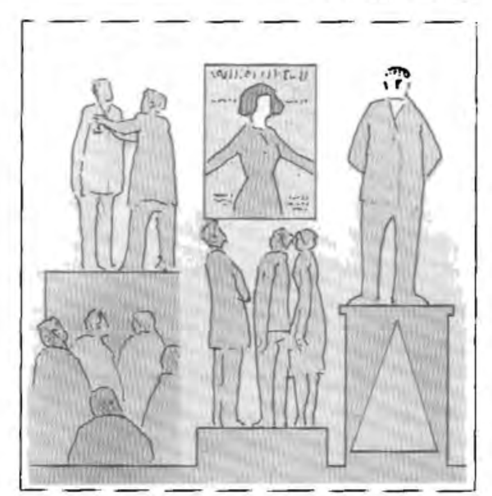
أ. تسهيل



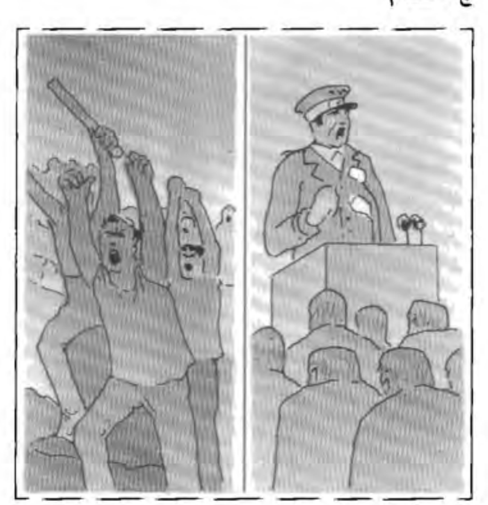
ب. صلة ومسافة



ج. التحام



د. تعارف اجتماعي



هـ سلطة وتحفيز سلبي



و. تكوّن الثقة

إن القسم الأكبر من الحوافز ينشأ عن ظروف اجتماعية. وبما أن الإنسان يقتدي دائمًا بالجماعات فهو لا يستطيع أن يتخلّص من البواعث الاجتماعية. بيد أن الأمر لا يتعلّق دائمًا بجاذبية الجماعة ولكن غالبًا أيضًا بحافز الرفض.

أ. تسهيل

أقام **ميومان** (١٩٠٤) الدليل، في اختبارات قديمة، على أن ردود فعل بسيطة (مثل رفع ثقل بإصبع واحدة) تؤدّي إلى نتائج أفضل بحضور مشاهدين، وبمقابل ذلك برهن **پيّسان** (١٩٣٣) أنه لاحظ ظاهرة عكس ذلك تمامًا فيما يخصّ تعلّم مقاطع عارية من المعنى. لذلك أهمل أثر التسهيل لمدة طويلة.

وكان **زاجونغ** (١٩٦٥) أول من أوضح هذه التناقضات. لقد نجح في إثبات أن السلوك «المهيمن» (أي الهام المتكرّر) في فئة معيّنة من الأفعال هو وحده ما يدعمه «حضور الآخرين» ويبدو، في هذه الحالات، أن حضورًا بسيطًا لآخر أو بالأحرى لمشاهدين كثيرين (كما يحدث في مباراة كرة القدم) يترك تأثيرًا مثيرًا.

ب. صلة ومسافة

يتحدّث **هاري ف. هارلو** (١٩٥٩)، في دراسة شهيرة له، عن قرود بندر صغيرة (rhésus) نشأت مع «أم بديل»:

الفئة الأولى قرب «أم من أسلاك حديد» (هيكل حديدي مُلحّم) والفئة الأخرى قرب «أم من قماش» (مغطاة بنسيج إسفنجي). ففي ظروف متشابهة بدت فئة الأم القماشية أوثق اتّصالاً بهذا الشكل المرجعي من فئة الأم الحديد. كانت صغار الأم الحديد تبدي انفعالات قلقة أكثر بروزًا عندما يوضع شيء غريب في القفص في حين أن صغار الأم القماشية كانت تتفحّص هذا الشيء بفضول ثم تتشبّث به كأساس أمين.

وإذا طُبِّقت هذه الأمثلة على الإنسان تُبرز الحاجات الاجتماعية العميقة للاتصال و«الملامسة المعزِّية»، وعلى عكس ذلك، تقف المسافة حاجزًا دون الأشياء الجديدة أو التي تعتبر خطرة مهدّدة.

ج. التحام

ينتج التحام فئة من الأشخاص عن سلسلة من الحوافز الاجتماعية. نذكر، في الدرجة الأولى، العمل الجماعي («سلسلة حَمَلة الماء») التي تفعّل قوى الفرد. وعلاوة على ذلك، ينشأ أثر التلاحم في الجاذبية التي تنبعث من أعضاء جماعة، من مبادراتهم التي تتجدّد دون انقطاع، من صعوبة الدخول في جماعة، من التفاعل المريح بين الأعضاء... وانطلاقًا من هنا تنمو التجارب المعيشة لدى الجماعة («الشعور الجماعي») التي بفضلها يتولّد عند الفرد انطباع بأنه مدعوم.

د. تعارف اجتماعي

تفيد الرغبة في التعارف بتأمين دعم أجتماعي. وبما أن الشخص غير المعروف في المجالات الحيوية الأساسية (الزواج، المهنة، الجوار...) يجد نفسه في وضع بائس لا صلة له بالقيمة الشخصية التي تنسب إليه، فإن الباعث الاجتماعي يصادَف تكرارًا. إن النزعة إلى الظهور كثيرًا ما تخفي تحتها الشعور بالدونية.

يمثّل الاهتمام الذي يوجّهه الإنسان إلى نفسه، من وجهة نظر اجتماعية، مجموعة من البواعث التي يمكن توزّعها في ثلاثة اتجاهات:

التفوّق (المقام) أي الاحترام، الموقع الاجتماعي، والتفوق التراتبي.

الاعتبار (النفوذ) أي الشهرة، الصيت الذائع، الامتياز.

تقدير القيمة الأدبية أي المكانة المرموقة والاعتبار الشخصي.

هـ. سلطة وتحفيز سلبي

يرتكز حافز السلطة، كحافز اجتماعي نوعي لدى الفرد، على الطموح إلى فرض تصوّراته الخاصة على الآخرين. قد يظهر الطموح إلى السلطة باكرًا، بصفته نزوعًا سلوكيًّا، على شكل سمة تشامخ (على الأخوة والأخوات، مثلًا)، أو فيما بعد في الطموح إلى مراكز مسؤولية. أو (من ناحية سلبية) إلى التعويض عن فقدان الثقة بالنفس. يمكن أن يدافع الطموح عن مصالحه الخاصة (الأنوية) أو مصالح الجماعة (التركيز على الخارج).

تختلف وسائل ممارسة السلطة:

التصديق القانوني (نقل مؤسسي للقيادة مع الوظائف والشعارات). السيادة الشخصية (توقّعات المرؤوسين. مثلًا على شكل مساعدة)، معارف متخصّصة، إيحاء النفوذ الشخصي، العنف المادي والنفسي، ضبط المواقع، حيازة معلومات...

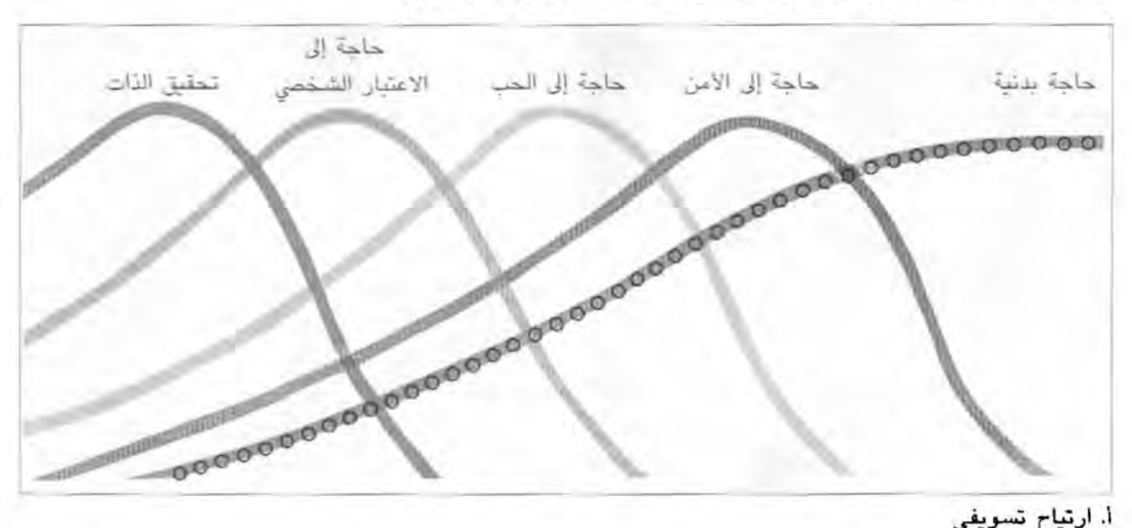
تصطدم حوافز السلطة غالبًا «بتحفيز سلبي» (أو بانتفاضة على كبت حرية العمل). يجمع **بْريم** (١٩٦٦) تحت هذا التعبير جميع مبادرات الأشخاص الذين يشعرون بأن حرّيتهم مقلّصة ويسعون إلى استردادها («معارضة على مختلف الصعد»).

و. تكوُّن الثقة

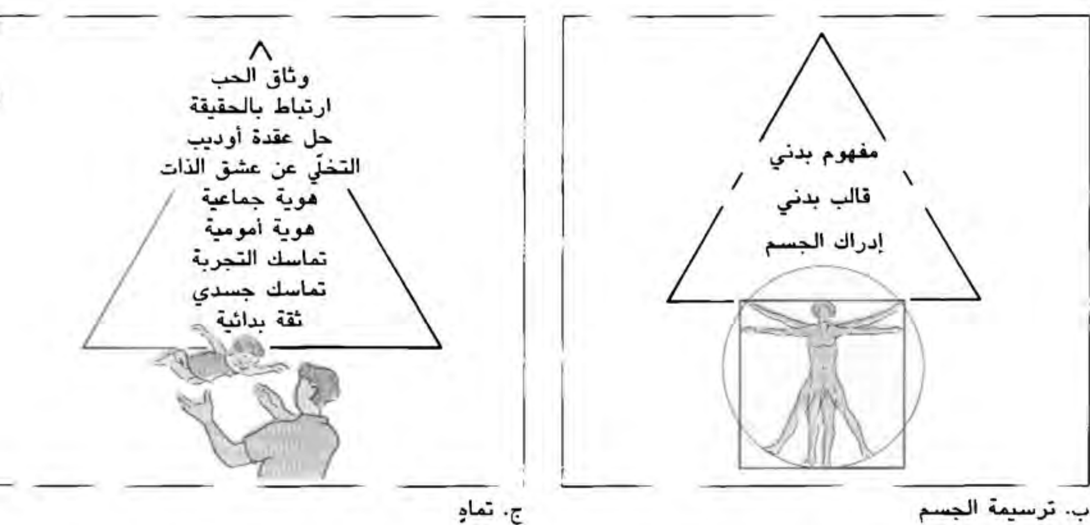
تتأسّس الثقة الاجتماعية بالآخرين بصورة تدريجية. تبدأ الثقة عند طفل بين الثالثة والخامسة من العمر، بالتأكيد على أنه الأضعف، فيطلب مساعدة الآخرين. وتنظّم، عند طفل بين الخامسة والحادية عشرة، على توقّع ردود فعل الآخر.

ويتولّد، ابتداءً من الثانية عشرة فقط وفي بعض الظروف، شعور بالوثوقية (الأمانة، الوفاء) تتيح له الاعتماد على الآخرين.

تصلح هذه المراحل أيضًا لتوطيد الثقة بين الجماعات والشعوب.



أ. ارتياح تسويفي



ب. ترسيمة الجسم

ج. تماهٍ



د. مفهوم الذات



هـ. التّوق إلى إدراك المعنى

طالما اعتبر الحافز (الدافعية) كمحاولة للتعويض عن عدم تحقيق المطامح. ودام ذلك إلى أن واجه **أ. ماسلو** (١٩٧٣) هذا «الباعث المفقود» بمجموعة بواعث البحبوحة التي كان يرى فيها اتجاهًا إلى تخطّي حالة الارتياح المقبول.

أ. ارتياح تسويفي

يشتمل الحافز، استنادًا إلى نظرية **ماسلو**، فيما يشتمل، على صفة المماطلة (أي ميل إلى التأجيل): إن الحاجة التالية والفضلى لا تدخل في حقل الرؤية إلّا عندما تحقّق الحاجات الأساسية. وضع **ماسلو** تراتبية من أربع فئات من البواعث لا تخلي الحقل للفئة التالية إلّا بعد تناقصها:

حاجات السلامة البدنية والحب والاعتبار وأخيرًا حاجة تحقيق الذات.

ب. ترسيمة الجسم

ترمز دائرة **ليوناردو دافنشي** الشهيرة، التي تدوّن فيها الحركات، في الصورة المقابلة، إلى أول مجال لامتداد الحافز. الجسم الخاص هو موضوع التماهي الأكثر وضوحًا. وندرك بسهولة أن «ضمانة ما وراء الذات» التي تنبثق منها بواعث البحبوحة تعود إليه.

لا نرى، في إدراك الجسم، الصورة المرآوية الحقيقية فقط، ولكن أيضًا، تصوّرًا نلتقطه «بطرفة عين» (كالمظهر الخارجي الذي نعرفه منذ سنين).

يعرف كل مجتمع نماذج جسمية (قوانين جسمية) يهتدي بهديها.

تتجلّى الطريقة، التي يكوّن بها الإنسان مفهومه الجسدي انطلاقًا من هذين العنصرين، بوضوح في الصعوبات التي يعانيها العديد من الناس بسبب مظهرهم الخارجي.

ج. تماهٍ

وضع المحلّل **إريك إريكسون** (على أساس تجربته الخاصة) نظامًا فضفاضًا من مهمات التماهي أو المماثلة (فصل ٩/١٣، د) ينطلق من الثقة الأولية أي تلك الثقة التي يشعر بها الطفل عندما يُلقى في الفضاء ويعاد التقاطه وتكتمل فيما بعد بثمانية معايير إضافية من التماهي. كتب **إريك**:

«إن الحشد النهائي لجميع العناصر المتقاربة في التماهي (وإلغاء العناصر المتباعدة) في نهاية مرحلة الطفولة يبدو مهمة خارقة الصعوبة. فكيف يمكن أن نتوقّع من مرحلة «شاذة»، إلى هذا الحدّ كمرحلة المراهقة، أن تصل بهذه المهمة إلى نهايتها؟».

د. مفهوم الذات

منذ أيام **و. جيمس** (١٨٩٠) تشغل مسألة «الذات» مكانًا مركزيًّا في علم النفس. وما يفهم بذلك، بشكل عام، عملية تكوين الذات:

كيف تولد شخصية فريدة من «ظل» الذات؟

تنبثق عدّة ميول إلى البحبوحة مرتبطة بالذات من مجموع المرجعيات المرتبطة بمفهوم الشخص.

يشكّل امتداد الذات مبدأ القرار عند التفكير «بالتقدم» ذهابًا ضدّ الرفاهية.

واختيار المنافع يحدّد الإطار الأساسي للنشاط.

وليست الصراعات نادرة، من وجهة النظر هذه: يجب (وخاصة للإقدام على أمر بدلًا من الاصطدام بمتطلّبات مستحيلة التحقيق) إقامة توازن بين المتطلّبات.

يرتكز الشعور بالقيمة الشخصية على الثقة بالنفس المكتسبة بواسطة تصاعد تدريجي يوفّر أساس تحقيق الذات.

إن مقاومة الذات (ضدّ الذات) تقدّم الحماية والدعم لتوازن مكتسب بين الذات المثالية والذات الواقعية، بين إرضاء الذات وانتقاص قيمة الذات.

هـ. توق إلى إدراك المعنى

يلعب «الكُبْرُ - فيما وراء الذات»، الخاص بالإنسان، في الفلسفة (مثل الانا المتعالي عند **كانط**)، دورًا عظيمًا بالنسبة إلى نظرية المعرفة كما بالنسبة إلى علم الأخلاق سواء بسواء. ويمكن لعلم النفس أن يأخذ هذه المبادئ بالاعتبار. يسمو الفكر بالإنسان فوق مصالحه الخاصة ومصالح الآخرين. ويستطيع الإنسان أن يصوغ أفكارًا حول قيمة الكون بمجمله وحول معناه ويراقب نفسه ويحدّد موقعه تأمُّليًّا.

تمثّلَ هذا التوق بطريقة رمزية بحتة في حركة الله الآب (التي رسمها **ميكال أنج** في سقف كنيسة سكستين في روما).

وقد نوَّه **أرسطو** «بالحد الأقصى»: يتوق الإنسان إلى كل ما يعتبره خيرًا.

يحتوي هذا النزوع إلى الإدراك الكثير من مستويات «البحبوحة».

يفترض توزيع القيم قرارًا فرديًّا حول ما يعتبر أولويًّا بالنسبة إلى الذات وإلى الجميع.

يجب أن يؤدّي توجيه الحياة، بواسطة المقارنات، إلى معايير حقيقية للسعادة.

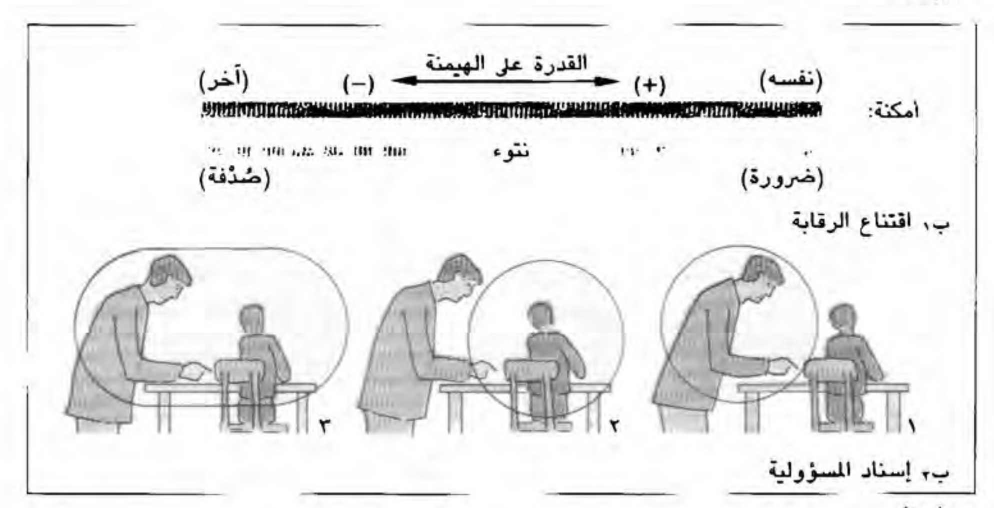
إن قبول الوجود يفسِّر الحياةَ وكأنها مزوّدة بمعنى معين («تأكيد المعنى»). تقلِّصُ الأخلاقُ ظاهريًّا التوجّهَ الحياتي (بإبعاد السلوك المعتبر شاذًّا) ولكنها بفعل هذا التقلّص تنمّي الحثَّ على حياة عاقلة.

يتعاظم التوق إلى إدراك المعنى عند الكثير من الناس، ليكوّن إيديولوجية شخصية (فصل ٤/٢٢).



	نمط رأي	تدعيم الرأي	تبديل الرأي
١	قناعة	برهان	نادر جدًّا (ذهان)
٢	مكان مشترك	إجماع	صعب (علاج)
٣	استنتاج	تقوية	متكرر (مصداقية)
٤	وقائع إضافية	إيحاء	سهل (دعاية)

أ. موقف



ب١ اقتناع الرقابة

ب٢ إسناد المسؤولية

ب. إسناد



ج١ مقاومة معرفية

ج٢ رقابة معرفية

ج. حفز تصحيحي

لا تهدف هذه الفئة من الدوافع إلى غايات محسوسة، ولكنها تعرض «نقيض» الدوافع المذكورة آنفًا. إنها بالمعنى الأرحب، دوافع الرقابة.

تعني الرقابة هنا التحقّق الواعي أو اللاواعي، القَبْلي أو البعدي، للمطامح. فينتج عن ذلك تعديل المطامح الموجودة أو إعاقتها أو إزاحتها بالرجوع إلى حافز من مستوى أعلى.

أ. موقف

إن «موضوعيتنا» تتخلّلها «ذاتية».

إذا تركنا (على شاشة، مثلًا) نقطتين تتحرّكان بحرية، نستطيع أن نميّز علاقة بينهما بدلًا من تعديل بسيط في تباعدهما. فيتولّد لدينا انطباع عفوي بأن الواحدة تلاحق الأخرى أو تترصّدها أو تتحاشاها.

نشعر، في أكثر الأحيان، بأننا «مضطرّون إلى التفسير»

(أ١) إذا أقمنا علاقة بين الطابة (إلى اليسار) والأوجه، نحصل على طابة كرة الطاولة (بنغ بونغ أو كرة المضرب أو كرة اليد... بحسب الوجه الذي نقارنها به.

(أ٢) إن استعدادنا الكامن للتأويل يتجلّى بوضوح في آرائنا.

وضع **م. روكيتش**، بهذا الخصوص، مقياسًا للمواقف (ممثلًا بشكل بسيط) يختصّ بتمازج الآراء.

(١) اقتناع (تصوّر ثابت)، مثلًا: «رأيته». تتأكّد هذه الآراء بإجماع ١٠٠٪ (كأنها قابلة للبرهنة): «الجميع رأوه». إن تبديل الرأي ليس ممكنًا (الذهانيون يهلوسون عرضيًّا).

(٢) أمكنة مشتركة، مثلًا «السكاكين خطرة»، يدعم الرأي بالإجماع: «الكثيرون تأكّدوا من ذلك». يحدث تبديل الرأي بصعوبة («بالمداواة» عند الحاجة).

(٣) استنتاج، مثلًا: «كان ذلك في الصحيفة»، يدعّم الرأي بتقويته: «إنها صحيفتي». يحدث تبديل الرأي بالتراجع عن المصداقية: «هذه الصحيفة تكذب».

(٤) وقائع إضافية (معتبرة بلا أهمية)، مثلًا: «معجون الأسنان هذا جيّد». يُدعَّم الرأي بالتقوية الذاتية: «لقد وجدته صالحًا»، تبديل الرأي سهل نسبيًّا، مثلًا، تحت تأثير الدعاية: «المعجون ذاك هو جيّد جدًّا».

ب. إسناد

(ب١) يتقدّم الإسناد خطوة: يقوم بإسناد «أسباب» (غالبًا بطريقة غير واعية). وصاغ **ج.ب. روتر** (١٩٦٥)، بهذا الخصوص، قضية «اقتناع الرقابة: «غلطة» من؟

يعيد **ب. ڤاينر** (١٩٨٤) هذه «السببية المدرَكة» إلى ثلاثة أبعاد (قابلة للتركيب):

يشير المكان إلى العامل السببي: هو نفسه أو شيء آخر (مثلًا، الحظ، أشخاص آخرون)؛

يمثّل النتوء (البروز) الدرجة المقيسة للقيمة أو للدلالة. (**و. شترن**، ١٩٥٠)،

القدرة على الهيمنة: إما أنه لا يستطاع عمل شيء ضدّ أو أنه استطاع، هو نفسه أو آخرون، مباشرة عمل ما مع أو ضدّ.

(ب٢) يتناسب «إسناد المسؤولية» مع نمط المشاركة

(١) التلميذ السيء، بالنسبة إلى الكثير من المدرّسين، هو غبي أو كسلان.

(٢) يبرّر الكثيرون من التلاميذ سقوطهم بتحميل الأستاذ المسؤولية أو التمرين الذي لم يفسّر لهم.

(٣) إن تحليلًا مختلفًا للأخطاء يؤدّي، بخلاف ذلك، إلى الكثير من الأسباب الأخرى: مشاكل عائلية، مواهب استثنائية، اهتمامات ذات قيمة أسمى...

في الحياة اليومية وفي الكثير من التحاليل العلمية تحتمل الإسنادات السببية نزوعًا إلى «الاقتصاد» يفهمه **ج.و. أولپورت** كارتياح مسبق منذ «التبرير الأول» («استخلاص متسرِّع»).

ج. حفز تصحيحي

(ج١) يمكن أن نفهم، آخذين بعين الاعتبار الجهود التي يتطلّبها بناء الذات، أن الاتجاه العام للحافز يسعى إلى عدم وضع هذه «الذات» في خطر وإلى إبقائها في الموقع المشغول حتى ذلك الحين.

يقول الإنسان في نفسه تحت تأثير المقاومة المعرفية:

«كل شيء حسن كما هو وأنا كما أنا» (حتى ولو بدا ذلك خاطئًا على نطاق واسع)

ننطلق، في نظرية «التنافر المعرفي» (**فِسْتِنْغِر**) من مبدأ أن نختار المعلومات والآراء والوقائع التي تنسجم مع التصوّرات الخاصة، في حين أننا نرفض ما هو مخالف لها. يؤكّد التحليل النفسي (فصل ٣/٢٠) على أواليات الدفاع حتى في الحلم.

(ج٢) تواجه المراقبة المعرفية الحوافز الشخصية للتحقّق منها. نذكر، في العديد من النظريات (الفعالية الذاتية **لبندورا**، الرفاهية النفسية **لبرادبورن** ومعاونيه وضدّ الأثر **لسولومون وكوربيت**؛ التحفيز السلبي، السلوك المضاد في المواقف التقلصية **لبريم**)؛ نذكر أسباب مراقبة الحافز المستقلّة.

نميّز في فحص الذات

ما إذا كان السائق المخمور يترك سيارته في الموقف لأسباب داخلية (ذاتية الهدف، باطنية) بسبب مسؤوليته تجاه عائلته أو لأسباب خارجية (غيرية الهدف، ظاهرية) خوفًا من الشرطة.



أ. إدراك ومعرفة



ب. أخطاء الحكم

كيف نعرف ما إذا كنّا سنتّفق مع شخص ما في رحلة جماعية. أو كيف نعرف على أي رأي نعتمد؟

كل يوم تقريبًا نسأل أنفسنا عن «معرفتنا بالإنسان» ولكن هل نستطيع أن نثق بأحكامنا؟

كيف نجري تقييمًا للآخرين؟

هذه المجموعة من الأسئلة هي ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى الاتصال الأول. ملامح جزئية تأتي في المقدّمة تؤدّي إلى تكوين «أثر الهالة» الذي يجعل من الصعب إعادة النظر في الحكم.

أ. إدراك ومعرفة

يُقرأ تاريخ هذه الإشكالية في تطوّرات المفهوم الأساسي. إن المفهوم الأولي «لمعرفة الناس» يشير إلى نوع من الطاقة الخفية، السحرية. أعيد، فيما بعد، استعمال عبارة «إدراك الآخر» المقتبسة من علم النفس الاجتماعي الأميركي. ولكن بما أن الأمر يتوقّف على إدراك المثيرات، استُخدِم مفهوم «معرفة الآخر». ويفضّل حاليًا استخدام تعبير «تقييم الآخر» لأن المسألة هي مسألة إصدار أحكام على أشخاص آخرين مبنيّة على إدراكات ومعارف، تستخدم هذه الأحكام غالبًا للتوجيه الإجتماعي على المدى القصير أو المدى الطويل.

نذكر هنا عدّة قواعد لها أهميتها.

(أ١) إن جسمنا ليس أهلًا للتعبير بانتظام عن انفعالاتنا الداخلية بطريقة تساعدنا على التعرّف إليها.

الإيمائية هي أول مجال للتعبير يتعرّف إليه الطفل وإليه يرجع أول ما يرجع الإنسان البالغ في تقييماته. وبعد الإيمائية تأتي الإشارة (باليدين) ثم وضع الجسم أو المشية ومجموعة من الحركات التعبيرية الصغيرة.

تُعطى الإيمائية غالبًا أهمية زائدة، وقلّما يُؤْبَه للمحتوى التعبيري لأجزاء أخرى من الجسم.

(أ٢) وتعبير الوجه هو مبدئيًا كيفي (حرّ جزئيًا)، ما يجعله غامضًا، مبهمًا. ولا يمكن، إطلاقًا اعتباره مضمونًا في التقييم بمقدار ما تحاول الصور التي تمثّل لغة الجسم التعبير عنه.

يشير التعبير الظاهر في الصورة (أ٢) إلى الاجتذاب والرفض على حدّ سواء؛ ويشير، بشكل إجمالي، إلى موقف مغازلة، يزيده تأكيدًا «الحيرة الخبيثة» لقلم الرصاص على الثغر.

(أ٣) وفي نطاق ما يكون تعبير الوجه متبادلًا مع أشخاص آخرين (وهذا ما ينسبه بعض أصحاب النظريات إلى كل تعبير) فإنه يؤدّي وظائف إضافية مثل الاتصال غير الكلامي.

(أ٤) تتنوّع الكفاءة في إصدار الحكم لتقييم شخص ما تنوّعًا قويًّا تبعًا لمعطيات اللحظة التي يصدر فيها الحكم، ومن مصلحة من يُصدر أحكامًا تقييمية (القاضي مثلًا) أن يحسب حسابًا لأهم مخاطر الخطأ لكي يستطيع تصحيحها.

ب. أخطاء الحكم

(ب١) أكثر الأخطاء تكرارًا هي التي ترتَكَب لدى تقييم ملامح الوجه. إن أحدًا لا يرتاب في أن بعض خصائص المحيا يمكن، نتيجة تكرارها، أن تترسّخ إلى درجة تصبح معها سمات بيانية وثابتة في الشخصية (تصبح سيماء مألوفة)

إن بعض المميّزات، مثل المسافة ما بين العينين (١) وطول الأنف (٢) وارتفاع الفم (٣) التي ثَبُت أنها تؤثّر تأثيرًا قويًا في الحكم على الشخص، لا تمثّل أي ارتباط ذي دلالة بملامح الشخصية التي قيست بطريقة موضوعية.

(ب٢) وتحدث أخطاء مماثلة متأثّرة بالوضعية.

يتمدّد بؤبؤ العين على ضوء الشموع ويضفي على القزحية لونًا قاتمًا، الأمر الذي يحدث انطباعًا باللجاجة والشهوانية اللتين يمكن عزوهما إلى الوضعية.

تؤدّي الحركات مثلًا إلى تبدّل ظرفي في الحكم.

فخادم المقهى الذي تقصر خطواته عن المعتاد، أمام زبنه، يعطي انطباعًا بأنه مستعجل.

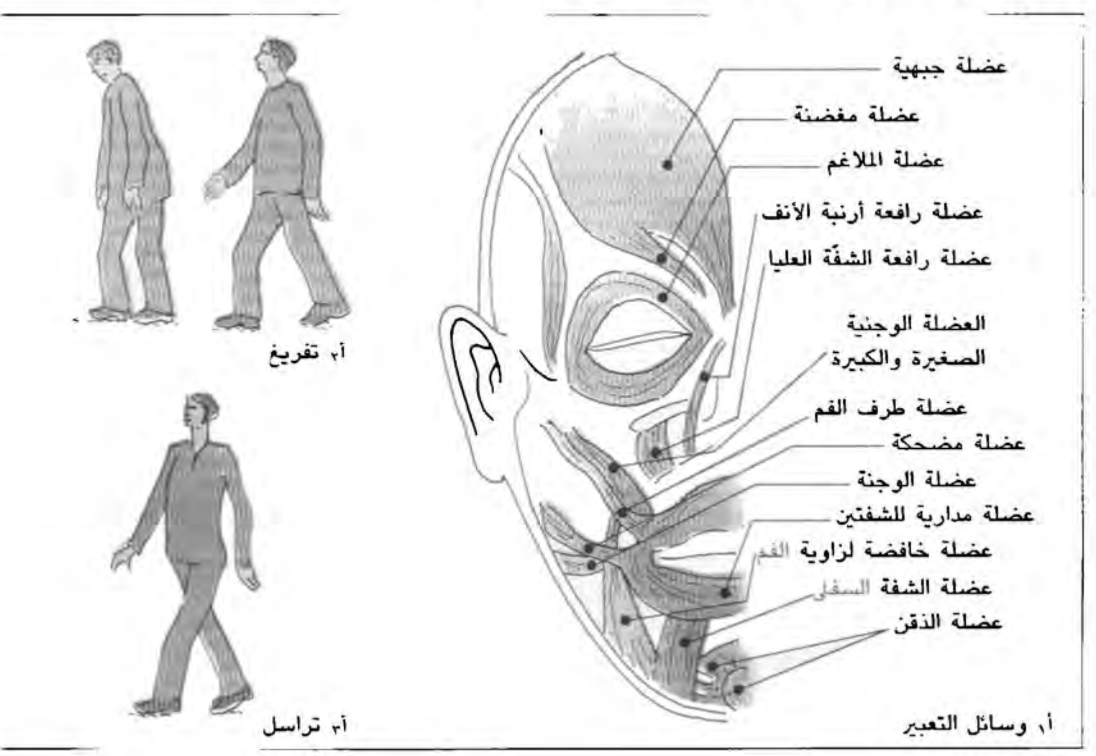
وتضعف ثقتنا باستعداد بعض الأشخاص لبذل الجهد لسبب وحيد هو أنهم لا يسعون إلى القيام بحركات تعبيرية.

(ب٣) وفئة أخرى من أخطاء التقييم ترتبط بالأحكام التخطيطية تبعًا لمعايير اجتماعية: القومية، الجنس، المهنة، العمر، الطبقة الاجتماعية، بلد المنشأ... نتلمّس لدى كل فئة اجتماعية بعض الملامح النموذجية. ولكن بما أن على الفرد أن يندمج في المجتمع تبعًا لعدّة معايير اجتماعية، فإن هذه التوقّعات تلتقي حتمًا. ويوجد أيضًا فرق بين السمات الاجتماعية الأساسية التي ندّعيها (والتي نكيّف معها تعابير وجهنا) وتلك التي ينسبها إلينا الآخرون وهم يقيسونها بمقياس السلوك المناسب).

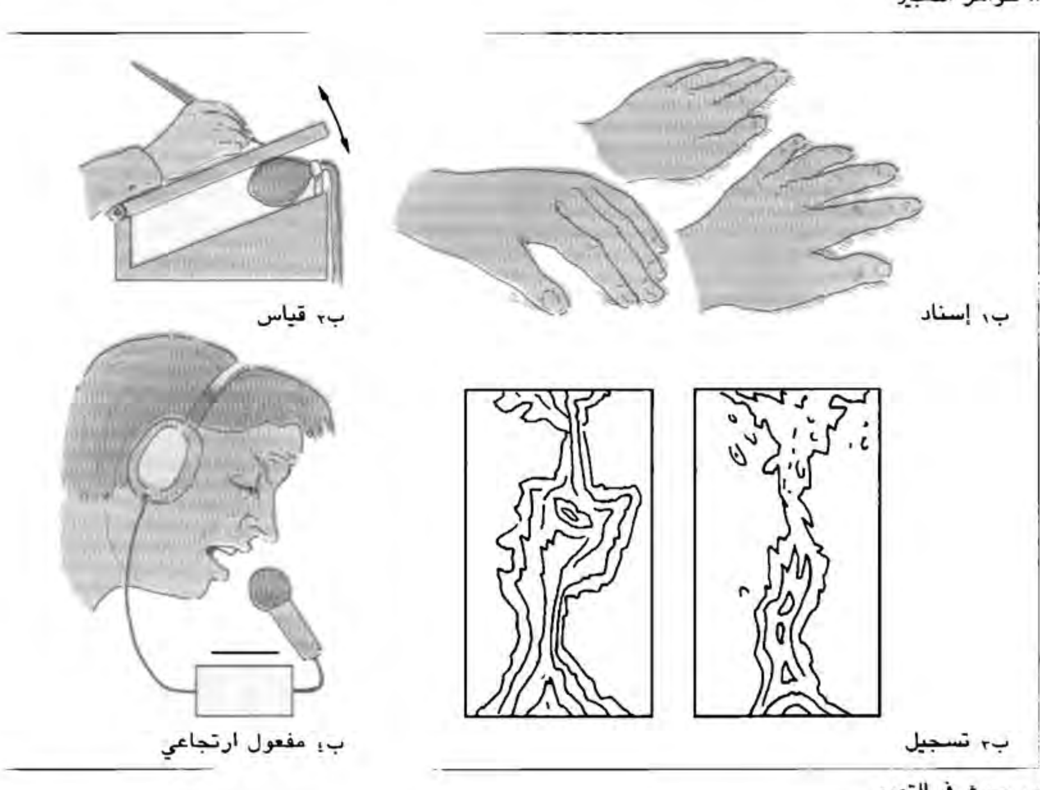
إذا كان تصنيفنا وتصنيف الآخر، وبالتالي أسس التقييم الاجتماعي لا تتوافق، فإن تعبير الوجه الذي نريده «صارمًا» يمكن أن يفسّر بأنه «سَمْج».

(ب٤) وانه من الصعب أيضًا تحاشي الإسقاط عند تقييم شخص ما. يستخدم الإسقاط، وهو آلية الدفاع بالمعنى المرضي، لإبعاد الانفعالات الخاصة اللاوعية ولتجاهلها ولتلبيسها للآخرين. ولكننا في الأحوال الطبيعية نميل إلى أن نرى في الآخر قسمًا كبيرًا من ذاتنا.

وينتج عن ذلك نزعة لاواعية إلى أن نكتشف أنفسنا في الآخر بدلًا من أن نقيمه بطريقة صحيحة.



أ. ظواهر التعبير



ب. بحث في التعبير

يمكننا أن نعتبر **جوهان كاسپار لاڤاتير** (١٧٤١-١٨٠١) أول باحث، في العصور الحديثة، عما يمتّ بصلة إلى قضية التعبير بالوجوه.

«ترى، في الجسم، النفسَ ومستوى قوتها وفعاليتها»

وبعد مضي قرن أطلق **شارل داروين** هذا التحذير:

«إن دراسة التعبير صعبة لأن حركات الوجه كثيرًا ما تكون خفيفة وسريعة وعابرة».

أ. ظواهر التعبير

ينشأ الافتتان بهذا المجال من معرفة الإنسان السريعة والحدسية والمرتبطة بالمعقولية المباشرة للإشارات التعبيرية. إن التصوّر أن الطاقة التعبيرية عند الإنسان، آقلّه في أهمّ نماذجها (فصل ١٣/١٧)، تتجاوز، إلى حدّ بعيد، ما عند سائر الكائنات الحية، هذا التصوّر هو في محلّه.

(أ١) ينشأ تعبير الوجه عن عدد كبير من العضلات (تتمثّل العضلات الأربع عشرة الأساسية في الرسم). ويضاف إلى ذلك تفاعلات حدقتي العينين وتلوّن الجلد («الاحمرار»). فيحدث عن ذلك مشهد وتنوّع من الإيماءات لا يستطيع أي حيوان أن يأتي بمثلها.

كيف تبدو ظاهرة التعبير؟ لقد عالج منظرون كثيرون هذه المسألة. تقسم النظريات إلى فئتين.

(أ٢) يعتقد منظّروا التفريغ أن التعبير يمثّل فقط ردّ فعل الجسم على عملية داخلية تستخدم ارتباطها الثابت لإثارة عمليات داخلية بالمقابل (بعضها يرجع إلى منهج فطري فيما يعود بعضها الآخر إلى تدريب مدى الحياة).

(أ٣) ويذهب منظّرو التراسل إلى أبعد من ذلك. إن تعبير الوجه، بالنسبة إليهم، هو، على أيّة حال، محاولة لوصل شيء بآخر بعملية تعبيرية.

يقول **ر. كيرشوف** (١٩٦٥): «التعبير هو، دائمًا، أحدٌ ما يتصّل بأحدٍ ما». لكن يمكن جمع هاتين النزعتين معًا. يعطي مثل المشي صورة تخطيطية.

يتيح لنا الشكلان في صورة (أ٢) أن نرى مشية رشيقة ومشية بطيئة. وكلتاهما تعبّر عن حالة داخلية تعرف من الخارج.

أما الصورة (أ٣) فتبرز مظهرًا متصلّبًا تتمتّع مشيته بدرجة عالية من الثقة بالنفس.

يبدو أن المثلين الأولين يؤكّدان نظريات التفريغ (التي كان **هـ سپنسر** أحد مؤيّديها الأوائل)، والمثل الثالث يؤكّد نظريات التراسل (التي تنتمي إليها نظرية **إ. كْلاغِس**).

لكننا نعرف أن عددًا كبيرًا من طرق المشي تقع بين هذين النموذجين وتمثّل التفريغ والتراسل سواء بسواء. ونوجز تركيب هذه التصوّرات تحت عنوان نظريات التعبير «الإثنيني».

إحدى هذه النظريات، مثلًا، هي «النظرية - العصبية - الثقافية» (**پ. إيكمان** ١٩٧٢).

ب. بحث في التعبير

يطرح البحث في التعبير المسألة التالية:

هل التعبير هو فقط صورة حالة مؤقّتة أم هو أيضًا تمثّل لحالات شخصية ثابتة؟

يستحيل تقديم إجابة موحّدة. يتحدّد التعبير بجملة من الأشكال التعبيرية، مثل:

التعبير الارتكاسي (استعادة ضحك الآخرين).

التعبير الفيزيولوجي (الاحمرار)

التعبير الرمزي (دعم التعبير بواسطة الثياب، بتسريحة الشعر، بمستحضرات التجميل...)

التعبير المعتاد (التجاعيد البارزة)

التعبير غير الكلامي (كمكمّل للنطق).

التعبير المتعمّد (تعبير الممثّل)

التعبير الاصطلاحي (الموقف الاجتماعي)

لتحديد هذه الحالات المختلفة نستخدم مجموعة من طرق البحث سنعرض أهم أربع فئات منها

(ب١) تستخدم أساليب الإسناد، منذ زمن طويل، لمقارنة بعض العناصر التعبيرية بالحالة الداخلية المفترضة

في تقنية المطابقة (**أرنهايم**) يضع الشخص الخاضع للاختبار يده على متّكأ: (a) هو نموذج الأفراد المشهورين بالقدرة على فرض أنفسهم، (b) بالسيطرة على الذات، (c) بالخجل.

(ب٢) اكتشف **وليم بنيامين كارپنتر**، منذ القرن التاسع عشر، حركات مختلفة ملحقة بالفكرة تكاد لا تُدرَك. واليوم بفضل تحسين التقنيات يمكن أن تدرس الحركات المجهرية في علاقتها التعبيرية دراسة دقيقة.

تستخدم طريقة قديمة، تدعى «ميزان الكتابة»، جهازًا يتيح تسجيل ضغط الكتابة بواسطة كرة من مطاط.

(ب٣) يمكن أن تسجّل خصائص **النطق** (مثل الإيقاع والنغم والترنيم) إلكترونيًا بواسطة مسجّل صوتي.

الرسم البياني يجعل لفظة التأوّه «آه» ملفوظة من قبل شخصين.

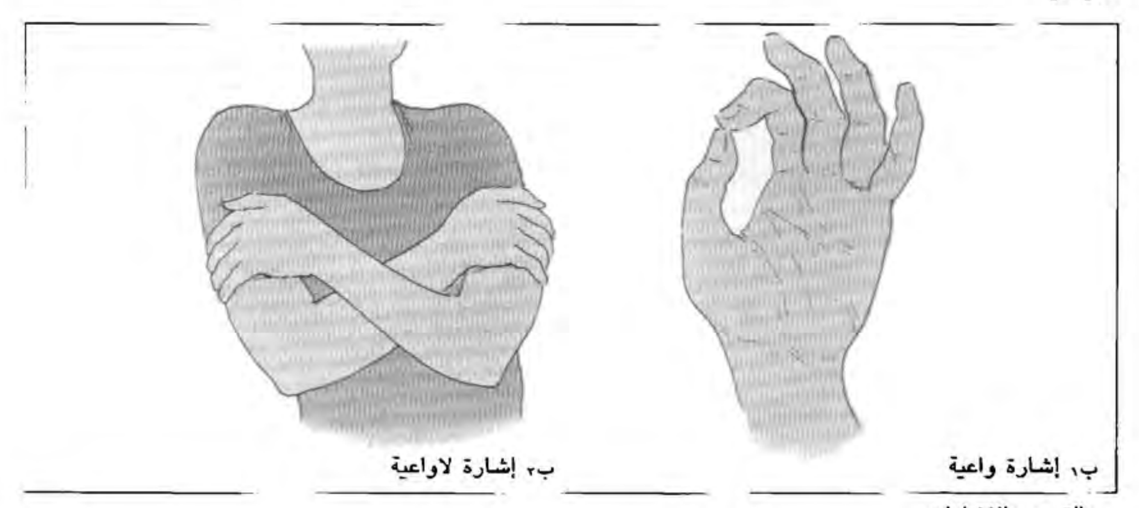
(ب٤) فئة رابعة من الأبحاث تدرس المعلومة الارتجاعية للتعبير الفردي.

وتوضح إحدى التجارب ظاهرة **لي** الشهيرة:

إن شخصًا يتكلّم بطريقة طبيعية يبدأ بالتلعثم عندما تعاد اليه كلماته بعد عدّة أجزاء من الثانية (فصل ١٦/٢٠، ج).



أ. إيمائية



ب. التعبير بالإشارات



ج. تعبير شفهي

كتب **غوته**، متأثرًا **بلافاتير**، هذين البيتين من الشعر:

«لا شيء في الداخل، لا شيء في الخارج؛ لأن ما هو في الداخل هو في الخارج»

إلّا أن هذا الأمر يحتمل النقاش. تخضع لغة الجسد، أي التواصل غير المنطوق بواسطة الجسم، إلى انقطاعات عديدة تخضع بدورها لشرطين أساسيين: تغيّرات مرسِل التعبير والجهوزية أي قابلية الاستقبال لدى مستقبل التعبير.

أ. إيمائية

كتب **نيقولاي هارتمن**:

«يضحك الناس بطرق تختلف باختلاف عملهم وتحرّكهم وتكلّمهم وصمتهم»

يمتلك جهاز التعبير أو مصدره عدّة وسائل إعلامية تعبيرية (الإيمائية، الحركة...). لأجزاء الجسم مردود متغيّر، بحسب الأفراد، عائد إلى الوظيفة التعبيرية.

يحدّد التوافق التعبيري التطابق المتنوّع كمًا بين المظاهر المؤقّتة لوسائل الإعلام هذه (تؤدّي معارضتها إلى إعطاء معلومة إضافية)

مدّة التعبير هي ذات أهمية خاصة في سياقها النسبي (الابتسامة، مثلًا، تنقطع فجأة أو تتلاشى تدريجًا)

وتعتبر الحدّة التعبيرية (مثل مدى اتّساع الحركات) مهمّة جدًّا لتقييم السلوك المضطرب.

يفهم بتكيّف التعبير التطابق المتنوّع كمًّا بين التعبير وسببه (مثلما بين الضحك والممازحة).

إن مسألة دواعي التعبير هي أكثر دقّة بكثير. فالمطلوب هنا تقييم ما إذا كانت ظاهرة تعبيرية ما تتكوّن بطريقة واعية أو تنتج بطريقة لاواعية. يعتبر قسم كبير من هذه الظواهر كنصف واعٍ:

يشير الصفّ الأعلى من الصورة «أ»، استنادًا إلى توزيع **شلوسبرغ** (فصل ١/١٢، ب) للظواهر التعبيرية ما بين ظواهر متّسمة بالسرور وأخرى بالكدر، يشير خاصة إلى أشكال إيمائية مبعثها الفرح (الإيناس، السخرية، التهكّم، المرح الصاخب، والمشاعر الملطفة «حلوة - مرّة»)، فيما يشير الصف الأسفل إلى الكدر (رصانة، خيبة أمل، ذعر، حزن، غضب).

ب. التعبير بالإشارات

يصف **ستيفان زفايغ**، في كتابه «أربع وعشرون ساعة من حياة إمرأة» بدقّة متناهية يدي لاعب على طاولة الكازينو: عصبيتان، مرتعشتان، مرتجفتان هياجًا، تشبان، مستعدّتان للقفز كحيوانين مفترسين.

يُظهر هذا المثل الأدبي الفروق في حساسية مستقبل التعبير بالنسبة إلى الظواهر التعبيرية. إن الكثيرين من الناس ليسوا أهلًا لاكتشاف ما اكتشفه **ستيفان زفايغ** من حالات في حركات يدي لاعب. بيد أن **زفايغ** ربما قد خُدع ببعض الإشارات لأن اللاعب كان يسعى قصدًا للتمويه على المشاهدين.

ليس كل تعبير «صادقًا».

تنجح المخادعة، عامة، أكثر مع الإيمائية، لكنها ليست متجانسة مع التعبير بالإشارات (المجالات الأساسية: حركات، وضع الجسم، حركات الجسم).

إنه في غاية الصعوبة، مثلًا، التأثير المتعمّد على شكل المشي وحركاته في حين أن أوضاعًا أخرى مثل الجراح والآلام في القدمين تخلّف تأثيرًا أكبر.

نميّز في الإشارات أشكالًا واعية وأخرى لاواعية.

(ب١) لهذه الإشارة الواعية معنى اصطلاحي: تعني «المال» في اليابان و«الدقة» في ألمانيا

(ب٢) وهذه الإشارة اللاواعية غامضة، فقد تعني «الترقّب» ولكنها تعني أيضًا «الحماية الذاتية» وتستخدم كذلك «للوقاية من البرد».

ج. تعبير شفهي

إلى جانب مرسِل التعبير ومستقبِله، قضية ثالثة تعدّل من خصائص لغة الجسد: المجتمع بمصطلحاته وقواعده. يتيح التعبير الشفهي مراقبة في غاية الدقّة للأوجه العديدة في لغة الجسد.

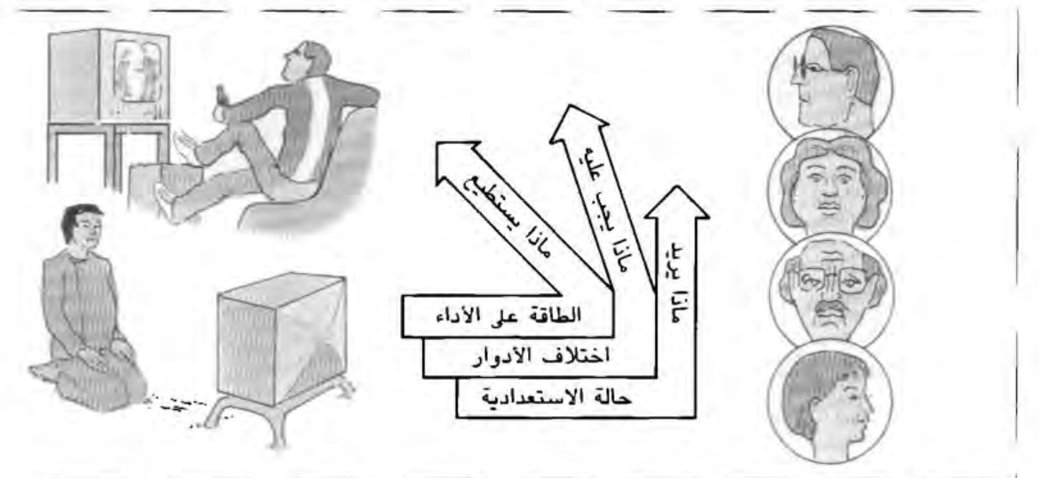
(ج١) تحدّد العادات الاجتماعية مع من يحقّ للإنسان أن يباشر حديثًا باتّصال ودّي وبأية ظروف يعتبر الاتصال ملائمًا.

مثل آخر: لا يسمح لشخص بالغ أن يمدّ لسانه لشخص آخر أو أن يضع إبهامه على أرنبة أنفه ويحرّك الأصابع الأخرى في وجهه (كلتا الحركتين تعني الاحتقار والسخرية في جميع الحضارات) إلّا في بعض الحالات الاستثنائية (مثل الصورة الشهيرة **لألبير أينشتاين** إذ يمدّ لسانه للمصوّرين الذين يلاحقونه).

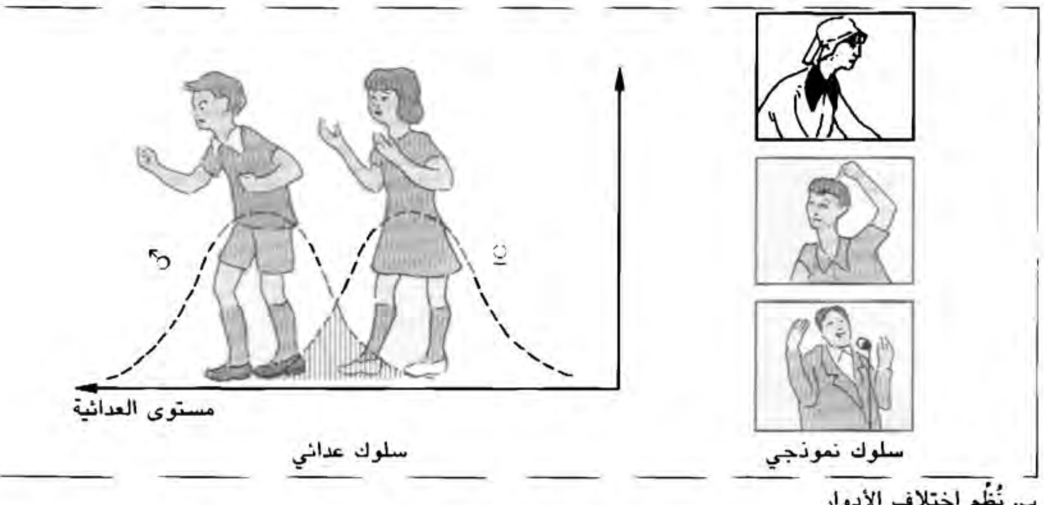
(ج٢) استعملت الكتابة باكرًا جدًّا لغايات تأويلية. ومثّلت، لمدّة طويلة، الوسيلة الإعلامية الوحيدة المحفوظة والتي كانت، إلى ذلك، تخفي الكثير من الخصائص التعبيرية (ضغط، رسم خطوط، تقسيم المكان، اتّصال بين الأحرف، دينامية الحركة...).

يتميّز التشخيص الخِطاطي (**ج. سُليكبوير**) عن الخطاطة كما يتميّز علم الفلك عن علم التنجيم. لأن المسألة هي مسألة علاقات علمية مؤسّسة على خصائص الكتابة ومحتواها التعبيري. إن أحد أهم مجالات التشخيص الخِطاطي هو تحديد الخط في علم الجريمة، ويبدأ بالتحليل الكيميائي للموادّ المستخدمة ويشمل فحص الحركات المجهرية بواسطة المجهر.

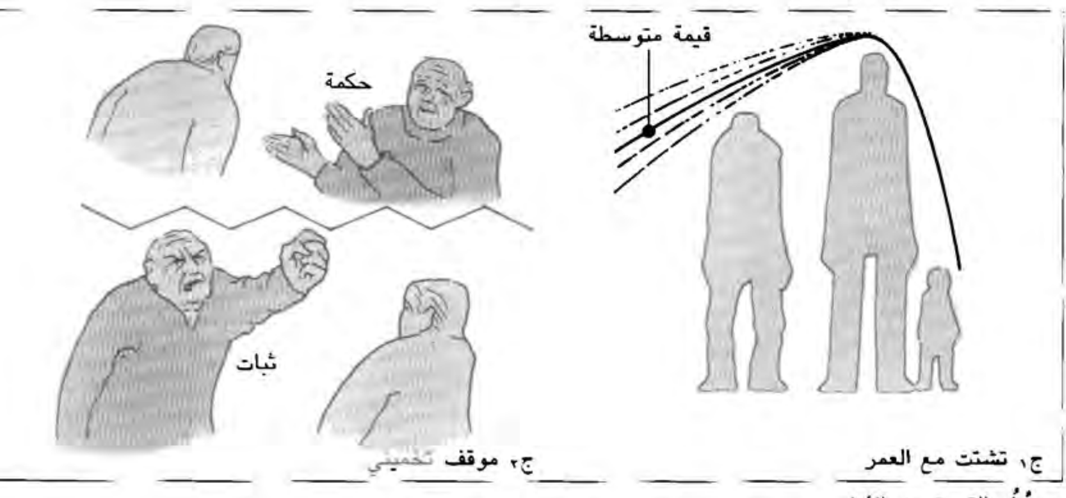
تشير الأمثلة التي تعرض لتطوّر توقيع **نابوليون بونابرت** إلى أن الخط يتأثّر بظروف حياة الكاتب.



أ. نُظُمُ حالة الاستعدادية



ب. نُظُم اختلاف الأدوار



ج. نُظُم القدرة على الأداء

يتعلّق علم نفس الشخصية بالفرد. لكن قطاعًا جديدًا في هذا المجال يمدّ جسرًا إلى علم النفس الاجتماعي (فصل ١٥). وهو يتمّ بالمقارنة ليستغلّ الخصائص الفردية للإنسان كعضو في فئات إجتماعية بيولوجية.

والمسلّم به كحقيقة، مثلًا، هو أنه يوجد نقلات منتظمة إلى حدٍّ ما للصورة الفردية بسبب اختلاف الجنس.

إن هذه العلاقات، استنادًا إلى المعلومات الحالية، ليست ثابتة. فهذا كله يعود إلى درجة «القرابة» بين الفرد وكل فريق.

وهكذا، نحن ننتمي إلى الجنس البشري ولنا عمر وجنس وقومية، ونحن أعضاء في مهنة وفي طبقة اجتماعية.

يدرس **التحليل المقارن** جميع هذه الخصائص التوسّعية المرتبطة بالفئات. لكن يجب أن نشير إلى أن النتائج المؤسّسة على العلم لا تزال نادرة.

أ. نُظُم حالة الإستعدادية

الأميركي، المرأة، الأستاذ، الولد، هل هم موجودون؟

في الحقيقة هم غير موجودين. بيد أن انتماءنا إلى فئات اجتماعية بيولوجية يميّز جزءًا يرتبط إلى حد ما بفرديتنا. ولكي تعالج هذه المسألة بشكل أفضل قسّمت إلى ثلاثة أوجه أساسية:

ماذا يريد، ماذا يجب عليه، ماذا يستطيع (كامرأة أو عجوز أو آسيوي مثلًا - خلافًا لفئات نقيضة: رجل، فتى، غير آسيوي)؟

انطلاقًا من هذه الأسئلة الثلاثة تكوّنت ثلاثة مجالات بحث نشأت من التحليل المقارن وتحاول تحليل «نُظُم» طبع فئوية في انتقالاتها «النمطية»: نظم حالة الاستعدادية (اللاإلتزام) واختلاف الأدوار والقدرة على الأداء.

إن الشعور باليأس في حالة الفاقة القصوى أو الخوف على السلامة والأمان لدى الأثرياء هما أيضًا من الأمثلة على ذلك، نستخدم مقارنات بين الثقافات لنقدّم برهانًا.

اختبر **ب. إيكمان**، في أبحاثه، خصائص التعبير لدى اليابانيين والأميركيين أثناء عرض الأفلام. فجاءت النتائج تمامًا حسب سجلّات التعبير (ارتباطات تتراوح بين ٣٩ و٨٦)

يؤدّي «ضغط الجماعة» (**بينيش**) إلى تشابه في السلوك يفرض في المجموعات البشرية الأكثر انتشارًا (أمة، دين، طبقة إجتماعية) أشكالًا موحّدة من ردود الفعل (كما في التعبير عن الألم).

ب. نُظُم اختلاف الأدوار

يفهم باختلاف الأدوار «السلوك النظري» لبعض الفئات (مثل الممرّضات، الطلّاب أو مقدّمي البرامج).

لا تنفصل هذه الأدوار عن النظامين الآخرين للمقارنة (يتعلّق دور المرأة، مثلًا، أيضًا بالمهمات البيولوجية). لكنها أيضًا من وضع الأعراف الإجتماعية.

وهذا يظهر بأجلى ما يكون في التصرّف الشِّقّي (الجنسي) النمطي. تعدّلت أدوار الرجل والمرأة لأسباب عديدة (وهذا ما تعالجه النظريات السلوكية والتحليلية أو المعرفية)، في حين تعرض مجالات أخرى مثل التوجّه المهني العام، على نطاق واسع، بعض الاستمرارية في الأدوار. تشكّل الأدوار الشقية (الجنسية) الموضوع الأساسي «للبحث في أمور المرأة» (**بيكر - شميدت** ١٩٩٢). تكمن أسطع الحقائق في اختلاف السلوك العدواني النمطي لدى الجنس الذي يميّز أيضًا الأدوار النظرية:

يميل الصبيان إلى العدوانية أكثر من البنات

يجري الحديث في هذا السياق عن حاجة مزعومة إلى التبعية لدى المرأة (ظاهرة **ساندريّون**). ويبدو الميل إلى الهيمنة وإلحاح الإهتمامات أكثر بروزًا عند الصبيان. أما فيما يخصّ النشاط العام فلم يتأكّد أي فرق بارز في الاندفاع (بالرغم من وجود أحكام مسبقة)؛ في حين أن التهيّؤ للقلق يتعلّق بالعمر وبالجنس (**ديغنهارت، تروتنر**، ١٩٧٩).

ج. نُظُم القدرة على الأداء

إن أكثر الأحكام العقدية تتناول القدرة على الأداء.

ينسب، باستمرار، إلى مختلف الأجناس البشرية وإلى الطبقات الاجتماعية المحرومة وإلى النساء والمسنّين، طاقة دنيا على الأداء الفكري مذكرِّين بفئتهم الاجتماعية البيولوجية.

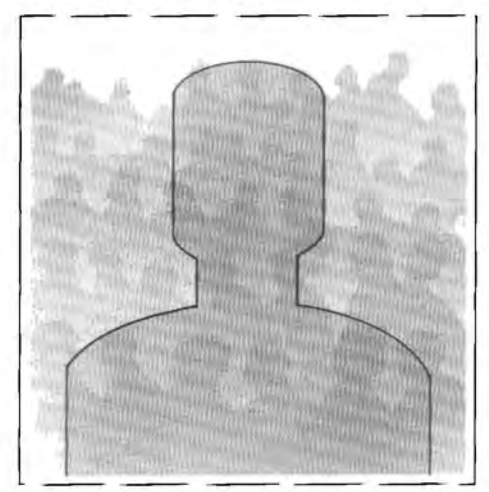
يجب اعتبار هذه الفرضيات خاطئة أو نجد بينها فروقًا دقيقة. نستنتج من المنحنيات ذات المستوى العام (منها منحنيات **هونتسيك، ماكول، وجارفيك**) نموًّا سريعًا من الطفولة إلى الفتوّة وتسطّحًا في سن البلوغ وتقهقرًا مع الشيخوخة. وبما أن طيف التشتّت يتّسع، في الوقت نفسه، اتّساعًا عظيمًا في سن الشيخوخة، يمكن أن يكون هذا المصير ملتويًا.

(ج١) يفترض، حاليًّا، تحوّلٌ في بنية الذكاء مع التقدّم في السنّ:

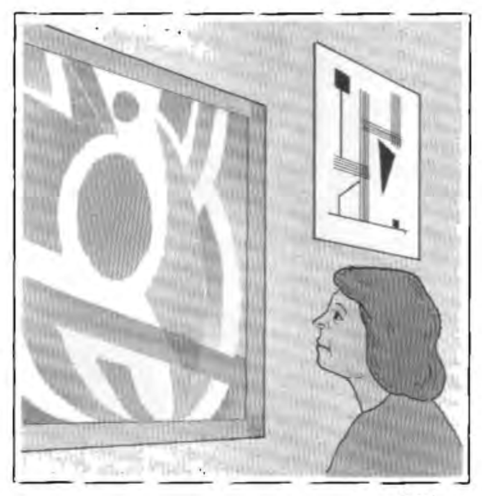
نموًّا في «الذكاء المرتبط بالخبرة» (الذكاء المتبلّر - الذكاء الجامع؛ تحليل أدقّ للوقائع الخاصة)؛

مع نقص في «الذكاء الشامل» (الذكاء المائع - ذكاء متشعّب، فهم سريع لمجموعة من الوقائع).

(ج٢) لم تعد تجري أية محاولة، اليوم، بخصوص نمو مختلف أشكال الذكاء، لاكتشاف أسباب اجتماعية بيولوجية لها، إن الشيء الجوهري هو التسليم بأوضاع الإنطلاق والاتجاه إلى موازنة أهميتها لكي يتسنّى، مع العمر، زيادة «حكمة الإنسان» (التمييز النفساني) و«ثباته» (الصلابة).



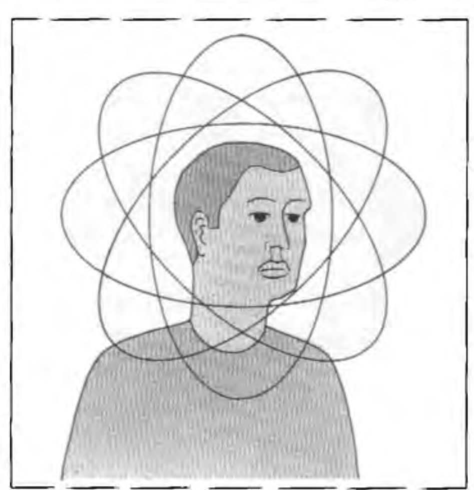
أ. طاقة كامنة (امكانية)



ب. انفتاح



ج. تقدير القيمة



د. تناغم الوجود



هـ بعد عن الذات



و. توازن

مسألتا حدود (عليا ودنيا) تنهيان هذا الفصل:

ما هي الأهداف العليا (الإيجابية) المرتبطة بنمو الشخصية (موضوع هذه الصفحة)؟

أية نزعات مرضية (سلبية) يمكنها أن تكمن في الشخصية (فصل ١٣/٢٠)؟

أ. طاقة كامنة (امكانية)

ليست «موهبة» الشخصية ثابتة. ولكنها تنمو بفضل ظروف مؤاتية (الإيحاء، الحاجة، التأكيد). يُذكر في تاريخ الفلسفةوعلم النفس عدد من القيم العليا المنسوبة إلى الشخصية:

من هذه القيم: اللذّة المرهفة، الصفاء، عدم الطمع، التوازن، تحقيق الذات.

ولكن بسبب تعدّد البواكير الفردية، ليس من شخصية تعتبر بُعدًا مثاليًا وحيدًا لجميع الشخصيات الأخرى (صورة أ).

ولما كانت جميع الشخصيات تحتوي قِيَمًا، يتساءل الكثيرون من علماء النفس (وخاصة في النزعة «الإنسانوية») عن آية صفات إنسانية تحمل إلى الفرد، كما إلى المجموعة، باكورة القيمة والمعنى التي تسعى إلى إغناء الشخصية من الداخل (نظرية النضوج النفسي).

ب. انفتاح

يعتبر غياب الانحياز والانفتاح على الوجود (الحساسية شكل ب) صفتين أساسيتين تسهمان في الكمال النفسي. يقترن بكل تقدّم في الاختبار والمعرفة خطر تحاشي اختبارات جديدة أو حالات وعي وخاصة عندما تهدّد ما تمّ التوصّل إليه (مقاومة التجديد). على الإنسان الناضج ألا يستسلم لهذا الضعف. قال **شيلر** سنة ١٧٨٩، في خطاب الدخول إلى الجامعة، عن العالِم المنفتح:

«إنه يحب الحقيقة دائمًا كما لو كانت منهجه الخاص، ويستبدل، بملء اختياره، بالصيغة القديمة المشوّهة، صيغة جديدة أجمل».

ج. تقدير القيمة

يطلب **كارل روجزر**، مؤسّس علم نفس الحوار، من الأطباء النفسيين، تفهّم مرضاهم والاندماج بهم وتقدير قيمهم (شكل ج).

إن من لا يستطيع تقبّل شخص آخر بنيّة سليمة لا يستطيع أن يثق لا بنفسه ولا بالآخرين.

فأحرى به أن يزيد في قيمة الآخرين لا أن يحط من قدرهم. وهذا ينطبق أيضًا على مستوى عام، مستوى العلاقات الإيجابية مع البيئة الحيّة والجامدة وعلى الطاقة الداخلية للحماسة.

د. تناغم الوجود

إن أصعب ما يمكن وصفه هو «حقيقة» شخص ما. وما يهمّ هنا هو الاستقلال النفسي وهوية الذات والاتّحاد مع الوجود (شكل د).

يستخدم الشخص النرجسي (المغالي في حب ذاته) إمكانيتين ليبالغ في إثبات وجوده: يحتقر الآخرين بالمكر والنميمة، أو يتذرّع بنكران الذات فيتّحد بشخص آخر مرموق ليواري نقصه عن نفسه وعن الآخر.

هاتان الوسيلتان هما أشدّ خطرًا من التأكيد الهادئ المتواضع «لطاقته الوجودية» الخاصة (النسبية). إن الشخص الذي ينسجم مع نفسه ومع العالم يبلغ الحقيقة التي تعطي مصداقية لأقواله وأعماله ومواقفه الأخلاقية.

يقول **هاينريش فون كلايست** عن هذا الرجل الهادئ إن سعادته تكاد لا تكدّر، لا تخدش:

«إنه لا يخضع لأية ظروف خارجية، ليس من طاغية يستطيع أن ينتزع منه سعادته ولا من نذل يقدر أن يعكّرها عليه، نحمله معنا إلى جميع أصقاع الدنيا».

هـ. بعد عن الذات

صَوَّر، في أحد الاختبارات، عدّة أشخاص وجوههم ضمن إطار، وفي أيديهم رقم معيّن. وبعد مضي أسبوع طلب إليهم أن يصفوا صورتهم هذه «المذلّة». فكان القليل جدًّا من بينهم مَنْ تجاوَبَ بدعابة وهدوء وسخرية مع هذه الإهانة المتعمّدة لشخصيّتهم.

وكتب **غوته**:

«إن من لا يستطيع أن يبلغ من نفسه الأفضل لا يعدّ بين افاضل الناس».

و. توازن

كما بالنسبة إلى الأواني، وخاصة الأكثر ثباتًا واستقرارًا التي تمثّل نِسَبًا متوازنة، هكذا يتعلّق «محتوى» الشخصية بالتوازن الداخلي (شكل و).

لقد شخّص **أرسطو** البنية المكوّنة من تنظيم العناصر في النفس.

إن عدم التناسق في الجسم، مثل وجود ذراع أقصر من أخرى، تراه العين حالًا. لكننا نجد صعوبة في التعرّف إلى هذا التباين في النفس.

كتب **سينيك**، موجزًا:

«يمكن القول، بالنتيجة، إن حياة تكون سعيدة عندما تكون منسجمة مع طبيعتها، لا تهتمّ للجسد ولا لمتطلّباته ولا تبدي أي خوف بهذا الخصوص، وعندما يفضل الإنسان جميع الأشياء التي تزيّن حياته ولكن دون أن يتعبّد لواحد منها، وعندما يستخدم هبات السعادة دون أن يعتمد عليها...



أ. فصام

ب. جنون دوري





ج. رهاب

د. هستيريا وعُصاب استحوازي





هـ بارانويا (عُظام)

و. إدمان

يحملنا الحدّ «الأدنى» من الشخصية على التساؤل عن النماذج الأساسية للاضطرابات النفسية. أمران يجعلان الإجابة صعبة. فمن جهة، يوجد اضطرابات محتملة بمقدار الاختبارات والسلوكات النفسية الإيجابية.

وإنه لمن الضروري، بالنتيجة، توزيع هذه المجموعة إلى نماذج أساسية من الاضطرابات النفسية.

ومن جهة أخرى، أسهمت ثلاثة اتجاهات علاجية مشهورة في هذا التوزيع وصنفت الاضطرابات النفسية استنادًا إلى رؤى مختلفة: الطب النفسي والتحليل النفسي والعلاج السلوكي. أتاحت نتيجة هذا التقسيم ظهور ثلاثة جداول للاضطرابات تتقاطع جزئيًا: الذهانات، العصابات النفسية واضطرابات السلوك. وتمّ، فيما بعد، اكتشاف اضطرابين أساسيين خارج هذه الحقول الثلاثة (الحالة الحدّية بين الذهان والعصاب، الإدمان).

أ. الفصام

حلّ مفهوم «الذهان»، الذي استعمله **إرنست فون فوخترسليبن** ١٨٤٥)، خلال القرن التاسع عشر، محلّ المفاهيم القديمة للمرض العقلي والجنون والسُّعُر. يفهم بهذا التعبير الاختلالات النفسية الأشدّ خطورة: الذهان الخارجي المنشأ (مثل الهذيان والشلل الكحوليين) الواضح الأسباب والذهانات الداخلية المنشأ (منها الفصام والجنون الدوري) التي ليس لها أسباب فيزيولوجية معروفة.

الفصام (وقد حدّده **أوجين بوهلر** سنة ١٩١١) هو اضطراب محطِم للشخصية مصحوب بنوبات هذيانية وتنافر في المشاعر وضعف في الحياة الاندفاعية الغريزية وانحلال الأنا والعزلة الطوعية. ينطوي المرضى على أنفسهم ويتعرّضون لنوبات جنونية هلاسية يتمثّلون فيها أشكالًا خيالية (صورة أ).

ب. الجنون الدوري

تتألّف الذهانات الهوسية الاكتئابية من حالات انفعالية ذات مرحلتين («ثنائية القطب»): مراحل هوسية («هوس العظمة» أو «السعر»)، مالنخوليا («المزاج السوداوي»). يطلق مفهوم مالنخوليا على أخطر حالات الاكتئاب؛ واللفظة من وضع الطبيب اليوناني **أبقراط**. ولكنها كاكتئاب «وحيد القطب» (وحيد المرحلة) تنتمي إلى المجال التالي، مجال العُصابات.

ج. الرّهاب

إن أول من استخدم مفهوم «العُصاب» هو الطبيب الاسكتلندي **وليم كولن** وذلك سنة ١٧٧٦ ليحدّد الاضطرابات النفسية دون تشخيص تشريحي للمرض. ومنذ التوزيع (الذي أجراه **سيغموند فرويد**) إلى عصابات فعلية (اضطرابات وظيفية من منشأ بدني) وإلى عصابات ذهانية (سببها صراعات نفسية لم تجد لها حلًا وتعود إلى أيام الطفولة)، إنها منذ ذلك الحين وهي تشغل اتّجاهات مختلفة في علم نفس الأعماق.

تقع تناذرات الحالة الحدّية بين الذُّهانات والعُصابات، ويضيف البعض إلى هذه الحالات الكثيرة التنوّع أشكالًا خطيرة من اضطرابات السلوك (هـ) واضطرابات الإدمان (و).

تعتبر العصابات إضطرابات تصحبها إعاقات وظيفية نفسية.

من بين هذه الإعاقات الرهابات التي تتمثّل بحالات قلق عظيمة استطرادية لها أسباب عديدة لا علاقة لها بقوة ردّ الفعل المنطلق.

د. هستيريا وعصاب استحوازي

وضع **فرويد** منهجه في التحليل النفسي (فصل ٢١) في إطار دراسات حول الهستيريا.

نفهم بالهستيريا مَرَضًا ذا مظهر «اصطناعي» مع «انقلابات هُراعية» (اضطرابات جسدية، مثل التشنّجات، والشلل دون أسباب بدنية). تتمثّل حالة الهستيريين بسلوك انكماشي، زائف وأحيانًا متصنّع. فالمرض الذي «يمثّلونه» «يُعرَض» كموضوع للكبت الاجتماعي. لقد سبق أن تكلّمنا في مكان آخر على العُصاب الاستحواذي.

هـ. بارانويا (عُظام)

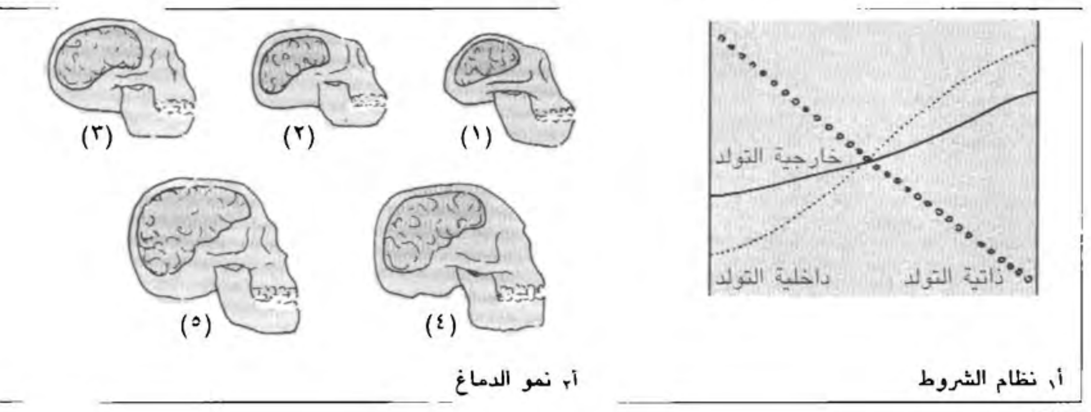
يستعمل مفهوم «اضطراب السلوك» لدى علماء نفس السلوك كلفظة عامة لجميع الاضطرابات «المشهورة اجتماعيًا»: المرتبطة بصورة الذات (مثل عقدة النقص) والتي تظهر وسط الجماعة على حدّ سواء (مثل اضطرابات التكيّف) وفي نظر المجتمع (مثل جنوح الجريمة).

لا يتمتّع المصاب بالعظام بأية حرية في العمل: يجعل أعماله رهينة قوى خارجية. يشعر بأنه مضطهد ويتراوح شعوره هذا ما بين الانطباع الحسّي (انطباع بأنه مراقب دائمًا) وجنون الاضطهاد. تُصنَّف حالات البارانويا الخطيرة والنموذجية تقليديًا، في فئة الذهانات.

و. إدمان

الإدمان اضطراب في السلوك يزداد ظهوره تكرارًا في محيط قلق وخالٍ من أي معنى. إدمان الكحول وإدمان المخدرات (شكل و)، الإسراف في التدخين والعمل المرهق الخ... هي أمثلة من انحرافات السلوك حيث الشخص المدمن يضع نفسه في وضع يعرّض حياته للخطر. تعتبر هذه الإنحرافات محاولات دفاعية (عبثية غالبًا) ضدّ أخطار غير منطقية تتعرّض لها الشخصية مثل فقدان الأمل والاهتمام وفقد الأمان والدونية الكامنة والإكتئاب المقنع.

لكي نطّلع على مصطلحات الاضطرابات النفسية نعود، فيما نعود، إلى التصنيف العالمي الجديد: مصنّف التشخيص والإحصاء، الطبعة الثالثة (DSM III-R).



أ١ نظام الشروط

أ٢ نمو الدماغ

أ. التأنسن

ملايين السنين
٢
٥
١٠
٢٠
٢٥
٣٠
إنسان الغاب
غوريلا
شمبانزي
الإنسان الحديث
الإنسان الحالي
إنسان كرومانيون
النياندرتالي
إنسان ما قبل العاقل
إنسان شتاينهايم
الإنسان القديم
إنسان بكين
شبيه الإنسان
أسلاف القرود
إنسان هايدلبرغ
إنسان ما قبل التاريخ
أسلاف الإنسان
إنسان جنوبي
ما قبل الإنسان
دريوبيتيك
مرحلة ما قبل الإنسان
بروكونسول
بروپليوپيتيك
باراپيتيك

ب. شجرة التطوّر

لقد أسيء فهم **داروين** في بداية الأمر، واعتقِد أن نظرية الوراثة تعيد أصل الإنسان إلى القرد. وأسهم هذا الخطأ بالتفسير في انتشار نظرية تحدر الإنسان من الحيوان، ولكنّه أثار أيضًا حملة انتقادات بل حملة عدائية ضدّ أنصاره.

لم يتحدّر الإنسان من القرد، لكن للإنسان والقرد أسلافًا مشتركين يرجعون في سلسلة التطوّر (حتى ولو لم يتأكد ذلك بعد) إلى بدايات الحياة. وفي الواقع، إن القسم الأعظم من الأشكال الحية السابقة قد انقرض. وإن جزءًا ضئيلًا (حتى ولو بلغ المليون نوع) لا يزال على قيد الحياة في أيامنا، من هذه الأنواع الإنسانُ الذي هو أكملها.

أ. التأنسن

(أ١) ينتج «التأنسن» عن شبكة من العوامل الناشئة عن ثلاثة ميادين تتعاون أو تتعاند:

عوامل داخلية التولّد (شروط ضرورية لتطور الأعضاء)

عوامل خارجية التولّد (تبدلات البيئة مع ضرورة التكيّف المتلازم).

عوامل ذاتية التولّد (تولّد ذاتي لتغيرات الظروف مثل نشوء ثقافة جديدة).

وفيما يخصّ الإنسان، تحوّلت العلاقة البارزة بين هذه المجالات الثلاثة لصالح العوامل الذاتية التولّد.

(أ٢) في نظام الشروط هذا، يوضع دائمًا في المقدمة مدلول الانتقال على قائمتين (تولّد داخلي) ومدلول الترحّل في السباسب (خارجي التولّد). وأخيرًا مدلول أكيد لإنشاء الثقافة (تولّد ذاتي). لكن نموّ حجم الدماغ الناشئ عن اتحاد النزعات الثلاث الأخرى هو الذي كوّن الأساس الحاسم.

كان حجم دماغ الإنسان القديم، عند انتقاله من الحيوان إلى الإنسان، كما لدى الإنسان الجنوب الأفريقي (١) ٥٠٠سم^{3} تقريبًا، وحجم دماغ إنسان پكين (٢) ١٠٥٠ سم^{3}. ودماغ الإنسان ما قبل النياندرتالي ١١٧٥سم^{3} ودماغ الإنسان النياندرتالي ١٤٤٠سم^{3} ودماغ الإنسان الحديث ٢٠٠٠ سم^{3}.

ب. شجرة التطوّر

تمتد شجرة التطوّر الإنساني، استنادًا إلى الفرضيات الحالية، على مدى ٢٠ إلى ٢٥ مليون سنة بالنسبة إلى مرحلة ما قبل الإنسان؛ وتتراوح المرحلة الإنسانية ما بين ٣ و٩ ملايين سنة. جرى انفصال أسلاف الإنسان عن أسلاف القرود تدريجًا وتبعًا لخصائص جزئية مثل تحول الخطوط الخاصة بالدماغ وبالفك.

يقسم تطوُّر أسلاف الإنسان إلى خمس مراحل:

ما قبل الإنسان (فئات الإنسان الجنوبي والهابلياني)

الإنسان البدائي.

الإنسان القديم (النياندرتالي)

الإنسان ما قبل العاقل (الانتقال من الإنسان القديم إلى الإنسان الحديث («شتاينهايم»)

الإنسان الحديث («كرومانيون»)

أدّى تطور أسلاف القرود إلى ظهور القرود الحالية الشّبيهة بالإنسان مثل إنسان الغاب (أورانغ أوتان) والغوريلا والشيانزي.

تتضمّن سلالات أسلاف الإنسان (Hominidés) «محاور أساسية»، و«فروعًا منقرضة» أي تفرّعات من التطوّر البشري لا تزال مجهولة جزئيًا.

تتلخّص الميزات الانتقائية الخاصّة بالسلالات التي فرضت نفسها في خمس نزعات تراكمية:

نموّ الدماغ، وقد أتاح تشكيل بنية فوقية تأسّست على مناهج غريزية مكبوتة، بواسطة عمليات التشريط («التجربة والخطأ») (فصل ٨) والمعرفة («التمثل والفكرة» فصل ١٠).

رشاقة الجسم أو تنعيمه (وذلك بزوال الشعر وضمور الأنياب) ورشاقة الأعضاء (حرّر الوقوف على القائمتين الخلفيتين اليدين في عملية التنقّل)، ما أساء إلى عملية التكيّف مع الطبيعة ولكن هيّأ الإنسان للثقافة.

مرحلة ما قبل الجمعنة (الحياة الاجتماعية) وقد أدّت إلى تفكّك العشيرة (إخصاب الأنثى من قبل حيوان واحد ألفا) وقد حلّ محلّها بنية عائلية أحادية الزواج وتباطؤ التطوّر (امتداد الطفولة) ومؤسسة المراجع الاجتماعية مع حسنة إطالة «التأجيل» (تبعية الذرية بالنسبة إلى جيل الأقرباء).

يوفّر تطوّر التقنيات (بدءًا بأدوات الحجارة) أسّس امتداد السيطرة، على البيئة، السيطرة القابلة للتأثّر والمنتجة.

يوسّع التثقف مجال عمل ما وراء العيش البسيط. يخلق الإنسان لنفسه، بالفن والعلم والمعتقد، «عالمًا روحانيًا» يُضاف إلى «عالمه الواقعي». وبفضل اللغة (منذ ما يُقرب من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف سنة) والكتابة (منذ نحو ٦٠٠٠ سنة)، أصبحت الخبرة المكتسبة مستقلّة عن الفرد والعشيرة التي تمتلكها. ويستطيع الفرد أن يقتبس المكتسبات الثقافية والتقنية منذ ما يُقارب من ٥٠٠,٠٠٠ جيل، منذ ما قبل أسلاف الإنسان سكان الغابات حتى الناس الذين يسيرون على قدمين يرتادون الفيافي والسهوب. بيد أن الكثير من هذه الخبرات قد طواها النسيان.

وقد حجب التكيف الجديد مع البيئة قطاعات واسعة من السلوك الغريزي. واكتسب الإنسان الحديث كنزًا ثمينًا من المعلومات، لكن خبرته بالطبيعة تعرّضت لافتقار جزئي.

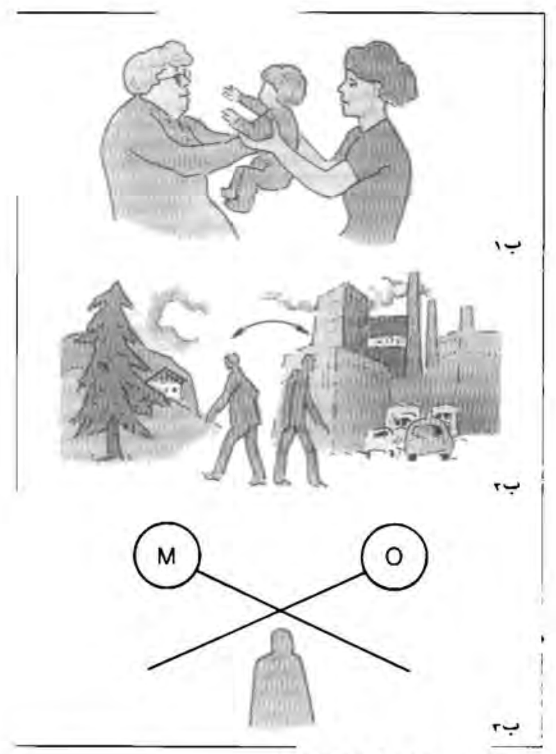
أ١

أ٢

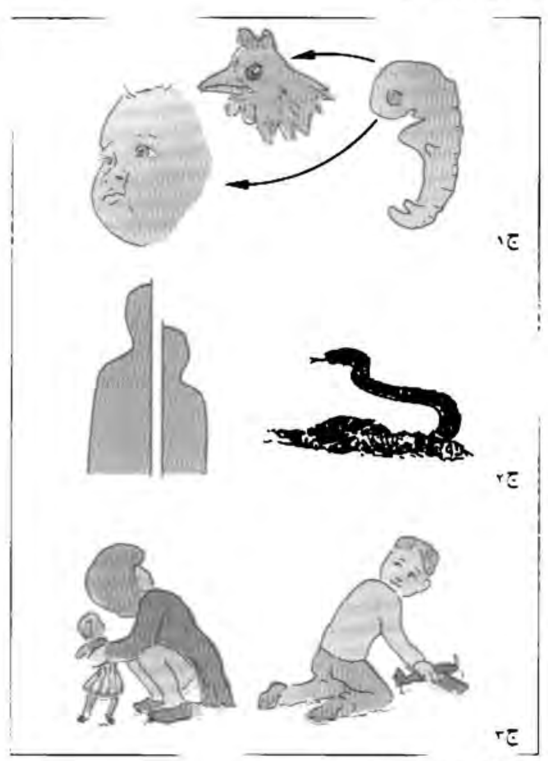
أ٣

أ٤

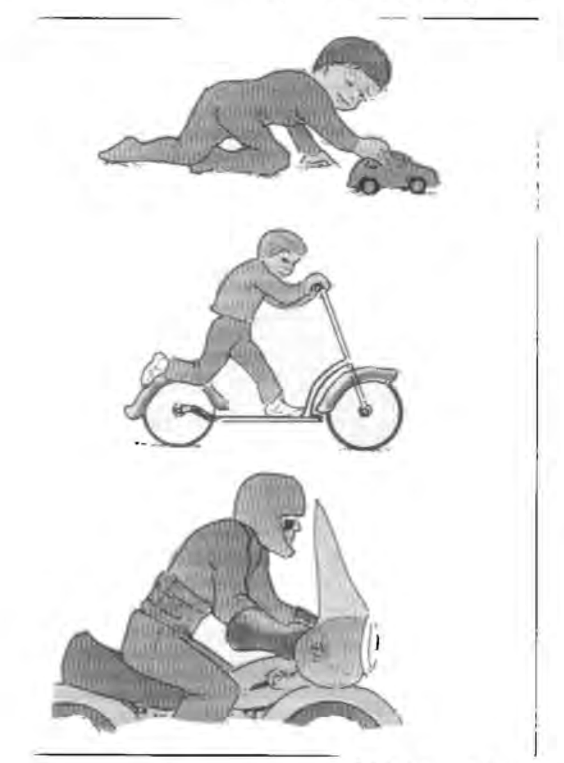
أ. نظريات النمو

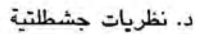


ب. نظريات القولبة الاجتماعية



ج. نظريات الأزمات





د. نظريات جشطلتية

إنّ تطوّر الفرد هو سلسلة من عمليات التحويل الكمي والنوعي تتناول الوظائف الطبيعية والنفسية. وحقيقة أن الإنسان يتغير منذ الحبل حتى الموت لا شك في وضوحها.

لكن كيف ولماذا يحدث هذا التغير؟ فليس الأمر بمثل ذاك الوضوح: فهو يتطلب تفكيرًا نظريًا على قياس مجموع عمليات النمو. ولم يحظَ الموضوع بإجماع الاختصاصيين حتى الآن. يركِّز البعض على العمليّات الجسمانية والبعض الآخر على أحداث العمر النموذجية المهيمنة. وبالنتيجة يمكن أن نتجه نحو نظريات التطوّر المختلفة (المصنّفة في ٤ فئات).

أ. نظريّات النموّ

تشرح هذه الفئة التطوّر من وجهة نظر «داخلية» أي منطلقة من اندفاعات داخلية التولّد. وتنطبق على نموّ الجسم، هذا «التراكم من عمليات النموّ المتناهية الصغر» (**كريش وكروتشفيلد**)، وبالتالي على هذا المنهج من التشييد الذي يتباطأ شيئًا فشيئًا حتى يبلغ حدًّا نهائيًا:

يكبر الإنسان سريعًا في أول أمره (جنين، وَليد، طفل) ثم ببطءٍ في عمر الفتوة؛ ويتوقّف نموّه جزئيًا في عمر البلوغ ليتقهقر شيئًا فشيئًا أيضًا أثناء الشّيخوخة.

تشمل هذه المجموعة من النظريات التطوّر النفسي الجسدي كعملية منظّمة داخلية. نذكر منها ٤ نزعات:

(أ١) يمكن تصوُّر هذا التعاقب كعملية مستمرّة من النموّ ثمّ الانحطاط، تجري على شكل قوس دائرة.

(أ٢) ينزع آخرون إلى أن يكتشفوا فيه بناء مرحليًا متقطّعًا باعتماد كلمة «أوجه» على غرار علماء نفس التطوّر (وخاصة **أ. كروه**).

(أ٣) يتصور بعض المنظرين، مثل **أ. غيزيل**، النموّ نموذجًا إهليجيًا على شكل لولب صاعد متطوّر بانتظام نحو هدف (**وادنغتن** ١٩٧١)

(أ٤) وأخيرًا، اقتبس من علم النفس الجشطلتي نموذج المفاضلة مثل **ب.هـ ڤيرنر وهـ.أ. ويتكين** اللذين تمفصل، بالنسبة إليهما، حالة نهائية منظّمة انطلاقًا من شكل بدائي منتشر.

ب. نظريات القولبة الاجتماعية

الفكرة الأساسية هي فكرة تقليد طيِّع بواسطة التكيف التطوّري للظروف الاجتماعية والتأثيرات الثقافية.

تحدّث **إ. دوركهايم** (١٨٩٣) عن «جمعنة الطبيعة الإنسانية».

(ب١) رجع **بالتِس** ومعاونوه (١٩٨٠) إلى إمكانية مزج الفئات السابقة بهذه الفئة الأخيرة: تضعف على مدى الحياة بعض عوامل التطوّر الداخلي لصلحة التبدّل الناشئ عن «التغيُّر الاجتماعي».

(ب٢) هذا التشكيل «الاجتماعي اللدن» يؤدي إلى تكيّف تطوّري من النوع «الاجتماعي الثقافي».

(ب٣) منذ ١٩٣٠ وضع **وليم شتيرن** تصوّرًا ممزوجًا «بنظرية التقارب» التي مؤداها أن الشروط الداخلية لتطور الجسم (O) والشروط الخارجية للبيئة (M) تتلاقى وتتشابك.

ج. نظريات الأزمات

يُفسّر كثير من المنظِّرين عملية التطوّر بتفجرات دراماتيكية نموذجية للجنس الإنساني (نظرية الكوارث، **كولمان** ١٩٧٨). هنا أيضًا يمكن أن نذكر ثلاث فئات فرعية.

(ج١) يجب أن يعتبر تطور الكائن الفرد، استنادًا إلى «قانون النشوء الأحيائي» (الذي لم يعد مقبولًا أبدًا) (وصفه **إرنست هِنْكِل** ١٨٧٤)، «نشوءًا حثيثًا» للنسالة (تاريخ الأنواع). وهكذا يواجه تطوّر الجنين، مثلًا، تكرارًا للتحولات الخاصّة بالتاريخ النوعي (عينا الجنين هما على جانبي رأسه مثل عيني الدجاجة).

(ج٢) يتم الانتقال إلى «شكل جديد» عند أتْباع هذا الفريق، بطريقة عفوية نسبيًا وفي بعض «المراحل الحسّاسة» مثل انسلاخ (خلع) جلد الأفاعي.

(ج٣) ينتشر توجّه ثالث بين منظِّري التطوّر المتأثّرين بالتحليل النفسي: عقدة أوديب وتعتبر هنا صدمة ضرورية للتطور وهي تتيح انطلاقة جديدة.

د. نظريّات جشطلتية

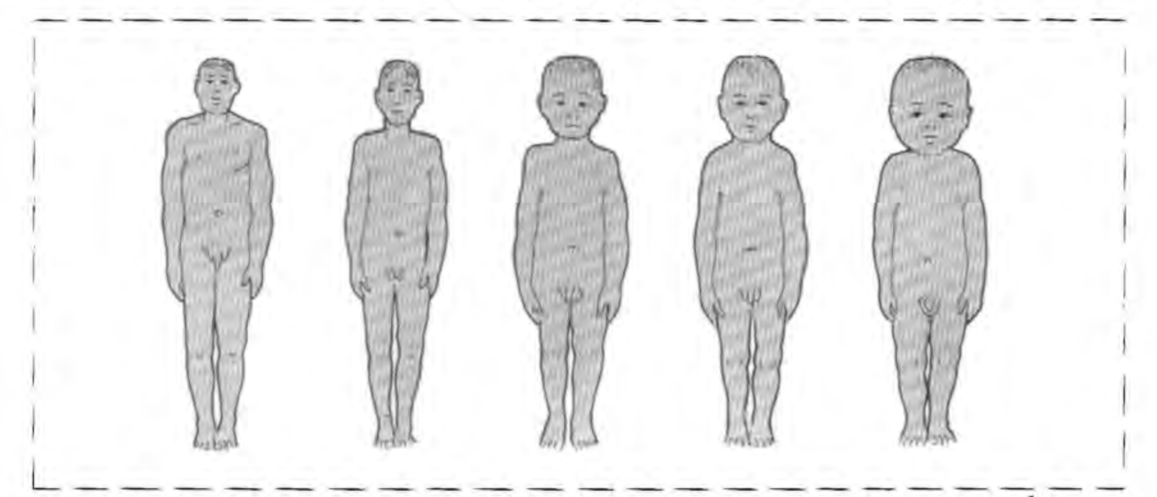
وُلد مع **إدوار سپرانغر** (١٩٢٤) توجّه آخر، مؤداه أن الطفل واليافع يشاركان مشاركة فعّالة في تشكيل تطورهما.

ويتحدث **إ.هـ إريكسون** ور.ج. **هاڤنغورست** عن مواجهة قوية مع مهمات التطوّر. يفترض اتجاه جديد لعلم نفس التطوّر (**بريم وكوغان** ١٩٨٠، **پريغوجين**، ١٩٨٠؛ **ليرنر وبوش - روسناغِل** ١٩٨١)، «نزعة ذاتية التشكيل».

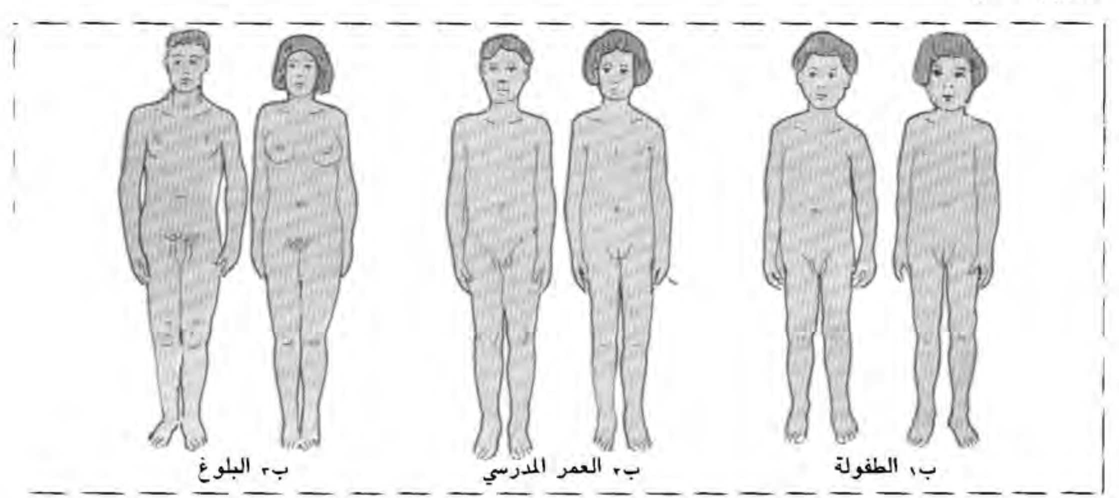
يعتبر هؤلاء أن الإنسان هو ربان سفينة مستقبله. فعلى هذا الربان، إذ يخضع لمهمات مختلفة وموضوعية وموجّهة نحو المستقبل، عليه أن يعرف ويقبل ويحاول أن يسيطر على مسؤوليات متزايدة.

مثل النشاطات التي تتلاءم مع كل مرحلة من مراحل العمر (من السيارة الصغيرة حتى الدراجة الصغيرة)، المجالات الجديدة للممارسات الجسدية والفكرية (الرياضة، العلوم، الدين)، علاقات من نوع جديد (مع جسمه الخاص، مع أتراب له)، الأمل في استقلال نفسي واقتصادي.

تنشأ المعالجة الواقعية للحواجز التي يستحيل تجاوزها والتي تسد طريق المستقبل أيضًا من هذه القيادة الشخصية.



أ. تطوّر النِّسَب



ب. تطوّر القامة

١٢ سنة

ب
ص
ب
ص
ب
ص
ب
ص
ب
ص

١٦ سنة

قبل البلوغ

الإنتقال

بعد البلوغ

ج. النموّ السكاني

يتغيّر جسم الإنسان على مدى الحياة بطريقة خاصّة مميّزة. يوجد، خارج المنطقة الوسطى والكبرى لخطوط التطوّر الأساسية، مناطق فسيحة من الانحراف. إن المسافة، بالنسبة إلى الخط الوسيط، ليست «شاذة». كل فرد يبدي انحرافات، من الأوفق ألّا نُغالي في تقييم القوانين لأنها لا تستخدم إلّا للتوجُّه في حقل **التحوّلات الجسدية** الفسيح. ثلاثة أنماط من الصفات البارزة ستعالج أدناه.

أ. تطور النِّسَب

لا يحدث النموّ بنسب متساوية في جميع أقسام الجسم. فلا تنمو الأبعاد التشريحية على وتيرة واحدة، يتمدّد الرأس والجذع والساقان بطريقة مختلفة تبعًا للأعمار. تكبر بعض أقسام الجسم بسرعة في المرحلة الأولى ثم تتباطأ في حين يتسارع نموّ أعضاء أخرى.

إنّ الظاهرة الأبرز هي هذا التفاوت في النموّ النسبي بين الرأس والجذع والأعضاء السفلى. عند الولادة، يمثل الرأس ٢٥٪ من طول الجسم الإجمالي و١٢ إلى ١٤٪ فقط عند البالغ.

ب. تطوّر القامة

تُحدَّد، في قياس الإناسة، وبواسطة أدوات قياس (مقياس الإنسان، البركار) وبالمقارنة (منها، مقياس الضوء الطيفي)، قيم متوسطة ومؤشرات مختلفة مماثلة تخص الفئات البشرية (مثل مؤشر طول الرأس وعرضه) للحصول على معطيات أحيائية سكونية. لا يحدث النموّ في مرحلة ما بعد الولادة بانتظام بل على دفعات: مراحل نموّ «كُتَلي» يتبع مراحل «الاستطالة» (٦-٧ و١٢-١٥ سنة).

(ب١) يتميز جسم الولد الصغير بقامة قصيرة ومستديرة. رأس ضخم يهيمن على مجمل الجسم، جبهة محدّبة، القسم الأسفل من الوجه دقيق لطيف الشكل (صورة الولد الصغير)، الشفة العليا أكبر من الشفة السفلى. والأنف لم يتخذ شكله النهائي بعد. والعنق لا يتناسب مع حجم الرأس. والجذع عريض وغالبًا بدين، تبدو الخاصرتان متوازيتين والبطن بارزًا، وبمقابل ذلك تبدو منطقة الكتفين صغيرة. ويظهر التطوّر الطفيف للعضلات بوضوح عند الأطراف. الذراعان والساقان قصيرة نسبيًا ولها شكل أنبوبي، وتذوب المفاصل في استدارة الأطراف. وقلّما نجد فرقًا في الظاهر بين الصبي والبنت.

(ب٢) وتشمل تحولات جسم الطالب الانطباع العام ومختلف أقسام الجسم: يصبح الجسم أكثر رهافة ويتضخّم جزءا الوجه الأوسط والأسفل، يُظهر اتساعُ الكتفين قامةً ترق باتجاه الأسفل، يطول العنق وتصبح القامة واضحة. تطول الذراعان والساقان بالنسبة إلى الجذع وترتسم المفاصل.

(ب٣) تبرز في جسم البالغ الفروق الجنسية بشكل واضح. يمثل البلوغ (ومع البلوغ المرحلة الوسطى وما بعد البلوغ أي ما بين ١٠ و١٦ سنة تقريبًا) مرحلة نضوج الوظائف الجنسية. وتبدأ بتأثير التحولات الجسدية الملحوظة (العصبية والهرمونية) «طفرة النموّ البلوغي» تصحبها تحولات بارزة في المظهر. تطور النهدين والحوض عند البنت، وعند الصبي تطور الكتفين بنوع خاصّ. تنمو الأعضاء الجنسية ومن ضمنها الشعر. ويكون الانطباع العام توطيد الجسم بكامله.

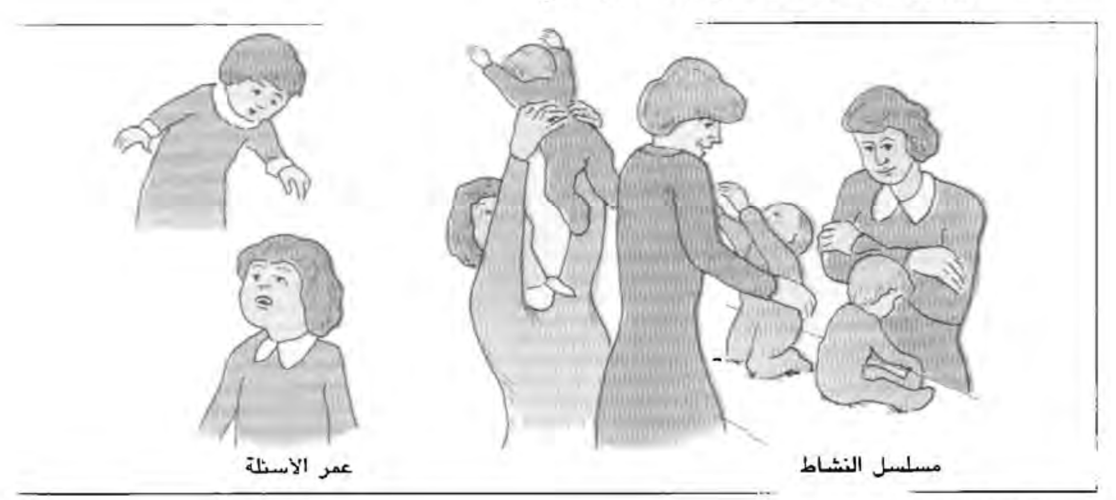
ج. النموّ السكّاني

يتنوّع التطوّر العام لنموّ السكان والبيئة والمؤثّرات الثقافية. وعلى سبيل المثال، يختلف معدّل النموّ بين السود والبيض. يدرس علم «تكوين الشعوب» هذه الفروق بين الجماعات. لقد أمكن عزل إواليات متصلة بفئة الدم وبعامل بندر (ريزوس) التي تتميّز عند بعض الشعوب بمقاومة الملاريا: وتبدي بعض الجماعات معدلات انتقائية أعلى. تتآزر العوامل الوراثية (مثل العِرْق)، والظروف البيئية (مثل الغذاء) بطريقة معقّدة.

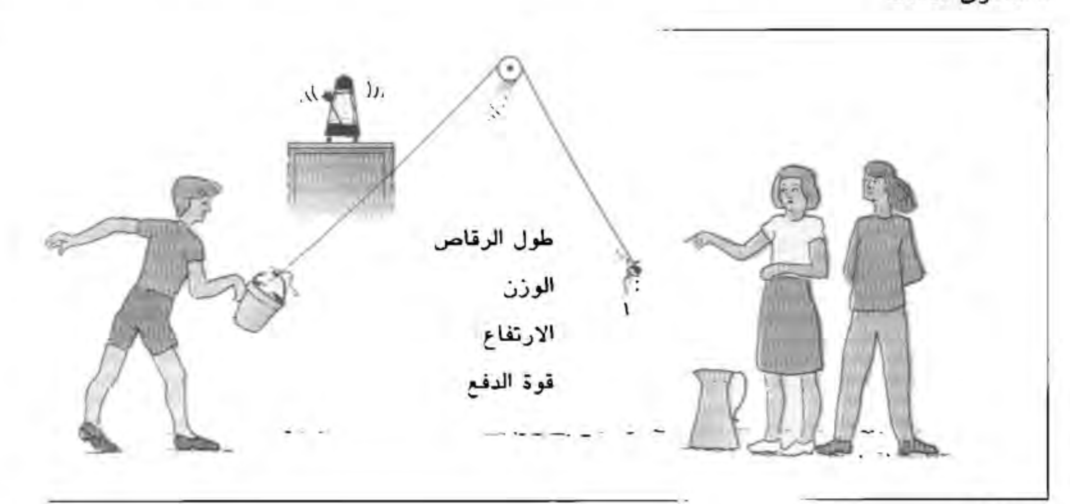
ومع ذلك، تحاول الأبحاث حول التوأمة تحديد الفروق بين توأمين من بيضة واحدة (صفات وراثية متماثلة) وتوأمين من بيضتين مختلفتين (صفات وراثية مختلفة) لدراسة مسألة الشروط «الوراثية» والبيئية». وتظل الإجوبة قليلة الوضوح (بالرغم من مؤشرات، مثلًا، حول تواتر حالة التدرن الرئوي).

حتى إن عمليةً داخل الجسم بارزةً مثل النضوج الجنسي (شكل ج) تظهر التفاوت بين البنات (الحيض) والصبيان (أول قذف للمني) قد تغيّرت بشكل ملحوظ، بحسب البلدان، على مدى المئة سنة الأخيرة.

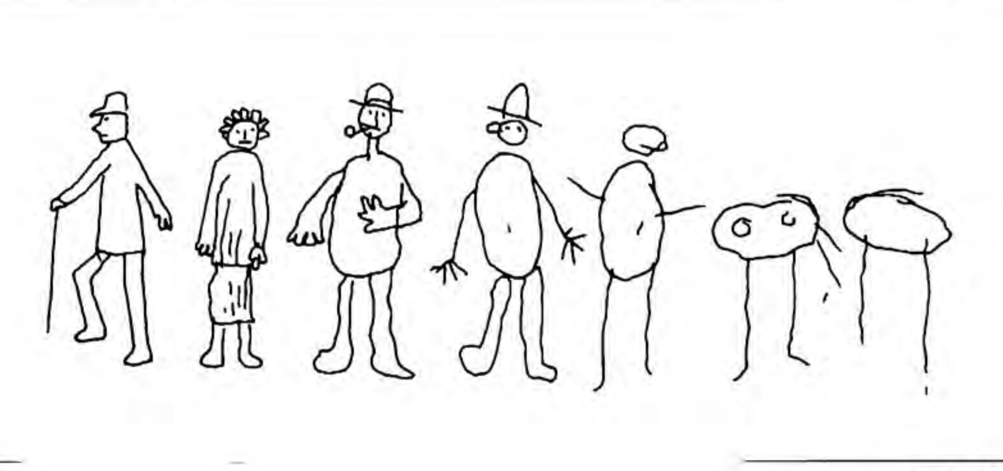
ولا علاقة ثابتة بين العمر ونضوج الجسم. لقد لوحظ في البلدان الصناعية تسارعًا منذ أكثر من قرن (تقدّم عام للنضوج) في مطلع القرن التاسع عشر. وبالمقابل، يلاحظ منذ سبعينات القرن العشرين وجود تأخر في هذا الاتجاه. بل تقاصر (بطء في النضوج) في أفريقيا. وليست الأسباب واضحة، ويعتقد بوجود عدّة عوامل متضافرة: اختلاف ظروف الحياة والتغذية. الحياة في المدن (زيادة عدد سكان المدن)، تبدّل مناخ الإثارة النفسية، التوزيع الجديد للطبقات الاجتماعية، المفعول الرجعي لتحولات جسمية أخرى (مثل التدريب)، حالة انفعالية متوسطة وخصائص مناخية.



أ. مستوى النشاط



ب. التوازن



ج. تطوّر الرسم

كان الشعراء أوّل من فكّر بالتطوّر العقلي. لقد وضع **شيلر** سنة ١٧٨٠، نظام تطور متحدثًا عن فتى قائلًا:

«الإعادة المتكررة تصبح شيئًا فشيئًا كفاءة».

وكتب **غوته**:

«على الإنسان أن يجتاز مراحل مختلفة، ولكلّ مرحلة فضائلها ورذائلها الخاصّة التي يجب أن تعتبر، في المرحلة التي تعرض له فيها، متوافقة مع الطبيعة وصحيحة إلى حدٍّ ما. وفي المرحلة التالية تدهمه سواها».

ومنذ ذلك التاريخ أصبح **علم نفس تطور المعرفة** أحد الميادين الأساسية لعلم النفس. وتُقرأ عمليات التطوّر المعرفي استنادًا إلى عدّة معايير، أهمّها هذه الثلاثة التالية:

أ. مستوى النشاط

يُظهر الرُّضَّع منذ ولادتهم فروقًا فردية متعلّقة بالنشاط، من ذلك: مدّة النوم، درجة التحرُّك، استخدام النداء بالبكاء والصراخ. ولا يستطيع الأهل تحاشي الردّ بطرق مختلفة على هذه الاستدعاءات. فيضطرّون إلى الاهتمام أكثر بالطفل النشيط، والولد السهل المراس يوفّر لهم طمأنينة أكثر.

يخلق الولد لنفسه مراجعه المحيطة به ولا يرضى بأن يُرغَم عليها.

لهذا التفاعل نتائج تتعلّق بالحدود الدنيا أو العليا للتوقعات لدى الأهل والطفل: يثير الأهل بعض الأولاد أما آخرون فيرغمون على الهدوء. وهكذا تظهر «سلاسل نشاط» تعرض مناطق تكاثف وقتية وفردية ونموذجية.

في المرحلة المدعوّة عمر الأسئلة (في حدود السنتين) يسأل الولد عن أسماء الأشياء («عمر الماذا»)، وفي المرحلة التالية (ثلاث سنوات تقريبًا) يتعلم عن الأسباب («عمر اللماذا»).

ب. التوازن

بهذا المفهوم بسط **جان بياجيه** شكلًا من التفاعل أرحب. ليس للولد، في بداية الأمر، سوى تمثلات بسيطة («ترسيمات» كما يقول **بياجيه**). لكنّه يجابه نشاط معطيات البيئة ويتوصّل إلى ترسيمات أكثر تعقيدًا. لا يعتبر **بياجيه** هذه العملية مستمرّة بدقة ولكن متقطعة إلى أدوار (مراحل):

(١) مرحلة حسية حركية (١-٢ سنة)؛ (٢) ما قبل الفكر أو التصور (٢-٤ سنوات)؛ (٣) المرحلة الحدسية (٤-٧ سنوات)؛ مراحل العمليات (٤) المحسوسة (٧-١١ سنة) ثم (٥) العمليات الصورية (بعد ١١ سنة) في معالجة المعلومة.

يتأرجح الذكاء، استنادًا إلى ما يقوله **بياجيه**، بين شكلين من عمليات تكيف الجسم مع البيئة.

فمن جهة نبحث عن الغذاء الفكري (كالطعام الذي يناسبنا) الذي يهضمه جهازنا العقلي.

ينطبق هذا التمثّل، إلى حدٍّ ما، على مبدأ التفكير المحافظ: يميل الطفل أو البالغ إلى ألا يكون متقبّلًا إلّا لجزء من العالم يستطيع تفهُّمه بفضل معرفة جاهزة.

لكن هذا ليس كافيًا في فترة محدّدة. إن بعض المعلومات الجديدة تناقض الأفكار السابقة.

وبما أن هذه الأفكار لا يمكن تجاهلها. يتدخّل مبدأ التكيّف تدريجًا. وبفضل هذا المبدأ يجري «خلق مستمر لأشكال تزداد تعقيدًا باستمرار وتكيُّف تدريجي لهذه الأشكال مع البيئة» (**بياجيه**: علم نفس الذكاء.).

إننا لا نسعى، بصورة إجمالية، إلى دمج جميع المعلومات الجديدة في نظام الفهم لدينا، بل الشيء شِبْه المدرك والقائم على حدود طاقتنا الفعلية على الفهم.

في المثل (شكل ب) تطرح تساؤلات عن سبب سرعة أو بطء الرقاص (ذبذبات الرقاص). يمكن للأولاد أن يغيّروا أربعة عوامل مستخدمين مِشْرَعًا (مثل رقاص «مقلوب») ليقارنوا: بكرة تعدِّل طول الرقاص، إضافة ماء، وزن الماء؛ ارتفاع المَسْقَط وقوّة الدفع هي معطيات جديرة بالملاحظة.

تظهر المراحل المعرفية عند التجارب: من التصوّر التجريبي («دفع قوي») حتى المعرفة الصورية («المِشْرَع كرقاص مقلوب!»).

ج. تطور الرسم

يلاحظ أيضًا تطور في النضج حيث، خلافا لمسألة الرقاص، لا يستحيل أي حل صحيح. لا تطمح «خربشة» الطفل إلى أن تكون «فنًا» لكنّها تجِدّ بيئته.

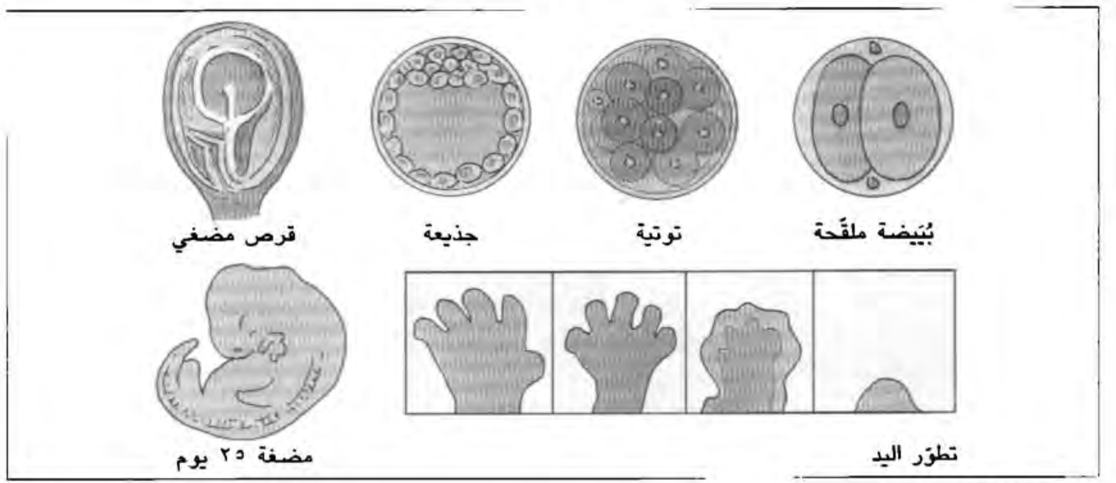
إنّ الدافع إلى التشكيل ينطبق، بطبيعته، على دافع الهيمنة والامتلاك بالمعنى الحقيقي الذي يجعل الشيء ملكًا خاصًا» (**غ. موهْلِهْ** ١٩٧٥).

ويُلاحظ، تبعًا لمستوى العمر، في الرسوم، تفاعلٌ بين الانطباع والتعبير (وهذا ما لا نجده مع الأسف، فيما بعد، عند الكثير من البالغين). نتعرف، في هذه المجموعة (شكل ج)، إلى الخطوط المميّزة للمراحل الثلاث من تطور التشكيل.

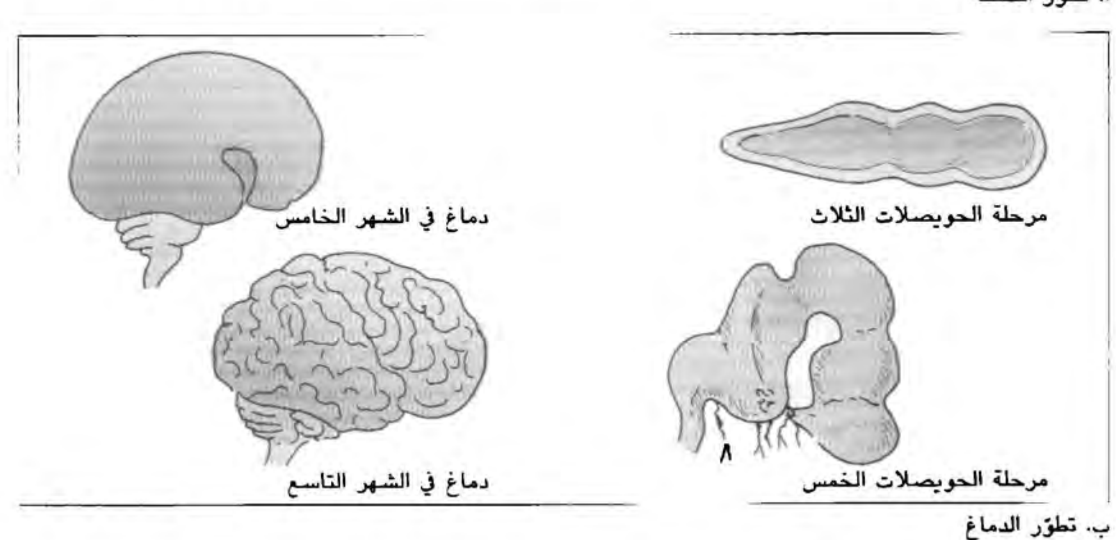
التمييز في تمثيل الأعضاء، الرسم الكامل للأجزاء وغنى الدلالات مثل وصف السلوك (المشي).

تبدو محاولات تصنيف مراحل الرسم عند الطفل صعبة بسبب الفروق الضخمة في الظروف الفردية؛ تلعب المواقف المثيرة دورًا حاسمًا في تطوّر الرسم. يشير الشكل (ج) إلى بعض الأشكال النمطية:

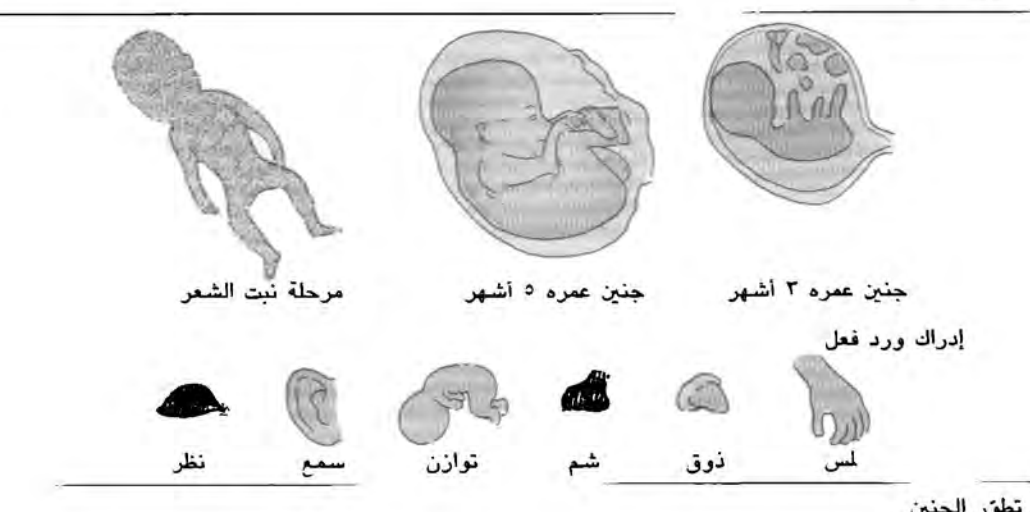
صورة «من الرأس إلى الساقين» (الإنسان الشرغوف)، «التصوير الشعاعي»، «الشكل الشبح المُجنَّب» ورسم «الأشكال الكاملة» مع تمثيل الحركة.



أ. تطوّر المضغة



ب. تطوّر الدماغ



ج. تطوّر الجنين

كان الجنين، منذ عدّة عقود من السنين، يعتبر لوحًا مصقولًا أو ورقة بيضاء بكرًا، عَدَمًا نفسانيًا. وفي غضون ذلك أتاحت تكنولوجيات حديثة، مثل تخطيط الصدى، مراقبة حركاته الحيوية، وتحوّلت صورة الولد قبل الولادة بشكل جذري. تشكل المُضغة والجنين المرحلتين الأكثر تعقيدًا من تطوّر ما قبل الولادة؛ إنّهما كائنان «بشريان» يقومان بردود فعل مستقلّة.

أ. تطوّر المُضغة

المضغة هي المرحلة الأولى من الحياة تبدأ من الحبل حتى الاسبوع الثامن أو الحادي عشر (لم يتفق الخبراء على ذلك بعد). وبتأثير من جينات التحكّم تنقسم البُيَيضة الملقّحة إلى خليتين توأمتين. وتتكوّن توتية متعدّدة الخلايا بعد ثلاثة أيام. وبعد اليوم الرابع يتسرّب إلى داخلها سائل يفصل، في مرحلة الجذيعة (بلاستولا)، بين عمودين من الخلايا وتتشكل المضغة انطلاقًا من خلايا داخلية. وتتكوّن طبقتان ثم ثلاث طبقات من الخلايا في المرحلة المسمّاة القرص المُضغي:

الطبقة الجلدية الخارجية (شكل بدائي للجهاز العصبي والجلد والشعر والأظافر..)، الطبقة المتوسطة (شكل بدائي للعظام والعضلات والقلب والدم والكليتين والأعضاء التناسلية...)؛ الأدَمَة الباطنية (مخطّط أوّلي للمعى والرئتين واللوزتين وبعض الغدد والكبد..).

يبدأ تطوّر الذراعين واليدين بعد الإخصاب بثمانية وعشرين يومًا. وتتحوّل جَدَعة على شكل برعم إلى يد على صورة مروحة، ثم تظهر عِظام الأصابع والذراع؛ يتم تكوين اليد في نهاية الأسبوع السادس فتصبح قادرة على التحرُّك. وبعد مضي ٢٥ يومًا يصبح طول المضغة ٣ أو ٤ ملم وتكون قد ارتسمت جميع أعضائها.

ب. تطوّر الدماغ

وفي اليوم الثاني والعشرين من الحبل يُقفل «أنبوب عصبي» وهو عبارة عن طبقة خلوية بسيطة ويبدأ تطوّر الأعضاء الأساسية للنفسية. وفي مرحلة الحويصلات الثلاث ترتسم الأدمغة الأمامي والوسطي والخلفي. وخلال الأسبوع السادس، في مرحلة الحويصلات الخمس يكون الدماغ الداخلي قد امتلك نصفي الكرة الدماغية واستبق بانحناءته موقعه في الجمجمة وذلك اقتصادًا في المكان.

وفي المرحلة الجنينية، من الشهر الخامس حتى التاسع، يتكون القسم الأساسي من الدماغ. وقد حدثت «هجرة خلوية» تنقسم أثناءها الخلايا بسرعة وتتوجّه، تبعًا لطرق مُعدَّة سلفًا، من المنطقة الداخلية المركزية نحو الخارج أو من الطبقة الخلوية الخارجية نحو الداخل، تتوجه متبعة أسلاكًا موصلة. يظهر الدماغ المركزي في المرحلة الأولى (وهو يمثل أثناء التطوّر مرحلة مبكرة). لكن الارتباطات العصبية لا تزال غير مكتملة: ولا يزال نمو الحُزَم العصبية، في الأقسام العليا من الدماغ، يحتاج إلى ثلاث سنوات.

ج. تطوّر الجنين

يعرف الجنين، في الفترة الواقعة بين الأسبوعين التاسع والثاني عشر حتى الولادة، تطوّرًا هامًا في نموّ قامته واختلاف شكله. ويُلاحظ هذا أيضًا من أهمّية الدورة الدموية: ٣٠ ليترًا في النهار في بداية الحياة الجنينية و٣٥٠ ليترًا عند الولادة.

والانتقال من مرحلة إلى أخرى هو شيء ممتع وجدير بالاهتمام مثل حالة الاكتساء الموقت بالشعر قبل الولادة مباشرة.

لكن السؤال الأهمّ الخاصّ بعلم النفس هو التالي:

ماذا يدرك الجنين وبأي طريقة يستطيع أن يتحرّك؟

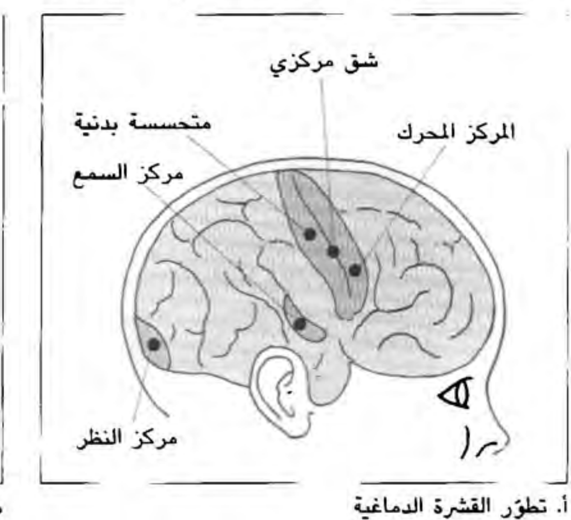
تُقرأ هذه الوظائف بواسطة موجات الدماغ الكهربائية التي يمكن قياسها اعتبارًا من الأسبوع الثامن. يتمتع الطفل قبل ولادته بحياة نفسية لا تدرك سوى انطباعات اللّذة أو الألم ولا يستطيع الطفل أن يتذكّرها. وهو يمتلك منذ ما قبل الولادة رأسمال من الخبرات المكتسبة. إن المعادلة القديمة «للفطري» و«المبرمج وراثيًا» هي خاطئة: تحدث في أحشاء الأم عمليات تدرّب لا عديد لها. يدرّب الطفلُ، على طريقة الرياضي، ارتكاساتِ هيئتِه ووضعِه ليسيطر عليها إراديًا لاحقًا.

تتشكل أعضاء الحِسّ تبعًا للترتيب التالي:

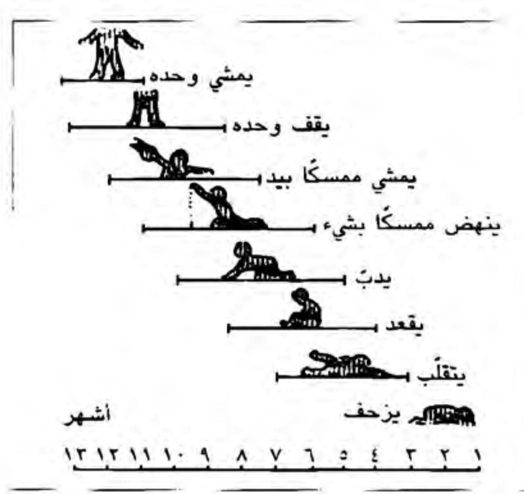
تظهر حاسّة اللمس في الشهر الثاني وحاسّة الذوق في الثالث والشم في الخامس والسمْع في السادس والنظر في التاسع.

تتطلّب حاسّة التوازن نضوجًا طويلًا اعتبارًا من الشهر الثاني. وأثناء النضوج يتعلّم طفل المستقبل «التوازن» الفعال الذي سيكون المبدأ الأساسي للحياة. يمتلك ضبطًا ذاتيًا يردّ، بواسطته، على الانحرافات بحركات مضادة: ويتولّد مبدأ حياتي أساسي من هذه الإوالية الجسدية. يدرك ما تبدي أمّه من لذّة ونفور واجتذاب ورفض بجميع أنواع الإشارات التي يستجيب لها بردود فعل إيمائية. يعوّض حالة الحرمان، مثلًا، بالتمتّع بمص إبهامه. وهكذا هو، في الوقت نفسه، «مستقل» و«عاجز» كما سيكون فيما بعد طوال حياته.

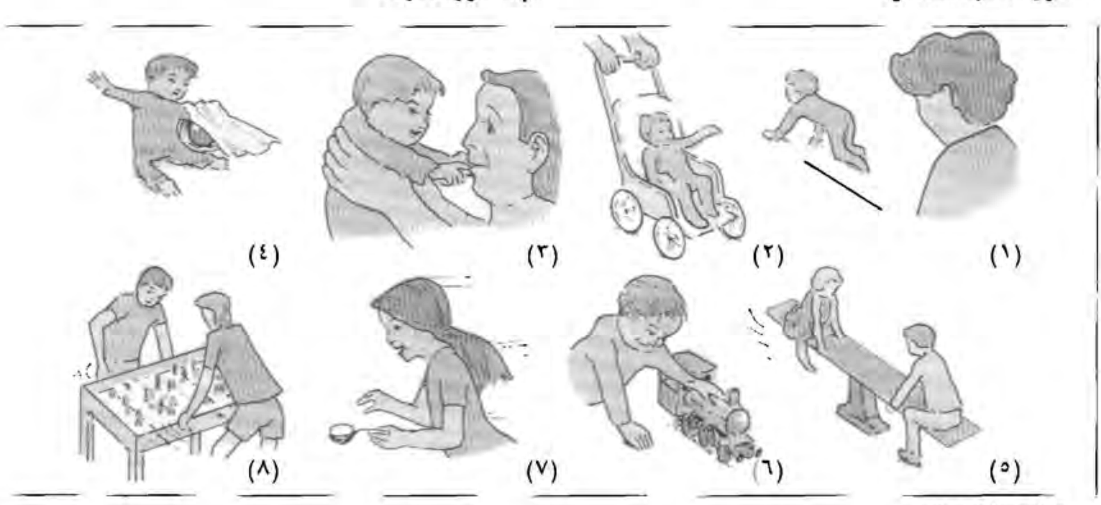
إنّه عاجز عن تعويض بعض حالات الحرمان، مثل نقص الأكسجين (جسماني) أو كراهية (نفسي) أمّه لحبلها. وهو إلى ذلك يتعلم أن يفيد من بادرة عطف (مثل ملاطفة عن بعد أو غناء مهدئ صادر عن أمّه)، كما أنه يعبّر عن سروره بإيماءة من أساريره. إن هذا التفاعل بين التوافق (حدس التعاطف) ورد الفعل (المعاملة والاستجابة) يشكل أساسًا من شأنه أن يخفف اضطرابات التواصل مع بيئته المستقبلية.



أ. تطوّر القشرة الدماغية



ب. تطوّر الحركة



ج. التطوّر الاجتماعي



د١ واقعية أخلاقية
د٢ أخلاق مقيّدة
د٣ أخلاق مستقلة

د. التطوّر الأخلاقي

«الأولاد هم الأمل والمرتجى» (**نوفالِس**)
إن التطلّع إلى ولد يكبر يمكن أن يفعمنا بالأمل، لكن ليس من النادر أن تبرز أخطار جسيمة.
جَهِد علم نفس الولد، منذ القرن الثامن عشر، لاكتشاف قوانين تتابع التطوّر الداخلي لوضع قوانين التطوّر الفردي السويّ والشاذّ. ومنذ القرن التاسع عشر جرى التفكير «بالقوانين الطبيعية» المفترضة لتطور الولد وقُرِّرت مراحل تطور عامة على كل إنسان أن يجتازها.

سيغموند فرويد هو أحد الذين وضعوا إحدى نظريات المراحل (الفمية، الشرجية، التناسلية).

وبمقابل ذلك، صيغت، في القرن العشرين، «قوانين اجتماعية». للتطوّر استنادًا إلى المتطلبات الخارجية المفروضة في كل مرحلة من العمر: تجربة عملية للشقّة والشارع، التكيُّف مع روضة الأطفال ثم مع المدرسة، متطلبات المهنة...
وتجري محاولة، منذ بعض الوقت، لدمج القوانين الداخلية والخارجية. والهدف من ذلك هو دراسة «اتجاهات» التطوّر التي تنتج عن عوامل النضوج (الداخلية) كما عن سياقات الإثارة (الخارجية) بدلًا من اللجوء إلى «مراحل» نظرية يفترض قبولها عالميًا.

أ. تطوّر القشرة الدماغية

يتم تكوين الدماغ قبل الولادة ويصبح قادرًا جزئيًا على العمل. ويستمر نضوج الدماغ أيضًا بعد الولادة. تتغير وتيرة النضوج تبعًا للمناطق الدماغية (شكل أ: نضوج مبكر بالنسبة إلى المناطق القاتمة ومتأخر في المناطق الفاتحة اللون)
إن أول منطقة تنضج في الدماغ هي المركز المحرّك والثانية هي المركز المتحسّس بَدَنيًا (الذي يتلقّى رسائل قادمة من الجلد والعضلات والأوتار والمفاصل) والثالثة مركز البصر والرابعة مركز السمع.

ب. تطوّر الحركة

بالرغم من أن نظام الانتقال من مرحلة إلى المرحلة التالية هو عند جميع الأولاد لكن عمر ظهور المراحل يختلف اختلافًا عظيمًا...

يحدّد الشكل (ب) هذا النظام كما وضعته دراسات مختلفة في بلدان عديدة (من هؤلاء الدارسين: **ألدريش ونورڤال؛ إيغرز وڤاغنر، زدانكا – برينكن وڤولانسكي**).

ج. التطوّر الاجتماعي

وبالنسبة إلى التطوّر الاجتماعي يكون امتداد التغيُّرات أكبر لأن لسياق المحرضات أثرًا أبلغ ولأن اختلافات الإطار الثقافي يمكن أن تُحدِث تغيّرات عند الفتيان. وتعرض للطفل متطلبات عديدة.

(١) في عمر الدبدبة تنأى المسافات بين الطفل ومرجعيته.

(٢) النزهة في «عربة الأطفال» تسهم في الاستكشاف السلبي.

(٣) يبدأ الاستكشاف الإيجابي النَّشِط بمراقبة وجه الشخص المرجع

(٤) يحب الأطفال أن يخبِّئوا ويكتشفوا: الطابة التي قد تكون مخبأة إلى يمين الفوطة أو إلى يسارها، يغمره الفرح عندما يجدها.

يقوم «النشاط» الأهم عند الولد باللعب. والسبب الذي يدفع الأولاد إلى اللعب شغل الباحثين. ونتج عن ذلك، اليوم، ست مجموعات من الآراء:

طاقة فائضة (استهلاك طاقات حرة)، تفريغ عاطفي (إزالة التوترات)، تمرين (استباق لعبي للنشاطات المستقبلية)، الكسب الفكري (مخطط إجمالي للإمكانيات)، حاجات اجتماعية (تدرب على الحياة الجماعية)، جهد تقييمي (إمكانية تجاوز الذات)

كثير من الأمور تلاحظ في اللعب.

(٥) التمتع بالحركة.
(٦) التخيل (قائد القاطرة)
(٧) المهارة (الركض بالبيضة)
(٨) النجاح والفشل (اللعب التنافسي)

د. التطوّر الأخلاقي

مؤلّفون كثيرون (**بياجيه، كولبرغ، شنك – دانتسنغر**) يماثلون بين مراحل التطوّر الأخلاقي بالرغم من أنه، لأسباب ناشئة عن البيئة، مثلًا، لا يتخطّى الكثيرون من الأشخاص المراحل الأساسية طوال حياتهم. ويمكن اختصار هذه الأنظمة المتعدّدة المراحل في محطات ثلاث.

(د١) يتوجّه الطفل (قبل العمر المدرسي)، في «الواقعية» الأخلاقية، بتأثير من أهمية المكافأة التي يتلقاها مقابل سلوكه المأمول:

تقول له أمه مثلًا: «لا تعذّب الحيوانات» (أخلاقية خارجية).

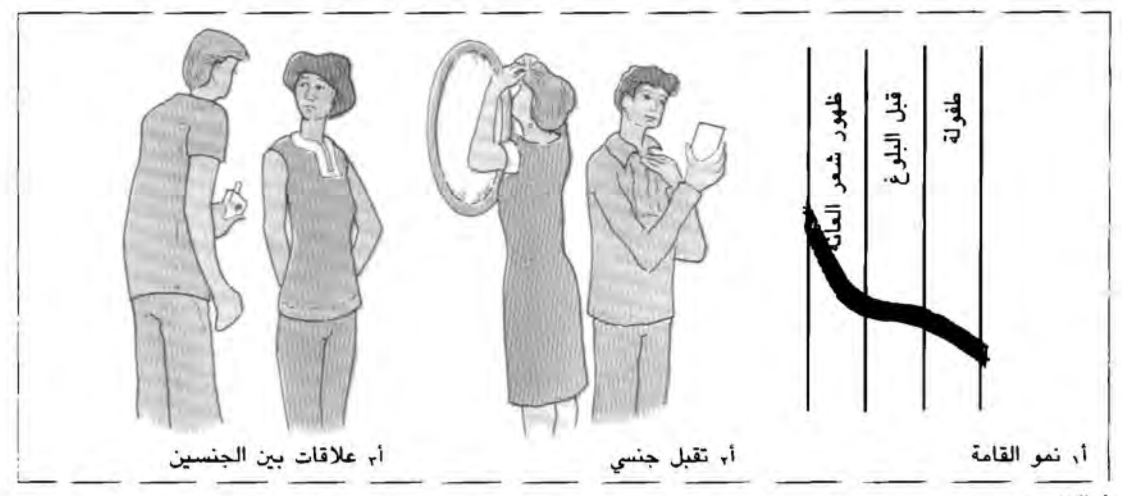
(د٢) يعبّر الطفل عن شعوره بالذنب ولكن ذلك يتوقف على رغبته في اكتساب حسن التفات الكبار:

يتساءل الطفل، حتى في غياب أمه، عما يمكن أن تقوله (أخلاقية مقيّدة).

(د٣) القوانين هي، بعد الآن، مستبطنة وقد وضعت مبادئ ضميرية فردية.

«لن أفعل ذلك أبدًا» (أخلاقية مستقلة)، كما في «ضبط» العدوانية الخاصة (المكبوحة)

يرجع مؤلّفون متعدّدون إلى مدلول الصراعات الأخلاقية التي تنجم لتوّها: مشروطة بتعدُّدية القيم (الأهل، المدرسة...)، بالتناقضات العقدية، بتجارب الصدمة الأخلاقية وبإشكالية القيمة الشخصية في بداية المراهقة.



أ١ نمو القامة

أ٢ تقبل جنسي

أ٣ علاقات بين الجنسين

أ. النضوج



ب١ مفهوم الذات

ب٢ مفهوم اجتماعي

ب. المراهقة



ج١ نشاطات حيوية

ج٢ بنية فوقية للحياة

ج. خطوط توجيه الحياة

الشباب هو مرحلة «الثورة» في الحياة. يعيش المراهقون ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة من العمر، رهن القلق العاطفي والبلبلة الفكرية وتغيير الاتجاهات. لكن هذا ليس سوى نزعة متوسطة لأن كل مراهق يستطيع أن يتصرف بطريقة مختلفة تقوي بعض الأطوار والظروف أو تضعف هذه الاتجاهات.

أ. النضوج

يظهر النضج الجنسي في فترات مختلفة تبعًا للبلدان والأعراق والأوساط والطبقات الاجتماعية. بكّرت الحيضة الأولى والقذف الأولى، عامة، وبشكل ملحوظ في القرن التاسع عشر (من عمر ١٧ سنة إلى عمر ١١ سنة تقريبًا)، في حين أن الفرق بين الجنسين لم يتغيّر (البنات في العاشرة والصبيان في الثانية عشرة).

وفي مرحلة ما قبل النضوج تحدُث تحوّلات هرمونية، يتوقف نموّ الجسم تقريبًا.

(أ١) تبدأ المرحلة الأساسية من النضوج بطفرة نموّ في القامة وزيادة في الوزن (حيث تظهر بعض المراحل المتوسطة؛ تتشكل الخصائص الجنسية الأولية والثانوية. وتسهّل الوظائف الجنسية الجديدة تكوّن الفردية.

(أ٢) يُعرَف الدور الجنسي بكونه «ثابتًا» ويجب أن يُقبل كما هو (التقبل الجنسي): إن دلال كل جنس يسهم في تقبُّله.

(أ٣) العمل التالي مهم: ويُعرَف به الممارسة الجنسية مع ما يرافقها من محاولات لسية لا عديد لها، قنوات الاختبار (الاستمناء)، التمرّن على الملامسات الأولى حتى السلوك الجنسي البالغ. إن العلاقات الاجتماعية والظروف الشخصية والمناسبات توجِّه مخططات الممارسة الجنسية.

ب. المراهقة

إنّ مرحلة ما بعد النضوج حتى سن البلوغ هي «مرحلة بناء» تحتوي الكثير من المخاطر. تتعلّق المهمات الأساسية بمفهوم الذات (ب١) وبالمفهوم الاجتماعي (ب٢) في تحديد متبادل.

لا يمثل الرسم الذاتي، بالنسبة إلى الرسام الفنان، مواجهة فقط مع «الأنا» اللغز ولكن أيضًا وسيلة لإيجاد أسلوبه الفنّي الخاصّ بتحرّره من التأثيرات الخارجية القويّة جدًّا.

ليس للجهود المبذولة لإيجاد الأسلوب الخاصّ في هذه الحالة القوّة نفسها عند الآخرين ولكنّها ليست غائبة تمامًا.

تجري محاولات الحصول على الاستقلال الذاتي، عادة، داخل الجيل ذاته.

يفضّل الفتيان الأتراب مضامين علائقية مرتبطة بعصرهم. الأسرار ظاهرة نموذجية في فترة ما بعد المراهقة وتجمّعات ذروة المراهقة. لقد آن الأوان للابتعاد عن العائلة.

ينتقل التوجيه إلى الفئة الاجتماعية الرائدة. الفئة التي تتبنّى قيمة اجتماعية نموذجية (سياسية، اجتماعية، موسيقية...) تتغيّر «ثقافات الفتيان»، اليوم، أسرع بكثير مما مضى.

ج. خطوط توجيه الحياة.

يتجسّد مفهوم الذات والمفهوم الاجتماعي في إنشاء تصاميم الحياة:

ما نريد أن نبلغه (تصميم الايجابيات)

وما نريد تحاشيه (تصميم الإبعاد)

تنتج هذه التصاميم عن تأمل في «المفاهيم» الأساسية أقل منها عن تمثل مُسْهب لأهداف سهلة المنال ومسؤوليات مدركة تشكّل خلفية كل قرار.

(ج١) ترجع هذه النشاطات الحيوية المرتقبة إلى أسلوب حياة (مثل تزيين الغرفة) وإلى تنشة مهنية (اختيار مهنة واتخاذ قرار مهني) وإلى التوجُّه نحو شريك (البحث عن تصورات الجنس الآخر وإعدادُها). يشعر الفتيان، تجاه هذه التوجُّهات المختلفة، بأنهم أكثر حرية أو أكثر تقيُّدًا.

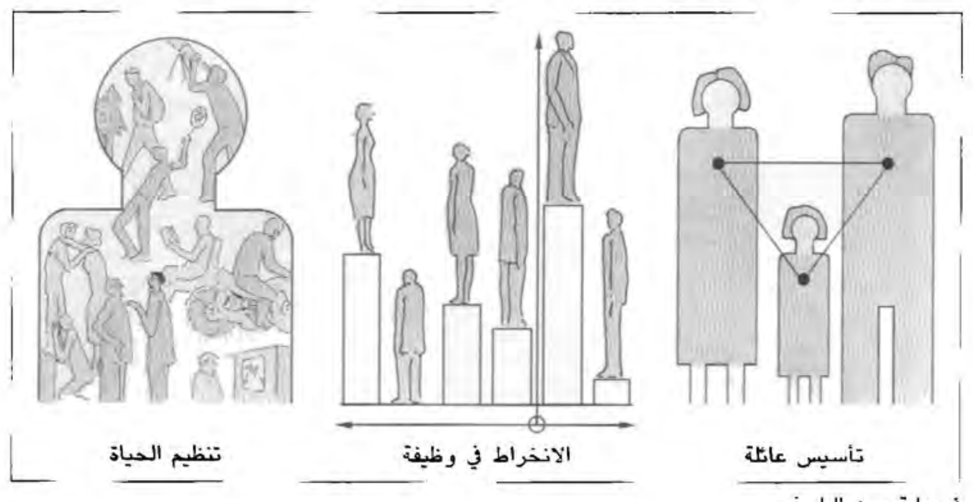
كلّما شعروا بأنّهم معاقون في حريّتهم (مثل بطالة الشباب، العدد المحدود، اعتراضات الأهل)، بدت لهم أكثر الاهتمامات بهذه المهمات «عبثية» وعبّروا عن اعتراضهم على المؤسّسات القديمة بعنف أكثر.

(ج٢) تشكل هذه الاعتراضات أساس البنية الفوقية الفردية (البنية الفوقية للحياة). تتولّد انطلاقة إيديولوجية خاصّة انطلاقًا من انطباعات معيشة وآراء استعادة وتجارب ارتجاعية. وليس من النادر أن تحصن هذه العقيدة براديكالية لأنّها لم تقلّل الحياة المهنية من حدّتها بعد ولا العائلة ولا العلاقات الحياتية. يتطلب الفتى تفسيرات عن عمل الأشياء الكبيرة والصغيرة: يلتزم بتحفُّظ أقل مما يفعل البالغون (أهداف إيديولوجية)

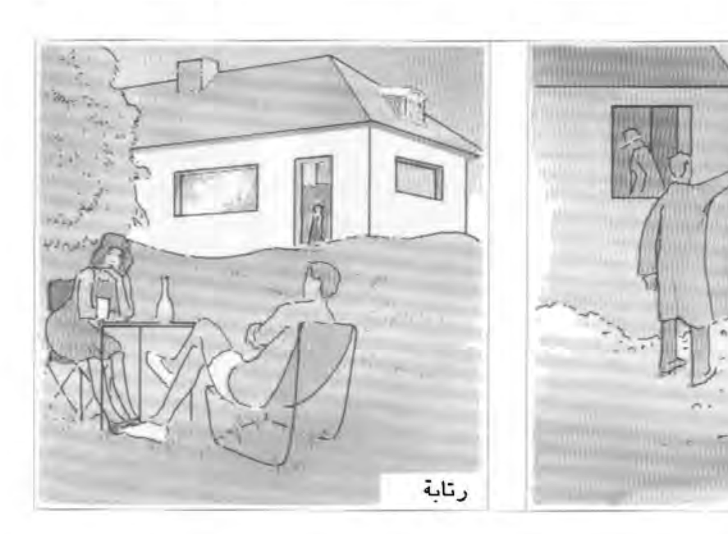
يتوصّل الشباب بسهولة أكبر إلى اعتبار الحياة حصينة لأن المرحلة الطويلة التي تنبسط أمامهم تفتح لهم آفاقًا مستقبلية.

إن الشعور «بفقدان هذا الأفق المستقبلي» يترتب عليه آثار وخيمة. هذا الفقدان هو سبب لأخطار كثيرة الانتشار عند الشّباب (مثل القرف، إدمان الكحول، إدمان المخدّرات).

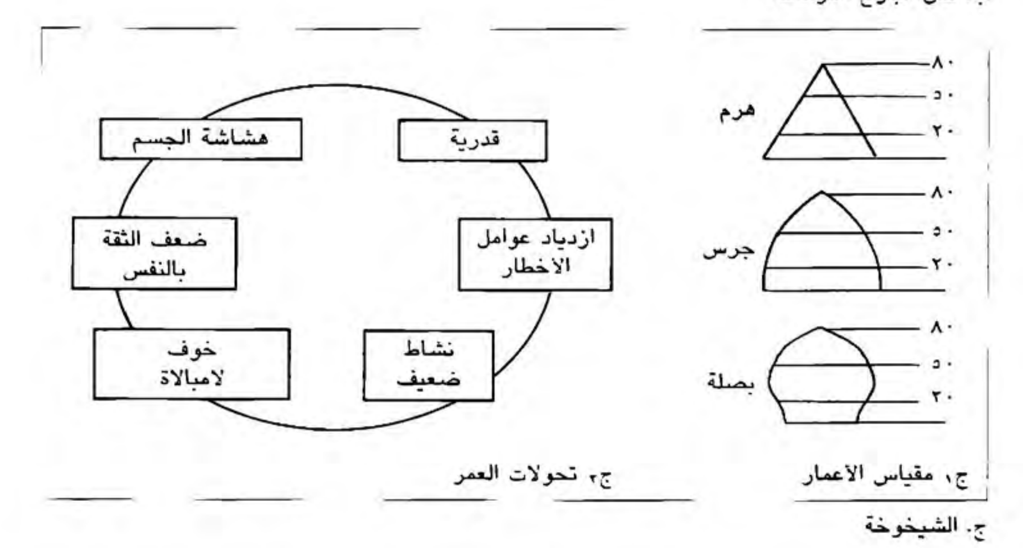
يتطلّب **اكتشاف الاتجاه** موقفًا نشطًا يتجذّر في مطامح المراحل السابقة وفي اللذّة التي يشعر بها الإنسان لدى انشغاله بالحياة.



أ. بداية سن البلوغ



ب. سن البلوغ المتوسطة



ج. الشيخوخة

كان علم نفس التطوّر يعتبر، حتى سنوات متأخّرة، أن التطوّر يتوقف في مرحلة الشباب. ولكن منذ حين بدأ الحديث في علم النفس الأميركي، عن **عملية تطوّر** تمتد مدى الحياة. لا تحدث تغيرات سريعة في سن البلوغ ولكن حالات كامنة (معقّدة وخفية) يمكن أن نسميها «خاصّة بالعمر».

أ. بداية سن البلوغ

بين العشرين والأربعين، «الحالة المبدعة»، تطغى نشاطات البناء أو الابتعاد عن «مستوى الرغبات» المبتذل.

ينتظر من الشخص، طبقًا للإطار الاجتماعي الخاص لكل مرحلة من مراحل العمر، أن يتزوج وينجب أطفالًا (يُحدّد هذا الإطار الاجتماعي في بعض البلدان، في مرحلة الشباب، ويفضل رسميًّا، في الصين، في حدود الثلاثين).

وثمّة إطار آخر من العمر مخصص للانخراط في الحياة المهنية. إنّ التفرقة الجنسية النموذجية بين نشاطات الذكور والمهمات المنزلية الخاصّة بالإناث تتلاشى شيئًا فشيئًا كما يتلاشى التوزيع السابق للأدوار في تربية الأولاد. ولا ينتهي تنظيم الحياة عند تكاليف السكن واللباس.. ولكن يتجدد، أكثر من الماضي، بنشاطات التسلية وشَغْل أوقات الفراغ. كثيرة هي القرارات التي تتدخل في هذا المجال:

اختيار المعارف والأصدقاء (يتم اختيار الأصدقاء في مرحلة متأخرة من الحياة). اختيار العطل وتسلية المساء (كتاب. تلفاز...)، هوايات المشاركة في الأحداث الاجتماعية وفي مظاهرات الجماعات العقائدية...

إن العناصر الثلاثة: تأسيس عائلة، الانخراط في وظيفة وتنظيم الحياة هي التي تحدّد «أسلوب الحياة» وتميز بين الأفراد تمييزًا ظاهرًا.

ب. سن البلوغ المتوسطة

ترسيخ طريقة الحياة، التأمل بالماضي ومراجعته، إعداد تدريجي للرتابة ومقاومة العياء الناشئ عنه، كلّها تسم المرحلة ما بين الأربعين والستين. ويكمن وراء ذلك تنافر بين الترسيخ والرتابة:

من جهة، محاولة لتوطيد الحياة إلى أجل طويل. وتبدو الحياة، من جهة ثانية، قاسية ومملّة. (**ويتبورن** ١٩٨٢).

وبفعل العادة تفقد المهنة والحياة الزوجية ونشاطات التسلية الكثير من جاذبيتها عندما لا نجيد إدخال الزخم والحماسة إليها. وتبدو مهمة التجديد والتغيير، بالنسبة إلى الكثيرين عصيّة على الحل. فيحاولون الفرار (بترك المهنة و/أو بالتخلي عن شريك الحياة) ويبدأون من جديد فينتهون (سريعًا) إلى مرحلة جديدة من الرتابة.

اقترح الكثيرون من الأطباء النفسانيين (منهم **ك.ج. يونغ، ف. إ. فرانكل**) الذين وصفوا هذه الحالة قبل مفهوم «أزمة منتصف العمر»، اقترحوا إعادة تقييم «لروحية» هذه المرحلة.

ج. الشيخوخة

إن مفهوم «هرم الأعمار» (العريض القاعدة للشباب والحاد الرأس للشيخوخة)، في البلدان الصناعية، هو مقولة باطلة يستمر استخدامها بالرغم من وجود اتجاه آخر لتوزيع الأعمار (ج١) يشبه شكل جرس أو بصلة. يلاحظ في هذا الشكل زيادة نسبية في أعمار المسنين ما نعتبره إشكاليًّا. لم تعد الحالات النمطية الناجمة عن العمر، من وجهة النظر هذه، «مصائر فردية».

تمخضت دراسة الشيخوخة (**تومه، ليهر، بروشكه، بالتس**) عن ثلاثة مجالات تحوّل.

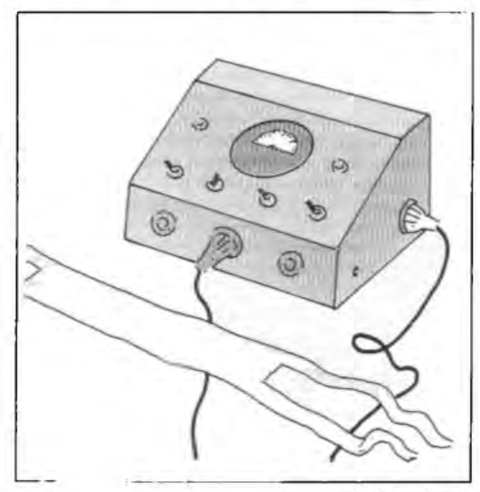
التلف: ضعف تدريجي في الجلد والعضلات والأعضاء الحسية وغيرها مع تقهقر فكري محتمل.

ويُعترف اليوم بأهمّية التدريب العقلي ومدلوله. غير أن ضعف المرونة العقلية (العقل المفرّق) يُقابل، عامّة، ضعفا أقل، نسبيًّا، في معالجة المعرفة والخبرة المتراكمتين (العقل الجامع)

الصلابة، وتعني عدم المرونة المتزايدة لدى الأشخاص المسنين. تعتبر التغيرات بغيضة وحتى غير محتملة. يعودون دائمًا إلى سلوكهم المعتاد دون الأخذ في الحسبان أنهم غير متكيفين مع حاضرهم.

التحرر من الالتزامات هو الصفة الأهم في هذه السن، ولكنّها الأكثر قابلية للتأثّر. التناذر الأساسي هنا هو «فقدان العائلة» الذي يحمل معه نتائج نفسانية يمكن تجنّبها. وتقوم بعض العوامل على تناقص جدول الأدوار، على انحطاط خادع في النشاطات، على زوال المنافسات، وأيضًا على رغبات الشيخوخة (لم يعد للأشخاص المسنّين «الحق» في القيام ببعض الأعمال التي لا يزالون قادرين عليها). تشكل هذه الأسباب حلقة سلبية مع هشاشة بدنية خطيرة وضعف في الثقة بالنفس وخوفٍ ولامبالاة وقلّة نشاط وازدياد في عوامل الخطر وقدريّة، كل ذلك يولد المزيد من الهشاشة. إن تحطيم هذه الحلقة المفرغة هو مهمة تقع على كاهل الشيوخ وهو أيضًا من واجب الأشخاص المحيطين بهم ومن واجب المجتمع:

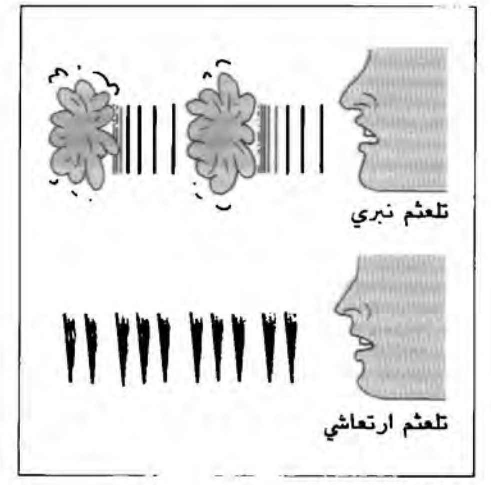
«إن الناس المحيطين بالإنسان هم الذين يحملونه على الاعتراف بشيخوخته» (**بوير** ومعاونوه ١٩٨٠)؛ «إذا كان مسار الشيخوخة قابلًا للتعديل ويمتلك أوجهًا مختلفة، فإنه يوجد أيضًا إمكانية تغيير شكلها». (**بالتس ودانيش** ١٩٧٩).



أ. سلس البول



ب. اضطرابات التكيف



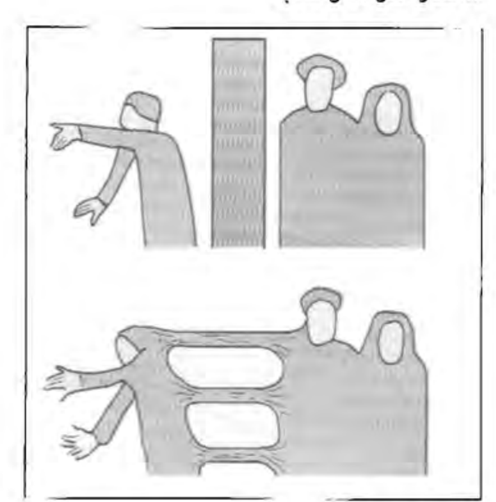
ج. اضطرابات التكلم

بدلًا من: دور/رود (١)	بدلًا من: برد/بد (٢)
بدلًا من: سمر/سمار (٣)	بدلًا من: تفاح/دفاش (٤)
بدلًا من: سافر/ثافرَ (٥)	بدلًا من: ق/ك ث/س ض/د (٦)

د. عسر القراءة والكتابة



هـ فقد الشهية العقلية



و. صراعات الانفصال

إن التطوّر عملية معقّدة وهي لذلك معرّضة لأضطرابات على مستويات عدّة. تبدأ هذه الاضطرابات من عادة قضم الأظافر، التخفي، من الكوابيس الليلية حتى الهرب من المدرسة، من التقيؤ النفساني المنشأ حتى اضطرابات النطق المرتبطة بالعمر. إن تصنيفها جميعًا هو من رابع المستحيلات. والمحاولات المبذولة حتى الآن لتبويبها تتبنى ثلاث وجهات نظر.

تعتبر وجهة نظر إحصاء التطوّر أن الطفل يكون مضطربًا (**شيفرد، اوبنهايم، ميتشل**) عندما يسجل سلوكه، في بعض القطاعات الحياتية، معدل «ندرة» أقل من ١٠٪ (قيمة مستثناة).

تُنشئ نموذجيةُ التطوّرِ جماعاتٍ «محدودة التجربة» (**فيرنر**) تبدأ من عدم النضج (النموذج الطفلي) إلى التطوّر الآحادي الجانب (نموذج الانشطار الفصامي).

تعتمد المقاربة المركّزة على التسلسل التاريخي لأحداث التطوّر على نظرية التحليل النفسي للعُصابات (**فون فيبان**): شذوذ المراحل الفمية والشرجية والتناسلية.

الاضطرابات المتكرّرة ماثلة أدناه.

أ. سلس البول

بالإضافة إلى سلس الغائط، يعتبر سلس البول من اضطرابات التبرّز. لا يمكن أن نتكلم على سلس البول إلّا بعد الثالثة من العمر.

يستخدم العلاج السلوكي منذ وقت قصير، أجهزة الكترونية (فصل ٢٠/٥) توقظ الولد عند حدوث أدنى تبلّل وتحول دون اتساخه.

ب. اضطرابات التكيّف

لا يستطيع الطفل أن يعبّر عن إرادته بالكلام فيتعمّد إشارات غير كلامية (مثل العناد) تثير بالمقابل مقاومة الأهل فيسيئون الظن بفقر لغة الطفل. وتتوالى مشاكل سلوكية عديدة تبعًا لهذا المخطّط فتؤدي إلى اضطراب في السلوك، إن أخطر شكل من أشكال اضطراب التكيّف هو الانطواء الطفلي، أي فقدان الاتصال الاجتماعي حيث يرى الطفل الآخرين كما لو كانوا «شفافين» فيكون رد فعله الخوف عندما تتغيّر بيئته.

ج. اضطرابات التكلّم

إنّ اضطراب التكلم الأكثر ترددًا عند الطفل هو التلعثم (ويصادف مرّات أكثر عند الصبيان) وهو تشوش في النطق.

نميز التلعثم النبري (تبدو بعض الأصوات والمقاطع أو الكلمات كأنها مكبوتة و«تنفجر») وتلعثم الارتعاش (حيث تتكرّر أجزاء الكلام على طفرات).

ويصحب هذا النطق المتقطع عوارض ثانوية مثل ضيق التنفّس وتغضن الوجه وفقدان الثقة بالنفس واعتزال المجتمع.

وقد يجتمع إلى التلعثم اضطرابات نطق أخرى مثل اللجلجة (وهي عبارة عن أصوات مخطوفة لعدم اتصال المقاطع).

د. عسر القراءة والكتابة

إنّه اضطراب خاص بالقراءة وبالكتابة. ويتجلّ تكرارًا في الأمور التالية:

(١) في ترتيب الحروف، (٢) في ترك بعض الحروف (٣) في إضافة حروف، (٤) في تشويه الكلمات، (٥) في خطإ معجمي، (٦) في إفساد بعض الحروف.

للقراءة «الاكتناهية» تأثيرات على تعلُّم المواد المدرسية.

لم توضّح بعد أسباب عسر القراءة؛ ولكن يُرجّح:

حدوث انعكاس في قطبي الكفاءة النطقية بين نصفي الكرة الدماغية يؤدّي إلى عجز في تمييز الصور الكلامية؛ ثغرات في الذاكرة تتناول هذه الصور (نقص في المخزون)، مشاكل الجانبية»، أخطاء في بسط القيم البيانية لعناصر النطق على عناصر أخرى مشابهة.

هـ. فقد الشهية العقلية.

يصيب فقد الشهية، في فترة المراهقة، البنات أكثر من الصبيان بعشرة أضعاف.

يظن فاقدو الشهية أنّهم يأكلون بشكل طبيعي، لا يشعرون بالجوع، يخافون السمنة، يستخدمون دائمًا وسائل جديدة لمراقبة وزنهم مثل الحرمان من النوم، الإسراف في الجهد الجسدي (الولع بالركض الفردي). وهم فخورون بالسيطرة على أنفسهم.

وقد تكون النتيجة، ليس فقط الهزال الخطر، لكن أيضًا توقف الحيض، ويعزى السبب إلى «رفض» تحمّل مسؤولية الدور الجنسي.

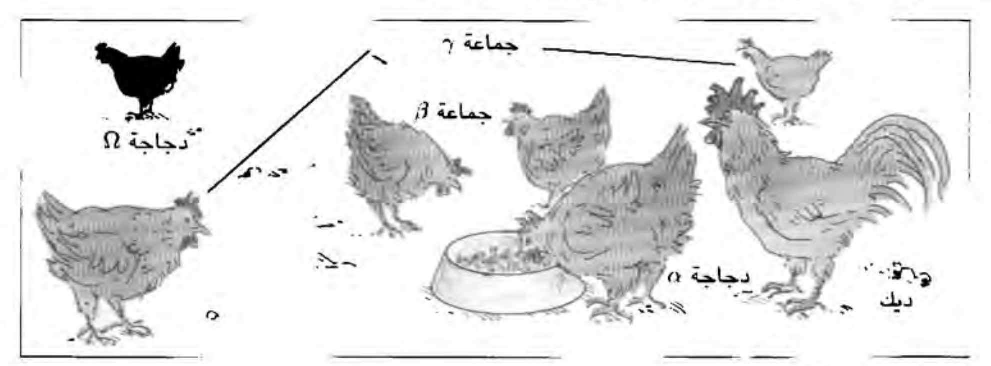
و. صراعات الانفصال

تمثل وظيفة الارتباط والانفصال نزعتين علائقيتين في الحياة الاجتماعية. تقوم إشكالية الانفصال على انحلال العلاقة بالأهل وليس بالتنكّر لها تنكّرًا كاملًا. فينتج عن ذلك نوعان من الاضطرابات:

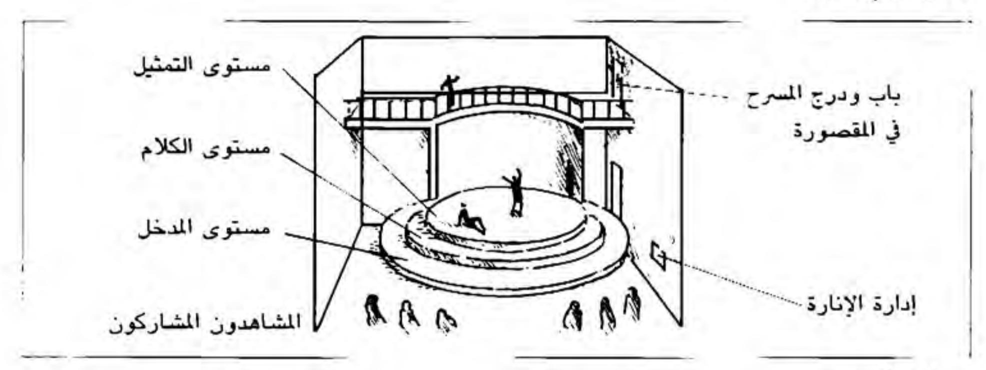
الانفصال الكامل تجاه الأهل وذريتهم أو العجز عن التحرُّر منهم.

لقد استطاع مؤلفون كثيرون (منهم **شاندلر** ١٩٧٨؛ **إلْكِنْدْ** ١٩٧٨) أن يبرهنوا أن هذه المرحلة من البلبلة (توجيه جديد لجميع المراجع الحياتية)، تتطلّب إعدادًا معرفيًّا. يتحمّل الشخص مسؤولية جديدة لم تكن موجودة سابقًا بهذا الشكل.

إن تكرار الصراعات المرتبطة بالانفصال يعتمد خاصّة على إطالة التأجيل الذي يؤدي إلى التعارض بين حالة النضج المادي والاستقلالية الاقتصادية.



أ. شيلدروپ – إبّه



ب. مورينو



ج. مايو



د. ليڤين

كتب **سيغموند فرويد** سنة ١٩٢١:

«لو كان علم النفس، الذي يستكشف استعدادات الفرد ودوافعه الغريزية وحوافزه ونواياه حتى في أعماله وفي علاقاته بقريبه، لو كان قد انجز مهمته نهائيًا وجعل جميع هذه العلاقات شفافة لوجد نفسه حينئذ، فجأة، مضطرًا إلى أن يواجه مهمة أخرى، لم تحلّ بعد، تنتصب أمامه. لتوجّب عليه أن يُفسّر واقعًا مثيرًا وهو أن الفرد، الذي يتمكّن لاحقًا من فهمه، يشعر ويفكّر ويعمل في بعض الظروف المخالفة لكل توقع: إن هذا الظرف هو انخراطه في مجموعة بشرية» (علم نفس الزُمَر وتحليل الأنا».

وبالرغم من أن علم نفس الفرد يمارَس منذ ٢٥٠٠ عام، فإن ضرورة علم نفس اجتماعي، كما يعرضه **فرويد** بكثير من الحدّة والمضاء، لم تُدرك ولم تنضُج إلّا خلال العشرينات من القرن الماضي. وقد وجد فعلًا «علماء نفس اجتماعيون»، وكتب **و.ك. ماكدوغل** سنة ١٩٠٨ «مدخلًا إلى علم النفس الاجتماعي» يرجع فيه إلى «الدافع الاجتماعي» لكنّنا لا نجد أية «نظرية في علم نفس الزُمَر» تنطبق على التصورات الحالية.

أ. شيلدِروپ - إبّه

نشر **تيودور شيلدروپ - إبّه**، سنة ١٩٢٢، اكتشافًا حَدَث في مزرعة نروجية.

لا تتبادل الدجاجات الضرب بمناقيرها لكي يبعد بعضها بعضًا عن المذود بطريقة عشوائية ولكنّها تستخدم لذلك «درجات من النقر» محددة تستمر لمراحل طويلة. والمعيار ليس فقط القوّة البدنية ولكن أيضًا المظهر الخارجي والصحة والعلاقات الطيبة بالديك... للدجاجة من مرتبة عالية الحق في نقر الدجاجات الأخرى دون أن تبدي أي اعتراض (فئة ألفا أو بيتا) ويمكن آن تنهزم أمام دجاجة بيّاضة من مرتبة دنيا (فئة غاما أو تيتا): ويجري الحديث عن تراتبية مثلثة وليس خطّية. وتحدث أيضًا مؤامرات بين الحيوانات من مرتبة دنيا للسيطرة على دجاجة أقوى منهن بكثير. وتنقر الدجاجات العالية المرتبة عادة بلطف أكثر من دجاجات الطبقة الدنيا.

ولوحظت ظاهرات مشابهة عند جماعات آخرى من الحيوانات وهي أكثر اختلافًا وأكثر تعقيدًا كما تُلاحظ عند الناس آيضًا.

ب. مورينو

ودون أن يعلم عالم النفس النمساوي - الأميركي **جاكوف ليڤي مورينو**، بهذه الوقائع، تحدّث ١٩٢٤ عما دعاه «مسرح الجميع مع الجميع». وطور، انطلاقًا من هنا، ألعابًا جماعية حيث كانت العمليات الجماعية تستخدم لغايات علاجية نفسية. فأسس مسرح «التمثيل النفساني» في بيكون قرب نيويورك مع مرضى في دور ممثلين (ابطال) ومساعدين وجمهور مشاهدين مشاركين. ولكي يستطيع تسجيل العمليات الجماعية بالضبط اخترع «البيان الاجتماعي» (فصل ٢/١٥).

ج. مايو

وفي سنة ١٩٢٧ أشرف **إلتون مايو** على سلسلة من الاختبارات دامت ١٢ عامًا في مصانع هاوثورن في شركة كهرباء الغرب (وسترن إلكتريك كومپاني).

كان يقيس في الاختبارات الأولى تأثير النور على الطاقة الانتاجية. وكما كان متوقّعًا كانت الطاقة تزداد بموازاة تحسن الإنارة. بيد أن نقصًا لاحقًا في الإنارة صحبه ازدياد في الانتاج.

ولم يخرج فريق الباحثين من هذه المتاهة إلّا بعد اكتشافه مدلول الفئات اللاشكلية: فكان ما أدّى إلى زيادة الانتاج «تشكيل الجماعات» مع علاقاتها الإنسانية فيما بينها وأيضًا الوظيفة الجديدة «لفريق التجربة» وليست ظروف الإنارة. فثوّرت هذه النتيجة علم النفس الاجتماعي. وهكذا بدأ علم نفس الجماعات.

د. ليڤين

وفي منتصف الثلاثينات من القرن الماضي، درس **كورت ليڤين** وفريق عمل تأثير أساليب الإمرة المختلفة على جو الجماعات.

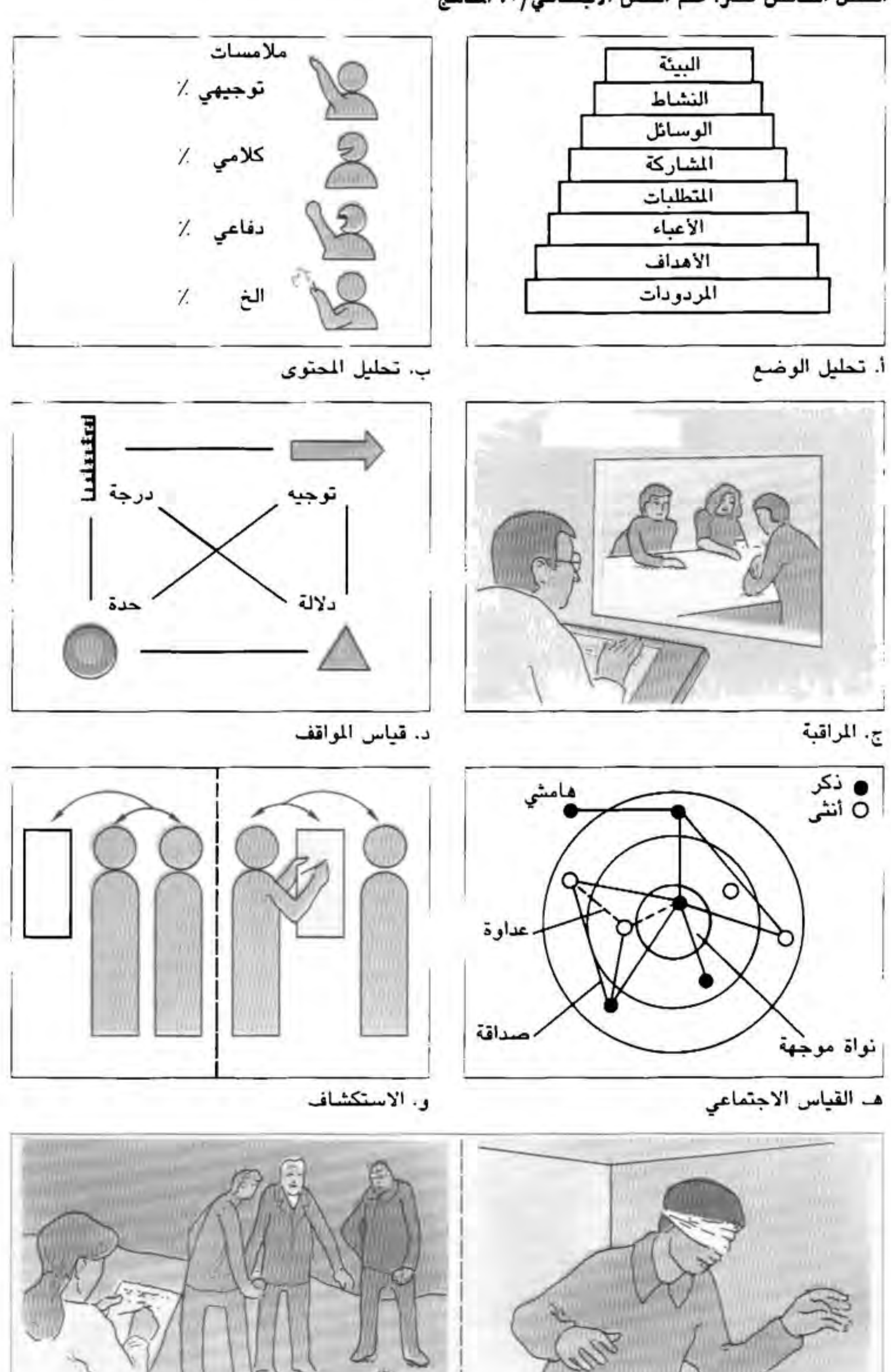
يؤدّي أسلوب الإمرة الاستبدادي (الأوتوقراطي) إلى بعد شاسع بين الرئيس والجماعة المرؤوسة. وينتج عن ذلك جو متوتر وتدنٍّ أخلاقي مناقبي في العمل واتجاه إلى إيجاد «كبش محرقة» مسؤول عن جميع الخلافات.

ويؤدّي الأسلوب الديمقراطي إلى تشكيل جماعات فرعية تعمل بحماسة، ويصبح الجو مسترخيًا وبنّاءً. ولن يلبث الشعور الجماعي أن يتطوّر.

وظهر صدفة فريق لا مبالٍ وذلك ناتج عن فشل الرئيس في وظيفته. وغاص هذا الفريق في صراعات مستمرة ولم ينجح في عمله.

وتكوّن مع هذه الدراسة مجال عمل هام لعلم النفس الاجتماعي دعاه **ليڤين** دينامية الجماعة، واتسع هذا العلم ليصبح ميدانًا عمليًا (فصل ٩/١٥). وتاكّدت مع جماعات الاختبار، فوائد أشكال الإمرة المتساهلة (السموح) في الصناعة والمدرسة والإدارة... ودخلت دينامية الجماعة آيضًا في الطب النفسي في صيغة تدريب الحساسية.

هؤلاء المؤلّفون هم «أسلاف» علم النفس الاجتماعي الحالي الذي تطوّر فيما بعد في اتجاهين: فمن جهة بتطويره نظريات عامة (مثل نظريات التفاعل (فصل ١/١١) اكتسبت دلالة خاصة لعلم النفس الاجتماعي ومن جهة أخرى بمفاضلته بين بعض الموضوعات الخاصة بعلم النفس الاجتماعي.


البيئة
النشاط
الوسائل
المشاركة
المتطلبات
الأعباء
الأهداف
المردودات
أ. تحليل الوضع
ملامسات
توجيهي ٪
كلامي ٪
دفاعي ٪
الخ ٪
ب. تحليل المحتوى
ج. المراقبة
درجة
توجيه
حدة
دلالة
د. قياس المواقف
ذكر
أنثى
هامشي
عداوة
صداقة
نواة موجهة
هـ القياس الاجتماعي
و. الاستكشاف
ز، اختبارات في المختبر
ز٢ اختبارات على الأرض

ز. الاختبار

إن الابتداع المتأخّر لعلم النفس الاجتماعي ناشئ عن غياب المناهج الخاصّة. أمّا اليوم فعلم النفس الاجتماعي يمتلك ترسانة ضخمة من المناهج.

أ. تحليل الوضع

يُعتبر مفهوم «الوضع» من وجهة النظر الظواهرية كشرط أساسي لجميع الوقائع الاجتماعية.

تحدث هذه الوقائع في وضع إجمالي أي في نظام تأثيرات من عدّة أنماط.

إنّ تحليل الوضع البارز على شكل تحليل العمل، هو، في علم نفس العمل، الأكثر تقدُّمًا (فصل ١/٢١). فهو يدرس مجمل وضع العمل حيث توجد جماعات فرعية يمكن فهمها أيضًا بواسطة المناهج التالية. وبكلمة مختصرة يمكن دراسة الهيئات الاجتماعية في المجالات الثمانية التالية: البيئة، النشاط، الوسائل، المشاركة، المتطلبات، الأعباء، الأهداف، المردود.

ب. تحليل المحتوى

تتضمّن العلاقات الاجتماعية عناصر عديدة يعطي بعضُها تعليماتٍ واضحة عن نوعية مجمل العلاقة.

يمكن لتكرار المشاركة الكلامية لأعضاء جماعة ما أن يُتخذ مقياسًا لتقييم وضعهم أو مكانتهم اللاشكلية.

يستخدم تحليل المحتوى (وقياس المواقف في بعض الأوضاع النوعية الخاصّة) هذه الوقائع في منظور إحصائي. وهكذا يمكن وضع إحصاء لسلسلة محتويات تؤلف أحداثا اجتماعية (تقييمها ومتابعة معالجتها).

ولا تكون فائدة تحليل المحتوى حاسمة إلّا عندما يكون لدينا معطيات كافية للضبط والمقارنة.

ج. المراقبة

كان **ر.ف. بالس** (١٩٥٠) يستخدم في أبحاثه، لمنهجة مراقبة جماعة ما، شبكة تصنيف استعملت فيما بعد في دراسات عديدة. وكانت ارتيازات المراقبة تعتمد على اثني عشر صنفًا، منها:

نشاط المشاركة، مساندة الآخر، الشروح الشفهية، عدد الأسئلة، الجو المتوتر أو المسترخي، المساعدة في حل المسائل.

د. قياس المواقف

نطبق، لقياس المواقف، مقاييس كمية على ردود فعل أو آراء تتضمّن في أغلب الأحيان، أربعة أبعاد:

التوجيه (نسبة أهداف إلى مهمات).

الدرجة (مستوى التمايز المرقّم)

الحدة (التزام مبيَّن)

الدلالة (رسو ذاتي)

نقيّم بسهولة هذه المواقف بواسطة أسئلة نوازن فيها اتخاذ المواقف القابلة للتكميم مثل منهج جمع القيم (مقياس ليكير).

هـ. القياس الاجتماعي

نستخدم من أجل التحقّق، بطريقة أفضل، من تطور البُنى الاجتماعية، مخططات تدعىٰ بيانات اجتماعية (**مورينو**)؛ وهي تحتوي فيما تحتويه:

إشارات تمثل الذكور والاناث (نقطة، دائرة)، العلاقات الصّداقة والعدائية (خطوط متصلة أو منقّطة) ودرجة الصعود (من النواة الموجّهة إلى الأطراف).

و. الاستكشاف

يُفهم بالاستكشاف أنماط مختلفة من التحقيق والاستقصاء. ففي بعض الحالات تُفرَض المبادرة على من يَسأل (مقابلة مع أسئلة محدّدة). وفي أخرىٰ على من يُسأل (حديث مفتوح).

ويُعمل خاصة على «توحيد نمط» الأجوبة: بواسطة الاستمارة عند المقابلة. وبعد ذلك بالنسبة إلى الأحاديث.

تطرح موضوعية الأجوبة مسألةً هامّة.

تُتيح الأمانة من التأكّد من أن الأجوبة ليست «عرضية طارئة» ولا تتعلّق لا بالمكان ولا بالزمان. وبالنسبة إلى الصحة، كل شيء مرتبط بالتطابق بين الأجوبة والآراء الحقيقية.

ز. الاختبار

تستدعي البرهنة العلمية للنظريات، في علم النفس الاجتماعي، اللجوء إلى الاختبار. نميز بين نمطين من الاختبارات:

(ز١) الاختبارات في المختبر، وتخضع لشروطٍ اختبارية مراقبةٍ بدقّة بالرغم من أنه يجب الأخذ في الحسبان بأن عددًا كبيرًا من العمليات الخفية يظل مجهولًا.

ويمكن أن نذكر، هنا، على سبيل المثال، اختبارات الإيحاء في أماكن بحث مراقبة. والهدف هنا فقط هو دراسة نتيجة التأثيرات الإيحائية على الشخص موضوع الاختبار.

(ز٢) الاختبارات على الأرض، وتجري في مواضع مكشوفة.

يمكن لتأثيرات عديدة إضافية، مثل «المتغيرات الطفيلية» أن تترك بصماتها على النتائج، ويجب، في هذا النوع من الاختبارات، أن تفسر النتائج بكثير من الحذر.

ولكن إذا تم التوصُّل إلى نتائج مخبرية أكيدة وخاصة تلك التي تلتقي مع نتائج مشابهة، في حالات أخرى عديدة، يكون النجاح أكثر مردودًا من أي طرق أخرى.



أ١ حرمان

أ٢ تعوّد

أ. التشكيل الاجتماعي

ب١ تفاعل

ب٢ استدخال

ب. التعلّم الاجتماعي

ج١ حماية جماعية

خطوط للمقارنة

خط معيار

ج٢ نزعة إلى التماثل

ج. الرقابة الاجتماعية

يحدد التعريفُ القديم التنشئةَ الاجتماعية (أو الجمعنة) بأنّها ميزة «الطبيعة الإنسانية» (**دوركهايم** ١٨٩٣). ولا تعتبر هذه العملية، اليوم، «سلبية» بحتة.

«يُشكّل المستقبل» منذ الطفولة (**دوڤان، أدلسون**، ١٩٦٦؛ **بريغوجين**، ١٩٨٠).

إن أهمية هذه الفكرة لا تقبل الجدل. فالفعل (فصل ٩) والاتصال (فصل ١١) هما أساسيان للتنشئة الاجتماعية.

أ. التشكيل الاجتماعي.

مثلان بارزان يوضحان وجهي التشكيل الاجتماعي (القولبة الاجتماعية).

الانتماء (أو أيضًا: التعلّق، الطابع الاجتماعي، التثقُّف، التثاقف) ونقيضه، الحرمان الاجتماعي.

أ١) في نهاية الأربعينات (من القرن الماضي) روى الهندي **سِنْغ** قصة **كمالا**، وهي فتاة في الثامنة من عمرها نشأت بصحبة الذئاب. لم تكن تحسن سوى العواء وإرسال صراخ حادّ، تسير على قوائمها الأربع، تأكل على الأرض، تركض بسرعة تتيح لها اصطياد الأرانب البرّية وافتراسها نيئة للحال.

(أ٢) وفي سنة ١٩١٩ وضعت امرأة طفلها في إحدى العيادات ولاحظت بعد يومين أن فم ابنها قد تغير. فارتابت في حدوث تبادل. فأكّد لها جهاز الخدمة أن التبادل مستحيل. وبعد اثنتي عشرة سنة اثبت لها تقدُّم الفحوصات البيولوجية أن شكّها في محلّه. وصدر حكم قضائي يفرض تبادل الأولاد. لكن العائلتين رفضتا الحكم وشعر الأهل والولدان أن التربية العائلية قد خلقت علاقات أمتن من العلاقات الدموية.

يُلخّص مفهومُ التعوّد (تكوُّن العادات) الآثارَ القوية للعادات الاجتماعية (في هذه الحال، أثر القرابة العائلية؛ نظرية العدالة).

ب. التعلّم الاجتماعي

من بين نظريات التعلّم، يركز توجيه البحث على التعلّم من الآخر. يدعو **پاڤلوف** ذلك التعلّم «بالمثيرات المعقّدة»، ويتحدّث آخرون عن «التقليد» (**ن.أ. فلاندرز**، خاصّة)، عن «عملية المماثلة» (**ج.أ. ملتون**)، عن تعلّم النماذج أو بالاستبدال (**أ. بندورا**) ولكن تستخدم أكثر الأحيان عبارة «التعلّم الاجتماعي» (**ج.ب. روتر**): الإيجابي أو الوظيفي، السلبي أو المختل الوظيفة.

موضوعان أساسيان يسجّلان في هذا السياق:

(ب١) يقلّد الولد، في لعبه، الأدوار التي يعرفها (الأب، الأم، الطبيب..). وليست المسألة هنا مسألة تقليد بسيط ولكنّها تفاعل مع النموذج حيث يتداخل الفعل (فصل ٩) والاتصال (فصل ١١) اللذان يستطيعهما الولد.

(ب٢) الاستدخال يكمّل التفاعل. ويقصد بهذا التعبير الاستبطان المعرفي للتصورات والقيم والقوانين وتوقُّعات الآخرين؛ وهو يقرب من التماهي (فصل ٢٠/٣). الاستدخال يجعلنا «نمتلك» شيئًا ما.

وقد تبيّن في العقود الأخيرة من السنين أن التلفاز يوفر أكثر النماذج للولد. كان لمسلسل متلفز مثل «تيري لافروند» آثار تكامل ثقافي أكثر من بعض البرامج «الهادفة». وحدّدت بعض الدراسات (**إيرل** ومعاونوه، ١٩٧٨) تقدم موضوعات استدخال و«أعمال تعاون مدركة» و«أعمال رصينة مستقلّة».

لم يوجد بعد أي مقياس للإدماج الاجتماعي (نسبة اجتماعية SQ) يطابق مقياس الذكاء (IQ).

ج. الرقابة الاجتماعية

ليست التنشئة الاجتماعية فقط «مطلبًا» مقبولًا، إنها أيضًا «ضغط» يقوى أو يضعف. للمجتمعات دائمًا مصلحة في أن يكون مواطنوها «متشابهين». وهذا ينطبق أيضًا على الوحدات الاجتماعية الصغيرة. ولا تعني الرقابة هنا بالضرورة تدقيقًا مستمرًا بل تعني بالأحرى مشاركة منظّمة او «ضبطًا».

(ج١) إن الجماعات المرجعيّة (كالوالدين والزوج والعائلة) هي، بالنسبة إلى السواد الأعظم من الناس، «وقاء ضد مصائب الدهر». ففي ساعات الضيق يعرف الإنسان من هم جديرون بثقته. إن فقدان هذه الحماية الجماعية يضر بإواليات الرقابة الأكثر ثباتًا واستقرارًا (مثل «فقدان الحب»).

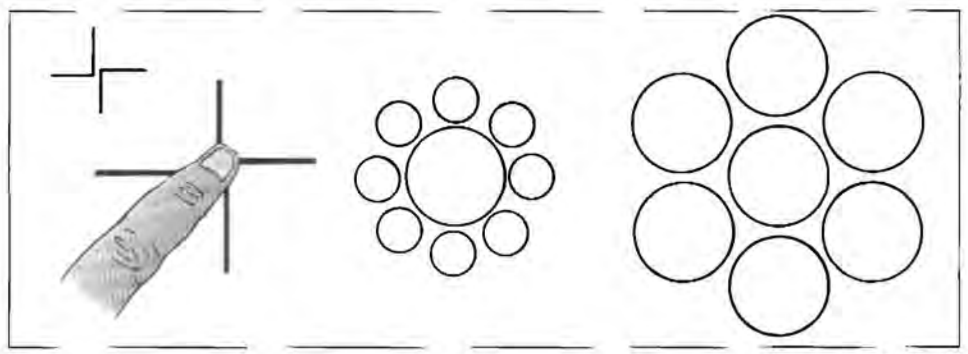
(ج٢) أظهرت سلسلة من الاختبارات الشهيرة شكلًا آخر «مستبطنا» من الرقابة الاجتماعية.

عرض **آش** (١٩٥٦) الخطوط (الموجودة في أعلى الصورة) وسأل: أيُّ من هذه الخطوط يساوي الخط المعيار؟

في الظروف الطبيعية ١٪ فقط من الأشخاص الخاضعين للتجربة يذكرون الخط الأوسط.

لكن في المجموعات التي ليس فيها سوى شخص اختبار «حقيقي» واحد وحيث الآخرون، تقيّدا بتعليمات الباحث المسؤولة، يعطون، عمدًا، أجوبة خاطئة، يحمل الضغط الاجتماعي الأشخاص «الحقيقيين» على اعطاء اجوبة خاطئة بشكل واضح، إما دائمًا (٣٠٪) وإما أحيانًا (٤٥٪).

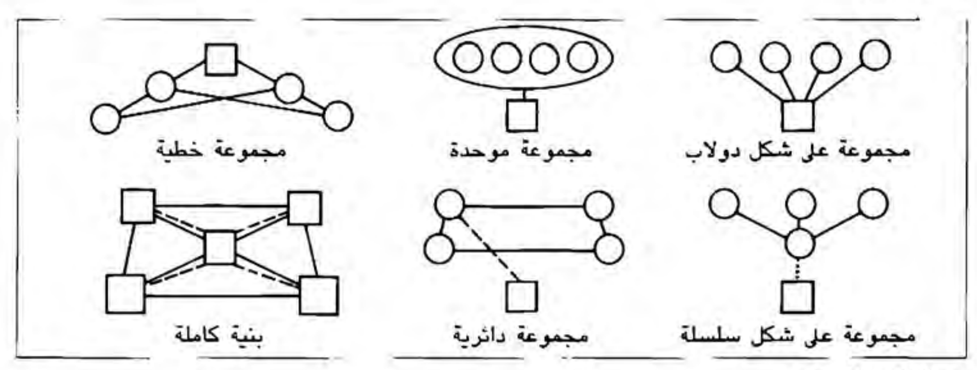
هذه النزعة إلى التماثل (التكيف مع الأكثرية) هي ذات تأثيرات قويّة على جماهير الناس (فصل ١٦).



أ. حقل الإدراك



ب. الجاذبية



ج. التنظيم الاجتماعي



د. التقييم الاجتماعي

يُفهم مفهوم الإدراك الاجتماعي بطرق عدّة ولكنّه يُعرّف بعبارات عامّة مثل:

تحديد متبادل للذّات وللمحيط.

تتناول بعض التعريفات، الأكثر حصرًا، إدراك الذات (الاستبطان) ومعرفة الآخر (معرفة الأشخاص والجماعة) ومواجهة البيئة (اختبار الطبيعة، التصرف مع سير السيارات شعور المسكن، الإحساس بالماء عند السباحة...). يتعلّق هذا المجال من البحث بتوضيح الانطباعات والتقييمات المرتبطة بالتواصل الاجتماعي.

أ. حقل الإدراك

توضح محاولة برهنة بسيطة كم يتعلّق إدراكنا للشيء بالمحيط: للحلقة الوسطى، في الحالتين، مساحة واحدة بخلاف انطباعنا الإجمالي.

يذكر برونر ويوستمان (١٩٤٧) حالة أخرى.

في عمل تقييمي لحجم قطعة نقود، بالغ الأولاد الذين ينتمون إلى طبقات دنيا في التقييم أكثر ممّا فعل أبناء الطبقات المتوسّطة.

يوحي هذا التفاوت في التقييم، كقاعدة عامّة، بارتباط إدراكاتنا بالبيئة.

إذا وضعنا إصبعنا على الزاويتين نرى صليبًا.

تتخذ هذه النتيجة أهمّية أكبر في أحكامنا على أنفُسنا أو على أقربائنا. غير أن أخطاء التقييم هذه ليست متجانسة.

مثال ذلك، يصعب علينا إصدار أحكام سلبية على أنفُسنا فيما يخص الحاضر أكثر ممّا لو كانت تلك الأحكام تتعلّق بالماضي؛ أو على ملامح هامّة من شخصيتنا (مثل مواقف أخلاقية) أكثر مما يتعلّق بأمور ثانوية (مثل إيثارات بسيطة).

ب. الجاذبية

درس العالِم النفساني **ت. نيوكومب**، في الخمسينات من القرن الماضي، عملية التعارف. إذا جمعنا، لبعض الوقت، أشخاصًا لا يعرف بعضهم بعضًا، نستنتج أن: التشابه، في بعض الخصائص، مثل العمر والدين والميول الفنية والتقنية وبلد المنشأ، تمتلك الحظ الأوفر في التجاذب.

وأوضحت دراسات لاحقة بعض المتغيرات فيما يخصّ هذا الاكتشاف.

تصلح هذا النتائج خاصّة للجماعات الصغيرة: أمّا بالنسبة إلى الجماعات الكبيرة فسمات النفوذ هي الأكثر جاذبية (شهرة الرفيق الجديد)

يمكن القول إن الأفضلية، بشكل عام، هي للتشابه الذي يصحبه بروز خصائص كالتي يتمنّاها الإنسان لنفسه (مبدأ التشابه). نُلاحظ، إنطلاقًا من هنا، ثلاثة منازع كبرى للشعبية:

(ب١) جاذبية الجسم تتعلّق بالمُثُل الرائجة التي تتأثّر بالعصر:
مثل الجمال، القوّة، الصحة، الفتوة، الرهافة التي نجدها عادة بصورة مبالغ فيها لدى عارضات الأزياء. وهي تقوم بدور نماذج ارتجاعية.

(ب٢) الجاذبية المرتبطة بالمقام وتبرز خاصة في المجال الإعلاني:
بالمظهر الوظيفي مثل قائد سفينة، مضيفة طيران؛ يقيِّم الأشخاص العاديون برموز المقام الاجتماعي مثل: الدراجات الجميلة.

(ب٣) يمكن الانتقاص من قيمة الجاذبية المنبثقة من الشخصية. ولكننا نرغب في الواقع، وبشكل عام، في إيجاد بعض الملامح الشخصية المرموقة جدًّا لدى الذين نعاشرهم. تطغى، في مقياس الشعبية، الخصائص التالية:
المرح، المصداقية، الثقة، الخَدومية، الإقرار بفضل الآخرين، النقد الذاتي.

ج. التنظيم الاجتماعي

تنتظم التجمعات بسرعة استنادًا إلى الطبقة الاجتماعية والادوار والقوانين (١٥/٥). تتيح بنى الجماعات، استنادًا إلى **هـ فيشر** (١٩٦٢)، لمجموعة من خمسة أعضاء، مثلًا، نحو ٥٠٠٠ شكل من التعاون تنفصل منها ٦ أشكال أساسية ممثّلة هنا:

مجموعة على شكل دولاب (حق الصدارة للقائد [= المربع على كل فرد).
مجموعة موحّدة (حق الصدارة للقائد على المجموع)
مجموعة خطية (مع مخبرين تابعين)
مجموعة على شكل سلسلة (يتصل القائد بتوسط قائد غير رسمي)
مجموعة دائرية (مجموعة مستقلة).
بنية كاملة (الكل يتفاعل مع الكل ويمكن أن يرتقي إلى رتبة قائد مؤقّت = مجموعة مستقلة استقلالًا ذاتيًا).

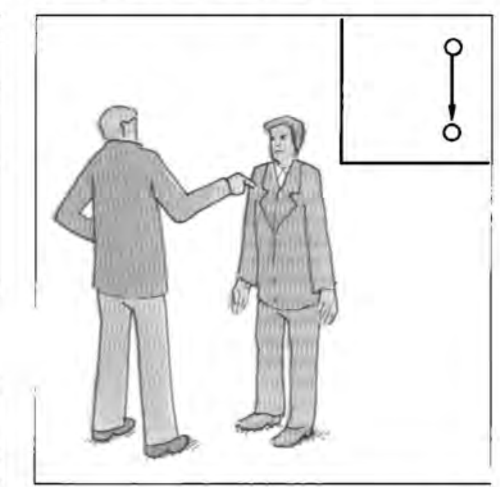
د. التقييم الاجتماعي

يتضمّن الإدراك الاجتماعي، دائمًا، تقييمًا اجتماعيًا. نلخص الأوضاع الاجتماعية، نصنّفها تبعًا لعاداتنا، نقيمها، نقارنها فيما بينها. يعتبر تقييم الأوضاع النزاعية بين أهم التفاعلات. يميز **كورت ليڤين** صراعًا بين الإقدام (الشعور بالانجذاب إلى الآخر) والإحجام (الخدر، الابتعاد).

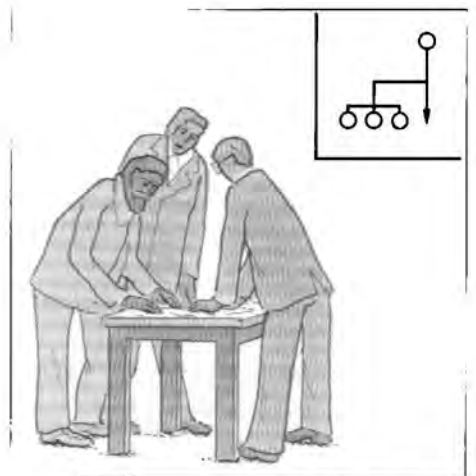
(د١) صراع الإقدام والإقدام بين هدفين مشتهَين،

(د٢) صراع الإحجام والإحجام بين عملين مُستكرَهين.

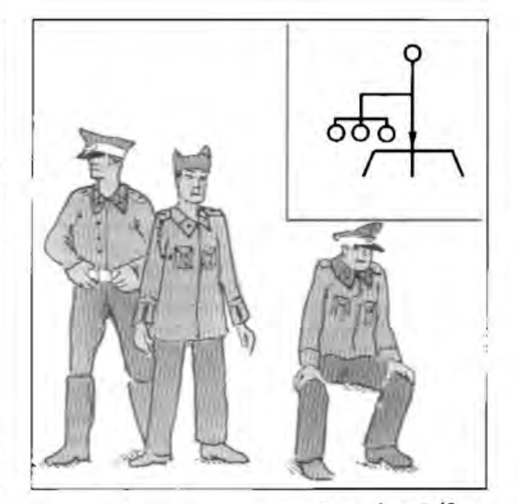
(د٣) صراع الإقدام والإحجام بالنسبة إلى شيء مشتهى ولكنّه غالي الثمن.



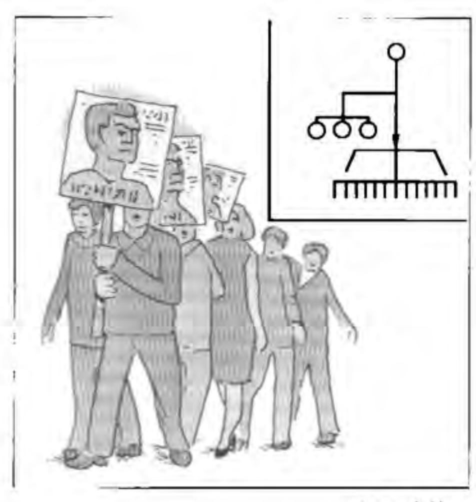
أ. القائد



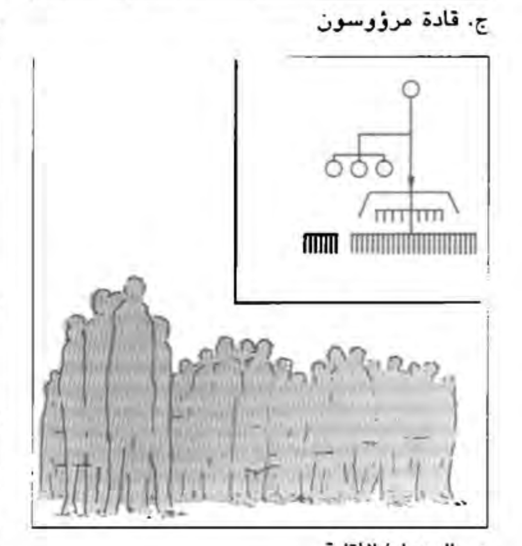
ب. الفئات الحاكمة



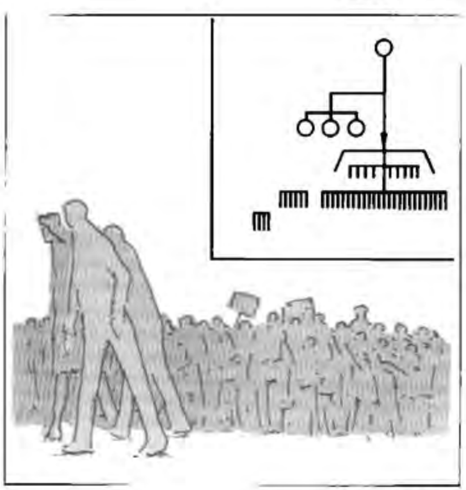
ج. قادة مرؤوسون



د. المناصرون



هـ الدهماء/الأقلية



و. الهامشيون

يمكن أن نتخيل مجتمعًا دون رُتَب أو حتى نتمنى مساواة تامّة بين الناس. لكن ثلاثة أسباب تحول دون هذه **الطوبى**: الرسوخ التاريخي للرتب في المجتمعات، تنوُّع الوظائف واختلاف الظروف الفردية.

غير أن المستويات الفاصلة أصبحت أكثر قابليةً للاختراق وأكثر طواعية. وهي تعتمد بقوّة أكبر على التفاعلات الجزئية أو الآنية بين الرتب.

أ. القائد

ما الذي يميز القائد؟

لا نستطيع أن نقدّم جوابًا جامعًا مانعًا عن هذا السؤال الإجمالي. إن الوضع القيادي يؤثّر، بشكل عام، أكثر من سيماء شخصية (كَريزما) القائد.

تقوم الميزة الهامّة لموقف القائد على وظائف القيادة. تفترض هذه الوظائف شرطين أساسيين. أولًا. تضطلع أكثرية الوحدات الاجتماعية (فصل ٨/١٥) بمهمات محدّدة إلى حدٍّ ما (ما يجب أن يعمل، مثلًا) تبرز لها مسؤولية شخصية. ثانيًا، يوجد دائمًا علاقات كامنة (عميقة) سيطرة – تبعية.

يتيح لنا موقف الشخصين في الصورة (أ) أن نستنتج أن الشخص الواقف إلى اليمين هو، لا شك، من مرتبة عليا. وإذا برز موقف مسؤولية فإن وظيفة القيادة تعود، على الأرجح، إلى المرتبة العليا.

وفي حال القيادة الثابتة القائمة (إدارة قطعية، مثل رئيس عمّال مصنع) فالتبادل ليس ممكنًا. وعلى عكس ذلك في الأوضاع المتغيرة (إدارة غير حاسمة، مثل الناطق باسم جماعة ما). فتوقّعات الجماعة تتضح أكثر:

إذا كان القائد يتمتع بقوة كافية تخوله تمثيل الجماعة في الخارج، إذا كان يحترم أهدافها الداخلية ويعرف كيف يحافظ على تماسك الجماعة ويفكر بالنواحي العملية.

ب. الفئات الحاكمة

تكون وظائف القيادة غالبًا «فطرية» (مثلًا، وظيفة الأهل. ولكنّها أكثر الأحيان لا تنتقل إلّا إلى مدى قصير وجزئيًا (مثل اللاعب الليبرو في فريق كرة قدم الذي يوزع اللعب ويحمّس سائر اللاعبين). وعلاوة على ذلك فإن أكثر أشكال القيادة تصدر عن مجالس قيادية أكثر مما تصدر عن أفراد.

تشكّل، في الصناعة، فرق قيادية لتحقيق بعض المهمات الخاصة، في خارج المؤسسة، مثلًا. تنظم هذه المجالس تبعًا للنظام التراتبي.

ج. قادة مرؤوسون

تستعمل في التنظيمات السياسية عبارات مثل «أعضاء سلطة الدولة» (كالشرطة). يحتاج قادة الوحدات الكبيرة إلى «مساعدين» وذلك بمقدار ما يكون التنظيم معقّدًا.

لوحظ، في الصناعة، أن النسبة المئوية للكوادر تزداد بشكل ملحوظ أكثر من عدد القادة والمستخدمين.

د. المناصرون

تُعتبر هذه الزمرة مؤلّفة من «تابعين» وهي ذات سمعة سيئة. وعلى سبيل المثال، كلّما كان الحزب ناجحًا يسهل عليه إيجاد مساعدين يسعون إلى المساهمة في إنجاحه. تمتلك الوحدات الكبيرة، أكثر الأحيان، «قاعدة ملتزمة» ينسب إليها وظائف لا يتوقع لها مهمات رسمية. لكن الخدمات النفعية لهذه الفئة المرؤوسة تتحوّل بسهولة إلى معارضة للإدارة في حال خاب أملها من التسوية.

هـ. الدهماء/ الأقلية

الدهماء أو الطبقة الشعبية كمجموعة أقليات ستكون موضوع الفصل السادس عشر (١٦). يوجد «كتل بشرية» كثيرة التنوّع؛ تشكل ردود فعلها غالبًا ألغازًا. وهذا ناتج، خاصة، من رفضنا للاختلاط بالدهماء. نميل إلى تصور سلوكنا مستقلًا عن الوضع، متَّسقًا. وليس من أحد يعترض، في هذا الصدد، بأن الفرد، الذي هو عضو من المجموع، مثل المتفرّج في استعراض رياضي، يتصرف بعكس ما يكون وحده.

و. الهامشيون

ينتمي الهامشيون، بشكل عام، إيجابيين كانوا أم سلبيين، إلى جماعات صغيرة أو كبيرة. يُحسَب كباش المحرقة والانعزاليون والمعترضون بين الهامشيين السلبيين؛ والمنشقّون والنقّاد والمتنورون والمستقلون بين الإيجابيين (فصل ٤/٢١، ب)

بالرغم من أن للهامشيين «موقعًا جانبيًا» فلا اعتراض على وظيفتهم الفنوية أو الجماهيرية.

يشكل انصهار هذه المستويات الستة نسيجًا اجتماعيًا في غاية التعقيد. وتميزها ٤ خصائص رئيسية استنادًا إلى نظرية الأنظمة السيبرناتية:

التعقيد. تؤدي النتائج الأساسية والثانوية بين الشركاء إلى تفاعل ذي عدّة مستويات بين التعاون والتنازع.

الدينامية الخاصة. يستمر التفاعل وحيدًا أو متأثرًا جزئيًا فقط بتدخّلات أو أعمال خارجية.

الكثافة. يكون النظام، بسبب عدد التفاعلات، قليل الشفافية.

الجمود. يصعب مبدئيًا تحريك النظام الجماعي نحو هدف ما أو كبحه أو تحويل مسارّه.



أ. مفهوم الدور

ب. تصوّر الدور



ج١ موقع الدور

ج٢ تحديد الدور

ج٣ شيوع الدور

ج٤ الارتياح إلى الدور

ج. وظيفة الأدوار



د. أدوار متعددة



هـ. إخفاق الأدوار

قارن **شكسبير** بين النفس الإنسانية والمسرحيّة:

«كلٌ يجيد لعب أدواره في حياته وأعمالُه تدوم سبعة أجيال».

لم يُستعمل مفهوم الدور، في مصطلحات علم النفس الاجتماعي، إلّا منذ أربعينات القرن الماضي. لكن **وليم جيمس** تحدّث عن الفرق بين «الأنا الصرف» و«الأنا الاجتماعي».

أ. مفهوم الدور

استعيد مفهوم الدور قياسًا على الدور المسرحي (**سادر** ١٩٦٩). والأدوار تُعرض، كما في المسرح، وخطوطها تشكل وحدة؛ ونماذج السلوك تُحفظ وتقايَض وترفض وتسجل في الزمن:

الشخص «الحقيقي» يوجد «وراء» الدور، وإذا أحد ما قال، مثلًا: «أنا كموظَّف... ولكن على حِدَة...»

وهكذا تُقام حدود تظل تترك هامشًا عريضًا للتصورات الفردية (مفهوم الأدوار الشخصية). أكثر الأدوار تتضمّن أدوارًا متعارضة (مثل مستشار – زبون).

ب. تصوّر الدور

إن الشخص الذي يتبنّى بعض الأدوار لا يدركها، بشكل عام، إلّا جزئيًا لأن لكل دور أوجهًا عِدّة.

وعلاوة على الأدوار الأساسية (مذكّر، مثلًا) توجد أدوار خاصة (أبو فتاة مدرِكة)، وإلى جانب الأدوار القسرية (تلميذ، مثلًا) نجد أدوارًا أخرى اختيارية (لاعب كرة قدم، مثلًا)؛ وفضلًا عن الأدوار الظاهرة (معلّم)، أدوار قلّما نميزها (متديّن)؛ ومع الأدوار الثابتة (نروجي) أدوار مؤقّتة (بحّار).

تشير هذه الأمثلة إلى كم هي الأدوار «كيفية» أي إلى حدٍّ ما اختيارية.

يمكن أن نميز مفهومين أساسيين:

علينا، من جهة، أن نستجيب للتوقّعات الخارجية فيما يخص الأدوار التي نتبناها؛ ومن جهة أخرى نكتشف فينا أبعاد الأدوار التي نسعى إلى الحصول على فرص تمثيلها.

نجد بسهولة تنضيدًا فرديًا لهذين المظهرين مع أهمية تتفاوت بين مظهر وآخر وكثيرًا ما تتبدّل.

يمكن للخطيب (١) أن يقوم بدور الخطيب الشعبي الغوغائي، (٢) أن يسحر الحضور بكلام هادئ موح، (٣) أن يصوغ رسالة بنزاهة وموضوعية، (٤) أن يناجي نفسه دون أن يلتفت إلى السامعين.

ج. وظيفة الأدوار

لماذا توجد الأدوار؟

(ج١) تستخدم الأدوار لتحديد المساحة النفسية الاجتماعية وللتعريف، هكذا، بالتوجُّه الاجتماعي:

موقع الدور.

(ج٢) لتسهيل التوجُّه، وضعت أكثر المجتمعات «رموزًا»، إشارات متميزة لكل دور:

إشارات مهنية، البذلة البيضاء للطبيب، إشارات مميزة مرتبطة بالرتبة، مثل تاج الملك؛ أو اشارات شخصية، مثل الغليون علامة الرجولة: تحديد دور.

(ج٣) نادرًا ما يكون الفرد هو الوحيد الذي يقوم بدورٍ ما، فآخرون يقومون بالدور ذاته. ما يسبب، بالتالي، ضغوطًا من قبل الذين يضطلعون بدور مشابه:

مثلًا، بالنسبة إلى القاضي: إذا كان أحد هؤلاء هو المجرم: شيوع الدور.

(ج٤) يكمن العامل الرابع المهم في الارتياح الذي يوفّره هذا الدور واختياره. يمكن هنا تمييز الفوائد المادية أو مزايا القيم المثالية التي يتضمّنها:

إن تقليد وسام يتضمّن عدّة أوجه: يوفر الإحترام وهوية اجتماعية، يساعد على الدخول في جمعية ويسهل الاستفادة من الوظيفة: الارتياح إلى الدور.

د. أدوار متعدّدة

يشير وصف الأدوار إلى تعدُّد أوجهها. ويتكون انطباع لدى المرء بأنها متشابكة، لأنه هو مرتكز أدوار عديدة مختلفة.

وعلى سبيل المثال، الأدوار الستة للْ: المرأة، البائعة، الأم، الزوجة، مدبرة المنزل، رياضية.

وكل دور تقابله أدوار إضافية، وأدوار مناقضة أيضًا، مثل أم وولد. وإن اجتماع أدوار مختلفة غالبًا ما يكون مربكًا.

إذا دخل ولد إلى محل تجاري تعمل أمه فيه بائعة، يتغير دورها للحظة، لكن الولد لا يستوعب مطلقًا الانتقال إلى دور بائعة.

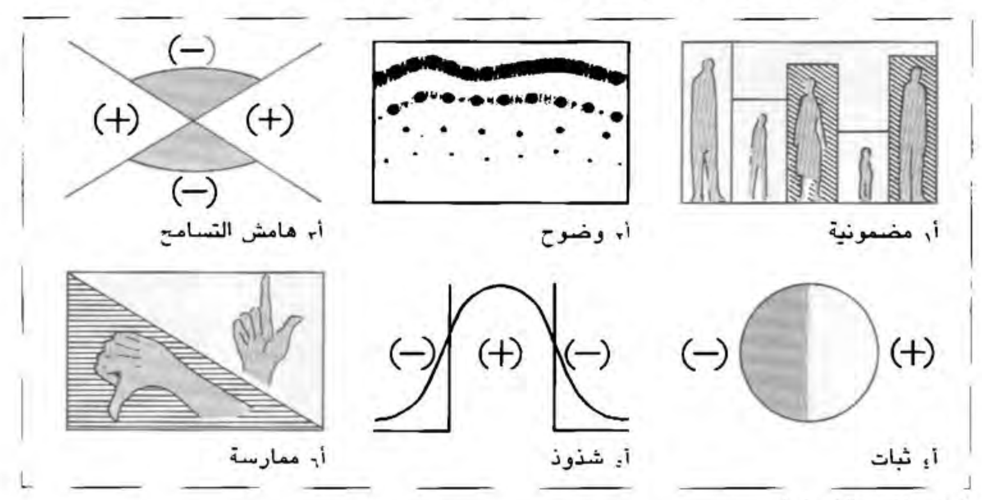
هـ. إخفاق الأدوار

يجمع مفهوم إخفاق الأدوار (تنافر الأدوار) مختلف أشكال الصعوبات التي تعترض البحث عن الأدوار.

لا يسبب أبسط أشكال الصعوبات سوى إزعاج «فقدان المكانة» و«التهميش». لكن تنافر الأدوار هو أدهى من ذلك (رجل دين وصاحب مطعم)؛ وفوق ذلك توجد أدوار محرّمة (محتقرة اجتماعيًا) مثل دور اللوطي، وأخيرًا يؤدّي فقدان الدور إلى اضطرابات نفسية مثل الصدمة التي يسببها التقاعد. العجز عن تحمُّل انتهاء الحياة المهنية.

تكمن المشكلة الأساسية لكلّ دور في طريقة الاضطلاع به. «أيلعب» فقط دور المدير أم يمتلك سلطة مماثلة؟

وأكثر الأحيان تترسَّخ ممارسة الدور مع مرور الزمن لأنه يجب أن يعتاد الآخرون رؤية متسلم هذا الدور.



أ. خصائص الضوابط



ج. النظام الضابطي

ب. تكوين الضوابط



هـ. تغيُّر الضوابط

د. انحرافات السلوك

في القانون ضوابط: هي الشرائع؛ في الطب إرشادات، في الصيدلة وصفات، في الفلسفة قيم، وفي التقنية ضوابط.
عندما نتحدّث عن الضوابط في علم النفس الاجتماعي نفكر بضوابط السلوك، «نُظُم غير مدوّنة» يصوغها كل فريق أو كل مجتمع على امتداد تاريخه.

أ. خصائص الضوابط

الضوابط أعراف تنظّم الحياة الاجتماعية وتحل الخلافات قبل أن تندلع. يتم وضع القواعد بتوارث التصرفات المعيارية كما يتم بالتهديد بالعقوبات (رموز تأديبية). ولكن الضوابط، كما في المجال الاجتماعي، قلما تُصاغ بوضوح وهي توجد «كبَدَهيات» على شكل هزة رأس («ذلك لا يُعْمل»)، لا توجَّه هذه الرسائل غالبًا إلّا إلى الجماعات المحدودة العدد وتُستخدم أيضًا لوضع الحدود المتبادلة. وهكذا يبدو أن للضوابط وظائف مختلفة.

خصائص الضوابط.

(أ١) يحدِّد مضمونُها من له الحق وعليه واجب القيام بشيءٍ ما

(أ٢) يظهر الوضوح كيف يستطيع الشخص المعنيّ أن يفهم ويميز الضابط

(أ٣) ويعين هامش التسامح سقف السلوك المقبول وأين يبدأ الرفض.

(أ٤) يحدد الثبات متانة الضوابط. هل تطبق أحيانًا فقط أم دائمًا؟

(أ٥) يتعلّق تعريف الشذوذ والسلوك المخالف للضوابط، بخصائص أربع مذكورة أعلاه (مثل، أسهلٌ التعريف بها أم صعب).

(أ٦) تعتمد ممارسة الضوابط على الخصوصيات الفردية وفوق الفردية أيضًا؛ ويجب أن تعبِّر عما إذا كان، أو كيف يكون، للضوابط تأثير على السلوك الحقيقي.

ب. تكوين الضوابط.

كيف تظهر الضوابط؟

تروي قصة أنه في القرن التاسع عشر كان الناس يسعون إلى أن يعرفوا لماذا يقف الخفير دائمًا قرب شجرة في حديقة القيصر؛ النتيجة: كانت القيصرة قد أمرت منذ مئة سنة أن تزرع هناك زهرة الربيع (**مرغريت**).

وظهرت بعض الضوابط بالصدفة، مثل ثَنْيَة البنطال، لأن بنطال وريث عرش انكلترا ضغط وهو ممدّد في الخزانة. غير أن بعض الضوابط التي ليس لها سبب ظاهر قد تكون تكوّنت انطلاقًا من دلالات وراثية. كان مد اليد الفارغة للمصافحة يعني قديمًا أنها خالية من السلاح.

ج. النظام الضابطي (القانوني)

ليست الضوابط معزولة في ذاتها، إنها تشكل نظامًا. يوجد بالنتيجة أيضًا مواقف عامّة عند الأفراد: يمكن أن يكون الإنسان منفتحًا على الضوابط أو أن يحتقرها بمنهجية. نميز هنا ثلاث درجات:

تكشف الدّالّة أو المعرفة («التظاهر»)، بشكل عام، عما إذا كانت الضوابط تدرك. (بدل الإقرار أو القبول «الموافقة») على مدى استحسانها. يتعلّق الاحترام أو التحقيق («التجاوب») بمستوى إتمام الضوابط.

د. انحرافات السلوك

يميل السلوك المنحرف إلى مخالفة الضوابط الاجتماعية أو القضائية، يتراوح الاهتمام الفردي بالضوابط بين شكل خارجي وشكل داخلي من التعرف. الفتى الذي يسأل والديه، بعد أن يُصاب بأذىً، بلهجة تأنيب:

«لماذا لم تمنعاني من ذلك؟» يطلب حدًّا خارجيًا.

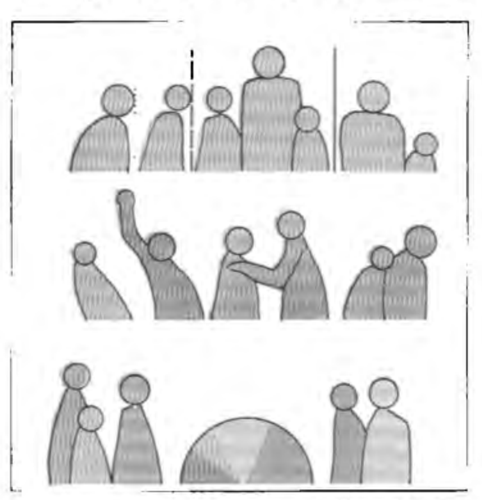
يظهر النضوج الشخصي (أيضًا) في التقبُّل الذاتي (الداخلي) للضوابط. ينتج عدد من الانحرافات من عدم النضج الاجتماعي: لا يمكن تعليم السلوك الطبيعي للشخص المعني إلّا بالعقاب والضغط والنظام. ولكن بما أن هذه الوسائل ليست متوفّرة دائمًا فهو يخالف القوانين لفقدان التطوّر الاجتماعي.
يكمن الشكل الآخر من الانحراف في الاحتقار الطوعي للقوانين، الاحتقار المدعوم غالبًا باستنكارها واعتبارها ضوابط مجرمة.

هـ. تغيُّر الضوابط

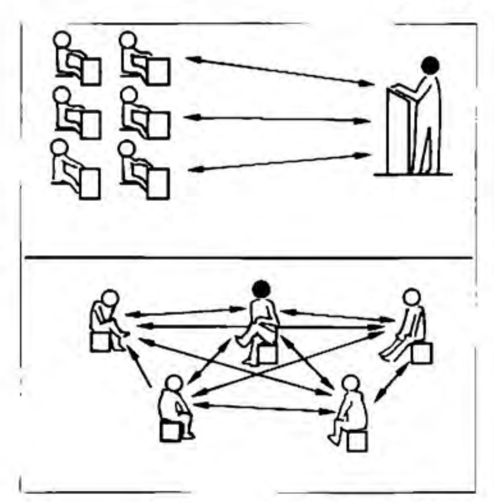
بعض الضوابط تعمِّر قصيرًا وأخرى تصمد طويلًا، لكنّها جميعًا، من حيث المبدأ، تزول. إن زوالها أو تحولها ناشئ، أكثر الأحيان، عن أن الضابط القائم يعتبر «قديمًا» وتحل محله ضوابط «جديدة».

لنأخذ مثلًا بسيطًا، زي لباس السباحة منذ الثمانينات، يمكن أن نلاحظ التغيرات العظيمة التي طرأت على هذا اللباس (الذي يعكس جزئيًا موقفي الرجل والمرأة).

يتعلّق الموقف من الضوابط، غالبًا، بالتوجه الإيديولوجي. وبشكل عامّ، ينزع الرجعي إلى الضوابط القديمة، والمحافظ يفضل الاحتفاظ بالضوابط القائمة والتقدمي يقضي على جميع الضوابط السائدة ويضع أخرى لم يجر اختبارها. ولكن وبما أن الضوابط تهرم حتمًا، فلا تستطيع أن تثبت وجودها دون معارضة لتنتهي هي نفسها بالتحجر.



أ. تجمعات بدائية



ب. نظم تربوية



ج. فِرَق العمل



د. نظم بيئية



هـ تنظيمات اجتماعية



و. نظم إتنية

يتصوّر الهازل أن المجتمع «سجن يديم الحياة».

من المؤكّد أن الوحدات الاجتماعية تضيّق على الإنسان، فتعيقه وتستطيع، حتى، أن تسرق منه فرديته. وفضلًا عن ذلك، فإن الجماعات تزيد من الاستعداد للنشاط وتقوي الحماية الشخصية وتسهل تطور الطاقات، إنها، بالاختصار، ضرورية.

ليس المراد، في علم النفس الاجتماعي، التقييم المسبق للنظم الاجتماعية، لكن الأهم من ذلك، تمييز خصائص مختلف أنماط النظم.

أ. تجمعات بدائية

التجماعات هي نظم تمتد على جيلين أو ثلاثة وتشمل العائلات، من العائلة الكبيرة حتى العائلة التي تنتمي إلى أحد الوالدين. تشكّل العائلة المؤلّفة من والدين وأولاد نموذجًا أساسيًا لمختلف النظم الاجتماعية. ويُدخِل تحليلها، من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي، ثلاثة أنواع من المعايير بقصد تشخيصها.

(١) ما هي النخبة المهيمنة؟. تشكل الأسئلة عن ظروف السكن وعلاقات السلطة وتشكيل الأزواج أو عن المواقف التنافسية، تشكل جزءًا من ذلك.

وجد **هـ.إ. ريختر** (١٩٦٣) عائلات يحلّ فيها الولد بديلًا عن شريك بعيد، فيما آخرون يعزون إليه دورًا مثاليًا يحل محل الأهداف التي لم يحققها الوالدان. والعائلة هي أيضًا «أنا جماعي». كان **ريختر** يميز العائلة التي تعاني آلامًا عُصابيّة (فدعاها «مِصحًا») والعائلة شبه العُظامية (تتكتّل في «حصن» هربًا من البيئة المعادية). والعائلة الهستيرية (التي «تمثّل»)

(٢) ما هو الجو العائلي؟ يمكن أن نستخلص فروقًا في المستوى العاطفي الأساسي في العائلات: طمأنينة، رفاهية، توتر وصراع، نواح وتشكٍّ، تباعد، ألفة ومودّة، استرخاء.... نتبين درجة التلاحم في العائلة أو التفسخ الكامن أو الظاهر في هذه الأجواء الأساسية.

(٣) ما هي القواعد التي ينتظر احترامها؟ تشكل جزءًا منها مسائل التوزيع (مثل توزيع قطع اللحم عند الغداء)، احترام الآخر في موضوع رفع الصوت والتشويش، مسائل العلاقات بالمحيط والضغط التربوي.

تشكل هذه المعايير الثلاثة مجتمعة «المناخ العائلي».

ب. نظُم تربوية

يوسّع علم النفس الاجتماعي المدرسي معاييره الاجتماعية لتشمل المؤسسة. يجب في التنظيمات الكبرى إضافة قاعدتين بنيويتين: تقسيم العمل والوظائف (معلّم - تلميذ) وتراتبية السلطة والمنافسات (امتحانات، شروح، أسئلة).

تُظْهر الصورةُ بنية تدريس وجهًا لوجه وشكلًا تربويًا أكثر مرونة يشبه الندوة.

يعكس الاختلاف في توزيع المقاعد أيضًا تحويل تراتب الوظائف والمنافسات.

إن التعليم وجهًا لوجه يعطي سلطة أكثر للأستاذ من الشكل الحَلَقي الذي يثير المنافسة بين التلاميذ.

ج. فِرَق العمل

كان تحليل فِرَق العمل من الأهداف الأولى للدراسة في علم النفس الاجتماعي (**روثْلِسْبُرغر، ديكسون**، ١٩٣٩). تشمل الإشكالية، هنا، خاصّة (اكتساب وسائل القوت). تتبدّل الخصائص الاجتماعية، بهذا الصدد، بسبب المظهر الحتمي أو الإلزامي للعمل. تنسج فرق العمل غالبًا من ذلك سمات تكشف عن المواجهة.

د. نظم بيئية

منذ وقت قليل والنظم البيئية تثير الاهتمام. كل إنسان هو، في الوقت نفسه، جار، قريب من الشارع، يستخدم الطبيعة والطرقات... إذا تعرضت البيئة للأخطار المتزايدة فليست نوعية الحياة هي التي تتغيّر فقط بل أيضًا شعور التعاون بين المواطنين. ويمكن أن ينتج عن ذلك تجمعات جديدة من المواطنين.

هـ. تنظيمات اجتماعية

وتتغير أيضًا السمات الاجتماعية للتنظيمات الكبيرة مثل الأحزاب. ويمكن لأشكالها الخارجية أن تتخذ مظهر تقليد متين. فالأحزاب الأوروبية القديمة البورجوازية والعمالية تعرّضت لتبدلات عظيمة في أعضائها وناخبيها. وهذه التبدلات تصيب، بالإضافة إلى المظهر المهني أو الاجتماعي، التوجُّه المحافظ أو التقدُّمي للأهداف الاجتماعية.

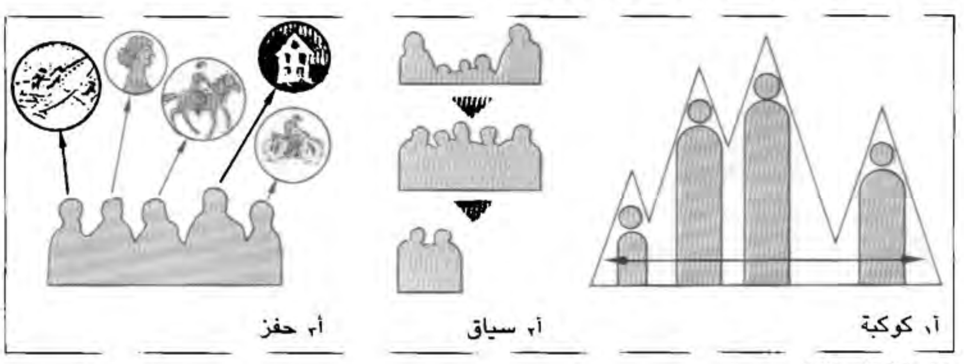
حتى الحزب «التقدمي» ليس بمعزل عن أن يصبح، شيئًا فشيئًا، حزبًا «رجعيًا».

و. نظم إتنية

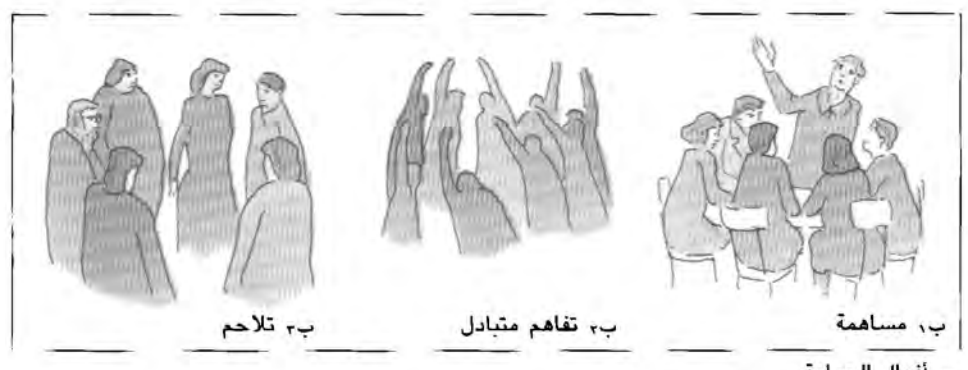
إن النظم الإقليمية والقومية والدولية هي أيضًا نظم اجتماعية، وهي، كونها هكذا، تشتمل على سمات اجتماعية محدّدة. لكن الفرق بينها وبين النظم السابقة يكمن في «شموليتها» أي أننا نجد لها، بصعوبة، قاسمًا مشتركًا.

ما الذي يميز المواطن الساحلي من المواطن الجبلي؟

من السهل صياغة تخمينات ولكن يَدِقُّ تأكيدها بالتحليل لأن النتائج العرضية تتسم بسمة ماضي النظم الاجتماعية.



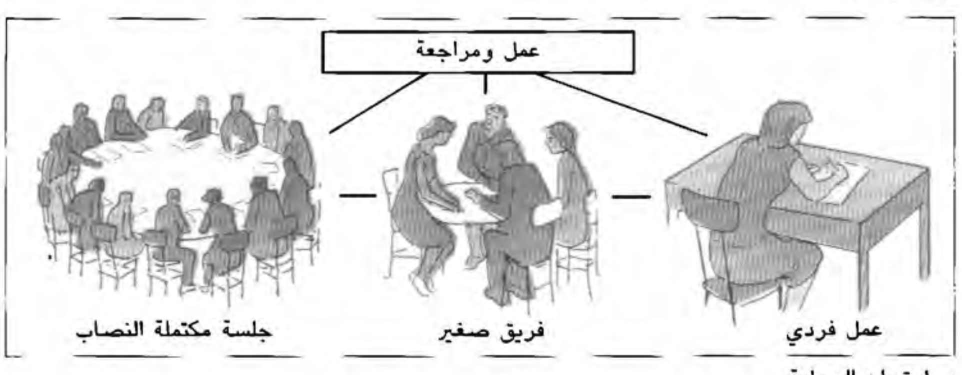
آ. تحليل الجماعة



ب. أفعال الجماعة



ج. عمل الجماعة



د. ارتجاع الجماعة

يروي **رونالد ليبيت**، في مقال له، كيف طوّر **كورت ليڤين** **دينامية الجماعة** صدفة.

جرّب، أثناء عمله مع جماعة من الأولاد في إيوا (الولايات المتحدة)، عدّة أساليب قيادية. وحينئذٍ ظهرت نتائج خطيرة عن علاقة الجماعة.

واكبَّ، فيما بعد، عدد من الباحثين على هذه الفكرة الأساسية وحلّلوا القوى الدينامية في الجماعة لتقييم التعديلات.

أ. تحليل الجماعة

إذا أردنا أن نحوّل شيئًا يجب أولًا معرفته بأقصى دقّة ممكنة. يسبق تحليل الجماهير محاولة تغييرها. وهي مهمة شاسعة.

(أ١) الكوكبة (مجموعة صغيرة) مهمّة بالنسبة إلى كبر الجماعة (وإلى تماسكها) وإلى عدم المساواة (مستوى المراتب، توزيع الأدوار) وإلى منطقة الجماعة (العلاقة بين كبر الجماعة و«مداها الحيوي» وتوزيع مناطق المراقبة، الاتساع أو الانحسار) وقابلية استقبال الآخرين (المكانية والوظيفية، الانفتاح على تقبُّل أعضاء جدد)

(أ٢) ديمومة الجماعة (السياق) ينظر إليها بمعنى مطلق (دوام وجودها) ونسبي (وتيرة التغيرات). وكلّما كانت الجماعة «قديمة» بمقدار ذلك تصبح ردود فعلها مقولبة جامدة. وفضلًا عن ذلك، فإن التحولات يمكن أن تحدث بطريقة «متواصلة» أو متقطّعة.

(أ٣) كما يستعمل الحفز أسباب تشكيل الجماعة (المصادفة في الجماعات الغريبة التي لا يعرف أفرادها بعضهم بعضًا؛ سبب «طبيعي» بالنسبة إلى عائلة) يستعمل أيضًا الحفز المؤقّت (تحسين الاختبارات في جماعة البطّالين) والحوافز الهادفة يشكل مجموعها رأي جماعة بعيدة عن كل تأثير خارجي.

ب. أفعال الجماعة

إنّ ما يهم، هنا أولًا، هو المضمونية (مثل مبادرات المواطنين، نوادي البولينغ، الحكومة الوطنية). وعلاوة على ذلك يجب التفكّر بثلاثة معايير للفعل ذات مدى شامل:

(ب١) طريقة المساهمة (استعداد الأعضاء لتحمل مسؤولياتهم).

(ب٢) التفاهم المتبادل (انتشار المعلومات وتوازنها، توزيع التواصل والتعاطف، معالجة التناقضات).

(ب٣) التلاحم: ينشأ تماسك الجماعة عن عوامل إضافية: عوائق داخلية أو خارجية (قيود اجتماعية، محرّمات)، درجة التركيز (نشاطات تشكل مركز اهتمام)، تنافس داخلي أو خارجي أو تعاون مع احتمال ردود فعل متناقضة (تولد انشطاري).

ج. عمل الجماعة

يجب أن يوازن العمل الجماعي إجراءات التربية التوجيهية وعلاقات المشورة المجدّدة، وبشكل عام، المرجعيات الاجتماعية التقليدية، وذلك للاستفادة من حسنات الجماعة.

بدلًا من القول: «كيف أستطيع أن أرتضي جماعة؟»؛ يُقال: «يجب أن نتصالح بعضنا مع بعض»! (**داوملنغ**، ١٩٦٨).

تهدف سلسلة من التصرفات (مختبرات تنظيم، جماعات تدريب) إلى تعليم كيفية «التصرّف داخل جماعة» في سبيل اكتمال الشخصية. وصدرت عن ذلك حتى الآن ثلاث خطط رئيسية.

(ج١) على الكلام أن ينقل بعض التجارب. عاش الكثير من الناس العلاقات الاجتماعية بطريقة سلبية كشقاء جماعي ماكر مشين. أما، هنا، على عكس ذلك، فالعلاقات تعلّمنا أن نعترف بالجماعة «مكانًا للحرية» (**ميتزغر**، ١٩٦٢). بالتقبل المتبادل تستحيل «الطريق ذات الاتجاه الوحيد» لنظام مصحوب بطاعة إلى عهد يضمن المساواة في الحقوق.

(ج٢) يتم التوصُّل إلى آثار مباشرة، في الجماعة، بواسطة ألعاب مبرمجة، ومثال ذلك أن يتدرّب اللاعبون على أن يتمثّلوا «في ألعاب الأدوار، موضوعات متناوَبة و«قابلية انعكاس الأدوار» (النفاذية).

(ج٣) تُدْخِل الوسائل الحياتية مواقف «من الحياة الواقعية». تُحضَّر في «منهج تاڤيستوك» (**أ. ك. رايس**، ١٩٧٣)، عمليات جماعية بواسطة الارتجاع. تنطلق، اليوم، أكثر جماعات التدريب من «مبدأ الغريب» لتعمل بالتالي الجماعات متآلفة تظل معًا مدّة كافية وتُعالج مسائل ممارسة حقيقية.

د. ارتجاع الجماعة

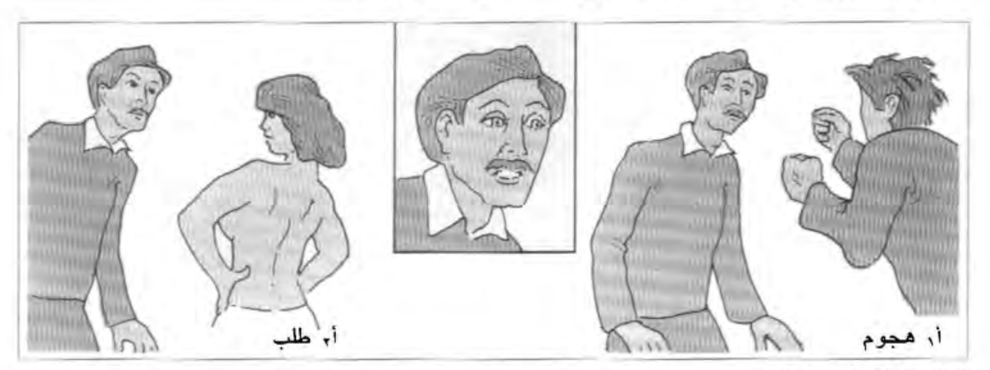
كيف يؤثر المشارك المعزول ومجمل الجماعة في أعضاء الجماعة جميعًا؟

تحاول أكثرية العمليات التي تستخدم دينامية الجماعة، كما في الإدارة وملاك موظفي المستشفى ولدى مدراء المصانع، أن تجيب عن هذا السؤال. ويُظن أنه بالإمكان بلوغ فعالية في الجماعة وبواسطة الجماعة هي من الأهمية بحيث إن كل عضو يفهم بشكل أفضل عمليات الجماعة.

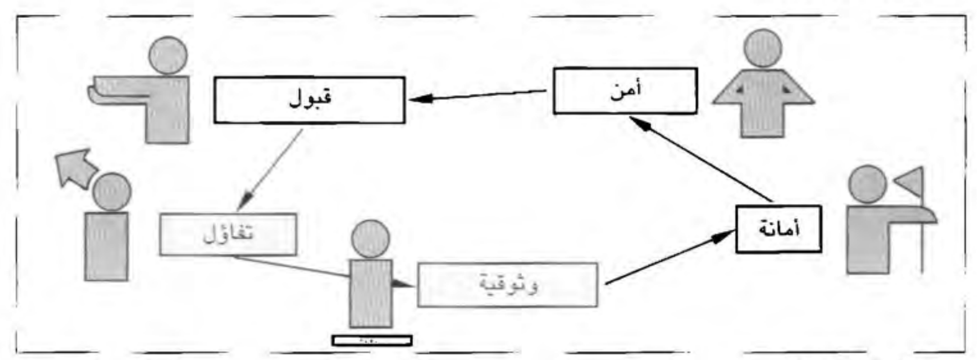
كل مرحلة فعل يليها مرحلة مراجعة وتلخيص يتدخّل فيها «توزيع السلطة» بشكل مراجعة مفتوحة، وإلى ذلك تتدخل طرق علاج نفساني في إعداد ذهني لآثار ارتجاع الجماعة.

تتم المطابقة الارتجاعية مع التجربة المعيشة غالبًا تبعًا لثلاث مراحل متناوبة.

العمل في جلسة مكتملة النصاب (جميع المشاركين في مؤسسة). العمل ضمن فئات صغيرة (من ثلاثة أشخاص مثلًا) والعمل الفردي.



أ. اهتمامات اجتماعية



ب. الثقة الاجتماعية



ج. المبادرة الاجتماعية



د. أوليات إجتماعية

«يتباهى الناس بأعمالهم العظيمة بالرغم من أنها ليست دائمًا نتيجة تصميم واعٍ بل هي وليدة الصدفة». (**لاروشفوكو**، حِكَم. ١٦٦٥)

لم يأت أحد، حتى الآن، بتعبير أفضل، ليقول إلى أي مدى يجب التسلح بالفطنة، في مجال **التأثيرات الاجتماعية**، لاستنباط أسباب النتائج. غير أن علم النفس الاجتماعي عليه أن يحاول، دون هوادة، التوصُّل إلى ذلك.

تسير النتائج الحالية في عدّة اتجاهات.

لكي يمارِس شخص ما نفوذًا على غيره، يجب (خارجًا عن استثناءات عديدة مؤقّتة وظرفية) أن تتحقق بعض الشروط، مثل المصلحة وعلاقة الثقة. المبادرات «المحقّة» هي أيضًا ضرورية. وبالإضافة إلى ذلك هناك أيضًا بعض «الانحرافات المعيارية» تعتمد على إواليات اجتماعية.

أ. اهتمامات اجتماعية

يُمثَّل الاهتمام غالبًا، في مؤلفات علم النفس، بواسطة تصميم ضخم يمثل شخصًا مصغيًا (في الوسط) ثم في الصفحة التالية تشير الصورة بكاملها إلى الشيء الذي أثار انتباهه (وضع مدهش).

للإثارات مصدران:

الأخطار (في العمل، مثلًا)

المطالب (الشهوانية، مثلًا).

ب. الثقة الاجتماعية

إنّ المصلحة هي ضرورية (لا نتيجة دون مصلحة) لكن طرقها تعكّر غالبًا المرحلة الثانية الأساسية:

علاقة الثقة.

كتب البارون **فون كنِيغِه** في مؤلَّف بعنوان «معاشرة الناس»، ١٧٨٨) ما يلي:

«يقوم فن معاشرة الناس على أن يتباهى الإنسان بمزايا لا يتمتع بها دون أن ينبذ الآخرين بطريقة ظالمة».

تقوي العلاقات الوظيفية الثقة واللاوظيفية تقوضها.

نمحض ثقتنا طوعًا لمن يعطي انطباعًا بالأمان ولمن يروق لنا ويثير فينا تفاؤلًا أكيدًا ويبدو أهلًا للثقة وأمينًا.

والثقة توقظها بعض التوقّعات التي يجب أن تتأكّد دائمًا ارتجاعيًا.

ج. المبادرة الاجتماعية

كل سلوك هو «فعّال» سواء كان تأنيبًا أو تقريظًا أو وسيلة عنف أو رسالة أو حتى صمتًا. بعض أنواع السلوك أكثر حدّة من سواها وينتج عنها آثار أضخم؛ وأخرى تسبب العكس وهي «غير منتجة». يجب الأخذ في الاعتبار شرطين لكي تظل المبادرة الاجتماعية «منتجة».

(ج١) الأقل هو غالبًا الأكثر:

وبتعبير آخر، شد الحبل أكثر مما يلزم، بعض الإعلانات الدعائية المبالغ فيها تؤدي إلى النفور.

(ج٢) التأثيرات يجب أن يدعمها «النفوذ»

يُعلَّم، في بعض الاختبارات، قِرْد من الرتبة العليا ثم قرد من الرتبة الدنيا، تقنية متكاملة (وهي فتح صندوق الموز):

ففي الحالة الأولى تتعلّم جميع القرود فتح القفل وفي الحالة الثانية لا أحد.

د. أواليات اجتماعية

تتعلّق التأثيرات الاجتماعية أيضًا بالانحرافات «النمطية»، منها الآثار الاجتماعية الستة التالية:

(د١) أثر الهالة (**أولبورت**، ١٩٥٩) ينطبق على «العرض المفرط» على صورة انطباع عام لبعض الخصائص أو التقييمات.

يَستخدِم عمل العلاقات العامّة غالبًا أثرَ الهالة بطريقة سلبية:

«إصنع الخير ولكن تحدّث عنه!»؛ إن التحدّث عن عمل يكون أحيانًا أهم من العمل، ما يؤدي في النهاية إلى تحطيم الثقة.

(د٢) أثر الأغلبية

أو أثر عربة الموسيقى (وهي عربة تبث الموسيقى وتسير في مقدمة الموكب) ويسمى أيضًا أثر النجاح (لأن الناس يميلون إلى من له حظ بالنجاح، قال **نيتشه** «لا شيء ينجح أكثر من النجاح»

المتطفلون على النجاح يتعلّقون به.

(د٣) أثر الخاسر يقع في المقابل.

التعبير عن لذّة ماكرة في رؤية داود يهزم جوليات.

ويختار الناس غالبًا المرشّح المفترض أنه الخاسر.

(د٤) أثر الارتداد؛ ويستخدم أيضًا في الدعاية.

إن مثيرًا كثير الانتشار بين الشعب يعاد إليه بعد إدخال رسالة دعائية.

تُستَخدَم قابلية الانفعال بمثير موجود لتسهيل التأثير.

(د٥) أثر الجهل يساعد على دفع أشياء مستكرهة.

يمتنع الإنسان عن الخضوع لفحص خوفًا من المرض.

إن التأثيرات الاجتماعية التي تعتمد على هذه الإوالية تزهُد أو حتى تعزي في حال الصعوبات الخطيرة.

(د٦) أثر الباب المغلق يستعمل، من بين تقنيات التسوّق، في المحالّ التجارية التي تعتمد الخدمة الذاتية.

يوجد قبل صندوق الدفع مباشرة سلال مليئة بالبضائع يشتريها الزبون في حين أنها لم تكن واردة في ذهنه.

يلاحظ أيضًا هذا الذعر من الباب المغلق في مجرى الحياة (أزمة منتصف العمر)

هذه الإواليات الست هي أشكال تحديد خارجي للسلوك وهي بشكل عام ذات فعّالية. وليس من النادر أن تستخدم للانتفاع بها.



أ١ وضع قلِق

أ٢ رعونة السلوك

أ. اضطرابات مرتبطة بالظروف

ب١ سوء تفاهم

ب٢ نزاع علائقي

ب. اضطرابات علائقية

ج١ نزاعات داخلية

ج٢ نزاعات خارجية

ج. نزاعات جماعية

د١ أذى يلحق بالبيئة

د٢ أذى ناشئ عن البيئة

د. أزمة البيئة

ليس من المستغرب، نظرًا إلى تشابك العلاقات الاجتماعية، أن يوجد العديد من احتمالات الاضطراب في التلاحم الاجتماعي. تقسم هذه الاضطرابات إلى فئات أربع تبعًا للبنية الاجتماعية.

اضطرابات الحياة الاجتماعية ذات الطبيعة الظرفية والشخصية والجماعية والمرتبطة بالبيئة.

أ. اضطرابات مرتبطة بالظروف

الأوضاع هي ظروف آنية وتكرارية تعرف بتشابهها وتكون ردود الفعل عليها غالبًا متشابهة، وهذا قليل الحدوث في الحياة اليومية.

(أ١) ومع ذلك يحدث أيضًا أننا نتوارى عندما تفاجئنا هذه الظروف. وهكذا فإن الكثيرين من الأشخاص يرهبون بعض الأوضاع التي تولِّد لهم القلق:

مثل التكلّم أمام الجمهور أو الخوف من الأنفاق أو المصاعد الكهربائية.

(أ٢) الأوضاع التي تبعث أثر جذب «مغنطيسي» مرتبط بتمثلات مثيرة للقلق تحمل على النفور والكراهية.

إن الدرّاج الأخرق الذي يتصوّر أنه سيصطدم بالشجرة يبلغ به الأمر إلى الاصطدام مباشرة بهذه الشجرة (وذلك لِفقدان التكيف).

ب. اضطرابات علائقية

إن العرض المتكرّر لهذه الاضطرابات في الأدب وفي وسائل الإعلام لشاهد على كثرتها وابتذالها. ويمكن قسمتها إلى فئتين أساسيتين.

(ب١) سوء التفاهم الانفعالي أو العلاقات «الهشة» هو واقع الأشخاص الذين يعانون بعض الصعوبات أو حتى التواصل الاجتماعي. يبتعد الشركاء ويسير كل في طريقه الخاص ويتحاشون التقارب ويعيشون متباعدين.

(ب٢) يقوم النزاع العلائقي في مقابل ذلك، تحول الخلافات دون العزلة ولكنّها تبلغ نقطة حرجة يصبح فيها الأخصام أعداء ويرتكبون طوعًا أعمالًا عدوانية. ولا تؤدي هذه العلاقات دائمًا إلى قطيعة. وكتبت **ماري فون إبنر – إشنباخ** تقول:

«تعيش بعض الزيجات حالة لا يستطيع فيها الزوجان أن يتعايشا أو أن يفترقا طويلًا».

تكمن المسألة، في هاتين الحالتين، في كوكبة الشريكين. إذ يجد أحدهما أو كلاهما موقعه غير مرضٍ، مهدور الحقوق، ذليلًا. إنهما، في الحقيقة، يودان التملّص من علاقتهما دون أن يستطيعا التّعبير عن ذلك فيبحثان عن بديل في «الصراع الظاهر». ويمكن لتحليل الأسباب الحقيقية، في هذه الحال، أن يوفر المساعدة:

اضطرابات التراتبية. يجد أحدُهم الآخرين طاغين جدًا أو مقهورين كثيرًا؛ فيشعر بأنه مظلوم أو مهضوم الحقوق ويخجل من ضعف الآخر.

اضطرابات الدور. رفض دور الشريك المفروض من قبل الآخر (مثل الاستسلام الدائم).

اضطرابات التواصل. الجو بين الشركاء مسموم مثلًا، بالابتزاز الكامن، بالنزق، باللامبالاة.

اختلال الضوابط. يتنكّر الآخرون، بطريقة حقيقية أو افتراضية للقواعد الأخلاقية الجماعية (مثل الأمانة)، للقيم الفكرية (مثل السينما مقابل الموسيقى) أو أهداف الحياة (مثل الرغبة في إنجاب الأطفال).

ج. نزاعات جماعية

لعب مفهوم النزاع، منذ بدايات علم النفس الاجتماعي، دورًا عظيمًا. ثمة عدّة نظريات للنزاع (السلوكي، الظواهري، المعرفي، النفسي الاجتماعي، التعليلي). تفترض جميعُها، كنموذج أساسي، تنافر الميول السلوكية. وعلى هذه النظريات أن تفسر نظريًّا مختلف أشكال إعداد النزاعات وحلها. ونستنتج فرقًا عظيمًا بين النزاعات الداخلية (داخل الجماعة) والنزاعات الخارجية (بين جماعة وجماعات أخرى).

(ج١) الصراع داخل الجماعة هو أكثر الأحيان نزاع مراتب وأدوار. يشكل التنافس والحسد والانتقام والمكر، من وجهة النظر العاطفية، أساسًا سلبيًا. وغالبًا ما تكون هذه المواقف مجمّدة إلى حد أنه لم يعد للسبب الأصلي من أهمية.

(ج٢) تنشأ الخصومات بين الجماعة وآخرين (أفراد معزولين أو جماعات أخرى)، في أكثريتها، عن تصادم مصالح. تواجه الجماعة، كمجموعة دفاعية، متطلبات خارجية.

د. أزمة البيئة

يمكن أن يفهم مفهوم أزمة البيئة بطريقتين: كسلوك مشوّش تجاه البيئة وكاثر نفساني تسببه اضطرابات البيئة.

(د١) لا يعتبر سلوك الأذى الذي يلحق بالبيئة مجرّد طيش أو رعونة. يزداد مستوى العقوبات مع الوعي المتنامي لأهمية البيئة.

كالأضرار التي يسببها الدراجون في المناطق الطبيعية المحمية.

(د٢) علاوة على الأضرار المادية نستنتج أكثر فأكثر أضرارًا نفسية ناتجة عن أضرار مصدرها البيئة.

مثل الضجيج والدعاية الانتخابية التي تثير الكراهية، معالجة المعلومات الملتبسة، العزلة الاجتماعية لبعض الأقليات.

إن هذين النوعين من الضرر المسبَّبين والمكابدين يشكّلان نوعًا من اللولب. ليست البيئة، في الواقع، سوى وسط سلبي، لكنّه مدى حيوي يُستخدم بطريقة نشطة في تفاعل نفسي فيزيائي ويدعى أيضًا نفسيًّا مكانيًّا جغرافيًّا بالإحالة إلى مفهوم المدى الجغرافي الحيوي. فالأضرار التي تصيب البيئة هي إذًا أيضًا اضطرابات الوسط الاجتماعي الذي يحق للإنسان.

(١) (٢) (٣) (٤) (٥)

أ١ توحيد اللباس

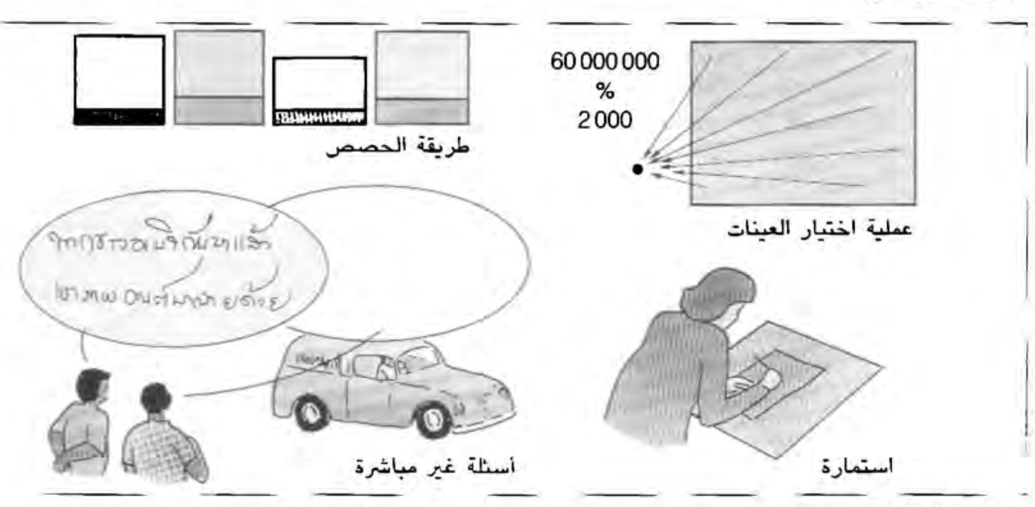
(٦) (٧) (٨)

أ٢ التباعد

(٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣)

أ٣ التنوع البارز

أ. نزعات الجماهير



ب. بحث في الجماهير

ظهر، في القرن التاسع عشر وفي فرنسا خاصة، مفهوم **علم نفس الجماهير**، ومن رواده: **لوبون** (١٨٩٥)، **تارد** (١٨٩٥) **سيغيل** (١٨٩٧). وتزداد الأهمية التي تعطى له، هنا وهناك، كل مرّة تثير الانتباهَ تجمعاتٌ غوغائية وصراعات اجتماعية وثورات إلى الجماهير الشعبية الناشطة.

وقُيِّم، في باديء الأمر، «التكتل الشعبي» و«التكتيل» تقييما سلبيًا لأنهما يؤدّيان إلى القضاء على الفردية. ولكن مع مرور الزمن أعطيت تلك الطاقة الكامنة لدى الجماهير حقّها من التقدير والاعتراف. ومنذ ذلك الحين، أصبح علم نفس الجماهير ميدانًا مستقلًا لأنه، إلى جانب الجماعة والفرد، يشكّل «الجمهور» وحدة اجتماعية لها أُسسها الخاصّة (فصل ٧/١١).

أ. نزعات الجماهير

ما هو «الجمهور» (الكتلة الشعبية)؟ هل هو طائفة سرية أم هو، ببساطة كلية، مجموع المواطنين كافة؟

إنه ليس هذا ولا ذاك - أو هو شيء من الإثنين. قد يكون الجمهور متنافر التكوين إلى درجة أنه يمثل جميع الجماعات. ويكون ذلك كذلك عندما يتبع كل فرد أو كل جماعة صغيرة مصالحه الخاصة ولا يكون بينها نقاط مشتركة. ولكن الأمر يتغير عندما تبرز فجأةً مصالح مشتركة إذ يحرّك دافع واحد عددًا كبيرًا من الناس. ليس الجمهور فردًا، لكنه يميل إلى أن يصبح فردًا ساعة يشحن بطاقة كتليّة يصعب تحديدها وتوجيهها.

وبتعبير آخر.

يكون الجمهور أحيانًا، وبصورة مؤقّتة (بحسب الوقت والمضمون)، فاقد النشاط بسبب اختلاف النزعات - لكن ما إن يبرز التوافق حتى ينتج من ذلك ما يصعب تقييمه.

يتأتى عن هذا النمط من السلوك الفردي نمطان كتليان أساسيان: ينشأ عن حالة التقارب الجسمية «القديمة» جماهير تدعى جماهير مواجهة، بينما تخلق الظروف «الجديدة»، لتكوين رأي منسجم، وبواسطة وسائل الاتصال الجماهيرية، تخلق جمهورًا وسيطًا.

ويحدث أن يختلط هذان النوعان من الجماهير (هيجان جماهيري يحرك بواسطة الراديو).

لكن هذه العمليات لا تكتسب معنى، في تعبير علم النفس الجماهيري، إلّا عندما يصدر عنها نتائج جماهيرية؛ مثل نتائج انتخابات، ثورات، أفعال متناسقة.

ثمة مثل يصلح لكل زمان، في تعددية هذه النتائج الجماهيرية، ألا وهو طريقة اللباس. وتُبرز هذه التعددية ثلاث علامات فارقة، متناقضة في الظاهر، في حركة الظواهر الكتلية.

(أ١) لتوحيد اللباس أكثر من دلالة، وجدت في جميع العصور ولدى جميع الشعوب نزعة إلى التناسق في اللباس، لا محيد للفرد عنها. لقد تحوّلت مسألة ستر الجسم إلى توافق جماعي وايديولوجي.

وتلعب التقاليد دورًا هامًا.

تفرع الزي «الغربي» الحالي بشكل خاصّ من اللباس الجرماني القديم (١) المؤلف من قميص فضفاض وفستان ودثار بالنسبة إلى النساء، ومن رداء وسروال بالنسبة إلى الرجال (٢) وذلك منذ عصر البرونز وعصر الحديد الأول (أي نحو ثمانية قرون قبل الميلاد). إن الزي الروماني (٣) والخِمار الإسلامي واللباس الأوروبي المحصن لم تنجح في فرض نفسها تمامًا على المستوى العالمي:

(أ٢) التباعد لا يبرز إلّا على أساس بعض التناسق.

وفي وقت مبكر، أتاحت «أزياء اللباس» تمثيل الفرق (الجزئي): مع مظهر مميّز لدى الكهنة (٦) والجنود (٧). لكن الوحدات العائلية (٨) طوّرت لباسًا مميّزًا للأولاد والبالغين والمسنّين.

(أ٣) والتنوّع البارز معروف في الأزياء النسائية.

لقد كان جسم المرأة دائمًا مكيّفًا تبعًا لتصور العصر للمرأة: (٩) كان في مصر القديمة ثيابٌ شفّافة، وكانت كاهنات ميسينيا (١٠) يرتدين دثارًا يكشف عن صدورهن، والسيدات المولعات بالزخرفة (الروكوكو) (١١) يبالغن في إبراز الأوراك إلى درجة السخرية (الكاريكاتور)، وحوّل العصر الرومنسي (١٢) المرأة إلى طفل يرتدي لباس الأطفال، وفي مطلع القرن العشرين بدأ التحرر بالاقتباس من أزياء الرجال. واليوم تتحكّم تيارات شاذّة وسريعة الزوال في التوجُّه العام للأزياء.

ب. بحث في الجماهير

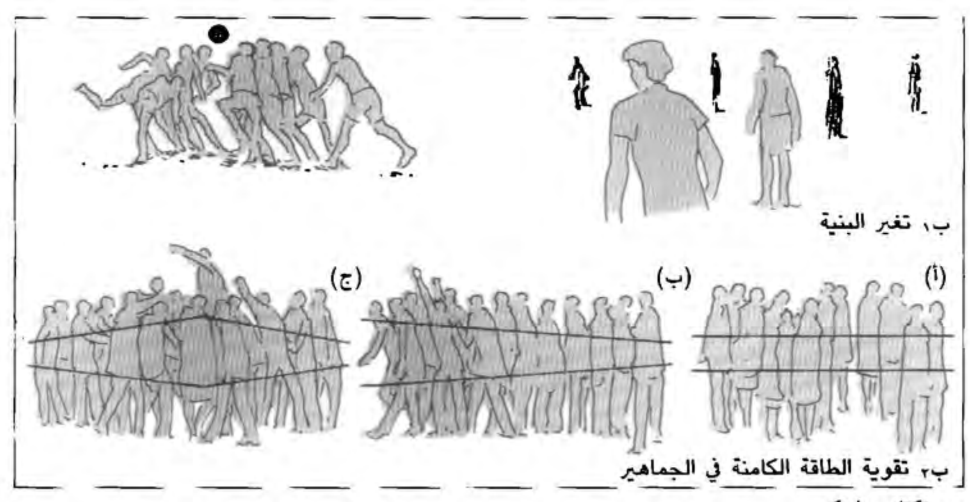
نادرًا ما تتبدى الظواهر الجماهيرية كما تتبدى أزياء اللباس قبل أن تتطور في ردات فعل الجمهور الذي يستخدم وسائل عمل فعّالة. يمكن للبحث في الجماهير أن يجعل هذه الظواهر معروفة بواسطة الأقليات «النموذجية» التي تمثل الجميع تبعًا لنموذج القِمَم.

إن عملية اختيار العينات هي انتقاء صدفوي، إذ يتم مثلًا اختيار ألفي شخص من شعب يعد ٦٠ مليون نسمة. وفي طريقة الحصص، يجري الاختيار من جماعات بارزة في المجتمع: نساء/رجال، عمال/ مستخدمون، موظّفون...، ويحدث الانتقال، بواسطة معايير مبنية على نظرية الاحتمالات، من هذه المجموعة من الفئات إلى المجموع. (فصل ٣/٤).

تستخدم بطريقة منهجية (فصل ٧/٣) أسئلة مدعّمة، بوجود قوى تجريد محدودة، ببيانات مصوّرة. وفي المثل بحث، بطريقة الأسئلة غير المباشرة المدوّنة على أوراق (**ماسلينغ** ١٩٥٣)، عن الأثر الذي تركته في الهند نوعية الأفلام الأميركية.



أ. مجالات الفعل المشترك



ب. تكتل سلوكي



ج. الطاقة الكامنة الفعّالة

جرى الحديث، في دينامية الجماعة (فصل ٩/١٥)، عن تحليل القوى الدينامية في علاقات الجماعة وعن أهمّية العلاقات في تحوّل الجماعة. وإن القوى الدينامية في وسط الجماهير هي أهمّ من ذلك بكثير.

الانتفاضات السياسية العديدة والأعمال العدوانية المنكرة هي أمثلة على ذلك.

أيبقى من الممكن تحويل الجماهير عند قيادتها؟ لا شكّ أن هذا سيكون أكثر صعوبة. وقد جرت محاولة هذا الأمر في آفاق عدّة ولمقاصد مختلفة. تحلل دينامية الجماهير أسس التلاعب بالجماهير.

أ. مجالات الفعل المشترك

إن الرأي المسبق الرائج الذي يعترض تحليل أفعال الجماهير هو أن عضوًا ما من هذه الجماهير لا يتفاعل إلّا كفرد («أسطورة ثبات السلوك»). وانسجامًا مع هذا القول «تفسر» بعض الأحداث المرفوضة مثل الانتفاضات وأعمال الابتزاز كما لو كانت من عمل مجموعات أفراد محتقرين (مرذولين، مغلوبين، كحوليين..)

إن عضوًا من جماعة راهنة هو، في الواقع، تحت رحمة سلوك ليس هو بالضرورة سلوكهُ النموذجي. كثيرون يجدون أنفسهم مرتهنين للتجارب التي تعيشها الجماهير. وتُعوّض خسائر شخصية (كاستلاب الإرادة والقدرة) بواسطة تجارب معيشة وجودية تُعزّز عشوائيًا وسط الجماهير (تجربة القدرة الكلية داخل الجماهير).

تُفترض أربعة شروط أساسية لتحقيق تلك «الحالة من الابتهاج» التي يتمتع بها فرد في جمهور تحرُّكِه أهداف مشتركة.

(أ١) يجب أن توجد علاقة موقفية في الجمهور إما مع قائد الجمهور وإما مع جمهور منافس.

(أ٢) الاتصالات البدنية، كالتي تشكّل سلسلة (من الأجساد)، تخلق، بل تقوّي الاتصال الجسدي بالجماهير.

(أ٣) الانفعالات يجب أن تبلغ حد الهياج بواسطة أناشيد المسيرة.

(أ٤) الاتصال الإدراكي المشترك تثيره مضامين تُصاغ في عبارات (مثل الخطب الصريحة أو الغوغائية) أو الرموز (أعلام، بزّات نظامية) التي تمثّل الأهداف الخاصّة أو تحقُّر الخصم.

ب. تكتّل سلوكي

توحي الجماهير، بالنسبة إلى الجماعة، بتحوّلات بنائية تركيبية أو تفكيكية.

(ب١) والقاعدة العامّة أن مباراة كرة القدم تمثّل تكوين جماعة.

ولكن عندما يكون اللاعبون أولادًا في الثانية عشرة من أعمارهم نلاحظ، غالبًا، تفكّكًا في بنية الجماعة: يركض الجميع طوابير وراء الكرة (إلغاء التراتبية، تقليل شأن الأدوار، فقدان الضوابط).

(ب٢) تحلّ محلّ البنية المفقودة في الجماعة تقوية فعل الجماهير الذي يمثّل ثلاثة اتجاهات أساسية.

(أ) نفوذ معادلة السلوك (نزعة في وسط غامض)

(ب) قابلية تأثر جديدة بعد مرحلة من التماثل بإضافة جماعات متطرّفة لم تكن سابقًا في الحسبان (أقليات ناشطة).

(ج) بناء امتثالية جديدة موجّهة نحو قادة «يمتلكون سحر الجماهير» (إخلاص للسلطة).

ج. الطاقة الكامنة الفعّالة

في قلب الجماهير البشرية استعدادات للفعل تحوّلت إلى إنجازات للفعل:

تقوي الجماهير الحاجة إلى العذاب (المازوخية) وإلى العمل بعنف (السادية).

أما بخصوص مسألة معرفة ماذا «تحمل» تقوية الطاقة للفرد، لا شك أنها تأتي في الدرجة الأولى تجربة القدرة التي يتعذّر بلوغها بطريقة أخرى. وإلى جانب تجارب القدرة الكلية هذه، يمكن أن نذكر مجموعة من حاجات جماهيرية أخرى:

يطلب من كل فرد استعداد للمجازفة يساعده، مع سهولة نسبية، على بلوغ تجارب النجاح. والمجازفة في وسط الجماهير أمر مغفل ومسؤوليتها ليست موضوع خلاف كما هي عند الفرد المعزول. وإنجاز عمل عظيم يمكن أن يفيد الفرد منه. وتُسجَّل الجراح البدنية العارضة لصالحه كما لو كانت أعمالًا بطولية.

(ج١) إن أحد الحافزين الأساسيَّين للكمون الفعّال لدى الجماهير هو إحداث الأذى، وقد يكون المستهدف بذلك عدوًا حقيقيًا أو خياليًا أو شخصًا سواء كان فردًا أو جماعةً أو جمهورًا.

ففي مصارعة الثيران ينتقم الجمهور لنفسه من الثور تعويضًا عن الحرمان السادي الذي يقاسيه (تحليل **كوهوت** ١٩٧٧).

وقد ترتد هذه العدوانية على الذات كما نشاهد في الانتحار الجماعي لأعضاء بعض الطوائف.

(ج٢) غير أنه في أكثر الأحيان تستخدم الطاقة الكامنة لدى الجمهور للإثارة الذاتية. فبدلًا من تبادل الحجج والتمويه على الضجر بمحاولة التلهي أو تقرير المصير الذاتي بطريقة مختلفة، يقوم الفرد بما يمكن عمله ويثير نفسه بتأكيد انتمائه الاجتماعي وبسلوك تتبنّاه الجماهير. وذلك حتمًا طالما أن التماثل لا يُعاش على أنه انكماش وحتى تتضح مضامين نهج جديدة (أثر الانعتاق والتجمهر).

إن من يسهم، على طريقة التبعية، بأحداث جماهيرية ينقل حاجاته المعيشة إلى «ذويه»، ويخاصم الآخرين خياليًا (مدمن الأفلام العدوانية) أو حقيقة.

ومن الأمثلة على ذلك «نزعة تدمير الملاعب».



أ. التبئير

ب. الاستقطاب

ج. التركيز (تموضع)

د. الأقليات الفاعلية

هـ سياق الفعل

و. الارتكاس الإعلامي

تقف ردود فعل الجماهير عند أشكال نادرة من السلوك.

يمكن للجمهور الحاضر أن يصغي سلبيًا ويصفق ويعبّر عن عدم موافقته بالصفير أو بالصراخ، أن يمثل الآراء رمزيًا (كتشكيل صفوف بشرية) ويمكن، في النهاية أن يتصرّف يدويًا (كاللجوء إلى السلاح)

أمّا الجمهور الإعلامي (الذي يتتبّع وسائل الإعلام) فهو، على عكس ذلك، مؤلّف من «كل شيء» يتتبع الوسيلة الإعلامية ذاتها (جمهور التلفاز هو أكبر من الجمهور الحاضر ويكون موحّدًا إلى حَدٍّ ما في بعض مجالات السلوك (مثل رأيه في أحداث النهار) ومجزّءًا تحوّلًا سلوكيًا تَبعيًا في مواقف يمكن رصدها، بل قياسها (مثل الإنتخابات)

الجماهير الوسيطية (بين بين) هي مزيج من النوعين السابقين. قد تحدث في حفلات موسيقى الروك (المضخمة كهربائيًا) حوادث مؤسفة قد تؤدي إلى أعمال جماهيرية، مثل تحطيم التجهيزات...

لكن المصلحة الخاصّة المنسوبة إلى ردود فعل الجماهير تزداد عند محاولة الانتقال إلى عمل عصياني في الجماهير الحاضرة.

متى يحدث ذلك؟

أ. التبئير

تتكوّن الجماهير عندما تتلاقى تيارات بشرية. ولكي يحدث ذلك يجب أن يشعر الجميع بأنهم أمام هدف مشترك. وليس من الضروري أن يدرك الوعي هذا الهدف، يمكن أن يمثل دفعًا غامضًا يصرف الجماهير، بلا تفكير منهم، نحو نقطة حساسة (بؤرة بالمعنى الفيزيائي).

ب. الاستقطاب

تتلاشى ردود فعل الجماهير إذا لم تولّد مواجهة أي مقاومة حية. إن الجماهير، كالجماعات المشاغبة، تبحث في لاوعيها عن خصم.

يمكن لعابر سبيل ينظر إلى جماعة من هذا النوع أن يصبح خصمًا. وعلى حارس حديقة الحيوانات أن يتحاشى التحديق مليًّا في عيني إنسان الغاب (الأورانغ-أوتان) لأن هذا يدفعه إلى الاعتداء.

في الأعمال العدوانية عداوات «احتياطية» أي خصومات أساسية، تُهمَل ظاهريًا، لكنّها تستخدم كأهداف عند الاستقطاب (مثل الشرطة، الغرباء، ذوي اللباس الشاذ). قد يُغفَل عدو في سبيل آخر، أثناء المعركة، إذا بدا أهلًا للاستقطاب.

ج. التركيز (التموضع)

يضطر الجمهور، بسبب التبئير، إلى أن يمتلك حدودًا مكانية (ازدياد ضغط الأرض على «الجماهير المطوّقة»، **كانِتّي**). تدفع بعض الأمكنة الجمهور، ببساطة كلية، إلى أفعال مضخمة.

إن أماكن **الوقوف** في الملاعب خصبة بهذه الأعمال بشكل خاص؛ استحالة القعود وصعوبة التحرّك تجعلان اكتساب المكان أمرًا مرغوبًا فيه: وهكذا فإن اكتساب المدى بالصراخ (مكسب سمعي) يمكن أن يليه كسب مادّي للمكان بالاعتداء، وهكذا فالمكان يشكل السيناريو والمشهد الملائم إلى حدٍّ ما.

د. الأقليات الفاعلة

تعرض مسألة القيادة للجماهير، بخلاف ما تعرض للجماعات. ففي حين أن المحرّض في الجماعات هو الذي يعطي الأوامر للانتقال إلى العمل، لا يستطيع القائد في الجماهير أن يأتي بأمر هام إذا لم يكن مدعومًا بفريق آمِر. نادرًا ما ينسخ السلوك، في عمل جماهيري، عن سلوك القادة المعنيين ولكن عن سلوك أقلية فاعلة تتمتع بمظاهر جذّابة تسحر الجماهير. فهذه الأقلية تستثير الجماهير بتحديد الطريق لها:

الأقليات «تمثل الأكثرية» أي أنها تجسّد بفعالية أكثر الرغبات الخفية أو الصريحة للأكثرية. إنها، والحق يُقال، رأس حربة الأكثرية.

هـ سياق الفعل

لكلّ فعل جماهيري ميزة مسرحية خاصّة سواء صُمِّم بوعي أم كان صدفويًا. وهو مبني، عامّة، على عامل التضخيم:

إن ضعفا لدى العدو يولد «سيلا» لا يقف في وجهه شيء. وإن الناس في ذروة النشوة أو في نشوة الذروة هم، في أكثريتهم قادرون على كل شيء. المجازفة مطلوبة والجراح لا شأن لها وهم في النهاية يفرحون بأنّهم سالمون. وإذا دامت الأحداث أيامًا وأسابيع يتخللها، عادة فترات هدوء أو نكسات على شكل تصدّعات (بمعنى نظرية الكوارث، **رينيه توم**)

و. الإرتكاس الإعلامي

إن نهاية العمل الجماهيري ليس تمامه. لانه عندئذ تحدث «إعادة الإعداد» الذي ينال حصّته من أثر الجماهير.

يقول الذين شاركوا للآخرين إنهم «كانوا هناك» ويزيدون هكذا من نفوذهم.

ثمّ تجمع التقارير الإعلامية عن أعمال الجماهير لحفظها في الذاكرة الجماعية.

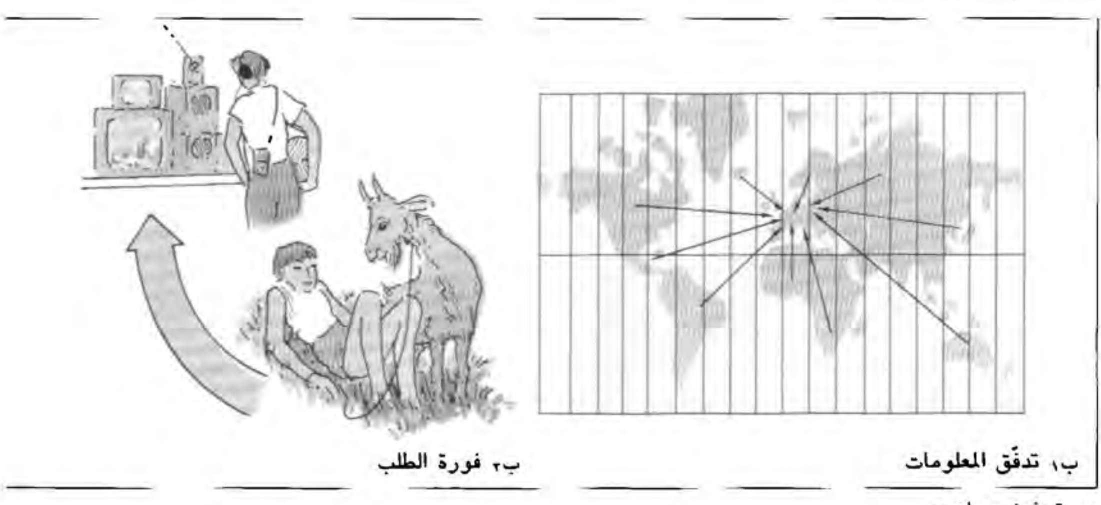
وفي النهاية تتشكّل جمعيات من «المحاربين القدماء» بحسب أهمّية العمل العظم.

وأخيرًا يأتي الإعداد الأدبي المتوقّع تبعًا لكلمة **هولدرلين** الفخورة:

«وما تبقّى هو عمل الشعراء».



أ. الاستقبال الجماهيري



ب. تحفيز جماهيري



ج. آثار جماهيرية

وصف **كارل هوفلاند** (١٩٥٤)، أحد مؤسسي البحث في وسائل الإعلام، وسائل الاتصال الجماهيرية بقوله:

«إنها وسائل مستخدمة لنقل المعلومات، بطريقة موضوعية، لا شخصية، إلى جمهور واسع».

من هنا تخلق وسائل الإعلام هذه نوعًا آخر من الجماهير غير الجماهير الحاضرة التي توجد منذ أزمنة قديمة. ومع اختراع الكتاب المطبوع، في حدود سنة ١٤٤٥، بدأت سياسة جديدة للجماهير، بواسطة المقالات النقدية التي لولاها لما فكر أحد بالإصلاح. هذا الوسيط الجديد هو إحدى العلامات المميزة لبدايات العصر الحديث.

وحدث انقلاب في إدارة التطوّر «الاعلامي» الجماهيري مع ظهور التلفاز في النصف الثاني من القرن العشرين.

أ. الاستقبال الجماهيري

وسائل إعلام تقنية تُحِل، جزئيًا، محل الجماهير الحاضرة، تشكيلًا إعلاميًا جماهيريًا.

لقد اقتُرح عدم تنظيم مباريات إلّا أمام منصّات فارغة وذلك للقضاء على العنف في الملاعب. ويستطيع جماهير مشاهدي التلفاز الذين هم أكثر بكثير من الجماهير الحاضرة، كما حدث أكثر من مرة، أن يطلقوا عنان تعدّياتهم على التلفاز.

إن إلغاءً تامًا للجماهير الحاضرة يبدو قليل الاحتمال بالرغم من أنه قد حدث تفكك جزئي للجماهير الحاضرة لمصلحة جماهير الوسائل الإعلامية. (مثل حضور الحفلات الموسيقية الجماهيرية في المنزل). ونحن قادرون بواسطة هذه الوسائل الإعلامية أن نشاهد الحوادث براحة أكثر.

ب. تحفيز جماهيري

لا تساوي الدوافع المحرّكة للجماهير مجموع الدوافع التي تحرّك جميع الأفراد الذين تتألّف منهم هذه الجماهير.

فلو كانت هذه هي الحال لوجد مجال لانهائي من الدوافع. ولكن في وضع الجماهير تقلّصت التوقّعات دفعة واحدة. وهذا لا ينطبق على الأقليات. فإن متطلباتها تتعدّى الطاقات التي تحققها وسائل الاتصال الجماهيرية.

وعلى عكس ذلك، يدّعي مديرو وسائل الإعلام الجماهيريّة، في أغلب الأحيان، أنّهم لا يخفِّضون المستوى ولكنّهم يكتفون بالتكيف مع الطبقات الدنيا لعامّة الشعب.

وما يجب أن يعترض ذلك هو أنهم يعتمدون على حوافز متكررة ليقدموا خدماتهم لأكبر عدد ممكن من المستهلكين الذين يمكن الوصول إليهم.

وهكذا فإنهم يوجّهون ويقوّون طاقات مستوى منخفض.

ويتدخّل في هذا التفاعل، حتمًا، مع الأخذ بعين الاعتبار التنافس بين وسائل الاتصال، استثمار واسع لحال الجماهير: عرض أكثر الأشياء الممكنة، في أقصر وقت ممكن ودمج عناصر مثيرة تخاطب الأكثرية العظمى.

لقد استنتج منذ بعض العقود نظام مزدوج في تطور وسائل الاتصال.

(ب١) تقنيًا، أصبحت الحوادث والمعلومات الآتية من جميع أنحاء العالم متاحة بكمية أكبر. يغمر وسائل الاتصال الجماهيرية، اليوم، مع تدفُّق المعلومات وتراكمها، فيضٌ من العروض لم تكن أمسِ لتخطر في البال.

(ب٢) يستجيب لها المستهلكون بفورة طلب تحدها مشاركة في المصالح سطحية وسريعة الزوال ولا تتطلّب أي جهد. وتتركّز الجماهير كجماهير، على حاجات تعويضية:

على إمكانية «القدرة على إعطاء الرأي» ببساطة، على تحاشي المشاكل الشخصية، على «التسلية» أي على الاسترخاء وتناسي الهموم عوضًا عن العزلة الاجتماعية الخاصة.

بالرغم من أن الفرد كشخص يستطيع أن يكشف عن حقل من المصالح أرحب فإنه يمتثل عفويًا لعرض مجدَّد.

ج. آثار جماهيرية

(ج١) أثبت **ألبير بندورا** (١٩٦٩)، باختبارات عدّة، السلوك التخلقي للأولاد بعد عرض فيلم يتضمّن مشاهد عدوانية. فاستنتج ازديادًا في التصرفات العدوانية.

ومع ذلك لقد أظهرت امتحانات لاحقة أهمية نوع العروض. وإن عرض الأفلام اللُّعبية «غير الحقيقية» (مثل التعديات في الرسوم المتحركة) يؤدي إلى انخفاض في الطاقة العدوانية الكامنة (**يالوم** ١٩٧٤)

يُظهر هذا المثل أن آثار وسائل الاتصال الجماهيرية، بسبب تشابكها، ليست سهلة التقييم.

(ج٢) يلاحظ اختلاف جوهري في التتابع الزمني للآثار (**بينيش** ١٩٦٨). فالآثار النفسية التي تظهر بعد العرض الإعلامي بقليل لا تنطبق إلّا نادرًا على الآثار الطويلة الأمد. تمثل هذه الأخيرة، في علم نفس الجماهير، مشكلة حقيقية. وكما أننا لا نستطيع أن نضع، تحت قاسم مشترك، الآثار الطويلة الأمد لاختراع المطبعة، فإنه يصعب كذلك تقييم الآثار النفسية الطويلة الأمد لوسائل الاتصال الجماهيرية الجديدة.

والأكثر وضوحًا هو أنه في دائرة المشاغل اليومية (وجبات طعام، أعمال، نوم...) قد ازداد قطاع إدراك المعلومات.

بشكل عام، تبدل التوقع في مواجهة الأحداث المثيرة (الانتظار المدرَك في «سياحة الكارثة»).



أ١ قرارات وزارية

أ٢ اتّصال الأقسام

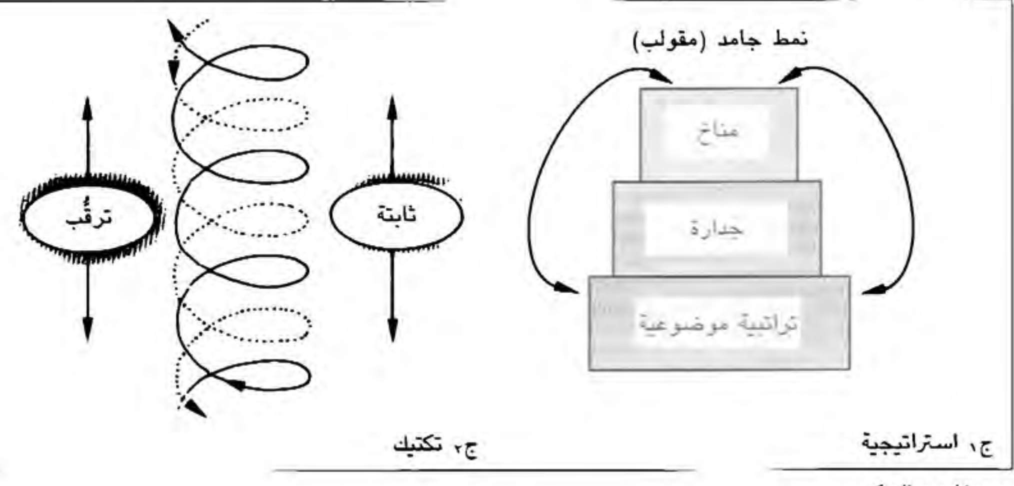
أ. وظائف الحكومة



ب١ السلطة الحكومية

ب٢ فعالية الحكومة

ب. الجهاز الحكومي



ج١ استراتيجية

ج٢ تكتيك

ج. مفاهيم الحكم

كتب **سيغموند فرويد**، في معرض حديثه عن المحلل النفساني ما نصّه: إنه يمارس «ثالث مهنه المستحيلة حيث بإمكانه أن يتأكد، دفعة واحدة، من قصور نجاحه. المهنتان الأخريان، المعروفتان منذ زمن بعيد، هما التربية والحكم».

وبكلام واقعي، ليست الإنجازات الحكومية الناجحة مقيمة، أكثر الأحيان، إلّا تاريخيًّا. إنها تناقض، في عصرها، دائمًا تقريبًا، توقعات لا نهاية لها (ومن بينها توقّعات لاعقلانية)، إلى حدّ أنه يستحيل التكلم على «نجاحات». وتدخل مراكز الاهتمام الشعبية الكثيرة في صراع مع عملاء الحكومة المعزولين الذين يعطون انطباعًا، للوهلة الأولى، بأن الحكومة هي، في الوقت الحاضر، صالحة أو سيئة. وهكذا فإن إشكالية علم نفس الحكم هي القسم الأكثر تعقيدًا في علم نفس الجماهير.

أ. وظائف الحكومة

ميدانان وظيفيان يميزان حكومة ما في نطاق أهم اهتماماتها:

نشاطها (ومن ضمن ذلك تقصيرها) والصورة التي يعطيها عنها. وفي الحالتين ليست هي الوحيدة التي تقرر.

إن قدرة الحكومة تتعلّق بتكوينها (ديمقراطي، توتاليتاري، مزيج من الاثنين)؛ ولكن ثمّة مجالًا دائمًا للتمييز بين واقعها الدستوري الرسمي والواقع غير الرسمي. توزع السلطة حسب مراكز الثقل وتختلف من دولة إلى أخرى.

ففي الدولة الديمقراطية، لجماعات الضغط و«للشبكات» المناصرة سلطة عظيمة؛ وفي الدول التوتاليتارية تكون السلطة في يد القوى الأمنية (واضعة الإيديولوجية).

(أ١) ينتج المدى (المتغير) لممارسة السلطة الحكومية عن سياق القرارات التي تتخذها الوزارات.

تخضع القرارات لموجات من التأثيرات التي تولّدها أي التي يجب أن تتدخّل في اللحظة الحاسمة حيث تكون قضيةٌ ما جاهزة لأن تطوّرها وتبسطها قضايا أخرى ولأن تصبح أكثر فعالية.

لا بدّ، بالتالي، من بعض الإصرار في ملاحقة الأهداف الحكومية.

(أ٢) تصطدم القرارات دائمًا بالانتقاد.

ولهذا فإن عرض القرار لا يتعلّق فقط بكونه صالحًا. فهو يحتاج إلى توسّط مقبول وجدير بالتصديق مع المعنيين به وذلك بواسطة المقابلات.

ب. الجهاز الحكومي

إن من يصل إلى الحكم يكون قد ترك وراءه حياة تميزت ببعض الخصائص الشخصية:

منها طاقة عظيمة على العمل وميل مقتصر على التأمل تجاه تدفّق الأخبار واهتمام زائد بالأحداث الجارية، كل ذلك مقترن بحب الظهور.

(ب١) لا يوجد نمط محدّد من الشخصيات لممارسة السلطات الحكومية. لكلٍّ مظهر من مظاهر الشخصية حسناته وسيئاته.

فعدم الانفتاح على الشعب يصحبه المزيد من الوقار ولكن أيضًا مسافة مؤذية - ودماثة الأخلاق تؤدّي إلى اكتساب ثقة سهلة وسرعة إلى عدم الاعتبار.

ففي كل الأحوال يجب أن يبنى الاعتراف بالحكومات على سلطة طبيعية وليست فقط مؤسساتية.

(ب٢) تعتمد فعّالية الحكومة على إخلاصها؛ ولكنّها بمعزل عن ذلك تستخدم مهارتها التفاوضية مع شركائها وقدرتها على إقناع الرأي العام العريض.

يعتمد رأسمال الثقة، العنصر الأساسي لصورة الشخصية، على تأثير قوّة القيادة وعلى الثقة في الأهداف، وفي تمثيل مصالح الجماعة (a) كما في قوّة مقاومة فئات أخرى معارضة (b).

ج. مفاهيم الحكم

كان **كيسنجر**، وزير الشؤون الخارجية الأميركي، يعتبر أن على الإنسان أن يمتلك مفاهيم الحكم قبل مباشرة عمله في الحكومة، فإن العمل بحدّ ذاته لا يترك متسعًا من الوقت لاكتسابها.

أما فيما يخص المفاهيم فنميز ما بين الاستراتيجية (بعض الأهداف الأساسية الثابتة والسهلة العرض) والتكتيك (تسويات يومية تقع ضمن حدود الممكن).

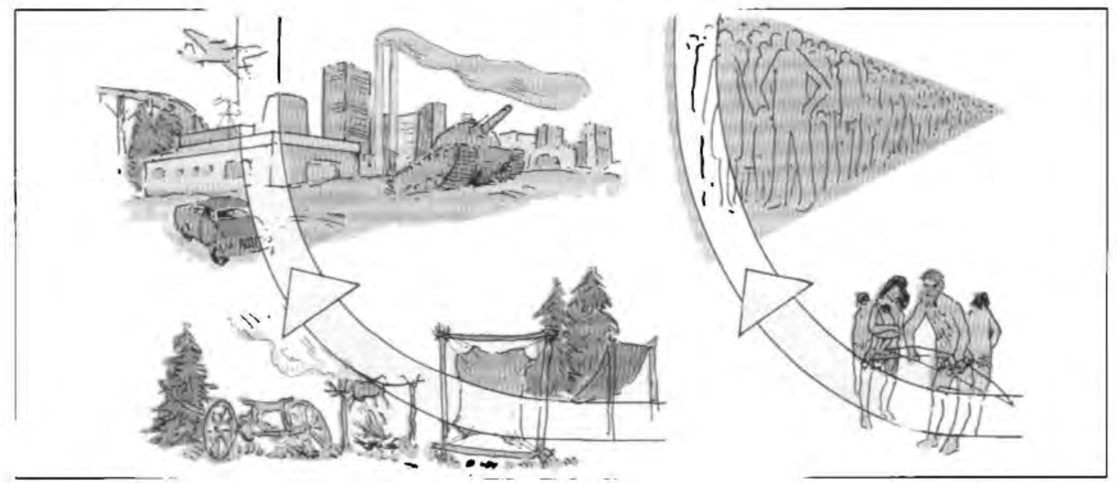
(ج١) العناصر الاستراتيجية الهامّة هي تراتبية الأهداف (الموضوعات الكبرى للسياسة الحكومية تُعلنها الأحزاب عامّة تحت شكل مموّه)، الجدارة (ممارسة للسلطة مقيَّمة بطريقة واقعية)، المناخ الدولي (مجموع الانطباعات عن وضع الدولة). تمثل هذه العناصر «نماذج ثابتة» أي موقف الشعب تجاه الدولة - الأم وهي صعبة التعديل:

الدولة، مثلًا، «كخدمة ذاتية» أو «كأب عاطل» يُسْتحسن الهرب منه.

(ج٢) يمثّل لولبُ النجاح والفشل، بمرتفعاته ومنخفضاته، موقفًا ملموسًا للدولة مؤلّفًا من «ثوابت» (أرقام) الرفاهية الحقيقية و«الترقب»، أي مجموع التوقّعات المبرّرة نوعًا ما في منظور اللحظة القائمة.

ودون ردود الفعل الظاهرة تختبئ حالات فكرية سرية تستطيع، كونها كمونا سلوكيًّا، أن تظل مدة طويلة دون أن تنفجر:

مثلًا، على شكل خذلان مستسلم كامن أو تحفيز سلبي أخلاقي عدواني ينتهيان إلى مزيج لاعقلاني خطر يوصل فيما بعد إلى فورات جماهيرية مفاجئة.



أ. تسخير البيئة

هواء
مسكن
ماء
لباس
غذاء
عبادة
منتجات
لهو
مواد أولية
حاجة أساسية
حاجة فرعية

ب. حاجات البيئة

علم نفس البيئة هو أحدث فرع في علم النفس. وجد بموازاة الوعي المتزايد لمسألة البيئة. إن مهمة علم نفس البيئة هي توضيح دور علم النفس في السياق العام للمشاكل العالمية للبيئة. تبرز ثلاث نقاط حاسمة في هذا الصدد.

(١) يعيش الإنسان في محيطه كما لو أنه يعيش في حاوٍ يؤثر عليه باستمرار سلبًا أو إيجابًا.

(٢) يشكل الإنسان بيئته بتحويله الكرة الأرضية بصورة أساسية.

(٣) يوجد وراء اتجاهَي التأثير هذين نظام بيئي إنسان - بيئة ليس فيه فقط أمداء أحيائية بل أيضًا أمداء نفسانية أي نظم مدى أحيائي نفسانية:

من عناصر هذا المدى تبعيته للمناخ، نوعية المنظر الطبيعي، نسبة مكوناته الطبيعية والاصطناعية (مثل الغابات، الصناعة...)، الكثافة السكانية، لوجستية ووسائل النقل وخاصية عطاءات المدى الحيوي (صلاته بأنظمة الاتصال، نشاطات التسلية في المنطقة المعنية)، وأخيرًا «تشابك» هذه العناصر اي الشبكة الإجمالية لهذه العوامل.

أ. تسخير البيئة

إن أعمال السخرة أو الاسترقاق التي فرضها الإنسان على البيئة تُحدّد بواقعين:

لم يكن مجموع السكان الأولين مؤلفًا سوى من عدّة ملايين من الناس موزّعين في بعض الأماكن ولم يكن لهم أي تأثير على البيئة. ففي أيامنا تُعَد البشرية بالمليارات.

ومن ناحية أخرى، كانت الحاجات محدودة حتى عصر إنسان كرومانيون (منذ ٣٠,٠٠٠ سنة) بالحاجات الأساسية (غذاء، مسكن، لباس، نشاط، راحة، تناسل وعبادة). أما حاجات الناس اليوم، وخاصة في البلدان الصناعية والمنتجة للطاقة، فقد ازدادت حتى حدود الانفجار.

فهذان العاملان، ازدياد عدد السكان وتكاثر الحاجات، يسيران في اتجاه واحد. تسخر ثروات الأرض أكثر فأكثر لخدمة الإنسان والبيئة تزداد فسادًا (نفايات صناعية وضجيج).

وجد، في بدايات تاريخ الأرض، نوع من الطحالب الزرقاء مكانًا خصبًا شديد الملاءمة انتهى بالقضاء على تربته وتدمير نفسه.

إن «نجاح» الإنسانية يشير إلى اتجاه غير معدوم الشبيه. يبدو الوضع اليوم، بالنسبة إلى كوارث الأمس، مثل الحروب والطاعون، أقل خطورة لمن يجهل ضرورته. لكن تطور الأوضاع الحالية سيولّد حتمًا كارثة عالمية.

يسهم علم نفس البيئة، كونه فرعًا عمليًا، أيضًا، في تحسين الاهتمام العام بالبيئة.

ب. حاجات البيئة

ما هي الحاجات التي لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنها؟ ليس لذلك من مقياس موضوعي. فإذا لم يشأ الإنسان أن يُعاني الحرمان يجب عليه أن يحقق الحاجات الأساسية المذكورة أعلاه (فقرة أ) بطريقة مناسبة. ولكن الإنسان يتوق، فضلًا عن ذلك، إلى أن يضمن إشباعها. أي أنه نمّى ما وراء الحاجة. لا تكفّ المقارنة الاجتماعية عن تحريضه على زيادة حاجته، ثم ان إرواء الحاجات يضعف بحيث تُطلب (أو تقترح) أنواع أخرى من الإرواء. وهذا يعني أن ازدياد الحاجات مدعم بطرق مختلفة ويبدو أنه من الصعب التفلت منها.

ويبدو كذلك أن ازدياد عدد السكان لا يمكن ضبطه ولا يمكن لجمه.

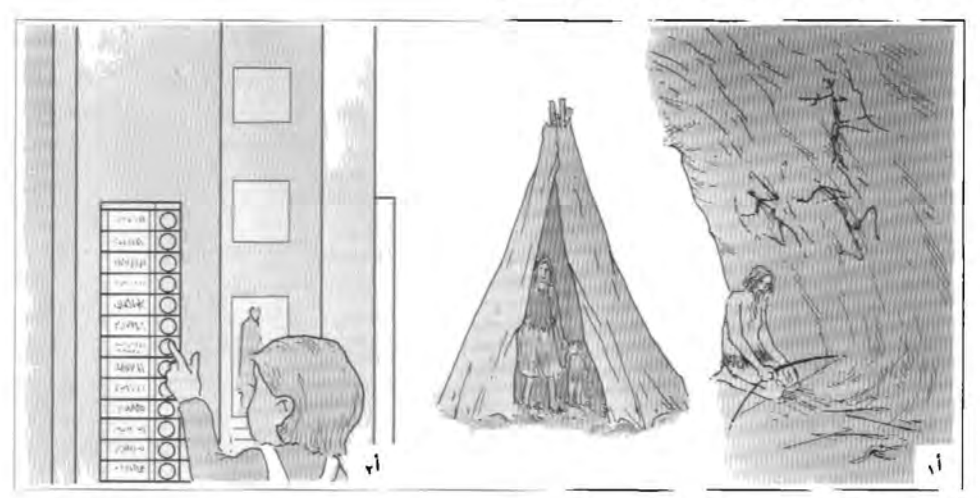
وسنبحث، في الصفحات التالية، المسائل الخاصة بأهم القطاعات البيئية. ولن يحظى مجال «العبادة» بدراسة مهمّة. ولن يكون من الإجحاف ألا نلتفت إلى هذا الحقل من الحاجات الذي ليس أقل أهمّية من سواه (فصل ٢١). لقد تصدّت البشرية منذ بداياتها للأرواح وللقوى الخفية. وتشهد مراسم تقديم القرابين ودفن الموتى، في جميع الأزمنة، على تصورات العالم. وبمقابل ذلك لقد فقدت تصورات العالم الحالية الكثير من شموليتها الخاصة بتفسيرها، وبتحديد الهدف وتكوين معنى للإنسانية.

وهذا ناشئ، أخيرًا، عن تشابك الحاجات الأساسية والفرعية التي تعني البشرية الحديثة في مواجهتها للبيئة (صورة ب)

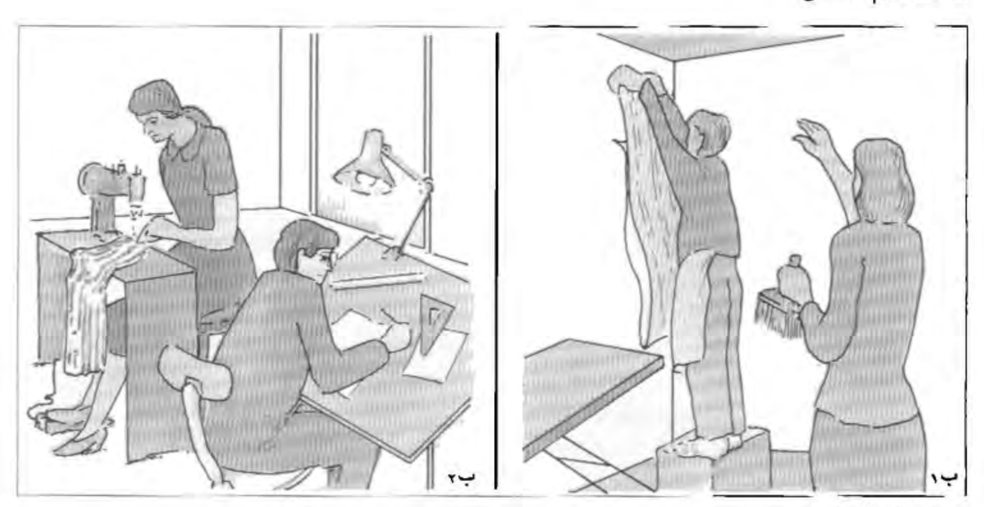
إن النظم القديمة لتصور العالم، ومن ضمنها الأديان، لم تكن بحاجة إلى أن تدمج هذه المسائل بنقائضها، ومن هنا فقد أعطت أجوبة خاصة بعصرها. وإن فرص بقاء البشرية على قيد الحياة متعلّق أيضًا بالتطوّر التالي لتصورات العالم وملاءمتها.

وفي سنة ١٩١١ درس **و. هلپاخ** في كتابه «علم نفس الجغرافيا»، إشكالية علم نفس البيئة:

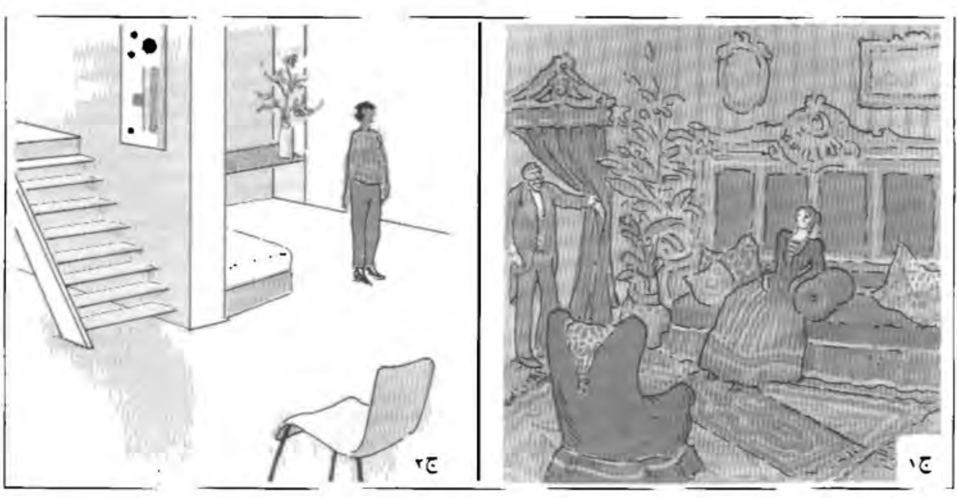
«تمثل الطبيعة التي تحيط بنا الدائرة الثالثة للبيئة (إلى جانب الناس الآخرين والحضارة) التي نظل مأسورين فيها: يوجد الجسد والنفس، كإرث أو كنتيجة للحياة الاجتماعية، وكذلك وقائع الحضارة والثقافة، في كل لحظة، تحت هذه التأثيرات الطبيعية بوعي (أو بالأحرى) بلا وعي».



أ. استخدام المسكن



ب. مجال العمل



ج. الوظيفة التمثيلية

في **بيئة السَّكن** (بموازاة بيئة العمل (فصل ١/٢١) يعيش الناس القسم الأكبر من حياتهم. وفيها يتكوّن شكل العائلة وانطلاقًا منها تتحقق الحاجات وينظّم وقت الفراغ. وليس من المستغرب أن يكون للسكن دلالة مركزية في الحياة الانسانية؛ وإن الانتقال من المسكن هو بمثابة الاقتلاع من الجذور. لكن المسكن هو أكثر من مأوى إنه أيضًا مكان للتوتّر. يناقش التحليل النفساني ثلاث وظائف أساسية للمسكن: طرق استخدامه، دوره في مجال العمل ودلالته كوسيلة لتمثيل الذات.

أ. استخدام المسكن

في المملكة الحيوانية أمكنة للنوم ولكن الإنسان صنع أكثر من ذلك.

(أ١) تشير الرسوم الجدارية مما قبل التاريخ إلى أنه كان للمغاور وظائف عديدة (من بينها أنها أمكنة للعبادة). واستبدل الكهف بملاجئ متنقّلة معدّة لتقوم بوظائف المغاور مثل خيام الرُّحل حتى دشنت حياة الاستقرار (وهي ميزة اجتماعية لا تزال تحتفظ إلى اليوم بأهمّيتها) مستوى أعلى للحاجة إلى السكن.

(أ٢) لم تستخدم «الحضارة» فقط حاجات السكن بإتاحتها فصلًا وظيفيًا للحمّام والمطبخ وغرف النوم: لقد ولد تكتيل المنزل مكانًا يخصب فيه الإجهاد والكروب. تختلف رفاهية المسكن، استنادًا إلى البلدان والطبقات الاجتماعية، اختلافًا عظيمًا.

إن بعض بيوت الطين في البلدان النامية هي أكثر «إنسانية» من التجمّعات السكنية في البلدان الصناعية. وفضلًا عن ذلك. فلا شيء يمثل شقاء الناس أكثر من مدينة تنك.

تصادف الحاجات المنزلية، بالنسبة إلى القسم الأكبر من سكان العالم، حدودًا مالية لا تتيح لها توسيع قائمة الانتفاعات.

ب. مجال العمل

يمكن أن نميز هنا شكلين من العمل! عمل البيت (تحضير البيت) والعمل في البيت. يوحي هذان الشكلان من النشاط بالميول إلى تقوية الدلالة النفسانية للمسكن.

(ب١) يعتبر إسهام الإنسان نفسه في تحضير منزله، في أيامنا هذه، الحل الأفضل، وذلك لأسباب مادية وروحية. وهذا يدعم اندماج الفرد بمكان مسكنه «الخاص».

(ب٢) ففي كل زمان اشتغل الإنسان في مكان سكنه. فكان لعائلة المحترفين قديمًا محترف أكثر الأحيان إلى جوار المنزل. وكان الأولاد يتعلّمون مهنة أبيهم. لكن الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر فصلت المسكن عن مكان العمل فصلًا تامًا. وبفضل التطوّر المستقبلي للاتصال عن بعد، يجد المسكن، في مدى منظور، أهمّية كمركز عمل،

وفي حال حدوث هذا الأمر على نطاق واسع ينتظر له نتائج نفسية اجتماعية هامّة (فيما يخص عمل النساء وتربية الأولاد).

المسكن هو المكان الذي يجري فيه القسم الأكبر من الحياة المعيشة، فهو يزيد أو ينقص الرضا عن الحياة. خلافات كبيرة أو صغيرة تحددها خصائصُ على اتصال بمكان السكن:

مثال ذلك، أية درجة حرارة تُستعمل في المنزل، من يقرر برنامج التلفاز، أو من يحتفظ بالمنزل بعد الانفصال.

ولكن ايضًا مشاكل حياتية عامّة تمامًا تتحيَّن أثناء التجربة الحياتية في مكان السكن:

تفرغ الحياة من معناها عند رحيل الأولاد، مثلًا، وتتركّز في العزلة على سَأم منزل يعاش فيه كانه «فارغ».

ج. الوظيفة التمثيلية

لا يعبّر الإنسان عن نفسه فقط بالإيماءة والحركة، إنه يوصل أيضًا أسلوبه وشخصيته عبر تنظيم مكان سكنه. وإذا كانت هذه الوظيفة التمثيلية معاقة بحدود مالية، فإنها تتميّز، على الأقل، على شكل ميول مقوية ومعوّضة في المظهر التعبيري للمسكَن.

بطريقة مقوية، يحاول الإنسان، مثلًا، أن يقيّم رغبته في ممارسة الرياضة بتجهيز المنزل بأدوات رياضية كثيرة.

بطريقة تعويضية، يحاول بناء عالم مختلف، يعوّض به شظف المهنة اليومية بترميم أبنية قديمة.

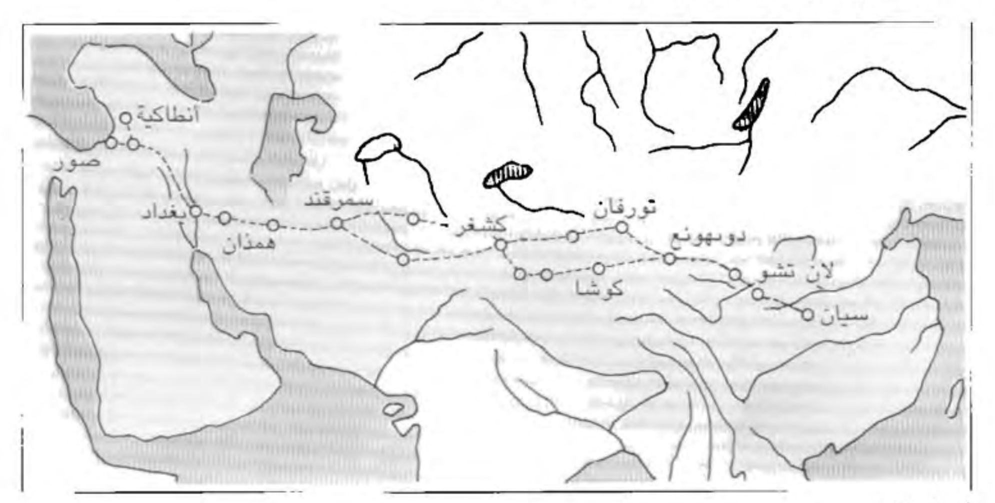
يمكن تمثيل أشياء كثيرة بواسطة المسكن: المودة، الوضع الاجتماعي، الاسترخاء، الذوق، الرومنسية،...، ولكن ضغطًا نحو التماثل، تمارسه روح العصر، يعبر عن نفسه بتنظيم المكان.

في ذروة أسلوب «الفن الجديد» في حدود سنة ١٨٩٠ (ج١) كان الناس يحاولون التأثير بكثرة الأثاث، وفي ذروة التقشف سنة ١٩٦٥ (ج٢) كانت السمة الطاغية فراغًا كريمًا.

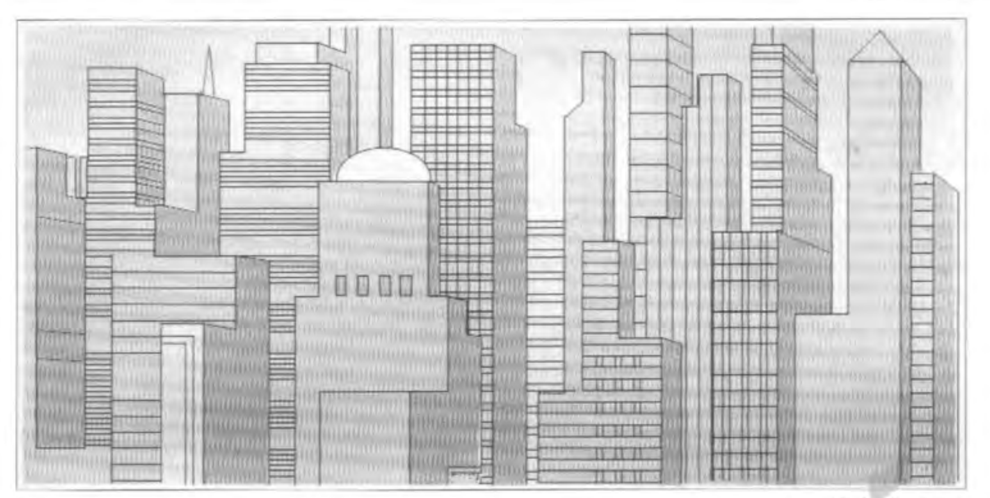
ليس المسكن معزولًا عن البيئة. يمثل التمدن والاقتراب من الطبيعة التي لا تنفصل عن قيمة مكان السكن الخاص وعن مستواه.

وعدا ذلك فإن الأراضي الصالحة للبناء متوفّرة دائمًا، ما يؤثّر على تنظيم المساكن والشقق السكنية.

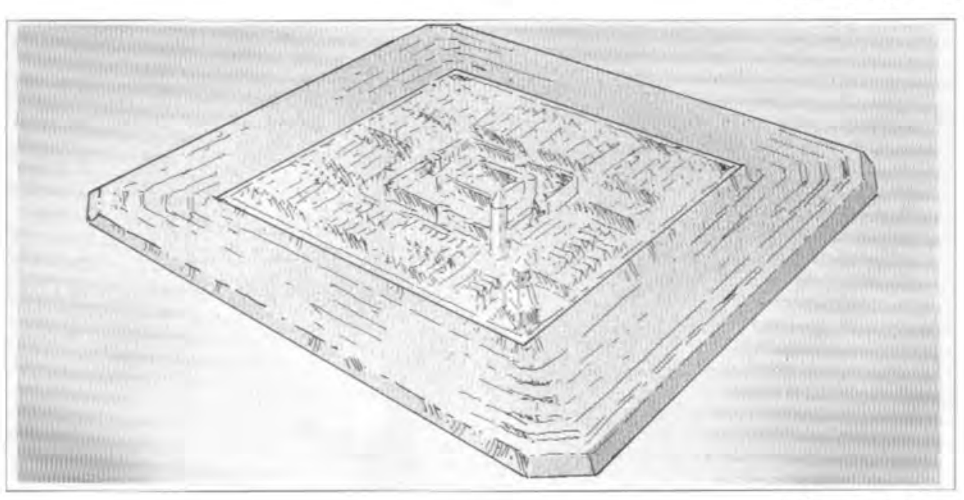
لذا فإن موضوع علم نفس السكن سيحتفظ بأهميته.



أ. بناء المدن



ب. الحياة في المدن



ج. طوباويات مُدُنية

الحياة في المدينة والكياسة والتهذيب تعني شيئًا واحدًا. كان يُقال في العصر الوسيط:

«إن هواء المدينة يحرّر».

ينطبق هذا الكلام، عند **جان جاك روسّو** وما بعده، على هواء الريف.

إن المواقف تجاه المدينة متضاربة:

فمن جهة تقدر منافعها «اللوجستية» (الاتصالات والعروض)، ومن ناحية أخرى تعتبر المدينة الكبرى كابوسًا ومضيعة للهوية.

يتحدّث المؤلفون (**إيتلسون وپروشنسكي وڤِنكل**، ١٩٧٧) في كتاب لهم يعتبر مرجعًا لعلم نفس البيئة، عن المدينة «كموطن غير طبيعي» (موطن: مكان سكن مستقر) وعن «مدينة مرضية.

لأن تاريخها هو تاريخ التجمّعات السلبية نسبيًا).

لهذه الشيطنة تقليدها، تتحدث التوراة عن «بابل العاهرة». وفضلًا عن ذلك فإن جميع الطوباويات الاجتماعية هي مُدُنية (يوطوبيا [المدينة الفاضلة] **توماس مور** هي جزيرة تضم ٥٤ مدينة؛ أما مخطّط **تومازو كامپانِلّا**، فكان عنوانه الحقيقي «مدينة الشمس»).

أ. بناء المدن

كانت المدن نتيجة تجمّعات على طريق الحرير، أقدم الطرق التجارية في العالم، نشأت مدن عند تقاطع الطرق، قبل العوائق أو بعدها، وحيث يتم الانتقال من وسائل النقل البرية إلى الطرق النهرية وحيث يستدعي داخل البلاد إنشاء سوق في بيئة ملائمة. ثم تطوّرت، ثانيًا، انطلاقًا من هنا، مراكز ثقافية. البوذية والمذاهب المسيحية النسطورية والمانوية التي طردت من الغرب فانتقلت نحو الشرق.

تأسّست دون هوانغ مع رسومها الجدارية الرائعة من القرن الأول حتى القرن الخامس عشر عند نقطة التقاء طريقين صحراويتين.

تمثّل المدن أيضًا مجموعة من الخصائص العمرانية.

إنّها وحدات سكنية منظّمة (نميز بين المدن المركزية والمدن الفسيفساء) وهي أيضًا مراكز تجارية، ومنذ القرن التاسع عشر، مراكز انتاج (إنشاءات صناعية) ومناطق تلاقٍ واتصال ومراكز طاقة اقتصادية.

وأخيرًا وخاصة، لقد تحولت بعض المدن المهمة مراكز سلطة اجتماعية. وفيها ولدت الثورات نتيجة للتكتل السكاني: في الحواضر تجمّعت الديانات مع كنائسها؛ ووجد التطوّر الثقافي سريعًا جمهوره في المدن بفضل الانتاج الكتبي والمسرحي وانتشاره على صفحات الجرائد. وظلّت إمكانيات التجدُّد والراحة في تقهقر بالنسبة إلى البلاد المحيطة.

ب. الحياة في المدن

الحياة في المدن كثيرة التنوُّع. لا شيء في الظاهر يجمع مدنًا مثل كلكتا أو باريس أو ريو دو جنيرو أو **طوكيو**. إلّا أنه توجد بعض النزعات المتشابهة من «نمط» الحياة في الحواضر.

نلاحظ، منذ القرن التاسع عشر وفي العالم أجمع (مع بعض الاستثناءات النادرة)، نزوحًا من الريف نحو المدينة:

كان عدد سكان المدن في الولايات المتحدة يمثل ٦٪ من مجموع السكان في بداية القرن التاسع عشر وهو اليوم ٧٠٪.

وتبين، في البلدان التي أجريت فيها دراسات دقيقة حول السكان، أن ١٥ إلى ٣٠٪ من السكان يعيشون في مساحة تقدّر بـ ٥٪ من مساحة البلاد. (**غوتمن** ١٩٦٦).

تتركّز، في هذا التكاثف السكاني، التطوّرات الاجتماعية والثورات وهو يتطلّب، إجمالًا، طاقة حيوية أكبر. يسبب ازدحامُ السير الإجهادَ والكروب في المدينة. ومعدل الإجرام بالنسبة إلى عدد السكان هو في المدينة الأعلى.

لفت **ميلغرام** (١٩٧٤)، الذي عرف بأبحاثه عن السلطة، الانتباه إلى تناقص المسؤولية في المدن الكبيرة. يمكن قياس نتائج هذه المواقف الضاغطة بمعدلات المرض.

إن معدّل المرض في مدينة كبيرة نموذجية مثل ستوكهولم يبلغ ٣٠٪ وهو يتجاوز السويد بكاملها.

يجب على القسم الأكبر من السكان، في المدينة الكبيرة، أن يدفعوا ثمن المنافع الحياتية (التقدمات الثقافية، التجهيزات الرياضية)، بطريقة السكن المُقْفل.

تُتيح غابة الأبنية في نيويورك (شكل ب) قياس طاقات الإنسان العجيبة على التكيُّف مع الواقعية المُدُنية.

ج. طوباويات مُدُنية

كان **ألبريخت دورر** ١٥٢٧ من أوائل الذين اهتموا بالمدنية «المثالية».

تشير بنية تصميمه للمدينة (شكل ج) إلى مدينة ذات تنظيم عسكري، معدة، في الظاهر، لرفض التداخل الفوضوي لمدينة القرون الوسطى التي يعرفها.

تمّ التوصُّل إلى الحدّ الأقصى لهذه «المدن المصنوعة» في ستينات القرن الماضي من قبل مهندسي تصاميم تصوروا تشكيلات عملاقة على البحر معدّة لإيواء مئات الألوف من الناس لمواجهة ازدياد السكان.

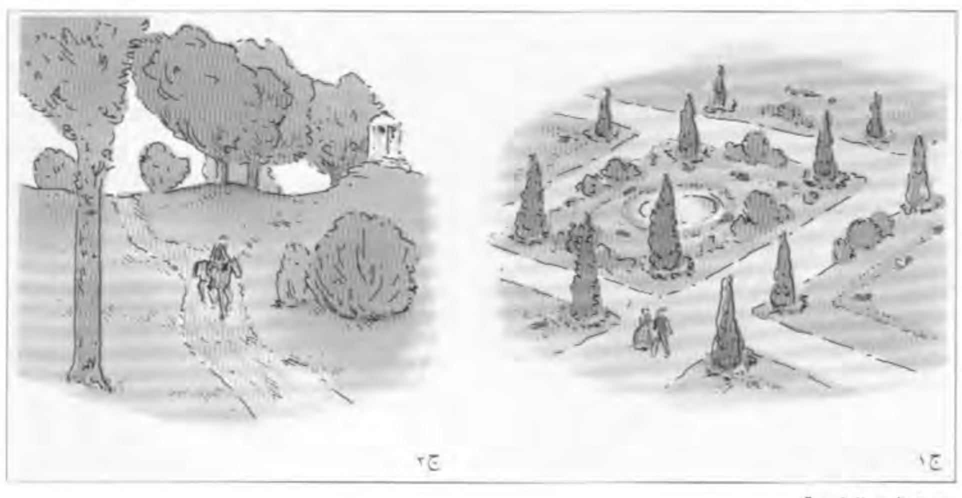
ليس من حل مثالي لمشكلة المدينة، إن المهم في عبارات علم نفس الهندسة المعمارية أو هندسة المدن التي لا يوجد منها سوى تصاميم أولية، المهم خاصة تفكيك الكُتْليّة لمصلحة وحدات كبرى متجاورة. تعدّل الوسائل الجديدة لتكنولوجية الاتصال، حتمًا، طريقة الالتقاء بالآخرين.



أ. علم نفس الطبيعة



ب. مجابهة الطبيعة



ج. تنظيم الطبيعة

بدا، لوقتٍ من الأوقات، أن الطبيعة والحضارة تشكلان تناقضات لا يمكن التوفيق بينها. لكن الارتباط القوي لكل ثقافة ولكل حضارة بالطبيعة «الحرة» كان أقل إغفالًا في الثقافة الآسيوية، مثلًا، مما هو عليه في التصورات المسيحية في الغرب. وحدها الأضرار المقلقة التي سببت للبيئة نتائج كارثية هي التي جاءت بأسلوب جديد للتفكير.

أ. علم نفس الطبيعة

ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل للطبيعة؟

يمكن أن يتكيف معها، ينهبها، يشعر بأنها تهدّده، أن يتسلّط عليها، يتجدد فيها، يكوّن مفاهيم عنها، يستكشفها، يصوّرها أو يحولها مباشرة....

ثمّة أشياء كثيرة تحثُّه الطبيعة عليها. على الصعيد العلمي، من علوم الطبيعة حتى فلسفة الطبيعة، تقدم له نفسها كموضوع بحث. وفي الوسط يوجد علم نفس الطبيعة. يبحث هذا العلم في إدراك الطبيعة وأشكال معاملتها التي تُفْرَض عليه.

(أ١) إدراك الطبيعة عملية انتقائية أي أن الإنسان لا يرى فيها سوى العينات ولا يتوجّه إلّا إلى عينات.

لا ندرك تغريد الطيور بوضوح إلّا انطلاقًا من اللحظة التي نتعلّم فيها تمييز بعض نداءات الطيور: لم نكن ندرك في البداية سوى ضجيج.

غير أن الأبحاث حول «التجارب التي لا تنسى» (فصل ٩/٧) تشير إلى أن التجارب في قلب الطبيعة تتضمّن أكثر النتائج الإيجابية عددًا. يحب الكثيرون أن يتذكّروا غياب الشمس في الجبل. ينشأ الكسب العاطفي عن تأثير تواتر السكون والوجه الوقائي للموقع. ولكن يمكن أن يبحث، أيضًا، في اختبار الطبيعة عن مغامرات مثيرة، في البحر مثلًا.

(أ٢) المعالجة المفروضة على الطبيعة هي مجال لا حدود لامتداده.

إحدى أقدم هذه «المعالجات» تدجين الحيوانات واختيارها لتربيتها. وبفضل الحيوانات سهّل الإنسان حياته واختار لنفسه شركاء وحرّاسًا ورفاقًا.

ولم يكفّ الإنسان عن المزيد من الانتفاع بالطبيعة اللاعضوية والعضوية إلى درجة أن هذا «النهب» هدّد قاعدة وجوده.

ومعرفة «المدى الأحيائي» لا تفرض نفسها إلّا تدريجًا كتفاعل متشابك بين المواد والنبات والحيوان والمناخ... وهي تجد دعمًا لها في «الأمداء النفسية» التي تمثل ترابطًا معقدًا بين الطبيعة والحضارة والثقافة كمسلّمة لاستمرارية الحياة البشرية.

ب. مجابهة الطبيعة

إنّ الإنسان في مجابهة مع الطبيعة شاء أم أبى.

هو يستخدمها، من الناحية الإيجابية، لأيام العطلة، مثلًا، وهي، من الناحية السلبية، تهدّده بكوارثها.

(ب١) الكثيرون أثناء العطل يقصدون الشواطئ للسباحة وللاسترخاء... وإلى جانب دوافع العطل المقترنة بالرغبة في «اختزان القوى»، تستخدم الطبيعة هربًا من «الترحل» اليومي، كهواية (لجمع الأزهار)، كمناظر للتنزّه، كمسرح للأعمال البطولية (تسلق الجبال)، كذكرى حنين إلى مناظر الماضي ولغايات أخرى كثيرة.

(ب٢) تقول كوارث الطبيعية للإنسان، بكل وضوح، بأنه ليس قويًا. الهزّات الأرضية، الفيضانات، الأعاصير، موجات الحر والصقيع والعواصف الثلجية والسيول هي أمثلة عن عجزه النسبي في مواجهة الطبيعة وريَب الحياة.

ج. تنظيم الطبيعة

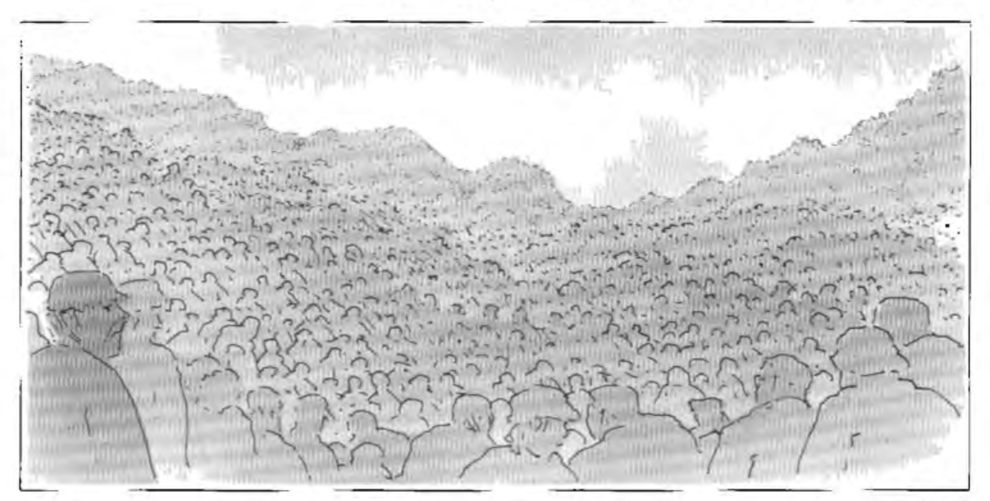
يميّز الإنسان، منذ القدم، بين الطبيعة المطبوعة (المتروكة لذاتها) والطبيعة المصنوعة (التي تدخل الإنسان في صنعها). إن تنظيم الطبيعة يفتن الناس. فهم يسعون، جزئيًا على الأقل، إلى استعادة «فردوس» تعتبره جميع الأديان المعروفة خسارة لا تعوض.

آية نبتة تغرس تعتبر رمزًا لولادة شيء جديد. وفي إطارٍ أوسع، توفر الطبيعة الفرصة «لهندسة الطبيعة». وتاريخ فن تنظيم الجنائن هو ذو أهمية قصوى لعلم النفس. يُتيح تنظيم الجنائن قراءة تصور الطبيعة الخاص بعصر من العصور، كما يصعب، دونه، تكوين جزء من تصور العالم. تطورت رموز الطبيعة في المسيحية (رموز القديسين) وفي الإسلام (السجاد المزين بالأزهار) وفي البوذية (شجرة بوذا) وفي الطاوية والكونفوشيوسية (البحيرات – الجنائن المغروسة باللوتس)

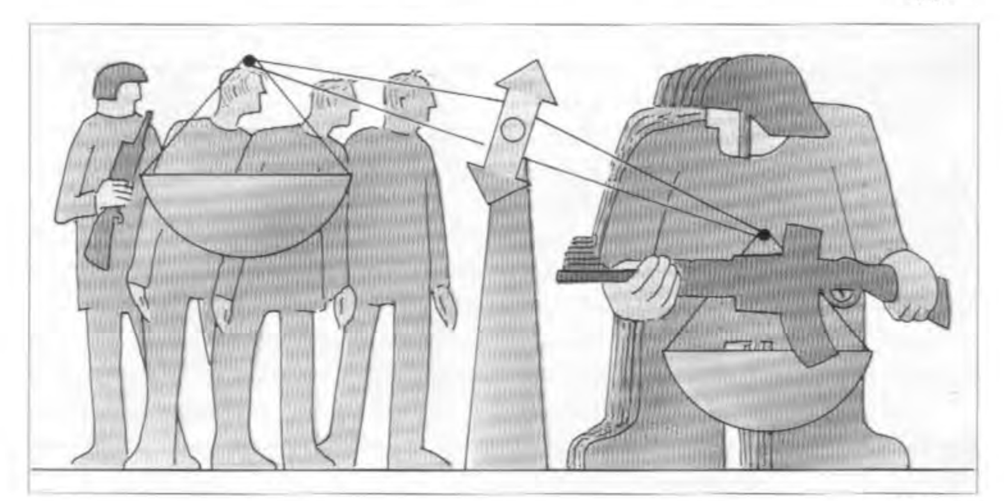
يمكن أن نميّز، في تنظيم الجنائن، اتجاهين أساسيين يوحيان بأبعاد نفسانية تنسجم معهما.

الجنينة الفرنسية الباروكية القديمة هي أكثر «عقلانية» أما الجنينة الإنكليزية التي أتت بعدها فهي أكثر «ارتجالية». هي في الحالة الأولى أكثر «تنسيقًا وتهذيبًا» (شكل ج١) وفي الثانية (ج٢) «متروكة على طبيعتها».

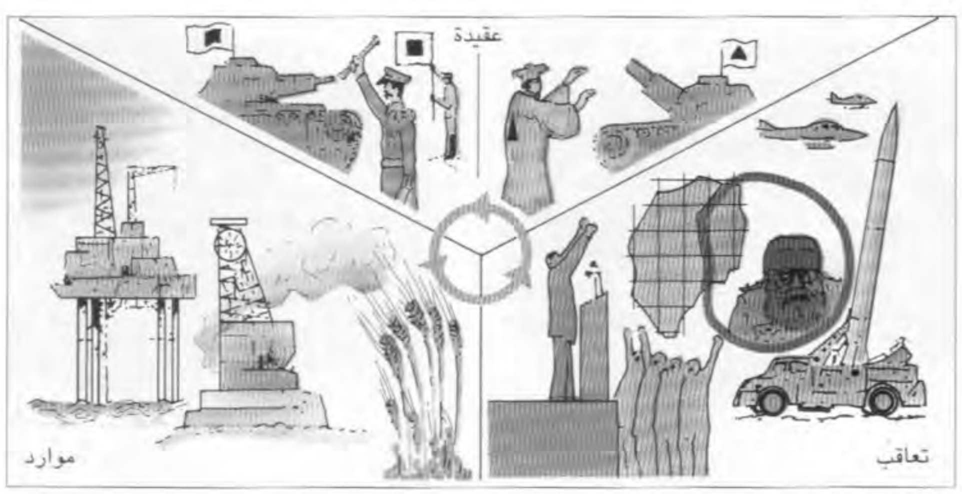
يوحي هذا الميل القوي إلى تنظيم الجنائن، بطريقة غير مباشرة، بخسارة الطبيعة التي صدمت الإنسان المعاصر. فأصبح بذلك مخترع عالمه الخاص، وجدت عبقريته مجالًا لتطبيقها؛ لكن الجنائن الخاصة، التي تشير إلى أي مدى يُعتبر مالكُها غريبًا عن الطبيعة، ليست بنادرة: أغراس غير ملائمة، تنظيم غير طبيعي، تكتُّل مضر بالنباتات. إن الرغبة في الطبيعة وفهم الطبيعة كثيرًا ما يكونان بعيدين أحدهما عن الآخر.



أ. الموارد



ب. التعاقب



ج. الانتشار العقائدي

أخطر أنواع تدمير البيئة تَسَبَّب عن الحروب. قضت الحربان العالميتان على الملايين من البشر، وأبادت قِيَمًا مادّية ضخمة، وأدّت (باستثناء بعض حالات النضوج الفردية) إلى إرهاق الجماهير نفسيًّا. أصبح تحاشي الحروب، منذ اختراع القنبلة الذرية، مسألة بقاء الجنس البشري على قيد الحياة.

يدرس علم النفس وقائع الحرب بطريقتين:

تشتمل «الحرب النفسية» على الوسائل المعدّة لإيذاء الشعوب المعادية، وبمقابل ذلك، يتفحّص البحث النفساني، حول السلام، الأسباب الأساسية للحروب لكي يسهم في تفاديها.

أ. الموارد

تُشن الحروب، عامّة، في سبيل الحصول على منافع مادّية. ويجب ألا ينظر إلى المنافع، دائمًا، على أنها احتلال أرض أو انتهاب المواد الأولية واستعباد الناس (تلك هي الفوائد «الكلاسيكية الثلاث للحرب). وليس من النادر أن تكون الأسباب لاعقلانية كحاجات مبالغ فيها إلى الأمن، ولكن أيضًا كراهية الناس «الأدنى رتبة» في البلدان الأخرى. تتدخّل هذه الأسباب هنا لتخلق جوًّا انفعاليًّا حربيًّا. يتيح مفهوم الموارد والوسائل المفيدة، تمثّل منافع ممكنة تبدو كتعويض عن الويلات المتوقعة من الحرب. استطاعت الأبحاث العملية حول السلام أن تؤكّد أن أرباح الظافر قلّما تتجاوز الجهد المبذول في الحرب.

وكقاعدة عامّة، يُغالى، في بداية الحرب، بتقييم الوضع الآني إلى درجة إيقاظ آمال لاعقلانية.

كان السبب السائد للحرب، دائمًا، احتلال الأرض عندما يتكاثر عدد السكان. وقد تأكّد، في تجارب على الحيوان، أن عدوانيته تزداد بازدياد عدده. يتكاثر عدد سكان العالم بسرعة كبيرة.

إذا استمر منحنى النمو منتظمًا على ما هو عليه، خلال ٥٠٠ سنة. تصبح كثافة سكّان العالم كما نرى في الشكل «أ».

إمّا أن ينقص عدد سكان الأرض بفعل الكوارث وإما (وهذا من مهمة البحث عن السلام) أن توجد حلول سلمية لهذه المسألة ولمسائل الغذاء.

ب. التعاقب

هذه المجموعة من أسباب الحرب هي الأصعب فهمًا؛ تدعى أيضًا أسبابًا «سيكولوجية». تمثل جميع الأوضاع اتجاه تلاحقٍ (وتعاقبٍ داخلي). والمقصود، هنا، ضرورة التلاحق النفساني.

وشيئًا فشيئًا يتعزز الانطباع بأن الآخر قد أصبح عظيم الخطر أو بالغ الضعف. فمن جهة، يؤدِّي الخوف من فقدان القدرة إلى هجوم «وقائي»، ومن جهة أخرى يدفع الزعم بأن الآخر ضعيف إلى انتهاب ثرواته. تلجأ «حرب الأعصاب» إلى تصرفات تهديدية وأعمال إرهابية غايتها الابتزاز حتى نقطة اللارجوع حيث يستحيل الحل إلّا بالحَرب.

إن إواليات القوّة هذه هي، أكثر الأحيان، طائشة، وتعمل كأنها «تلقائية» (كانتقام استبدادي أو ولع بتكنولوجيا الحرب). ولهذا فإن المبالغة في التسلح كالافتقار إلى السلاح كليهما خطِران سواء بسواء، ولكن ليس لكليهما معايير قياس موضوعية.

ج. الانتشار العقائدي

ليست البنية الفوقية الروحية حاجة فردية فقط. تُطَوِّر الجماعات البشرية والأمم أديانًا وإيديولوجيات وتصوّرات للعالم لكي تتخذ توجّهات متينة.

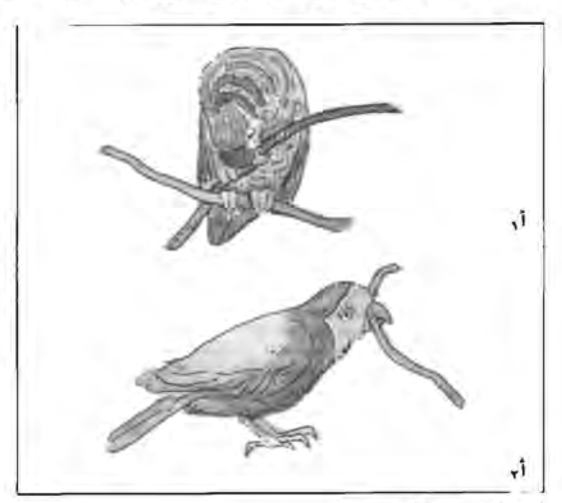
إن ميزة هذه الأنظمة الروحية هي ادعاؤها أنها تمتلك «الحقيقة». وتزعم، على التوالي، أن جميع الأنظمة الأخرى هي ضحية الوهم والضلال أو أنها شريرة، عندما لا تتبنى التصوّر نفسه للعالم. يجب إذًا إقناعها، وعند الضرورة، إرغامها على الاعتراف «بحقيقة» تصوُّرها الخاص.

إن حروبًا كثيرة، مثل حروب الثلاثين سنة، كانت حروبًا دينية. وكانت، إلى ذلك، طبعًا، حروب ثروات وتوارث. وإن منشأ الحرب في أكثر الأحيان هو مزيج من هذه الفئات الثلاث من الأسباب.

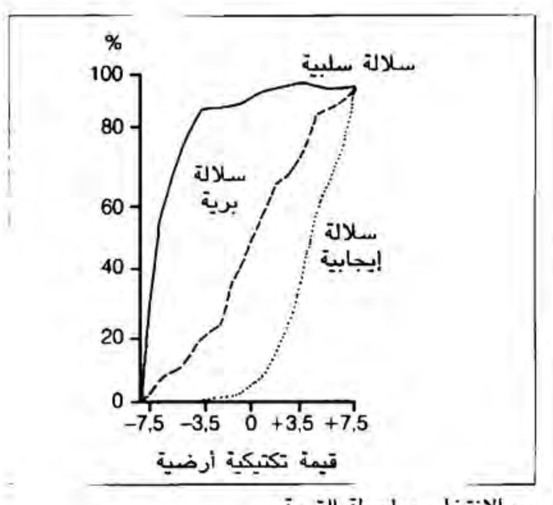
وهذا يولد، عامّة، تصورات تقلّل من شأن الحرب (الحرب لن تدوم طويلًا؛ وسيعترف العدو سريعًا بأن عليه أن يستسلم)؛ المبالغة في تقدير القوّة (عدم معرفة الاستعدادات الذاتية للحرب واعتبارها أفضل)، ثقة في السلاح (مع بداية الحروب تظهر أسلحة جديدة)، التقليل من شأن العدو (إنه عقائديًا أدنى مستوى؛ فيترتب على ذلك استنتاج بأن طاقته الدفاعية هزيلة).

ولهذه الأسباب لا يمكن لتفادي الحروب أن يتقدّم بخط مستقيم.

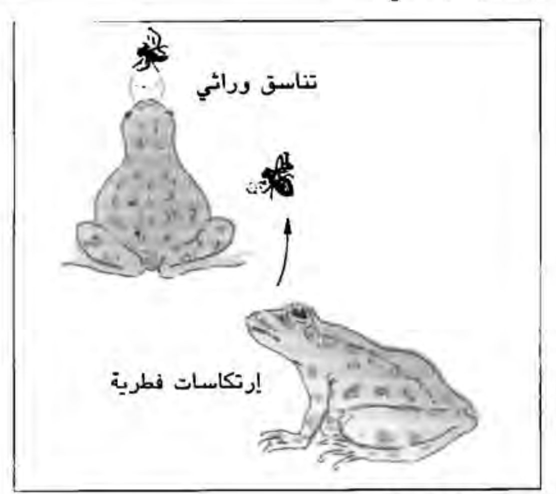
يجب توضيح أثرِ التعزيز المتبادل لهذه المجموعات من الأسباب، أثرٍ له شكل حلزوني ويدعى «عملية ريتشاردسن»، أثرٍ في الخطر المتنامي للحرب، يجب أن تواجَهَ هذه الظاهرة في سياقها النفساني. لأن السلام الخارجي لا يتم دون سلام داخلي لدى أكثرية الشعب.



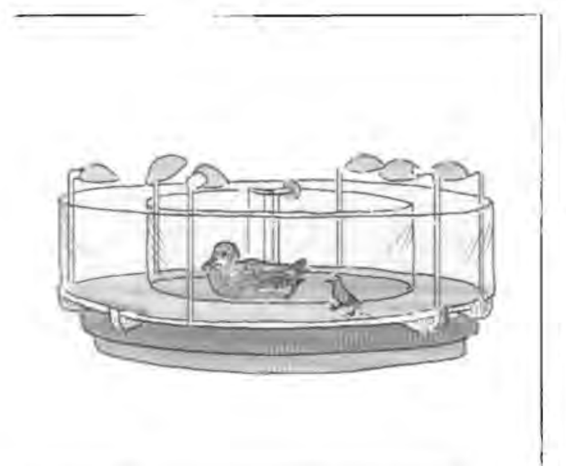
أ. تركيب سلوكي



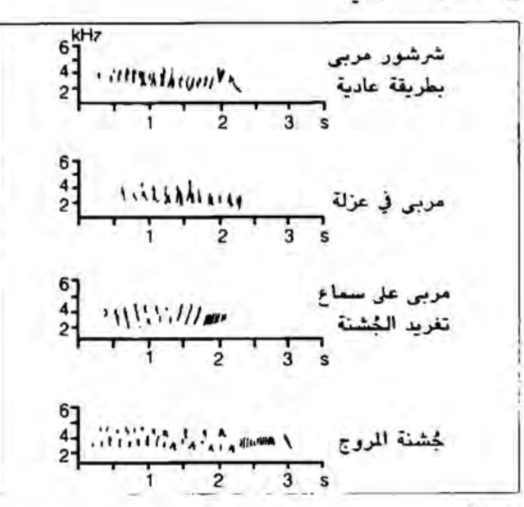
ب. الانتخاب بواسطة التربية



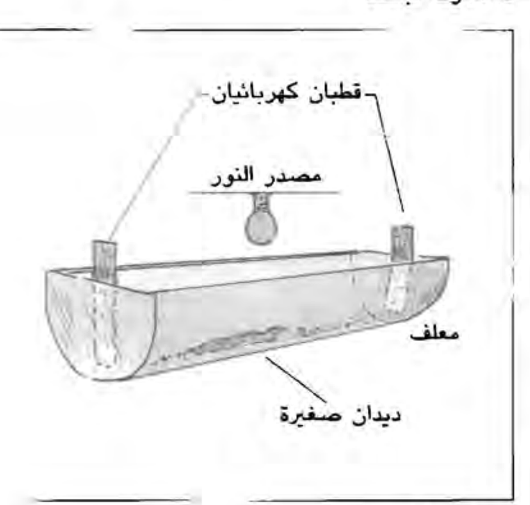
ج. السلوك الوراثي



د. سلوك البصمة



هـ. التعوّد



و. الاشتراط

لعلم نفس الحيوان تاريخ مضطرب. يقول **ر.إ. شتام** (١٩٧٨) إن مؤسسه هو **ريومور** (١٦٨٣-١٧٥٧) الذي باشر الوصف الدقيق للحشرات (بواسطة خلايا نحل مجهّزة بجدران زجاجية)، ممتنعًا عن كلّ اعتبار تشبيهوي. وفي سنة ١٨٥٩، عندما نشر **داروين** كتابه «في أصل الأنواع»، استخدم **جوفروا سان-هيلار**، لأول مرّة، عبارة «علم السلوك الحيواني، إتولوجيا» لدراسة الحيوانات (ثم فيما بعد، جزئيًا، لدراسة الجنس البشري) في وسطه الطبيعي.

وانطلاقًا من سنة ١٩١١ وضع أوسكار **هاينروث** (١٨٧١-١٩٤٥) علم السلوك الحيواني «إتولوجيا» الحالي كبيولوجيا السلوك (ممثّلون آخرون: **فون فريش، كولر، لورنز، هوكسلي، تِنْبرغِنْ، فون هولست** خاصّة). وبتأثير منهم أصبح علم نفس الحيوان المعاصر «بحثًا في سلوك الحيوان».

أ. تركيب سلوكي

يرتبط سلوك الحيوانات بدرجة تنظيمها وخاصّة بالجهاز العصبي: كلّما كانت هذه الدرجة عالية، كان السلوك معقّدًا. إذا أردنا أن نضع تصنيفًا منهجيًا لأنواع السلوك، نستطيع تفريعها تبعًا للانطلاق (بُنى المثير)، للإعداد (جهاز عصبي) ولنمط السلوك (وحدات فرعية: اقتراب، قبض، مثلًا بالنسبة إلى سلوك الصيد لدى الهر).

إن السلوك، كقاعدة عامّة، هو مزيج من مقوّمات ملازمة لموقف معيَّن. وهذا ينطبق أيضًا على التفريع (الأهم) تبعًا لنمط الإعداد. ففي التفريع القديم البدائي تبعًا «للوراثة» و«للبيئة» (تكيف ناتج عن التدريب)، كان من الصعب رسم خط فاصل بين العاملين لأن كليهما يلعبان دورًا في السلوك. بيد أنه يوجد أجهزة اختبار تميزها.

بعض أنواع الببغاوات تحمل مواد العش في ريشها (أ١) وأخرى في منقارها (أ٢) وإذا أزوجنا النوعين (**ڤ.ك. ديلغر** ١٩٦٢) نلاحظ أن سلوك الهجان ليس متناسقًا. يفشل النقل في الريش لأن جزءًا من السلوك (عملية تحريك الريش) ليس وراثيًا.

أثبتت تجارب مماثلة على فراخ السمك النهري (**د. فرانك**، ١٩٧٩) أن قسمًا من السلوك لدى الهجان لا يُستعاد بالتدريب.

ب. الانتخاب بواسطة التربية

ترافق التدجين مع انتخاب حيواني وتحسين في مردود النوع وخصائص سلوكية مثل إزالة العدوانية من سلالة كلاب الحراسة الرومانية. تُجرى، اختباريًا، انتخابات اصطناعية لدى أنواع تتعاقب فيها الأجيال بسرعة.

تُظْهِر تجربة قام بها **هيرش وإرلنماير-كيملنغ** تغيّرات السلوك لدى ذبابة الثمار بعد ٤٨ جيلًا (سلالة إيجابية: مقارنة بالسلالة السلبية والسلالة البرية)

ج. السلوك الوراثي

يوجد عدّة طرق لتحديد برنامج السلوك الوراثي. نميز ظاهرة الارتكاس الصرف (غير المشروط) مثل اختلاج الأجفان، و«التناسق الحركي الوراثي» المؤلف من استعدادات للعمل خاضعة لتكرارات ولتغيّرات قويّة. هناك تداخل بين تواليات عمل خاصة بكل نوع وعناصر مسماة «ارتكاسات فطرية».

فعلى سبيل المثال، تحرّك الضفدعة في اتجاه الذبابة (الذي هو جزئيًا موضوع تدرب)، قبل أن يعمل التنسيق الحركي الوراثيّ في ارتكاس الاستيلاء (على الذبابة).

د. سلوك البصمة (الأثر)

البصمات هي عمليات تدرب تُظْهِر، كونها تهيؤًا للإشراط، قابلية على التدريب الخاص بكل نوع (إوالية فطرية للإنطلاق) في مرحلة «حرجة» من ترسيخ البصمة. إنها بصمة اقتفاء الرفيق التي اكتشفت أولًا:

في خدعة البصمة، يتبع فرخ البط المغواة التي سيفضلها فيما بعد.

أشكال أخرى من البصمة تعني الشريك الجنسي وترسيخ الأشياء والتغريد.

هـ. التعود

يكمل فرخ الطائر، في التعوّد الإيجابي، في السنة القادمة، بصمة التغريد الخاص بنوعه، «باللهجة المحلية».

يكمل الشرشور تغريده البصمي بتعوّد تغريد جُشنة المروج.

في التعوّد السلبي، يحدث، مثلًا، تلطيف لسلوك الهرب إذا لم يكن للمثيرات المنظمة نتائج سلبية.

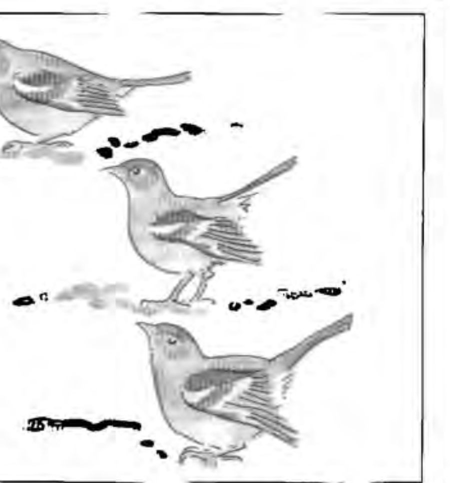
و. الإشتراط

حتى عند الحيوانات البدائية مثل العَلَقة المبططة بالإمكان إشتراط الارتكاسات.

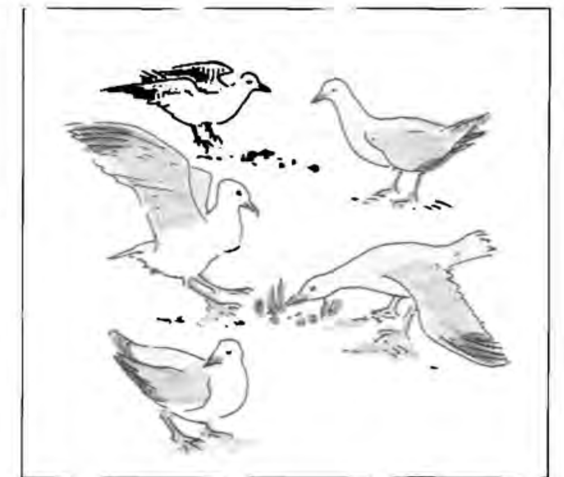
يَصحَب الصدمةَ الكهربائية كمثير غير مشروط مثيرٌ ضوئي محايد. وبعد عدّة عروض متزامنة للمثيرين، يصبح المثير الضوئي مثيرًا «مشروطًا» يطلق ردّ فعل الهرب مثل المثير الكهربائي غير المشروط.

تسمو هذه العملية التدريبية المُمعنة في البساطة حتى مقولبات دينامية ذات تعقيد يتوافق مع درجة تطوّر الحيوان لكي يكتسب سلوكًا ذكيًا يختص بالأنواع العليا (فصل ٦/١٨). يمكن أن يُنظر إلى مبدأ التسامي التطوّري هذا كمبدأ أساسي لعلم النفس بكامله.

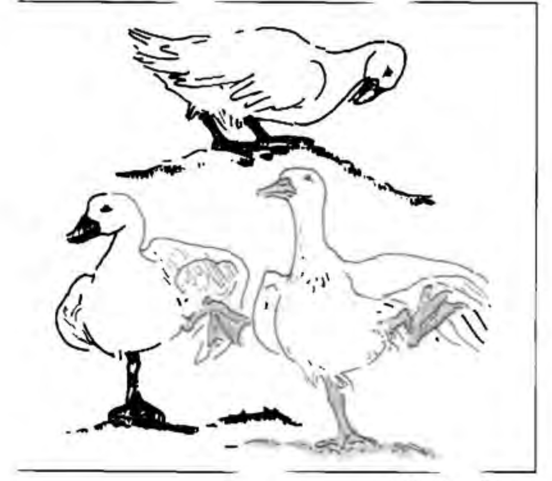
أ. مُطْلِقات السلوك



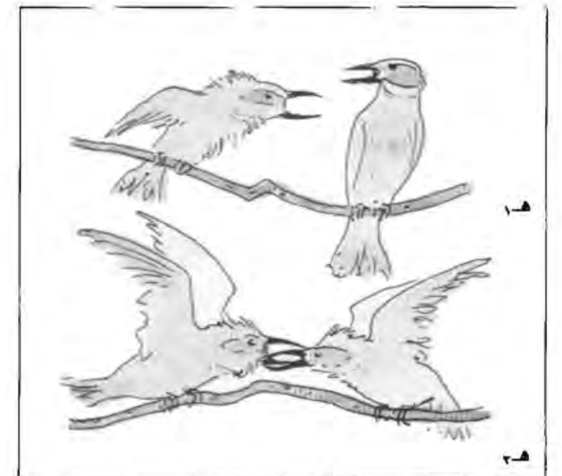
ب. حِدّة السلوك



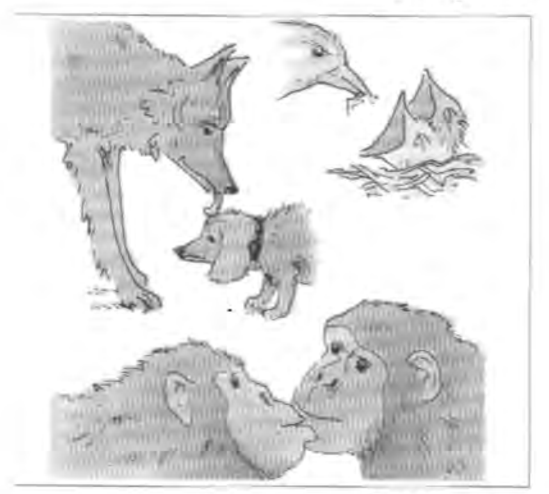
ج. معاني التغذية



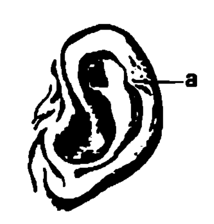
د. معاني العناية



هـ. معاني العراك



و. معاني الملامسة



صوّر **داروين**، في كتابه الثاني الضخم «ذرية الإنسان»، هذه الأذن التي رسمها النحات **وولنر** الذي لفت انتباهه إلى «النقطة البارزة a) التي نراها عند الكثيرين من الناس. وقد رأى فيها **داروين** «بقية رأس اذن كانت قديمًا منتصبة ومستدقة الرأس». ويسمى اليوم هذا الغضروف «عقدة **داروين**»

وتوجد «بقايا» مشابهة لمراحل سابقة من تطور الإنسان في نفسيته. فلكي نحزر معانيها، من وجهة نظر بيولوجيا السلوك أي «دلالاتها»، يمكننا اللجوء إلى علم الاجتماع البيولوجي (**إ.أ. ولسن**) وإلى هذا الجزء من علم السلوك الذي يهتم بمعاني السلوك.

أربعة أسئلة مهمّة تساعدنا على فهم سلوك الحيوان: ما الذي يثيره؟ كيف تتغير قوته؟ أي معنى بيولوجي له؟ وماذا عن أثره وارتداد أثره على سلوكه الخاص وعلى سلوك شريكه؟

أ. مُطْلِقات السلوك

تقتصر المثيرات المطلقة للسلوك الغريزي، في أكثر الأحيان، على ميزة محدّدة.

في اختبارات المغواة، تتودد سمكة أبو شوكة للمغواة «غير الطبيعية» وليس «للواقعية»: تمتلك المغواة العليا، غير الواقعية صفة الإطلاق «البطن الكبير» أكثر من تلك التي في الأسفل.

ب. حِدّة السلوك

إن البرامج السلوكية الوراثية هي ثابتة نسبيًا في أشكال تسلسلها، لكن درجات الحدّة، كما رأينا في تجارب المغواة، متنوّعة:

تتخذ أنثى الشرشور سلوكًا متدرجًا بالنسبة إلى الاستعراض الجنسي من الأضعف (في الأعلى) إلى الأقوى (في الأسفل)

ج. معاني التغذية

حدّد اكتشاف «نظام الهيمنة» (تراتبيات نقر الحبوب)، من قبل **ت. شيلدروب – إبّه**، بداية معرفة أدوار التغذية التراتبية كما لاحظها لدى أنواع كثيرة من الحيوانات.

وبينما تكون الحيوانات من المرتبة العليا تتناول طعامها، فعلى الحيوانات من مرتبة دنيا أن تنتظر دورها.

د. معاني العناية

إن اعتناء الحيوان بجسده لا يخضع فقط لغايات صحية.

إلى جانب عملية التبرّج (تنظيف الريش والوبر) تعتبر حركات التنظيف، كونها «سعيًا إلى الرفاهية» (**كورتلانت**) دليلًا على السعادة (مثل التحرك أو حك الجلد) و«تناذرَ تمطٍ» (**تمبروك**) من أجل التوازن الفيزيولوجي و«النشاط الاستعاضي» (**تنبرغن**، مثل حك الجسم لتفادي الصراع).

يشير مثل النشاط الاستعاضي إلى تنوّع دلالة نشاطات الاعتناء.

تنشأ نشاطات الاستعاضة، في مواقف التحريض القوي، من استحالة تحويل هذا التحريض بالوسائل العادية.

والسبب الأكثر تكرّرا هو الصراع بين نزعتين متناقضتين مثل الهجوم أو الهرب. ما يدفع الحيوان، بدلًا من هذا أو ذاك، إلى أن يقوم بحركات تنظيف (ما يعادل عند الإنسان حركة حك الرأس علامة الارتباك) يستعيض بها عن القرار الذي لم يتخذه بعد.

ووظائف العناية الجسدية مثال الراحة والهناء تحددها عبارة «حركة الرفاهية» (**بيرندز**).

هـ. معاني العراك

تسبق الرغبة القتالية أحيانًا إشارات إنذار، ما يُفهم جيّدًا بأنه وقاء من عدوانية متكررة.

تواجه «بوادرَ التهديد» (هـ١) غالبًا مواقفُ تخاذلٍ الغاية منها إظهار الدونية للحؤول دون هجوم محتمل.

يجري العراك الحقيقي (هـ٢) على طريقة طقسية (مرسومة).

يجب الأخذ في الحسبان المعارك اللُّعبية التي ليس وراءها «نوايا جدية»، وتطورها يخضع للطقوس أيضًا.

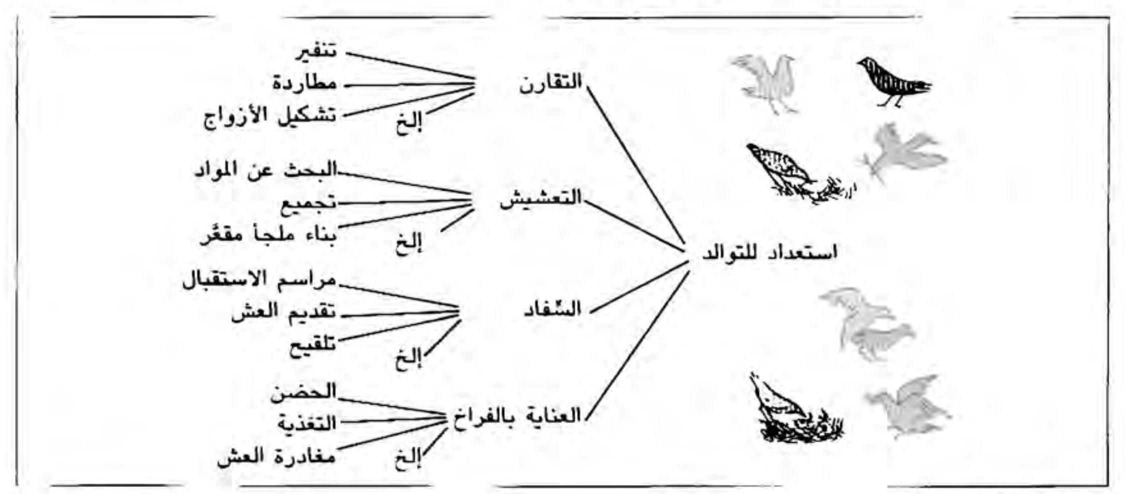
و. معاني الملامسة

تفسير الملامسة غني بشكل خاص عند الحيوان (كما عند الإنسان).

يبدأ ذلك بالزقزقة اللجوج عند فراخ الطير ويصل إلى تفلية حيوان آخر أو تنظيفه. ومعاني الملامسات هي أبعد من أن تكون موحّدة، إنها اعتباطية، كيفية، فحركة واحدة تتضمن معاني مختلفة تبعًا لسياقها.

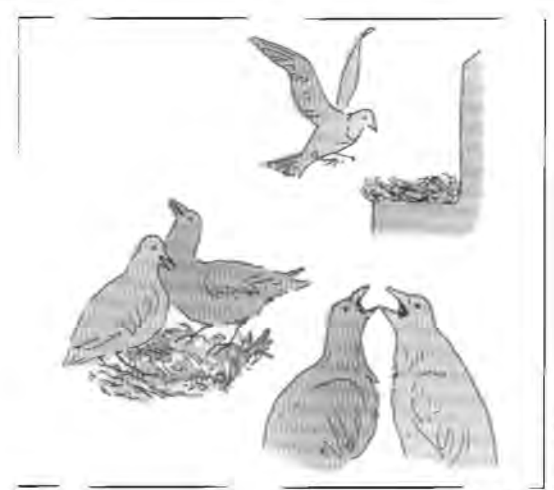
إن تقطيب الحواجب قد يعني الانتباه أو تحية صامتة ويمكن أن يكون أيضًا إشارة مغازلة أو سخرية أو مفاجأة أو تطفل أو مزاجًا سيئًا أو صَلَفا أو رفضًا أو دهشة أو تحذيرًا.

ليس هذا التنوُّع هو السبب الوحيد لصعوبة فهم الدلالات غير الكلامية. إنها غالبًا مكبوتة بهيمنة الدلالة الكلامية.

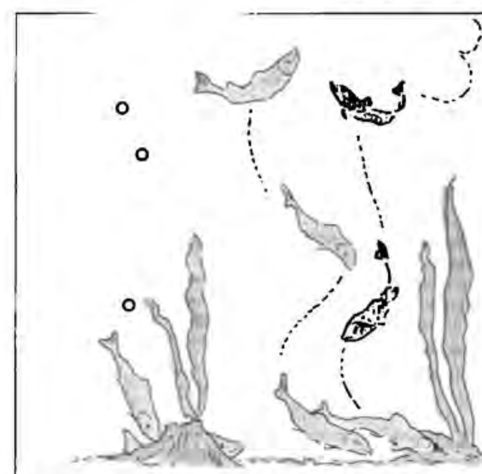


أ. مراحل التوالد

ب. استعراض التزاوج



ج. التعشيش



د. السِّفاد



هـ العناية بالذرية

إن الجنسية هي من الأهمية للتوالد ولحفظ النوع إلى درجة أنها محمية بنظام سلوكي معقّد تحدّده عوامل عديدة. يظهر هذا التعقيد المبالغ فيه في تبعية الفصول:

لا تدافع الطيور المغرّدة عن الأرض التي تتوالد فيها إلّا في الربيع، ويرتبط استعدادها للنزو والتعشيش وحضن البيض وزق الفراخ بمراحل مختلفة وجميعها على التوالي متميّزة بالنشاط.

أ. مراحل التوالد

يمكن تقسيم مراحل الاستعداد للتوالد، استنادًا إلى تصنيف **تنبرغن** (١٩٤٢)، إلى أربع مراحل:

الاستعراض التزاوجي، التعشيش، السفاد والاعتناء بالذرية.

جميع هذه المراحل وتفاصيل السلوك التابعة لها تشكل جزءًا من برنامج وراثي. تشير مدّة استعراض التزاوج عند بعض الأنواع إلى كم هو هذا التصميم قسريًا.

يدوم استعراض الزواج، عند ملتهم الذباب، قليلًا. من هنا السبب الذي من أجله تحدث تزاوجات مع عدّة أزواج في هذا النوع من الجواثم، وأن العناية بالذرية هي أقل تنسيقًا إلى درجة أن الفراخ تهمل غالبًا قبل تربيتها.

إنّ مدّة استعراض التزاوج تسهم، ظاهريًا، في استقرار الحالات الثلاث التالية من الاستعداد للتوالد.

ب. استعراض التزاوج

للاستعراض التزاوجي عدّة وظائف. يستخدم لطرد المنافسين وإزالة الخوف من الملامسات وللتنسيق المتبادل بين الشريكين وذلك لجعل السفاد ممكنًا أو بتعبير أدق الإخصاب.

عند الكثير من الطيور، تنظّف الذكور مكان الاستعراض وتحط على الغصن الأعلى وتنشد زغاريد الاستعراض (صورة ب١)، في حين أن ذكورًا أخرى تقف مباشرة أمام الشريكة التي وقع عليها الاختيار وتبسط ذنبها كالطاووس.

والاستعراض التزاوجي هو، من أوجه كثيرة، في خدمة تعيين الأنواع. الذكر هو الذي يغازل في أكثر الأنواع، وفي بعضها الأنثى وفي أخرى سلوك مزيج.

ولدى بعض القرود تعرض الأنثى أعضاءها التناسلية للذكر لإثارته (شكل ب٢)

تنطبق عبارة الاستعراض التزاوجي أكثر ما تنطبق على الطيور والأسماك أما بالنسبة إلى الثدييات فالأفضل أن يُقال النزو أو الوُدوق.

ج. التعشيش

يتضمّن الاستعراض التزاوجي، عند الكثير من الطيور والأسماك، عنصرًا من هذه المرحلة:

تعرض الأنثى، من أجل الإغراء، مكان العش، وبكلمة أدقّ حوضًا مجهّزًا، لكي تضع نفسها في «مزاج التعشيش» وتمتلك هذا العش.

لكن أكثر الأنواع لا تبدأ ببناء العش إلّا بعد عملية السفاد. يتعلّق نمط بناء العش بنوع الطير.

يشكّل العش الجاهز عملية التأقلم الكثيف مع مراسم الاستقبال والتملّك، مثلًا. (شكل ج).

د. السِّفاد

تختلف أنواع التزاوج باختلاف الأنواع. ويبرز التعقيد في الاستعراض التزاوجي وفي السفاد عند أسماك أبو شوكة حيث كلّ ردّ فعل يثير رد فعل آخر عند الشريك الآخر:

تُطلق الأنثى المُكرْشة عملية رقص متعرّج عند الذكر، ثم يرافقها حتى مدخل النفق الذي تتخذه عشًا لها. وبعد أن ينسل في العش، يحدث «نقرة خطم» ليطلق السرء ثم يخصبه.

تطلق أكثر عناصر هذه السلسلة، بواسطة مثيرات إشارية، وضع البيوض بمثيرات لمسية وإخصابها بمثيرات كيميائية، واحتمالًا أيضًا، لمسية.

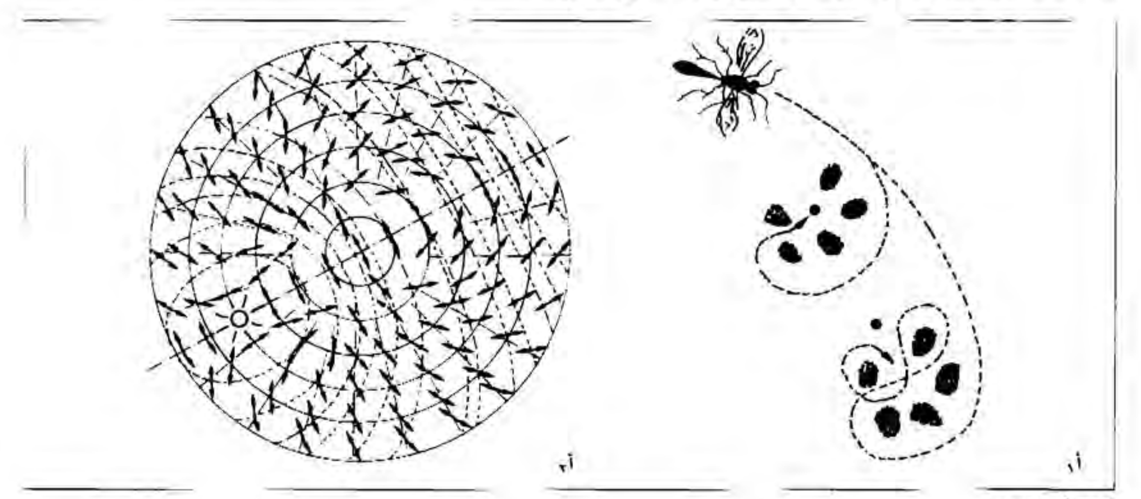
هـ. العناية بالذرية

يتضمّن السلوك الأبوي، بشكل عام، مراحل الحضن (مع بعض الاستراحات) والتغذية (أو مساعدة إضافية). وأثناء الحضن يجب الدفاع المستمر عن العش الذي تمّت السيطرة عليه. وهذا يتم بتهديد المتطفلين، يجب الإشارة إلى أهمية مراسم الأبدال أثناء الحضن. في ترتيبات الحضن تكون الأسبقية للذكر. بعد نقف البيض تبعد القشور لأنها تؤذي الفراخ التي تحتاج إلى عناية خاصة ومضمونة.

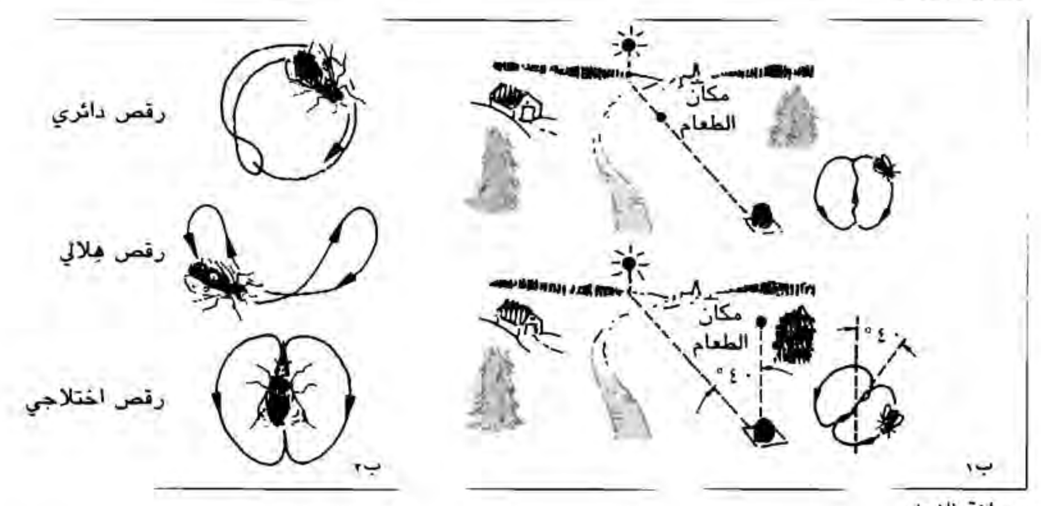
تقوم بعض الحيوانات بأعمال اعتناء كثيرة التعقيد. مثال ذلك، يحمل الحوت صغاره إلى سطح الماء لكي تتنفس.

لدى أنواع كثيرة من الحيوانات يمهد لتغذية الصغار أثناء الاستعراض التزاوجي على شكل «نقرات غزلية». يُدعّم سلوك التغذية الشعائرية بإشارات بصرية. تتيح دراسات **تنبرغن وبيردك** تميز عناصر المثيرات المفاتيح تبعًا لدلالاتها:

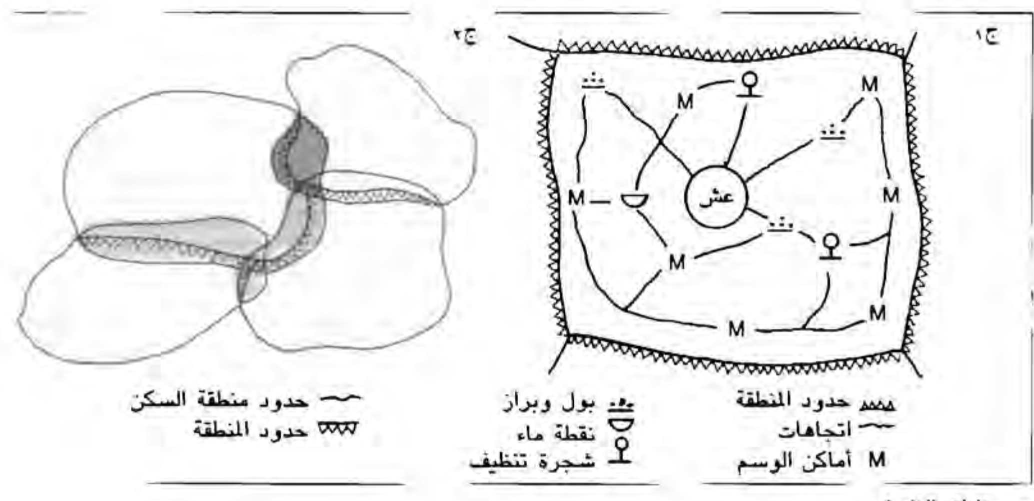
يشير طول الخطوط إلى مختلف آثار الإطلاق تبعًا لترداداتها. يمتلك النموذج الأعلى الصفات العادية. وتدل النماذج التالية على قيم مرتفعة نسبيًا فيما يخص اللون الأحمر ورقة المنقار قياسًا على صغر الرأس نسبيًا وعلى المنقار الأصفر اللون.



أ. توجُّه العش



ب. لغة النحل



ج. مناطق النفوذ

كان **كانط** يقول إن إعدادنا لصنفين أساسيين للمكان والزمان يحدث مسبقًا أي قبل أي اختبار محسوس.

إن القول بأنه في علم السلوك تشكل التوجّهات في المكان والزمان جزءًا من التناسقات الحركية الوراثية تنسجم حقيقته مع فكرة **كانط**، وهذه التوجّهات هي حيوية تمامًا ويستحيل التنكّر لها إذا أريد للحياة أن تستمر.

على سمك السلْمون أن يعود في الوقت المناسب (توجُّه في الزمان) إلى مَسْرَئِه (توجّه في المكان) قاطعًا مسافات طويلة. هذه القدرة هي نتيجة توليف فيزيولوجي يتضمّن الرائحة العائلية للمياه التي وُلِد فيها.

أ. توجُّه العش

(أ١) لكي يستطيع الزنبور العودة إلى عشه يحدّد موقعه في المكان برسمه عدّة دوائر حول المخرج قبل الانطلاق.

إذا وضعنا بضعة أكواز صنوبر عند مدخل العش وبدّلنا مواقعها بعد مغادرة الزنبور، فعبثًا يبحث، عند عودته، عن مدخل العش بين الأكواز.

(أ٢) إن التوجُّه المزدوج في المكان والزمان يتغير كثيرًا من حيوان إلى آخر. وفيما يخص تنسيق الاتجاه تمتلك الحيوانات بَنية عصبية تتيح لها تعديل زاوية الاتجاه وبخاصة بالنسبة إلى نقطة مرجعية ثابتة في الفضاء، مثل الشمس.

يتحدد موقع الجسم، عند الأسماك، بواسطة جاذبية الأرض وسقوط النور. إذا أرسلنا نورًا إلى جانب السمكة تقف منحرفة في زاوية محصورة بين النور ومحور الجاذبية (تبعًا لقوّة مصدر النور).

والحيوانات تستطيع أيضًا استخدام مصادر أخرى للتوجُّه، مثل مغنطيسية الأرض والنجوم والأصوات الفوقية، وأيضًا، اختبارات سابقة، مثل معالم أرضية ظاهرة من مخلفات هجرة السنة الماضية.

ويمكن أن تُحيِّد عواملُ خارجية كالتيارات البحرية التي تحرّكها الرياح. ويمكن أن تكون نماذجُ استقطاب في السماء (شكل أ٢) قائمة حول الشمس تبعًا لبعض القوانين وتنتقل معها في الوقت نفسه، يمكن أن تكون مرجعيات قابلة للاستغلال.

لا تزال طاقة التوجُّه غامضة

ب. لغة النحل

تمّت أهم الاكتشافات السلوكية، في وقت واحد من قبل **غوستاف كرامر** على الزرازير **وكارل فون فريش** على النحل. وشك الاختصاصيون، على مدى سنوات عديدة، بحل رموز لغة النحل من قبل **فون فريش** الذي يقول إن النحلة الرسول تنقل خمس معلومات لنحلات القفير:

نوع الزهرة التي وجدتها (بفضل رائحتها)، مردود هذا المصدر الغذائي (بحيوية رقصها وأزيزها)، الاتجاه (بالزاوية التي تشكلها مع الشمس باتخاذها مكانًا على الخط العمودي على امتداد شعاع الخلية (شكل ب١)، المسافة («بنوعية الرقص»: رقص دائري عندما يكون الهدف قريبًا وعلى شكل هلالي لمسافة متوسطة، ورقص مختلج، للمسافة البعيدة، شكل ب٢. يوفر توالي الرقص معلومات إضافية)، وأخيرًا توجّه الدعوة إلى اللواتي يرقصن وراءها للانطلاق نحو الهدف.

وأظهرت دراسات حديثة أن الطاقة التي تبذلها النحلة في سرعة طيرانها الخاص تستخدمها كقاعدة لقياس المسافات.

تُتيح لها هذه التقنية تفادي أخطاء ناتجة عن قياس الوقت وحده بسبب الريح المعاكسة أو في حالة الطيران صعودًا.

ج. مناطق النفوذ

أكثر الحيوانات تتخذ لنفسها مناطق ترتبط بها. ويمكن فهم ما تجنيه من فوائد بكل سهولة:

تعرفُ جميع الحيوانات بعضها بعضًا، في قطاع الاستيطان، وتتحرّك بكل بسهولة، تتعاون في السيطرة على مكان كمدى لتحركها وفي تكوين مجال يخفض من العدوانية طالما أن الأرض محترمة من قبل الجيران.

(ج١) كل نوع يعين حدوده على طريقته الخاصة (بول، إفرازات، حواجز...)، والأرض المحدّدة بهذه الطريقة تحوي العناصر التي ترتبط بها تصرفات خاصة (عش، شجرة للتبرج)؛ يتذكّر الشرشور حتى مئة مخبإ غذاء.

(ج٢) ليس من الضروري أن تكون حدود المنطقة واضحة.

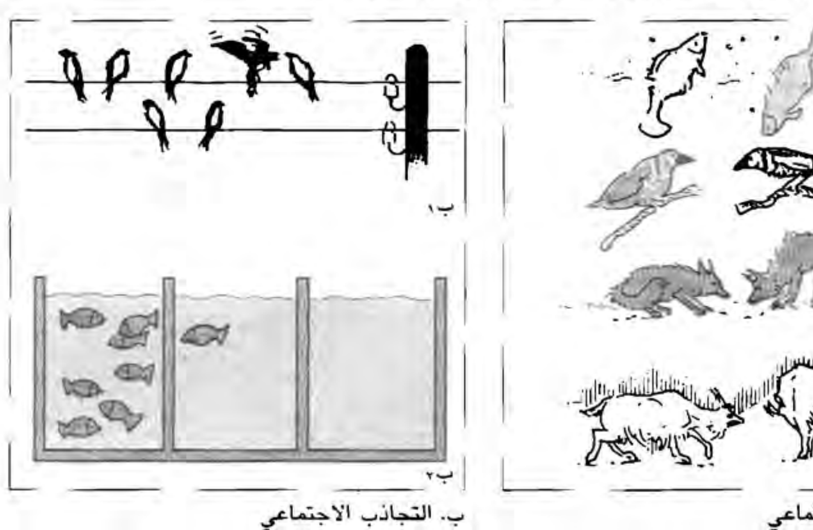
يمكن أن تتشابك حدود مناطق السكن دون أن تحدث تعدّيات تستحق الذكر.

إن أنواع المناطق التي تتقاطع جزئيًّا هي ذات امتداد متغيّر. تكون مناطق الغذاء أوسع من مناطق السكن بكثير عندما تكون الموارد الغذائية هزيلة.

بعض الثدييات، مثل المَرْنب والأسد أو الضبع المرقطة تدافع عن مناطقها جماعات جماعات. وهكذا تتكوّن مناطقُ قطعانٍ تسهم في تشكيل السلوك الاجتماعي لدى الحيوانات.

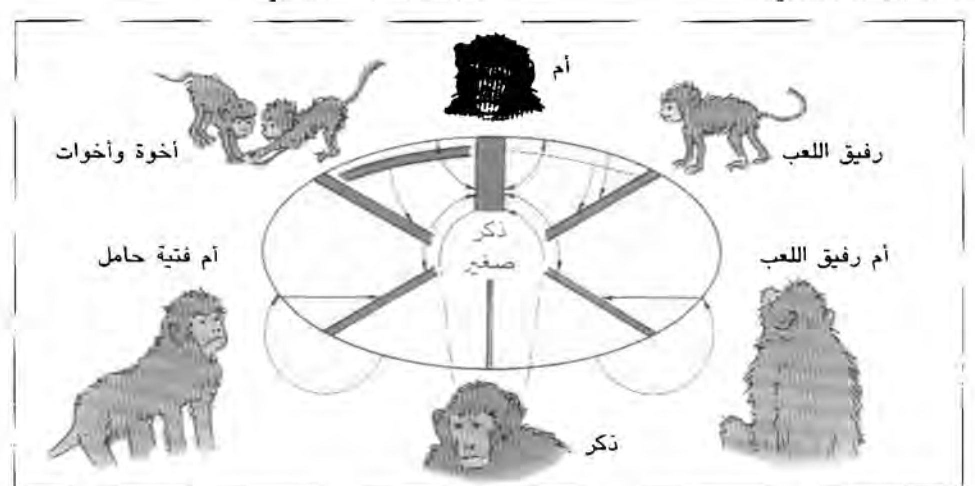
وإليك ما كتبه **ر.أ. ستامْ** (١٩٨٤) بخصوص أهمّية المنطقة لتطور النورس الضاحك:

«إن معارك الجوار، التي تنتهي دائمًا بتهديدات متبادلة وغالبًا متمادية، تقوم على وضع الرأس في التراب، تحقق (هذه المعارك) شيئًا لم يكن قائمًا في البداية: وحدها الأفراد المسلحة بالفعل للمعركة لأنها معدّة للحَضْن، يستطيع بعضها أن يبقى إلى جانب بعض. تؤدّي المعركة، إلى عملية اختيار والأفراد غير المهيئة كفاية تُبعد عن المكان المخصص للحضن».

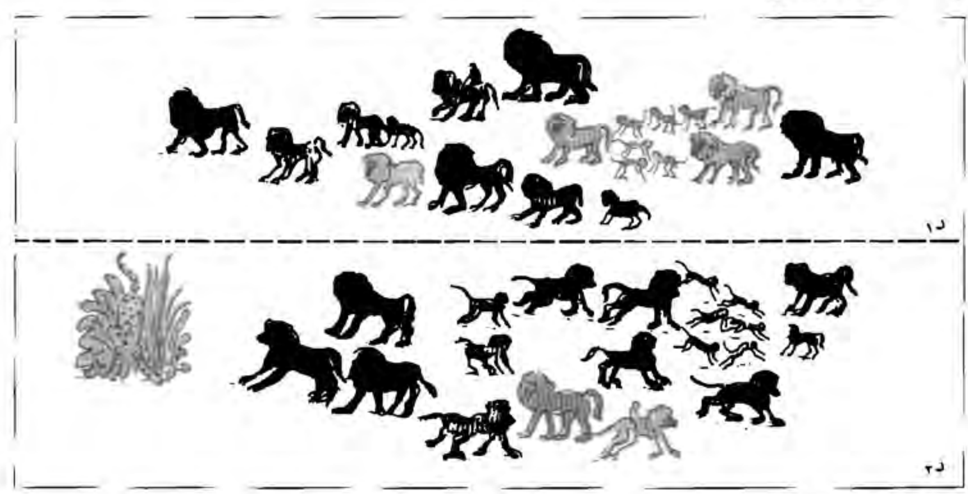


أ. التشوير الاجتماعي

ب. التجاذب الاجتماعي



ج. التناسق الاجتماعي



د. تكوين الجماعات

الحيوانات المتجانسة أكثر تعلّقًا بعضها ببعض من تلك التي من جنس آخر. لكن تكوين مجموعة ما هو كثير التنوُّع تبعًا للأنواع.

حتى الطيور المتوحّدة الصامدة مثل الكوكو هي بحاجة إلى جماعة جنسية طوال مرحلة التوالد.

إن النشاطات الاجتماعية عند الحيوانات هي، بشكل عام، محدودة جدًّا وعند الحيوانات العليا فقط يؤدّي تعقيد الحياة الاجتماعية إلى احتمالٍ ما لتحويل العلاقات إلى إشارات علائقية مميّزة.

أ. التشوير الاجتماعي

داروين هو الذي صاغ مبدأ «النقيضة» الاجتماعية.

ينصّ هذا المبدأ على أن السلوك الاجتماعي يفترض وظائف مختلفة تؤدّي بالتالي إلى صِيغ تعبير ولقاء متعارضة، منها عندما لا تكون «مستعملة» فعليًّا. فليس لها في هذه الحال فائدة مالية ولكنّها تتضمّن قيمة تعبيرية عظيمة.

تسم هذه الخصائص، بشكل خاص، المواقع العليا والدنيا في نظام المنازل التراتبي.

يمثل في الصف الأيسر أفراد مهيمنة وفي الأيمن أفراد مغلوبة على أمرها (أبو شوكة، شرشور مخطط، ثعلب وماعز الثلوج).

إلى جانب هذه الإشارات لوضع الجسم، إشارات أخرى مكوّنة من حركة الابتعاد وحركة الصراع الطقوسي... التي تستخدم لتثبيت الأوضاع التراتبية وتأكيدها.

ب. التجاذب الاجتماعي

إن فوائد تكوين جماعة لاستمرارية الحياة لا تعني فقط التزاوج والتربية ولكن أيضًا تقليص الأخطار (صراع ضد الأعداء) والتغذية (اكتشاف الغذاء والإخبار عنه) والتدريب الاجتماعي (نقل الخبرة المكتسبة) وفوائد أخرى خاصّة مثل تنظيم الحرارة في الخلايا.

والانتساب (التقارب الاجتماعي، فصل ٤/١١) يقابل التباعد الاجتماعي.

والتقارب بارز بشكل خاص عند السنونو في الخريف عندما تتجمّع لترحل (شكل ب١). وعندما لا يُحترم مدًى فردي محدد تنشأ صراعات قصيرة حتى استرجاع المدى العادي.

وفيما يخص التجاذب الاجتماعي (الانتماء) تشكل الأسماك التي تعيش أسرابًا حقلًا رائعًا للمراقبة:

فالسمكة المعزولة في القسم الأوسط من حوْض الماء ب٢ تقيم، أكثر الأحيان، في القسم الأيسر من صندوقها، في الجهة التي يوجد فيها السرب.

ج. التناسق الاجتماعي

في الجماعة يتم تنظيم السلوك، أبسط الجماعات هي تجمُّعٌ مغفَلٌ يضم حيوانات لا يعرف بعضها بعضًا التقت طوعًا. توجد في الأعلى، تجمُّعات مفرَّدة، أكثر تكرارًا، يعرف فيها الأفراد بعضها بعضًا (جماعات متواجهة). وأخيرًا توجد دول حيوانية حقيقية تقوي، أكثر الأوقات، البنية العائلية (مثل ملكة النحل).

تعيد العائلة الكبيرة البنية الأساسية للتناسق الاجتماعي. تحدد الفلسفة الاجتماعية (فصل ١٥) ٤ خصائص أساسية للتناسق الاجتماعي:

منزلة تراتبية، أدوار، ملامسات وقواعد.

تميّز الملامسات (بالنسبة إلى الخصائص الأخرى أنظر فقرة د) من وجهة نظر كمية ونوعية. لوصف كمية الملامسات نستخدم نموذج فئة ريزوس (ر.أ. **هِنْده**):

تشير كثافة الخطوط إلى الأهمية النسبية لعلاقات قرد صغير في ستة اتجاهات: والمدهش قلّة الاحتكاكات بالذكر. ويكون الأمر مختلفًا لو كان صغير القرد أنثى. وفي الأوضاع الصعبة يهتم الآباء بالبنات أكثر من اهتمامهم بالأبناء.

إن هذا النظام الأساسي في العلاقات تعدله العلاقات الخارجية بشكل ملحوظ. ونرى ذلك بوضوح مع تدخُّل أمهات رفاق اللعب. وعلى عكس ذلك قد يكون لصداقة فتى لفتًى، أمُّه من طبقة عليا، أثر طيب على الوضع الرُّتبي لأمه إذا كانت من مرتبة دنيا. يشير هذا المثل إلى تعقيد التناسق الاجتماعي.

د. تكوين الجماعات

للمنازل والأدوار والقواعد، خارج الملامسات، أهمّية عظيمة لحياة الحيوان الاجتماعية، الأدوار تحددها المنازل مسبقًا، ويمكن أن يكون لها أيضًا دلالة مستقلّة عن المنزلة.

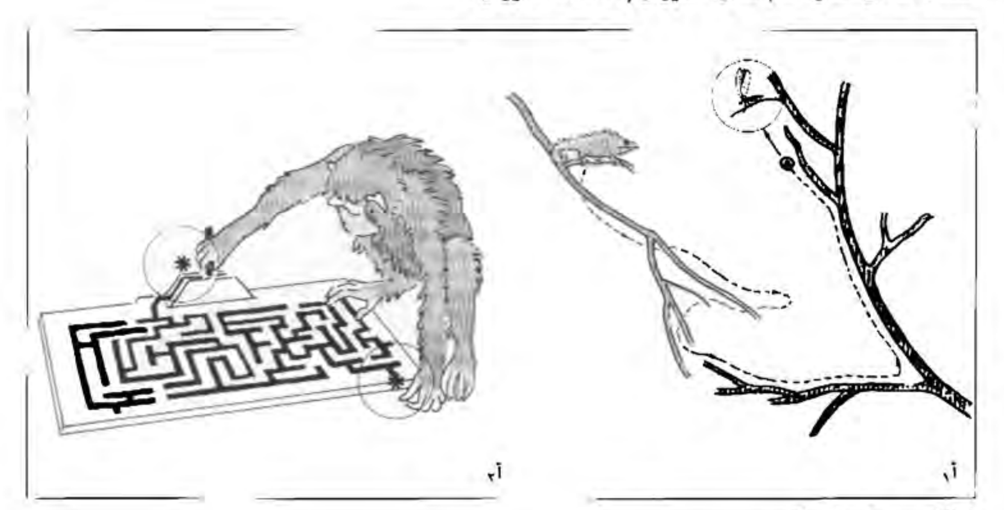
وعلى سبيل المثال، تقوم بدور الأمومة مداورة جميع الإناث في جماعة القراديح.

والطريقة التي تتدخّل بها القواعد السلُوكية في نظام المنازل والأدوار تتمثل بطريقة الملاحظة التالية للباحث **إ. دوفور** (١٩٦٦).

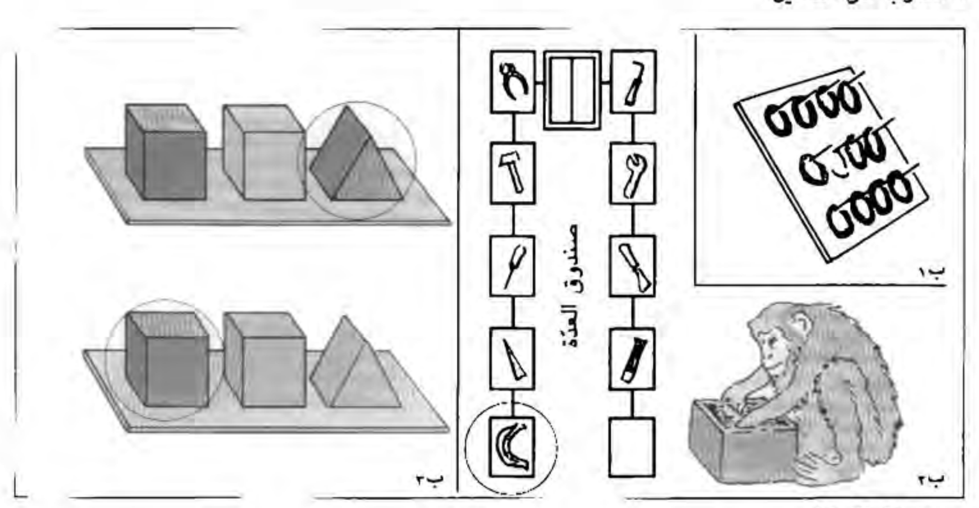
تتأمّن السلامة عند تشكيل المسيرة العادية (شكل د١) من الأمام ومن الوراء بواسطة ذكور (باللون الأزرق) من منزلة دنيا في حين أن الذكور من المنزلة العليا باللون الأحمر) تسير في الوسط مع الإناث والصغار.

ولكن حالما يبرز خطر ما، فهد، مثلا (شكل د٢)، يسرع الذكور من المنزلة العليا (باللون الأحمر) إلى المقدمة في حين يظل ذكور المنزلة الدنيا (باللون الأزرق) في المؤخَّرة.

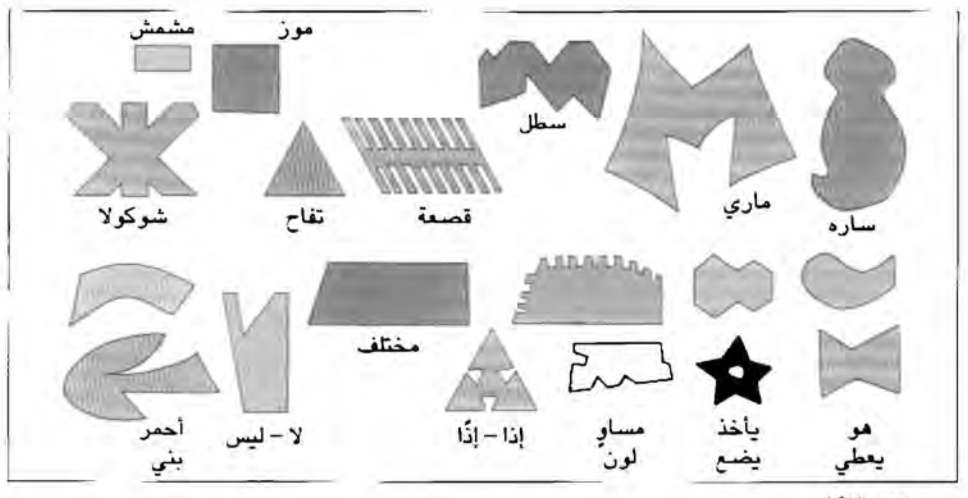
وهكذا تتوزع الامتيازات بين أعضاء جماعة ما (في تسلسل التهام الطعام) كما تتوزّع الالتزامات (احتكاك متكرّر بالعدو، مثلًا).



أ. التدرب على التحايل



ب. نشاط الانتقاء



ج. حدود الذكاء

كل من يقتني كلبًا يصبح مؤهلًا للتعرف إلى «وعي» رفيقه. يسمع الكلب اسمه، يتذكر العظمة الذي طمرها في التراب ويحلم وهو نائم.

يفسر الخطأ الذي يترتب على هذه المسلّمة بنقص في التعريف بالوعي. يقوم الخطأ على اعتبار مفاهيم مثل مفهومي الوعي أو الذكاء كأنها مفاهيم «كل شيء أو لا شيء» أي ظاهرات متناسقة.

والأسس النفسية التي تستند إليها هي نتيجة تنظيم هو من التعقيد بحيث لا نعرف منه بعد سوى مبادئه الأولية. إن **الذكاء الحيواني هو** بالنتيجة، كثير الاختلاف عن الذكاء الإنساني (لأن نظامه يختلف) وتصعب مقارنتهما. ويمكن التأكد عمليًا من أنه لا يستطيع أي حيوان أن يتفكر في نفسه:

«يعرف الحيوان مقدار قامته ولكنّه لا يعرف أنه يعرف». **(ر. أوزر)**

أ. التدرّب على التحايل

أ١) وصف باحثون عديدون، (خاصة **ڤ. فيشل، ب. رِنْش**)، «بالأداء الدماغي الراقي»، هذه الحيلة التي تتخذها الحرباءة القزمة لكي تصل إلى فريستها. بيد أنه يجب التمييز بين هذا العمل الغرائزي والأداءات المكتسبة التي يدعوها **ڤ. كولر** «تغير البنية الإدراكية» في إطار تجاربه على الشنبنزي.

(أ٢) توصل **رِنْش ودُوْل** (١٩٦٨) إلى تدريب أنثى الشنبنزي على جر حلقة حديد بواسطة المغنطيس وبدون خطأ من طرف إلى آخر في متاهة معقّدة كانت تعدّل عند كل تجربة.

كانت قبل كل اختبار تنظر إلى المتاهة بإمعان، «تفكر» بالطريق وتجتازها دون أن تخطئ.

والحقّ أنه في هذه الحال يقوم «التفكير» على التجهّز بانطباع شامل يوفر القدرة على حل المسألة لاشعوريًا.

وفي حالة مشابهة، من الصعب أن نقول إن طائرًا، وضعت في عشه بيضة اضافية، «قد عدّ» بيوضه إذا توقّف عن الحضن، لأن الأمر يتعلق بالصورة الإجمالية التي كوّنها عن الحضنة، ما أدى إلى خَطَر غريزة الحضن.

ب. نشاط الانتقاء

(ب١) بدّل **كاپونه**، في اختباراته، مواقع ١٢ حلقة مختلفة الألوان بوضعها كل مرّة، في نسق مختلف. وذلك مقابل كميات محدّدة من الطعام لكل لون.

وبالرغم من هذه التغيرات نجح البندر (قرد) في ١٠٠٪ من الحالات تقريبًا بإيجاد الحلقات الثلاث التي توفّر له الكميات الفضلى من الطعام.

دُعِيَ هذا السلوك «المفهوم ما قبل الكلامي للقيمة»، وقد عزّز هذا الشططُ الحكمَ المسبَق بأن تلك هي المرحلة الأولى من سلوك أخلاقي.

(ب٢) وخلافًا لذلك فإن التجربة التالية (**دُوْل) هي حقًا** الشكل الأول من السلوك المعرفي.

على أنثى الشنبنزي أن تختار، كل مرّة، من صندوق العينات، الأداة الضرورية التي توصلها، بتسلسل الخيارات، إلى صندوق الموز (وليس إلى الصندوق الفارغ).

يفترض أداءٌ مشابه معرفةً معقّدة للترتيب المفروض من قبل الاختبار للحصول على نسبة مرتفعة من النجاح.

(ب٣) يتطلّب هذا الاختبار **لهارلو** حيوية انتقاء حقيقية.

في مجموعة متناوبة من الأشكال والألوان على الحيوان أن يجد، كل مرّة، الصفة المغايرة: على القاعدة الصفراء شيء مغاير الشكل (إلى اليمين) وعلى القاعدة الزرقاء الشيء المغاير اللون (إلى اليسار).

وقد وصلت هذه الاختبارات إلى مراحل متقدمة.

ج. حدود الذكاء

ركّز **هـ. هَديغِر** (١٩٨٤)، في أبحاثه، على مسألة معرفة ما إذا كان للحيوانات «وعي». فاستطاع أن يبرهن أن بعض عناصر الوعي الإنساني موجودة أيضًا عند الحيوانات العليا:

وعي الجسم (معرفة القامة، طبيعة الأعضاء والوظائف).
وعي اجتماعي (معرفة الموقع والوظيفة الاجتماعية)
وعي المكان (الموقع والمنطقة)

صورة الذات (معرفة صورة الذات والصورة في المرآة والظل وأشباهه في بني جنسه).

يمكن التساؤل أيضًا عما إذا كان هذا الذكاء يكفي لملء الوعي بالمحتويات. وتظل ملكة التفكير في معنى وجوده الخاص وفي الهدف منه استثناءً حتى عند الإنسان، وقد شغلت درجة «ذكاء» الحيوانات، كثيرًا، علم السلوك منذ اختبارات **و. كولر** على القرود. واستنتج أن لدى الثدييات طاقة على القيام ببعض الاداءات التجريدية ما قبل الكلامية.

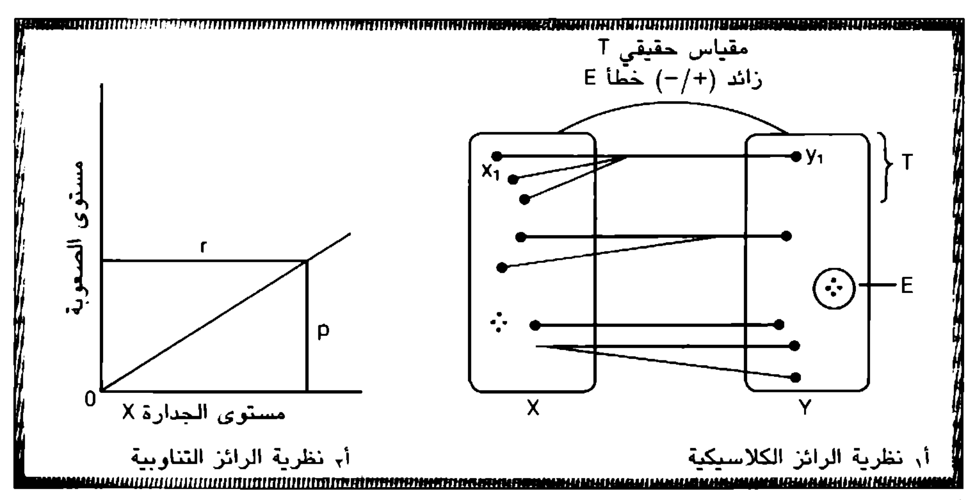
أجرى **ج. دوكر** اختبارات على سنانير الزباد لتمييز نماذج أتاحت استنتاج تمييز تجريدي «مساوٍ–غير مساوٍ».

توصّلت السيدة **غاردنر** في مدى ٢٢ شهرًا إلى أن تعلم ربيبتها أنثى الشنبنزي واشو ٣٠ رمزًا من لغة الصم البكم.

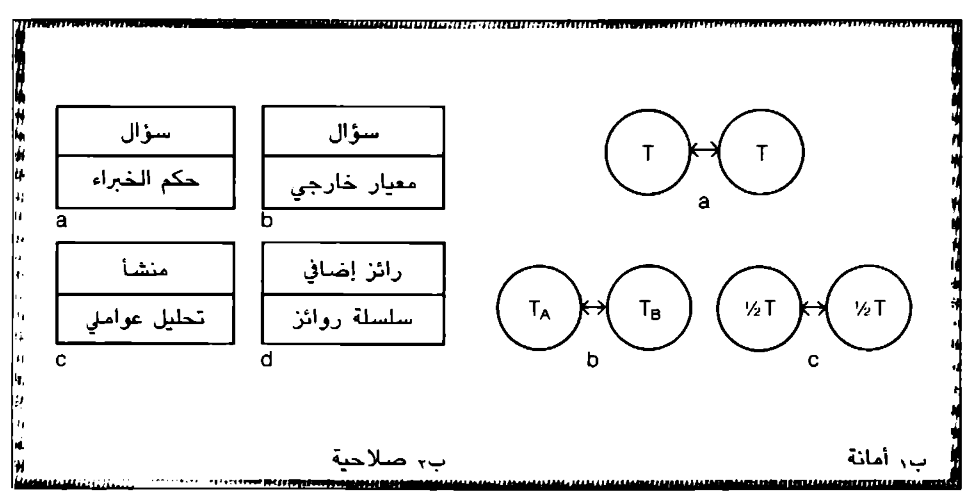
واستطاعت انثى أخرى، تدعى ساره، أن تستخدم ١٣٠ رمزًا – كلمة (عينة شكل ج)

إن مستوى التجريد العالي لهذه الرموز مثير للدهشة لانها لا تشبه لا بالشكل ولا باللون مدلولاتها المقصودة (باستثناء الرمز «سارة»، ربما فوق إلى اليمين، تعالج «تعسفية الرمز»).

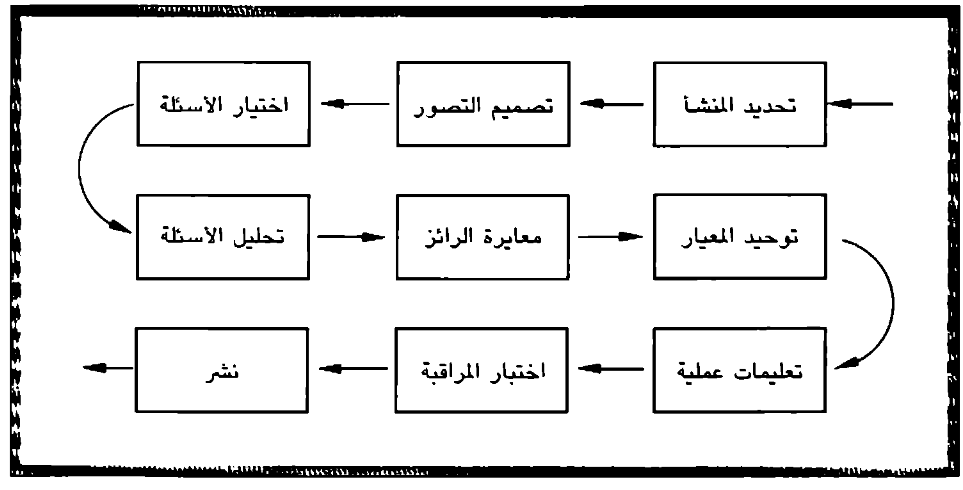
توقف، عند ساره، الاهتمام بهذا النوع من التحادث مع الناس عندما بلغت سن المراهقة.



أ. بدهية الروائز



ب. تدقيق مواصفات الرائز



ج. بناء الروائز

إن تقييم الشخص لمعرفته بالناس لا تنسجم مع قدرته الحقيقية على اكتشاف بنية شخصية الآخر إلّا لدى القليلين جدًّا من الناس. فأكثر الأحيان يُغالي الإنسان في تقييم مواهبه الخاصة في هذا المجال.

إن الرغبة في توسيع معرفة الإنسان وتعميقها أوحت بالأبحاث الأولى في الروائز. كان الروّاد الأساسيون في **التشخيص النفسي غالتون، وكريپلين وإبنغهاوس وماكّين كاتِل وبينيه.**

وجرت محاولة، مع إدخال الإحصاء، (فصل ٤)، لوضع أسس أدق للتشّخيص بواسطة الروائز. تطرح نظرية الروائز، التي من مهماتها الدعم العلمي لهذه الروائز، ثلاثة أسئلة:

على أية مسلّمات نظريّة تأسس استخدام الروائز؟

كيف التأكّد من صحّة التأويل بفضل التدقيق في صفات الرائز؟ أية اجراءات ضرورية تتخذ من التصميم حتى النتيجة المعلنة؟

أ. بدهية الرائز

(أ١) نَنطلق، فيما يسمّى بنظرية الروائز «الكلاسيلية»، من نموذج حتمي، استنادًا إليه تعتمد النتائج $y_1 \ldots y_n$ على معطيات $x_1 \ldots x_n$، ولكن نسلّم أيضًا بأن أخطاء القياس (E) يمكن أن تلعب دورًا. فينتج عن ذلك الإشراك النظري التالي:

إن القيم الملحوظة Y لا تقيس T (رائز) في كل حالة خاصة ولكن في معدَّل وسطي (أي في قيم «حقيقية» لا يمكن ملاحظتها) إذا سلمنا، في الوقت نفسه، بخطإٍ E أي $Y = T + E$.

(أ٢) يوجد، لإزالة نقاط الضعف من نظرية الرائز «الكلاسيكية» (الرائز المجرّد من كل تأكيد تجريبي)، يوجد سلسلة من النظريات «التناوبية» (خاصة نظريات القياس المركّزة على المعيار). مجموعة هامّة ممثّلة بنماذج **راش (ج. راش** ١٩٠١-١٩٨٠) المتجه أهمّها اتجاهًا عرضيًّا.

تبعًا لهذه النظرية تحتوي كل مهمة من الرائز على مستوى من الصعوبة D ولدى كل شخص مفحوص مستوى من الجدارة X. D وX هما الكميتان اللتان يجب أن تحققا شروط التدرج المطلق للدليلين p وr.

من هنا، تحدِّد النظرية لبناء الروائز متطلبات صعبة التحقيق على مستوى التدريج (فصل ٣/٣)

ب. تدقيق مواصفات الرائز

يوجد سلسلة من المعايير للصّفة التي تعني الروائز (الموضوعية، الاقتصاد، قابلية التحقيق،...). من بينها اثنان أساسيان:

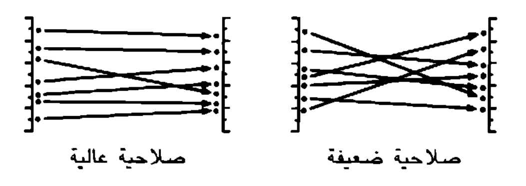
(ب١) يمكن القول إن رائزًا ما يتمتع بدرجة عالية من الأمانة (دقة، إجرائية، ثبات) عندما يقيس بدقة ما يقيسه مهما كان ما يقيس. عندما نجري تحقيقًا، نقيس مُعامِل الأمانة r_{tt} بنسبة التباين الحقيقي إلى التباين الإجمالي (راجع تحليل التباين فصل ٥/٤).

(أ) في تقنية الرائز - إعادة الرائز، يُكرّر الرائز ويقاس ثبات النتائج

(ب) في تقنية الروائز المتوازية، يوجد شكلان متوازيان A وB نقيس درجة تطابقهما (التكافؤ)

(ج) في تقنية توزيع الروائز، يقطع الرائز نصفين وتقارن، بواسطة حساب الترابط، نتائج القسم الأول بنتائج القسم الثاني (التجانس).

(ب٢) يمكن القول إن رائزًا يتمتع بدرجة عالية من الصلاحية (توافق، صلاحية، تعبيرية) عندما يختبر حقيقة ما يُفْترض أن يختبره، ولا شيء آخر. تكون الصلاحية مرتفعة إذا وجد توافق بين القيمة التي سجّلها الرائز (العلاقة) والقيمة المرجعية (المعيار).



(أ) يتم الحصول على تصديق المحتوى بمقارنة أحكام الخبراء بأسئلة الرائز (أي معطيات كلامية وغير كلامية)

(ب) ينتج التصديق بواسطة المعيار الخارجي من التوافق مع المعايير الخارجية (مثل العلامات المدرسية)

(ج) يستخدم تصديق المنشأ التحليل العاملي (فصل ٧/٤) لمقارنة المنشأ المقصود (الذكاء لروائز الذكاء) بسلسلة من الروائز.

(د) وبالنسبة إلى التصديق بالنمو أو التصديق الإضافي نقيس مقدار ارتفاع صلاحية رَكْمَةِ الروائز بفضل الرائز الإضافي.

ج. بناء الروائز

إن صناعة روائز جديدة عملية باهظة الثمن وشاقة، ثمة مجال لتمييز تسع مراحل أساسية في هذه العملية:

تحديد المنشأ (معرفة دقيقة للمجال النفسي المقصود)

تصميم التصور (أية وسيلة تستخدم)

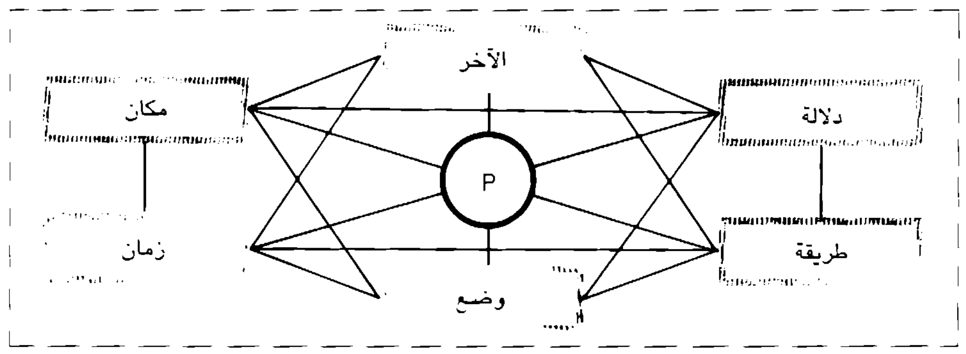
اختيار الأسئلة (أية تجارب، مثلًا)

تحليل الأسئلة (التأكد من نوعية الرائز)

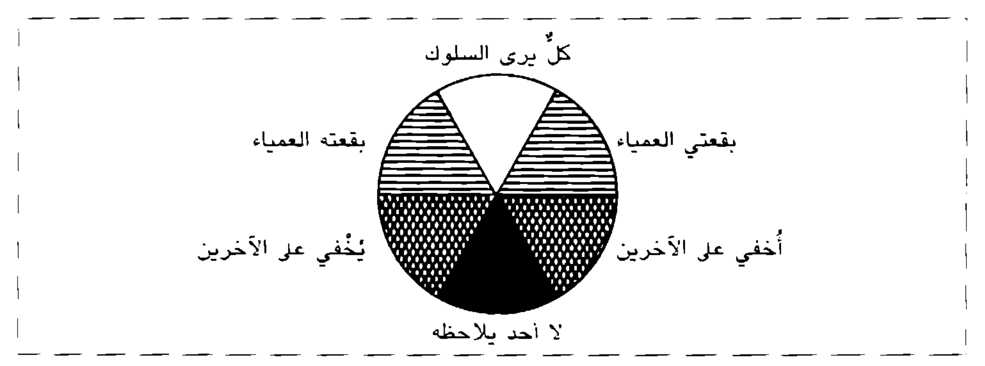
معايرة الرائز (تحديد الحساسية أو الدقة التمييزية).

توحيد المعيار (وضع قيم مقارنة لجميع الأشخاص المفحوصين) تعليمات عملية (لمساعدة مُطبِّق الروائز).

اختبار المراقبة (مراجعة احتمالية للرائز) والنشر (مصحوبًا خاصة بدفاتر الروائز ومفاتيح التقييم).



أ. بنية السلوك



ب. متغيرات السلوك

متغير الوضع	معرفة وضع الملاحظة	معرفة موضوع الملاحظة	معرفة هدف الملاحظة	معرفة مؤشرات الملاحظة
وضع الملاحظ				
وضع مفتوح				
وضع كثيف				
وضع شبه حيوي				
وضع حيوي تماما				

ج. بنية الملاحظة

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦

مجال المهمات **مجال اجتماعي عاطفي**

١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧

د. تقييم مقنَّن

لا يبدو أن مراقبة سلوك الآخر تمثل صعوبة كبيرة. لكن الواقع هو أن «سذاجة» نظريتنا العفوية عن السلوك تحول دون مراقبة صحيحة.

من سيارة «باهظة الثمن» نستنتج سريعًا أن الآخر يعيش فوق مستوى طاقاته. نعتبر الآخر صَلِفًا لمجرّد مروره أمامنا شامخ الرأس.

نصدر، في الحياة اليومية، أحكامًا قبل أن نراقب بدقة السلوك آخذين في الاعتبار جميع المعلومات الممكنة.

يتخذ **تحليل السلوك** الخيار المعاكس بالتمام. «أحكامه» هي، بالأحرى، توليفات من جميع العناصر السلوكية التي يمكن الحصول عليها. ولهذا فهو يبدو لأوّل وهلة وكأنه تصنيف للسلوك.

أ. بنية السلوك

إن سلوكنا على اتصال وثيق بالبيئة أي أن أعمالنا، إنجازاتنا، أداءاتنا، تعابيرنا، ردود فعلنا... هي ملازمة لتضافر العوامل الخارجية، ولكن دائمًا تبعًا للطرق المختلفة لكل فرد. عندما نريد أن نقول شيئًا ملائمًا لسلوك الآخر يجب أن نحسب حسابًا لمجمل هذه الارتباطات. نراعي في ذلك ستة مجالات من العناصر الأساسية.

العنصر «الآخر» يسجله، مثلًا «البيان الاجتماعي الطباعي» **(ڤارتيغ)**.

يجب أن يذكر الشخص المرُوز (المفحوص)، جميع الأسماء التي ترد على ذهنه عفويًا. يتيح النسق الذي تذكّر به والأسماء المحذوفة، أيضًا، استنتاج بعض الخلاصات.

ويمكن، أيضًا، تحليل بنية العنصر المكاني، إذا ذكرت أماكن السكن بشكل عفوي.

والعنصر الزماني هو أساسي أيضًا «كوعي الزمن» و«كمرجعية الزمن» أي:

أي اهتمام يُعطى للماضي والحاضر والمستقبل إذا كان السلوك سابقًا لأوانه تكرارًا أو إذا كان يحيا حاضره بالنسبة إلى فئة العمر.

الوضع هو عامل كثير التعقيد. يضع البعض أنفسهم أكثر من غيرهم في أوضاع خطرة.

يجب أن تقيَّم الأسباب بالترابط مع العناصر الأخرى.

كثيرًا ما يساء تقدير الطريقة (الكيفية).

لكلٍّ انطباعاتُه عن «إمكاناته»

هذه الطرق هي توقّعات (ما يمكن بلوغه) كما هي تقييمات (لما يعتبر في حدود الطاقات).

لا يمكن أن يمثل عنصر الطريقة هذه إلّا في علاقته بعناصر أخرى.

العنصر المتعلّق بالدلالة هو الأغنى. يوجد أسئلة لا عديد لها «تطرح ضمنيًا قلّما نعيها ومع ذلك نجيب عنها دون أن ندرك ذلك.

إن اختيار وسيلة النقل، مثلًا، هو أيضًا جواب عن تساؤل عن معرفة ما إذا كنا نعتبر الوسيلة التي اخترناها «موافقة» لنا (الحافلة الكهربائية، مثلًا).

ب. متغيرات السلوك

هناك طرق مختلفة لتفريع السلوك: نميز، مثلًا، السلوك النفسي الفيزيولوجي من السلوك النفسي البحت، السلوك الذي يدوم طويلًا من السلوك العابر...

إحدى زوايا الوصف الأكثر أهمية تخص إمكانية الرؤية. يمكن أن نقول، بشكل عام، إن السلوك يكون مرئيًا كما يكون خفيًا:

كل إنسان يراه، عند كل إنسان بقع عمياء فيما يخص نفسه. يخبئ منه جزءًا، وكثير من الأشياء تمر خفية.

ج. بنية الملاحظة

وكما هي الحال بالنسبة إلى علاقة الشك (أو التردد) **(هايزنبرغ)** في مجال الفيزياء المجهرية فإن السلوك يتأثر هو أيضًا بالملاحظة النفسانية

يوزّع جدول **ب. شپيغل** (شكل ج)، بشكل واضح، الترابط المتبادل لمتغيرات وضع الملاحظة.

يقصد الكاتب بالوضع الحيوي الوضع الحقيقي للحياة وبشبه الحيوي وضعًا فيه البعد المتلقّى من التجربة وحده معروف من قبل الفرد المفحوص.

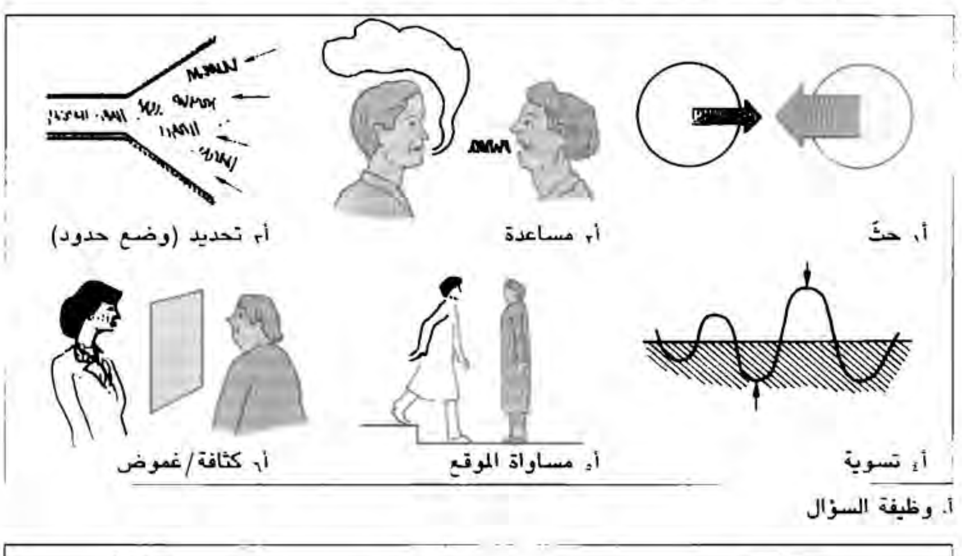
د. تقييم مقنّن

إن إحدى أكبر المشاكل في كل تحليل للسلوك هو الطبع «المفتوح» على التقييم. ففي سلوك ما، يجد العالم النفساني ذو النشأة الأخلاقية، في نفسه، ميلا إلى اكتشاف بقايا سلوك حيواني أكثر مما يفعله عالم نفساني متخصص بعلم النفس الفردي - وبما أنه يوجد اختصاصات عديدة في علم النفس يجب تحاشي استخدام تقييمات مُغالية في تقيّدها بهذه المدرسة أو تلك.

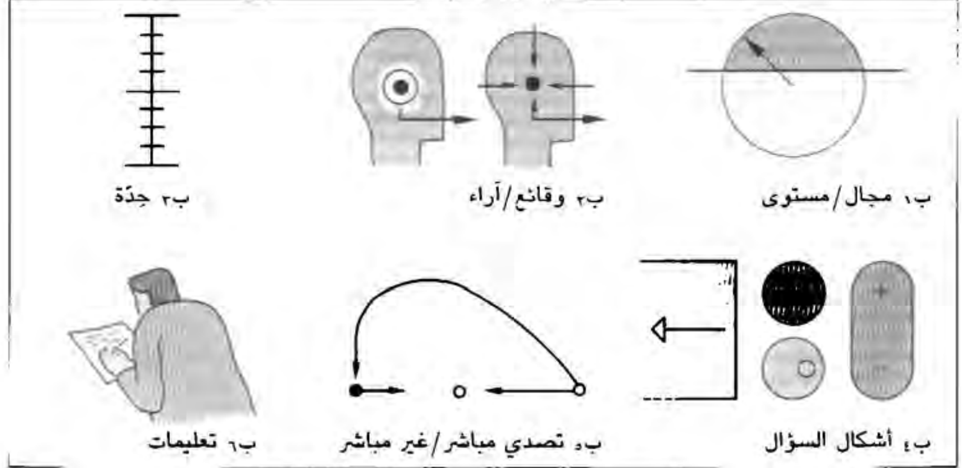
أعدّ **ر.ف. بالِس** نظامًا تصنيفيًا من اثني عشر نوعًا من الملاحظات الإيجابية والسلبية التي يفترض أنها تصف السلوك وصفًا شموليًا:

١. يبدي تعاونًا
٢. يخلق جوًا مُريحًا
٣. يعطي موافقته
٤. يقدم اقتراحات
٥. يعبر عن آراء
٦. يوجه الآخرين
٧. يطلب أن يوجَّه
٨. يتوق إلى آراء
٩. يلتمس اقتراحات
١٠. ليس موافقًا
١١. يبدي تشدّدًا
١٢. يظهر معاندة

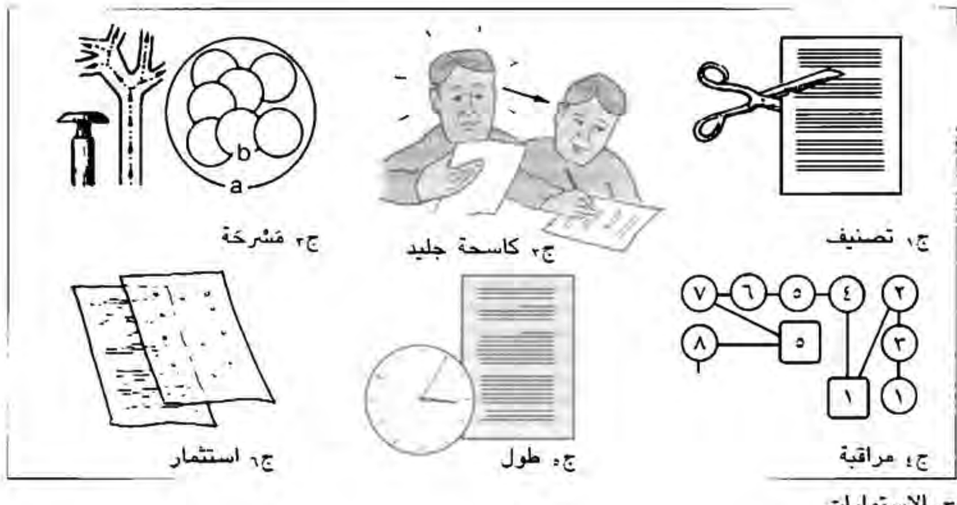
يتم تنوع السلوك، هنا، بالنسبة إلى المجال الاجتماعي، العاطفي وبالنسبة إلى المهمات التنفيذية. يشير هذا المثل من توحيد النمط إلى أنه من الممكن تحسين تحليل السلوك.



أ. وظيفة السؤال



ب. إعداد الأسئلة



ج. الاستمارات

تتجه الاستمارة، منذ عدّة عقود من السنين، إلى أن تحل، تدريجًا، محل أنماط أخرى من الروائز لأنها أسهل استغلالًا من وجهة النظر الإحصائية. وتعرف بأنها أكثر «علمية» إذا قورنت، مثلًا، بالرائز الإسقاطي. يبقى أن نبرهن ذلك.

ويُبحث عن النواقص، إذا كان هناك من نواقص، في معالجة الأسئلة قبل أي شيء آخر. يحتاج طرح الأسئلة إلى أن يكون الإنسان مؤهَّلًا لذلك.

أ. وظيفة السؤال

(أ١) السؤال هو حثٌّ على الإجابة. قد تكون السمة الآمرة في السؤال ضعيفة جدًّا (فلا نرى «المشكلة») أو على العكس، قويّة جدًّا (فنشعر بتوبيخ)

تلك، مثلًا، هي حال الأسئلة التي تتطلّب إجابة ملقّنة كالتي يطرحها الصحافيون في المقابلات:

«هل أنت من رأي أن...»؟

قد تحوّل الأسئلة بسهولة إلى أوامر.

(أ٢) السؤال الذكي يسهّل الإجابة. يتطلّب هذا الفنّ إعداد الأسئلة بعناية. وعلى الأسئلة أن تكون واضحة ومفهومة وعونًا للذي يفكّر بالإجابة.

ومثال ذلك عرض السؤال على النظر بتدوينه على ورقة للإجابة عنه.

(أ٣) يجد الكثيرون من الناس صعوبة في اعتماد إجابة من عدّة إجابات ممكنة. يجب أن تُصاغ الأسئلة بطريقة توجّه إمكانيات الإجابة وتحدّها بأجوبة «بسيطة». ينتج عن ذلك حتمًا نقص في المعلومات ولكن ذلك يعوَّض بمزيد من الوضوح في الإجابات.

(أ٤) تعتمد الإجابات على ذكاء الشخص الذي يُوجَّه إليه السؤال وعلى استعداده للإذعان للعبة الأسئلة ولعوامل شخصية أخرى. وعلى الاستمارة، تجاه هذا التنوّع، أن تُستخدم أيضًا لتساوي (تكافؤ الفرص) للجميع.

نتوصّل إلى ذلك، مثلًا، بطرح أسئلة تدريبية توحي بالثقة بفعل بساطة الإجابات أو أسئلة «خاطئة» ندخلها كصدٍّ للتخفيف من آثار التعب أو «الهالة».

(أ٥) إن عملية طرح الأسئلة تخضع دائمًا لدينامية اجتماعية: يكون السائل غالبًا في منزلة الأعلى (إنه أثر «الممتحن» بمعنى الامتحان المدرسي).

ولكي لا يحدث ذلك، يجب أن تكون صيغة الأسئلة «حيادية» كي لا تسبب توقّعات بالنسبة إلى الفاحص وتصل إلى مساواة في الموقع بين السائل والمسؤول.

(أ٦) من أجل التوصُّل إلى نتائج مفيدة من وجهة نظر التشخيص، يصبح من الضروري، في أكثر الأحيان، أن يظل الهدف من الأسئلة غامضًا لتفادي التوترات الناشئة عن التوقع الاجتماعي.

ب. إعداد الأسئلة

إن الوجه المضموني لهذه العملية هو في غاية التعقيد. ولكن يمكن أن نميز عدّة نماذج أساسية للصياغة.

(ب١) تغطي الأسئلة ميدانًا ما وتحتفظ بمستوى أسئلة.

(ب٢) تتعلق بوقائع أو بآراء («مواقف»)

(ب٣) تحاول أن تبرز درجات الحدة على مقياس ما (قوي، وسط، ضعيف)

(ب٤) يكون شكل السؤال تناوبيًا (الإجابة نعم أو لا) أو متعدد الخيارات ويكون «حرًا» حيث تترك الإجابة لخيار الشخص.

(ب٥) يمكن التصدي لموضوع ما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

غير مباشرة مثلًا، تعرض سلسلة وهمية من النسب المئوية (٨٣٪، ٥٥٪، ٢٧٪، ٨٪) لمعرفة ما هو الاتجاه السائد الذي يكيف الرأي العام.

(ب٦) تستخدم التعليمات («التوصيات»)، التي تصحب رائزًا ما بواسطة الاستمارة، لتوجيه الشخص المستجوَب ويجب أن تحمل على محمل الجد. وإذا احتاج الشخص المستجوب إلى طرح سؤال في حين يجيب عن استمارة، تتأثر الاستمارة بذلك.

ج. الاستمارات

لا قيمة للسؤال المنفرد نسبيًا، إن تركيبًا من أسئلة عديدة يتيح التوصُّل إلى الهدف المحدّد للتشخيص، يمتلك علم النفس عددًا كبيرًا من الاستمارات المعايرة والمصادَق عليها، منها خاصة:

استمارة ١٦ عاملًا شخصيًا (16PF؛ **كاتل**)، استمارة الشخصية المتعدّدة الأوجه (**هاتاواي**)، استمارة شخصية المواطن الحر (**فهرنبرغ**)

(ج١) لا تبنى الاستمارة من وجهة نظر «منطقية» بل «نفسية»، أي تبعًا لتطور موقف الإجابة عن أسئلة: من هنا التصنيف المضموني للأسئلة.

(ج٢) يُبدأ أكثر الأحيان بسؤال تكون الإجابة عنه سهلة و«كاسحة جليد»؛ معدة لتحطيم العوائق.

(ج٣) تلعب مَسْرَحة الاستمارة دورها: أسئلة إجمالية قبل الأسئلة التفصيلية، أسئلة تتقاطع ولكن نجيب عنها بطرق مختلفة، أسئلة خاطئة الغاية منها التشجيع.

(ج٤) أسئلة مراقبة تكرر أسئلة سابقة تتيح تأكيدًا بصيغ أخرى أو هي أسئلة تؤكِّد المصداقية.

(ج٥) على الطول المبتغى للاستمارة أن يراعي الوضع.

(ج٦) تسهل الإفادة من هذه الاستمارات باقتراح وسائل (شبكات، مثلًا) تتيح استخدامها من قبل أشخاص أقل كفاءة.

تخضع الاستمارة النهائيّة لعملية «معايَرَة»: أي أن نجرِّبها على جماعات من الأشخاص يمكن مطابقتهم مع الأهداف التي تحدّدها الاستمارة (تمثيلية).



أ. نبذة تاريخية

ب١ رائز الشطب

ب٢ رائز ريباكوف

ب٣ رائز النخاريب

ب٤ رائز بينيش (المستويات)

ب٥ رسوم مستهجنة

صالب المركب

حذاء

برج وبوابة

قبعة

ب٦ تانغرام

ب. أمثلة على الروائز

إن طاقات الأداء المختلفة أو «المؤهلات» هي، في كثير من ميادين الحياة، ذات أهمّية رئيسية، نتفحّصها بتطبيق «تجارب» منتقاة يفترض أنها تمثل أداء إجماليًا لازمًا. (أمانة، صلاحية، فصل ١٩/١). يمكن أن تكون هذه «المهمات الاصطناعية» **(أنستازي)** سهلة التنفيذ أو صعبة. وتحدث في أكثر الأحيان في وقت محدود.

أ. نبذة تاريخية

كانت تنظم، في الصين، امتحانات لتعيين الموظّفين الكبار بدءًا من سنة ١٢٤ ق.م حتى ١٩١١ بعده. وكان على المترشّح لهذه الامتحانات أن يثبت ثقافته بنظم أشعار أو نقلها مرسومة بالحبر. وكان الموضوع هو ذاته لجميع المترشحين. يُحجز المترشّحون الفتيان في غرف صغيرة ويطلب إليهم أن ينفذوا أعمالهم البيانية والشعرية مستخدمين الخط ومحترمين القوانين المحدّدة. وكان التصحيح مغفلًا. تجري الامتحانات أولًا في المناطق ثم يتبارى الفائزون في بكين. ولم يكن الرسوب عيبًا على الإطلاق. تكفي المشاركة في المباراة شاهدًا على علو كعب الطالب في عالم الثقافة المكتسبة. ويمكن أن يأمل المترشّحون الفائزون بوظائف مَدى الحياة وينالوا أجرًا مرتفعًا بين نبلاء موظفي السلطة في جميع أنحاء البلاد.

وفي الغرب لم ينظّم امتحان الكفاءات منهجيًا إلّا في القرن التاسع عشر، ولكن ليس كامتحان نهائي كما في الصين: كان امتحان «الدخول» هو السائد. يجري البحث للتأكّد من أن طالبًا ما هو جدير باتّباع تنشئة معيّنة.

ب. أمثلة على الروائز

تتراوح الأداءات التي تمتحن بواسطة روائز الأداء بين انتباه بسيط وتركيز وذروة الإبداع. بيد أنه تستثنى مجالات خاصّة مثل الذكاء (فصل ٧/١٩). والمنافسات الضرورية لتنفيذ مهمّة ما هي من صميم هذه الامتحانات.

(ب١) بدأت روائز الأداء سنة ١٨٨٨ بروائز الحساب الذي ابتكره **أ. أورْن**.

كان على الشخص المتحن أن يجمع أعدادًا لمدة ساعتين. وكان منحنى تركيز يتيح، فيما بعد، تسجيل تغيرات السرعة والدقة.

وحلّ محل جمع الأعداد، فيما بعد، ما سمي **«رائز الشطب»** (رائز **بوردون**) الذي يقضي بشطب بعض الأحرف من النصّ أو سلسلة كيفية من الحروف.

يشير المثل في الصفحة المقابلة إلى رائز شطب أحدث، وضعه **ر. زاتسو**.

تمثل المربّعات السود الثلاثة خطوطًا على الجوانب. في الرائز (لم يمثل فيه هنا سوى عينة صغيرة) يجب أن تكون هذه الأنماط الثلاثة من الخطوط مطابقة بعضها لبعض (مشطوبة).

فالذي يشرف على الرائز يسجل الوقت ويحسب عدد الشطبات الصحيحة (أو الخاطئة) بمساعدة شبكة مثقوبة.

(ب٢) يحدّد **رائز ريباكوف** (بدءًا من ١٩١٠) طاقة التمثيل المكاني والتركيب البصري.

يشير المثل إلى صورة مستخرجة من سلسلة من الأشكال الهندسية التي يجب أن نتمثّلها مقسومة بخط وحيد بنوع أن القسمين يشكّلان مربعًا إذا جمعناهما بطريقة مختلفة.

(ب٣) أُخِذ هذا المثل من سلسلة من التجارب قام بها **هـ روب** (منذ ١٩١٩).

رسوم بُدئ بها، مسدسات مثلًا (لذا تسمى هذه المجموعة أيضًا **«رائز النخاريب»**) يجب أن تُتابع مع مراعاة النموذج نفسه.

يأتي التنظيم الخلاق للمكان ليكمل التمثيل المكاني.

(ب٤) في حين أن روائز التمثيل المكاني هي على شيء من السهولة، فإن هذا يتطلّب احتواءً أسرع لأشكال مكانية إذا أردنا تنفيذها في وقت محدّد.

في هذا الرائز، الذي أعدّه المؤلف (**بينيش** ١٩٧٠)، يُطلب إيجاد عدد المثلثات المتساوية (ذكر منهما اثنان) التي يحتويها هذا الشكل الهندسي المقترح.

(ب٥) نختبر أيضًا، طاقة التمثيل من وجهة نظر الإبداعية. يظهر المثل نموذج شكل تجريدي. تقوم التجربة على إيجاد معنى أساسي له.

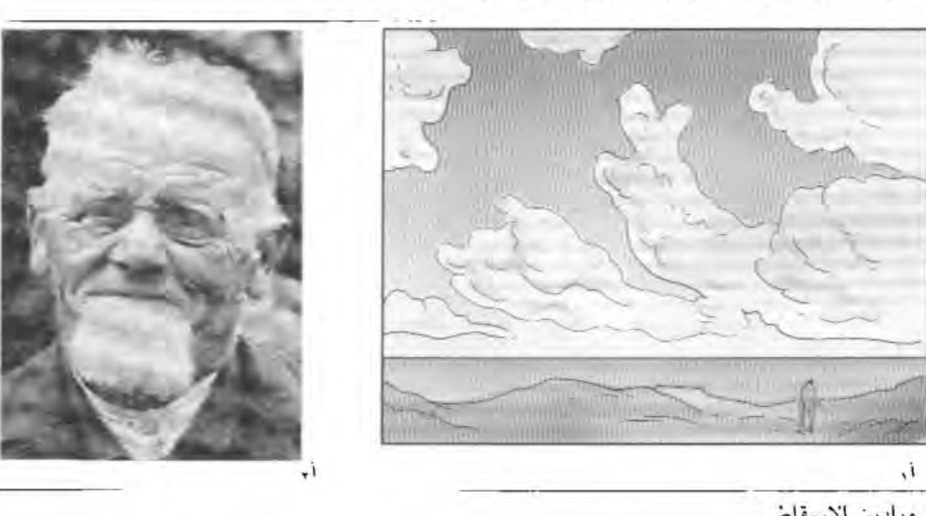
تسمى هذه الاختبارات **«صورًا مستهجنة» (ر. برايس)**.

يمكن أن نرى، في مثل شهير، دائرة صغيرة وسط دائرة كبيرة. يبرز عند نقطتين متقابلتين من الدائرة الخارجية رأسان صغيران مستديران. إليك أحد «الحلول»: مكسيكي على رأسه قبّعة (سُمْبريرو) يركب دراجة، منظر من فوق.

(ب٦) نستخدم، تكرارًا، في روائز الإبداع، عدّة أشكال من **«التانغرام»**. والتانغرام يأتي من الصين ووراءه تقليد طويل المدى في مادة روائز الأداء. يعود تاريخه إلى عصر التشو (٧٤٠-٣٣٠ق.م) وهو يدعى **«تشي تشا بان»** (= لوحة الحكماء السبعة» بسبب الحجار السبعة). لكن لم تظهر مؤلفات عنه إلّا في القرن السابع عشر وانتشرت في أوروبا بسرعة. ومنذ ذلك الحين، يستخدم شكل مبسط من هذه الأشكال من ثلاثة أجزاء فقط لاختبار الطاقات الإبداعية.

تُصاغ الأمثلة انطلاقًا من أشكال سوداء.

فعلى الشخص المتحن أن يطوّر أشكالًا أخرى من هذه العناصر الثلاثة. وابتكرت عدّة أمثلة لروائز المؤهلات وخاصة للانتباه (رائز د٢ **بريكِنْكامب**)، الذاكرة (رائز **رانشبورغ**). التركيز (رائز **باولي**)، التعب (رائز التلالؤ، **فون براكن**)، التخطيط (رائز التنسيق **ترامر**)، ومؤهلات أخرى متنوعة (بطارية **هورن**) وخاصةً في المجال المهني (بطارية **دورش**).



أ١ أ٢

أ. ميادين الاسقاط



ب١ اختبار الرسم المقارن



ب٢ رائز رورشاخ

ب٣ رائز العالم

ب٤ رائز خلق الأشكال

ب٥ رائز الإحباط

ب٦ رائز تفهم الموضوع (TAT)

ب. أمثلة على الروائز

انتقد **مورشتاين وبراير** في عرض توليفي (١٩٥٩) مفهوم **«الإسقاط»** لكونه أثار من التعليقات أكثر مما أثارته ابتسامة الجوكوندا. إن **فرويد** هو الذي ضم هذا التعبير ١٨٩٥ إلى مفردات علم النفس. وتفسيره المحصور (تشكيل رمزي في حال تهديد الأنا) محفوظ في التشخيص النفسي. استعمل **ل.ك. فرانك** هذا التعبير للمرّة الأولى سنة ١٩٣٩ ليحدد الروائز التي تدوّن «تمثيلًا (لا إراديًا) للعالم الشخصي الذي لا يراه الشخص الممتحن». لكن الروائز الأولى من هذا النمط كانت قد ظهرت منذ مطلع القرن العشرين.

أ. ميادين الإسقاط

(أ١) وتوفّرت لكل إنسان فرصة تأويل تشكيلات الغمام. إن أحد أكثر المشاهد إثارة هو مراقبة غروب الشمس في البحر خلف الغمام.

تشهد هذه التأويلات على نزعة عامّة إلى اكتشاف شيء ما وراء الأشياء. ولا تزال هذه الحاجة أقوى وحتمية في العلاقات بالآخر. لا يعرف كل منّا سوى حياته الخاصّة الداخلية ونحتاج إلى أن نتقرّأ حياة الآخر عندما لا يريد أو لا يستطيع أن يطلعنا عليها. وبقيامنا بهذه التفسيرات نصادف الحدود الشخصية لغيريتنا الخاصّة. وإننا لنستطيع التمرين لإبعاد هذه الحدود. ولهذا الأمر تستخدم تقنيات الإسقاط.

(أ٢) يمكن أن «نقرأ» على محيا هذا الشيخ.

وفي هذه التأويلات، تلعب قواعد تقييم الأشخاص (فصل ١٣/١٥) دورَها.

ب. أمثلة على الروائز

(ب١) تستخدم في **اختبار الرسم المقارَن** الذي وضعه المؤلف (**بينيش** ١٩٥٨)، كمستند أساسي، صورةُ الرجل الشيخ (أ٢) التي تفسح في المجال أمام تأويلات كثيرة.

أدخل كلٌ من الرسّامين الثلاثة (الصور)، طبقًا لتكوينه (فصل ٣/٢، الصور) شيئًا من شكله في رسمه استنادًا إلى الصورة.

فسّر الأشخاص الممتحنون، في الأوصاف التي أعطيت لهم، الخصائص النفسية للرجل الشيخ، تبعًا «لطريقتهم الخاصة في الرؤية» وباحوا، لا إراديًا، بشي من ذواتهم.

لا يحسبُ مخطَّطُ استكشافِ الرائز أي حساب «للجدارة الخطّية»، لكنه يعتبر الشكل (الرسمَ خاصة) والمدى (القامة، المقاس...) والحركة (اتصالية الخط، قوّته..) وكثافة الرسم (بروز التفاصيل، أهمية الأطر) والمميزات التعبيرية (أفضلية بعض الخصائص بنوع خاص).

(ب٢) إن أحد أقدم الروائز الإسقاطية هو رائز **روورشاخ**. ابتكر هذا الرائز، بادئ ذي بدء، طبيب الأمراض النفسية **هيرمان روورشاخ** كاختبار للإدراك وهو يرتكز على بقع من الحبر بلون واحد أو بألوان عديدة يُحصَلُ عليها بطي ورقة نصفين، وقد أصبح الرائزَ بامتياز.

يستعرض الأشخاص المتحنون اللوحات العشر واحدة واحدة ويعبِّرون عما يرونه فيها. يستند الاستكشاف (المعقد) إلى تفسير الأشكال وإلى تحليل المحتوى سواء بسواء.

(ب٣) يتألف **رائز العالَم** (مثل رائز التصاميم)، الذي أول من صنعه **م. لوينفيلد**، وقنَّنه **ش. بوهلر**، من ١٦٠ مادة مختلفة (أشخاص، بيوت، أشجار، ورق...) تستخدم لخلق «عالم».

تُستعمل تمثيلًا إسقاطيًا «لصورة العالَم» الخاص بالشخص الممتحَن.

(ب٤) تُبرز هذه اللوحات الأربع روائز عديدة لخلق الأشكال (رائز **ساندر**، رائز إنجاز الصورة، رائز **ڤارتيغ**...) ويجب، انطلاقًا من كل لوحة، إكمال «الصورة» المباشرة تصويريًا. ففي هذا الرائز صلة بين خيار إسقاطي وخلق شخصي للأشكال.

يُبنى استغلال هذا الرائز على خيار الانطلاق الذي يتم من بين العناصر المقترحة: أشكال بسيطة أو معقّدة، منحنيات أو خطوط مستقيمة.

(ب٥) يتضمّن **رائز الإحباط** لواضعه **س. روزنْزْڤايغ** ٢٤ وصفًا مع «إرهاق انفعالي».

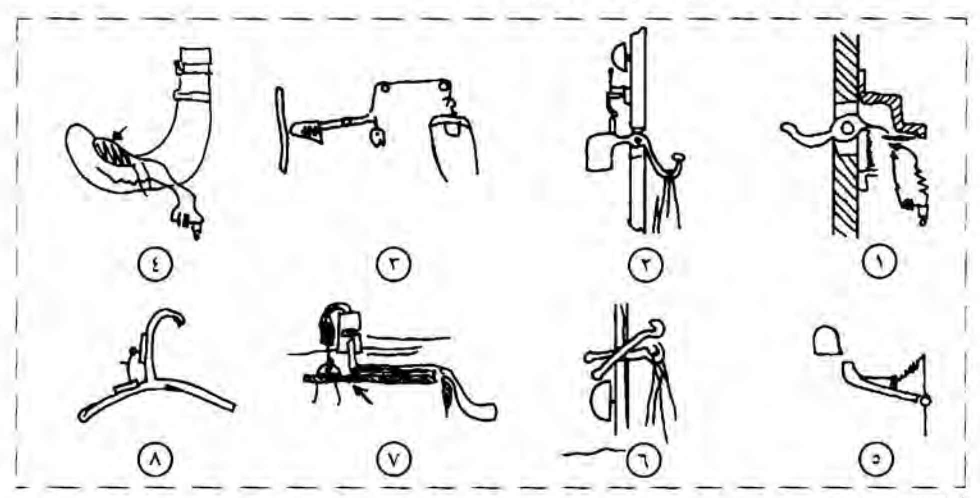
يُطلب إلى الشخص الممتحَن أن يملأ خانات فارغة فوق رأس شخصين مرسومين. ننطلق من مبدأ أن الشخص الممتحَن سيتماهى مع الشخص الأقل حظوة ويسجل ردّ فعل نمطي لمواقفه. يكشف استغلال الأجوبة الأربعة والعشرين الاتجاه المؤكدُ، إلى حدٍّ ما، إلى العدوان ونمط رد الفعل النشط.

(ب٦) إن رائز **تفهّم الموضوع** (TAT) الذي وضعه **موراي** هو أحد «الروائز السردية» الأكثر شهرة.

يتألّف الرائز من ٣١ لوحة. ويطلب من المفحوص أن يسرد قصة انطلاقًا من كل لوحة. تخضع هذه اللوحات لتأويلات مختلفة (كهذين الرأسين في الصفحة المقابلة).

يختص هذا الاستغلال، في الأساس، بالشخصية الأساسية، بتجاربه، بحاجاته، بمشاعره... كانت مدرسة **موراي** تستخدم تحليل المحتوى لوضع سلّم لبواعث الفعل، للحاجات الجماعية ولتمثلات السلطة ولكشف بعض المشاكل العيادية المركزية.

يمكن أيضًا التنويه بروائز أخرى تنتمي إلى فئة التقنيات الإسقاطية: الرائز المشهدي (**فون ستابس**) ورائز الأهرام الملوّنة (**هايس**) وتقنية الخربشة (**ڤينيكوت**) ورائز الشجرة (**كوخ**) والرائز الفسيفسائي (**لوينفيلد**) ورائز القرية (**آرتوس**) ورائز السرد (**ڤازتيغ**) ورائز الفراسة (**تومه**) ورائز فصيلة الحيوانات (**بريم-غرازر**) ورائز الرمز (**رومر**) والرائز الحركي العضلي (**ميرا - لوپيز**).



أ. كفاءات تقنية

دخول الغاز
زئبق
ماء
صنبور
بوئسن

ب. أمثلة على الروائز

إنّ قسمًا كبيرًا من **الروائز التقنية** الأولى يتعلّق بعلم نفس السير. كتب **و. شتيرن** في دراسة له ظهرت سنة ١٩١٧ ما يلي:

«ليست صدفة أن يهتم علم نفس المؤهّلات المهنية، بالدرجة الأولى، بمهنة قيادة الآليات (الحافلة الكهربائية، القطار، الطائرة). تأكّدت هذه الأفضلية بادئ ذي بدء من وجهة نظر منهجية: فليس بمثل هذه السهولة، في أية مهنة أخرى، أن نرد الكفاءة المطلوبة إلى صيغتها النفسية ونتحقق من طاقتها المطلوبة بطريقة اختبارية».

لكن تطور الأبحاث أتاح الاستنتاج أن الشروط الضرورية للسير وللطيران، دون حوادث، هي أكثر تعقيدًا. ولا مانع من أن يبقى التشخيص النفسي للمؤهّلات أساسيًا في سلسلة من ميادين علم النفس التطبيقي (فصل ٢١).

أ. كفاءات تقنية

كلّف **و. موده**، رائد دراسة الكفاءات في مادة تقنية البناء، طلّابه (في الفصل الأول من دراسة الهندسة)، في أحد الروائز الحرة، كلّفهم العمل التالي، في موضوع جهاز ضد السرقة:

«صَمِّموا نموذج مشجب. عندما ينتزع منه رداء يُدق جرس دَقات مختصرة».

قدّم الطلاب حلولا، منها الصالح للتطبيق، ومنها ما يصعب تطبيقه ومنها ما لا يطبق

(١) في هذا النموذج الكهربائي عندما يتحرر المشجب يقطع الاتصال الصوتي بسرعة.

(٢) حل ميكانيكي، لكنّه لا يعمل بهذه الطريقة على الصعيد التقني.

(٣) يؤمّن هذا الاقتراح الشاق الإتصال بواسطة رافعة.

(٤) ثبت تحت هذا المشجب كامة متحرّكة تحدث صوتًا متواصلًا عندما يرفع المعطف.

(٥) هذه الفكرة المعروضة (مشجب ومطرقة في آن واحد) هي غير صالحة للاستعمال لجهاز ضد السرقة.

(٦) مشجب دون نابض، لا يبث أية إشارة إنذار.

(٧) حلّ كثير التعقيد يتضمّن اسطوانتين للهواء.

(٨) جرس مثبت على مشجب لا ينفّذ عمليًا.

يعطي هذا الوضع من الرائز الحر دلائل دقيقة (يعتبر المؤلف أن النسبة المئوية المتوقّعة لهذا الامتحان هي ٨٢٪). لكن التشخيص المؤسّس على الروائز يبحث عن أسئلة مقنّنة جيدة التركيز من شأنها أن توفّر درجة عالية من الصحّة (التمثيلية) والأمانة (دقة القياس).

ومن أجل أن نكوّن الروائز نميز أكثر الأحيان بين الفكرة التقنية البنائية (كما في المثل أعلاه) والعمل التقني العملي (كما في أكثر الأمثلة التالية).

إنّ المقصود في المثل أعلاه، وفي أكثر الأوقات، حل المسائل إجمالًا، في سياق العمليات التقنية الميكانيكية. ومنذ بعض الوقت تحل محلّ هذه التمارين مسائل شبكات سيبرناتية، أكثر ملاءمة لقياس الكفاءات في مادة استخدام الحواسيب. ويُلجأ، بالنسبة إلى النشاط العملي، إلى روائز استخدام أجهزة تقنية أو تُفْحصُ فقط أفعال في أوقات محدودة.

ب. أمثلة على الروائز

تنتمي أمثلة الروائز هذه إلى ثلاثة ميادين تحقق مهمة جدًا. العقل التقني (١–٥)، المهارة اليدوية (٧–٨) والاستعداد للتجديد في مادة البناء (٦).

(١) من البساطة أن نقول ما هي حركة دوران الدواليب ما دمنا نشير إلى اتجاه دوران المحرك.

(٢) أي من العاملين يبذل طاقة أكبر ولماذا؟

(٣) عندما تهب الريح من الأمام تدور إحدى الطاحونتين الهوائيتين أفضل من الأخرى: أيتها؟

(٤) يُسأل في هذا الرائز عن الاتجاه الذي يجب أن تُدار به الرافعة للحصول على الاتجاه المُشار إليه بسهم.

من أجل حل هذه المسألة حلًا صحيحًا يجب إعادة تركيب مسبقة للجهاز الذي يحول الحركة النوّاسية إلى حركة دائرية (مثل المحرّكات ذات المكابس).

(٥) هذا النموذج هو أكثر تعقيدًا. يجب تحديد الوظيفة ووصف طريقة العمل: ماذا يحدث للماء عندما ترتفع حرارته شيئًا فشيئًا؟

(٦) موضوع الرائز المعقّد هنا «ماكنة لتمزيق الخيط». يُبدأ عادة بوصف هذه الماكنة ثم على المفحوصين أن يرسموا مخططًا لها إجماليًا مع بعض التفاصيل الخاصة.

يُدَقَّق، في تقييم النتيجة، فيما إذا كان يوجد ميزان مختلف الذراع، كيف تُقاس الزيادة المدرَّجة للثقل، وإذا كان التصميم على بعض الوضوح.

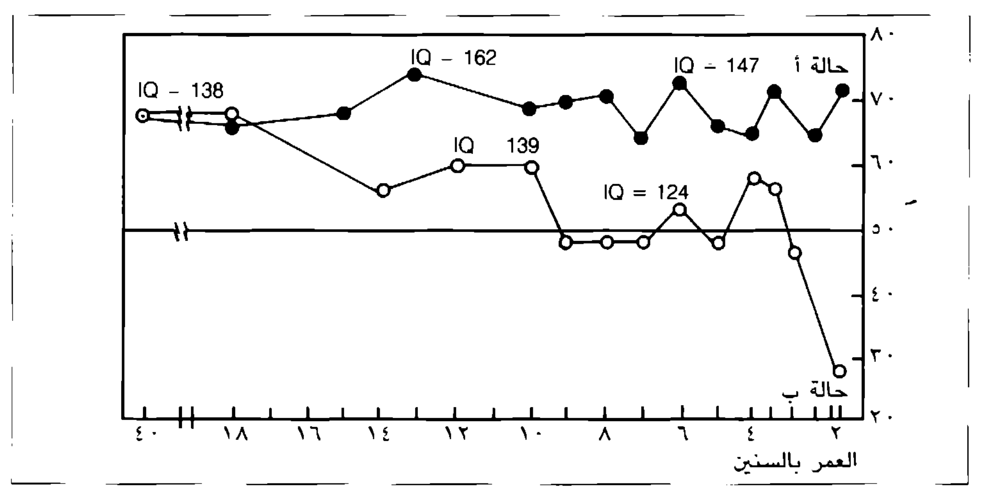
إن من كان ذا موهبة في التجديد يفكر بتحسينات أكثر.

(٧) يوجد، بالنسبة إلى اختبارات تقويس سلك معدني، أشكال كثيرة يمكن الحصول عليها. ففي الوقت الذي نقدم فيه للمفحوصين سلكًا دقيقًا نقدم أيضًا ملاقط مسطّحة.

إنما يحكم على العمل اليدوي: انتظامه، تخطيطه، العناية به.. كما يحكم على الدقة في إنتاج النموذج.

(٨) إن تناسق كلتا اليدين ذو أهمية قصوى لكثير من النشاطات. تتطلب الروائز الخاصة عمل اليدين متآزرتين.

كانت المدوّرات تستعمل قديمًا كأجهزة (رائز **دوّار لاهي**) أما اليوم فتستعمل شاشات إلكترونية.



أ. أداءات عقلية

٪ ٩٩،٩ ٩٧ ٨٤ ٥٠ ١٦ ٠٣ ٠٠١

معدل الذكاء ١٤٥ ١٣٠ ١١٥ ١٠٠ ٨٥ ٧٠ ٥٥

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧)

ب. أمثلة عن الروائز

لقياس الذكاء تاريخ طويل. كانت القياسات الأولى (خاصة تلك التي قام بها **غالتون**) نوعية. ولقد تسنى، مع تحسين الدراسات الاختبارية ومناهج التدقيق الإحصائي، تعديل **روائز الذكاء** انطلاقًا من أداءات مجموع الشعب (معدّل الذكاء). ترتكز الروائز الحالية على نظريات الذكاء الرائجة (فصل ٨/١٠). تُجمّع الروائز الخاصة، تبعًا لعوامل الذكاء المستخدمة كركائز نوعية، في مجموعات (بطاريات) من الروائز.

إلى جانب الروائز الشفهية (ساسكا، مثلًا)، أو غير الشفهية (اختيار المصفوفات المتتابعة، **راڤن**) تخلُط أكثر الروائز أنماط الاختبارات (خاصة رائز **وشلِر**، وروائز الجمل الناقصة. **ر. آمثوير**).

أ. أداءات عقليّة

كان **يُظَنّ**، في البدء، أن الذكاء ينمو مع العمر. ولكنه يظل، منذ مرحلة الشباب، عند مستوى ثابت نسبيًا. غير أن دراسات حديثة برهنت أن الذكاء قابل للتحوّل أكثر مما كان يعتقد. أتاحت دراسات **م. هونتسيك** و**ج.ڤ مكفارلين** (١٩٧٣) ملاحظة مراحل من التطوّر الفكري كثيرة التنوّع ما بين الشهر الثامن عشر والسنة الأربعين (العلامة المتوسطة ٥٠).

تتحوّل فعالية معدّل الذكاء، في حالة (A) إلى مستوى ثابت تقريبًا.

وتبدأ الحالة (B) عند مستوى منخفض لكنّها تحسِّن أداءاتها تدريجًا، حتى تتوافق مع أداءات (A).

ولوحظ، في حالات أخرى غير مسجّلة هنا، منحنيات تبدأ عند مستوى أعلى بكثير، لكنّها تنخفض مع الوقت. وأشارت بعض الأمثلة إلى ارتقاءات متتالية أو إلى نتائج ثابتة عند مستوى متوسط ولكن مع تعديلات، صعودًا أو هبوطًا، ممكنة فيما بعد.

إن أسباب هذه التغيرات كثيرة التعقيد. ونمط المتطلبات الفكرية، التي يخضع لها الفرد والاستعداد للاضطلاع بها (فيما يخص ميادين جديدة من ضمنها)، هي دائمًا عامل أساسي (تنشيط الذكاء).

ب. أمثلة عن الروائز

القاعدة العامّة هي أن تُبنى روائز الذكاء بطريقة يتم الحصول منها على نتائج على شكل «توزيع طبيعي» (فصل ٢/٤) ما يعني أن نصف السكان (٠،٥٠) يحصلون على نتائج متوسطة في حدود ١٠٠ نقطة.

تُتيح النسب المئوية التراكمية الحصول على تكرار في الوسط السكاني، مثلًا.

٨٤ فوق معدّل الذكاء ١١٥ تعني: ٨٤٪ يصل عندهم معدّل الذكاء إلى ١١٥ نقطة و١٦٪ معدل ذكائهم يتعدّى ١١٥ نقطة.

(١) ابتداء من سنة ١٩٠٥ كلّفت الحكومة الفرنسية **بينيه وسيمون** وضع نظام انتقائي للتوجيهات المدرسية المختلفة. انطلاقًا من هنا صُنِع صندوق «بينيتاريوم» يتضمّن جهازًا ضخمًا لاختبار التطوّر العقلي.

تعدَّل الرائز في بعض البلدان، في الولايات المتحدة الأميركية، مثلًا، حيث أُعِدَّ مقياس **تِرمان - ميريل** (مراجعة **ستانفورد** لنظام **بينيه-سيمون**)، يتضمّن سلسلة من الصور والبطاقات واللآلئ الخشبية.. مخصص لدراسة «عمر عقلي» مقنّن (عمر عقلي ع. ع. لمرحلة معينة من العمر)

(٢) شهدَ النصف الأول من القرن العشرين صنع روائز لا عديد لها قلّما أضيف إليها جديد ولكن حُسِّنت معاييرها النوعية.

يقوم أحد الاختبارات على جمع الصور الجزئية للوجه.

(٣) يطلب إلى الأولاد، في الرائز الفرنسي «فسيفساء جيل»، اختبار الجزء الناقص من الأجزاء الثمانية المقترحة.

(٤) يقترح رائز **شركوڤ** السوڤييتي البحث عن القاعدة:

إلى أي تعديل تخضع هذه السلسلة من الأشكال؟

(٥) يستخدم عدد من الروائز سلسلةً من الصور تُرتَّب في تتابع متناسق لاختبار الاستعداد للتفكير المنطقي:

في أي نسق ترتب الصور ١، ٢، ٣، ٤؟.

استخدمت مسألة مشابهة تسلسلية ولكن ذات طبيعة شفهية لاختبار الوظائف المنطقية.

يُطلب، مثلًا، إيجاد المفهوم المنظِّم الخاص بعدة كلمات مثل: حافلة كهربائية، دراجة، تاكسي.

وفي مجموعة أخرى من الروائز، يطلب وضع تطابقات من نوع: الصيف بالنسبة إلى الشتاء كالحر بالنسبة إلى البرد. إليك بعضًا من هذه الأسئلة:

حلزونة: دراجة = بطيئة: ...؛

جذع نبتة القمح: حقل القمح = شجرة:...؛

نجاح: كبرياء = فشل:...؛

مُربّع: زهر النرد = دائرة:....؛

(٦) يوجد أيضًا مجموعات لا عديد لها غايتها مراقبة ضمان الحكم: يطلب، في هذا المثل البسيط، معرفة أية من هذه الأيدي هي اليد اليسرى.

(٧) من بين الروائز غير الكلامية الكثير من الاختبارات (الأسئلة) المعدّة لاختبار الذكاء المجرّد.

ففي هذا المثل يجب احترام التتابع المقترح واختيار العلامة التي يجب أن تضاف، من بين العلامات الخمس إلى اليسار، إلى العلامات الثلاث إلى اليمين.

في السلسلة العليا (نقطة، نقطتان، خط)؟ المقصود هو الخط المزدوج. لطالما انتقدت روائز الذكاء كثيرًا، في هذه السنوات الأخيرة، لأنها لا تقيم وزنًا للبيئة ولأنها تهمل الطبقات الدنيا من الشعب. لهذا يجب التنبيه دائمًا إلى القيمة المجرّدة لهذه الامتحانات عند ممارستها والأخذ في الحسبان الحفز الفكري كعامل نمو يلي الذكاء. ليس الذكاء، في الواقع، ملكة سلبية إنه بالأحرى معالجة نشطة للمسائل.



أ. سمات الشخصية

ب١ فحص التمييز البصري

ب٢ رائز ڤارتيغ البياني

ب٣ تفكيك الشكل

الاهتمام بالأولاد المشاغبين

٢٠

كتابة أخبار قصيرة

٧٠

معالجة ملفات إدارية

٢٩

ب٤ رائز لوني

ب٥ تناوب الشكل واللون

ب٦ رائز المصالح

٥٩. أظن أن حرية عظمى أهم من العادات الحسنة واحترام القانون. (أ) موافق (ب) متردد (ج) غير موافق

ب٧ رائز ١٦ علامة شخصية

ب٨ مقياس الفن - بارون ويلش

ب. أمثلة على الروائز

إن مفهوم **الشخصية** هو أوسع مفاهيم علم النفس جميعًا. وهو، بالتالي، أكثرها تعرّضًا للجدل.

بإزاء نظريات الشخصية ذات التلوين الفلسفي نظريات «مركّزة على سمات الشخصية» (تهتم بأبعاد خاصة)؛ وبمقابل تلك المبنية على النظرية العاملية، نجد نظريات «ضمنية» (غير مصدّقة)، ساذجة، ترجع إلى علم نفس الأعماق أو علم النفس الفيزيولوجي (فصل ١٣).

يُضاف إلى ذلك مشكلة دالّة القياس. قد نحتاج إلى خبرة ذات غايات مختلفة ونفضل أحيانًا مجالات خاصة جدًّا ونستهدف أحيانًا أخرى مستوًى شموليًّا.

أ. سمات الشخصية

وضع عالمان نفسيان أميركيان مشهوران، هما، **ج.و. أولبورت وهـ.أ. أودبرت**، معجمًا يتضمّن ٤٥٠٤ مصطلحات تحدِّد سمات الشخصية.

نظرة إلى الصور (شكل آ) تكفي لنرى أن هؤلاء الفتيان الثلاثة مختلفون.

وإذا أردنا أن ندرس مجمل السمات التي تميّزهم، سرعان ما تبلغ الآلاف، إن كل كائن بشري مركّب في طيفه من سمات مميّزة. ليس من أناس «بسطاء». لكننا لا نستطيع، من ناحية أخرى، أن نتمادى في التحليل إلى ما لا نهاية. من هنا نبحث عن طرق متوسّطة.

فإمّا أن نختصر عدد فئات السمات الملحوظة.

وإما أن نترك العدد كما هو، ولكن نختصر مستوى تمايز الفئات في اتجاه مقاربة عيادية للحالة الفردية.

وهكذا تم التوصُّل إلى نماذج بسيطة للشخصية تكون أساسًا للتشخيص.

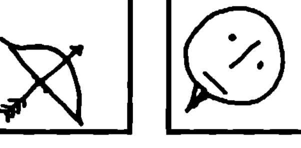
ولكن منذ بعض الوقت، وبتأثير من علم الضبط (السيبرناتيك) (المستند إلى الإلكترونيك)، بتنا لا نخشى التعقيد. بُنيت هذه النماذج على العلامية (السيميائية) (فصل ٤/١٣) وعلى صورها ذات المراتب المقياسية التناسب. واستنادًا إلى هذا الواقع ازدادت المتطلبات في موضوع التشخيص.

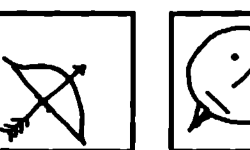
ب. أمثلة على الروائز

(ب١) أُعِدّ هذا الاختبار لامتحان «النظرة» (التمييز البصري). يُدَقّق فقط بسمة شخصية محدودة جدًّا وهي ذات أهمية ثانوية.

يجب أوّلًا إيجاد النقطة المركزية لهذه السمات ثم تقسيمها إلى ثلاثة أقسام متساوية.

(ب٢) وعلى عكس ذلك، فلا يمكننا أن نتوقع من **رائز ڤارتيغ** الخاص **بتكملة الصورة** سوى تمييز إجمالي. على المفحوص أن ينجز رسومًا تصويرية في الخانات الثماني مستخدمًا كل مرّة علامات الانطلاق. نود أن نرى، في الخانة الخامسة، مثلًا، كيف يُفهم الخطّان المختلفا الاتجاه: إذا كان الشخص المفحوص «يشكهما» (على شكل قوس وسهم، مثلًا) أو أنه «يلفهما» (على شكل مستدير كالوجه، مثلًا).





تنتمي الروائز التالية إلى مجالات أربعة للشخصية: نشاطات إدراكية، صنع أشياء نافعة، مواقف اجتماعية، أحكام جمالية.

(ب٣) أخذت هذه المتوالية من سلسلة تنتمي إلى **تفكيك الشكل (ف. ساندر)**. تشكل الزوايا الخمس وجهًا يسهل التعرّف إليه. عندما ندير الزوايا، الواحدة بالنسبة إلى الأخرى، بالتتابع، تتفكك صورة الوجه.

تظهر فروق فردية إذا جعلنا الأشكال تتوالى من اليمين إلى اليسار: يكون بعض الأشخاص أسرع من سواهم في تأويل الجانبيات.

(ب٤) لوحة (مصغّرة) تتيح مراقبة **عمى الألوان**.

(ب٥) توجد الروائز التي **تناوب الشكل واللون** تحت عدّة أشكال.

يتلاءم هذا الرائز مع عرض سريع لشفافات (صور على الزجاج). نتكلم عن أجوبة – شكل عندما ترتب الأشكال معًا. وعن أجوبة – لون عندما ترتب الألوان.

ومع نمو الولد تنمو رؤية الشكل على حساب رؤية اللون التي كانت مهيمنة أوّلًا، ونفترض نموذجية تكوينية: إن من تطغى عندهم رؤية الشكل هم انطوائيون، ومن تتغلّب لديهم رؤية اللون هم منفتحون.

(ب٦) إن للمصالح تأثيرًا حاسمًا على الإنسان. وإنه لمن المنطق إذًا أن يكون بين روائز الشخصية عدد كبير من **روائز المصالح** (على الأخص، **كليتون، ميتْنِكر وتومان، تود، بِنْج**).

كثير من الروائز على صلة بالمصالح المهنية وهي مهمّة بالنسبة إلى التوجيه المهني.

يشير المثل (بصورة مختصرة) إلى نبذة من رائز **م. إيْرل** للاهتمام المهني الذي يدعو إلى مقارنة أربعة خيارات مختلفة دفعة واحدة.

(ب٧) إن أحد أكثر الروائز الشفهية شهرة والخاصة بالشخصية هو **استبيان عوامل الشخصية الستة عشر**، (16PF)، لواضعه **ر.ب. كاتل**، الذي يختبر عددًا من المميزات من ضمنها المميزات الاجتماعية. يعرض المثل السؤال رقم ٥٩ (من أصل ١٨٧) من الشكل A الذي يتعلّق بالهيمنة.

(ب٨) من النادر أن يُلجأ إلى رائز للأحكام الجمالية.

أُخِذ المثل المقابل من مقياس الفن **لباورن – ويلش**، الذي يفترض أنه يتيح ملاحظة الامتيازات الفنّية.



أ. روائز الثقوب

ب. أمثلة على الروائز

إن مجموعة الروائز الأكثر انتشارًا هي، لأسباب تاريخية، **الروائز المدرسية**. يحتّم توجيه الطلاب أن تجدَّد دائمًا أساليب الانتقاء وقد أصبح علم النفس التربوي، دفعة واحدة، ماثلًا بشكل جيّد!

أ. روائز الثقوب

طلبت بلدية بريسلو، ١٨٩٥، من استاذ علم النفس **هيرمان إبنغهاوس** (١٨٥٠ – ١٩٠٩) أن يعطي رأيه في هموم بعض الأهلين: إنهم يتذمّرون من أن أبناءهم يُرهقون بتعليم ما بعد الظهر وبالتالي فالكسب التربوي معدوم. ولكي يدرس **إبنغاوس** هذه المسألة بطريقة الاختبار، استنبطَ لهذه الغاية «رائز الثقوب»:

«يُعرض على التلاميذ نصوص نَثرية تنسجم مع مستوى فهمهم، ولكن تترك هذه النصوص ناقصة بحيث تحذف منها بعض العناصر، وتكون هذه العناصر أحيانًا مقاطع بسيطة حذفت من النصّ إمّا من أول الكلمة أو من آخرها أو أيضًا من وسطها وأحيانًا أخرى أجزاء من مقطع أو كلمات بكاملها».

وعلى التلاميذ بالتالي أن يكمّلوا هذه النصوص الناقصة (وكلّها مقتبسة من رحلات غوليڤر لكاتبها جوناتان سويفت) استنادًا إلى المعنى. فاستطاع، بمقارنته ما توصّل إليه الأولاد في الصباح وفيما بعد الظهر، أن يحصل على أدلة دقيقة على فائدة أو عدم فائدة هذا العمل الإضافي المفروض على الأولاد.

وهكذا كان **إبنغهاوس** مخترع أوّل رائز مدرسي.

ب. أمثلة على الروائز

(١) كُلِّف، في نهاية القرن التاسع عشر، **ألفريد بينيه** (١٨٥٧–١٩١١) **وتيودور سيمون** (١٨٧٣–١٩٦١)، من قبل التعليم الرسمي، بتطوير أساليب تتيح تمييز الأولاد «الأسوياء» (العاديين) من الأولاد «الذين هم بحاجة إلى مساعدة تربوية». وفي سنة ١٩٠٥ عرضا نظامهما المقياسي السّلّمي لتشخيص الذكاء واستنادًا إلى العمر. يتراوح هذا السلّم – المقياس ما بين السنة الثالثة والسنة الخامسة عشرة. ولدى مراجعاتهما لسنة ١٩٠٨ و١٩١١ أنقصا عدد الأسئلة إلى ٤–٦ بحسب العمر. وتعرّض هذا النظام (الذي دعي فيما بعد بينيتاريوم) لعدّة مراجعات في بلدان مختلفة (مراجعة **ستانفور** لمعدل الذكاء في الولايات المتحدة، **بينيه – سيمون – بوبرتاغ** في ألمانيا، **نامي دو ر. زاتسو** في فرنسا، وهو لا يزال مستعملًا إلى اليوم في علم النفس المدرسي.

في اختبار الصفحة المقابلة (للأولاد الذين هم على شيء من النضوج) يوجد العدد ١٣ في المثلث فقط. فأين توجد الأعداد ٣، ٤، ٥؟ (صيغة **بوبرتاغ**).

(٢) وفي أنظمة من الروائز المماثلة، اختبرت درجة **المهارة اليدوية**، مثال ذلك:

لوحة دبابيس غُرزت فيها دبابيس من ثلاثةِ قياسات مختلفة.

(٣) من **ستانفورد – بينيه** اقتبس هذا المثل من رائز **إدراك المكان**.

السؤال هو أي من المكعّبات المنبسطة يتطابق مع النموذج الماثل في الأعلى إلى اليمين (= المكعب الأسفل إلى اليسار).

(٤) وبتأثير من «البينيتاريوم» **يُفهم** بسهولة لماذا هيّأ علم النفس الفرنسي، في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، مجموعة من الروائز المدرسية. اقتبس هذا المثل وما يليه من رائز زميل **بينيه، تيودور سيمون**.

على الطلاب، في مجموعة كهذه، أن يجدوا «الاستحالة» (أمثلة أخرى: امرأة لها يدان يسريان؛ يتحدّث **نابوليون إلى بلوخر** بواسطة الهاتف، يُشغِل رجلٌ مِصَصًا أنبوبه خارج الماء).

(٥) في هذه القصص المصوّرة تسلسل منطقي:

على الولد أن يكتشف ويرتّب ويرقّم هذه المشاهد في وضعها الصحيح (كما في الصفحة المقابلة).

(٦) وعلى مستوى أعلى أكثر تجريدًا يقف الرائز الأميركي مستقلًا عن الثقافة، (مؤسّسة الشخصية وروائز المهارة (IPAT) لواضعه **ر.ب. وأ.ك.س. كاتل**.

باتباع المثل في الصف الأعلى، يتعيّن إيجاد النموذج من صف اليمين الذي يجب أن يوضع في المربع الفارغ المنقّط (إنه الأول في المثل الأعلى).. تشير الصورة إلى سؤالين من الرائز ١، الأول والثاني عشر والأخير.

في الروائز المدرسية الأكثر تعقيدًا (وخاصة للدخول بعدد محدود إلى فروع معيّنة)، يُعاد، لكل دورة امتحان، صياغة جديدة لتركيب من عدّة أنواع من الروائز. يصنِّف **برنْكِنْكامْپ** (١٩٧٥) الروائز المدرسية في تسع فئات:

روائز الدخول إلى المدرسة (خاصّة امتحانات **ڤالبورغ** للمبتدئين، **هـ. هتسر**).

روائز خاصة بالكفاءة المدرسية: عندما يوجد شك في إعاقات نوعية (خاصة مجموعة روائز للأولاد المتخلّفين، **ك. بوندي**)

روائز الفروع المتعدّدة: المعدّة لمراقبة امتداد سلم الإنجازات (خاصة الرائز التفاضلي للمعارف، **إ. فورنْتْرات**).

روائز القراءة: (خاصة رائز **زوريخ، م. ليندر وهـ غريسمن**)

روائز الإملاء: (خاصة رائز التشخيص الإملائي، **ر. مايس**)

روائز المفردات: المفردات المطاوِعة هي التي تُقيِّم (خاصة رائز مفردات **هـ. أنْغرِ**).

روائز الحساب: (خاصة الرائز الرياضي، **غ. أ. لينزت**).

روائز اللغات الأجنبية: أداء لغوي في عدّة لغَات (خاصّة رائز هامبورغ في الإنكليزية، **ب. فتوايس**.

روائز أخرى للكفاءة المدرسية: تتعلّق بمواد أخرى (خاصة رائز الجغرافيا، **هـ. هورن**).



أ. وضعية روائز

ب١ حلقة لاندولت

ب٢ نقر

ب٣ رائز بمبرتون

ب٤ جانبية

ب٥ رائز الانتقاء

ب٦ رائز زوندي

ب. أمثلة على الروائز

في فرنسا انطلقت بدايات علم النفس العيادي (الإكلينيكي) (فصل ٢٠). استخدم **إسكيرول**، للمرّة الأولى، اختبارات شفهية (١٨٣٨) ليحدد حالات الإعاقة العقلية. وتعمّم (في علم النفس) في نهاية القرن التاسع عشر (**غالتون، كربلين**). وفي أيامنا هذه، يُعتبر **علم النفس التشخيصيّ العياديّ** أحدَ أوسع وأمتن الفروع المحكمة الارتباط بأكثرية العلاجات النفسية.

أ. وضعية الرائز

تطرح وضعية الرائز العيادي مشاكل أكثر من سائر التطبيقات. فهي تعادل وضعًا امتحانيًا، يجب أن تقوم فيه علاقة حيادية ولا شخصية بقدر الإمكان بين الشخص المتحَن والعالِم النفساني كي لا يحدث تأثير غير مضبوط على نتائج الرائز. لكن الفرق هو أنه في علم النفس العيادي، يشكل التشخيص جزءًا من العلاج، فينتج عن ذلك أن عالِم النفس العيادي لا يستطيع أن يبدِّل بدوره دورَ المشخِّص البسيط. وإذا كانت الممارسة العيادية، وخاصة العيادية النفسية، تتطلّب التزامًا قويًا تجاه المريض، فعلى العالم - المعالج النفساني أن يأخذ بعين الاعتبار، أثناء عملية التشخيص، العوامل التي من شأنها أن تنطوي، عرضيًا، على خطإ تقييمي إجمالي. لذلك، فإن نتائج رائز ما في إطار التدخُّل العيادي لا تقارَن، بالمطلق، بنتائج معاينة معدَّة لغايات أُخَر.

إن أهداف الرائز هي خصوصية أخرى - ففي حال التشخيص النفسي العيادي، تكون سِمات الشخصية، التي هي عامّة هدفُ الفحص، «اضطرابات نفسية». تعيق تصورات «الاضطراب» الذي يتجاوز الإطار النظامي (الطبّ النفسي، علم النفس، العلوم الاجتماعية) أو إطار المدارس المختلفة (التحليل النفسي، العلاج السلوكي، علاج غير توجيهي...)، تعيق إمكانيات تحديده.

يشكِّل تنوُّع المقاييس نوعية ثالثة في هذا المجال. ليست معايير الإعاقة العقلية صحيحة مقبولة في حالات القلق والاضطرابات العدوانية في السلوك أو المواقف الاكتئابية. لقد أصبح في حوزة علم النفس العيادي عدد ضخم من الروائز النوعية للاضطرابات الخاصة، على شكل استمارات (فصل ٣/١٩)، وهذه الروائز غير قابلة للتبادل. والروائز العامّة، في مجال الاضطرابات النفسية، هي أكثر ندرة وعرضة للجدل الكثير.

ب. أمثلة على الروائز

وبسبب هذه التجزئة القصوى لعلم النفس التشخيصي العيادي، لا تمثِّل الأمثلة المذكورة، تمثيلًا حقيقيًّا، مجمل المجال المعهود ولكن، بالأحرى، إطار التضمين الخاصّ.

(ب١) يوجد، بالنسبة إلى الأداءات الحسية (النظر، السمع، الشم، الذوق، اللمس) كما بالنسبة إلى أُطُرها المرجعية (أبعاد مكانية زمانية، مستويات الوعي)، مجالات من الروائز كثيرة الانتشار.

إن أكثر الروائز البصرية المستعملة عالميًا هي حلقات لاندولْتْ التي يُطلب تحديد اتجاه فتحتها.

(ب٢) يمكن تقييم الحركية بفضل **عدد النقرات** في وقت محدّد (رائز **مكعب كنوكس**):

يجب أن تُرْكِم، بقلم رصاص طريّ، نقاطٌ صغيرة بأقصى سرعة ممكنة، باليد اليمنى وباليد اليسرى خلال ست ثوانٍ كلَّ مرة، تشكل ٨٣ نقطة (للرجال) أو ٨٥ (للنساء) سرعةً متوسّطة (السرعة القصوى: ١٠٢ للرجال و١١٠ للنساء: العُشَير الأوّل: ٧٣ للرجال، ٧١ للنساء.

(ب٣) تشكل الرسوم غير الكاملة وسيلة قيِّمة لتحديد بطء الفهم الذي تسبِّبه عدّة اضطرابات نفسية (**بمبرتون**)

(ب٤) أتاحت أبحاث **ر.و. سبيري** دمج **التخصُّص النصف كروي** (مركزة الحركية) لمعالجة المعلومة في التشخيص العيادي.

إن نصف الكرة الدماغي المقابل هو الذي يسيطر، لدى ٩٥٪ من اليُمن (من يستعمل يده اليمنى) و٦٠٪ من العُسر (من يستعمل اليد اليسرى)، خاصة، بالنسبة إلى العوائق - لغة مقابل تمثيل مكاني؛ فكرة منطقية - تداعوية مقابل فكرة حدسية - إجمالية. إن العلاقة بين الضُّبْط (جمع اضبط وهو من يستعمل كلتا يديه) واليمن المزيفين (عسر أُعيدَ تأهيلهم) هي، بَعْدُ، أكثر تعقيدًا. وينتج عن ذلك عدم تناظر وظيفي أو جانبية مشوّهة (**بيريت**)

إن المسألة، في الاختبار المتناظِر، هي الإشارة إلى أشكال الصف الأيسر التي تبدو مُوجّهة بشكل صحيح (وليس معكوسة في مرآة).

(ب٥) وفي **رائز الانتقاء (نايسر، بكلين)**، تُراقَب كفاءة تمييز الصور المتزامنة. يبدو أن اضطراب الانتقاء يحدده العمر، ومع تقدّم العمر، أيضًا، يحول ضجيج الاجتماع دون تمييز ما يقوله أحدهم بشكل خاصّ.

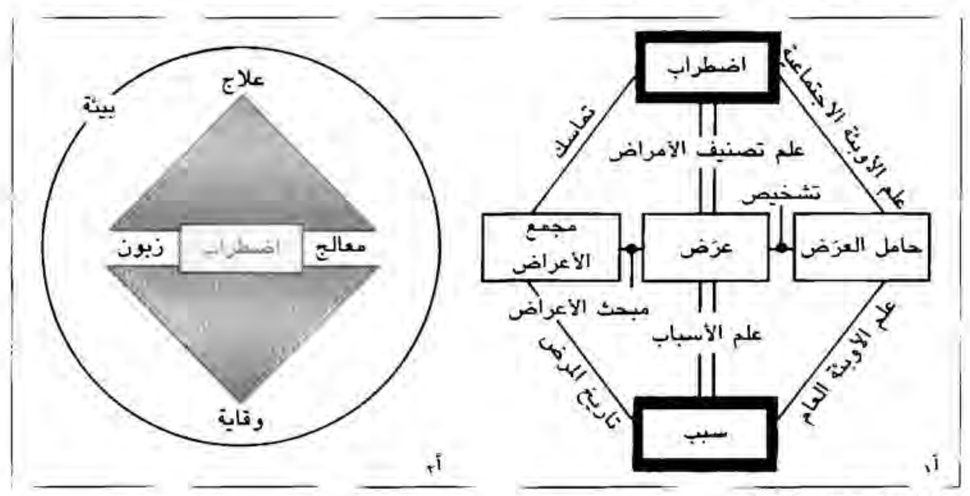
(ب٦) إن أحد الروائز النادرة الذي يدَّعي أنه يميّز بين الاضطرابات النفسية هو، بلا جدال، **رائز زوندي**.

المسألة هي أن يُختار في سلسلة من ٦×٨ إعادة تكوين لمرضى نفسيين قُدماء، والإثنان الأكثر جاذبية والأكثر سماجة في كلّ مرّة. يفترض بهذا الانتقاء أن يتم خيار مبني على الفرق بين الساديّة والمازوخية، والإغماء التخشبي والعُظام (البارانويا)...

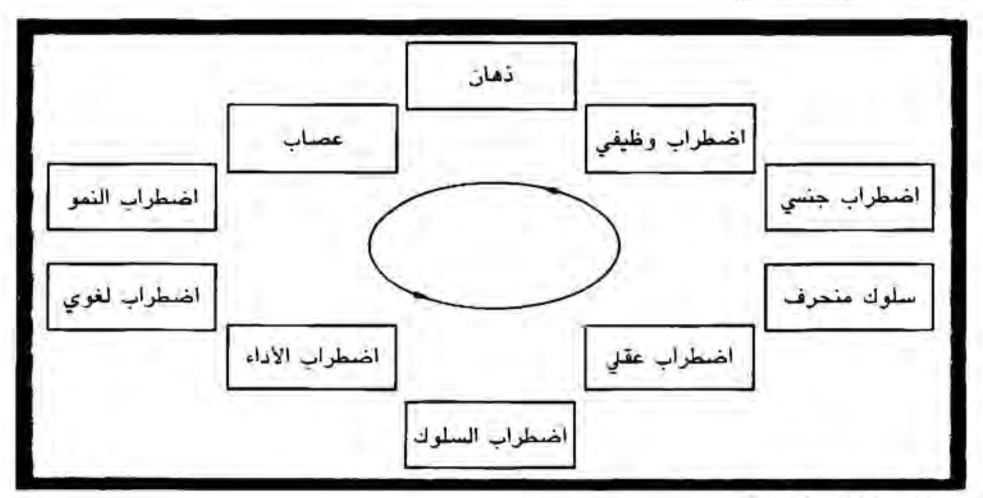
أتاح هذا الرائز الحصولَ على نتائج مختلفة جدًّا. تؤكِّد عدّة مراجعات (خاصّة مراجعة **ل. لاتسلو**) نقص الروائز العيادية الإجمالية.

تصحب الروائز، بالإضافة إلى استخدامها السبقي (في إطار الفحص النفساني الأوّلي) وفي النماذج التكرارية (**شيبيك**، ١٩٨٦)، تصحب المعالجة من أجل مطابقتها لمتطلبات تطوّرها المتغيّرة:

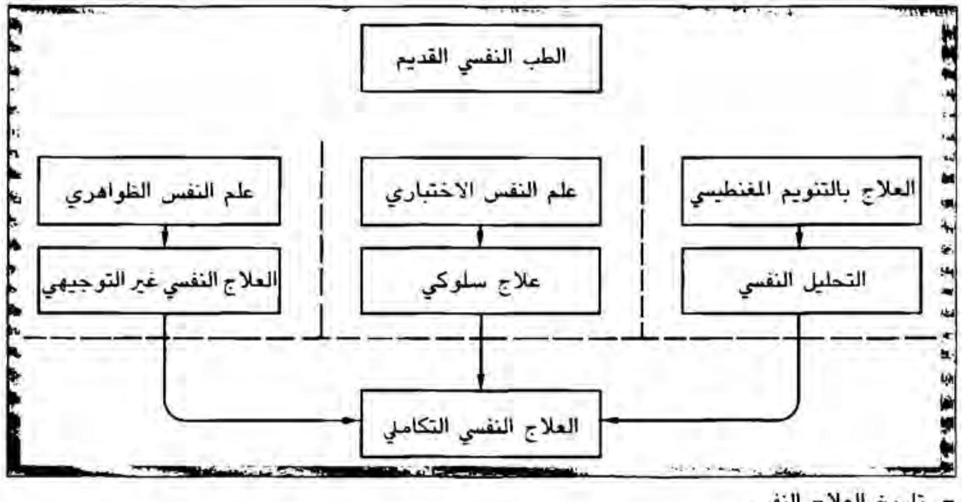
«التشخيص، التصميم العلاجي والتطبيق العلاجي هي عناصر دارّةٍ منطقية نجتازها دون توقُّف» (**شولته** ١٩٨٢).



أ. نظم علم النفس العيادي



ب. الاضطرابات النفسية



ج. تاريخ العلاج النفسي

إن **علم النفس العيادي** مدين باسمه لعلم النفس الأميركي. حيث كان العلاج النفسي دائمًا على صلة وثيقة بالعيادات النفسية. فتح **لايتنر ويتمر**، تلميذ **وليم ڤونت**، مؤسس أوّل مؤسّسة لعلم النفس في لايبزيك، فتح، منذ عودته إلى فيلادلفيا، في مطلع القرن العشرين، أول عيادة لعلم النفس وأنشأ في سنة ١٩٠٧ مجلة «العيادة النفسانية». واعتبارًا من هنا، فرضت عبارة علم النفس العيادي نفسها بالرغم من أن الكثيرين من علماء النفس العياديين لا يعملون أبدًا في عياداتهم.

أ. نُظُم علم النفس العيادي

بما أن أكثرية علماء النفس المهنيين يعملون اليوم في مجال علم النفس العيادي (٤٢٪ في ألمانيا)، فلقد اتسع «علم النفس العيادي التطبيقي» اتساعًا عظيمًا في هذه العقود الأخيرة من السنين كونه مجموعة مضمونية موضوعية. يتيح الوضع الحالي تصنيفًا منظّمًا للمفاهيم الوظيفية والمجالات المضمونية.

(أ١) بني هذا النموذج الضبطي (السيبرناتي) على المثلّث المركزي اضطراب – عَرَض – سبب. على جميع التوجُّهات العلاجية أن تتصدّى للمسائل التالية:

ما هو «الاضطراب»؟. كيف ينشأ؟ ما هي أسبابه؟

للأعراض (مؤشّرات الاضطراب) «حامل أعراض» (مريض، زبون، مستشار..) وهي تشكل جزءًا من «مخزون الأعراض» (ركام إيضاحي لمؤشرات الاضطراب (راجع فقرة ب). ينتج عن ذلك ٨ صلات تتوافق مع ٨ مهمّات علمية:

علم تصنيف الأمراض، مبحث الأعراض، علم الأسباب، التشخيص (تحديد الاضطرابات الفردية)، **إحصاء الأسباب، علم الأوبئة العام** (انتشار الاضطرابات النفسية)، **علم الأوبئة الاجتماعية** (علاقة تعني الاضطراب بين الزبون ومحيطه)، **التماسك** (مقاومة الاضطراب، أو بكلمة أدق، إمكانية التأثير في الاضطراب)

(أ٢) تتجمّع حول مركز الاضطراب النفسي المكوّنات الوظيفية لعلم النفس العيادي.

يتضمّن العلاج التدخل (مجموع التدخلات الممكنة) التي يجريها المعالج تجاه المريض. يكمّلُ هذا المثّلث مثّلثٌ تشغل فيه الوقاية من الإضطرابات مكان المعالجة.

هذه العلاقة الشخصية للقائمين بالتدخل موجودة في محيطهم الخاصّ والجماعي مع تأثيره على الحدث العلاجي والوقائي.

ب. الاضطرابات النفسية

إن تصنيف الاضطرابات النفسية هو أحد أصعب المسائل في علم النفس العيادي. كل اضطراب نفسي هو، مبدئيًّا محدد بصورة مفرطة. ينتج عن ذلك مجموعة من الاضطرابات مع تنوُّع عظيم من الأعراض والتناذرات (تناذرات عرضية). إن مصطلحات هذه الاضطرابات تطورت جزئيًا على مدى عدّة آلاف من السنين ومصطلحات أخرى هي أحدث عهدًا بكثير. لا غروَ إذًا أن تطرح مصطلحات منهجية مشكلة ما.

يشتمل الجدول الإجمالي على العبارات التي تعيّن أهم الاضطرابات (التي تغطّي بعضها بعضًا جزئيًا) وهي ستبحث بالتفصيل في الفصول الخاصّة بها.

سؤال هامّ يطرح نفسه: إلى أي مدى هذه الاضطرابات هي قابلة للتحوّل؟

ج. تاريخ العلاج النفسي

يذكر **أ. أ. روباك** في كتابه «التاريخ العالمي لعلم النفس والطب النفسي ١٩٧٠» «معالجي الكهوف» في عصر الحجر الذين كانوا يُحدِثون ثقبًا في قلنسوة (قحف) الجمجمة لكي:

«تستطيع الأرواح الشريرة أن تغادر المريض؛ لكنّهم لم يكونوا على علم بالتأثير الثانوي الذي ينتج عن ذلك؛ وهو تراخي الضغط داخل الرأس بسبب نقص في الأنسجة والسائل»

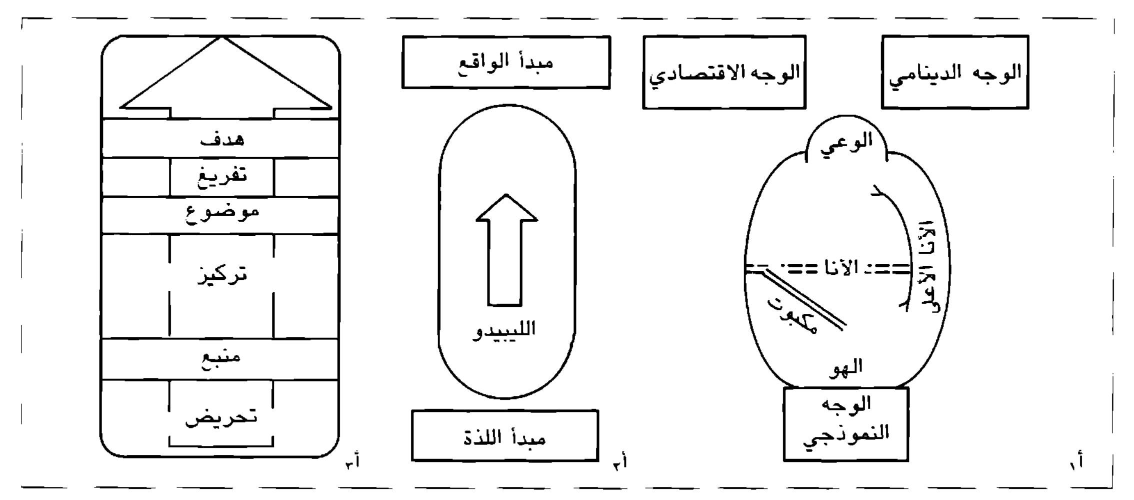
تشير هذه الصورة إلى عملية (ثقب) قحف الرأس في عصر



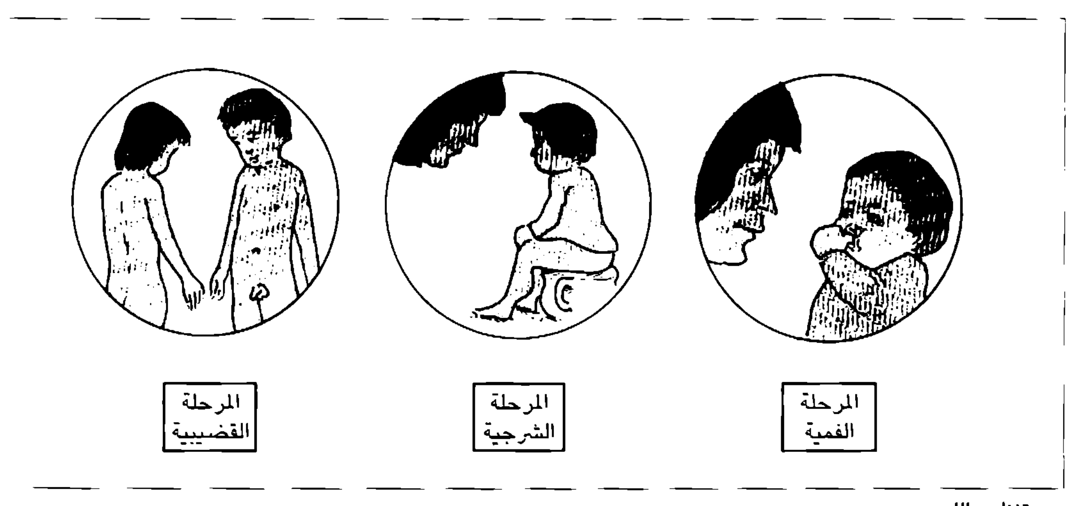
الحجر. إن عددًا لا بأس به من هذه المعالجات «القديمة» دام حتى العصر الوسيط (وحتى أيامنا هذه على شكل تعزيم).

استُعمل التنويم المغنيطيسي (فصل ١٢/٢٠ – الصورة) منهجيًا في مطلع العصر الحديث. وتطوّر علم النفس عند انفصاله عن التنويم المغنطيسي: وعن علم النفس الاختباري نشأت المعالجة السلوكية، وأدى علم النفس الظواهري، فيما أدّى إليه، إلى المعالجة التوجيهية. واليوم يمكن رسميًا تعداد ١٤٠ علاجًا نفسيًّا مختلفًا (**كريش وكروتشفيلد**، ١٩٨٥).

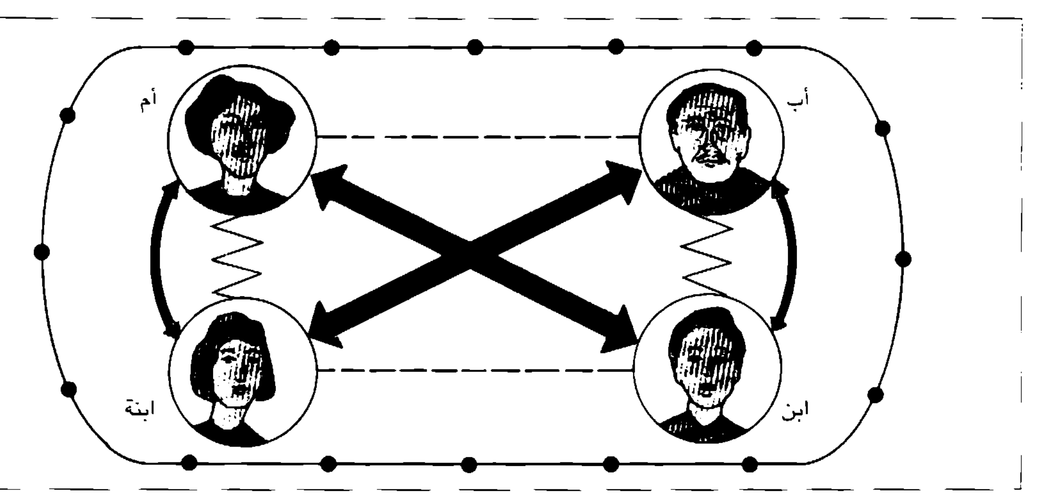
هذه الوفرة في العلاجات هي، بالضبط، ما حدا علم النفس العيادي إلى الاهتمام «بالعلاج النفسي التكاملي» الذي يتكوّن تدريجًا. وهذا لن يلغي، على الأرجح، المدارس العلاجية السابقة، ولكنّه سيكون إطارًا تبرز فيه الفروق الشخصية للمعالجين في إدارة العلاجات، تخصّص الأجزاء التالية لأهم العلاجات الخاصة.



أ. ما وراء علم النفس



ب. تنظيم الليبيدو



ج. عقدة أوديب

أعدّ **سيغموند فرويد** (١٨٥٦-١٩٣٩) «التحليل النفسي» على مدى حياة طويلة. فنتج من ذلك كثرة من طبقات الفكر تحول دون أية نظرة مجانِسَة. ولكن من الممكن استخراج أجزاء أساسيّة وتقييمها، أجزاء لا تزال تشكل اليوم التحليل النفسي «القويم». وبما أن هذا العمل ولد في اختبار شخصي لدى **فرويد** فكان قليل الحظ أن يستمر كما هو بعد واضعه.

ولهذا فليس التحليل النفسي الحالي سوى تحوُّل من التحليل الفرويدي (عندما لا يقتبس صراحة طرقًا جديدة، كما فعل «التحليل الجديد» (فصل ٢٠/٤) وأصبح التحليل النفسي، في وقت مبكر، أكثر من أي علاج آخر، موضوع مناقشات عامّة وخاصّة لأنه يثير الشكوك حول سلطان العقل وأنه يتصدّى بشكل صريح للحياة الجنسية، وبنوعٍ أخص، تحت شكلها الأولي الطفولي.

أ. ما وراء علم النفس (ميتابسيكولوجيا)

«إذا لم أكن أستطيع التغلُّب على قوى السماء، فسأحرّك عالم الجحيم».

وُضِعَ هذان البيتان من الشعر من إنياذة **ڤرجيل** في صدر الكتاب الأول الكبير الذي ألّفه **فرويد** بعنوان **«تفسير الأحلام»**. وبما أنه لم يتوصّل إلى تفسير تجاربه العيادية بسيْكولوجية وَعْيِ زمانه فلقد خلق لنفسه سيكولوجية «عالم الجحيم هذا» الذي دُعِيَ «سيكولوجية (علم نفس) الأعماق»

(أ١) كانت المهمة الأكثر إلحاحًا وضع نموذج جديد للإنسان مَثَّل، اعتبارًا من سنة ١٩٣٢، ما يشير إليه المخطط المقابل. يميز الوجه الدينامي الصراع بين القوى النفسية المتعارضة، ويميز الوجه الاقتصادي استهلاك طاقة الجهاز النفسي والوجه الموضعي يميز تنظيمها الداخلي (نموذج الأركان):

«الأنا» (الأنا اللاواعي - الواعي)، «الأنا الأعلى» (حامل «مثال الأنا»، «عضو المراقبة الباطني)، «الهو» (القطب الاندفاعي الغريزي).

(أ٢) يعتبر هذا القطب الاندفاعي الغريزي، أوّلًا، كليبيدو (طاقة حيوية شهوانية)، أي مفهوم طاقي إجمالي للجنسية الطبيعية والنفسية. ويكون رد فعل الهو تبعًا لمبدأ اللذّة، في حين أن اندفاعات الأنا الغريزية (التي أعطاها **فرويد** سلسلة من التفسيرات) تخضع لمبدأ الواقع أي أنها تتكيّف مع ما تتطلّبه البيئة.

(أ٣) الليبيدو ينبوع متفجر من التحريض الجسدي، والهدف هو «إفراغ» تلك الطاقة المتوتّرة؛ الموضوع هو في خدمة الليبيدو كوسيلة حقيقية أو خيالية وهمية (مثل «تركيز» على شخص محبوب ولكن أيضًا على شكل موضوع استعاضي).

ب. تنظيم الليبيدو

يعتبر **فرويد** أن الليبيدو لا ينتظر سن البلوغ كي ينمو، يبدأ التهيج الجنسي التلقائي منذ الطفولة الأولى مع «الاندفاعات الغريزية الجزئية». ينتقل منشأ هذه الاندفاعات من أعضاء في الجسم إلى أخرى، ما يتيح تمييز ثلاث مراحل أساسية تبعًا لنوع الارتياح (إزالة التوتُّر).

المرحلة الفميّة (السنة الأولى من العمر، إجمالًا). نجد، في مركز البحث عن اللذّة، النشاطات التالية: الرضاعة، المصّ، الحفظ في الفم، البَلع، اللمس: وبعد ذلك بقليل: العض، البصق، المجّ («القذف»)، الافتراس (مرحلة أكل اللحم البشري)، مظاهر القلق الأولى المرتبطة بفقدان الأسنان.

المرحلة الشرجية (السنتان الأولى والثانية، إجمالًا). اتساع دائرة الفعل. تكوّن نزعات بنّاءة وهدّامة. البحث عن لذّة مرتبطة بعملية التبرّز. مظاهر قلق مرتبطة بفقدان السلطة.

المرحلة القضيبية. على امتداد المرحلة الجنسية الأولى أو المرحلة القضيبية (في حدود السنة الرابعة أو السنة الخامسة)، تظهر «دوافع جنسية غامضة» مع بداية التمييز بين الجنسين (عقدة أوديب). إن اكتشاف الأعضاء الجنسية كموضوع لذة يشكل، بالنسبة إلى **فرويد**، منعطفًا أو مفصلًا للتطور اللاحق.

ج. عقدة أوديب

في مسرحية «أوديب الملك» **لسوفوكل**، يقتل الابن أباه ويتزوج أمه دون أن يعرفهما.

استخدم **فرويد** هذا الحدث كرمز ليصف الرغبات الجنسية الأولى. استنادًا إلى هذا النموذج يغذي الصبي بذور الحب الطفلي تجاه أمه (عقدة أوديب) والبنت تجاه أبيها (عقدة إليكتر، كما يقول **يونغ**)، في حين يتطوّر، في الوقت نفسه، «رغبة إلغاء» الأم لدى البنت والأب لدى الصبي. والحقيقة أن **فرويد** يعود جزئيًا إلى هذه «الخصومة»، حيث يستنتج علاقة «اجتماع الضدين» (حب - بغض) تجاه الأم بالنسبة إلى البنت وتجاه الأب بالنسبة إلى الصبي.

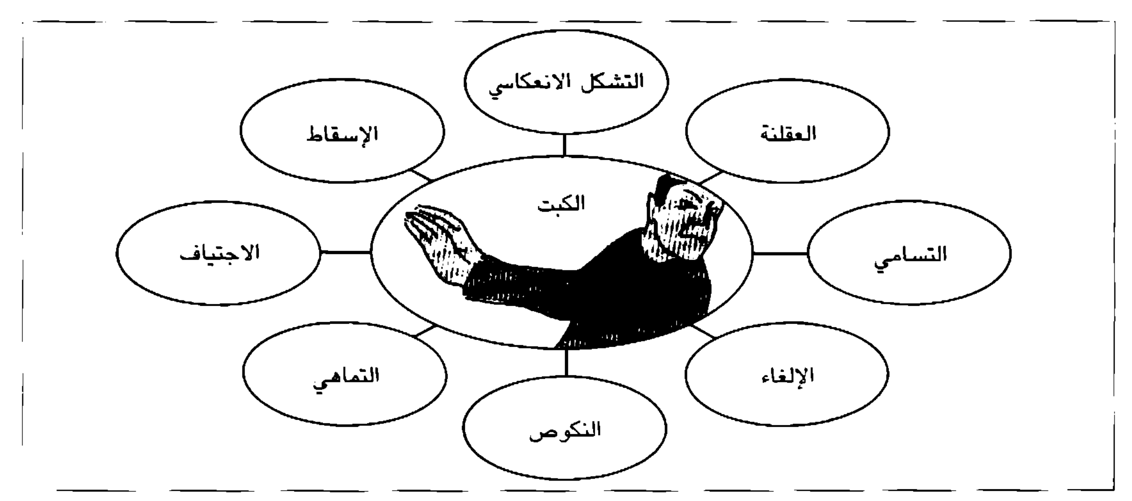
الفتى «يتصرّف في الوقت نفسه كبنت؛ يتخذ موقفًا أنثويًا (مفعمًا بالحنان) تجاه أبيه».

وأكمل، فيما بعد، بعضُ علماء نفس الأعماق، هذا النموذج مضيفين إلى ذلك العلاقات الجزئية «المتناقضة وجدانيًا» للوالدين فيما بينهما (خاصةً **إريك بيرن**، راجع فصل ٢٠/٨ والتنافس بين الاخوة والأخوات (**ألفريد أدلر**، راجع ٢٠/٤).

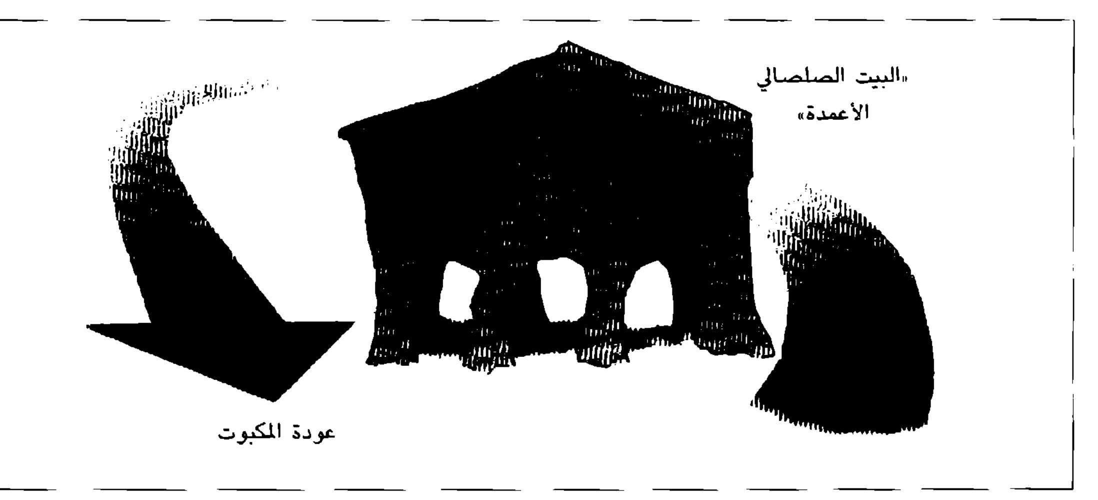
إن التعرُّف إلى عقدة أوديب كانت، بالنسبة إلى **فرويد**، العلامة الفارقة في التحليل النفسي التي «تميِّز بين أنصار التحليل النفسي وأخصامهم).

في «الحقيقة، إن تلك «لعقيدة» تجعلها ميزتها، المتعذّرة برهنتها عصيّة على التحقيق العلمي («التناقض الوجداني» هو حتمي). ومن هنا فهي تسمو إلى أن تكون أساسًا لمدرسة.

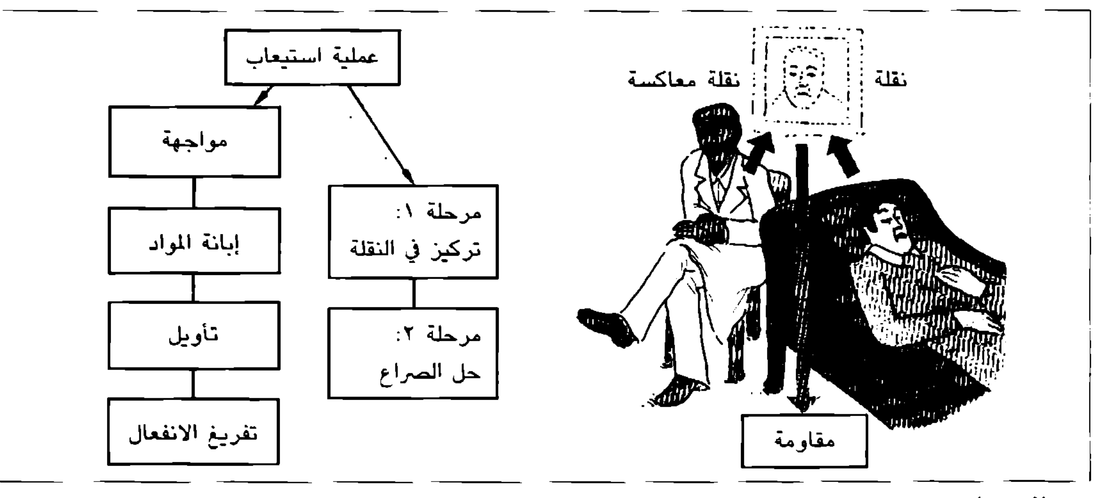
وبقدر ما هي صعوبة التحديد الجنسي غير قابلة للنقاش، فإن هذا المبدأ، لاعتباره «عقدة أوديب»، قد أدّى إلى خلافات وانشقاقات بين أوائل المحللين النفسانيين.



أ. أواليات الدفاع



ب. عقيدة العُصاب



ج. علاج تحليلي

لفرضية «ما دون الوعي» تقليد طويل يعود على الأقل، إلى **لايبنتز**، وبالنسبة إلى **فرويد**، يقع هذا القسم من الحياة النفسية (الذي قبله علم النفس بالجهد الجهيد عندما بدأ حياته الفلسفية)، بكل بساطة، «تحت» الوعي.

يتمثل «اللاوعي» كيانًا منفصلًا له منطقه الخاص (خاصة منطق الأحلام) ومقاصد لا يستطيع الإنسان نفسه أن يفهمها (لكن الهفوات هي من الأشياء التي تُتيح حلّ رموزها).

كثيرًا ما تعرّض للانتقاد هذا التصور للحدّ الفاصل (أو الرقابة) للاوعي.

أ. أواليات (أو حِيَل) الدفاع

يُعِدّ الإنسان، استنادًا إلى علم ما وراء علم النفس **لفرويد**، التجارب الشاقّة التي عاشها بقيامه بعمل «إطلاق». تزول التجارب بواسطة النسيان. يجب «كبت» التجارب التي تسبب صدمة نفسية كبتًا قويًّا وذلك بتفسيرها من جديد، مثلًا. وقد رأى **فرويد** في أبحاثه عن الحلم أن اللاوعي «ينكّر» التجارب المعيشة بتعديلها، بإزاحتها، بمسرحتها وبترميزها. إن الحلم، بالنسبة إليه، هو «تحقيق مُموَّه للرغبة»، وسعى، في تأويله للأحلام، إلى فهم لغة اللاوعي وإلى حلّ رموز أفكار الحلم الكامنة وراء محتواه الظاهر.

والحال أنه ليس فقط الحلم ولكن أيضًا أحلام اليقظة والوعي المستيقظ هي أيضًا تحتوي على قسم هامّ من الإواليات اللاواعية التي تعمل كما تعمل في الحلم. إن ولوج هذه الأصقاع المجهولة من علم النفس الإنساني هو بداية معلنة للتحليل النفسي. وبهذا العمل يحدث اصطدام بعدد كبير من إواليات الدفاع ممفصلة حول الشكل المركزي للكبت (أي الطرح في اللاوعي والتثبيت على شكل عقدة لا يتمّ التعرّف إليها). ويرتبط بالكبت المرضي إواليات دفاع ووسائل دفاعية، ذات صفة «عادية» وليست فقط مَرَضية، وأهمّها تسع:

١. التشكل الارتكاسي ويقوم على «توظيف عكسي مستمر للطاقة النفسية» أي إلغاء ظاهر للمكبوت بواسطة تصرّفات في الاتّجاه المعاكس (مثل النظافة).

٢. التماهي وهو شكل من التلقين أو التأهيل اللاواعي يظهر أنواعًا مختلفة مثل التماهي بالمعتدي.

٣. الاجتياف يستبطن، تحت شكل أطياف لاواعية، أشياء أو صفاتها.

٤. الإسقاط يعزو إلى الآخر عمليات لاواعية يرفضها الفرد.

٥. الإلغاء يقوم على أن يلغي الفرد ما فعله. وقريب من ذلك النفي والإنكار.

٦. العزل وأثره فصلٌ تمثُّلٍ مزعج عن انفعاله. وشكله الأبرز هو الانفساخ.

٧. النكوص يحدّد محاولة العودة إلى مراحل سابقة للتنظيم النفسي.

٨. التسامي ينقل نزعة غير مرغوب فيها نحو هدف معترف به ثقافيًّا.

٩. العقلنة تُعيد التأويل ثانية على شكل تفسير متلازم ومقبول.

ب. عقيدة العُصاب

يميز **فرويد**، في عقيدته عن العصاب فئتين كبيرتين من العُصابات. العصابات الفعلية (خاصة النوراستانيا أو النهك العصبي، الانهيار العصبي، وعصاب الحَصَر)، أسباب «واقعية». وبمقابل ذلك فالعصابات النفسية (= عصابات الدفاع) مرتكزة على إوالية نفسية. ويصنِّف في هذه الفئة، فيما يصنِّفه، الهستيريا والرهاب والعصاب الاستحواذي. وهذه هي التي ينصبّ عليها الاهتمام؛ يشبِّهها التحليل النفسي «ببيت على أعمدة من صلصال». نجد، عند القاعدة، صراعًا لا واعيًا غير أكيد:

غير أكيد لأنه مكبوت في العمق.

إن أصل العُصاب، بالنسبة إلى التحليل النفسي، هو، إذًا، عودة المكبوت مموَّهًا في أكثر الحالات.

قد يكون هَوَس الاغتسال، عند المصاب بالاستحواذ، عودة الحاجات الجنسية «القذرة» والمكبوتة.

ج. العلاج التحليلي

في «علاج» التحليل النفسي، يعبّر المريض من جانب واحد عن كل ما يخطر في باله وهو على صلة بأحلامه. المعالج قاعد وراء المريض الممدَّد على أريكة يعيره انتباهًا «حياديًّا». ويودّ الاهتمام بشكل عام، ببروز عنصرين مهمّين:

على المريض أن يتجاوز «المقاومات» بالنسبة إلى «لاوعيه» وينقل، بطريقة لاواعية، عقدة أوديب غير المعدّة إلى المحلّل النفسي.

ونفهم «بالنقل المعاكس» إسقاط الصراع الأوديبي البدائي للمعالج على المريض، إسقاطًا يجب تحييده بواسطة «تحليل تعليمي» (تحليل شخصي بواسطة محلّل مُرْشد).

لا يعتبر نقل الصراعات الأوديبية لدى المريض إلى المحلّل «غلطة» لكنه عنصر ضروري للتحليل. يميز فرويد مرحلتين: في المرحلة الأولى، يُدفع الليبيدو بواسطة أعراض إلى النقلة ويتركّز فيها؛ وفي الثانية يتبدّى صراع من أجل هذا الموضوع ويتحرّر منه الليبيدو (مدخل إلى التحليل النفسي).

يميّز **غرينسون** أربع مراحل من «عملية الاستيعاب»:

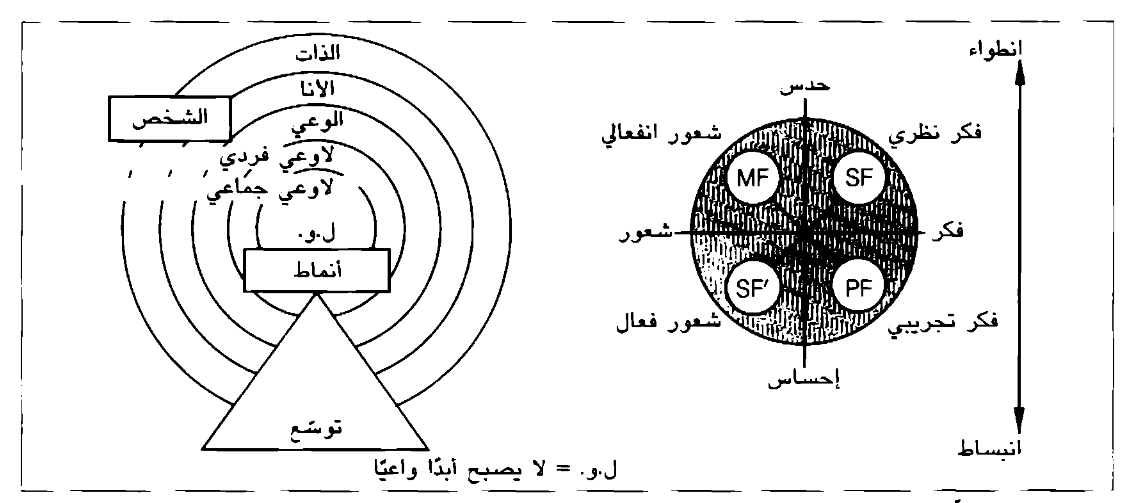
المواجهة (مناقشة محتوى الحلم، مثلًا)

إبانة المواد (تصنيف مواد الحلم)

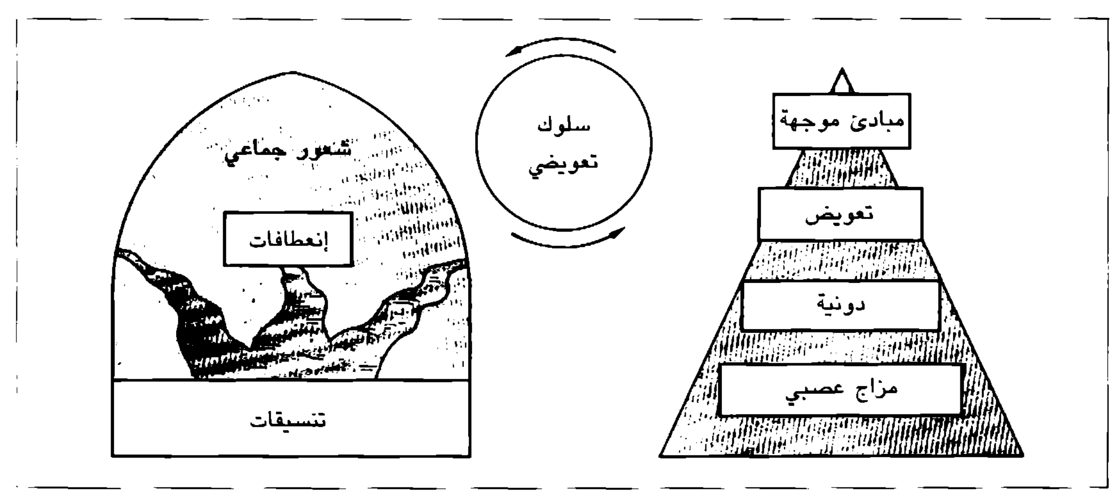
التأويل (ويعتبره **فرويد** فنًّا) وتفريغ الانفعال.

ويكتب **فرويد** بخصوص العلاج:

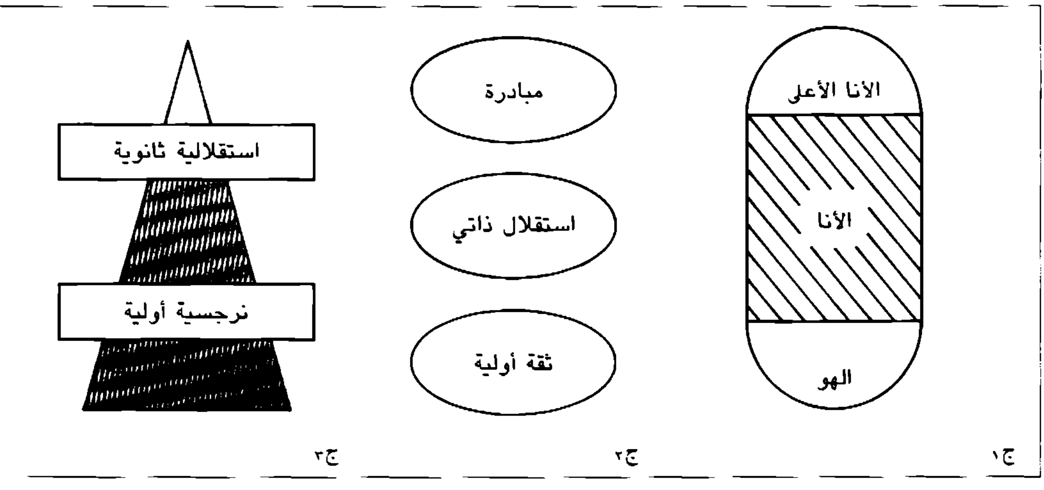
«التغيّر الحاسم لنتيجة إيجابية هو إزالة الكبت بمناسبة هذا الصراع المتجدّد».



أ. علم النفس المعقّد



ب. علم النفس الفردي



ج. تحليل الأنا

إن تاريخ التحليل النفسي هو تاريخ انشقاقاته، ولما كان **فرويد** يستثمر تجاربه الشخصية الخاصة، كان آخرون مضطرّين إلى استنتاج خلاصات شخصية من اختبارهم، وكان عدد منهم يخطّ طرقًا جديدة لعلم نفس الأعماق. ونتج، في أيامنا هذه، وفرة محيِّرة من المعالجات الثلاث التالية التي هي الأهمّ.

أ. علم النفس المعقّد

تخلّى **ك. غ. يونغ** عن التوجّه الفرويدي منذ ١٩١٣. وتركّزت طريقته المعقّدة في علم النفس (أو علم النفس التحليلي) على تصور للوعي، وطرقه في العمل تختلف عن التحليل النفسي الفرويدي.

ويتساءل **يونغ** كيف يستطيع **فرويد** و**آدلر** التوصل إلى تصورات عن العصاب متعارضة إلى هذا الحد:

«هذا ناشئ، بكل تأكيد، عن أن الخصائص النفسية للباحثين تجعلهما يريان في العصاب ما ينطبق على خصائصهما الذاتية».

وقد حدّد لهما فرقًا نموذجيًّا أصبح في النهاية النموذجية الأكثر شهرة:

الإنطواء الذاتي (**فرويد**).

الانبساط الخارجي (**آدلر**).

وأضاف إلى هذين النموذجين أربع وظائف ليصل إلى ثمانية نماذج وظيفية بإمكانها أن تشكل بدورها وظائف أولية (PF)، وظائف ثانوية (SF) وظائف دنيا (MF) وظائف دنيا ووظائف ثانوية لا إرادية ('SF).

وأكمل هذا المخطّط المعقّد للشخصية بتمثيله المنضّد لمستويات الشخص:

«مجمل نفسي» بما هي الذات، «الأنا كمركز لحقل الوعي»، الوعي، «الظل» الخاص أو اللاوعي الشخصي، اللاوعي الجماعي والجزء من اللاوعي الجماعي الذي لا يبلغ الوعي أبدًا. هذا «اللاوعي الجماعي» هو القسم الفوشخصي أو اللاشخصي للنفس الفردية» ومحتوياته هي «الأنماط الأولى» (فصل ٥/١٣).

دُعِيت معالجة **يونغ** إسهابًا:

إنها عمل مشترك يعالج الرموز الجماعية لإيصالها، «بعملية تفرد/تشخص»، إلى الطبقات العليا من النفس، ولربط طرق «التسوية بين الفرد والمجتمع» مُتيحًا إعطاء الحياة معنى كثيفًا.

ب. علم النفس الفردي

إنفصل **ألفريد آدلر** عن **فرويد** سنة ١٩١١ ليؤسّس «جمعية من أجل حرية التحليل النفسي» أطلق عليها فيما بعد اسم «جمعية لعلم النفس الفردي»، ليدلل بذلك على أن لكل شخص وجودًا وحيدًا وحرًّا. وهو يرى أن هذا الوجود مهدّد بشكل أساسي:

يأتي الفرد «إلى العالم»، إلى عالمٍ جميعُ الناس فيه أقوى منه. وهو يضطر، نظرًا إلى ضعفه (تبعيته الاجتماعية، دونيته كعضو) إلى أن يبذل جهودًا جبارة لكي يحصل، تعويضًا عن ذلك، على حصته من السلطة الاجتماعية.

وعندما تضاف عقدة النقص إلى «المزاج العصبي»، فكثيرًا ما يحدث أن يكون هذا التعويض العادي غير كاف فيفسح في المجال لسلوك تعويضي يظهر بواسطة تنسيقات، أي «مبادئ موجِّهة» وهمية.

إن علاج **آدلر** هو تطبيق لعلم النفس على الاتجاه الأدبي للفرد أو مذهب مخططات صحيحة للحياة، وهو يحيِّد «عطفات» التنسيقات ويحثّ الكائن البشري على «الانضمام نهائيًّا إلى الجماعة الإنسانية دون نقاش»، أي إلى أن يهتدي إلى معنى الجماعة.

ج. تحليل الأنا

(ج١). إن ضيق المجال الذي ينسبه **فرويد** إلى «الأنا» بالنسبة إلى «الهو» وإلى «الأنا الأعلى» لم يعجب عددًا كبيرًا من المحلّلين النفسانيين. لقد وضعوا هذا المجال في صميم علاجهم. واحد من **هؤلاء الأوائل هو هارتمن،** انطلق من «علم النفس الأنا».

والأنا، بالنسبة إلى **كارين هورناي، هو في** بحث عن الأمن:

من أجل شيء ما، بمقابل شيء ما، وللابتعاد عن شيء ما، وفي منافسة تحددها البيئة والثقافة. ولا يجد التحليل النفسي فصلًا أساسيًّا بين الحالة السوية والعصاب لكن فقط فرقًا في المستوى.

(ج٢). إن عبارة تحليل الأنا مرتبطة اليوم، خاصة، بعلم نفس **إريك إريكسون،** لقد اهتم بشكل خاص بأزمة الهوية أي بالصعوبات التي تعترض الأنا ليجد نفسه. فإن عوامل عديدة، استنادًا إلى نظريته، تكوِّن نوعية الأنا:

يمكن أن نذكر، بشكل خاص «الثقة الأولية»، إنشاء «استقلالية ذاتية» وتطور «مبادرات» خاصة.

(ج٣). يتوصل الأنا، بالنسبة إلى مدرسة شيكاغو، وخاصة بالنسبة إلى **هاينز كوهوت،** إلى أن يجد نفسه بواسطة النرجسية الأولية (حب الذات البدائي لدى الطفل)، يجب أن تؤدي مصادفة الذات هذه إلى «استقلالية ذاتية ثانوية».

فهو يعتبر أن نواة الاضطراب النرجسي وبالتالي السبب الأساسي للعصابات، يجب أن يبحث عنه في البنية المشوهة للذات أو في نقص الذات.

إن الهدف من هذا العلاج هو تطوير الشخصية وتصحيحها لكي تُبطِل «قوى التحييد الصادرة عن الذات النرجسية» (**هـ. كوهوت**) «والخاصية الأنوية» (**ف. كونكل**).

تميّز التطوّر الحالي لعلم نفس الأعماق بمزجه بجزء من المعالجات التالية وإعداد المعالجات النوعية (مثل المعالجة العائلية، معالجة وقائية من الانتحار).



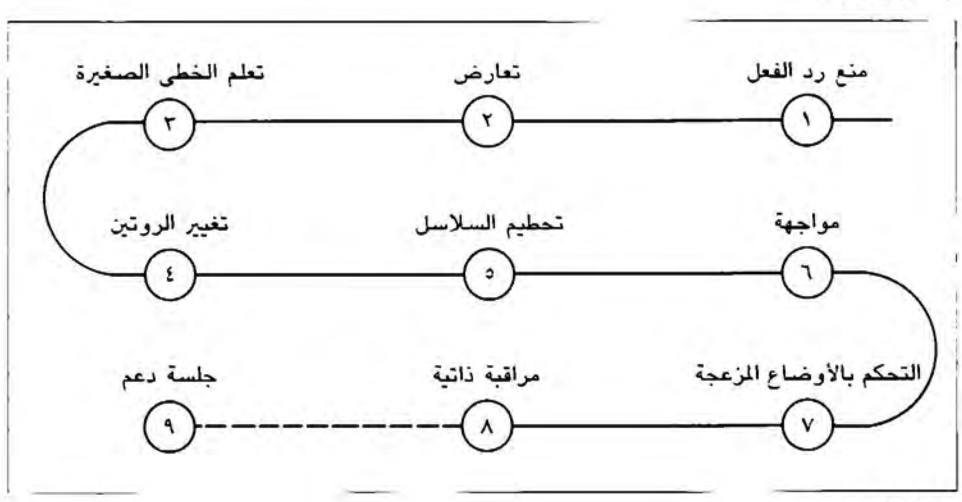
أ١ تعلّم النماذج
أ٢ تقوية بالمكافأة

أ. طرق الاكتساب



ب١ سلوك الحذر (التجنب)
ب٢ المنع بالأجهزة

ب. طرق الإلغاء



ج. قولبة السلوك

كتب **باسكال** (١٦٢٣-١٦٦٨) هذه الجملة التالية:
«العادة طبيعة ثانية تدمّر الأولى».
ولكن لا يوجد فقط عادات حسنة بل أيضًا عادات سيئة. يستهدف العلاج السلوكي النوعين مستخدمًا وسائل التملك والإلغاء. بدأ العلاج السلوكي في مطلع العشرينات من القرن الماضي (العشرين) مع أعمال ثلاثة تلاميذ لمؤسس النظرية السلوكية **ج. ب. واطسن** (١٨٧٨-١٩٥٨).

تعالج هذه الأعمال الأولاد الذين يعانون رهاب الحيوانات بطرق الإشتراط (فصل ٨. علم نفس التعلّم).

ومنذ ذلك الحين أصبح العلاج السلوكي أحد التوجهات العلاجية الأكثر انتشارًا.

أ. طرق الاكتساب

إن المبدأ التربوي القديم الذي يمكن بواسطته تعليم التصرّفات وتعلّمها وضعه السلوكيون موضع ممارسة نظامية. وتعلم النماذج هو أحد أهم الطرق المستعملة.

(أ١) يمكن أن نجعل المريض يقلدها بطريقة تعاونية (تعرض المساعدة، الموجودة إلى يمين الطبيب الواقف في الوسط، على المريض، التمرين الذي عليه أن يقوم به)، ورمزية (تعرض النموذج بواسطة فيلم) أو خفية (معدة سابقًا في تأملات).

(أ٢) يستخدم مع الأولاد مقوّيات مباشرة (فصل ٢/٨) وهي عبارة عن حبات ملبس للحصول على السلوك المرغوب فيه. يستعمل مع البالغين، وللغاية نفسها، أنظمة تقوية وهي عبارة عن منح ومكافآت، وتُلغى عملية التلقين (وهو الدعم الذي يقدمه المعالج) تدريجًا في حال النجاح.

ب. طرق الإلغاء

(ب١) يتقيّد عولس، في أوذيسة **هوميروس**، بنصائح سيرسه ويطلب أن يُربَط إلى سارية مركبه لكي لا يستسلم لغناء جنّيات البحر. أما رفاقه فسُدّت آذانهم بالشمع.

هذه الطريقة الأساسية في الحذر، استعادها، بعد تعديل، العلاج السلوكي، بشكل ملطف ولكن بفعالية واعدة أكثر.

وهذه هي الحال عندما نضم إلى السلوك السلبي (مثل الإفراط في استهلاك الكحول) حافزًا منفّرًا مثل رائحة تثير الاشمئزاز.

(ب٢) وبواسطة جهاز سَلَسِ التبوّل، يمكن التوصّل إلى منع الولد من تبليل فراشه: أوّل نقطة بول تُشغّل جرس المنبّه.

ج. قولبة السلوك

يستخدم العلاج السلوكي الأميركي، تحت لفظة «تشكيل» (قولبة السلوك أو صياغته) وسيلة متماسكة، ولكن مع تغيّرات فردية تتضمن سلسلة من الخطوات.

يميل المريض، في بداية العلاج، إلى المبالغة في آلامه ويتلذّذ كثيرًا في الإشفاق على نفسه.

(١). يشرح له المعالج أن لا فائدة من ذلك ويمنع هذا النواح بشدّة، بضربات منبّه سيارة، مثلًا (منع ردّ الفعل).

(٢). وعوضًا عن ذلك، يتعلم المريض سلوكًا آليًا لا يتوافق مع تذمّره، أفكارًا فَرِحة، مثلًا، أو (أحيانًا كثيرة) وضعًا استرخائيًا.

(٣). يكْشف السلوكُ الشيءَ بواسطة أعراضه ويوقَف بخطوات صغيرة (تعلم بالخطوات الصغيرة).

(٤). يقوم قسم لا بأس به من العلاج بالتشكيل على التخلّي عن الرتابة التي تسجن الإنسان في قميص قسري وتجعله عاجزًا عن تكييف سلوكه. يتعلم مثلًا:

أن يقود سيارته على مهل؛ ألا يستسلم للهياج عندما يحتذي فردتي حذاء مختلفتين؛ أن يعدل عاداته الاستدلالية؛ أن يغير تغييرًا كاملًا موعد نهوضه الصباحي وطريقة ارتداء ثيابه واستعداده اللذين أصبحا ثابتين بفعل العادة.

هذه التغيرات التي يجب أن تتم في السلوك هي محاولة «دفاع ضد السهولة» (تغيير الروتين).

(٥). إن تحطيم السلاسل (التسلسل) يلاحقه العلاج السلوكي منهجيًا. ففي حال التكييف المعقد للسلوك، مثلًا، الإدمان على المخدرات السامة، لا تكون التحريمات التنفيرية البسيطة كافية دائمًا.

يقسم السلوك الإجمالي، إلى مجموعات (فروع) ثم يعاد تجميع هذه الفروع من جديد في منهج سلوكي جديد.

(٦). السعي، بواسطة المواجهة، إلى تقوية الثقة بالنفس، تلك الثقة التي تشكّل جزءًا من نضوج السلوك.

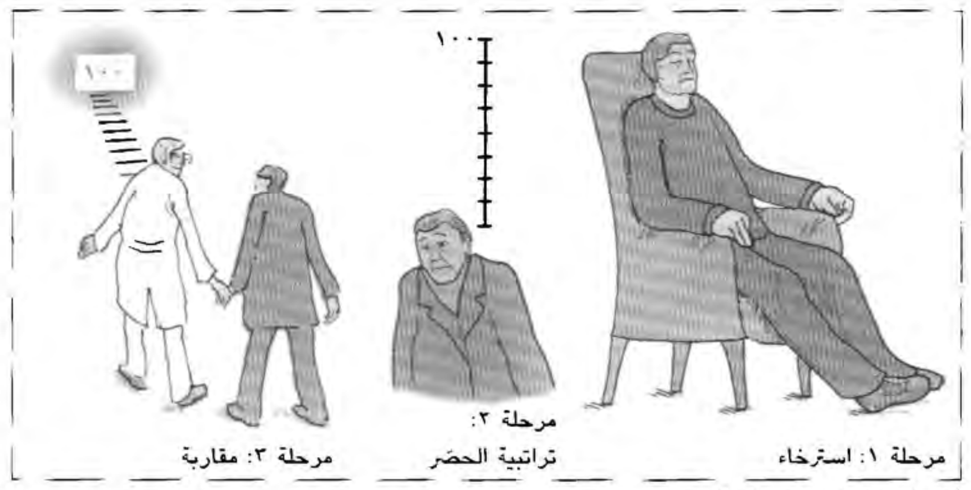
فيتدرّب الفرد على البقاء قاعدًا، الركبة على الركبة: أمام شخصٍ ما وأن ينظر إلى عينيه دون أن يحوّل نظره.

(٧). التحكّم بالأوضاع المزعجة بواسطة طرق نوعية.

على المريض أن يقوم بمساعٍ يكرهها، كالتسوُّل، مثلًا.

(٨). تتضمن مجموعة الوسائل الكثيرة التي تتيح الوصول إلى مراقبة الذات، خاصة، أنظمة سلوك، تقنيات مراقبة الأفكار (مثل التوقف عن التأمل، المناجاة بصوت عالٍ)، التحصّن ضدّ الإجهاد، التي يفترض بها أن تسهل مرحلة الانتقال إلى الاستقلالية الذاتية تجاه المعالج.

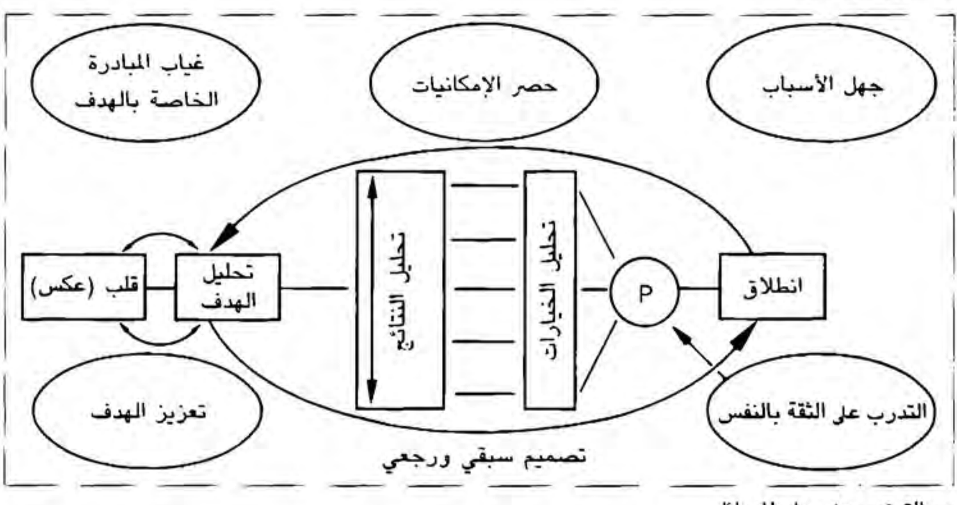
(٩). وبعد مضي بعض الوقت، تعمل جلسات الدعم، وساعات تكمُّل أو تكرُّر التعليم، بعد نهاية العلاج، على تذكير ما سبق تعلّمه...



أ. إبطال منهجي للحساسية



ب. طرق المواجهة



ج. التدرّب على حل المسائل

مع العلاج السلوكي، نصادف التطوّر ذاته كما في المدارس العلاجية الأخرى. والأجيال التي تلت جيل المؤسسين عدلت بالعلاج الأساسي حتى بات مفقود المعالم، إلى درجة أنه يوجد اليوم «علاج سلوكي جديد» لا يعرف تسمية واحدة. نجد، مقابل هذه التعديلات التي هي فقط اسمية، بعض الطرق الثابتة التي تمارس دائمًا (حتى ولو كانت غالبًا في صيغة جديدة).

أ. إبطال منهجي للحساسية

واضع هذه التقنية المعالج الجنوب أفريقي، **جوزيف ڤوليه**، الذي يقصد بذلك «الإلغاء التدريجي لعادات الحَصَر». إنها تقنية تتضمن ثلاث مراحل.

(١) العملية الأولى لا تزال تجهل الأعراض. وقد اعتبرت إما تدرّبًا على الاسترخاء وإما استعادة لتقنية سبق التحكم بها (مثل التدريب الذاتي، تنويم مغنطيسي نشِط تدريجي، تأمل). تُتَّخذ، بشكل عام، تقنية الاسترخاء لدى **جاكوبسن** كأساس. وهي تقوم على توتير وإرخاء مفاجئين للعضلات، تغيير وتيرة التنفس والنطق، بشكل يمكن معه تبني وضع استراحة حسب الطلب.

(٢) يفرض على الزبون وضع مراتب من الحَصَر.
يجب أن نوضّح له أية أنماط من الحَصَر أضعف أو أقوى وتصنيف حالات الحصر التي يعانيها على مقياس من ٠ إلى ١٠٠.

(٣) المرحلتان السابقتان هما تحليل للمشكلة وتحضير للعلاج. وعلى مدى المعالجة الحقيقية يتمثّل الزبون، وهو في حالة استرخاء، محتويات التمثل القصيرة (١٠ ثوان تقريبًا) طِبقًا للتدرج الموضوع. وعندما يغتمّ، يُعلم المعالج الذي يطيل الاسترخاء حتى يتوقّف رد فعل الحَصَر أو الغم.

قد يُشْفَع الاقتراب التدريجي من الأوضاع التي تثير، كل مرّة، الحصر الأعلى، بتقنيات أخرى (خارج الاسترخاء) مثل لعبة الأدوار والأشخاص غير المغتمين الموجودين في الجماعة.

ب. طرق المواجهة

إن ما يميز هذه الفئة من الفئات السابقة هو أنه في حال رد الفعل الحَصِر لا ينقطع الاتصال، لكنّه يُعَزّز، لأنه يتم الانطلاق من فرضية أنه فيما بعد (ولكن تحت المراقبة الدقيقة للمعالج) يتوقف رد الفعل تلقائيًا.

الاستغراق في الحَصَر هو تقنية توسيع نظامي لعوامل الحَصَر: يواجه، مثلًا، شخص يُعاني رهاب الأفاعي بأفاعٍ حيّة (استغراق في الجسم الحي) وتمثلات كثيفة للأفاعي (الاستغراق في الخيال) هناك الكثير من «العلاجات العنيفة» من هذا النوع التي يخضع استخدامها للنقاش (وخاصة علاج **ستامپفل**)

ج. التدرّب على حلّ المسائل

جرت، في مطلع القرن العشرين، أبحاث مكثّفة حول بنية المسائل (**ديوي، روس، والاس، سيلتس، دونكر**). واستخدمت، منذ العشرينات من القرن نفسه، طرق مثل العصف الدماغي (إعداد جماعي للحلول: **أوڤرستريت، أوسبورن**)، لتحسين عمليات حل المسائل. وجعل ظهور الحاسوب من عمليات المسألة فصلًا مهمًا من علم البرمجة.

يُعتبر التدريب على حل المسائل، في إطار العلاج السلوكي، في خدمة التدريب على الكفاءة الاجتماعية (كفاءة، معرفة الحياة)، نميز عدّة مراحل في هذه التقنيات.

بين الانطلاق والهدف يحدث تصميم سبقي ورجعي. يجب أوّلًا تحليل المسألة والتعريف بجميع الصعوبات المتصلة بها. إن فقدان الرغبة العارضة، في هذه المرحلة، له أثر الحَصْر / الإغلاق على مستوى علم النفس. يُعمَد، فيما بعد، إلى عملية تفريغ تبعًا لجميع الخيارات الممكنة، وذلك منهج يمكن أن يكون «للعمى النوعي» عن موضوع ما، بالنسبة إليه، أثر الحَصْر، من جديد.

إنه لمن الصعوبة، بنوع خاصّ، تحليل النتائج و(قبل ذلك) تفاعلها (تداخل الحسنات والسيّئات).

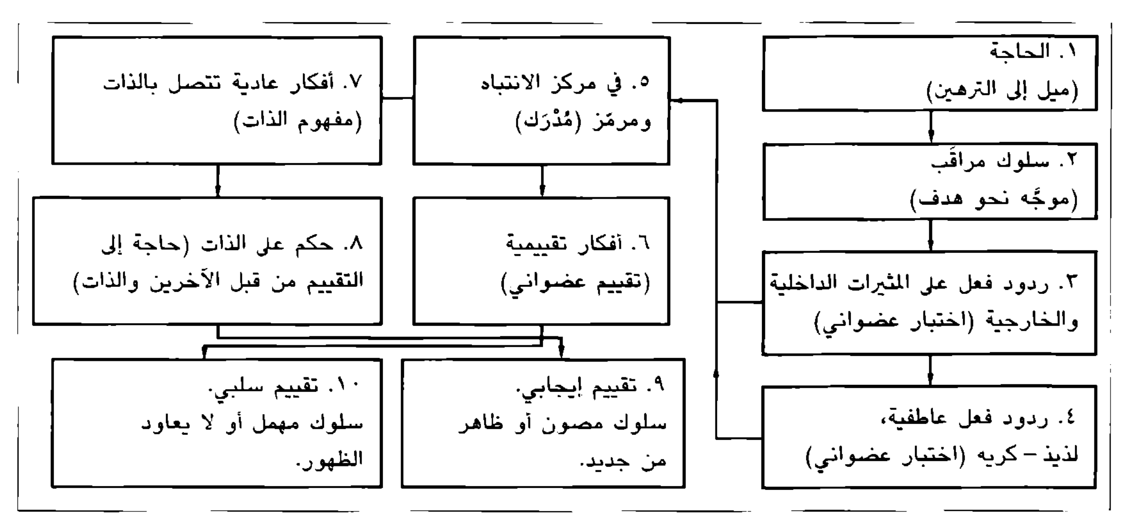
يبدو اختيار الحل «الأفضل» سهلًا، ولكن يستسلم الإنسان، غالبًا كما برهن **هـ.أ. سيمون**، لأي حل كان يأتي أوّلًا، يشير التدرب على حل المسائل، بطريقة مثالية، إلى ثلاث صعوبات أساسية:

جهل الأسباب
حصْر الإمكانيات
غياب المبادرة الخاصة بالهدف.

إن أفضل النوايا لا تستطيع أن تصمد حتى تحقيق المشروع. التدرُّب على الثقة بالنفس هو نوع من مساعدة. ويحدث الانتقال إلى العمل على أساس صلة ارتجاعية مستمرة مع تحليل الهدف كتعزيز للهدف.

وجُمع أخيرًا (تحت عدّة تسميات) هذه المجموعة من المهمات في فئة من «التنظيمات الشخصية». وفي هذا السياق، يمثل جهد الشخص حامل تنشيط قِوَى الشفاء الذاتي مع دعم معيَّن. يحدث التعديل الذاتي أو التنظيم الذاتي بفضل تقنيات المراقبة الذاتية والتعزيز الذاتي، وطرق الضبط الذاتي.

وفي التدرّب على ضبط الغضب، مثلًا، تحلَّل الأسباب المركزية للغضب، يُنظَم إعدادها المعرفي، تزال التهجمات ويتم التمرّس ببناء علاقة هادئة مع أسباب الغضب السابقة.



أ. تصور الشخصية



ب. متغيرات علاجية

درجات

	خصائص	I/II	III/IV/V	VI/VII
١	انفعال	ضمني	جاهز	شعور حر
٢	تمثيل	وعي أدنى	وعي متزايد	وعي تام
٣	عدم تطابق	خفي	معروف	مُحيَّد
٤	اتصال ذاتي	مفقود	متنامٍ	صورة الذات كاملة
٥	اختبار	التواء	نقص الصلابة	اختبار مستقل
٦	إعداد المسائل	فقدان الإعداد	وعي المسائل	مسؤولية الذات
٧	علاقة بالأشخاص	دفاعي	بداية الثقة	علاقة الحرية

وظائف

ج. متغيرات العملية

يشعر الكثيرون من الناس المضطربين نفسيًا بأن لا أحد يفهمهم. وعندما يُعاد إليهم ما يعانونه عند ذلك فقط يشعرون بأنهم مفهومون. وعندها يستعيدون تدريجًا الطاقة على التغيّر.

انطلاقًا من هذه التجربة، التي عثر عليها **كارل ر. روجرز** في بعض أفكار المحلل الحديث **رانك** وفي مصادر صينية، وضع علم النفس غير التوجيهي، أو العلاج النفسي بالمحادثة.

وقد لاقى كتابه «التوجيه والعلاج النفسي» (١٩٤٢) نجاحًا عظيمًا لأنه كان يحتوي جديدًا مثيرًا ألا وهو: النقل الكامل لعلاجٍ فرديّ مسجّلٍ صوتيًّا.

أ. تصوّر الشخصية

روجرز (١٩٤٢):

«ننسى غالبًا أن نتائج أي نوع من العلاج النفسي تسلّم بالفرضية التالية: إن الفرد قادر، شرط أن يساعد على أن يعيد توجيهه وتنظيم أوضاعه، قادر على أن يتكيف بطريقة طبيعية وبأقل عناء، وأنه أيضًا يستطيع التوصُّل إلى الرضى عن نهج اجتماعي مقبول».

ولبلوغ هذا الهدف، يحاول العلاجُ النفسي غير التوجيهي أو «المركّز على الزبون» أن «يعيد تنظيم عملية تقييم الجسم» (أي مقاربته النقدية للتجارب ليجعلها تسهم في الوقاية الذاتية».

ينطلق المخطط، الذي يتضمن ١٠ مراحل، من الميل إلى تحقيق الذات (مطمح عام إلى الاكتمال) مرورًا بمفهوم الذات (نموذج متغير للذات تبعًا لماضيها وحاضرها ومستقبلها الخاصة بها) إلى أن يصل إلى إعادة التقييم.

إن الهدف الذي حدده **روجرز** هو «شخصية مفعمة بالقدرة على العمل» (١٩٥٩)؛ مميزاتها الأساسية هي التالية:

الانفتاح على التجارب، التطابق بين صورة الذات والتجربة، احترام الذات، إدراك غير مشوّه للحقيقة وتفاعل اجتماعي ناضج ومرضٍ.

ب. متغيرات علاجية

يتطلب العلاج النفسي غير التوجيهي، أكثر من أي علاج نفساني آخر، تحفّظًا من قبل المعالج. والسبب غير معقول. فالمعالج يرى بسرعة كافية السبب «الحقيقي» للاضطراب النفسي («حقيقة» يفسرها تبعًا لنظريته الضمنية). لكن:

«كلّما كان التأويل دقيقًا وثابتًا تكون الحظوظ أوفر لدى الزبون لكي يجيب عنها بالدفاعِ والمقاومة». (**روجرز**).

تمثل هذه المقاومة، في نظر المحلّل النفسي، حَصْر (أو إغلاق) اللاوعي (الأوديبي) فيضعها في مركز «العمل الاستيعابي»، فيجيب السلوكي عن ذلك بعكس الاشتراط في حين أن المعالج غير التوجيهي يتركها تدور في الفراغ.

ويذكر **روجرز** ما قاله الفيلسوف الصيني **لاوتسو** (القرن السادس ق.م): «إذا تحاشيتُ التدخُّل في غير ما يجب، يهتم الناس بأنفسهم، وإذا تحاشيت إعطاء النصائح، يجد الناس بأنفسهم السلوك الصحيح».

ولكن ليس المطلوب أن يقف المعالج عاطلًا عن العمل؛ يجب عليه أن يحترم ٣ «متغيرات علاجية».

(١) أن يعيد إلى الزبون ما يعبر عنه بالمرآة. بهذا يرى الزبون نفسه في كلام المعالج ويبدأ بإصلاح نفسه (التعبير عن الأحداث العاطفية المعيشة). يشعر أنه مفهوم ولكنه أيضًا مستعد للتغيير.

(٢) المتغير الثاني الأساسي هو التقييم الإيجابي للزبون والحرارة العاطفية تجاهه. يعزز هذا التقييم الثقة بالنفس وبالعلاج.

(٣) تشكّل الأصالة والتطابق الذاتي الطلب الأصعب بالنسبة إلى المعالج. تتطلب الأعراف الاجتماعية الكثير من الرياء والبطلان والخبث: «يجب التخلّي عن هذه العادات لمصلحة انفتاح الذات كي لا تكون ظنون الغش والدجل مصدر شك وانغلاق لدى الزبون فتحمله على الانسحاب من المخالطة الإيجابية إلى العلاقة العلاجية».

ج. متغيرات العملية

بعد كل من الجلسات بين السادسة والخامسة والعشرين التي تدوم الواحدة منها ٤٥ دقيقة، يجري شركاء العلاج ميزانية عن تقدمهم أو تراجعهم.

يستخدمون من أجل ذلك سلسلة من الأسئلة.

إن سلسلة **توملِنسون وهارْت** (١٩٦٢) التي أعاد النظر فيها **روجرز** تستهدف ٧ ميادين وظيفية (خطوط) و٧ درجات (أعمدة) تتيح تسجيل تقدم ممكن.

يشار، في إطار هذا السياق العلاجي، إلى متغيِّرين للعملية:

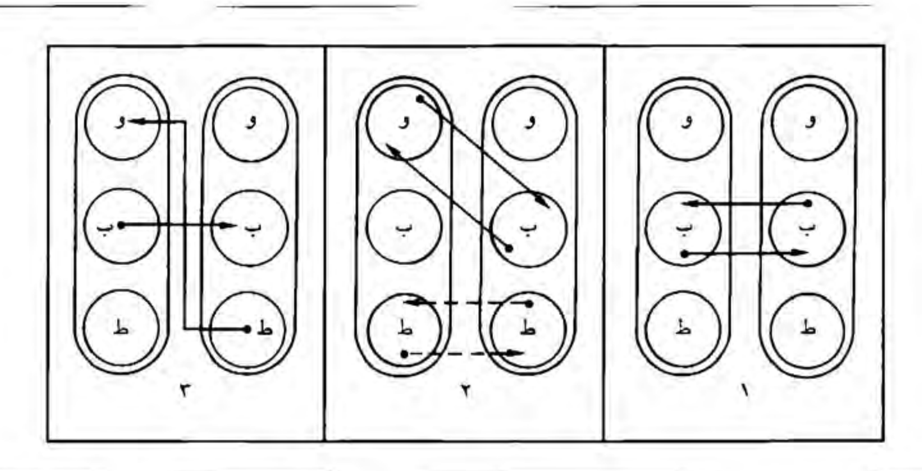
الاستكشاف الذاتي: (اكتشاف أوجه جديدة من التجربة الداخلية) وطريقة أن يحيا الإنسان ذاته (التأمل الذاتي النقدي، الانتشار الداخلي، التطبيق الموسّع).

يصر العلاج النفسي بالمحادثة على واقع أن نتائج العلاج ليست نهاية ولكن بداية تحقيق متنامٍ للذات. («نظرة استرجاعية» ١٩٧٦):

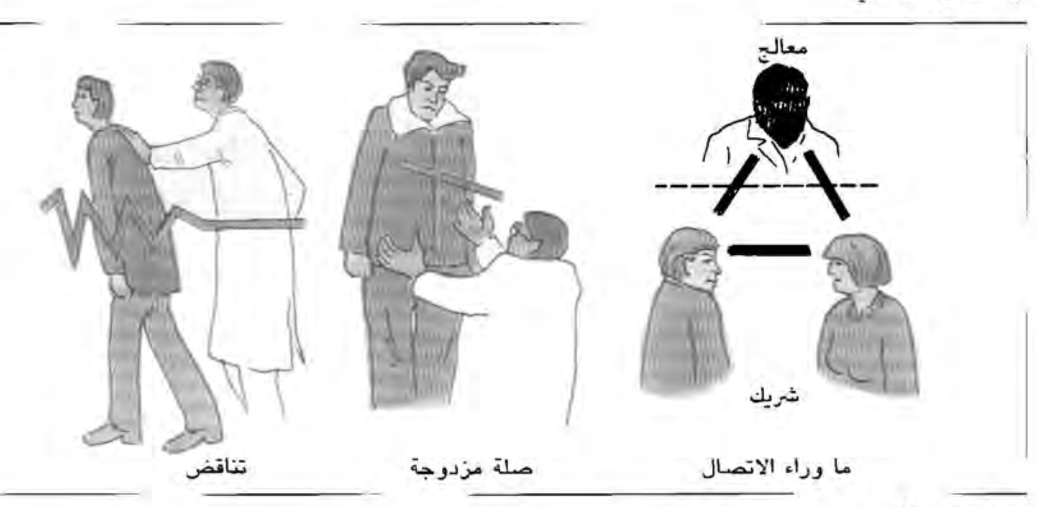
«كان ذلك التطوّر التدريجي والتحقق الحرج لفرضية أن الفرد يخفي في ذاته طاقة ضخمة لتساعده على أن يفهم ذاته، أن يعدل مفهومه لنفسه ولمواقفه وليعدل سلوكه بطريقة استقلالية ذاتية».



أ. اضطرابات الاتصال



ب. التحليل التعاملي



ج. اتصال علاجي

لا شك أن أكثر الاضطرابات النفسية تسبّبها، وأحيانًا تعزّزها، الاتصالات الشراكية. وهكذا نفهم لماذا تألّفت مجموعة من العلاجات النفسية تضع، بالضرورة، الاتصال بين الشركاء من ضمن مداخلاتها. يمكن التمييز بين مجموعتين من النظريات.

يدرس بعضها (من وجهة نظر شكلية وصفية) أشكال العلاقات بين الشركاء.

ويهتم بعضها الآخر (بشكل إجمالي بياني رمزي) «بروحية» الاتصال، أي بالأنا - فريق الذي يستسلم أعضاؤه عندما يجدون أنفسهم معًا. إنه، إذًا، لمن المنطقي أن تسير العلاجات الاتصالية في اتجاهين.

أ. اضطرابات الاتصال

ميّز **ڤاتزْلاڤيك** ومؤلفون آخرون (١٩٧١) خمسة مبادئ من الاتصال يقابلها هذا العدد من إمكانيات الاضطرابات.

(أ١) بما أن كل اتصال خاضع لـ «سببية دائرية» (اتصالات العلاقات)، فإن اللااتصال لا وجود له:

«لا يمكن إلّا أن نتصل» (الصمت والانعطاف يعنيان شيئًا ما).

(أ٢) لكل اتصال مستويان: مستوى المحتوى ومستوى العلاقة، إليك حكاية مشهد زواجي منتزع من علاج.

دعا رجل صديقًا له هاتفيًا أن يمضي الليل عنده بعد أن طلب إليه الصديق ذلك. وبالرغم من أن زوجته تصرّفت مثله (مستوى المحتوى)، إلّا أنها تذمّرت لأنها لم تُستشرْ في هذا القرار (مستوى العلاقة).

لكن الزوجين لم يريا أن شجارهما سببه علاقتهما وليس الدعوة (التي كانت موضوع الشجار).

(أ٣) ليس في المشاجرة «بداية» (من بدأ أولًا؟) لأن كل واحد يمكنه أن يجد سببًا سابقًا.

(أ٤) ويمكن أن تكون العلاقات، باللغة المعلوماتية، «رقمية» أو كلامية (ثناء) أو «نظيرية» أي غير كلامية (تقديم هدية)، إن تشوش هذين النمطين من الاتصال قد يسبّب سوء تفاهم (فصل ١/١١).

(أ٥) العلاقات المتناظرة هي علاقات الند للند في حين أنه في العلاقات التكاملية يتكامل الشريكان. وإذا رغب أحدهما في شيء فعارضه الآخر يؤدي ذلك إلى اضطرابات.

ب. التحليل التعاملي

إن نقطة انطلاق التحليل التعاملي، الذي أسّسه **إريك برن**، هي في التفاعلات الاجتماعية. والمسألة هي بديل اجتماعي للنموذج المنطقي الذي أعدّه **فرويد**.

أنا طفل (ط) يواجه أنا بالغ (ب) وأنا - والد (و)

كلٌ يملك ثلاث «أنوات» (جمع أنا): ويمكن أن يتصرّف كطفل، كبالغ أو تبعًا لأنا أعلى الأهل. من هنا فالعلاقات «مزدوجة القعر» وصعبة الفهم.

عندما تقول المرأة لزوجها: «منذ بعض الوقت بدأت تأكل كثيرًا» (مستوى بالغ). يمكن أن يرد هكذا: «أقلعي عن تأديبي، أيجب أن تتصرفي دائمًا كأم لي» (مستوى طفل ترجمان لمستوى والد).

تنشأ الاضطرابات عندما لا تكون العلاقات متوازية (مثل ١ و٢) لكن متصالبة(مثل ٣).

من مهمة المعالج أن «يحلّ هذه الاتصالات المتصالبة (مثل عادات الابتزاز المتبادل من نوع «إذا ما...») أي أن يفسّرها ويحوّلها إلى علاقات متوازية. ومن الضروري، من أجل ذلك، أن يُعدّ الناس «شهادة حياة» (توجهات) معتمدين على «تحليل الشهادة».

ج. إتصال علاجي

بخصوص هذه المجموعة التي تشكّلت بالاعتماد على سيكولوجية **غريغوري بيتسون**، يجد المعالج نفسه في مواجهة الزوجين في علاقة ما بعد اتصالية، أي أنها مدرجة، في الثنائي الزوجي، على أن يكون المعالج أعلى تراتبيًا بحيث إنه يستطيع أن يفرض «ما وراء القواعد». تتعلّق هذه القواعد أيضًا بالصلات المزدوجة كما تتعلّق بالتناقضات.

الصلات المزدوجة هي اتصالات تحول دون بلوغ الهدف المنوط بها.

إذا شخص ما أمر شخصًا آخر أن «كن عفويًا» فإن هذا لا يستطيع التصرّف عفويًا ودون إكراه. ذاك أول شكل من أشكال التدخّل المتناقض الذي أدرجه **ڤكتور إ. فرانكل** في العلاج الكلامي. يعكس المعالج أوامره، فتطاع.

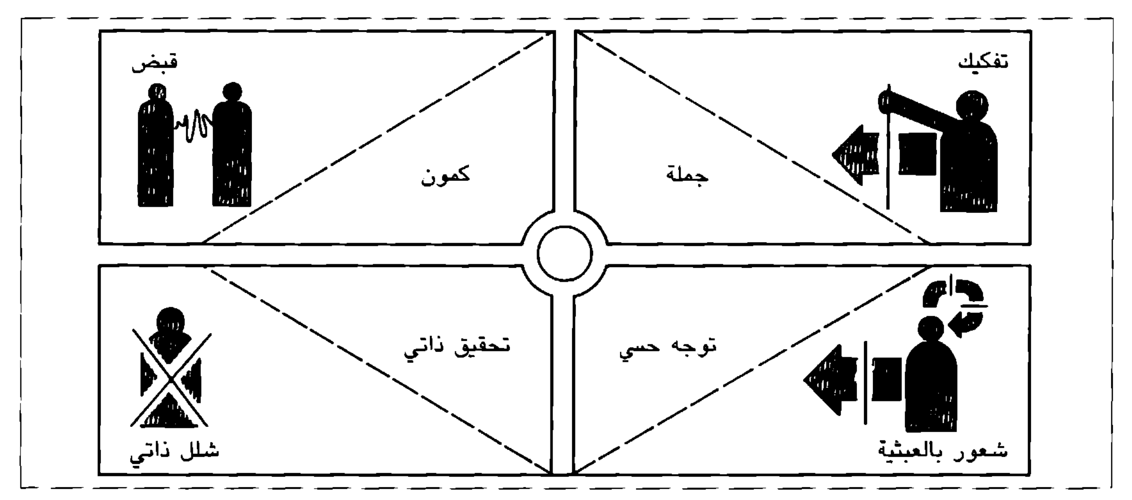
المقصود، حِسّيًا، هو الإيعاز إلى الزبون بسلوك يؤدي إلى الاضطراب. ننطلق من فرضية أن العفوية تتعرّض للفقدان، ما يتيح إزالة السلوك الشاذ.

ويكتب «**ڤاتزلاڤيك** بهذا الخصوص:

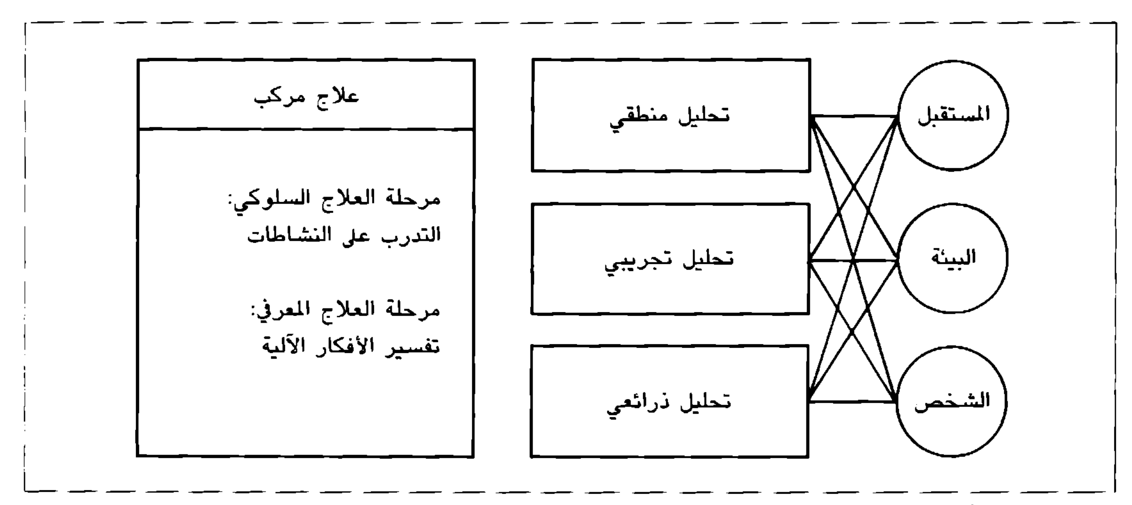
«إن نقطة الضعف في تدخلاتنا هي، بكل بساطة، الحاجة إلى جعل أحد ما يتبنى، بنجاح، السلوك الذي يُحدّد له».

ولهذا يُبْرَم «عَقْد شيطاني» يُرغم الزبون على الاحتفاظ بسلوك يثير الاضطراب، الأمر الذي يكون من نتيجته التناقض الشفائي لهذا العلاج، أي القضاء على السلوك مسبّب الاضطراب.

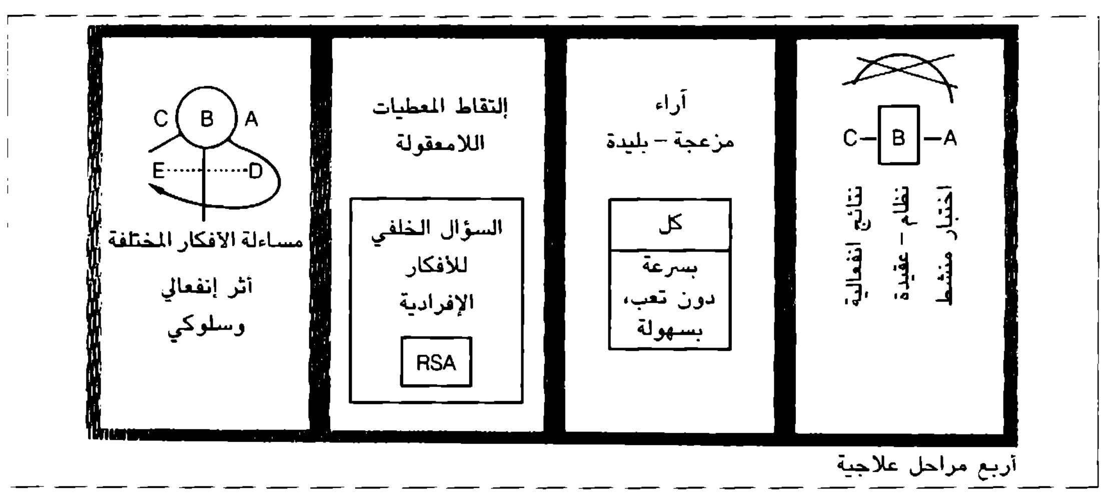
تحتوي هذه المجموعة سلسلة من الطرق العلائقية التي تقدم برامج تدريب بين الحالة القائمة والحالة المبتغاة للعلاقة مرورًا بزيادة طواعية النظام والأشكال الجديدة من اللطف والكياسة.



أ. علاجات نفسية إنسانية



ب. العلاج المعرفي



ج. علاج عقلي – انفعالي

إن ما دُعِي المنعطفَ المعرفي/ الإدراكوي لعلم النفس، في بداية السبعينات من القرن العشرين، أحيا **تصوراتٍ** كانت دائمًا موجودة في تاريخ علم النفس. لكنّها اعتمدت عندئذٍ على معارف جديدة **تفرعت** من علم النفس المعرفي (فصل ١٠). وتميّزت عن الأفكار القديمة التي ليس العقل بموجبها سوى البنية الفوقية للعلاقات الاجتماعية (**ماركس**)، ودون حرية بالنسبة إلى اللاوعي (**فرويد**) أو أيضًا «خصم النفس» (**كلاغِس**)

يعتبر العقل اليوم أداة تنظيم ذات استقلالية ذاتية (متخيّلة «من على مسافة بعيدة». **ج. لاكان**)، بإمكانها أن تضلّلنا كما بإمكانها أن تضعنا على الصراط المستقيم

أ. علاجات نفسية إنسانية

تعتمد العلاجات النفسية الإنسانية على توازن نسبي لأربعة أهداف إنسانية (متصلة فيما بينها) بالقياس إلى فشلها.

(١) الجملة وهي ظاهرة أساسية لعلم نفس الشكل

إن المصاب بالعصاب، لا يستطيع المشاركة بعلاج الشكل (**ف. پيرلز**) «إنه يحدّ نفسه عن ذلك بنفسه».

(٢) الكمون الإنساني هو قسم عظيم من الدوافع الإنسانية مثل الخدومية، الصلاح، العطف، الاحترام.

يتحدّث التحليليون الوجوديون (**بنزڤانغر، فون غبساتل**، عن الإنسانية الدفينة بخصوص المريض عقليًا، يتحدّث **پيرلز** عن «القبض» (وهو مفهوم موازٍ للكبت في التحليل النفسي).

(٣) يُقابل **ف.إ. فرانكل**، في تحليله الوجودي وعلاجه الكلامي، بين التوجه الجِنّي واللولب العُصابي، فقدان الشخصية – فقدان الشعور بالواقع،

الذي يؤدي إلى «تشنج التفكير» وإلى شعور بالعبثية.

(٤) تحقيق الذات هو محور علاج المعالِجَين الوجوديَّين **ر. ماي وأ.م. ماسلو**.

وعلى عكس هذا التحقيق الذاتي. يُعاني المُصاب بالعصاب ضغوطًا كابتة تمنعه من أن يعود إلى نفسه وتُراكِمُ الاضطرابات بدلًا من أن توفّر له الطمأنينة والثقة.

علاج الشكل (العلاج الجشطلتي) هو مَثَل على العلاجات الإنسانية.

تستعير هذه الطريقة البدعة، من العلاجات الأخرى، كل ما يتيح لها إيقافُ «تفكيك الشكل» لشخص ما:

عمل جسدي، عمل الحلم، ارتجاعٍ جماعي، دراما نفسية، تقنية المقعد الحار (تُجلِس الجماعةُ الزبون، على كرسي من خشب). وخلال عملية تدعى توزيع الآثار، يجب التعبير المباشر عن الصراعات.

ب. العلاج المعرفي

تفرّع العلاج المعرفي عند **أ.ت. بك** عن علاج الاكتئاب لكنّه تعمّم، فيما بعد، على اضطرابات نفسية أخرى. انطلق هذا العلاج من نُظُم تقييم سلبية مبنية على أخطاء تقدير مختلفة: نظرة سلبية إلى المستقبل والبيئة وإلى الشخص بالذات. ولما كانت نظم التأويل هذه غير معقولة، نُخضعها لثلاثة تحاليل: منطقي (هل نسيان إلقاء التحية هو حقًا علامة رفض؟)

تجريبي (ألم يكن من أسباب غير تقنية لإلغاء مكالمة هاتفية؟)، ذرائعي (الاعتراف بأن حالة الوهن تُنْتِج فقدان الإغراء)

يلي هذه التحاليل علاج مركّب:

في المرحلة الأولى من العلاج السلوكي يتم التمرس بتحريك النشاط ومحاولة التحكم ببعض المهمات. وفي حين يعين المعالج حدود هذه المهمات يشرح «الافكار الآلية» كتلك التي تفترض أن الزبون «عار من كل قيمة». إن هدف مرحلة العلاج المعرفي هو تقييم إيجابي للثالوث السلبي في بداية أمره؛ المستقبل، البيئة والذات.

يكتب **بك** (١٩٧٩):

«يوفر شرح النموذج قاعدة للتقنيات التي يجب أن تستعمل لكنه يشير إلى ضرورة التعاون بين المعالج والزبون».

ج. علاج عقلي – انفعالي (RET)

لكي يميّز **ألبير إليس** علاجه العقلي الانفعالي من سائر العلاجات، كتب (١٩٨٠) أن علاجه يقيم شأنًا لواقع

«أن الإنسان يمارس مراقبة قوية على ما يشعر به وما يفعله».

يميز العلاج العقلي – الانفعالي أربع مراحل علاجية:

(١) نظرية ABC فحواها أن A (اختبارات منشِّطة صادرة عن البيئة) ليست سبب C (نتائج انفعالية).

بين الاثنين توجد B: نظام العقيدة، أي عادات التفكير.

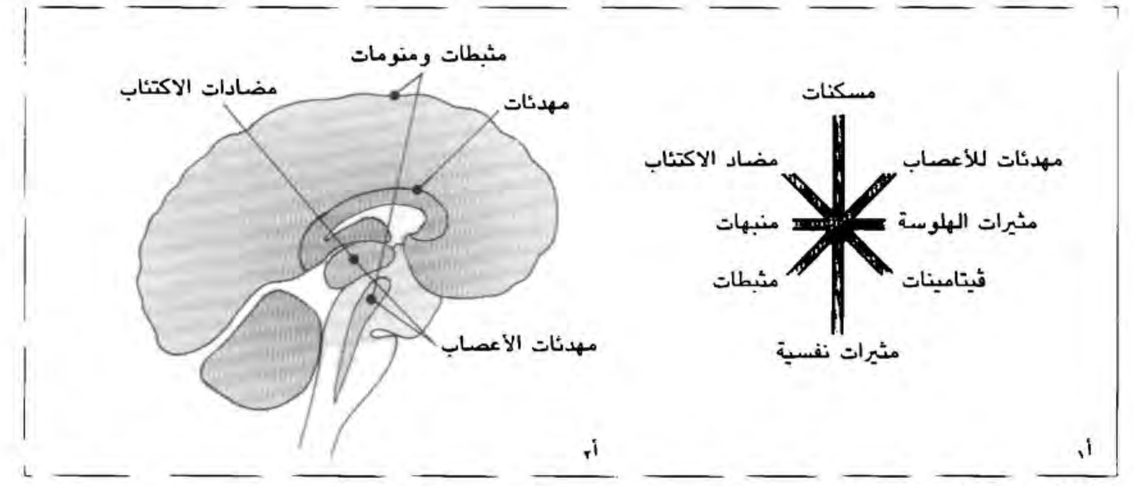
(٢) لدى الإنسان توقُّعات غير معقولة. ويدعوها إليس (اضطرابات بسبب الأوامر) يجب أن يتمّ كلّ شيء بالضرورة، بسرعة وسهولة ودون تعب. على جميع الناس أن يحبوني.

(٣) يجب أن تُدقَّق جميع هذه المعطيات اللاعقلانية وتستجوَب واحدة واحدة:

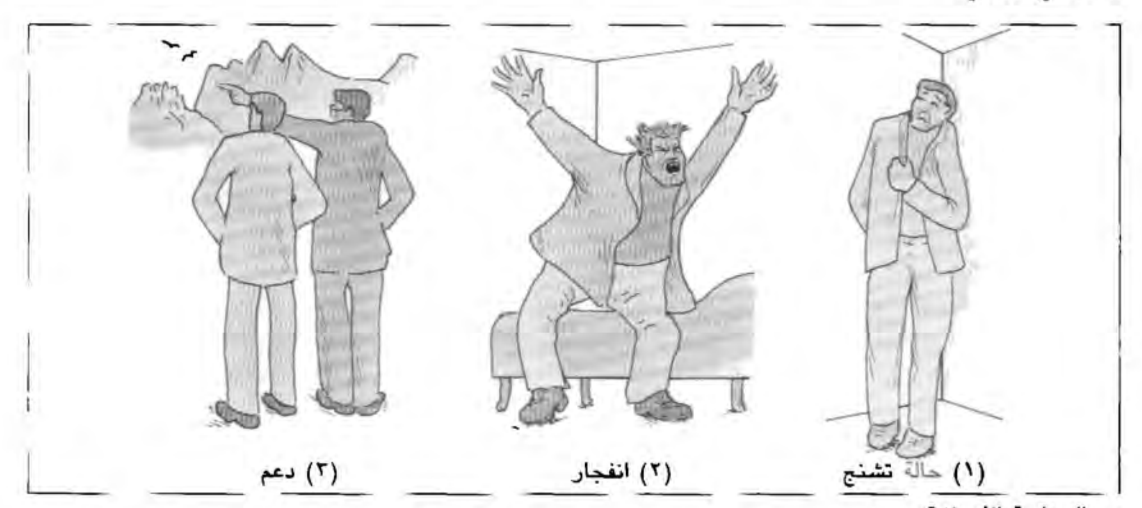
هل هذه الفكرة واقعية؟ ما مصدر الخطأ في هذا الاعتقاد؟

(٤) النتيجة، بحسب **إليس**، هي تغيير الموقف بالنسبة إلى الحياة: «يتم الحصول على هذا الأثر العلاجي في نهاية العلاج العقلي الانفعالي».

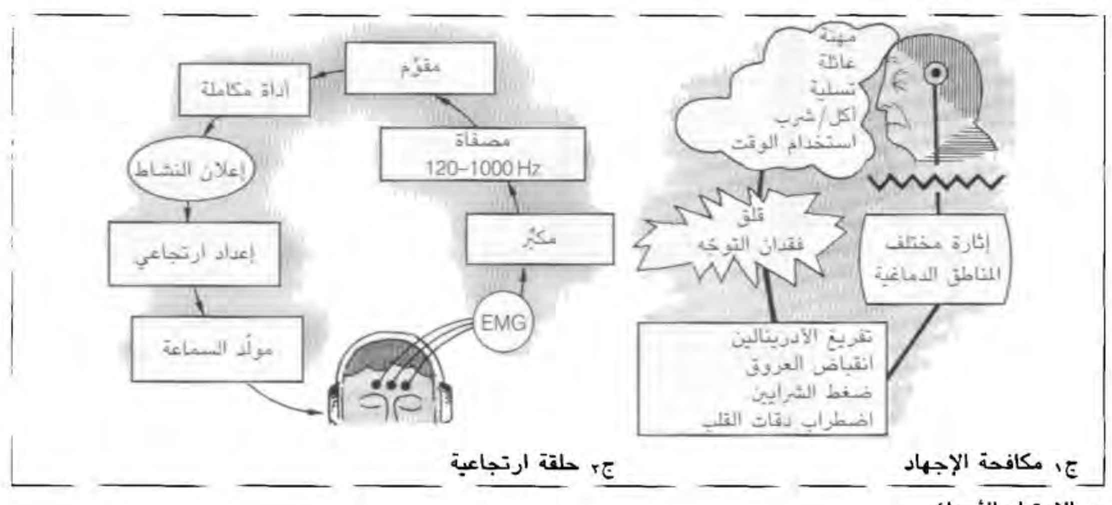
تنطلق مراحل هذه الطريقة من التحليل العقلي للذات (RSA) إلى الأثر (E) مرورًا بالمناقشة (D).



أ. العقاقير النفسية



ب. الدينامية الأحيائية



ج. الارتداد الأحيائي

ساعة يصبح بالإمكان مواجهة مسألة نفس – جسد (فصل ١/٥)، يصير ممكنًا، ذات يوم، تفسير التفاعل بين الجسد والحياة النفسية. نكتفي، حاضرًا، بوجود علاقة وثيقة. يمكن أن نعرض لهذا التفاعل في اتجاه جسد – نفس (كما في العلاجات بواسطة الحركة) أو في اتجاه نفس – جسد (كما في العلاجات بالإيحاء).

تَمْزِج **العلاجات الجسدية** بين المقاربتين.

أ. العقاقير النفسية

بما أن عمل المواد الكيميائية ملائم (ويعتمد على فوائد اقتصادية ضخمة) فإنه يتفوّق اليوم على الوسائل النفسانية

(أ١) يمكن تصنيف الكثرة من العقاقير النفسية تبعًا لعدّة أوجه: عملها على النفسية، الغاية العلاجية، الأنظمة الفيزيولوجية المعنية أو تركيبها الكيميائي.

نميز، استنادًا إلى هذا الوجه الأخير:

المسكنات («الحبوب السعيدة»)، مضادات الاكتئاب، المنبهات، المثبطات، المثيرات النفسية (أشباه القلويات)، الڤيتامينات (العلاج بالميغاڤيتامين)، مثيرات الهلوسة (عقاقير تثير حالة من التبعية الجسدية والنفسية)، مهدئات الأعصاب (لعلاج الانفصام).

(أ٢) تؤثّر العقاقير النفسية على مناطق مختلفة:

المسكّنات تؤثّر على القشرة الدماغية وتحت المهاد، المهدِّئات تؤثر في الجهاز الهامشي، ومضادات الاكتئاب على تحت المهاد، مهدئات الأعصاب على تحت المهاد وعلى التكوّن الشبكي..

نرى أيضًا أن للعقاقير النفسية مساحة انتشار على شيء من الاتساع، ما يجعل استخدامها العلاجي قليل الدقة. وتتَّهم أيضًا بأنها تجعل المريض تابعًا وتخفف من طاقته على الشفاء الذاتي.

ب. الدينامية الاحيائية

لا تشكل العلاجات الجسدية جزءًا فقط من أقدم العلاجات (مثل التاي – شي – شوان) الصينية التي تعود إلى القرن الثاني عشر)، إنها بين أكثرها عددًا. يصعب رسم الحدود الخاصة بأنواع الرياضة.

إلى جانب الطرق السهلة جدًّا مثل العلاج بالاحتضان (التملّك) الطويل الأمد **(تنبرغن)**، هناك طرق أكثر تشددًا مثل الاختبار الذاتي للجسم **(ج. ألكسندر)** أو طريقة **رولف** (تصحيح أوضاع الجسم العاطلة الآلية).

مثل واحد من هذه الكثرة: متفرع من علاج أورغون وينتقده **وليم رايخ** (العلاج بالعري والمعدّ لتحرير الحاجات الشهوانية الدفينة، تفجرات طبيعية في وجه «الدرع المزاجية الانفعالية» النفسية الفيزيولوجية)، «الطاقة الحيوية» **(الكسندر لوين)** هي صيغة ملطّفة، تقتصر على ثلاثة أوجه:

(١) يكوّن كل إنسان، على مدى حياته، حالات تشنُّج ليست فقط نفسية بل أيضًا جسمية. يجب تحديدها.

(٢) يحدث فيما بعد انفجارات عنيفة لهذه المناطق المتشنّجة

(٣) تتيح دعم المعالج الولوج إلى الجوانب السارّة والمريحة من الحياة واعطاءها صيغة ملائمة.

ج. الارتداد الاحيائي

هذا العلاج هو علاج جسدي بواسطة أجهزة. يستخدم أكثر الأحيان للقضاء على الإجهاد (للوقاية من الإجهاد أو ضد نتائج الإجهاد)

(ج١) الإجهاد ظاهرة معقّدة:

الأوضاع الشخصية مثل الضجر المتكرر، الأوضاع الشاذة والعادات السيئة تسبب الضياع والغم.

يجب تحطيم الدائرة المكونة من إفراز الأدرينالين وانقباض العروق وارتفاع ضغط الشرايين والاضطرابات القلبية ثم من جديد إثارة بعض المناطق الدماغية (القشرة، المهاد وتحت المهاد).

(ج٢) نتوصل إلى ذلك بواسطة الراحة، التي يجب ألا تكون فقط نفسية بل جسدية أيضًا وذلك للحصول على تخفيف جملة النظام المعنيّ. تتوفر المعلومات تقنيًا بواسطة أجهزة كهربائية.

يُقاس توتر العضلات EMG كدليل على حالة التوتر، بنقله إلى عدة تحوّلات ونعْلِم به الزبون ارتجاعيًّا.

وبفضل هذه «الرَّمامة الإلكترونية» **(فايتل)** يمكن، لضبط قوّة انقباض العضلات، أن يسهم مباشرة بالهدوء والسكينة ويُعْمَد، في الحالات القصوى، إلى التظاهر بالهدوء (مثل تخفيف الصوت بواسطة سمّاعات) لكي تلطّف هذه الحالة من الهدوء، المسبق من جهتها، مجمل الجهاز وتوفر ارتياحًا للزبون.

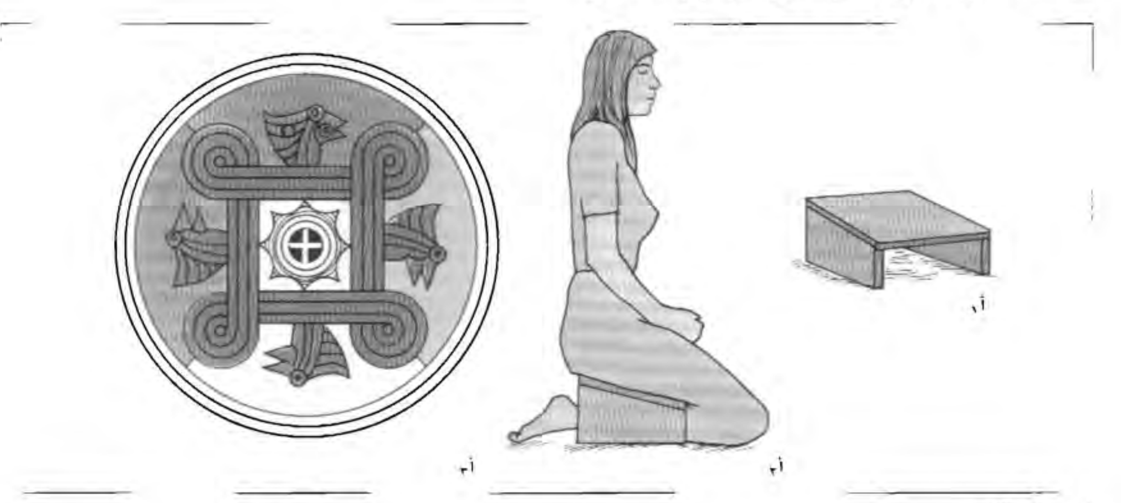
لقد توسّعت مجموعة العلاجات الجسدية توسّعًا عظيمًا في هذه الأوقات الأخيرة. ونتج عن ذلك ٤ اتجاهات: المراقبة الجسدية.

أساليب «حركية». تحلل الحركة كالعلاج التركيزي للحركة **(م. غولدبرغ)** التي تعدّل صورة حركة الجسم.

التدرب على الوظائف الحسية. تُعبأ بعض المجالات الحسية مثل الشم لتقوية الحساسية. هذه هي حال العلاج بالعطور **ج. فالْنِت**.

التجربة الجسدية. حلقة رجعية لأحداث معيشة رجعية لرفع وعي الجسد، كالعلاج في دورة من المراحل.

وظائف جسدية خاصّة. تقييم بعض إنجازات خاصة في الجسم مثل التنفُّس، تنفس م. **پروسْكُوير**.



أ. سياق التأمل



ب١ يوغا

ب٢ تاي – شي – شوان

ب. التأمل الآسيوي



ج١ تمارين رياضية



ج٢ تأمل بالصورة والموسيقى والحركة

ج. التأمل الغربي

التأملات هي أساليب تتيح الغوص في الذات، يستخدمها علم النفس العيادي أيضًا، معريًا إياها من أصلها الديني، كتقنيات لإيجاد الذات.

جاءت، في الشرق، من الطاوية والهندوسية والبوذية، وفي الغرب من التصوف المسيحي والحسيدية.

ليس دور التأمُّلات بالشيء الزهيد فيما يدعى فورة علم النفس، كونها استعادة حديثة مبسطة لاختبارات العلاج النفسي المفيدة والمشروعة.

أ. سياق التأمُّل

بالرغم من الفروق العظيمة، تحترم مختلف التوجُّهات، التي يسلكها التأمُّل، سياقًا ما.

(أ١) يتبنى المتأمِّل، استنادًا إلى التوجُّه الذي يختاره، وضعًا تأمليًا معيّنًا وتبعًا لهذا الوضع يعطى الطالب الجديد مقعدًا للتأمُّل.

(أ٢) ثم تنقطع الاتصالات بالعالم الخارجي،

بإغماض العينين، مثلًا، وبتقليص المحيط تدريجًا للتحوُّل عنه نهائيًا، بالراحة والانكماش في «وعي غارق».

(أ٣) يتم بلوغ حالة التأمل الحقيقية بفضل تجربة ما داخلية خيالية. تختلف هذه الحالة باختلاف نوع التأمل.

يمكن أن يتخذ هدفًا «حالة فراغ» داخلي، نوعًا من النوم اليقظ. وهناك تأملات، من ناحية أخرى، تهدف إلى حالة من النشوة، أو «الانخطاف الداخلي» (**ماسًا** ١٩٧٤) لأنها متجهة نحو الداخل بخلاف «الوجد أو الانخطاف الخارجي». وفي التصوّف الإسلامي يبلغ التأمُّل حتى تقليد حالات انخطاف الدراويش التي تتيح لهم السير على الجمر.

وبما أنه ليس من السهل بلوغ هذه الحالات، تستخدم خاصة رسوم بيانية تساعد على التركيز:

تستخدم هذه الأنواع من المندالات (أ٣) (وهي رسوم هندسية تمثل الكون بألوانها الرمزية وأسوارها)، لتركيز القوى الداخلية فكريًا وذلك باجتياز ٣ دوائر: دائرة النار (التطهير)، دائرة الفاجرا (المسارة) ودائرة اللوتس (التحوُّل)، حتى الوصول إلى قلب الوجود.

تشكل العناصر التكوينية العقائدية التي تدخل في سياق التأمل أنماطه المختلفة.

ب. التأمل الآسيوي

(ب١) اليوغا (ومعناها الحرفي «وضع الأفكار تحت النير») هي تربية أخلاقية وروحية وبدنية في آن واحد، قوامها إعداد الحواس لبلوغ أقصى درجات الروحانية. وفي الغرب فقدت خلفيتها الدينية لتستخدم في ولوج اختبارات ذاتية قصوى (حالات من الوعي المكثف، **ماسلو**، ١٩٦٢).

يجلس اليوجي على شكل اللوتس، أسفل قدميه متجه نحو الأعلى، إحدى اليدين في الأخرى وهما موضوعتان على الفخذين، الجسم مستقيم (العمود الفقري يرمز إلى محور الكون)، يركز وعيه الغائص في ذاته ويرفعه تبعًا لسلم الشكرا (أوراق اللوتس)، عددها ٥ عند البوذيين و٧ عند الهندوسيين أو تبعًا لبعض نقاط تركيز أساسية.

ترمز كلٌ من هذه الدرجات إلى مستوى الكائن، يرمز الحلق، مثلًا، إلى الكلمة المقدّسة، والغاية المتوخّاة هي الذوبان بالمطلق.

تُبتغَى هذه الغاية، في أشكال أخرى من التأمُّل، بواسطة رموز أيقونية (مودراس) أو كلامية (مانتراس)

تستخدم اللامائية الترنيمة المقدّسة «أوم ماني پادمِه هوم» (أوم وهوم مقطعان بدئيان، ماني هو المبدأ المذكّر وپادمِه المبدأ المؤنث)، تستخدم البوذية زِنْ (شَن باللغة الصينية) الـ«الكُوان» («مستودع الحكمة» أو نماذج تأملية متناقضة)، السومي (الرسم بالحبر الصيني)، الإيكِبانا (أزهار في إناء) وحفلة الشاي.

(ب٢) ملاكمة المتأمل لظله تمارس في الصين (تاي - شي - شوان) وهي من أصل طاوي (طاو = الطريق). يعبر رمز يِنْ ويانغ عن التناغم بين السماء والأرض، بين المذكر والمؤنث...، نجد فيها هذا التناغم: كل حركة (بطيئة) تكملها وتعطّلها حركة معاكسة.

ج. التأمل الغربي

عُرفت أشكال من التأمُّل مع عبادة ديونيسيوس.

(ج١). يصف مؤسس الرهبنة اليسوعية **إغناطيوس دو لوايولا**، في كتابه «رياضات روحية» (١٥٤٨) رياضة تطهير وتنوير تستمر أربعة أسابيع، لا تزال مستعملة حتى اليوم:

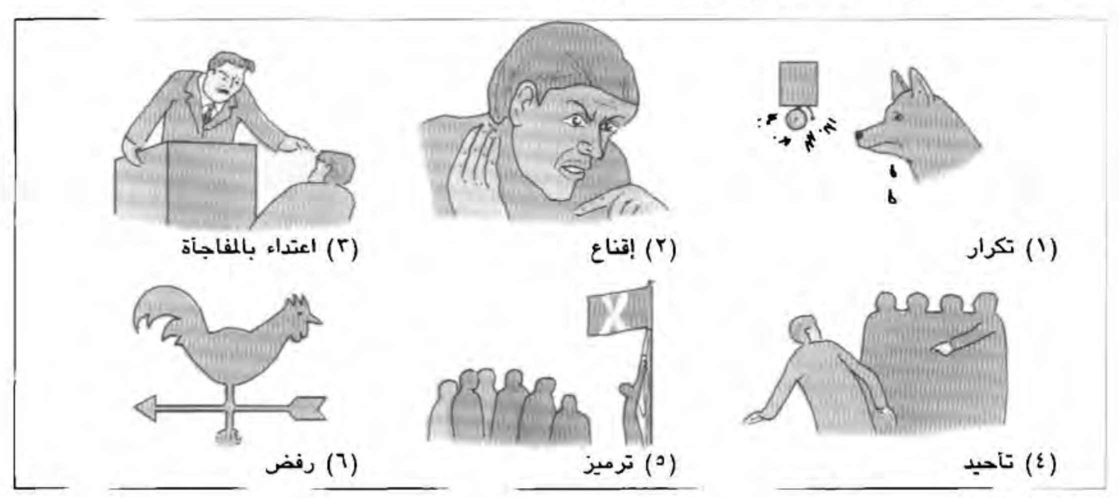
يركع المتريِّض، يستند أحيانًا إلى شخص آخر. يتأمل آلام السيد المسيح؛ وعليه، فضلًا عن ذلك، أن يجري ملاحظات وانتقادات لذاته، قد تعتبر طريقتها تمهيدًا للعلاج السلوكي.

تعود بعض الصيغ الكلامية التأمُّلية إلى **القديس غريغوريوس السينائي**: وطريقتها المواءمة بين حركة التنفس ودقات القلب مع كل كلمة من الصلاة.

(ج٢) الخلفية العقائدية مفقودة تمامًا تقريبًا في التأمّلات بواسطة الصورة والموسيقى والحركة، الأمر الأساسي فيها هو «استسلام المتأمل للقوى الأساسية» (**بودن**، ١٩٦٨)، أو بكلام آخر ازدياد الحساسية الذاتية.

يتيح العلاج بالرقص الوصول إلى تجارب حركية قريبة من الارتعاد، والعلاج الموسيقي يقوي التعبير العاطفي والعلاج التصويري التأمُّلي يحرّك تحريكًا متآلفًا أشكالًا مجرّدة، عامّة.

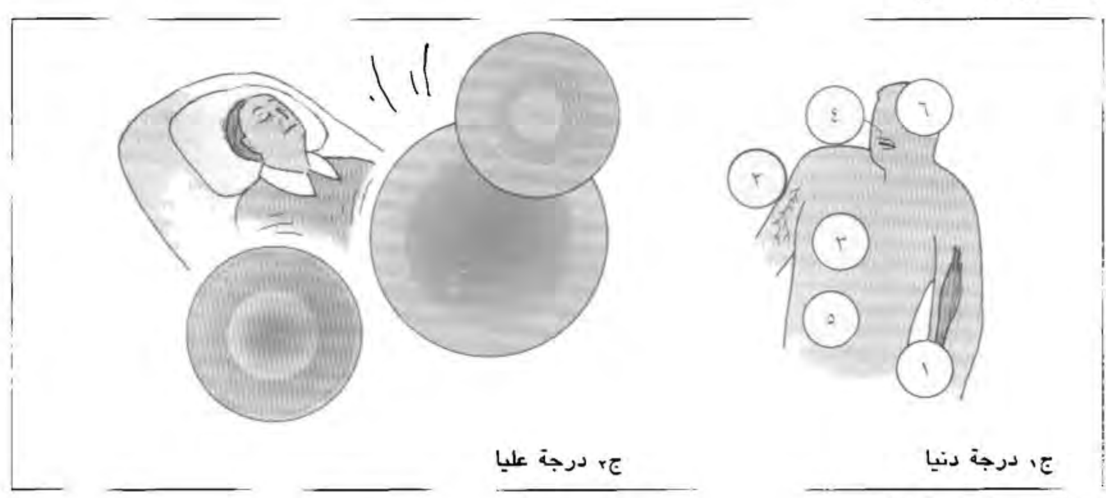
يعرض المثل في الصفحة المقابلة نموذجًا من الارتجاج التصويري (الرسمي) يوضح الصفة التأمُّلية لهذه الأشكال البيانية.



أ. منهجية الإيحاء



ب. التنويم المغنطيسي



ج. التدريب الذاتي النشأة

كتب المعالج النفساني (**إ. بواراك**، ١٩٢٠)، منذ وقت طويل، أن الإيحاء هو «أميركا» التي نحن مضطرّون إلى إعادة اكتشافها كل ٣٠ سنة. والحقيقة هي أن تجديد الآثار اللغزية للإيحاء عرف مدًّا وجزرًا. وظيفته هي و«الوضوح» على طرفي نقيض.

قلّما نعرف الآثار التي يخلّفها الإيحاء ولا يبوح من يستعملها، طوعًا، كيف يتوقّع نتائجه.

أ. منهجية الإيحاء

عندما نؤثر على شخص، على الصعيد الفكري، إنما نسعى إلى أن يفهمنا الآخر؛ التفهم يليه اقتناع، وبعد ذلك يتصرّف الإنسان طبقًا لهذا الاقتناع

يحاذر الإيحاءُ هذا الاستيلاءَ العقلاني؛ إنه يبحث عن الطريق المباشرة للتأثير اللاواعي. ثمة عدّة طرق لبلوغ ذلك؛ نفضل من بينها الطرق الست الأكثر أهمية:

(١) تكرار الأثر القسري للانعكاس (كما هي الحال لدى كلب **باڤلوڤ**)

(٢) الإقناع الآسر لإشعاع الشخصية، صنع الأسرار وإضعاف روح النقد.

(٣) الاعتداء المفاجئ الهادف إلى سحق المقاومة، إما بالعنف المحض وإما بالانتقامات البارعة. يوحي الإنسان بإرادته إلى الآخر باستهلاك تأكيداته، مثلًا، بالصيغة المشهورة و«المتعارف عليه أن» يعطي الانطباع أن جميع الناس تعلم ذلك ما عدا الشخص الذي يوجّه إليه الحديث.

(٤) يعتمد التساوي (التأحيد في الشكل) على شيء من ميل، لدى أكثر الناس، إلى التهميش.

(٥) الترميز يلجأ إلى الرموز، مثلًا: العَلَم لإثارة الشعور الوطني. أمثلة أخرى توفّرها الإغراءات المعنة في الواقعية، أي الإثارات المضخمة مثل الرموز الجنسية (وخاصّة جسد المرأة) التي يفترض أنها تؤدي إلى أثر مباشر.

(٦) الرفض (وهو الإيحاء العكسي السفسطائي) يعكس (كدوارة الريح المتجهة عكس الرياح) المعنى الحقيقي لما يقول محوّلًا إياه إلى سخرية ظاهرة. لكن هذه الطرق هي من التكلّف بحيث يصعب أحيانًا التعرُّف إليها.

ب. التنويم المغنطيسي

التنويم المغنطيسي هوَ أقوى تقنية إيحائية. بفضل الإيحاء والسيطرة يغوص الزبون في حالة قريبة من النوم ولكنّه يظل مستعدًّا لتقبُّل إيحاءات المنوِّم. نميز أربع مراحل أساسية لبلوغ التنويم المغنطيسي.

(ب١) الشرط الأساسي وضع إيحائي ذاتي مريح. من هنا يلتزم المريض توقُّعات مؤثرة.

(ب٢) ثم تستخدم لغة كلامية (ذات صوت خفي مهدئ) ومثيرات مخدِّرة (مثل التحديق في شيء) لحمل المريض على النوم.

(ب٣) يكون في حالة النوم «ألفة» (علاقة تبعية تخضع للتعليمات) تتيح إعطاء أوامر بعد التنويم (أوامر ذات أثر دائم): تنويم الاستقالة (السلوك المستكره، كحال الإدمان على الكحول، يثقّل بالنفور)، التنويم التكيّفي (حيث يوحي المنوم بسلوك جديد) والتنويم الوقائي (استعداد توقّعي لأوضاع مستقبلية).

(ب٤) تزيل إيحاءات الإيقاظ حالة النوم (٣ حالات: الخدر أو النعاس، حالة ما بين النوم واليقظة، الروبصة)، تحتوي هذه الإيحاءات، في أكثر الأحيان، تعليمات تنويمية للشعور بحالة أفضل بعد اليقظة.

يجب إبداء حذر شديد في علاج التنويم المغنطيسي، لأنه يولّد عادة حالة من التبعية.

ومن انتقادات **فرويد** أن التنويم المغنطيسي هو أبعد من أن يوضح مشاكل المريض بل إنه «يموِّهُها»

ج. التدريب الذاتي النشأة

طوّر **شولتز**، هذه الطريقة التي وضعها انطلاقًا من التنويم المغنطيسي، لكن دون أن يوحي بالنوم.

(ج١) يتعلم المريض، في الدرجة الدنيا من هذه الطريقة، أن يمارس تأثيرًا على وظائفه النباتية (التي يستحيل عادة السيطرة عليها). يولّد لديه، في ست حلقات، انطباعات جسدية وحالات تهدئة.

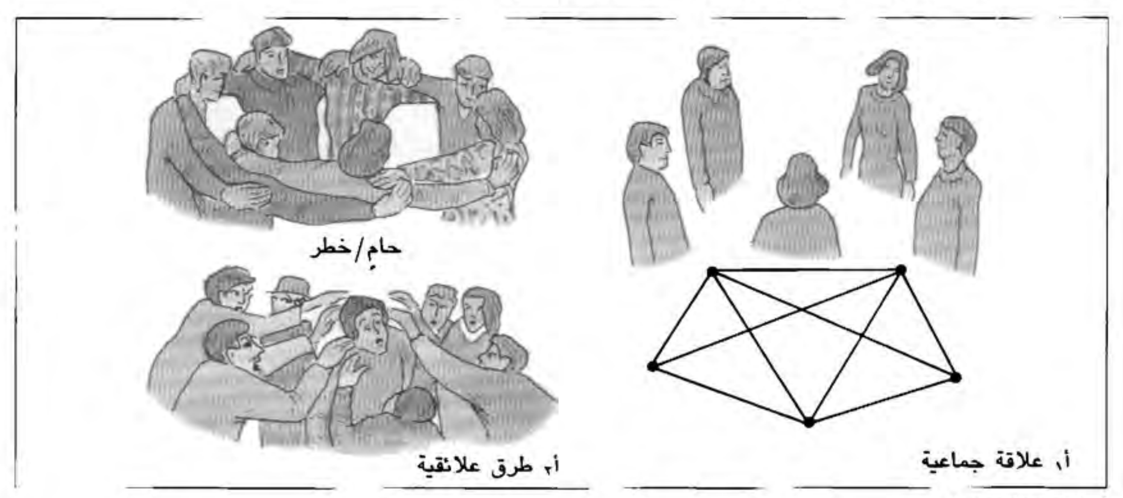
يوحى إليه إحساسات بالوزن والحرارة والبرودة ثم تنتزع منه بحيث يتعلّم، شيئًا فشيئًا، أن يعيش معها.

تتعلّق المراحل المختلفة، على التوالي، بالعضلات (١)، والأوعية الدموية (٢)، والقلب (٣) والتنفّس (٤) وأعضاء البطن (٥) والرأس (٦). يوحى إليه، أثناء تدريب حراري، مثلًا «أن يجب أن يكون الذراع الأيمن حارًا تمامًا. وبعد نحو دقيقتين يزول الشعور بالحرارة سريعًا وينتهي بحركة تمطٍّ ممتعة.

(ج٢) وفي الدرجة العليا، ليست الوظائف الجسدية بل الوظائف النفسية هي التي تتأثر. يحاول المنوِّم، لدى إيحائه بتمثّلات مختلفة، أن يحصل على «تلطيف لصدى الانفعالات»، كما في التأمُّلات (فصل ٢٠/١١):

يفرض على الزبون، مثلًا، وهو في حال من الخشوع التأملي، أن يتخيّل أمام عينه الداخلية، أشكالًا ملوَّنة مهدئة (دوائر ملوَّنة، حلقات...)

تتطلّب هاتان الدرجتان مرحلة طويلة من التدريب، والتزامًا يقرِّره الزبون وصلابة عظيمة في الممارسة اليومية التي تلي الإيحاء الذاتي.



أ. الطرق الجماعية



ب. التمثيل النفساني



ج. حركة تلاق

إلى جانب العلاجات الفردية، أعدّت جميع التيارات العلاجية، تقريبًا، أيضًا، علاجات **جماعية**. إن بعض الأشكال العلاجية لا تمارس إلّا في جماعة. للشكل الجماعي بعض الفوائد بالنسبة إلى العلاج الفردي.

إنه، بدءًا، اقتصادي أكثر لأن عدّة زُبُن يعالَجون معًا. وثانيًا، وبالإضافة إلى حضور المعالج يتأثر الزبن بعضهم ببعض. وبإمكانه أخيرًا أن يؤثر في الفريق نفسه ويغيّره.

أ. الطُرُق الجماعية

يهتم علم النفس الجماعي ببنية الجماعة وبتطورها وبصفاتها الجماعية. يتفحّص، فيما يخص بنية الجماعة، خصائصها (مرتبتها، أدوارها، نماذج الاتصال، القوانين، التي عولجت في علم النفس الاجتماعي (فصل ١٥). طُبِّق علم النفس على العلاجات الجماعية، وها هي الحبكة الداخلية للجماعة العلاجية من وجهة نظر مبادلاته الكلامية والجوهرية كما تؤخذ في الاعتبار وكما تستخدم على الصعيد العلاجي.

(أ١) نرى هنا أين هي الجماعة من الطريق التي تؤدي إلى حالة الجماعة المستقلة والوظيفية تمامًا (فصل ٤/١٥). وما يشكل جزءًا من أهم صفات العلاقة هو

قواعد الاتصال (المساواة في المشاركة، تعويض الرتبة التسامحي)، المناخ الجماعي (قلة توتّر، جو مريح) وظائف الدعم (مساعدة متبادلة، ومساعدة الآخرين جزء منها).

(أ٢) ينتج عن ذلك طُرُق وقائية إلى حدٍّ ما أو خطرة تميز جماعة من الجماعات.

ب. التمثيل النفساني

اقدم علاج جماعي هو التمثيل النفساني، كان طبيب الأمراض العقلية، **جاكوف ليڤي مورينو** (١٨٨٩-١٩٧٤)، يعود، في أحد أعماله الأولى (١٩١١) وفي كتابة مخصصة للمسرح الارتجالي (١٩٢٤)، إلى أشكال المسرح الشعبي التقليدية في ڤيينّا وإلى طريقة عملها كونها «مسرح الجميع مع الجميع». وفي سنة ١٩٣١، بعد أن هاجر إلى الولايات المتحدة، حوّل تجاربه إلى عملية علاجية جماعية.

(ب١) الفكرة الأساسية هي إعادة تمثيل المشهد الأليم بمشاركة أشخاص آخرين لكي يكون الإعداد العاطفي ممكنًا.

الزبون هو الممثّل الأساسي، البطل وإلى جانبه نجد القائد أو «مدير المسرح» ومعاونيه العلاجيين، الذين هم في أكثر الأحيان مرضى آخرون.

وهم يحولون «بوظيفتهم كداعمين» أي، بمساهمتهم النشطة في الحدث، العملية العلاجية إلى «دراما اجتماعية»، إلى «دراما فيزيولوجية» أو إلى «دراماقيمية» (تبرز القيم الأخلاقية) تبعًا للمحتوى الأليم الماثل.

يُبدأ، وعلى المستوى التقني الدرامي، بتمارين تحضيرية (بعث الحمية، تطويع العفوية)، تليها تمثيل مشاهد تعبّر بقدر الإمكان عن أوضاع استثنائية (مهنية، عائلية...) لتقييم الذات والآخرين.

(ب٢) تُدخَل تنوعات مسرحية لإحياء الأعمال الإسقاطية مثل: استخدام كرسي «فارغ» وسط المسرح، تبادل الأدوار، لعب الادوار المتناقضة، إسقاطات في الماضي والمستقبل، الغناء الإيمائي.

ج. حركة تلاقٍ.

على أثر تكوين جماعات التدريب الأولى (فصل ١/١٥) من قبل **كورت ليڤين**، تطوّر عدد كبير من جماعات التلاقي على مدى العقود الأخيرة: يميز **ك. روجرز** الأنماط التالية:

جماعات التدريب، جماعات الإدراك الحسي، جماعات إدراك الجسد، جماعات البناء الجماعي، مشاغل الإبداع.

قسّمها إلى جماعات متعارفة، جماعات غير متعارفة وجماعات المؤسسة. ويجري في جميع هذه الجماعات تقريبًا ثلاثة تمارين جماعية تتيح للزبون أن يقوى

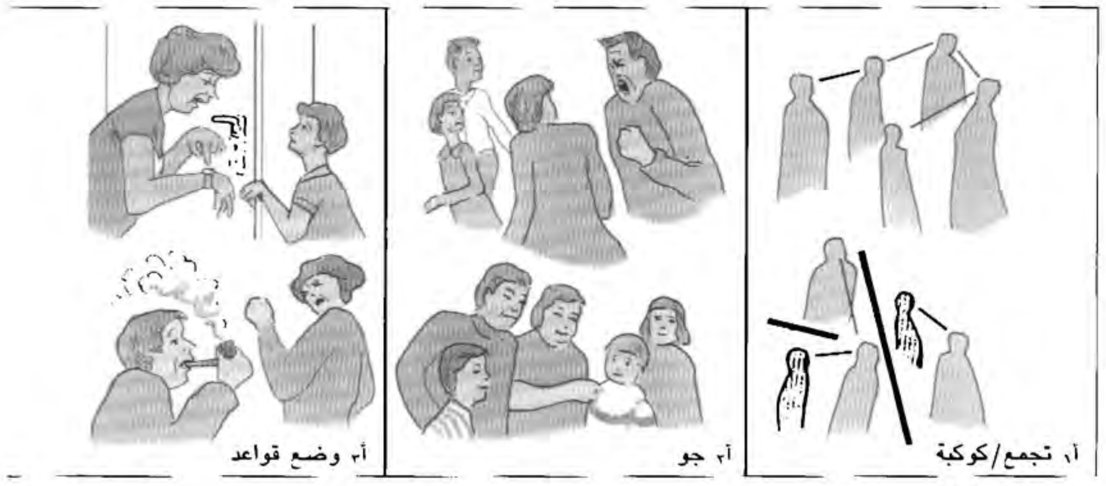
(ج١) يتيح اللقاء تقوية الشعور بالقيمة الذاتية بفضل الاحتكاكات الإيجابية المختلفة.

(ج٢) وبما أن الكثيرين من الناس فقدوا كلّ ثقة بالآخر وبما أن هذه الثقة هي أساس الثقة بالذات، فإنهم يتلقّون تدريبًا على الثقة يمارس كل واحد الحاجة إلى الاعتماد على الآخر.

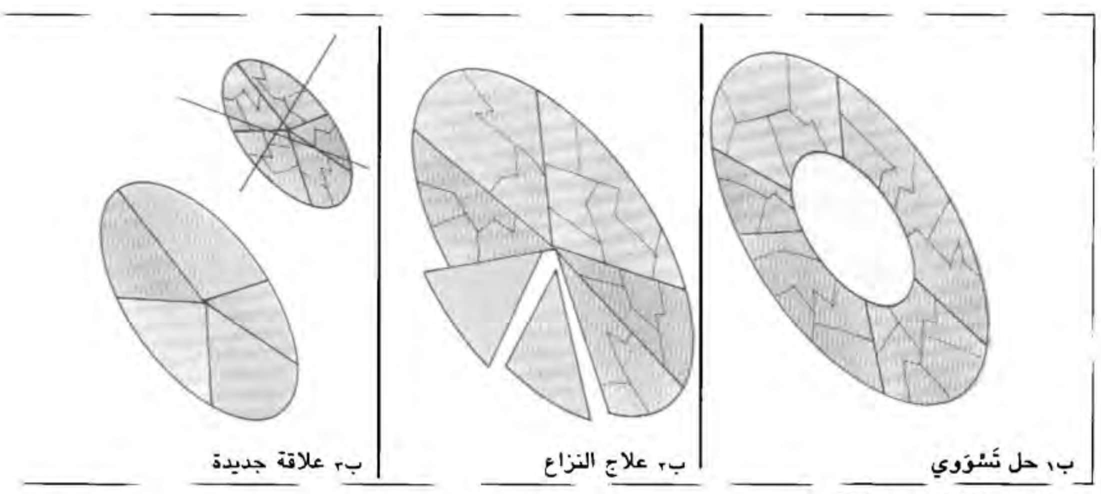
(ج٣) وفي اللقاء مع المجتمع يجري التمرّس بالشعور الاجتماعي. ويعالج المشاركون أيضًا موضوعات اجتماعية وسياسية.

إذا كانت تيارات علاجية قد طورت طرقًا مشابهَة، فإن هذا، ظاهريًا، ناشئ عن حاجة كثيرة الانتشار انبثقت من الاحباطات الاجتماعية إلى التفاعل المركّز على أبحاث **روث كوهْن** هو، في صميم التحليل الجديد، مثل على ذلك: فإن مهمتها تطوير (الحساسية تجاه الآخر والقوى الحدسية». (**كوهْن**، ١٩٧٥).

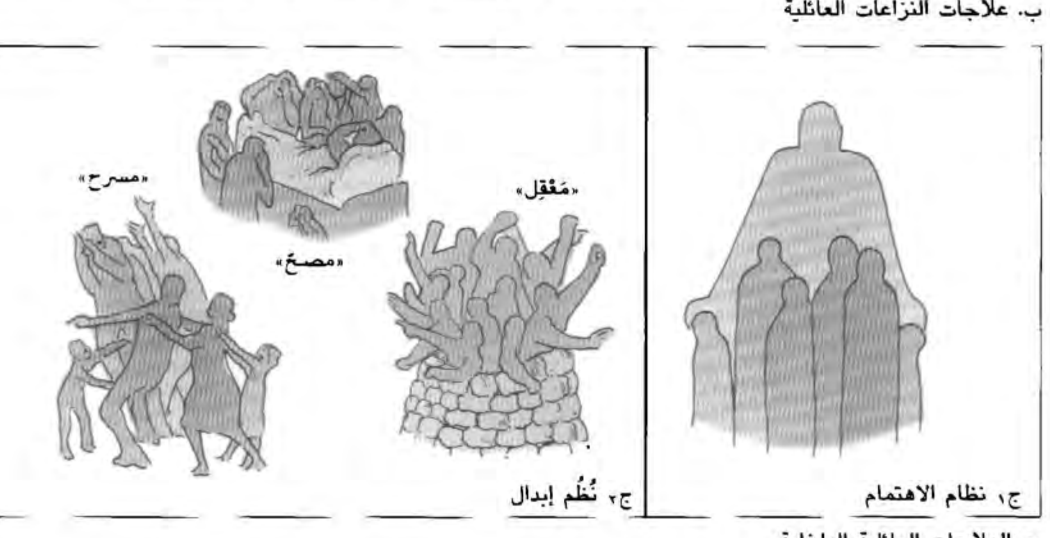
تتعلّق هذه الطرق، من وجهة نظر موضوعية، بتمارين اجتماعية على الخسارة. وهي وفي حال «قلق المعاشرة» مثل (**و. شميدبوير**)، تلجأ إلى ممارسة الاتصالات الاجتماعية عن طريق الملامسات «غير المعتادة» (الظهر إلى الظهر مع شخص مجهول)؛ وتلجأ، في حال فقدان الثقة الاجتماعية، إلى تمارين والعينان مغمضتان، يجب خلالها الارتماء بين ذراعي شخص آخر.



أ. التشخيص العائلي



ب. علاجات النزاعات العائلية



ج. العلاجات العائلية الداخلية

كثيرًا ما أُعلن، خطأً، موتُ العائلة. إنها لا تزال مركز تجاربنا في الحياة ونقطة انطلاق استراتيجياتها.

ولكنّها، أيضًا، غالبًا، «دكتاتورية مكرهة» **(رولفس)** يريد الكثيرون الهرب منها. والإشكالية التي تخفيها تُقرأ في تطور طرق جديدة لا مثيل لعددها ولتنوُّعها في مجالات من العلاج النفسي. يمكن اليوم تمييز العشرات من الطرق المشهورة التي يصعب إيجاد قاسم مشترك بينها. ويصعب أيضًا رسم حدود تميزها في معالجات الأطفال (لأن الأطفال هم غالبًا مرتكز التوترات العائلية) وفي معالجة المسنين (لأن إحدى المشاكل الأساسية للشيخوخة هي فقدان العائلة).

أ. التشخيص العائلي

ما الذي يجعلنا نقول إن عائلة ما هي «مريضة»؟

من الصعب الإجابة عن هذا السؤال.

إن جزءًا، على الأقل، من العائلة، يحدِّد، عمليًا، الوضعَ بأنه لا يُطاق. ومن الواضح أن طبيب العائلة النفساني لا يرضى بهذا التقرير وطالما أنه يوجد عمليًا عدد غير محدود من الاضطرابات العائلية الممكنة، فإن أولى مهماته تقوم على إجراء تشخيص للعائلة (يكون جزءًا متكاملًا من العلاج العائلي).

والمعايير الثلاثة المهمة هي التالية:

(أ١) التجمُّع العائلي ينتج عن المراتب، عن الأدوار، عن علاقات القوّة، عن توزيع الغرف في المسكن... ثمّة روائز وألعاب تتيح إبراز هذا التجمُّع وبالتالي إظهار النقائص مثل الإفراط في القرب، أو بالعكس الابتعاد، الشعور بفقدان الإخلاص، الإهمال، الإبتزاز، استخدام خسيس للأسماء، رفض قبول الهدايا، أدوار كبش المحرقة، عدم التقدير، الخ...

إلى هنا، فالكثير من هذه النواقص لا يعترف بها أفراد العائلة.

(أ٢) الجو العائلي هو الآخر مؤلف من توترات، من ثورات، من مشاحنات، من تذمر وتشكٍّ، من تباعد ونزوات من هذا النوع تنتهي، بالتناوب مع سواها، إلى تغيير اتجاهها. إلّا أن لها نغميّة طاغية قلّما تكون متناسقة وتلعب دورًا في خلق مناخ «لا يطاق».

(أ٣) تهيئ كل عائلة عددًا مرتفعًا من القواعد المشتركة قلّما تنتج عن تبصُّر. ولكن يعاقَب عليها بقسوة (اتهام وعقاب). إن ما يميز العائلات السليمة من العائلات المضطربة هو أن نظام القواعد عندها يتكيف معها. وأعضاؤها يحترمونه بإجماع نسبي.

إن عورات هذا النظام تجعل العائلة مريضة، عندما تكون القواعد مبالغًا فيها، مثلًا، عندما يناقض أحدها الآخر أو عندما لا يلتزم بها بعض الأعضاء.

ب. علاجات النزاعات العائلية

يتعلّق قسم من العلاجات العائلية العديدة بالأسباب الأخيرة المذكورة أعلاه. فعندما نتعرّف إليها أو بالأحرى عندما نقضي عليها نخطو خطوة فسيحة نحو استمرارية العائلة، وإننا نرى، خاصّة، في المجال العلائقي، القوى الجاذبة تعمل.

وهكذا، فإن «انتهاكات الحدود» هي التي، بالنسبة إلى **س. مينوشين** (١٩٧٩)، تثير الاضطرابات في «الخارطة العائلية». ويسعى العلاج الزوجي، لدى **ڤيرجينيا ساتير**، إلى تحويل السلوك الإلزامي إلى سلوك حرّ.

(ب١) يمكن السيطرة على الخلافات عن طريق التسوية التي يقبلها الجميع ويحترمونها.

(ب٢) ويمكن أيضًا معالجة النزاعات قِطاعًا فقطاعًا وإعداد الأدوية، وفي علاجات الشركاء تحل النزاعات غير المعقولة ويُداوى فقدان المصداقية.

(ب٣) وأخيرًا يمكن ضرب صفح عن الماضي والبدء من الصفر.

هذه هي الطريقة المقترحة وخاصة في العلاج العائلي المركز على المريض (**غوردن، غورناي** وآخرون).

ج. العلاجات العائلية الداخلية

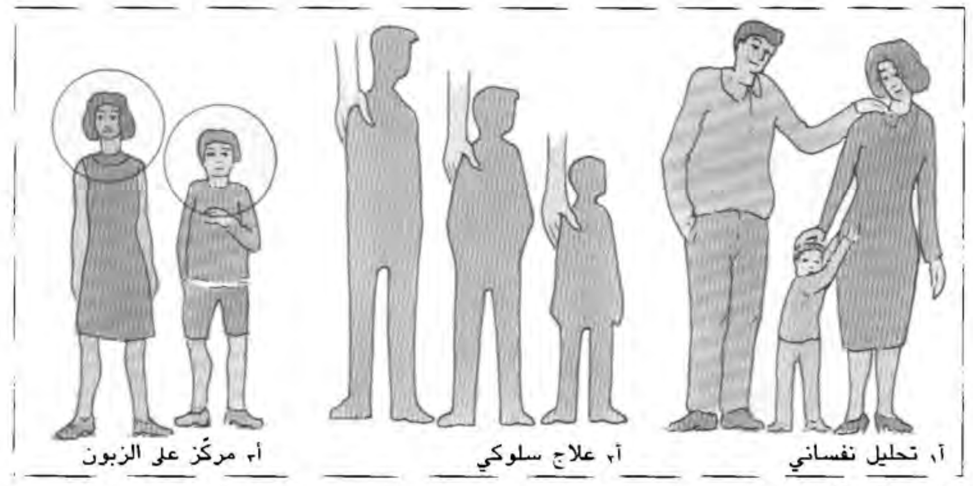
إنها طريقة مختلفة في الأساس، تستعيرها العلاجات العائلية الأساسية من مدارس مختلفة لعلم نفس الأعماق. فبالنسبة إلى هذه المدارس، يجب أن يعدّل النظام «اللاواعي» للعائلة بكاملها، نميز، استنادًا إلى وجهة النظر هذه:

(ج١) نُظُم الاهتمام أي أن معلّمًا واحدًا يَهتم بالعائلة والأهل «يهتمون» بالأولاد استنادًا إلى مبدأ التفويض (**هـ ستيرلين**) كمتبنّي مُثُل لا يستطيعون بلوغها.

(ج٢) نُظُم الحلول، أي العائلة «تحل» في «معقل» (دفاع عُظامي)، في «مصح» (شفقة على الذات في عصاب الخطر)، أو في «مسرح» (كبت هستيري)، لاستخدام مصطلحات **هـ.إ. ريختر** «للعصابات ذات الطابع العائلي».

لا تُكافَح هنا مختلف الخلافات أو أعراض الاضطراب داخل العائلة، ولكن يخضع «اللاوعي العائلي» (**غرليشر** ١٩٧٧) لعمل تحليلي.

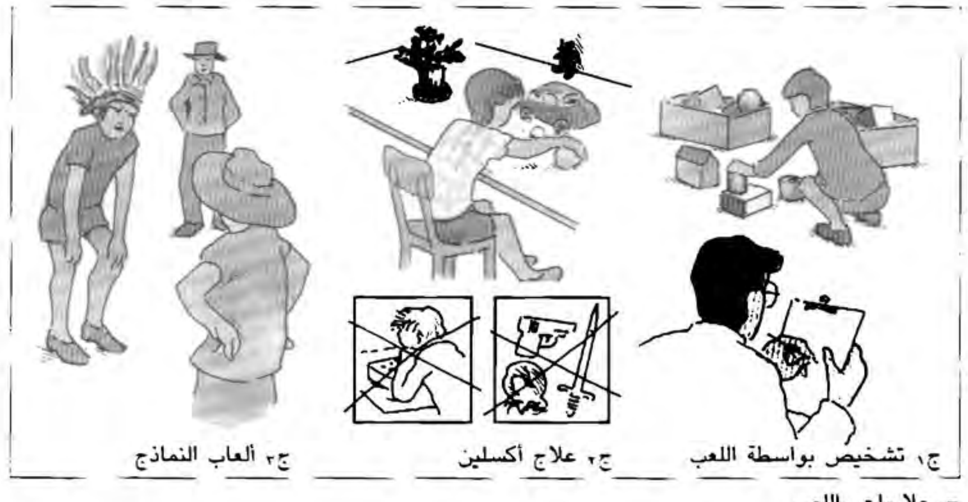
وتستوحي طرق أخرى تقنيات عامة مثل العلاج العائلي السلوكي **(ر.ب ليبرمان)**، العلاج الجشطلتي العائلي **(و. كيمبلر)** أو العلاج العائلي الاتصالي **(م. سيلڤيني – بالتسولي)** وقد رأينا تقنيات عديدة معدّة لأعضاء مختلفين من العائلة مثل علاج الأزواج **(غ. پروس)**. العلاج المتعدّد الأجيال **(ج. سپارك)**، العلاج الزوجي **(ج. هالي)** وكذلك تقنيات انتقائية مثل العلاج العائلي التكاملي (**م.إ. بِكْستور** ١٩٨٥).



أ. توجهات علاجية



ب. نظريات في اللعب



ج. علاجات باللعب

يتميّز **العلاج الخاصّ بالأولاد** عن العلاجات الخاصة بالبالغين وذلك لأسباب واضحة.

للأولاد مشاكل أخرى وهم أقلّ تقبُّلًا لوسيلة **اللُّغة** المحكية، للتوجُّهات العلاجية في المرحلة المدرسية، بالرغم من تنوُّعها، مرجع مشترك هو النشاط الأساسي للأولاد.

أ. توجهات علاجية

نجد في علاج الأولاد التوجُّهات الأساسية الثلاثة في العلاج النفساني.

(أ١) يتميّز العلاج التحليلي النفساني الخاصّ بالأولاد بأوّل خلاف بين **ميلاني كلاين وآنا فرويد**.

تزعم **م. كلاين** أن كل فكرة لُعبية لدى الولد مرتبطة بخلفية رمزية. وتشك **آنا فرويد** في أن يكون تفسير اللعب ممكنًا في جميع الأحوال.

وما هو مشترك في هذه المجموعة هو أن العلاج يجب أن يزيل الكبت (بواسطة تطهير النفس).

(أ٢) إن ما يجمع الأنواع المختلفة للتوجُّه السلوكي، وراء تنوُّع الأساليب، هو الهدف المقصود:

دعم مراحل النمو بحسب العمر، مع تمارين ملائمة للوصول إلى سلوك مميّز لعمر ما.

(أ٣) يبحث العلاج الخاص بالأولاد، المركّز على الزبون، عن تفعيل ذاتي لا يتطلب تدخُّلًا مباشرًا من البالغين.

ب. نظريات في اللعب

لكي تستطيع التوجُّهات العلاجية المختلفة إدخال اللعب في أهداف دقيقة، أعدّت نظريات نوعية خاصّة باللعب. يمكن تحديد بداية هذا التطوُّر في القرن الثامن عشر (**هـ شويرل**).

من هنا يوجد عدد ضخم من النظريات، هذه أهم أربع منها.

(ب١) يمكن أن نذكر، بين أقدمها، نظريات اللعب على سبيل التمرين التي تستخلص أن اللعب هو برنامج سلوكي فطري، يستخدم أثناء التطوُّر للتحضُّر إلى مهمات الحياة،

وبما أن التعطُّش إلى النشاط لدى الولد لا تثيره أوضاع رصينة. فإنه يستخدم طاقته الحيوية في مجال اللعب.

(ب٢) ويظن آخرون (مثل **فريدريك شيلر**) أن اللعب ناشئ عن فيض في القوى. ورُبِط، فيما بعد، وخاصة من قبل مدارس علم نفس الأعماق، بهيمنة الأوضاع المضطربة (التطهر، إزالة المشاعر الكريهة).

يعتبر اللعب، جزئيًا، أيضًا، حركة دائرية من توتر واسترخاء (**هـ هكهاوزن**) في عدد من نماذج التجانس الداخلي.

(ب٣) تعتبر النظرياتُ المعرفية الحديثة اللعبَ كبحث عن معلومة، كشكل من التحقيق الذّاتي الروحي (سلوك الفضول) وهذا يفسّر أيضًا ركوب المخاطر في كثير من أنواع اللعب.

(ب٤) وأخيرًا يركز الكثير من النظريات على السمة الاجتماعية وخاصة في الألعاب التي يقوم بها فريق.

قد يكون أحد الأسباب التنافس والرغبة في الظهور. لكن المساهمة البسيطة يمكن أن تطلق وحدَها الرغبة في اللعب.

ج. علاجات باللعب.

(ج١) ليس للعب، في أكثر العلاجات الخاصّة بالأولاد، وظيفة علاجية فقط، بل يُستخدم أيضًا على صعيد التشخيص.

ويمكن أن يستغل اللعب، في هذا السياق، تبعًا لمدّته، ولكمية الأجهزة المستعملة واختيارها ولطرق اللعب الخاصة بعمر معين (الألعاب الجماعية، مثلًا، ليست ممكنة إلّا في أواخر الطفولة) وتبعًا لدرجة تعقيد اللعب ولتنظيم محتواه.

(ج٢) إن العلاج اللعبي، عند **ڤرجينيا أكسلين**، تلميذة **كارل روجرز**، هو أحد أشهرها:

«من بديهيات العلاج اللعبي أن اللعب هو وسيلة طبيعية يستخدمها التلميذ ليتمثّل نفسه. يوفّر له الفرصة أن «يلعب» مشاعره وصراعاته».

يوضَع في تصرُّف الولد لُعَب تثير لديه «تناقضات متوسّطة الحدّة» (**غوتسه، جاد**، ١٩٧٨)، وبتعبيرٍ آخر، لا تثير عنده العدوانية (كالسيف مثلًا) ولا يجبره على البقاء هادئًا ساكنًا (مثل لعبة الشطرنج). صاغت **أكسلين** ثمانية مبادئ أساسية تُتيح إقامة علاقة وُدّ وصداقة مع الولد، دون تدخُّل توجيهي، لكي يعبِّر عن مشاعره وأفكاره بكلّ حرية.

(ج٣) تعتمد العلاجات اللعبية السلوكية، عامّة، على تعلُّم النماذج (فصل ٢/٨).

يمكن، في السلوك – التمرين عند **لازاروس** والعلاج الثابت الدور عند **كلي**، التظاهر بأوضاع تستخدم كنماذج.

ويمكن، في بعض الحالات، إدخال أساليب سلوكية أخرى مثل الحث بالمكافأة (فصل ٢٠/٥). وتُقام، في ألعاب الدور (مثل تمثيل دور الهندي)، علاقات مع جماعات علاجية أخرى مثل التمثيل النفساني.

تلجأ العلاجات اللعبية الوقائية (**بينيش** ١٩٨٠) إلى اللعب لغايات وقائية نفسية وخاصة بإخماد التوتُّرات (ليس التهيُّج ولا الضجر صحيين نفسيًا، واللعب يؤمّن تنظيمًا للتوتر) والتقوية (يتيح تناوب الربح والخسارة التدرُّبَ المتقطع على النجاح). والتظاهر اللعبي (موقف الاختبار الخلّاق) ومكافأة اللّذة (يقظة عاطفية) والتحقيق الذاتي (يساعد اللعبُ اللاعبَ على «إيجاد ذاته») والتطهر بالمجازفة (التحرر «باللعب بالنار») وأخيرًا العلاقة بالجماعة (سلوك الشريك).

حركي حسي
إحساس سمعي
شكل سمعي
محرك
١
٢
٣
أ١
١
٢
أ٢

أ. تطوُّر النطق/ التكلم



ب١ تمرين تلقٍّ

ب٢ تمرين فاعل

ب. تقويم النطق



ج١ أثر لي

ج٢ وسائل فعّالة

ج. طرق الارتجاع



تمرين على التعبير

تمرين على التكلم

د. التدريب على النطق

يصعب تحديد بداية **ظهور التكلُم** في حياة الإنسان (من ١٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ سنة بالنسبة إلى **كليربورن**، ١٩٧٨). لقد احتاج الأمر إلى تطوُر طويل للانتقال من عدد قليل من الإشارات الصوتية إلى جمل طويلة مع تعابير مجرّدة. لا تعود أقدم نماذج للكتابة إلى أبعد من الألف الرابع ق.م.

أسهمت الاتصالات الكلامية في المشاركة الوثيقة وفي الإرث الثقافي وتلقّيه وفي النضج الروحي الشخصي.

إن من يُعاني اضطرابات في النطق يفتقد، بقدر خطورة اضطرابه، شرطًا أساسيًا ضروريًا لتحقيق ذاته.

أ. تطوُر النطق/ التكلم.

إنه لمن المعقول أن يكون للتطور الفردي للنطق بعض الشبه بتطور النوع.

(أ١) تشكل صرخة المولود الجديد ومشاعره ابتداءً من أسبوعه السادس وثغثغاته الأولى و«مكاغاته»، تشكل كرة أوّلية للنطق (١) تتضمّن حلقة ارتجاع حركي حسي (تجربة الحركة المعيشة)

تتضمّن الكرة الثانية (٢) المكوّنات السمعية: يحدث تغير في الأصوات الصادرة تلقائيًا.

وفي الكرة الثالثة (٣) تقلّد الأصوات الصادرة عن المحيط.

(أ٢)ترتبط الكتابة، التي جاءت ممارستها متأخّرة، بموازاة اللغة المحكية، عند الأيمن، بنصف الكرة الشمالي من الدماغ، الذي يوجّه اليد المتّصلة بالمركز الحركي (منطقة **بروكا** (١) والحسّي (منطقة **ڤيرنيك**) (٢) الخاصّ بالنطق.

ب. تقويم النطق

أكثر من ٧٠ مجموعة من العضلات تشترك في عملية النطق. ولبلوغ النضج اللغوي الكامل، يحتاج المتكلم إلى عدّة ظروف نفسية، انطلاقًا من تخزين المعلومات الكلامية وصولًا إلى الخبرة اللغوية. وليس مستغربًا على الأطلاق، نظرًا إلى التعقيد الخارق لهذا النظام، وجود عدد كبير من اضطرابات النطق، هذه أهمها:

اللجلجة (اضطراب صوتي ارتعاشي في الإلقاء، فصل ٩/١٤)، اختلاط لفظي (اضطراب قوامه تبديل الفونيمات والمقاطع والكلمات بأخرى تشبهها)، اللعثمة (اضطراب في تنسيق الكلام). اضطراب نطقي (عاهة مرضية ناشئة عن قصور في الجهاز الصوتي)، العَمَه (فقد ملكة الإدراك الحسي. المريض يرى ويسمع ولكنّه لا يفهم)، الحبسة (العجز عن التكلم)، العمه الحركي (فقد القدرة على تنسيق الحركات)، فقد الصوت، الهذر (إفراط وعدم انسجام في الكلام).

تستخدم أساليب مختلفة للقضاء على هذه الاضطرابات. يستوجب تقويم النطق تنشئة خاصة لمعالجة هذه الاضطرابات:

(ب١) معالجة قابلة للتأثُر (تقليد الأصوات الملفوظة)

(ب٢) معالجة فاعلة (تسهيل التلفُظ بالاستعانة باليد أو بأجهزة، مثل المسبار).

ج. طرق الارتجاع

(ج١) عندما يعيد الإنسان كلامه بواسطة سماعات مع تأخير بعض أجزاء الثانية، يعيق الارتجاع النطق العادي لكنه يحسن اللجلجة (أثر **لي**، ١٩٥١).

نستخدم طرقًا مشابهة، مثل تكرار تسجيل على شريط ممغنط، الكلام في جوقة (طريقة اتحاد النغمات)، تمويه الكلام (ضجيج مستمر في السماعات).

(ج٢) يمكن أيضًا معالجة إعاقات الكلام بطرق فاعلة (فصل ٢/٨) ولكن أيضًا بوسائل مفارقة (اللجلجة المقصودة). ويمكن أيضًا مكافحة الحَصَر النطقي بإزالة التحسيس المنهجية (طريقة متدرجة بواسطة التمثلات النطقية (فصل ٦/٢٠).

د. التدريب على النطق

نذكر من الأساليب الحديثة التعديل النفسي الاجتماعي للنطق **(فون ريبر)** ومن بديهياتها أن اضطرابات النطق على علاقة أيضًا بالحوافز. يُحصى داخل هذه الفئة عددٌ كبير من الوسائل التي تُتيح تسهيل حاجات الاتصال الكلامي، متعة التَعبير، تهيؤ متعدّد الأبعاد للاتصال، وتجارب النجاح.

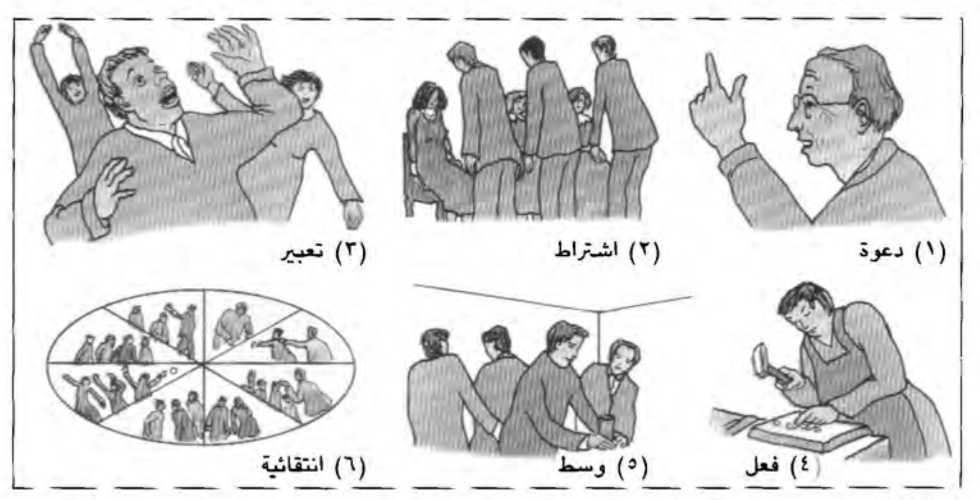
هذه المعالجة الأخيرة تؤيدها وسائل تسهُل التاكيد الذاتي وهي تؤدّي إلى «معالجة بالحذر والكبت» **(ڤيتلنغ)**.

يستلزم التدريب على النطق، في إطار اجتماعي وفي المعالجة الجماعية، وجود أشخاص يُعانون الاضطرابات نفسها. تجري تمارين صياغة للكلام على مرحلتين **(بينيش)**.

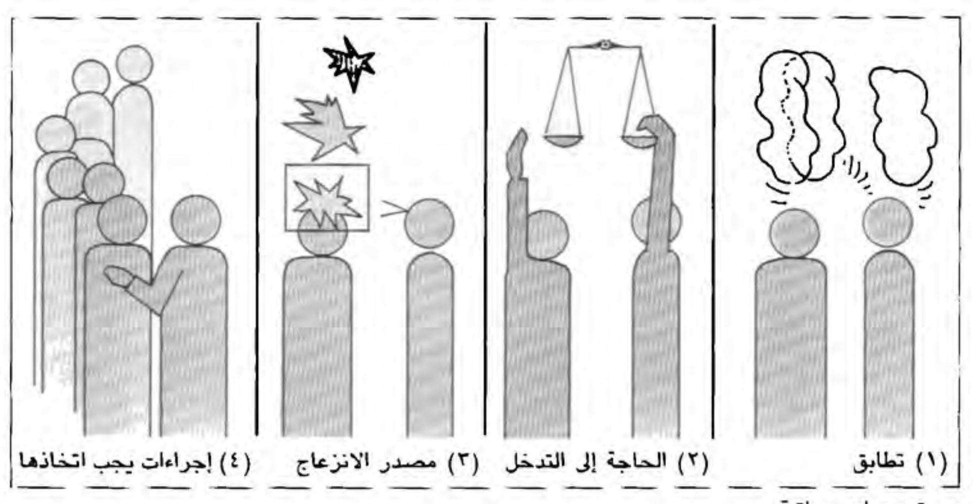
تُطبَق، على أثر تمارين صوتية مُعدَّة لمساعدة «جهاز النطق» بعض مبادئ التركيب (وصف بعض الاشياء بطريقة ملائمة وبعض الموضوعات المجرّدة فيما بعد).

ويُلجأ في التمارين على التكلُم، بالمفهوم الصحيح، إلى طرق كانت موجودة منذ القدم، إليك ما يقوله **أرسطو** بهذا الصدد:

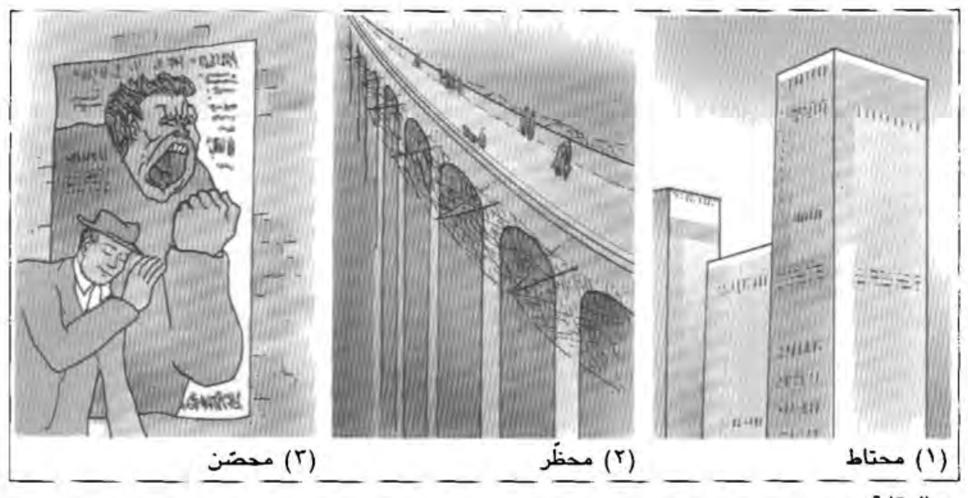
يكون الاستعداد الأخلاقي فعّالًا عندما يجعل التمثيلُ الكلامي الخطيبَ جديرًا بالتصديق لأننا نمحض الرجل الشريف ثقة مطلقة، في حال لا يكون فيها اليقين المطلق ممكنًا ولكن، على العكس، حيث تلعب تشعبات الرأي دورها. ولكن يجب نيل هذه الفعالية بالبرهان الاستدلالي ولا تنتج عن رأي مسبق مُرتبط بالأوضاع الأخلاقية لدى الخطيب».



أ. طرق الدعم



ب. توجيهات حياتية



ج. الوقاية

يتحدّث **وليم بوش**، مازحًا، عن العجز عن التغير:

«عليك أن تنهك نفسك إذا أردت الارتفاع لكنك لا تجد أية صعوبة في الغرق. فعلى الله الصالح أن يجتذب دائمًا وما على الشيطان سوى الخضوع».

لكي يتحسّن الإنسان وهو يتغيّر يجب أن يتمتّع بالفطنة («معرفة الذات وهي أوّل خطوة نحو إصلاح الذات)، ولكن هذا ليس بكافٍ. يجب إعداد سلسلة من عمليات الدعم تثبّت النجاح. تشكّل الإمكانيات البشرية العامة، لبلوغ ذلك، أحد أهم ميادين علم النفس العملي وهي تؤلّف، أكثر الأحيان، تحت اسم سلوك النفس (تطبيق علم النفس على التوجيه الأخلاقي للفرد).

أ. طرق الدعم

كيف يمكننا أن نُساعد ملكة التمييز (الفطنة) على طريق تحقيق النوايا الطيبة؟

فبالرغم من وجود عدد ضخم من الأساليب للوصول إلى ذلك، إلّا أن الأفكار الأساسية ليست، لسوء الحظّ كثيرة والنجاح ليس مضمونًا. يحتاج الفريقان (المشير والمشار عليه) إلى الكثير من الصلابة لبلوغ هذا الهدف. يمكن تلخيص وسائل الدعم في ست فئات.

(١) الدعوة (الحض) تعتمد على التعزيز الأخلاقي.

هذه هي الطريق التي تتبعها أكثر تصورات العالم، مع نجاح مشكوك فيه، كما هو معروف.

ولكن هناك أيضًا آخرون يطلبون «فطنة أكثر».

(٢) تُحاوَل، غالبًا، أيضًا، طريقة الاشتراط:

إن جميع المجتمعات تقريبًا، لا تنقل مع التربية معرفة فقط، إنها تُجري تمارين سلوكية لفتيانها: إما لإطالة الأوضاع القائمة (الأسلوب الوالدي) وإمّا للحؤول دون أوضاع غير مستحبة.

(٣) تستخدم في الحضارات القديمة (الأفريقية، مثلًا)، وخاصّة أثناء الأعياد النظامية، القدرة على عيش الإمكانيات التعبيرية الرحبة. ويفترض بها أن تتطهَّر بإفراغ «الثمالة» النفسية. يُلجأ اليوم إلى فنّ العلاج السلوكي وإلى طرق التنشيط.

(٤) القيمة الشفائية للفعل هي نقطة الانطلاق للمساعدة على دمج المعتقلين القدماء أو على شفاء ذوي المرض المزمن أو دراسة حالة (الخدمة الاجتماعية) ضحايا البيئة. الفكرة الأساسية، هنا، هي تحويل الانتباه نحو أشياء نافعة.

(٥) يمكن تعبئة الوسط بطريقة نافعة:

بأبسط الوسائل بواسطة العلاج بالألوان. في بعض العيادات وفي بعض المراكز يمارَس تأثير نفسي بواسطة لون الجدران. يُستغلّ تغيير الوسط في مجال التسلية بفضل السفر أثناء العُطَل. التربية في البيت هي أيضًا تربية بالوسط حتى ولو لم تتخذ دائمًا اتجاهًا مستحبًّا.

وأخيرًا لقد ظهرت حديثًا إمكانات عديدة للتدرُّب على المنافسة الاجتماعية (٢٠/٦).

(٦) نصل، من ذلك، إلى المجال الأوسع، مجال الانتقائية الذي يستفيد، دون أي استثناء، من كل إشارة حسية أيا كانت.

ب. توجيهات حياتية

كانت التوجيهات أو الإرشادات الحياتية تُعلَن قديمًا من قبل الأديان وهذه الوظائف تعلمنت اليوم. والموضوعات تحوّلت جزئيًّا:

استشارة زواجية، استشارة تربوية، استشارة في مادة العقاقير، استشارة العمر الثالث...

يتضمّن سياق الاستشارة ٤ مراحل أساسية:

(١) يجب أن تنطلق الاستشارة من وضع طالب المشورة. فعلى المستشار أن يقيم تطابقًا في النوايا معدِّلًا أهدافه الخاصّة. عند ذاك يستطيع أن يجازف بتحولات طفيفة بأهداف زبونه.

(٢) بعد ذلك يقيِّم المستشار الحاجة إلى التدخُّل: على كم يجب عليَّ أن أحاول الحصول. كل تكملة هي في الوقت نفسه إنقاص في مبادرة الزبون (عيار الميزان)

(٣) إن البحث عن مصادر الانزعاج سعيًا إلى التقدُّم هو أهم من معرفة الأهداف المحدّدة.

(٤) عند ذاك فقط يصبح ممكنًا التفكُّر في الإجراءات التي يجب اتخاذها. وفي معالجة الأشخاص المسنّين، يجب مثلًا:

التخفيف من القلق الاجتماعي، تأمين المشاركة في الحياة الاجتماعية، توسيع حقل النشاطات، إعادة تنظيم الوقت، إعداد طرق السيطرة على الذات

ج. الوقاية

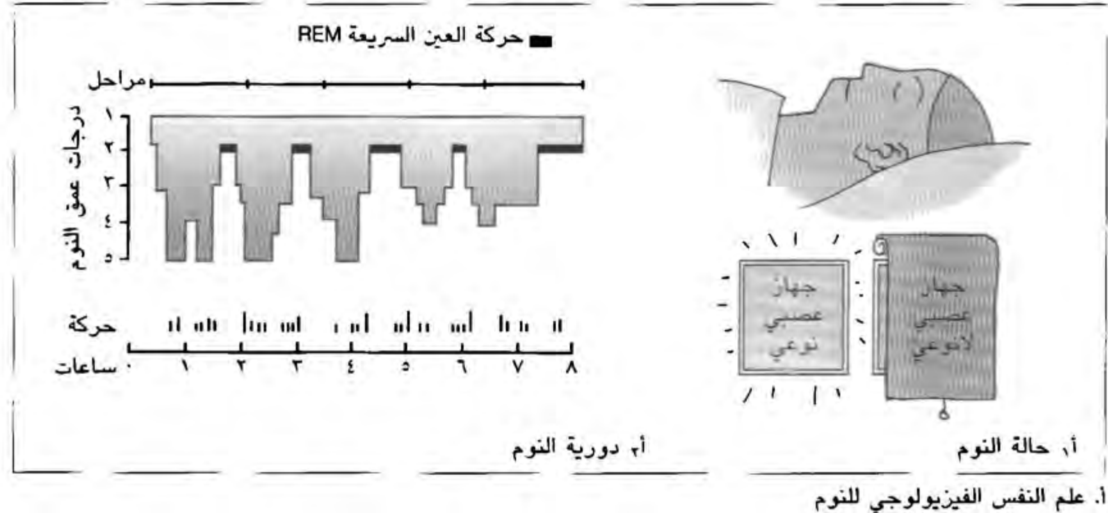
كثيرة هي أسباب الاضطرابات النفسية التي يمكن توقُّعها، لذا جرت محاولات مبكِّرة لوضع علم صحة نفسية للبحث عن أسباب الاضطراب والقضاء عليها، وهذا العلم يكون:

(١) محتاطًا، عندما يشنّ علم نفس الهندسة المعمارية، مثلًا، حملة على الإهراءات المسكونة المسببة للأمراض.

(٢) محظِّرًا، عندما تجري محاولة، مثلًا، لتخفيف خطورة جسر (كمكان انتحار)

(٣) محصِّنًا، عندما يحاول المُترشِّح، مثلًا، تخفيف النتائج السيئة لتصرفات خصمه السياسي العدائية أثناء حملة انتخابية.

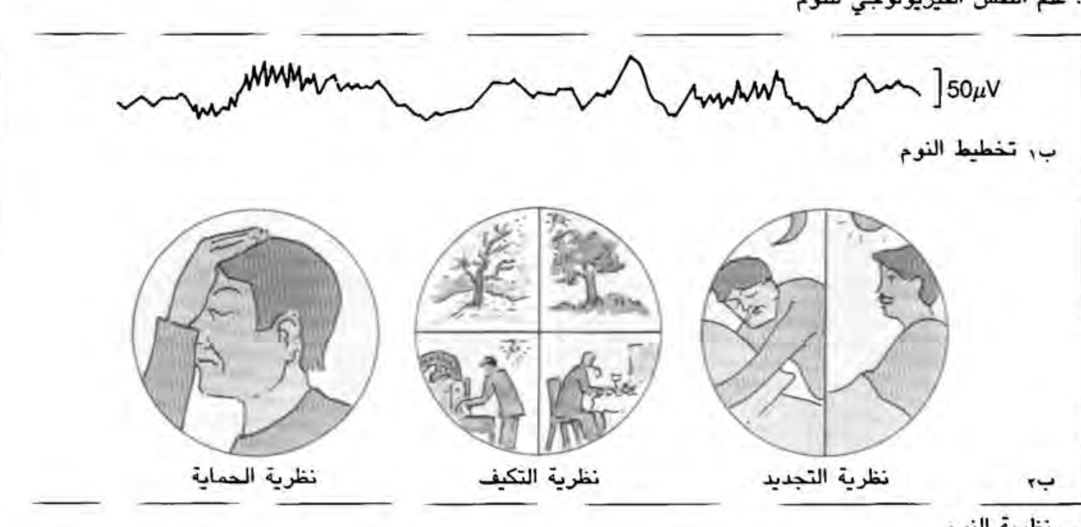
هذه الإجراءات الوقائية الملحّة كثيرًا ما تكون مجهولة ولا يكون لها تقريبًا سوى وضع نظري فقط.



أ١ حالة النوم

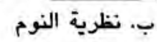
أ٢ دورية النوم

أ. علم النفس الفيزيولوجي للنوم

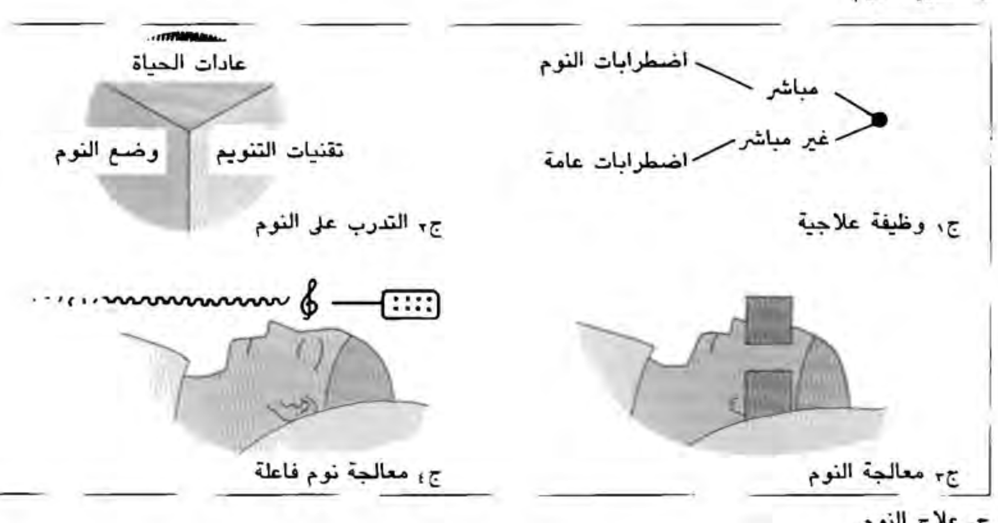


ب١ تخطيط النوم

ب٢ نظرية التجديد نظرية التكيف نظرية الحماية



ب. نظرية النوم



ج١ وظيفة علاجية

ج٢ التدرب على النوم

ج٣ معالجة النوم

ج٤ معالجة نوم فاعلة

ج. علاج النوم

«أريد أن استسلم لنوم طويل. لأن هذه الأيام الأخيرة كانت عبئًا ثقيلًا عليّ. لا تحاول أن توقظني باكرًا». **(شيلر، والنشتاين)**. لطالما لجأ الإنسان إلى «النوم العذب» كدواء لآلام مختلفة: ولكن بالرغم من التقدُّم الملحوظ في الأبحاث، لا يزال النوم يحتفظ بأسراره.

أ. علم النفس الفيزيولوجي للنوم

(أ١) يستعد الجسد بعمليات فيزيولوجية تصبح مؤثِّرة في النوم بمعناه الحقيقي:

تعديل إيقاع دقّات القلب والتنفُّس، تقلُّص الأجفان، تنشيط الجهاز العصبي نظير الودي، نقص المفعول الارتجاعي الحسّي، نقص البذل الطاقي.

تجدر الملاحظة أن القسم اللانوعي (الأعلى) من الجهاز العصبي **يتوقّف** في النوم، في حين أن القسم النوعي يستمر في العمل.

وهذا يفسّر أننا أثناء النوم نكون في حالة نسمع فيها كل شيء ولكننا لا ندرك شيئًا، والمثال على ذلك أن انفجارًا يمكن أن يوقظنا دون أن نعلم لماذا استيقظنا.

(أ٢) أتاحت صدفة بحث لطبيبي الأعصاب **ن. كلايتمن وإ. أزيرنسكي** أن يكتشفا سنة ١٩٥٣ ظاهرة حركات العين السريعة والدورية أثناء النوم (وقد سبق أن لاحظها **أرسطو**).

ففي مراحل REM (حركة العين السريعة) تحدث ٨٠٪ من الأحلام و٧٪ فقط تحدث في مراحل NREM (عدم حركة العين السريعة). وما تبقى غير مبتوت به.

تشير اللوحة (المقابلة) إلى الطابع المرحلي للنوم مع حركات العين.

ب. نظرية النوم

(ب١) أفادت دراسة النوم كثيرًا من التخطيط الكهربائي للدماغ.

يشير التخطيط الكهربائي النموذجي للدماغ إلى نشاط دماغ ضعيف مع «مغازل نوم» خاصة (تتابع سريع لترددات الموجة نحو ١٣ هرتز).

يتيح التخطيط الكهربائي للدماغ التمييز بوضوح لتغيرات عمق النوم (**يقسم** إلى أربع مراحل بدءًا من نصف النوم إلى النوم العميق في المرحلة الرابعة).

(ب٢) أما بالنسبة إلى معرفة لماذا يضطر الإنسان إلى النوم فنلاحظ ٤ نظريات مشهورة.

ترى نظريات الترميم (أو التجديد) في النوم بعثًا للوظائف الحيوية بإدخال مراحل اللانشاط التي تعمل على تجميع القوى «النضرة». تنطلق نظريات التكيّف من التعديلات الدورية للبيئة (تقديم الطعام، النور...) التي تؤدي إلى تمييز تكيُّفي بين النوم النهاري والليلي أو الشتوي.

وتعتبر نظريات المنع الوقائي أن دور النوم **هو** تأمين وقاية من الإثارة الدائمة للخلايا الدماغية التي لا تتجدّد.

ج. علاج النوم

(ج١) فيما يخصّ علاج النوم يجب تمييز فئتين أساسيتين:

العلاجات التي تطبّق مباشرة على النوم المضطرب وتلك التي تسعى إلى معالجة اضطرابات من طبيعة أخرى (مثل الإجهاد) بالاعتماد على نوم طبيعي.

(ج٢) إن التدرّب على النوم من أجل تحسين النوم المضطرب يتعلّق بثلاثة مجالات:

يتيح تحليل طريقة الحياة، غالبًا، اكتشاف عادات سيئة للنوم (مثل عادات غذائية) يجب الإقلاع عنها.

وفيما يخص وضع النوم، يجب الأخذ في الحسبان عددًا كبيرًا من العوامل: من بينها المسائل الوجودية ومسائل السكن...

أما تقنيات عملية النوم فتحسب حسابًا للوضع العام لمكان النوم (وظيفة النوم الخاصة بالشخص) والطريقة التي يحاول بها هذا أن ينام (استعدادات نفسية فيزيولوجية)

(ج٣) إن معالجة النوم هي، بشكل عام، محاولة إطالة مدة النوم للإفادة من منافعه النفسية الفيزيولوجية.

لعلاج النوم يُهيَّأ وسط يخلو من المثيرات («حصن النوم»)، لا يتقطع النوم فيه لمدى عدة أيام أو أسابيع إلّا لإرضاء بعض الحاجات الضرورية مثل التغذية ونظافة الجسم.. ولكن بما أن الحاجة إلى النوم قد أشبعت حتى الإفراط، يتحول النوم إلى نعاس متواصل.

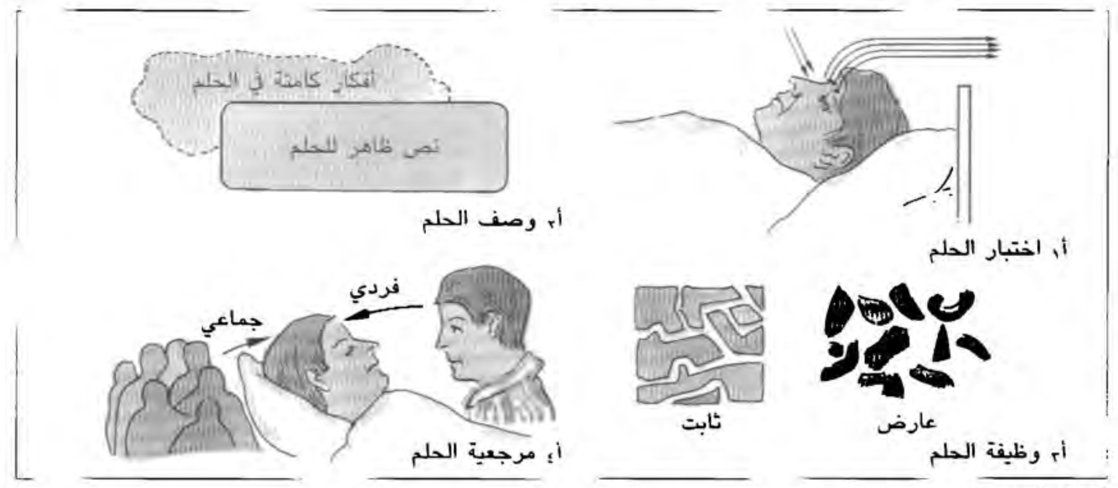
(ج٤) تستخدم المعالجة الفاعلة أساليب لدعم النوم.

في معالجة النوم بالارتكاس الشرطي **(قازورو)**، يُطلَق النوم أولًا كارتكاس غير مشروط (٢٠/٦) بواسطة أدوية ثم يُصحَب بمثير شرطي (مثل موسيقى ناعمة) يحوله تدريبٌ إلى إرتكاس شرطي يطلق حالة نوم معدّة لأن تدوم.

يشدّد **كلاينسورغه** (١٩٥٨) على فائدة علاج النوم نظرًا إلى وظيفته «كمرحلة تجديد» كثيف:

«تعمل كعلاج بيئي، هدفه انتزاع المريض من محيطه انتزاعًا كاملًا ووضعه في محيط مختلف تمامًا من حيث الطبيعة والمسكن والأشخاص الذين يعايشهم».

يمكن لعلاجات النوم المختلفة، كونها تفترض إقامة دائمة، أن تُشْرَك بطرق أخرى مثل التنويم المغنطيسي والتدرّب الذاتي النشأة. يُمارَس، منذ مدة، الحرمانُ من النوم لمعالجة انحطاط القوى **(شولته، تولّه)**.



أ. نظريات الحلم



ب. تشخيص الحلم



ج. دلالة الحلم

لطالما اعتبر الحلم شيئًا سِرِّيًّا. لهذا يتحاشاه الكثيرون كموضوع علمي. ولكن في هذه العقود الأخيرة تركّزت الدراسات عليه من اتجاهات مختلفة.

أ. نظريات الحلم

أجريت الاختبارات الأولى على الحلم في منتصف القرن التاسع عشر (**كولشوتر**) تحت شكل الحرمان الاختباري من النوم.

كان يُقطع النومُ بجرس منبّه ويباشَرُ استجواب نظامي حول موضوع الحلم.

(أ١) تعتمد التجارب الحالية، أساسًا، على دراسة الموجات الدماغية لحركات العين أثناء النوم وعلى الأوصاف الظاهرية المطابقة لها،

وهكذا تمّ تحديد دورية الحلم (تتابع مرحلي لنحو ٥ حلقات حلمية في فترة النوم).

(أ٢) وبمقابل ذلك تطوَّر وصف المحتوى، منذ ما أدخل **فرويد** (١٩٠٠) تفسير الأحلام في العلاج، لأنه كان يعتبره الطريق الأسهل والأرحب لولوج عالم اللاوعي. كان يميز بين النصّ الظاهر الحقيقي للحُلم والفكرة الكامنة (الغامضة، اللغزية) للحلم.. وعند اليقظة يبدو الحلم «حقيقة مزيّفة» (**هايس**)، ويبدو أثناء الحلم حقيقة نفسية عاطفية (٧٠٪)، وأكثر الأحيان كريهة (٧٥٪) وفي الأكثر باديًا للعيان (٨٠٪ بموازاة ميادين أخرى حسية أقل تكرارًا).

وفي بعض الأحلام النادرة الواضحة يشعر الإنسان بأنه يحلم.

(أ٣) تعتبر مختلف نظريات الحلم محتوى الحلم إما تمثّلات مصوّرة عرضية، وإما رموزًا تعبّر عن دلالات ثابتة. والحقيقة أن أكثرية الباحثين تميل إلى افتراض أن الحالتين ممكنتان.

وبالنسبة إلى النظريات الفيزيولوجية، تعتبر مجموعات متلاحقة من الدوافع الفوضوية المنبعثة من أعمق مناطق الدماغ مسؤولةً عن الحلم، ولكن بما أنها متناسقة في المناطق العليا بطريقة تشكل صورًا معقّدة، ينتج عن ذلك «رغبة في الدلالة» يمكن أن تكون عارضة كما يمكن أن تكون نمطية.

(أ٤) ينتج عن ذلك، إذًا، أن الأحلام، بالنسبة إلى مختلف مدارس علم نفس الأعماق، يمكن أن تكون ثمرة نقل فردي أو متشبّعة «بلاوعي جماعي» (**ك.غ. يونغ**)

ب. تشخيص الحلم

لكي يكون بالمستطاع قياس المعيش الحلمي الفردي، يجب استخدام معيار يتعدى الفرد. وليست دراسته دائمًا ناجحة.

(ب١) ترتبط مدة دوام الحلم بشريحة العمر.

يشير مخطط النوم، عند الأطفال، إلى ١٧ ساعة من النوم إجمالًا يتخللها قسم كبير من الحلم.

وبالنسبة إلى العمر المتوسط يقدّر معدّل الأحلام بـ ٢٠٪ تقريبًا من النوم الإجمالي ولكنّها ليست أكثر من ١٤٪ بالنسبة إلى العمر المتقدّم.

يهتم تشخيص الحلم، في كل حالة، بالتشعبات الفردية بالنسبة إلى القانون العام كما يهتم بما يشكل هذه التشعبات.

(ب٢) والشيء نفسه يصلح بالنسبة إلى دورية الحلم.

(ب٣) وتختلف أيضًا إمكانية تذكر الحلم.

العامل الأهم هو الفترة التي تفصل الحلم عن اليقظة: كلّما كان الحلم قريبًا، كان تذكره أسهل.

(ب٤) عندما يفسر الحالم أحلامه، ينسى غالبًا أن النشاط الحلمي يتعلّق أيضًا بالانتباه الذي يوليه لأحلامه.

إن من يدوّن أحلامه بانتظام يؤثّر بها أيضًا.

ج. دلالة الحلم

كان **أرتميدور** منذ القرن الثاني للميلاد، يميز في «نقده للحلم» الأحلام التي تؤوّل المستقبل من الأحلام الأخرى.

«التي ليست سوى نتيجة وانعكاس لشيء موجود مثل الجوع أو العطش».

(ج١) إن مفهوم البقايا النهارية يحدّد «عناصر حالة اليقظة لليوم السابق» (**فرويد، لابلانش**) التي تتدخل في الحلم.

(ج٢) يبدو أن نوع الأحلام الأكثر تكرارًا، كما تشير روايات الأحلام المدوّنة، خلال عقود (**ف. هاكر**) هو الأحلام الكوابيس.

(ج٣) تليها الأحلام التعويضية التي بالغ **فرويد** في تعميمها في تحديده للحلم «كمحاولة لتحقيق الرغبات».

(ج٤) إن عددًا كبيرًا من الأحلام هو محاولة «للتحكّم بالماضي» وهو أيضًا عودة إلى الماضي (مرجعيات واقية).

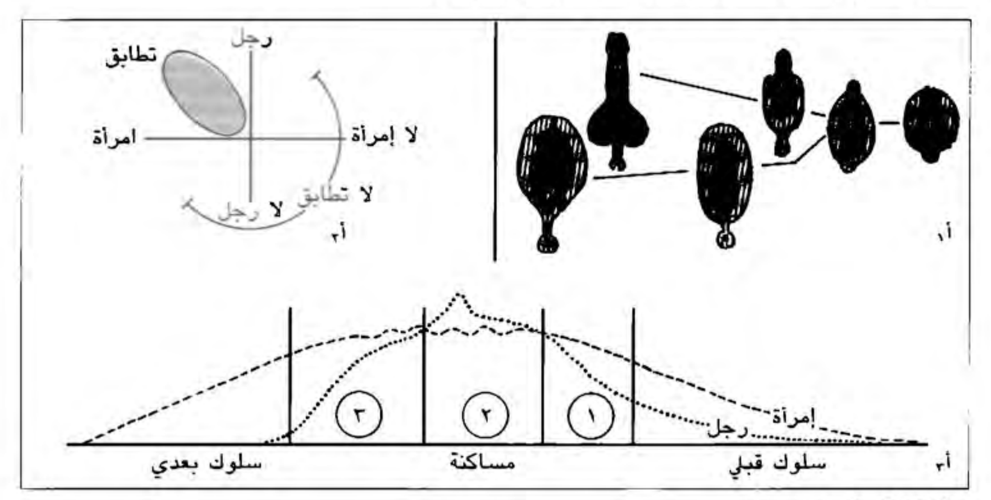
إن المهم جدًا في تأويل الأحلام هو تأويل بنيتها الصورية. الكثير من الأحلام هي «نتاجات لا أهمية لها من وجهة نظر الفكرة» (**هايس**)، وطريقة تحويلها للواقع ليست غالبًا أقل تثقيفًا:

(ج٥) الانتقال هو نسبة أثر «ضالّ» إلى تمثل آخر.

(ج٦) يركّز التكثيف أو التجميع أو التحدُّد التضافري عدّة تمثّلات في تمثل واحد.

(ج٧) يعمل التحويل تبعًا لمبدإ المتقابلات، مثال ذلك تحويل الأشياء إلى أشخاص أو بالعكس.

إن علم دلالة الحلم هو مجال لا يزال مفتوحًا علميًّا، ولكن أصبح من الممكن القول إن العلاقات الثابتة بين صورة الحلم ودلالتها أبعد من أن تكون القاعدة.



أ. الاختلاف الجنسي

إمرأة/رجل

إمرأة/رجل

ب١ اضطرابات وظيفية

ب٢ اضطرابات وظيفية اجتماعية

إمرأة

رجل

ب٣ اضطرابات المساكنة

ب٤ اضطرابات الوصال

ب. الاضطراب الجنسي

ج١ إثارة جنسية

ج٢ اشتراط جنسي

ج٣ ضبط ذاتي جنسي

ج٤ إعلام جنسي

ج. العلاج الجنسي

يُقال عادةً، بدلًا من **جنسية**، «أشياء حميمة خاصة». هذه الطريقة في التعبير تعني بوضوح أن الموضوع حسّاس.

تحدث الأمور الجنسية أكثر الأحيان سرًّا. ولكن هذا أيضًا ما يجعل الدعاية مطواعة للفوائد التجارية.

يتأرجح الموقف تجاه الجنسية تبعًا للمسلمات الاجتماعية والعلاقة بها تتغير من بلد إلى آخر ومن عصر إلى عصر.

أ. الاختلاف الجنسي

أثناء التطوّر يوفر التناسل الجنسي (الشِّقّيّ) فوائد وراثية جمّة بالنسبة إلى انقسام الخلية. هذا المشهد هو ما يجب أن يحتفظ به الإنسان في ذهنه عندما ينتقد مزاياه وعيوبه من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي.

وبفضل هذا الاختلاف الجنسي، تقسم البشرية إلى قسمين يسهل تمييزهما. إن هذا الوضع يمثل أفضل تهيجية جنسية، لكنه يتضمّن أيضًا خطر أن ينشأ عنه «صراع الجنسين» (الفردي أو الجماعي):

إن الاضطهاد الاجتماعي للمرأة هو أحد أخطر النتائج للاختلاف الجنسي.

يزداد هذا الاختلاف نسبيًا عند الانتقال من المجال البيولوجي (الأحيائي) إلى مجال علم النفس الفردي، انتهاءً بالمجال الاجتماعي.

(أ١) يتيح التطوّر التكويني مشاهدة واضحة للأصل المشترك للقضيب والبظر، للخصيتين والمشفرين، التي لا تختلف إلّا في المرحلة الجنينية.

(أ٢) والفروق النفسية بين الجنسين لا تقبل الجدل، ولكن ما هو مشترك بينهما لا يقلّ أهمية عما يميزهما. وبمقابل ذلك تمعن تقاليد اللباس في إظهار الفرق بينهما.

إن عدم المساواة الاجتماعية في الفرص يتعدّى إلى حدّ بعيد الواقع البيولوجي لهذا الاختلاف.

(أ٣) إن «حالات سوء التفاهم» بين الجنسين تهم أيضًا البيئة الخاصّة. والحياة الجنسية تخضع بنوع خاصّ لاضطرابات الفرق في الحاجات الفيزيولوجية التي تزداد خطورة عندما تتخذ شكلًا محسوسًا من التوقُّعات المتبادلة الخاطئة.

تختلف المنحنيات المتوسطة للإثارة الجنسية لدى الجنسين في مراحل التهيُّج (١) ونشوة الجماع (٢) والانحسار (٣) كما يبدو في الصفحة المقابلة.

ب. الاضطراب الجنسي

يصنَّف أقصى نوع من الاضطرابات الجنسية الممكنة تبعًا للمراحل الثلاث التالية: السلوك السابق (تحضير الإثارة)، الجماع (العمل الجنسي)، السلوك التالي (الانفراد بعد الجماع). وبالطريقة نفسها، يمكن هنا استخدام ٤ عوامل اجتماعية نفسية كمعايير للتمييز.

(ب١) تعني الاضطرابات الوظيفية النقص (والإفراط الجزئي أيضًا) في الطاقة الجنسية.

وعلى سبيل المثال: العجز أو الشذوذ.

(ب٢) الاضطرابات الوظيفية الاجتماعية تسببها تكرارًا المخاوف الاجتماعية: قلق الاختلاط، الأمراض الجنسية أو السيدا.

ولكن أيضًا يمكن أن تكيّفها عوامل مرتبطة بوضع محدّد: قرب المكان أو الانفصال، موانع ناشئة عن المحيط.

(ب٣) يمكن أن نذكر من اضطرابات الجماع المباشرة:

التشنُّج المهبلي، صعوبة حدوث نشوة الجماع، كما يذكر أيضًا القذف المبكر.

(ب٤) اضطرابات الوصال هي اضطرابات الفهم الجنسي الذاتي (نقص في المعلومات) أو تجاه الشريك (وخاصة عندما تستخدم الجنسية للتعبير عن اضطرابات من النوع الاتصالي). تثير المخاطر الحقيقية أو الوهمية التي تهدد الجنسية، في وقت تبرز فيه الرغبة الجنسية، تثير بتفاعلها إشكالية نفسية في الحياة الجنسية.

ج. العلاج الجنسي

تهتم العلاجات الجنسية بتحسين الحياة الجنسية بين الشريكين وبالتوازن الجنسي الفردي وبالتدريب الوقائي.

(ج١) تعود علاجات الإثارة إلى العمل الريادي الذي قام به **ماسترز وجونسون**. وخدمة للعلاج، يجب أن يكون الزبن المعالجون ازواجًا أزواجًا.

وأثناء المعالجة تناقش التمارين التي يجب أن تنفذ، التي يجب أن تبقى ضمن حدود معيّنة (وخاصة للتحكّم بالإثارة).

(ج٢) وبمقابل ذلك، تكون العلاجات التكيفية إفرادية.

خاصة مع إبطال الحسّ المنهجي (٦/٢٠) في حالات القلق الجنسي.

(ج٣) إن ضبط النفس جنسيًا يطلقه المعالج لكن تحقيقه وتثبيته هما من مسؤولية الزبون (غالبًا تحت شكل تعاقدي).

مثلًا: في حال تجديد عاداته

(ج٤) لا يزال الإعلام الجنسي كطريقة وقائية، اليوم، موضوع جدل (وكتربية أيضًا). والمسائل الخاضعة للنقاش هي التالية:

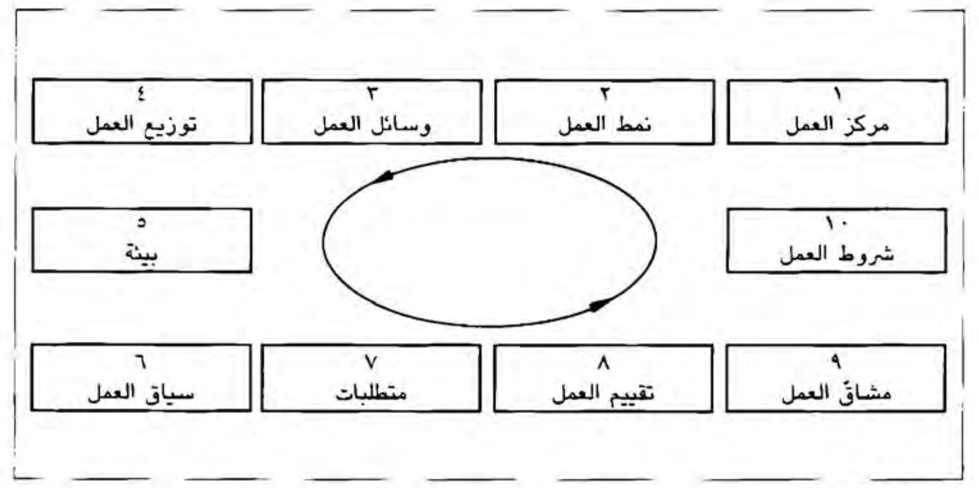
من يجب أن يُعلِم من، عمّاذا ومتى؟

نورد، بخصوص المجال الجنسي بكامله، هذه الجملة التي قالها **نوڤاليس**. «لا يستطيع الإنسان أن يعيش مع زوج وفي عائلة إلّا إذا كان متزوجًا بنفسه».

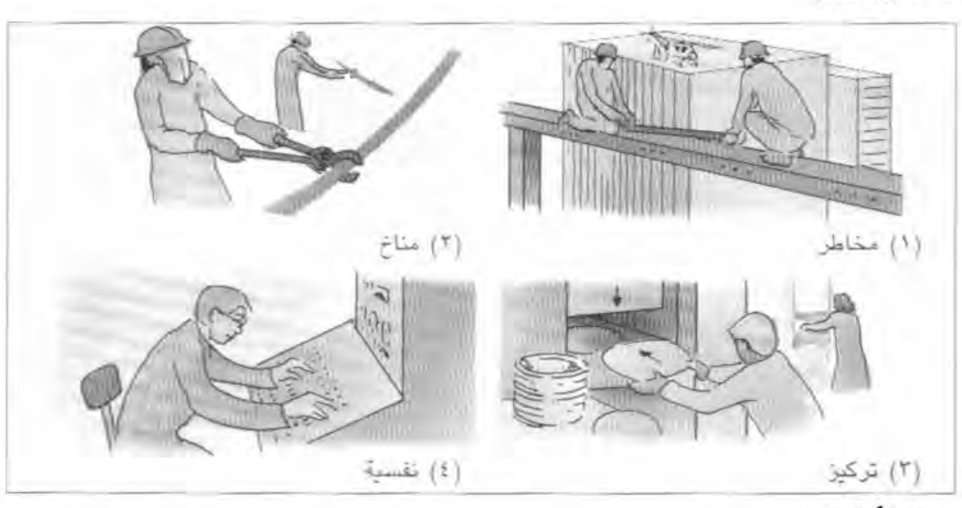
هذه، بالحقيقة، ما يجب أن تكون عليه حال المعالجين النفسيين المحترفين.



أ. سياق العمل



ب. تحليل العمل



ج. مشاقّ العمل

يعود تاريخ **علم النفس التطبيقي** (**ف. دورش،** ١٩٦٣) إلى نهاية القرن التاسع عشر. و**علم نفس العمل هو** أحد فروعه الأولى. تقوم مهمته على دراسة الظروف التي تمارس فيها النشاطات المهنية وعلى استخدامها. والعمل الصناعي، في صميم هذا البحث.

أ. سياق العمل

إن أحدث أصعب المعطيات هي الطابع المميز جدًا للعمل الصناعي. تتصف البنية العمودية (تراتبية تقسيم العمل) كما تتصف البنية الأفقية (توزيع المهمات) بتنوّع يصعب إدراكه بمقدار تغيره تبعًا للميادين والمؤسسات.

إن منهجة النظام العمودي هي مهمة يهيمن عليها علم النفس الصناعي (دراسة الخصوصيات النفسية المكتسبة بواسطة هذه المؤسسة الصناعية أو تلك (فصل ٢١/٤) بأسهل مما تفعل منهجة أفقية عامّة. تتعلق هذه الأخيرة بتنوّع المهمات الصناعية التي لها نقاط قليلة مشتركة، إذا قارنا، مثلًا، المصانع التعدينية والنسيجية والغذائية.

ويهمنا، بشكل عام، أن نقسم النماذج الأفقية للمهمة تبعًا للتسلسل التاريخي لصناعة المنتجات:

(١) التحضير الذي يقوم على تصميم عملية الانتاج و«إعداد» العدّة الضرورية للتصنيع.
(٢) الانتاج الأساسي (كتصنيع القطع الخام بالصب، بالكبس..)
(٣) الصياغة (فالانتاج المبني على تقسيم العمل يجب أن يسبقه، في أكثر الحالات، أعمال تمهيدية).
(٤) العمل المسلسل (هو الانتاج الصناعي الأكثر انتشارًا)
(٥) القيادة والتوجيه (تغدو القيادة في الإنتاج الممكنن والآلي الكترونية أكثر فأكثر).
(٦) التركيب (عندما لا يشكل جزءًا من العمل المسلسل الحقيقي، مثل تركيب قطع تقدُّمها مصانع فرعية).
(٧) المراقبة (التحقّق الوظيفي)
(٨) النقل (إلى مستودع أو تسليم).

ب. تحليل العمل

نحتاج، لكي نتوصّل إلى تمثيل شامل لعمل ما، إلى نظام وصف وتعريف. يتضمّن هذا النظام المؤلف من عشر مفردات الفئات الوصفية الأساسية وكل فئة منها على شيء من الاتساع.

(١) مركز العمل: معايير وصف مكان العمل (مراكز، حركية، إمكانية ترك المركز، اتصالات...)
(٢) نمط العمل المطلوب: درجة المشاركة وطريقتها (مسؤولية، حافز، بذل الجهد...).
(٣) وسائل العمل: المكوّنات المادّية (الموادّ، الآلات، التوثيق).
(٤) توزيع العمل: نوعية التوزيع (توجيهات، تصميم، تخطيط، إكراه...)
(٥) بيئة: إطار العمل (تجهيز المكان، فرق العمل، احتكاك أو تباعد بين الأشخاص...)
(٦) سياق العمل: تحليل مسيرة العمل (تصميم، تقنية الشبكات، مراقبة، توافق...)
(٧) متطلبات: مسلمات نفسية، توزيع وظيفي، معارف مكتسبة، تحليل الأخطاء..
(٨) تقييم العمل: وضع المراقبة (نظام قياس العمل المنجز، تطبيق التقييم...)
(٩) مشاقّ العمل: تحليل الإرهاق (معدّل المخاطرة، متطلبات في مادة الانتباه، معيار المردود، تحليل الحوادث..)
(١٠) شروط العمل: معطيات خارجية (الأجور، المكافآت، أوقات الراحة، ضمان الاستخدام..)

ج. مشاقّ العمل

يعلق عالِم نفس العمل أهمية خاصّة على تحليل مشاقّ العمل (نقطة ٩)، وخاصّة من أجل تحاشي الأخطار. فيتفحّص، في هذا المنظور، قبل كل شيء، أهم مجالات المشاقّ الأربعة التي تشكّل أسبابًا للحوادث.

(١) المشاقّ الناشئة عن الأخطار التي عرضت للمؤسّسة تحددها الأخطاء الجسيمة التي ارتكبت.

هنا تتنوّع الأرقامُ كثيرًا. ففي بناء الأبراج السكنية خطوة ناقصة تؤدّي إلى عواقب وخيمة.

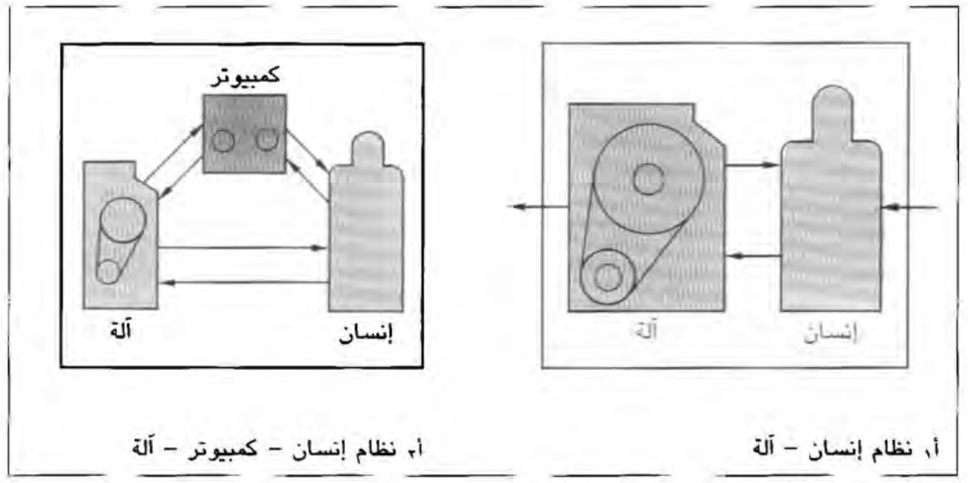
يجهد علم نفس حوادث العمل في تطوير وقاية من شأنها أن تحول دون حوادث عمل بطريقة منهجية.

(٢) المشاقّ المناخية التي يتكبّدها الصيادون في القطب الشمالي، مثلًا، هي عظيمة جدًّا. وحتى في المهن الأقل تعرضًا للخطر هناك دائمًا عامل خطر يتراوح جسامة، ناشئ عن الحر والبرد ورطوبة الهواء والتلوّث..

(٣) تكون المشاقّ المسبّبة عن التركيز الضروري باهظة، بنوع خاص، عندما تُضاف مثيرات ثانوية (مثل الضجيج) إلى نسبة مئوية قوية من الخطر (مثل إمكانية أن ينجرح العامل أو أن يجرح سواه). لا يمكن المحافظة على التركيز باستمرار عند الدرجة القصوى، فهو يتنوّع تبعًا لمدّته ولساعات النهار أو الأسبوع.

(٤) المشاقّ الذهنية لا تخصّ فقط العمل الفكري، لأن كل عمل جسدي هو أيضًا عملية معالجة معلومات ترتبط أيضًا بالحس بالمسؤولية وبدرجة الالتزام.

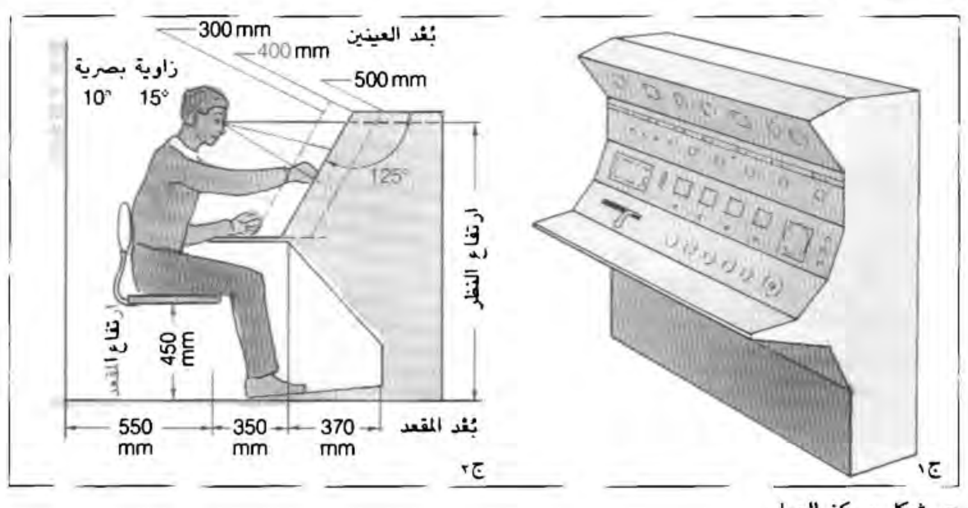
ومن ناحية أخرى كل حادث جديد يعدِّل بدوره خطورة التعريض للحوادث إلى درجة أن الأمان في العمل (**هويوس** ١٩٨٠) هو توازن في غاية التعقيد لا يمكن تأمينه إلّا بتوسيع جميع الاحتياطات التي تؤدّي إلى تقليل الخطر.



أ. نظام إنسان – آلة



ب. شكل الأدوات



ج. شكل مركز العمل

تعود القوانين الأولى لأمن العمل إلى سنة ١٨٠٢ ونشرت في انكلترا، البلد الذي وُلِد فيه التصنيع، عندما لوحظ أن العمّال الصغار يعانون نقصًا خطيرًا في صحّتهم. وراء التسمية «قانون الأحداث والصحة» تكمن خلفية من التدابير الوقائية ضد عمل الأولاد.

يحدد مبحث العمل أو **قانون العمل** مجال الأبحاث والتطبيقات التي تهم العلاقات المتبادلة بين الإنسان والآلة، وقد استخدم، للمرّة الأولى، سنة ١٨٥٧، في مجلّة بولونية اسمها «طبيعة وصناعة»:

«للحصول من هذه الحياة على الحدّ الأقصى من الفائدة بالحدّ الأدنى من الجهد وإرضاء الخير العام والخاص، والعمل بعدل تجاه الآخر والضمير».

أ. نظام إنسان – آلة

في بداية تطوّر الآلة كان الاهتمام قليلًا جدًا بالإنسان العامل وبطاقته على العمل. كانت تُعالج مسألة ضعف الانتاج باختيار الناس المخصصين لعمل محدّد. وفي القرن العشرين سادت فكرة أن أفضل وسيلة لتأمين الانتاجية هي إقامة علاقة فضلى متبادلة بين الإنسان والآلة.

(أ١) صيغت العلاقة بشكل نظام شامل:

لا تشكل «النظم إنسان – آلة» مجرّد ركام، ولكنّها وحدة يجب أن يسود فيها تنظيم وتوازن نسبي للعناصر أو للمقوّمات، والعمليات التي تستخدم يجب أن تكون مترابطة، متناغمة ومتكاملة.

تستخدِم هذه الأنظمة عمليات دخول ومعالجة وخروج.

(أ٢) ومنذ ما توقّف العمّال عن العمل كمحترفين ولم يعودوا يعملون إلّا بواسطة آلات وفي مصنع ممكنن بل مؤلّل، لم يعودوا على اتصال بصناعة المنتجات إلّا عن طريق الكمبيوتر، وأصبح هذا النظام «نظام إنسان – كمبيوتر – آلة».

ب. شكل الأدوات

قانون (أو مبحث) العمل هو مجال متعدّد الأنظمة أو الفروع:

خاصة البحث في مجال طرق الهندسة التقنية وطب العمل والإناسة الصناعية.

يهتم علم النفس بمجالات خاصّة مثل البحث عن أفضل شكل ممكن لأجهزة العمل.

(ب١) أزرار اسطوانية، أزرار ذات فُرَض، أزرار اسطوانية مع ظِفْر (من اليمين إلى اليسار)، لها حسنات وسيئات تتعلّق كل مرّة باستخداماتها المكتسبة (تبعًا لمتطلبات السرعة أو الدقة، مثلًا). من الأنسب أن تختبر عمليًا فوائد هذا الشكل أو ذاك.

(ب٢) يوجد عدّة أشكال لبيان المعلومات:

وخاصّة البيانات الإعلانات الرقمية والمِثْلية؛ أنابيب عدّادة ذات عَمود صاعد وهابط. إعلانات تستخدم دليلًا ثابتًا وترقيمًا متحركًا، إعلانات صوتية وأخرى مشتركة. المسألة، في المثل المقابل، هي إيجاد أفضل طريقة للانتقال من درجة إلى أخرى على المقياس. هذا الانتقال، في المثل إلى اليمين (الرقمي)، يقرأ بسهولة وبدقّة وفي المثل، إلى اليسار، تكلّف حركة الدوران طاقة أكبر دون بلوغ درجة من الدقة توازي ارتفاع المجهود.

يجب أن يصمم أفضل بيان للمعلومات انطلاقًا من معطيات تختلف من حالة إلى أخرى ويجب أن يختبر مسبقًا.

(ب٣)باستثناء شكل الأزرار، يمكن ارتكاب أخطاء في توزيع المناطق المرقّمة.

(ب٤) بالإضافة إلى تلقي المعلومات (الرؤية «الفضلى»)، إن ما يحتاج إلى انتباه إنّما هو، بنوع خاص، نظام التوجيه «الأفضل» (لتشغيل الآلات).

تستخدم عادةً، الدوّاسة لأجهزة قيادة غير دقيقة (بذل طاقة أكبر، مسافة أطول، دقة هزيلة عند الانطلاق).

تشغّل الدواسات العمودية (إلى اليمين) بواسطة الساق بكاملها وزاوية العمل أكبر منها لدى الدواسات المعلقة (إلى اليسار) التي تحرّك بواسطة رأس القدم انطلاقًا من العرقوب.

ج. شكل مركز العمل

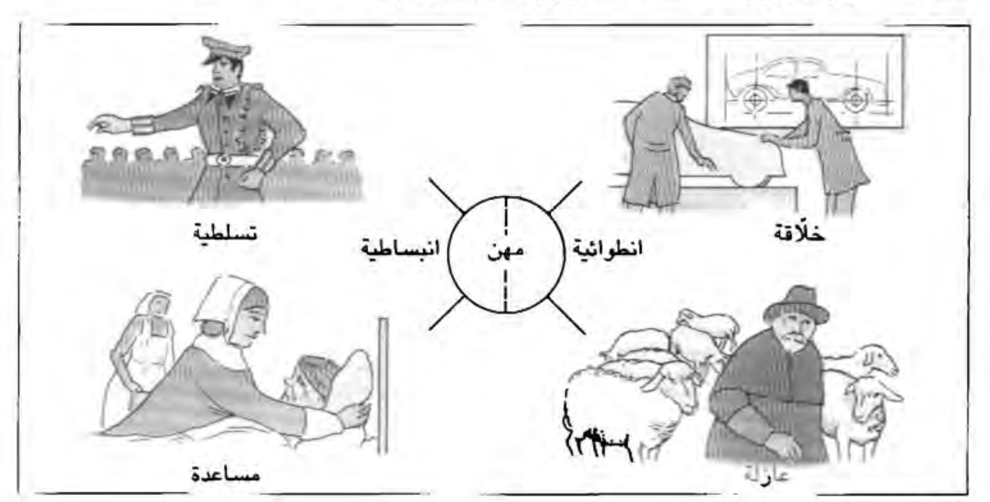
(ج١) يشترك مركز العمل بين أجهزة إعلان المعلومات والقيادة.

هنا عدد مرتفع نسبيًا من أجهزة الإعلان (من ضمنها أنابيب – صورة) ومن رافعات أو قاطعات توجيه وقيادة تشكل مجموعة مُدْمَجَة.

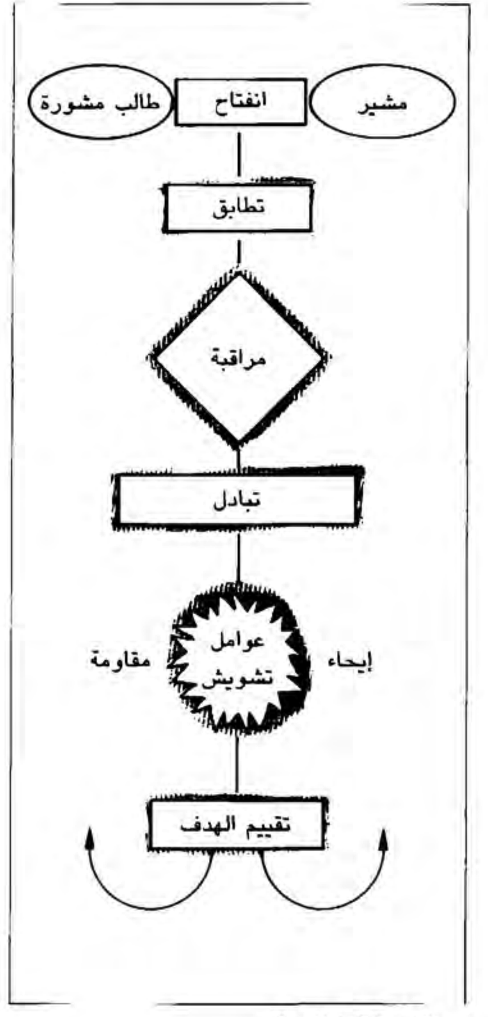
(ج٢) يتيح تدقيق علم النفس، قبل كل شيء، دراسة المتطلبات في موضوع التيقظ (الانتباه الثابت المستمر) وأنواع الحث (مرحلة طويلة من عدم النشاط يليها فجأة جهد يبلغ حدًا أقصى)، والعزلة الاجتماعية في آثارها على الحوافز والالتزامات.

من وجهة نظر قانون العمل، تأتي مختلف الثوابت الخاصة بتجهيز مناضد أدوات لإعلان المعطيات في المقام الأول (ج٢).

إن مثل الكمبيوتر الشخصي، أو بالأحرى المنزلي، يبرز الارتباط الوثيق بين مبحث العمل والتصميم الصناعي.



أ. اختيار المهنة



ب. الاستشارة المهنية



ج. المعيش المهني

إن النشاط المهني هو، بالنسبة إلى الكثيرين، العمود الفقري للحياة» (**نيتشه**). ويشدد **شيلسكي** (١٩٧١) على أن الاتصاف المهني هو، عند السواد الأعظم من الناس، العامل الوحيد لتأكيد الشخصية من وجهة نظر اجتماعية؛ ويؤكّد **منينغر** (١٩٦٤) على أن الإنسان لا يمكن أن يظل بصحة عقلية جيدة دون نشاط مهني.

ومن المؤكّد أنه ليس من مجال لتحقيق الذات أهم من المجال المهني. وبالرغم من كل هذا، فإن علم النفس لم يعالج هذا الميدان معالجة كافية. ما يفسّر قبل كل شيء، أن المهنة، كموضوع، يصعب الإحاطة بها.

أ. اختيار المهنة

«أهم شيء في الحياة على الإطلاق هو اختيار المهنة: الصدفة تتصرف بهذا الخيار. والعادة هي التي تصنع البنائين والجنود وصانعي السقوف»،

هذا ما كتبه **بليز باسكال** منذ ٣٠٠ سنة. وذلك ما جعل منه السبّاق إلى نظريات اختيار المهنة المبنية على «العادة والصدفة». التي وصفها **كريتس** (١٩٦٩) «باللانظرية».

يتم اختيار المهنة، في الواقع، أيضًا، تقليدًا للمهن المعروفة.

وكما بالنسبة إلى أسباب أخرى (فصل ١٣)، تبرز الأسباب التي تؤلّف الحوافز المهنية تحت شكل معزول نادرًا. وثمة «تراكمات» من الأسباب المختلفة مترابطة بطريقة غامضة (مثل التراكمات الصخرية في الجيولوجيا) وفي أكثر الحالات، تتضمّن هذه المجموعات، أيضًا، أسبابًا اجتماعية، اقتصادية:

درجة التعرُّف إلى المهنة، سمة مرتبطة بالعصر وبالمكان، بتوقعات في مادة المردود وعلاقة بين الالتزام والفائدة.

الحوافز الأكثر ذاتية بنوع أخص تعني الاستعداد المفترض (بخطإ أو بحق) (**ت: شارمان**)، «الارتياح الاستعاضي» من طبيعة لاواعية (**أ. موزر**)، «صورة الذات» (**د.إ. سوبر**) التي تشكل المهنة جزءًا منها كونها عنصرًا مكوِّنًا لمفهوم الذات.

يدعو **إ. روي** (١٩٧٢) هذا العنصر التكويني «والتوجّه برغبة مهنية تتجسّد كثيرًا أو قليلًا في سياق قرار حِسّي. تُظْهر هذه التوجُّهاتُ توقُّعاتٍ يمكن وصفها، على نحو ما، بالانطوائية والانبساطية.

ففي الجانب الانطوائي يمكن أن نميز مجددًا توجُّهات ذات طبيعة خلّاقة إلى حدٍّ ما (مقدّمة على الشيء ذاته) وبالأحرى عازلة (محدودة بذاتها). يمكن أن يُجرى الشيءُ نفسه مع التوجُّهات الانبساطية مع تمييز البواعث التسلطية (شعور حادّ بالسلطة) من التي تهدف إلى المساعدة (المبنية على سلوك يعمل لخير المجتمع).

وفي حالات خاصة يمكن أن تتكون الرغبة المهنية بكاملها انطلاقًا من توليف بواعث متنافرة.

ب. الاستشارة المهنية

إن إحدى المهمات الخطيرة للاستشارة المهنية تقوم على توضيح هذه البواعث اللاواعية وإلى تحويلها إلى أهداف قابلة التحقيق.

إن عملية التبادل بين طالب المشورة والمشير هي في قلب عملية الاستشارة.

وتطابق توقُّعاتهما وإزالة عوامل التشويش (سلوك إيحائي من جانب المشير وفقدان «الاذعان» أو المقاومة من جانب طالب المشورة)، هي مراحل متوسطة هامّة.

وتقييم الهدف هو عملية ارتجاعية: إن مراجعة طالب المشورة للسياق الكامل للاستشارة هي وحدها التي تتيح له تكوين حكم يتماهى به.

ج. المعيش المهني

(ج١) إن اختيار المهنة يليه بدء تنشئة تناسبُها. وهنا يجب أن تؤكَّد صحة الخيار المهني.

لكن التنشئة المهنية هي غالبًا مختلفة عن الممارسة الحقيقية للمهنة بمقدار ما يبدو الحكم المسبق على هذه المهنة مجازفة.

فضلًا عن ذلك، فإن التأكيد على القيام بخيار موفَّق هو شرط مسبق ضروري لنجاح مهني في المستقبل، ومن الواضح أن هذا النجاح مرتبط بالإشكالية الوجودية.

من هنا كان التماهي بالمهنة الممارَسَة ضروريا حتى في حال اختيار قائم على تسوية.

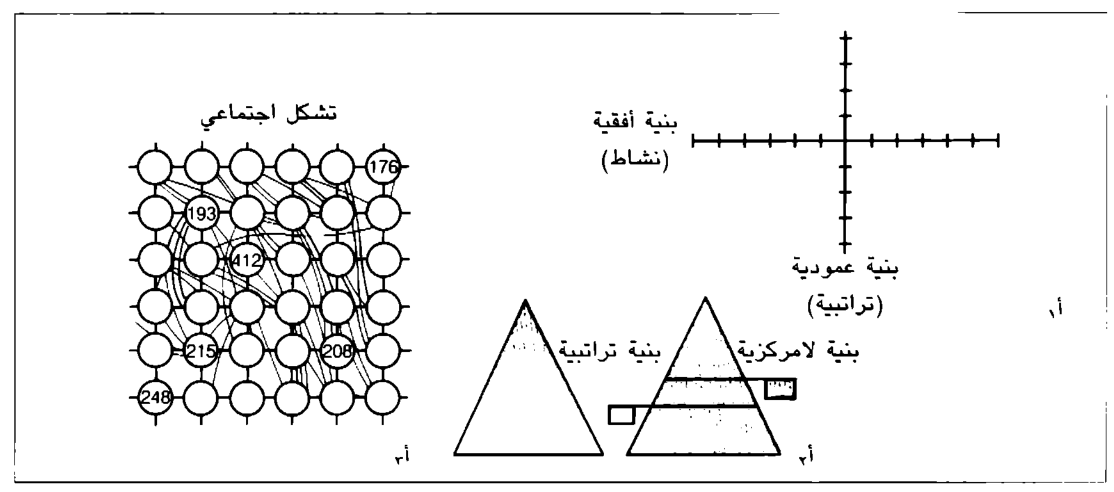
(ج٢) لأن يكون الإنسان متأكّدًا من ذاته، أو بكلمة أدقّ واثقًا من نفسه على الصعيد المهني، هو حاجة ملحّة لكل الناس لكي يقاوموا الرتابة الحتمية التي تسهِّل العمل اليومي الروتيني ولكن تجعله مملًا. عندما يسأل الإنسان عن نجاحه المهني، تلعب التأويلات غالبًا دورًا أهم من موضوعية الوقائع.

لا يوجد في ما نسميه «كفاءة مهنية» مهارة فقط. لأن المعطيات المحلية (راجع علم نفس المؤسسة فصل ٢١/٤) والحافز على الفعالية الخاصّة بكل إنسان (**إ.ب. ڤاينِرْت**)، أي الرغبة في أن يكون فعّالًا، أن يكون مسؤولًا وأن يحقق ذاته، جميعها تدخل في الحسبان.

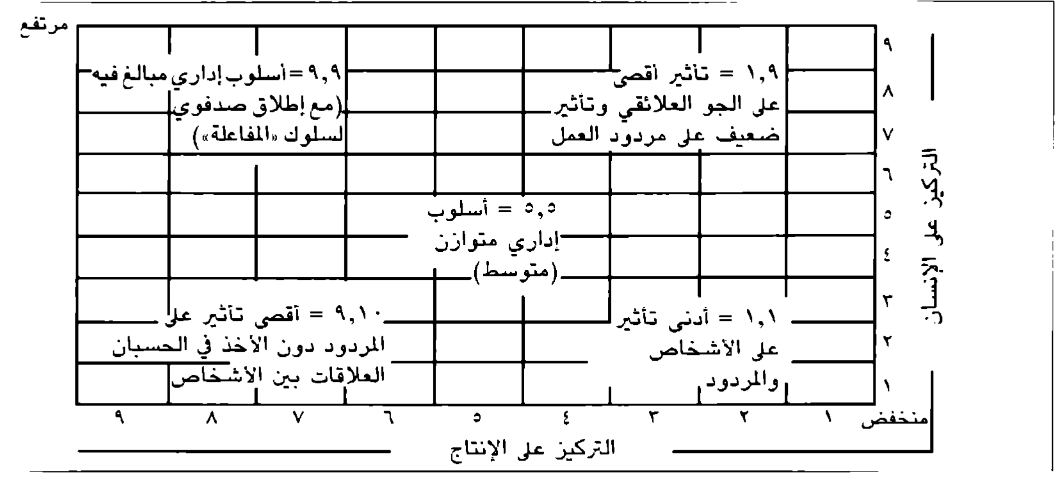
(ج٣) كلّما كان الاندماج المهني قويًا ومطلقًا، بمقدار ذلك يكون صعبًا ترك العمل (عند التقاعد أو البطالة كما في أيام العطل).

إن تغيير المهنة، الذي كثيرًا ما يحدث بسبب التطوّر التكنولوجي الحالي، أصبح مشكلة حادّة.

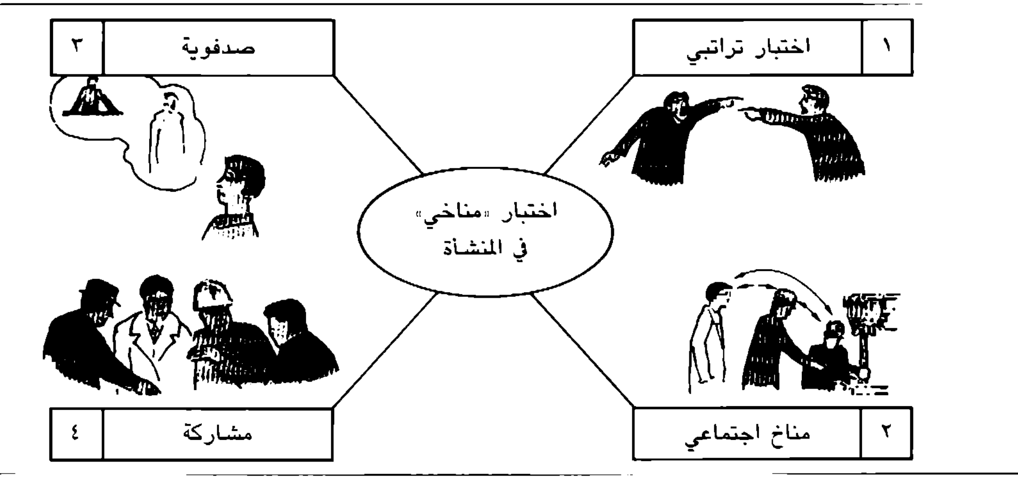
كل ابتعاد عن العمل المهني يتطلب مجالات نشاطات تعويضية لتعويض خسارة التجربة المعيشة. هذه الإشكالية تضفي أهمّية متزايدة على علم نفس التسلية (٢١/١٣).



أ. بنى المنشأة



ب. أساليب الإدارة



ج. مناخ المنشأة

إن عملًا معيّنًا، مثل عمل الخرّاط، إذا مورِس في مُنشأة A أو في منشأة B يترتب على ذلك فروق ضخمة.

تشكل أسباب هذه الفروق موضوع **علم نفس المنشآت**. يمكن تمييز ثلاثة مجالات ذات أهمية خاصة في موضوع علم نفس المنشآت الواسع الانتشار: السمات البنائية للمنشأة الصناعية ونتائجها النفسية، وضع التنشيط من قِبَل الرؤساء التسلسليين ومناخ المنشأة.

أ. بنى المنشأة

يمكن تمييز بنيتين خاصتين بوضوح تنطبقان على جميع المنشآت:

البنية العمودية مع علاقات تسلسلية داخل ملاك العمال، والبنية الأفقية مع توزيع العمل.

لهذا التمييز نتائج خطيرة بالنسبة إلى أسلوب المنشأة وفعاليته.

لا نبلغ هنا فقط مسائل اقتصادية ونفسانية ولكن أيضًا تمثلات إيديولوجية تحددها أنظمة سياسية رأسمالية وشيوعية مع تنوعاتها.

وأخيرًا، فإن التوجهات خاضعة لقوانين تنظيم نفسي اجتماعي يمكن دراسته بمعزل عن كل «نظام سياسي» ويمكن تحليل نتائجه الحقيقية محليًا في كل مُنشأة.

(أ١) نتساءل بخصوص البنية الأفقية عن النتائج المحلية لنمط تقسيم العمل.

ويُتّفق على القول إن فرعًا متخصصًا يتجه نحو الرتابة وفقدان النظرة الإجمالية: يجب أن نأخذ ذلك في الحسبان ونقوي الحافز.

إن التقسيم المفرط للبنية العمودية يعني تكثير الدرجات التسلسلية وفي الوقت نفسه تداخل متزايد للكفاءات:

هذا النقص يجب أن يعوض بتعميم دائم وسريع للمعلومات.

(أ٢) صمّمت نماذج عديدة لتحسين البنية العمودية.

يُظهر المثل المقابل هرما من الرؤساء التراتبيين والمرؤوسين (إلى اليسار) ونظامًا تراتبيًا لا مركزيًا (إلى اليمين)، أي فرقاء إداريين مع مسؤوليات خاصة منفصلين عن التراتبية، ما يؤدي عامة إلى زيادة الحافز.

(أ٣) لا تعني البنية الأفقية خطط تقسيم العمل، إن لها نتائجها أيضًا على الشبكة العلائقية «الشُكل الاجتماعي» لمجموعة الموظفين.

يمثل البيان الاجتماعي في الصفحة المقابلة البنية الأفقية (العلائقية) والعمودية (التراتبية).

ب. أساليب الإدارة

اقترح ر.ر. **بلايك** وج.س. **موتون** (١٩٦٨) نموذجًا شبكيًا ليبرزا، بمخطط بسيط، الميول الأساسية في أسلوب الإدارة الصناعية:

تنظيم التركيز (الاجتماعي) على المساعدين مع تركيز (موضوعي) على الانتاج مع تسع درجات لكلا المحورين.

بنى ا. **فيدلر**، مستعينًا بمعدل أقل المساعدين حظوة، «نموذج احتمال» ليحدد المسافة التي تفصل بين الرئيس وآخر مساعديه.

تعتبر مؤشِّراتُ مسافة قيمة مرتفعة ملائمةً عندما تكون الأعمال مستقرة جدًّا وتكون العلاقة بالرئيس طيّبة. وتعبّر مؤشرات أقل قيمة عن ميل إلى عكس العلاقات العاطفية المتنافرة وتشير إلى أن الرئيس يتمنى أن تكون بين المتعاونين معه علاقات عاطفية إيجابية. واستنادًا إلى نظرية «الهدف الجزئي» يميز الرئيس، بشكل عام، بين القسم «المطلع» (على بواطن الأمور) من جماعة العاملين الذي يتمتع بعطفه ويطلب تعاونه والقسم «الدخيل» الذي يكنّ له النفور.

ج. مناخ المنشأة

تؤدي المتغيرات القصوى «للمناخ» النفسي إلى نقص في الانتاجية. وتقوم إحدى أهم المهمات الأساسية لعلم النفس التطبيقي على دراسة هذا المناخ. ومؤشرات المناخ العاطل هي التالية:

خلافات متكررة، جماعات تنغلق على أخرى من المنشأة، كثرة التسريحات، كثرة التغيب بسبب المرض، عمال يهدرون وقتهم في الممرات، تذمّر دائم، دسائس ومشاغبات يسمع لها صدًى.

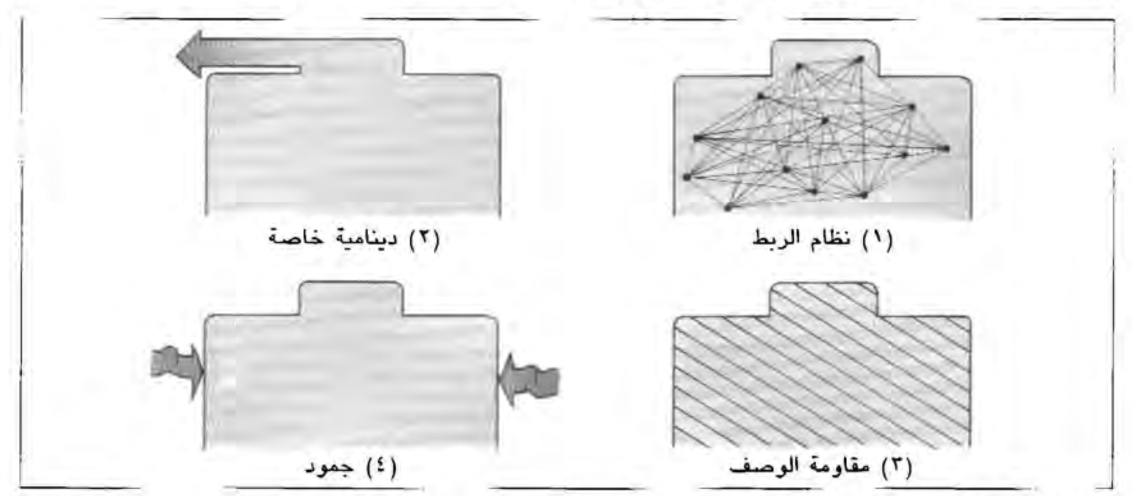
يمكن أن يتأثر مناخ المنشأة إيجابيًا بتحسين الشروط الموضوعية (تخفيف العمل)، تطوير الاستعلامات الداخلية، تنمية الخبرات الذاتية في إطار المنشأة. هذه النقطة الأخيرة هي المهمة الأخطر لدى عالم نفس المنشأة.

(١) يحسِّن الخبرات التراتبية باهتمامه، خاصة، بتشكيل الأطر (إزالة خلافات حق التصدّر والتسلط...)

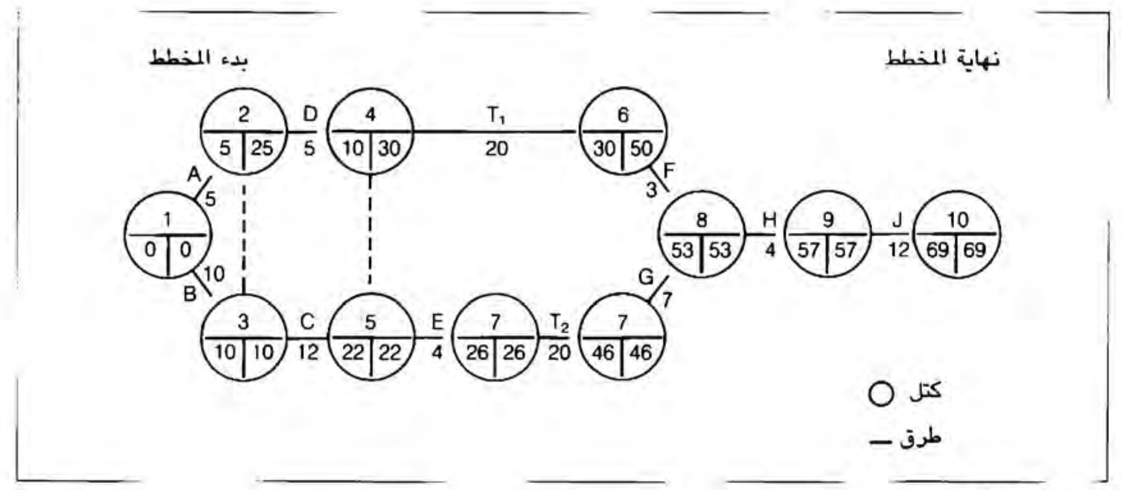
(٢) يُصلح الوضع العاطفي الانفعالي المتوسط، المناخ الاجتماعي، من أعلى إلى أسفل، عندما تبدو الحاجة إلى ذلك ماسّة.

(٣) الصدفوية هي الطريقة التي تسمح بالتأكد إلى أي مدى يوفّر عالم المنشأة إرضاء رغبات العاملين فيها في موضوع الترقيات مثلًا.

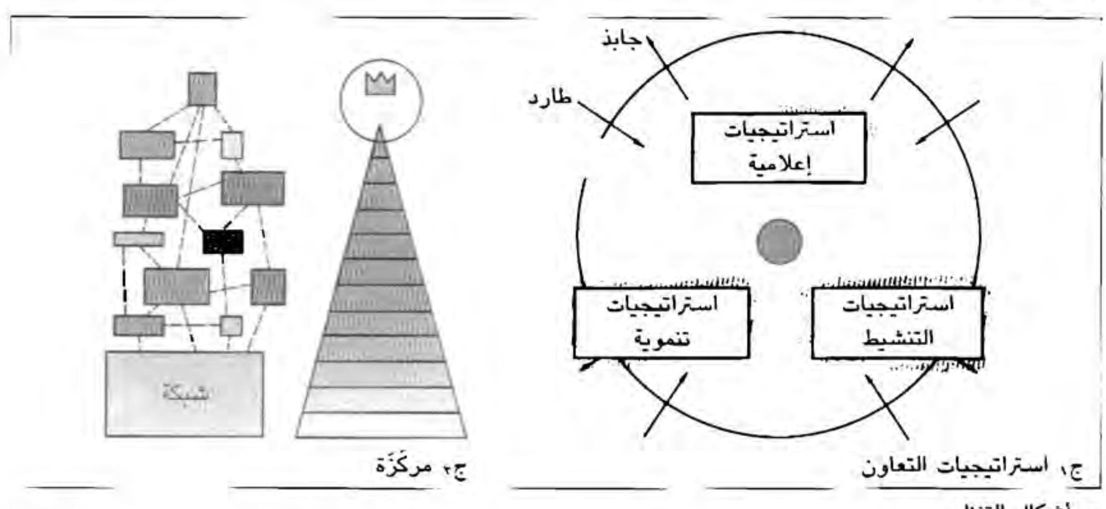
(٤) تُنَمِّي المشاركة في القرارات الحسّ بالمسؤولية وتؤثِّر تأثيرًا إيجابيًا بطريقة غير مباشرة.



أ. خصائص النظم



ب. تقنية الشبكات



ج. أشكال التنظيم

كان على النازا، في بداية الستينات (من القرن الماضي) أن تجمع عشرة آلاف شركة لهدف واحد هو الطيران الفضائي الأول. وتنسق فيما بينها بطريقة تجعل تسليماتها تتم في الأوقات وبالقياسات التي تريدها.

وكان واضحًا أن الطرق التقليدية للتخطيط لم تكن تسمح بمواجهة هذا المطلب. فكان من الواجب تنمية تقنيات جديدة باستخدام معالجة إلكترونية للمعلومات. وفي خضم هذا **التخطيط التنظيمي** المتعدد الفروع، كلف العالِم النفساني «وضع العامل الإنساني» في برنامجه، فيما يخص تعقيدات الخلاف أو التعب.

أ. خصائص النُّظُم

لا يمكن مقارنة النظام الكبير، أي تصميم أو تنظيم يتصف بعدد كبير من المساهمين وقسم ضخم من المهمات، جزئيًا، بجماعة صغيرة يعرف الناس فيها جميعهم بعضهم بعضًا شخصيًّا. وفي هذا النظام العظيم، تظل قوانين دينامية الجماعة (٩/١٥)،مثل التكيف المناسب، صالحة، ولكن من الضروري، فيما وراء ذلك، الأخذ في الاعتبار أربع نوعيات مختلفة بشأن التنظيم:

(١) يجعل نموذج الاتصال الدائري، داخل النظام العظيم، أسباب رد الفعل تتقاطع في اللانهاية. وهذا يتوقف على مآثر الفرد المغمورة. من هنا ينتج الانطباع بالغفلية:

تعترض صعوبات للتآلف مع النظام، وبكلمة أدق، لتطوير «المعنويات» ذاتها كتلك التي تواجَه بها الجماعات الأقل عددًا.

(٢) وبسبب هذا النظام، يتحوّل عدد لا نهاية له من الإمكانيات إلى قوة إجمالية ووحيدة تتميز بدينامية خاصة يتخذ تطورها اتجاهًا يخضع لقوانين نوعية.

لا يستطيع المسؤول أن يتحكّم بنظام كهذا تحكُّمًا مطلقًا، فعليه أن يكتفي بممارسة نفوذ نسبي على ديناميته أي أن ينقل إليه اندفاعات من شأنها أن تبدّل مساره.

(٣) أصبح تحليل هذه الأنظمة العظيمة صعبًا بسبب عدد الارتباطات التي تتحكم بعناصرها التكوينية.

لم يعد ثمة من علاقة سبب بنتيجة يمكن إدراكها.

استنادًا إلى هذا الواقع، تبدي هذه الأنظمة مقاومة لملاحظة المحقق فتمنعه من بلوغ تحليلاته الاستقصائية.

(٤) ينتج عن جميع هذه النقاط، مع وجود هذه الجمادية (فقدان الطواعية، استحالة التنفيذ)، أن الأنظمة الضخمة لا تعالج كجماعات لا يمكن احتواؤها وتطويقها.

ب. تقنية الشبكات

تحتاج هذه الأنظمة العظيمة، لكي تصبح سهلة الاستعمال، إلى أدوات أخرى غير طرق السيطرة القديمة المؤسسة على الأمر والطاعة.

توجَّه إدارة المشروع تبعًا لتصميم مسبق، مبرمج بطريقة تجعل كل مرحلة جاهزة دائمًا وتكشف العيوب (مثلما يحدث عند إطلاق الصواريخ) دون تدخل الإنسان وتؤدّي إلى توقف العملية.

يتطابقُ مع الصلة السيبرناتية للمهمّات، التصميمُ الشبكي مع مستلزماته (المسهمون ككُتَل، مثلًا) ومراحله أو حالاته، شبكة تمثِّل فيها الأعمال المنجزة بالخطوط.

قُسِمَ المُخطط، في هذا المثل، تبعًا لمهمتين فقط تمثلان بدورهما مجموعات تسلسلية (A، D، وأيضًا B، C) مع ثوابتها المادية والزمنية يمكن تتبّعها حتى التقائها (رقم ٨) وحتى نهاية المخطط (رقم ١٠). تحيل الأعداد في الداخل إلى النشاطات المرفقة.

ج. أشكال التنظيم

يعالج عالِم نفس التنظيم المخططات الكبرى، من هذا النوع، بغير الطرق التي يعالج بها مشاكل الأشخاص في المجموعات الصغيرة. إنه يركز على عوامل التشويش ذات الطبيعة النفسية.

تعرض التنظيمات الكبرى قوى التحام جابذة (مثل الرغبة في التعاون) وقوى نابذة تعمل على التفرقة (مثل التنافس).

(ج١) ولكي يستبق خطرَ الفساد المستمر، يطبّق ثلاث استراتيجيات تعاون تقابل تفكك النظام.

استراتيجيّات إعلامية (جعْل التعليمات مقبولة، جعل الموظفين يهتمون بتحديث الإعلام).

استراتيجيّات تنشيط (المشاركة في التخطيط، يقظة المسؤولية).

استراتجيّات تنموية (ندوات لكوادر الموظفين، نصائح في التنظيم).

(ج٢) من هنا، يتحول الشكل الذي يتخذه تنظيم المشاريع حتمًا.

أصبح النظام الخطي بكامله، المحكوم كنوع من مملكة، مستحيلًا عمليًّا، لأن المخطط أصبح أكبر من نظام كهذا.

تقدّم إدارة المخطط (المشروع) شكل تنظيم لامركزي، مؤلف من وحدات مستقلة نسبيًّا يعهد إليها بمسؤوليات خاصة.

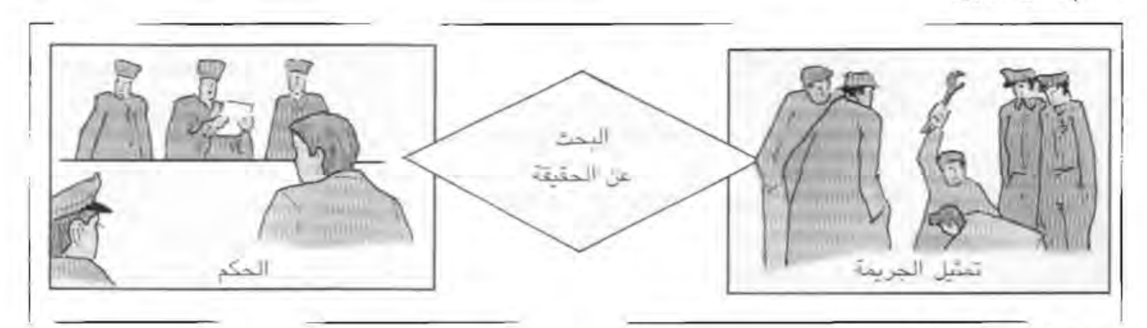
إن شكلًا كهذا يتجه نحو الانفجار بدون تقنية الشبكات.

ولكن بما أن التصميم المرجعي يشكل مرسًى ثابتًا فإن أشكال التشغيل القديمة وحدها تتغيّر.

إن الذين يشق عليهم قبوله هم كوادر الموظفين الذين يرتبط نفوذهم بالمركز التسلسلي الشخصي. ولهذا فإن إحدى المهمات الأساسية لعالم نفس التصميم التنظيمي تقوم على تشكيل ملاك إداري تبعًا لأشكال التنظيم الجديد.



أ. علم نفس الجريمة



ب. علم النفس القضائي

عقاب

كامل — وسط — خفيف

تنفيذ قتل
حكم مؤبد خيانة
تعليمات جريمة
علاجية نفسية
سجن سرقة
غرامات سرقة غير صُراح
مخالفة القوانين
ازدراء اجتماعي مخالفة القوانين الجنسية
حذر سلوك عصابي
احتقار الشخصية إدمان على الكحول
إعاقة خروج على المألوف
شجب آراء أقلية
تهكم موقف متطرف
نظرة الآخر أزياء شاذة

سلوك

ج١ قوانين جزائية

ج٢ التكيف مع تنفيذ الجريمة

ج٣ إعادة تأهيل

ج. علم نفس تنفيذ العقوبة

نكاد لا نجد صحيفة لا تتعرض لعلم نفس الجريمة. تحتاج الجريمة إلى تفسير: يتساءل الناس عن أسبابها ودوافعها، عن مسؤوليتها وتأثيراتها. ويتساءلون عما إذا كان المحكوم عليه هو المجرم.

تشمل عبارةُ علم نفس القضاء علم نفس الجريمة بكل معنى الكلمة والإجراءات القضائية لتنفيذ العقوبة.

أ. علم نفس الجريمة

تشير الحظوة التي تتمتع بها الرواية البوليسية إلى أي مدى يهتم الناس بالجريمة: بسبب الغموض الذي يحيط عادة بالظروف التي تُرتكب فيها الجريمة، باللّذة الممزوجة بالخوف، في حين أن رغبات خفية تتعلق بالطاقة الجرمية الكامنة في كل إنسان.

تتركز الأبحاث على مراحل ثلاث أساسية من العمل الجرمي.

(١) تقسم النية الجرمية إلى ثمانية أقسام (مع تفرعات لا عديد لها):

التعدي على الأملاك، جرائم عنيفة، جرائم جنسية، مخالفات اقتصادية، جرائم العصابات (جريمة منظمة)، جرائم سياسية (وإرهاب)، جنح سير وتصرفات شاذة (جرائم متعلقة بالمخدرات).

الدوافع كثيرة التنوع. أما الأسباب فنذكر منها، على الأقل:

التصاميم الشخصية (استعداد مسبق، ميل، بيئة...)

الواقع الفعلي (الانتقام، طلب الغنى، النفوذ...)

الطاقة الجرمية (الرغبة في المغامرة، امتهان الجريمة، استراتيجيات عمل...)

الفرصة المؤاتية (الظروف، التآمر).

(٢) تنفيذ الجريمة يعدل الوضع.

تحدِّد الوقائعُ المادية للعمل الجرمي كيفياتِ

تنفيذه، لكنه يوجد أيضًا «توقيع جرمي» أي روتين شخصي.

(٣) تشتمل نتائج الجريمة على توابعها ومضاعفاتها وردود الفعل عليها.

وكذلك النجاح والفشل (مقدار الغنيمة، مثلًا) والآثار الناتجة عنها (مثل مضاعفاتها على أعمال لاحقة: على شكل تشجيع على جرائم جديدة).

مجال جديد لعلم نفس الجريمة هو علم نفس «القتل». يهتم هذا العلم خاصة بالمسائل التالية: كيف يصبح أحد ما ضحية (استعداد مسبق لوضع الضحية)، كيف يتصرف أثناء ارتكاب الجريمة (التفاعل بين المرتكب والضحية) وأية آثار ترك العمل الجرمي.

ب. علم النفس القضائي

كان **ألفريد بينيه** أول عالم نفساني استُدعي سنة ١٩٠٠ للإدلاء بتقرير نفساني أثناء دعوى قضائية.

إن أول سؤال يطرح في هذه التقارير هو عن صدقية المجرم. يضاف إلى ذلك فيما بعد مسائل المسؤولية.

الكثير من الجرائم ينظر فيها تبعًا للنوايا. عندما يقتل إنسان مثلًا، هل حدث ذلك بضربة مميتة أو قتل عمدًا وعن سابق تصميم.

تقسم، نظريًا، الخصائص النفسية لمحاكمة ما إلى مراحل مختلفة:

إعادة تمثيل الوقائع الجرمية (مع الأخذ في الحسبان أخطاء الذاكرة).

استقصاء الحقيقة (المتوسطة بين إعادة التمثيل وإصدار الحكم).

ثم الحكم (مع مجالات خاصة لتصور الحق الذي يتغير تبعًا للأفراد والجماعات والذي يقدم تارة الانتقام وطورا الردع أو، على العكس، إمكانية الإصلاح).

ج. علم نفس تنفيذ العقوبة

(ج١) إن كل مجتمع (وبكلمة أدق كل نظام سياسي) يطور تصورات أكثرية للرفض الاجتماعي تجاه التصرفات الشّاذة. وتكون القوانين الجزائية، بالتالي، منسجمة مع هذه التصورات التي تكون متشددة أو متسامحة.

يمثِّل المنحنى في الصورة المقابلة علاقة عامة بين السلوك السلبي والعقاب الاجتماعي أو الجزائي.

تدل حال التنفيذ الأساسية بوضوح على الفروق في التصور القضائي تبعًا للمحافظة على قانون الإعدام أو لإلغائه من التشريع وتبعًا لتنوع الرأي العام في الاستطلاعات.

(ج٢) إن إحدى المهمات الأساسية لعلم النفس القضائي هو الاهتمام بالمحكومين. وقد ضاق هامش تحرك علماء النفس في المؤسسات الإصلاحية بشكل عام (وهو معدوم في الدول التوتاليتارية).

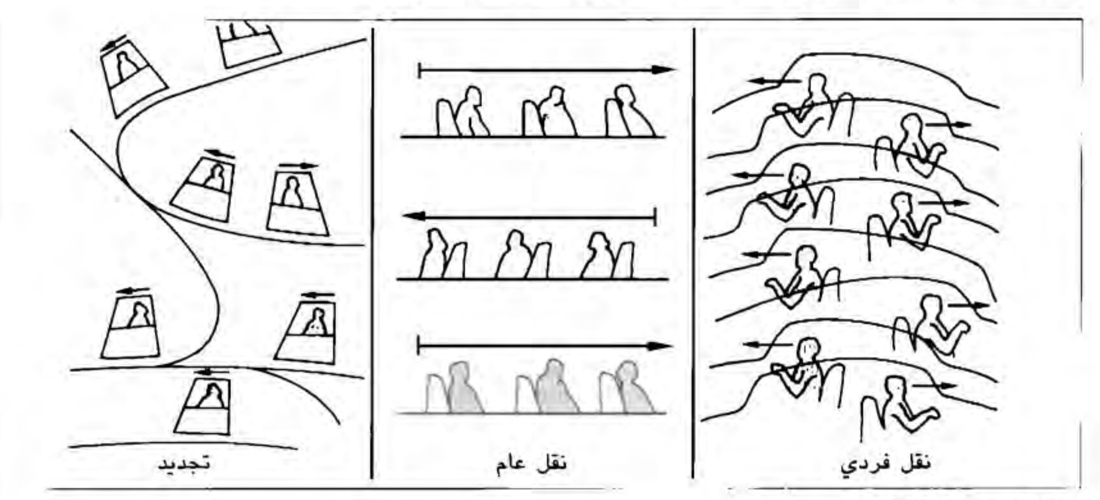
تنشأ المعضلة عن المسألة الصعبة في العلاقات بين الاستعداد على إصلاح النفس والضرر النفسي الذي تسببه العزلة الاجتماعية.

يقوم نشاط عالم النفس، في الدرجة الأولى، على ملاحظة تكيف السجين مع تنفيذ العقوبة. ومهمته على صعيد علم النفس العيادي هي تلطيف الضرر الذي ينتج عن ذلك.

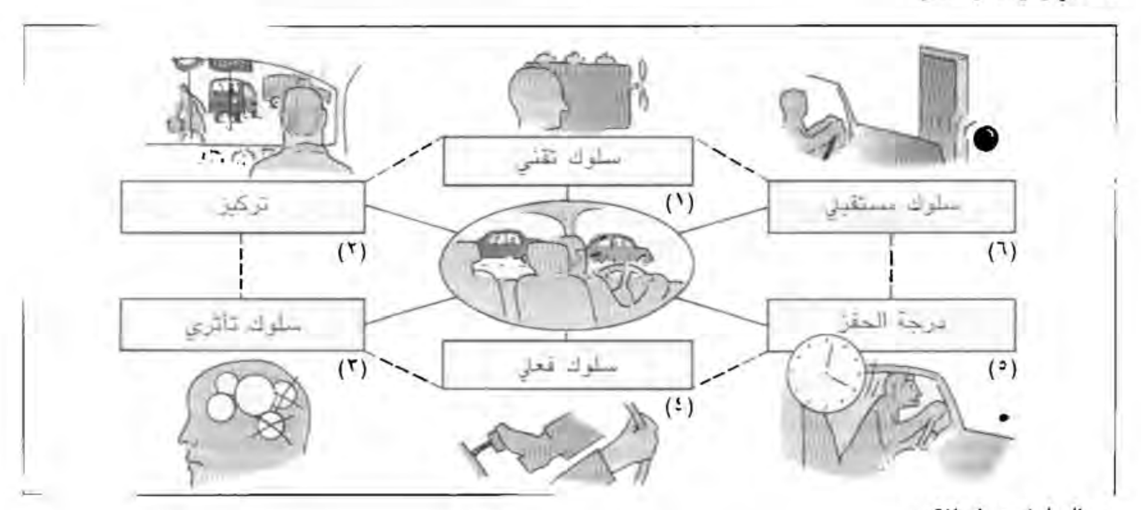
(ج٣) رد الاعتبار، استعداد السجين للاندماج من جديد في المجتمع، هو عمل قلما ينجح.

تشير النسبة المئوية المرتفعة في العائدين إلى ارتكاب الجريمة إلى أنه ليس للمشكلة حلول مرضية.

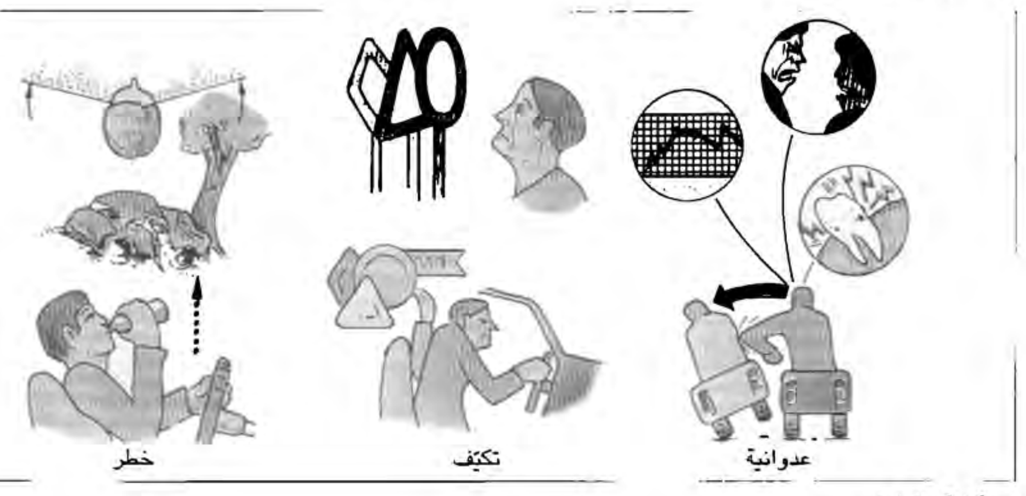
تصطدم هذه المهمة بالمقاومة المبدئية لدى الذين يفكرون بطريقة قلب البرهان على صاحبه.



أ. اختيار وسائل النقل



ب. السلوك وراء المقود



ج. أهلية القيادة

إن ظهور وسائل نقل جديدة، في بداية القرن (العشرين) (الحافلة الكهربائية، السيارة، الطائرة) حتّم طرح السؤال النفساني حول أهلية قيادة عربة. وكان يبدو، أولاً، أنه من السهل الإجابة عن هذا السؤال بالاكتفاء بالتحقق اختباريًا من أهلية السائق وسرعة ردات فعله. لكن المسألة تعقدت بسرعة لأن الإنسان لا يتجاوب بطريقة واحدة مع مختلف الأوضاع. فكان من الضروري المباشرة بأبحاث حول عناصر أخرى للسلوك. وإن عدد ضحايا السير يضغط على حمل هذه المسائل على محمل الجد.

أ. اختيار وسائل النقل

يعتبر تعميم الحركية الجماعية إحدى المميزات الأساسية للقرن العشرين. فضل الناس، في أكثر البلدان، النقل الفردي أي السيارة.

يجهد الكثير من البلدان، حديثًا، في التجديد في مادة النقل لدمج فوائد الخيار الفردي مع فوائد النقل العام، كاختيار السيارات العمومية ذات المقصورة الآلية. هنا تلعب مشاكل الراحة النفسية وإرضاء الحاجات دورًا هامًا. عناصر الراحة هي، بنوع خاص، قياسات المقصورة، التسارع المحتمل عند الانطلاق، منحنى التفاف كبير، مسافة كافية للفرامل لإيقاف السيارة. والحاجات تعني الرفاهية، التعرفة، سهولة الوصول، الأمان وسرعة وسائل النقل هذه، مثل أتْمتة النقل من الانطلاق حتى الوصول.

ب. السلوك وراء المقود

تشكل الأبحاث النظرية والعملية، حول تصرف السائقين، جوهر علم نفس القيادة.

على سائق السيارة أن ينفّذ تنفيذًا صحيحًا عددًا كبيرًا من ردود الفعل (٦٠ سؤالًا على الأقل) ليُعتبر جديرًا بالقيادة.

يمكن إختصار هذا العدد بست مجموعات أساسية من ردود الفعل.

(١) السلوك التقني ويعني الاستخدام الصحيح للآلة:

تغيير السرعة، الإسراع، الفرملة، وصيانة المحرك.

(٢) التركيز هو القدرة على اختصار التنوع الضخم من المثيرات بعدد قليل من المثيرات الهامة. ومنذ اللحظة التي يتم فيها هذا الاختصار، يجب البحث عن أهمية هذه الحوافز الأساسية بالنسبة إلى الجواب الأجمالي وبالنسبة إلى الأوقات الضرورية لرد الفعل.

والمسلم به، بوجه عام، أن الإعداد المركزي للمثيرات في الدماغ يتطلب أوقاتًا لردات الفعل أطول بـ (٧٠ إلى ٣٠٠ ميكروثانية) من الإعدادين الطرفيين (المُورِد والمُصدِر نحو ١ إلى ٣٠ م.ث لكل واحد).

(٣) يمثل السلوك القابل للتأثر المنحى النفساني لهذا الإعداد: تعيين جميع تفاصيل وضع السير.

(٤) يقوم السلوك الفعلي، أساسًا، على قيادة العربة:

مناورة القيادة مبنية على السرعة والدقة.

(٥) بدت درجة الحفز ذات أهمية بالغة:

يعرّض السائقون، بلا وعي منهم، أنفسهم لمخاطر تتفاوت حِدّة، تتغير درجتها تبعًا لمخزونهم الانفعالي (قلق، عدوانية، مركب نقص...)

(٦) سلوكهم المستقبلي هو أيضًا جزء أساسي من قيادتهم:

عندما تتدحرج كرة على الطريق، يتوقع السائق، الذي يفكر بطريقة مستقبلية، أن يرى ولدًا يركض وراءها، فيوقّع قيادته على هذا الاحتمال.

ج. أهلية القيادة

جاء في أحد الشعارات الاعلانية:

«ضَعْ نمرًا في مُحرِّكك».

يتوجه هذا الشعار، من وجهة نظر الأسباب النفسية، إلى البحث عن إثارات هجومية عند السائق. والحال، إن القيادة ليست المكان الملائم، لا لمشهد يتيح للمنافسات أن تعبر عن نفسها ولا هي كأداة للتعويض عن إحباطات مصدرها مكان آخر. ومع ذلك يستخدمها بعض السائقين استخدامًا سيئًا. إن تكيّف السلوك مع الأوضاع، إلى جانب العدوانية، هو أحد المقوّمات الأساسية لأهلية القيادة.

نميز، على هذا الصعيد، ثلاثة أشكال من عدم الملاءمة.

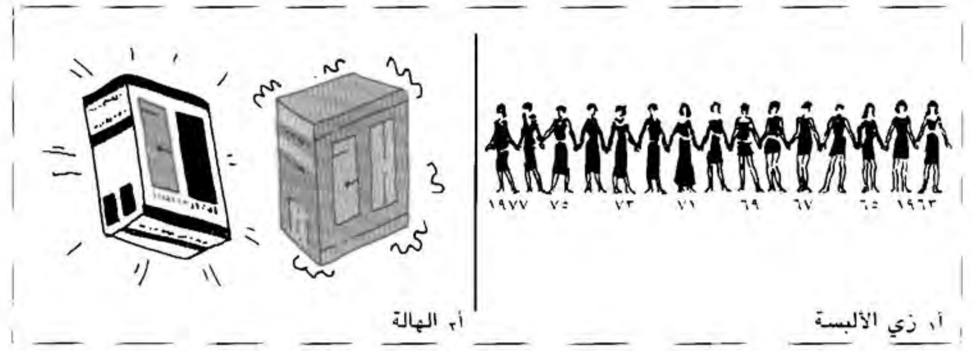
(١) غير متكيف هو تردد السائق المبالغ في الحذر الذي ينتظر أكثر مما يجب عندما لا يكون له الأولوية في المرور وينتهي به الأمر إلى أن يسبب تصادمًا بانطلاقه في أسوأ لحظة عندما يتغلّب على موانعه.

(٢) غير متكيّف أيضًا الإلمامُ الناقص بقانون السير (عدم التعرف إلى الإشارات) ما يؤدي إلى فوضى في اللحظات الحرجة.

(٣) والأمر يختلف في حالات عدم الاحترام المقصود لقانون السير، سواء كان ذلك إهمالًا أو جَهلًا أو عندما يحاول السائق أن يفرض نفسه دون أن يشعر بأنه مقيّد بأي نظام.

وأخيرًا، وفي كثير من الحالات التي يظل فيها الكثيرون دون عقاب، يكون ذلك بتأثير الخمر الذي يضعف المقدرة على القيادة. يمكن أن نلحظ، في حال وجود نسبة ٠,٦ بالألف من الكحول في الدم، خللا في ردات الفعل (في حين أن الكثيرين يزعمون أن ليس للكحول أي تأثير على القيادة) هي:

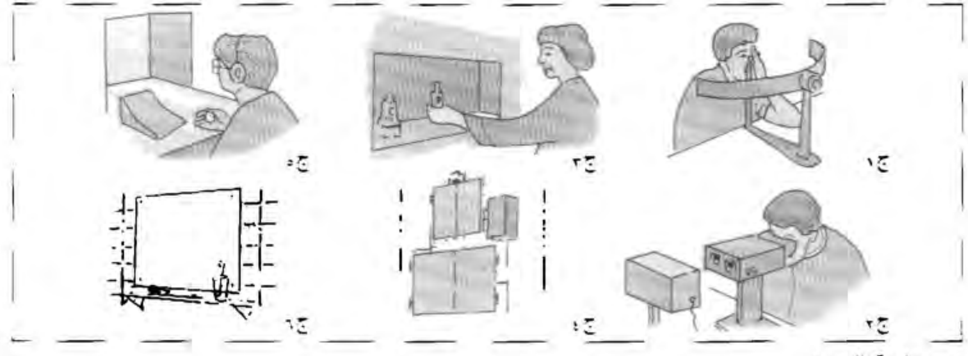
سوء تقدير للخطر (وهو جزئيًا مبالغ في تقييمه، كما هي حال السائق المفرط في التباطؤ)، تقلص الحقل البصري، فساد الرؤية الطرفية، ردود فعل بطيئة أو خوافية، سلوك انفعال مفرط.



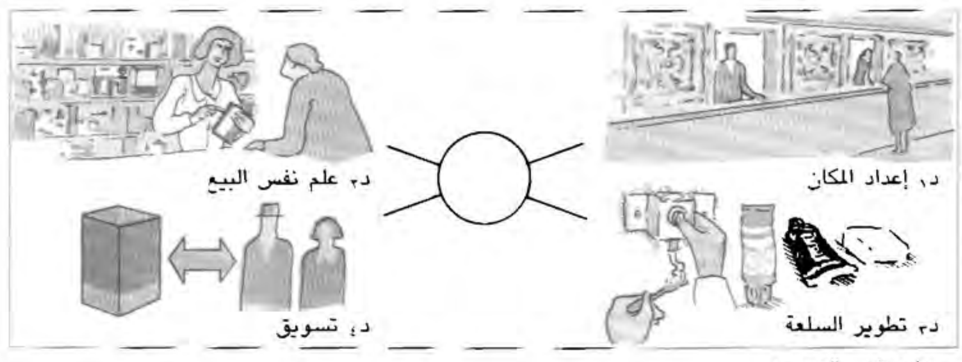
أ. شكل السلعة



ب. ابتكار صورة مميزة



ج. دراسة السوق



د. علم نفس التسويق

إنه لمن الأهمية القصوى أن تُعرَف، بالنسبة إلى **الاقتصاد**، بدقة ومسبقًا، توقعات الرأي العام وردود فعله ورفضه لإدخالها في استراتيجيات قراره الخاصة. تتمثّل ثوابت الحساسية هذه في جمهور الشعب بغير مما تتمثل في مجموع سلوك أشخاص عديدين أُخذوا واحدًا واحدًا. وهذا عائد إلى الفرق في الطاقة الكامنة وفي ارتجاع ردات الفعل لدى الجماهير. من هنا الحاجة إلى فرع خاص في علم النفس يلقي الأضواء على السلوك المعقّد عند المستهلكين.

أ. شكل السلعة

(أ١) لكل منتَج اقتصادي (أو سلعة) «شكل» يتعرض لبعض التغييرات من وقت إلى آخر.

كيف نفسر تحولات الزي، أو بكلمة أدق، تغيير طول التنانير بين سنة ١٩٦٣ و١٩٧٧)

تغطي الأسبابُ عدة معطيات:

حاجات عامة (وخاصةً الرغبة العامة في التغيير: يملّ الإنسان ممّا لا يتغيّر).

مصالح المنتجين التجارية (وخاصة رغبة الشيخوخة السيكولوجية لكي يشتري الناس ثيابًا جديدة في حين أن القديمة لا تزال صالحة).

ظواهر العصر الآنية (وخاصة المواقف الجديدة تجاه الجنس أو تغيير الأوضاع)، إتباع الزي الرائج (المودة) (تصميم جديد ومغرٍ وضَعَه أحد المصممين المشهورين أو صاحب قرار نافذ).

إن نسبة العوامل النفسانية (البحتة) هي مهمة في هذا المجال. والشيء نفسه ينسحب على أكثر المنتجات.

(أ٢) تكتسب المنتجات، بين الناس، هالة تتمثّل بصورة (تمثلات):

عندما يكثر الحديث عن سرطان المدخنين، يثير لون علبة التبغ القاتم وساوس المرض. ولتحاشي ذلك تستخدم ألوان «صحية» على العلبة (الأبيض أو الأحمر أكثر الأحيان).

ب. ابتكار صورة مميزة

يُدْرَس منهجيًا هذا النوع من الترابط الذي كثيرًا ما يكون وليدَ الصدفة ويُستخدمُ أيضًا منهجيًا لإيجاد صورة مميزة ثابتة.

إذا أردنا، مثلًا، إعطاء صورة «فتوّة» لنوع من السجاير نزيّن الإعلان برموز مناسبة (ب١)؛ وإذا أردنا أن نعطيه معنى القوة والرجولة نفضل نوع المغامرة والمغامرين («صورة جريئة» (ب٢).

يُبْدِعُ محتوًى تمثيلٍ محدَّد، عندما يقترن بسلعة معيَّنة، صورةً مميزة تجعل الناس يألفونها ويعتادونها نتيجة إقامة العرض المطلوب.

ج. دراسة السوق

قبل بناء استراتيجية طويلة الأمد مؤسّسةٍ على صورة محددة، يجب التأكد من أن هذه الصورة ستستقطب، على المدى الطويل، زُبُنًا دائمين. وللتأكد من ذلك يجب القيام بأبحاث طويلة اختبارية واستطلاعية؛ وعالِم النفس الاقتصادي جدير بأن يقوم بالأبحاث الاختبارية.

يُستَخْدَم مئفاق (منظار أفق) (ج١) ومجساد (منظار مجسّم) متقوِّس (ج٢)لاختبار التجمعات اللاواعية.

يتيح اتساع القوس المنظور (ج٣، ج٤ = ظهر/قفا) مراقبات ردود الفعل التلقائية.

وتتيح مرآتان (ج٥، ج٦) المراقبة دون أن تُلاحَظا.

تستخدم أيضًا هذه الأجهزة الاختبارية عند إضاءة صورة مميزة موجودة.

د. علم نفس التسويق

البحث الاختباري في التسويق هو فرع من علم نفس التسويق الذي نذكر من وجوهه الكثيرة أربعة:

(د١) إعداد الأمكنة وهو يختص بجو نقاط البيع والانطباعات التي تثيرها.

المصرف، مثلًا، يريد أن تعطي المساحة المخصصة لاستقبال الزبن انطباعا بأن المال هنا هو في مكان «أمين». يقضي على الضجيج (بتغطية الأرض بالموكيت) ويخلق انطباعا بالمتانة (باستخدامه الخشب الثمين).

(د٢) يهتم علم نفس البيع، قبل أي شيء آخر، بالعلاقة بين البائع والزبون. المناقشات مع الزبن هي أحداث تتعلق بعلم النفس الاجتماعي وهي بذلك أدوات حسّاسة لاكتساب الزبن.

يَتْبع الباعة صياغةً توفر لهم قاعدة نفسية للتعاطي مع الزبن بشكل لائق.

ولكن لعلم نفس البيع مهمة تشجيع خطوات الشاري (إزالة «خوف العتبة» قبل الدخول إلى المحل التجاري). الترتيبات المخصصة لاجتذاب الزبون (مثل تزيين الواجهات، بيع التصفية...) ومشاركة الزبون (قياس الثياب... صحيفة الزبائن).

(د٣) لا يعتمد تطوير السلعة فقط على ابتكار صورة. بل يحتاج ذلك إلى وسائل تحسين استخدام البضاعة: إن سهولة أكبر في الاستعمال من شأنها أن تعوّد الزبن على ارتياد المحل.

يصعب التصور، اليوم، أن الناس كانوا منذ عشرات السنين يجهلون معجون الأسنان، كانوا يغسلون أسنانهم بالصابون.

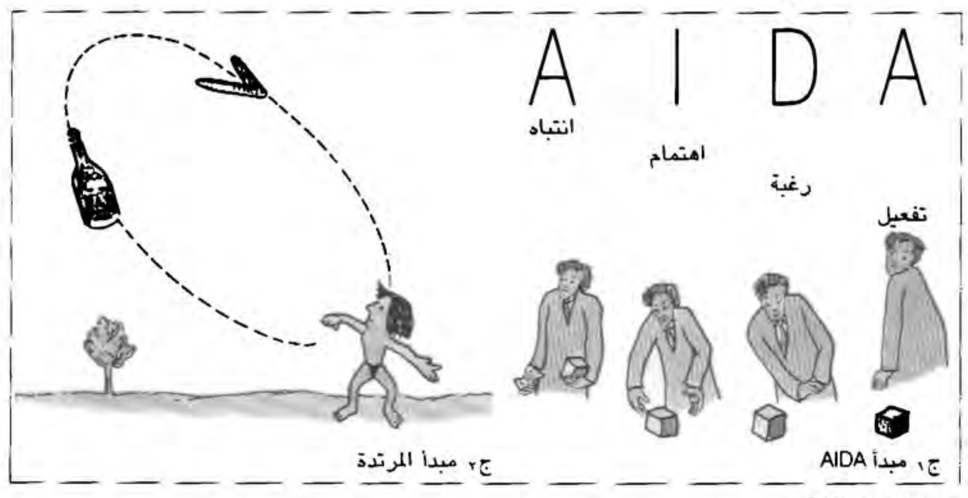
(د٤) تعيّن عملية التسويق توليف جميع الاحتمالات التي يمكن استخدامها لترويج بيع المنتجات. ليس فقط مجموع هذه الإجراءات، ولكن أيضًا تناغم جميع هذه التحسينات الضرورية للبيع (تسويق مختلط).



أ. الإبداع الإعلاني



ب. الملصق الإعلاني



ج. مبادئ إعلانية

للرأي العام فكرة مناقضة **للإعلان**. هل نحن، فعلًا، بحاجة إلى هذه الصيغة الهجومية لتأثير لا يطلبه أحد؟ قد يكون الجواب إيجابيًا.

فمنذ اليونان القديمة، مارس التجار الإعلان الدعائي، كانوا، مثلًا، يطلبون من فتيات شبه عاريات أن يرسمن شعارات دعائية على رمال الشاطئ.

يبرز هذا المثل المبدأ الأساسي لكل دعاية:

دمج المصلحة الشخصية (اجتذاب الزبن) بما يغري عامة الناس (منظر الفتيات الحسان).

لكن هذه الظاهرة المعروفة باسم أثر المرتدّة (أنظر أدناه ج) لا توجد إلا في الدعاية الاقتصادية. فالدعاية السياسية أو العقائدية، وأيضًا علاقات الإغراء المتبادل بين الجنسين تقرن المصالح الخاصة بالحاجات الأساسية للجمهور (مثل الأمن، النفوذ، التوجيه).

أ. الإبداع الإعلاني

لكي نستطيع تقييم الفعالية النفسانية لإعلان ما، نحتاج إلى سلسلة من معايير الفعالية:

(أ١) تُبنى الجانبية تبعًا لدرجات الجدّة (إيجابي = من أعلى، سلبي = من أسفل) لستّ قيم محصورة بين ضعيفة الفعالية وقويتها (ومن ضُمنها المنفّرة).

ثلاث مميزات أساسية (عرض، اتصال، إثارة) تبرزها في كل حالة ميزتان ثانويتان:

أ) إثارة الانتباه،

ب) تكرار (استخدام الدعاية)،

ج) إثارة الأحاسيس (بواسطة الصور)،

د) دينامية الحوافز (الاهتمام برغبات الجماهير)،

هـ) التركيز على السلعة (توضع السلعة وسط الإعلان) والحث على العمل (الدعوة إلى الشراء).

يمكن أن توزع المميزات الأساسية الثلاث توزيعًا متنوعًا تبعًا للمواد الدعائية (الإعلان مثلًا)

(أ٢) هذا الملصق الإعلاني المخطط «الرسم الاجتذابي» (إثارة الانتباه بواسطة المنطاد) القائم أعلاه يتبعه الإعلام الدعائي (مع عنوان ضخم يشير إلى النجاح الذي يحقق بفضل السلعة المعروفة) الذي يسبق «القفزة النهائية» (أو «الاتفاق»)، أي الحث على الشراء.

ب. الملصق الإعلاني

«للملصق» (راجع أ.) عدة احتمالات.

ينطلق المعلِن أولًا من فرضية (هي على الأرجح صحيحة) أن لا أحد، تقريبًا، يهتم أولًا بالسلعة، وليس مستعدًا ليبذل اي جهد لذلك ولا يبدي أي فضول. كيف «يوقظ» الاهتمام؟

(ب١) يستيقظ الانتباه عند حدوث شيء غير عادي أو مفاجئ (مثل قلم حِبْر على شكل عقدة).

(ب٢) الاستجواب الشخصي، وخاصة عندما يُبْرز بطريقة إيحائية، يثير توقعاتنا.

(ب٣) وأضمن ما يلفت انتباهنا هو إبراز شيء معبر (مثل صدر امرأة).

ج. مبادئ إعلانية

(ج١) كان علم النفس الدعائي الأميركي القديم يقترح الصيغة العلمية ليختصر العمل الدعائي:

(AIDA = انتباه، اهتمام، رغبة، تفعيل).

(ج٢) يكثّف علم النفس الدعائي الجديد العوامل الأساسية ويعبر عنها بمَثَل المرتدّة.

كان سكان أستراليا الأصليون يستخدمون المرتدّة كسلاح قذف (مقذوفة)؛ وهي أداة من خشب لها شكل منحنٍ تعود إلى قاذفها عندما لا تبلغ هدفها وهكذا يستطيع استخدامها مرة أخرى.

يستعمل أثر العودة هذا كرمز للمشروع الدعائي:

إن استخدام مثيرات موجودة بين الناس أسهل من إثارة اهتمام جديد.

لذا يبحث المعلن (على الطريقة الاختبارية) عن الاهتمامات العامة الموجودة سلفًا والتي يستطيع تجييشها. وهي سهلة الدمج في مصادر الإثارة (فصل ١٠/١٣) التي تشكلها الحاجات الأساسية:

الأكل، الشرب، استمرارية الحياة، التناسل، التوجه في المحيط، تقوية الطاقة الذاتية وتفعيلها.

يقوم العمل حينئذٍ على ربط السلعة (شراب، مثلًا) بحاجة أساسية مناسبة.

ومن الأمثلة على الآلية الحافزة نقطة تنحدر على جدار «بارد» يغشاه الضباب لزجاجة عصير، ترمز إلى حاجة أساسية إلى شربة يؤمنها نبع ماء.

ويجب أن تشكِّل السلعة ورمزها وحدة لا انفصام فيها لمن ينظر إليها. ويجب أن يوحى إليه بأن هذه السلعة هي الشيء الوحيد الذي يحقق هذه الحاجة الأساسية.

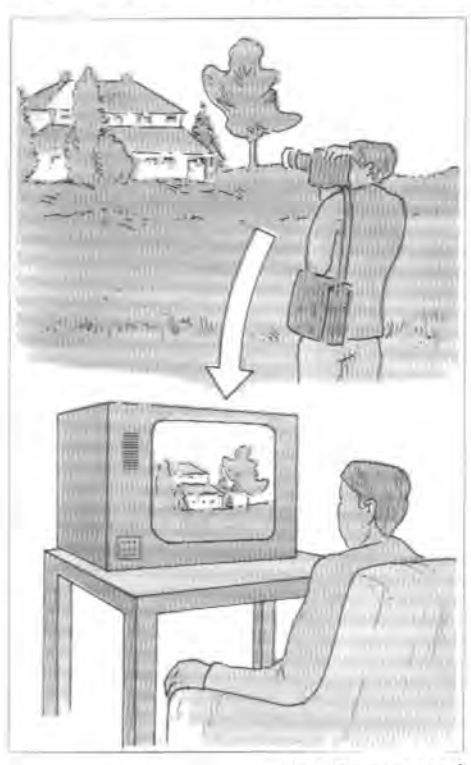
الهدف المنشود هو أن يصل إلى الخلاصة اللاواعية:

إذا كنت عطشانًا، إذًا... (السلعة المعروفة).

يتخذ أثر المرتدة هذا الكثير من الصيغ إلى درجة يصبح معها من المستحيل تقريبًا اعتباره مبدأً أساسيًا في المجال الدعائي.

يصرح أحد الممثلين، في مسرحية **أوجين أونيل** عندما يمر بائع المثلجات، قائلًا:

«كان ذلك بالنسبة إليّ رياضة حقيقية أن أراقب الناس، أن أتقصّى أعز أحلامهم وأتصرف كما لو كنت أعتقد بأنهم يصدقون أنفسهم. حينئذٍ يمحضونك الود ويثقون بك ويشترون منك شيئًا تعبيرًا عن إقرارهم بالجميل».



أ. المشاهدة التلفازية

نوعي

غير نوعي

ب. التفاعل الإعلامي



ج. بحث في وسائل الإعلام



د. بحث في الآثار

قامت عالمة النفس الفيناوية **هيلدا هرتزوك**، في العشرينات من القرن الماضي، باستفتاء المستمعين إلى الراديو لتحدّد أي نوع من الصور النفسانية يكونها هؤلاء عن المذيعين الذين لا يعرفونهم إلا استنادًا إلى أصواتهم بواسطة مكبر الصوت.

أتاح هذا البحث والأبحاث التي تلته الاستنتاج أن المستمعين يكونون تصورات أغنى بكثير من التوقعات الموضوعية.

تُبرز الإدراكات (أو ردود الفعل) «المفرطة في الموضوعية» النزعة التي يصعب فهمها والتي عبرها تخلق وسائل الإعلام حقيقة «معروفة» تتميز، بعدة نقاط، من التجربة المباشرة للعالم الذي يحيط بنا.

أ. المشاهدة التلفازية

تبرز المشاهدة التلفازية، على أفضل ما يكون، الفرق بين التجربة الإعلامية والتجربة الواقعية للواقع.

بالرغم من أن عرض الصورة المتلفزة على أنبوب يكون مسطّحًا، فإننا نراها ككهف يمتد إلى ما وراء الجهاز.

ومشاهدات أخرى غير مشاهدة العمق (مثل تقييم الارتفاع) تختلف عن المشاهدة الحقيقية.

يدهش الإنسان دائمًا عندما يرى، على الواقع، منظرًا سبق أن رآه على التلفاز فيراه عندئذ مختلفًا.

وتختلف المشاهدة التلفازية عن المشاهدة الطبيعية بسبب عدة عوامل: تغيير الارسالات المختلفة ووضعها ودلالتها في إطار البرنامج الشامل، السرعة المتوقعة لتسلسل الصور، درجة شهرة المشاركين، الطابع الروتيني للوضع أمام محطة التلفاز، الظلام الذي يغشى المحيط، تأطير الصورة بواسطة الجهاز (٦/٦)، ضعف لدونة رؤية العمق، المنافسة القوية بين الصوت والرؤية.

ليست المكونات الإدراكية وحدها هي التي تختلف، ولكن «قنوات» أخرى (عاطفية وفكرية) تخضع لشروط محوِّلة، بحيث إنه، على المدى الطويل، تولّد وسائل الإعلام الجديدة علاقة جديدة مع العالم المحيط.

ب. التفاعل الإعلامي

إن التأثير الذي وُصِف أعلاه من جانب واحد على أنه خَطّي، يجب أن يُفْهَمَ أيضًا كعملية ارتجاعية.

في كثير من الحالات، يختار المشاهد التلفازي برنامجًا يثير اهتمامه بطريقة نوعية، ولكنه في حالات أخرى يسعى فقط إلى التسلية بطريقة غير نوعية.

وفي حال تُوجَّه وسائل الإعلام (تلفاز، نشرات مصورة) بنوع خاص نحو التسلية، فإن نموذج الاهتمام غير النوعي يحث على ألّا تعرض سوى بعض الموضوعات الجذابة: إثارة، جنس، جرائم، نجوم، فضائح، حب ومغامرات تشوِّه الواقع.

ج. بحث في وسائل الإعلام

ينتج عن التفاعل الإعلامي مسائل بحث تتغير تبعًا لنوع وسيلة الإعلام (راديو، تلفاز، صحف، نشرات مصورة، إسطوانات...)

(ج١) إذا تساءلنا، مثلًا، عن أية عناصر إعلامية يحفظها القارئ من الصفحة الأولى من مجلة مصورة. يمكن الحصول، اختباريًا، على صورة متوسطة لحركة العينين. ما يتيح لنا تكوين فكرة عما يختاره الناس من بين المعلومات، وبالتالي من بين ما يهتمون به.

تستخدم لذلك أجهزة مراقبة مختلفة:

(ج٢) منصّات بسيطة للقراءة مع كاميرات مدمجة تسجل، من خلال شق، حركة العينين، ما يتيح إعادة تكوين نقاط تركيز النظر بفضل جداول معايرة، كاميرات لحركة العينين، استعمالها ليس سهلًا ولكنها تصور، على فيلم، الحقل البصري ونقطة تركيز النظر.

تسمح هذه التقنيات، مثلًا، بملاحظة أن النص في أسفل يمين الصفحة (ج١) يكاد يكون غير مقروء.

د. بحث في الآثار

من الصعب تقييم الآثار التي تخلّفها وسائل الإعلام وخاصة التلفاز. لأنها مختلفة، ليس فقط من شخص إلى آخر، ولكنها أيضًا تتنوع كثيرًا عند الشخص ذاته.

نميز، بشكل عام، الأثر الناشئ خلال العرض (أثر عفوي متزامن)، الأثر الذي ينشأ مباشرة بعد ذلك (أثر لاحق)، والأثر الدائم (تحول لاحق).

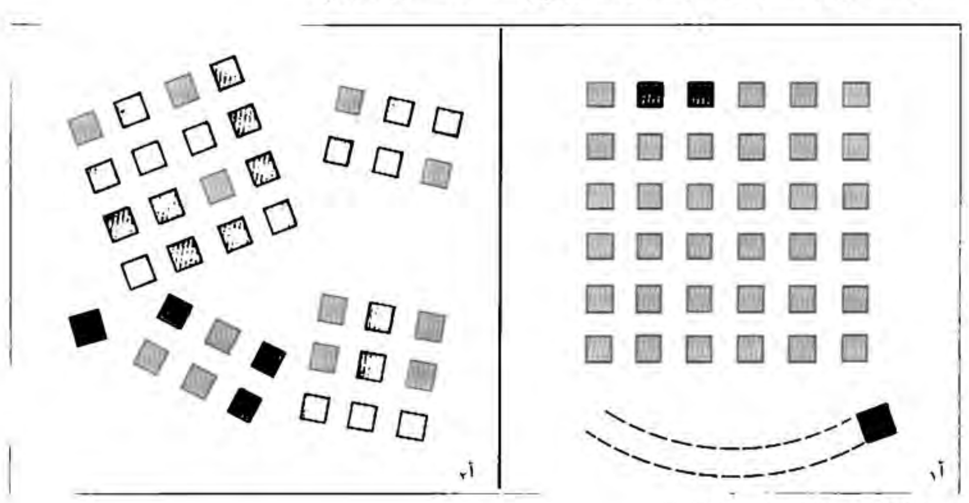
الأثر المتزامن هو، أكثر الأحيان، أوفر قوة وإيجابية من اللاحق المباشر، ولكن على المدى الطويل يكون الأثر ضعيفًا مع ميل إلى أن يعود فيصبح إيجابيًا. ويحول العدد الإجمالي للعروض الإعلامية دون أيٍّ من العروض الخاصة من أن تؤثر تأثيرًا دائمًا (إزالة الحس الإعلامي).

(د١) يسجل المنحنى التغيّرات في وقت المتعة والضجر المتوسط أيضًا بالنسبة إلى مسلسل تلفازي:

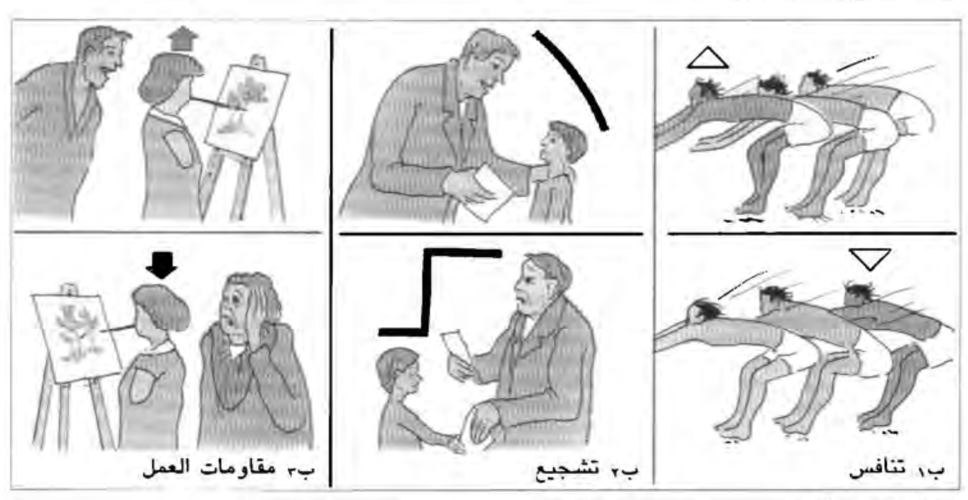
ويُفهم بسهولة لماذا يتشابه الموقف المُسبق (الناتج عن الحلقات السابقة) والموقف التالي. وخلافًا لذلك، كثيرًا ما تزداد المتعة أثناء البث (أثر متزامن).

(د٢) وتم الحصول، بشكل عام، على معطيات اختبارية، بفضل صور إسقاطية وفرّت دراساتٌ مسبقة معالمَ تُحدِّدُ موقف الجمهور الوسط.

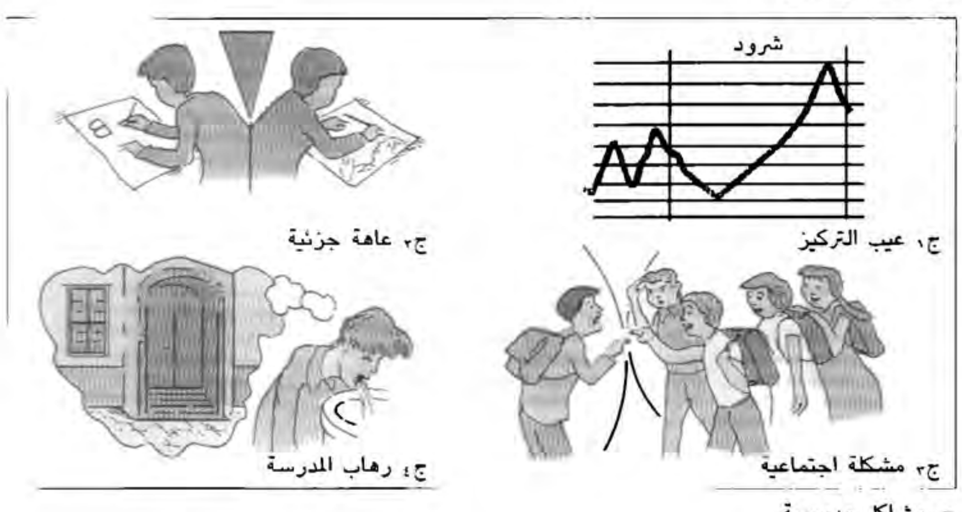
تتيح سلسلة من الصور المنقّحة وضع قانون تمثيلي لمقارنة المواقف.



أ. العلاقة بين الأستاذ والتلميذ



ب. الحث على العمل



ج. مشاكل مدرسية

الدراسة إلزامية في أكثر بلدان العالم. ينشأ عن ذلك اهتمام عام بالمسائل المدرسية

وعلم النفس المدرسي يؤيّد هذا الصراع، ولكنه يتوقف عند بعض القطاعات:

يدرس في الدرجة الأولى سلوك التلاميذ، وبكلام أدق، سلوك الصف والأساتذة.

يقتصر نشاطه، على الصعيد العملي، على المساعدة في حال وجود خلافات مدرسية.

أ. العلاقة بين الأستاذ والتلاميذ

ليس التلاميذ فقط أفرادًا، لكن الصفوف أيضًا تشكل «أفرادًا». أي تجمعات وحيدة.

إن ما يميز الصف من التلميذ منفردًا هو أن الصف أكثر طواعية. وتبعًا لشخصية المعلم الذي هو أحد أعضاء هذه الفردية - المجموعة، تتبدل خصائص الجماعة فيما يخص التراتبية والأدوار والقوانين والجو العاطفي.

الشرط المحدِّد لتأثير الاستاذ يكمن في «تلاحم» الصف.

(أ١) يشكل الصف، هنا، دينامية جماعية، تتفاوت انسجامًا، أي إن كل تلميذ يجد مرتبة ودورًا خاصًا به، بحيث يمكن أن يمارس تأثيرُ الأستاذ، أيضًا، بطريقة متناسقة، نسبيًا، على جميع التلاميذ.

(أ٢) أما الأمر فيختلف في صف مقسم إلى جماعات متخاصمة.

وفي هذه الحال، سواء شاء الأستاذ أم أبى، فإنه يعتمد على بعض الجماعات فيزيد بذلك الطين بلّة.

يخلق هذا الوضع صورة عن حالة استاذية جائرة، هي مصدر الامتيازات أو استنادًا إلى المسافات الناشئة عن علاقة الأستاذ بالتلاميذ المجردة من كل موضوعية.

وفي حال الخلاف، من واجب عالم النفس المدرسي أن يوضح للأستاذ هذا النوع من إواليات دينامية الجماعة.

ب. الحث على العمل

لأن يرى جيل ناضج جيلًا أصغر منه أكثر بلاهة وكسلًا ليس بالأمر الجديد. لقد وصلتنا آراء كهذه بواسطة مستندات مصرية قديمة يعود تاريخها إلى عدّة آلاف من السنين. وهذا عائد إلى تبدّل الشباب من جيل إلى جيل وإلى التحوّل المستمر في متطلبات الحياة. ولهذا الواقع الأخير أهمية خاصة في عصرنا الحاضر كما نشهد ذلك في مثل المعارف الجديدة المرتبطة بالبرمجة المعلوماتية.

إن المتطلبات في شأن العمل ونتائجه خاضعة لتأثيرات مختلفة: إن من يعتبر أن «البلاهة» و«الكسل» هما السببان الوحيدان «للنتائج المدرسية العاطلة» يسيء تقييم الحث على العمل.

لنذكر من العوامل ثلاثةً أساسية.

(ب١) لا يمكن تقييم النجاح والفشل (في القفز الطويل، مثلًا) بمقارنتهما بأداءات أخرى (نسبية اجتماعية). ففي أداء واحد يمكن أن يكون الإنسان الأول في فريق والآخِر في آخَر.

والانطباعات الذاتية عن النجاح، المنسوبة إلى مستوى أداء الجماعة المرجعية، هي أيضًا كيفية.

(ب٢) أداء واحد يعتبر من قبل مسؤول ما بداية نجاحات لاحقة ومن قبل آخر برهانًا على موهبة دون الوسط. إن تشجيع أحد ما أو عدم تشجيعه بعد أداءاته يكون عاملًا حاسمًا في حياته العملية (درجة التشجيع).

(ب٣) كل نتيجة هي أيضًا حاصل تناقضات شخصية يتخطاها الإنسان بالحصول على هذه النتيجة. والطريقة (الحافزة أو المثبطة) التي «نرى» بها مقاومات العمل، كحال المنع، مثلًا، يمكن أن تكون أيضًا موجَّهة، وهذه إحدى مهمّات علم النفس المدرسي (تفسير الموانع).

ج. المشاكل المدرسية

إن المهمة الأساسية لعلماء النفس المدرسيين هي معالجة الاضطرابات النفسية المرتبطة بالتعليم الإلزامي.

(ج١) التركيز خاضع حتمًا للتغيرات، كما يشير إلى ذلك مَثَلُ فشل التركيز بالتزامن مع الشرود الناشئ عن عمل إضافي.

ويمكن للقدرة على التركيز أن تكون مرهقة كما يمكن أن تكون قليلة التطوّر من وجهة نظر وظيفية. ثمة إمكانات تدخّل في حال هاتين النقيصتين.

(ج٢) ويمكن لعاهات جزئية، مثل الاضطرابات في القراءة والكتابة، أن تمتد على مجالات غير موبوءة.

ولهذا فإن التدرب المخصص لأشخاص مصابين بعسر القراءة لا يستخدم فقط للقضاء على العاهة بحدّ ذاتها، بل أيضًا لتدارك الاستسلام العام لنقص النتائج.

(ج٣) ليست الاضطرابات الاجتماعية مجهولة في النطاق المدرسي. لأن الطفل يعاني، هنا، ولأول مرة في حياته، الاختبار القاسي لتشعب المصالح والاهتمامات.

والطريقة التي يتحكم بها بإعداد هذه الاهتمامات تَسِمُ، في العمق، استراتيجياته في حياته المستقبلية. ولطالما أهملت بؤرة التطوّر المدِّن للمجتمعات.

(ج٤) الرهاب المدرسي هو شكل حاد من الفرار أمام الإجهاد المدرسي.

يذهب بعض التلاميذ، تهرُّبًا من المدرسة، إلى تطوير ردود فعل جسمية لا واعية (مثل القيئ الصباحي المنتظم) يعالجها بعض الأطباء الذين تنقصهم الفطنة والدراية وكأنها أعراض جسدية بحتة.

تقوم إحدى المهمات الأساسية لعالم النفس المدرسي على تجديد العلاقات النفسية وإنشاء نماذج جديدة للسلوك المدرسي.

أ١ اختبار زيمباردو

أ٢ اختبار ميلغرام

أ. العمل السياسي

استبدادي

اتحاد «حر»

تسهيل الطلاق

غرباء معتبرون من طبقة دنيا

تشريع الإجهاض

احترام الأحد عادة باطلة

عقاب جسدي

الحكم بالموت

تشدد

ابتعاد عن العقاب الجسدي

تحرير المرأة

محافظة

راديكالية

تأميمات غير مجدية

إلغاء الملكية الخاصة

القومية ضد السلام

التعليم الديني إجباري

تعطيل السيادة الوطنية

مرونة

مسالمة

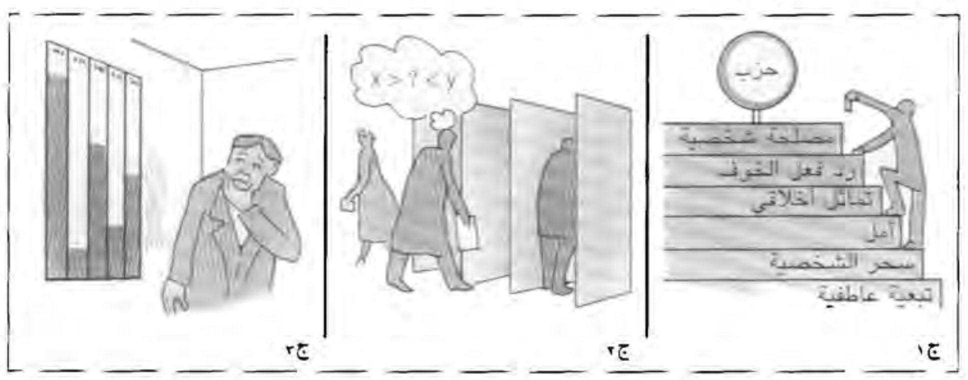
تحديد الولادات غير أخلاقي

اعتراض الضمير

الدين كمرجعية

لا استبدادي

ب. ميدان الآراء السياسية



ج. علم النفس الانتخابي

إن **علم النفس السياسي** هو من وجهات نظر عديدة، فرع خاص من علم النفس التطبيقي. والذي يذهلنا أولًا هو أنه حتى الآن يعتبر علمًا نظريًا وليس تطبيقيًا. وهذا عائد إلى أن نخبة رجال السياسة النشطين تتطلب فعّالية يصعب تناغمها مع القدرة على القيام بتحاليل سياسية. يحتاج رجال السياسة إلى معاونين بعيدي النظر باستطاعتهم أن يستخلصوا من علم النفس شيئًا غير الفائدة الآنية (في موسم الانتخابات، مثلًا)

ولا ننكر، من ناحية أخرى، أن مشروع خلق وسائل توقع ردود الفعل السياسية للشعب هو مهمة في غاية الصعوبة. غير أن المعطيات التي توفرها الابحاث هي، اليوم، أغنى بكثير من استخدامها في الممارسة السياسيّة.

أ. العمل السياسي

عملان مشهوران ألقيا ضوءًا حاسمًا على حَدَّي العمل السياسي.

(أ١) قُسِم تلاميذ متطوعون، في ما يدعى اختبار زيمباردو، إلى فئتين: السجناء والسَّجَّانون. وبعد وقت قصير، طوّر الفريقان سلوكًا خاصًا ينسجم مع دورهما:

وقد تمادى السّجانون إلى حد أن راحوا يعذبون السجناء ويضطهدونهم ما أدى إلى إلغاء الاختبار قبل أوانه.

(أ٢) في دراسات **ميلغرام** الشهيرة، على شخص غير مدرّب أن يعاقب تلميذًا، يفترض أنه اقترف بعض الأخطاء، بتفريغ شحنة كهربائية ذات قوة يختارها كما لو كان يريد الاقتصاص من نفسه.

«وقد لوحظ، في أكثر الحالات، فرق ملموس بين قوة الصدمة التي يستخدمها هذا الشخص وتلك التي يختارها لنفسه على سبيل التجربة، (**س. ميلغرام**).

وباختصار، يتحدّث المؤلف عن الخطر الذي يحدثه الإنسان لنفسه «العميل المطيع لعملية إلغاء مرعبة». لهذا يجب أن يُحكم على القوة الكامنة للعمل السياسي الجماهيري بأنها أقوى مما تُظهرها الحياة اليومية.

ب. ميدان الأراء السياسية

ترتبط المواقف السياسية بالعوامل المتعلقة بالبيئة:

التأثير العائلي، أولًا، ثم تأثير المدرسة وزملاء الصف بشكل خاص، ورفاق اللعب، ثم الوضع السياسي (الحقيقة الدستورية من خلال المتطلبات التي يحتويها الدستور).

ينزع الشباب إلى اتخاذ قرارات حاسمة تعتدل مع التقدم في السن. وخلافًا لذلك، ليس من النادر أن يتصلب قادة الرأي السياسي في مواقفهم مع الزمن.

بعد أن قام **ج. أيسنك** بأبحاث، وضع نموذج تحليل عاملي ليأتي على ذكر اختلافات الرأي في تعابير المحافظة والراديكالية وكذلك في تعابير المرونة (التكيف مع التغيير) والتصلّب (الثبات) مع النماذج المناسبة من التصورات والتوجهات.

ج. علم النفس الانتخابي

من البديهي أن الانتخابات في البلاد الديمقراطية تشكل فصلًا أساسيًا في علم النفس السياسي

من المفيد أن نستنتج أن مؤسسات الاستطلاع «تصحح» استفتاءاتها للرأي العام بنسبة مئوية ما، لمصلحة بعض الأحزاب، لأنها تعلم بالخبرة أن البعض يخشون أن يذكروا حزبهم في الاستفتاء في حين أنهم يقترعون له سرًّا في الواقع.

(ج١) تخضع خيارات الانتخاب ظاهريًا لدوافع مختلفة. توجد، إلى جانب القرارات الروتينية لناخبي الحزب التقليديين، أسباب مثل:

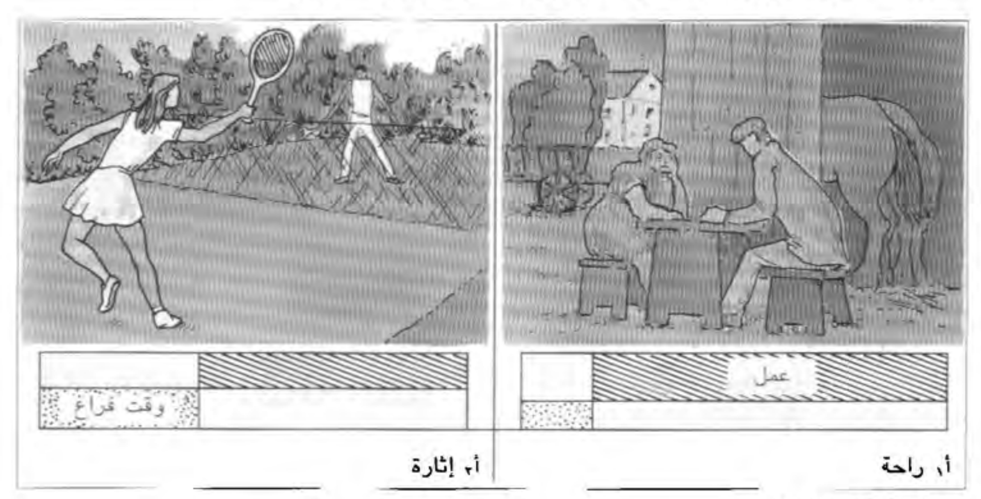
تبعية عاطفية، سحر الشخصية، استدرار الأمل، التماثل الأخلاقي، لذة الإساءة أو ردة فعل الخوف، خاصة تجاه الأقوياء والمصالح الأنانية القوية التي قد يخفيها الإنسان عن نفسه. هذه البواعث لا تتفق دائمًا فيما بينها لا في الجماعة الناخبة المقصودة ولا لدى الناخب المنفرد بشكل خاص.

إن قسمًا من الناخبين لا يدلي بصوته دون تحفظ ولكنه «يختار الشر الاهون» أو يمتنع تحدِّيًا.

بالنسبة إلى التعبير عن إرادة ناخب حَزَم أمره، فإن توافقا كهذا هو أصعب من أن يقيَّم لأنه مرتبط بقوة بالخارج والصدفة والدوافع اللاواعية. وحتى عندما تحضر الاستفتاءات بعناية وتبنى على أسس نفسانية، يحدث أن تفشل التوقعات الانتخابية نتيجة تبدلات مفاجئة في السلوك الانتخابي هي نتيجة دوافع انتخابية يصعب فهمها.

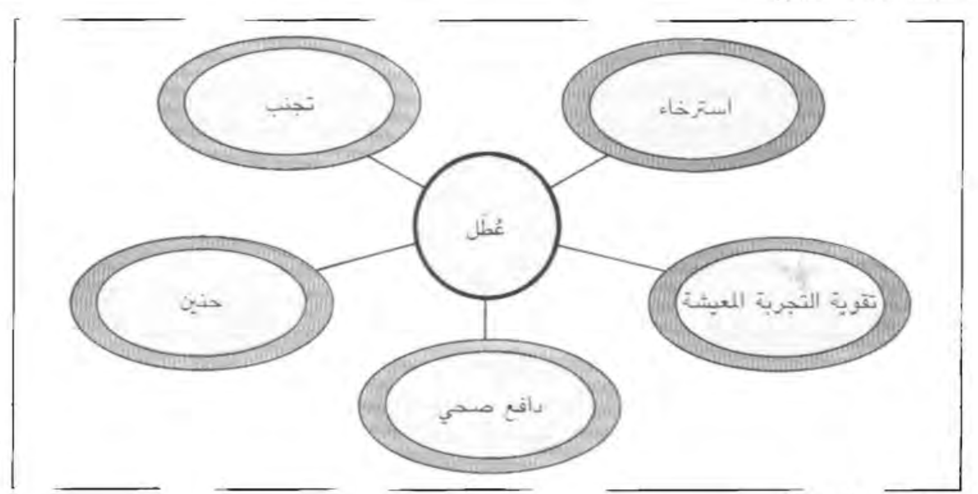
(ج٢) وفي مركز الاقتراع، وحتى داخل المعزل، يغيّر قسم لا يستهان به من الناخبين رأيهم الذي اتخذوه سابقًا (ج١). ويحدث أن البعض، بعد اطلاعه على نتائج الانتخابات، يعتريه وخز ضمير لأنه أدلى بصوته في الجانب الذي لا يعبر عن قناعته (ج٢).

وغالبًا ما تخضع القرارات الانتخابية، عند الكثيرين، لعملية تحولات ليس الاقتراع بحد ذاته، بالنسبة إليها، سوى عمل آني. ونعرف، منذ زمن، أن سلوك الناخبين قد يتغير في اللحظة الأخيرة. والأسباب الرئيسية هي، بوجه الاحتمال، تأييد متزايد للسلطة، اعتبارات توازن، نماذج يقدِّمها أصدقاء أو معارف، ردود فعل تحدّ ودوافع لا واعية. بهذا السياق، وليس فقط بالقرار الانتخابي بحد ذاته، ما يجب أن يهتمّ، في الدرجة الأولى، علم نفس السياسي.



أ١ راحة
أ٢ إثارة

أ. إدارة أوقات الفراغ



ب. الدّوافع إلى العُطَل


ج١ إرهاق
ج٢ فراغ داخلي
ج٣ اضطرابات علائقية

ج. أمراض أوقات الفراغ

كان من غير المعقول، في الماضي، أن وقتا يقاس بالتقتير، يمكن أن يكون مصدر صعوبات. المشكلة الوحيدة هي التوق إلى المزيد من أوقات الفراغ. لكن اليوم، هو الوقت الحر نفسه الذي ارتفع إلى مستوى مشكلة نفسية. وإن **علم نفس وقت الفراغ** كونه فرعًا جديدًا من علم النفس التطبيقي، لا يزال في بداياته وتعتريه فجوات واسعة.

أ. إدارة أوقات الفراغ

الوقت الحر هو، جزئيًا، مكمل (ندّ) لوقت العمل ولكنه أكثر من ذلك. كلما كان العمل يتطلب وقتًا وجهدًا أقل، يستقل الوقت الحر عن العمل أكثر، وذلك على المستوى النفساني للحافز أيضًا.

(أ١) كانت أوقات الفراغ قديمًا، في القرية، وقت راحة بعد نهار من العمل الشاق.

(أ٢) الذهاب إلى السينما، اليوم، أو لعب التنس مساءً هما مثيران بعد عمل لا يهم إلا أجزاء محدودة من الذات.

يستخدم الوقت الحر، كونه إثارة، لإرضاء الحاجات النفسية، ما يبرز الفروق الواضحة بين أفرقاء أوقات الفراغ.

يجب ألا يكون الوقت الحر في نهاية نهار عمل ونهاية الأسبوع مع الأحد، من طبيعة واحدة، ولكن يمثلان شيئًا يختلف اختلافًا بيِّنًا، وهذا ينسحب أيضًا على الفئة الثالثة من الوقت الحر: ألا وهي العُطَل.

ب. الدوافع إلى العُطَل

يمكن تصنيف البلدان، منذ بعض الوقت، إلى أمم تمنح العُطَل وأمم لا تمنح العُطَل (أو تمنح عُطَلا مختصرة). إن هذا التقسيم يتبع مستوى التصنيع، ولكنه لا يختلط به.

نلاحظ، في الكثير من البلدان المصنَّعة، عددًا أكبر من الأسفار أثناء العُطَل مما هو في بلدان مشابهة، بالنسبة إلى مستوى التصنيع.

تفسر هذه الظاهرة بِسِماتٍ نفسية قومية، مع العلم أن مستوى عاليًا من النشاط تقابله عامّةً حركية كبرى: نميز، في الأساس، خمس فئات من الحوافز على العُطَل.

(١) الاسترخاء، ضرورة استعادة القوى، هو أحد الأسباب الأساسية للعُطَل. ولكنه يُستخدَم أيضًا «كواجهة» تقدِّم قناعًا لدوافع أخرى لِما له من «فائدة» ظاهرة (تتناسب مع العمل).

(٢) التجنّب، السلوك الذي يقوم على إتمام واجبات يومية، هو، مثلًا، دافع لا يقربه المرء بطيبة خاطر، لأن من شأنه أن يسيء إلى وضعه الحضوري أمام الآخرين.

(٣) تقوية التجربة المعيشة، كونها إغناءً شخصيًا، اكتسابًا للمعلومات، تكثيفًا للعلاقات الاجتماعية، تحقيقًا لمغامرات وهوايات، هي دافع هام. هنا مجال الرغبات أوسع.

(٥) يتبدّى الدافع الصحّي إما على شكل تنشيط (مثل تسلق الجبال) وإما على شكل استرخاء (كما في الفئة الأولى مثل الإقامة على شاطئ البحر). وقلما يُعْلن عن نفسه هكذا ويستخدم غالبًا كدافع إضافي.

(٥) الحنين هو دافع يحدد تكرار أحداث الماضي، مثل العودة إلى مسقط الرأس أو إلى أماكن قضاء العطل.

هذه الفئات الخمس لا يمكن أن تنفصم. فالدوافع الحسية إلى العُطَل هي، في أكثر الأحيان، مزائج عرضة لتغيرات كثيرة (وفي الوقت أيضًا).

ج. أمراض أوقات الفراغ

(ج١) إن ازدياد أوقات الفراغ يكشف عن منحدره السلبي. الوجه الأبرز هو زيادة الأخطار العارضة.

يذهب الكثيرون من السيّاح إلى أبعد مما يستطيعون فعله في الواقع اليومي.

ينظم السفر إلى مكان العطلة بطريقة أكثر خطورة (إرهاق).

(ج٢) يتمنَّى الإنسان أن يعوض، في مكان العطلة، ما يظن أنه فاته أن يفعله أو أن يعيشه سابقًا. ولكن في كثير من أماكن الاصطياف، يكون المناخ غير اعتيادي. ويميل المصطاف إلى أن يقلل من قيمة نتائج التغيير.

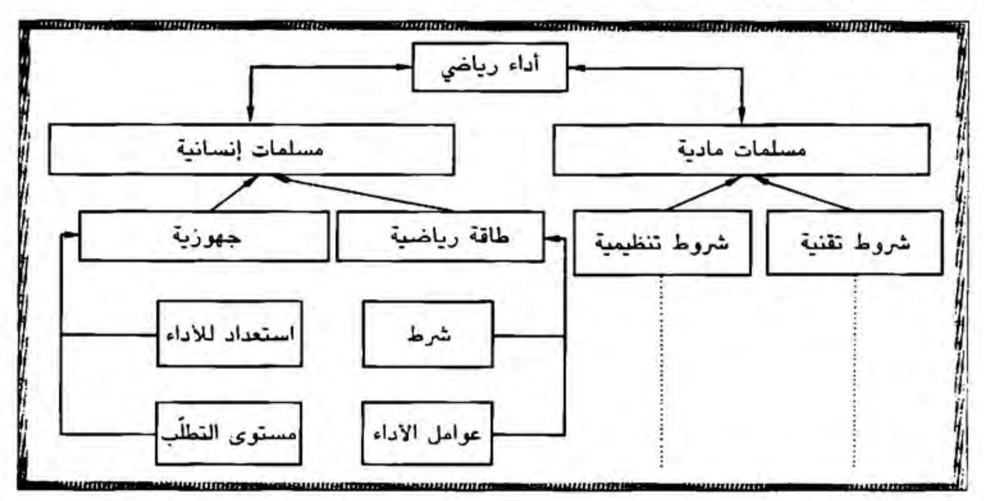
ويكون من جهة أخرى، في وضع يكتشف فيه فراغه الداخلي الذي يتخذ شكل ضجر العطل.

وعلى هذه الأرضية يتدخل، منذ وقت قصير، تنشيط أوقات الفراغ مع مهنة المنشِّط الجديدة. المنشط الذي عليه أن يعرف كيف يمارس الفن النفسي للحض على تحقيق الذات الذي يختلف كثيرًا من شخص إلى آخر.

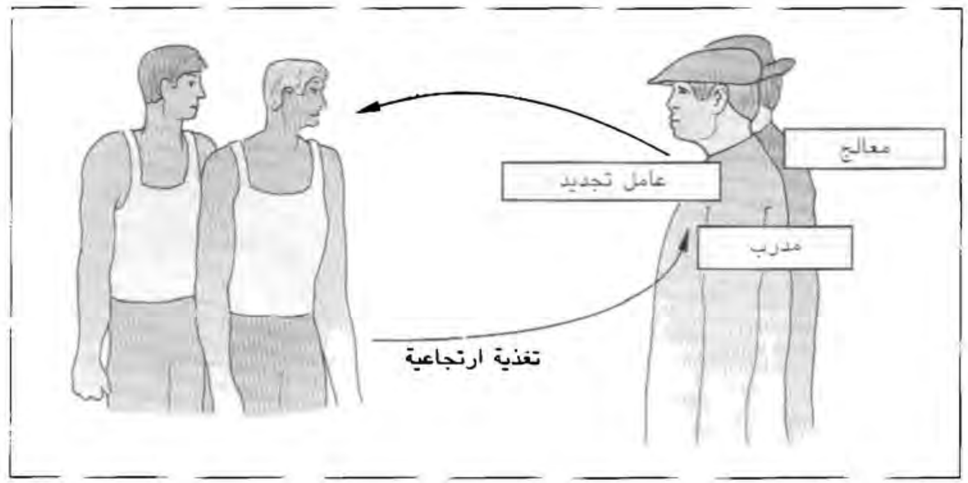
(ج٣) تنتج بعض الأخطاء المعرفية عن المقارنة المتسرِّعة بين ثقافة البلاد المَزُورَة بالبيئة الثقافية الخاصة بالزائر.

قد تكون العُطَل خصبة في إيحاء اضطرابات علائقية كامنة: غرابة الآخر تبدو أكثر وحشية.

وأخيرًا، إن التبديل المفاجئ في الأدوار الاجتماعية أو استحالة التموضع بالنسبة إلى الأدوار العادية هو أيضًا مناسبة خطيرة. وفي الحالات القصوى، يمكن أن يتحول المنع إلى رُهاب حقيقي من العُطَل، أي خوف غامض من العُطَل يتخذ شكل اضطرابات جسدية خطيرة. الرافد الوحيد للحواس الذي نعرفه هو العمل؛ والوقت الحر يظهر للتو وقتًا فارغًا. ولكن في أيام الآحاد والأعياد لا يعرف الإنسان ماذا يفعل بذاته. تتحول المناسبة الممكنة للنشاط الشخصي أو لوقت الفراغ المعيش إيجابيًا إلى شعور بالذنب ويصبح بطالة خاوية وتؤدي إلى «عصاب الأحد» (مزاج محبط مصحوب بإجهاد جسدي).



أ. الأداء الرياضي



ب. التدريب الرياضي



ج. العلاج الرياضي

كل إنسان، شاء أم أبى، مرتبط جزئيًا، عمليًا أو سلبيًا، بالرياضة. ولكن الرياضة، من وجهة نظر علم النفس، هي ظاهرة غريبة.

وهي، بالنسبة إلى البعض، نشاط فقط ولذة تعبير جسديًا - ولكنها بالمقابل وسيلة صراع الأخصام.

ومن المشكوك فيه أن يكون لهذين الوجهين أصغر نقطة مشتركة على صعيد علم النفس. ويحاول علم نفس الرياضة أن يعد نماذج نظرية، الهدف منها توحيد هذه الأوجه المختلفة.

أ. الأداء الرياضيّ

إذا تغاضينا عن الدوافع وسائر العوامل، تكون الرياضة إنجازًا جسديًا (اختياريًا إلى حدٍّ ما). وهي مبنية على انعكاسات قوامية ووضعية مكتسبة في جسد الأم وتميل بعد الولادة إلى استخدام الأطراف والرأس والجذع كوظائف يتم التحكم بها أفضل فأفضل. وانطلاقًا من هذه الأرضية الطبيعية يتحول النشاط الجسماني إلى نشاط رياضي نوعي يصل إلى حدود الأرقام القياسية.

يجب أن تتميز، في التحليل، الشروط المادية من الشروط الانسانية التي يفترضها هذا النشاط. تشكل الشروط الأخيرة الحقل الذي يرتاده علم نفس الرياضة لأول مرة.

تتوقف القوى الرياضية الكامنة على معطيات فيزيولوجية مسبقة (مثل طول القامة للقفز العالي)؛ من هنا تنشأ الأهلية المنسّقة أو الشرط. وإذا أضيفت عوامل الأداء، يتم الحصول، في نهاية المطاف، على رد فعل فيزيولوجي.

تتضمن الجهوزيةُ العواملَ النفسية التي ليست أقل أهمية. إن الحالات السابقة للفشل والنجاح هي من مجال الاستعداد المسبق للأداء وكذلك هي إعدادها النفسي وتوقعات اللحظة الخاصة بذات الرياضي وبمنافسيه وهي أيضًا الاستعدادات النفسية الاجتماعية لدينامية الفريق الرياضية. يحدّد مستوى الضرورة الماسة الأهدافَ النوعية التي تنبعث فيها الحوافز الحقيقية.

تتنوع الشروط المطلوبة للأداء بحسب النوع الرياضي، تعود الفروق إلى أنماط النوع الرياضي:

(١) دون اتصال مباشر مع المنافسين: منافسة الذات في وضعية «العزلة العامة» (كما في الرياضة التي تستخدم الأدوات)؛

(٢) مع اتصال مباشر: التعاطي مع الخصم (مثل المصارعة)؛

(٣) أداء الفريق الموازي: جهد في وقت محدود مع رد فعل الخصم (كرة القدم، مثلًا)؛

(٤) لا تصدر الفروق عن المنافسة: إنها ملازمة للعب (١٥/٢٠).

ب. التدريب الرياضي

إذا أردنا التدخل إيجابيًا في الأداء الرياضي يجب مباشرةُ هذه التغذيات الارتجاعية وتقويتها (راجع أعلاه، آ) هناك حيث تظهر بعض الثغرات.

وعندما نرتاب، مثلًا، بوجود عائق ما يمسّ مستوى التطلّب، يمكننا مباشرة انتزاعه منهجيًا (وبحكمة)، مستعينين خاصة بطرق العلاج السلوكي (٦،٥/٢٠) وبنوع خاص تدريب المهارة.

المدرب هو عامل تجديد (يُطلب إليه تحديد الأهداف المبتغاة والقابلة للاستبطان) كما أنه طبيب معالج (مكلف باجتياز الحواجز النفسية).

المدرب والرياضي هما على علاقة تغذية ارتجاعية، أي أن تمثلاتهما للأهداف التي يبغيان بلوغها يجب ألا تكون متنافرة.

هذا الالتقاء في التمثلات هو صعب التحقيق إذ يبتكر الكثير من المدربين أدوارهم بممارستهم عمل المراقبة.

ج. العلاج الرياضي

ليست الرياضة فقط وسيلة لتحقيق الذات على مستوى الجسم، إنها أيضًا على علاقة بالعلاج النفساني. يمكن أن تستخدم الرياضة، من جهة، كوسيلة علاجية، ومن جهة أخرى، يحتاج الرياضي الرفيع المستوى إلى مساعدة علاجية نفسانية.

(ج١) ترتبط ناحية العلاج الجسدي في الرياضة بالعلاجات التي تستخدم الحركة، التي تعود بداياتها إلى عدة قرون.

نشأت ملاكمة الظل ذات الأصل الصيني (تاي - شي - شوان) والقتال بالسيف (تاي - شي - شيان) من المراسم الدينية البوذية وانتشرت في جميع أنحاء العالم.

تأسست الأشكال المختلفة للعلاج بالحركة على فكرة تطهير النفس التي استخدمت في اليونان القديمة (تراقيا) للانخطافات العلاجية في عيد أسكلابيوس، إله الطب. كان يُعتقد أنه بالإمكان التحرر من التشنجات الداخلية بنوع من التفريغ التعبيري.

(ج٢) تضعُ المنافسةُ الرياضيَّ الطليعي في حالة من الإجهاد المسبق الذي ينجم عن الاضطرار إلى القيام بأداءات عظيمة في وقت محدّد، كما إلى تدبر أمره، في حال الفشل، مع الآمال المغالية، غالبًا، لأقاربه وللرأي العام.

تفرض وسائل الإعلام غالبًا على الناس وخاصة الفتيان تقمص حالة وحشية تقرب من هستيريا الجماهير. لتفادي آثار هذا الابتزاز الصاخب، يستخدم التلقيح ضد الإجهاد (**مايشنباوم**، ١٩٧٧) الذي يتضمن أربع مراحل للقضاء على الإجهاد المتوقع،

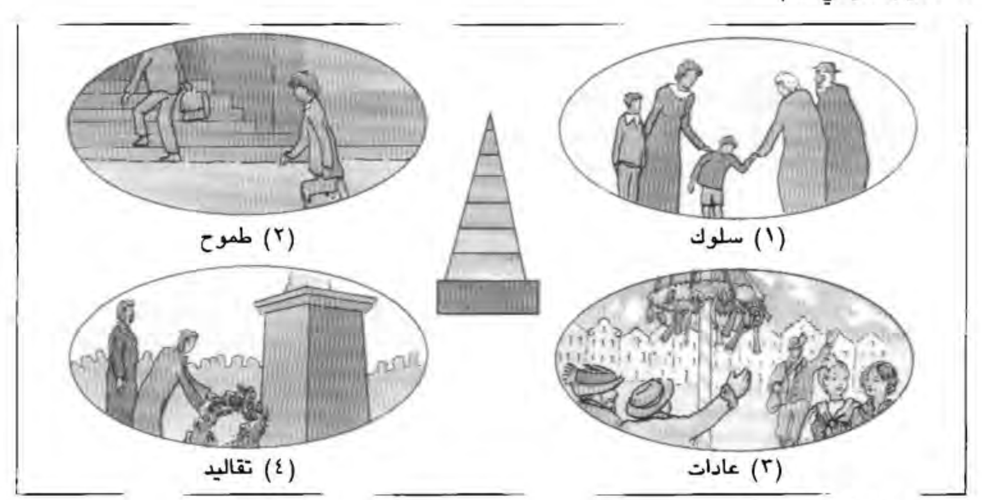
المواجهة والتدريب للسيطرة على العلاقات مع عامل الإجهاد،

التغلب على الشعور بالإرهاق.

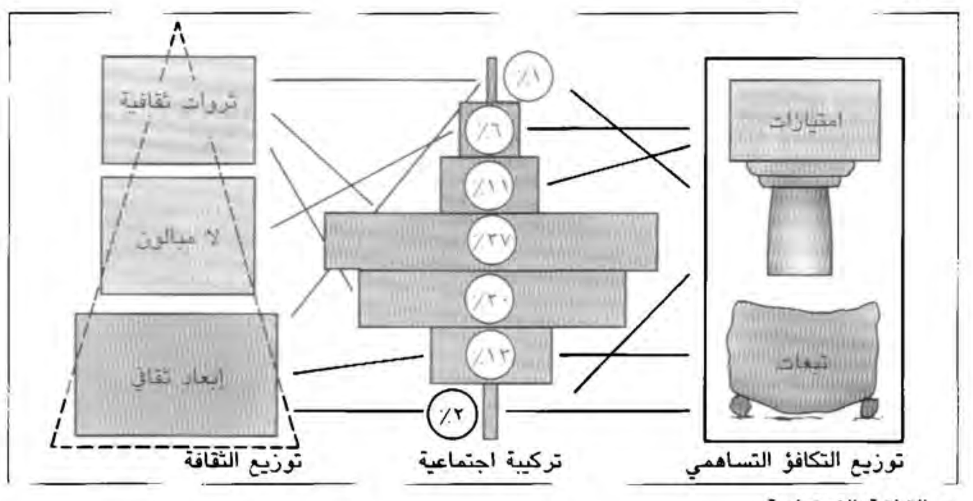
والتحدّث عن الذات لإكتساب المناعة.



أ. أسلوب حياتي عام



ب. قيم سلوكية مرجعية



ج. التراتبة الاجتماعية

هذا الفصل الأخير مخصص لأرقى جوانب النشاط الإنساني. لا تستخدم اللغاتُ المختلفة، بطريقة واحدة، مفاهيمَ «الثقافة» و«الحضارة».

ولكن يمكن استخلاص فكرة عامة من هذه اللغات جميعها بتدرج تصاعدي بين مجموعة مترقِّية من الحاجات اليومية (حضارة) ومجموعة أخرى من النشاطات العاطفية والمعرفية من الصنف الأسمى (ثقافة).

يستحيل أن نعين حدودًا دقيقة لمجالات الحضارة لأنها تشمل، في نهاية المطاف، مجمل الحياة الإنسانية. إن سمات الحضارة والثقافة هي قضية كل إنسان بنوع خاص، وهي أيضًا مهمة الوحدات الكبرى مثل الأمم والجماعات الإتنية. ويمكن، بطريقة تركيبية، معالجة أسلوب الحياة العامّ (أ) وقيم السلوك المرجعية (ب) و(ج) التراتبية الاجتماعية.

أ. أسلوب حياتي عام

إن كيفية عيش هذه الحياة شيء يتعلّمه الإنسان إلى حد ما من محيطه. وتحت عنوان «التحليل المقارن للحضارة والثقافة»، من كتاب «علم نفس الشعوب» (وهو مؤلف ضخم من عشرة أجزاء للفيلسوف **و.فونت**)، نجد ذكرًا لبعض الحاجات مثل الطعام والشراب والسكن... عندما يسافر البحّاثة كالسائح يختبر مباشرة الفروق بين أمة وأخرى.

ليس من خطأ أفدح من أن يجعل الإنسان من عادات حضارة بلاده قوانين لشخص آخر أو لبلاد أخرى.

تشكل الحاجات الصحية والرفاهية في السكن والتغذية جدولًا ثابتًا من التصرفات إلى درجة أن طبيعتها المختلفة في بلاد أخرى تتنافر معها حتى الدهشة والمقاومة بل حتى العداوة.

تختلف القواعد التي تحدد طريقة الأكل اختلافًا عظيمًا بين بلد وآخر إلى حد أنه يجب أن تراعى كفرق بين حضارة وأخرى.

ب. قيم سلوكية مرجعية

تكونت داخل التشكلات الاجتماعية الهامة (طبقات اجتماعية، أمم، قارات)، على مدى الأجيال والقرون، قيم سلوكية مرجعية لجميع العلاقات الاجتماعية الحاسمة:

وهي «القوانين غير المدونة» التي يجب على الإنسان أن يحترمها إذا أراد أن «يُرحَّبَ بِهِ» في جماعة.

إنها تشكل إجمالًا، تراتبية نوعيّة حيث تعزو القيم مثل الشرف والتهذيب والانتظام وحفظ العهود والعدالة والترتيب المنزلي ومبادئ أخلاقية أخرى أو متطلبات أدبية، تعزو إلى نفسها أهمية تتفاوت سموًّا، وذلك في فوضى نسبية، ولكن تبعًا لمبدأ واضح من التوزيع، بين رفيع ووضيع يتنوع بحسب الوحدة الاجتماعية ونمط الحياة.

هذا التنوع في «القرارات القيِّمة» (**هرتزوغ**، ١٩٨٤)، الكثيفة والتي يصعب إحصاؤها، يندرج في ٤ مجالات:

(١) يحدد السلوك مجمل قواعد التصرف المتفق عليها.

يُشار على الولد، بالمثل، بالإقناع أو بالإكراه، بالطريقة التي يجب عليه أن يتصرف بها، بمناسبة الزيارة، مثلًا.

(٢) تحدد للطموح قواعد بفضل الإجماع في اختيار الوسائل المستخدمة للتقدم.

مِنْ تجاوز سيّارة، مرورًا بالتنافس المباح في الحياة المهنية، وصولًا إلى النفوذ الذي تتمتع به النخبة الحديثة، يدين كل مجتمع أو يكافئ أولئك الذين يبلغون القمة ويعاملون المهزومين في التنافس الاجتماعي بما يستحقون.

(٣) تشمل الأدبيات والعادات المكافآت التي يمنحها المجتمع لنفسه على شكل أعياد أو أيام عطل منسّقة بطريقة كثيرة التنوع.

(٤) تميز التقاليد رسوخ هذه القيم المرجعية إلى مدى بعيد كونها أساليب عصرية.

يفضل كل عصر بعض نظريات السعادة الضمنية.

ج. التراتبية الاجتماعية

تُعْرَف الحالة الثقافية لأمة من الأمم (إلى جانب بعض معايير التقييم) بواسطة بعض الخصائص الأساسية. لقد مثّلنا في وسط الصورة ج التراتب الاجتماعي النموذجي في الأمم الصناعية الغربية.

طبقة عليا، طبقات متوسطة عليا، متوسطة ودنيا، طبقة دنيا، المبعَدون من المجتمع.

رُتِّب إلى اليمين توزيع التكافؤ التساهمي.

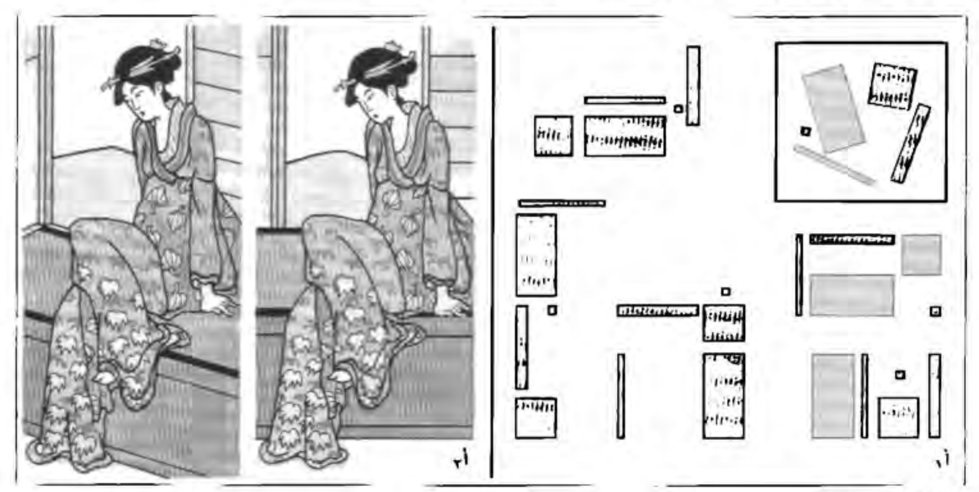
وهو يعني توزيع الامتيازات (الحياة «الرخيّة»، مع عمل أكثر متعة وعائدات مالية) والتبعات (حياة «قاسية»، مع عمل يكاد لا يسد الرَّمَق). وهو يهم أشكال الأنسنة (مثل العمل، السجن، الخدمات المشتركة) التي يجهد الإنسان في بلوغها.

وإلى اليسار، أُشير إلى توزيع الثقافة في السكان، من «مثقف» (اهتمامات ثقافية، راجع فصل ٢/٢٢) إلى «دون مرجعية ثقافية».

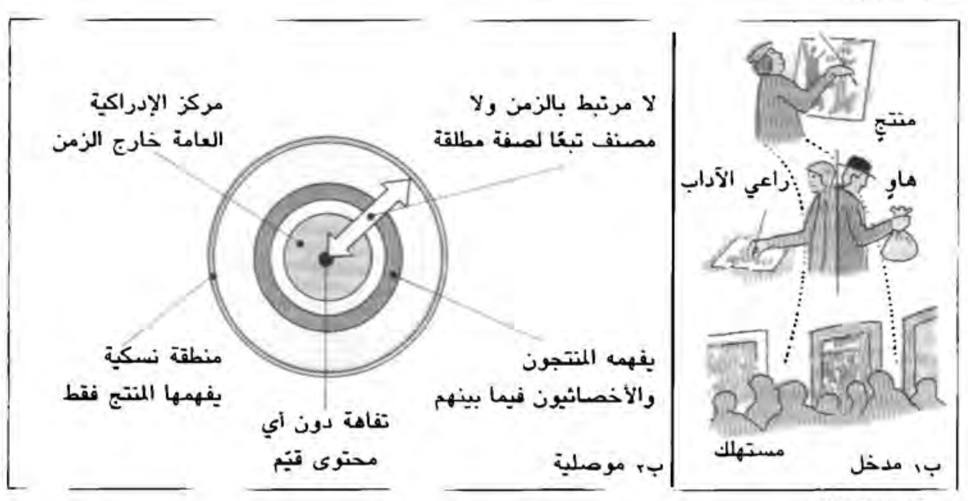
يمكن أن تمثِّل العناوين الثلاثة علاقات متجانسة (موازية لتراتب الطبقات الاجتماعية) أو غير متجانسة (متقاطعة).

وقد يكون لطبقة من المسؤولين الأمّيين متطلبات حياة مرتفعة لا تعترف بشرعيتها لأفراد دونها اجتماعيًا ولكنهم أوفر ثقافة.

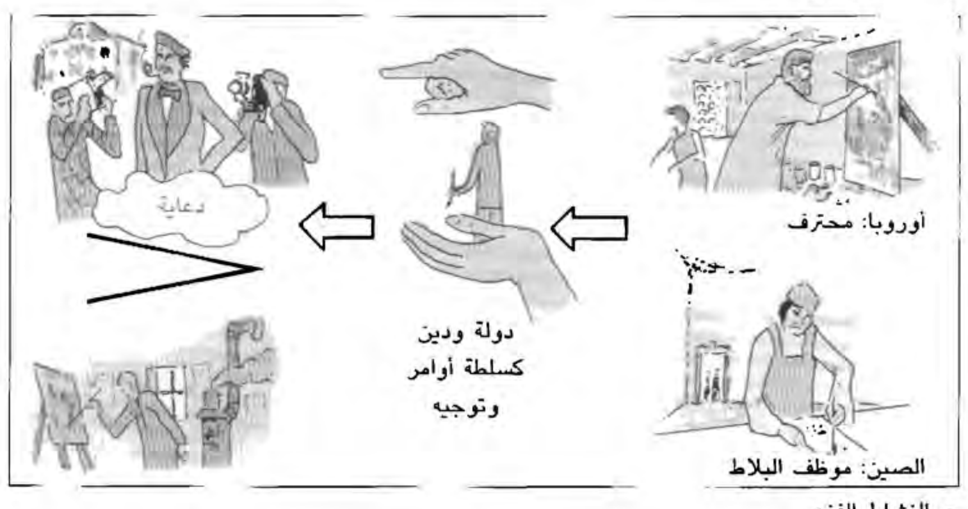
إن الميل إلى التحكم بارز (خدمات سرية، مثلًا) من أجل السيطرة على فقدان الانسجام الاجتماعي.



أ. البُعد الجمالي



ب. استخدام الفن



ج. النشاط الفنيّ

لم يكن للناس، في عصور ما قبل التاريخ، من وسيلة للتسامي روحيًا فوق صعوبات حياتهم، سوى التعبير الفني.

تشهد الرسوم الصخرية لإنسان كرومانيون، التي اكتشفت في مغارة لاسكو، على تعقيد هذه الطريقة التعبيرية التي لم تحظَ بأي تفسير كامل وحاسم حتى أيامنا هذه.

وبعد زمن متأخر جدًا، وجزئيًا فقط، انفصلت الحاجات في شأن تصوّر العالم وكذلك المُنْشآت العلمية، عن «الثقافة الوحدوية» السابقة، ذات الطبيعة الفنية.

ميزت اليونان القديمة بين الغائيات الثقافية الثلاث، الجمال والحق والخير. أما الجمال فقد أصبح الفن ملازمًا له.

أ. البعد الجمالي

كان «الجميل» يعني، على مدى قرون، تسامي الواقع الممتع الخاص بإرضاء الحاجات الجمالية.

وكان لهذا التصور للفن استثناءات، في بداية العصر الوسيط، مثلًا، حيث كان لجدرانيات الكنائس قيمة تثقيفية أوّلًا.

وفي القرن العشرين بدا إحساس بأن السموّ الجمالي زائف. فحلّت محله نسخة للعالم أكثر انسجاما مع الحقيقة وبإمكانها أيضًا أن «تشوّهه» بوعي من الفن. ومن هنا اتسعت أسس الفن فأصبح «إعادة خلق للعالم» يتضمن بحثًا واعيًا عن الجمال وتحطيما للجمال، ومعد لهز مشاعر الإنسان. ولكنه، في نهاية المطاف، لا يكف عن أن يكون تأكيدًا لجمال ممكن. وقد كلفت مقاربة هذا الجمال بالروائز النفسية الكثير من الجهد.

(أ١) إنها أشكال بسيطة تتيح إدراك الأحاسيس الجمالية على خير وجه. يمكن أن تنسق العناصر الخمسة البسيطة («مقارنة جمالية»، **هـ بينيش**) تبعًا لمتغيرات لا نهاية لها.

ثمة حلول تتفاوت إعدادًا وتختلف جودة على المستوى الجمالي، ويمكن أيضًا أن نجد منها ما يحلّل كل وحدة وما يحطّم الموضوع.

ويمكن كذلك وضع تصورات جمالية مختلفة

(أ٢) يعرض «رائز الحكم الفنّي» (**ن. ك. ماير**) روائز مختلفة بالصور تتيح اختيارًا وتأسيسًا للصيغة الجمالية الأكثر تأثيرًا.

ب. استخدام الفن

(ب١) وجد، منذ بدء النشاط الفني، منتجون ومقتنون للفن. ولكن في كل العصور جمع هاوي الفن الفئتين. وبدون توسط هواة الفن المزودين بمختلف الوسائل (ومنها التقنية) للمشاركة الجزئية في الفن، يصبح الفن شغلًا غريبًا للهامشيين ويفقد وظيفته الخلّاقة بالنسبة إلى جميع الناس.

وفي حين كان علم نفس الفن قديمًا (**ونكلر، مول**) يهتم أوّلًا بالتفسير النفساني للنزعات الفنية، يركز العلم الجديد (وخاصة **كرايتلر**) على وظائف الفن موسّعا مجال التجربة المعيشة.

(ب٢) إن استعداد الإنسان للتأثّر بالفن يمكن أن يُزاد (فيما يخص القوة والحدّة) ويوسَّع (ينفتح على مجالات حسية جديدة) ويعمّق (صلة وثيقة بالجو الخاص بالتجربة المعيشة). الحقيقة أن سهولة الوصول إلى الفن تخضع دائمًا لمخطط إجمالي للعلاقات الفنية العامة. يشرح مخطط **سالفيلد** التفاعلات بين الفنان والفن والجمهور. الحواجز الداخلية هي، جزئيًا، مبتغاة («باطنية»)، ولكنها ناتجة أيضًا عن أعمال فردية تستبق المستقبل ولا يكون الجمهور، بعد، ناضجًا لتقبلها.

ج. النشاط الفني

إن الأهمية والموقع والوظيفة التي تعزَى إلى الفن في بلد من البلدان تحدّد أيضًا مجتمعه.

يمكن أن يهمل ويترك لذاته، كما يمكن، بعكس ذلك، تحويله أداة دعاية سياسة.

يسبّب هذان الطرفان السلبيّان إساءة إلى الدولة ذاتها. ولكن رعاية الدولة للفن لا تخلو من المشاكل. وما لا ريب فيه أنه لهذا السبب يوجد دائمًا بين الفن والدولة مواجهة لا ينجو منها الفنان كإنسان.

لقد تغير موقع الفنان كثيرًا في المجتمع. كان الرسام والنحات والكاتب، ضمن الإطار الأوروبي، في بداية الأمر، أنواعًا من المحترفين.

وبمقابل ذلك، انطلق الرسام والكاتب، في الصين، من صفوف الموظفين الكبار (الماندران). إذًا يجب ألا نعجَب من أن الفن سلك طرقًا مختلفة في أوروبا وفي الشرق الأقصى.

لكن التحولات، في كلا المجتمعين، جعلت من الفن، أخيرًا، مهنة مستقلة، وإن هذا التطوّر سهّل استقلالية الفنان (خلافًا لوضعه في الدولة التوتاليتارية) لكنه أسهم أيضًا في الإسراف في النزعات الفنية وتغيير الميول. وقسم الفنانين اجتماعيًا بين أصيلين وغير أصيلين.

وعندما يشتهر الفنان، حتى ولو كان ذلك نتيجة ظروف سعيدة وإعلان مؤاتٍ يجد الهواة والمتاحف أنفسهم مضطرين إلى أن يقتنوا من أعماله فتكتسب أعماله شهرة وثمنًا باهظًا.

لقد اتسعت الشقة بين الفنان الغني والشاعر «الفقير». وذلك بتأثير الصُدف الإعلانية الغريبة عن الفن، فن العصر يختلف عن فن جميع العصور.



أ. مبحث العلوم النفسي

نموذج / نظرية	فيزياء	علم نفس
تفسير بواسطة القاعدة	الأجسام تسقط على الأرض	العادة تسهل العمل
تفسير أساسي	نظرية الجاذبية	نظرية التعلم

ب. مستويات التفسير

علم داخلي	علم خارجي
تنشئة	تقييم عام
عمل بحثي	انتشار العلم
تنظيم	السياسة العلمية
مهنة علمية	تدويل

ج. علم النفس الاجتماعي الخاص بالعلم

إن إيجاد الواقع «الحقيقي» هو هدف العلم الذي يتتبّع إحدى الغائيات الثقافية الثلاث المذكورة آنفًا.

يعيد **علم نفس العلوم** هذا الهدف إلى العلم نفسه. يتطلب هذا الفرع الناقد لذاته ضمان العلم ومناقشته كمؤسسة.

أ. مبحث العلوم النفسي

يدرس مبحث العلوم هذا العلاقة بالمعرفة العلمية، وبالدرجة الأولى، العلاقة «بالحقيقة».

والحق يقال، يجب ألا تكون الحقائق العلمية سوى إجماع مؤقت على أساس البراهين الدافعة. ولكن الكثير من العلوم تعتبر هذه الحقائق كعقائد. يجب دراسة أسبابها النفسية حالة حالة.

ومو ضوع آخر هو العلاقة بالعلم بشكل عام. للعلم واللاعلم علاقة تكاملية بالنسبة إلى الكثيرين:

مع تنامي العلم، ينقص اللاعلم (تعتبر الحلول قضايا «مصنفة») وعلاقتهما متوازية بالنسبة إلى الرأي المعاكس:

مع ازدياد العلم تزداد معرفة ما لا نعرفه لأن جهلنا هو مبدئيًا، لامتناهٍ (كخطّين متوازيين في اللانهاية).

إن هذه المسألة العلومية الأساسية مرتبطة بالعقيدة: تقترب وجهة النظر الأولى من «الإيمان بالتقدم»، والثانية من «اللاأدرية»، لأن «الحقيقة» بالنسبة إلى الأخيرة هي، بالمبدأ، مستحيلة المنال.

وبطريقة أكثر بروزًا، يرى **ت.س. كوهن** (١٩٧٦) أن «بنية الثورات العلمية» تكون كل مرة أكثر ملاءمة. ويقول كما قال **ماكس بلانك** (١٩٢٨):

«إذا فرضت الحقيقة العلمية نفسها، فلا يعني أن رافضيها اقتنعوا وأصبحوا مثقفين ثقافة كافية، ولكن لأن هؤلاء الثالبين زالوا تدريجًا».

ويبدو **و. جيمس** (١٩٠٧) أكثر سلبية فيقول:

«إن النظرية الجديدة.. تحارَب أولًا على اعتبارها عبثية. ثم يسلَّم بأنها صحيحة ولكن يحكم عليها بأنها بديهية وليست ذات أهمية. ويعترف، في النهاية، بأنها مهمة، ولكن ثالبيها القدماء يؤكدون اليوم أنهم هم الذين اكتشفوها».

ب. مستويات التفسير

كان بمقدور البابليين منذ ٥٠٠ سنة ق.م حساب خسوفات القمر وتوقعها. ولكن، طبعًا، دون أن يستطيعوا تفسيرها. كانوا يستخدمون الطريقة نفسها محاولين معرفة غزوات الجراد قبل حدوثها.

عرف البابليون القاعدة (التفسير بواسطة القاعدة)، ولكن التفسير الكوني وحده (التفسير الأساسي) هو الذي يبرهن لماذا يحدث ذلك. إن قاعدة «الاشياء تسقط على الأرض»، في الفيزياء، لم تفسَّر بعد أساسها: أي الجاذبية. والأمر نفسه يحدث في علم النفس، حيث التفسير بواسطة القاعدة التي بموجبها «العادة تسهل العمل» ليست كافية كتفسير أساسي.

توفر نظريات التعلّم عند **پاڤلوف** أو **ثورندايك** (فصل ١/٨) ترابطات سببية بالاستنتاج. تتيح التفسيرات الأساسية، عندئذ، صياغة قوانين:

إن هذه القوانين هي، في علم النفس (وإلى حد ما في الفيزياء أيضًا)، فقط، نسبية أو إحصائية ولا تمثل سوى نسبة مئوية دقيقة، أبعد من أن تكون يقينًا مطلقًا.

ج. علم النفس الاجتماعي الخاص بالعلم

يخضع العلم الذي يمارسه الإنسان لبعض التناسقات النفسية الاجتماعية. وبالإمكان، تبعًا للعلاقة الاجتماعية، تصنيف هذه التناسقات إلى داخلية وخارجية.

المسائل النفسية الاجتماعية الأربع الأساسية للمجموعة الداخلية هي:

تنشئة العلماء (منها ترقية أجيال جديدة في مجال البحث)، عمل البحث (قبل كل شيء المسائل التي تخص العمل ضمن فريق)، التنظيم العلمي (مسائل الحدود والجسور بين الفروع العلمية) ومسائل علم النفس المهني.

وتطرح أيضًا مسألة معرفة الصفات المطلوبة لكي «يولد الإنسان باحثًا» إذا كان لذلك من وجود. ويُنسى غالبًا أن اختيار الإنسان لمهنة باحث يخضع لمعايير عديدة ذاتية وليست موضوعية. لثوابت العلم الخارجية تأثير معاكس أيضًا على الثوابت الداخلية. تتضمن كل واحدة من الإشكاليات الأربع التالية مجالات خارجية هامة:

«ينبثق نفوذ العلم بشكل أساسي، منذ القرن التاسع عشر، من نجاحاته العملية التي حققها في ميدان العلوم الطبيعية.

إن انتشار العلم هو موضوع مناقشات. يوصي عدد من العلماء بعدم نقل معرفتهم إلى غير الاختصاصيين.

السياسة العلمية هي أيضًا عامل يسهم في تحديد المساعدة على البحث العلمي. عندما تهدف، مثلًا، إلى المردودية في مدى قصير.

وتدويل العلوم هو أيضًا مطلب لا يستجيب له علم النفس إلا جزئيًا.

إن التوجيه الأميركي لعلم النفس هو الذي يسيطر، كما تطالب جماعة من علماء النفس اليوم في الولايات المتحدة، على الأبحاث التي تجري في سائر بلدان العالم.

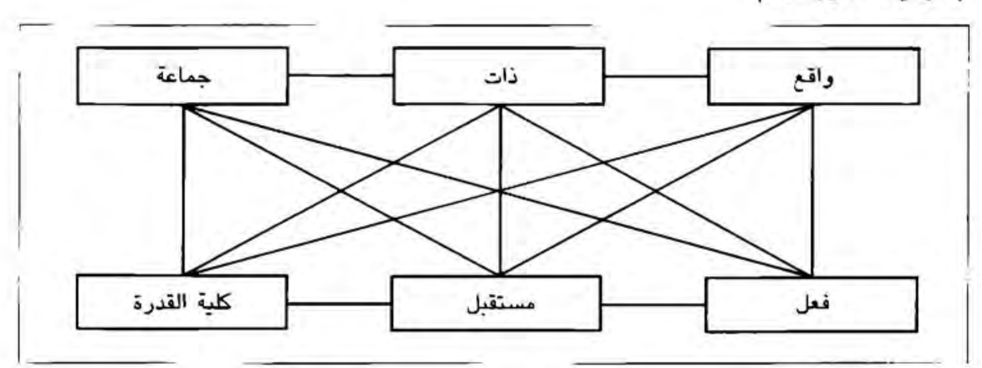
لم تشكل جميع هذه المعطيات الاجتماعية النفسية، بعد، مادة جدول دقيق.



آ. صور العالم والإنسان



ب. وظيفة تصور العالم



ج. قيم مطلقة



د. اكتساب تصورات العالم

إن فكرة تصور العالم وضعها **كانط** (١٧٩٠) وهو يعني بذلك التوليف الشخصي للانهائية العالم المحسوس. وشمل هذا المفهوم، فيما بعد، جميع التصورات التي يمكن أن يكوّنها العقل بشأن المسائل الأساسية التي يطرحها الوجود. و**كارل ياسبرز** هو الذي أسس علم نفس تصور العالم (١٩١٩):

«إن علم نفس تصور العالم هو ترسيم لحدود الحياة النفسية بمقدار ما هي هذه الحياة متاحة لفهمنا لها».

يمتد البحث أيضًا على أثر المنعطف المعرفي لعلم النفسي إلى «ما وراء المعرفة» (**ج. هـ فلافل**، ١٩٧٩) وهي لفظة تعني المهمات «الاستراتيجية» الأساسية للمعرفة.

وعلم نفس التصور «الخاص» للعالم (**هـ بينيش**) مكلف بدراسة السببية النفسية للحاجات انطلاقا من أبسط المعتقدات الإحيائية (فصل ٥/١٠) إلى تصورات العالم «الرسمية» التي هي النظم الكبرى الدينية، السياسية...

أ. صور العالم والإنسان

كل إنسان يطرح على نفسه ثلاثة أسئلة جوهرية بطريقة ملحة ومتبصرة:

- ما هو «مصير» الوجود، أي ما هي نهايته المحسوسة؟
- أية التزامات يمكن، أو بكلمة أدق يجب، تعهدها؟
- أي معنى يمكن أن يتخذه العالم أو الوجود؟

سواء تمت صياغة هذه التساؤلات في عبارات أو ظلت في مطاوي الشعور الغامض، فكل إنسان يمر، في حياته، بلحظات حرجة، لا يتفلّت فيها من قبضة الشكوك. تترك تصورات العالم، في المجتمعات البشرية وبفعل تكديس الأجوبة التي تنشأ عن هذه التساؤلات التي تتناقلها وسائل الإعلام، تترك أثرًا قادرًا على اكتساب أبعاد تاريخية.

وإلى جانب تصورات العالم، ثمة تصورات خاصة بالإنسان وناشئة عن الخبرة الشخصية لكل فرد وتمارس ضغوطًا على الآراء العامة:

إذا كان الناس في جوهرهم أَخيارًا أو أشرارًا، إذا كانوا سُذّجًا أو متقبلين للتكفير الفلسفي، فأية نزعات عامة تتمثل فيهم؟

في الفن يوجد التعبير الأبرز عن التصورات حول الإنسان:

يعطينا الفن، مع ڤينوس ما قبل التاريخ لـ**ولندورف** وڤينوس ميلو، مع «آنسات آڤينيون» لـ**بيكاسّو**، ثلاثة أمثلة عن صور الإنسان مرتبطة بالتاريخ ولكن لا تخلو من علاقة بمفاهيم عامة تهم «المرأة» وجميع الناس أيضًا.

ب. وظيفة تصوّر العالم

ما فائدة الإنسان من تكوينه تصورًا عن العالم؟

يتنكّر الكثيرون لذلك لأنهم لا يرون فيه أية مصلحة. وآخرون لا يعرفون سوى «حقيقتهم المطلقة» وينكرون أية شرعية لكل نظرة سوى نظرتهم هم. ليس علم نفس تصور العالم معياريًا (ما يجب أن نفكر به أو نفعله) ولكنه وصفيّ (أية **مفاهيم هي** ممكنة، ولأية أسباب). إنها تميّز درجات من التحديد (بدءًا، مثلًا، بالخلاصة التافهة: «هذه هي الحياة») وتوجُّه **توقعات** (مثل مواقف أخلاقية بدائية). نميز من أجل هذا ثلاثة اتجاهات أساسية من التوقعات.

(ب١) مساعدة بواسطة تأويل مبني على «نظام العالم». محاولات تفسير لانتحال ما لا يفسَّر أساسًا («القدَر»، مثلًا).

(ب٢) مظاهرة تأكيد السلوك. دعم للتأكيد، إخلاقيًا، على أن سلوكا ما هو «صحيح».

(ب٣) تفسير وعبادة. إيحاءات حسية طقوسية، كالحج إلى مكة بالنسبة إلى مسلمي العالم أجمع.

ج. قيم مطلقة

ليست تصورات العالم مجرد أدوات معرفية بسيطة للتحكم بالحياة، إنها أيضًا، غالبًا، وسائل إكراه خطيرة تؤدي أحيانًا إلى تعريض السلم للخطر. لهذا يزداد اهتمام علم النفس بها. وإن إحدى وظائفها الأساسية هي أنها تضع قيمًا عليا ومطلقة، مثل:

الحقيقة (الواقع الممكن التحقيق، «العلمي»، كقاعدة تتيح تأسيس كل ما هو موجود).

الذات (مرجع أنوي لكل عمل)، الجماعة (نظام قيم فوشخصي)، الفعل (إيعاز أخلاقي بالتصرف)، المستقبل (مسؤولية تجاه الأحداث الآتية)، كلية القدرة (تبعية تجاه حكم أعلى خارج العالم)

هذه النهايات «الأخيرة» هي جزئيًا قابلة للتنسيق، وهي، في كثير من تصورات العالم، في خدمة النية النهائية الوجودية (ما يجب أن يعمل في المرحلة الأخيرة) وتقديم المساعدة الروحية (أي نوع من التعزية يمكن أن ينتظر الإنسان من ذلك).

د. اكتساب تصورات العالم

تُناط تصورات العالم بالأهل في أكثر الأحيان على شكل مجموعة صغيرة متكاملة من التوجُّهات، ثم تتحول إلى محيط المراهق لتتطور، فيما بعد، بطريقة امتثالية أو معارضة. وهي تعتمد على التعلّم والاختبار والتأمل الشخصي:

إنها نتيجة خلق شخصي بمقدار ما هي فكرة الآخرين.

تصورات العالم هي إسهام أساسي في استمرار البشرية. وهي لا تزال تتوقع، ككثير من الموضوعات، متابعة البحث.

ملحق / توسُّع في شرح بعض المواد الواردة في متن الكتاب ص ١٢-٢٩

الاتصال: هو نظام العلاقات بين الناس ومحتواها. تحدِّد نظريات الاتصال خصائص الوساطات ونهائياتها.
(١) تصف نظريات الإعلام، على مثال وسائل الاتصال التقنية، المدى البيناسي (بين الناس) بعبارات الترميز وفك الرموز لنماذج الإعلام.
(٢) تميز نظريات الانتفاع بين الغايات الممكنة للاتصال.
(٣) تقيِّم نظريات التوازن الحاجة إلى الاتصال.
ترتكز جميع هذه النظريات على التسلسل والترابط الخاصين بالاتصال الحقيقي. يوجد، استنادًا إلى المثلث المؤسِّس للاتصال، في كل اتصال، موصل (مرسِل، منتج، الخ) ومتَّصل (مستقبل، ومستهلك...) ومحتوى رسالة (نص، سلوك غير كلامي...). يحدد عملية الاتصال المشتركون (عدد، نشاط)، الوسائلُ (لغة، رموز...)، الطرق أو الأقنية (حوار داخلي أو مناجاة، مسموع أو منظور، مرتبط بوسيلة إعلام...) والآثار (تأثير، دفاع...). يطوّر كل إنسان، على مدى حياته، جزئيًا بالمحاكاة، بالاختيار أو بالتدرّب، أسلوبه الاتصالي الخاص وتغيير مواقفه. يمكن وصف الأساليب في اتجاهين:
(١) هيمنة = تمثل نفسي فيزيولوجي للسلطة - إذعان = خضوع سلبي و(٢) انتساب = التحام اجتماعي - ابتعاد = اتخاذ مسافة بحسب الرغبة. تتولد، على صعيد محتوى العلاقات الجماعية، أربعة أنظمة قواعد: تراتبية الطبقات (بنية القيادة)، الأدوار (مساهمات جماعية مميزة)، الاحتكاكات (نوعية اتصالات نزّاعة) والقوانين (وضع قواعد للتقيد بها). وتهيمن، تبعًا لاحترام أنظمة القواعد هذه، علاقات تبادل مستقلة، معوانة، مدقِّقة، دفاعية أو مختلطة بطريقة متناقضة.
توفّر هذه الأنظمة الوصفية الحصول على وجهة نظر معقدة أكثر الأحيان حتى الاتصال الكلامي وغير الكلامي.
بالنسبة إلى اتصال الجماهير، راجع نظرية الجماهير.

الإجهاد: كان مفهوم الإجهاد، في بداية أمره، محصورًا في الإرهاق الجسدي، لكنه اليوم تعمم على أوضاع يشعر فيها المجهَد بأنه ضيق الأنفاس مخنوقها. يعود تعدد معاني المفهوم إلى كثرة الأعباء الملقاة على كاهل الإنسان: لحظات الإجهاد لا حصر لها ولا عد (كثرة عوامل الإجهاد)، كلٌ يعيشه بطريقة مختلفة (تقييمات متشعبة لهذه العوامل)، يتفاعل معه بطريقة مختلفة ويكبح جماحه بطريقة مختلفة (استراتيجيات الإجهاد متشعبة). ليس من أسلوب عام لإعداد الإجهاد.
ومن أجل جعل فكرة الإجهاد عملياتية نفسيًا، تطورت لذلك عدة مفاهيم: الإجهاد كرد فعل، مزمن غالبًا، على الإلحاح؛ الإجهاد كتناذر للتهديد (مدخل، إفراط أو نقص)؛ الإجهاد كاستراتيجية هيمنة غير متكيفة؛ الإجهاد كرد فعل للحماية الذاتية فيما وراء عتبة الإجهاد الفردية.
ميز **سيلي** (١٩٧٤) ثلاث مراحل أساسية في تطور الإجهاد:
مرحلة الإنذار (يحاول الجسم أن يتكيف مع الوضع الجديد)، مرحلة المقاومة (مرحلة الصدمة المعاكسة لِرد فعل معاكس مفرط)، مرحلة الإنهاك (خَوَر إواليات التكيّف مع أضرار غير قابلة للانعكاس).
إن ردود فعل الإجهاد، التي تعتبر مؤذية بشكل خاص، هي ردود فعل خادرة لا يُفرِغ فيها المجهدُ الشحنة لكنه يعانيها دون مقاومة كالمشلول.

الاحتمال: الاحتمال هو توقعات ذاتية أو موضوعية مبنية على تكرار ظهور أحداث في الحاضر والمستقبل. يتم الحصول على أبسط حسابات الاحتمال بالتناوب بين حالتين (توزيع ذو حدين). ولتحقيق هذه الفائدة يُجرى هذا التوزيع غالبًا اصطناعيًا. تستخدم توزيعات فيموس (بواسطة جام النرد) عددًا محدودًا ومتناظرًا من التناوبات. كلما كانت إمكانات التناوب كثيرة ومتزايدة، بمقدار ذلك تكون الوسائل الإحصائية المعقدة ضرورية لحساب الاحتمال الوَسَطي (قيمة الاحتمال المتوسط). استُخدمت طرق مختلفة لوضع احتمالات يمكن تجميعها في فئتين كبيرتين.
(١) تحدِّد القاعدة التوليفية، بواسطة الاستبدال، عدد الاحتمالات التي بموجبها يُرتَّب، بحرية، عدد محدود من العناصر. يعين التوفيق بين العناصر عددها الضروري الأدنى والأعلى في عملية قابلة للتكميم.
(٢) يستخدم حساب الاحتمالات كرائز للمقارنة في عملية تقييم عتبة الثقة للقيم المرقمة. يتيح المثلثُ الحسابي تصميمَ التكرارِ الصاعد والمنهلُ الروماني التكرارَ الهابط.
لهذا السبب يعتبر حساب الاحتمالات ذا أهمية خاصة لتقييم المجالات التي يمكن أن يوثَق فيها بالنتائج المرقَّمة. وذلك بسبب تدخلها اللاكيفي ولكن الناشئ عن فرق فعلي في السببية.

الإحصاء: الإحصاء فرع تعليمي تمهيدي من علم النفس يهتم بالتحليل الكمي للقيم العددية، وذلك بطرق خمس: الاهتمام الشامل بكتل الأعداد؛ صلاحية استخدام الأعداد؛ علاقة الأعداد فيما بينها؛ احتمال ظهور قيم عمودية؛ احتمال اختصار كتل الأعداد إلى الحد الأدنى من القيم الأساسيّة. أُعِدَّت هذه المهمات الخمس في ثمانية أقسام أساسيّة من علم النفس الإحصائي.
(١) يفهم بالنقل أفضل تمثيل رمزي وجعل القيم المختلفة قاعدة مشتركة للتحويل.
(٢) يقوم الإعداد الأساسي للقيم العددية على تحديد نموذجها التوزيعي. أي الطريقة المتغيِّرة التي تُنَظَّم بها كُتل الأعداد.
(٣) يشير حساب الاحتمالات إلى القيم العددية التي يمكن توقعها بطريقة يمكن معها بالمقابل أختبار العُدة العددية المعنية.
(٤) يتقدم الاستدلال الإحصائي خطوة إلى الإمام بإدخاله عمليات معدة لإعداد درجة الدلالة (مسألة عتبات الثقة الإحصائية).
(٥) يُخْتَبَرُ تحليلُ التباين فَرْقَ النتائج تبعًا لتنوع التدخلات

(مثل نتائج مقارنة لإجراءات طبية على أشخاص معالَجين وغير معالَجين).
(٦) يُعِدّ حسابُ الارتباطات التباينَ ولكن ليس بالضرورة العلاقة السببية بين مجموعتين (أو عدة مجموعات) من الأعداد.
(٧) يعتمد التحليل العاملي على حساب الارتباطات، ولكنه بوسْعه لكي ينسب عددًا كبيرًا من الأعداد لبعض القيم الأساسية (= عوامل).
(٨) يقارن تحليل السلاسل الزمنية التعديلات في تطور القيم العددية محدَّدًا، في الوقت نفسه، تبعيتها للتأثيرات الخارجية.

الاختبار: يقترب الاختبار، كطريقة، أكثر ما يقترب، من مثالية البحث في علوم الطبيعة وخاصة في العلوم الفيزيائية. وهو في شكله الكلاسيكي عملية استنباطية. يمكن أن تستنبط، بتعديل المعطيات المسبقة (متغيرات مستقلة)، استنادًا إلى نتائجها (متغيرات تابعة)، التأثيرَ الذي تفرضه هذه المعطيات وبالتالي الارتباط السببي أيضًا. لا يبرِّر الاستنتاج إلا في حال العلاقات الثابتة والمتواطئة بين المعطيات المسبقة والنتائج الحاصلة، وهو على عكس ذلك، غير مبرّر إذا كانت العلاقات غامضة (متعددة المعاني، كما في المنطق: الثلج هو أبيض لا يتيح الاستنتاج أن الأبيض هو ثلج). وعندما تتميز علاقات عديدة، في علم النفس، بالغموض تكون الفطنة الناقدة واجبة لتفسير النتائج الاختبارية. ويطبّق ذلك، بشكل أساسي، على اختبارات التحقق «الكلاسيكية»، أقل بكثير مما ينطبق على أشكال أخرى (اختبارات البرهنة والتعرف وأشباه الاختبارات والاختبارات التي تجري على الأرض) التي ليس تفسيرها في البداية، من النمط السببي. ونذكر، من وجهة النظر المنهجية، خمسة أفكار نقدية هامة:
(١) التصميم (تكامل مع مخطط للبحث (مخطط اختباري) محقَّق).
(٢) التغيّر (تبدلات مكررة ووثوقية (إمكانية الاشتغال) إحصائية).
(٣) التناسخ (وصف دقيق صحيح لكي يستطيع آخرون تكرار الاختبار).
(٤) تطور مراقَب (تحقيق (تنفيذ) دقيق يعني، فيما يعني، إثارة الأفراد).
(٥) استثمار (إعداد بَعْدي مكيَّف: ليس من بيان إحصائي للمعطيات الخام المشكوك فيها).

الأداء: الأداء مفهوم شامل يعيِّن نظام الشروط الفعلية للعديد من المهام والأفعال والنشاطات وإنجازات العمل... تعالج نظرياتُ تنشيطٍ عديدة مسألةَ لماذا يصبح الإنسان نشيطًا:
(١) نظريات فعَّالة (الجهاز العصبي المركزي ينجز «عملًا» يتحول إلى نشاطات إنسانية).
(٢) نظريات سلوكية (إثارات يتبعها حتمًا إستجابات أو ردود فعل)
(٣) نظريات الغريزة (إطلاق النشاط بعوامل هرمونية).
(٤) نظريات معرفية (نشاطات خاضعة للمراقبة الذاتية).
(٥) نظريات اجتماعية (نشاطات تحركها تأثيرات البيئة).
تكشف نظريات النشاط، تفصيلًا، عن سلسلة من النقاط النظرية الهامة:
(١) الاستعداد للأداء يعني الشروط الضرورية للنشاط الخاص (انتباه، تكيف مع الظروف البيئية، توتر يتراوح بين الاسترخاء والتصلب).
(٢) تُختبر، على صعيد المنافسة، شروطُ القدرة (ظروف شخصية من النوع العقلي والجسمي والتعليلي).
(٣) تعنى العملية التفاعلية بالظروف الاجتماعية للأداء (مرحلة التطوّر، مطلب اجتماعي، تنافس، أداء جماعي).
(٤) يتعلق التركيز بتأثير حالات الوعي الآنية على الأداءات (مراقبة الذات لإنجاز الأداء: الحفز على النشاط، تطور الاهتمامات، اللجوء إلى التجارب السابقة، القضاء على الآثار الطفيلية المزعجة).
(٥) تُجري القصديةُ تمييزًا بين أعمال موجَّهة نحو هدف وأعمال غير موجَّهة (رد الفعل الخارجي والداخلي).
(٦) تتناول الرقابة التأكيد الآني أو الاستعادي للأداءات الغريبة أو الشخصية (إسناد، شعور بالمراقبة، معرفة الهدف، اكتمالية، ظروف موقفية، مستوى الالتزام).
(٧) تحدد طاقةُ التحريض التأثيرَ الانفعالي على العملِ والتجربةِ المعيشة (إطلاق، مصاحبة ونتيجة التحريض).
(٨) يرتبط تكوين الأداء بظروفه المختلفة السياقية والإنجازية (نوايا، تصاميم، مستوى الطموح، قرارات، تنظيم الفعل بالإعلام الارتجاعي عن الحالة الآنية للأداء، أفعال مقيّدة أو حرة، آثار تولِّدها أفعال متشابكة)
ومسألة عامة هي مسألة تعديل الأداءات مع تطور سيرها الروتيني:
تفترض إحدى النظريات تفاضلًا تصاعديًا (فرضية تفاضل الأداء)، وتفترض نظرية أخرى إفسادًا لدقة الملاحظة الواعية والرقابة (فرضية تقهقر الأداء)، وتفترض النظرية الأخيرة تطوّرًا مختلفًا (فرضية تشعب الأداء) وأفضل جزئيًا (سيرورة أسرع فأسرع، مثلًا)، وأسوأ جزئيًا (مثل ازدياد خطر الحوادث).

الإدراك: هو عبارة عن نشاطات حواس السمع والنظر والذوق... وهي ليست فقط تسجيلات للمثيرات ولكنها دائمًا إعدادات مركزية للمثيرات. أدّى هذا التشابك في المهام إلى العديد من نظريات الإدراك التي تركز كل واحدة منها على بعض النقاط المميّزة. فالنظريات الحِسّوية هي الأقرب إلى فيزيولوجيا الحواس؛ إن الإدراك، بالنسبة إليها، هو عمل مزيج من عدة إحساسات معزولة أو كشف انتقائي عن المثيرات. ترتكز النظريات الكتلوية أكثر على المعيش الظاهراتي وتعيّن فيه، بشكل أساسي، التصورات الفردية عن الشكل. وتُصوِّب نظريات الجدارة واقعَ أن الإدراك يمكن أن يمارَس وأنه قابل لبلوغ الكمال. وهي لذلك تشدِّد، في التجربة الإدراكية، على السمة

النشطة والانتقائية والمقوية للنشاط الخاص لدى الشخص المدرك. وهذا يطبق بشكل خاص على الفرع الأحدث من دلالة الإدراك التي تدقق في عمليات اكتشاف الحواس في بنى عارية فعلًا من كل معنى، وذلك لتوضيح سمة خاصة لكل إدراك وإلا ظلت محجوبة. تنسَّق الإدراكات تبعًا لنوعيتها (حاستان للبعد، وست للملامسة) ولموقعها (وضع الأشياء باعتبار خصائص الثبات) ولِسِمة التحوّل (التعرف إلى النماذج). وهكذا يرتفع الإدراك (وهو تسجيل بسيط للمثيرات) إلى الإدراك المتميز (وهو إدراك متفهم) وأخيرًا إلى الفهم (تجربة البيئة التي يؤوّلها الفرد). قوانين الإدراك المهمة هي: التضاد (تحسين حدود الإدراك)، العتبات المدركة (عتبات مطلقة، نسبية وارتكاسية)، الشكل والمضمون (انتقاء شخصي للأشكال وتدريج ما تبقّى كخلفية)، الثبات (الاحتفاظ بالسمات بالرغم من تغير شروط الإدراك)، التمثل (تعويض تشعّبات الوضوح وغيرها) ورسوخ البنية (تفضيل الأشكال البسيطة والمقفلة).

الاشتراط: وصف عمليات **التعلُّم** بعبارات نظرية السلوك. اكتشف **إ. ب. پاڤلوف** الآلية الفيزيولوجية للارتكاسات المشروطة: ارتكاس فطري (مثل سيلان اللعاب عند ملامسة اللسان للطعام) مرتبط عصبيًا (انفعال عصبي مؤقت) بمثير غير فعال أو محايد في المرة الأولى، يُمثَّل بطريقة عفوية ومنتظمة (الجرس، مثلًا) ويطلق، من جهته، سيلان اللعاب دون جاذب (طُعْم). ولكن هذا لا يحدث إلا إذا كان المثير «المشروط» (الجرس) يُعرض صدفة في الوقت نفسه مع المثير غير المشروط (الطعام)؛ وبدون ذلك تنتفي العلاقة. يطلق **پاڤلوف** كلمة **تقوية** على التكرارات الصدفوية للمثيرَين. ويضع **ب. ف. سكينر**، في قلب نظريته عن الاشتراط «الفاعل»، تحت عبارة التقوية ذاتها، الأنواعَ الممكنة لعمليات التقوية (تكرار، فَسْحات). يُحيل **آ. بَنْدورا** إلى أهمية الأثر الناتج عن النموذج (الاشتراط التقليدي). تضع نظرية الاشتراط المعرفي (**و. كولر، ك. بوهلر**)، في المقدمة، طاقة الحدْس المفاجئ للمسألة التي يُحْفظ مخطط حلها ولا ينسى أبدًا، وإلى جانب هذه المجموعات الكبيرة من نظريات الاشتراط، نظريات صورية للتعلُّم (تعلُّم كاستراتيجية إعلام) وتوجيهات عملية للتعلم (تعلم على مستويات مع تطور على مراحل وطرق تدريبية).

الاضطراب العقلي النفسي: يشمل جميع الحالات النفسية وأشكال السلوك التي تقع في مجال «الشذوذ». وأهم ثلاثة أنظمة تصنيفية هي التالية «DSM-III-R» (كتيّب في تشريح الاضطرابات العقلية وإحصائها، ط٣، منقحة)، التصنيف الدولي لمنظمة الصحة العالمية (CIM-10) Manual zur Documentation psychiatr. Befunde (AMP)

يكشف النظام DSM-III-R عن ١٧ مجموعة من الاضطرابات (١) اضطراب النمو، (٢) اضطرابات عقلية ذات منشأ عضوي، (٣) اضطرابات سببها موادّ منشِّطة، (٤) الانفصام، (٥) اضطراب هذياني (بارانويا)، (٦) اضطراب ذهاني (غير مصنف في مكان آخر)، (٧) اضطرابات المزاج، (٨) اضطرابات قلقة (حالات عصابية قلقة ورهابية)، (٩) اضطرابات جسمية الشكل، (١٠) اضطرابات انفصالية (أو عصابات هستيرية من النوع الانفصالي)، (١١) اضطرابات جنسية، (١٢) اضطرابات النوم، (١٣) اضطرابات مزيفة، (١٤) اضطرابات ضبط الانفعالات (غير مصنفة في مكان آخر)، (١٥) اضطرابات التكيف، (١٦) عوامل نفسية تؤثر في عِلّة جسدية. (١٧) اضطرابات الشخصية. تعتبر هذه الاضطرابات «شاذة»، «مفرطة» أو «ناقصة» أو «منحرفة» بالنسبة إلى مستوى التوقعات الشخصية أو النوعية أو الاجتماعية (حالة الضرورة الثقافية). تَرَسَّخ، استنادًا إلى مفاهيم قديمة ومنذ القرن التاسع عشر، تقليدٌ مبني على أربعة مفاهيم سائدة: الذهانات (اضطرابات خطيرة جدًّا)، التناذرات الفاصلة بين حالتين (على شيء من الخطورة). العُصابات (متوسطة الخطورة) واضطرابات السلوك (قليلة الخطورة).

أما أنواع الذهانات فهي: الفصام، الجنون الدوري، الذهان الهذياني، الذهان الارتكاسي، الذهان العضوي الدماغي. وتصنف بين التناذرات الفاصلة والمتوسطة: وسواس المرض، انعدام الشخصية، فقدان طابع الواقعية، المرض الاجتماعي (شخصية كارهة للمجتمع). وتشمل عبارة العصابات في أكثر الأحيان: صُراع (هستيريا) الانقلاب، الرهاب، العصاب الاستحواذي، الهذيان (البارانويا). وتمثل اضطرابات السلوك الفئة الأكثر تنوّعًا: اضطرابات وظيفية، آلام نفسانية المنشأ، (اضطرابات الشهية إلى الطعام). اضطراب النمو (فقد الشهية الحُلُمي/ البلوغي)، اضطراب الأداءات (مثل الرهاب المدرسي، عسر القراءة والحساب)، سلوك منحرف (إدمان الكحول، المخدرات، هوس الإحراق)، اضطرابات الذكاء (هوس الإنسان بأن يكون محقًّا دائمًا، هوس براعة الكلام، خبل الشيخوخة). اضطرابات جنسية (عِنّة، برودة، شذوذ)، اضطرابات النطق (الحبسة، التأتأة، حبسة تركيبية) وآلام وجودية (مثل التهديد بالانتحار، خوف المرء من أن يكون ضحية، داء المصحات، الشعور بالعبثية).

الإكتئابية: الاكتئابية صفة إجمالية لحالات عديدة من اضطراب المزاج أو من الغم يذكر من بينها أيضًا الاكتئاب بمعناه الحصْري. إن الإحاطة بهذه الحالات تبدو صعبة. يمكن أن تستهل الاكتئابية بالسوداوية (المالنخوليا) المفرطة الارتكاس وباللاانفعالية عندما تظهران على أثر خسائر وعندما تصبح، بحدتها ومدتها، قاعدة. وإلى الطرف الآخر من تصنيف الاكتئابية، هناك المالنخوليا المعتبرة ذُهانا والتي كان **أبقراط** يعتبرها قديما، متولِّدة من الداخل، أي مضاعفات نفسية لاضطرابات جسدية. تظهر غالبًا على شكل دوري (هَوَس، ذهول). وهي في حالتها الوسطى اكتئاب عصابي. وتمثِّل الشكل الرائج لأنواع الاكتئابات المعالجة.

تظهر في الاكتئابات العصابية ٥ مجموعات من الخصائص: اضطرابات المزاج (حزن، وَهَن)، نقص سلوكي (الحد الأدنى

من الاهتمام، عزلة عن المجتمع)، آلام مبرحة (تذمّر متكرر، وسواس مرضي، عدوانية ذاتية)، حالات فيزيولوجية (اضطراب النوم، قلق صحي، شقيقة) ومظاهر معرفية (سوء تقدير ذاتي، توقعات سلبية، تشكي من الذات، توقع الكوارث).

يعاني الشخص الاكتئابي، إجمالًا، حالة من المزاج يصعب تحملها مصحوبة بشلل عاطفي ومن الانحطاط النفسي ومن الضيق الجسدي الموضع في الأمعاء والصدر؛ يتركز تفكيره حول حالته التي يرثى لها والفشل المشعر بالذنب وفقدان الخلاص. وفي بعض حالات الهوس يسيطر على المريض شعور مفرط بالقدرة يبلغ حد جنون العظمة: فتتراكم لديه مخططات وهمية في تبدل وتدفق من الأفكار لا تلبث أن تنعكس في حالة من عدم التركيز النفسي وتحجر المزاج.

من الضروري، لإجراء تشخيص تفاضلي للاكتئاب الأعظم (مفهوم عام للاكتئاب)، أن يجتمع، على الأقل، نصف المعايير الثمانية التالية: اضطرابات الشهية إلى الطعام سلبًا أو إيجابًا، اضطرابات النوم، خلل وظيفي في التهيج وفي الكبت، لا مبالاة مزمنة، انحطاط قوي، شعور بعدم الجدوى، ضعف التركيز، تفكير متواتر بالموت وبالانتحار..

ويذكر، فيما يذكر، من أسباب الإكتئابية: حالات العجز في الناقلات العصبية (نماذج جسمية)، عدوانية ذاتية كنتيجة لخسارة أشياء أو لجراح نرجسية (نموذج التحليل النفسي)، زوال التقوية الإيجابية، ضيق مكتسب (نموذج سلوكي)، موقف سلبي تجاه الذات والآخرين والمستقبل (نماذج معرفية)، مستوى الطموح المبالغ في تقييمه وارتكاس مفرط في التجارب المعيشة الحرجة (نماذج في تعابير علم نفس الشخصية) وكذلك نماذج متجانسة الاتزان مثل تكامل النماذج السببية السابقة.

الانتباه: هو على أشكال مختلفة من العلاقة بالموضوع تبعًا لدرجات مختلفة من التوتر. لم تحدد وظائف الانتباه بطريقة متّسقة في النظريات حول الانتباه.

(١) يُعنى الانتباه، كونه وظيفة إنذار، بالتوجه نحو الموضوع والجهوزية الارتكاسية العامة وحالة الإثارة المرتبطة بهدف.

(٢) وهو، كوظيفة انتقاء، يهم التوزيع (توزيع الانتباه) وأثر المثير.

(٣) ويعني، كوظيفة إدراك مميز، تركيز الوعي، الاهتمام المضموني والحث المعرفي المرتبط بالجديد (متغير مقارن: **د. ف. برلين**). يوجه الانتباه من الداخل كما يوجه من الخارج، أي أن الإثارات والأوضاع والاهتمامات الشخصية تقترن بخاصة حثّ الأشياء. ويفهم **ك. ليڤين** بخاصة الحث على أنها خصوصية الأشياء والأشخاص والأوضاع (الخلاف بين الشكل والمحتوى) القادرة على جذب الانتباه.

تميز، في التحليل النوعي للإنتباه، خصائص مختلفة: الاتجاه (مستقر: تحديد؛ متغير: غموض، غير محدد: مَسْخ)، الامتداد (اتساع مسح المنظورات، قدرة الأقنية الحسية)، الحدة (التوتر، درجة الحث)، المدة (على المدى القصير: انفعال رعب، على المدى الطويل: تيقظ)، التمييز (عزل الأصوات عن الضجة، مثلًا: «مسألة حفلة كوكتيل»؛ **ش. شري**)، المضمونية (مشاركة متبادلة في التركيز وفي القدرة على الانتقال).

يُعتبر الانتباه، من قبل نظرية ضبط (سيبرناتية) الإعلام، كمقياس إعداد الإشارة المنجزة بين معطيات الدخول ومعطيات الخروج. تعرض نقائص وظيفة الانتباه، في منظور علم النفس العيادي، ثلاثة أشكال: إرتكاسية (عدم انتباه)، انتقائية (ناقصة أو مفرطة: تشتت) ومعرفية (منها: لا مبالاة مزمنة).

الإنسانية: يشكل هذا المفهوم واحدًا من أسمى المفاهيم الاخلاقية وهو أيضًا من اهتمامات علم النفس. يتلبس في إطاره ثلاثة مَعانٍ:

(١) كوصف خاص لكل المزايا التي تميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية؛

(٢) كتحديد لحقوق الإنسان الذي يقرر ضرورتها، الضمنية، نحو نفسه ونحو المجتمع.

(٣) كإلحاح في طلب هادف في البحث عن أناه وعن ذاته الأخرى. جميع هذه الأنواع مرتبطة بقيم ولها محتوى ينشأ من مفهوم العالم، وليس لها، بالنتيجة، تحديد عالمي شامل.

(١) كقاعدة عامة، **يوجَّه** الانتباه، فيما يخص النوع الأول من المميزات، إلى فَرَضيات مصير الإنسان (الأنسنة): إلى وظائفه الروحية، إلى تشكيل المجتمعات الكبرى أو إلى الإنجازات التقنية.

(٢) يتعلق هذا النوع تعلقًا قويًا بالإيديولوجية حيث تستنتج نهاية الإنسان ومعناه الخاصّان من أفكار توجيهية قديمة، مسيحية، ذرائعية، رأسمالية، ماركسية، بيئية وديمقراطية.

(٣) إن التحديد التصوري الثالث هو الذي يبلغ، في الواقع، المعنى النفساني لهذا المفهوم. وهكذا، على الإنسان أن يجد الطريق «نحو ذاته» أي أن يتطابق مع الصورة العامّة والفردية للإنسان. ومع **ماسلو**، اعتُبِر هذا الهدف تحقيقًا للذات. إن المسألة، في هذا الصدد، **هي** مسألة حب ذاتي مشبع أقل مما هي محاولة بلوغ نضج شخصي بالبحث عن الذات واكتسابها: أي الوصول بفضل التثقيف الذاتي إلى الحدود الفردية النهائية للطاقات الخاصة، وكذلك إيجاد موقف روحي وترجمته العملية التي تتيح أيضًا لسائر الناس طرًّا أن يبلغوا العدالة والحرية والكرامة.

الانفعال: هو مفهوم يشمل جميع العمليات المرتبطة بالعواطف الوجدانية. إن التنوع الضخم لأشكال الشعور يجعل من الصعب تقديم صيغة وحيدة للانفعالات كبناء نفساني. يوجد حتى اليوم تعريفات أسمية محض تستلزم تصنيفًا علميًا. وكل إنسان يعرف حالات التجربة المعيشة التي تحددها تلك التعريفات. ولكي تستوعب بطريقة أدق، تُستعمل لذلك أربع فئات إيضاحية وصفية:

(١) نظريات الانفعال الأحدث – من بينها نظريات السياق والتفاضل (**شاختر، سنغر، لازاروس، إيزار**) – تهتم بشكل أساسي بالمقومات الضرورية، أو الطارئة إلى حد ما، وبالعملية الشعورية.

أربعة أنواع من المشاركة، تعتبر، عند ذاك، لا مفر منها.
(أ) للانفعالات، في جميع الحالات، أساس تحريضي يُترجَم بإثارة أو قلق («نار المشاعر»).
(ب) إنها تمتلك قيمًا تكافئية (**ك. ليڤين**)، أي تجارب معيشة ذات قيمة محدّدة: مزاج سارّ أو كريه.
(ج) ترتبط بالانفعالات، أكثر الاحيان، تمثّلاتٌ تتراوح بين الانفعال البياني الشامل والانطباعات العاطفية الدائمة.
(د) إنها حالات تنشيط نفسي، تتضمن، كعمليات نفسية أخرى، ثلاث مراحل تطورية: مرحلة الانطلاق (أسباب داخلية وخارجية)، المرحلة المسطّحة (ثبات قصير المدى أو طويله)، الحل (انحسار الغليان العاطفي).
(٢) هكذا تثار أيضًا مختلف درجات الحِدَّة. بشكل عام، توصف الانفعالات الضعيفة بالإثارات أو بالأمزجة، والأقوى بالمؤثرات الوجدانية. ثمّة لذلك تقاليد لغوية مختلفة تبعًا للبلدان وللأمم.
(٣) المشاعر تنبسط (إشعاع إنفعالي) وتنحسر (إرهاق شعوري يرتبط تفعيلها (تحيينها)، كل مرة، بأصل مصدرها، ولكن يمكن أن يُركّز عليها تركيزًا نفسيًّا (تشنج الشعور) كما يمكن كبح آثارها (كبت).
(٤) الانفعالات هي الظواهر النفسية الأكثر وجدانية. لهذا يوجد في جميع اللغات مجموعة من تسميات الشعور تأبى كل منهجة. لقد اخترنا، في الصورة (فصل ١٢)، التوزيع إلى خمس فئات تبعًا للعلاقة بالمجالات الحدودية: انفعال جسدي، موقفي، اجتماعي، معرفي وتأملي. تتركز اضطرابات الشعور المرضية في أربعة مجالات: الارتكاس الفصامي (هياج مفرط، وسواس مرضي، استجابة انفعالية، فرط الانفعالية ومن بينها تدفق المؤثّرات الوجدانية)، العُصابات العاطفية (مشاركة عاطفية في الرهاب، العصاب الاستحواذي، الهستيريا والپارانويا)، اضطرابات مرضية اجتماعية (صراعات الهيمنة، الهرب أمام الصراع») والاكتئابية (انظر التعريف).

الإيحاء: الإيحاء تأثير ضاغط يسيطر على القناعة العقلية. تتمثل الطريقة الإيحائية في الحياة اليومية والتأثير بالسيطرة الموجهة في الإعلان والسياسة والعلاج بأشكال متعددة. إن أهم عشر طرق للإيحاء هي: التكرار (ترداد مستمر حتى تتلاشى مقاومة الفرد)، الفتنة (البَهر بإشعاع نفسي كتحويل الانتباه وتخدير الوعي النقدي)، أثر المفاجأة (تشوش الفكر بتدخل أحكام غير مبررة ومحددة بالتضافر)، التدرج (الإنهاك الجسدي العاطفي بالإثارة الإيحائية)، التماسك (الضغط الاجتماعي بتأثير الأكثرية)، التوقع (الإغراء بالأمل بالمستقبل واستباق هدف)، التباعد (استخدام رغبة الحذر للتملص من الارتباطات الآنية)، الترميز (الإثارة بإغراءات فوطبيعية، أي إثارات أساسية مفرطة لإطلاق حاجات أساسية)، التماهي (التماثل بما يعجب تحت شكل الالتحام بقوى مستبدة)، الإلغاء (إيحاء متباين، مثل الإفراط السفسطائي، بالافتراض الظاهر والتهكمي للرأي المقابل أو بالسخرية الباخسة للقيمة، دون التهجم على الموقف المعاكس). تزيد السيطرة، بشكلها الإيحائي الموسّع، الطابع السهل التأثّر لدى الأشخاص المعنيين قبل أن تمارَس التأثيرات الجماعية، كالتدخل، مثلًا، في تطور الفكرة وانتقاد المشاعر وتصويب الخطى وتصميم الحاجات.

التأثير: هو أشكال متعددة من الاتصال الموجَّه مع أثر اجتماعي. تتعلق قوة التأثيرات ووسائلها وتوجيهاتها بإمكانيات المشاركين وأهداف التأثير. تتراوح قوة التأثير بين الاتصال البسيط، مثل الوساوس والهيمنة الإيحائية بمعنى ممارسة ضغط روحاني أو جسدي. تمثل وسائل التأثير أيضًا تنوُّعًا كبيرًا من الطبقات: نصائح، التماسات، تملّق، تشجيع، طلبات، أوامر...
نميز، استنادًا إلى التوجيه، بين إغراءات (إيجابية) وموانع (سلبية). إن التأثيرات، معدّة، بشكل عام، لتحويل القناعات والمواقف والآراء وطرق سلوك الأفراد والجماعات والجماهير. من هنا تنتج مجالات مضمونية مختلفة للتأثير مثل، الدعاية، المشورة، الإعلان أو العلاج النفساني... يؤسس تصويب النظر لفرق جوهري بين التأثيرات. إن أفضل حجة في عملية الإقناع هي التي يجب أن تفوز باجتذاب من يتلقى التأثير فيستدمجها في سجل تفكيره وعمله. ويحول الإيحاء، وخاصة، تحت شكله المسيطر، وكقاعدة عامة، دون إمكان التعرف إلى وسائل التأثير.

التبعية: يؤدي التعاطي السيئ مع مادة من المواد إلى التبعية وهو عكس «التعاطي» الطبيعي. يمكن أن يساء استخدام» أشياء كثيرة: غذاء، منبهات، ألعاب، شغل، أملاك، علاقات جنسية، سيارة ومخدرات... المميزات الأساسية للتبعية للسموم هي الانطواء على مجال التبعية، الاستعداد لكبت أخطارها. والشعائر المتحجرة للتبعية مع استرخاء ضعيف نسبيًا، السمة المفرطة لوضع التبعية، التطوّر في زيادة الكميات والشعور بالفراغ بدون المخدرات، العلاقة الشخصية بالمخدر، فقدان السيطرة وضعف المقاومة. أخطر نوعين من التبعية هما إدمان الكحول وتعاطي المخدرات. وقد دفعا إلى وضع عدد كبير من النظريات الخاصة بالتبعية تحاول أن توضح بدايتها واستمراريتها: تصاغ في عبارات من البيولوجيا العضوية (تبعية جسدية تجاه كمية السم)، ومن الإناسة الثقافية (أخلاق تبعية المجتمع المصاب بهذه الآفات).. ومن علم النفس التفاضلي (التبعية كاضطراب تطور الشخصية)، من علم نفس الفعل (تعويض تجارب الخسارة وتفاعل مع المخدر). يتم تكون الشخصية التابعة (المستسلمة) على مراحل، وقد تظهر بعض المراحل المعزولة بشكل مختلف. يذكر **جلينيك** (١٩٦٠) حالة α (ألفا) (تبعية نفسية، تعقيدات عائلية واجتماعية)، حالة β (بيتا) (تعقيدات جسمية)، حالة γ (غاما) (ازدياد التسامح، اضطرابات أيضية، فقدان السيطرة، أعراض التقشف)، حالة δ (دلتا) (العجز عن الإقلاع عن زيادة الكمية اليومية)، حالة ϵ (إبسِلُن) (تعطّش دوري مفرط للكحول).

التحفيز السلبي: هو سلوك يهدف إلى حماية الحرية عندما تهدد أو تضطهد. تنتج قيود الحرية عن الضغط الذي يمارسه الآخرون كما تنتج عن القيود الذاتية. مثل تعزيز الالتزامات تجاه الآخر. تؤدي الحرية المهددة، من وجهة نظر عاطفية، إلى شعور بالاضطهاد، بالانزعاج وبالغضب؛ وهي، بعبارات معرفية، آثر الإمكانات التبادلية المنقوصة، وبعبارات سلوكية، إعاقة الفعل. يتجاوب الناس، كل بمفرده وبحسب موقعه، وبطرق مختلفة، مع هذه العوائق. منهم من ينسحب تحاشيًا للنتائج السلبية العاطفية والمعرفية والسلوكية، ومنهم من يتحمل (إذعان أو ضيق مكتسب) ويعكس التمثل المعرفي (الهروب من الحرية إلى الانكفاء إلى المازوشية..)، ومنهم من ينتصب في وجه التهديد (مقاومة، أو يقاوم المسؤول عن الاضطهاد بضراوة (هجوم معاكس). لا يتعلق التحفيز السلبي فقط بالصفات الشخصية، مثل حرية الاختيار المنتظرة ولكن أيضًا بقوة التهديد ومحتواه. وتسلِّم نظرية التحفيز السلبي (**ج. و. برِيم**) بأن هذه الحركة المضادة، مهما كان نوع السلوك المتخذ، تصبح أقوى بمقدار فقد الحاجة المتوقعة. وعلى عكس ذلك، تزداد الجاذبية نتيجة «ندرة» الحالة المنتظرة.

التحليل العاملي: هو طريقة إحصائية هدفها استخلاص متغيّرات أساسية (أي عوامل) تتيح أن تعزل، ضمن مجموعة من العلاقات الظواهرية، كميات افتراضية من شأنها تفسير قسم كبير من التقارب العلائقي داخل الظواهر المعنيّة. لذلك يجب أن توضع في الواجهة ثلاث خطوات متدرجة حسب أهميتها:

(١) يرتبط تقييم الجماعة بعدد المتغيرات الأساسية التي يجب اختيارها لكي تغطي، بطريقة فضلى بالنسبة إلى التباين الشامل، القسمَ الأكبر من التباين الذي تفسره العوامل المشتركة.

(٢) يسعى استخراج العوامل إلى أن يميز بين العوامل العامة وعوامل الجماعات والعوامل النوعية المتبقية لكي يكتشف عوامل تحديد أساسية تحتية لجميع القيم المعايَنة.

(٣) يتيح الحساب بطريقة الدوران نقل محاور الإحداثيات بحيث يكتشف التحليلُ العاملي، بطريقة فضلى، كتلة المتغيرات الأساسية تبعًا للإحداثيات المتعامدة.

لكل من هذه المراحل طرق خاصة. ثمة طرق قريبة من التحليل العاملي، منها: تحليل العوامل المميزة (حساب العوامل المفاضلة من أجل صياغة الفئات)، تحليل المجموعة (تحديث المجموعات الصغيرة ذات الارتباطات المتبادلة)، تحليل التّكرار الشكلي (طريقة تحليل متعددة التباين وذات توزيع غير عادي هدفها اكتشاف نماذج أو تنافرات).

التحليل النفسي: أسس **فرويد** أقدم مدارس العلاج النفسي في حقل علم نفس الأعماق. طور التحليل النفسي (١) «ما وراء علم النفس» الخاص به، (٢) ومذهبًا مطابقًا للعُصابات و(٣) شكلًا خاصًا من علم النفس.

(١) يميز نموذج شخصية التحليل النفسي بين المظهر الدينامي (نشاط القوى الاندفاعية الداخلية وخاصة النزوات الجنسية) والمظهر الاقتصادي (مبدأ اللذة والكراهية مع ميل إلى خفض التوترات) والمظهر النموذجي (اركان الشخصية: الهو، الأنا والأنا الأعلى). ويميز المنظور الوراثي بين المرحلة الشفهية (أولية المص) والشرجية (التبرز) والتناسلية (الجنسية) ومراحل أخرى فرعية. تعيِّن كل مرحلة ثوابت تستمر في الحياة اللاحقة وتولد الشخصية العصابية. تُعطى أهمية خاصة للمرحلة التناسلية المبكرة (القضيبية) مع تطورها الجنسي النوعي (الصراع الأوديبي).

(٢) العصابات هي، بالنسبة إلى التحليل النفسي، عودة المكبوت انطلاقًا من المرحلة التناسلية المبكرة، عندما لا يعود التناقض (تزامن الشعور المتناقض) تجاه الأهل محتملًا.

(٣) وأثناء المعالجة يمتنع المحلل النفساني عن التدخلات الإيحائية (يقعد وراء المريض الممدد على أريكة) وعن قبول الاستبدال («رفض المعالج»). وأثناء عمل الاستيعاب (إعداد تدريجي لإزالة مقاومة الزبون، أثناء المعالجة) تظهر نقلة (انتقال من الخبرة الوالدية إلى المعالج) تتحول إلى «عُصاب النقلة».

التشخيص النفسي: هو اختبار المميزات الفردية بالملاحظة والأقيسة والروائز. يمثِّل التشخيص القسم الأساسي من علم النفس. والروائز هي اختبارات قصيرة معايرة مطبقة على السكان وتقارن نتائجها الفردية بالقيم المتوسطة. توزع الروائز، من وجهة نظر منهجية، إلى ثلاث فئات: الاستمارات (مجموعة أسئلة تعين بعض الخصائص النفسية بتحديد متبادل للتقييمات التدريجية)، روائز كفاءة (أعمال مضبوطة ومعايرة تقاس درجة فعاليتها بمتوسط السكان)، روائز إسقاطية (اقتراح أعمال أو أسئلة تتيح حلولا شخصية تؤدي إلى خلاصات ارتجاعية عن البنية الأساسية للشخصية). ومن أجل تحسين فعالية الروائز تُجرى المعايرات في اتجاهين: الأمانة (دقة القياس أي الثبات في تكرار العملية) والصلاحية (صحة القياس أي نسبة ثابتة للخصائص النفسية المعنية). المجالات الأساسية التي تستخدم فيها الروائز هي: التحديد التفاضلي للكفاءات الأساسية؛ الروائز التقنية كما بالنسبة إلى استخدام عمال في المؤسسات؛ روائز الذكاء، مثل اختبار التوجّه؛ تقييم الشخصية، في الحقل العيادي، مثلًا، لتحديد الاضطرابات النفسية المرتبطة بالشخصية الاجمالية؛ الروائز المدرسية، في حال اضطرابات السلوك، مثلًا أو اضطرابات التعلّم. لا تستخدم الروائز بطريقة معزولة ولكن مندمجة، بفضل مجموعة من الروائز المقننة أو التي يعاد تركيبها في كل مرة، بعملية شاملة من الحكم تشكل أساليب التشخيص الأخرى جزءًا منها (تحليل السلوك، مراقبة مؤقتة للمتدرب، تحليل سيرة الحياة).

تصور العالم: مفهوم أدخله **كانط**، وكان عليه، في ذاك العصر (١٧٩٠)، تصويب «المراجعة الشخصية لنهاية العالم

المحسوس»، وهو اليوم يشمل «ما وراء المعرفة» (**ج. هـ فْلاڤِلْ**) الخاصة بجميع القناعات الشخصية والفوشخصية.
وفي بداية الخليقة كانت الأساطير والحكايات الميتولوجية والطقوس القربانية... أي إجراءات تبادل معرفية وفعلية مع القوى العليا المجهولة التي كان ينسب إليها التأثير بجميع الأحداث. وانطلاقًا من هنا ومن فلسفات تصوفية، وُلِدت الديانات المختلفة وتفرعاتها. ومع تراجع سلطة المعتقدات الدينية، حلت محلها أنظمة منهاجيّة وعقائد فلسفية وسياسية وشعبية، وجعلت من الضروري، في عصر الأنوار، وجود مفهوم جديد مهيمن، هو تصوّر العالم الذي يشمل، منذ ذلك الحين، جميع هذه الأشياء. وفي مطلع القرن العشرين، تخصصت تصورات العالم، أي أن كل فرد كوّن تصوره الخاص للعالم انطلاقًا من أساس منقول، في أكثر الأحيان، عن الأهل. يضم إليه غالبًا، جزئيًا، تصورات استقاها من جماعات أخرى مرجعية (معارضة أيضًا إلى حد ما) أو من مصادر أخرى (منها وسائل الإعلام الجماهيرية). وعرفت، منذ بعض العقود، أهمية هذه التصورات الشخصية للعالم في التطوّر الفردي، ومن هناك، الخطر الذي تمثله أراؤهم الجامدة كأداة ضغط في خدمة «الحركات» السياسية والاجتماعية. تعتمد الوظائف النفسية لتصوّرات العالم على ثلاثة مجالات منظمة من القناعات النسبية إلى العمل فالقرار.
(١) إن مهمة تصورات العالم أن تجعل انبثاق العالم غير المنظور وتنظيمه (أسباب العالم) مفهومين. وأن تخلق توجهات شخصية (عقيدة التدخّل، وتثبّت أهدافًا للتدخلات المطلوبة (تحديد العلاقات الضمنية).
(٢) إن تصورات العالم هي، بشكل عام، تجمعات من الأفكار الأساسية نميز فيها، تبعًا لبنيتها، تصورات عن القيم (قواعد ضرورية)، عن الحياة (حكم الحياة «القويمة») وعن الأخلاق (تحديد الضرورات).
(٣) توفر تصورات العالم خطوطًا توجيهية أساسية تُستنتج إنطلاقًا منها، الدواعي الخاصة، أهمها: تمثّل الواقع «الحقيقي»؛ مثالية تحقيق الذات؛ الدعم الثقافي الذي يقدّمه تمثّل نموذج جماعي؛ مطابقة المواقف الأخلاقية وأهداف السلوك مع مبدإ أسمى هو في أكثر الأحيان، الله.

التطوّر: هو تسمية عامة للعملية البيولوجية التقدمية والانكفائية لجميع الكائنات الحية (النّسالة) وللكائن الفرد (تطور الكائن الفرد). يكتسب تفسير التطوّر النفساني معنى مركزيًا لعلم النفس في عمر ما قبل الولادة وفي الطفولة وفي عمر المراهقة. تُمثّل هنا أربعُ مجموعات من النظريات.
(١) تشرح نظرياتُ النموّ التطوّرَ بطريقة «داخلية»، أي انطلاقًا من إثارات داخلية: كالنمو والتّراجع على شكل منحنى؛ كتقدم على مراحل، كتوجه على شكل لولبي نحو الهدف؛ كعرض حالات غير منظمة.
(٢) تضع نظريات القولبة الاجتماعية، في مركز اهتماماتها، فكرة تكيُّف طبِّع مع البيئة. وهي لهذا لها توجيه «خارجي».
(٣) وتعتبر نظريات الأزمة أن التطوّر تحدّده أحداثٌ دراماتيكية. تعطي الوظيفةُ الجنسيةُ في فترة المراهقة، مثلًا، دفعًا للتطور. وفيما بعد، تسبب الاستقلاليةُ الاجتماعية بدايةً جديدة للتطور.
(٤) وتنطلق النظريات الجشطلتية من تقرير المصير النشط ذاتيًا. الاهتمامات هي، هكذا، أمثلة على تحديدات التطوّر المنتقاة بحريّة. وهي، لهذا، تفسر، بطريقة ارتجاعية، التطوّر انطلاقًا من قرارات حيوية خاصة. ويميز، بشكل عام، بين تطور جسماني واجتماعي وعقلي. ليس لهذه التيارات الثلاثة، بالضرورة، تطورٌ متوازٍ؛ فقد تنحرف وتتشعّب، في حال حدوث اضطرابات نفسية، لسنوات عديدة. ونميز من الناحية التاريخية، مراحل ما قبل الولادة والطفولة الأولى ثم الطفولة والشباب (المراهَقة) والنضوج والعمر المتقدم. تنشأ اضطرابات التطوّر إما عن النضوج المتأخر أو المعاق (نقص عقلي، مثلًا)، وإما عن أمراض نمطية خاصة بمرحلة من مراحل العمر (سلس البول، فقدان الشهية للطعام، خلافات الانفصال).

التعبير: تغير في السلوك قابل للتفسير، مرتبط بانطباعية عاطفية، معرفية أو اجتماعية، ويستخدم لغايات تشخيصية بصفته ترميمًا لإعدادات داخلية متنوعة. وعندما لا تدرك البيئة، في محتواها التعبيري، بطريقة متسقة، بل تختلف من مرة إلى أخرى تبعًا لمجالات الاهتمام، يكون ثمة مراكز نقل انطباعي/ تعبيري في الأفراد كما بين الأفراد. نميز، كقاعدة عامة، بين تعبير الطبيعة والمنظر (مثل منظر بحري هادئ)، بين التعبير المُدُني، أو أيضًا التعبير التقني (مثل فن العمارة) والتعبير الجسدي الشخصي. لعب هذا الأخير دورًا هامًا، تغير في أيامنا، في علم النفس منذ أوائل نظريات التعبير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (**ليشتنبرغ، لافاتير، بيدريت، داروين**). والسبب الجوهري يعود إلى تطور نظريات التعبير غير العلمي التي كانت تدَّعي إقامة علاقات ثابتة بين الطابع التعبيري والدلالة التعبيرية. وبمقابل ذلك، لم يعرف علم النفس العلمي التعبيري سوى علاقات غامِضة (متعددة المعاني) بتغير محتواها التعبيري (غموض تأويلي) وذلك بسبب العلّيات المتراكمة (في تمثل إرادي، مثلًا). من هنا كانت نظريات التعبير الأكثر قيمة «اثنينيّة» أي إنها تفسر التعبير بأنه «تفريغ» (رد فعلي جسدي يصحب ظاهرة نفسية) وبأنه «تطابق» (علاقة تبادل نفسي اجتماعي ذات وظيفة تمثيلية).
بعد هذا التحفظ، في أكثر من نموذج تعبيري مختلف (إيمائي، وضع الجسم، إشاري...)، تسهم وظائف تعبيرية مختلفة في إدراك الأشخاص: تعبير ارتكاسي (يطلقه موقف ما، مثل ضحك من شخص آخر)، تعبير رمزي (تسريحة شعر، تبرج...)، تعبير عادي (مثل تغضنات الوجه عند الغضب)، تعبير نباتي (مثل الاحمرار)، تعبير كلامي/ غير كلامي (وسائل النطق ومكملات محرِّكة للنطق)، تعبير قصدي (ممثلون، آثار) وتعبير اصطلاحي (سلوك اجتماعي).

التفاعل: علاقة متبادلة بين فرد وآخر (شبيه، كائن حي، شيء، موضوع، بيئة).
تتيح فكرة التفاعل إزالة التفسير الخاطئ للشخصية «ككائن فرد» وصياغة علاقة اجتماعية تشكل جزءًا مكمِّلًا لكل شخص.. إن تحديدات التفاعل غامضة بسبب هذا الإطار التصوري العريض. وإن ما دعي فاعلية متبادلة (**كولاي** وآخرون) يقيِّم، بشكل أقوى، في العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة، المميّزات التي تحدّد الشخصية.
وفي الموضع المقابل (**ميشيل**) يُحطّ من شأن دلالة المميزات الشخصية الفوزمنية بالنسبة إلى الأعمال السلوكية الخاصة بالمواقع.
ترتكز إشكالية تحديد متغيرات التفاعل على تنوع مجالات المميزات الملائمة. يقابلُ الفردَ (أ) مجالات خصائصه المتعددة الطبقات (صفات فردية، حالات مؤقتة، تقييمات قصدية ولا واعية)، يقابله الآخرُ (ب) مع تسلسل أكبر من المزايا الشخصية والموضوعية. وكلاهما (أ وب) محاطٌ بعلاقة تبادل تشرف عليهما (ج). هذه العلاقة التبادلية، من جهتها، يحدِّدها الموقع (خصائص البيئة الزمانية - المكانية، ومحتويات الاتصال (انظر التحديد) والمتطلبات والنتائج وانتقال التركيز بين المشاركين (وظائف «تصالحية»، أي متبادلة متولدة من ناحية ومن أخرى).
لذلك تعني اضطراباتُ التفاعل العلاقاتِ مع الذات (شخصية منفصمة) والأشياء (الاهتمام بالأشياء المملوكة)، مع أناس آخرين (اضطرابات علائقية) وجماعات ووسائل إعلام... من نقاط البحث الأساسية في التفاعل: الانتفاضة على كبت الحرية (**بْريم**) والضيق (تفشل التفاعلات وتحول دون جهوزية التفاعل (**سليغمان**).

التفعيل: هو مفهوم يشمل عددًا كبيرًا من إثارات السلوك تتراوح بين الإثارة العصبية والحث المعرفي. وكون التفعيل إثارة عصبية، فهو ينتج عن إزالة التزامنية (زيادة الترددات وانخفاض الاتساع) وإيقاعات التخطيط الكهربائي للدماغ. وبعض المعادِلات الفيزيولوجية الأخرى هي زيادة إيقاع القلب، وتعديل المقاومة الكهربائية في الجلد...
يواجه علم نفس التفعيل الأحدث مجالاتٍ أخرى من العلاقة النشطة بالبيئة: الانتباه كملاحظة غايتها الموضوعات المختارة، الجهد كمشاركة عاطفية في موضوع الانتباه، التكيف لتعوُّد المعطيات البيئية الشديدة الإثارة، الإرادة كمقياس فعال لفرض قرارات هادفة (المصير).
ويستطيع الوعي، تبعًا لدرجة التفعيل، أن يتكيّف تدريجيًا، لكن في حالة الإثارة المفرطة، كقاعدة عامة، يظهر اضطراب في الوعي، عندما لا يركِّز على مجالات انتباه ضيقة (ثبات).
تنشأ بعض الأشكال الخاصة من التفعيل من الوضع الاجتماعي: الحث الاجتماعي، الاصطدامات بالآخر، وتفعيل ارتكاسي أيضًا في حال التهديد بالخضوع. تقوم الأفعال القصدية (**ف. برنتانو**) على الاستعداد المعرفي، ليس فقط لتحمُّل أحداث أو للتفاعل معها، بل للاستنتاج منها إعدادًا روحيًا (إحيائيًا = الرجوع إلى قوى مجهولة، غائيًا = اكتشاف هدف، منظمًا = تنسيق في النظم المعرفية).
تتعلّق اضطرابات التفعيل، أساسًا، بأشكال من التفعيل ضعيفة جدًا (عاجزة)، قوية جدًا (مفرطة) أو سيئة التوجيه (تعاني الخلل).
ترتكز نظريات التفعيل، أكثر ما ترتكز، على قوة التحريض الفيزيولوجي، على إطلاق سلوكي (مثيرات)، على تهيج هرموني (مفاهيم الانجذاب)، على إعداد معرفي (تفسير والتزام) وعلى الإثارات الاجتماعية (منها الآثار المتبادلة بين الشركاء) وذلك لتفسير تفعيل الحالة النفسية.

التنشئة الاجتماعية: هي عملية دمج واندماج الإنسان، على مدى حياته، بجماعات وخلق علاقات اجتماعية تتلاءم معه. تقوم التنشئة الاجتماعية، بالنتيجة، على تقبل شروط (مثل الاهتمام بالرضيع والتدرب على النظافة) كما تقوم أيضًا على تكوين متطلبات اجتماعية (مثل البحث عن صداقات وتوجيه الاهتمامات). يمكن تفريع «الصيغة الاجتماعية» الشخصية إلى مجالات خاصة.
(١) فيما يخص التوقع المستقبلي للمرتبة والموقع في السلم الاجتماعي فإنه يحدد منذ الطفولة بالتجارب والعادات والانجذاب إلى المرتبة (هيمنة الأهل على الأولاد، المرتبة بين الأخوة). وفي المراحل اللاحقة من الحياة تتبدّل، إلى حدٍّ ما، هذه المطامح التي تتعلق بالمرتبة الاجتماعية.
(٢) والأمر نفسه ينسحب على التنشئة الاجتماعية بالنسبة إلى الأدوار. يضاف أيضًا إلى التجارب الأولى مرحلة الدور الاجتماعية (مثل طفل الحضانة، طفل المدرسة...) وعادات الدور (العادات العائلية، عادات الشارع، العادات المتأخرة الخاصة بكيفية التصرف في بلاد أجنبية).
(٣) تخصّ تنشئةُ المعاطاة المباشرة العاداتِ الكثيرةَ التي تمس السلوك الاجتماعي، مثل الاكتساب الثقافي الاجتماعي للغة الجسم (حيوية سكان الجنوب بالنسبة إلى تصلب سكان الشمال).
(٤) والخطوة الأهم في التنشئة الاجتماعية هي ضبط السلوك. يخضع الإنسان لسلسلة من القواعد غير مدوَّنة وغالبًا غير معروفة، وهي، فضلًا عن ذلك، مقننة (فيما يخص السلوك والرقابة الذاتية وتحديد الأهداف وقوانين الدولة...) ويحترمها إلى حد ما: مثل الانتهاك المتستر للقوانين واحترامها الضمني في حال مخالفتها الفعلية، حتى استدخال قوانين مطلوبة، على المستوى العقائدي، في المنزل وفي الخارج، تحت عنوان «قواعد ضميرية».
وخلاصة القول، أن عملية التنشئة الاجتماعية هي تكيّف مسلكي في غاية التعقيد تفسر بعبارات نظرية بأنها مبررة بقوى اندفاعية داخلية (بالنسبة إلى علم نفس الأعماق) او بظروف خارجية (بالنسبة إلى السلوك).

التنظيم: التنظيم، بشكل عام، هو تنسيق للنظم الفرعية، وهو، من وجهة نظر العلاقات الإنسانية، بنوع أخص، نظام جماعي يتضمن توزيعًا للنشاطات تبعًا لصلاتها المتبادلة (أ) ولتراتب الكفاءات (ب). وتتولد في نظم كهذه «قوى» فوق فردية (نزعات السلوك) تحدد مَعًا، وبشكل قوي، المشاركين الإفراديين.
(أ) يخضع توزيع النشاطات لنظام الأدوار المعمول به (أية مهمة يتوجب على الفرد، بعد توافق أو بعد التزام شخصي، أن ينفذها).
(ب) ويخضع تراتب الكفاءات لسلّم الرتب الرائج (الذي عليه أن يحدد الأشياء).
بيد أن النزعات الداخلية لا تخضع فقط للتحديدات العقلانية (عمل مشترك، انسجام مع الجماعة، اتفاق حول الأهداف) وبل أيضًا لطاقات لاعقلانية (سعي إلى المجد، حسد، تمويه القصور أو الكسل...). إن النزعات السلبية في التنظيمات هي في أصل الاحتكاكات التي تحدّمن أداء الجماعة. والنزعات الإيجابية تنشّط الأداء الجماعي وتجعله فوق مجموع الأداءات الفردية لجميع أعضاء الفريق. وإن معرفة ما إذا كان تنظيم ما يوفر فائضًا من الأداءات الإيجابية المتأتية عن الجماعة وكيف يمكن للأداءات الإيجابية، عند الحاجة، أن تُحَرَّك، تلك هي مهمة عالم نفس التنظيم. فالوسائل التي يستخدمها لذلك هي: تحليل الأداءات الجماعية، تعديل بنية الجماعة، تكيف التنظيم مع مهمة خاصة، زيادة إثارات الجماعة، تقنيات التصميم الشبكي، تحسين شروط الأداء، إعلام ارتجاعي متدرج للنجاحات، نظام المكافآت، مهمات المراقبة، اتصلات إضافية لتلاحم الجماعة.

التنويم المغنطيسي: حالة اصطناعية شبيهة بالنوم، ولكن النائم يظل يحتفظ فيها بعلاقة اتصال بمنومه. تُميَّز ثلاث مراحل تبعًا لعمق التنويم: النعاس (حالة خفيفة من السبات أو شبه التنويم)، فقد الإحساس جزئيًا أو كليًا تجاه الإثارات الخارجية والروبصة (وهي حالة من الانخطاف الكلي يفقد فيها النائم الذكريات السابقة). تحاول نظريات كثيرة أن تشرح هذه الظاهرة المعروفة منذ القِدَم (من ذلك نظريات النوم والإيحاء الذاتي، المفاعيل الرجعية المعرفية).
يتم التنويمُ المغنطيسي بطرق مختلفة: بالتنويم العفوي (الافتتان، المغنطة)، التنويم الحسي (بالتركيز)، بالإيحاء الكلامي (بالتهدئة المسببة للنوم). يستخدم التنويم المغنطيسي في علم النفس العيادي للاسترخاء (التنويم التطهيري)، للقضاء على أنواع من السلوك السيء، مثل الإدمان على الكحول (تنويم النفور والاستقالة)، لتكوين التصرفات المستحبة مثل الثقة بالنفس (تنويم الشرط أو الاستئصال) ولإعداد السلوك المستقبلي (التنويم الوقائي). ومن الأشكال المعتبرة نادرة هي: التنويم النشط (بمشاركة المنوَّم)، التنويم الذاتي (يقوم به المنوَّم بنفسه)، التنويم الجماعي (عدة زبن منوَّمين معًا).

التواضع: التواضع (بمعناه السلبي = التصاغر) هو مفهوم يشمل الشكلين الأساسيين لفقدان الثقة الشخصية: أزمة في إعداد الذات وحرمان اجتماعي. وبما أن هذين النموذجين من الاضطرابات يؤثّر أحدهما بالآخر فلا نستطيع أن نفصلهما إلى نماذج من الاضطرابات المعزولة. إن هذه المجموعات الأربع من الاضطرابات تنطبق على كليهما:
(١) تُعالج إشكالية الهوية بشكل مختلف تبعًا لمدارس علم النفس العديدة (مثل النزعة إلى التفعيل الذاتي، هوية الأنا، إنشاء بنية الشخصية وبنية معرفية وعلاقة معرفية بين الذات والموضوع ومفهوم الذات). وإذا فقد الإنسان هذا الهدف (أصبح غريبًا عن نفسه) فلا يستطيع، كما يقول **نوفاليس**، أن «يعيش زواجًا من نفسه حرًا».
(٢) تتولد اضطرابات ثبات الذات (أي استمرارية صورة الذات) عندما تعترض الإنسان ظروفٌ (كأن يكون رهينة في السجن أو في بيئة غريبة) لا يستطيع أن يعيش فيها منسجمًا مع شخصيته.
(٣) تظهر اضطرابات المفهوم الاجتماعي، أي صعوبات في التوقع الخاص بالنسبة إلى موضع الإنسان في البيئة، عندما يُصنَّف الفرد، من كل جانب، في فئات تبدأ من تلاقي توقعاته (إشكالية القيمة الخاصة) أو أيضًا عندما يحط بنفسه من قيمة نفسه باستمرار (شعور بالدونية) أو يدين نفسه.
(٤) يمثّل التصميم الفردي منعطفًا موجِّهًا نحو مفهوم الذات والمفهوم الاجتماعي. وبهذا التصميم الفردي يمكن إنجاز التصميم الشخصي للحياة. وقد تعترضه حواجز مصدرها الفرد أو هي من نمط علائقي: كما في إشكالية الإنفصال عن الأهل، وصعوبات التنشئة والمنافسات المهنية أو فقدان الثقة الشخصية وفقدان الأمل والخوف من المستقبل.

الثقافة: هي مجموعة من مظاهر الإبداع والعمل الإنسانيين. ويحدث أن تُفْصل وظيفتها، الأكثر تقنية ونفعيّة، عن تنسيق ظروف الحياة التي هي «الحضارة». وعند ذاك لا تعني «الثقافة» سوى هذا القسم الذي يسهم في إغناء روحي وفي تسهيل نهج الحياة (تهذيب فني وعقائدي). وكثيرًا ما يكون، وراء تصور كهذا، فرضية أن الإنسان يخرج من حالة طبيعة أصلية «فظة» ليتوق إلى أداء ثقافي ذاتي يزداد تعقيدًا شيئًا فشيئًا (حافز الرخاء). يدقق علم نفس الثقافة في الدوافع النوعية أو في غيابها؛ فتكون المجالات المضمونية الأساسية عندئذٍ هي علم نفس الفن والعلم والعقائد كما هي مجالات علم النفس الاجتماعي التي تهتم بالأخلاق والعادات والتربية وبتهذيب الطبيعة والذوق وبالأشكال الاجتماعية...
والعلاقات الثقافية عند الإنسان هي أيضًا قابلة للتأثر (التجربة المعيشة والطاقة على التمتع بالظواهر الأنبل) كما هي منتجة (إبداع خاص وصون النتاجات الثقافية). يتنوع تقويم الوظائف الثقافية بتنوع المكان والزمان والجماعات والأشخاص. وعلم النفس ذاته يقلل من أهمية عمل الثقافة في التوازن النفسي الإنساني. ومنذ أن تكاثرت توجهات علاجية ثقافية مختلفة (مثل المعالجة بالفن، بالموسيقى...) حينذاك فقط اتخذ تقييمها منحى جديدًا.

الجشطلت (أو الشكل): مفهوم وضعه **ش. فون إهرنْفِلز** (١٨٩٠)، وهو يصف الميزة النوعية لوحدات من العلاقات تمثل أكثر من مجموعها. تأتي في المقدمة أربع خصائص أساسية لأشكال مُدْرِكة: رسوخ الشكل (تقدُّمه على عوامل أخرى للجشطلت)، الإضافية المفرطة (شكل أساسي أكثر دلالة من مجموع العناصر التكوينية)، قابلية التغيير (سمة تنقل من شكل يستخدم كنموذج) وإطار مرجعي (مثير إرساء يتصل بتصور مجموع الجشطلت).
تتناول أبحاث علم نفس الشكل، بشكل أساسي، العوامل الحاسمة في بروز علاقات تنظيمية في مجالات الإدراك والذاكرة والفكر والتعلّم والفعل. إن أهم العوامل هي: الشكل الناجح (مثل تشكيل الجماعات)، الوحدة، التشابه، التجاور، المنحنى الجيّد، التناظر، الانعكاس، الصلابة والحركة الدائمة. استنبط **هـ هيلسون** (١٩٣٣) أكثر من ١٠٠ عامل آخر للجشطلت. تنعكس نظرية الشكل، بطريقة موفقة على فروع عديدة (الفيزيولوجيا، البيولوجيا، التربية...).

الحاجة: الحاجة مفهوم ينتمي إلى علم نفس الحفز وهي تستخدم جزئيًا كمرادف لمنحدر إدراكي لمفهوم الدافع (دون منحدره الفعلي = النزوع) وتصف حالة حياتية تُعتَبر غير مُرْضِية وتسعى إلى أن تكون كذلك. وتحدَّد تبعًا لنظريات الحفز التي هي في أساسها.
(١) يتماهى مفهوم الحاجة، في التحليل النفسي، مع النزوات الليبيدوية، التي تعتبر أساسًا لجميع الحاجات.
(٢) وفي نظريات أخرى من نظريات النزوات أو الغرائز الموجهة للجسم، تكتمل الجنسية والعدوانية «بنزوات» إضافية (غريزة التغذية وغريزة المحافظة على الذات...)؛ نميز عن هذه الحاجات المعتبرة «أولية» حاجات «ثانوية» (صحة، مصلحة...) كحاجات فرعية.
(٣) تشير نظريات من نوع علم النفس الاجتماعي (خلافًا «للقصدية الداخلية» للنزوات)، إلى الحث الاجتماعي للحاجات، من قبل العائلة والجماعة والمجتمع. وبمقابل ذلك يذكر **ماسلو** (١٩٧٠)، إلى جانب الحاجات السابقة المعتبرة «ناقصة»، حاجات «وفيرة» («دوافع نافلة») تظهر (مؤجّلة) فقط زيادة على إرضاء الحاجات الناقصة. ويذكر من هذه الحاجات حاجة تحقيق الذات.
(٤) وفي أحدث نظرية معرفية (**فِسْتِنْغِر**، ١٩٥٧؛ **نايسر** ١٩٦٧؛ **برلين** ١٩٧٣)، تتقدّم كحاجات، النزعاتُ إلى توفيق التنافرات المعرفية، وتحقيق حاجة إلى التفسير كامنة («حاجة الإنسان كباحث») ودوافع المراقبة وشهوة الحس.
وثمة، فضلًا عن ذلك، تصورات مختلفة تُعنى ببنية الحاجات. وبإزاء الفرضية البنيوية للتركيب الفسيفسائي للحاجات، وقوامها مفردات تشكل نظامًا إفراديًا للحاجات، ثمة مجموعة من التصورات الكلانية تجعل من الحاجات أجزاء تابعة، مميزة من تنظيم إفرادي ومسبق للحاجات (**هول** ١٩٥٢).

الحرمان: يستخدم هذا المفهوم، في علم النفس العيادي، لتحديد أحد الأسباب الهامة للاضطرابات النفسية. يفترض، انطلاقًا من هنا، وجود آلية تعمل على أن تؤدي الاهتماماتُ والحوافزُ غير الكافية للبيئة إلى تطور نفسي مشوّه لا يمكن إعادة التوازن إليه فيما بعد. ويقابل ذلك اختبارات تحريض ذاتي تمنع استقرار حالة انعدام نفسي. لهذا لا يزال المفهوم النظري للحرمان غامضًا إلى حدٍّ ما. ولا تؤدي جميع أشكال الحرمان الاجتماعي إلى اضطرابات نفسية. ولكن مجموعة من أوضاع الحرمان تصبح خطرة: فقدان الأم، العزلة، داء المستشفيات، خسارة رفيق، بطالة، إرتهان شخصي، الحرمان من حاجات أساسية، فقدان الخلفية الثقافية، انحطاط الوضع الاجتماعي، الإساءة إلى البيئة والتكيّف مع الحياة الاجتماعية، الاعتزال بسبب التقدم في السن...

الحفز: الحفز أو الدافعية صفة تشمل جميع العمليات التي تمثِّل حثًا للنفس، وبإمكانه أن يؤدي إلى هدف ممكن ويفسّر مختلف الأعمال البشرية. يتكوّن الحفز من أسباب معزولة أو من مجموعة أسباب أو أيضًا من عمليات شاملة مثل المواقف.
إن أبعاد الحفز المتعددة الطبقات (الاستهلاك، توجيه النشاط وتنظيمه، مستوى الفعالية، اختيار الكيفيات، إسقاط الهدف، تركيز الإثارة، وعي ارتجاعي للنتيجة، أثر المقاومة المزدوج، مقارنة اجتماعية ٨/١٣) تجعل الإعدادات النظرية النزاعية أمرًا لا مفر منه. المجموعات النظرية المهيمنة هي نماذج فعّالة (دوافع معتَبَرة «عملية عصبية»)، سلوكية (الدوافع مشكوك في أمرها، أو يحل محلها مفهوم الإثارة كعامل إطلاق)، اندفاعية غريزية (الدوافع هي قوى اندفاعية)، معرفية (تحدَّد الدوافع بالرقابة الذاتية الناتجة عن تفسيراتٍ وعن قرارات الالتزام) ونماذج اجتماعية (الدوافع هي إثارات تبدَّل بالتفاعل). يُميّز، استنادًا إلى المحتوى، دوافع أو بواعث الاندفاع، الإثارة، العمل، دوافع اجتماعية، دوافع الوفرة والرقابة. أربع مجموعات علومية تفسر العلاقات بين الدافع والسلوك: علاقات ثابتة (الدافع والسلوك ثابتان لدى الجميع أو فقط لدى الأفراد، أي مستقران ومرتبطان بطريقة لا لبس فيها)، كيفيَّان (لا يرتبط الدافع والسلوك إلا بتكرار إحصائي، يتغير الدافع والسلوك مستقر أو بالعكس)، عرضيان (العلاقة بين السلوك والدافع صدفوية، لذا تكون الدوافع مجرد «أعذار» بسيطة). وبالرغم من هذه الإعدادات النظرية المتنوعة، يؤدي البحث العملي في الحافز إلى نتائج مسهبة جدًا، حول السلوك الإنساني.

الحُلْم: يعتمد البحث في الحلم على نظرية النوم ويحاول توضيح محتوى تجربة الحلم بربطها بأسبابها. يحدث المعيش الحلمي، استنادًا إلى تجارب اليقظة، بنسبة ٨٠ إلى ٧٪ (وما تبقى غير مبتوت به) على مدى مراحل حركة العين السريعة خلال خمس مراحل من النوم تقريبًا). من المعقول أن تكون الأحلام في مرحلة «حركة العين السريعة»، أكثر تلاحمًا وتنظيمًا من أحلام مرحلة «عدم حركة العين السريعة»، الأكثر ندرة. إن المشكلة الكبرى في البحث في الحلم هي وظيفة الحلم. يستدعي

البحث النفسي الفيزيولوجي في الحلم الإخماد الدوري، غير الشامل، للجهاز العصبي غير النوعي؛ وتستطيع «إشراقات» صدفوية لهذه الحقول الخلوية أن تؤدي إلى انطباعات نفسية دون وعي تام. وعلى عكس ذلك، تفسر الأحلام، في علم نفس الأعماق، كما لو كانت إجراءات نشطة للأوعي من أجل إعداد حالات لم تتلاشَ تمامًا من اليوم السابق أو من مراحل قديمة من الحياة. يعتبر الحلم، في علم النفس، ظهورًا مرمَّزًا لأفكار كامنة (خفية) يمكن حل رموزها بواسطة تفسير الحلم. يحدث الترميز بالتكاثف (بالانكماش نحو ميزة أساسية)، بالنقل (إسناد خاطئ)، بالتحويل والقلب (مثل تحويل الأشياء إلى أشخاص)، بالانفلاق (انشطار الشكل الحلمي)، بالتحديد المضاعف (عدة أشخاص في واحد)، بالتشويه (أشياء رمزية). تعتبر العلاقة بين محتوى الحلم ودلالته ثابتة أحيانًا، ولكن أكثر الباحثين يعتبرونها متقلبة وفردية وكذلك يعتبرون دلالته المصوَّرة صدفوية إلى حدٍّ ما ويصبح من المشكوك فيه ربط الأحلام بلحظات ضيق نفسي تعتبر سببًا لها.

الحمل: الحمل أو الإسناد هو تدقيق نظري في عمليات الاتهام الخاصة لكل إنسان والتي من شأنها أن تؤسس، سببيًا، علاقات معيشة أو متوقعة. يمر الولد بمرحلة الأسئلة «ماذا» (أو «من» و«كيف») تعقبها أسئلة «لماذا» حيث تستيقظ الحاجة إلى معرفة الأسباب، بل نسبة (إسناد) المسؤولية. ويبدأ، عند البالغ، هذا المسلك الباحث عن السبب، من الافتراضات اللاعقلانية أو اللاتأملية، حتى العقدة (مجموعة معقدة من العناصر المجردة) السببيّة المعاد تكوينها بدقة. وتجري أكثر الإسنادات السببية اليومية على قاعدة إعلام محدود ناشئ عن إسناد غير تأملي نسبيًا. نميز (بالرغم من حالات انتقالية)، استنادًا إلى سياق تأريخي للنتائج، بين إسناد سببي (نسبة شروط مسبقة مبررة) وإسناد متزامن (وصف وأسس الحالات والمواقع المؤقتة) وإسناد نهائي (أساس توقعات مفترضة). ونميز، على صعيد المحتوى، بين عوامل التحديد الخارجية والداخلية والمتعذِّرة ملاحظتها. وإن إسناد سياقات وقائعية هو تابع كما هو مولّد لتصورات العالم لانه يدخل في سياق أرحب من التفسير الإيديولوجي للعالم.

(الحياة) الجنسية: يتكيف السلوك الجنسي مع مستويات كثيرة ذات اعتبار نظري:

(١) أوجه جسمية: وظائف الجهاز الجنسي.

(٢) وظيفية: فيزيولوجيا الإثارة الجنسية والإنجاب...

(٣) نفسية: الخيار الجنسي، التجربة الجنسية، العادات الجنسية، الأهداف الفردية (ارضاء، رغبات طفلية...)

(٤) أوجه تهمّ دينامية الجماعة: تجربة الشريك، تفهم الأدوار الجنسية، معيارية السلوك الجنسي، موقع الجنسية في الحياة المشتركة...

(٥) اجتماعية: إعلام جنسي، تربية جنسية، تخطيط عائلي، رغبات جنسية، جاذبية جنسية...

(٦) عقائدية: خلقية جنسية، تحرر جنسي، ظواهر شهوانية جنسية على الطريقة الرائجة.

(٧) جماعية: تشريع خاص بالجنسية، كبت وتنمية الجنسية، تأثير غير مباشر على الجنسية يمارسه مستوى السكن وتنظيم أوقات الفراغ والإعلان...

وفيما يخص العلاقة الجنسية، نميز ثلاث مراحل أساسية:

(أ) يُعِدّ السلوك التمهيدي للعلاقة الجنسية (الجماع) بإثارة ردود فعل معقدة في الفيزيولوجيا الجنسية، يمهّد للتطور المتوازي في الإثارة عند الرجل والمرأة ويرقى بالعلاقة الجنسية إلى مصاف الاتصال الإنساني.

(ب) تتألف العلاقة الجنسية بمعناها الصحيح (ايلاج القضيب) من مرحلة التهيج المتصاعد (تشنج عضلي، تصلب الثديين، تزايد ضغط الدم، العرَق...) ومرحلة النشوة (القذف، ارتعاش المهبل، خفقان القلب فورة الحرارة في الحوض، حالة قصوى من التوتر مع نقص في الوعي).

(ج) السلوك النهائي تجربة استرخاء تجري مختلفة عند الرجل عما هي عند المرأة وتصبح هكذا مناسبة لاضطرابات الاتصال.

ترتكز الإشكالية الخاصة بعلم نفس الجنسية، قبل كل شيء، على جهل المعلومات المتعلقة بمختلف أوجه السلوك الجنسي الخاص بالإشباع والحرمان الفرديين والفروق الوظيفية العديدة واضطرابات التفاعل النفسي وتأثير الظروف الاجتماعية.

الدلالة: هي مقولة «ذاتية» للكائن إلى جانب المقولات «الموضوعية» التي هي المكان والزمان والعلاقة والكيفية. وبما أن الدلالة هي ضمير التعبير، فإنها تتعلّق بمزايا الفهم المطابق للمعنى. يفسِّر هذا الفهم، طبقًا لمثلث الرموز والدلالات عند **أوغدن وريتشارد** (١٩٢٣) بكونه وظيفة قائمة بين العلامات الدلالية (الكلمة، مثلًا) والمحتوى المعين (الموضوع) وامتداد الخصائص (الحجم، الشكل، المرتبة، الصفة، الصلاحية...؛ أي «الدلالة» بالمعنى الحصري). وإن امتداد الخصائص هذا هو الذي يستعيد عالَم الدلالة النفسي الحقيقي والمعيش ويُقسم، تبعًا للاهتمامات، إلى مجالات دلالية كثيرة. وتشكل جزءًا منها، خاصة، التقييمات الدلالية تجاه أنا الشخص (مفهوم الذات) وإدراك موقع الشخص في العالم (مفهوم اجتماعي). ترتبط هذه الدلالات الخاصة بالفرد بدلالات تصورية عامة تخص جماعات بشرية معزولة أو حلقات فسيحة من السكان. وهي تمثل الجدول التصوري المعروف (العاطفي، المعرفي، الإيديولوجي) لدلالات مجتمع ما. ومن المناسب أن نميز منها الدلالة المفهومية التي تعتمد على النزعات (التعليلية) إلى تحقيق دلالات.

دينامية الجماعة: إن أحد الأقسام الفرعية في علم النفس الاجتماعي الخاص بالجماعات الذي أسسه **ك. ليڤين** (١٩٣٦)، والذي يهتم «بالقوى» الدينامية في الجماعات، يصف هذه القوى ويؤثر فيها. ثلاثة مجالات، في تحليل الجماعات تؤخذ في عين

الاعتبار: التجمعات (حجم الجماعات، الأمكنة، النفاذية...)، حوافز الجماعة (روح الجماعة، أنماط العلاقات، أهداف مشتركة...).

يتم توصيف المظاهر التطوّرية لدى الجماعات في أربعة أنساق: النسق التراتبي (نسق الرتب العليا والدنيا)، نسق الأدوار (نظام وظائف الجماعة، مثل التعاون المتبادل)، نسق الاتصال المباشر (نوعية العلاقات المبتغاة أو المرتقبة بين أعضاء الجماعات والعلاقات الخارجية)، نسق الضوابط (قواعد سلوكية غير مدوّنة وغير انعكاسية).

لا تستخدم دينامية الجماعة فقط لتحليل الجماعات (روح الجماعة)، بل أيضًا لتحسين الصياغة المشتركة لأداءات الجماعة.

الذات: الذات نظام توضيع فردي. عرَف نمط «توضيع» الأنا توصيفات نظرية متعددة. يطغى الإجماع، بشكل إجمالي، على واقع أن الطفل هو، بعد، «وحدة ذات – موضوع غير مميزة» لا تنقسم إلا قليلًا فقليلًا إلى «ذات وإلى «آخر» (بيئة). يعرف الإنسان انكفاءات جزئية في هذا السياق الانشطاري في حالة اليقظة القصيرة المدى وجزئيًا أيضًا في تجربة الحلم وفي حالات النشوة. ومن ناحية أخرى فإن التطوّر المنفصل لذاتٍ ما (التفردية) هو سياق تدريجي وليس مقفلا، ويمكن وصف حالة بلوغه بطرق متنوعة (منها التأثير الديني أو العقائدي، مثل فقدان الرغبة، التوحّد بالله، النضج الشخصي). والمشكلة الأساسية هي مسألة معرفة ما إذا كانت الذات تكشف عن معطيات ملازمة للشخص وأن اقتراب الإنسان منها يكون بتطور الذات (التفعيل الذاتي) أو إذا كانت الذات نتيجة أحداث تصادفها مدى الحياة (مفهوم أحداث الحياة). وبمعزل عن هذا السؤال، تتعلق أهم موضوعات الدرس بالمراحل المتوسطة العديدة وبالطبقات الكثيرة لتطور الذات: ولادة الثقة بالنفس، الشعور بالقيمة الذاتية، صورة الذات، الصورة المثالية، الغنى الداخلي (القوى الكامنة في الإنسان). وتلعب مشكلة اكتشاف الذات دورًا عظيمًا في علم النفس العيادي (فقدان معرفة الذات، زوال تماسك الشخصيّة، صعوبات التصميم الفردي، أزمات الهوية، قصور شخصي)، لأن واقع أن يصبح الإنسان غريبًا عن ذاته يمكن أن يكون سببًا لاضطرابات نفسية عديدة.

الذاكرة: يجب ألّا يُفهم ذلك سياقًا نفسيًا توحيديًا بل تنوع من الظواهر الذاكرية. ففي المجال العصبي منظّمات توقيف من النوع الضبطي (السيبرناتي) تمنح مدى قصيرًا لرد الفعل الآني (ذاكرة أصلية). وكان من الضروري، بسبب هذا التنوع في وظائف الذاكرة، تحديد مفهوم الذاكرة بشكل أكثر تمايزًا. وهذا ما حدث في اتجاهين بشكل أخص.

(١) نميز، استنادًا إلى وظائف الفوق زمانية، التثبيت (الترميز). الحفظ (الاحتفاظ)، التذكّر (الاستحضار). فالتثبيت هو على صلة بالمادة المحفوظة وبطريقة تخزينها. والحفظ يحدد مدة الاحتفاظ بالذكريات وبمحتويات المعرفة. والتذكّر يتعلق بالطريقة التي تكون فيها المحفوظات جاهزة لتؤها.

(٢) نميز، تبعًا للتنظيم الوظيفي، بين ثلاث فئات من النظريات. نظريات المصفاة وتنطلق من وجهة نظر الخيار إلى وسط كثرة دفق الإثارات، نظريات التداعي وتعتمد على قوانين تلاقي الإثارات (التشابه، التضاد، التجاور المكاني والزماني، الصلات بين المحتويات...)، نظريات المراحل هي اليوم النظريات التي تلاقي التأييد الأوفر. تؤكد نظرية المراحل الثلاث أننا نملك ذاكرة قصيرة المدى جدًّا (خزين صوري يدوم في حدود الثانية)، ذاكرة قصيرة المدى (خزين يجمع سبعة عناصر يدوم حتى ١٥ ثانية) وذاكرة طويلة المدى (دائمة وذات طاقة تخزين غير محدودة). تتشعب قدرات الذاكرة تشعبًا عظيمًا تبعًا للأفراد، ويمكن تحسينها بسهولة بواسطة طرق تدريبية.

تعود اضطرابات الذاكرة إلى اضطرابات فيزيولوجية (كالتعب مثلًا) وإلى تأثيرات موقعية (مثل كثرة الأحداث) وإلى اضطرابات عصبية (مثل الكبت).

الذكاء: هو «القدرة على اكتساب قدرات» متعددة الطبقات وهو يتيح سيطرة أفضل على المهمات المدرسية والمهنية المرتبطة بالوجودبشكل عام. للبحث النفسي في الذكاء مهمتان: (أ) الوصف البنيوي و(ب) الوصف العاملي للذكاء.

(أ) في بداية الأبحاث المتعلقة بالذكاء (**سپيرمان**، **بينيه**، **تيرمان**) كان الاهتمام منصبًا على توضيح مختلف مقومات الذكاء وعلاقتها البنيوية. وضع **غيلفورد** نموذجًا مكانيًا للذكاء من ثلاثة أبعاد ويشتمل على ١٢٠ أداء متميزًا للذكاء. يحتوي الذكاء، استنادًا إلى نموذج – مخطط شامل وضعه مايلي، صفات أصلية ممثلة، تبعًا لجانبية الذكاء، بثماني نقاط.

(ب) ترتكز أوصاف الذكاء العالمية على تحاليل عاملية للتصرفات الذكية. واجه **سپيرمان** عوامل نوعية عديدة بعامل عام للذكاء عالي التنظيم عليه أن يصف الطاقة الذهنية عامة، عوامل من شأنها أن تحدد أداء الذكاء الفردي. هذه العوامل هي، مع عوامل أخرى، القدرة الكلامية، صياغة المفهوم، الموهبة التقنية والعملية، طاقة التمثيل المكاني، الذاكرة، تحديد الأشكال، الثبات في الأداء، المهارة اليدوية، هي شروط ثابتة مسبقة لأداءات فردية ذكية.

وبمقابل ذلك، يزكّي البحث الحديث (**شتيرنبرغ**) واقع أن الأداء الذكي يخضع لعلاقة تبادل بين متطلبات أو شروط موقفية وعمليات طلب قصدي عالية التنظيم. هذا التعديل في المنظور أزاح مركز الثقل من البحث باتجاه الأداءات الذكية المحسوسة أكثر (**سيمون**) والأكثر شمولية، والعمليات المعرفية لحل المسائل ومعالجة المعلومة (**نايسر**). وهكذا اتسع مفهوم الذكاء باتساع طاقة الأداء الخلّاق.

رد الفعل/ الاستجابة: رد الفعل سلوك يعمل معاكسًا. واحتمالات ردود الفعل عند الإنسان غير محدودة. ومن أجل استكشاف هذه الكثرة الفردية وضعت نظريات كثيرة منذ بدايات علم النفس الحديث. وهي تهتم في أكثر الأحيان

بموضوعات خاصة لتحسين ضبط احتمالات ردود الفعل. إن تمييزًا أساسيًا هو على علاقة بحتمية ردود الفعل. لأنظمة ردود الفعل المبيّنة أسباب جسمية وفطرية (رد فعل الحالة)، تستجيب أنظمة ردود الفعل المشروطة لأوضاع خارجية (ردود فعل على المواقف) وتتعلق أنظمة ردود الفعل الطليقة بتجارب معيشة وتدمجها بالسلوك (ردود فعل معرفية). ومما يؤخذ في الاعتبار، في سياق ردود الفعل: عتبات ردود الفعل (استنادًا إلى قوة المثير وإلى العادة (**ك. ل. هول**)، أوقات ردود الفعل (مدة الكمون بين الإثارة ورد الفعل؛ تبعًا للانتباه، للتعب، لتعقيد ردود الفعل ولعدد التناوبات)، الإدماج النفسي لردود الفعل (عمل وحيد معزول أو سلسلة من ردود الفعل المتصلة)، الخلفية الاجتماعية لرد الفعل (نشاط متعلق بالذات، ثنائي، جماعي) والخلفية المعرفية لرد الفعل (نشاط أحيائي، غائي، منظِّم).

الرغبة في التعبير: إنها حاجة إنسانية أساسية إلى تفسير الأحداث وتصنيفها داخل نظام تأويلي منسق. تعاش على المستوى الأدنى، بعض الأحداث الصدفوية (مثل نقطتين تتحركان عفويًا على شاشة) وكأن يمكن تفسيرها سببيًا (تهرب النقطتان الواحدة من الأخرى أو تتربص الواحدة بالأخرى أو تتحركان دائريًا...). تصطدم هذه الحاجة الملحة إلى التفسير «بالوضوح التأويلي غير الكافي» (نقص إمكانية التفسير) العامة لأكثر الأحداث أو المواقف. فلهذا يلتزم الإنسان، أكثر الأحيان، بطريقة لا واعية، بأنظمة تفسير اختبارية على علاقة بالحياة اليومية أو ناشئة عن تقليد الأشخاص المقربين. إن نظام التحديد هو أساسي (نموذج التحكم الداخلي أو الخارجي) وهو يُرجِع الحتمية الشاملة إلى قوى مجهولة، خارقة للطبيعة (تحديد خارجي)، إلى سببية ذاتية وحيدة (تقرير المصير ذاتيًا) أو إلى تداخل المحتِّمات الداخلية والخارجية (تحديد مشترك). يُدعَم الفرد، خلال هذا العمل التأويلي، بآراء عديدة تسعى إلى أن تفرض عليه نظامها الحتمي الخاص. هذا ما يولد، أكثر الأحيان، فرضيات انتقائية مختلطة تتغير تبعًا للموقف، للتعاطي مع الآخر ولتسلسل الأحداث. تتحقق الرغبة في التعبير عندما يعاش الحدث كما لو كان ممكن التفسير، نافعًا، صحيحًا، جديرًا بالبحث، فارضًا نفسه وممتعًا. وعندما لا تكفي عدة أحداث لإرضاء الرغبة في التعبير الخاصة بالفرد، تنشأ، عندئذ، أزمات حِسّ (شعور بالتهديد، شرود الحس، فقدان النظرة المستقبلية، أزمات ثقة، زيغان، أزمات هوية) تسهم غالبًا في تكوين اضطرابات نفسية.

سلوك الألم: هو ردود فعل نفسية على علاقة بأحداث قاسية وصدمات نفسية. يميز **شولتز - هِنْكِه**، استنادًا إلى نوع ردود الفعل، بين أشكال الألم المدوية والأشكال الصامتة: يمكن التحدّث أيضًا عن ظاهرة مكشوفة (كلامية وغير كلامية أيضًا، مثل التكشيرة) ومحجوبة (غير كلامية أكثر الأحيان). وبخصوص تكوّن الألم، نلاحظ تدرّجًا يبدأ بالدفاع العملي (مثل الفرح المرغوب فيه، التعويضي) مرورًا بالألم غير المصحوب بالمقاومة والإخفاق الذريع للنتائج وصولًا إلى البحث المدمِّر للألم ذاتيًا. نميز، في تطور الألم، ردود فعل «طبيعية» و«مَرَضية» (تمثل هذه الأخيرة بظاهرات مزمنة). ليست ردود الفعل الفردية هي الوحيدة الأساسية ولكن أيضًا ردود فعل المحيط المتطابقة، مع أثر تقوية (فيما يخص الحسنة الثانوية للمرض) أو تخفيف (كتعزيات كثيرة). يُدقَّق سلوك الألم ويعالَج تبعًا لخمسة مجالات أساسية استنادًا إلى أبرز محتوياتها: ردود فعل الألم النفسي الفيزيولوجي، ردود الفعل الخاصة بالموت ومعالجتها، تربية وحماية ضحايا الإجرام كأهداف للألام. يدقق كل فرع من هذه الفروع بأصول حالة الألم وتكوين المضارّ وتفاعل المتألم مع محيطه (ومع من سبب له الآلام كما عند البوذيين) وإمكانيات المساعدة العلاجية.

سلوك الحيوان: إن علم نفس الحيوان، الذي هو فرع من علم الأحياء وعلم النفس، هو، في آن واحد، نظرية سلوك وعلم نفس مقارَن. ويستخدم، كعلم نفس مقارن يتجاوز علم نفس الحيوان، لمواجهة النمو الدماغي بتعقيد السلوك، للتمكن من تقييم مستوى العمل الدماغي لدى جميع الكائنات الحية (ومن ضمنها الإنسان). تعتمد نظرية السلوك على الملاحظة والتجربة المطبقتين على السلوك (تجربة الترويض، مثلًا). يقسم السلوك الحيواني، تبعًا لمستواه العصبي، إلى أربع فئات:

(١) السلوك الفطري الوراثي ويستمر على شكل جامد كرابط بين الإثارة ورد الفعل.

(٢) وخلافًا لذلك، يتغير السلوك بالبصمة (بالأثر) في إطار آلية إطلاق فطرية، لأن بعض الخصائص المعزولة وحدها، مثل «التماهي بالآلام»، ضرورية للإثارة لأنها يمكن أن توجد لدى كائنات حية أخرى وأن تؤدي إلى سلوك ارتكاسي على أثر عملية بصم.

(٣) والسلوك المكتسب هو سلوك إضافي يكتسب بالارتكاس المشروط، انطلاقًا من سلوك فطري، ولكن يمكن أن يتلاشى من جديد عند فقدان التعزيزات التي يمارسها السلوك الفطري أو المكتسب أيضًا.

(٤) يحل السلوك الذكي، الذي لا يتدخل إلّا عند الكائنات الحية الراقية، قضايا الوجود بتغييرات البنى الإدراكية التي تحدث قبل العمل خلال مرحلة التفكير.

تُفْحَص هذه المراحل السلوكية الأربع في أهم المركّبات السلوكية (التناسل، التوجّه، السلوك الاجتماعي). وإن ما يهم، بنوع خاص، هو حل رموز السلوك (إنجاز تعبيري لردود الفعل الجسمية) الذي يعنى بالغذاء والاتصال الاجتماعي والاهتمامات والصراع.

السلوكية: تأسس علم نفس السلوك («علم نفس دون نفس»، **ف. أ. لانج** ١٨٦٦) في مقال **لجون برودُس واطسن** (١٩١٣) تحت عنوان: «علم النفس كما يراه العالم في السلوك». يرتكز هذا النوع من التوجيه النفسي على برنامج نظري لا

يعالج من موضوعات الملاحظة العالمية سوى أشياء يمكن مراقبتها موضوعيًا وأنواع سلوك تخضع للقياس. كان الاعتماد يتم، بشكل خاص، في بداية السلوكية، على نظريات فيزيولوجية نفسية خاصة بعلم الإنعكاسات عند الفيزيولوجيَّين الروسيَّين **بِشْتِريف وپافلوف**، وفي ملاحظة الحيوان. وهكذا غدا التعلّم يشغل مركز الأبحاث وأصبح العملية الأساسية لكل ما هو نفساني. كان التعلّم بالنسبة إلى السلوكية الأولى (**ثورندايك، يركس، مورغان**)، يهيمن كعملية تجربة وخطأ. وانقسمت السلوكية، في تطورها اللاحق، إلى ثلاثة اتجاهات نظرية مختلفة: الإشراط الكلاسيكي والإشراط الفاعل والإشراط المعرفي (الإدراكي).

(١) يؤكد الإشراط الكلاسيكي أن التعلُّم يولد من «اتصالات عابرة» في الجهاز العصبي المركزي. تحدث «الارتكاسات المشروطة» عندما يتدخل، في الوقت نفسه أو بعد قليل، مثير محايد ومثير غير مشروط في برنامج سلوك فطري. ينتهي هو نفسه بإثارة البرنامج كمثير «مشروط».

(٢) يجري الإشراط الفاعل تبعًا لطريقة وضعية على الأصح. يصف **ب. ف. سكينر**، الممثل الأساسي لهذا التيار، نجاحات التعلّم التي تحققت بفضل المكافآت (التعزيزات). تقاس نتيجة الأشكال المختلفة من التعزيز (التعزيز المستمر، التعزيز الجزئي)، بمنحنيات التعلُّم وسّع **أ. بندورا** هذا التوجيه بإدخاله آثار التعلّم الناتجة عن محاكاة نماذج دقيقة ودعا ذلك «التعلُّم بالمحاكاة».

(٣) بدأ الإشراط المعرفي، كتوجيه نظري، مع أعمال **لاشلي** (١٩٢٩) **وتولمان** (١٩٣٢). استعاد **تولمان**، في مقاربته، على شكل «متغيرات متوسطة» (سببية التأثيرات المتداخلة)، مفاهيم التجارب المعيشة، مثل توقع الغايات، التصورات... رابطًا، هكذا، «السلوكية الحديثة» «بإعادة البنية الإدراكية» لعلم نفس الشكل (الجشطلت) وتصوره لسلوك ذكي يحدد التعلّم منذ أشباه الإنسان على أقل تقدير. وانطلاقًا من السلوكية القويمة يتطور العلاج السلوكي (أيْسِنْك)، والعلاجُ السلوكي الإدراكي (ماهوناي) انطلاقًا من السلوكية الأساسية.

الشخصية: الشخصية مجموعة من السمات الفردية تميز الكائن البشري. وبسبب هذا الامتداد الشاسع لهذه الإشكالية النفسية، يجب عدم توقع تحديد جامع مانع لهذا المفهوم. ثمة بالضرورة مجموعات من النظريات تحاول تحديد مفهوم الشخصية بالاعتماد على بعض النقاط المميزة. جميع هذه النظريات عاجزة عن الإجابة عن خمسة أسئلة أساسية على الأقل.

ما هي المميزات الداخلية التي يمكن أن توضع في المقدمة (مشكلة البنية الفردية)، ما الذي يكوِّن، إلى جانب الميزة الجسمية المعروفة، الوحدة الواضحة للفرد بالرغم من التغير الدائم في الداخل والخارج (مشكلة الفرادة والتطابق)، ما هي مجالات المميزات الشاملة التي يخضع لها الإنسان باستمرار في تطوره وكيف يمكن أن يستمر في التطوّر دون اضطرابات (مشكلة التفردية)، ما الذي يحرك طاقاته الكامنة الممكنة التي تولّدها ظروف سابقة (مشكلة التعبئة التعليلية)، ما هو محتوى قيمة الشخص (مشكلة الكرامة)؟ يمكن أن تعالج هذه الحقول الخمسة بطرق مختلفة (ويمكن أن تبقى أيضًا، جزئيًا، دون جواب). هذه النظريات العديدة المتناقضة حول الشخصية (خارج الأشكال العديدة القديمة والوسيطة والمعاصرة) يمكن تصنيفها في أربع فئات أساسية.

(١) ترتكز نظريات الشخصية التي تعتمد على علوم الطبيعة على التطوّر النسالي وآثاره على تكوين الكائن البشري (أنسنة، تطور الدماغ، قواعد الترميز السيبرناتي البيولوجي الإتني النفسي في الجهاز العصبي المركزي، جدول سلوكي).

(٢) تركز النظريات المستوحاة من نموذج العلوم الاجتماعية على تأثير البيئة على الفرد والتحديد الذي ينتج عنها (فاعلية متبادلة، تنشئة اجتماعية، علاقة اجتماعية وعيوبها، تكوين العلاقات).

(٣) النظريات المستوحاة من نموذج العلوم العقلية تتأسس على إمكانيات الضبط الذاتي الشخصي وتصر على التوجيه المستقل لدى الإنسان (إسناد، شعور المراقبة، صياغة التصميم، سلوك وتخطيط، تأويل والتزام).

(٤) وتنطلق نظريات الشخصية، المبنية على علم نفس الأعماق، من السلوك اللاواعي وتمثل الإنسان في تبعيته اللاإدراكية (إلحاح نزوي، لا وعي جماعي، دونية عضوية وتعويض، إحباط).

يمكن لهذه النظريات جميعها أن تميل أكثر نحو مفهوم نوعي لدوام ثابت في الشخصية أو تتجه أكثر نحو مفهوم تعديلي استنادًا إلى متغيرات موقفية (فاعلية متبادلة). تنمّي أكثر نظريات الشخصية، أيضًا، مفاهيم حفز مطابقة تركِّز على نقاط مختلفة أساسية (بواعث اندفاعية، بواعث الفعل، بواعث رخاء...)، مفاهيم تحليل مقارَن (مقارنات ثقافية متبادلة). ومفاهيم لمصلحة النضج (الإيجابي) أو لخلل وظيفة (السلبي) الشخصية. تميل النظريات أكثر، من وجهة نظر منهجية، نحو مقاربة كمية أو نوعية للشخصية.

الشَّغالة: الشغالة (أو قانون العمل) هي مجال متعلق بعدة أنظمة خاصة بعلم العمل بفضلها تسهم الأنظمة المشتركة بين الإنسان والآلة، بواسطة توسيع التكيف المتبادل، في إنتاجية متنامية كما في رضا تام عن العمل. ذُكِر هذا المفهوم لأول مرة في مجلة بولونية تدعى «الطبيعة والصناعة» سنة ١٨٥٧:

«من أجل الحصول على أكبر كمية من الفوائد، في هذه الحياة، مع أقل جهد وإرضاء المصلحة العامة والفردية، إلى التصرف بعدالة تجاه الآخر والضمير».

أتبِع هذا المطمح السامي بتوق عقلاني إلى تحسين العلاقات المتبادلة بين الإنسان العامل وتقنية الآلة. كلاهما معتبر «أنظمة» أي فعالية شاملة. تُقيَّم، من جانب العامل، خصائص النشاط والتبعة الجسمية والنفسية، والاستعداد لتحمل المسؤولية وفريق العمل ودرجة الخطر والحاجة إلى الاسترخاء والمعاش...

ومن جانب عمل الآلة: عملية الإنتاج، بناء الآلات، صنع الأجهزة، تنظيم مكان العمل، توثيق العمل، أنظمة العمل، السياق اللوجستي (مثل النظام المتسلسل)، شروط المناخ وتأثيرها في الأحياء. جميع هذه الخصائص والكثير غيرها متلاحمة بشكل وثيق ولا يمكن تحسينها إلا بشكل إجمالي في اتجاه بنية «شغالية».

الصراع: اصطدامٌ، عادةً، بين حالتين أو نزعات سلوكية تولّد تناقضات مختلفة. لا تُبنى أكثر نظريات الصراع على المحتويات المعاكسة بل على بنية تجمعات صراعية.
(١) يُميز، في نظريات الصراع السلوكية، بين التقارب والحذر، مع إظهار تراكيب مختلفة تحدّد قوة الصراع ومدّته.
(٢) تهتم نظريات الصراع الظواهرية اهتمامًا أساسيًا بالمعيش الصراعي: معيشات الانفصال والشك والضيق والإحباط.
(٣) تعتمد نظريات الصراع المعرفية على أسباب التقييم في بروز الصراع: خيارات تنافسية، مواقف غير عادية، خلاف بين الآراء والإعلام....
(٤) وتتعلق نظريات الصراع النفسية الاجتماعية أساسًا بتطور الصراع بعبارات دينامية الجماعة: تنافس، مواجهة بحسب المرتبة والدور والاتصال المباشر أو الضوابط والصراعات العرقية والدولية.
(٥) وتتركز نظريات الصراع التعليلية على أسباب انطلاقة الصراع واستمراريته: الاستعداد للدفاع عن النفس، الحاجة إلى التآلف، العدائية، الميل إلى التزوير...
(٦) وفي علم النفس العيادي، تعتمد نظريات الصراع، بحسب نموذج علم نفس الأعماق، على المنحدر اللاواعي لظهور الصراع وامتداده: إواليات الدفاع، مواجهة الخطوط الموجِّهة للوجود....
لا تحاول نظريات الصراع فقط توضيح أسباب الصراع ولكن أيضًا إظهار كيفية القضاء عليها نظريًا: بالاستسلام، بالفصل بين المتخاصمين، بترتيب وضع وفاقي، أو بالتذكير بنشوء الصراع الذي غالبًا ما يُنسى.

الظاهرة: هي في الأساس تجربة معيشة مباشرة واستيعاب متعقل لهذه التجربة. وتحديد الظواهر في الإدراك الحسّي الآني يوسعها آخرون لتشمل تجارب معيشة فوزمانية مثل تمثلات الذاكرة والتصاميم الرزينة والحالات العاطفية والحالات العصابية. يُميّز في بعض النظريات الظاهراتية بين الأنا الظاهراتي والبيئة الظاهراتية بالنسبة إلى التجربة المعيشة؛ تفسَّر الأنا عندئذٍ كسلسلة ملازمة من أعمال الوعي والبيئة كحقل من الحدس المستدخَل.
بعض النقاط الجوهرية في علم النفس الظاهراتي (الفينومينولوجي) هي التالية: الأساس التجريبي للاختبار الإدراكي (مثل صفات الجشطلت في علم نفس الجشطلت)، الأعمال القصرية للاستيعاب الحدسي أو العقلاني في البداهة المتزامنة (يقين، وثوقية العمل) الميل الفطري إلى تحقيق الذات الذي به وحده يستطيع الإنسان أن يجعل من نفسه إنسانًا حقيقيًا (علم النفس الإنساني).
وبتعابير منهجية، يأتي البحث النوعي في مفاضلة التجربة المعيشة في الدرجة الأولى. يبدأ التنوع المنهجي في ملاحظة بسيطة محض ووصف للتجربة المعيشة الخاصة في شعوب مختلفة في علم النفس الاجتماعي (مراقبة الشعوب) الذي يوفر مادة أساسية من المعطيات للإعداد اللاحق النوعي. وإلى جانب علم النفس الظاهراتي، يعتبر التحليل الظاهراتي، في مدارس وفروع أخرى لعلم النفس، وفي خطوة أولى، تحضيريًا وضروريًا على طريق منهجية متدرجة (بنائية ودينامية).

العدوان: سلوك متعمّد يُقصد به الإساءة والتحقير والمضرّة للآخرين (وللنفس أحيانًا) وذلك لإرضاء غايات شخصية مبالغ في تقديرها. وتفسر الأسباب بطرق مختلفة تبعًا للنظرية المرجعية:
(١) داخلية النشأة: فرضية الاندفاع العدواني التطوّري.
(٢) شرطية: تدرّب انطلاقًا من نجاحات مرتبطة بالعدوان.
(٣) تفاضلية: دعم التفرد بانفعالية قوية، بتأكيد الذات أو بنقل المسؤولية الجرمية إلى الآخر.
(٤) تحليلية نفسية: نتيجة إحباط.
(٥) اجتماعية: تدرب على السلطة.
(٦) معرفية: حالة متأزمة في مواقف قرار متناقضة.
(٧) تعليلية: مزيج انفعالي من غضب وضيق وقلق...
(٨) وبعبارات من نظرية الفعل: انعكاس ارتكاسي في حال تدابير معاكسة متبادلة متزايدة.
ثمّة، للقضاء على العدوانية أو لتخفيفها، وسائل تدميرية وبنائية.

العصاب: اضطراب نفساني متوسط الخطورة (خارج اضطراب السلوك الذي هو «أخف» والذهان الذي هو «أقوى» والتناذر الوسط القائم بين العصاب والذهان). استعمل هذه اللفظة الطبيب الاسكتلندي **وليم كولّن**، في الفقرة ١٠٩١ من كتابه «الخطوط الأولى في ممارسة العلوم الطبيعية» (١٧٧٦ - ٨٤)، ليحدّد المؤثرات العقلية أو الحركات التي لا يمكن إيجاد سبب جسماني لها. وتعدّل هذا المفهوم مرات عديدة مع الزمن. يميز **فرويد**، الذي لا تزال نظرية العصاب عنده، حتى اليوم، أساس التحليل النفسي، بين العصابات الفعلية (عصاب الحصَر النفسي، النوراستانيا ووسواس المرض) والعصابات الذهنية التحويلية: الهستيريا التحويلية، هستيريا الحصر النفسي (الرهاب) والعصاب الاستحواذي. ونجد التناذرات ذاتها تقريبًا مع اختلاف قليل في «الكتيب التشريحي والإحصائي للاضطرابات العقلية (DSM-III-R): القلق المعمّم (من ذلك عصاب الحصر النفسي)، وسواس المرض، اضطراب مزاجي في العصاب الاكتئابي (نوراستانيا)، الوسواس المرضي، اضطرابات تفككية (هستيريا، رهاب، عصاب استحواذي - قهري، اضطرابات جسمية الشكل مؤلمة خاصة.
إن الأسباب التي تُعْتَبر مسؤولة عن العُصابات هي: سلوك

مكتسب سيِّئ التكيف (علاج سلوكي)، صراع غريزي مكبوت يعود على شكل عوارض (التحليل النفسي)، مفهوم للذات مزيّف (علاج نفسي غير موجه)، حل الصراعات غير المتكيّفة (تحليل وجودي)، ترتيبات وهمية كخط موجّه للوجود على شكل تعويضي (علم النفس الفردي)، أثر الضرر النفسي الناتج عن توقع مفرط للرفاهية (التحليل النفسي الحديث)، تعليق وتثبيت الحاجات الوجودية (العلاج الجشطلتي)، تصدّع وقصور في عمليات النضوج أثناء النمو الفردي (علم النفس المعقد)، اتخاذ قرارات خاطئة وفقدان المعنى (العلاج الكلامي)، وهناك أسباب أخرى. وبالرغم من التحديد الغامض للعصابات ولنماذج التفسير المتعددة، فالمقصود، هنا، مفهوم يشمل فئة بيّنة من حالات الألم النفسي لا تتوصل نصوص أخرى إلى تغطيتها تغطية كاملة.

العلاج السلوكي: جملة طرق علاجية نفسية تعتمد على نظرية التعلّم (في رؤية **إ. ب. پاڤلوڤ**). أُسُسُها الاشتراط الكلاسيكي، الاشتراط الفاعل، التعلّم بالمحاكاة والنظرية المعرفية للتعلّم. النموذج الأساسي للعلاج السلوكي هو التعلّم خطوة خطوة لسلوك غائي. تتألف الخطوات المعزولة، عامة، من تحليل محسوس للسلوك، وتحديد أقسام التعلّم وتدريب على تحمل السلوك الجديد، ومرحلة من مراقبة الذات، وفي المناسبة، جلسات مكثفة (ساعات إعادة بعد نهاية العلاج للتذكير بما قد تُعلِّم). يمكن تجميع الطرق المنفردة في خمس فئات أساسية.

(١) طرق الإلغاء معدَّة لإزالة السلوك الفاشل. وإحدى الطرق المهمة هي الإبطال المنهجي للتأثر (**ج. ڤوليه**) بهدف تحليل ردود فعل الحَصَر العصابية تبعًا لثلاث مراحل: التدريب على استرخاء عضلي عميق، وضع قوائم بالحَصَر، مواجهة الاسترخاء والإثارات المذكورة في قائمة الحَصَر تبعًا لصعوبة متزايدة.

(٢) تستخدِم سلوكات الاكتساب، أكثر الأحيان، الاشتراط الفاعل لبناء السلوك المرغوب فيه (**ب. ف. سكينر**). تقوم إحدى الطرق المهمة على تعلم نموذج ما (**أ. بندورا**). يمارس، في «التعلّم بالاستعاضة»، تقليد منهجي لأحد النماذج. قد يكون النموذج شخصًا (المعالج مثلًا)، رمزًا (شكلًا في لعبة الدُّمى/ أو مرجعًا «غير منظور»، أي صورة نموذج متفق عليه.

(٣) تستخدِم طرق المواجهة احتكاكًا إلزاميًا بمثيرات الحصر لمعالجة أنواع الحَصَر العميقة أو السطحية المسؤولة عن الاضطرابات النفسية. إحدى الطرق الهامة هي دفق من الإثارات (**ج. ماركس**): وللقيام بهذا العمل، يعرّض المريض تعريضًا قويًا، إما مباشرة وإما خياليًا لمُطلِق الحَصَر.

(٤) تدمُجُ طرق العلاج المعرفي السلوكي التعلّم المعرفي بالتدريب. ومن الطرُق الهامة طريقة العلاج العقلي العاطفي (**أ. إليس**). يُبدأ باستحضار أفكار لا عقلانية (مثل توقعات مبالغ فيها بخصوص أشخاص آخرين)، ثم يُسأل مجمل «نظام العقيدة» اللاعقلاني لمحاولة الاقتراب من هدف سبق تحديده.

(٥) إن طرق التدريب الجارية هي، عامة، استراتيجيات حل للمسائل. ومن الطرق الهامة طريقة الارتجاع الأحيائي، التدريبي (**ت. باربر**) التي تُستخدم خاصة لتدارك نتائج تأثيرات الإجهاد، تثار حالة الاسترخاء العضلي اصطناعيًا بواسطة أجهزة وتستعاد بطريقة سمعية وبصرية.

يُعَزّز الاسترخاء العضلي المستَذْكر بطريقة إيجابية في إطار التدريب على الاسترخاء الذاتي الآلي.

العلاج النفساني: عملية تهدف إلى القضاء على الاضطرابات النفسية. وخلال القرن العشرين ازداد عدد الوسائل، الذي كان أولًا محصورًا، حتى بلغ نحو ١٤٠ مجموعة محصاة.

ولإعطاء نظرة شاملة عن هذا التنوع قسمت هذه الوسائل إلى ١٠ مجموعات.

(١) تنطلق علاجات من نوع علم نفس الأعماق من افتراض عمليات لا واعية يسهم وعيها بالشفاء.

(٢) وتعتمد العلاجات السلوكية على تعليم السلوك الجديد الواجب اكتسابه كما على تفكيك السلوك الواجب تحاشيه.

(٣) وتستخدم العلاجات بالمنافسة اختبار الذات المكتسب خلال العملية لإعداد الاضطراب النفساني.

(٤) وتحاول العلاجات الإدراكية اكتشاف تمثلات «خاطئة» وإبعادها.

(٥) تستخدم العلاجات التخيُّلية الإيحاء لكي تؤثر في الزبون بالإكراه، وبدون علمه أكثر الأحيان.

(٦) وتحث العلاجات الاتصالية فريق المعالجين وزُبُنَهم على توضيح العلاقات المتبادلة وعلى التأثير الجماعي المتبادل.

(٧) تستند العلاجات الجسمية على تجربة أن النفس تستسلم لتأثير الجسد والجسد للإثارات النفسية.

(٨) والعلاجات التكاملية هي النتيجة الحتمية لتكاثر أشكال العلاج في حدود تنسيقها للوسائل المتفرعة عن مجموعات علاجية أخرى.

(٩) العلاجات الاختبارية أو علاجات التنشئة هي علاجات خاصة بالأصحاء التي تدعم الزُبن في عملية تكييف أنفسهم.

(١٠) تندمج العلاجات النوعية، عامة، بالعلاجات السابقة ولكنها تستخدمها إما لجماعات خاصة من المرضى (مثل الأولاد، المدخنين، المساجين) وإما لاضطرابات خاصة (مثل اضطرابات النطق والاضطرابات الجنسية)، وكذلك لمعالِجين من نوع خاص (معالِجين غير مهنيين أو من قبل الأشخاص أنفسهم).

ويجب أن يضاف إلى هذه المجموعات علاج نفساني عام لا ينتمي إلى أية مدرسة وهو علم تدخلي أقوى توجيهًا على الصعيد النظري.

العلاج النفساني غير التوجيهي: صيغة علاجية أسَّسها **ك. روجرز** (١٩٤٢) انطلاقًا من التوجيه العلاجي الإنساني. ترتكز الأُسس النظرية على تصور شخصية يكون الإنسان بموجبها محدودًا بنزعة إلى تحقيق ذاته. إن غاية العلاج هي «الشخصية بملء امتلاكها لوظائفها»، مع توضيح مشاعرها

ورغباتها ودوافعها وحاجاتها. وفي أساس الطريقة افتراض أن تفاسير المعالج تخيف الزبون وأنه بمقابل ذلك لا يمكن أن تكون معرفته لتجربته نافعة له إلا إذا اكتسبها بنفسه. لهذا يحتفظ المعالج «بنصائحه» ولكنه يواجه المريض بطرق ثلاث: بالتعاطف («التعرف إلى الشعور الذي يعبر عنه»، **ك. روجرز**)، بالتقييم (احترام مطلق، حرارة عاطفية، تقدير الشخص، حب القريب)، بالصدق (شفافية، استقلالية، انفتاح). بهذه العملية العلاجية القصيرة نسبيًا (٢٥ جلسة تقريبًا)، على المريض أن ينتقل، بواسطة الاستكشاف الذاتي (مواجهة المشاعر الخاصة) من سلوك مرتهن لمشاعره وعلاقاته الخاصة، إلى اختبارات الذات المفتوحة والمباشرة. هذه العملية النشطة من التحولات مقعّدة بواسطة مقياس مدرّج ومقيّمة في تطورها من قبل المريض والمعالج بعد كل جلسة. تطبق الطريقة عند الولد على شكل علاج لُعبي (**ڤ. أكسلين**) وعند البالغ على شكل علاج فردي أو جماعي.

علم نفس الأعماق: هو توجيهُ مدارسَ نظرية وعلاجية منبثقة من التحليل النفسي الذي وضعه **س. فرويد** والذي من سماته المشتركة معرفة الدلالة الغالبة للاندفاعات أو النشاطات اللاوعية. طور علماء نفس الأعماق نماذج مختلفة للشخصية.
يرجع التحليل النفسي، في صيغته القويمة، إلى ثلاث طبقات في الشخصية: الهُوَ والأنا والأنا الأعلى. يخضع الأنا كطبقة مستقلة لضغط الهُوَ (إلحاح غريزي لمبدإ اللذة) وللأنا الأعلى (مبدأ الواقع) الذي يحاول الأنا إبطال مفعوله (آلية الدفاع). ينطلق علم النفس المعقد (أو التحليلي) لواضعة **ك. غ. يونغ**، من نموذج صَدَفي توجد في داخله نواة لا تصبح أبدًا واعية، نواة اللاوعي الجماعي الذي هو نفسه مجال الصور الرمزية الفوق فردية التي توجه انفعالات الناس بصورة لا واعية. واستنادًا إلى علم النفس الفردي لصاحبه **أ. أدلر**، يعاني الطفل دونية أساسية بالنسبة إلى محيطه. فيحاول أن يعادل هذا الشعور بالدونية بالبحث عن القوة. فينمّي بعمله هذا خطوطًا توجيهية حياتية بإمكانها أن تؤدي، بوصفها ترتيبات جامدة («حِيَل» تعويض فاشل)، إلى اضطرابات نفسية. ولا وجود للوعي، بالنسبة إلى العلاج الكلامي التحليل الوجودي لصاحبه **ڤ. إ. فرانكل**، في الهُوَ، النواة الإجمالية أو العمل اللاواعي، ولكن في العقل اللاواعي بحثًا عن المعنى. ويظهر، بطريقة مماثلة، في تحليل الأنا لصاحبه **هـ كوهوت**، كنرجسية لاواعية. جميع هذه الأشكال من علم نفس الأعماق هي «علاجات بالمقابلة» يرتفع فيها اللاوعي إلى الوعي.

علم نفس البيئة: يُعتَبر **و. هِلْباخ**، في كتابه (ظاهرات علم النفس الجغرافي، ١٩١١)، رائد علم نفس البيئة؛ يهتم هذا العلم بالتأثيرات النفسية الجغرافية والمناخية الأحيائية على الإنسان: أشكال المناظر، المناخ، الرطوبة، الهواء، الألوان... علم نفس البيئة الحالي هو علم مزدوج المعنى:
(أ) كونه علم نفس الوسط، فهو يتفحص الآثار التي تنتجها البيئة، بشكل شامل أو جزئي، على الإنسان؛
(ب) وكونه علم نفسٍ بيئيًا تدخُليًا، فإن موضوعه هو إيجاد أمداء حيوية وتنظيمها (من الشقق السكنية حتى التعديلات الحضارية للكرة الأرضية بكاملها). وفي غضون ذلك، تحول هذا «الاستخدام للبيئة» مشكلة بسبب تدمير البيئة. إن إحدى المسائل الأساسية، من وجهة نظر علم النفس، هي مسألة «علم نفس المدى الحيوي» أي الأنظمة النفسية للمدى الحيوي التي تتمثل بالمتطلبات الدنيا لبيئة «سليمة». والأجزاء التفصيلية لعلم نفس البيئة هي:
(١) علم نفس المناخ الذي يهتم بتأثير المناخ على الوجود.
(٢) علم نفس المسكن الذي يتفحص فائدة السكن ودوره بالنسبة إلى النشاط والتمثل.
(٣) علم نفس العمارة الذي يدقق في المسائل النفسية لتنظيم المنزل ووظائفه.
(٤) علم نفس المدن والمناظر الطبيعية الذي يتفحص موضوعات تنظيم البيئة الطبيعية والبيئة الاصطناعية.
(٥) تفحص عالم العمل وأوقات الفراغ.
(٦) علم نفس ظروف الحياة القاسية (الحياة في القطب الشمالي، في الفضاء الخارجي، في أعماق البحار، في السجن، وسط ثقافات غريبة).
(٧) ويشكل جزءًا من ذلك أيضًا علم نفس الفن فيما يخص استخدام أشياء الفن.
وبسبب هذه التعددية في الموضوعات، تطور علم نفس البيئة حتى غدا حقلًا هامًا من علم النفس التطبيقي.

علم النفس الرياضي: ليست الغاية إقامة حقل أبحاث أو تطبيق منفصل، بل توفير نماذج رياضية (أساسًا) لجميع الأبحاث النفسية الفيزيولوجية. يعالج علم النفس الرياضي، بهذا المعنى، ستة مجالات أساسية: إعداد «تناظرية» أي قابلية تكميم الظواهر النفسية (نظرية القياس)، تحويل الظواهر إلى نماذج رياضية (تبديه)، إمكانية تمثلات تعني السياق التدرجي: ثابت، متأرجح، متقطع (تحليل العناصر التكوينية)، التعديل (المد) الخارجي للعمليات (التكهن بتطورات لاحقة مثل تحليل المسلك)، الوصف الرياضي للأنظمة الشبكية (تصاميم شبكية)، الوصف الرياضي للعمل (مثل نماذج الخيار). تحيل بعض النظريات الرياضية، فيما تحيل، إلى: نظرية التعليم مع التصويب الرياضي لسياقات التعليم المقعّدة (نماذج الرموز الحسابية والمراحل)؛ نظرية الإعلام الذي يهم الجماهير، الترميز بالأرقام، التِّقْنِية المرّمزة وحل رموز المعلومات؛ نظرية القرار، مثل تنظيم الأولويات، نظرية التوظيف والأرباح، نماذج احتمالية في تكرار القرار. تضع نظرية الروائز أيضًا، بموازاة النماذج الحتمية، نماذج رياضية (من بينها نموذج راش) تتيح تكهنات اتفاقية في وضع مقياس مطلق.

علم النفس السيبرناتي: أو علم نفس الضبط، هو مذهب نفسي للتحديد والتوجيه. ليست الظاهرة النفسية، في علم نفس

الضبط، مرتبطة مباشرة بظواهر جسدية مادية، لكن دلالتها تعود إلى نقل القاعدة المادية، بواسطة الترميز الشكلي (البنية الثلاثية الأبعاد، ركيزة - نموذج - دلالة). لهذا السبب لا ينطبق علم نفس الضبط على الواحدية (التماهي بين النشاط العصبي والنفسي) ولا على الثنائية (فصل النفس عن الجسد).
ينتج «بزوغ» (انتشار) النفسي، بالنسبة إلى العمليات العصبية، من درجتين من الحرية:
(١) إن بنى النماذج المقترحة للعمليات العصبية (الإيقاعية والتصور) هي مستقلة، جزئيًا، عن ركائزها، في حدود ما هي، كنمذجة، قابلة للنقل من ركيزة إلى ركيزة:
(٢) وإن الدلالات النفسية لهذه النماذج التأويلية مستقلة، جزئيًا، عن النماذج في حدود ما تستطيع تقبل دلالات فردية أو اصطلاحية مختلفة.
إن أساس البحث، في علم النفس السيبرناتي، هو تفحص النماذج العصبية، في بنيتها الطبيعية (بنية نماذج الترميز، كما في ترجمة الأصداء أو التواترات في الجهود الكهربائية للعملية العصبية) وفي دلالتها النفسية أيضًا (تماسك بليغ، مثل نماذج علم النفس اللغوي). يصل المفهوم المنمذج، بطريقة تقترب من الواقع، العلاقة الفعلية بين الدماغ والنفسية. يستخدم علم نفس الضبط، لكي يؤيد، في البحث النظري والعملي، نماذج الجهاز العصبي البالغة التعقيد، يستخدم نظرية النظم، علم المعاني، علم الأدلة اللفظية ونظرية التنظيمات الذاتية التنظيم.

علم النفس الفردي: هو فرع من علم نفس الأعماق والعلاج النفسي أسسه **ألفريد آدلر** في مواجهة التحليل النفسي عند **فرويد**. أساسه النظري نظرة شاملة إلى الإنسان. تتكوّن على قاعدة إجحاف أساسي (تجربة ضعفه الخاص، ضيق، تبعية، تجربة حيف اجتماعي في مجتمع عائلي سابق الوجود، تجربة الوضع بين الإخوة، تجربة الدونية في نمو الأعضاء، وغياب سلاح الإنسان بشكل عام تجاه سائر المخلوقات الحية وفروق أخرى كثيرة) تتكوّن، باكرًا، عند الطفل، «إرادة طاقة» تعويضية يصحبها شعور بالتفوق المناسب. يتدخل الانحراف العصبي عندما يصحب الحساسية المفرطة نزعةٌ (وهمية) إلى التفوق وتقييم زائد للشعور بالدونية (الحدثية). «يعاني العصابي شعور المعاقبة الذاتية» (**آدلر**) الذي يؤدي إلى «انشطار الشخصية». فيحاول أن يهرب، بطريقة نشاز، من صراعاته الوجودية بواسطة انعطافات (تدابير) يرسخها سلوك تعويضي وتتمثل بخطوط توجيهية وهمية في حياته. وبمقابل ذلك، يتمتع الإنسان بشعور جماعي مشترك، ويستطيع أن يحلل شعوره بالدونية وأنانياته ويعمل بما يفيد الآخرين وينمي شعورًا مجتمعيًا شخصيًا ومسؤولًا.
إن العلاج الخاص بعلم النفس الفردي هو سلوك إنساني يسعى إلى توضيح الخطوط التوجيهية الحياتية لدى الفرد ويتعرف إلى سمة العقاب الذاتي ويسهم في تحويل مخططات الحياة. وبما أن الخطوط التوجيهية في الحياة تظهر منذالطفولة فإن هذه المهمة تبدأ في أبكر وقت ممكن. ومن أجل هذا أسس **آدلر** سلسلة من مراكز المشورة التربوية لكي يضمن، بتثقيف الأهل، تأثيرًا على الأولاد. وتطورت هذه الميول، في علم النفس الفردي الحديث، في اتجاه النصائح الوجودية العامة.

علم النفس المعقَّد: مدرسة علاجية تعتمد على علم نفس الأعماق، أسسها **ك. غ. يونغ**. يصف **يونغ** الإنسان، بعبارات نظرية، استنادًا إلى تصنيفية مزدوجة: تشغيل الوظائف النفسية (الفكر، الإحساس، الحدس، الشعور) وبناء طبقات الوعي (الهوَ، الأنا، الوعي، اللاوعي الشخصي، اللاوعي الجماعي. لا يصبح الجزء من اللاوعي الجماعي وعيًا أبدًا).
تتولد الاضطرابات النفسية بسبب «التجزئة» أي من مجالات جزئية ومعقدة لأن الإنسان لم يستطع أن يدمجها بأناه.
إن محتويات اللاوعي الجماعي هي النماذج المثالية، صور أصلية مشتركة بين الناس بأجمعهم وهي تحدد خِفْيَةَ الفعل الإنساني. هذه الصور هي، بنوع خاص، التمثلات الأساسية التي يوزعها جميع الناس على الجنس الآخَر (أنيموس للمرأة وأنيما للرجل). ولا ينكر **يونغ** تكوّن العصاب (أنظر التحديد) أثناء الطفولة، الشكل الوحيد الذي يعترف به **فرويد**، لكنه يؤمن أيضًا بموقف عصابي حالي، أي مراحل حرجة لا يمكن السيطرة عليها. فلتُحذر وتُكْبت.
يقوم علاج علم النفس المعقَّد على التوسيع، أي على مد الأفق نحو المنابع الإنسانية للاضطرابات، ومن أجل هذا يلجأ **يونغ** إلى الخرافات والأساطير (الساغا) والأديان... كوثائق نموذجية، تحاول مدرسة العلاج هذه، هكذا، أن تستلحق «الفردية» (النضج الشخصي) التي توقَّفت لدى الإنسان العُصابي.

علم النماذج: محاولة لتشكيل جماعات من الأشخاص أو مجموعات من الصفات. فيما يخص الأشخاص، يضع علم النماذج، في المقدمة، المميزات المهيمنة التي تتيح تمييز بعض الأشخاص من بعض. وهذه المميزات تعني في النماذج القديمة، المميزات الهرمونية (نماذج **أبقراط**: الغضبي، السوداوي، الدموي، البلغمي)، نماذج التجربة المعيشة (**رورشاخ**: انطوائي، انفتاحي/ انفعالي)، نماذج إدراكية (**جانش**: توليفي، تحليلي)، نماذج تفكير (**فُنْتسل**: قابل للتأثر، دلالي)، نماذج الوظائف الأساسية (**پفاهلر**: إصغاء، حديث)، نماذج المواقف (**دراخ**: محرِّك، نظري)، نماذج تصور العالم (**ياسپرز**: مركِّز على الموضوع، متحمس)، أشكال الحياة (**سپرانغر**: نموذج جمالي موجه نحو السلطة). لم يعد لهذه النماذج سوى دلالة تاريخية.
تمثل نماذج **كريتشْمِرْ** البنيوية استثناءً. فهو يميِّز الصفات البارزة في شكل الجسم المرتبطة بميول نفسية مرضية: جسم قصير وسمين مع ميل شبيه بالدوري (تأرجح بين الهوس والاكتئاب)، جسم أهيف مع ميل انفصامي، جسم رياضي مع ميل شبيه بالصرعي.
تُرفض هذه النماذج التي تميز الجماعات البشرية لأن التعابير المحض نادرة جدًا، ما يجعلها غير صالحة لتمييز الناس.
ومنذ الخمسينات (من القرن الماضي) تحولت الوحدات التي

تستهدفها النماذج من الناس إلى الحالات النفسية. وتجري، منذ ذلك الحين، محاولة من أجل ملامح خاصة، مثل الإبداع، تجميع مميزات (مجموعات) لفهم العلاقات المتكررة، أو اختيار مميزات أساسية (عوامل) انطلاقًا من الكثير من بينها. هذه النمذجة هي تصنيف (مؤيّد اختباريًا وإحصائيًا)، تصنيف على قاعدة مصفوفة التشابهات أو الترابطات.

الفَرَضية: إن مهمّة صياغة الفَرَضية، في البناء الاستراتيجي لمشاريع البحث (تثبيت الأهداف، اختيار الأساليب، تصميم البحث وتنفيذه، إعداد المعطيات، التأويل)، هي استباق الأجوبة التجريبية المتوقعة التي تؤكد (اختباريًا) أو ترفض. يُميَّز، على الصعيد الشكلي، بين الفرضية الاحتياطية (سياق التجربة لبناء النظرية) وفرضية القرار (حسم البديل) والفرضية الباطلة (صياغة رفض علاقة غير موجودة) وفرضية البديل أو العمل (صياغة العلاقة المنتظرة).

تقسم الفرضيات، من وجهة نظر مضمونية إلى أربع فئات: فرضيات البحث (مرحلة تهدف إلى الصياغة الواضحة للنظرية)، فرضيات العلاقة (شرح العلاقات السببية)، فرضيات التحويل (تأكيد الفرضيات) وفرضيات الحالات المعزولة (تأكيد الحالات المعزولة المحسوسة).

الفعل، العمل: مفهوم أساسي لعلم نفس التفعيل يُستَخدم لوصف التسلسل والتنسيق المعقَّدين لتنفيذ المهمات المرتبطة بالبيئة. كل فعل يتألف من ثلاثة أجزاء من الأفعال المتعددة الطبقات: مفترضة (أوضاع، إثارات تعليلية، طاقات فردية، توقعات اجتماعية، أسس عَقَديّة...)، سياق (حالات أساسية، منحنيات التحقيق، قرارات، تحديد الحالات النهائية...)، وآثار (آثار آنية، مضاعفات دائمة، مدى النتائج، حثّ على أفعال جديدة...). يمكن أن تتميز الأفعال تبعًا لمحتواها وتبعًا لشكلها المحقق. تتعلق تحاليل المحتوى بالموضوعات، بالمهمات، بالوسائل، بالمقاصد وبالنتائج. تعالج التحاليل الصورية الوعي (درجة الإحضار)، الجهوزية (الحماسة إلى مباشرة الفعل، الانتباه، التكيف الامتثالي أو التباعد الاختياري) والنية (بنية تصورية ودرجة تنظيم الفعل في السياق الوجودي).

تكون تحاليل المحتوى غالبًا معيارية (تبعًا للأفعال المتوخاة) والصورية على العكس تكون وصفية (تبعًا للظروف القائمة).

واضطرابات الأفعال هي بعدد الأفعال نفسها. يُلجأ، من أجل تنظيمها، إلى العلاقات الاجتماعية: إلى الذات (الغربة عن الذات، اضطراب صورة الذات)، إلى الجماعة (اضطرابات الدينامية الاجتماعية، اضطرابات العلاقة بالآخرين) وإلى الجماهير (سلوك معادٍ للمجتمع).

القرار: خلاصة معرفية لموقف تتواتر فيه الخيارات. وهو كعملية نفسانية، تشكل خصائصُ كثيرة مستواه الأول: (١) معاناة موقف اضطراري، (٢) معرفة إمكانيات الخيار، (٣) معايير الانتقاء و(٤) سير عملية القرار.

(١) يحتاج القرار إلى طاقة نفسية خاصة (قوة على التصميم). وهذه الطاقة تحددها استراتيجيات الفعل (سمة تصميمية تقابل عجزًا عن اتخاذ قرار). تشعر السمة التصميمية بالموقف الضاغط أو بالصراع كنوع من التحدي، يستخدم الغموض «لتطهير معاناته».

(٢) في مواقف القرار، يجب أن تُقيَّم البدائل، وذلك تبعًا للعدد كما لاحتمال الإجراءات التي يجب اختيارها. وبهذا المعنى، يجب أن تتخذ القرارات في مواقف تنتفي فيها المعلومات.

(٣) تتميز معايير الاختيار بخاصّتها النهائية أو الارتجاعية. ولمعايير الخيار خاصّة نهائية أي موجهة نحو غاية، وهذه المعايير هي: مبدأ النتيجة (توقع الفائدة القصوى؛ نظريات الألعاب: **فون نيومان ومورغنشيترن**)، مبدأ الحد الأدنى (أقل خسارة ممكنة: **ميلنر وثرال**)، مبدأ الارتياح (أول حل مرضٍ يتم: **سيمون**). ولمعايير الخيار التالي خاصّة ارتجاعية أي ناتجة عن دوافع قرارية مسبقة: مبدأ التطابق (التكيف مع قرارات عادية: **روكيتش**)، مبدأ معاكس للتطابق (قرار مخالف للمألوف: **كريش** وآخرون)، مبدأ التماثل (قرار يطابق معطيات «جيدة» بالاختبار: **بيتسون**)، مبدأ افتراض الخطر (تقديم القرارات المجازفة وخاصة في بعض المجموعات: **كوغان** وآخرون)، مبدأ الإحيائية (قرار على صلة بقوى مجهولة: **هِلْباخ**).

تسعى نظريات القرار إلى التكهن بدوافعه النفسية أقل من الاحتمالية الرياضية لظهور البدائل. ويتولى البحث في أخطاء القرار محاولة توضيح الأسباب «السوية» و«المرضية»، على حد سواء، للقرارات الخاطئة وخاصة في أسبابها النفسية.

القَلَق: شعور بالإثارة يسبِّب الرعدة والمضايقة، يبدأ بحصْر عابِر، مرورًا بأشكال من الخوف، والاضطراب والشلل، وصولًا إلى اليأس المزمن، إلى الرعب. يُميَّز، نفسانيًا، بين القلق كحالة (توتّر في حالات التهديد الحاد) والقلق كخصوصية (قلق مستقل عن التهديدات الحادة). تنشأ نظريات القلق، أساسًا، عن التحليل النفسي، عن نظرية التعلّم وعن علم النفس المعرفي.

(١) في التحليل النفسي (**س. فرويد**) يتحول الأنا إلى «موضع قلق» حيث تتولد مشاعر الخوف التي تثيرها علامات القلق الناشئ عن العالم الخارجي («قلق أمام خطر حقيقي») واندفاعات الهُوَ («قلق عصابي») وتهديدات الأنا الأعلى («قلق الضمير»). وبسبب كبت الأحداث الجُرحيّة، يمكن أن تتطور علامات القلق إلى قلق «عائم».

(٢) تتقبل نظرية التعلُّم، بخصوص القلق، مرجعية الأجهزة العصبية الضعيفة (**پاڤلوف**) كما تتقبل العلاقة بالانعكاسات المشروطة، مع مجموعات من المثيرات المسببة للقلق التي تؤدي بالتالي إلى زيادة ردود فعل القلق.

(٣) وفي النظرية المعرفية عن القلق، توضع في الواجهة، من أجل الإدراك **المقلق**، النتائج العاطفية لإعداد المعلومة من قبل الفرد. تفسر هذه الإواليات المعرفية كإلغاء للمراقبة الداخلية (**ج. ب. روتر**)، كضيق مكتسب (**أ. ب. سليغمان**)، أو

كنتيجة لفقدان المراقبة الداخلية بفقدان الاتجاه ووقف الحركة والإهمال والوقاية من التهديد والشك بالمستقبل وفقدان الأمل...
(٤) وعلاوة على حالات القلق المزمن، هناك غياب مرضي للقلق يجهل مواقف الخطر الناتج عن عدوانية كامنة. تهدف جميع التوجهات العلاجية النفسية الهامة إلى إزالة القلق المرضي. وهناك، إلى جانب ذلك، بحث في المراقبة الشخصية بمقابل القلق؛ يعتمد، أساسًا، على تعود علامات القلق وعلى إبعاد الأسباب المذكورة آنفًا.

الكبت: هو أحد المفاهيم العظمى عند **فرويد** لتحديد الدفاع ضد الإثارات الغريزية المهدِّدة. يستخدِم «تثبيتُ» الليبدو، طبقًا لنموذجه الاقتصادي عن الشخصية، إوالياتٍ مختلفة، أهمها الكبت. وهو الذي يتيح أن يلقي في اللاوعي ويعزو إليه رغبات غريزية مع تمثلاتها المرتبطة بها التي هي في نزاع مع رغبات أخرى مثل إيعازات الأنا الأعلى. وفي المرحلة الأولى، مرحلة الكبت الأصلي ينتصب «حاجز للوعي» **تُقصى** به الصور غير المرغوب فيها عن أي ترسيخ في الذاكرة. تصبح هذه العملية الدفاعية كبتًا مَرَضيًّا أو كبتًا بالمعنى الحقيقي عندما يتحول إلى «نواة تبلُر» عُصابي. يواجه الأنا (بحسب **فرويد**) الإثارة الصادمة «بتوظيف معاكس يتحول، باتصاله بطاقة العاطفة المكبوتة، إلى عَرَض أو يتّحد بالأنا كصيغة ارتكاسية، كتعزيز لبعض الترتيبات، كتعديلات دائمة». وفي المرحلة الثالثة، مرحلة عودة المكبوت، عندما توقِظ الأحداثُ الحالية المادة المكبوتة، يظهر نقص في التوظيف المعاكس. وبكلام آخر، إن الأعراض العُصابية هي: «صياغات تفاهم بين الصور المكبوتة والكابتة، تعيد، في شكل مقنّع، وبالتكثيف والنقل كما في الحلم، الارتياح الغريزي المحظور.

اللاوعي: مجمل العمليات النفسية غير الواعية. الوعي، تبعًا للنظرية الخاصة بعلم نفس الجهاز العصبي، هو ربط سلسلة من نظم الاختبار المكتسبة، التي منها ينبثق الوعي ويشكل جزءًا منها: نظام اليقظة، تمثل الجسم، إدراك المكان والزمان، الانفصال المقصود للذات والموضوع، الذكريات.
تتصل هذه النظم أثناء مرحلة الوعي وتولِّد حالة من الوعي تتباين تركيزًا. ولهذا السبب تستطيع حالة اللاوعي أيضًا أن تتخذ عدة أشكال أدَّت إلى سلسلة من التصورات النظرية عن اللاوعي.
(١) إن الجزء الموجود إلى جانب عتبة النفسي هو اللاوعي الشبيه بما دون الوعي: ما دون الأحمر مثلًا لا يدركه الوعي، وكذلك المكان الذي يحيط بعازف البيانو، في حفلة موسيقية، الغارق في عزفه. فهو لا واعٍ أي غير مدرك، موضوع خارج التيار (بطريقة عابرة).
(٢) وقبل أن يصبح الطفل قادرًا على الوعي فإنه يعيش في حالة ما قبل الوعي، في انصهار غير متميز بين الذات والموضوع. وهذه الحالة من عدم الوعي قد تظهر في خَرَف الشيخوخة. ويُسمّى أيضًا ما قبل الوعي الحالة التي ينحل فيها أو يتلاشى الوعي، مثل حالة السكر.
(٣) يكتسب اللاوعي دلالة ثالثة بمعنى الغريزة: انفعالات فطرية أو انطباعات باكرة جدًّا وعارية عن أيّة ممثِّلية معرفية.
(٤) وشكل آخر هام من اللاوعي هو اللامعرفة أو نقص المعرفة. فهو يصف العجز التدريجي عن فهم شيء ما، عن إدراكه بوعي وعن حفظه في الوعي (شيئ محفوظ لكن غير مفهوم) ويمكن أن يبلغ الفراغُ المعرفي، العجزَ المزمن عن الفهم.
(٥) يتميز تصور التحليل النفسي للاوعي عن التصورات السابقة بأنه يعتبر اللاوعي نظامًا مقفلًا على ذاته، في حين أن التصورات الأخرى ترى فيه انقراض أنظمة أخرى (للوعي). وبما أن اللاوعي هو هكذا فإنه يعتبر منفصلًا عن الوعي، كحالة مستقلة من الجهاز النفسي الذي يمتلك محتوياته الخاصة (اللاواعية) المكبوتة والمحكومة بإواليات خاصة (مثل تكثيف المحتويات الوهمية ونقلها).
(٦) وفي حين يمكن، بالنسبة إلى التحليل النفسي، جعل المحتويات اللاواعية واعية بواسطة الأنا (الذات)، ولكن على شكل متخفٍ أو خلال عملية علاج نفسي مثل تفسير الأحلام، فإن اللاوعي الجماعي لعلم النفس المعقَّد (مثل اللاوعي «المألوف» المعتبر مشروطًا وراثيًا: **ل. زوندي**) لا يمكن جعله واعيًا. يرى **ك. غ. يونغ** محتويات هذا الوعي الجماعي التي لا تظهر أبدًا في الوعي، يراها في النماذج البدائية أي في الصور الأصلية القريبة من الاسطورة.

اللعب: تَشاغُل منذ عمر مبكر كفاية في ذاته. فاللعب نظريًّا، سلوك ضروري يُفسَّر بطرق مختلفة.
(١) النظريات الطاقية تقيِّم اللعب وكأنه «فائض قوى» ليست ضرورية لحفظ الحياة فيتحول إلى نشاطات «لا غاية لها» تصحبها متعة وظيفية بسيطة.
(٢) ترى النظريات التنفيسية في اللعب نقلًا إسقاطيًا لإحباطات على موضوعات وهمية، مع ارتياح تعويضي وابتعاد عن الواقع.
(٣) تحيل فرضيات نظريات التعليم إلى اندفاع غريزي ملازم إلى اللعب، وتفسره كما لو كان سلوكًا غير مشروط أوّلًا ثم يخضع لتعليم بالاشتراط، على علاقة باختبارات النجاح وفي منظور التنشئة الشخصية على المهمات اللاحقة للوجود.
(٤) تواجه النظريات المعرفية اللعبَ كتوسيع لردود فعل التوجيه التي ترضي، بواسطة قواعد اللعب كتحدٍّ للذات في حلول المسائل، ترضي سلوك الفضول الملازم.
(٥) تضع النظريات النفسية الاجتماعية، في المقدمة، الميل إلى المشاركة الذي يشتمل عليه اللعب (حتى في اللعب الإفرادي، مع الذات أو مع آلة بمثابة شريك): فيكون هذا «تدرّبًا لعبيًا» على شكل من أشكال الجماعة.
(٦) تصف نظريات الحفز الأسباب الفردية التي تتغير بقوة من نمط من أنماط اللعب إلى آخر (مثل لعب الشطرنج، كرة القدم...) وتتراوح بين «غريزة اللعب» الفطرية (**بافلوف**) و«العرض الحر» المستقل الدوافع (**بينيش**)
يستخدم اللعب في التطبيق النفسي، للتشخيص، للوقاية

الاجتماعية، والعلاج اللعبي للاضطرابات النفسية. يُتحدث، لدى البالغين، عن ولع باللعب عندما يتخذ اللعب أهمية تصل إلى حدود الأذى.

اللغة: «نظام إعلامي منسق» (**أوستن وسيرل**) لاتصالات من أنواع مختلفة وعلى مستويات تجريدية متنوعة. واللغة في مستواها الأدنى شكل خاص من الاتصال غير الكلامي (مثل التعبير عن مفاجأة)؛ وفي مستواها الأرفع هي اتصال مجرد لمفاهيم (العلم) أو إيحاء موقّع لصور معقدة (الشعر). واللغة نظام رموز ينسق، على أساس رموز محددة (مجتمع لغوي)، للمشتركين في الاتصال، بعض الوقائع، بدلالات مناسبة (مصطلح بالمعنى الاشتقاقي). يضاف، في الاتصال الكلامي، على التعبير الكتابي: نغم الكلام، النبر وعوامل أخرى مثل النطق بالكلمة الذي يمثل تتمة للاتصال. يخضع اكتساب اللغة لوظائف جانبية (نحو ٧٠ مجموعة من العضلات، الحنجرة...) ووظائف مركزية (الجهاز العصبي المركزي مع مراكز حاسّة ومحرّكة للغة) وإثارات نفسية اجتماعية ونشاطات لغوية وشروط ثقافية مسبقة (مستوى اجتماعي للغة، مثل تأثير وسائل الإعلام).
وطبقًا لهذا الأمر، تعترض ممارسةَ اللغة البالغةَ التعقيد، إعاقاتٌ كثيرة. يذكر من اضطرابات اللغة: التمتمة، الحبسة، اللثغة، البحة العصابية (أو البكم الهستيري)، عسر القراءة والفهم. إن تقويم النطق هو علاج خاص باضطرابات اللغة: إعادة تأهيل تقليدية (قابلية التأثر) وموجَّهة (منتجة) أو أيضًا معالجة الصوت أو الكلام.

لغة الجسد: أحدث مفهوم لتعيين ظواهر التعبير، تتجاوز مفهوم التعبير لأنها تشمل جميع الاتصالات غير الكلامية. وخلال الأبحاث التي أجريت حول مجمل طيف «الاتصالات» البشرية، فرض القسم غير الكلامي الكبير نفسه على القسم الكلامي (الذي يعتبر عامة الأصغر). والاتصال غير الكلامي هو عنصر إشاري (أي وسيلة غير كلامية للتعبير عن الذات، تستعمل بوعي)، كما هو أيضًا عَرَض (أي إعلان يعرض بطريقة لاواعية). وفي الحالتين، لا تعتبر لغة الجسد تعبيرية بشكل كافٍ، كإشارة نموذجية معيارية، إلا بفضل تناسق ما، إذا كان عليها أن تتيح تفسيرات نفسية موثوقًا بها. يجب، في أكثر الأحيان، تحقيق تطابق بين عدة مجالات تعبيرية (إشارة، صوت، شكل...) قبل قبول السمة الدالّة. وعندئذ يمكن أن تكون الاتصالات بواسطة لغة الجسد، غالبًا، وسائل أكثر دقة وتمايزًا وخاصة فيما يعود إلى محتويات الاتصال العاطفية. وعلى سبيل المثال تؤدي لغة الجسد عند قائد الأوركسترا المراحلَ المختلفة لوصلة موسيقية أفضل بكثير مما يفعله أفضل اتصال كلامي. ولهذا السبب كذلك تستخدم لغة الجسد، اتفاقًا، بمعناها الأوسع، حيث يفهم بالجسد، أيضًا، عناصر موضوعية أو نماذج بيئية (التعبير غير الكلامي لهيكل الأبنية، لتنسيق المناظر الطبيعية...) بإمكانها أن تسهم، بظهورها في التنشئة الاجتماعية، في التأثير بالشعور الوجودي للفرد مستقبلًا.

المراقبة: المراقبة هي بشكل عام: تحقيق وضبط؛ وبتعبير علم النفس: إمكانية الهيمنة بواسطة القواعد.
(١) في معنى دوافع الضبط أو المراقبة، يعتبر الضبط مصحّحًا للأسس الشخصية (ضبط الذات) أو الغريبة (ضبط الآخر) للفعل أو للرأي (إسناد، حكم مسبق، موقف، اقتناع...)
(٢) وهو، (الضبط)، من وجهة نظر منهجية، تعليق لشروط تجربة فيما يخص فريقًا من الأفراد (فريق ضبط وشهادة) للمقارنة بالفريق الإختباري.
(٣) توزيع منهجي لعوامل معروفة ومجهولة، مع العلم أن شروط التجريب والشروط الخاصة بالتجربة وبالأفراد هي موزعة بالتساوي بين الفريق الاختباري وفريق الضبط (موازنة)
(٤) توزيع منهجي صدفوي لأفراد التجربة، بعد روائز الاسناد المسبقة للمركزين الأول والأخير، تبعًا لفئتين أو عدة فئات، من أجل الحصول على فئات اختبار متعادلة عمليًا (موازاة).
(٥) يمثل الضبط عند معايرة الروائز، اختبارات الأمانة والصدقية، بواسطة طرق مختلفة (طريقة الرائز وإعادة الرائز، رائز المعادلة، معايير خارجية...)
(٦) في علم النفس الاجتماعي. يصف مفهوم الضبط التحديدات التي تفرضها قواعد السلوك الواعية (تنظيم واضح) أو اللاواعية، تحت تأثير الأدوار والاتصالات المباشرة والضوابط.
(٧) يمثل الضبط، في علم نفس الإعلام، حلقات الانكماش (التغذية الارتجاعية) في العملية المتجانسة الاتزان في نظام ما.
جميع هذه الاستخدامات التصوّرية وأخرى تشبهها من مفهوم الضبط في علم النفس هي أشكال متفرعة من رقابات متزنة، عليها أن تتيح التصرف بأوضاع مختلفة بشيء من الحرية.

مسألة النفس والجسد: أُسُس لإرساء النفسي، وجوديًا وأساسيًا، في الجسدي (الجهاز العصبي). إن الاتجاهات الأساسية الأربعة هي الأحدية التي تسلم بوحدة كاملة بين النفسي والطبيعي؛ التوازي هو في الواقع أحدية لكنه يميز بين بعض الفروق النوعيّة في النفسي؛ وتعتبر الثنائية أن كل ما ينشأ عن الروح والنفس يتميّز تميّزًا واضحًا عن الجسدي وأن كلًا منهما يؤثر في الآخر تأثيرًا متبادلًا؛ وتحتفظ نظرية الثلاثية بين النفسي والطبيعي، بحالة وسطى، على شكل سياق نماذج متوسطة، تولد نماذج معبّرة، انطلاقًا من عمليات فيزيائية وعبر تقنيات ينتج منها، النفسي فيما بعد. تتيح هذه النظرية الأخيرة تفسير لماذا لا يولد النفسي إلّا انطلاقًا من إنجازات الجهاز العصبي المركزي مع قدرته على النماء حتى النفسي المفارق (انبثاق)، مرورًا «بدرجات حرية» (أي وثبات من التقنين بواسطة نقل النماذج) ذات صفة نوعية أسمى. ينكشف المحتوي النفساني البليغ للاتصالات المباشرة والظواهر الموضوعية القائمة بين الناس عن أنه عملية صياغة نماذج

بالرغم من أنه لا يوجد هنا أسس عصبية. يستخدم علم نفس الضبط السيبرناتي لشرح قاعدة ترميز هذه العلاقات.

المشورة النفسانية: نمط من الاتصال الموجَّه نحو غاية ينقل صاحبُ المشورة (أكثر الأحيان) بواسطته مضمونَ المشورة إلى شخص أو إلى عدة أشخاص. ينتج عن هذه المشورة ثلاث مسائل مهمة.

(١) سياق النصيحة هو، دائمًا، تبادل مضامين. بين مقدم المشورة والزبون فرق في المعرفة يقل أو يزيد. يحتوي مضمون الاتصال، الذي يعتبر إعادة توازن لهذا الفرق، على توقعات محددة تتيح تولّي تنظيم العمل والسلوك. يمكن اقتباس مضامين المشورة النفسانية من علم النفس التطبيقي (نصائح خاصة بالمشروع، بالتنظيم، بالتصميم، بالمهنة...) أو من علم النفس العيادي (تطبيق علم النفس على الأخلاق، نصائح بخصوص التربية والمدرسة والمخدرات...)

(٢) إن من يتلقى المشورة (الزبون) يملك بعض المعرفة أو بعض المواقف التي تتخذ أساسًا أو مقاومة للتحويل المرتجى.

(٣) ولدى صاحب المشورة تصوّرات هدف ضرورية في نظره تسهم في التأثير على سياق المشورة. إن مهمة كل نشاط للمشورة هي الوصول إلى توازن جميع المصالح المعنية في إطار توافق يرضى به الفريقان. وبهذا الاتفاق يتعلق نمط التدخل لاختيار الدرجات الدقيقة للقرار في سياق المشورة (مباشرة المفاوضات، اتفاق على الأهداف، تقدم المشورة، القيام بأعمال، سلوك الضبط).

المعرفة: تعيين شامل لجهد متعمَّد لإيجاد أشياء وأخذها والتعرف إليها وفهمها وتمييزها وتصنيفها وإبداء الرأي فيها واتخاذها موضوعات وتحويلها بصفاء نفسي مميَّز (من التحسيس إلى التجريد). ذهابًا إلى ما وراء مفهوم الفكر (علم النفس القديم للفكر، **كوليه**، **بوهلِر**، **دونكر**)، يشمل هذا المفهوم جميع ما يدق عن الوصف (المَعرفة الرمادية) حتى التدقيق المحدّد (المعرفة المجرّدة)، في الإمكانيات، أي تنظيم (تغيير البنية الإدراكية) للمضامين الفعلية. وقد تكون هذه المضامين مضامين تمثّل غامضة أو مفاهيم مجردة، توافقات مفاهيم أو عمليات تفكير خاصة (مثل علاقة إذا - إذًا). قد ترتبط نظريات المعرفة بنمط الاتصال بين عناصر الفكرة (نظرية التوسط)، بتحويل نماذج الفكرة المسبقة إلى نماذج لاحقة أكثر إعدادًا (نظرية تعديل الفكرة الإدراكية)، بتحسين النمط التطوّري لاستجابة التوجه الفطري (نظرية الاستكشاف)، باستخدام المؤهلات العقلية الجزئية (نظرية العوامل)، بسيرورة الفكرة في الإمساك بالمسألة حتى الحل بتعابير الإعلام (نظرية المراحل) وبنظرية ضبط الدلالة التي تشرح الفكرة كتنظيم ذاتي وتوجيه ذاتي ملازم للنظام الأحيائي. وبسبب كثرة العمليات الجزئية التي تنجم، لم يكن ممكنًا وضع «أنماط معرفية». وعلى عكس ذلك، يجري البحث عن استكشاف اختياري للمميزات المعرفية الإجمالية، مثل الأساليب المعرفية (خصائص إفرادية في إعداد المعلومة)، أشكال الفكرة (قواعد بديهية تأسيسية)، عمليات الحكم (مثل قطبية الانعكاسية - الاندفاعية) والمراحل في تطور الفكرة (وضع معالم معرفية، حساسية تجاه المسائل، مخططات الحل...). إن موضوعات البحث الملحقة أو المدمجة هي الذكاء، الإبداعية، ما وراء المعرفة والذكاء الاصطناعي.

الممارسة المهنية: إن مهنة العالم النفساني حديثة نسبيًا. يعود أول محترفي علم النفس إلى منتصف القرن التاسع عشر (حالة استثنائية في القرن الثامن عشر هي **ج. ف. آبيل**، استاذ **فريدريك شيلر**). وفي بداية القرن العشرين فرضت مهنة علم النفس العيادي نفسها في الولايات المتحدة. وفيما بعد، دشن بعض علماء النفس، في المانيا، ممارسة خاصة بالنقل والاقتصاد. ويوجد اليوم نحو ٦٠ فرعًا من علم النفس متخصِّصًا، بعضها القليل فقط يشتمل على عدد مرتفع من الممثلين: علم النفس العيادي، العمل، المنشأة، الاقتصاد، النقل، الجيش. ويصعب، بسبب هذا التخصص، إعطاء وصف شامل لمهنة علم النفس.

(١) إن أبعاد النشاط هي (بحسب **دورْش**) إما تفسيرية (منها التشخيص، التحليل، السؤال، الاختبار، الاستكشاف) وإما تدخلية (منها: العلاجات النفسانية، الخيارات، النصيحة، الإصلاح).

(٢) يتوزع حقل النشاط، استنادًا إلى الانتماء المؤسسي (مثل العيادة، الصناعة، السجن، مؤسسة الأبحاث، المكتب الاستشاري، الممارسة الحرّة)، إلى مجموعة من المهمات المحددة محليًا. وهو متأثر أيضًا بالموقف داخل المؤسسة، بالموقف الشخصي وبالحالة التنافسية.

(٣) وبسبب تعدد المهمات النوعية، فلا يمكن تحديد متطلبات الكفاءة المهنية بشكل دقيق. وطبقًا للتوزيع الثنائي المذكور أعلاه (التفسير والتدخل)، على عالم النفس المحترف أن يدمج، خاصة موقفًا متفهِّمًا بسلوك مستعد للمساعدة.

(٤) تتأثر الممارسة المهنية، أيضًا، بالقيمة التي ينسبها الفرد والآخرون إلى المهنة، ولكن يبدو أنها تنعم بترحيب أكثر ايجابية مما يتوقعه علماء النفس في تقييمهم الذاتي.

منهج البحث: يرتكز علم البحث، مثل كل علم، على طرق مُخْتَبَرة مختلفة. إن هذه الترسانة المنهجية شديدة الاتساع في علم النفس لأن هذا العلم يغطي، بسبب موضعه الوسط بين علوم الطبيعة والمجتمع والعلوم الفعلية، مجالًا يمتد من المراقبة الذاتية حتى الصورية الرياضية أو إلى مقابلة الجماهير. وإن ما هو حاسم بالنسبة إلى كل طريقة، إنما هو شكل صلاحيتها. يوجد ثلاثة فروع اختبارية لهذه الغاية.

(١) توفر المنهجية معايير لممارسة التكميم ولصياغة معطيات القياس ولوضع فرضيات بحث وتصاميم اختبارية.

(٢) وتقدم نظرية الروائز معايير تحقيق وخاصة فيما يمت بصلة إلى الموضوعية ودقة القياس (الأمانة) وصحة القياس الخاصة بالمعطيات.

(٣) ويتيح الإحصاء التحقق من القيم الكمية في صلاحيتها وتبعيتها المتبادلة ودرجة احتمال ظهورها ويتيح أخيرًا مراقبة مجموعات من الأرقام وتحويلها إلى متغيرات أساسية (عوامل). يمكن اختصار هذه المناهج الثلاثة في ثلاث طرق أساسية: المراقبة (تدقيق السلوك الذاتي والموضوعي)، الاستكشاف (المساءلة، بحث الفرضيات) والاختبار (في المختبر وعلى الأرض).

الموقف العقلي: تجميع فردي لأحكام تقويمية. والإمكانات العلائقية تجاه الأشياء والأشخاص والمواقف هي، عمليًا، غير محدودة. وكي لا يعيش الإنسان في الفراغ، في الخواء يغترف منها بعض المقتطفات ويعزو إليها قيمة. قد تنشأ هذه التقييمات عن تجربة خاصة أو تقتبس عن آخرين. يتضمن الموقف العقلي، بموازاة هذا الوجه الاقتصادي للفكرة، سمة صلبة. المواقف هي أفكار وأوضاع متحجرة يمكن أن تتحول إلى أفكار مسبقة لا تخضع لامتحان تجارب جديدة. تتكون المواقف العقلية من وجهات نظر متحيزة، من تقييمات خاصة ومن نماذج سلوكية ذات نمط شخصي، ولكنها تنتهي شيئًا فشيئًا إلى تكوين وحدة (اتجاه عقلي) في الموقف العام تجاه الحياة وتصور العالم، أربع فئات من المميزات تؤخذ في الحسبان لوصف الآراء.

(١) تُميز، لتحديد المضامين، حقول الموضوعات التي تمارس فيها المواقف (مثل المواقف السياسية، العرقية والاجتماعية).

(٢) يُميّز، للتحديد النوعي، توجيه القيم بين المقبولية (مجال المرجعية) واللامبالاة (مجال الحياد) والتضاد (مجال الرفض).

(٣) وفي تحديد الحدّة، يُميّز بين الأحكام المسبقة المحض البسيطة وعادات التفكير التي تبلغ أعمالًا نزوية متطرفة، مشروطة ومُصمَّمة.

(٤) يتسم تحديد التماسك بالتحجّر أو بميزة المواقف القابلة للتحويل أو بأسباب توجّه ممكن جديد طيّع. تقيّم المواقف، على مستوى المنهج، بمقاييس المواقف (مقاييس الجذب والدفع ومميزات أخرى حاسمة).

الموهبة: مفهوم نظام طاقات فردية. كان القدماء ينطلقون من افتراض أنه يوجد كمية ثابتة من الطاقات الفردية («قوى أساسية»، «ملكات») تحدِّد سمتُها الطاقة الكامنة للإنجاز («القريحة»). لكن مفهوم الموهبة تعرض لتعديلات أكثر فأكثر خلال بحث متوازٍ حول الذكاء والإبداع، بحث يدمج بالتحليل الشروط غير الشخصية. ومنذ ذلك الحين، عُرِّف المفهوم بطريقة أضيق في آفاق دقيقة وتوجهات نظرية مختلفة.

(١) يستمر اعتبار الموهبة، استنادًا إلى وجهة نظر فطرية، «كاستعداد» متفاوت الثبات (أي إمكانية استخدام نزعات مقررة سلفًا).

(٢) وبتعابير ظواهرية ووصفية، ترتبط الموهبة الفردية، وبواسطة معايير مقارنة (منها، روائز نفسية)، ترتبط بتوزيع الكفاءات في مجموع الشعب أو في فئات متناظرة (مثل مراحل العمر)، وفي حدود الإمكان، توصف دون تقدير للقيمة.

(٣) وفي السلوكية، لا يرد ذكر مفهوم الموهبة. أو إنها تستخدم فقط بمعنى الاستعداد للانفعال، فيما يخص بعض المكتسبات.

(٤) وتفهم الموهبة، من وجهة نظر الدينامية الاجتماعية، وكأنها حث على الانجاز مرتبط بالجماعة، وتحددها التنشئة الاجتماعية والوضع الاجتماعي الراهن. ولا تتعلق الموهبة فقط، من وجهة النظر هذه، بالمسلمات الفردية، لكن أيضًا بتوقعات المحيط القريب (العائلة، مثلًا) أو الأقل قربًا (الحلقة الثقافية، على سبيل المثال) وبالأساليب التربوية ومحاور القيم أو بالتشجيع القائم في هذا المحيط. يرتبط المفهوم، بهذا المعنى، ارتباطًا قويًا بتشابك وثيق من الشروط الداخلية أو الخارجية بنظام عام من المواصفات، محدّد وموسَّط سلفًا، يمكن للمرء حينئذٍ أن يتكيف معه إلى حدٍّ ما أو لا يتكيّف.

نظرية الدليل (أو الإشارة): ورد ذكرها منذ القدم في «نظرية الصورة» عند **أرسطو**، وضع أسسها، في العصر الوسيط، **ريمون لول**، طوّرها **غوتفريد ويلهلم فون لايبنتز** في القرن السابع عشر، ثم: **ك. س. پيرس** و**غوتلوب فريغِه**، في القرن التاسع عشر، تحت عنوان «لغة تصورية»، (قابلة التربيض). ثم أعلى بنيانها **فردينان دو سوسور** (١٩١٦) في نظرية عامة للإشارات (علم السيمياء أو الدلالة اللفظية). ونظرية الإشارة اليوم هي نظرية أساسية للاتصال بين الموضوع و«دلالته»، بواسطة الإشارة أو النموذج. يستخدم علم نفس الضبط (السيبرنتيكا) أيضًا وساطة الإشارة هذه لإقامة علاقة حقيقية بين العمليات العصبية المادية كركيزة والدلالة النفسية المؤسسة هي نفسها على تشكيل النماذج (ترميز عمليات الركيزة). تتألف نظرية الإشارة من نظرية موضع الإشارات ومن نظرية علاقاتها (فصل ٢/٥، ج).

(١) يمكن، في العلاقة الحقيقة، أن تستخدم أيضًا، في الموضع المركزي للإشارة، مفاهيمُ الشكل أو النموذج، حتى التقنين (تقنيات الاتصال المرمّزة، مثل تعديل السعة والذبذبة)

(٢) جميع الإشارات بحاجة إلى قاعدة إشارية، مثل الموضوع الذي تشير إليه، أو إلى عملية ركيزة كالعملية العصبية، التي تعتبر الإشارات هي التقنين والصورة النموذج لها.

(٣) تمثل الدلالة «معنى» ما أشير إليه أو، في حالة الدلالة النفسية، التجربة المعيشة والسلوك كما تمثل الصورة النفسية الوثيقة الصلة بالعالم الخارجي.

(٤) لا يمكن استخدام الإشارات أو النماذج إلا إذا كانت مغترفة من خزان من النماذج (مثل: اللغة، رقعة من الذبذبات القابلة للتحولات)، اي عندما تكون تغيّرية الإشارة مضمونة بالنسبة إلى السلوك الإعلامي.

(٥) الإشارات هي، دائمًا، وسائط، بين الناس، بين مرسل ومستقبل، بين مركزين متفاعلين. هذا فقط ما يكوِّن وظيفتها (وبدون ذلك يكون أساس الإشارة ودلالتها متحدين متلازمين).

(٦) تبدأ نظرية العلاقات بالسينية، التي تُرسي العلاقة الموضوعية للإشارات والنماذج بقاعدتها (قابلية التبادل).

(٧) يوضح علم التراكيب العلاقة بين النماذج ومخزونها (رصيدها)، وبتعبير آخر، كلما كان هذا المخزون كبيرًا بمقدار ذلك يكون التعبير عن الأشياء (المضمون «الممكن» للإعلام).
(٨) تكيف البراغماتية (دراسة الدوالّ الماثلة للعيان) حقل العلاقات هذا بطريقة ملموسة وإفرادية، أي تبعًا للطاقة الأدائية للمرسلات والمستقبلات.

(٩) وأخيرًا، بتفحص علم المعاني «حرية» الدلالات ما وراء التعديلات الخاصة بالاتصال والاعلام والاتفاق (= التوافقات) والغاية (الأهداف النهائية)، لأن الدلالات أو النماذج يمكن أن تشحن، كيفيًا (وبلا حدود)، بالدلالات.

نظرية البيئة: تحديد وظيفي للبيئة. يُنظر إلى البيئة، في علاقتها بالإنسان، باعتبار ثلاثة أوجه.

(١) يوجّه انتباه متزايد، منذ ما وضع **و. هلپاخ** علم النفس الجغرافي، إلى الآثار الممارسة على الإنسان من قبل العوامل المناخية الأحيائية وخصوصيات المناظر الطبيعية وعلم البيئة. وما لا يقبل الجدل أن تأثير النور يفعل حتى في الحالة النفسية. وتلك إشكالية ذلك الجزء من نظرية البيئة الذي يتيح تحديد الظواهر التي تنبعث آثارُ البيئة انطلاقًا منها. تنشأ الصعوبات خاصة من أن آثار البيئة تفعل فعلها أكثر الأحيان بطريقة لا واعية.

(٢) وفضلًا عن ذلك، فإن البيئة هي حقل النشاط الأول بالنسبة إلى الإنسان. فعلى نظرية البيئة، إذًا، أن تحاول التمييز، هنا، بين الوظائف المختلفة: البيئة كإمكانية أن يتمثّل الإنسان نفسه بها او يتكيّف معها.

(٣) ولما كان الإنسان والبيئة لا يرتبط أحدهما بالآخر بطريقة مشتركة، فإن جزءًا ثالثًا من علم نفس البيئة يعمل على إبراز شبكات قائمة بين الإنسان والبيئة على أنها «علم نفس المكان». يشمل مفهوم علم نفس المكان جميع تفاعلات البيئة بالإنسان، تلك التفاعلات التي تساعد الإنسان على الاحتفاظ بصحته العقلية.

يكون تفاعل الإنسان والطبيعة، بسبب استعدادات التكيف القصوى لدى الإنسان، في المناطق القطبية او الاستوائية مثلًا، أقل بروزًا، مع كونه موجودًا. يكمن أهم موضوع بحث لعلم نفس البيئة في هذه الأطر التي تحيط بالإنسان على صعيدين فردي وجماعي.

نظرية الجماهير: صياغة فرضيات ونتائج اختبارات تعني ردود الفعل، النظامية إذا امكن، لدى جماهير الشعب. كان الرأي الغالب، في البدء، ان الطبقات الشعبية هي «مجموعة، لا بنية لها، من الناس غير المفرّدين، المغفلين العاجزين عن القرار»، يمكن أن يثير ردودَ فعلهم اللاإرادية أيُّ نمطٍ مناسب من السيطرة السياسية (مثل القطيع الانتخابي)، وينزع بشكل عام إلى اتحداد ثقافي. ومنذ قليل طغى رأي معاكس تجري بموجبه بين الجماهير عمليات نظامية وديناميّة تؤدي إلى ردود فعل مختلفة نسبيًا، مثل السلوك الانتخابي.

نميز، في الجماهير، بين ظروف الجماهير، أي الظروف التي تنفَعل بها الجماهير، ونزعات الجماهير، أي اتجاهات السلوك المعممة التي تبرز بينها.

ففي الحالة الأولى، تتحول بعض الخصائص إلى دوافع مميزة ذات أهمية خاصة: نمط تكوين الجماهير (جماهير حاضرة، وسيطة وعند الاقتضاء وسيطة حاضرة)، الاستقطاب (إذا وجد «حزب مناوئ» وما هو)، التمركز (الظروف الإقليمية لكي تتمكن أهواء الجماهير من الانفجار)، النقاط المضمونية الساخنة (التي بها ترتبط ردود الفعل العاطفية).

تعني نزعات الجمالهير، بالدرجة الأولى، توحيد الخط التوجيهي بتكييف ردود فعل فردية: التباعد ظاهرة هامة تعبر عن تحفيز سلبي (ثورة على تقييد الحرية) كامن في جميع أفراد الشعب، كمحاولة جزئية للتخلص من سيطرة ما؛ تسهل عملية المساواة، من جديد، محاولات المفاضلة بين بعض فئات الشعب استنادًا إلى نمط تكون الشعب (في الثورات المسلحة، مثلًا)؛ تمثل هذه الظاهرة البارزة إعدادًا رمزيًا للجماهير بهدف تأكيد أوضح لتطلعاتها (اتجاهات نموذجية لذوق العصر). وأخيرًا، فإن تَعزيز سلطة الجماهير يجعل المشاركين المُغْفَلين قادرين على أعمال (دون مسؤولية فردية) لا تتوفر لهم كأشخاص أو جماعات إفرادية. وإلى جانب ردود الفعل البارزة هذه، أمزجة متجانسة كامنة بإمكانها أن تظل جاهزة لمدة طويلة قبل أن تنفجر في ردود فعل جماهيرية. وعلى سبيل المثال، يمكن أن تتطور أشكال من الذل المستكين الكامن أو من العدوانية الخبيثة، أو حتى من مزيج خطر غير معقول من كليهما بالرغم من تنافرهما، ينفجر حينذاك ثوراتٍ جماهيرية مفاجئة دون سبب ظاهر مبرِّر.

نظرية القياس: قسم نظري من المنهجية يهتم بإمكانية تكميم العمليات النفسية وقياسها. تستثنى العمليات النفسية، بسبب لا ماديتها، عمومًا، من القياس المباشر (الأساسي). فالقياس غير المباشر هو ما يجب أن يحل محله إذا أردنا أن نسن قوانين ونصوغ شرعية يمكن التحقق منها. من هنا تُستنتج ثلاث مسائل مهمة.

(١) تتطلّب التمثلية أن ترمِّمَ القيمُ العدديّة الموضوعة العمليّاتِ النفسية دون أن تختصرها وأن تشرِّعَ الأسس الرياضية، (تأليف، انتقالية...)

(٢) يُحيل استخدامُ المقاييس إلى مختلف الدرجات النوعية لسلاسل القياسات الممارسة: يتعلق الأمر بترقيمات بسيطة أو ببنى رياضية حقيقية يكون لإعدادها معنى.

(٣) تستطيع التكميمات، بوسائل تحويل خاصة (كالتحليل العاملي)، أن تقوم بوظيفتها العلمية الحقيقية بمساهمتها في العرض المضغوط لتنوع غير قابل للقياس.

نظرية النظم: نظرية الاتصالات الشبكية التي تعني الأحداث والظواهر والخصائص الشخصية. تطورت نظرية النظم بموازاة تكنولوجيا الكمپيوتر وعلم الضبط (السيبرنتيكا) كعلم

توجيه النظم المنظِّمة ذاتيًا. تتفاعل النظم البالغة التعقيد بطريقة متعددة الأشكال جدًا وشاملة ومتنوعة إلى درجة أنه لا يمكن حصرها إلا بأسلوب تفكير من النمط السببي. لا تتعرف أساليب التفكير النظامي الجديدة إلى هذه الشروط ولا تأخذ بالنظم الفائقة التعقيد (مثل ردود الفعل الإنسانية، أسباب الاضطرابات النفسية وسلوك الجماهير الاتصالي) مهما كانت بسيطة. لإنصاف هذا المطلب الجديد الملحّ، من الضروري تحديد (١) صفات نُظُمية و(٢) أشكال أخرى من مقاربة منهجية مع النظم التي لم تعد النماذج الخطيّة سبب – نتيجة تكفيها هنا.
(١) يجب أن تصف الخصائص النظامية حالة شبكة النظام المعنيّ وتستنتج درجة النشاط النظامي التي تنشأ عنها. النظام الأدنى هو تكوين وحدات متزامنة، متضامّة وغير متصلة. الدرجة العليا هي درجة المركم («التركيب») مع خلايا متصلة بشكل متوازٍ ولكنها تعمل لنفسها. ولا تتصل نتائجها بعضها ببعض إلا فيما بعد. الدرجة الثالثة هي البنية («الشبكة الجزئية») التي عرفت وظائف دائرية وعلاقات متعددة بإسهام شركاء قابلة للتبادل. رابعًا، الأشكال (الجشطلت) هي جُمَل «إضافية» ليست أعمالها الفردية مستقلة ولا تستطيع تفسير الكل الذي يتجاوزها. وبكلمة أخيرة، إن النظم الفوقية هي دينامية ذاتية بمعنى أنها تستمر في حركتها تلقائيًا، والنشاطات المعزولة تتضمن درجة من الاتصال مرتفعة ما يجعل النظام الفوقي كثيفًا وقليل الاستجابة لتأثيرات خارجية موجَّهة.
(٢) ومن الضروري، لوصف نظم فوقية كهذه، استخدام نظرية تنسيق النظم الارتجاعية، منها تمثيل مصور لردود فعل كتلية (مقياسية). وبتعابير نظرية الفعل، تنشئ تقنيات التصميم الشبكي استراتيجيات بواسطة الكمبيوتر تتوصل بها إلى توجيه النظم الفوقية.

الهوية: ميزة عظمى لنمو الشخصية، بها يصبح الفرد شخصًا فريدًا (اكتشاف الذات) وفريدًا أيضًا على المستوى النفسي. تعتبر هذه العملية التي تمتد على مدى الحياة وكأنها تتكون على مراحل (**لوفِنْغر**) وليس باستمرارية مائعة. الهدف هو وحدة الذات طبقًا لجميع معايير الأنا المنتظرة. يفترضُ هذا الترسيخ الواعي أو اللاواعي للتطلعات تمثلاتٍ خاصة للأهداف تتغير تغيرًا عظيمًا من إنسان إلى آخر:
(أ) تصور «ما هو متوجب لنا» (مستوى توق الذات).
(ب) معرفة الأوضاع الضرورية لذلك (الحكم على الذات).
(ج) الإسهام الشخصي الفعال الذي يراد تقديمه (مبادرة ذاتية) و.
(د) تفهم ما تم تحقيقه (تفسير ذاتي).
تدعى العملية، بحد ذاتها، تماهيًا وهي، بذلك، موزعة إلى مجالات خصائص مختلفة. قد يحدث التماهي على طريقة اختلاف الانفعال (**شيلر**) كما يحدث على الطريقة الجابذة (**والون**): ففي الحالة الأولى، يمتثل الشخص لآخر أو لجماعة تماهٍ (إسقاط)، وفي الثانية يتوحد بهم (استدماج). إن هذا التمثل هو أكثر من محاكاة. فهو يفترض تطابقًا، تعاطفًا (لذة)، وضوحًا (تأكيد قيمة ما تمثل) وحساسية (تملكًا سهلًا لموضوعات التماهي).
إن موضوعات التماهي، على صعيد المضمون، هي أشخاص كما هي جماعات من الأشخاص، وهي أيضًا (مرفوضة من قبل بعض المنظرين) موضوعات (تعاويذ، أملاك، رموز)، وظائف (أوضاع مهنية)، مؤسسات (جمعيات، مثلًا) وأشياء مثالية (مثل: تصورات العالم، انتماء قومي). والتماهيات، كونها استدخالات، هي استبطان تصورات (ضوابط، توقعات..)، وكونها اندماجات، فهي تجسدات غدت جزءًا متكاملًا مع الذات. فالتماهيات هي، بالنتيجة، صِلات عقلية كما هي صلات عاطفية. ويمكنها كذلك أن تتناول أوجهًا جزئية وصفات نوعية أو تشتمل على خصائص من مادّة التماهي (التماهي الجزئي)، أو على شخص يُتَّخذ كنموذج، أو ايضًا على نظم بكاملها من الأشياء المعتبرة متتالية (تماهٍ إجمالي). تبرز أزمات الهوية في مراحل حرجة من الحياة، عندما لا تبدو التجربة المعيشة المسبقة قابلة للاستعمال وعندما لا يتم التحول الضروري للشكل الجديد للهوية.

وسائل الإعلام: ركيزة الاتصال. عملها ترميز نقل الاتصالات بالمعنى الأوسع. إن «ركائز متوسطة» كهذه تكون أشخاصًا أو ركائز تقنية أو مزيجًا من الاثنين (مثل المعدِّل التلفزيوني). يفهم بترميز النقل خمس مجموعات من المميزات الخاصة بوسائل الإعلام.
(١) للنقل الوسيط وسائل يمكن ترميزها: اللغة، الكتابة، الرمز، الصورة، العبارة والعمل. الوسائل تنقل المدلولات.
(٢) يُميّز، في طرق الإعلام أو أقنيته، طرق طبيعية (العين، اليد...) وتقنية (راديو، هاتف...) وطرق إعلام فردية (تقرير مباشر) وطرق الإعلام الجماهيرية (مدخل مُقْفَل).
(٣) يسهم المشاركون في الإعلام بطرق مختلفة: منتجين، مستهلكين، مختبرين، مالكين...
(٤) تتعلق المضامين الإعلامية بوسائل الإعلام: تتغير شروط الإعلام تبعًا لوسيلة الإعلام المستخدمة.
(٥) تخضع آثار وسائل الإعلام للوسائل، للأقنية، للمسهمين، للمحتويات المنصوص عنها سابقًا وأخيرًا للوظائف المستهدفة والتوقعات المبتغاة.
يمثل البحث في الوسائل الشخصية والتقنية (مثل مصداقيتها الخاصة) قاعدة لفهم تغيرات ظروف الحياة الحديثة.

الوعي: حالة نفسية يَقِظة تصحبها مجموعة من مزايا الإحضار التي ليست بالضرورة مترابطة في جميع الحالات. أول من استخدم هذا المفهوم كان **كريستيان ڤولف** سنة ١٧٢٠ وكان **كانْط** يفهم بذلك علاقة بحتة بالذات الفردية («أفكر»). لم ينجح تمييزه بين الوعي الفعال للفاهمة (ملكة عقلية لبناء محتوى المعرفة) والوعي الفعال للعقل (الشكل الشامل والأسمى لمعرفة العالم)، لم ينجح في فرض نفسه في علم النفس. يستخدم مفهوم الوعي، في فروع أخرى من علم النفس،

في معانٍ مشتقة دقيقة. ويتحاشاه علم النفس المتأثر بالسلوكية. ويستخدم في علم النفس الظاهراتي لتحديد الأفق المعيش النوعي الذي تتموضع في وسطه الذات ومحتويات دقيقة أيضًا. ويستعمل في علم النفس المعرفي الأحدث للإحاطة بالوجود المعرفي. وفي علم النفس الاجتماعي يستخدم المفهوم لتقييم التمركز الخاص في صميم البناء الاجتماعي. بهذا يكشف عن دلالة ثابتة للمفهوم. والوعي هو، عندئذ، ظهور موقف مواجه للذات وللآخرين ومواجه لأحداث العالم أيضًا. يمثل الوعي، بالنسبة إلى علم النفس المتأثر بعلم الضبط (السيبرننتيكا)، تشابك النظم الجزئية (من بينها الوعي الجسدي، إدراك المكان والزمان، الذكرى....) المفسّرة بتعابير فيزيولوجية عصبية تؤدي، جزئيًا، أو مجموعة، إلى تعزيز إعداد الإعلام معقّبة كل مرة درجاتٍ من الوعي (درجات انتباه) متميزة تدريجًا. وضع هذا المفهوم، منذ قليل، على علاقة «بوعي الحياة اليومية». ويفهم بذلك الفكرة المتوسطة الشعبية التي تعني أشياء الحياة وتحديدها الرائج. لا يغطّي المفهوم المقابل (اللاوعي)، تمامًا، الدلالة المقابلة، لكنه يستخدم بمعنى أوسع ليصف جميع الحركات النفسية التي ليست مُحْضَرَة، فعليًا، بكاملها. هناك، طبقًا لذلك، أنماط مختلفة من اضطراب الوعي (على المدى القصير: فقدان الوعي أو الذاكرة؛ مُضَلِّل بتأثيرات أقوى: اضطراب قصير في الانتباه سببه كثرة المثيرات؛ إخماد جزئي: غياب؛ أشكال اصطناعية منها في التنويم الإيحائي: النعاس، ضعف الاتجاه، السرنام (الروبصة)؛ لا وعي عميق: الغيبوبة (الكوما).

دليل أسماء العلم

دليل المواد المعالجة في متن الكتاب

* تشير العلامة (*) إلى أن الكلمة معالجة بإسهاب في الملحق.

يَعتبرُ علمُ النَّفْسِ الإنسانَ وَحدةً مكوَّنةً من تبايُناتٍ وتناقُضات،
وهو علمٌ يتجزَّأُ إلى مادَّتينِ رئيستَينِ على صورةِ حقلِ
اختبارِهِ وتجاربِهِ:
مادَّةِ عِلمِ النَّفْسِ الإدراكيِّ ونشاطاتِهِ الفكريَّة
مادَّةِ علمِ النَّفْسِ العياديِّ ومسالكِهِ الوِجدانيَّة

لأوَّلِ مرَّةٍ في المكتبةِ العربيَّةِ أطلسٌ جامِعٌ لمُخْتَلِفِ
اختصاصاتِ علمِ النَّفْس.

من مضمونِ الكتاب:
المصطلحاتُ (مسردٌ أبجديٌّ لبعضِ مفرداتِ علمِ النَّفْس)،
تاريخُ النّظريّات، منهجيَّةُ البحث، علمُ الإحصاء، علمُ النَّفْسِ
العصبيِّ والإدراكِ والذّاكرةِ والتَّعلُّمِ والحفزِ والمعرفةِ
والاتّصالِ والانفعالِ وعلمِ نفسِ الشَّخصيَّةِ والتَّطوُّر والمجتمعِ
والجماهيرِ والبيئةِ والحيوانِ والتَّشخيصِ النَّفسيِّ
وعلمِ النَّفسِ العياديِّ والتَّطبيقيِّ وعلمِ نفسِ الثَّقافة.

مع ملحقٍ ودليلٍ بأسماءِ العلمِ
ودليلٍ بالموادِّ المعالجةِ في متنِ الكتاب.


ISBN 9953-17-006-1

